

المستطرف

في كل فنٍّ مستظرف

تأليف

شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي

تحقيق

محمد خير طعمه الحلبي

دار المعرفة

بيروت - لبنان

منتدى اقراء الثقافى

www.iqra.forumarabia.com

المُسْتَطَرَفَاتُ
فِي كُلِّ فَنٍّ مُسْتَظَرَفٌ

المُسْتَطَرَفُ فِي كُلِّ مُسْتَطَرَفٍ

تأليف
شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي
المتوفى ٨٥٠ هـ

تقيق
محمد خير طعمه الحلبي

دار المعرفة
بيروت - لبنان

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية
محفوظة لدار المعرفة بيروت - لبنان

Copyright© All rights reserved
Exclusive rights by Dar Al-Marefah
Beirut - Lebanon

ISBN 9953-446-74-1

الطبعة الخامسة
1429 هـ - 2008 م

دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع
DAR AL-MAREFAH
Printing & Publishing



جسر المطار شارع البرجawi • هاتف: ٨٢٤٣٣٢-٨٢٤٣٠١
فاكس: ٨٢٥٦١٤ • ص.ب: ٧٨٧٦ - بيروت - لبنان
Airport Bridge Birjawi Str. • Tel: 834301-834332
Fax: 835614 • P.O.Box: 7876 Beirut - Lebanon
Email: info@marefah.com • www.marefah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المحقق

الحمد لله حمداً كثيراً كما أمر، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير البشر، وعلى آله وصحبه الميامين
الغرر.

أما بعد: فإن الكتاب الذي بين أيدينا وهو كتاب (المستطرف) لشهاب الدين محمد بن أحمد الأبهري من أمتع
وأظرف الكتب الأدبية والدينية والتاريخية... جمع فيه مؤلفه كل ما أسعفته به ف فكرته من نواذر الأخبار والأشعار
والخطب والكلام الحسن، وقد وصفه حاجي خليفة في كتابه (كشف الظنون) خير وصف فقال:

«وهو يشتمل على كل فن ظريف وفيه الاستدلال بآيات من القرآن، وأحاديث صحيحة، وحكايات حسنة عن
الأخبار، ونقل فيه كثيراً مما أودعه الزمخشري في ربيع الأبرار، وابن عبد ربه في العقد، وفيه لطائف عديدة من
مختبات الكتب المفيدة، وأودعه من الأمثال والنواذر الهزلية والغرائب والدقائق والأشعار والرفائق وجعله مشتملاً على
أبواب عدتها أربعة وثمانون»^(١).

ولما كان هذا الكتاب على هذا القدر من الفائدة والأهمية، رأيت أن أتأوله بالاعتناء والتحقيق. فكان عملي
وفق الخطة التالية:

- ١ - قابلت الكتاب على عدة نسخ مطبوعة فوجدت الكثير من النقص فأبدته.
 - ٢ - ضبطت النص ضبطاً تاماً ووضعت علامات الترميم ليسهل على القارئ الاستفادة منه.
 - ٣ - شرحت الألفاظ الغريبة.
 - ٤ - خرّجت الآيات القرآنية ووضعتها بين قوسين مزهرين، هكذا: ﴿...﴾.
 - ٥ - نسبت بعض الآيات الشعرية إلى قائلها.
 - ٦ - علّقت على بعض المسائل التي رأيت أنها تحتاج إلى تعليق.
- واتماماً للفائدة رأيت أن أقدم للقراء الأعزاء نبذة يسيرة عن المؤلف. والله الهادي إلى سبيل الرشاد.

المحقق أحمد طعمه حلبي

الأبشيهي (١)

شهاب الدين محمد بن أحمد، أبو الفتح الأبشيهي المحلي الشافعي، واعظ أديب من أدباء مصر في القرن التاسع الهجري. ولد في أبشوية وهي قرية تقع في غربي مصر وإليها يتسب، وكانت ولادته سنة ٧٩٠ هـ. وانتقل إلى القاهرة، وحضر دروس الجلال البليقيني، وولي خطابة بلده. وحج سنة ٨١٤ هـ، وله كتاب (أطواق الأزهار على صدور الأنهار). توفي سنة ٨٥٠ هـ.

(١) اعتمدنا في ترجمته على: معجم المؤلفين لكحالة (٩ : ٢٢). والضوء اللامع (٧ : ١٠٩) وكشف الظنون: ١٦٧٤. والأعلام للزركلي.

مقدمة المؤلف

الحمد لله الملك العظيم العليّ الكبير، الغني الحميد اللطيف الخبير، المنفرد بالعرز والبقاء، والإرادة والتدبير، الحيّ العليم الذي ليس كمثله شيء، هو السميع البصير. تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. أحمدُه حمد عبد معترف بالعجز والتقصير، وأشكره على ما أعان عليه من قصد، وسّر من عسير. وأشهد أن لا إله إلاّ وحده لا شريك له ولا مشير، ولا ظهير له ولا وزير. وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله البشير النذير، السراج المنير، المبعوث إلى كافة الخلق من غني وفقير، وأمور وأمير. صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه صلاة يفوز قائلها من الله بمغفرة وأجر كبير، وينجو بها في الآخرة من عذاب السعير. وحسبنا الله ونعم الوكيل، فنعم المولى ونعم النصير.

أما بعد: فقد رأيت جماعة من ذوي الهمم، جمعوا أشياء كثيرة من الآداب، والمواعظ، والحكم. وبسطوا مجلدات في التواريخ، والنوادر، والأخبار، والحكايات، واللطائف، ورفقوا الأشعار، وألفوا في ذلك كتباً كثيرة، فرد، كل منها بفرائد لم تكن في غيره من الكتب محصورة. فاستخرت الله تعالى وجمعت من مجموعها هذا المجموع اللطيف، وجعلته مشتملاً على كل فن ظريف، وسميته (المستطرف في كل فن مستظرف)، واستدللت فيه بآيات كثيرة من القرآن العظيم، وأحاديث صحيحة، من أحاديث النبي الكريم، وطرزته بحكايات حسنة عن الصالحين الأخيار، ونقلت فيه كثيراً مما أودعه الزمخشري في كتابه (ربيع الأبرار)، وكثيراً مما نقله ابن عبد ربه في كتابه (العقد الفريد)، ورجوت أن يجد مطالعه فيه كل ما يقصد ويريد، وجمعت فيه لطائف وظرائف عديدة، من متخبات الكتب النفيسة المفيدة، وأودعته من الأحاديث النبوية. والأمثال الشعرية، والألغاز اللغوية، والحكايات الجديّة، والنوادر الهزلية، ومن الغرائب والدقائق، والأشعار والرفائق، ما تشف^(١) بذكره الأسماع وتقر برؤيته العيون، ويشرح بمطالعة كل قلب محزون.

من كل معنى يكاد الميت يفهمه حُناً ويعشقه القرطاسُ والقلمُ

وجعلته يشتمل على أربعة وثمانين باباً، من أحسن الفنون، متوّجةً بألغاز كأنها الدرّ المكنون كما قال بعضهم شعراً في المعنى:

ففي كل باب منه دُرٌّ مؤلفٌ كنظم عقود زينتها الجواهرُ
فإن نظم العقد الذي فيه جوهرٌ على غير تأليف فما الدرُّ فاخرُ

وضمته كل لطيفة، ونظمتها بكل ظريفة، وقرنتُ الأصول في بالفصول، ورجوت أن يتيسر لي ما رُمْتُ من الأصول، وجعلتُ أبوابه مقدمة، وفصلتها في مواضعها مرتبة منظمة، ليقصد الطالب إلى كل باب منها عند الاحتياج

(١) تشف بذكره الأسماع: تطرب له وترتاح إليه.

إليه، ويعرف مكانه بالاستدلال عليه، فيجد كل معنى في بابه إن شاء الله تعالى. والله المسؤول في تيسير المطلوب. وأن يلهم الناظر فيه ستر ما يراه من خلل وعيوب. إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير. وهذه فهرست الكتاب والله سبحانه المهون للمصعب.

الباب الأول: في مباني الإسلام، وفيه خمسة فصول.

الباب الثاني: في العقل، والذكاء، والحق، والذم، وغير ذلك.

الباب الثالث: في القرآن العظيم، وفضله، وحرمة، وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم، والأجر الجسيم.

الباب الرابع: في العلم، والأدب، وفضل العالم والمتعلم.

الباب الخامس: في الآداب، والحكم، وما أشبه ذلك.

الباب السادس: في الأمثال السائرة، وفيه فصول.

الباب السابع: في البيان، والبلاغة، والفصاحة، وذكر الفحصاء، من الرجال، والنساء، وفيه فصول.

الباب الثامن: في الأجوبة المسكنة، والمستحسنة، ورشقات اللسان، وما جرى مجرى ذلك.

الباب التاسع: في ذكر الخطب، والخطباء، والشعراء، وسرقاتهم، وكبوات الجياد، وهفوات الأمجاد.

الباب العاشر: في التوكل على الله تعالى، والرضا بما قسم، والقناعة، وذم الحرص، والطمع وما أشبه ذلك، وفيه فصول.

الباب الحادي عشر: في المشورة، والنصيحة، والتجارب، والنظر في العواقب.

الباب الثاني عشر: في الوصايا الحسنة، والمواظب المستحسنة، وما أشبه ذلك.

الباب الثالث عشر: في الصمت، وصون اللسان، والنهي عن الغيبة، والسعي بالنميمة، ومدح العزلة، وذم الشهرة، وفيه فصول.

الباب الرابع عشر: في الملك، والسلطان، وطاعة ولاة أمور الإسلام، وما يجب للسلطان على الرعية، وما يجب لهم عليه.

الباب الخامس عشر: فيما يجب على من صحب السلطان، والتحذير من صحبته.

الباب السادس عشر: في الوزراء وصفاتهم، وأحوالهم، وما أشبه ذلك.

الباب السابع عشر: في ذكر الحجاب، والولاية، وما فيها من الفرر، والخطر.

الباب الثامن عشر: فيما جاء في القضاء وذكر القضاة، وقبول الرشوة، والهدية على الحكم، وما يتعلق بالديون، وذكر القصاص، والمتصوفية، وفيه فصول.

الباب التاسع عشر: في العدل، والإحسان، والإنصاف وغير ذلك.

الباب العشرون: في الظلم وشؤمه، وسوء عواقبه، وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك.

الباب الحادي والعشرون: في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال، وسيرة السلطان في استجابة الخراج، وأحكام أهل الذمة، وفيه فصلان.

الباب الثاني والعشرون: في اصطناع المعروف، وإغاثة الملهوف، وقضاء حوائج المسلمين، وإدخال السرور عليهم.

الباب الثالث والعشرون: في محاسن الأخلاق ومساوئها.

الباب الرابع والعشرون: في حسن المعاشرة والمودة، والأخوة، والزيارة، وما أشبه ذلك.

الباب الخامس والعشرون: في الشفقة على خلق الله تعالى، والرحمة بهم، وفضل الشفاعة، وإصلاح ذات البين وفيه فصلان.

الباب السادس والعشرون: في الحياء، والتواضع ولين الجانب، وخفض الجناح، وفيه فصلان.

الباب السابع والعشرون: في العجب، والكبر، والخيلاء وما أشبه ذلك.

الباب الثامن والعشرون: في الفخر، والمفاخرة، والتفاضل، والتفاوت.

الباب التاسع والعشرون: في الشرف والسؤدد، وعلو الهمة.

الباب الثلاثون: في الخير، والصلاح، وذكر السادة الصحابة، وذكر الأولياء، والصالحين رضي الله عنهم أجمعين.

الباب الحادي والثلاثون: في مناقب الصالحين، وكرامات الأولياء رضي الله عنهم.

الباب الثاني والثلاثون: في ذكر الأشرار، والفجار وما يرتكبون من الفواحش، والوقاحة، والسفاهة.

الباب الثالث والثلاثون: في الجود، والسخاء، والكرم، ومكارم الأخلاق، واصطناع المعروف، وذكر الأمجاد، وأحاديث الأجواد.

الباب الرابع والثلاثون: في البخل، والشح، وذكر البخلاء، وأخبارهم وما جاء عنهم.

الباب الخامس والثلاثون: في الطعام، وآدابه والضيافة، وآداب المضيف، والضيف، وأخبار الأكلة، وما جاء عنهم، وغير ذلك.

الباب السادس والثلاثون: في العفو، والحلم، والصفح، وكظم الغيظ، والاعتذار، وقبول المعذرة، والعتاب، وما أشبه ذلك.

الباب السابع والثلاثون: في الوفاء بالوعد، وحسن العهد، ورعاية اللمم.

الباب الثامن والثلاثون: في كتمان السر وتحصينه، وذم إفشائه.

الباب التاسع والثلاثون: في الغدر، والخيانة، والسرقة، والعداوة، والبغضاء، والتخسد، وفيه فصول.

الباب الأربعون: في الشجاعة وثمرتها، والحروب وتديرها، وفضل الجهاد، وشدة البأس، والتحريض على القتال، وفيه فصول.

الباب الحادي والأربعون: في ذكر أسماء الشجعان، وذكر الأبطال وطبقاتهم، وأخبارهم، وذكر الجبناء وأخبارهم، وذم الجبن.

الباب الثاني والأربعون: في المدح، والثناء وشكر النعمة، والمكافأة، وفيه فصول.

الباب الثالث والأربعون: في الهجاء، ومقدماته.

الباب الرابع والأربعون: في الصدق، والكذب، وفيه فصلان.

الباب الخامس والأربعون: في بر الوالدين، وذم العقوق، وذكر الأولاد، وما يجب لهم وعليهم، وصلة الرحم والقربات، وذكر الأنساب، وفيه فصول.

الباب السادس والأربعون: في الخلق، وصفاتهم، وأحوالهم، وذكر الحسن، والقبح، والطول، والقصر، والألوان، واللباس، وما أشبه ذلك.

الباب السابع والأربعون: في ذكر الخُلِي، والمصوغ، والطبيب والتطبيب، وما جاء في التختّم.

الباب الثامن والأربعون: في الشباب، والشيب، والصحة، والعافية، وأخبار المعمرين، وما أشبه ذلك، وفيه فصول.

الباب التاسع والأربعون: في الأسماء، والكنى، والألقاب، وما استحسّن منها.

الباب الخمسون: في الأسفار، والاغتراب، وما قيل في الوداع، والفراق، والحث على ترك الإقامة بدار الهوان، وحب الوطن، والحنين إلى الأوطان.

الباب الحادي والخمسون: في ذكر الغنى، وحب المال، والافتخار بجمعه.

الباب الثاني والخمسون: في ذكر الفقر، ومدحه.

الباب الثالث والخمسون: في ذكر التلطف، في السؤال، وذكر من سُئل فجاد.

الباب الرابع والخمسون: في ذكر الهدايا، والتحف، وما أشبه ذلك.

الباب الخامس والخمسون: في العمل، والكسب، والصناعات، والحرب، والعجز، والتواني، وما أشبه ذلك.

الباب السادس والخمسون: في شكوى الزمان، وانقلابه بأهله، والصبر على المكاره، والتسلي عن نوائب الدهر، وفيه ثلاثة فصول.

الباب السابع والخمسون: فيما جاء في اليسر، بعد العسر، والفرج بعد الشدة، والسرور بعد الحزن، ونحو ذلك.

الباب الثامن والخمسون: في ذكر العيد، والاماء، والخدم، وفيه فصلان.

الباب التاسع والخمسون: في أخبار العرب، وذكر غرائب عوائدهم، وعجائب أمرهم.

الباب الستون: في الكهانة، والقيافة والزجر، والعرافة والقأل، والطيرة، والفراسة، والنوم، والرقيا.

الباب الحادي والستون: في الحيل، والخدائع المتصلة بها إلى بلوغ المقاصد، والتيقظ، والتبصر، ونحو ذلك.

الباب الثاني والستون: في ذكر الدواب، والوحوش، والطيور، والحشرات، مرتباً على حروف المعجم.

الباب الثالث والستون: في ذكر من عجائب المخلوقات، وصفاتهم.

الباب الرابع والستون: في خلق الجن وصفاتهم.

الباب الخامس والستون: في ذكر البحار وما فيها من العجائب، وذكر الأنهار، والآبار وفيه فصول.

الباب السادس والستون: في ذكر عجائب الأرض، وما فيها من الجبال، والبلدان وغرائب البنيان، وفيه فصول.

الباب السابع والستون: في ذكر المعادن، والأحجار، وخواصها.

الباب الثامن والستون: في ذكر الأصوات، والألحان، وذكر الغناء، واختلاف الناس، ومن كرهه واستحسنه.

الباب التاسع والستون: في ذكر المغنين، والمطربين وأخبارهم، ونوادر الجلساء في مجالس الخلفاء.

الباب السبعون: في ذكر القينات، والأغاني.

الباب الحادي والسبعون: في ذكر العشق ومن يلي به، والافتخار به، والعفاف، وأخبار من مات بالعشق، وما

في معنى ذلك وفيه فصول.

الباب الثاني والسبعون: في ذكر رقائق الشعر، والموالي، والدوييت، وكان كان، والموشحات، والزجل،

والقومة، والألغاز، ومدح الأسماء، والصفات وفيه فصول.

الباب الثالث والسبعون: في ذكر النساء وصفاتهم، ونكاحهن، وطلاقهن، وما يمدح وما يذم من عشرتهم،

وفيه فصول.

الباب الرابع والسبعون: في ذم الخمر وتحريمها والنهي عنها.

الباب الخامس والسبعون: في المزاح، والنهي عنه. وما جاء في الترخيص فيه، والبسط، والتنعيم، وفيه فصول.

الباب السادس والسبعون: في النوادر، والحكايات، وفيه فصول.

الباب السابع والسبعون: في الدعاء وآدابه، وشروطه، وفيه فصول.

الباب الثامن والسبعون: في القضاء والقدر، وأحكامهما، والتوكل على الله تعالى.

الباب التاسع والسبعون: في التوبة وشروطها، والندم والاستغفار.

الباب الثمانون: في ذكر الأمراض والعلل، والطب، والدواء، من السنة، والعيادة وثوابها، وما أشبه ذلك، وفيه

فصول.

الباب الحادي والثمانون: في ذكر الموت وما يتصل به من القبر، وأحواله.

الباب الثاني والثمانون: في الصبر، والتأسي، والتعازي، والمراثي، ونحو ذلك، وفيه فصول.

الباب الثالث والثمانون: في ذكر الدنيا، وأحوالها، وتقلبها بأهلها، والزهد فيها ونحو ذلك.

الباب الرابع والثمانون: في فضل الصلاة على النبي ﷺ وهو آخر الأبواب ختمتها بالصلاة على سيد العباد أرجو بذلك شفاعته ﷺ يوم المعاد.

الباب الأول: في مباني الإسلام وفيه خمسة فصول

الفصل الأول: في الإخلاص لله تعالى والثناء عليه

وهو أن تعلم أن الله تعالى واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا نذ له، أبدي دائم، لا أول لوجوده، ولا آخر لأبديته، قديم لا يفنيه الأبد، ولا يغيره الأمد، بل هو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، متره عن الجسمية ليس كمثل شيء وهو فوق كل شيء، قوّيته لا تريد بعداً عن عبادته، وهو أقرب إلى العبيد من حبل الوريد، وهو على كل شيء شهيد، وهو معكم أينما كنتم، لا يشابه قربه قرب الأجسام، كما لا يشابه ذاته ذوات الأجرام، مثّره عن أن يحلّه زمان، مقلّس عن أن يحيط به مكان، تراه أبصار الأبرار، في دار القرار على ما دلت عليه الآيات والأخبار. حيّ قادر جبار قاهر لا يعتريه عجز ولا قصور، ولا تأخذه سنة^(١) ولا نوم، له الملك والملكوت والعزة والجبروت. خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وأجالهم، لا تحصى مقدراته، ولا تنهاى معلوماته، عالم بجميع المعلومات، لا يعزب^(٢) عنه مقال ذرة في الأرض ولا في السموات. يعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر، وخفيات السرائر، مريد للكائنات، مدير للحادثات، لا يجري في ملكه قليل ولا كثير، ولا جليل ولا حقير، خير أو شر، نفع أو ضرر إلا بقضائه وقدره وحكمه، ومشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فهو المبدئ المعيد الفاعل لما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا مهرب لعبد من معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته، إلا بمحبته وإرادته. لو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين، على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته لعجزوا، سميع بصير، متكلم بكلام لا يشبه كلام خلقه، وكل ما سواه سبحانه وتعالى فهو حادث، أوجده بقدرته وما من حركة وسكون إلا وله في ذلك حكمة دالة على وحدانيته. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) الآية، وقال أبو العتاهية:

فيا عجباً كيف يعصى الإله	هـ أم كيف يجعده الجاحد
وفي كل شيء له آية	تدلّ على أنه الواحد
والله في كل تحريك	وتسكين في السورى شاهد

وقال غيره:

- (١) سنة: فتر يسبق النوم.
- (٢) يعزب: يغيب ويبعد.
- (٣) سورة: البقرة، الآية: ١٦٤.

كل ما ترتقي إليه بوهم من جلال وقدره وسناء
فالذي أبدع البرية^(١) أعلى منه سبحانه مبدع الأشياء

وقال علي رضي الله عنه في بعض وصايا لولده: اعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأنتك رسله ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد لا يضاده في ملكه أحد. وعنه عليه الصلاة والسلام كل ما يتصور في الأذهان، فإله سبحانه بخلافه. وقال لبيد بن ربيعة:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وكل ابن أنثى لو تطاول عمره إلى الغاية القصوى فلقبر آيل
وكل أناس سوف تدخل بينهم دويبة^(٢) تصفر منها الأنامل
وكل امرئ يوماً سيُعرف سعيه إذا حُصِّلَتْ عند الإله الحصائل

وروي أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر: إن أشعر كلمة قالتها العرب: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

ثم بعد هذا الاعتقاد، الإقرار بالشهادة بأن محمداً رسول الله بعثه برسالاته إلى الخلق كافة، وجعله خاتم الأنبياء، ونسخ بشريته الشرائع، وجعله سيد البشر والشفيع المشفع في المحشر، وأوجب على الخلق تصديقه فيما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة، فلا يصح إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت من سؤال منكر ونكير وهما ملكان من ملائكة الله تعالى يسألان العبد في قبره عن التوحيد والرسالة، ويقولان له: مَنْ ربك وما دينك ومَنْ نبيك؟ ويؤمن بعذاب القبر، وأنه حق، وأن الميزان حق، والصراف حق، والحساب حق، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الله تعالى يُدخل الجنة من يشاء بغير حساب، وهم المقربون، وأنه يُخرج عصاة الموحدين من النار، بعد الانتقام، حتى لا يبقى في جهنم مَنْ في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، ويؤمن بشفاعة العلماء، ثم بشفاعة الشهداء، وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، ويحسن الظن بجمعهم، على ما وردت به الأخبار، وشهدت به الآثار، فمن اعتقد جميع ذلك مؤمناً فهو من أهل الحق، والسنة، مُفَارِقٌ لعصابة الضلال، والبدعة. رزقنا الله الثبات على هذه العقيدة وجعلنا من أهلها، ووفقنا للدوام إلى الممات على التمسك والاعتصام بحبلها، إنه سميع مجيب، فهذه العقيدة قد اشتملت على أحد أركان الإسلام الخمسة قال رسول الله ﷺ: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً».

الفصل الثاني: في الصلاة وفضلها

قال الله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ

(١) البرية: الخلق.

(٢) دويبة: تصغير داهية وهي المصيبة.

(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٨.

وَأَتُوا الزَّكَاةَ^(١). وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا^(٢)﴾ واختلّفوا في اشتقاق اسم الصلاة مِنْهُ؟ فقيل هو من الدعاء، وتسمية الصلاة دعاءً معروفة في كلام العرب، فَسُمِّيَت الصلاة صلاة لما فيها من الدعاء، وقيل سميت بذلك من الرحمة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ^(٣)﴾ فهي من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن الناس دعاء، قال ﷺ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى، أَيِ أَرْحَمِهِمْ» وقيل سميت بذلك من الاستقامة، من قولهم: صليت العود على النار إذا قَوَّمْتَهُ.

والصلاة تقيم العبد على طاعة الله وخدمته، وتنهيه عن خلافه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ^(٤)﴾. وقيل لأنها صلة بين العبد وربّه، وعن رسول الله ﷺ قال: «علم الإيمان الصلاة، فَمَنْ فَرَّغَ لَهَا قَلْبَهُ، وحافظ عليها بحدودها فهو مؤمن». وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر: إن الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام، وما أكمل لله تعالى صلاة، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا يتم ركوعها، وسجودها وخشوعها، وتواضعه وإقباله على الله فيها. وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، فكانه لم يعرفنا ولم نعرفه». وقيل للحسن: ما بال المتهجدين^(٥) من أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: «لأنهم حلوا بالرحمن، فألبسهم نوراً من نوره» وقال بعضهم: «لا تفوت أحداً صلاة في جماعة إلا بذهب». وكانت رابعة العدوية تصلي في اليوم والليلة، ألف ركعة وتقول: والله ما أريد بها ثواباً، ولكن ليسر ذلك رسول الله ﷺ، ويقول للأنبياء عليهم الصلاة والسلام: «انظروا إلى امرأة من أمتي، هذا عملها في اليوم والليلة». وقال بعضهم: صليت خلف ذي النون المصري فلما أراد أن يكبر رفع يديه وقال: الله ثم بَهَتْ، وبقي كأنه جسد لا روح فيه إعظاماً لربه جل وعلا، ثم قال: الله أكبر فظننت أن قلبي انخلع من هيبته تكبيره. وقيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود كذب من ادّعى محبتي، وإذا جنّ عليه الليل نام عني، أليس كل محب يحب الخلوة بحبيبه؟ ولعبد الله بن المبارك رضي الله تعالى عنه:

إذا ما الليلُ أَظْلَمَ كابدوه فيسفرُ عنهم وهم ركوعُ
أطارَ الخوفُ نومَهُم فقاموا وأملُ الأمنِ في الدنيا هجوعُ

وكان سيدي الشيخ الإمام العلامة فتح الدين بن أمين الدين الحكم الحريري - رحمه الله - كثيراً ما يتمثل بهذه

الآيات:

يا أيها الراقِدُ كم ترقُدُ قم يا خبيبي قد دنا الموعدُ
وخذُ من الليلِ ولو ساعةً تحظى إذا ما هَجَعَ السُّرُودُ
مَنْ نَامَ حَتَّى يَقْضِيَ لَيْلَهُ لَمْ يُلْغِ الْمَنْزَلَ لَوْ يَجْهَدُ

(١) سورة: البقرة، الآية: ٤٣.

(٢) سورة: النساء، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة: الأحزاب، الآية: ٥٦.

(٤) سورة: العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٥) المتهجدين: المصلين ليلاً، وتأتي بمعنى النائمين وليس مراداً هنا.

وكان سيدي أويس القرني لا ينام ليله ويقول: ما بال الملائكة لا يفترون ونحن نفتر؟ وقال حذيفة رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. وقال هشام بن عروة: كان أبي يطيل المكتوبة ويقول هي رأس المال. وقال أبو الطفيل: سمعت أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يقول: يا أيها الناس قوموا إلى نيرانكم فاطفئوها^(١). سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصلاة إلى الصلاة كثارة لما بينهما ما اجْتَبَيْتِ الْكِبَارَةَ». وجزأ محمد بن المنكدر عليه وعلى أمه، وعلى أخته الليل أثلاثاً، فماتت أخته، فجزأه عليه وعلى أمه، فماتت أمه فقام الليل كله، وكان مسلم بن بشار، إذا أراد أن يصلي في بيته يقول لأهله: تحدثوا فليست أسمع حديثكم. وكان إذا دخل البيت سكت أهله فلا يسمع لهم كلام، فإذا قام إلى الصلاة تحدثوا وضحكوا. ووقع حريق إلى جنبه وهو في الصلاة فما شعر به حتى أطفئ. وكان الحمام يقع على رأس ابن الزبير في المسجد الحرام يحسبه جذعاً منصوباً لطول انتصابه في الصلاة، وكانت العصافير تقع على ظهر إبراهيم بن شريك وهو ساجد كما تقع على الحائط. وختم القرآن في ركعة واحدة من الأئمة: عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير، وأبو حنيفة رضي الله تعالى عنهم. ورأى الأوزاعي شاباً بين القبر والمنبر فلما طلع الفجر استلقى ثم قال: «عند الصباح يحمد القوم السرى»^(٢) فقال: يا ابن أخي لك ولأصحابك لا للجمالين. وكان خلف بن أيوب لا يطرده الذباب عن وجهه في الصلاة، فقيل له: كيف تصبر؟ فقال: بلغني أن الفساق يتصبرون تحت السياط ليقال فلان صبور، وأنا بين يدي ربي، أفلا أصبر على ذباب يقع علي؟ وقال أبو صفوان بن هوانة: ما من منظر أحسن من رجل عليه ثياب بيض وهو قائم يصلي في القمر كأنه يشبه الملائكة. وقال الحسن: ما كان في هذه الأمة أعبد من فاطمة عليها السلام بنت رسول الله ﷺ كانت تقوم بالأسحار، حتى تورمت قدمها. وقام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماء، وهو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وكانت دموعه تقع في مصلاه كوكف المطر^(٣). وكان إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام يسمع لقلبه خفقان وغلجان. هذا خوف الحبيب والخليل مع ما أعطيا من الإجلال والإكرام وشرف المقام، فالعجب كيف يطمئن قلب من أزعجته الآثام. وقال رسول الله ﷺ لرجل قال له: ادع الله أن يجعلني رفيقك في الجنة، فقال: «أعني على نفسك بكثرة السجود». وقال حاتم الأصم رحمه الله تعالى: فانتني صلاة الجماعة مرة فعزاني أبو إسحاق البخاري وحده، ولو مات لي ولد لقراني أكثر من عشرة آلاف، لأن مصيبة الذين عندهم أمون من مصيبة التنيا. وكان السلف رضي الله تعالى عنهم، يعززون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى، وسبعاً إذا فاتتهم الجماعة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه. وأنشد بعضهم:

وأبى متاداً صالحاً ومآباً
أضحى برئك كافراً مُرتاباً
غطى على وجه الصواب حجاباً
إن لم يُثبِ حدَّ الحام عقاباً
بجميع تأديب يراه صواباً

خبر النبي ترك الصلاة وخاباً
إن كان يجهلها فحببك أنه
أو كان يتركها لنسوع تكاسل
فالشافعي ومالك رأيا له
والرأي عند الإمام عذاباً

(١) لأن الصلاة تلج صدر الإنسان وتجعله مرتاح البال.

(٢) السرى: السير ليلاً.

(٣) وكف المطر: هطله.

اللهم أعِنَّا على الصلاة، وتَقَبَّلْهَا مِنَّا بِكَرَمِكَ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْغَافِلِينَ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الفصل ذكر شيء من فضل السواك والأذان.

أما السواك، فقد قال الرسول ﷺ: «لَوْ لَا أَن أَشَقَّ عَلَى أَمَتِي لِأَمْرَتِهِمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ» وقال أيضاً: «صَلَاةٌ عَلَى أَثَرِ سَوَاكِ أَفْضَلُ مِنْ خَمْسٍ وَسَبْعِينَ صَلَاةً عَلَى غَيْرِ سَوَاكِ». وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ إذا قام لِيَتَهَيَّأَ شَاخِصًا بِالسَّوَاكِ. وقال ﷺ: «السَّوَاكِ مَطْهُرَةٌ لِلْفَهْمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»، وعنه ﷺ قال: «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي السَّوَاكِ لَبَاتَ مَعَ الرَّجُلِ فِي لِحَافِهِ». وقال أيضاً: «أَفْوَاهُكُمْ طَرَقٌ لِكَلَامِ رَبِّكُمْ فَتَنْظَفُوهَا». والاختيار في السواك أن يكون بعد الأراك، ويجزي بغيره من العيدان وبالسعد والاشنان، والخرقه الخشنة، وغير ذلك مما ينظف ويستاك عرضاً مبتدئاً بالجانب الأيمن من فيه، وينوي به الإتيان بالسنة، والسواك يعود الزيتون يزيل الحفر من الأسنان. وقال الأصحاب: يقول عند السواك: اللهم بارك لي فيه يا أرحم الراحمين. ويستاك في ظاهر الأسنان وباطنها، ويمر السواك على أطراف أسنانه وأضراسه، وسقف حلقه إمزاراً لطيفاً، ويستاك بعود متوسط لا شديد اليوسة، ولا شديد اللين، فإن اشتد يسه لينة بالماء. وقد قيل إن من فضائل السواك أنه يذكر الشهادة عند الموت، ويسهل خروج الروح.

وأما الأذان فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾^(١). نزلت في المؤذنين. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يَغْفِرُ اللَّهُ لِلْمُؤَذِّنِ مَدَى صَوْتِهِ، وَيَشْهَدُ لَهُ مَا سَمِعَهُ، مِنْ رَطْبٍ وَيَابِسٍ». وعن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الْمُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِذَا نُوْدِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ». رواه البخاري ومسلم. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَسْمَعُ مَدَى صَوْتِ الْمُؤَذِّنِ جَنَّ وَلَا إِنْسٍ، وَلَا شَيْءٌ إِلَّا شَهِدَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، رواه البخاري، والأحاديث في فضله كثيرة مشهورة، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث: في الزكاة وفضلها

قرن الله سبحانه وتعالى الزكاة بالصلاة في مواضع شتى من كتابه قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿رَجُلًا لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا تَتَّبِعْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَا الزَّكَاةَ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾^(٤). وعن بريدة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا حَبَسَ قَوْمَ الزَّكَاةِ إِلَّا حَبَسَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْقَطْرَ»^(٥). وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «مَا خَالَطَتِ الزَّكَاةَ مَالًا قَطَّ

(١) - سورة: فصلت، الآية: ٣٣.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٤٣.

(٣) سورة: النور، الآية: ٣٧.

(٤) سورة: الينة، الآية: ٥.

(٥) القطر: المطر.

إِلَّا أَهْلَكْتُهُ». وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مَا يَزْكِي، وَلَمْ يَزْكِهِ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مَا يَحِجُّ، وَلَمْ يَحِجْ سَأَلَ الرَّجْعَةَ»، يعني قوله تعالى: «رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ»^(١) وَلَنُلْجِقَ بهذا الفصل ذكر شيء من الصدقة وفضلها، وما جاء فيها، وما أعد الله تعالى للمتصدقين من الأجر والثواب ودفع البلاء.

قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ»^(٢) وقال تعالى: «وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ»^(٣) الآية. والآيات الكريمة في ذلك كثيرة، والأحاديث الصحيحة فيه مشهورة. وروى الترمذي في جامعه بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله خيرهم لصاحبه، وخير الجيران عند الله خيرهم لجاره»، وفي صحيح مسلم وموطأ مالك وجامع الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقص مال من صدقة» أو قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بغو إلا عزاً، وما تواضع عبد إلا رفعه الله تعالى».

ودخلت امرأة شلاء^(٤) على عائشة رضي الله عنها فقالت: كان أبي يحب الصدقة وأمي تبغضها، لم تصدق في عمرها إلا بقطعة شحم وخلقة. فرأيت في المنام كأن القيامة قد قامت، وكأنت أُمِّي قد غطت عورتها بالخلقة، وفي يدها الشحمة تلحسها من العطش. فذهبت إلى أبي وهو على حافة حوض يسقي الناس، فطلبت منه قدحاً من ماء فسقيت أُمِّي، فتوديت من فوقني ألا مَنْ سقاها فشل الله يدها. فانتبهت كما ترين.

ووقف سائل على امرأة وهي تتمشى، فقامت فوضعت لقمعة في فيه، ثم بكرت إلى زوجها في مزرعته، فوضعت ولدها عنده، وقامت لحاجة تريد قضاءها فاختلسه الذئب فوقفت وقالت: يا رب ولدي. فأتاها آتٍ فأخذ بعنق الذئب فاستخرجت ولدها من غير أذى ولا ضرر. فقال لها: هذه اللقمة بتلك اللقمة التي وضعتها في فم السائل.

وعشش ورشان في شجرة في دار رجل، فلما همت أفرأخه بالطيران زينت امرأة ذلك الرجل له أخذ أفرأخ ذلك الورشان، ففعل ذلك مراراً، وكلما فرخ الورشان أخذوا أفرأخه. فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام وقال: يا رسول الله أردت أن يكون لي أولاد يذكرون الله تعالى من بعدي فأخذ الرجل بأمر امرأته، ثم أعاد الورشان الشكوى فقال سليمان للشيطانين: إذا رأيتماه يصعد الشجرة فشقاها نصفين، فلما أراد الرجل أن يصعد الشجرة اعترضه سائل فأطعمه كسرة من خبز شعير، ثم صعد وأخذ الأفرأخ على عادته، فشكا الورشان ذلك إلى سليمان عليه السلام، فقال للشيطانين: ألم تفعل ما أمرتكما به فقالا: اعترضنا ملكان فطرحانا في الخافقين.

وقال النخعي: كانوا يرون أن الرجل الظلوم إذا تصدق بشيء دفع عنه البلاء وكان الرجل يضع الصدقة في يد الفقير ويمثل قائماً بين يديه ويسأله قبولها حتى يكون هو في صورة السائل. وقال رسول الله ﷺ: «الصدقة تسد سبعين باباً في الشر». وعنه ﷺ قال: «ردوا صدمة البلاء، ولو بمثل رأس الطائر من طعام». ورؤي عنه ﷺ أنه قال: «ردوا

(١) سورة: المؤمنون، الآيات ٩٩ - ١٠٠

(٢) سورة: يوسف، الآية: ٨٨.

(٣) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٥.

(٤) شلاء: مشلوله اليد.

مذمة السائل ولو بظلف^(١) محرق» وعنه أيضاً رحمه الله: «اتقوا النار ولو بشق تمر» . وقال عيسى صلوات الله وسلامه عليه: مَنْ رَدَّ سائلاً خائباً لم تغش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام . وكان نبينا محمد ﷺ يناول المسكين بيده . وعنه رحمه الله: «ما من مسلم يكسو مسلماً ثوباً، إلا كان في حفظ الله ما كانت عليه منه رقعة» . وقال عبد العزيز بن عمير: الصلاة تبلغك نصف الطريق . والصوم يبلغك باب الملك، والصدقة تدخلك عليه . وعن الربيع بن خيثم أنه خرج في ليلة شاتية وعليه برنس خز^(٢) فرأى سائلاً فأعطاه إياه وتلا قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾^(٣) وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلى البر، وإن سوء الخلق شؤم، وحسن الملكة نماء، والصدقة تدفع ميتة السوء»، قال يحيى بن معاذ: ما أعرف حبة تزن جبال الدنيا إلا من الصدقة . وعن عمر رضي الله عنه: إن الأعمال تباهت فقالت الصدقة: أنا أفضلكن . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تداركوا الهموم والهموم بالصدقات، يدفع الله ضرركم وينصرمكم على عدوكم» . وعن عبيد بن عمير قال: يحشر الناس يوم القيامة أجور ما كانوا قط، وأعطش ما كانوا قط فمن أطعم الله أشبعه الله، ومن سقى الله سقاه الله، ومن كسا الله كساه الله . وقال الشعبي: مَنْ لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أحوج من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته وضرب بها وجهه .

وكان الحسن بن صالح إذا جاءه سائل فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه فإن لم يكن عنده من ذلك شيء أعطاه دهنًا أو غيره ما يتسع به، فإن لم يكن عنده شيء أعطاه كحلًا أو أخرج إبرة وخيطاً فرقع بهما ثوب السائل . ووجه رجل ابنه في تجارة فمضت أشهر ولم يقع له على خير فتصدق برغيفين وأرخ ذلك اليوم، فلما كان بعد سنة، رجع ابنه سالماً رابحاً، فسأله أبوه: هل أصابك في سفرك بلاء؟ قال: نعم غرقت السفينة بنا في وسط البحر، وغرقت في جملة الناس وإذا بشابين أخذاني فطرحاني على الشط وقالا لي: قل لوالدك هذا برغيفين، فكيف لو تصدقت بأكثر من ذلك؟ وقال علي رضي الله عنه وكرّم الله وجهه: إذا وجدت من أهل الفاقة من يحمل لك زادك فيوافيك به بحيث تحتاج إليه فاغتنم حمله إياه والله در القاتل حيث قال: ﴿

يَكِي عَلَى الذَّاهِبِ مِنْ مَالِهِ وَإِنَّمَا يَقْبِضُ الَّذِي يَلْمُ

وَحُكِيَ أَنَّ رَجُلًا عَبَدَ اللَّهَ سَبْعِينَ سَنَةً فَيَنِمَا هُوَ فِي مَعْبَدِهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ إِذْ وَقَفَتْ بِهِ امْرَأَةٌ جَمِيلَةٌ فَسَأَلَتْهُ أَنْ يَفْتَحَ لَهَا، وَكَانَتْ لَيْلَةً شَاتِيَةً، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا وَأَقْبَلَ عَلَى عِبَادَتِهِ . فَوَلَّتْ الْمَرْأَةُ فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَأَعْجَبَتْهُ فَمَلَكَتْ قَلْبَهُ وَتَلَبَّثَتْ بِهِ فَتَرَكَ الْعِبَادَةَ وَتَبِعَهَا، وَقَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ فَقَالَتْ: إِلَى حَيْثُ أُرِيدُ . فَقَالَ: هِيَاهُ صَارَ الْمَرَادُ مَرِيدًا وَالْأَحْرَارُ عِيدًا، ثُمَّ جَلَبَهَا فَأَدْخَلَهَا مَكَانَهُ فَأَقَامَتْ عِنْدَهُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَذَكَّرَ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الْعِبَادَةِ وَكَيْفَ بَاعَ عِبَادَةَ سَبْعِينَ سَنَةً بِمَعْصِيَةِ سَبْعَةِ أَيَّامٍ فَبَكَى حَتَّى غَشِيَ عَلَيْهِ . فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَتْ لَهُ: يَا هَذَا وَاللَّهِ أَنْتَ مَا عَصَيْتَ اللَّهَ مَعَ غَيْرِي، وَأَنَا مَا عَصَيْتُ اللَّهَ مَعَ غَيْرِكَ، وَإِنِّي أَرَى فِي وَجْهِكَ أَثَرَ الصَّلَاحِ فَاللَّهُ عَلَيْكَ إِذَا صَالَحَكَ مَوْلَاكَ فَاذْكُرْنِي . قَالَ: فَخَرَجَ هَاتِمًا عَلَى وَجْهِهِ فَأَوَاهُ اللَّيْلُ إِلَى خَرِيبَةٍ فِيهَا عَشْرَةُ عَمِيَانٍ وَكَانَ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ رَاهِبٌ يَبِيعُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ بَعْشِرَةَ أَرْغَفَةٍ، فَجَاءَ غَلامُ الرَّاهِبِ

(١) الظلف: للمواشي ما يقابل القدم البشرية.

(٢) خز: حرير.

(٣) سورة: آل عمران، الآية: ٩٢.

على عادته بالخبز، فمد ذلك الرجل العصي يده فأخذ رغيماً فبقي منهم رجلاً لم يأخذ شيئاً فقال: أين رغيبي. فقال غلام: قد فرقت عليكم العشرة فقال: آيت طاولاً^(١)، فبكى الرجل العصي وناول الرغيص لصاحبه، وقال لنفسه: أنا أحق أن آيت طاولاً لأنني عاص وهذا مطيع، فنام واشتد به الجوع حتى أشرف على الهلاك. فأمر الله تعالى ملك الموت بقبض روحه فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: هذا رجل قر من ذنبه وجاء طائعاً؛ وقالت ملائكة العذاب: بل هو رجل عاصي فأوحى الله تعالى إليهم أن زنوا عبادة السبعين سنة، بمعصية السبع ليال فوزنوها فرجحت المعصية على عبادة السبعين سنة، فأوحى الله إليهم أن زنوا بمعصية السبع ليال بالرغيص الذي أثر به على نفسه، فوزنوا ذلك فرجح الرغيص فتوفته ملائكة الرحمة وقبل الله توفته.

وحكي أن رجلاً جلس يوماً يأكل هو وزوجته وبين أيديهما دجاجة مشوية، فوقف سائل ببابه فخرج إليه وانتهره فلهب، فاتفق بعد ذلك أن الرجل افتر وزالت نعمته وطلق زوجته وتزوجت بعده برجل آخر فجلس يأكل معها في بعض الأيام، وبين أيديهما دجاجة مشوية وإذا بسائل يطرق الباب فقال الرجل لزوجته: إُدعي إلي هذه الدجاجة. فخرجت بها إليه فإذا هو زوجها الأول فدفعت إليه الدجاجة، ورجعت وهي باكية فسألها زوجها عن بكائها فأخبرته أن السائل كان زوجها وذكر له قصتها مع ذلك السائل الذي انتهره زوجها الأول، فقال لها زوجها: أنا والله ذلك السائل.

وذكر عن مكحول أن رجلاً أتى إلى أبي هريرة رضي الله عنه فقال: ادع الله لابني فقد وقع في نفسي الخوف من هلاكه. فقال له: ألا أدلك على ما هو أنفع من دعائي وأنجع وأسرع إجابة. قال: بلى. قال: تصدق عنه بصدقة تنوي بها نجاة ولدك وسلامة ما معه. فخرج الرجل من عنده وتصدق على سائل ب درهم وقال: هذا لخلاص ولدي وسلامته وما معه. فنادى في تلك الساعة ناد في البحر: ألا إن الفداء مقبول وزيد مغاث، فما قد سأله أبوه عن حاله فقال: يا أبت لقد رأيت في البحر عجياً يوم كذا وكذا في وقت كذا وكذا - وهو اليوم تصدق فيه والده عنه بالدرهم - وذلك أنا أشرفنا على الهلاك والتلف كنسمعنا صوتاً من الهواء: ألا إن الفداء مقبول، وزيد مغاث، وجاءنا رجال عليهم ثياب بيض فقدموا السفينة إلى جزيرة كانت بالقرب منا وسلمنا وصرنا بخير أجمعين. والآثار والحكايات في ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وعى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى والله أعلم.

الفصل الرابع: في الصوم وفضله وما أعد الله للصائم من الأجر والثواب

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢) قيل: الصوم عموم وخصوص، وخصوص الخصوص. فصوم العموم هو كف البطن والفرج وسائر الجوارح عن قصد الشهوة. وصوم الخصوص هو كف السمع والبصر واللسان، واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام. وصوم خصوص الخصوص، هو صوم القلب عن الهمم الدنية وكفه عما سوى الله بالكلية.

قال رسول الله ﷺ: «زكاة الجسد الصيام». وعنه ﷺ: «للصائم فرحتان فرحة عند افطاره وفرحة عند لقاء ربه».

(١) طاولاً: شديد الجوع.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٨٣.

وقال وكيع في قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾^(١) إنها أيام الصوم، تركوا فيها الأكل والشرب. وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من أفطر يوماً في رمضان من غير رخصة رخصها الله لم يقض عنه صيام الدهر». وروى في صحيح النسائي عنه أيضاً ﷺ أنه قال: «إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين». وروى الزهري أن تسيحة واحدة في شهر رمضان أفضل من ألف تسيحة في غيره. وروى عن قتادة أنه كان يقول: مَنْ لَمْ يُفْطَرْ لَهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فَلَنْ يُفْطَرَ لَهُ فِي غَيْرِهِ. وقال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس ما في شهر رمضان من الخير لتمنت أمي أن يكون رمضان السنة كلها، ولو أذن الله للسّموات والأرض أن تتكلما لشهدتا لمن صام رمضان بالجنة»، وقال ﷺ: «ليس من عبد يصلي في ليلة من شهر رمضان إلا كتب الله له بكل ركعة ألفاً وخمسمائة حسنة، وبنى له بيتاً في الجنة من ياقوته حمراء لها سبعون ألف باب لكل باب منها مصراعان من ذهب، وله بكل سجدة يسجد لها شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام»، وقال ﷺ: «إن لكل صائم دعوة فإذا أراد أن يقبل فليقل في كل ليلة عند فطره يا واسع المغفرة اغفر لي».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: من صام يوماً من رمضان خرج من ذنوبه كيّوم ولدته أمه، فإذا تسليخ عنه الشهر وهو حي لم يكتب عليه خطيئة حتى الحول، ومن عطش نفسه لله في يوم شديد الحر من أيام الدنيا كان حقاً على الله أن يرويه يوم القيامة. وقال بعضهم: الصيام زكاة البدن، ومن صام الدهر فقد وهب نفسه لله تعالى. وروى في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، ما اجتبت الكبائر». وعنه ﷺ أنه قال: «صيام ثلاثة أيام من كل شهر، كصيام الدهر، وهي الأيام البيض، وهي الثالث عشر والرابع عشر، والخامس عشر، من كل شهر».

في صحيح البخاري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه». وفضل الصوم غزير لأنه خصه الله تعالى بالإضافة إليه كما ثبت في الصحيح من الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: مخبراً عن ربه عز وجل: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به» وقد يكفى في فضله بهذا الحديث الجليل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

الفصل الخامس: في الحج وفضله

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾^(٢) وقال رسول الله ﷺ: ومن خرج من بيته حاجاً أو معتمراً فمات أجرى الله له أجر الحاج والمعتمر إلى يوم القيامة. وقال ﷺ: من استطاع الحج ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً، وإن شاء نصرانياً. وفي الحديث: إن من الذنوب ذنباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة. وفيه: أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له وهو أفضل يوم في الدنيا. وفي الخبر: أن الحجر الأسود ياقوته من يواقيت الجنة وأنه يبعثه الله يوم القيامة وله عيان ولسان ينطق به يشهد لمن استلمه بحق وصدق. وجاء في الحديث الصحيح: أن آدم عليه الصلاة والسلام لما قضى مناسكه لقيه الملائكة فقالوا: يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك

(١) سورة: الحاقة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة: آل عمران، الآية: ٩٧.

بألقي عام. وقال مجاهد إن الحجاج إذا قدموا مكة لحقتهم الملائكة فسلموا على ركباني الإبل، وصافحوا ركباني الحمر، واعتنقوا المشاة اعتناقاً. وكان من سنة السلف رضي الله عنهم أن يشيعوا الفزاة، ويستقبلوا الحجاج، ويقبلوهم بين أعينهم، ويسألوهم الدعاء لهم ويبادروا ذلك قبل أن يتدنسوا بالآثام. وعن النبي ﷺ: «إن الله قد وعد هذا البيت أن يحجه كل سنة ستمائة ألف فإن نقصوا كملهم الله تعالى من الملائكة، وإن الكعبة تحشر كالعروس المزفوفة، فكل من حجها يتعلق بأستارها ويسعى حولها، حتى تدخل الجنة فيدخل معها».

وحكي أن جميلة الموصلية بنت ناصر الدولة أبي محمد بن حمدان، حجت سنة ست وثمانين وثلثمائة فصارت تاريخاً مذكوراً قيل: إنها سقت أهل الموسم كله السويق بالطبرزد والثلج. واستصحبت البقول المزروعة في المراكب على الجمال، وأعدت خمسمائة راحلة للمتطعين، ونثرت على الكعبة عشرة آلاف دينار، ولم تستصحب فيها وعندها إلا بشموع العنبر، وأعتقت ثلاثمائة عبد، وماتت جارية، وأغنت الفقراء والمجاورين. ولما بنى آدم عليه الصلاة والسلام البيت قال: يا رب إن لكل عامل أجراً فما أجر عملي؟ قال: إن طفت به غفرت لك ذنوبك. قال: زدني. قال: جعلته قبلة لك ولأولادك، قال: يا رب زدني. قال: أغفر لك من استغفرتني من الطائفين به من أهل التوحيد من أولادك. قال: يا رب حسبي. وفي الحديث: الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة. وقيل للحسن: ما الحج المبرور؟ قال: أن ترجع زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة. وأول من كسا الكعبة الديباج^(١) عبد الله بن الزبير وكانت كسوتها المسوح والانطاع^(٢) وكان يطيبها حتى يوجد ريحها من خارج الحرم.

وكانت حكيم بن حزام يقيم عشية عرفة مائة بدنة، ومائة رقبة، فيعتق الرقاب عشية عرفة وينحر البدن يوم النحر وكان يطوف بالبيت فيقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له نعم الرب ونعم الإله أحبه وأخشاه. ورؤي الحسن بن علي رضي الله عنهما يطوف بالبيت ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم وضع خده على المقام فجعل يبكي ويقول: عَيْبُكَ يَبَابُكَ، خَوْفُكَ يَبَابُكَ، سَأَلْتُكَ يَبَابُكَ، مُسَيِّبُكَ يَبَابُكَ. يردد ذلك مراراً ثم انصرف رضي الله عنه فمر بمساكين معهم فلق خبز يأكلون فسلم عليهم فدعوه إلى الطعام فجلس معهم وقال: لولا أنه صدقة لأكلت معكم، ثم قال: قوموا بنا إلى منزلي. فتوجهوا معه فاطعمهم وكساهم وأمر لهم بدرهم.

وحج عبد الله بن جعفر رضي الله عنه ومعه ثلاثون راحلة وهو يمشي على رجليه حتى وقف بعرفات فأعتق ثلاثين مملوكاً وحملهم على ثلاثين راحلة وأمر لهم بثلاثين ألفاً وقال: أعنتهم الله تعالى لعله يمتقني من النار. وقال الحسن بن علي رضي الله عنهما: إني لأستحي من ربي أن ألقاه ولم أمش إلى بيته. فمشى من المدينة إلى مكة عشرين مرة. ومن لطيف ما أنشد عمرو بن حيان الضمير حين لم يهد إليه الحجاج شيئاً:

كَأَنَّ الْحَجَّاجَ الْآنَ لَمْ يَقْرَبُوا مَنْى

وَلَمْ يَحْمِلُوا مِنْهَا سِوَاكَ وَلَا نَعْلَا

أَتَوْنَا فَمَا جَادُوا بَعُودَ أَرَاكَوْ

وَلَا وَضَعُوا فِي كَفِّ طِفْلِ لَنَا نَقْلَا

وقال غيره:

يَحْجُونَ بِالْمَالِ الَّذِي يَجْمَعُونَهُ

حَرَاماً إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْمَحْرَمِ

(١) الديباج: كلمة فارسية، تطلق على نوع من النسيج الحريري الفاخر.

(٢) المُسوح: ج مسح، أقمشة من الشعر وهي أقمشة زهيدة القيمة وكذلك الأنطاع.

ويزعمُ كلُّ منهم أن وزره
وقال آخر:

حجٌ في الدهر حجة
وأنا من الحجا
فهو ذو الحجة الذي
حجٌ فيها وأحرما
زكما راح مُخرما
ما توقى مُخرما

وتخاصم بدوي مع حاج عند منصرف الناس ف قيل له: أتخاصم رجلاً من الحجاج فقال:
يحبُّ لكيمًا يغفر الله ذنبه
ويرجع قد حطت عليه ذنوب

وقال أبو الشمقم:

إذا حججت بمالٍ أصله ذننٌ
ما يقبلُ الله إلا كلَّ طيِّبٍ
والله سبحانه وتعالى أعلم.

فما حججت ولكن حجت العير^(١)
ما كلُّ من حجَّ يكت الله مبرور

الباب الثاني: في العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك

نص الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز ومترل خطابه الوجيز على شرف العقل وقد ضرب الله سبحانه وتعالى الأمثال وأوضحها ويّن بدائع مصنوعاته وشرحها فقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمَ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِ إِيَّايَ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١). وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له: أقبل، فأقبل. ثم قال له: أذبر، فأدبر. فقال عزّ من قائل: وعزّي وجلالي ما خلقت خلقاً أعزّ عليّ منك، بك أخذت بك أعطي بك أحاسب بك أعاقب». وقال أهل المعرفة والعمل: العقل جوهر مضيء خلقه الله عز وجل في الدماغ وجعل نوره في القلب يدرك به المعلومات بالوسائط، والمحسوسات بالمشاهدة.

واعلم أن العقل ينقسم إلى قسمين: قسم لا يقبل الزيادة والنقصان، وقسم يقبلهما. فأما الأول فهو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء، وأما الثاني فهو العقل التجريبي وهو مكتسب وتحصل زيادته بكثرة التجارب والوقائع. وباعتبار هذه الحالة يقال إن الشيخ أكمل عقلاً، وأتم دراية، وإن صاحب التجارب أكثر فهماً وأرجح معرفة. ولهذا قيل من بيضت الحوادث سواد لمته، وأخلقت التجارب لباس جدته وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته تصاريق أقداره وأفضيته، كان جديراً برزاة العقل ورجاحة الدراية. وقد يخص الله تعالى بالطفاه الخفية من يشاء من عباده فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزاة عقل، وزيادة معرفة، وتخرجه عن حد الاكتساب ويصير بها راجحاً على ذوي التجارب والآداب ويدل على ذلك قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى به في محكم كتابه العزيز حيث يقول: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾^(٢). فمن سبقت له سابقة من الله تعالى في قسم السعادة وأدركته عناية أزلية أشرقت على باطنه أنوار ملكوتية وهداية ربانية فاتصف بالذكاء والفضة قلبه، وأسفر عن وجه الاصابة ظنه، وإن كان حديث السن قليل التجربة، كما نقل في قصة سليمان بن داود عليهما السلام وهو صبي حيث رد حكم أبيه داود عليه السلام في أمر الغنم والحرث، وشرح ذلك فيما نقله المفسرون أن رجلين دخلا على داود عليه السلام أحدهما صاحب غنم، والآخر صاحب حرث، فقال أحدهما: إن هذا دخلت غنمه بالليل إلى حرثي فأهلكته وأكلته ولم تبق لي فيه شيئاً، فقال داود عليه السلام: الغنم لصاحب الحرث عوضاً عن حرثه، فلما خرجا من عنده مرّا على سليمان عليه السلام وكان عمره إذ ذاك على ما نقله أئمة التفسير إحدى عشرة سنة فقال لهما: ما حكم بينكما الملك؟ فذكرا له ذلك فقال: غير هذا أرفق بالفريقين فعادا إلى داود عليه السلام، وقال له ما قاله ولده سليمان عليه السلام. فدعاه داود عليه السلام وقال له ما هو الأرفق بالفريقين؟ فقال سليمان: تسلم الغنم إلى صاحب الحرث - وكان الحرث كرمًا قد تدلت عناقيده في قول أكثر المفسرين - فيأخذ صاحب الكرم الأغنام يأكل لبنها ويتنع بدرها ونسلها، ويسلم الكرم إلى صاحب الأغنام ليقوم به، فإذا عاد الكرم إلى هيئته وصورته التي كان عليها ليلة دخلت الغنم إليه، سلم صاحب الكرم الغنم إلى صاحبها، وتسلم

(١) سورة: النحل، الآية: ١٢.

(٢) سورة: مريم، الآية: ١٢.

كرمه كما كان بعناقيده وصورته. فقال له داود: القضاء كما قلت وحكم به كما قال سليمان عليه السلام.

في هذه القصة نزل قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ جَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَامًا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾^(١) فهذه المعرفة والدراية لم تحصل لسليمان بكثرة التجربة وطول المدة، بل حصلت بعناية ربانية، وألطف إلهية. وإذا قذف الله شيئاً من أنوار مواهبه في قلب من يشاء من خلقه اهتدى إلى مواقع الصواب، ورجح على ذوي التجارب الاكتساب في كثير من الأسباب. ويستدل على حصول كمال العقل في الرجل بما يوجد منه وما يصدر عنه، فإن العقل معنى لا يمكن مشاهدته. فإن المشاهدة من خصائص الأجسام.

فأقول: يستدل على عقل الرجل بأمر متعدد منها ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الأعمال، ورغبته في إسداء صنائع المعروف، وتجنبه ما يكسبه غاراً^(٢)، ويورثه سوء السمعة. وقد قيل لبعض الحكماء: يم يُعرف عقل الرجل؟ فقال: بقلة سقطه في الكلام، وكثرة إصابته فيه، فقليل له فإن كان غائباً؟ فقال: بإحدى ثلاث: إما برسوله، وإما بكتابه، وإما بهديته، فإن رسوله قائم مقام نفسه، وكتابه يصف نطق لسانه، وهديته عنوان همة فبقدر ما يكون فيها من نقص يحكم به على صاحبها. وقيل: من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس، ويكفي أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه. فإنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من حرم ملازمة الناس فقد حرم التوفيق» فمقتضاه أن من رزق المداراة لم يحرم التوفيق. وقالوا: العاقل الذي يحسن المداراة مع أهل زمانه. وقال رسول الله ﷺ: «الجنة مائة درجة، تسعة وتسعون منها لأهل العقل، وواحدة لسائر الناس». وقال علي بن عبيدة: العقل ملك والخصال رعية فإذا ضعف عن القيام عليها وصل الخلل إليها. فسمعه أعرابي فقال: هذا كلام يقطر عسله. وقيل: بأبلي العقول تمسك أئنة النفوس، وكل شيء إذا كثر رخص، إلا العقل فإنه كلما كثر غلا. وقيل: لكل شيء غاية وحد، والعقل لا غاية له ولا حد، ولكن الناس يتفاوتون فيه تفاوت الأزهار في المروج. واختلفت الحكماء في ماهيته، فقال قوم: هو نور وضعه الله طبعاً وغريزة في القلب كالنور في العين، وهو يزيد وينقص، وينهب ويعود، وكما يترك بالبصر شواهد الأمور كذلك يترك بنور القلب المحجوب والمستور. وعنى القلب كعنى البصر قال الله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا لَهَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَتَعَمَّى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾^(٣) وقيل منجل العقل الدماغ، وهو قول أبي حنيفة رحمه الله تعالى. وذهب جماعة إلى أنه في القلب كما روي عن الشافعي رحمه الله تعالى، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾^(٤) ويقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾^(٥) أي عقل. وقالوا التجربة مرآة العقل ولذلك حمدت آراء المشايخ حتى قالوا: المشايخ أشجار الوقار لا يطيش لهم سَنَمٌ، ولا يسقط لهم فَنَمٌ، وعليكم بآراء الشيخ فإنهم إن عدموا ذكاء الطبع، فقد أفادتهم الأيام حيلة وتجربة. قال الشاعر:

ألم تَرَ أن العقلَ زَيْنٌ لأهله ولكن تمامَ العقلِ طبولُ التجاربِ

(١) سورة: الأنبياء، الآية: ٧٨ - ٧٩.

(٢) العار: الشيء الشنيع المستطع الذي يُكبر به الإنسان الذي يأتي مثل هذه الأفعال السيئة.

(٣) سورة: الحج، الآية: ٤٦.

(٤) سورة: الحج، الآية: ٤٦.

(٥) سورة: ق، الآية: ٣٧.

وقال آخر:

إذا طال عمرُ المرءِ في غير آفةٍ أفادت له الأيامُ في كَرِّها^(١) عَقْلاً

وقال عامر بن قيس: إذا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عما لا يعينك فأنت عاقل. ويقال: لا شرف إلا شرف العقل، ولا غنى إلا غنى النفس. وقيل: يعيش العاقل بعقله حيث كان، كما يعيش الأسد بقوته حيث كان. قال الشاعر:

إذا لم يكن للمرء عقل فإِنَّهُ وإن كان ذا بيتٍ على الناس هَيِّنُ
ومن كان ذا عقل أجَلٌ لعقلِهِ وأفضل عقل عقل مَنْ يتدَيَّنُ

وقالوا: العاقل لا تبطره المتزلة السنية، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت عليه الرياح، والجاهل تبطره أدنى منزلة، كالخشيش يحركه أدنى ريح. وقيل لعلي رضي الله تعالى عنه: صِفْ لنا العاقل. قال: الذي يضع الشيء موضعه. قيل: فصف لنا الجاهل. قال: فقد فعلت، يعني الذي لا يضع الشيء موضعه. وقال المنصور لولده: خذ عني اثنتين؛ لا تَقُلْ من غير تفكير، ولا تعمل بغير تدبير. وقال اردشير: أربعة تحتاج إلى أربعة؛ الحساب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة. وقال كسرى أنو شروان: أربعة تؤدي إلى أربعة؛ العقل إلى الرياسة، والرأي إلى السياسة، والعلم إلى التصدير، والحلم إلى التوقير. وقال القاسم بن محمد: من لم يكن عقله أغلب الخصال عليه، كان حظه من أغلب الخصال عليه. وقيل: أفضل العقل معرفة العاقل بنفسه، وقيل ثلاثة هُزُّ رأس العقل؛ مداراة الناس، والاقتصاد في المعيشة، والتحبب إلى الناس. وقيل: من أعجب برأي نفسه، بطل رأيه، ومن ترك الاستماع من ذوي العقول مات عقله. وعن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه أنه قال: أهل مصر أعقل الناس صفاراً، وأرحمهم كباراً. وقيل: العاقل المحروم خير من الأحق المزقوق. وقيل: لا ينبغي للعاقل أن يمدح امرأة حتى تموت، ولا طعاماً حتى يستمره، ولا يشق بخليل حتى يستقرضه. وقيل: طول اللحية أمان من العقل. وسئل بعضهم: أيما أحمد في الصبا، الحياء، أم الخوف؟ قال: الحياء، لأن الحياء يدل على العقل، والخوف يدل على الجبن. وقيل: غضب العاقل على فعله وغضب الجاهل على قوله. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عويمر ازدد عقلاً تَزِدَّ من الله تعالى قرباً» قلت: بأبي وأمي وَمَنْ لي بالعقل؟ قال: «اجتنب محارم الله تعالى، وأد فرائض الله تعالى تكن عاقلاً ثم تنقل إلى صالح الأعمال تزد في الدنيا عقلاً، وتزد من الله قرباً وعزاً». وحكى بعض أهل المعرفة قال: حياة النفس بالروح، وحياة الروح بالذكر، وحياة القلب بالعقل، وحياة العقل بالعلم. ويروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه كان ينشد هذه الأبيات ويترنم بها:

إن المكارمَ أخلاقٌ مطهَّرةٌ فالعقل أولُّها والدين ثانيها
والعلم ثالثُها والحلم رابعُها والجود خامسُها والعرف سادسها
والبرُّ سابعُها والصبر ثامنُها والشكر تاسعُها واللين عاشيها
والعينُ تعلمُ من عَيْنِي محدَّثُها إن كان من حزبها أو من أعاديها
والنفسُ تعلمُ أنني لا أضدُّها ولستُ أرشدُ إلا حين أعصيها

وقال بعض الحكماء: العاقل من عقله في إرشاد، ورأيه في إمداد، فقلوه سديد، وفعله حميد، والجاهل من جهله في إغراء، فقلوه سقيم، وفعله ذميم، ولا يكفي في الدلالة على عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سمته، وتسريح لحيته، وكثرة صلفته ونظافة بزته، إذ كم من كنيف^(١) مبيض، وجلد مفضض. وقد قال الأصمعي: رأيت بالبصرة شيخاً له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة وحوله حاشية وهرج وعنده دخل وخرج، فأردت أن أختبر عقله فسلمت عليه وقلت له: ما كنية سيدنا؟ فقال: أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين. قال الأصمعي: فضحكت منه وعلمت قلة عقله وكثرة جهله ولم يدفع ذلك عنه غزارة خرجته ودخله. وقد يكون الرجل موسوماً بالعقل مرقوماً بعين الفضل فيصدر منه حالة تكشف عن حقيقة حاله، وتشهد عليه بقلته عقله واختلاله.

وقيل: إن إياس بن معاوية القاضي كان من أكابر العقلاء وكان عقله يهديه إلى سلوك طرق لا يكاد يسلكها من لم يهتد إليها، فكان من جملة الوقائع التي صدرت منه، وشهدت له بالعقل الراجح، والفكر القادح، أنه كان في زمانه رجل مشهور بين الناس بالأمانة فاتفق أن رجلاً أراد أن يحج فأودع عند ذلك الرجل الأمين كيساً فيه جملة من الذهب، ثم حج. فلما عاد من حجه جاء إلى ذلك الرجل وطلب كيسه منه فأنكره، وجحده، فجاء إلى القاضي إياس وقص عليه القصة فقال القاضي: هل أخبرتك بذلك أحداً غيري قال: لا. قال: فهل علم الرجل أنك أتيت إلي؟ قال: لا. قال انصرف واكتب أمرك ثم عد إلي بعد غد. فانصرف، ثم أن القاضي دعا ذلك الرجل المستودع فقال له: قد حصل عندي أموال كثيرة، ورأيت أن أودعها عندك، فاذهب وهتئ لها موضعاً حصيناً. فمضى ذلك الرجل. وحضر صاحب الوديعة بعد ذهاب الرجل فقال له القاضي إياس: امض إلى خصمك، واطلب منه وديعتك، فإن جحدك فقل له امض معي إلى القاضي إياس، أتحاكم أنا وأنت عنده. فلما جاء إليه دفع وديعته، فجاء إلى القاضي وأعلمه بذلك، ثم إن ذلك الرجل المستودع جاء إلى القاضي طامعاً في تسليم المال فسهب القاضي وطرده. وكانت هذه الواقعة مما تدل على عقله وصحة فكره.

ولما مات بعض الخلفاء اختلفت الروم واجتمعت ملوكها، فقالوا: الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض، فتمكنا الغرة منهم، والوثبة عليهم. وعقدوا لذلك المشورات، وتراجعوا فيه بالمناظرات، وأجمعوا على أنه فرصة الدهر، وكان رجل منهم من ذوي العقل والمعرفة والرأي غائباً عنهم، فقالوا: من الحزم عَرْضُ الرأي عليه. فلما أخبروه بما أجمعوا عليه قال: لا أرى ذلك صواباً، فسألوه عن علة ذلك، فقال: في الغد أخبركم إن شاء الله تعالى. فلما أصبحوا أتوا إليه. وقالوا: قد وعدتنا أن تخبرنا في هذا اليوم بما عولنا عليه، فقال: سمعاً وطاعة وأمر بإحضار كليين عظيمين، كان قد أعدهما ثم حرش بينهما وحرّض كل واحد منهما على الآخر، فتوآبا وتهارشا حتى سالت دماؤهما فلما بلغ الغاية فتح باب بيت عنده وأرسل على الكليين ذنباً كان قد أعد له لذلك، فلما أبصره تركا ما كانا عليه وتآلفت قلوبهما ووثبا جميعاً على الذئب فقتلاه، فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال: مَكَلَّمُكم مع المسلمين، مَثَلُ هذا الذئب مع الكلاب، لا يزال الهرج بين المسلمين ما لم يظهر لهم عدو من غيرهم، فإذا ظهر تركوا العداوة بينهم وتآلفوا على العدو، فاستحسنوا قوله، واستصوبوا رأيه. فهذه صفة العقلاء.

وأما ذم الحق فقد قال ابن الأعرابي: الحماقة مأخوذة من حمقت السوق إذا كسدت، فكأنه كاسد العقل والرأي

(١) الكنيف: السائر أو الحظيرة، وهنا جاءت اسماً للمرحاض.

فلا يشارور ولا يلتفت إليه في أمر من الأمور. والحقق غريزة لا تنفع فيها الحيلة، وهو داء دواؤه الموت. قال الشاعر:

لكلّ داء دواء يستطب به
إلا الحماسة أعيّت مَنْ يداويها

والحقق مذموم قال رسول الله ﷺ: «الأحمق أبغض الخلق إلى الله تعالى، إذا حرمه أعز الأشياء عليه وهو العقل». ويستدل على صفة الأحمق من حيث الصورة، بطول اللحية لأن مخرجها من الدماغ، فمن أفرط طول لحيته قل دماغه، ومن قل دماغه، قل عقله، ومن قل عقله فهو أحمق. وأما صفته من حيث الأفعال، فترك نظره في العواقب وثقته بمن لا يعرفه، والعجب، وكثرة الكلام، وسرعة الجواب، وكثرة الالتفات، والخلو من العلم، والعجلة، والخفة، والسفه، والظلم، والغفلة، والسهو، والخيلاء، إن استغنى بطر، وإن افتقر قنطر، وإن قال أفحش، وإن سئل بخل وإن سأل ألح، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك قهقه، وإن بكى صرخ، وإن اعتبرنا هذه الخلال وجدناها في كثير من الناس، فلا يكاد يعرف العاقل من الأحمق. قال عيسى عليه السلام: عالجت الأبرص والأكمة فأبرأتهم، وعالجت الأحمق فأعياني. والسكوت عن الأحمق جوابه. ونظر بعض الحكماء إلى أحمق على حجر، فقال: حجر على حجر.

وحكي أن أحمقين اصطحبا في طريق، فقال أحدهما للآخر: تعال نتمتع على الله، فإن الطريق تقطع بالحديث، فقال أحدهما: أنا أتمنى قطائع غنم أتضع بلينها، وصوفها. وقال الآخر: أنا أتمنى قطائع ذناب أرسلها على غنمك، حتى لا تترك منها شيئاً. قال: ويحك أهذا من حق الصعبة، وحرمة العشرة؟ فتصايحا، وتخاصما، واشتدت الخصومة حتى تماسكا بالأطواق ثم تراضيا، على أن أول من يطلع عليهما يكون حكماً بينهما فطلع عليها شيخ بَحْمَار، عليه زَقَان^(١) من عسل، فحدثاه بحديثهما فتزل بالزقين وفتحهما حتى سال العسل على التراب، ثم قال: صب الله دمي مثل هذا العسل إن لم تكونا أحمقين. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رجل يتعبد في صومعة فأمرت السماء وأعشبت الأرض فرأى حماره يرمي في ذلك العشب فقال: يا رب لو كان لك حمار لرعيت مع حماري هذا، فبلغ ذلك بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فَهَمَّ أن يدعو عليه فأوحى الله إليه لا تدعُ عليه فإني أجازي العباد على قدر عقولهم. ويقال فلان ذو حمق وافر، وعقل نافر، ليس معه من العقل إلا ما يوجب حجة الله عليه. وخطب سهل هند ابنة عتبة فحمقته^(٢) فقال:

وما هَوَجَسي يا هند إلا سجية
أجر لها ذيلسي بحسن الخلائق
ولو شئت خادعت الفتى عن قلوصله^(٣)
ولاطمت في البطحاء من كل طارق

ويقال للأبله السليم القلب، هو من بقر الجنة لا ينطح، ولا يرمح، والأحمق المؤذي هو من بقر سقر. والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الزُق: وعاء جلدي للعسل والخمر وغيرهما.

(٢) حمقته: نسبته إلى الحق.

(٣) القلوصل: المركوب من فتي الإبل.

الباب الثالث: في القرآن وفضله وحرمة وما أعد الله تعالى لقارئه من الثواب العظيم والأجر الجسيم

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسِّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(١) وسمى الله تعالى القرآن كريماً فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾^(٢) وسمّاه حكيماً فقال تعالى: ﴿يَسِّى الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ﴾^(٣) وسمّاه مجيداً فقال تعالى: ﴿قُ وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾^(٤) أنزله الله تعالى على سيد الأنام وخاتم الأنبياء الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، فكان من أعظم معجزاته أن أعجز الله الفصحاء عن معارضته، وعن الإتيان بأية من مثله، قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾^(٥) وقال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾^(٦) فهو النور المبين والحق المستبين، لا شيء أسطع من أعلامه ولا أصدع من أحكامه، ولا أفصح من بلاغته ولا أرجح من فصاحته، ولا أكثر من إفادته ولا ألد من تلاوته. قال رسول الله ﷺ: «القرآن فيه خير من قبلكم، ونبأ من بعدكم، وحكم ما بينكم». وقال أيضاً ﷺ: «أصفر^(٧) البيوت بيت صفر من كتاب الله تعالى». قال الشعبي: الذي يقرأ القرآن إنما يحدث عن ربه عز وجل. ووفد غالب بن صعصعة على علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ومعه ابنه الفرزدق فقال له: من أنت؟ قال: غالب بن صعصعة. قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم. قال: فما فعلت يابلك؟ قال: أذهبتها النوائب وزعزعتها الحقوق. قال: ذلك خير سبلها. ثم قال له: يا أبا الأخطل^(٨) من هذا الذي معك؟ قال: ابني وهو شاعر. قال: علمه القرآن فهو خير له من الشعر. فكان ذلك في نفس الفرزدق حتى قيد نفسه وآلى على نفسه أن لا يحل قيده حتى يحفظ القرآن فحفظه في سنة. وفي ذلك قال:

وما صَبَّ رجلي في حديدٍ مجاشع^(٩) مع القيد إلا حاجةً لي أريدها

وقال أنس رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بني لا تغفل عن قراءة القرآن إذا أصبحت وإذا أمسيت فإن القرآن يحيي القلب الميت وينهى عن الفحشاء والمنكر». وحكى الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار قال: ومن حكايات

(١) سورة: القمر، الآية: ١٧.

(٢) سورة: الواقعة، الآية: ٧٧.

(٣) سورة: يس، الآية: ١.

(٤) سورة: ق، الآية: ١.

(٥) سورة: البقرة، الآية: ٢٣.

(٦) سورة: الإسراء، الآية: ٨٨. وظهيراً: معيناً ونصيراً.

(٧) أصفر البيوت: أخلاها.

(٨) هذا وهم من المؤلف ولعله: يا أبا همام.

(٩) مجاشع: أحد أجداد الفرزدق.

الحشوية^(١) ما قيل إن إبراهيم الخواص مَرَّ بمصروع فأذن في أذنه فناداه الشيطان في جوفه: دعني أقتله فإنه يقول القرآن مخلوق. وكان سفيان الثوري رحمه الله تعالى إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن. وكان الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة وأقبل على قراءة القرآن. وكان الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى إذا دخل شهر رمضان يفرّ من مذاكرة الحديث ومجالسة أهل العلم، ويقبل على القراءة في المصحف، وكان أبو حنيفة والشعبي رحمهما الله تعالى يختمان في رمضان ستين ختمة. وقال علي رضي الله تعالى عنه: مَنْ قرأ القرآن فمات فدخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزواً. وقال الشعبي: اللسان عدل على الأذن والقلب فافقرأ قراءة تسمعها أذنك ويفهمها قلبك. وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظم الله». وعنه ﷺ أنه قال: «إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد»، قيل: يا رسول الله وما جلاؤها؟ قال: «قراءة القرآن وذكر الموت». وقال عمر بن ميمون: مَنْ نشر مصحفاً حين يصلي الصبح فقرأ مائة آية، رفع الله له مثل عمل جميع أهل الدنيا. وقال علي كرم الله وجهه: مَنْ قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف مائة حسنة، وَمَنْ قرأ وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة، وَمَنْ قرأه في غير صلاة وهو على وضوء فخمسون وعشرون حسنة، وَمَنْ قرأه على غير وضوء، فعشر حسنة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لأن أقرأ البقرة وآل عمران أدتلها وأتدبرهما أحب إليّ من أن أقرأ القرآن كله هلزمة^(٢). وقال رسول الله ﷺ: «اقرأوا القرآن وابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»، وعن صالح المزني قال: قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام، فقال لي: يا صالح هذه القراءة فأين البكاء؟ وكان عثمان رضي الله عنه يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة، وليلة السبت بالأنعام إل هود، وليلة الأحد بيوسف إلى مريم، وليلة الاثنين بطله إلى طسم نبأ موسى وفرعون، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى صر، وليلة الأربعاء بتزليل إلى الرحمن، ويختتم ليلة الخميس.

وعن علي رضي الله عنه: لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا خير في قراءة لا تدبّر فيها. وكان عكرمة بن أبي جهل رضي الله تعالى عنه ولعن أباه إذا نشر المصحف أغمي عليه ويقول هو كلام ربي. وأبطأت عائشة رضي الله عنها على رسول الله ﷺ ليلة فقال: ما حبسك؟ قالت: قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه، فقام فاستمع إليه طويلاً ثم قال: هذا سالم مولى أبي حذيفة الحمد لله الذي جعل في أمي مثله، وقال ابن عينة: رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله قد اختلفت عليّ القراءات فعلى قراءة مَنْ تأمرني؟ فقال عليّ قراءة أبي عمرو. وعن أبي عمرو: إني لم أزل أطلب أن أقرأه كما قرأه رسول الله ﷺ وكما أنزل عليه فقدمت مكة فلقيت بها عدة من التابعين ممن قرأ على الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، فقرأت عليهم (فاشدد بها يدك). فينبغي للإنسان أن يحافظ على تلاوة القرآن ليلاً ونهاراً سراً أو حضراً. وقال الشيخ محيي الدين النووي رحمه الله تعالى في كتابه الأذكار: «قد كان للسلف رضي الله عنهم عادات مختلفة في القدر الذي يخطمون فيه فكانت جماعة منهم يخطمون في كل شهر ختمة، وآخرون في كل عشر ليال ختمة، وآخرون في كل ثلاث ليال ختمة. وكان كثيرون في كل يوم وليلة ختمة، وختم جماعة في كل يوم وليلة ختمتين، وختم بعضهم في اليوم والليلة ثمانين ختمة، أربعاً في الليل وأربعاً في النهار. وروي أن مجاهداً رحمه الله تعالى كان

(١) الحشوية: قوم ينسبون إلى حشو الكلام ولغو.

(٢) هلزمة: سرعة في القراءة.

يختم القرآن في شهر رمضان فيها بين المغرب والعشاء. وأما الذين ختموا القرآن في ركعة فلا يحصون لكثرتهم فمنهم عثمان بن عفان، وتميم الداري، وسعيد بن جبير رضي الله عنهم. وروينا في مسند الإمام المجمع على حفظه وجلالته وإتقانه وبراعته أبي محمد الدارمي رحمه الله عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: إذا وافق ختم القرآن أول الليل صلت عليه الملائكة حتى يصبح، وإذا وافق أول النهار صلت عليه الملائكة حتى يمسي. قال الدارمي: هذا حديث حسن عن سعد.

وأفضل القراءة ما كان في الصلاة وأما في غير الصلاة فأفضلها قراءة الليل، والنصف الأخير منه أفضل من الأول، والقراءة بين المغرب والعشاء محبوبة، وأما قراءة النهار فأفضلها بعد صلاة الصبح ولا كراهة في وقت من الأوقات، ولا في أوقات النهي عن الصلاة، ويستحب الاجتماع عند الختم لحصول البركة.

وقيل إن الدعاء يستجاب عند ختم القرآن، وإن الرحمة تنزل عند ختمه، ويستحب الدعاء عقب الختم استحباباً مؤكداً تأكيداً شديداً.

ويجب على القارئ الإخلاص في قراءته، وأن يريد بها وجه الله تعالى، وأن لا يقصد بها توصلاً إلى شيء، سوى ذلك وأن يتأدب مع القرآن ويستحضر في ذهنه أنه يتاجي ربه سبحانه وتعالى، ويتلو كتابه فيقرأ على حالة من يرى الله تعالى، فإنه إن لم يكن يراه فإن الله يراه.

وينبغي للقارئ إذا أراد القراءة أن ينظف فمه بالسواك وأن يكون شأنه الخشوع والتدبير، والخضوع فهذا هو المقصود والمطلوب، وبه تشرح الصدور ويتيسر المرغوب، ودلائله أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر. وقد كان الواحد من السلف رضي الله عنهم يتلو آية واحدة، ليلة كاملة يتدبرها، ويستحب البكاء، والتباكى لمن لا يقدر على البكاء، فإن البكاء عند القراءة صفة العارفين، وشعار عباد الله الصالحين، قال الله تعالى: ﴿وَيُخَوِّذُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُونَ فِيهِمْ خَشوعاً﴾^(١). وقال السيد الجليل صاحب الكرامات والمعارف والمواهب واللطائف إبراهيم الخواص رضي الله عنه: دواء القلب خمسة أشياء: قراءة القرآن بالتدبر، وخلو البطن، وقيام الليل، والتضرع عن السحر، ومجالسة الصالحين.

وقد جاءت آثار بفضيلة رفع الصوت بالقراءة، وآثار بفضيلة الإسرار. قال العلماء: إن أراد القارئ بالإسرار بُغْد الرياء فهو أفضل في حق من يخاف ذلك، فإن لم يخف الرياء فالجهر أفضل بشرط أن لا يؤذي غيره من مصل، أو نائم، أو غيرهما. والأحاديث في فضل القراءة وآداب حملة القرآن كثيرة غير محصورة، ومن أراد الزيادة فلينظر في كتاب «التيان في آداب حملة القرآن» لشيخ مشايخ الإسلام محيي الدين النووي قدس الله روحه ونور ضريحه. وقد جاء في فضل القرآن أحاديث كثيرة.

وروي في فضل قراءة سورة من القرآن في اليوم واللييلة فضل كبيرة منها يس، وتبارك الملك، والواقعة، والدخان. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من قرأ يس في يوم وليلة ابتغاء وجه الله تعالى غفر له» وفي رواية له: «من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح مغفوراً له». وفي رواية عن ابن عباس وابن مسعود رضي

الله عنهم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة» وعن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ لا ينام كل ليلة حتى يقرأ «ألم تنزل الكتاب» «وتبارك الملك». وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: من قرأ في ليلة «إذا زلزلت الأرض»، كانت له كعدل نصف القرآن، ومن قرأ «قل يا أيها الكافرون»، كانت له كعدل ربع القرآن، ومن قرأ «قل هو الله أحد»، كان له كعدل الثلث.

والأحاديث بنحو ما ذكرناه كثيرة وقد أشرنا إلى المقاصد منها والله تعالى أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع : في العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾^(٢) وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «تعلموا العلم فإن تعلمه لله حنة، ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة، لأنه معالم الحلال والحرام، وبيان سبيل الجنة، والمؤنس في الوحشة والمحدث في الخلوة، والجلس في الوحدة والصاحب في الغربة، والدليل على السراء والمعين على الضراء، والزين عند الإخلاء والسلاح على الأعداء، وبالعلم يبلغ العبد منازل الأخيار، في الدرجات العلى ومجالسة الملوك في الدنيا، ومرافقة الأبرار في الآخرة، والفكر في العلم يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام، وبالعلم توصل الأرحام وتفصل الأحكام، وبه يعرف الحلال والحرام، وبالعلم يعرف الله ويوحده، وبالعلم يطاع الله ويعبد». قيل : العلم درك حقائق الأشياء مسموعاً ومعقولاً. وقال النبي ﷺ : «خير الدنيا والآخرة مع العلم، وشر الدنيا والآخرة مع الجهل». وعنه عليه الصلاة والسلام : «يوزن مداد العلماء، ودماء الشهداء يوم القيامة فلا يفضل أحدهما على الآخر، وَلَقَدْ نَزَّ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ مِائَةِ غَزْوَةٍ، وَلَا يَخْرُجُ أَحَدٌ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَّا وَمَلِكٌ مُوَكَّلٌ بِهِ يَشْرُهُ بِالْجَنَّةِ، وَمَنْ مَاتَ وَمِثْرَاةُ الْمُحَابِرِ وَالْأَقْلَامِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ». وقال علي كرم الله وجهه : أقل الناس قيمة أقلهم علماً. وقال أيضاً رضي الله عنه : العلم نهر، والحكمة بحر، والعلماء حول النهر يطوفون، والحكماء وسط البحر ينفوسون، والعارفون في سفن النجاة يسبرون^(٣). وقال موسى عليه السلام في مناجاته : إلهي مَنْ أَحَبَّ النَّاسَ إِلَيْكَ؟ قال : عالم يطلب علماً. وقال بعض السلف رضي الله عنهم : العلوم أربعة : الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنجوم للأزمان، والنحو للسان. وقيل : العالم طيب هذه الأمة، والدنيا داؤها، فإذا كان الطيب يطلب الداء فمتى يرى غيره. وسئل الشعبي عن مسألة فقال لا علم لي بها. فقيل له : ألا تستحي؟ فقال ولم أستحي مما لم تستح الملائكة منه حين قالت لا علم لنا. وعن النبي ﷺ : «فضل العالم على العابد، كفضلي على أدناكم» وروي «كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب». وقال علي كرم الله وجهه : من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته، قبل تأديبه بلسانه. وقيل : مؤدب نفسه ومعلمها أحق بالأجلال من مؤدب الناس ومعلمهم. وأنشدوا^(٤) :

هَلْ لِنَفْسِكَ كَيْفَ التَّعْلِيمُ
كَيْفَا يَصْغُ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيمُ

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمَعْلَمُ غَيْرُهُ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الْفَنَى

(١) سورة : فاطر، الآية : ٢٨.

(٢) سورة : المجادلة، الآية : ١١.

(٣) يسرون : يقيسون ولعل الأصوب : يعبرون.

(٤) تنسب الأبيات لأبي الأسود الدؤلي.

ونراك تصلح بالرشاد عقولنا
فأبداً بفك فأنهها عن غيها^(١)
فهنالك يقبل ما تقول ويقتل
لا تنة عن خلق وتأتي مثله

وقال بعضهم:

إني رأيت الناس في عصرنا
إلا مباهاة لأصحابه
لا يطلبون العلم للعلم
وعلة للنفس والظلم

نظر رجل إلى امرأته وهي صاعدة في السلم فقال لها: أنت طالق إن صعدت، وطالق إن نزلت، وطالق إن وقفت. فرمت نفسها إلى الأرض فقال لها: فذاك أبي وأمي، إن مات الإمام مالك احتاج إليك أهل المدينة في أحكامهم. وقال النبي ﷺ: «هالك أمتي في شيتين: ترك العلم، وجتمع المال». وسئل رسول الله ﷺ عن أفضل الأعمال فقال: «العلم بالله والفقه في دينه» وكررها عليه فقال: يا رسول الله أسألك عن العمل فتخبرني عن العلم فقال: «إن العلم ينفعك معه قليل العمل، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل». وقال عيسى عليه السلام: مَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ حُدَّ فِي الْمَلَكُوتِ الْأَعْظَمِ عَظِيماً. وقال الخليل عليه السلام: العلوم أقتال، والأسئلة مفاتيحها. وعنه عليه السلام: زلة العالم مضروب بها العليل، وزلة الجاهل يخفيها الجهل. وقال الحسن: رأيت أقواماً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون من عمل بغير علم كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، والعامل بغير علم كالسائر على غير طريق، فاطلبوا العلم طلباً لا يضرب بالعبادة، واطلبوا العبادة طلباً لا يضرب بالعلم.

وقال يزيد بن ميسرة: مَنْ أَرَادَ بَعْلَمَهُ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى أَقْبَلَ اللَّهُ بِوَجْهِهِ وَوَجْهَهُ الْعِبَادَ إِلَيْهِ، وَمَنْ أَرَادَ بَعْلَمَهُ غَيْرَ وَجْهِ اللَّهِ، صَرَفَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَوَجْهَهُ الْعِبَادَ عَنْهُ. وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بأجود الأجواد؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «الله أجود الأجواد وأنا أجود ولد آدم، وأجود من بعدي رجل علم علماً فنشره، يبعث يوم القيامة أمة واحدة، ورجل جاد بنفسه في سبيل الله، حتى قتل». وقال الثوري: كان يقال: العلم الفاجر فتنة لكل مفتون. وعن الفضيل رحمه الله تعالى أنه قال: لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم، وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله إذا خضعت لهم رقاب الجبابرة، وانقاد لهم الناس، وكانوا لهم تبعاً، ولكنهم أذلوا أنفسهم وبدلوا علمهم لأبناء الدنيا، فهانوا وذلوا: إنا لله وإنا إليه راجعون فأعظم مصيبة والله أعلم. وللقاضي العلامة أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني وقد أحسن كل الإحسان، كأنما طرزت في خلق حسان:

ولم أقض حق العلم إن كنت كلما
ولم أبذل في خدمة العلم مهجتي
أشقى به غرساً وأجنيه ذلّة
فلن قلت زند العلم كاب فإنما

بدا طمعاً صيرته لي سلماً
لأخلم من لا قيت لكن لأخلماً
إذا فاتباع الجهل قد كان أسلماً
كبا حين لم نحرس حماه وأظلماً

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهّم^(١)

وقيل: مَنْ لم يتعلم في صغره لم يتقدم في كبره. وقال الفضيل: شر العلماء من يجالس الأمراء وخير الأمراء من يجالس العلماء. وقال لقمان: جالس العلماء وزاحمهم بركتيك فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بماء السماء. وقيل: من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار: وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا رأى طالبي العلم قال: مرحباً بكم بانباع الحكمة، ومصاييح الظلمة، خلقتان الثياب، جدد القلوب، رياحين كل قبيلة. وقال علي رضي الله عنه: كفى بالعلم شرفاً أن يدعيه مَنْ لا يحسنه ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل ضعة^(٢) أن يثراً منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه. عن النبي ﷺ: «ما أتى الله أحداً علماً إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتمه أحداً». ودعا بعضهم لآخر فقال: جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية، وممن يظهر حقيقة ما يعلمه بما يعمل، وعن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «على باب الجنة شجرة تحمل ثماراً كلدي النساء يخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن والحليب، والناس عطاش»، وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ تعلّم باباً من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبياً». وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «ويل لأمتي من علماء سوء يتخذون العلم تجارة يبيعونها لا أربح الله تجارتهم».

العلم أنفسُ شيء أنت داخره من يدرس العلم لم تدرس مفاخره
أقبل على العلم واستقبل مقاصده فأول العلم إقبال وآخره

قال الشعبي: دخلت على الحجاج حين قدم العراق فسألني عن اسمي فأخبرته ثم قال: يا شعبي كيف علمك بكتاب الله؟ قلت: عني يؤخذ. قال: كيف علمك بالفرائض؟ قلت: إني فيها المتشي، قال: كيف علمك بأنساب الناس؟ قلت: أنا الفصيل فيها. قال: كيف علمك بالشعر؟ قلت: أنا ديوانه، قال: الله أبوك. وفرض لي أموالاً ومودني على قومي فدخلت عليه وأنا صعلوك من صعايك همدان وخرجت وأنا سيدهم. قال البستي.

إذا لم يزِدْ علمُ الفتى قلبه هديً وسيرته عدلاً وأخلاقه حسناً
فبُسرته أن الله أولاه فتنةً تغشيه حرماناً وتوسعُهُ حزنًا

وقال الهيثم بن جميل: شهدت مالك بن أنس رضي الله عنه سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها لا أدري. وقال الأوزاعي: شكت النواويس إلى الله تعالى ما تجد من تنزيع الكفار فأوحى إليها: بطون علماء سوء أثنى مما أنتم فيه. وقال علي رضي الله عنه: من أفتى الناس بغير علم لعنته ملائكة السماء والأرض. ولصالح اللخمي:

تعلّم إذا ما كنتَ لست بعالم فما العلم إلا عند أهل التعلّم
تعلّم فإنّ العلمَ أزيّن للفتى من الحلو الحسناء عند التكلّم

(١) تجهّم: عيب في وجهه وكلح.

(٢) الضعة: الذل الهوان والصغار.

ودخل عبد الله بن المسلم الهذلي على المهدي في القراء فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل في الرماة فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل في المغنين فأخذ كذلك، ثم دخل في القصاص فأخذ كذلك، فقال المهدي: «لم أر كالיום أجمع لما يجمع الله في أحد منك». ومَلَّ جماعة من الحكماء مجالسة رجل فتواروا عنه في بيت، فرقي السطح، وجعل يستمع من كوة حتى وقع عليه الثلج فصبر فشكر الله له ذلك فجعله إمام الحكماء، لا يختلفون في شيء إلا صدورا عن رأيه، وشكا رجل إلى وكيع بن الجراح سوء الحفظ فقال له: استعن على الحفظ بترك المعاصي، فأنشأ يقول^(١):

شكوتُ إلى وكيع سوءَ حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وذلك أن حفظَ العلمِ فضلٌ وفضلُ الله لا يؤتى لِعاصي

ووجد في بعض الآثار عن بعضهم أنه قال: إذا أردت أن تكون أحفظ الناس فقل عند رفع الكتاب، أو المصحف، أو ابتداء القراءة في كل شيء أردت: بسم الله وسبحانه الله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، عدد كل حرف كتب ويكتب أبد الأبدِين ودهر الدهرين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم. قيل: وإذا أردت أن لا تنسى حرفاً فقل قبل القراءة: اللهم افتح علينا حكمتك، وانشر علينا رحمتك يا ذا الجلال والإكرام. وإذا أردت أن ترزق الحفظ فقل خلف كلا صلاة مكتوبة: آمَنَت بالله الواحد الأحد الحق لا شريك له وكفرت بما سواه. ومن فوائد سيدي الشيخ صالح شهاب الدين أحمد بن موسى بن عجيل رحمه الله تعالى في الحفظ: يقرأ في كل يوم عشر مرات ﴿قَهْمُنَا سَلِيمَانٌ وَكَلَّا آتَيْنَا حَكَمًا وَعِلْمًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾^(٢) يا حي يا قيوم، يا رب موسى وهارون، يا رب إبراهيم ويا رب محمد ﷺ، أَلْزَمْنِي الفهم، وارزقني العلم، والحكمة والعقل، برحمتك يا أرحم الراحمين. وعن أبي يوسف قال: مات لي ولد فأمرت مَنْ يتولى دفنه، ولم أدْعُ مجلس أبي حنيفة خوفاً أن يفوتني منه يوم. وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة: ما رأيت تحت أديم السماء أعلم بالحديث، ولا أحفظ له من محمد بن إسماعيل البخاري، حتى كان يقال إن حديثاً لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث. وقال البخاري رحمه الله تعالى: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، وماتني ألف حديث غير صحيح. وقال: ما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك، وصليت ركعتين، وقال: أخرجه من ستمائة ألف حديث وصنفته في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى. وقال مجاهد: أتينا عمر بن عبد العزيز لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه، وكان يقال: الليث بن سعد رحمه الله تعالى ذهب علمه كله بموته، ولهذا قال الشافعي لما قدم مصر بعد موته: والله لأنت أعلم من مالك، وإنما أصحابك ضيعوك. وقال الليث بن سعد: ما هلك عالم قط إلا ذهب ثلثاً علمه ولو حرص الناس. ويقال: إذا سئل العالم فلا تجب أنت فإن ذلك استخفاف بالسائل والمسؤول. وقالوا: مَنْ خدَم المحابر خدَمته المنابر.

لا تدخر غير العلوم فإنها نغم الذخائر
فالمرء لو ربح البقاء مع الجهالة كان خاسر

(١) الآيات للإمام الشافعي ووكيع هنا أستاذاه المشهور.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٧٩.

وللشافعي رضي الله عنه تعالى عنه:

أخي لن تنال العلم إلا بسنة
ذكاء وحرص واجتهاد وبلغه^(١)
سأنيك عن تفصيلها بيان
وصحة أستاذ وطول زمان

وقال الزهري. العلماء أربعة: سعيد بن المسيب بالمدينة، وعامر الشعبي بالكوفة، والحسن البصري بالبصرة، ومكحول بالشام. وقال بعضهم: العلماء سُرُج الأزمنة كل عالم سراج زمانه يستضيء به أهل عصره. وقيل لإبراهيم بن عيينة: أي الناس أطول ندامة؟ قال: أما في الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره، وأما في الآخرة فعالم مفروط.

كن عالماً وارضَ بصف النعال
فإن تصلّزت بلا آلو
ولا تكن صلدراً بغير الكمال
صيرت ذاك الصلد صف النعال

وقيل: لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام جاء عصفور فأخذ بمقاره من البحر قطرة ثم حط على ورق الخضر ثم طار فنظر الخضر إلى موسى عليه السلام وقال: يا نبي الله إن هذا العصفور يقول: يا موسى أنت على علم من علم الله علمكه الله لا يعلمه الخضر، والخضر على علم من علم الله علمه الله إياه لا تعلمه أنت، وأنا على علم من علم الله علمنيه الله، لا تعلمه أنت، ولا الخضر. وما علمي، وعلم الخضر في علم الله إلا كهذه القطرة من هذا البحر. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٣) قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: خلق الله تعالى أربعين ألف عالم، الإنس والجن عالمان، والبواقي لا يعلمها إلا هو. وقال موسى عليه السلام: يا رب قد قلت للسموات والأرض اتبعا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين، فلو لم تطعك السموات والأرض ماذا كنت فاعلاً بهم. قال: يا موسى كنت أمر دابة من دوابي أن تبتلعهما. قال موسى: يا رب وأين تلك الدابة؟ قال: في مرج من مروجي. قال موسى: يا رب وأين ذلك المرج؟ قال: في علم من علمي لا يعلمه إلا أنا. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في فكرة فقال: أفيم تفكرون، تفكرون في خلق الله، ولا تفكرون في الله، فإن الله خلق من جانب الغرب أرضاً يقال لها البيضاء تقطعها الشمس في أربعين يوماً فيه خلق ما عصوا الله طرفة عين. فقال ابن عمر: يا رسول الله أين إبليس منهم؟ قال: «ما علموا بإبليس خلق، أم لا؟ قال: أمن بني آدم؟ قال: «ما علموا بآدم خلق، أم لا؟ فهذه كلها مما أهدأ الله في علم غيبه ﴿وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون﴾^(٤) وقال قتادة لو كان أحد منا مكفياً من العلم لاكتفى نبي الله موسى عليه السلام إذا قال: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مَا عَلِمْتُ رَشْدًا﴾^(٥).

وقال الحكماء: أفضل العلم وقوف العالم عند علمه. وقال بعضهم: ليس العلم ما خزنته الدفاتر، وإنما العلم ما خزنته الصدور. وقيل: العلم يؤدي إلى التصدير، وقيل: من تواضع للعلم ناله، ومن لم يتواضع له لم ينله.

- (١) البلغة: القناعة بالقليل.
- (٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٥٥.
- (٣) سورة: المدثر، الآية: ٣١.
- (٤) سورة: يس، الآيتان: ٨٢ - ٨٣.
- (٥) سورة: الكهف، الآية: ٦٦.

وقيل: مَنْ بَرَّقَ علمه، بَرَّقَ وجهه، وَمَنْ لَمْ يَسْتَعِدَّ بالعلم مَالاً اكْتَسَبَ به جَمَالاً، والعلم نور وهدى، والجهل غي ووردي. وقال بعضهم: العالم يعرف الجاهل، والجاهل لا يعرف العالم، لأن العالم كان جاهلاً والجاهل لم يكن عالماً. وقيل: أربعة يسودون العبد: العلم، والأدب، والصدق، والأمانة. وقيل: أهل العراق أطلب الناس للعلم. وقال حماد بن سلمة: مثل الذي يطلب الحديث ولا يعرف النحو كمثل الحمار عليه مخلاة لا شعير فيها. ولإبراهيم بن خلف المهراني:

النحو يصلح من لسان الألكن والمرء تكرمه إذا لم يلحن^(١)
وإذا طلبت من العلوم أجلها فأجلها منها مقيم الأكسن

وقال علي بن بشار:

رأيت لسان المرء آية عقله وعنوانه فانظر بماذا تغنؤ
ولا تعدُ إصلاح اللسان فإنه يختبر عما عنده وييسن
ويعجني زئي الفتى وجماله فيقط من عيني ساعة يلحن

ودخل أعرابي السوق فوجدهم يلحنون فقال: سبحان الله يلحنون ويبحون؟ وكلم أبو موسى بعض قواده فلحن فقال: لم لا تنظر في العريية؟ فقال: بلغني أن مَنْ نَظَرَ فِيهَا قَلَّ كلامه. فقال: ويحك لأن يقل كلامك بالصواب، خير لك من أن يكثر كلامك بالخطأ. وكان يقال: مجالسة الجاهل مرض للعاقل، وقال أبو الأسود الدؤلي: إذا أردت أن تعذب عالماً فاقرن به جاهلاً. وقال الشاعر:

جهلتَ ولا تدري بأنك جاهلٌ ومَنْ لي بأنْ تدري بأنك لا تدري

وقال رجل للحسن: أنا أفصح الناس. قال: لا تقل هذا. قال: فخذ علي كلمة واحدة. قال هذه واحدة. أبو جهل كناه المسلمون بذلك، كانت قريش تكتبه أبا الحكم فقال حسان رضي الله تعالى عنه:

الناس كَنُوه أبا حَكِيم والله كَنُاه أبا جَهْل

وأما ما جاء في الأدب فقد قال بعض الحكماء: العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قوتها من الطعام. وقال علي كرم الله وجهه: الأدب كثر عند الحاجة عون على المرأة، صاحب في المجلس، أنيس في الوحدة، تعمر به القلوب الواهية^(٢) وتحيا به الأكباب الميتة وينال به الطالبون ما حاولوا. وقيل: عقل بلا أدب كشجاع بلا سلاح. وحكي أن رجلاً تكلم بين يدي المأمون فأحسن فقال: ابن من أنت؟ قال: ابن الأدب يا أمير المؤمنين. قلن: نعم النسب انتسبت إليه. ولهذا قيل: المرء من حيث يثبت، لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد. قال الشاعر:

كن ابنَ مَنْ شئتَ واكتسبْ أدباً يغنيك محمودُه عن النسبِ
إنَّ الفتى مَنْ يقولُ ها أنا ذا ليس الفتى مَنْ يقولُ كان أبي

(١) اللحن: الغلط في الكلام ولها معانٍ عدة لعل أهمها إبعاد الكلام عن وجهه (التورية).

(٢) الواهية: المضناة - المتعبة.

وقال بعض الحكماء: من كثر أدبه، كثر شرفه، وإن كان ضيعاً، ويَعَدُّ صيته وإن كان خاملاً، وساد إن كان غريباً، وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيراً. قال بعض الشعراء:

لكل شيء زينة في الورى وزينة المرء تمام الأدب
قد يشرف المرء بأدابه فينا وإن كان ضيع النسب
وقال بعض الأعاجم مفتخراً:

ما لي عقلي وهمتي حبي ما أنا مولى وما أنا عري
إذا اتهمى مُتَمِّم إلى أحدٍ فإتني متَمِّم إلى أدبي

وقيل: الفضل بالعقل والأدب، لا بالأصل والحسب. وقيل: المرء بفضيلته، لا بفضيلته، وبكمال لا بجماله وبآدابه لا بآبائه. وقيل لرجل: من أدبك؟ قال: رأيت جهل الجهال قبيحاً فاجتنبته فتأدبت. ومن أدب ولده صغيراً سر به كبيراً. من عرف الأدب اكتسب به المال والجاه، خير الخلال الأدب، وشر المقال الكذب. وقيل لبكرات. ما الفرق بين من له أدب ومن لا أدب له؟ قال: كالفرق بين الحيوان الناطق والحيوان الذي ليس بناطق. ودخل أبو العالية على ابن عباس رضي الله عنهما فأقعده معه على السرير وأقعده رجلاً من قریش تحته فرأى سوء نظرتهم إليه، وخموضة وجوههم فقال: ما لكم تنظرون إليّ نظر الشحيح^(١) إلى الغريم^(٢) المفلس. هكذا الأدب يشرف الصغير على الكبير، ويرفع المملوك على المولى ويقعد العميد على الأسرة. وقال جالينوس: إن الأبن الوضع إذا كان أدبياً كان تقص أبيه زائداً في منزلته، وابن الشريف إذا كان غير أدب كان شرف أبيه زائداً في سقوطه. وقيل: أحسن الأدب أن لا يفخر المرء بأدبه. وسمع معاوية رجلاً يقول: أنا غريب. فقال: كلا الغريب من لا أدب له. ويقال: إذا فأتك الأدب فالزم الصمت فهو من أعظم الآداب. ولعبد الملك بن صالح:

في الناس قوم أضاعوا مجد أولهم ما في المكارم والضوى لهم أرب
سوء التأدب أرداهم وأرذلهم وقد يزين صحيح المنصب الأدب

وقيل: أربعة تسود العبد: الأدب والعلم والصدق والأمانة. وقال بعض الحكماء: خمسة لا تتم إلا بخمسة: لا يتم الحسب إلا بالأدب ولا يتم الجمال إلا بالحلاوة ولا يتم الغنى إلا بالجد ولا يتم البطش إلا بالجراءة، ولا يتم الجهاد إلا بالتوفيق. والله تعالى أعلم.

(١) الشحيح: البخيل.

(٢) الغريم: المقتضى بدين.

الباب الخامس: في الآداب والحكم وما أشبه ذلك

قال الحكماء: إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقهه في الدين، وعضده باليقين فاكفى بالكفاف^(١) واكتفى بالعفاف. وإذا أراد به شراً حبب إليه المال، وبسط منه الآمال، وشغله ببنياه، ووكله إلى هواه، فركب الفساد، وظلم العباد، الثقة بالله أزكى أمل، والتوكل عليه أوفى عمل، من لم يكن له من دينه واعظ، لم تنفعه المواظ، من سره الفساد ساءه المعاد، كل يحصد ما زرع ويجزي بما صنع، لا يفرنك صحة نفسك، وسلامة أمسك، فمدة العمر قليلة، وصحة النفس مستحيلة، من أطاع هواه باع دينه ببنياه، ثمة العلوم العمل بالمعلوم، من رضي بقضاء الله لم يسخطه أحد، ومن قنع بعبادته لم يدخله حسد، أفضل الناس من لم تقسد الشهوة دينه، خير الناس من أخرج الحرص من قبله، وعصى هواه في طاعة ربه، نصرة الحق شرف، ونصرة الباطل سرف.

البخيل حارس نعمته، وخازن لورثته. من لزم الطمع عدم الورع. إذا ذهب الحياء حل البلاء. علم لا ينفع كدواه لا ينفع. من جهل المرء أن يعصي ربه في طاعة هواه، ويهين نفسه في إكرام دنياه. أيام الدهر ثلاثة: يوم مضى لا يعود إليك، ويوم أنت فيه لا يدوم عليك، ويوم مستقبل لا تدري ما حاله ولا تعرف من أهله. من كثر ابتهاجه بالمواهب، اشتد انزعاجه للمصائب. لا تبت على غير وصية وإن كنت من جسمك في صحة، ومن عمرك في فسحة. عظ المسيء بحسن أفعالك، ودل على الجميل بجميل خلائك. إياك وفضول الكلام فإنه يظهر من عيوبك ما بطن، ويحرك من عدوك ما سكن. لا يجد العجول فرحاً، ولا الغضوب سروراً، ولا الملول^(٢) صديقاً.

حسن النية من العبادة، حسن الجلوس من السياسة^(٣). من زاد في خلقه، نقص من حظه. من اتعن الزمان غاته. أظهر الناس محبة، أحسنهم لقاء. لا يكمل للإنسان دينه، حتى يكون فيه أربع خصال: يقطع رجاءه مما في أيدي الناس، ويسمع شتم نفسه ويصبر، ويحب للناس ما يحب لنفسه، ويتق بمواعيد الله. وإياك والحد فإنه يفسد الدين، ويضعف اليقين، ويلهب المروءة. قيل لأفلاطون. ما الشيء الذي لا يحسن أن يقال وإن كان حقاً، قال: مدح الإنسان نفسه. أربعة تؤدي إلى أربعة: الصمت إلى السلامة، والبر إلى الكرامة، والجود إلى السيادة، والشكر إلى الزيادة. من ساء تربيته أهلكه جده. الغرة ثمة الجهل. آفة القوة استضعاف الخصم. آفة النعم قبح المن. آفة الذنب حسن الظن. الحزم أسد الآراء، والغفلة أضر الأعداء.

من قعد عن حيلته أقامته الشدائد، ومن نام عن عدوه أيقظته المكاييد. من قرب السفلة وأطرح ذوي الأحساب والمروءات استحق الخذلان. من عفا تفضل. من كظم غيظه فقد حلم. من حلم فقد صبر، ومن صبر فقد ظفر. من

(١) الكفاف: القليل مما يكفي الإنسان.

(٢) الملول: كثير الملل سريعه.

(٣) السياسة هنا: التدبير والمداورة.

ملك نفسه عند أربع حرمه الله على النار: حين يغضب، وحين يرغب، وحين يرهب، وحين يشتهي. من طلب الدنيا يعمل الآخرة فقد خسرهما، ومن طلب الآخرة بعمل الدنيا فقد ربحهما. كلام المرء بيان فضله وترجمان عقله، فاقصره على الجميل، واقتصر منه على القليل. كل امرئ يعرف بقوله ويوصف بفعله، فقل سديداً، وافعل حميداً. من عرف شأنه، وحفظ لسانه، وأعرض عما لا يعنيه، وكف عن عرض أخيه، دامت سلامته، وقلت ندامته. كن صموئاً وصدوقاً، فالصمت حرز، والصدق عز. من أكثر مقاله ستم، ومن أكثر سؤاله حرم، من استخف بإخوانه خذل، ومن اجتراً على سلطانه قتل. ما عز من أذل جيرانه، ولا سعد من حرم إخوانه. خير النوال ما وصل قبل السؤال. أولى الناس بالنوال أزهدهم في السؤال.

من حسن صفاؤه وجب اصطفاؤه. من غاظك بقيق الشتم منه، فعضه بحسن الحلم عنه. من ييخل بماله على نفسه جاد به على زوج عرسه. إذا اصطنعت المعروف فاستره، وإذا اصطنع إليك فأنشره. من جاور الكرام أمن من الأعداء. من طاب أصله زكا فرعه. من أنكر الصنعة استوجب القطيعة. من مَنَّ بمعروفة سقط شكره، ومن أعجب بعمله حبط^(١) أجره. من رضي من نفسه بالإساءة، شهد على أصله بالرداءة، من رجع في هبته بالغ في خسته. من رقي في درجات الهمم عظم في عيون الأمم. من كبرت همته كثرت قيمته. من ساء خلقه ضاق رزقه. من صدق في مقاله زاد في جماله. من هان عليه المال توجهت إليه الآمال. من جاد بماله جل، ومن جاد بفقره ذل.

خير المال ما أخذ في الحلال وصرف في النوال، وشر المال ما أخذ من الحرام وصرف في الآثام. أفضل المعروف إغاثة الملهوف. من تمام المروءة أن تنسى الحق لك، وتذكر الحق عليك، وتستكبر الإساءة منك وتستصغرها من غيرك. من أحسن المكارم عفو المقتدر. جود الرجل يتجسس^(٢) إلى أصدقائه، ويخلفه يخفئه إلى أودائه^(٣). لا تسئ إلى من أحسن إليك، ولا تمن على من أنعم عليك. من كثر ظلمه واعتداؤه قرب هلاكه وفناؤه. من طال تعديه كثرت أعداؤه. شر الناس من ينصر الظلوم ويخذل المظلوم. من حفر حفيراً لأخيه كان حفنه فيه من سل سيف العدوان أغمد في رأسه.

من لم يرحم العبرة سلب النعمة، ومن لم يقل العثرة سلب القدرة. لا تحاج^(٣) من يهلك خوفه، ويملكك سيفه. صمت تسلم به، خير من نطق تندم عليه. من قال ما لا ينبغي، سمع ما لا يشتهي. جرح الكلام أصعب من جرح الحسام. من سكت عن جاهل فقد أوسع جواباً، وأوجعه عتاباً. من أمات شهوته أحيأ مروءته، من كثرت عوارفه كثرت معارفه. من لم تقبل توبته عظمت خطيئته. إياك والبغي فإنه يصرع الرجال، ويقطع الآجال. الناس في الخير أربعة أقسام: منهم من يفعله ابتداءً، ومنهم من يفعله اقتداءً، ومنهم من يتركه حرماناً، ومنهم من يتركه استحساناً، فمن فعله ابتداءً فهو كريم، ومن فعله اقتداءً فهو حكيم، ومن تركه حرماناً فهو شقي، ومن تركه استحساناً فهو دنيء. من سالم سلم، ومن قدم الخير غنم. من لزم الرقاد عدم المراد، ومن دام كسله خاب أمله.

المعجول مخطيء وإن ملك، والمتأنى مصيب وإن هلك. من أمارات الخذلان معادة الإخوان استفساد الصديق

(١) حبط: خسر.

(٢) أودائه: أصحاب وده، أصدقائه.

(٣) المحاجة: المجادلة وعرض الحجج.

من عدم التوفيق. الرفق مفتاح الرزق. من نظر في العواقب سلم من النوائب، ومن أسرع في الجواب أخطأ في الصواب. من ركب العجل أدركه الزلل. من ضعفت آراؤه قويت أعداؤه. من قلت فضائله ضعفت وسائله. من فعل ما شاء لقي ما ساء من كثر اعتباره قل عثاره. من ركب جده غلب ضده، القليل مع التدبير أبقي من الكثير مع التبذير. ظن العاقل أصح من يقين الجاهل. قليل تحمد آخرته خير من كثير تدم عاقبته. من خاف سطوتك تمنى موتك. إذا استشرت الجاهل اختار لك الباطل. من أعجبه آراؤه غلبته أعداؤه. من قصر عن السياسة صغر عن الرياسة. لا تشتك ضعفك إلى عدوك فإنك تشمت بك وتطمعه فيك. من لم يعمل لنفسه عمل للناس، ومن لم يصبر على كده صبره على الإفلاس. من أفشى سره أفسد أمره.

الحازم من حفظ ما في يده، ولم يؤخر شغل يومه لغده. من طلب ما لا يكون طال تعب. لا تفتح باباً يعيك سده، ولا ترم سهماً يعجزك رده. سوء التدبير سبب التدمير. اغمد سيفك ما ناب عنك لسانك. ليس العجب من جاهل يصحب جاهلاً ولكن العجب من عاقل يصحبه، لأن كل شيء يفر من ضده، ويميل إلى جنسه. إذا نزل القدر بطل الحذر. رب عطب تحت طلب، ومنية تحت أمنية. لا يخلو المرء من ودود يمدح، وعدو يقدح. الجوع خير من الخضوع. الكذوب متهم وإن صدقت لهجته، ووضحت حجته. من طأوعه طرفه اشتد حتفه^(١). من لم تسر حياته لم تغم وفاته. من أعظم الذنوب تحسين العيوب. الشرف بالهمم العالية لا بالرسم البالية^(٢).

إذا ملك الأراذل هلك الأفاضل. من ساءت أخلاقه طاب فراقه. من حسنت خصاله طاب وصاله. بعد يورث الصفا خير من قرب يوجب الجفا. اللسان سيف قاطع لا يؤمن من حده والكلام سهم نافذ لا يمكن رده. من اطلع على جاره انتهكت حجب أستاره. أجهل الناس من قل صوابه وكثر إعجابه. أظهر الناس نفاقاً من أمر بالطاعة ولم يأتمر بها ونهى عن المعصية ولم يتنه عنها. من سلا^(٣) عن المسلوب كمن لم يسلب، ومن صبر على النكبة كمن لا ينكب. الفضيلة بكثرة الآداب لا بفراغة الدواب. من زادت شهوته نقصت مروءته. من عرف بشيء نسب إليه، ومن اعتاد شيئاً حرص عليه. عند الجدال يظهر فضل الرجال. من أخر الأكل لذ طعامه، ومن أخر النوم طاب منامه.

موت في دولة وعز خير من حياة في ذلة وعجز. مقاساة الفقر هي الموت الأحمر ومسألة الناس هي العار الأكبر. حق يضر خير من باطل يسر. كم من مرغوب فيه يسوء ولا يسر، ومرهوب منه ينفع ولا يضر. عثرة الرجل تزيل القدم، وعثرة اللسان تزيل النعم. المزاح يورث الضغائن. من حلم ساد، ومن تفهم ازداد. معاشرة ذوي الألباب عمارة القلوب. شر ما صحب المرء الحسد. ربما أصاب الأعمى رشده وأخطأ البصير قصده. اليأس خير من التضرع إلى الناس. لا تكن ضاحكاً في غير عجب ولا ماشياً في غير أرب. من سعى بالنسيمة حلزوه القريب ومقته الغريب. الاستشارة عين الهداية وقد خاطر من استبد برأيه. أشرف الغنى ترك المنى.

من ضاق خلقه ملأ أهله. الحسد للصديق من سقم المودة. كل الناس راض عن عقله. دنياك كلها وقتك الذي أنت فيه. استر سوء أخيك لما يعلم فيك. خمول الذكر أسنى من الذكر الذميم. العجلة أخت الندامة. من كرم أصله

(١) الحذف: الهلاك

(٢) البالية: أي بمقام الأجداد المهترئة.

(٣) سلا يسلو: نسي وطابت نفسه بعد حزن.

لأن قلبه. ومن قل ليه زاد عجبه. ربما أدرك بالظن الصواب. ليس لمعجب رأي، ولا لمتكبر صديق. سل عن الرفيق قبل الطريق. وعن الجار قبل الدار. لا تعادين أحداً فإنك لا تخلو من عدواة. جاهل أو عاقل كالحذر من حكمة العاقل وجهل الجاهل. ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدل على ربه. من قل سروره كان الموت راحته. لا تردن على ذي خطأ خطاه فيستفيد منك علماً ويتخذك عدواً. استحي من ذم من لو كان حاضراً لبالغت في مدحه، ومدح من لو كان غائباً لسارعت إلى ذمه.

وقيل: المنفعة توجب المحبة، والمضرة توجب البغضة، والمخالفة توجب العدواة، والمتابعة توجب الألفة، والعدل يوجب اجتماع القلوب، والجور يوجب الفرقة، وحسن الخلق يوجب المودة، وسوء الخلق يوجب المباداة، والانبساط يوجب المؤانسة، والانقباض يوجب الوحشة، والكبر^(١) يوجب المقء، والتواضع يوجب الرفعة، والجدود يوجب المدح، والبخل يوجب الذم، والتواني ويوجب التضييع، والحزم يوجب السرور، والحذر يوجب السلامة، وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة، وبالتأني تسهل المطالب، وبحسن المعاشرة تدوم المحبة، ويخفض الجانب تأنس النفوس، وسعة خلق المرء يطيب عيشه، والاستهانة توجب التباعد، وبكثرة الصمت تكون الهيبة، ويعدل المنطق تجلب الجلالة، وبالنصفة^(٢) تكثر المواصله، وبالأفضال يعظم القدر، ويصالح الأخلاق تزكو الأعمال، وباحتمال المؤمن يحب السؤدد، وبالحلم على السفيه تكثر أنصارك عليه، وبالرفق والتودد تستحق اسم الكرامة، ويترك ما لا يعينك يتم لك الفضل.

وَاعْلَمْ أَنَّ السَّيَاسَةَ تَكْسُو أَهْلَهَا الْمَحَبَّةَ. وَمَنْ صَفَرَ الْهَمَّةَ الْحَسَدَ لِلصَّدِيقِ عَلَى النِّعْمَةِ. وَالنَّظَرَ فِي الْعَوَاقِبِ نَجَاةً. وَمَنْ لَمْ يَحْلَمْ نَدَمَ، وَمَنْ صَبَرَ غَنَمَ، وَمَنْ سَكَتَ سَلِمَ، وَمَنْ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ، وَمَنْ أَبْصَرَ فَهَمَ، وَمَنْ فَهَمَ عِلْمَ، وَمَنْ أَطَاعَ هَوَا ضَلَّ. وَمَعَ الْعَجَلَةِ النَّدَامَةُ، وَمَعَ التَّأْنِي السَّلَامَةُ. وَزَارَعَ الْبِرَّ يَحْصِدُ السَّرُورَ، وَصَاحَبَ الْعَقْلَ مَغْبُوطَ، وَصَدَاقَةَ الْجَاهِلِ تَعَبَ. إِذَا جَهَلْتَ فَاسْأَلْ، وَإِذَا زَلَلْتَ فَارْجِعْ، وَإِذَا أَسَأْتَ فَانْدِمْ، وَإِذَا نَدِمْتَ فَاقْلَعْ. الْمَرْوَاتُ كُلُّهَا تَبِعَ لِلْعَقْلِ، وَالرَّأْيُ تَبِعَ لِلتَّجَرِبَةِ، وَالْعَقْلُ أَصْلُهُ الثَّبَتُ وَثَمَرَتُهُ السَّلَامَةُ، وَالْأَعْمَالُ كُلُّهَا تَتَّبِعُ الْقَدْرَ. وَاخْتَارَ الْعُلَمَاءُ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ مِنْ أَرْبَعِ كُتُبٍ: مِنَ التَّوْرَةِ: مَنْ قَنَعَ شَبِعَ.

وَمِنَ الْإِنْجِيلِ: مَنْ اعْتَرَلَ نَجَا.

وَمِنَ الزَّبُورِ^(٣): مَنْ سَكَتَ سَلِمَ.

وَمِنَ الْقُرْآنِ: «وَمَنْ يَمْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وَاجْتَمَعَتْ حِكْمَاءُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ عَلَى أَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: لَا تَحْمِلْ بَطْنَكَ مَا لَا يَطِيقُ، وَلَا تَعْمَلْ عَمَلًا لَا يَضَعُكَ، وَلَا تَفْتَرِ بِامْرَأَةٍ، وَلَا تَقْ بَمَالٍ وَلَوْ كَثُرَ. وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

(١) الكبر: الغطرسة.

(٢) النصفة: الإنصاف وهو تأدية الحقوق.

(٣) الزبور: الكتاب الذين أنزل على نبي الله داود.

الباب السادس: في الأمثال السائرة

وفيه فصول

الفصل الأول: فيما جاء من ذلك في القرآن العظيم وأحاديث النبي الكريم

اعلم، أن الأمثال من أشرف ما وصل به اللبيب خطابه، وحلى بجواهره كتابه، وقد نطق كتاب الله تعالى وهو أشرف الكتب المتزلة بكثير منها، ولم يخل كلام سيدنا رسول الله ﷺ منها وهو أفصح العرب لساناً، وأكلمهم بياناً، فكم في إيراد وإصداره من مثل يعجز عن مواراته في البلاغة كل بطل، وستذكر إن شاء الله تعالى بعد ذلك نبذة من أمثال العرب والمولدين والعامية.

فمن أمثال كتاب الله تعالى قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(١) ﴿الآن حَصْحَمَ الْحَقُّ﴾^(٢) ﴿فُضِّيَ الْأَمْرَ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾^(٣) ﴿أَلَيْسَ الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾^(٤) ﴿ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾^(٥) ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾^(٦) ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٧) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾^(٨) ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَعْتَبٍ﴾^(٩) ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾^(١٠) ﴿فَنَعَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خيراً كثيراً﴾^(١١) ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا سَبْعَةَ أَفْرَاحٍ بِهَا﴾^(١٢) ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْةٌ﴾^(١٣) ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخْلَنَاهُمْ بِغَتَّةٍ﴾^(١٤) ﴿وَمَا عَلَى

(١) سورة: آل عمران، الآية: ٩٢. ومعنى حصص الحق: ظهر ويان.

(٢) سورة: يوسف، الآية: ٥١.

(٣) سورة: يوسف، الآية: ٤١.

(٤) سورة: هود، الآية: ٨١.

(٥) سورة: الأعراف، الآية: ٩٥.

(٦) سورة: النجم، الآية: ٥٨.

(٧) سورة: البقرة، الآية: ٤٤.

(٨) سورة: سبأ، الآية: ٥٤. ومعنى حيل: فرّق.

(٩) سورة: الأنعام، الآية: ٦٧.

(١٠) سورة: الإسراء، الآية: ٨٤.

(١١) سورة: النساء، الآية: ١٩.

(١٢) سورة: آل عمران، الآية: ١٢٠.

(١٣) سورة: المائدة، الآية: ٣٨.

(١٤) سورة: الأنعام، الآية: ٤٤. ومعنى بغتة: فجأة.

الرسول إلا البلاغ»^(١) «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله»^(٢) «ما على المحسنين من سيل»^(٣) «تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى»^(٤) «هل جزاء الإحسان إلا الإحسان»^(٥) «ولا يبتك مثل خبير»^(٦) «ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم»^(٧) «كل حزب بما لديهم فرحون»^(٨) «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»^(٩) «لا يستوي الخبيث والطيب»^(١٠) «فقرت منكم لما خفتكم»^(١١) «وإن كثيراً من الخلطاء لينفي بعضهم على بعض»^(١٢) «يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون»^(١٣) «ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء»^(١٤) «لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تشؤكم»^(١٥) «وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين»^(١٦) «ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه»^(١٧) «وإنهم لكانفبون»^(١٨) «واعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم»^(١٩) «ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرر للجأوا في طفياتهم يعمهون»^(٢٠) «فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر»^(٢١) «إنا وجلنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون»^(٢٢) «يا ليت بيني وبينك بُعد المشرقين»^(٢٣) «فبئس القرين»^(٢٤) «فما وجلنا فيها غير بيت من المسلمين»^(٢٥) «لا يجليها لوقتها إلا

- (١) سورة: المائدة، الآية: ٩٩.
- (٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٤٩.
- (٣) سورة: التوبة، الآية: ٩١.
- (٤) سورة: الحشر، الآية: ١٤.
- (٥) سورة: الرحمن، الآية: ٦٠.
- (٦) سورة: فاطر، الآية: ١٤.
- (٧) سورة: الأنفال، الآية: ٢٣.
- (٨) سورة: الروم، الآية: ٣٢.
- (٩) سورة: البقرة، الآية: ٢٨٦.
- (١٠) سورة: المائدة، الآية: ١٠٠.
- (١١) سورة: الشعراء، الآية: ٢١.
- (١٢) سورة: ص، الآية: ٢٤. ومعنى الخلطاء: الأصحاب والشركاء.
- (١٣) سورة: الصف، الآية: ٢. ويزكي: يمتدح.
- (١٤) سورة: النساء، الآية: ٤٩.
- (١٥) سورة: المائدة، الآية: ١٠١.
- (١٦) سورة: يس، الآية: ٤٦.
- (١٧) سورة: الأنعام، الآية: ٢٨.
- (١٨) سورة: المؤمنون، الآية: ٩٠.
- (١٩) سورة: المائدة، الآية: ٩٨.
- (٢٠) سورة: المؤمنون، الآية: ٧٥. ولجأوا بالغوا وأوغلوا في النفي.
- (٢١) سورة: الغاشية، الآيتان: ٢١ - ٢٢.
- (٢٢) سورة: الزخرف، الآية: ٢٣.
- (٢٣) سورة: الزخرف، الآية: ٣٨.
- (٢٤) سورة: الزخرف، الآية: ٣٨.
- (٢٥) سورة: الذلريات، الآية: ٣٦.

هو»^(١) «فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى»^(٢) «كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»^(٣) «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ»^(٤) «وَمَا رَيْكَ بِغَاظِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ»^(٥) «وَأَمَجَرَهُمْ مَجْرًا جَمِيلًا»^(٦) «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا»^(٧) «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ»^(٨) «فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ»^(٩) «وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ»^(١٠) «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ»^(١١) «وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ»^(١٢) «وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا»^(١٣) «لَمَثَلٌ هَذَا فليعمل العاملون»^(١٤) «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ»^(١٥) «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ»^(١٦) «أَفَسِحْرَ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ»^(١٧)

ومن الأمثال من الحديث النبوي: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى. نية المرء خير من عمله. آفة العلم النسيان. من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. أنزلوا الناس منازلهم. اليد العليا خير من اليد السفلى. من مات غريباً مات شهيداً. مظل^(١٨) الغني ظلم. يد الله مع الجماعة. الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق. من غشنا فليس منا. سيد القوم خادهم. الحياء شعبة من الإيمان. تخيروا لنطفكم. ابدأ بنفسك ثم بمن تعول. حدث عن البحر ولا حرج. المجالس بالأمانات. كل ميسر لما خلق له. اطلبوا الخير من حسان الوجوه. إياك وما يعتذر منه. الوحدة خير من جليس السوء. استعينوا على الحوائج بالكتمان. الندم توبة. لا يكون المؤمن طعاناً ولا لعاناً. دع ما يريك إلى ما لا يريك. من كثر سواد قوم فهو منهم. انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً. انتظار الفرج عبادة. كاد الفقر أن يكون كفراً. نعم صومعة الرجل بيته. الأعمال بخواتيمها.

الفصل الثاني: في أمثال العرب

إن من البيان لسحرا. إن الجواد يعثر. إن البلاء موكل بالمنطق. إن أخا الهيجاء من يسعى معك، ومن يضر نفسه

- (١) سورة: الأعراف، الآية: ١٨٧. ويجليها: يظهرها.
- (٢) سورة: النجم، الآية: ٣٢.
- (٣) سورة: الرحمن، الآية: ٢٩.
- (٤) سورة: المرسلات، الآية: ٥٠.
- (٥) سورة: الأنعام، الآية: ١٣٢.
- (٦) سورة: المزمل، الآية: ١٠.
- (٧) سورة: الجاثية، الآية: ١٥.
- (٨) سورة: الأعراف، الآية: ١٥٥.
- (٩) سورة: الحشر، الآية: ٢.
- (١٠) سورة: الواقعة، الآية: ٧٦.
- (١١) سورة: الملك، الآية: ٣.
- (١٢) سورة: ص، الآية: ٨٨.
- (١٣) سورة: الفرقان، الآية: ٦٧.
- (١٤) سورة: الصافات، الآية: ٦١.
- (١٥) سورة: الرحمن، الآية: ٢٦.
- (١٦) سورة: آل عمران، الآية: ١٨٥.
- (١٧) سورة: الطور، الآية: ١٥.
- (١٨) المظل: التسويف والتأخير.

ليفكك. أنف في السماء وأست في الماء. إن الذليل الذي ليست له عضد. أي الرجال المهذب. إنما هو كبرق خلب^(١) إذا أدير الدهر عن قوم كفى عدوهم أمرهم. إياك أعني فاسمعي يا جارة. إن لم يكن وفاق ففراق. إنك لا تجني من الشوك العنب. إذا حان القضاء ضاق القضاء. إن المناكح خيرا للأبكار. إذا كنت مناطحاً فناطق بذوات القرون. أوري إلى ركن بلا قواعد. إياك أن تضرب بلسانك عنقك. أكل وحمد خير من أكل وذم. آفة المروءة خلف الوعد. إذا قلت له زن طأطأ رأسه وحزن. إذا أتاك أحد الخصمين وقد فقت عينه فلا تقض له حتى يأتيك خصمه فلعله فقت عيناه. ترك الذنب أسير من طلب التوبة. إتق شر من تحسن إليه. الناس إخوان وشتى في الشيم. بلغ السيل الزبي. أجمع كلك يتبعك. حافظ على الصديق ولو في الحريق. اشتدي أزمة تفرجي. اتبع البيئة الحسنة تمحها. الخيل أعرف بفرسانها. رمتي بطرفها وانسلت. رب رمية من غير رام. الرياح مع السماح. رب أكلة تمنع أكالات. استراح من لا عقل له. رب أخ لم تلده أمك. رب طمع أدى إلى عطب. ربما كان السكوت جواباً. رب ملوم لا ذنب له. رب عين أنم من لسان. رحم الله من هداني إلى عيوبي. ركوب الخنافس ولا المشي على الطنافس^(٢). سبق السيف العذل^(٣) زوج من عود خير من قعود. سبك من بلفك النسب. سحابة صيف، عن قليل تقشع. شر أيام الديك يوم تغسل رجلاه. طاعة النساء ندامة. اطلب تغفر. طرف الفتى يخبر عن لسانه. ظاهر العتاب خير من باطن الحقد. عند الصباح يحمد القوي السرى. والظلم مرتعه وخيم. عند النطاح يغلب الكبش الأجم^(٤).

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامة

اعقل وتوكل. العتاب قبل العقاب. عند الرهان تعرف السوابق. عند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان. عند النازلة تعرف أذاك. في القمر ضياء والشمس أضواء منه. القول ما قالت حذام. لقد أسمعت لو ناديت حياً. أقلل طعامك يحمد منامك. كل فتاة بأبيها معجبة. كل كلب ببابه نباح. كاد العروس أن يكون ملكاً. كثرة العتاب توجب البغضاء. أكثر مصارع الرجال تحت بروق المطامع. الكلام أنثى، والجواب ذكر. كل إناء يروشح بما فيه. كما تزرع تحصد. كل امرئ في بيته صبي. كل جوال خير من أسد رابض. لقد ذل من بالت عليه الثعالب. ليس الخير كالعيان. لكل صارم نبوة ولكل جواد كبوة^(٥). لكل قادم دهشة. لعل لها عنراً وأنت تلوم. لكل ساقطة لاقطة. لكل مقام مقال. لك لسان من رطب ويدان من خشب. للباطل جولة ثم يضمحل. ليست النائحة الثكلى مثل المستأجرة. لكل غد طعام. لكل دهر دولة ورجال. لا عطر بعد عروس. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين. لا يضر السحاب نباح الكلاب. لا تَقْتَنِي من كلب سوء جرواً، مقتل الرجل بين فكيه. ما حك جلدك مثل ظفرك. من عتب على الدهر طال عتبه. معاتبة الإخوان خير من فقدهم. النفس مولعة بحب العاجل. هذه بتلك والبادي أظلم. يا حبذا الإمارة ولو على الحجارة. يكسو الناس وأسته عارية. يدك منك وإن كانت شلاء.

(١) الخلب عن البروق: ما لا مطر وراءه.

(٢) الطنافس: فواره المخدات.

(٣) العذل: اللوم.

(٤) الأجم: ملف القرون.

(٥) كبوة: سقطة وهفوة.

الفصل الثالث: في أمثال العامة والمولدين

التسلط على الممالك ذنابة. اجلس حيث يؤخذ بيدك وتبر، ولا تجلس حيث يؤخذ برجلك وتجبر. أجراً الناس على الأسد أكثرهم له رؤية. الحاجة تفتق الحيلة. الحاوي لا ينجو من الحيات. الحية تدور وإلى الرحي ترجع. المؤذي ردي كلما جلوته صدي. الأسواق موائد الله في أرضه. السلامة إحدى الغنيمتين. الشاة المنذوحة لا يؤلمها السليخ. الطير بالطير يصاد. اطلع القرد في الكنيف فقال هذه المرأة لهذا الوجه الظريف. العادة طبيعة خامسة. الغائب حجته معه. الخضوع عند الحاجة رجولية. الناس أتباع لمن غلب. النكاح يفسد الحب. النصح بين الملا تفرغ. الحر حر وإن مسه الضر، والمبد عبد وإن ملك الدار. الثقل إذا تخفف صار طاعوناً. أصبح من حلي على زنجية. العمل للزربخ والاسم للثورة^(١). البغل الهرم لا يفزه صوت الجملجل. بدن وافر وقلب كافر. تزاوروا ولا تجاوروا. تعاشرُوا كالإخوان وتعاملوا كالأجانب. ثمرة العجلة الندامة. جواهر الأخلاق تفضحها المعاشرة. حشما سقط لقط. خذ اللص قبل أن يأخذك. خذ القليل من اللثيم وذمه. ذُلٌّ من لا سفيه له. ريق العدو سم قاتل. رب ساع كقاعد. زكاة البدن العلل. زلق الحمار وكان من سهوة المكاري. زلة الرجل عظم يجبر، وزلة اللسان لا تبقي ولا تذر. سلطان غشوم خير من فتنة تدوم. سواء قوله ويوله. سفير السوء يفسد ذات اليمين. شهر ليس لك فيه رزق لا تعد أيامه. صديق الولد عم الولد. ضرب الطبل تحت الكساء. طاعة الولا بقاء العز. طفيلي ويقترح. عناية القاضي خير من شاهدي عدل. دلت على أهلها براقش (وهو اسم كلبة نبحت فدلّت على الجيش قتلوهم). غش القلوب يظهر في فلتات الألسن، وصفحات الوجوه، غنى المرء في الغربة وطن، قر من الموت وفي الموت وقع. فم يسبح وقلب يذبح. فلان كالكمة يزار ولا يزور. قيل للزمار تهياً للزمر قال: الزمار في كمي، والريح في فمي. كُلُّ قَلِيلًا تَعِشْ كَثِيرًا. كلامه ريح في قفص. كالإبرة تكسو الناس وهي عريانة. كلمة حكمة من جوف خرب. كان المريب يقول خذوني. كنت سندناً فصرت مطرقة. كل ما فاتك من الدنيا فهو غنيمة. كلما طار قنعوا جناحه. لو كان المزاح فحلاً لم يتج إلا شراً. لسان الجاهل مفتاح حفه لكل جديد للذة. لو ضاعت صفة ما وجدت إلا في قناه. لو كان في اليوم خير ما فات الصياد. من اعتمد على شرف آبائه فقد عقهم. من سعادة المرء أن يكون خصمه عاقلاً. وبالله التوفيق.

الفصل الرابع: في الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم

حرف الألف

- | | |
|---|--|
| وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مُحَالَةَ زَائِلٌ | - أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ |
| فَقَدْ بَطَلَ السَّحَرُ وَالسَّاحِرُ | - إِذَا جَاءَ مُوسَى وَأَلْقَى الْعَصَا |
| فَأَبْعَدَكَ اللَّهُ مِنْ شَجَرَاتِ | - إِذَا لَمْ يَكُنْ فَيَكُنْ ظِلٌّ وَلَا خَبَا |
| فَأَيُّ مَكَانٍ مِنْ مَكَانِكَ أَلْطَفُ | - إِذَا كُنْتَ فِي فِكْرِي وَقَلْبِي وَمَقْلَتِي |
| فَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ كَيْفَ يَنْفَعُهُ | - إِذَا أَرَادَ كَرِيمٌ مَنَعَ صَاحِبَهُ |

(١) نورة: خليط تستخدمه النسوة لإزالة الشعر يحتوي زربخاً.

ظلمت وإن تقصد إلى الباب تهتد
على طرف الهجران إن كان يعقل
وإن كان لي مال فأنت صديقي
بالجد يُرزق منهم من يُرزق
هل جديد مثل ملبوس خلق^(١)
والمواري حكمها أن تسترد
إذا رأى منك يوماً غرة^(٢) وثبا
أن ترى مقلتي طلعة حر
فدغة فدوته ذابغة
عليك فكن لها ثبّت الجنان
فدونك الجبل به قناختي
فلامّة الإبرار فيها تظهر
فأحدهما لا شك ذلك آخذ
فلا تلم الصيان فيه على الرقص
سمت بجناحيها إلى الجو تصعد
أصبّت حليماً أو أصابك جاهل
وجاوزه إلى ما تستطيع
ولكن حديد الباب عند الثرائد
أخو عامر من مه بهوان
عُذت ذنوباً قُتل لي كيف اعتلر
فإذا افتتحت قد هوى بك من هوى
فأيسر ما يمرّ به الوحول
فيقطعها عمداً ليلم سائره
يومك أبعدت الدواة عن القم
فإنك قد أسندتها شر مسند
وكلّ زمان بالكرام بخيل

- إذا ما أتيت الأمر من غير باب
- إذا أنت لم تصف أخاك وجذته
- إذا لم يكن عندي نوال هجرتي
- الناس في طلب المعاش وإنما
- أيها السائل عما قد مضى
- إنما أنفسنا عارية^(٣)
- إن العدو وإن أبلى مسالمة
- أتمنى على الزمان محالا
- إذا ملك لم يكن ذا هيبة
- إذا ثارت خطوب الدهر يوماً
- إذا كنت تعرضي بما قد ترى
- إن الأمور إذا بدت لزوالها
- إذا ضاع شيء يين أم وبتهنا
- إذا كان رب البيت بالطليل ضارياً
- إذا ما أراد الله إهلاك نمل
- إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى^(٤)
- إذا لم تطع أمراً فدغة
- إذا صوت العصفور طار فواده
- أمّن عامراً تكرم عليه فإنما
- إذا محاسني اللاتي أتيت بها
- إخوان صدق ما رأوك ببطوة
- إذا اعتاد الفتى خوض الناي
- ألم تر أن المرة تدوي^(٥) يمينه
- إذا أنت لم تعلم طيبك كل ما
- إذا أنت حملت الخيون أمانة
- أكل خليل هكذا غير متصف

(١) خلق: بال.

(٢) عارية: مستعارة.

(٣) غرة: غفلة.

(٤) الخنا (وتكتب بالمقصورة أيضاً): الفحش.

(٥) الدوى: العرض والسقم.

- إذا أنت عبتَ المرءَ ثم أتيتَه
- أسأتُ إذا أَحَسَّنْتُ ظنِّي بكم
- العادياتُ إذا أَلَمَّ خطوبُها
- الخيرُ لا يأتِيكَ متصلاً
- العلمُ ينهضُ بالخسيسِ إلى العلا
- الكفرُ بالنعمةِ يدعو إلى
- أيا دارهم ما كنت أنت بدارهم
- أقلب طرفي لا أرى غير صاحب
- إذا ما قضيتَ الدَّيْنَ بالدَّيْنِ لم يكن
- فأنت وَمَنْ تَزْرِي عليه سواء
والحزم سوءُ الظنِّ بالناس
فلها مَسَاوٍ^(١) مرة ومحاسنُ
والشرُّ يسبقُ سيله مطره
والجهلُ يقعدُ بالفتى بالمنسوب
زوالها والشكرُ أبقي لها
ولا أنا مذ سار الركاب بهم أنا
يميل مع النعماء حيث تميل
قضاء ولكن ذاك غرم على غرم

حرف الباء الموحد

- بنا فوق ما تشكو فصبراً لعلنا
- بالملح نصلح ما نخشى تَغْيِيرُهُ
- بني عننا إن العداوة شأنها
- نرى فرجاً يشفي السقام قريباً
فكيف بالملح إن حلت به الغير
ضغائن^(٢) تبقى في نفوس الأقارب

حرف التاء-المثناة الفوقية

- تحن إليه أئدة البرايا
- تلومُ على القطيعة مَنْ أتاها
- تلجى^(٣) الضرورات في الأمور إلى
- تفرقتِ الطباءُ على حراش
- تجتلي الأذن منه أحسن مما
- وتهواه الخلائق للسمع
وأنت ستتهما للناس قلبي
سلوك ما لا يليق بالأدب
وما يدري حراش ما يصيدُ
تجتلي العين من وجوه البدور

حرف الجيم

- جنُّ له الدهر فنال الغنى
- جرئتُ أهلي وأهليه فما تركت
- آه لمن أغفلَهُ الدهرُ
إلى التجارب في ودِّ امرئ غرضاً

حرف الحاء المهملة

- حيَّاك مَنْ لم تكن ترجو تَحْيَتَهُ
- لولا الدراهمُ ما حيَّاك إنسانُ

حرف الخاء المعجمة

- خفض الجأش واصبرن رويداً
- خليلي إن الحب صعب مراسه
- فالرزايا إذا توالَّتْ توالَّتْ
وإن عزيز القوم فيه يهانُ

(١) مساو: تخفيف مساوي، ضد المحاسن.

(٢) ضغائن: مفردا ضغينة وهي الحقد.

(٣) تلجى: تخفيف تلجىء: تدفع.

- خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة
- خيالك في عيني وذكرك في فمي
- إن الجلوس مع العيال قبيح
- ومشواك في قلبي فأين تغيب
- خن من أمت ولا تركزن إلى أحد
- فما نصحتك إلا بعد تجريبي

حرف الدال المهملة

- داود محمود وأنت ملزم
- دعيني أنهب الأموال حتى
- عجباً لذلك وأنتما من عود
- أعف الأكرمين عن اللثام

حرف الذال المعجمة

- ذو العقل يشقى في النعيم بعقله
- وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

حرف الراء

- رُبَّ مهزولٍ سمين عرضته
- رضىت ولا أرضى إذا كان مسخطي
- رضىت ولا أرضى إذا كان مسخطي
- ردوا عليّ صحافاً سودتها
- رُبَّ يومٍ بكيت منه فلما
- وسمين الجسم مهزول الحبيب
- من الأمر ما فيه رضا صاحب الأمر
- فيكم بلا حيق ولا استحقاق
- صرتُ في غيره بكيت عليه

حرف الزاي

- زنيم^(١) ليس يعرف من أبوه
- بنفي الأم ذو حسبٍ لئيم

حرف السين المهملة

- سروري أن تبقى بخير ونعمة
- سوء حظي أناني منك هجرأ
- سبكناه ونحببه لجينأ
- متذكرني إذا جرئت غيري
- وإنني من الدنيا بلذلك قانع
- فعلى الحظ لا عليك الغتاب
- فأبلى الكير^(٢) عن خبث الحديد
- وتعلم أنني نعم الصديق

حرف الشين المعجمة

- شقيمي إليك الله لا رب غيره
- شكرتك قبل الخير إن كنت واثقأ
- وليس إلى رد الشفيع سئل
- بأنني بعد الخير لا شك شاكراً

حرف الصاد المهملة

- صخخ لنا والدة أولأ
- وأنت في حل من الوالدة

(١) الزنيم: الملتحق بقوم ليس منهم.

(٢) الكير: آلة يستعملها الحداد في التفخ.

حرف الضاد المعجمة

- ضاقت ولو لم تضق لما انفرجت والعسر مفتاح كل ميسور

حرف الطاء المهملة

- طويل عمر المعالي والندى أبداً قصير عمر الأعادي والمواعيد

- طوبى لأعين قوم أنت بينهم القوم في نزهة من وجهك الحسن

حرف الظاء المشالة

- ظهرت خيانات الثقات وغيرهم حتى اتهمنا رؤية الأبصار

- ظلمت امرأ كلفته غير خلقه وهل كانت الأخلاق إلا غرائزا

حرف العين المهملة

- علم الله كيف أنت فأعطنا لك المحل الجليل من سلطانه

- على المرء أن يسعى لما فيه نفعه وليس عليه أن يساعد الدهر

- عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر

- عبت على عمرو فلما تركه وجريت أقواماً بكيت على عمرو

حرف الغين المعجمة

- غني بلا دين عن الخلق كلهم وإن الغنى إلا عن الشيء لا به

- غلام أتاه اللوم من شطر نفسه ولم يأتيه من شطر أم ولا أب

حرف الفاء

- فلم أر كالأيام للمرء واعظاً ولا كصروف الدهر للمرء هادياً

- ففكك أكرمها فإنيك إن تهن عليك فلن تلقى لها الدهر مكرماً

- فصبر جميل إن في اليأس راحة إذا الفيت لم يمطر بلادك ماطره

- فما أكثر الأصحاب حين تعلمهم ولكنهم في النائبات قليل

- فإن كانت الأجسام منا تباعدت فإن المدى بين القلوب قريب

- فلو كان حمداً يخلد المرء لم يمت ولكن حنفاً المرء غير مخلص

- فإن تقى الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الفسزال

حرف القاف

- قد يجمع المال غير أكله ويأكل المال غير من جمعه

- قد زال ملك سليمان فعاوده والشمس تنحط في المجرى وترتفع

- قد يدرك المتأني نجع حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

- قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلقٌ وجيبٌ قميصه مرقوع

حرف الكاف

- كلوا اليوم من رزق الإله وأبشروا
- كفى زاجراً للمرء أيام دهره
- كنت من كريتي أفر إليهم
- كانوا بني أم ففرق شملهم
- كل المصائب قد تمر على الفتى
- كأنك من كل النفوس مركب
- كالكلب إن جاع لم يمنعك بصصة
- فإن على الخلاق رزقكم غدا
- تروح له بالواظبات وتفتدي
- فهم كريتي فأبى الفجار
- عدم العقول وخضة الأحلام
- فتهاون غير شماتة الأعداء
- فأنت إلى كل الأنعام حبيب
- وإن يئل شعباً ينبح من الأشر^(١)

حرف اللام

- لعمرك ما يدري الفتى كيف يتقي
- لعمري ما ضاقت بلاد بأهلها
- للموت فينا سهام وهي صابئة
- لو إن نخة عقله في رجله
- لو كان ما بي في صخر لأنحله^(٢)
- لعمرك ما الأيام إلا معارة
- لكل امرئ حالان بؤس ونعمة

حرف الميم

- من يحمي الناس يحمده
- من لم يمدنا إذا مرضنا
- متى يلغ البيان يوماً تمامه
- من كان فوق محل الشمس رتبته
- من الناس من يفتى الأبعاد نفعه
- ما كان في المخدع من أمركم
- ما قام عمرو في الولا
- والناس من عابهم يعاب
- إن مات لم تشهد الجنائز
- إذا كت تبنيه وغيرك يهدم
- فليس يرفعه شيء ولا يضع
- ويشقى به حتى الممات أقاربه
- فإنه في المجد الجامع
- به قائماً حتى قعد

حرف النون

- نسود أعلامنا وتأبى أصولها وليس إلى رد الشلب سبل

(١) الأشر: البطر.

(٢) أنحله: أزاله.

(٣) الشطر الثاني فيه خلل فغير.

- نحن بنو الموتى فما بالناس
- ندمت ندامة الكُفَى لما
نعاف ما لا بد من شربه
رَأَتْ عَيْنَاهُ مَا صَنَعَتْ يَدَاهُ

حرف الهاء

- هناكم الله بالدنيا ومثكم
- هل بالحوادث والأيام من عجب
- مَبِّ الدنيا تُقَاد إِلَيْكَ عَفْوَ
- هنيئاً لمن لا ذاق للدمر لوعة
- هم يحسدوني على موتى فواحزني
بما نُحِبُّ لَكُمْ مِنْهَا وَنَرْضَاهُ
أَمْ هَلْ إِلَى رَدِّ مَا قَدْ فَاتَ مِنْ طَلَبِ
أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى الزَّوَالِ
وَلَمْ تَأْخُذِ الْإِيَّامُ مِنْهُ نَصِيحَا
حَتَّى عَلَى الْمَوْتِ لَا أَخْلُو مِنَ الْحَسَدِ

حرف الواو

- ولم أر كال معروف، أما مذاقة
- وإذا خشيت من الأمور مقدرًا
- والرزق يخطيء بابَ عاقل قوم
- ولا يَفْرُزُكَ طَوْلُ الْحِلْمِ مِنْي
- ولا خير فيمن لا يوطن نفسه
- وإذا أَتَيْتُكَ مَذْنُوعِي مِنْ نَاقِصِي
- وما للمرء خيرٌ في حياة
- وما المرء إلا كالهلال وضوئهِ
- وقد تسلبُ الأيامُ حالاتِ أهلها
- ومن يأمن الدهر الخؤون فلأنني
- وإذا افترزت إلى الذخائر لم تجد
- ومن يَكُنِ الْفَرَابُ لَهُ دَلِيلًا
- ومن يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمَقْتَرًا
- ولربما منع الكريم وما به
- ولا بات يسقينا سوء الماء وحده
- وَمَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا فَلَا بَدَّ أَنْ يَرَى
- وَلَوْ دَامَتِ الدُّوَلَاتُ دَامَتْ لِفِرْنَا
- وَاحِسِنْ فَلَنْ الْمَرْءُ لَا بَدَّ مِيتَ
- ولا تَرسين الناس إلا تَجْمَلًا^(٣)
فَحُلُوْ وَأَنَا وَجْهُهُ فَجَمِيلُ
وَهَرَبْتُ مِنْهُ فَحَوَّهُ تَوَجُّهُ
وَيَسَّ بِوَأْبَاءِ يَابِ الْأَحْمَقِ
فَمَا أَبْدَأُ تَصَادَفْنِي حَلِيمَا
عَلَى نَائِبَاتِ^(١) الدَّهْرِ حِينَ تَنْوُبُ
فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ
إِذَا مَا عَدَّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ^(٢)
يُوَافِي تَمَامَ الشَّهْرِ ثُمَّ يَغِيْبُ
وَتَعْدُو عَلَى أَسَدِ الرِّجَالِ الثَّعَالِبُ
بِرَأْيِ الَّذِي لَا يَأْمَنُ الدَّهْرُ أَقْتَدِي
ذَخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ
يَمُرُّ بِهِ عَلَى جِيفِ الْكِلَابِ
مَنْ الزَّادُ يَطْرَحُ نَفْسَهُ أَيَّ مَطْرَحِ
بَخْلٍ وَلَكِنْ سُوءَ حِظِّ الطَّالِبِ
وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ بَاتَ ضَيْفَ الضَّفَادِعِ
مَنْ الْعَيْشُ مَا يَهْفُو وَمَا يَتَكَدَّرُ
رَعَايَا وَلَكِنْ مَا لَهْنُ دَوَامِ
وَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِمَا كُنْتَ سَاعِيَا
وَإِنْ كُنْتَ صَفَرِ الْكَفِّ وَالْبَطْنِ طَاوِيَا

(١) النائبات ج نافية: المصيبة.

(٢) سقط المتاع: مرفوله وحقيه.

(٣) التجميل: الجلد والتصبير.

- وما لامرئ طرولُ الخلود وإنما
- ولربُّ نازلٍ يضيق بها الفتى
- وكان رجائي أن أعود ممتعاً
- وتجلدي للشامتين^(١) أريهم
- ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة
- وهونٌ حزني عن خليلي أنني
- ويومٌ علينا ويومٌ لنا
- يخلد طول الشيء فيخلد
دُزَعاً وعند الله منها المخرج
فصار رجائي أن أعود مسلماً
إنني لريب الدهر لا أتضعع
يواسيك أو يسليك أو يتوجع
إذا شئت لاقيت الذي مات صاحبه
ويومٌ نساء ويومٌ نسر

حرف اللام ألف

- لا تنظرن إلى الجهالة والحجى
- لا تسأل المرأة عن خلقه
- لا يصبر الحر تحت ضيم
- لا تنة عن خلقي وتأتي مثله
- لا تنظرن إلى امرئ ما أصله
- لا يبالى الثمن عرض
- لا يكن المرأة في أرض يهان بها
- لا يقبلون الشكر ما لم ينعموا
- لا أسأل الناس عما في ضمائرهم
- وانظرن إلى الإقبال والإدبار
في وجهه شاهد من الخبر
وإنما يصبر الحر الحمارة
عارٌ عليك إذا فعلت عظيم
وانظرن إلى أفعاله ثم احكم
كُلُّهُ شَنْهُم وَذُمُّهُ
إلا من العجز أو من قلة الجيل
نعماً يكون لها الثناء تيمناً
ما في ضمير لهم من ذاك يكفيني

حرف الباء المثناة التحتية

- يفر من المنية كل حي
- يريك الرضا والغل^(٢) حشوه جفونه
- يهمهم للشمير إذا رآه
- يفارقني من لا أطيق فراقه
- يزيد تفضلاً وأزيد شكراً
- يواسي الغراب الذئب في كل صيده
- يهون علينا أن تصاب جسومنا
- يغتر الفتى من الليالي سليمة
- يغيظني وهو على رسله
- يريك البشاشة عند اللقا
- ولا يُنجي من القدر الحذاق
وقد تنطق العينان والقلم ساكت
ويعبس إن رأى وجه اللجام
ويصحبني في الناس من لا أريده
وذلك دأبه أبداً ودأبي
وما صارت الغريان في سعف النخل
وتسلم أعراض لنا وعقول
وهن به عما قليل غوائر
والمرء في غيظ سواء حلیم
ويترك في السرّ برّي القلم

(١) الشامت: الفرج بيلة علوه.

(٢) الغل: الحقد والفضيحة.

الفصل الخامس: في الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم

حرف الألف

إن كنت ما تعمل جميل اعمل كما يعمل معك. إذا أبغضك جارك حوّل باب دارك. إذا كان صاحبك عسل لا تلحسه كله. المستعجل والبطيء عند المعديّة^(١) يلتقي. ألف ذقن ولا سلام عليكم. ألف ذقن ولا ذقني. إذا غاب عنك أصله كانت دلائل نسبته فعله. إذا وصلت وسلم الله بع بما قسم الله. إذا كنت أعمى وأطروش شم رائحة النقوش. إذا كان النبيل وردي، والعشيق كردي، والبقل فول حار، والعشاء بيسار، أيش يكون الحال. إذا كان القطن أحمر والمفسل أعور، والدكة مخلعة، والنعش مكسر أعلم أن الميت من أهل سقر والوادي الأحمر. أيش ينفع الضراط عند طلوع الروح، قال تعريف للحاضرين وتفریق للملائكة. القشر والنشر والعشا خبيزة. أكل الدقة والنوم في الأزقة، ولا دجاجة محمرة يعقبها مشقة. أيش أنت في الحارة يا منخل بلا طارة^(٢). الرجم بالطوب ولا الهروب. إذا وقعت يا فصيح لا تصيح. أفرع يقول لأفرع: امش بنا نزرع في بركة القرعان أيش ما طلع يطلع، النصف لي، والربع لي، والثلث لي، والثلث الآخر لك ولي. العدو ما يبقى حبيب حتى يصير الحمار طيب. اقعد يا حمار حتى يبت لك الشعير. أي موضع راح الحزين يلقى جنازة.

قال الشاعر:

إن دام هذا السير يا معبود لا جمل يبقى ولا قعود

وقال غيره:

إذا لم تكن لي والزمان شرم برم فلا خير فيك والزمان ترللي

وقال غيره:

إذا أقبلت كادت تقاد بشمرة وإن أدبرت كادت تقاد السلاسلا

حرف الباء الموحدة

بينما يتروّى البخيل قضى الكريم حاجته. بينما يسعد المعتر فرغ عمره. بينما أصل قبره نيت همه. بينما يعدل المعتر حاله جاء الموت شاله. بينما يخلص ربنا حقي اتفرقت جوزة حلقي. بينما يقطع الجريد يفعل الله ما يريد. بينما يجيء الدرياق^(٣) من العراق يكون الملسوع مات. بين حانه وبانه خلقت لحانه. بدوي مقروح لقي التمر مطروح، أين يخلي وروح. بدال لحمك وقلقاسك هات لك شد على رأسك. بدال اللحمة والباذنجان هات لك قميص يا عريان. بدال لحمك التلاته هات لك شد يا شماته. بقي للكلب سرج وغاشية وغلمان وحاشية. بقي للخرا مرا ويحلف بالطلاق. بعد الجوع والقلة بقي لك حمار وبقلة.

(١) المعديّة: مركب تنقل بين شاطئين لنهر واحد.

(٢) الطارة: الإطار الخشبي الدائري المحيط بالمنخل.

(٣) الدرياق: هو الترياق نفسه وهو مضاد للسموم.

حرف التاء المثناة فوق

تموت الحدادي وعينها في الصيد. تعالوا بنا تقتيح ونرجع غداً نصطليح. تدرج الخرا لعند البحر قال له أيش أنت قال له بزم قردش. ترك الفضول من حزم العقول. تراب العمل ولا زعفران البطالة. تسكر وتخانق ما هو شيء موافق. تجارة الأحمق على أهل بيته. تضارب الريح مع الموج جاء الهم على النواتية^(١). تراوروا ولا تجاوروا. تبات نار تصبح رماد لها رب يدبرها.

حرف الثاء المثناة

ثوب العيرة ما يدفي. ثقل واسمه صخر بن جبل. ثور علقوه أغمي عليه قال حتى يطلع شيء يرشوه عليه. ثور عاجز ما يدور ساقيه. ثقل من أولاد الزنا مَرَّ العنا. ثوب عليه وثوب على الودت، قال: أنا اليوم أحسن من كل من في البلد.

حرف الجيم

جور القط ولا عدل الفار. جمل موضع جمل يرك. جهد العقل دموعه. جمل بحبه قال وأين المحبة. جيت اصطاد صادوني. جار له حق وجار ما له حق وجار لا صحبته عافية. جارك مراك إن لم ينظر وجهك نظر قفاك. جا كتاب من عند خاله قال كل من هو في حاله. جا كتاب من عند عمه قال كل من هو ملهي بهمه. جاؤوا ينعلوا خيل الباشا مدت أم قوين رجلها. جوزوها له ما لها إلا له. جوزوا مشكاح لريمه ما على الاثنين قيمة.

حرف الحاء المهملة

حاجة لا تهملك وصي عليها زوج أمك. حول حبيبي ما عون وقدرته مع كاثونه. حمار حنكوه بالتوت على باب الفيظ يموت. حلينا القلوع وأرسينا وأصبحتنا على ما أمسينا. حب ووارى واكره وداري. حدثني ونصحتني عايرتي وفرحتني. حط فليساتك في كمك واشتر أبوك وأمك. حبة قرض تخرب أرض.

حرف الخاء المعجمة

خذيبي وارغي فيه أنا حصاد ملوخية، وعند الخبز أكل فيه، وعند الشغل ما لي نية. خبث لي وصلحت لك. خذ ذا الصبي فوق صبيانك تمام لأحزانك. خزينة في جره وملحة في صرة. خبزة بلا أدام ويعزم على الجيران.

حرف الدال المهملة

دار الظالم خراب ولو بعد حين. درهم لك ودرهم عليك لا لك ولا عليك. دواء ما لا تشتهي النفوس تعجيل الفراق.

حرف الذال المعجمة

ذا درب ما يسد ريع. ذي ما هي رمانة إلا قلوب ملانة. ذا لي وذا أيدي عليه. ذي مائدة ما يقعد عليها طفلي.

ذا الخبز ما هو من ذا العجين. الولد خراة من ظرفه كل من شال رجله حك أنفه. ذكروا مصر القاهرة قامت باب اللوق بحشايشها. ذكروا المدن جاءت القرى تحجل.

حرف الراء المهملة

راح ذاك الزمان بناسه وجاء هذا الزمان بفاسه وكل من تكلم بالحق كسروا رأسه. رأواه الحجار راكب حيط. قالوا إلى أين يا حجار، قال مسافر، قالوا من كانت هذه المطية مطيته لا يشرق ولا يغرب. رأوا سكران يقرأ قالوا عن تشاكل روحك. رأوا شيخاً يتهجى قالوا يختم على الصراط. رأوا وردانه على سنداس، قالوا ما لذي الفسقية إلا ذي البلطية. رأوا على قبر مكتوب يا سعادة ساكنة قالوا أبصر من يزاحمه. راكب بلاش ويناغش مرات الرئيس. ركبتك وراي، حطيت يدك في الخرج. راح الجندي وخلى خلقه عندي. رزق الكلاب على المجانين. راسين في عمامة ما يكون. راحت على جمل وجاءت على قطة قال: ما لذي الشيله إلا ذي الحطة. قال الشاعر:

راح الـذي كنـا نـعي شـ بفضله يـن الـورى
ويقي الـذين حـياتهم ووجودهم مثل الخـبرا

حرف الزاي المعجمة

زفروق على بركة يضحك وهو ضحكة. زاوية بلا عيش بنت ليش. زوج القصيرة يحسبها صغيرة. زوجت بتي أقعد في دارها جاتني وأربعة وراها. قال الشاعر:

زوّجـت بـتي تـسـنـر ويمـتلـي يـتي قـمـاش
جاء غـزلها فـي أكلها ونـيـكها طـلـع بـلاش

زنبور زن على حجر مسن، قال له: أيش تريد، قال: ألحك، قال: أنا ألحس البولاد. زنبور زن على فلس جحش، قال له: أيش تطلب؟ قال له: عسل. قال له: قصدت معدن يا دندن.

حرف السين المهملة

سل المجرب ولا تنس الطيب. سموك مسحر قال فرغ رمضان. سموك جبل قال وطولت. سموك راجح قال إن شاء الله تجي الحق. سبع وزر ولا استر. قال الشاعر:

سيغنـي الله عـن بـقـراط دن ويأتـي الله بـالـلبـن الحـليب
وقال آخر:

سيغنـي الله عـن زـيد وعمـرو ويأتـي الله بـالـفرج القـريب

حرف الشين المعجمة

شره ووضيع ويغضب سريع. شيء ما نابه وتقطعت ثيابه. شعر يحلق وشعر ما يحلق. شرب السموم القاتلة ولا الحاجة إلى السفلى. شمعي ولا تدعكني. شيء ما يجي على القلب عنايته صعبة. شراء العبد ولا تربيته. شخت بغلة عامت زيلة. ركبت خنفسة زمر زنبور. قال ما ذا الجوق الجليل إلا لمقطعات النيل.

حرف الصاد المهملة

صام سنة وفطر على بصلة. صبري على الحبيب ولا فقهه. صاحب يضر عدو ميين. صباح الفوال ولا صباح المطار. صباحك يا أعور قال ذي خنافة بايته. صباح الخير يا جاري أنت في دارك وأنا في داري.

حرف الضاد المعجمة

ضرب الحبيب كأكل الزبيب. ضربتين في الرأس تعمي. ضرب ويكي وسبق يشتكي. ضربة على كيس غيري كأنها في عدل حنا. ضمنوا حداية لغراب قال الكل يطيروا. ضربوا يباع الكسيرة خري يباع التوم قال ذي داهية جات على الخضرية.

حرف الطاء المهملة

طارت الطيور بأرزاقها. طفيلي ويجلس في الصدر. طفيلي ويقترح. طويل الكم خطار قليل الفرح في الدار. طبق وجارية على صحن بشارية. طبلوا جاكم عثمان يد من ورا ويد من قدام. طعماك ما جاني ودخانك عماني. طار طيرك وأخذه غيرك. طول ما أعيش يكفيني رعي الحشيش. طول الغيبة وجانا بالخيبة.

حرف الظاء المعجمة

ظهورك عندي نصف الليل.

حرف العين المهملة

عنقود مدلى في الهوا من لا يصل إليه يقول حامض ولا استوى. عشق بداله لا أباله. عاشق ما يسمع بكا صغير. عاشق ما يسمع كلام مفارق. عاشق مقل شيء ما زرع ايش جا يستغل. عزومه حسبت عليك كُلْ ويخلق عينك. عند المخاضة بيان القليلط. عند الطعان بيان الفارس من الجبان. عريان التينة وفي حزامه سكية. عريان وفي كفه ميزان.

حرف الغين المعجمة

غابت السباع ولعبت الضباع. غربة وكرهه ما يحمل الحال. غطاس وقلقاس نحسين في قدره. غالي السوق ولا رخيص البيت.

حرف الفاء

فرجة بلا كسر تعمي البصر. فقير ونقيير وكلامه كثير ويقول هاتوا عشا من يخني. فوق الشراطة ملخ أودانه. فارس خرا ويسوق في الوحل. فارس خرا واسمه عتر. فارس خرا ويسابق الخيل. فرد ضربة في الرأس تكفي. فصدوا فرد ضرط قالوا به دم زائد. فرغت الرعاية يا جانم.

حرف القاف

قالوا للأعمى زوّق عصاتك قال هو أنا محب فيها. قالوا للحمار اجتر قال مضغ المحال ما ينطلي. قالوا للقرود

شب قال أيادي ملاح وتمسك الماصول. قالوا للقرد أطلب من ريك قال هو أنا عنده بوجه يسط. قالوا للجمل زمر قال لا شفف ملمومة ولا أيادي مفرودة. قالوا للدبة طرزي قالت ذي خفة أيادي. قالوا للكلاب احرنوا قالوا ما جرت بهذا عادة. قالوا للغراب ما لك تسرق الصابون قال الأذى طبعي. قالوا للبقر الديوان إذا متم يكفنوكم في حرير اشتبهنا نروح بجلودنا. قالوا للغزالة ارحلي حركت ذنبها. قالوا للعرب ارحلوا حملوا المناسف.

حرف الكاف

كل من عودته بألكك كلما نظرك جاع، كشكار دايم ولا علامة مقطوعة. كل كرهاً واشرب كرهاً ولا تعاشر كرهاً. كل هم كاوي عند همي ياوي. كل كل شيء لا يشبه قانيه حرام. كل مائة عصفور ما يجو حداية. كل ألف مصة ما يجو بغصه. كل ألف بوسة ما يجو بعبوسة. كملت يا لحمان بالشعرة والصنان. كمل حبيبي كل المعاني أعرج وقيليط ومعجباني. كمل حبيبي وأكمل أعرج وقيليط وأحول وفيه عادة أخرى لمن يواصل يخرا. كأنه خان للفجر لا يوحشه من غاب ولا يوانسه من حضر. كأنه من طواحين الكشكار داير على رجل الفار. كأنه عصفور ينك بلاش ويأوي في الأعشاش.

حرف اللام

لولاك يا كمي ما أكلت يا فمي. لولاك يا لساني ما انكسبت يا قفائي. لولا الغيرة والحسد كانت عجوزة كفت بلد. لولا أختك ما صرت ابن عمك. لو قليناها بليه ما جات هكنا. لو كان فيها خير ما رماها طير. لك عليك ما يصعب عليك. لك أسوة بغيرك. لقمة بدقة ولا خروف بزقة. لقمة تحت حيلة ولا خروف بعيلة. لو سلم الكرم من حارسه طابت مغارسه. لو تقطع يده وتدلها من فيه صنعه ما يخليها. لو عمل لي من الذهب وليمة هو عندي بتلك العين القديمة. لو شال رأسه إلى السما كأنه عصيدة بما. لو نظر الجمل لسنمه كان كدمه. لولا الكشط والبراية ما كانت أولاد الخرا كتاب.

حرف الميم

مجة بلا حبة ما تساوي حبة. ما شلتك يا دمعتي إلا لشدتي. من عاشر غير جنسه دق الهم صدره. من قدم النحاس تعب في تأخيره. من عاشر الحداد احترق بناره. من عاشر الزيداني فاحت عليه روايحه. من ركب في غير سرجه وغرزه دخل الهوا استه وهزه. من لا يحط يده لزنده ما يعرف حره من برده. ما رأيك يا نور حتى ابيضت الميون. ما لي على فراقكم جلد إلا هجاجي من البلد. ما كفانا هم أبونا قام أبونا جاب أبوه قال خلدوا جدكم ربوه. من عدم نابه ونصابه وثيابه وشبابه كان الموت أولى به. من يكلم القبح يروح عرضه ويغضخ. ما تغدوهم زغليه ما فيهم من يعجب النقاد.

حرف النون

نواية تسند الجرة قال وتسند الزير الكبير. نفسك أتلفت أي شيء أخلقت. نصف البلا ولا البلا كله. ناقصر ونحاس. ناموسة باتت على شجرة أصبحت تقول خاطرك قالت لها وأنت كنت على أي ورقة. نيتك مطيتك. نسبت يا فلاح ما كنت فيه، كعبك المشقق والوحل فيه. نيك حتى تبقى ديك.

حرف الهاء

هانت الزلاية حتى أكلها بنو وائل. هان المسك وانتثر. هدية تعر^(١) قومها تخليتها ولا لومها. هدية الأحباب على ورق السداب. قال هو أعمى عن ورق الموز. هو عرس تأكل وتنسل. أهدوا هدية وأعينهم فيها يقولوا الله يودها. هاتوا ذا الغزل المخبل لذا القلب المدبل.

حرف الواو

واحد نضه وآخر لقفه وقال آخر يا قريب الفرج. واحد يخبطوا له وهو قائم عليه، قال أنا في حاجتك. واحد جائر رأى فرد يجرش ترمس قال ما لذي الفاكهة البدرية إلا ذي الصورة القمرية. واحد سموه غير وصنعتة سرياتي قال الذي كسبه في الاسم خسره في الصنعة. وحش ويكش ويقعد في الوش^(٢) ويغني بلينا بكم. وقت أكل الدجاج ما يفتكروني وفي وقت شيل التراب هات يدك. وايش قام على تومة بفصل الحكومة. وقت الشوا أو اليخني ما قلت يا أخني الحقني، ووقت ضرب الدرة قلت اصفعوا واصفعني.

حرف اللام ألف

لا تعيرني ولا أعيرك الدهر حيرني وحيرك. لا أصل شريف ولا وجه ظريف. لا أخوك ولا ابن عمك تشق ثوبك على أيش. لا عاشق بليق. لا حراس ولا دراس لا عاش العار ولا بني له دار. لا ربح ثوابه ولا خلاه لأصحابه. لا في الفراق نجد راحة ولا في الوصل. لا تشكرون فتى حتى تجربه. لا تفرح لمن يروح حتى تنظر من يجي. لا يضر السحاب نبح الكلام. لا يفرك نظيفي الأصل في ريفي.

حرف الباء

يا شب مليح ما أحسن وصفك لا في يدك ولا في طرفك. يا ويل من ذاق الغنى بعد جوعه، يموت وفي قلبه من الهم واجس. يا طارق الباب بعد العشي لا تطرق الباب ما تم شي. يا من ملنا ما كان حلنا لسا ما لنا في العشرة سنة. يهنيكم قدومه قد جاكم بشومه. يا ليتنا انكسرنا ولا بك انتصرنا. يا ويل من كان عشي من بيت خيه. يا طالب الشر بلا أصل تعال للصائم بعد العصر.

أمثال النساء

حرف الألف

أحبك يا سواري، مثل معصمي؟ الذي في قلب أم حنين تحلم به في الليل. إن كنت حرة لا تضيعي تقابك برة. إن لم تعملي وتفتخري وإلا أقعدي وانعفري. إن كانت الداية أحن من الوالدة قال ذي داهية عيارة. الكلام لك يا جارة إلا أنت حمارة. إيش تعمل الماشطة في الوجه المشووم. إيش قام على الحزينة بالنقش والزينة. إيش ينفع النخ في الوجه الأصم. أرملة علس ومتزوجة علس أقعدي بعد سمي. اسم الزوج ولا طعم الترمل. العاقلة فينا تزني يقطينا.

(١) تعر: تجلب العار.

(٢) الوش: الوجه.

إذا كان زوجي راضي إيش فضول القاضي . استعارت الرعة^(١) شيء حسبته لها أخذت المقص، دارته لها . اقعدني في عشك حتى يجي حد ينشك .

حرف الباء الموحدة

بعد أن كتني لي وحدي بقيت اسمع أخبارك . بعد سنة وشهرين جابت بنت بشفرين . بعد أن كان زوجها بقي طباخ في عرسها . بعد مشيك في الحلقة بقي لك سلالم وغرفة واسمك ستينة . بعد أمي وأختي الكل جيرانني . بينما تنتقب الحولة انصرف القاضي . بنت الخرا تزف لابن الخرا بدف . باتت ناموسة على جميزة قالت صبحك الله بالخير قالت من دري بك قبله . بدال ما تمشي وتهزي كضك رقعي فردة خفك . بخرا^(٢) وتزاحم بالبوس . بقي لام سيسي برقع وللصفدة زماره . بعد مشيك في الحلافي لبستي الصافي . بعيد على الحزينة تستعمل الزينة .

حرف التاء

تابت القجة يوم وليلة قالت ما بقي في البلد حكام . تضاربت المجنونة والحمقا حسبته الرعة من حقا . تضارب وتتعري وتصيح يا قلة رجالي . تأخذوا أبونا وتكابرونا . ترانة وبيانة ومفاتيح الخزانة . تباث الرعة بشعر بنت أختها . تخلوني وإلا استحل بجارنا قالت إذا كان ذا في قلبك خذية بلا استحلال بجارنا قالت إذا كان ذا في قلبك خذيه بلا استحلال . تتغنى بالخرج ولا تخلي الفنج . تقعد عيوشة في ديارتها ما لأحد حاجة في زيارتها .

حرف الثاء

ثوب سيدي، ثوب حبيبي، ثوب ستي، ثوب فجه .

حرف الجيم

جارة بجارة والعداوة خسارة . جاني عذولي ورتالي ما هي محبة إلا شماتة لي . جارية وزيدية على باذنجانة مقلية . جاتنا العدو مكحلة قطران لا غيره وقلها فرحان . جاب ثيابه يفسلهم بلا صابونة معهم .

حرف الحاء المهملة

حولة وتنتقب بنخ . حزاني ما عندهم دقيق اشتروا لهم منخل رقيق . حزاني ما عندهم خبز اشتروا لهم بعشرة ملوخية . حزينة وواعية . حيلة ومرضعة، وعلى كفها أربعة . وطلعت الجبل تجيب دوا للحبل . حولة ونصرانية لا مليحة ولا أصل طيب . حزينة ما لها مملوك سمت زنبورها خوشكلم . حزينة ما لها ملك اكثرت لها بواب . حزينة ما لها كاملية طلبت لها خف وشعرية .

حرف الخاء المعجمة

خطبوها تعززت وكان زمان البوار . خلعت زوجها مكروب وراحت تشوف المصلوب . خذي قطيفة، واكتمي سري، قالت ما يطاوعني قلبي، خلعت ما يعينها واتبت حك رجلها .

(١) الرعناء: قليلة العناية .

(٢) البخراء: ذات رائحة فم كريهة .

حرف الدال المهملة

دري زوجك بكتبك تمي نهارك مع ليلتك. دق من أسفل ولا تطلع ما أنت على القلب.

حرف الذال المعجمة

ذكرت العجوز أطلالها.

حرف الزاء

رقصتي ما أحسني كان قعادك أجمل. رحنا يضحكوا بها وهي تضحك تساعدهم. رأوا جاموسة مثقبة بحصير
قالوا ما لهذا الشكل الوضع إلا ذا القماش الرفيع. راحت تبيع ريمة غابت جمعة. راحت رجال الهية وقيت رجال
الخية. راحت رجال اللحم والقلقاس وقيت رجال الخبز بالفساس. رأوا خنفسة على مكتسة قالوا ما للذي الصيفة إلا
قال الحمار الأزعر^(١).

حرف الزاي

زمر بالزميميرتان لك العاقلة من المجينة. زوجي ما حكم علي قام لي عشيق بشمعة. زوجوا بنت نشادري^(٢)
لسريالي^(٣) قالوا قليلات الخرا تندرج لبعضها.

حرف السين المهملة

سودا وتتقش بسباخ. سواد مثقبة قفل على خزاة. سألوها عن أبيها قالت جلدي شعيب.

حرف الشين المعجمة

شدي قرطاسك من عند موسى قالوا دا شي ما فرحتي به وإنني عروسة. شامة ومعزة.

حرف الصاد المهملة

صارت القحبة واعظة. صارت القويقة شاعرة.

حرف الضاد المعجمة

ضحك ابن سنة غمي على أمه قالت ما أخف دمه.

حرف الطاء المهملة

طلعت ترحم نزلت تتوحم.

حرف الظاء المعجمة

ظريفة وعفيفة ولها نفس شريفة.

(١) الحمار الأزعر عند العوام: مقطوع الذنب.

(٢) نشادري: ربما المشتغل بمادة النشادر ذات الرائحة الكريهة.

(٣) سريالي: لعله الحداد صانع السراويل وقد عيّرت العرب الحداد بفساد الريح.

حرف العين المهملة

عميا تحفف مجنونة وتقول حواجبك سود مقرونة. عاقلة وجابت طفلة وجابتها خطر^(١) واشتروا لها قلقاس ذكر وحطب أخضر في نهار مطر وقالوا لها اطبخي. على قدر لمحة تقع الصلحة. عجوزة وجابت غلام إذا جنت لا تلام. عجوزة وخرفانة دي داهية كمانه.

حرف الغين المعجمة

غيرك يقوم مقامك عيش قلبي أعذبه.

حرف الفاء

فرحت حزينة خربت مدينة.

حرف القاف

قالوا للمغاني اتزوقوا قلبوا عصايهم. قعبة ما كنست بيتها كنست المسجد قالوا دي قعبة تطلب الثواب.

حرف الكاف

كل من تبع هواها صارت سراويلها رداها. كبرتي يا برقوقة وبقي لك دبوقة. كانوا مغاني صاروا ملاهي. لا راحت ولا جات كما هي. كلي قلبه ويأتي هنيه. كأنها من الباسطية قماش على جريدة. كأنها حزمة فجل أصفر وعرقها أخضر. كأنها من عمامم اليهود صفرا طويلة رفيعة. كأنها من بيت الوالي ما يتحدث فيها سوى الحاشية. كأنها ضبة جعيدي مخلووعة ولا تأخذ شيء.

حرف اللام

لو كان ما ينقش إلا السمان^(٢) بارت المواشط من زمان. للساعة ما حبلت جابت المرسين. لولا المعايير ما كانت الحراريير.

حرف الميم

ماشطة وتمشط بتها. من افكرنا يباسمينا ما نسينا.

حرف النون

نواية تسند الجرة وقال وتسند الزير الكبير.

حرف الهاء

هش يا دبانة أنا جيلي من مولانا.

(١) خطر: زؤار - ضيوف.

(٢) السمان: البدينات.

حرف الواو

وجه لا يرى بالذهب يشتري.

حرف اللام ألف

لا أنت مليحة ولا تغني بأيش تدلى.

حرف الباء

يعيش المدلل بلا مكلل. يا غزاة الأقمار أين كتي بالنهار. يا ما تحت الثقاب والشعرية من كل بلية - يا من ملنا ما كان حلنا، للساعة ما لنا في العشرة سنة.

الباب السابع : في البيان والبلاغة والفصاحة وذكر الفصحاء من الرجال والنساء وفيه فصول

الفصل الأول: في البيان والبلاغة

أما البيان فقد قال الله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾^(١) وقال ﷺ: «إن من البيان لسحراً». قال ابن المعتز: البيان ترجمان القلوب وصيقل العقول. وأما حله فقد قال الجاحظ: البيان اسم جامع لكل ما كشف لك من المعنى، وأما البلاغة فإنها من حيث اللغة هي أن يقال: بلغت المكان إذا أشرفت عليه وإن لم تدخله، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾^(٢) وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِاللِّغَةِ﴾^(٣) أي وثيقة كأنها قد بلغت النهاية، وقال اليوناني: البلاغة وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة. وقال الهندي: البلاغة تصحيح الأقسام، واختيار الكلام. وقال الكندي: يجب للبلغ أن يكون قليل اللفظ، كثير المعاني. وقيل: إن معاوية سأل عمرو بن العاص: مَنْ أبلغ الناس، فقال: أقلهم لفظاً، وأسهلهم معنى، وأحسنهم بديهة، ولو لم يكن في ذلك الفخر الكامل لما خص به سيد العرب والعجم ﷺ وانتخر به حيث يقول: «نَصِرْتُ بِالرَّعْبِ، وَأَوْتَيْتُ جَوَامِعَ الْكَلَمِ»، وذلك أنه كان عليه الصلاة والسلام يتلفظ باللفظ اليسير الدال على المعاني الكثيرة.

وقيل: ثلاثة تدل على عقول أصحابها، الرسول على عقل المرسل، والهدية على عقل المهدي، والكتاب على عقل الكاتب. وقال أبو عبد الله وزير المهدي: البلاغة ما فهمت العامة، ورضيت به الخاصة. وقال البحري: خير الكلام ما قل وجل^(٤) ودل ولم يمل. وقالوا: البلاغة ميدان لا يقطع إلا بسوابق الأذهان، ولا يسلك إلا ببصائر البيان. وقال الشاعر:

لَكَ الْبَلَاغَةُ مِيدَانٌ نَشَأْتُ بِهِ وَكُنَّا بِقَصُورٍ^(٥) عَنْكَ نَعْتَرِفُ
مَهْذُ لِي الْعِنَزُ فِي نَظْمٍ بَعَثْتُ بِهِ مَنْ عِنْدَهُ الدُّرُ لَا يُهْدَى لَهُ الصَّدَفُ

وروي أن ليلي الإخيلية مدحت الحجاج فقال: يا غلام اذهب إلى فلان فقل له يقطع لسانها. قال: فطلب

(١) سورة: الرحمن، الآيات: ١ - ٤.

(٢) سورة: الطلاق، الآية: ٢.

(٣) سورة: القلم، الآية: ٣٩.

(٤) جَلَّ: عَظُمَ.

(٥) قصور: عجز وقصور.

حجاًماً فقالت: ثكلتك أمك إنما أمرك أن تقطع لساني بالصلة. فلولا تبصرها بأنحاء الكلام، ومذاهب العرب، والتوسعة في اللفظ، ومعاني الخطاب لثم عليها جهل هذا الرجل. وقال الثعالبي: البليغ من يحول الكلام على حسب الأمالي، ويخطط الألفاظ على قدر المعاني، والكلام البليغ ما كان لفظه فحلاً، ومعناه بكرة. وقال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى عليه في حد البلاغة: إنها بلوغ الرجل بعبارة كنه ما في قلبه، مع الاحتراز عن الإيجاز المخل، والتطويل الممل، ولهذه الأصول شُعَبٌ وفصول لا يحتمل كشفها هذا المجموع ويحصل الغرض بهذا القدر. وبالله التوفيق إلى أقوم طريق.

الفصل الثاني: في الفصاحة

قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله تعالى عليه: إعلم أن الفصاحة خلوص الكلام من التعقيد، وأصلها من قولهم أفصح للبن، إذا أخذت عنه الرغوة، وأكثر البلغاء لا يكادون يفرقون بين البلاغة والفصاحة، بل يستعملونها استعمال الشينين المترادفين على معنى واحد في تسوية الحكم بينهما. ويزعم بعضهم أن البلاغة في المعاني، والفصاحة في الألفاظ، ويستدل بقولهم معنى بليغ، ولفظ صحيح. وقال يحيى بن خالد: ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم في صدري، وإن قصر سقط من عيني. وقد اختلف الناس في الفصاحة فمنهم من قال إنها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني، ومنهم من قال إنها لا تخص إلا الألفاظ وحدها. واحتج من خص الفصاحة بالألفاظ بأن قال: نرى الناس يقولون هذا لفظ فصيح، وهذه الألفاظ فصيحة، ولا نرى قاتلاً يقول هذا معنى فصيح، فدل على أن الفصاحة من صفات الألفاظ دون المعاني. وإن قلنا إنها تشمل اللفظ والمعنى لزم من ذلك تسمية المعنى بالفصيح وذلك غير مألوف في كلام الناس. والذي أراه في ذلك أن الفصيح هو اللفظ الحسن المألوف في الاستعمال بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحاً حسناً. ومن المستحسن في الألفاظ تباعد مخارج الحروف، فإذا كانت بعيدة المخارج جاءت الحروف متمكنة في مواضعها غير قلقة ولا مكدودة والمعيب من ذلك كقول القائل:

لو كنت كنت كتمت الحب كنت كما كنا وكنت ولكن ذاك لم يكن^(١)
وكقول بعضهم أيضاً:

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف الضعف بل مثله ألف^(٢)
وكقول الآخر:

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر^(٣)

قيل إن هذا البيت لا يمكن إنشاده في الغالب عشر مرات متوالية إلا ويغلط المنشد فيه لأن القرب في المخارج يحدث ثقلًا في النطق به. وقيل من عرف بفصاحة اللسان لحظته العيون بالوقار. وبالفصاحة والبيان استولى يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام على مصر، وملك زمام الأمور، واطلمه ملكها على الخفي من أمره والمستور. قال الشاعر:

(١) البيت في الغالب مصنوع وهو مثال لفساد اللفظ بسبب توالي حرف الكاف فيه.

(٢) شأنها شأن سابقتها في فساد التركيب.

(٣) نفس المصدر السابق.

لسان الفتى نصفٌ ونصفُ فؤاده ولم يَتَّقْ إلا صورةَ اللحمِ والدمِ

وسمع النبي ﷺ من عمه العباس كلاماً فصيحاً فقال: بارك الله لك يا عم في جمالك، أي فصاحتك. وعرضت على المتوكل جارية شاعرة فقال أبو العيناء يستجيزها: أحمد الله كثيراً، فقالت: حيث أنشاك ضريراً. فقال: يا أمير المؤمنين قد أحسنت في إساءتها فاشترها. وقال فيلسوف: كما إن الآنية تمتحن بأطنائها، فيعرف صحيحها من مكسورها، فكذلك الإنسان يعرف حاله من منطقته. وقال المبرد: قلت للمجنون أجزني هذا البيت.

أرى اليوم يوماً قد تكاثف غيمه وإبراقه فالיום لا شك ماطرٌ

فقال:

وقد حجبت فيه السحابُ شمسَه كما حجبت وُزْدَ الخدودِ المحاجرُ

وقال عبد الملك لرجل: حدثني، فقال: يا أمير المؤمنين افتتح، فإن الحديث يفتح بعضه بعضاً. وقال الهيثم بن صالح لابنه: يا بني إذا أقللت من الكلام أكثرت من الصواب، قال: يا أبت فإن أنا أكثرت وأكثرت. يعني كلاماً وصواباً، قال: يا بني ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظاً منك. وقال الشعبي: كنت أحدث عبد الملك بن مروان وهو يأكل فيحبس اللقمة، فاقول: أجزها أصلحك الله، فإن الحديث من وراء ذلك. فيقول: والله لحديثك أحب إليّ منها، وقال ابن عينة: الصمت منام العلم، والنطق يقظته ولا منام إلا بتيقظ، ولا يقظة إلا بتمام. قال ابن المبارك.

وهذا اللسانُ بريدُ الفؤادِ يدلُّ الرجالَ على عقله

ومر رجل بأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ومعه ثوب فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أتبيعه؟ فقال: لا رحمك الله، فقال أبو بكر: لو تستقيمون لقومت ألتكم هلاً قلت لا ورحمك الله. ومنه ما حكى أن المأمون سأل يحيى بن أكنم عن شيء فقال: لا، وأيد الله أمير المؤمنين. فقال المأمون: ما أظرف هذه الواو وأحسن موقعها. وكان صاحب يقول: هذه الواو أحسن من واوات الأصداغ. ويقال للسان سبع صغير الجرم. وقال بعضهم شعراً:

سحبان^(١) يقصرُ عن بحورِ بيانِهِ عجزاً ويفرقُ منه تحتِ عباب
وكذاك قس^(٢) ناطقٌ بعكاظه يعيا لديه بحبُّو وجوابِ

وقيل: إنه حج مع ابن المنكدر شابان فكانا إذا رآيا امرأة جميلة قالوا: قد أبرقنا وهما يظنان أن ابن المنكدر لا يظن فرأيا قبة فيها امرأة، فقالا: بارقة. وكانت قبيحة فقال ابن المنكدر: بل صاعقة. وكان أصحاب أبي علي الثقفى إذا رأوا امرأة جميلة يقولون حُجة^(٣)، فعرضت لهم قبيحة فقالوا: داحضة^(٤) وكتب إبراهيم بن المهدي: إياك والتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة، فإن ذلك العناء الأكبر، وعليك بما سهل من تجنبك الألفاظ السفلى. ويقال: القول على حسب همة القائل يقع، والسيوف بقدر عضد الضارب يقطع. وقال الأحنف: سمعت كلام أبي بكر حتى

(١) سحبان وائل رجل ضرب به المثل في الفصاحة.

(٢) قس بن ساعدة: من أشهر خطباء عكاظ.

(٣) الحُجة: الآية والبرهان.

(٤) الداحضة: نقيض الحجة أو الباطلة منها، وهاتان من ألفاظ أهل الكلام كما ترى.

مضى، وكلام عمر حتى مضى، وكلام عثمان حتى مضى، وكلام علي حتى مضى رضي الله تعالى عنهم. لا والله ما رأيت فيهم أبلغ من عائشة. وقال معاوية رضي الله تعالى عنه: ما رأيت أبلغ من عائشة رضي الله تعالى عنها، ما أغلقت باباً فأرادت فتحه إلا فتحته، ولا فتحت باباً فأرادت إغلاقه إلا أغلقت.

ومن غريب الكنايات الواردة على سبيل الزمر وهو من الذكاء، والفصاحة، ما حكى أن رجلاً كان أسيراً في بني بكر بن وائل، وعزموا على غزو قومه، فسألهم في رسول يرسله إلى قومه، فقالوا: لا نرسله إلا بحضرتنا لثلاث تنذرهم وتحذرهم، فجاؤوا بعبد أسود فقال له: أنتقل ما أقوله لك؟ قال نعم: إني لعاقل، فأشار بيده إلى الليل فقال: ما هذا؟ قال: الليل. قال: ما أراك إلا عاقلاً. ثم ملأ كفيه من الرمل وقال: كم هذا؟ قال: لا أدري وإنه لكثير. فقال: أيما أكثر النجوم أم النيران؟ قال: كلٌّ كثير. فقال: أبلغ قومي التحية، وقل لهم يكرموا فلاناً يعني أسيراً كان في أيديهم من بني بكر بن وائل، فإن قومه لي مكرمون، وقل لهم إن العرفج قد دنا، وشكت النساء، وأمرهم أن يعزوا ناقتي الحمراء، فقد أطالوا ركوبها، وأن يركبوا جملي الأصهب، بأمانة ما أكلت معكم حياءً^(١)، واسألوا عن خبري أخني الحارث. فلما أدى العبد الرسالة إليهم قالوا: لقد جن الأعور، والله ما نعرف له ناقة حمراء، ولا جملاً أصهب. ثم دعوا بأخيه الحارث فقصوا عليه القصة، فقال: قد أنذركم؛ أما قوله قد دنا العرفج، يريد أن الرجال قد استلاموا ولبسوا السلاح، وأما قوله شكت النساء، أي أخذت الشكاء للسفر، وأما قوله أعروا ناقتي الحمراء، أي ارتحلوا عن الدهناء^(٢) واركبوا الجمال الأصهب، أي الجبل، وأما قوله أكلت معكم حياءً، أي إن أخلاطاً من الناس قد عزموا على غزوكم، لأن الحيس يجمع التمر والسمن والإقط، فامتثلوا لأمره، وعرفوا لحن الكلام، وعملوا به فنجوا.

وأمرت طميء غلاماً من العرب، فقدم أبوه ليفديه، فاشتطوا^(٣) عليه، أبوه: والذي جعل الفرقدين يسميان ويصحبان على جبل طميء ما عندي غير ما بذلته، ثم انصرف وقال: لقد أعطيتك كلاماً إن كان فيه خير فهمه. فكانه قال له: الزم الفرقدين، يعني في هرويك على جبل طميء، ففهم الابن ما أراد أبوه وفعل ذلك فتجا. وكانت عليّة بنت المهدي تهوى غلاماً خادماً اسمه طلّ، فحلف الرشيد أن لا تكلمه ولا تذكره في شعرها، فاطلع الرشيد يوماً عليها وهي تقرأ في آخر سورة البقرة ﴿فَإِنْ لَمْ يصبها وَابِلٌ﴾^(٤) فالذي نهى عنه أمير المؤمنين. ومن ذلك قولهم تركت فلاناً يأمر وينهى وهو على شرف الموت، أي يأمر بالوصية، وينهى عن النوح.

ويقال: ما رأيت فلاناً أي ما ضربته في رثته ولا كلمته، أي ما جرحته، فإن الكلام الجراح، وما رأيت ربيعاً فالربيع حظ الأرض من الماء، والربيع النهر، وما رأيت كافراً ولا فاسقاً فالكافر السحاب، والفاسق الذي تجرد من ثيابه، وما رأيت فلاناً راکماً ولا ساجداً ولا مصلياً، فالراكم العائر الذي كبا لوجهه، والساجد المدمن النظر، والمصلي الذي يجيء بعد السابق، وما أخذت لفلان دجاجة ولا فروجاً، فالدجاجة الكبة من الغزل، والفروجة الدراعة، وما أخذت لفلان بقرة ولا ثوراً، فالبقرة العيال الكثيرة، يقال جاء فلان يسوق بقره أي عياله، والثور القطعة الكبيرة من الإقط^(٥).

(١) الحيس: من الحواصة: الأخلاط من الناس، وتأتي لأخلاط من الطعام.

(٢) الدهناء: الأرض المنبطة.

(٣) اشتطوا: غالوا واصعبوا.

(٤) سورة: البقرة، الآية: ٢٦٥.

(٥) الإقط: هذه ضروب من الثوريات التي أوردها ابن دريد في كتابه «الملاحن»، ويقصد بها إلى اليمين غير الحائنة.

وحكي أن معاوية رضي الله عنه بينما هو جالس في بعض مجالسه وعنده وجوه الناس، فيهم الأحنف بن قيس، إذ دخل رجل من أهل الشام فقام خطيباً، وكان آخر كلامه أن لعن علياً رضي الله تعالى عنه ولعن لاعنه، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين إن هذا القاتل لو يعلم أن رضاك في لعن المرسلين للنهم، فأتى الله يا أمير المؤمنين ودغ عنك علياً رضي الله تعالى عنه، فلقد لقي ربه، وأفرد في قبره، وخلا بعمله، وكان والله المبرور سيفه، الطاهر ثوبه، العظيمة مصيئته. فقال معاوية: يا أحنف لقد تكلمت بما تكلمت، وأيم الله لتصعدن على المنبر فتلعنه طوعاً أو كرهاً فقال له الأحنف: يا أمير المؤمنين إن تعني فهو خير لك، وإن تجبرني على ذلك فوالله لا تجري شفتاي به أبداً. فقال: قم فاصعد. قال: أما والله لأنصفك في القول والفعل. قال: وما أنت قاتل إن انصفتني؟ قال: أصعد المنبر فأحمد الله وأثنى عليه وأصلي على نبيه محمد ﷺ ثم أقول: يا أيها الناس إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علياً ألا وإن معاوية وعلياً اقتلا فاختلفا فادعى كل واحد منهما أنه مبغى عليه، وعلى فته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول اللهم العن أنت وملائكتك وأنبيائك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والعن الفئة الباغية، اللهم العنهم لعناً كبيراً آمنوا^(١) رحمكم الله. يا معاوية لا أزيد على هذا ولا أنقص حرفاً ولو كان فيه ذهاب روحي. فقال معاوية: إذا نعتيك يا أبا بحر.

وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: إن علياً قد قطعك، وأنا وصلتك ولا يرضيني منك إلا أن تلعه على المنبر قال: أفعل. فصعد المنبر ثم قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ﷺ: أيها الناس إن معاوية بن أبي سفيان قد أمرني أن ألعن علي بن أبي طالب فالعنوه فعليه لعنة الله. ثم نزل فقال له معاوية: إنك لم تبين من لعنت منهما بينه، فقال: والله لا زدت حرفاً ولا نقصت حرفاً، والكلام إلى نية المتكلم.

ودخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقال: يا أمير المؤمنين أقر الله عينك، وفرحك بما أتاك، وأتم سعدك، لقد حكمت فقسطت. فقال لها: مَنْ تكونين أيتها المرأة؟ فقالت: من آل برمك ممن قلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم، فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره، وأما المال فمردود إليك. ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟ فقالوا: ما نراها قالت إلا خيراً. قال: ما أظنكم فهمتم ذلك، أما قولها أقر الله عينك أي أسكنها عن الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت، وأما قولها وفرحك بما أتاك فأخذته من قوله تعالى: ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾^(٢) وأما قولها وأتم الله سعدك فأخذته من قول الشاعر:

إذا تَمَّ أمرٌ بَدَا نَقْصُهُ تَرَقَّبَ زوالاً إذا قِيلَ تَمَّ

وأما قولها لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾^(٣) فتعجبوا من ذلك.

وحكي أن بعضهم دخل على عدوه من النصارى فقال له: أطال الله بقاءك، وأقر عينك، وجعل يومي قبل

(١) آمنوا: قولوا آمين.

(٢) سورة: الأنعام، الآية: ٤٤.

(٣) سورة: الجن، الآية: ١٥.

يومك، والله إنه ليسرني ما يسرك، فأحسن إليه وأجازته على دعائه وأمر له بصلة وكان ذلك دعاء عليه. لأن معنى قوله: أطل الله بقاءك، حصول منفعة المسلمين به في أداء الجزية؛ وأما قوله: وأقر عينك فمعناه سكن الله حركتها، أي أعماها، وأما قوله: وجعل يومي قبل يومك، أي جعل الله يومي الذي أدخل فيه الجنة، قبل يومك الذي تدخل فيه النار؛ وأما قوله: إنه ليسرني ما يسرك، فإن العافية تسره كما تسره الآخرة. فانظر إلى الاشتراك وفائدته. ولولا الاشتراك ما تهيأ لمشتتر مراد، ولا سلم له في التخلص قياد.

وكان حماد الراوية لا يقرأ القرآن فكلفه بعض الخلفاء القراءة في المصحف، فصحف في نيف وعشرين موضعاً من جمعها قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ يَبوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَنْزِشُونَ﴾^(١)، بالغين المعجمة والسين المهملة وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾^(٢) بالباء الموحدة ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَذَابٌ وَخِزْيَانٌ﴾^(٣) بالباء الموحدة. ﴿وَمَا يَجْعَلُ أَيْمَانَتَهُ إِلَّا كُلُّ حَتَّارٍ﴾^(٤) بالميم والياء الموحدة. ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثْمَانًا وَرِيَاءًا﴾^(٥) بالزاي وترك الهمزة. ﴿عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾^(٦) بالسين المهملة ﴿صِيفَةُ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِيفَةً﴾^(٧) بالنون والعين المهملة. ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبُنْغِي﴾^(٨) بإسقاط التاء. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا فِي هَؤُلَاءِ مَا يَشُقَّاكُمُ﴾^(٩) بالغين المعجمة، والراء المهملة، قرن الشقاق بالفرقة وهذا لا يقع إلا من الأذكياء.

وحكي أن المأمون ولى عاملاً على بلاد، وكان يعرف منه الجور في حكمه، فأرسل إليه رجلاً من أرباب دولته ليمتحنه، فلما قدم عليه أظهر له أنه قدم في تجارة لنفسه، ولم يعلمه أن أمير المؤمنين، عنده علم منه، فأكرم نزله، وأحسن إليه، وسأله أن يكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين المأمون يشكر سيرته عنده ليزداد فيه أمير المؤمنين رغبة. فكتب كتاباً فيه بعد الثناء على أمير المؤمنين، أما بعد: فقد قدمنا على فلان فوجدناه أخذاً بالعزم، عاملاً بالحزم، قد عدل بين رعيته، وسأوى في أقضيته، أغنى القاصد، وأرضى الوارد، وأنزلهم من منازل الأولاد. وأذهب ما بينهم من الضغائن والأحقاد، وعمر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة وهم مع ذلك دافعون لأمر المؤمنين، يريدون النظر إلى وجهه والسلام. فكان معنى قوله أخذاً بالعزم أي إذا عزم على ظلم أو جور فعله في الحال، وقوله قد عدل بين رعيته وسأوى في أقضيته، أي أخذ كل ما معهم حتى ساءل بين الغني والفقير، وقوله عمر منهم المساجد الدائرة، وأفرغهم من عمل الدنيا، وشغلهم بعمل الآخرة، يعني أن الكل صاروا فقراء، لا يملكون شيئاً من الدنيا، ومعنى قوله يريدون النظر إلى وجه أمير المؤمنين، أي ليشكوا حالهم وما نزل بهم، فلما جاء الكتاب إلى المأمون عزله عنهم لوقته وولى عليهم غيره.

(١) سورة: النحل، الآية: ٦٨

(٢) سورة: التوبة، الآية: ١١٤.

(٣) سورة: القصص، الآية: ٨.

(٤) سورة: لقمان، الآية: ٣٢. الختار: الغدار.

(٥) سورة: مريم، الآية: ٧٤. ووقياً: مظهرأ.

(٦) سورة: الأعراف، الآية: ١٥٦.

(٧) سورة: البقرة، الآية: ١٣٨.

(٨) سورة: القصص، الآية: ٥٥.

(٩) سورة: ص، الآية: ٢.

ومن ذلك ما حكى: أن القاضي الفاضل كان له صديق خصيص به، وكان صديقه هذا قريباً من الملك الناصر صلاح الدين، وكان فيه فضيلة تامة، فوقع بينه وبين الملك أمر فغضب عليه وهم بقتله، فتسحب إلى بلاد التتر، وتوصل إلى أن صار وزيراً عندهم، وصار يعرف التتر كيف يتوصل إلى الملك الناصر بما يؤذيه. فلما بلغه ذلك نفر منه، وقال للفاضل اكتب إليه كتاباً عرفه فيه أنني أرضى عليه، واستعطفه غاية الاستعطاف، إلى أن يحضر فإذا حضر قتلته واسترحت منه. فتحير الفاضل بين الاثنين، صديقه يعز عليه، والملك لا يمكنه مخالفته، فكتب إليه كتاباً واستعطفه غاية الاستعطاف ووعد به بكل خير من الملك، فلما انتهى الكتاب ختمه بالحمدلة والصلاة والسلام على النبي ﷺ، وكتب إن شاء الله تعالى كما جرت به العادة في الكتب، فشدد «إن»، ثم أوقف الملك على الكتاب قبل ختمه فقرأه في غاية الكمال، وما فهم إن، وكان قصد الفاضل «إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتُمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ»^(١) فلما وصل الكتاب إلى الرجل فهمه، وكتب جوابه بأنه سيحضر عاجلاً، فلما أراد أن ينهي الكتاب ويكتب إن شاء الله تعالى مد النون وجعل في آخرها ألفاً، وأراد بذلك «إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا»^(٢) فلما وصل الكتاب إلى الفاضل فهم الإشارة ثم أوقف الملك على الجواب بخطه ففرح بذلك.

وحكى: أن بعض الملوك طلع يوماً إلى أعلى قصره ينظر فلاحته منه الثغاة فرأى امرأة على سطح دار إلى جانب قصره لم ير الراؤون أحسن منها، فالتفت إلى بعض جواريه فقال لها: لمن هذه، فقالت: يا مولاي هذه زوجة غلامك فيروز، قال: فتزل الملك وقد خامره حبها، وشغف بها فاستدعى فيروز وقال له: يا فيروز، قال: ليك يا مولاي، قال: خذ هذا الكتاب وامض به إلى البلاد الفلانية وانتهي بالجواب. فأخذ فيروز الكتاب وتوجه إلى منزله فوضع الكتاب تحت رأسه، وجهز أمره وبات ليلته، فلما أصبح ودع أهله وسار طالباً لحاجة الملك، ولم يعلم بما قد دبره الملك. وأما الملك فإنه لما توجه فيروز، قام مسرعاً وتوجه مخفياً إلى دار فيروز فقرع الباب قرعاً خفيفاً، فقالت امرأة فيروز: من بالباب؟ قال: أنا الملك سيد زوجك، ففتحت له فدخل وجلس، فقالت له: أرى مولانا اليوم عندنا. فقال: زائراً. فقالت: أخوذ بالله من هذه الزيادة، وما أظن فيها خيراً، فقال لها: ويحك إنني أنا الملك سيد زوجك وما أظنك عرفتني، فقالت: بل عرفتك يا مولاي ولقد علمت أنك الملك، ولكن سبقتك الأوائل في قولهم:

وذاك لكثرة الورد فيهِ
رفقتُ بيلي ونفسي تشتهيهِ
إذا كان الكلابُ وَلَقِّنَ فِيهِ
ولا يَرْضَى مَاهِمَةَ الثَّغِيهِ

سأترك ماءكم من غير ورد
إذا سقط الزبابُ على طعام
وتَجَتَّتِ الْأُمُودُ وورد ماء
ويرتجع الكريم خيمص بطني

وما أحسن يا مولاي قول الشاعر:

وصاحبُ الغديرِ غيرُ مصحوبٍ
قد أكل الليثُ فضلةَ الذئبِ

قل للنبي شقوةُ الغرامُ بنا
والله لا قال قائلُ أبداً

(١) سورة: القصص، الآية: ٢٠.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ٢٤.

ثم قالت: أيها الملك تأتي إلى موضع شربِ كلبك تشرب منه. قال: فاستعيا الملك من كلامها، وخرج وتركها فسي نعله في الدار.

هذا ما كان من الملك. وأما ما كان من فيروز فإنه لما خرج وسار تفقد الكتاب فلم يجده معه في رأسه فتدكر أنه نسيه تحت فراشه، فرجع إلى داره فوافق وصوله عقب خروج الملك من داره، فوجد نعل الملك في الدار فطاش عقله، وعلم أن الملك لم يرسله في هذه السفرة إلا لأمر يفعله، فسكت ولم يبد كلاماً، وأخذ الكتاب وسار إلى حاجة الملك فقضاها ثم عاد إليه فأنعم عليه بمائة دينار. فمضى فيروز إلى السوق واشترى ما يليق بالنساء وهياً هدية حسنة وأتى إلى زوجته فسلم عليها وقال لها: قومي إلى زيارة بيت أبيك، قالت: وما ذلك؟ قال: إن الملك أنعم علينا وأريد أن نظهري لأهلك ذلك. قالت: حباً وكرامة. ثم قامت من ساعتها وتوجهت إلى بيت أبيها ففرحوا بها وبما جاءت به معها، فأقامت عند أهلها مدة شهر فلم يذكرها زوجها، ولا ألم بها فأتى إليه أخوها وقال له: يا فيروز، إنا أن تخبرنا بسب غضبك، وإنا أن تحاكمنا إلى الملك، فقال إن شئت الحكم فافعلوا فما تركت لها عليّ حقاً، فطلبوه إلى الحكم فأتى معهم وكان القاضي إذا ذاك عند الملك جالساً إلى جانبه، فقال أخوه الصبية: أيد الله مولانا قاضي القضاة إني أجرت هذا الغلام بستاناً، سالم الحيطان، بيثر ماء معين عامرة، وأشجار مشرة، فأكل ثمره وهدم حيطانه، وأخرب يثره. فالتفت القاضي إلى فيروز وقال له: ما تقول يا غلام؟ فقال فيروز: أيها القاضي قد تسلمت هذا البستان وسلمته إليه أحسن ما كان. فقال القاضي: هل سلم إليك البستان كما كان، قال: نعم. ولكن أريد منه السبب لردّه، قال القاضي: ما قولك؟ قال: والله يا مولاي ما رددت البستان كراهة فيه، وإنما جئت يوماً من الأيام، فوجدت فيه أثر الأسد فخفت أن يقتالني فحمرت دخول البستان إكراماً للأسد.

قال: وكان الملك متكئاً فاستوى جالساً وقال: يا فيروز إرجع إلى بستانك آمناً مطمئناً، فوالله إن الأسد دخل البستان، ولم يؤثر فيه أثراً، ولا التمس منه ورقاً، ولا ثمراً، ولا شيئاً ولم يلبث فيه غير لحظة يسيرة وخرج من غير بأس، والله ما رأيت مثل بستانك، ولا أشد احترازاً من حيطانه على شجره. قال: فرجع فيروز إلى داره ورد زوجته ولم يعلم القاضي ولا غيره بشيء من ذلك. والله أعلم.

وهذا كله مما يأتي به الإنسان من غرائب الكتابات الواردة على سبيل الرمز، ومنه ما يجده المشتري في أمره من الراحة في كتمان حاله مع لزوم الصدق، ورضا الخصم بما وافق مراده لأن في المعارض متلوعة عن الكذب. كما روي في غزوة بدر أن النبي ﷺ كان سائراً بأصحابه يقصد بدرأ فلقبهم رجل من العرب فقال: ممن القوم؟ فقال له النبي ﷺ من ماء، فأخذ ذلك الرجل يفكر ويقول: من ماء، من ماء، يرددها لينظر أي العرب يقال لهم ماء، فسار النبي ﷺ بأصحابه وكان قصده أن يكتم أمره. وقد صدق رسول الله ﷺ في قوله فإن الله عز وجل قال: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ خلق من ماء دافق^(١) وكما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال للكافر الذي سأله عن رسول الله ﷺ وقت ذهابهما إلى الغار وهو رجل يهيني السيل، وقد صدق فيما قال رضي الله عنه فقد هداه وهدانا السيل، ولا سبيل أوضح ولا أقوم من الإسلام. وكما حكى عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه لما سأله بعض المعتزلة بحضرة الرشيد: ما تقول في القرآن؟ فقال الشافعي: إياي تعني، قال: نعم، قال: مخلوق، فرفض خصمه

منه بذلك ولم يرد الشافعي إلا نفسه، وكما حكى عن ابن الجوزي رحمه الله تعالى أنه سئل وهو على المنبر، وتحت جماعة من ممالك الخليفة وخاصته وهم فريقان قوم سنية، وقوم شيعة فقيل له: من أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، أم علي رضي الله عنهما؟ فقال: أفضلهما بعد من كانت ابنته تحتها فأرضى الفريقين، ولم يرد إلا أبا بكر رضي الله عنه لأن الضمير في ابنته يعود إلى أبي بكر رضي الله عنه وهي عائشة رضي الله عنها وكانت تحت رسول الله ﷺ، والشيعة ظنوا أن الضمير في ابنته يعود إلى رسول الله ﷺ وهي فاطمة رضي الله عنها، وكانت تحت علي رضي الله عنه، فهذه منه جيدة حسنة وكلمة باتت جفون الفريقين منها وسنة. والله أعلم.

الفصل الثالث: في ذكر الفصحاء من الرجال

دخل الحسن بن الفضل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم فزجوه وقال: يا صبي تتكلم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن كنت صبياً، فلست بأصغر من هدهد سليمان، ولا أنت بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾^(١) ثم قال: ألم تر أن الله فهم الحكم سليمان ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى. ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز أتته الوفود، فإذا فيهم وفد الحجاز فنظر إلى صبي صغير السن وقد أراد أن يتكلم فقال: ليتكلم من هو أسن منك، فإنه أحق بالكلام منك. فقال الصبي:

يا أمير المؤمنين لو كان القول كما تقول لكان في مجلسك هذا من هو أحق به منك، قال: صدقت فتكلم. فقال: يا أمير المؤمنين، إنا قدمنا عليك من بلد نحمد الله الذي من علينا بك، ما قدمنا عليك رغبة منا، ولا رهبة منك، أما عدم الرغبة فقد أمنا بك في منازلنا، وأما عدم الرهبة، فقد أمنا جورك بعدلك. فنحن وفد الشكر والسلام. فقال له عمر رضي الله عنه: عظمي يا غلام، فقال: يا أمير المؤمنين إن أناساً غرهم حلم الله، وثناء الناس عليهم، فلا تكن ممن يفره حلم الله وثناء الناس عليه فتزل قدمك، وتكون من الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾^(٢) فنظر عمر في سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة فأنشدته من عمر رضي الله تعالى عنه:

تعلم فليس المرء يولد عالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
فإن كبر القوم لا علم عنده صغيراً إذا التفت عليه المحافل

وحكى أن البادية تحطت في أيام هشام فقدمت عليه العرب، فهابوا أن يكلموه، وكان فيهم درواس بن حبيب، وهو ابن ست عشرة سنة، له ذؤابة وعليه شملتان فوقعت عليه عين هشام، فقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل علي إلا دخل حتى الصبيان، فوثب درواس حتى وقف بين يديه مطرقاً، فقال: يا أمير المؤمنين إن للكلام نشراً وطياً، وإنه لا يعرف ما في طيه إلا بشره فإن أذن لي أمير المؤمنين أن أنشره نشرته، فأعجبه كلامه وقال له: أنشره لله درك. فقال: يا أمير المؤمنين إنه أصابتنا سنون ثلاث، سنة أذابت الشحم، وسنة أكلت اللحم، وسنة دقت العظم، وفي أيديكم فضول مال، فإن كانت لله ففرقوها على عبادة، وإن كانت لهم، فعلام تحبسونها عنهم، وإن كانت لكم فتصدقوا بها عليهم، فإن الله يجزي المصدقين. فقال هشام: ما ترك الغلام لنا في واحدة من الثلاث عذراً فأمر للبوادي بمائة ألف

(١) سورة: النمل، الآية: ٢٢.

(٢) سورة: الأنفال، الآية: ٢١.

دينار، وله بمائة ألف درهم، ثم قال هل: ألك حاجة؟ قال: ما لي حاجة في خاصة نفسي دون عامة المسلمين فخرج من عنده وهو من أجل القوم.

وقيل: إن سعد بن ضمرة الأسدي لم يزل يغير على النعمان بن المنذر يستلب أمواله حتى عيل صبره^(١)، فبعث إليه يقول إن لك عندي ألف ناقة، على أنك تدخل في طاعتي، فوفد عليه وكان صغير الجنة فاقتحمته عينه وتنقصه فقال: مهلاً أيها الملك، إن الرجال ليسوا بعظم أجسامهم وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إن نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجنان، ثم أنشأ يقول:

يا أيها الملك المرجؤ نائله	إنني لمن معشر شؤم الذرى زفر
فلا تغرنك الأجسام إن لنا	أحلام عاد وإن كنا إلى قصر
فكم طويل إذا أبصرت جثته	تقول هذا غداة الروع ذو ظفر
فإن ألم به أمر فأنظعه	رأيت خاذلاً للأهل والزمر

فقال: صدقت فهل لك علم بالأمور؟ قال: إني لأتقضى منها المفتول، وأبرم منها المحلول، وأجبلها حتى تجول، ثم أنظر فيها إلى ما تزول، وليس للدر بصاحب، من لا ينظر في العواقب. قال: فتعجب النعمان من فصاحته وعقله، ثم أمر له بألف ناقة. وقال له: يا سعد إن رحلت وصلناك، فقال: قرب الملك أحب إلي من الدنيا وما فيها. فأنعم عليه وأذناه وجعله من أخص نعماته.

وحكي أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه يسأله عن شيء، ولا شيء، وعن دين لا يقبل الله غيره، وعن مفتاح الصلاة، وعن غرس الجنة، وعن صلاة كل شيء وعن أربعة فيهم الروح، ولم يركضوا في أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا أم له، وعن قبر جرى بصاحبه، وعن قوس قزح ما هو، وعن بقعة طلعت عليها له، وعن بقعة طلعت عليها الشمس مرة واحدة، ولم تطلع عليها قبلها ولا بعدها، وعن ظعن ظعن مرة واحدة، ولم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبت من غير ماء، وعن شيء تنفس ولا روح له، وعن اليوم وأمس، وغد وبعد غد، وعن البرق والرعد وصوته، وعن المحر الذي في القمر. فليل لمعاوية: لست هناك، ومتى أعطأت في شيء من ذلك سقطت من عينه، فكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل، فكتب إليه فأجابه: أما الشيء فالماء، قال الله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾^(٢) وأما لا شيء فإنها الدنيا، تبيد وتفتن، وأما دين لا يقبل الله غيره فلا إله إلا الله، وأما مفتاح الصلاة، فالله أكبر، وأما غرس الجنة، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأما صلاة كل شيء، فسبحان الله ويحمد، وأما الأربعة الذين فيهم الروح ولم يركضوا في أصلاب الرجال، وأرحام النساء، فأدم، وحواء، وناقصة صالح، وكبش إسماعيل، وأما الرجل الذي لا لب له فالمسيح، وأما الرجل الذي لا أم له فأدم عليه السلام. وأما القبر الذي جرى بصاحبه فحوت يونس عليه السلام سار به في البحر، وأما قوس قزح فأمان من الله لعباده من الفرق. وأما البقعة التي طلعت عليها الشمس مرة واحدة، فظعن البحر. حين انقلب لبني إسرائيل، وأما الظعن الذي ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، فجبل طور سيناء كان

(١) عيل صبره: نفذ وانتهى.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٣٠.

بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطار الله تعالى بجناحين، فنادى مناد إن قبلتم التوراة كشفته عنكم، وإلا ألقىته عليكم فأخذوا التوراة معذرين. فرده الله تعالى إلى موضعه فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾^(١). وأما الشجرة التي نبتت من غير ماء فشجرة اليقطين التي أنبتها الله تعالى على يونس عليه السلام، وأما الشيء الذي تنفس بلا روح فالصبح قال الله تعالى: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾^(٢). وأما اليوم فعمل، وأمس فمثل، وغد فأجل، وبعد غد فأمس، وأما البرق فمخاريق بأيدي الملائكة تضرب بها السحاب، وأما الرعد فاسم الملك الذي يسوق السحاب وصوته زجره، وأما المحو الذي في القمر فقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾^(٣) ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار، ولا النهار من الليل. ودعا بعض البلغاء لصديق له فقال: تمم الله عليك، ما أنت فيه وحقق ظنك فيما ترجوه وتفضل عليك بما لم تحتسبه.

وحكي أن الحجاج سأل يوماً الغضبان بن القبيشي عن مسائل يمتحنه فيها، من جعلتها أن قال له: من أكرم الناس؟ قال: أفقهم في الدين، وأصدقهم لليمين، وأبذلهم للمسلمين وأكرمهم للمهاتين، وأطعمهم للمساكين، قال: فمن ألام الناس؟ قال: المعطي على الهوان، المقتر على الإخوان، الكثير الألوان. قال: فمن شر الناس؟ قال: أطولهم جفوة، وأدومهم صبرة، وأكثرهم خلوة، وأشدهم قسوة. قال: فمن أشجع الناس؟ قال: أضربهم بالسيف، وأقراهم للضيف، وأتركههم للحيث. قال: فمن أجبن الناس؟ قال: المتأخر عن الصفوف، المتقبض عن الزخوف، المرتعش عند الوقوف، المحب ظلال السقوف، الكاره لضرب السيوف. قال: فمن أثقل الناس؟ قال: المتنن في السلام، الضنين^(٤) بالسلام، المهذار^(٥) في الكلام، المققب^(٦) على الطعام، قال: فمن خير الناس؟ قال: أكثرهم إحساناً. وأقومهم ميزاباً^(٧)، وأدومهم غفراناً، وأوسعهم ميداناً، قال: لله أبوك، فكيف يعرف الرجل الغريب، أحسب هو، أم غير حبيب؟ قال: أصلح الله الأمير، إن الرجل الحبيب يملك أدبه، وعقله وشماله، وعزة نفسه، وكثرة احتماله ويشاشته، وحسن مناراته على أصله، فالعاقل البصير بالأحساب يعرف شماله، والنذل الجاهل يجهله، فتمثل كمثل الدرة، إذا وقعت عند من لا يعرفها، ازدراها، وإذا نظر إليها العقلاء عرفوها وأكرموها، فهي عندهم لمعرفتهم بها حسنة نفيسة، فقال الحجاج: لله أبوك فما العاقل والجاهل؟ قال: أصلح الله الأمير العاقل الذي لا يتكلم هنراً، ولا ينظر شزراً، ولا يضمر غدراً، ولا يطلب غدراً، والجاهل هو المهذار في كلامه، المتأن بطعامه، الضنين بسلامه، المتطاول على إمامه، الفاحش على غلامه، قال: لله أبوك فما الحازم الكيس؟ قال: المقبل على شأنه التارك لما لا ينيه، قال: فما العاجز؟ قال: المعجب بآرائه، الملتفت إلى ورائه، قال: هل عندك من النساء خبر؟ قال: أصلح الله الأمر إني بشأنهن خير، إن شاء الله تعالى، إن النساء من أمهات الأولاد بمرتلة الاصلاح، إن عدلتها انكسرت، ولهن

(١) سورة: الأعراف، الآية: ١٧١.

(٢) سورة: التكوين، الآية: ١٨.

(٣) سورة: الإسراء، الآية: ١٢.

(٤) الضنين: البخيل.

(٥) المهذار: كثير الكلام في غير نفع.

(٦) المققب على الطعام: الذي يجتمع فوق الطعام بكتفه.

(٧) الميزاب: قناة للماء والأولى أن تكون: ميزان بالنون.

جوهر لا يصلح إلا على المداراة، فمن داراهن انتفع بهن، وقرّت عينه، ومن شاورهن، كدروا عيشه، وكدرت عليه حياته وتنقص لذاته، فأكرمهن أحفهن، وأفخر أصحابهن العفة، فإذا زلن عنها، فهن أنتن من الجيفة. فقال له الحجاج: يا غضبان إني موجهك إلى ابن الأشعث وأفداً فماذا أنت قائل له؟ قال: أصلح الله الأمير أقول ما يريده ويؤذيه ويضنيه. فقال: إني أظنك لا تقول له ما قلت، وكأني بصوت جلاجلك تجلجل في قصري هذا، قال: كلا أصلح الله الأمير سأحدد له لساني، وأجريه في ميداني.

قال: فعند ذلك أمره بالمسير إلى كرمان. فما توجه إلى ابن الأشعث وهو على كرمان بعث الحجاج عيناً عليه، لي جاسوساً وكان يفعل ذلك مع جميع رسله، فلما قدم الغضبان على ابن الأشعث، قال له: إن الحجاج قد همّ بخلعك، وعزلك فخذ حذرك، وتغدى به، قبل أن يتعشى بك، فأخذ حذره عند ذلك، ثم أمر للغضبان بجائزة سنية، وخلع فاخرة، فأخذها وانصرف راجعاً فأتى إلى رملة كرمان في شدة الحر والقيظ وهي رملة شديدة الرمضاء فضرب قبه فيها، وحط عن رواحله، فبينما هو كذلك إذا بأعرابي من بني بكر بن وائل قد أقبل على بعير قاصداً نحوه وقد اشتد الحر، وحميت الغزالة وقت الظهيرة، وقد ظمى ظمأ شديداً فقال: السلام عليك ورحمة الله وبركاته، فقال الغضبان: هذه سنة وردها فريضة قد فاز قائلها، وخسر تاركها، ما حاجتك يا أعرابي؟ قال: أصابني الرمضاء، وشدة الحر والظما، فتيمنت بقبتك أرجو بركتها. قال الغضبان: فهلا تيممت قبة أكبر من هذه وأعظم، قال: أينهن تعني؟ قال: قبة الأمير ابن الأشعث، قال: تلك لا يوصل إليها، قال: إن هذه أمتع منها، فقال الأعرابي: ما اسمك يا عبد الله؟ قال: آخذ. فقال: وما تعطي. قال: أكره أن يكون لي اسمان، قال: بالله من أين أنت؟ قال: من الأرض، قال: فأين تريد؟ قال: أمشي في منابها. فقال الأعرابي وهو يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر: أنقرض الشعر؟ قال: إنما يقرض الفار. فقال: أتسجع؟ قال: إنما تسجع الحمامة. فقال يا هذا إئذن لي أن أدخل قبتك. قال: خلفك لوسع لك. فقال: قد أحرقتني حر الشمس. قال: ما لي عليها من سلطان. فقال الرمضاء أحرقت قدمي. قال: بل عليها تبرد. فقال إني لا أريد طعامك ولا شربك. قال: لا تعرض لما لا تصل إليه ولو تلفت روحك. فقال الأعرابي: سبحان الله. قال: نعم من قبل أن تطلع أضراسك. فقال الأعرابي: ما عندك غير هذا؟ فقال: بلى هراوة أضرب بها رأسك. فاستغاث الأعرابي: يا جار بني كعب. قال الغضبان: بش الشيخ أنت هراوة ما ظلمك أحد فتستغيث. فقال الأعرابي: ما رأيت رجلاً أقسى منك، أتيتك مستغيثاً فنجبتني وطردتني هلاً أدخلتني قبتك وطارحتني القريض. قال: ما لي بمحادثك من حاجة. فقال الأعرابي: بالله ما اسمك ومن أنت؟ فقال: أنا الغضبان بن القبيصري. فقال: اسمان منكراً خلقاً من غضب. قال: قف متوكئاً على باب قبتي برجلك هذه العوجاء. فقال: قطعها الله إن لم تكن خيراً من رجلك هذه الشعاء. قال الغضبان: لو كنت حاكماً لجرت في حكومتك لأن رجلي في الظل قاعدة، ورجلك في الرمضاء قائمة. فقال الأعرابي: إني لا أظنك حرورياً. قال: اللهم اجعلني ممن يتحرى الخير ويربده. فقال: إني لأظن عنصرك فاسداً. قال: ما أقدرني على إصلاحه. فقال الأعرابي: لا أرضاك الله ولا حيالك. ثم ولى وهو يقول:

لا باركَ اللهُ في قومِ تسودهم
إنسي أظنك والرحمن شيطاناً
أتيت قبته أرجو ضيافته
فاظهر الشيخ ذو القرنين حرماناً

فلما قدم الغضبان على الحجاج وقد بلغه الجاسوس ما جرى بينه وبين ابن الأشعث وبين الأعرابي، قال له

الحجاج: يا غضبان كيف وجدت أرض كرمان؟ قال: أصلح الله الأمير أرض يابسة الجيش بها ضعاف هزلاء إن كثروا جاعوا، وإن قلوا ضاعوا. فقال له الحجاج: ألسنت صاحب الكلمة التي بلغتنى أنك قلت لابن الأشعث تَعَدُّ بالحجاج قبل أن يتعشى بك، فوالله لأحبسك عن الوساد ولأنزلتك عن الجياد، ولأشهرتك في البلاد. قال: الأمان أيها الأمير فوالله ما ضرت من قيلت فيه، ولا نفعت من قيلت له. فقال له: ألم أقل كأنني بصوت جلالك تجلجل في قصري هذا، اذهبوا به إلى السجن. فذهبوا به فقيد وسجن فمكث ما شاء الله. ثم إن الحجاج ابنتي الخضراء بواسط فأعجب بها، فقال لمن حوله: كيف ترون قبتي هذه وبناءها؟ فقالوا: أيها الأمير إنها حصينة مباركة منيعة نضرة بهجة، قليل عيبها كثير خيرها. قال: لِمَ لَمْ تخبروني بنصح؟ قالوا: لا يصفها لك إلا الغضبان. فبعث إلى الغضبان فأحضره، وقال له: كيف ترى قبتي هذه وبناءها؟ قال: أصلح الله الأمير بيتها في غير بلدك، لا لك ولا لولدك، لا تدوم لك، ولا يسكنها وارثك ولا تبقى لك وما أنت لها بياق. فقال الحجاج: قد صفق الغضبان رده إلى السجن، فلما حملوه قال: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين﴾^(١). فقال: أنزلوه. قال: ﴿رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾^(٢). قال: اضربوا به الأرض فلما ضربوا به الأرض، قال: ﴿منها خلقتكم وفيها نعيديكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾^(٣). فقال: جروه فأقبلوا يجرونه وهو يقول: ﴿بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم﴾^(٤) فقال الحجاج: ويلكم اتركوه فقد غلبني دهاء وخبثاً، ثم عفا عنه وأنعم عليه وخلق سبيله.

وحدث الزبير قال: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون وقد كانت ضياعهم أخذت. فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، محمد بن عبد الملك بين يديك، سليل نعمتك، وغصن من أغصان دوحك، أتأذن له في الكلام؟ فقال: تكلم. فقال: الحمد لله رب العالمين ولا إله إلا الله رب العرش العظيم، وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين ونستمع الله لحياطة ديننا ودنيانا، ورعاية أدياننا وأقصادنا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل الله أن يمد في عمرك من أعمارنا، وأن يقيك الأذى بأسماعتنا وأبصارنا، فإن الحق لا تغفو آثاره، ولا ينهدم مناره، ولا يثبت حبله ولا يزول ما دمت بين الله وبين عباده والأمين على بلاده.

يا أمير المؤمنين، هذا المقام مقام العائد بظلك، الهارب إلى كتفك، الفقير إلى رحمتك وعدلك، من تعاود النوائب، وسهام المصائب، وكلب الدهر وذهاب النعمة، وفي نظر أمير المؤمنين ما يفرج كربة المكروب، ويرد غليل القلوب، وقد نفذ أمر أمير المؤمنين في الضياع التي أفاد منها نعم آباءه الطيبين، ونوافل أسلافه الطاهرين الراشدين، وقد قمت مقامي هذا متوسلاً إليك بآبائك الطيبين، وبالرشيد خير الهداة الراشدين، والمهدي ناصر المسلمين، والمنصور من كل الظالمين، ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين مزدلفاً^(٥) إليك بالطاعة التي أفرغ عليها غصني واحتكت^(٦) بها سني، وريش بها جناحي متعوذاً من شماتة الأعداء وحلول البلاء ومقارفة الشدة بعد الرخاء.

(١) سورة: الزخرف، الآية: ١٣.

(٢) سورة: المؤمنون، الآية: ٢٩.

(٣) سورة: طه، الآية: ٥٥.

(٤) سورة: هود، الآية: ٤١.

(٥) مزدلفاً: مقرباً.

(٦) احتكت: من الحكمة والخبرة.

يا أمير المؤمنين، قد مضى جلدك المنصور، وعمك صالح بن علي جدي وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين، أن الدهر ذو اغتيال قد يقلب حالاً بعد حال، فارحم يا أمير المؤمنين البصية الصغار والمعجزة الكبار الذين سقاهم الدهر كدرأ بعد صفو، ومرأ بعد حلو، وهبنا نعم آبائك اللاتي غدتنا صغاراً، وكباراً، وشباباً، وأشياخاً، وأمشاجاً^(١) في الأصلاب، ونطقاً في الأرحام، وقدمنا في القرابة، حيث قدمنا الله منك في الرحم، فإن رقابتنا قد ذلت لسخطك ووجوهنا قد عنت لطاعتك فأقلنا عثرتنا.

يا أمير المؤمنين، إن الله قد سهل بك الوعور، وجلا بك الديجور^(٢) وملأ من خوفك القلوب والصدور، بل يردع الفاسق، ويقمع بك المناق، فارتبط نعم الله عندك بالعمو والإحسان، فإن كل راع مسؤول عن رعيته، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها.

يا أمير المؤمنين إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر عن ملذب عاثر، وقد قال الله جل ثناؤه وتعالى قدرته: ﴿وليعلموا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾^(٣) أحاط الله أمير المؤمنين بستره الوافي، ومنعه الكافي ثم أنشد يقول:

أمير المؤمنين أتاك ركب	لهم قريى وليس لهم تلاءد
هم الصدر المقدم من قريش	وأنت الرأس تبعك العباد
لقد طابت بك الدنيا ولدت	وأرجو أن يطيب بك المعاد
فكيف تنالكم لحظات عني	وكيف يقلل سوددك البلاد

قال: فاستحسن المؤمن كلامه وأمر له بالحلل الفاخرة، والجوائز السنية، وأمر برد ضياعه، وقرب منزله وأدناه ودفع إليه من المال ما أغناه.

ومن حكايات الفصحاء ونوادير البلغاء: ما حكى أن عبد الملك بن مروان جلس يوماً وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته فقال: أيكم يأتيني بحروف المعجم في بدنه، وله علي ما يتمناه، فقام إليه سويد بن غفلة فقال: أنا لها يا أمير المؤمنين قال: هات. فقال: نعم يا أمير المؤمنين أنف. بطن. ترقوة. ثغر. جمجمة. حلق. خد، دماغ. رقة. زند. ساق. شفة. صدر. ضلع. طحال. ظهر. عين. غيب. فم. قفا. كف. لسان. منخر. نغنىغ. هامة. وجه. يد. وهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين. فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال: يا أمير المؤمنين أنا أقولها من جسد الإنسان مرتين. فضحك عبد الملك وقال لسويد أسمع ما قال؟ قال: أصلح الله الأمير لما أقولها ثلاثاً. فقال: هات ولك ما تتمناه. فلبثا يقول: أنف، أسنان، أذن. بطن، بنصر، بزة، ترقوة، تمر، تينة. ثغر، ثنايا، ثدي، جمجمة، جنب، جبهة. حلق، حنك، حاجب. خد، خنصر، خاصرة، دبر، دماغ، درادير. فتن، ذكر، ذراع. رقة، رأس، ركة. زند، زردمة، زب. - فهناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على قفاه - ساق، سر، سبابة. شفة، شفر، شارب. صدر، صدغ، صلعة، ضلع، ضفيرة، ضرس. طحال، طرة، طرف.

(١) الأمشاج: الأشياء المختلطة.

(٢) الديجور: الظلمة.

(٣) سورة: النور، الآية: ٢٢.

ظهر، ظفر، ظلم. عين، عتي، عاتق. غيب، غلصمة، غنة. فم، فك، فؤاد. قلب، قفا، قدم. كف، كعب. لسان، لحية، لوح. منخر، مرقق، منكب. نغنيغ، ناب، هن. هامة، هيئة، هيف. وجه وجنة، ورك. يمين، يسار، يافوخ. ثم نهض مسرعاً فقبل الأرض بين يدي أمير المؤمنين قال: فعندها ضحك عبد الملك وقال: والله ما تريدنا عليها شيئاً أعطوه ما يتمناه، ثم أجازته وأنعم عليه وبالغ في الإحسان إليه.

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي من الفصحاء وكان على عتوه^(١) وإسرافه جواداً، وكان إذا ضحك واستغرق في الضحك اتبع ذلك بالاستغفار مرات، وكان يطعم على ألف خوان^(٢) وكان يطوف على الموائد، ويقول: يا أهل الشام مزقوا الخبز لثلاث يعمود إليكم ثانياً، وكان يجلس على كل مائدة عشرة رجال وذلك في كل يوم، وكان يقول: أرى الناس يتخلفون عن طعامي، فقيل له: إنهم يكرهون الحضور قبل أن يدعوا، فقال: قد جعلت رسولي إليهم كل يوم: الشمس إذا طلعت، وعند المساء إذا غربت.

وحكي عن عبد الملك بن عمير أنه قال لما بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان اضطراب أهل العراق جمع أهل بيته، وأولي النجدة من جنته، وقال: أيها الناس إن العراق كدر ماؤها، وكثر غوغاؤها، واملوح عذبتها^(٣) وعظم خطبها، وظهر صرامها^(٤)، وعسر اعتماد نيرانها، فهل من ممد لهم بسيف قاطع، وذهن جامع وقلب ذكي، وأنف حمي، فيخمد نيرانها، ويردع غيلانها، وينصف مظلومها ويداري الجرح حتى يتمثل فتصفو البلاد، وتأمين العباد. فسكت القوم ولم يتكلم أحد، فقام الحجاج وقال: يا أمير المؤمنين أنا للعراق. قال: ومن أنت لله أبوك؟ قال: أنا الليث الضمضام، والهزير الهشام، أنا الحجاج بن يوسف، قال: ومن أين؟ قال: من تقيف كهوف الضيوف، ومستعمل السيوف. قال: اجلس لا أم لك فلست هناك، ثم قال: مالي أرى الرؤوس مطرقة والألسن معتقلة؟ فلم يجبه أحد. فقام إليه الحجاج وقال: أنا مجتدل الفساق ومطفئ نار النفاق، قال: ومن أنت؟ قال: أنا قاصم الظلمة، ومعدن الحكمة الحجاج بن يوسف، معدن العفو العقوبة، وآفة الكفر والريّة. قال: إليك عني، وذاك فلست هناك، ثم قال: من للعراق فسكت القوم وقام الحجاج، وقال: أنا للعراق. فقال: إذن أظنك صاحبها، والظافر بفنائمها، وإن لكل شيء يا ابن يوسف آية وعلامة، فما آتيك وما علامتك؟ قال: العقوبة والعفو، والاعتذار، والبسط والازورار، والإدناء والإبعاد، والجفاء والبر، والتأهب والحزم، وخوض غمرات الحروب بجنان غير هيوب، فمن جادلني قطعته، ومن نازعني قصمته، ومن خالفني نزعته، ومن دنا مني أكرمته، ومن طلب الأمان أعطيته، ومن سارع إلى الطاعة بجلته، فهذه آيتي وعلامتي، وما عليك يا أمير المؤمنين أن تبولني، فإن كنت للأعتاق قطاعاً، وللأموال جماعاً، وللأرواح نزاعاً، ولك في الأشياء نفاعاً، وإلا فليستبدل بي أمير المؤمنين، فإن الناس كثير، ولكن من يقوم بهذا الأمر قليل. فقال عبد الملك: أنت لها فما الذي تحتاج إليه؟ قال: قليل من الجند والمال. فدعا عبد الملك صاحب جنده فقال: هيء له من الجند شهوته، وألزمهم طاعته، وحذرهم مخالفته. ثم دعا الخازن فأمره بمثل ذلك. فخرج الحجاج قاصداً نحو العراق.

(١) العتو: الإسراف في الجبروت.

(٢) الخوان: ما يوضع عليه الطعام.

(٣) املوح عذبتها: تكدر وصار مالحاً.

(٤) الصرام: القطيعة.

قال عبد الملك بن عمير: بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة، إذا أتانا أنت، فقال: هذا الحجاج قدم أميراً على العراق. فتناولت الأعناق نحوه، وأفرجوا له عن صحن المسجد، فإذا نحن به يمشي وعليه حمالة حمراء، مثلثاً بها، ثم صعد المنبر فلم يتكلم كلمة واحدة، ولا نطق بحرف حتى غص المسجد بأهله، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حالة حسنة، وهيئة جميلة، فكان الواحد منهم يدخل المسجد ومعه العشرون والثلاثون من أهل بيته، ومواليه وأتباعه عليهم الخبز، والديباج. قال: وكان في المسجد يومئذ عمير بن صابئ التميمي، فلما رأى الحجاج على المنبر قال لصاحب له: أسبه لكم؟ قال: أكف حتى نسمع ما يقول فأبى ابن صابئ وقال: لعن الله بني أمية حيث يولون، ويستعملون مثل هذا على العراق، وضيع الله العراق حيث يكون هذا أميراً. فوالله لو دام هذا أميراً كما هو ما كان بشيء. والحجاج ساكت ينظر يميناً وشمالاً. فلما رأى المسجد قد غص بأهله قال: هل اجتمعتم؟ فلم يرد عليه أحد شيئاً، فقال: إني لا أعرف قدر اجتماعكم فهل اجتمعتم؟ فقال رجل من القوم: قد اجتمعنا أصلح الله الأمير. فكشف عن لثامه ونهض قائماً، فكان أول شيء نطق به أن قال: والله إني لأرى رؤوساً أينعت وقد حان قطافها وإني لصاحبها، وإني لأرى الدماء تفرق بين العمائم واللحى، والله يا أهل العراق إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه، فعجم^(١) عيدانها، فوجدني أمرها عوداً، وأصلبها مكسراً فرماكم بي، لأنكم طالما أثرتم الفتنة، واضطجعت في مراقد الضلال، والله لأنكلن بكم في البلاد، ولأجعلنكم مثلاً في كل واد، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، وإني يا أهل العراق لا أعد إلا وفيت، ولا أعزم إلا أمضيت، فلا ياي وهذه الزرافات^(٢) والجماعات، وقيل قال، وكان ويكون. يا أهل العراق إنما أنتم أهل قرية كانت أمنة مطمئة يأتيها رزقها غداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأتاها وعيد القرى من ربها، فاستوقوا واستقيموا، واعملوا ولا تملوا، وتابعوا ويابعوا، واجتمعوا واستمعوا، فليس مني الإهدار والإكثار، إنما هو هذا السيف، ثم لا ينسلخ الشتاء من الصيف حتى يذل الله لأمر المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم. ثم إني وجدت الصدق مع البر، ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب مع الفجور، ووجدت الفجور في النار، وقد وجهني أمير المؤمنين بعد إليكم وأمرني أن أنفق فيكم وأوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة، وإني لأقسم بالله لا أجد رجلاً يتخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه. يا غلام اقرأ كتاب أمير المؤمنين. قرأ: بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين، سلام عليكم. فلم يرد أحد شيئاً، فقال الحجاج: أكف يا غلام، ثم أقبل على الناس فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون شيئاً عليه، هذا أحبكم الذي تأدبتم به، وأما والله لأؤدبنكم أدباً غير هذا الأدب، اقرأ يا غلام. قرأ حتى بلغ قوله سلام عليكم فلم يبق أحد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام، ثم نزل بعد ما فرغ من خطبته وقراءته ووضع للناس عطاياهم، فجمعوا يأخذونها، حتى أتاه شيخ يرعش فقال: أيها الأمير إني على الضعف كما ترى، ولي ابن هو أقوى مني على الأسفار، أقتضه بديلاً مني؟ فقال: تقبله أيها الشيخ. فلما ولي قال له قاتل: أتدري من هذا أيها الأمير؟ قال: لا. قال: هذا عمير بن صابئ الذي يقول:

هممت ولم أفعل وكذبت وليتي تركت على عثمان تبكي حلالته

ولقد دخل هذا الشيخ على عثمان رضي الله عنه وهو مقتول فوطيء في بطنه، فكسر ضلعين من أضلاعه. فقال

(١) عجم: اختبر.

(٢) الزرافات: التجمعات.

الحجاج: ردوه، فلما ردوه قال له الحجاج: أنت الفاعل بأمر المؤمنين عثمان ما فعلت يوم قتل الدار، إن في قتلك أيها الشيخ إصلاحاً للمسلمين، يا سيف اضرب عنقه، فضرب عنقه. وكان من أمره بعد ذلك ما عرف وستر.

ومن حكايات الحجاج: ما حكى أنه لما أسرف في قتل أسرى دير الجماجم، وأعطى الأموال بلغ ذلك أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فشق^(١) عليه وكتب إليه: أما بعد، فقد بلغني عنك إسراف في الدماء وتبذير في العطاء، وقد حكمت عليك في الدماء في الخطأ بالدية، وفي العمد بالقود^(٢)، وفي الأموال أن تردّها إلى مواضعها، ثم تعمل فيها برأيي، فإنما هو مال الله تعالى ونحن أمناءؤه، فإن كنت أردت الناس لي فما أغنائي عنهم، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك عني أمران، لين وشدة فلا يؤمنك إلا الطاعة، ولا يوحشك إلا المعصية، وإذا أعطاك الله عز وجل الظفر، فلا تقتل جانحاً ولا أسيراً وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتها	وتطلب رضائي بالذي أنا طالبة
فإن ترمي غفلة قرشية	فيا ربما قد غص بالماء شارب
وإن ترمي وثبة أموية	فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه
فلا تأمّني والحوادث جمّة	فإنك تجزي بالذي أنت كاسبه
فلا تعد ^(٣) ما يأتيك مني وإن تعد	يقمن به يوماً عليك نوابه
فلا تمنن الناس حقاً علمته	ولا تعطين ما ليس للناس واجبه
فإنك إن تعطي الحقوق فإنما	النوافل شيء لا يثيبك ^(٤) واجبه

فلما ورد الكتاب على الحجاج كتب إلى أمير المؤمنين: أما بعد فقد ورد كتاب أمير المؤمنين بذكر إسرافي وتبذيري في الأموال، ولعمري ما بلغت في عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة، فإن كان قتلي العصاة إسرافاً، وإعطائي المطيعين تبذيراً، فليضمن لي أمير المؤمنين ما سلف. والله ما أصبت القوم خطأ فأديهم، ولا ظلمتهم عمداً فأقاد بهم، ولا قتلت إلا لك، ولا أعطيت إلا فيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وكتب في أسفل الكتاب:

إذا أنا لا أبغي رضاك وأتقي	أذاك فليلي لا تُوازي ^(٥) كواكبه
وما لا مريء بعد الخليفة جنة ^(٦)	تقيه من الأمر الذي هو راكبه
إذا قارف الحجاج فيك خطيئة	

واقصي^(٧) الذي تسري إليّ عقابه

إذا أنا لم أدن الشفيق لنصح

(١) شق عليه: عزّ عليه وصعب الأمر.

(٢) القود: القصاص.

(٣) تعدّ: تتحدّى وتتجاوز.

(٤) يثيبك: يجازيك.

(٥) توازي: تخفى.

(٦) جنة: وقاية وستر.

(٧) أقصي: أبعد.

وأعطى المواسي في البلاء عطية
فمن يتقي بؤسي ويرجو مودتي
وأمرني إليك اليوم ما قلت قلته
ومهما أردت اليوم مني أردته
وقف بي على حد الرضا لا أجوزه
وإلا فدعني والأمور فإنني
لرد الذي ضاقت عليّ مذاهبه
ويخشى غدا والدهر جم نوائبه
وما لم تقله لم أقل ما يقاربه
وما لم ترده اليوم إنني مجانبه
مدى الدهر حتى يرجع الدر حالبه
شفيق رفيق أحكمته تجاربه

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك. قال: خاف أبو محمد صولتي ولن يعاود لأمر كرهته إن شاء الله تعالى، فلمن يلومني على محبته. يا غلام أكتب إليه: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت أعلى عيناً بما هناك. وفي مروج الذهب للمسعودي: أن أم الحجاج وهي الفارعة بنت همام ولدته مشوهاً لا دبر له، فقتب له دبر، وأبى أن يقبل الثدي، وأعياهم أمره فيقال إن الشيطان تصور له في صورة الحارث بن كلدة حكيم العرب، فسألهم عن ذلك فأخبره مخبر من أهله. فقال لهم: اذهبوا له تيساً، وألقوه من دمه وأولغوه فيه ثم أطوا به وجهه. ففعلوا ذلك، فقبل الثدي، فلأجل ذلك كان لا يصبر عن سفك الدماء، وكان يخبر عن نفسه، أن أكبر لذاته سفك الدماء، وارتكاب أمور لا يقدر غيره عليها، وكانت أمه متزوجة قبل أبيه الحارث بن كلدة، فدخل عليها يوماً في السحر فوجدها تخلل أسنانها، فطلقها فسأله لم فعل؟ فقال لها: إن كنت باكرت الغداء فأنت شرهة، وإن كان بقايا طعام بفيك فأنت قذرة. فقالت: كل ذلك لم يكن، وإنما تخللت من شظايا السواك. فقال: قضي الأمر. فتزوجها بعده يوسف بن عقيل الثقفي فأولدها الحجاج.

وقيل إن الحجاج تقلد الإمارة وهو ابن عشرين سنة، ومات له ثلاث وخمسون سنة وكان من عنف السياسة، وثقل الوطأة، وظلم الرعية، والإسراف في القتل، على ما لا يبلغه وصف. أحصي من قتله الحجاج بأمره، سوى من قتله في حروبه، فكانوا مائة ألف وعشرين ألفاً، ووجد في سجنه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف امرأة، لم يجب على أحد منهم قطع ولا قتل، وكان يحبس الرجال والنساء في موضع واحد، ولم يكن لحبسهم سقف يستر الناس من الحر والبرد. وقيل للشعبي: أكان الحجاج مؤمناً؟ قال: نعم بالطاغوت. وقال: لو جاءت كل أمة بخبيثتها، وفاسقها، وجئنا بالحجاج وحده لزدنا عليهم والله أعلم.

وقد مضى القول في ذكر الفصحاء من الرجال وحكاياتهم، وما أعان الله تعالى عليه واستحضرت من أخبارهم، وأنا قائل، إن شاء الله تعالى ما استحضرت من ذكر فصحاء النساء وأخبارهن وحكاياتهن والله المستعان.

ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن

حكى عن أبي عبد الله النميري أنه قال: كنت يوماً مع المأمون وكان بالكوفة فركب للصيد ومعه سرية من العسكر، فبينما هو سائر إذ لاح له طريدة، فأطلق عنان جواده وكان على سابق من الخيل، فأشرف على نهر ماء الفرات، فإذا هو بجارية عربية خماسية^(١) القد، قاعدة النهر كأنها القمر ليلة تمامه، ويدها قرية قد ملأها ماء وحملتها

(١) خماسية القد: طويته (أي خمسة أشبار حوالى ٦٥ سم).

على كفها وصعدت من حافة النهر، فأنحلت وكاؤها^(١) فصاحت برفيع صوتها: يا أبت أدرك فاهنا، قد غلبني فوها، لا طاقة لي بفوها، قال: فعجب المأمون من فصاحتها ورمت الجارية القرية من يدها. فقال لها المأمون: يا جارية من أي العرب أنت؟ قالت: أنا من بني كلاب. قال: وما الذي حملك أن تكوني من الكلاب؟ فقالت: والله لست من الكلاب، وإنما أنا من قوم كرام، غير لثام يقرون^(٢) الضيف، ويضربون بالسيف. ثم قالت: يا فتى من أي الناس أنت؟ فقال: أو عندك علم بالأنساب؟ قالت: نعم، قال لها: أنا من مضر الحمراء. قالت: من أي مضر؟ قال: من أكرمها نسباً، وأعظمها حساباً، وخيرها أمأ وأباً، ممن تهابه مضر كلها. قالت: أظنك من كنانة. قال: أنا من كنانة. قالت: فمن أي كنانة؟ قال: من أكرمها مولداً وأشرفها محتداً^(٣)، وأطولها في المكرمات بدأ ممن تهابه كنانة وتخافه. فقالت: إذن أنت من قريش. قال: أنا من قريش. قالت: من أي قريش؟ قال: من أجملها ذكراً وأعظمها فخراً، ممن تهابه قريش كلها وتخشاه، قالت: أنت والله من بني هاشم، قال: أنا من بني هاشم. قالت: من أي هاشم؟ قال: من أعلاها منزلة، وأشرفها قبيلة، ممن تهابه هاشم وتخافه. قال: فعند ذلك قبلت الأرض وقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين. قال: فعجب المأمون وطرب طرباً عظيماً، وقال: والله لأتزوجن بهذه الجارية لأنها من أكبر الغنائم، ووقف حتى تلاقته العساكر فتزل هناك وأنفذ خلف أيها وخطبها منه فزوجه بها، وأخذها وعاد مسروراً. وهي اللة ولده العباس والله أعلم.

وحكي أن هند ابنة النعمان كانت أحسن أهل زمانها فوصف للحجاج حبسها فأنفذ إليها يخطبها ويذل لها مالا جزيلاً وتزوج بها، وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم، ودخل بها. ثم إنها انحدرت معه إلى بلد أبيها المعرة، وكانت هند فصيحة أدبية، فأقام بها الحجاج بالمعرة مدة طويلة، ثم إن الحجاج رحل بها إلى العراق فأقامت معه ما شاء الله، ثم دخل عليها في بعض الأيام وهي تنظر في المرأة تقول:

وما هند إلا مهرة عريية سليلة أفراس تحللها بغل
فإن ولدت فحلل دؤها وإن ولدت بغلاً فجاء به البغل

فانصرف الحجاج راجعاً ولم يدخل عليها، ولم تكن علمت به. فأراد الحجاج طلاقها فأنفذ إليها ابن طاهر، وأنفذ لها معه مائتي ألف درهم، وهي التي كانت لها عليه. وقال: يا ابن طاهر طلقها بكلمتين ولا ترد عليهما. فدخل عبد الله بن طاهر عليها فقال لها: يقول لك أبو محمد الحجاج: كنت قبنت^(٤) وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله. فقالت: اعلم يا ابن طاهر، إنا والله كنا فما حمدنا، وبتنا، فما نعلمنا، وهذه المائتا ألف درهم التي جئت بها، بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف.

ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ووصف لها جمالها، فأرسل إليها يخطبها فأرسلت إليه كتاباً تقول فيه بعد الشتاء عليه: اعلم يا أمير المؤمنين أن الإناء ولغ فيه الكلب. فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك

(١) الوكاه: ما يشد به رأس القرية.

(٢) القرى: إكرام الضيف.

(٣) المحتد: الأصل.

(٤) بنت: بنت وقصد طلاقها.

من قولها وكتب إليها يقول: إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً، إحداهن بالتراب فاغسلي الإناء يحل الاستعمال. فلما قرأت كتاب أمير المؤمنين لم يمكنها المخالفة، فكتبت إليه بعد الثناء عليه: يا أمير المؤمنين والله لا أحل العقد إلا بشرط فإن قلت: ما هو الشرط؟ قلت: أن يقود الحجاج محملي من المعرة إلى بلدك التي أنت فيها، ويكون ماشياً حافياً بحليته التي كان فيها أولاً. فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ضحك ضحكاً شديداً، وأنفذ إلى الحجاج وأمره بذلك. فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين أجاب، وامتل الأمر ولم يخالف، وأنفذ إلى هند يأمرها بالتجهز، فتجهزت وسار الحجاج في موكب حتى وصل المعرة ببلد هند. فركبت هند في محمل الزفاف، وركب حولها جواربها وخدمها، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها، فجعلت هند تتواغد^(١) عليه، وتضحك مع الهيفاء دايتها، ثم إنها قالت للهيفاء: يا داية اكشفي لي سجن^(٢) المحمل^(٣) فكشفتها، فوقع وجهها في وجه الحجاج فضحكت عليه فأنشأ يقول:

فإن تضحكي مني فيا طول ليلة تركت فيها كالبقاء المفرج^(٤)
فأجابته هند تقول:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت بما فقدناه من مالٍ ومن نسبٍ
فالمال مكتسبٌ والعز مرتجعٌ إذا النفوس وقاهها الله من عطبٍ

لم تزل كذلك تضحك وتلعب إلى أن قربت من بلد الخليفة. فرمت بدينار على الأرض، ونادت: يا جمال إنه قد سقط منا درهم فارفعه إلينا، فنظر الحجاج إلى الأرض فلم يجد إلا ديناراً، فقال: إنما هو دينار، فقالت: بل هو درهم، قال: بل دينار، فقالت: الحمد لله سقط منا درهم، فموضنا الله ديناراً، فخجل الحجاج وسكت، ولم يرد جواباً، ثم دخل بها على عبد الملك بن مروان فتزوج بها، وكان من أمرها ما كان، وقد وجدت في بعض النسخ ما هو أوسع من هذا، ولكن اقتصرنا على القليل منه، إذ فيه الغرض والله أعلم.

وقيل إن جارية عرضت على الرشيد ليشترها فتأملها وقال لمولاه: خذ جاريتك فلولا كلف بوجهها، وخسب بأنفسها لاشرتها. فلما سمعت الجارية مقالة أمير المؤمنين قالت مبادرة: يا أمير المؤمنين اسمع مني ما أقول. فقال: قولي. فأنشدت تقول:

ما سلم الظبي على حسنه كلا ولا البدر الذي يوصفُ
الظبي فيهِ خسنٌ يسنُّ والبدر فيهِ كلفٌ يُعرفُ
قال: فعجب من فصاحتها وأمر بشرائها.

وقيل: عرضت على المأمون جارية بارعة في الجمال، فأنقذ في الكمال غير أنها كانت تعرج برجلها، فقال لمولاه: خذ يدها وارجع، فلولا عرج بها لاشرتها. فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين، إنه في وقت حاجتك لا يكون بحيث تراه، فأعجبه سرعة جوابها وأمر بشرائها.

(١) تواغد: قوم بحركات هازئة.

(٢) السجن: الطرف. وهو هنا قريب من السائر.

(٣) المحمل: اليهودج.

(٤) القباء المفرج: الثوب مشقوق الطرف.

ومن ذلك ما حكى أن كريم الملك كان من ظرفاء الكتاب فعبر يوماً تحت جوسق^(١) بيستان، فرأى جارية ذات وجه زاهر، وكمال باهر، لا يستطيع أحد وصفها فلما نظر إليها ذهل عقله، وطار له، فعاد إلى منزله وأرسل إليها هدية نفيسة مع عجوز كانت تخدمه، وكانت الجارية عزباء وكتب إليها رقعة يعرض إليها بالزيارة في جوسقها فلما قرأت الرقعة قبلت الهدية، ثم أرسلت إليه مع العجوز عبراً، وجعلت فيه زر ذهب، وربطت ذلك على منديل وقالت للعجوز: هذا جواب رقعتي، فلما رأى كريم الملك ذلك لم يفهم معناه وتحير في أمره، وكانت له ابنة صغيرة السن، فلما رأت أباهاً متحيراً في ذلك. قالت له: يا أبت أنا علمت معناه قال: ما هو الله درك؟ قالت:

أهدت لك العنبرَ في جوفه زرّ من التبرِ خفيّ اللحام
فالزرُّ والعنبرُ معناهما زر هكذا مختفياً في الظلام

وحكى إن طائفة من بني تميم كانوا يكسرون أول الفعل، فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة فناداها شخص منهم وأراد أن يوقعها فيما ينسب إليهم من كسر الفعل. فقال: لأي شيء يا بني تميم ما تكتنون^(٢). فقالت: ولم لا نكتني وكسرت الفعل. فضحك عليها وقال: أفعل إن شاء الله: فخرجت من قوله، وتغير وجهها، وأرادت أن توقعه كما أوقعها فقالت له: هل تحسن شيئاً من العروض. قال نعم. قالت قطع لي:

حولوا عنا كنيتكم يا بني حمالة الحطب

فقطعه فوقف على عن، ثم ابتدأ بالنون والألف مع بقية الحروف فضحكت عليه وأضحكت أصحابه فقال: ويحك لم تبرحي حتى أخذت بشارك.

وحكى أن شاعراً كان له عدو، فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق، إذا هو بعدوه، فعلم الشاعر أن عدوه قاتله لا محالة، فقال له: يا هذا أنا أعلم أن المنية قد حضرت، ولكن سألتك الله إذا قتلتني امض إلى داري وقف بالباب وقل: ألا أيها البتان إن أباكما. فقال سمعاً وطاعة. ثم إنه قتله، فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ووقف بالباب وقال: ألا أيها البتان إن أباكما. وكان للشاعر ابتان فلما سمعنا قول الرجل: ألا أيها البتان إن أباكما. أجابته بغم واحد، قتل خذا بالثار ممن أتاكما^(٣). ثم تعلقتا بالرجل ورفعتاه إلى الحاكم فاستقرره، فأقر بقتله، فقتله والله أعلم.

وقيل بينما كثير عزة ماراً بالطريق يوماً، إذا هو بعجوز عمياء على قارعة الطريق تمشي، فقال لها: تنحي عن الطريق. فقالت له: ويحك، ومن تكون؟ قال: أنا كثير عزة، قالت: قبحك الله، وهل مثلك يتنحي له عن الطريق، قال: ولم؟ قالت: ألسنت القاتل:

وما روضة بالحسن طيبة الثرى يمج الندى جثائها وعرارها^(٤)
بأطيب من أردان^(٥) عزة موهنا إذا أوقدت بالمجمر اللدن نارها

(١) الجوسق: القصر.

(٢) تكتنون: تتخلون الكواتين (الأفران).

(٣) هذا شطر البيت الذي بدأه والدعما كما ترى.

(٤) الجشعاء والعرار: من نباتات طيبة الريح.

(٥) الأردن مفرداً رذن: الكم.

ويحك يا هذا لو تبخر بالمجمر اللدن مثلي ومثل أمك لطاب ريحها. لم لا قلت مثل سيدك امرئ القيس:
وكننت إذا ما جئت بالليل طارقاً وجعلت بها طيباً وإن لم تطيب
فقطعته ولم يرد جواباً.

وقيل: أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فقال لأصحابه: ما تقولون فيها؟ قالوا: عاجلها بالقتل أيها الأمير. قالت
الخارجية: لقد كان وزراء صاحبك خيراً من وزرائك يا حجاج. قال: ومن هو صاحبي؟ قالت: فرعون، استشارهم
في موسى عليه السلام فقالوا ارجعه وأخاه. وأتى بأخرى من الخوارج فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه، فقيل لها:
الأمير يكلمك وأنت لا تنظرين إليه. فقالت: إني لأستحي أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه.

وحكى ابن الجوزي في كتابه المنتظم في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما ولي عمر رضي الله
عنه الخلافة بلغه أن أصدقة^(١) أزواج النبي ﷺ خمسمائة درهم، وأن فاطمة رضي الله عنها كان صداقها على علي بن
أبي طالب كرم الله وجهه أربعمئة درهم. فأدى اجتهد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أن لا يزيد أحد على صداق
البضعة النبوية فاطمة رضي الله عنها. فصعد المنبر وحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: أيها الناس لا تزيدوا في مهور
النساء على أربعمئة درهم، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت مال المسلمين. فهاب الناس أن يكلموه، فقامت امرأة في
يدها طول فقالت له: كيف يحل لك هذا والله تعالى يقول: ﴿وَأَتَيْتُمْ أَحَدَ مَنْ قَتَلَ إِثْمَانًا فَلَا تَأْخُذُوا بِهِ شَيْئاً﴾^(٢) فقال عمر
رضي الله عنه: امرأة أصابت ورجل أخطأ. وقيل جاءت امرأة إلى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فقالت: يا أمير
المؤمنين، إن زوجي يصوم النهار، ويقوم الليل. فقال لها: نغم الرجل زوجك، وكان في مجلسه رجل يسمى كعباً
قال: يا أمير المؤمنين إن هذه المرأة تشكو زوجها في أمر مباحده إياها عن فراشه، فقال له: كما فهمت كلامها أحكم
بينهما. فقال كعب: علي بزوجه. فأحضر، فقال له: إن هذه المرأة تشكوك. قال: أفي أمر طعام أم شراب؟ قال: بل
في أمر مباحدتك إياها عن فراشك. فأنشأت المرأة تقول:

يا أيها القاضي الحكيم أنشد	ألهي خليلي عن فراشي مسجده
نهاره وليله لا يرقده	فلست في أمر النساء أحمد

فأنشأ الزوج يقول:

زهدني في فرشها وفي الحلل	أنني أسرو أذهلني ما قد نزل
في سورة النمل وفي السبع الطول	وفي كتاب الله تخويف يجل

فقال له القاضي:

إن لها عليك حقاً لم يزل	في أربع نصيها لمن عقل
-------------------------	-----------------------

فماطها ذاك ودع عنك العلل

ثم قال: إن الله تعالى أحل لك من النساء مثني، وثلاث، ورباع أفلك ثلاثة أيام بلياليهن. لها يوم وليلة. فقال

(١) مفردتها صداق: وهو المهر.

(٢) سورة: النساء، الآية: ٢٠.

عمر رضي الله عنه: لا أدري من أيكم أصعب، أمن كلامها أم من حكمك بينهما؟ أذهب فقد وليتك البصرة.

حكاية المتكلمة بالقرآن: قال عبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام، فبينما أنا في بعض الطريق، إذ أنا بسواد على الطريق فتميزت ذاك فإذا هي عجوز عليها درع من صوف، وخمار من صوف، فقلت: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. قالت: «سلامٌ قولاً من ربِّ رحيم»^(١) قال: فقلت لها: يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان؟ قالت: «مَنْ يَضِلُّ الله فلا هادي له»^(٢) فعلمت أنها خالة عن الطريق. فقلت لها: أين تريدان؟ قالت: «سبحانَ الذي أَسْرَى بَعِيلَهُ لَيْلًا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى»^(٣) فعلمت أنها قد قضت حجبها وهي تريد بيت المقدس. فقلت لها: أنت مثلكم في هذا الموضع؟ قالت: «ثلاث ليالٍ سوياً»^(٤) فقلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين. قالت: «هو يطعمني ويسقين»^(٥) فقلت: فبأي شيء تتوضئين؟ قالت: «فلم تجلوا ماءً فكيُمُوا حَمِيماً طَيِّباً»^(٦) فقلت لها: إن معي طعاماً فهل لك في الأكل؟ قالت: «ثم ائِمُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ»^(٧) فقلت: ليس هذا شهر رمضان، قالت: «مَنْ تَطَوَّعَ خَيْرٌ فَإِنَّ الله شَاكِرٌ عَلِيمٌ»^(٨) فقلت: قد أبيع لك الإفطار في السفر. قالت: «وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»^(٩) فقلت: لم لا تكلميني مثل ما أكلمك. قالت: «ما يُلْقِظُ من قولٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ»^(١٠) فقلت فمن أي الناس أنت؟ قالت: «ولا تقف ما ليس لك به علم إِنْ اللَّعْنَةُ وَالْبَصَرُ وَالْفُؤَادُ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً»^(١١) فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حل. قالت: «لَا تَرْتِبْ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ»^(١٢) فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة. قالت: «وَمَا تَفْعَلُوا من خير يعلمه الله»^(١٣) قال: فأنخت ناقتي. قالت: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَشُؤْوا من آبصارهم»^(١٤) فنفضت بصري عنها وقلت لها: اركبي، فلما أرادت أن تركب فرت الناقة فمزقت ثيابها فقالت: «وما أصابكم من مصيبةٍ فَمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ»^(١٥) فقلت لها: اصبري حتى أعقلها. قالت: «فَقَهْمَنَا سَلِيمَانُ»^(١٦) فمقلت الناقة وقلت

(١) سورة يس، الآية: ٥٨.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٦.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ١.

(٤) سورة مريم، الآية: ١٠.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ٧٩.

(٦) سورة النساء، الآية: ٤٣.

(٧) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٨) سورة البقرة، الآية: ١٥٨.

(٩) سورة البقرة، الآية: ١٨٤.

(١٠) سورة ق، الآية: ١٨.

(١١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(١٢) سورة يوسف، الآية: ٩٢.

(١٣) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(١٤) سورة النور، الآية: ٣٠.

(١٥) سورة الشورى، الآية: ٣٠.

(١٦) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

لها: اركبي. فلما ركبت، قالت: ﴿سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون﴾^(١) قال: فأخذت بزمام^(٢) الناقة وجعلت أسمى وأصيح. فقالت: ﴿واقصد في مشيك وأغضض من صوتك﴾^(٣) فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم بالشعر فقالت: ﴿فاقرعوا ما تبغون من القرآن﴾^(٤) فقلت لها: لقد أوتيتم خيراً كثيراً ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾^(٥) فلما مشيت بها قليلاً قلت: ألك زوج؟ قالت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾^(٦) فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة. فقلت لها هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقالت: ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾^(٧) فعلمت أن لها أولاداً فقلت: وما شأنهم في الحج؟ فقالت: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾^(٨) فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب، والعمارات فقلت هذه القباب فمن لك فيها؟ قالت: ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾^(٩) ﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾^(١٠) ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾^(١١) فتأديت يا إبراهيم يا موسى يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم الأعمار قد أقبلوا، فلما استقر بهم الجلوس قالت: ﴿فابمئثوا أحدكم يورثكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم بزرق منه﴾^(١٢) فمضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدموه بين يدي فقالت: ﴿كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾^(١٣) فقلت: الآن طعامكم علي حرام حتى تخبروني بأمرها. فقالوا: هذا آمناء لها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقرآن مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن فسبحان القادر على ما يشاء. فقلت: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾^(١٤) والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) سورة: الزخرف، الآية: ١٣ - ١٤.

(٢) الزمام: المقدود.

(٣) سورة: لقمان، الآية: ١٩.

(٤) سورة: المزمل، الآية: ٢٠.

(٥) سورة: البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٦) سورة: المائدة، الآية: ١٠١.

(٧) سورة: الكهف، الآية: ٤٦.

(٨) سورة: النحل، الآية: ١٦.

(٩) سورة: النساء، الآية: ١٢٥.

(١٠) سورة: النساء، الآية: ١٦٤.

(١١) سورة: مريم، الآية: ١٢.

(١٢) سورة: الكهف، الآية: ١٩.

(١٣) سورة: الحاقة، الآية: ٢٤.

(١٤) سورة: الجمعة، الآية: ٤.

الباب الثامن: في الأجوبة المسكنة والمستحسنة ورشقات اللسان وما جرى مجرى ذلك

قيل إن معن بن زائدة دخل على المنصور فقال له: هيه يا معن تعطي مروان بن أبي حفصة مائة ألف على قوله:

معنُ بنُ زائدةَ الذي زادتْ به شرفاً على شرفِ بنو شيان
فقال: كلا يا أمير المؤمنين إنما أعطيته على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلناً بالسيفِ دون خليفةِ الرحمنِ
فمنعتُ حوزته^(١) وكنت وقاءً من وقعِ كلِّ مهتدٍ وسنانٍ^(٢)

فقال: أحسنت والله يا معن، وآخر له بالجوائز والخلع. ووفد ابن أبي محجن على معاوية فقام خطيباً فأحسن، فحسده معاوية وأراد أن يوقعه فقال له: أنت الذي أوصاك أبوك بقوله:

إذا متُّ فادفني إلى جنب كرمه تروي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفني في الفلاة فإني أخافُ إذا ما متُّ أن لا أذوقها
قال: بل أنا الذي يقول أبي:

لا تسأل الناس ما مالي وكثرتهُ وسألت الناس ما جودي وما خلقي
أعطي الحسام غداة الروح^(٣) حصتهُ وعاملُ الرمح أرويه من العلقِ
وأطعمُ الطمعةَ النجلاء^(٤) عن عرضي وأكرمُ السرِّ فيه ضربةُ الثنوقِ
ويعلمُ الناسُ أني من سراتهم^(٥) إذا سما بصُرِّ الرعيدِ بالفرق^(٦)

فقال له معاوية: أحسنت والله ابن أبي محجن، وأمر له بصلة وجائزة.

وقيل: أخذ عبد الملك بن مروان بعض أصحاب شيب الحارثي فقال له: ألت القاتل:

ومنا شريدٌ والبطيئُ وقعنُبُ ومنا أميرُ المؤمنين شيبُ

-
- (١) حوزته: ناحيته وما ضم.
(٢) السنان: الرمح أو الحاد من رأسه.
(٣) الروح: الخوف وهنا المعركة.
(٤) النجلاء: الكيرة الواضحة.
(٥) سراة القوم: أشرافهم ونبلاؤهم.
(٦) الرعيد: الجبان، والفرق: الخوف.

فقال: يا أمير المؤمنين، إنما قلت ومنا أمير المؤمنين شبيب، وأردت بذلك مناداة لك فكان ذلك سبباً لنجاته. ودخل شريك بن الأعور على معاوية وكان دميماً فقال له معاوية: إنك لدميم، والجميل خير من الدميم، وإنك لشريك وما لله من شريك، وإن أباك لأعور، والصحيح خير من الأعور، فكيف سدت قومك؟ فقال له: إنك معاوية وما معاوية إلا كلبة عوت، فاستعوت الكلاب، وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب، والسلام خير من الحرب، وإنك لابن أمية، وما أمية إلا أمة صغرت، فكيف صرت أمير المؤمنين ثم خرج وهو يقول:

أَيْشُمْنِي مَعَاوِيَةُ بْنُ حَرْبٍ وَسِيفِي صَارَ وَمَعِيَ لِسَانِي
وَحَوْلِي مِنْ ذَوِي يَزْنَ لِيَوْتُ ضَرَاغِمَةٌ تَهْتَشُّ إِلَى الطَّعَانِ
يَعْمُرُ بِالدَّمَامَةِ مِنْ سَفَاهٍ وَرِيَاثُ الْحِجَالِ^(١) مِنَ الْقَوَانِي

ودخل يزيد بن أبي مسلم صاحب شرطة الحجاج، على سليمان بن عبد الملك بعد موت الحجاج. فقال له سليمان: قبح الله رجلاً أجرك رسته^(٢)، وأولاك أمانته. فقال: يا أمير المؤمنين رأيته، والأمر لك، وهو عني مدبر. فلو رأيته وهو عليّ مقل، لاستكبرت مني ما استصغرت، واستعظمت مني ما استحققت. فقال سليمان: أترى الحجاج استقر في جهنم. فقال: يا أمير المؤمنين لا تقل ذلك، فإن الحجاج وطأ لكم المنابر، وأذل لكم الجبابرة، وهو يجيء يوم القيامة عن يمين أبيك، وشمال أخيك، فحيثما كانا كان.

وقال يهودي لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما لكم لم تلبثوا بعد نبيكم إلى خمس عشرة سنة حتى تقاتلتهم؟ قال علي كرم الله وجهه: ولم أنتم لم تجف أقدامكم من البلل حتى قلتم ﴿يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾^(٣). ووجد الحجاج على منبره مكتوباً. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾^(٤) فكتب تحته: ﴿قُلْ مَوْتُوا بِنِيطَتِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(٥) ودخل عقيل على معاوية وقد كف بصره فأجلسه معه على سريره ثم قال له: أنتم معشر بني هاشم تصابون في أبصاركم فقال له عقيل: وأنتم معشر بني أمية تصابون في بهائركم^(٦).

وقيل: اجتمعت بنو هاشم يوماً عند معاوية فأقبل عليهم وقال: يا بني هاشم، إن خيرني لكم لممنوح، وإن بايي لكم لمفتوح، فلا يقطع خيرني عنكم، ولا يرد بايي دونكم، ولما نظرت في أمري وأمركم، رأيت أمراً مختلفاً، إنكم ترون أنكم أحق بما في يدي مني، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حقوقكم، قلتم أعطائنا دون حقنا، وقصّر بنا عن قدرنا. فصرت كالمسلوب لا حمد له، هذا مع إنصاف قائلكم، وإسعاف سائلكم. قال: فأقبل عليه ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه، ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه، ولئن قطعت عنا خيرك، فخير الله أوسع منك، ولئن أغلقت دوننا باباً لنكفّر أنفسنا عنك، وأما هذا المال، فليس لك منه إلّا ما للرجل من المسلمين، ولو لاحقنا في هذا المال لم يأتك منا زائر يحمله خوف، ولا حافر، أكفأك أم أزيدك؟ قال: كفاني يا ابن عباس. وقال

(١) ربات الحجال: النساء،

(٢) الرسن: ما يقاد به الدواب.

(٣) سورة: الأعراف، الآية: ١٣٨.

(٤) سورة: الزمر، الآية: ٨.

(٥) سورة: آل عمران، الآية: ١١٩.

(٦) البصيرة: البصر القليلي أو الذهني.

معاوية يوماً: أيها الناس إن الله حبا^(١) قريباً بثلاث فقال لنبيه ﷺ ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾^(٢) ونحن عشيرته الأقربون. وقال تعالى: ﴿وإنه لذكر لك ولقومك﴾^(٣) ونحن قومه. وقال تعالى: ﴿لإيلاف قريش * إيلافهم﴾^(٤) ونحن قريش. فأجابه رجل من الأنصار فقال: على رسلك يا معاوية فإن الله تعالى يقول: ﴿وكذب به قومك وهو الحق﴾^(٥) وأنتم قومه. وقال تعالى: ﴿ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾^(٦) وأنتم قومه. وقال تعالى ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾^(٧) وأنتم قومه، ثلاثة بثلاثة ولو زدنا لزدناك. وقال معاوية أيضاً لرجل من اليمن: ما كان أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة، فقال: أجهل من قومي قومك الذين قاتلوا حين دعاهم رسول الله ﷺ ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾^(٨) ولم يقولوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه.

وقال يوماً لجارية بن قدامة: ما كان أهونك على قومك إذ سموك جارية. فقال: ما كان أهونك على قومك إذا سموك بمعاوية، وهي الأنثى من الكلاب قال: اسكت لا أم لك. قال: أم لي ولدتي، أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوانحنا، والسيوف التي قاتلناك بها لفي أيدينا، وإنك لم تهلكنا قسوة، ولم تملكنا عنوة^(٩)، ولكنك أعطيتنا عهداً وميثاقاً، وأعطيتك سمعاً وطاعة، فإن وفيت لنا، وفينا لك، وإن نزعت إلى غير ذلك، فإننا تركنا وراءنا رجلاً شداداً، حداداً^(١٠) فقال معاوية: لا أكثر الله في الناس مثلك يا جارية. فقال له: قل معروفًا فإن شر الدعاء محيط بأهله.

وخطب معاوية يوماً فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾^(١١) فعلام تلوموني إذا قصرت في عطايكم. فقال له الأحنف: وإنا والله لا نلومك على ما في خزائن الله، ولكن على ما أنزله الله لنا من خزائنه فجعلته في خزائنك وحلّت بيننا وبينه. وقيل دخل مجنون الطاق يوماً إلى الحمام وكان بغير منترز، فرآه أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه، وكان في الحمام فغمض عينيه، فقال له المجنون: متى أعماك الله؟ قال: حين هتك سترك.

ومن ذلك ما حكى أن الحجاج خرج يوماً متترهاً فلما فرغ من نزهته صرف عنه أصحابه وانفرد بنفسه فإذا هو بشيخ من بني عجل فقال له: من أين أيها الشيخ؟ قال: من هذه القرية. قال: كيف ترون عمالكم. قال: شر عمال،

- (١) حبا: أعطى ومسخ.
- (٢) سورة: الشعراء، الآية: ٢١٤.
- (٣) سورة: الزخرف، الآية: ٤٤.
- (٤) سورة: قريش، الآيتان: ١ - ٢.
- (٥) سورة: الأنعام، الآية: ٦٦.
- (٦) سورة: الزخرف، الآية: ٥٧.
- (٧) سورة: الفرقان، الآية: ٣٠.
- (٨) سورة: الأنفال، الآية: ٣٢.
- (٩) عنوة: إخضاعاً بالقوة.
- (١٠) حداداً: حادّين شليبين.
- (١١) سورة: الحجر، الآية: ٢١.

يظلمون الناس، ويستحلون أموالهم. قال: كيف قولك في الحجاج؟ قال: ذاك ما ولي العراق شر منه، قبحه الله، وقبح من استعمله. قال: أنعرف من أنا؟ قال: لا، قال: أنا الحجاج. قال: جعلت فداك، أو تعرف من أنا؟ قال: لا. قال: أنا فلان بن فلان مجنون بني عجل، أصرع في كل يوم مرتين. قال: فضحك الحجاج منه وأمر له بصلة.

وقال رجل لصاحب منزل: أضليخ خشب هذا السقف فإنه يقرقع. قال: لا تخف فإنه يسبح. قال: إني أخاف أن تدركه رقة فيسجد. وقالت عجوز لزوجها: أما تستحي أن تزني ولك حلال طيب؟ قال: أما حلال فنعم، وأما طيب فلا. وقال ملك لوزيره: ما خير ما يرزقه العبد؟ قال: عقل يعيش به. قال: فإن عدمه؟ قال: أدب يتحلى به. قال: فإن عدمه؟ قال: مال يستره. قال: فإن عدمه؟ قال: فصاعقة تحرقه وتريح منه العباد والبلاد. وتبأ رجل في زمن المنصور، فقال له المنصور: أنت نبي سفلة، فقال: جعلت فداك كل نبي يبعث إلى شكله.

ومن الأجوبة المسكنة المستحسنة، ما ذكر أن إبراهيم مغني الرشيد غنى يوماً بين يديه فقال له: أحسنت أحسن الله إليك، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنما يحسن الله إلي بك فأمر له بمائة ألف درهم. وقال رجل لبعض العلوية: أنت بستان، فقال العلوي: وأنت النهر الذي يسقى منه البستان. وذبحت عائشة رضي الله عنها شاة وتصدقته بها وأفضلت منها كفاً فقال لها النبي ﷺ: «ما عندك منها» فقالت: ما بقي منها إلا كف، فقال: «كلها بقي إلا كفاً»^(١). وقال عبد الله بن يحيى لأبي العيناء: كيف الحال؟ قال: أنت الحال، فانظر كيف أنت لنا. فأمر له بمال جزيل، وأحسن صلته. وكان عمرو بن سعد بن سالم في حرس المأمون فخرج المأمون ليلة، يتفقد الحرس، فقال لعمرو: من أنت؟ قال عمرو: عمرك الله، ابن سعد، أسعدك الله، ابن سالم سلمك الله. قال: أنت تكلوننا الليلة، قال: الله يكلوك يا أمير المؤمنين وهو «خير حافظاً وهو أرحم الراحمين»^(٢) فقال المأمون:

إن أخا الهيجاء من يسعى معك ومن يضمر نفسه ليغيبك
ومن إذا ربُّ الزمان صدعك شئت فيك شمله ليجمعك

ادفعوا إليه أربعة آلاف دينار. وقال عمرو: وددت لو أن الأبيات طالت. قال المعصم للفتح بن خاقان وهو صبي صغير: أرأيت يا فتح أحسن من هذا الفص^(٣)، لفص كان في يده. قال: نعم يا أمير المؤمنين اليد التي هو فيها أحسن منه. فأعجبه جوابه وأمر له بصلة وكسوة. وقيل: إن رجلاً سأل العباس رضي الله عنه: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: رسول الله ﷺ أكبر وأنا ولدت قبله. وقال معاوية لسعيد بن مرة الكندي: أنت سعيد؟ قال: أمير المؤمنين السعيد، وأنا ابن مرة. وقال المأمون للسيد بن أنس: أنت السيد؟ قال: أمير المؤمنين السيد، وأنا ابن أنس. وقال الحجاج للمهلب، وهو يماشيه: أنا أطول، أم أنت؟ قال: الأمير أطول، وأنا أبسط قامة، أراد الطول، وهو الفضل.

والأجوبة بهذا المعنى كثيرة لو تتبعناها لعجزت عنها، ولكني اقتصر على هذا، وأوجزت، وفيما ذكرته من ذلك كفاية وأسأل الله تعالى العون والعناية.

(١) أي في سجل الحسنات.

(٢) سورة: يوسف، الآية: ٦٤.

(٣) الفص: حجر يزين الخاتم، ويطلق عليه كله.

الباب التاسع: في ذكر الخطب والخطباء والشعراء وسرقاتهم وكبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قيل: خطب المأمون فقال: اتقوا الله عباد الله، وأنتم في مهل بادروا الأجل، ولا يغرنكم الأمل، فكأنني بالموت قد نزل فشغلت المرء شواغله، وتولت عنه فواصله، وهيث أكفانه، وبكاه جيرانه، وصار إلى التراب الخالي، بجسده البالي، فهو في التراب عفير^(١)، وإلى ما قدم فقير. وقال الشعبي: ما سمعت أحداً يخطيء إلا تمنيت أن يسكت مخافة أن يخطيء، ما خلا زياداً فإنه لا يزداد إكثاراً إلا ازداد إحساناً.

وخطب علي رضي الله عنه فقال في خطبته: عباد الله الموت الموت ليس منه فوت، إن أقمتم أخذكم، وإن فررتم منه أدرركم، الموت معقود بنواصيكم، فالنجا النجا والوفا الوفا^(٢)، فإن وراءكم طالباً حثيثاً وهو القبر، ألا وإن القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، ألا وإنه يتكلم في كل يوم ثلاث كلمات فيقول: أنا بيت الظلمة، أنا بيت الوحشة، أنا بيت الديدان، ألا وإن وراء ذلك اليوم، يوماً أشد منه، يوماً يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير، ﴿تَلْعَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(٣) ألا وإن وراء ذلك اليوم يوماً أشد منه، فيه نار تسعر، حرها شديد، وقعرها بعيد، وحليها حديد، وماؤها صديد، ليس لله فيها رحمة. قال فبكى المسلمون بكاء شديداً. ثم قال وإن وراء ذلك اليوم ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(٤) أدخلنا الله وإياكم دار النعيم، وأجارنا وإياكم من العذاب الأليم.

وخطب: الحجاج بن يوسف فقال في بعض خطبه: إن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن رضي الله عنه خطب بالبصرة فقال: أيها الناس كل كلام في غير ذكر فهو لغو، وكل صمت في غير فكر فهو سهو، والدنيا حلم، والآخرة يقظة، والموت متوسط بينهما، ونحن في أضغاث أحلام.

قيل: اجتمع الناس عند معاوية وقام الخطباء لبيعة يزيد، وأظهر قوم الكراهة، فقام رجل من الخطباء من عذرة يقال له يزيد بن المقنع، فاخترط من سيفه شيراً، ثم قال: أمير المؤمنين هذا. وأشار إلى معاوية، ثم قال: فإن يهلك فهذا، وأشار إلى يزيد، ثم قال: فمن أبى فهذا، وأشار إلى سيفه، فقال له معاوية: أنت سيد الخطباء.

(١) عفير: ملطخ بالتراب.

(٢) الوفا: السرعة والبدار.

(٣) سورة: الحج، الآية: ٢.

(٤) سورة: آل عمران، الآية: ١٣٣.

فصل: في ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم

قيل: ما استدعي شارد الشعر بمثل الماء الجاري، والشرف العالي، والمكان الخضر الخالي، وقيل: أمسك على النابغة الجعدي أربعين يوماً، فلم ينطق بالشعر ثم إن بني جعدة غزوا فظفروا، فاستخفه الطرب والفرح، فرام^(١) الشعر فذل له ما استعصب عليه فقال له قومه: والله لنخُنْ بإطلاق لسان شاعرنا أسراً منا بالظفر بعدونا. وقال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة منهن الخنساء، وليلى، فما ظنك بالرجال. وقال الخليل: الشعراء أمراء الكلام يتصرفون فيه كيف شاؤوا، جائز لهم فيه ما لا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تسهيل اللفظ وتعقيده. وقيل: وفد زياد بن عبد الله على معاوية فقال له: أقرأت القرآن؟ قال: نعم، قال: أقرضت القريض^(٢)؟ قال: نعم. قال: أرويت الشعر؟ قال لا. فكتب إلى عبد الله. أبا زياد بارك الله لك في ابنك، فأروه الشعر. فقد وجدته كاملاً، وإنني سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ارووا الشعر فإنه يدل على محاسن الأخلاق، وبقي مساوئها. وتعلموا الأنساب، فرب رَجِمَ مجهولة قد وصفت بعرفان النسب، وتعلموا من النجوم ما يدلكم على سبلكم في البر والبحر، ولقد هممت بالهرب يوم صفين فما ثبتني إلا قول^(٣).

أقول لها إذا جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي^(٤)

وقيل: لم ير قط أعلم بالشعر والشعراء من خلف الأحمر، وكان يعمل الشعر على ألسنة الفحول من القدماء، فلا يتميز عن مقولهم، ثم تنسك فكان يختم القرآن كل يوم ليلة، ويذل له بعض الملوك مالاً جزيلاً، على أن يتكلم في بيت من الشعر شكوا فيه فأبى. وكان الحسن بن علي رضي الله عنه يعطي الشعراء، فقيل له في ذلك. فقال: خير ما لك ما وقيت به عرضك. وقال أبو الزناد: ما رأيت أروى للشعر من عروة، قلت له: ما أرواك يا أبا عبد الله، فقال: وما روايتي مع رواية عائشة رضي الله عنها، ما كان ينزل بها شيء إلا أنشدت فيه شعراً، وكان رسول الله ﷺ يتمثل بقول القاتل: كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً. ولم ينطق به موزوناً. فقال: أبو بكر الصديق رضي الله عنه أشهد أنك رسول الله حقاً. وتلا قوله تعالى: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾^(٥).

ولنذكر نبذة من سرقات الشعراء وسقطاتهم، فمن ذلك قول قيس بن الخطيم وهو شاعر الأرس وشجاعها:

ما المال والأخلاق إلا مُعاراة فما اسطمت من معروفها فتزود

وكيف يخفى ما أخذه مع اشتها قصيد طرفة بن العبد وهي معلقة على الكعبة يقول فيها:

لَمَنُزَكْ ما الأيام إلا معارة فما اسطمت من معروفها فتزود

ومن ذلك قول عبدة بن الطبيب^(٦):

(١) رام: أراد وطلب.

(٢) القريض: من أسماء الشعر.

(٣) الشعر لعمرو بن الإطابة.

(٤) رواية البيت في كتب الأدب: وقولي كلما جشأت...

(٥) سورة: هـ، الآية: ٦٩.

(٦) لعلة عبدة بن الطبيب.

فما كان قيس هلكه هلك واحد ولكنه ببيان قوم تهلما
أخذه من قول امرئ القيس:

فلو أنها نفسي تموتُ شريتها ولكنها نفسٌ تَنَاقُطُ أنفاسا
ويقال: من سرق شيئاً واسترقه فقد استحقه، وهو أن يسرق الشاعر المعنى دون اللفظ. فمن السرقة الفاحشة
قول كثير في عبد الملك بن مروان:

إذا ما أراد الغزو لم يشن همه حصان^(١) عليها عقد دُرُ يزيناها
أخذه من قول الحطيفة، ولم يغير سوى الروي:

إذا ما أراد الغزو لم يُشْنِ همّه حصانٌ عليها لؤلؤ وشنوف
وجريز على سعة تبحره وقدرته على غرر الشعر وابتكار الكلام نقل قوله:

فلو كان الخلود بفضل قوم على قوم لكان لنا الخلود
من قول زهير وهو شعر مشهور يحفظه الصبيان وترويه النوان وهو:

فلو كان حمد يخلد المرء لم يمت ولكن حمد المرء غير مخلد
وقد قال الشماخ:

وأمر ترجي النفس ليس بنافع وآخر تخشى غيره لا يغيرها
وهو مأخوذ من قول الآخر:

ترجي النفوس الشيء لا تستطيعه وتخشى من الأشياء ما لا يغيرها
وأبو تمام مع قوته وقدرته على الكلام يقول:

وأحسن متن نُور^(٢) تفحته الصبا ينافس المطايا في سواد المطالب^(٣)
أخذه من قول الأخطل:

رأيت ينافساً في سواد كانه ينافس المطايا في سواد المطالب

ومن سقطات الشعراء ما قيل: أن أبا العتاهية كان مع تقدمه في الشعر كثير السقط. روي أنه لقي محمد بن مبادر بمكة فمازحه وضاحكه، ثم إنه دخل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين، هذا شاعر البصرة يقول قصيدة في كل سنة، وأنا أقول في كل سنة مائتي قصيدة، فأدخله الرشيد إليه وقال: ما هذا الذي يقول أبو العتاهية. فقال: يا أمير المؤمنين لو كنت أقول كما يقول:

(١) حصان: عفيفة.

(٢) النور: الزهر الأبيض للشجر.

(٣) الشطر الأول فيه خلل بالنظم أو تصحيف بالكتابة.

أموت الساعة الساعه

ألا يا عتبة الساعه

لقلت كثيراً ولكني أقول:

هَذَا ركناً ما كان بالمهدود
ما على النعش من عفافٍ وجود

ابن عبد الحميد يوم توفى
ما دَرَى نَعْشُهُ ولا حَامِلُوه

فأعجب الرشيد قوله وأمر له بعشرة آلاف درهم. فكاد أبو العتاهية يموت غماً وأسفاً.

وكان بشار بن برد يسمونه أبا المحدثين، ويسلمون إليه في الفضيلة والسبق وبعض أهل اللغة يستشهد بشعره ومع ذلك قال:

قصب السكر لا عظم الجمل
غلب المك علي ربح البصل

إنما عظم سليمى جنبي
وإذا أدنيت منها بصلاً

هذا مع قوله:

كأن عظامها من خيزران

إذا قامت لمشيها تثنّت

ومع قوله في الفخر:

وأسيافتنا ليل تهوى كوايئة

كان مزار النقيع^(١) فوق رؤوسنا

ومع قوله أيضاً:

ظلمت وأبى الناس تصفو مشارئ

إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى^(٢)

وأبو الطيب المتنبي في فضله المشهور، وأخذ به زمام الكلام، وقوته على رقائق المعاني، وعلى ما في شعره من الحكم والأمثال السائرة يقول:

إذا رأى غير شيء ظنّه رجلاً

وضاقت الأرض حتى صار هارثهم

وغير شيء معناه المعدم، والمعدم لا يرى فهذا سقط فاحش. ومما يستهجن من قوله ويكاد أن تمجه^(٣) الأسماع قوله:

قلائل عيش كلهن قلائل

تقلقت^(٤) بالهم الذي قلقل الحشا

وقوله وقد جمع بين قبح اللفظ وبرودة المعنى:

فبرئت حيثي من الإسلام

إن كان مثلك كان، أو هو كائن

(١) النقيع: غبار المعركة.

(٢) القذى: عكر الماء وعدم صفاته.

(٣) مجته الأسماع: أنفته وعافته.

(٤) القلقلة: ضد السكون.

ومن معانيه المروقة قوله:

ونهب نفوس أهل النهب أولى بأهل المجد من نهب القماش

أخذه من قول أبي تمام:

إن الأسود أسود الغاب همها يوم الكريهة في الملوب لا السلب

قال أبو عبد الله الزبيري: اجتمع رواية جرير، ورواية كثير، ورواية جميل، ورواية الأحوص، ورواية نصيب، فافتخر كل منهم وقال صاحبي أشعر، فحكموا السيدة سكينة بنت الحسين، رضي الله تعالى عنهما، بينهم لعقلها وتبصرها بالشعر، فخرجوا حتى استأذنوا عليها وذكروا لها أمرهم. فقالت لرواية جرير: أليس صاحبك الذي يقول:

طرقك^(١) صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجمي بسلام

وأي ساعة أحلى من الزيارة بالطروق، قبح الله صاحبك وقبح شعره، فهلاً قال فادخلي بسلام. ثم قالت لرواية كثير: أليس صاحبك الذي يقول:

يقر بعيني ما يقر بعينها وأحسن شيء ما به العين قررت

وليس شيء أقر بعينها من النكاح أحب صاحبك أن ينكح، قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لرواية جميل: أليس صاحبك الذي يقول:

فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ولكن طلائها لِمَا فات من عقلي

فما أراه هوى، وإنما طلب عقله، قبح الله صاحبك وقبح شعره. ثم قالت لرواية نصيب: أليس صاحبك الذي يقول:

أهيم بدعد ما حيث فإن أمث فواحنني من ذا يهيم بها بعدي

فما له همة إلا من يمتشقها بعده، قبحه الله وقبح شعره. هلاً قال:

أهيم بدعد ما حيث فإن أمث فلا صلحت دعد لذي خلة بعدي

ثم قالت لرواية الأحوص: أليس صاحبك الذي يقول:

من عاشقين تواعدا وتراسلا ليلاً إذا نجم الشربا حلقا

باتا بأنعم ليلة وألذها حتى إذا وضع الصباح تفرقا

قبحه الله وقبح شعره. هلاً قال تعانقا. فلم تن على واحد منهم، وأحجم روايتهم عن جوابها، رضي الله عنها.

وروى ابن الكلبي قال: لما أفضت الخلافة إلى عمر بن العزيز، وفدت إليه الشعراء كما كانت تقد على الخلفاء من قبله، فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم في الدخول، حتى قدم عدي بن أرطاة عليه، وكان منه بمكانة فتعرض له جرير وقال:

يا أيها الرجل المزجي^(١) مطيئة
أبلغ خليفتنا إن كنت لائقه
لا تنس حاجتنا لاقبت مغفرة
قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

فقال: نعم يا أبا عبد الله. فلما دخل على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وألستهم مسمومة، وسهامهم صائبة. فقال عمر رضي الله عنه: ما لي وللشعراء. فقال يا أمير المؤمنين: إن رسول الله ﷺ مدح فأعطى، وفيه أسوة لكل مسلم. قال: صدقت فمن بالباب منهم؟ قال: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة القرشي، قال: لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه، أليس هو القاتل:

ألا ليتني في يوم تدنو مني
وليت طهوري كان ريقك كله
ويا ليت سلمى في القبور ضجيعتي
شممت الذي ما بين عينيك والقم
وليت حنوطي^(٢) من مشاشك^(٣) والدم
هنالك أو في جنة أو جهنم

فليت عدو الله تمنى لقاءها في الدنيا، ثم يعمل عملاً صالحاً، والله لا يدخل عليّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: جميل بن معمر العذري، قال أليس هو القاتل:

ألا ليتنا نحيا جميعاً فإن نمت
فما أنا في طول الحياة براغب
أظل نهاري لا أراها وتلتقي
يوافي لدى الموت ضريحي ضريحها
إذا قيل قد سوى عليها صفيحها^(٤)
مع الليل روحي في المنام وروحها

والله لا يدخل عليّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: كثير عزة قال: أليس هو القاتل:

رهبان مدين والذين عهدتهم
يسمعون كما سمعت حديثها
يكون من حذر الفراق قعوداً
خروا بعزة ركعاً وسجوداً

أبعده الله، فوالله لا يدخل عليّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت، قال الأحوص الأنصاري، قال أبعده الله، والله لا دخل عليّ أبداً، أليس هو القاتل، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته حتى هرب بها منه:

الله بيني وبين سيدها
يفر مني بها وأتبعه

فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: همام بن غالب الفرزدق. قال: أليس هو القاتل يفتخر بالزنا في قوله:

هما دلياني من ثمانين قامة
فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا
كما انقضَّ بازَّ لئن الريش كاسرة
أحيي، فيرجى أم قتيلاً نحاذرة

(١) أزوجت المطية: دُفعت وسُيرت.

(٢) الحنوط: طيب للأموات.

(٣) المشاش: العظم لا مخ فيه.

(٤) الصفيح: أحجار ترصف فوق الدفين.

فقلت ارفعوا الأحراس لا يطفنوا بنا
والله لا يدخل عليّ أبداً، فمن بالباب غيره ممن ذكرت؟ قال: الأخطل التغليبي. قال: أليس هو القاتل:

ولستُ بصائمٍ رمضانَ عمري
ولستُ بزاجرٍ عيساً بكوراً
ولستُ بقائمٍ كالعبد يدعو
ولكنني مأثرُها شمولاً^(١)
ولستُ بأكَلٍ لحمِ الأضاحي
إلى أطلالٍ مَكَّةَ بالنجاح
فَيُيَلِّ الصبحَ حيَّ على الفلاح
واسجدُ عند منبج الصبح

أبعده الله عني، فوالله لا دخل عليّ أبداً، ولا وطئ لي بساطاً، وهو كافر. فمن بالباب غيره من الشعراء ممن ذكرت؟ قال: جرير. قال: أليس هو القاتل:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
فإن كان ولا بد فهذا، فأذن له. قال عدي بن أرطاة: فخرجت فقلت: ادخل يا جرير. فدخل وهو يقول:
إن الذي بعث النبي محمداً
وسع الخلائق عدله ووقاره
إنني لأرجو منه نفعاً عاجلاً
والله أنزل في الكتاب فريضةً
وقت الزيارة فارجمي بسلام
فإن كان ولا بد فهذا، فأذن له. قال عدي بن أرطاة: فخرجت فقلت: ادخل يا جرير. فدخل وهو يقول:
جعل الخلافة في الإمام العادل
حتى ارعوا^(٢) وأقام ميل المائل
والنفس مولعة بحب العاجل
لابن السيل وللفقير العائل
فلما مثل بين يديه، قال: يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقاً فأنشأ يقول:

كم باليمامة من شعناء أرملة
ممن بعدلك يكفي فقد والده
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت
إننا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا
إن الخلافة جاءت على قدر
هذي الأرامل قد قضيت حاجتها^(٣)
الخير ما دُمّت حياً لا يفارقنا
ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر
كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطير
أم قد كفاني ما بلغت من خبري
من الخليفة ما نرجو من المطر
كما أتى ربه موسى على قدر
فمن لحاجة هذا الأرملة الذكر
بوركت يا عمر الخيرات من عمر

فقال: والله يا جرير لقد وافيت الأمر، ولا أملك إلا ثلاثين ديناراً فعشرة أخذها عبد الله ابني، وعشرة أخذتها أم عبد الله، ثم قال لخدمته: ادفع إليه العشرة الثالثة، فقال والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مالٍ اكتسبته، ثم خرج فقال له الشعراء: وما وراءك يا جرير؟ فقال: ورائي ما يسوؤكم، خرجت من عند أمير يعطي الفقراء، ويمنع الشعراء وإنني عنه لراض، ثم أنشأ يقول:

(١) الشمول: من أسماء الخمر.

(٢) أرعوى: ارتدع.

(٣) حاجتها: يستقيم الوزن بإبدالها به (حواجها).

رأيت رقي الجن لا يستغزه
وقد كان شيطاني من الجن راقياً^(١)
ومما جاء في كبوات الجياد وهفوات الأمجاد

قال الأحنف: الشريف من عُدَّتْ سقطاته وَقَلَّتْ عثراته: وقالوا: كل صارم ينبو، وكل جواد يكمبو. وكان الأحنف بن قيس حليماً سيداً يضرب به المثل، وقد عُدَّتْ له سقطه. وهو أن عمرو بن الأهتم دسَّ إليه رجلاً يسفهه، فقال: يا أبا بحر، ما كان أبوك في قومه؟ قال: كان أوسطهم وسيدهم، ولم يتخلف عنهم. فرجع إليه ثانياً ففطن أنه من قبل عمرو بن الأهتم، فقال: ما كان أبوك؟ قال: كانت له فتوة، ومروءة، ومكارم أخلاق، ولم يكن أهتم سلاجاً^(٢).

وقال سعيد بن المسيب: ما فاتني الأذان في مسجد رسول الله ﷺ منذ أربعين سنة، ثم قام يريد الصلاة، فوجد الناس قد خرجوا من المسجد.

وقال قتادة: ما نسيت شيئاً قط. ثم قال: يا غلام ناولني نعلي، قال: النعل في رَجْلِكَ.

وكان هشام بن عبد الملك من رجال بني أمية ودهاتهم وقد عدت له سقطات، منها أن الحادي^(٣) حدا به يوماً فقال:

إنني عليك أيها النجسي
أكرم من يمشي به المطيبي

فقال هشام: صدقت. وذكر عنده سليمان، وأخوه فقال: والله: لأشكونه يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك، ولما ولي الخلافة قال: الحمد لله الذي أنقذني من النار بهذا المقام. قال النابغة: أي الرجال المهلب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أي لم تؤثر فيه شياطين الشعر.

(٢) سلاجاً: أكرلاً.

(٣) الحادي: المنشد الذي يقود الإبل.

الباب العاشر: في التوكل على الله تعالى والرضا بما قسم والقناعة وذم الحرص والطمع وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في التوكل على الله تعالى

قال الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يدخل الجنة أقوام افئدتهم مثل أفئدة الطير»، رواه مسلم. قيل: معناه يتوكلون، وقيل: قلوبهم رقيقة. وعن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لو توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً»^(٤)، وتعود بظاناً». وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «يا داود منْ دعائي أجبتُهُ، ومنْ استغاثني أغثتُهُ، ومنْ استصرنني نصرتُهُ، ومنْ توكلَ عليَّ كفَّيتُهُ، فأنا كافي المتوكلين، وناصر المستصرين، وغياث المستغيثين ومجيب الداعين».

حكى أنه كان في زمن هارون الرشيد، قد حصل غلاء سعر وضيق حال، حتى اشتد الكرب^(٥) على الناس اشتداداً عظيماً، فأمر الخليفة هارون الرشيد بكثرة الدعاء، والبكاء، وأمر بكسر آلات الطرب. ففي بعض الأيام رُوي عبد يصفق ويرقص ويغني، فحمل إلى الخليفة هارون الرشيد، فسأله عن فعله ذلك من دون الناس فقال: إن سيدي عنده خزانة برّ^(٦) وأنا متوكل عليه أن يطعمني منها، فلهذا أنا إذا لا أبالي، فأنا أرقص وأفرح، فعند ذلك قال الخليفة: إذا كان هذا قد توكل على مخلوق مثله فالتوكل على الله أولى، فسلم الناس أحوالهم وأمرهم بالتوكل على الله تعالى.

وحكى أن حاتماً الأصم كان رجلاً كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة، وكان قدمه التوكل. فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم فتعرضوا لذكر الحج، فداخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربّه في هذا العام حاجاً، ويدعو لكم، ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئاً، ونحن على ما ترى من

(١) سورة: الفرقان، الآية: ٥٨.

(٢) سورة: الأنفال، الآية: ٢.

(٣) سورة: الطلاق، الآية: ٣.

(٤) الخمص: ضمور البطن.

(٥) الكرب: الغم.

(٦) برّ: قمح.

الفاقة^(١) فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟ وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له، ولا يهمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء فإنه تناول الرزق، وليس يرزاق، فذكرتهم ذلك. فقالوا: صدقت والله هذه الصغيرة يا أباها، انطلق حيث أحببت. فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافراً وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم، كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابه وجيرانه، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة، ويقولون: لو سكت ما تكلمنا. فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم بفضلك، وأنت لا تضيعهم، فلا تخيبهم ولا تخجلني معهم.

فيما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيداً فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد فاجتاز بيت الرجل الصالح حاتم الأصم فاستقى منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: مَنْ أنت؟ قال: الأمير يبابكم يستقيكم. فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي سبحانه، البارحة بتا جياعاً، واليوم يقف الأمير على بابنا يستقينا، ثم إنها أخذت كوزاً^(٢) جديداً وملأته ماء، وقالت للمتناول منها: اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمر، فقال: لا والله، بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم. فقال الأمير: لقد سمعت به. فقال الوزير: يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئاً، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعاً. فقال الأمير: ونحن أيضاً قد تقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يظل مثلنا على مثلهم. ثم حل الأمير منطقة من وسطه ورمى بها في الدار، ثم قال لأصحابه: مَنْ أحبني فليأتني منطقة، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم ثم انصرفوا. فقال الوزير السلام عليكم أهل البيت لآتينكم الساعة بشمن هذه المناطق، فلما نزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالاً جزيلاً، واستردّها منهم. فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاء شديداً فقالوا لها: ما هذا البكاء إنما يجب أن تفرحي، فإن الله وسع علينا. فقال: يا أم، والله إنما بكائي كيف بتا البارحة جياعاً، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين، اللهم انظر إلى أبنينا ودبره بأحسن التدبير.

هذا ما كان من أمرهم. وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم فإنه لما خرج محرماً، ولحق بالقوم توجع أمير الركب، فطلبوا له طبيباً فلم يجدوا، فقال: هل من عبد صالح؟ فدلّ على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فموفي الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب. فنام تلك الليلة مفكراً في أمر عياله، فقيل له في منامه: يا حاتم من أصلح معاملته أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر عياله، فأكثر الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجه ورجع تلقاه أولاده فعانق الصبية الصغيرة وبكى ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين وإن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به فعليكم بمعرفته والاتكال عليه، فإنه من توكل على الله فهو حسبه.

ومن كلام الحكماء: مَنْ أيقن أن الرزق الذي قسم له لا يفوته تعجل الراحة، ومن علم أن الذي قضى عليه لم يكن ليخطئه فقد استراح من الجزع^(٣)، ومن علم أن مولاة خير له من العباد فقضه كفاه همه، وجمع شمله. وفي

(١) الفاقة: شدة الفقر والحاجة.

(٢) كوزاً: وعاء صغير للشرب.

(٣) الجزع: الخوف والفرع.

الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت عند النبي ﷺ يوماً فقال: «يا غلام إني أعلمك كلمات أحفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن تنفكك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كبه الله لك، ولو اجتمعت على أن تضرك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كبه عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

ورفع إلى الرشيد أن بدمشق رجلاً من بني أمية، عظيم المال والجاه، كثير الخيل والجند، يخشى على المملكة منه، وكان الرشيد يومئذ بالكوفة، قال منارة خادماً الرشيد: فاستدعاني الرشيد وقال: اركب الساعة إلى دمشق وخذ معك مائة غلام، واتني بفلان الأموي، وهذا كتابي إلى العامل لا توصله له إلا إذا امتنع عليك، فإذا أجاب فقيده وعادله بعد أن تحصي جميع ما تراه، وما يتكلم به، واذكر لي حاله وماله، وقد أجلتك لذهابك ستاً، ولمجيئك ستاً، وإقامتك يوماً. أفهمت؟ قلت: نعم، قال: فسر على بركة الله. فخرجت أطوي المنازل ليلاً ونهاراً، لا أنزل إلا للصلاة أو لقضاء حاجة حتى وصلت ليلة السابع باب دمشق، فلما فتح الباب دخلت قاصداً نحو دار الأموي، فإذا هي دار عظيمة هائلة، ونعمة طائلة، وخدم وحشم وهيبة ظاهرة، وحشمة وافرة، ومصاطب متسعة وغللمان فيها جلوس، فهجمت على الدار بغير إذن فبهتوا وسألوا عني، فقيل لهم إن هذا رسول أمير المؤمنين. فلما صرت في وسط الدار رأيت أقواماً محتشمين فظننت أن المطلوب فيهم. فسألت عنه، فقيل لي هو في الحمام، فأكرموني وأجلسوني وأمروا بمن معي ومن صحبني إلى مكان آخر، وأنا أتقصد^(١) الدار، وأنأمل الأحوال حتى أقبل الرجل من الحمام ومعه جماعة كثيرة من كهول وشبان، وحفدة وغللمان، فسلم عليّ وسألني عن أمير المؤمنين، فأخبرته أنه بعافية فحمد الله تعالى، ثم أحضرت له أطباق الفاكهة فقال: تقدم يا منارة كُلْ معنا. فتأملت تأملاً كثيراً، إذ لم يَكُنْني فقلت: ما أكل، فلم يعاودني ورأيت ما لم أره إلا في دار الخلافة، ثم قدم الطعام فوالله ما رأيت أحسن ترتيباً ولا أعطر رائحة، ولا أكثر آنية منه، فقال: تقدم يا منارة فَكُلْ قلت: ليس لي به حاجة، فلم يعاودني، ونظرت إلى أصحابي فلم أجد أحداً منهم عندي فحرت لكثرة حفدته، وعدم من عندي، فلما غسل يديه أحضر له البخور فتبخر ثم قام فصلى الظهر، فأتم الركوع والسجود، وأكثر من الركوع بعدها، فلما فرغ استقبلني وقال: ما أقدمك يا منارة، فناولته كتاب أمير المؤمنين فقبله ووضعه على رأسه ثم قفزه وقراه. فلما فرغ من قراءته استدعى جميع بنيه وخواص أصحابه وغلमानه، وسائر عياله فضاقت الدار بهم على سعتها، فطار عقلي وما شككت أنه يريد القبض عليّ. فقال: الطلاق يلزمه، والحج، والعتي، والصدقة، وسائر أيمان البيعة، لا يجتمع اثنان منكم في مكان واحد حتى ينكشف أمره، ثم أوصاهم على الحريم، ثم استقبلني وقدم رجله، وقال: هات يا منارة قيودك، فدعوت الحديد فقيده، وحمل حتى وضع في المحمل، وركبت معه في المحمل وسرنا.

فلما صرنا في ظاهر دمشق ابتداء يحدثنني بانبساط ويقول: هذه الضيعة لي تعمل في كل سنة بكذا وكذا، وهذا البستان لي وفيه غرائب الأشجار، وطيب أثمار كذا وكذا، وهذا المزارع يحصل لي منها كل سنة كذا وكذا، فقلت: يا هذا ألسنت تعلم أن أمير المؤمنين أهمه أمرك حتى أفنئني خلفك وهو بالكوفة ينتظرك وأنت ذاهب إليه ما تدري ما تقدم عليه وقد أخرجتك من منزلك، ومن بين أهلك، ونعمتك وحيداً فريداً، وأنت تحدثني حديثاً غير مفيد ولا نافع لك،

ولا سألتك عنه، وكان شغلك بنفسك أولى بك. فقال: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾^(١)، لقد أخطأت فراستي فيك، يا منارة ما ظننت أنك عند الخليفة بهذه المكانة، إلا لوفور عقلك، فإذا أنت جاهل عامي لا تصلح لمخاطبة الخلفاء، أما خروجي على ما ذكرت فإني على ثقة من ربي، الذي بيده ناصيتي وناصية أمير المؤمنين، فهو لا يضر ولا ينفع إلا بمشيئة الله تعالى، فإن كان قد قضى عليّ بأمر فلا حيلة لي بدفعه، ولا قدرة لي على منعه، وإن لم يكن قد قدر عليّ بشيء، فلو اجتمع أمير المؤمنين وسائر من على وجه الأرض على أن يضروني لم يستطيعوا ذلك إلا بإذن الله تعالى، وما لي ذنب فأخاف، وإنما هذا واشي وشي عند أمير المؤمنين بيهتان^(٢)، وأمير المؤمنين كامل العقل، فإذا اطلع على براءتي فهو لا يستحل مضرتي، وعليّ عهد الله لا كلمتك بعدها إلا جواباً. ثم أعرض عني وأقبل على التلاوة.

وما زال كذلك حتى وافينا الكوفة بكرة اليوم الثالث عشر، وإذا النجب قد استقبلنا من عند أمير المؤمنين تكشف عن أخبارنا، فلما دخلت على الرشيد قبلت الأرض. فقال: هات يا منارة، أخبرني من يوم خروجك عني إلى يوم قدومك عليّ، فابتدأت أحدثه بأموري كلها مفصلة، والغضب يظهر في وجهه، فلما انتهيت إلى جمعه لأولاده وغلماؤه وخواصه وضيق الدار بهم، وتفقد لأصحابي، فلم أجِد منهم أحداً أسود وجهه، فلما ذكرت يمينه عليهم تلك الأيمان المغلظة تهلل وجهه، فلما قلت إنه قدم رجله، اسفر وجهه واستبشر، فلما أخبرته بحديثي معه في ضياعه وساتينه وما قلت له وما قال لي قال: هذا رجل محسود على نعمته، ومكذوب عليه. وقد أزعجناه وأرعبناه، وشوشتنا عليه، وعلى أولاده وأهله، أخرج إليه واتزع قيوده، وفكه وادخله عليّ مكرماً. ففعلت:

فلما دخل قبل الأرض فرحب به أمير المؤمنين وأجلسه واعتذر إليه فتكلم بكلام فصيح فقال له أمير المؤمنين: سل حوائجك، فقال: سرعة رجوعي إلى بلدي وجمع شملتي بأهلي وولدي، قال: فصل غيره. قال: عدل أمير المؤمنين في عماله، ما أحوجني إلى سؤال، قال: فخلع عليه أمير المؤمنين، ثم قال: يا منارة اركب الساعة معي حتى ترده إلى المكان الذي أخذته منه. قم في حفظ الله وودائمه ورعايته، ولا تقطع أخبارك عنا وحوائجك. فانظر إلى حسن توكله على خالقه، فإنه من توكل عليه كفاه، ومن دعاه لباه، ومن سأله أعطاه ما تمناه.

وروي أن هذه الكلمات وجدها كعب الأحبار مكتوبة في التوراة فكتبها وهي: يا ابن آدم لا تخافن من ذي سلطان ما دام سلطاني باقياً، وسلطاني لا ينفد أبداً. يا ابن آدم لا تخش من ضيق الرزق ما دامت خزائني ملأته وخزائني لا تنفذ أبداً. يا ابن آدم لا تأنس بغيري وأنا لك، فإن طلبتي وجدتي، وإن أنست بغيري فُتُك، وفانك الخير كله. يا ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب وقسمت رزقك فلا تتعب، وفي أثر منه فلا تطعم، ومن أقل منه فلا تجزع، فإن أنت رضيت بما قسمته لك أرحمت قلبك وبدنك وكنت عندي محموداً، وإن لم ترض بما قسمته لك فوعزتي وجلالي لأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحوش في البر، ولا يملك منها إلا ما قد قسمته لك، وكنت عندي مذموماً. يا ابن آدم خلقت السموات السبع والأرضين السبع، ولم أع بخلقهن، أييميني^(٣) رغبة أسوقه من غير تعب. يا ابن آدم أنا لك محب فبحقي عليك كن لي محباً، يا ابن آدم لا تطالبني برزق غد، كما لا أطلبك بعمل غد، فإني لم أنس من عصاني، فكيف من أطاعني، وأنا على كل شيء قدير وبكل شيء محيط.

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٥٦.

(٢) بيهتان: زور وكذب.

(٣) أييميني: من الإعياء وهو التعب الشديد.

وما نَمَّ إلا الله في كل حالة
فكم حالة تأتي ويكرهها الفتى
ولمؤلفه رحمه الله تعالى:

توَكَّلْ على الرحمن في الأمر كُلِّهِ
وَكُنْ واثقاً بالله واصْبِرْ لحكمه
فما خاب حقاً مَنْ عليه توكلأ
تَقَرَّبَ بالذي ترجوه منه تَفَضُّلاً

الفصل الثاني: في القناعة والرضا بما قسم الله تعالى

جاء في تفسير قوله تعالى: «مَنْ حَمَلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهَ حَيَاةً طَيِّبَةً»^(١) أن المراد بها القناعة. وقال عليه السلام: «القناعة مال لا ينفد». وقيل: يا رسول الله ﷺ ما القناعة؟ قال: «الإياس مما في أيدي الناس». «وإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر». وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، من القناعة بالجانب الأوفر، وإنه كان يشتهي الشيء فيدافعه سنة. قال الكندي:

العبد حرٌّ ما قنع والحرُّ عبدٌ ما طمع

وقال بشر بن الحرث: خرج فتى في طلب الرزق بينما هو يمشي فأعيا، فأوى إلى خراب يستريح فيه، فبينما هو يدير بصره إذ وقعت عيناه على أسطر مكتوبة على حائط فتأملها فإذا هي:

إنني رأيتك قاعداً مستقبلي
هوِّنْ عليك وكنْ برئك واثقاً
فعلمتُ أنَّكَ للهموم قرينٌ^(٢)
فأخو التوكل شأنه التهوينُ
طرح الأذى عن نفسه في رزقه
لما يتقن أنه مضمونٌ

قال: فرجع الفتى إلى بيته ولزم التوكل. وقال: اللهم أدبنا أنت. قال الجاحظ: إنما خالف الله تعالى بين طبائع الناس ليوثق بينهم في مصالحهم، ولولا ذلك لاختاروا كلهم الملك، والسياسة، والتجارة، والفلاحة، وفي ذلك بطلان المصالح، وذهاب المعاش. فكل صنف من الناس مزين لهم ما هم فيه، فالحائك إذا رأى من صاحبه تقصيراً أو خلفاً، قال: ويلك يا حجام، والحجام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال: ويلك يا حائك، فجعل الله تعالى الاختلاف سبيلاً للائتمار، فسبحانه من مدبر قادر حكيم، ألا ترى إلى البدوي في بيت من قطعه خيش معمد بعظام الجيف، كلبه معه في بيته، لباسه شملة من وبر أو شعر، ودواؤه بعر الإبل، وطيبه القطران ويعر الظباء، وحلي زوجته الودع، وثمانه المقل^(٣)، وصيد اليربوع^(٤) وهو في مفازة لا يسمع فيها إلا صوت بومة وعواء ذئب، وهو قانع بذلك مفتخر به؟

(١) سورة: النحل، الآية: ٩٧.

(٢) قرين: خليط وصاحب.

(٣) المقل: ثمر شجرة اللّوم.

(٤) اليربوع: من أنواع الزواحف.

وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه: يا بني إذا طلبت الغنى فاطلبه في القناعة فإنها مال لا يتفد، ولياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك بالياس، فإنك لم تياس من شيء إلا أغناك الله عنه. وأصاب داود الطائي فاقة كبيرة، فجاءه حماد بن أبي حنيفة رضي الله عنه بأربعمائة درهم من تركة أبيه، وقال: هي من مال رجل ما أقدم عليه أحداً في زهده وورعه وطيب كسبه. فقال: لو كنت أقبل من أحد شيئاً لقبقتها تعظيماً للميت، وإكراماً للحَي، ولكني أحب أن أعيش في عز القناعة. وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: اتخذوا البيوت منازل، والمساجد مساكن، وكلوا من بقل البرية، واشربوا من الماء القراح^(١)، وأخرجوا من الدنيا بسلام. وأنشد المبرد:

إِنْ ضَنَّ زَيْدٌ بِمَا فِي بَطْنِ رَاحِئِهِ فَالْأَرْضُ وَاسِعَةٌ وَالرِّزْقُ مَبْسُوطٌ
إِنَّ الَّذِي قَلَّرَ الْأَشْيَا بِحُكْمِهِ لَمْ يَنْسِنِي قَاعِدًا وَالرَّحْلُ مُحْطُوطٌ

قال عبد الواحد بن زيد: ما أحسب أن شيئاً من الأعمال يتقدم الصبر إلا الرضا، ولا أعلم درجة أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة. قيل له: متى يكون العبد راضياً عن ربه. قال: إذا سرته المصيبة كما تسره النعمة. وكان عبد الله بن مرزوق من ندماء المهدي، فسكر يوماً فقاتته الصلاة، فجاءته جارية له بجمرة فوضعتها على رجله فأنته مذعوراً. فقالت له: إذا لم تصبر على نار الدنيا، فكيف تصبر على نار الآخرة، فقام فصلى الصلوات وتصدق بما يملكه. وذهب يبيع البقل فدخل عليه فضيل وابن عيينة فإذا تحت رأسه لبنة وما تحت جنبه شيء، فقالا له إنه لم يدع أحد شيئاً لله إلا عوضه الله منه بديلاً فما عوضك عما تركت له، قال: الرضا بما أنا فيه. وقال الثوري: ما وضع أحد يده في قصعة غيره إلا ذلَّ له. وقال الفضيل: مَنْ رضي بما قسم الله له بارك الله له فيه. وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يقول: الشمس في الشتاء جلالي، ونور القمر سراجي، وبقل البرية فاكهتي، وشعر الغنم لباسي، أبيت حيث يدركني الليل، ليس لي ولد يموت، ولا بيت يخرب، أنا الذي كبيت الدنيا على وجهها:

إِنْ الْقَنَاعَةُ مِنْ يَحْلُلْ بِسَاحَتِهَا لَمْ يَلْقَ فِي ظِلِّهَا هُمًّا يَؤُورِقُهُ^(٢)

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: انظروا إلى الطير تغدو وتروح، ليس معها شيء من أرزاقها لا تحرث ولا تحصد والله يزرعها. فإن زعمتم أنكم أكبر بطوناً من الطير، فهذه الوحوش والبقر والحمير لا تحرث ولا تحصد والله يزرعها. وقيل وفد عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك فشكا إليه خلته^(٣) فقال له: ألت القاتل:

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الْإِسْرَافُ مِنْ خُلُقِي أَنْ الَّذِي هُوَ رِزْقِي سَوْفَ يَأْتِينِي
أَسْعَى إِلَيْهِ فَبِعَيْنِي تَطْلُبُهُ وَلَوْ قَعَدْتُ أَتَانِي لَيْسَ يُعِينِي

وقد جثت من الحجاز إلى الشام في طلب الرزق؟ فقال: يا أمير المؤمنين لقد عظمت فابلغت. وخرج فركب ناقته وكرَّ إلى الحجاز راجعاً. فلما كان من الليل نام هشام على فراشه فذكر عروة فقال في نفسه: رجل من قريش قال حكمة ووفد عليّ ورددته خائباً، فلما أصبح وجَّه إليه بألفي دينار، فقرع عليه الرسول باب داره بالمدينة وأعطاه المال. فقال: أبلغ أمير المؤمنين مني السلام، وقل له كيف رأيت قولي: سمعت فأكدت فرجعت. فأتاني رزقي في منزلي.

(١) القراح: البارد الصافي.

(٢) يؤرقه: يحرمه النوم.

(٣) الخلعة: الخلق والصفة في الإنسان.

ولما ولي عبد الله بن عامر العراق قصده صديقان له: أنصاري، وثقفي، فلما سارا تخلف الأنصاري وقال: الذي أعطى ابن عامر العراق قادر على أن يعطيني، فوفد الثقفي وقال: أحوز الحظين. فلما دخل على عبد الله بن عامر قال له: ما فعل زميلك الأنصاري قال: رجع إلى أهله فأمر للثقفي بأربعة آلاف دينار وبعث إلى الأنصاري، بشمانية آلاف فخرج الثقفي وهو يقول:

فوالله ما حرص الحرص بنافع
خرجنا جميعاً من ماقطِ روسنا
فلما أنخنا الناجعاتِ يبابه
وقال ستكفيني عطيةً قادر
فإن الذي أعطى العراق ابن عامر
فقلت خلا لي وجهه ولعله
فلما رأيته سأل عنه صبايةً
فأبت وقد أيقنت أن ليس نافعاً

فيخني ولا زهدُ القنوعِ بضائر
على ثقة منا بجود ابن عامر
تخلّف عني الشريبي ابن جابر
على ما يشاء اليوم للخلق قاهر
لربي الذي أرجو لسدّ مفارق^(١)
سيجعل لي حظ الفتى المتزاوِر
إليه كما حنت ظوار الأباعر^(٢)
ولا ضائر شيء خلاف المقادر

قيل: أوحى الله تعالى إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه. أتدري لِمَ رزقتُ الأحق؟ قال: لا يا رب. قال: ليعلم العاقل أن طلب الرزق ليس بالاحتيا. ولبعض العرب:

ولا تجزغ إذا أعزّت يوماً
ولا تظنن برئك ظن سوء
وإن العسر يتبعه يسار
فلو أن العقول تسوق رزقاً

فقد أبهرت في الزمن الطويل
فإن الله أولى بالجميل
وقول الله أصلق كل قيل
لكن المال عند ذوي العقول

وأوحى الله تعالى إلى يوسف عليه الصلاة والسلام: انتظر إلى الأرض. فنظر إليها فانفجرت فرأى دودة على صخرة ومعها طعام. فقال له: أتراني لم أغفل عنها، وأغفل عنك وأنت نبي، وابن نبي. ودخل علي بن أبي طالب رضي الله عنه المسجد وقال لرجل كان واقفاً على باب المسجد: أمسك علي بغلتي. فأخذ الرجل لجامها ومضى، وترك البغلة، فخرج علي وفي يده درهمان ليكافئ بهما الرجل على إمسাকে بغلته وأقفة بغير لجام، فركبها ومضى ودفع لثلامه درهمين يشتري بهما لجاماً، فوجد الغلام اللجام في السوق قد باعه السارق بدرهمين، فقال علي رضي الله عنه: إن العبد ليحرم نفسه الرزق الحلال بترك الصبر، ولا يزداد على ما قدر له. وقيل الراهب. من أين تأكل؟ فأشار إلى فيه، وقال: الذي خلق هذه الرحي يأتيها بالطحين. وقال سليم بن المهاجر الجيلي:

كسوت جميل الصبر وجهي فصانته
فما عشت لم أت البخيل ولم أقم
وإن قليلاً يستر السوجة أن يرى

به والله عن غشيان كل بخيل
على بابيه يوماً مقام ذليل
إلى الناس مبدولاً لغير قليل

(١) مفارق: حاجاتي.

(٢) الأباعر: أي كما عطف على أولاد غيرها.

وصلّى معروف الكرخي خلف إمام، فلما فرغ من صلاته قال الإمام لمعروف: من أين تأكل؟ قال: أصبر حتى أعيد صلاتي التي صليتها خلفك. قال: ولم؟ قال: لأن من شك في رزقه، شك في خلقه. وقال أبو جازم: ما لم يكتب لي، لو ركب الريح ما أدركته. وقال عمر بن أبي عمر اليوناني:

غلا السمرُ في بغدادَ من بعد رخصِهِ وإنّي في الحالينِ بالله واثقُ
فلستُ أخافُ الضيقَ والله واسعُ غناه، ولا الحرمانَ والله رازقُ

وقال القهستاني:

غنى بلا دنيا عن الخلق كلهم وإن الغنى الأعلى عن الشيء لا به

وقال منصور الفقيه:

الموتُ أسهلُ عندي بين القنا والأسنة
والخيل تنجري سراعاً مقطعات الأعنة
من أن يكون لئلا عليّ فضلٌ ومثنة^(١)

وأشد أعرابي:

أيا ملك لا تسأل الناس والتّمسك بكفّيك فضلَ الله، فإله أوسعُ
ولو تسأل الناس التراب لأوشكوا إذا قيل هاتوا أن يملوا ويمسكوا

وقال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني، قال: «عليك باليأس مما في أيدي الناس، وإياك والطمع فإنه فقر حاضر». وقيل: إذا وجدت الشيء في السوق فلا تطلبه من صديقك. وقيل لأعرابي: من أين معاشكم؟ قالت: لو لم نعيش إلا من حيث نعلم، لم نعيش. وقال أعرابي: أحسن الأحوال حال يغبطك بها من دونك، ولا يحقرك معها من فوقك. وقال المعري:

إذا كنت تبغي العيش فابغِ توشطاً فعند التناهي يقصر المتطاوُلُ
توفى البدور النقص وهي أهلة ويدركها نقصانٌ وهي كوامِلُ

وقال آخر:

انفع بأيسر رزقٍ أنت نائله واحذر ولا تعرض للإراداتِ
فما صفا البحر إلا وهو متقص ولا تعكّر إلا في الزميراتِ

وقال أعرابي: استظهر على الدهر بخفة الظهر. قال هشام بن إبراهيم البصري:

وكم ملك جانبته عن كراهة لإغلاق بابٍ أو لتجديد حاجِبِ
ولي في غنى نفسي مراد ومذهب إذا انصرفت عني وجوه المذهبِ

وقيل: ينبغي أن يكون المرء في دنياه كالمدعو إلى الوليمة إن آتته صحيفة تناولها، وإن لم تأت له لم يرصدها، ولم يطلبها. وقال شقيق بن إبراهيم البلخي. قال لي إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى: أخبرني عما أنت عليه. قلت: إن رزقت أكلت، وإن منعت صبرت، قال. هكذا تعمل كلاب بلخ. فقلت: كيف تعمل أنت. قال: إن رزقت آثرت، وإن منعت شكرت. وقال بعضهم:

هي القناعة فالزَمَها تَعِشْ ملكاً
وانظرَ لَمَنْ مَلَكَ الدنيا بأجمعها
لو لم يكن منها إلا راحة البدن
هل راحَ منها بغير القطن والكفن
وقال آخر:

وإن القناعة كنزٌ غني
فلا ذا يراني على بائٍ
فصرتُ غنياً بلا درهم
أمرٌ على الناس شبه الملك
فصرتُ بأذيلها ممتك
ولا ذا يراني له منهمك

جاء فتح الموصلي إلى أهله بعد العتمة، فلم يجد عندهم شيئاً للعشاء، ووجدهم بغير سراج فجلس ليكة يكي من الفرح ويقول: بأي يد كانت مني، تركت مثلي على هذه الحالة. والله تعالى أعلم.

الفصل الثالث: في ذم الحرص والطمع وطول الأمل

قال الله تعالى: ﴿الْهَاجُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾^(١) وروي أن النبي ﷺ قرأ ﴿الْهَاجُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ قال: يقول ابن آدم مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، ولبست فألبت، وتصدقت فأمضيت؟ وروى عروة بن الزبير عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «يا عائشة إن أردت اللحوق بي فليكنك من الدنيا كزاد الراكب، وإياك ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلفي ثوباً حتى ترقعيه». وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، وهلاك آخر هذه الأمة بالبخل، والأمل». وقيل: الحرص ينقص من قدر الإنسان، ولا يزيد في رزقه. وقيل لحكيم: ما بال الشيخ أحرص على الدنيا من الشاب؟ قال: لأنه ذاق من طعم الدنيا ما لم يذقه الشاب. وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا طاوعتَ حرصك كنت عبداً
لكل دنيسٍ تُدعى إليها
وقال آخر وأجاد:

قد شاب رأسي ورأس الدهر لم يَبْش
إن الحريصَ على الدنيا لقي تعب

وقيل للإسكندر: ما سرّ الدنيا؟ قال: الرضا بما رزقت منها. قيل: فما غمّها؟ قال: الحرص عليها. وقال الحسن: لو رأيت الأجل ومروره، لنسيت الأمل وغروره. وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ألا تعجبون من أسامة اشترى إلى شهر، أن أسامة لطويل الأمل». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان نبي الله ﷺ يخرج فيبول، ثم يمسح بالتراب. فأقول إن الماء منك قريب. فيقول: ما يدريني لعلني ما أبلغه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه «لا يزال الكبير شاباً في اثنين حب المال وطول الأمل» وقيل لمحمد بن واسع: كيف تجدك؟ قال: قصير الأجل، طويل الأمل، مسيء العمل. وقيل: مَنْ جرى في عنان أمله كان عاثراً^(١) بأجله، لو ظهرت الآجال لانتفضحت الآمال. ولقد أحسن أبو العباس أحمد بن مروان في قوله:

وذي حرصٍ تراه يلم وفترأ
ككلب الصيد يمسك وهو طأو
ولقد أحسن مَنْ قال في الجناس الحقيقي:

إذا ما نازعتك النفس حرصاً
ولا تحرص ليوم أنت فيه
ومن كلام الحكماء: إياكم وطول الأمل، فإن مَنْ آلهام أمله أخزاه عمله. قال عبد الصمد بن المعذل:
ولي أمل قطعت به الليالي
أراني قد قنيت به ودما

وقال الحسن: إياكم وهذه الأمانى فإنه لم يعط أحد بالأمنية خيراً قط في الدنيا، ولا في الآخرة. قال قس بن ساعدة:

وما قد تولى فهو لا شك فائت
فهل بغفني ليتني ولعنني
وقال آخر:

ولا تتعلل^(٢) بالأمانى فإنها
وقال آخر وأجاد:

الله أصدق، والآمال كاذبة
وجلُّ هلي المنى في الصدر وسواس
وقال آخر:

شط المزار بسعدي وانتهى الأمل
إلا رجاء فما ندري أنلركه
وقال أبو العتاهية:

لقد لعبت وجدد الموت في طلبني
لو شمرت فكرتي فيما خلقت له
وإن في الموت لي شغلاً عن اللعب
ما اشتد حرصي على الدنيا ولا طلبني

(١) عاثراً: زالاً.

(٢) أسك الثانية: قبض غلك.

(٣) التعلل: التسلي والتلهي.

وله أيضاً:

تعالى الله يا سلم بن عمرو
هَبِ الدُّنْيَا تُقَادُ إِلَيْكَ عَفْوَاً
وقد ضمنت البيت الأخير فقلت:
أيا مَنْ عاش في الدنيا طويلاً
وأَتَعَبَ نَفْسَهُ فِيمَا سِيفِي
هَبِ الدُّنْيَا تُقَادُ إِلَيْكَ عَفْوَاً
أَذَلَّ الْحَرَصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ
أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ
وأَفْنَى الْعَمَرِ فِي قِيلٍ وَقَالَ
وَجَمَعَ مِنْ حَرَامٍ أَوْ حَلَالٍ
أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ

ومما جاء في الطمع وذمه: قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع. وقال رضي الله عنه: ما الخمر صرفاً^(١) بأذهب لعقول الرجال من الطمع. وفي الحديث: «إياك والطمع، فإنه الفقر الحاضر». وقال فيلسوف: العبيد ثلاثة: عبد رق وعبد شهوة. وعبد طمع. وقال بعضهم: مَنْ أراد أن يعيش حراً أيام حياته فلا يسكن قلبه الطمع. وقيل: اجتمع كعب وعبد الله بن سلام فقال له كعب: يا ابن سلام مَنْ أرباب العلم؟ قال: الذين يعملون به. قال: فما أذهب العلم عن قلوب العلماء بعد أن علموه وقال: الطمع، وشره النفس، وطلب الحوايج إلى الناس. واجتمع الفضل وسفيان وابن كريمة اليربوعي، فتواصوا ثم افرقوا وهم مجمعون على أن أفضل الأعمال: الحلم عند الغضب، والصبر عند الطمع. وقيل، لما خلق الله آدم عليه السلام، عجن بطيته ثلاثة أشياء: الحرص، والطمع، والحد. فهي تجري في أولاده إلى يوم القيامة فالعاقل يخفيها، والجاهل يديها. ومعناه أن الله تعالى خلق شهوتها فيه. قال إسماعيل بن قطري القراطيسي:

حسبي بعلمي إن تَقَنَغَ
مَنْ راقِبَ الله نَزَغَ
ما طَارَ طَيْرٌ وَارْتَقَنَغَ
ما الذَّلُّ إِلَّا فِي الطَّمَنَغِ
عن سوء ما كان صَنَغَ
إلا كما طَارَ وَتَقَنَغَ

وقال سابق البربري:

يخادع ريبَ الدهر عن نفسه الفتى
ويطمعُ في سوف ويهلك دونها
سفاهاً وريبُ الدهر عنها يخادعة
وكم من حريصٍ أهلكته مطامعة

وقيل لأشعب: ما بلغ من طمعك؟ قال: أرى دخان جاري، فأفثُ خبزي. وقال أيضاً: ما رأيت رجلين يتسازان في جنازة إلا قدرت أن الميت أوصى لي بشيء من ماله. وما زفت عروس إلا كنت بيتي رجاء أن يغلطوا فيدخلوا بها إلي. قال بعضهم:

لا تغضبِني على امرئ
واغضبِ على الطمعِ استد
لك مانعٌ ما في يديه
عَاكَ تطلب ما لديه

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم...

الباب الحادي عشر: في المشورة والتَّصِيحة والتَّجارب والنظر في العواقب

قال الله تعالى لنبية ﷺ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(١) واختلف أهل التأويل في أمره بالمشاورة مع ما أمده الله تعالى من التوفيق على ثلاثة أوجه، أحدها: أنه أمره بها في الحرب ليستقر له الرأي الصحيح فيعمل عليه. وهذا قول الحسن. ثانيها: أنه أمره بالمشاورة لما علم فيها من الفضل. وهذا قول الضحاك. ثالثها: أنه أمره بمشاورتهم ليستن^(٢) به المسلمون وإن كان في غنية عن مشورتهم. وهذا قول سفيان. وقال ابن عينة: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أمراً شاور فيه الرجال، وكيف يحتاج إلى مشاورة المخلوقين والخالق مدير أمره، ولكنه تعليم منه، ليشاور الرجال الناس، وإن كان عالماً. وقال ﷺ: «ما خاب من استخاره، ولا ندم من استشار، ولا افتقر من اقتصد» وقال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ بَرَأْيَهُ ضَلَّ، وَمَنْ اسْتَغْنَى بِعَقْلِهِ ضَلَّ». وكان يقال: ما استبط الصواب بمثل المشاورة. وقال حكيم: المشورة موكل بها التوفيق لصواب الرأي. وقال الحسن: الناس ثلاثة: فرجل رجل، ورجل نصف رجل، ورجل لا رجل. فأما الرجل الرجل فذو الرأي والمشورة. وأما الرجل الذي هو نصف رجل فالذي له رأي، ولا يشاور. وأما الرجل الذي ليس برجل فالذي ليس له رأي ولا يشاور. وقال المنصور لولده: خذ عني اثنتين: لا تقل في غير تفكير، ولا تعمل بغير تدبير. وقال الفضل: المشورة فيها بركة وإني لأستشير حتى هذه الحشية الأعجمية. وقال أعرابي: لا مال أوفر من العقل، ولا فقر أعظم من الجهل، ولا ظهر أقوى من المشورة. وقيل: من بدأ بالاستشارة وثنى بالاستشارة فحقيق أن لا يخيب رأيه. وقيل: الرأي السديد أحمي من البطل الشديد. قال أبو القاسم النهروندي:

وما ألف مطرور الننان مدد
وقال علي رضي الله عنه: خاطر من استغنى برأيه. وسمع محمد بن داود وزير المأمون قول القائل:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة
فإن فساد الرأي أن يترددا
فأضاف إليه قول:

وإن كنت ذا عزم فأنفذه عاجلاً
ولمحمد بن إدريس الطائي:

ذهب الصواب برأيه فكأنما
فإذا دجا خطب تبلج رأيه^(٣)
أراه أشعث من التأييد
صبحاً من التوفيق والتسديد

(١) سورة: آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) يستن: يأخذه سنة.

(٣) تبلج: أشرق.

ولمحمد الوراق:

إِن اللَّيِّبَ إِذَا تَفَرَّقَ أَمْرُهُ فَتَقَّ الْأُمُورَ مَنَظَرًا وَمَشَاوِرًا
وَأَخُو الْجَهَالَةِ يَسْتَبْدُّ بِرَأْيِهِ فَتَرَاهُ يَعْتَسِفُ الْأُمُورَ مَخَاطِرًا

وقال الرشيد حين بدا له تقديم الأمين على المأمون في العهد:

لَقَدْ بَانَ وَجْهُ الرَّأْيِ لِي غَيْرَ أَنَّنِي عَدَلْتُ عَنِ الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ أَحْزَمًا
فَكَيْفَ يُرَدُّ الدُّرُّ^(١) فِي الضَّرْعِ بَعْدَمَا تَوَزَّعَ حَتَّى صَارَ نَهْأً مَقْصَمًا
أَخَافُ التَّوَاءَ الْأَمْرِ بَعْدَ اسْتَوَائِهِ وَأَنْ يَنْقُضَ الْجَبَلَ الَّذِي كَانَ أَبْرَمًا

وقال آخر:

خَلِيلِي لَيْسَ الرَّأْيُ فِي جَنْبٍ وَاحِدٍ أَشِيرَا عَلَيَّ الْيَوْمَ مَا تَرَيَانِ

ووصف رجل عضد الدولة فقال له: وجه فيه ألف عين وفم، فيه ألف لسان، وصدر فيه ألف قلب. وقال اردشير بن بابك: أربعة تحتاج إلى أربعة: الحسب إلى الأدب، والسرور إلى الأمن، والقرابة إلى المودة، والعقل إلى التجربة. وقال: لا تستحق الرأي الجزيل من الرجل الحقير، فإن الدرة لا يستهان بها لهوان غائصها. وقال جعفر بن محمد: لا تكونن أول مشير، وإياك والرأي الخطير، وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشيرن على مستبد برأيه، ولا على متلون، ولا على لحوح. وقيل: ينبغي أن يكون المستشار صحيح العلم، مهذب الرأي، فليس كل عالم يعرف الرأي الصائب، وكم ناقد في شيء ضعيف في غيره. قال أبو الأسود الدؤلي:

وَمَا كُلُّ ذِي نَصَحٍ بِمُؤْتِيكَ نَصَحَهُ وَمَا كُلُّ مُؤَبِّ نَصَحَهُ بَلِيْبٍ
وَلَكِنْ إِذَا مَا اسْتَجْمَعَا عِنْدَ وَاحِدٍ فَحَقَّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيْبٍ

وكان اليونان، والفرس لا يجمعون وزراءهم على أمر يستشيرونهم فيه، وإنما يستشيرون الواحد منهم من غير أن يعلم الآخر به لمعان شتى، منها لكلا يقع بين المستشارين منافسة، فتذهب إصابة الرأي، لأن من طباع المشتركين في الأمر التنافس والطمع من بعضهم في بعض، وربما سبق أحدهم بالرأي الصواب فحسدوه وعارضوه. وفي اجتماعهم أيضاً للمشورة تعريض السر للإذاعة، فإذا كان كذلك وأذيع السر لم يقدر الملك على مقابلة من أذاعه بالإبهام، فإن عاقب الكل عاقبهم بظن واحد، وإن عفا عنهم ألحق الجاني بمن لا ذنب له. وقيل إذا أشار عليك صاحبك برأي ولم تحمد عاقبته، فلا تجعلن ذلك عليه لوماً وعتاباً بأن تقول أنت فعلت، وأنت أمرتني، ولولا أنت. فهذا كله ضجر ولوم وخفة. وقال أفلاطون: إذا استشارك عدوك فجدد له النصيحة، لأنه بالاستشارة قد خرج من عداوتك إلى موالاتك. وقيل: من بذل نصحه واجتهاده لمن لا يشكره، فهو كمن بذر في السباح^(٢). قال الشاعر يمدح من له رأي وبصيرة:

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا يَخَاطِبُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرِ عَوَاقِبُهُ

(١) الدر: كرة اللبن وسيلاته.

(٢) السباح: مفرد ما سيخه، ما لا يزرع من الأرض لعله فيه.

وقال ابن المعتز: المشورة راحة لك، وتعب على غيرك. وقال الأحنف: لا تشاور الجائع حتى يشبع، ولا العطشان حتى يروى، ولا الأسير حتى يطلق، ولا المقل^(١) حتى يجد.

ولما أراد نوح ابن مريم قاضي مرو أن يزوج ابنته استشار جاراً له مجوسياً. فقال: سبحان الله الناس يستفتونك، وأنت تستفتيني. قال: لا بد أن تشير عليّ، قال: إن رئيس الفرس كسرى كان يختار المال، ورئيس الروم قيصر كان يختار الجمال، ورئيس العرب كان يختار الحسب، ورئيسك محمد، كان يختار الدين، فانظر لنفسك بمن تقتدي، وكان يقال من أعطى أربعاً لم يمنع أربعاً: من أعطى الشكر لم يمنع المزيد، ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول، ومن أعطى الاستشارة لم يمنع الخيرة، ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب. وقال: إذا استشار الرجل ربه، واستشار صعبه، وأجهد رأيه فقد قضى ما عليه، ويقضي الله تعالى في أمره ما يحب. وقال بعضهم: خمير الرأي خير من فطيره، وتقديمه خير من تأخيرهِ. وقالت الحكماء: لا تشاور معلماً، ولا راعي غنم، ولا كثير القعود مع النساء، ولا صاحب حاجة يريد قضاءها. ولا خائفاً ولا حاقداً وقيل: سبعة ينبغي لصاحب لب أن يشاورهم: جاهل، وعدو، وحسود، ومراء، وجبان، وبخيل، وذو هوى. فإن الجاهل يضل، والعدو يريد الهلاك، والحسود يتمنى زوال النعمة، والمراثي واقف مع رضا الناس، والجبان من رأيه الهرب. والبخيل حريص على جمع المال، فلا رأي له في غيره، وذو الهوى أسير هواه فلا يقدر على مخالفته.

وحكي أن رجلاً من أهل يثرب يعرف بالأسلمي قال: ركبني دين أثقل كاهلي^(٢)، وطالبني به مستحقوه، واشتد حاجتي إلى ما لا بد منه، وضائق عليّ الأرض ولم أتمد إلى ما أصنع، فشاورت مَنْ أثق به من ذوي المودة والرأي فأشار عليّ بقصد المهلب بن أبي صفرة بالعراق. فقال له: تمنعني المشقة وبعد الشقة، وتيه المهلب. ثم أني عدلت عن ذلك المشير إلى استشارة غيره، فلا والله ما زادني على ما ذكره الصديق الأول، فرأيت أن قبول المشورة خير من مخالفتها. فركبت ناقتي وصحبت رفقة في الطريق وقصدت العراق، فلما وصلت دخلت على المهلب فسلمت عليه وقلت له: أصلح الله الأمير إني قطعتم إليك الدهناء، وضربت أكباد الإبل من يثرب فإنه أشار عليّ بمض ذوي الحجى^(٣) والرأي بقصدك لقضاء حاجتي فقال: هل أتيتنا بوسيلة، أو بقرابة وعشيرة؟ قللت: لا ولكني رأيتك أهلاً لقضاء حاجتي فإن قمت بها فأهل لذلك أنت، وإن يحل دونها حائل، لم أذم يومك، ولم أياس من غدك. فقال المهلب لحاجبه: اذهب به وادفع إليه ما في خزائنه ما لنا الساعة، فأخذني معه فوجدت في خزائنه ثمانين ألف درهم فدفعها إليّ. فلما رأيت ذلك لم أملك نفسي فرحاً وسروراً، ثم عاد الحاجب بي إليه مسرعاً فقال: هل ما وصلك يقوم بقضاء حاجتك؟ قللت: نعم أيها الأمير وزيادة. فقال: الحمد لله على نجاح سعيك واجتثاثك جني مشورتك، وتحقق ظن مَنْ أشار عليك بقصدنا. قال الأسلمي: فلما سمعت كلامه، وقد أحرزت صلته أنشدته وأنا واقف بين يديه:

يا مَنْ عَلَى الجود صاغَ الله راحتهُ
فليس يحسنُ غيرَ البذلِّ والجودِ
عُثِّتْ عطايَاك أهلَ الأرضِ قاطبةً
فأنتَ والجودُ منحوتانِ من عودِ
من استشار فبابُ النجحِ مفتوحٌ
لديه فيما ابتغاه غيرَ مردودِ

(١) المقل: ذو الفاقة.

(٢) الكاهل: ما بين الكتفين.

(٣) الحجى: العقل، أو الحجج العقلية.

ثم عدت إلى المدينة فقضيت ديني، ووسعت على أهلي، وجازيت المشير علي، وعاهدت الله تعالى ألا أترك الاستشارة في جميع أموري ما عشت.

وحكي عن الخليفة المنصور أنه كان صدر من عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس أمور مؤلمة لا تحتملها حراسة الخلافة، ولا تتجاوز عنها سياسة الملك فحبسه عنده. ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن علي، وكان والياً على الكوفة، ما أفسد عقيدته فيه، وأوحشه منه، وصرف وجهه إليه عنه. فتألم المنصور من ذلك، وساء ظنّه، وتآرق جفنه، وقلّ أمه، وتزايد خوفه وحزنه، فأدّته فكرته إلى أمر دبره وكنمه عن جميع حاشيته وستره. واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى وأجره على عادة إكرامه، ثم أخرج من كان بحضرته، وأقبل على عيسى وقال: يا ابن العم إني مطملك على أمر لا أجد غيرك من أهله، ولا أرى سواك مساعداً لي على حمل ثقله، فهل أنت في موضع ظني بك، وعامل ما فيه بقاء نعمتك التي هي منوطة ببقاء ملكي. فقال له عيسى بن موسى: أنا عبد أمير المؤمنين، ونفسي طوع أمره ونهيه، فقال: إن عمي وعمك عبد الله قد فسدت بطائته، واعتمد على ما بعضه يبيع دمه، وفي قتله صلاح ملكنا، فخذ به إليك واقتله سرّاً، ثم سلّمه إليه. وعزم المنصور على الحج مضمراً أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبد الله ألزمه القصاص، وسلّمه إلى أعمامه، إخوة عبد الله ليقتلوه به قصاصاً، فيكون قد استراح من الاثنين، عبد الله وعيسى.

قال عيسى: فلما أخذ عمي وفكرت في قتله رأيت من الرأي أن أشاور في قضيته من له رأي عسى أن أصيب الصواب في ذلك، فأحضرت يونس بن قرة الكاتب، وكان لي حسن ظن في رأيه، وعقيدة صالحة في معرفته، فقلت له: إن أمير المؤمنين دفع إليّ عمه عبد الله وأمرني بقتله، وإخفاء أمره، فما رأيك في ذلك وما تشير به. فقال لي يونس: أيها الأمير احفظ عمك، وعم أمير المؤمنين، فإني أرى لك أن تدخله في مكان داخل دارك، وتكتم أمره عن كل أحد ممن عندك، وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه، وتجعل دونه مغالطاً وأبواباً، وأظهر لأمير المؤمنين أنك قتله، وأنفذت أمره فيه، وانتهيت إلى العمل بطاعته، فكأنني به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به، وقتلت عمه أمرك باحضاره على رؤوس الإشهاد، فإن اعترفت أنك قتله بأمره، أنكر أمره لك، وأخذك بقتله، وقتلك.

قال عيسى بن موسى: فقبلت مشورة يونس وعملت بها وأظهرت لأمير المؤمنين إني أنفذت أمره، ثم حج المنصور، فلما قدم من حجه وقد استقر في نفسه أنني قد قتلت عمّه عبد الله، دس إلى عمومته إخوة عبد الله وحشهم على أن يسألوه في أخيه، ويستوهبوه منه فجاءوا إليه وقد جلس، والناس بين يديه على مراتبهم. فسألوه في عبد الله. فقال: نعم إن حقوقكم تقتضي إسعافكم بحاجتكم، كيف وفيها صلة رحم، وإحسان إلى من هو في مقام الوالد، ثم أمر باحضار عيسى بن موسى فأحضر لوقته فقال: يا عيسى كنت دفعت إليك قبل خروجي إلى الحج عمي عبد الله ليكون عندك في منزلك إلى حين رجوعي. فقال عيسى: قد فعلت يا أمير المؤمنين، فقال المنصور: قد سألني فيه عمومتك، وقد رأيت الصفع^(١) عنه، وقضاء حاجتهم، وصلة الرحم بإجابة سؤالهم فيه، فائتنا به الساعة.

قال عيسى: فقلت: يا أمير المؤمنين ألم تأمرني بقتله والمبادرة إلى ذلك؟ قال: كذبت لم أمرك بذلك ولو أردت قتله لأسلمته إلى من هو بصدد ذلك. ثم أظهر الغيظ وقال لعمومته: قد أقر بقتل أخيك، مدعياً أنني أمرته بقتله، وقد كذب عليّ. قالوا: يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به، ونقتص منه. فقال: شأنكم به.

قال عيسى: فأخذوني إلى الرحبة واجتمع الناس عليّ، فقام واحد من عمومتي إليّ وسل سيفه ليضربني به فقلت له: يا عم أفاعِل أنت؟ قال: إي والله كيف لا أقتلك وقد قتل أخي؟ فقلت لهم: لا تعجلوا ودُّوني إلى أمير المؤمنين، فردوني إليه فقلت: يا أمير المؤمنين إنما أردت قتلي بقتله، والذي دبرته عليّ، عصمني الله تعالى من فعله، وهذا عمك باقٍ حتّى سويّ، فإن أمرتني بدفعه إليهم دفعته الساعة. فأطرق المنصور وعلم أن ربح فكره صادفت إعصاراً، وأن انفراد بتدبيره قارف^(١) خساراً، ثم رفع رأسه وقال: اتنا به. فمضى عيسى وأحضر عبد الله. فلما رآه المنصور قال لعمومته: أتركوه عندي، وانصرفوا حتّى أرى فيه رأياً. قال عيسى: فتركته وانصرفت وانصرف إخوته فسلمت روحي، وزالت كربتي، وكان ذلك ببركة الاستشارة بيونس وقبول مشورته، والعمل بها. ثم إن المنصور أسكن عبد الله في بيت أساسه قد بني على الملح، ثم أرسل الماء حوله ليلاً فذاب الملح وسقط البيت فمات عبد الله ودفن بمقابر باب الشام، وسلم عيسى من هذه المكيدة، ومن سهام مراميها البعيدة.

ومما جاء في النصيحة: اعلّموا أن النصيحة للمسلمين، وللخلاق أجمعين من سنن المرسلين. قال الله تعالى إخباراً عن نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا يَعْصِيكُمْ فُضْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يَرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَيْكُمْ وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ﴾^(٢) وقال شعيب عليه السلام: ﴿وَنُصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ أَسَى عَلَى قَوْمٍ كَالْهَرَمِ﴾^(٣). وقال صالح عليه السلام: ﴿وَنُصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تَحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾^(٤) وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةَ، إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةَ». قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله، ولكتابيه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، ولعامةهم.

فالنصح لله هو وصفه بما هو أهله وتزويده عما ليس له بأهل والقيام بتعظيمه، والخضوع له ظاهراً، وباطناً، والرغبة في محابه، والبعد عن مساخطه، وموالة من أطاعه، ومعاداة من عصاه، والجهد في ردّ العصاة إلى طاعته، قولاً وفعلًا. والنصيحة لكتابة إقامته في التلاوة، وتحسينه عند القراءة، وتفهّم ما فيه والذّب^(٥) عنه من تأويل المحدثين، وطعن الطاعنين وتعليم ما فيه للخلاق أجمعين. قال الله تعالى: «كَتَابَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَكُونُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ»^(٦) والنصيحة للرسول عليه السلام إحياء سنة بالطلب لها، وإحياء طريقته في بثّ الدعوة، وتأليف الكلمة، والتخلّق بالأخلاق الطاهرة، والنصيحة للأئمة معاوتهم على ما كلفوا القيام به بتبنيهم عند الغفلة، وإرشادهم عند الهفوة، وتعليمهم ما جهلوا، وتحذيرهم ممن يريد بهم السوء، وإعلامهم بأخلاق عمالهم، وسيرتهم في الرعية، وسدّ خلّتهم عند الحاجة، وردّ القلوب النافرة إليهم. والنصيحة لعامة المسلمين الشفقة عليهم، وتوقير كبيرهم، والرحمة لصغيرهم، وتفريج كربهم، وتوقّي ما يشغل خواطرهم، وفتح الوسواس عليهم.

واعلم أن جرعة النصيحة مرّة لا يقبلها إلا أولي العزم. وقال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبد العزيز رضي

(١) قارف: خالط وارتكّب.

(٢) سورة: هود، الآية: ٣٤.

(٣) سورة: الأعراف، الآية: ٩٣.

(٤) سورة: الأعراف، الآية: ٧٩.

(٥) الذّب: الدفاع عنه.

(٦) سورة: ص، الآية: ٢٩.

الله عنه: قل لي في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره. وفي مشور الحكم: وَدَّكَ مَنْ نَصَحَكَ، وقلاك^(١) مَنْ مَشَى فِي هَوَاكَ. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن شتتم لأنصحكم لكم، إن أحب عباد الله إلى الله الذي يحبون الله تعالى إلى عبادته، ويعملون في الأرض نصحاً. ولورقة بن نوفل:

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم إنني النذيرُ فلا يغرركم أحدُ
لا شيء مما ترى تبقى بشائتُه إلا الإلهُ ويردِّي المالُ والولدُ
لم تُغْنِ عن هرمز يوماً ذخائِرُه والخلدُ قد حاولتُ عادً فما خلدوا

وقال بعض الخلفاء لجبر بن يزيد: إني قد أعددتك لأمر. قال: يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قد أعد لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك، وبدأ مبسوطة لطاعتك، وسيفاً مجرداً على عدوك. وأنشد الأصمعي:

النصحُ أرخصُ ما باحَ الرجالُ فلا تردُّدٌ على ناصحٍ نصحاً ولا تلمٌ
إن النصائحَ لا تخفي مناهلُها على الرجالِ ذوي الأبوابِ والفهمِ
ولمعاذ بن مسلم:

نصحتُك والنصيحةُ إن تكلَّمتُ هوى المنضوحِ عزَّ^(٢) لها القبولُ
فخالفتُ اللي لك فيه حظاً فَنَالَكَ دُونَ مَا أَثْلَتَ غَوِلُ

وقيل أشار فيروز بن حصين على يزيد بن المهلب أن لا يضع يده في يد الحجاج، فلم يقبل منه وسار إليه فحبسه وحبس أهله فقال فيروز:

أمرتُك أمراً حازماً فعميتني فأصبحتُ مملوكَ الإمارةِ نادماً
أمرتُك بالحجاج إذا أنت قاصرٌ فنضُك أُولُ اللومِ إن كنتَ لائماً
فما أنا بالباكي عليك صاباً وما أنا بالداعي لترجعَ سالماً

ويقال: مَنْ أَصْفَرَ وَجْهَهُ مِنَ النَّصِيحَةِ أَسْوَدَ لَوْنُهُ مِنَ الْفُضِيحَةِ وقال طرفة:

ولا ترفدني^(٣) النصيح من ليس أهله وَكُنْ حِينَ تَسْتَعْنِي بِرَأْيِكَ غَانِياً
وإن أمراً يوماً تولَّى برأيه فذُعْهُ يَصِيبُ الرُّشْدَ أَوْ يَكُ غَاوِياً

وفي مثله قال بعضهم:

من الناس من إن يشترك فتجنَّب له الرأي يستغشك ما لم تتابعه
فلا تمنحْ الرأي مَنْ لَيْسَ أَهْلُهُ فلا أنتَ محمودٌ ولا الرأي نافعٌ

والله أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) قلاك: كرهك.

(٢) عزَّ: عثر وصعب.

(٣) الرشد: العطاء.

الباب الثاني عشر: في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك

قال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١). وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٣). وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(٤) ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾^(٥) والآيات في ذلك كثيرة مشهورة وفوائدها جمة مشهورة.

وروي في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أضعف الإيمان». وقال شيخنا محيي الدين النووي رحمه الله تعالى عليه في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرَّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾^(٦) إن هذه الآية الكريمة مما يفتقر بها أكثر الجاهلين، ويحملونها على غير وجهها، بل الصواب في معناها أنكم إذا فعلتم ما أمرتم به لا يضرركم ضلالة مَنْ ضل. ومن جملة ما أمروا به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآية مرتبة في المعنى على قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾^(٧). وقال محمد بن تمام: الموعظة جند من جند الله تعالى، ومثلها مثل الطين يضرب به على الحائط إن استمسك نفع وإن وقع أثر. ومن كلام علي رضي الله تعالى عنه: لا تكونن ممن لا تنفعه الموعظة، إلا إذا بالغت في إيلاسه، فإن العاقل يعظ بالأدب، والبهائم لا تعظ إلا بالضرب، وأنشد الجاحظ:

وليس يزجرُكم ما توعظون به والبهم يزجرُها الراعي فتزجر^(٨)

وكتب رجل إلى صديق له: أما بعد فَعِظِ الناس بفعلك ولا تعظم بقولك، واستح من الله بقدر قربه منك، وخف بقدرته عليك. والسلام. وقيل: من كان له من نفسه واعظ، كان له من الله حافظ. وقال لقمان: الموعظة تشق على السفه كما يشق صعود الوعر على الشيخ الكبير. قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «إِنَّكَ إِنْ أَتَيْتَنِي بَعْدَ

(١) سورة: النحل، الآية: ١٢٥

(٢) سورة: النحل، الآية: ٩٠.

(٣) سورة: آل عمران، الآية: ١٠٤.

(٤) سورة: التوبة، الآية: ٧١.

(٥) سورة: آل عمران، الآية: ١١٤.

(٦) سورة: المائدة، الآية: ١٠٥.

(٧) سورة: المائدة، الآية: ٩٩.

(٨) الزجر: المنع والنهي.

أَبَى^(١) كُتِبَتْكَ عِنْدِي حَمِيداً، وَمَنْ كُتِبَتْهُ عِنْدِي حَمِيداً لَمْ أَعْذِبْهُ بَعْدَهَا أَبَداً. وقال الرشيد لمنصور بن عمار: عِظْنِي وَأَوْجِزْ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَلْ أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: إِنْ أَرَدْتَ أَنْ لَا تَسِيءَ إِلَى مَنْ تَحِبُّ فَافْعَلْ. وقال النبي ﷺ في بعض خطبه: «أَيُّهَا النَّاسُ الْيَوْمَ تَطْوِي، وَالْأَعْمَارُ تَقْنِي، وَالْأَبْدَانُ فِي الثَّرَى تَبْلَى، وَإِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَتَرَاكُضَانِ تَرَكَضُ الْبَرِيدَ، وَيَقْرَبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ، وَيَخْلُقَانِ كُلَّ جَدِيدٍ. فِي ذَلِكَ عِبَادُ اللَّهِ مَا أَلْهَى عَنْ الشَّهَوَاتِ، وَرَغَبَ فِي الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ». ولما لقي ميمون بن مهران الحسن البصري قال له: لقد كنت أحب أن ألقاك فعظني. فقرأ الحسن البصري: «أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ»^(٢) «أَفَرَأَيْتَ أَنْ مَتَعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ»^(٣). فقال: عليك السلام أبا سعيد، لقد وعظتني أحسن موعظة. ولما ضرب ابن ملجم لعنه الله علياً رضي الله عنه دخل منزله فاعتزته غشية^(٤)، ثم أفاق فدعا الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما، وقال: أوصيكما بتقوى الله تعالى والرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا ولا تأسفاً على شيء فاتكما منها، فإنكما عنها راحلان، افعلوا الخير وكونوا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً. ثم دعا محمداً ولده وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك، قال: بلى. قال: فإني أوصيك به، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما، معرفة فضلهما. ولا تقطع امرأ دونهما. ثم أقبل عليهما وقال: أوصيكما به خيراً فإنه أخوكما وابن أيكما وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه فأجابه، ثم قال: يا بَنَيَّ، أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الصديق والعدو، والعمل في النشاط والكسل، والرضا لله في الشدة والرخاء. يا بَنَيَّ، مَنْ أَبْصَرَ عَيْبَ نَفْسِهِ اشْتَغَلَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَمْ يَحْزَنْ عَلَى مَا فَاتَهُ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قُتِلَ بِهِ، وَمَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ بُتْراً وَقَعَ فِيهَا، وَمَنْ هَتَكَ حِجَابَ أَخِيهِ هَتَكَ عَوْرَاتِ بَنِيهِ، وَمَنْ نَسِيَ خَطِيئَتَهُ اسْتَغْطَمَ خَطِيئَةَ غَيْرِهِ، وَمَنْ أَعْجَبَ بِرَأْيِهِ ضَلَّ، وَمَنْ اسْتَفْنَى بِعَقْلِهِ زَلَّ^(٥)، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ، وَمَنْ خَالَطَ الْأَنْدَالَ احْتَقَرَ، وَمَنْ دَخَلَ مَدَاحِلَ السُّوءِ أَثُهِمَ، وَمَنْ جَالَسَ الْعُلَمَاءَ وَفَرَّ، وَمَنْ مَزَحَ اسْتُخِفَّ بِهِ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْ شَيْءٍ عُرِفَ بِهِ، وَمَنْ كَثَرَ كَلَامُهُ كَثُرَ خَطْوُهُ، وَمَنْ كَثَرَ خَطْوُهُ قَلَّ حَيَاؤُهُ، وَمَنْ قَلَّ حَيَاؤُهُ قَلَّ وَدْعُهُ، وَمَنْ قَلَّ وَدْعُهُ مَاتَ قَلْبُهُ، وَمَنْ مَاتَ قَلْبُهُ دَخَلَ النَّارَ. يا بَنَيَّ، الْأَدَبُ مِيزَانُ الرَّجُلِ وَحَسَنُ الْخَلْقِ خَيْرٌ قَرِيب. يا بَنَيَّ، الْعَافِيَةُ عَشْرَةُ أَجْزَاءَ، تَسْمَةُ مِنْهَا فِي الصَّمْتِ إِلَّا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَاحِدٍ فِي تَرْكِ مَجَالَسَةِ السُّفَهَاءِ. يا بَنَيَّ، زِينَةُ الْفَقْرِ الصَّبْرُ، وَزِينَةُ الْغِنَى الشُّكْرُ. يا بَنَيَّ لَا شَرَفَ أَعْلَى مِنَ الْإِسْلَامِ، وَلَا كَرَمَ أَعَزَّ مِنَ التَّقْوَى، وَلَا شَفِيعَ أَنْجَحَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَا لِبَاسَ أَجْمَلَ مِنَ الْعَافِيَةِ. يا بَنَيَّ، الْحَرَصُ مِفْتَاحُ التَّعَبِ وَمَطْيَةُ النَّصَبِ^(٦).

ولما حضرت هشام بن عبد الملك الوفاة نظر إلى أهله ليكون حوله فقال: جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم له بالبكاء، وترك لكم جميع ما جمع، وتركتم عليه ما حمل، ما أعظم منقلب هشام إن لم يغفر الله له. وقال الأوزاعي

(١) أَبَى: تارك لدينه.

(٢) سورة: الجاثية، الآية: ٢٣.

(٣) سورة: الشعراء، الآيات: ٢٠٥ - ٢٠٧.

(٤) اعتزته غشية: إغماءة.

(٥) زَلَّ: عثر وأخطأ.

(٦) النصب: الوهن.

للمنصور في بعض كلامه: يا أمير المؤمنين، أما علمت أنه كان بيد رسول الله ﷺ جريده يابسة يستاك بها ويردع بها المنافقين، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة التي بيدك؟ أقذفها، لا تملأ قلوبهم رعباً، فكيف بمن سفك دماء المسلمين، وانتهب أموالهم يا أمير المؤمنين. إن المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر دعا إلى القصاص من نفسه بخدشة خدشها أعرابياً من غير تعمد. يا أمير المؤمنين لو أن ذنباً من النار صب ووضع على الأرض لأحرقها، فكيف بمن يتجرعه، ولو أن ثوباً من النار وضع على الأرض لأحرقها. فكيف بمن يتمصه، ولو أن حلقة من سلاسل جهنم وضعت على جبل لذاب، فكيف بمن يتسلل بها ويرد فضلها على عاتقه.

وروى زيد بن أسلم عن أبيه قال: قلت لجعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وكان والي المدينة: اجلدر أن يأتي رجل غداً ليس له في الإسلام نسب، ولا أب ولا جد، فيكون أولى برسول الله ﷺ منك، كما كانت امرأة فرعون أولى بموسى، وكما كانت امرأة نوح وامرأة لوط أولى بفرعون، ومن أخطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ومن أسرع به عمله لم يبطئه به نسبه. وروى زياد عن مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال: لما بعث أبو جعفر إلى مالك بن أنس، وابن طاوس قال: دخلنا عليه وهو جالس على فرش وبين يديه أنطاخ قد بسطت، وجلادون بأيديهم السيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن اجلسا فجلستا فأطرق زماناً طويلاً ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس وقال: حدثني عن أبيك قال: سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله تعالى في ملكه، فأدخل عليه الجور»^(١) في حكمه، فأمسك أبو جعفر ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه. قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن ينالها شيء من دم ابن طاوس. ثم قال: يا ابن طاوس، ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه. فقال: ما يمنعك أن تناولنيها، قال: أخاف أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك قال: قوما عني. فقال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي. قال مالك: فما زلت أعرف لابن طاوس فضله في ذلك اليوم.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لكعب الأحبار: ياكعب خوّفتنا. قال: أو ليس فيكم كتاب الله وسنة نبيه ﷺ؟ قال: بلى يا كعب، ولكن خوّفتنا. فقال: يا أمير المؤمنين، اعمل فإنك لو وافيت يوم القيامة بعمل سبعين نبياً لازدرت^(٢) عملهم مما ترى. فنكس عمر رضي الله عنه رأسه وأطرق ملياً ثم رفع رأسه وقال: يا كعب خوّفتنا. فقال: يا أمير المؤمنين، لو فتح من جهنم قدر منخر ثور بالشرق ورجل بالمغرب لغلى دماغه حتى يسيل من حرها. فنكس عمر ثم أفاق، فقال: يا كعب زدنا. فقال: يا أمير المؤمنين، إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة فلا يبقى ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا جثا على ركبتيه، يقول يا رب لا أسألك اليوم إلا نفسي.

وقال سيدي الشيخ أبو بكر الطرطوشي رحمه الله تعالى عليه: دخلت على الأفضل ابن أمير الجيوش، وهو أمير على مصر فقلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فرد السلام على نحو ما سلمت رداً جميلاً، وأكرمني إكراماً جزيلاً، أمرني بدخول مجلسه وأمرني بالجلوس فيه. فقلت: أيها الملك إن الله تعالى قد أحلك محلاً علياً شامخاً، وأنزلك منزلاً شريفاً باذخاً، ومللك طائفة من ملكه، وأشركك في حكمه، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك. فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك، وليس الشكر باللسان وإنما هو بالفعل والإحسان، قال الله تعالى: ﴿اعملوا

(١) الجور: الظلم والاعتداء.

(٢) الازدراء: الاحقار.

آل داود شكراً^(١) واعلم أن هذا الذي أصبحت فيه من الملك إنما صار إليك بموت مَنْ كان قبلك، وهو خارج عنك بمثل ما صار إليك، فاتَّقِ الله فيما حَوَّلَكَ من هذه الأمة، فإن الله تعالى سائلك عن القتل، والتقىير والقطمير^(٢)، قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ إِذَا سَأَلْتَهُمْ أَجْمَعِينَ * هَمًّا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾^(٤) واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود عليهما السلام، فسخر له الإنس والجن والشياطين والطيور والوحش والبهائم وسخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع. فقال له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٥) فوالله ما عدها نعمة كما عدتموها، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها، بل خاف أن تكون استدراجاً من الله تعالى ومكرًا به فقال: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر؟﴾^(٦) فافتح الباب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم وأغث المهلول أعانك الله على نصر المظلوم، وجعلك كهفًا للملحوف، وأمانًا للخائف، ثم أتممت المجلس بأن قلت: قد جبت البلاد شرقاً وغرباً فيما اخترت مملكة وارتحت إليها، ولذت لي الإقامة فيها غير هذه المملكة ثم أنشدته:

وَالنَّاسُ أَكْثَرُ مَنْ أَنْ يَحْمَدُوا رَجُلًا حَتَّى يَسْرُوا عَنْدَهُ أَنْوَارَ إِحْسَانِ

وقال الفضل بن الربيع: حج هارون الرشيد سنة من السنين فينما أنا نائم ذات ليلة إذ سمعت قرع الباب فقلت: مَنْ هذا؟ قال: أجب أمير المؤمنين فخرجت مسرعاً. فقلت: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك. فقال: ويحك قد حاك^(٧) في نفسي شيء لا يخرجني إلا عالم فانظر لي رجلاً أسأله عنه. فقلت: ههنا سفيان بن عيينة. فقال: امض بنا إليه فأتيناه، فقرعت عليه الباب فقال: مَنْ هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك. فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلاً أسأله: فقلت: ههنا عبد الرزاق بن همام. فقال: امض بنا إليه، فأتيناه فقرعت عليه الباب فقال: مَنْ هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين، فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك. فقال: جد لما جئنا به فحادثه ساعة. ثم قال له: أعليك دَين؟ قال: نعم فقال: يا أبا العباس اقض دينه ثم انصرفنا. فقال: ما أغنى عني صاحبك شيئاً، فانظر لي رجلاً أسأله. فقلت: ههنا عبد الرزاق بن همام. فقال: امض بنا إليه فأتيناه فإذا هو قائم يصلي في غرفته يتلو آية من كتاب الله تعالى وهو يردد، فقرعت عليه الباب فقال: مَنْ هذا؟ فقلت: أجب أمير المؤمنين، فقال: ما لي ولأمير المؤمنين. فقلت: سبحان الله أما تجب عليك طاعة؟ ففتح الباب ثم ارتقى إلى أعلى الغرفة فأطفأ السراج ثم التجأ إلى زاوية من زوايا الغرفة فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف الرشيد كفي إليه، فقال: آواه من كلِّ ما أَلَيْهَا إِنْ نَجَتْ غَدًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى. فقلت في نفسي:

(١) سورة: سبأ، الآية: ١٣.

(٢) القطمير: شق النواة وهو دلالة الصغار.

(٣) سورة: الحجر، الآية: ٩٢ - ٩٣.

(٤) سورة: الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٥) سورة: ص، الآية: ٣٩.

(٦) سورة: النمل، الآية: ٤٠.

(٧) حاك: اعتمل.

يُكَلِّمُهُ اللَّيْلَةُ بِكَلَامٍ نَقِيٍّ مِنْ قَلْبٍ نَقِيٍّ، فَقَالَ: جُذُّ لَمَّا جِئْنَا لَهُ رَحِمَكَ اللَّهُ تَعَالَى فَقَالَ: وَفِيمَ جِئْتَ حَمَلْتُ عَلَى نَفْسِكَ وَجَمِيعَ مَنْ مَعَكَ حَمَلُوا عَلَيْكَ، حَتَّى لَوْ سَأَلْتَهُمْ أَنْ يَتَحَمَّلُوا عَنْكَ شَقَصاً^(١) مِنْ ذَنْبٍ مَا فَعَلُوا. وَلَكِنْ أَشَدَّهُمْ حُبّاً لَكَ، أَشَدَّهُمْ هَرَباً مِنْكَ.

ثم قال: إن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب القرظي، ورجاء بن حيوة فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا عليّ. فقد الخلافة بلاء وعددتها أنت وأصحابك نعمة. فقال سالم بن عبد الله: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فُصِّمْ عن الدنيا، وليكن افطارك فيها على الموت. وقال محمد بن كعب: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى فليكن كبير المسلمين عندك أباً. وأوسطهم عندك أخاً. وأصغرهم عندك ولداً. فبر أباك. وارحم أخاك. وتحنن على ولدك. قال رجاء بن حيوة: إن أردت النجاة غداً من عذاب الله تعالى فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك. وكره لهم ما تكره لنفسك. ثم متى شئت مت. وإني لأقول هذا. وإني لأخاف عليك أشد الخوف يوم تزل الأقدام فهل معك رحمك الله مثل هؤلاء القوم مَنْ يأمرك بمثل هذا؟ فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً حتى غشي عليه فقلت له: ارفق بأمر المؤمنين فقال: يا ابن الربيع قتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا. ثم أفاق هارون الرشيد فقال: زدني فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شكاً إليه سهرأ. فكتب له عمر يقول: يا أخي اذكر سهر أهل النار في النار. واخلود الأبدان. فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائماً ويقظان، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل فيكون آخر العهد بك، ومنقطع الرجاء منك، فلما قرأ كتابه طوى البلاد حتى قدم عليه. فقال له عمر: ما أقدمك؟ فقال له: لقد خلعت قلبي بكتابك، ولا وليت ولاية أبداً حتى ألقى الله عز وجل. فبكى هارون بكاءً شديداً، ثم قال: زدني. قال: يا أمير المؤمنين إن العباس عم النبي ﷺ جاء إليه فقال: يا رسول الله، أشرني إمارة. فقال له النبي ﷺ: «يا عباس نفس تحيها خير من إمارة لا تحيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة. فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل»، فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً. ثم قال: لا زدني يرحمك الله. فقال: يا حسن الوجه، أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لرعيك، فإن النبي ﷺ قال: مَنْ أَصْبَحَ لَهُمْ غَاشاً لَمْ يَرْحَ^(٢) رائحة الجنة فبكى هارون الرشيد بكاءً شديداً، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم دَينَ لربي يحاسبني عليه، فالويل لي إن ناقشني، والويل لي إن سألتني، والويل لي إن لم يلهمني حاجتي. قال هارون: إنما أعني دَينَ العباد. قال: إن ربي لم يأمرني بهذا، وإنما أمرني أن أصلق وعده، وأطيع أمره، قال تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ»^(٣) قال له هارون: هذه ألف دينار فخذها وأنفقها على عيالك، وتَقَوَّ بها على عبادة ربك. فقال: سبحان الله أنا ذلكت على سبيل الرشاد تكافئني أنت بمثل هذا، سلمك الله ووفقك. ثم صمت فلم يكلمنا. فخرجنا من عنده. فقال لي هارون: إذا دلتني على رجل فدلتني على مثل هذا فإن هذا سيد المسلكين اليوم.

(١) الشقص: الجزء.

(٢) يرح: يتسم ويشم.

(٣) سورة: الزلزال، الآيات: ٥٦ - ٥٨.

واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر له شروط وصفات. قال سليمان الخواص: مَنْ وعظ أخاه فيما بينه وبينه فهي نصيحة، ومن وعظه على رؤوس الإشهاد فإنما بكته^(١). وقالت أم الدرداء رضي الله تعالى عنها: مَنْ وعظ أخاه سرّاً فقد سره وزانه، وَمَنْ وعظه علانية فقد ساءه وشانه. ويقال: مَنْ وعظ أخاه سرّاً فقد نصحه وسره، وَمَنْ وعظه جهراً فقد فضحه وضره. وعن عبد العزيز بن أبي رواد قال: كان الرجل إذا رأى من أخيه شيئاً أمره في ستر، ونهاه في ستر، فيؤجر في ستره ويؤجر في أمره، ويؤجر في نهيه. وعن عمر رضي الله تعالى عنه: إذا رأيتم أحاكم ذا زَلٍّ فقوموه، وسددوه، وادعوا الله أن يرجع به إلى التوبة فيتوب عليه، ولا تكونوا أعواناً للشيطان على أخيكم. وبالله التوفيق إلى أقوم طريق، وحسبنا الله ونعم الوكيل صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم..

(١) بكته: أنبه وقرّعه.

الباب الثالث عشر: في الصمت وصون اللسان والنهي عن الغيبة والسعي بالنميمة ومدح العزلة وذم الشهرة وفيه فصول

الفصل الأول: في الصمت وصون اللسان

قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿إِنْ رَيْكَ بِالْمَرْصَادِ﴾^(٢) واعلم أنه ينبغي للعاقل المكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه، لأنه قد يجرّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، بل هذا كثير وغالب في العادة والسلامة لا يعادلها شيء. وروينا في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ كَانَ يَوْمَنْ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمِتْ». قال الشافعي رضي الله تعالى عنه في «الأم»: إذا أراد أحدكم الكلام فعليه أن يفكر في كلامه فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شك لم يتكلم حتى تظهر. وروينا في صحيحهما عن أبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه قال: قلت يا رسول الله أي المسلمين أفضل؟ قال: «مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ». وروينا في كتاب الترمذي عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «أَمْسَكَ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلِيَسْمَعْ يَتَكَ وَابْنُكَ عَلَى خَطِيئَتِكَ» قال الترمذي: حديث حسن. وروينا في كتاب الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ» والأحاديث الصحيحة في ذلك كثيرة وفيما أشرت إليه كفاية لمن وفقه الله تعالى.

أما الآثار عن السلف وغيرهم في هذا الباب فكبيرة لا تحصر لكن ننبه على شيء منها. فما جاء من ذلك ما بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتماعاً فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصر. وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها. قال: وما هي؟ قال: حفظ اللسان. وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه لصاحبه الربيع: يا ربيع لا تتكلم فيما لا يعينك فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك ولم تملكها. وقال بعضهم: مثل اللسان مثل السبع إن لم توقه عدا عليك ولحقك شره. ومما أشدوه في هذا الباب.

احْفَظْ لِسَانَكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ لَا يَلْدَغْنُكَ أَنَّهُ ثَعْبَانُ
كَمْ فِي الْمَقَابِلِ مِنْ قَتِيلٍ لِسَانِهِ كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشَّجَمَانُ

(١) سورة: ق، الآية: ١٨.

(٢) سورة: الفجر، الآية: ١٤.

وقال الفارسي:

لَعَمْرُكَ إِنَّ فِي ذَنْبِي لَشَغْلاً لِنَفْسِي عَنْ ذُنُوبِ بَنِي أُمَيَّةٍ
على ربي حسابهم إليه تناهى علم ذلك لا إليَّ

وقال علي رضي الله عنه: إذا تم العقل نقص الكلام وقال أعرابي: رب منطق صدع جمعاً^(١)، وسكوت شعب صدعاً. وقال وهب بن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس. وقال علي بن هشام رحمه الله تعالى عليه:

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْحِلْمَ زَيْنٌ لَأَهْلِهِ وما الحلم إلا عادةٌ وتحلمُ
إذا لم يكن صمتُ الفتى عين ندامو وعيٌّ فإنَّ الصمتَ أولى وأسلمُ

وقال ابن عينة: مَنْ حرم الخير فليصمت. فإن حرمه فالموت خير له. وعن رسول الله ﷺ أنه قال لأبي ذر رضي الله عنه: «عليك بالصمت إلا من خير فإنه مطردة للشيطان، وعون على أمر دينك». ومن كلام الحكماء: مَنْ نطق في غير خير فقد لغأ، وَمَنْ نظر في غير اعتبار فقد سها، وَمَنْ سكت في غير فكر فقد لها، وقيل لو قرأت صحيفتك لأعمدت صفيحتك، ولو رأيت ما في ميزانك لختمت على لسانك. ولما خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت طال صمته فقيل له: ألا تتكلم. فقال: الكلام صيّرنِي في بطن الحوت. وقال حكيم: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم. وكان يقال: من السكوت ما هو أبلغ من الكلام، لأن السفه إذا سكت عنه كان في اغتنام. وقيل لرجل: بم سادكم الأحف فوالله ما كان بأجركم سناً، ولا بأكثركم مالاً. فقال: بقوة سلطانه على لسانه. وقيل: الكلمة أسيرة في وثاق الرجل فإذا تكلم بها صار في وثاقها. وقيل: اجتمع أربعة ملوك فتكلموا، فقال ملك الفرس: ما ندمت على ما لم أقل مرة، وندمت على ما قلت مراراً. وقال قيصر: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت. وقال ملك الصين: ما لم أتكلم بكلمة ملكتها، فإذا تكلمت بها ملكتي. وقال ملك الهند: العجب بمن يتكلم بكلمة إن رفعت ضرت، وإن لم ترفع لم تنفع. وكان بهرام جالساً ذات ليلة تحت شجرة فسمع منها صوت طائر فرماه فأصابه. فقال: ما أحسن حفظ اللسان بالطائر، والإنسان لو حفظ لسانه ما هلك. وقال علي رضي الله تعالى عنه: بكثرة الصمت تكون الهيبة. وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه. الكلام كالدواء إن أقللت منه نفع. وإن أكثرته منه قتل. وقال لقمان لولده: يا بني إذا افتخر الناس بحسن كلامهم، فافتخر أنت بحسن صمتك. يقول اللسان كل صباح وكل مساء للجوارح كيف أثن فيقلن بخير إن تركتنا. قال الشاعر:

احْفَظْ لِسَانَكَ لَا تَقُولَ فَيَتَلَى إن البلاء موكَّلٌ بالمنطق

الفصل الثاني: في تحريم الغيبة

اعلم أن الغيبة من أقبح القبايح وأكثرها انتشاراً في الناس حتى لا يسلم منها إلا القليل من الناس، وهي ذكر الإنسان بما يكره ولو بما فيه، سواء كان في دينه أو بدنه أو نفسه أو خلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته،

أو خادمه، أو عمامته أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو خلاعته، أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته بلفظك، أو بكتابك أو رمزت إليه بعينك، أو يدك، أو رأسك، أو نحو ذلك. فأما الدين فكقولك سارق، خائن، ظالم متهاون بالصلاة متساهل في النجاسات، ليس بازاً بوالديه، قليل الأدب، لا يضع الزكاة مواضعها، لا يجتنب الغيبة. وأما البدن فكقولك أعمى أو أعرج، أو أعمش أو قصير، أو طويل، أو أسود، أو أصفر، وأما غيرهما فكقولك فلان قليل الأدب، متهاون بالناس، لا يرى لأحد عليه حقاً، كثير النوم كثير الأكل، وما أشبه ذلك، أو كقولك فلان أبوه نجار أو إسكاف، أو حداد أو حائك، تريد تنقيصه بذلك، أو فلان سئء الخلق متكبر مرء معجب، عجول، جبار ونحو ذلك، أو فلان واسع الكم، طويل الذيل، وسخ الثوب، ونحو ذلك.

وقد روينا في صحيح مسلم وسنن أبي داود، والترمذي، والنسائي، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أندرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: وإن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته». قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وروينا في سنن أبي داود، والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة، تعني قصيرة فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته أي خالطته مخالطة يفتري بها طعمه وريحه لكثرة نتنها». وروينا في سنن أبي داود عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي إلى السماء مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم». وروي عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا». ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليزني فيتوب، فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لم يغفر له حتى يغفر له صاحبها». وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: «مَن اغتاب المسلمين، وأكل لحومهم بغير حق وسعى بهم إلى السلطان جاء به يوم القيامة، مزقة عتاه، ينادي بالويل والثبور، يعرف أهل ولا يعرفونه». وقال معاوية بن قرة: أفضل الناس عند الله أسلمهم صدراً، وأقلهم غيبة. وقال الأحنف: في خصلتان لا اغتاب جليبي إذا غاب عني، ولا أدخل في أمر قوم لا يدخلونني فيه. وقيل للربيع بن خثيم: ما تراك تعيب أحداً. فقال: لست عن نفسي راضياً فأفترغ لدم الناس، وأنشد:

لنفسى أبكى لست أبكى لغيرها
لنفسى من نفسي عن الناس شاغل
وقال كثير عزة:

وسعى إليّ بعيب عزة نسوة
جعل الإله خدودهنّ نعالها

وقال محمد بن حزم: أول من عمل الصابون سليمان. وأول من عمل السوق ذو القرنين. وأول من عمل الحيس يوسف. وأول من عمل خبز الجرداق نمرود. وأول من كتب في القراطيس الحجاج. وأول من اغتاب إيليس لعنه الله اغتاب آدم عليه السلام. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن المغتاب إذا تاب فهو آخر من يدخل الجنة، وإن أصر، فهو أول من يدخل النار. ويقال: لا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك، ومن اغتاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك. وقيل للحسن البصري رضي الله تعالى عنه: إن فلاناً اغتابك، فأهدى إليه طبقاً من رطب. فأتاه الرجل وقال له: اغتبتك فأهديت إليّ. فقال الحسن: أهديت إليّ حسناتك فأردت أن أكافئك. وعن ابن المبارك رحمه الله تعالى قال: لو كنت مغتاباً أحداً، لاغبت والدني، لأنهما أحق بحسناتي، إذا حاكى إنساناً بأن يمسي

متعارجاً، أو متطاطناً^(١) أو غير ذلك من الهيئات يريد تنقيصه بذلك فهو حرام. وبعض المتفقهين والمتعبدین يعرضون بالغيبة تعريضاً، تفهم به كما تفهم بالتصريح، فيقال لأحدهم: كيف حال فلان؟ فيقول: الله يصلحنا. الله يغفر لنا. الله يصلحه. نسأل الله العافية. نحمد الله الذي لم ييتلينا بالدخول على الظلمة نعوذ بالله من الكبر. يعافينا الله من قلة الحياة. الله يتوب علينا. وما أشبه ذلك مما يفهم تنقيصه فكل ذلك غيبة محرمة.

واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع استماعها. فيجب على مَنْ يستمع إنساناً يتلدى بغيبة أن ينهأ، إن لم يخف ضرراً، فإن خافه وجب عليه الإنكار بقلبه ومفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقتها، فإن قال بلسانه اسكت وقلبه يشتهي سماع ذلك، قال بعض العلماء إن ذلك نفاق. قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾^(٢) وما أنشدوه في هذا المعنى.

وَسَمِعَكَ صُنْ عَنْ سَمَاعِ الْقِيحِ	كَصَوْنِ اللِّسَانِ عَنِ التُّطُقِ بِه
فَإِنَّكَ عِنْدَ سَمَاعِ الْقِيحِ	شَرِيكَ لِقَائِلِهِ فَاتِيَه
وَكَمْ أَزَعَجَ الْحَرَصُ مِنْ طَالِبِ	فَوَافِي الْمَيْثَةِ فِي مَطْلِبِه

الفصل الثالث: في تحريم السعاية بالنميمة

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطْعِ كُلَّ حَلَّابٍ مَهِينٍ * هُمَازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ﴾^(٣) الآية وحسبك بالنمام خسة ورذيلة، سقوطه وضعته، والهماز المغتاب الذي يأكل لحوم الناس، الطاعن فيهم. وقال الحسن البصري: هو الذي يغمز بأخيه في المجلس، وهو الهمزة للمزة. وقال علي والحسن البصري رضي الله عنهما: العتل الفاحش السيء الخلق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العتل الفاتك الشديد المناق. وقال عبيد بن عمير: العتل الأكل الشروب القوي الشديد، يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة. وقال الكلبي: هو الشديد في كفره، وقيل: العتل الشديد الخصومة بالباطل، والزنيم هو الذي لا يعرف مَنْ أبوه قال الشاعر:

زَنِيمٌ لَيْسَ يَعْرِفُ مَنْ أَبُوهُ بَغْيِيَّ الْأُمِّ ذُو حَسْبٍ لَيْسَ

وروي في صحيح البخاري ومسلم عن حديفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة نمام»، وروي أن النبي ﷺ مرّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتره من بوله». قال الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى عليه: النميمة إنما تطلق في الغالب على مَنْ ينم قول الغير إلى المقول فيه، كقوله فلان يقول فيك كذا، فينبغي للإنسان أن يسكت عن كل ما رآه من أحوال الناس، إلا ما في حكايته، فائدة لمسلم، أو دفع معصية، وينبغي لمن حملت إليه النميمة وقيل له قال فيك فلان كذا، أن لا يصدق مَنْ نَمَّ إليه، لأن النمام فاسق وهو مردود الخبر، وأن ينهأ عن ذلك وينصحه، ويقبح فعله، ويبغضه في الله تعالى، فإنه بغيض عند الله، والبغض في الله واجب وأن لا يظن بالمقول عن سوء لقول الله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا

(١) متطاطناً: مخفضاً رأسه.

(٢) سورة: الأنعام، الآية: ٦٨

(٣) سورة: القلم، الآيتان: ١٠ - ١١.

من الظَّنُّ إِنْ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ^(١). وسمى رجل إلى بلال بن أبي بردة برجل وكان أمير البصرة فقال له: انصرف حتى اكتشف عنك. فكشف عنه فإذا هو ابن بغي، يعني ولد زنا. قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: لا ينم على الناس إلا ولد بغي، وروي أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بشراركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ. قال: «شراركم المشاؤون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون العيوب». وروي أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ملعون ذو الوجهين. ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شغاز، ملعون كل قتات، ملعون كل نمام، ملعون كل منان». والشغاز المحرش بين الناس يلقي بينهم العداوة، والقتات النمام، والمنان الذي يعمل الخير ويمن به، وأما السعاية إلى السلطان وإلى كل ذي قدرة فهي المهكلة، والحالقة^(٢) لأنها تجمع الخصال اللئيمة من الغيبة، وشؤم النميمة، والتغريب بالنفوس، والأموال في النزول، والأحوال، وتسلب العزيز عزه، وتحط المكين عن مكانته، والسيد عن مرتبته، فكم دم أرافه سعي ساع، وكم حريم استبيح بنميمة نمام. وكم من صَفَتَيْنِ^(٣) تباعدوا، وكم من متواصلَيْنِ تقاطعا، وكم من محبِّين افتراقا، وكم من الفين تهاجرا، وكم من زوجين تطلقا. فليتبَّ الله ربه عز وجل رجُلٌ ساعدته الأيام وتراخت عنه الأقدار، أن يصني لساعٍ أو يستمع لنمام.

ووجد في حكم القدماء: أبغض الناس إلى الله المثلث. قال الأصمعي: هو الرجل يسمى بأخيه إلى الإمام فيهلك نفسه، وأخاه، وإمامه، وقال بعض الحكماء: احذروا أعداء العقول، ولصوص المودات، وهم السعاة والنمَّامون، إذا سرق للصوص المتاع، سرقوا المودات. وفي المثل السائر: مَنْ أطاع الواسي ضيع الصديق. وقد تقطع الشجر فتنت، ويقطع اللحم السيف فيندمل، واللسان لا يندمل جرحه. ودفع إنسان رقعة إلى الصاحب بن عباد يعهده فيها على أخذ مال يتيمة، وكان مالا كبيرا فكتب إليه على ظهرها: النميمة قبيحة، وإن كانت صحيحة، والميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والساعي لعنه الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. وروينا في كتاب أبي داود والترمذي، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يبلغني أحد من أصحابي عن أحد شيئا فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر ومن الناس مَنْ يتلون ألوانا، ويكون بوجهين ولسانين فيأتي هؤلاء بوجه، وذو الوجهين لا يكون عند الله وجيها». قال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى:

قُلْ لِلّٰهِ لَسْتُ أَدرِي مَن تَكُوْنِيْهِ	أناصَحُ أُمَ عَلٰى غِشْرٍ يَتَّاجِبُنِيْ
إِنِّي لَأَكْثَرُ مِمَّا سَمْتَنِيْ عَجَبًا	يَدُ تَشْجُ وَأُخْرٰى مِنْكَ تَأْسُوْنِيْ ^(٤)
تَغْتَابُنِيْ عِنْدَ أَقْوَامٍ وَتَمْدُخُنِيْ	فِيْ أَخْرَيْنَ وَكُلُّ عَنْكَ يَأْتِنِيْ
هٰذَا شَيْءَانِ قَدْ نَأْتَيْتَ بَيْنَهُمَا	فَاكْشَفْتُ لِسَانَكَ عَنْ شَتْمِيْ وَتَزْنِيْ

وقيل: لألف لحوح جموع، خير من واحد متلون، وكان يشبه المتلون بأبي يراش، وأبي قلمون. فأبو يراش طائر متقط بالوان النقوش يتلون في اليوم ألوانا، وأبو قلمون ضرب من ثياب الحرير ينسج بالروم يتلون ألوانا. ويقال للطائش الذي لا ثبات معه أبو رياح تشبهاً بمثال فارس من نحاس بمدينة حمص على عمود حديد فوق قبة بياض

(١) سورة: الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) الحالقة: قاطعة الرحم.

(٣) صَفَتَيْنِ: خليلين.

(٤) تأسو: تداوي.

الجامع يدور مع الريح، ويمناه ممدودة وأصابها مضمومة إلا السبابة فإذا أشكل عليهم مهب الريح عرفوه به. فإنه يدور بأضعف نسيم يصيبه، والذي يعمل الصبيان من قرطاس على قصبة يسمى أبا رياح أيضاً. ويقال: أخلاق الملوك مكلّ في التلّون قال بعضهم:

ويوم كأخلاق الملوك تلّوناً فصخرو وتغيّم وطل^(١) ووابل^(٢)
أشبهه إياك يا مَنْ صفائهُ دنو، وإعراض، ومُنع، ونائل^(٣)

وكلم معاوية الأحنف في شيء بلغه عنه فأنكره الأحنف. فقال له معاوية: بلغني عنك الثقة. فقال له الأحنف: إن الثقة لا يبلغ مكروهاً. وكان الفضل بن سهل يغيض السعاية^(٤) وإذا أتاه ساع يقول له: إن صدقتنا أبغضناك، وإن كلبتنا عاقبتنا، وإن استقلتنا^(٥) أقلناك. وكتب في جواب كتاب ساع: نحن نرى أن قبول السعاية شرٌّ من السعاية، لأن السعاية دلالة، والقبول إجازة، وليس من دل على شيء، وأخبر به كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي فإنه لو كان في سعائته صادقاً، لكان من صدقه ليثماً، إذ لم يحفظ الحرمة، ولم يستر العورة. وقيل: مَنْ سعى بالنيمة حذره الغريب، ومقته القريب. وقال المأمون: النيمة لا تقرب موثّة إلا أفسدتها، ولا عداوة إلا جلدتها، ولا جماعة إلا بدّتها. ثم لا بد لمن عرف بها ونسب إليها أن يجتنب ويخاف من معرفته ولا يوثق بمكانه. وأنشد بعضهم:

مَنْ نَمَّ فِي النَّاسِ لَمْ تُؤْمَنْ عَقَارُهُ عَلَى الصَّدِيقِ وَلَمْ تُؤْمَنْ أَفَاعِيهِ
كَالسَّيْلِ بِاللَّيْلِ لَا يَدْرِي بِهِ أَحَدٌ مِنْ أَيْنَ جَاءَ وَلَا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيهِ
الْوَيْلُ لِلْمُهْدِ مِنْهُ كَيْفَ يَتَقَفُّهُ وَالْوَيْلُ لِلْمُودِّ مِنْهُ كَيْفَ يَفْنِيهِ

وقال آخر:

يسعى عليك كما يسعى إليك فلا تَأْمَنْ غَوَائِلَ ذِي وَجْهَيْنِ كِبَادٍ
وقال صالح بن عبد القدوس رحمه الله تعالى:

مَنْ يَخْبِرُكَ بِشَتَمٍ عَنْ أَخٍ فَهُوَ الشَّاتِمُ لَا مَنْ شَتَمَكَ
ذَاكَ شَيْءٌ لَمْ يَوَاجِهْكَ بِهِ إِنَّمَا اللَّوْمُ عَلَى مَنْ أَعْلَمَكَ

وقال آخر:

إِنْ يَعْلَمُوا الْخَيْرَ أَخْفَوْهُ وَإِنْ عَالَمُوا شَرًّا أَذَاعُوا وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَبُوا

وقال آخر:

إِنْ يَسْمَعُوا رِيَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا مِنْهُ وَمَا سَمِعُوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا

(١) الطل: خفيف الغيث.

(٢) الوابل: شديد المطر.

(٣) النائل: المعطاء.

(٤) السعاية: الرشاية السيئة.

(٥) استقلتنا: طلبت الإقامة من المتصّب.

صُمْ إِذَا سَمِعُوا خِيراً ذَكَرْتَ بِهِ وَإِنْ ذَكَرْتَ بِسُوءٍ عَلَيْهِمْ أَذْنُوا

وقال الحسن: ستر ما عاينت، أحسن من إشاعة ما ظننت. وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: مَنْ سَمِعَ بِفَاحِشَةٍ فَأَفْشَاهَا فَهُوَ كَالَّذِي أَتَاهَا.

ومما جاء في النهي عن اللعن: ما روينا في صحيح البخاري ومسلم عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ: «لَعْنُ الْمُؤْمِنِ كَقَتْلِهِ». وروينا في صحيح مسلم أيضاً عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يَكُونُ اللَّعَانُونَ شَفَعَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وروينا في سنن أبي داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعِنَ شَيْئاً صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَفْخُقُ أَبْوَابَ السَّمَاءِ دُونَهَا ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ فَتَفْخُقُ أَبْوَابَهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِيناً وَشِمَالاً، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَافِئاً رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لَعِنَ، إِنْ كَانَ أَهْلاً لَذَلِكَ، وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَاتِلِهَا» ويجوز لعن أصحاب الأوصاف المذمومة على العموم كقوله: لعن الله الظالمين، لعن الله الكافرين، لعن الله اليهود والنصارى، لعن الله الفاسقين، لعن الله المصورين ونحو ذلك.

وثبت في الأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ لعن الواصلة، والمستوصلة^(١)، وإنه قال: «لعن الله أكل الربا. وأنه قال: لعن الله المصورين. وأنه قال: لعن الله من لعن والديه، وأنه قال لعن الله من ذبح لغير الله. وأنه قال لعن الله اليهود والنصارى، واتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. وأنه قال: لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال». وجميع هذه الألفاظ في البخاري ومسلم بعضها فيهما وبعضها في أحدهما والله أعلم.

ومما جاء في العزلة ومدح الخمول وذم الشهرة: قال رسول الله ﷺ: «الْخُمُولُ نِعْمَةٌ وَكُلُّ يَتَبَرَأَ، وَالظُّهُورُ نِقْمَةٌ وَكُلُّ يَتَمَنَّى». وقال بعضهم:

تَلَخَّفَ بِالْخُمُولِ تَعَثَّ سَلِيمًا وَجَالَسَ كُلَّ ذِي أَدَبٍ كَرِيمٍ

وقال جعفر بن الفراء:

مَنْ أَخْمَلَ النَّفْسَ أَحْيَاهَا وَرَوَّحَهَا وَلَمْ يَثِّ طَاوِيًا مِنْهَا عَلَى ضَجْرِ
إِنَّ الرِّيحَ إِذَا اشْتَدَّتْ عَوَاصِفُهَا فَلَيْسَ تَرْمِي سِوَى الْعَالِي مِنَ الشَّجَرِ

وقال أعرابي: رب وحلة أنفع من جليس، ووحشة أنفع من أنيس. وكان أبو معاوية الضريير يقول: فَيَ خَصْلَتَانِ مَا يَسْرِنِي بِهِمَا رَدَّ بَصْرِي: قَلَّةُ الْأَعْجَابِ بِغُيِّي، وَخُلُوُّ قَلْبِي مِنْ اجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَيَّ. وقال عمر رضي الله عنه: خَلُّوا حِفْظَكُمْ مِنَ الْعِزَّةِ. وصعد حسان على أطم^(٢) من أطام المدينة ونادى بأعلى صوته: يَا صَبَاحَاهُ، فَاجْتَمَعَتِ الْخُزُرُجُ فَقَالُوا: مَا عِنْدَكَ؟ قَالَ: قُلْتُ بَيْتَ شَعْرٍ فَأُجِيبْتُ أَنْ تَسْمَعُوهُ. قالوا: هَاتِ يَا حَسَانَ. فقال:

وَإِنْ أَمْرًا أَمَسَى وَأَصْبَحَ سَالِمًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَى لَسِيئًا

ولما بنى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه منزله بالعقيق قيل له: تركت منازل إخوانك. وأسواق الناس ونزلت

(١) المتوصلة: التي تطلب وصل شعرها.

(٢) الأطم: البيت المربع أو القصر المرتفع.

بالعقيق. فقال: رأيت أسواقهم لاغية، ومجالسهم لاهية، فوجدت الاعتزال فيما هنالك عافية. وقيل لعروة، أخي مرداس: لم لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم؟ فقال: أكره أن يميل قلبي باجتماعكم إلى حب الرياسة، فأخسر الدارين. وقال سفيان بن عيينة: دخلنا على الفضل في مرضه نعوذ: فقال: ما جاء بكم؟ والله لو لم تجيئوا لكان أحب إليّ. ثم قال: نعم الشيء المرض، لولا العيادة. وقيل للفضل: إن ابنك يقول وددت لو أني بالمكان الذي أرى الناس فيه، ولا يروني. فقال ويح ابني لم لا أتمها فقال: لا أراهم ولا يروني. وقال علي رضي الله تعالى عنه، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، وطوبى لمن لزم بيته، وأكل قوته واشتغل بطاعته، وبكى على خطيئته، فكان من نفسه في شغل، والناس منه في راحة. وقال سفيان: الزهد في الدنيا، هو الزهد في الناس. وقيل لراهب في صومعته: ألا تنزل؟ فقال: مَنْ مشى على وجه الأرض عثر.

والكلام في مثل هذا كثير وقد اكتفينا بهذا وصلى الله على سيدنا وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع عشر: في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه

روي عن الحسن أنه قال للحجاج: سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله ﷺ: «وقرؤا السلاطين ويحلّوهم، فإنهم عزُّ الله وظلُّه في الأرض إذا كانوا عدولاً» فقال الحجاج: ألم تكن فيهم إذا كانوا عدولاً^(١)، قال: قلت بلى. وعن عمر رضي الله عنه، قال: قلت للنبي ﷺ: أخبرني عن هذا السلطان الذي ذلت له الرقاب، وخضعت له الأجساد ما هو، قال: «ظل الله على الأرض، فإذا أحسن فله الأجر، وعليكم الشكر، وإذا أساء فعليه الإصر^(٢)»، وعليكم الصبر، وعنه عليه الصلاة والسلام: «أيا راع استرعى رعيته ولم يحطها بالأمانة والنصيحة من روائها إلا ضاقت عليه رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء» وقال مالك بن دينار رضي الله عنه: وجدت في بعض الكتب يقول الله تعالى: أنا ملك الملوك، رقاب الملوك بيدي، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، لا تشغلوا ألسنتكم بسبِّ الملوك، ولكن توبوا إلى الله يعطفهم عليكم. وقال جعفر بن محمد رحمه الله تعالى: كفارة عمل السلطان الإحسان إلى الإخوان. وقال كسرى لشيرين: ما أحسن هذا المُلْك لو دام. فقال: لو دام لأحد ما انتقل إلينا. ومر طارق الشرطي بابن شبرمة في موكبة فقال:

أراما وإنْ كَانَتْ تحبُّ فإنها سحابةٌ صيفٍ عن قليلٍ تَشُعُ^(٣)

وجلس الإسكندر يوماً فيما رفع إليه حاجة فقال: لا أعد هذا اليوم من أيام مُلْكِي. وقال الجاحظ: ليس شيء ألدّ، ولا أسر من عز الأمر والنهي، ومن الظفر بالأعداء، ومن تقليد المن أعتاق الرجال. لأن هذه الأمور تصيب الروح، وحظ الذهن، وقسمة النفس. وقيل: الملك خليفة الله في عبادته ولن يستقيم أمر خلافة مع مخالفة. وقال الحجاج: سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافها. وقال اردشير لابنه: يا بني الملك والدين أخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر، فالدين أس، والملك حارس، ومن لم يكن له أس فمهذوم، ومن لم يكن له حارس فضائع. قيل: لما دنت وفاة هرمز وامراته حامل عقد التاج على بطنها وأمر الوزراء بتبدير المملكة حتى ولد له ولد. فتملك وأغار العرب على نواحي فارس في صباه. فلما أدرك ركب وانتخب من أهل النجدة فرساناً، وأغار على العرب فانتهمهم بالقتل، ثم خلع أكتاف سبعين ألفاً، فقبل له ذو الأكتاف. وأمر العرب حيث يشاء الشعور، ولبس المصبغات وأن يسكنوا بيوت الشعر، وأن لا يركبوا الخيل إلا عراة.

(١) عدولاً: منصفون.

(٢) الإصر: اللب والغل.

(٣) تشع: تزول.

وقيل: من أخلاق الملوك حبُّ الفرد، كان أردشير إذا وضع التاج على رأسه لم يضع أحد على رأسه قضيب ربحان، وإذا لبس حلة لم يُر على أحد مثلها، وإذا تَخَتَّم بخاتم كان حراماً على أهل المملكة أن يتختموا بمثله. وكان سعيد بن العاص بمكة إذا عَتَمَ، لم يعتم أحد بمثل عمامته ما دامت على رأسه، وكان الحجاج إذا وضع على رأسه عمامة لم يجترأ أحد من خلق الله أن يدخل عليه بمثلها. وكان عبد الملك إذا لبس الخف الأصفر، لم يلبس أحد مثله حتى يتزرعه. وأخبرني مَنْ سافر إلى اليمن إنه لا يأكل الأوز بها أحد غير الملك. وقيل: من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية فَحَصَ المرضعة عن ابنها. وكان أردشير متى شاء قال لأرفع أهل مملكته وأضعهم: كان عندك في هذه الليلة كيت وكيت. حتى كان يقال يأتيه ملك من السماء وما ذاك إلا بتصححه وتيقظه. وكان علم عمر رضي الله عنه بَمَنْ نَأَى عنه، كعلمه بَمَنْ بات معه على وسادٍ واحد. ولقد اقتضى معاوية أثره. وتعرف إلى زياد رجل فقال: أتتعرف إليّ وأنا أعرف من أبيك وأمك، وأعرف هذا الثَّوَدَ الذي عليك؟ ففزع الرجل حتى ارتعد من كلامه. وعن بعض العباسيين قال: كلمت المأمون رحمه الله تعالى في امرأة خطبتها، وسألته النظر إليها فقال: يا أبا فلان من قصتها وحليتها، وفعلها وشأنها كيت وكيت فوالله ما زال يصفها ويصف أحوالها حتى أبهتني^(١).

ومما جاء في طاعة ولاة أمور الإسلام: أمر الله تعالى بذلك في كتابه العزيز على لسان نبيه الكريم فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(٢) وروينا في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما قال: بايعت رسول الله ﷺ على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والسمع والطاعة والنصح لكل مسلم. وسئل كعب الأحبار عن السلطان، فقال: ظل الله في أرضه مَنْ نصححه احتدى وَمَنْ غَشَّه ضلَّ. وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: لا تسبوا السلطان فإنه ظل الله في الأرض، به يقوم الحق، ويظهر الدين وبه يدفع الله الظلم، ويهلك الفاسقين. وقال عمر بن عبد العزيز لمؤدبه: كيف كانت طاعتي لك؟ قال: أحسن طاعة. قال: فأطعني كما كنت أطيعك خذ من شاربك حتى تبدو شفتاك، ومن ثوبك حتى تبدو عقباك^(٣). وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ أَطَاعَ أَمْرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ عَصَى أَمْرِي فَقَدْ عَصَانِي»، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ أمر بالسمع والطاعة لولي الأمر، ومناصحته ومحبة والدعاء له. ولو تبعت ذلك لطال الكلام. لكن أعلم - أرشدني الله وإياك إلى الاتباع، وجنبنا الزيغ^(٤) والابتداع - أن من قواعد الشريعة المطهرة والملة الختيفية المحررة أن طاعة الأئمة فرض على كل الرعية، وأن طاعة السلطان تؤلف شمل الدين، وتنظم أمور المسلمين. وأن عصيان السلطان يهدم أركان الملة، وأن أرفع منازل السعادة طاعة السلطان، وأن طاعته عصمة من كل فتنة، ويطاعة السلطان تقام الحدود، وتؤدَّى الفروض، وتُحَقَّقُ الدماء، وتؤمَّن السبل. وما أحسن ما قالت العلماء: إن طاعة السلطان هدى لمن استضاء بنورها، وإن الخارج عن طاعة السلطان متقطع العصمة بريء من الذمة. وإن طاعة السلطان جبل الله المتين ودينه

(١) أبهتني: أدهشني.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٩.

(٣) العقبان: مؤخر القدمين.

(٤) الزيغ: الضلال.

القويم، وإن الخروج منها خروج من أنس الطاعة، إلى وحشة المعصية، وَمَنْ غَشَّ السلطان ضَلَّ وَزَلَّ، وَمَنْ أَخْلَصَ له المحبة والنصح حل من الدين والدنيا في أرفع محل.

وإن طاعة السلطان واجبة، أمر الله تعالى بها في كتابه العظيم المنزل على نبيه الكريم، وقد اقتصرنا في ذلك على ما أوردناه واكتفينا بما بيناه ونسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا، وأن يُعيدنا من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، وأن يصلح شأننا إنه قريب مجيب، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباب الخامس عشر: فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته

أما صحبة السلطان: فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال لي أبي: يا بني إني أرى أمير المؤمنين يستخليك^(١) ويستشيرك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد ﷺ وإني أوصيك بخلاف ثلاث: لا تفشين له سراً، ولا تجرين عليه كلباً، ولا تفتابن عنده أحداً. قال الشعبي رحمه الله تعالى: قلت لابن عباس: كل واحدة منهن خير من ألف. فقال إي والله ومن عشرة آلاف. وقال بعض الحكماء: إذا زادك السلطان تأنيساً، فزده إجلالاً، وإذا جعلك أحملاً، فاجعله أباً، وإذا زادك إحساناً، فزده فعل العبد مع سيده، وإذا ابتليت بالدخول على السلطان مع الناس، فأخذوا في الثناء عليه، فعليك بالدعاء له ولا تكثر في الدعاء له عند كل كلمة فإن ذلك شبيه بالوحشة والغربة. وقال مسلم بن عمر لمن خدم السلطان: لا تغتر بالسلطان إذا أدناك، ولا تتغير منه إذا أقصاك.

وروي أن بعض الملوك استصحب حكيماً فقال له: أصبحك على ثلاث خصال: قال: وما هن؟ قال: لا تهتك لي سراً، ولا تشتم لي عرضاً، ولا تقبل في قول قاتل حتى تستشيرني. قال: هذا لك، فما ذا لي عليك؟ قال: لا أفشي لك سراً، ولا أدخر عنك نصيحة، ولا أؤثر^(٢) عليك أحداً. قال: نعمَ الصاحب للمستصحب أنت. وقال بزرجمهر: إذا خدمت ملكاً من الملوك فلا تُطعمه في معصية خالك، فإن إحسانه إليك فوق إحسان الملك، وإيقاعه بك أغلظ من إيقاعه. وقالوا: اصحب الملوك بالهيبة لهم والوقار، لأنهم إنما احتجوا عن الناس لقيام الهيبة، وإن طال أنسك بهم تردد غمماً. وقالوا: علّم السلطان، وكأنك تتعلم منه، وأشر عليه وكأنك تستشير، وإذا أحلك السلطان من نفسه بحث يسمع منك، ويتق بك، فإياك والدخول بينه وبين بطائه فإنك لا تدري متى يتغير منك، فيكونوا عوناً عليك. وإياك أن تعادي مَنْ إذا شاء أن يطرح ثيابه ويدخل مع الملك في ثيابه فعل. وفي الأمثال القديمة: احذروا زمارة المخدرة، وفيه قيل: ^(٣)

ليس الشفيعُ الذي يأتيك مَزرأً مثلَ الشفيعِ الذي يأتيك عريانا

وقال يحيى بن خالد: إذا صحبت السلطان فداره مداراة المرأة العاقلة لصحبة الزوج الأحق.

وأما ما جاء في التحذير من صحبة السلطان: فقد اتفقت حكماء العرب والعجم على النهي عن صحبة السلطان. قال في كتاب كلیلة ودمنة: ثلاثة لا يسلم عليها إلا القليل: صحبة السلطان، وإتقان النساء على الأسرار، وشرب السم على التجربة. وكان يقال: قد خاطر بنفسه مَنْ ركب البحر، وأعظم منه خطراً مَنْ صحب السلطان. وكان بعض الحكماء يقول: أحقُّ الأمور بالتَّبُّت فيها أمور السلطان، فإنَّ مَنْ صحب السلطان بغير عقل، فقد لبس شعار الغرور.

(١) يستخليك: يختلي معك.

(٢) أؤثر: أفضّل.

(٣) هذا البيت ينسب للفرزدق في غمز من ابن الزبير.

وفي حكم الهند: صحبة السلطان على ما فيها من العز والثروة عظيمة الخطر. وقيل للعتابي: لم لا تصحب السلطان على ما فيك من الأدب؟ قال: لأنني رأيت يعطي عشرة آلاف في غير شيء، ويومي من السور في غير شيء، ولا أدري لي الرجلين أكون. وقال معاوية لرجل من قريش: إياك والسلطان فإنه يغضب غضب الصبي ويطش بطش الأسد. وقال ميمون بن مهران: قال لي عمر بن عبد العزيز: يا ميمون احفظ عني أربعاً: لا تصحب السلطان، وإن أمرته بالمعروف ونهيه عن المنكر، ولا تخلو بامرأة وإن أقرأتها القرآن، ولا تصل من قطع رجمه فإنه لك أقطع، ولا تتكلم بكلام اليوم تعتذر منه غداً، وكم رأينا ويلقنا ممن صحب السلطان من أهل الفضل والعقل، والعلم والدين ليصلحه ففسد هو به فكان كما قيل:

عدوى البليد إلى الجليد سريعة والجمر يوضع في الرماد فيخمد
ومثل من صحب السلطان، ليصلحه مثل من ذهب ليقم حائطاً مائلاً، فاعتمد عليه ليقمه فخر الحائط عليه
فأهلكه، قال الشاعر:

ومعاشر السلطان شبه سفينة في البحر ترجف دائماً من خوفه
إن أدخلت من مائه في جوفها يغتالها مع مائه في جوفه

وفي كتاب كلیلة ودمنة: لا يسعد من ابتلى بصحبة الملوك، فإنهم لا عهد لهم، ولا وفاء ولا قريب ولا حميم، ولا يرغبون فيك، إلا أن يطمعوا فيما عندك فيقربوك عند ذلك، فإذا قضوا حاجاتهم منك تركوك ورفضوك. ولا ود للسلطان ولا إخاء، والذنب عنده لا يغفر. وقال الحكماء: صاحب السلطان كراكب الأسد يخافه الناس وهو لمركوبه يخوف. وقال محمد بن واسع: والله لست التراب ولقضم العظم خير من الدنو من أبواب السلاطين. وقال محمد بن السماك: الذباب على العذرة^(١) خير من العابر على أبواب الملوك. وقيل: من صحب السلطان قبل أن يتأدب فقد غرر بنفسه. وقال ابن المعتز: من شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة، وعنه: إذا زادك السلطان تأنيباً وإكراماً فزده تهيئاً واحتشاماً. وقال أبو علي الصغاني: إياك والملوك فإن من والاهم أخذوا ماله، ومن عاداهم أخذوا رأسه. وقيل: مكتوب على باب قرية من قرى بلخ اسمها بهار: أبواب الملوك تحتاج إلى ثلاثة: عقل، وصبر ومال. وتحت مكتوبة: كذب عدو الله من كان له واحد منها لم يقرب باب السلطان. وقال حسان بن ربيع الحميري: لا تتقن بالملك فإنه ملول، ولا بالمرأة فإنه خثون، ولا بالدابة فإنه شرود. وقال عبيد بن عمير: ما ازداد رجل من السلطان قرباً، إلا ازداد من الله بعداً، ولا كثرت أتباعه، إلا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله إلا كثر حسابه. وقال ابن المبارك رحمه الله:

أرى الملوك بأدنى الدين قد قنعوا ولا أراهم رؤسوا في العيش بالدون^(٢)
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما است غنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال بعضهم في ولاة بني مروان:

(١) العذرة: القنطرة من الغائط.

(٢) بالدون: بالقليل الذليل.

إذا ما قطعتم ليلكم بمُتدائمكم وأفنيتموا أيامكم بمنام
 فمن ذا الذي يغشاكم في ملمة^(١) ومن ذا الذي يغشاكم بسلام
 رضىتم من الدنيا بأيسر بُلغة بكم غلام أو بشرب مدام
 ولم تعلموا أن اللسان موكل بمدح كرام أو بسدم لثام

نهت الحكماء عن خدمة الملوك فقالوا: إن الملوك يستعظمون في الثواب ردّ الجواب، ويستغلون في العقاب ضرب الرقاب. وقيل: شر الملوك من أمته الجريء، وخافه البريء. والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير، صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السادس عشر: في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك

قال الله تعالى حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي وِزيراً مِنْ أَهْلِي﴾^(١) فلو كان السلطان يستغني عن الوزراء لكان أحق الناس بذلك كليم الله موسى بن عمران عليه السلام. ثم ذكر حكمة الوزارة فقال: ﴿اشْلُذْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِئْهُ فِي أَمْرِي﴾^(٢) دلت هذه الآية على أن الوزارة تشد قواعد المملكة، وأن يفوض إليه السلطان إذا استكملت فيه الخصال المحمودة. ثم قال: ﴿نَسْبَحُكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرُكَ كَثِيراً﴾^(٣) دلت هذه الآية على أن بصحة العلماء والصالحين وأهل الخبرة والمعرفة تتنظم أمور الدنيا والآخرة، وكما يحتاج أشجع الناس إلى السلاح، وأفره الخيل إلى السوط، وأحد الشفار^(٤) إلى المسن، كذلك يحتاج أجل الملوك وأعظمهم وأعلمهم إلى الوزير.

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان^(٥): بطانة تأمره بالمعروف وتحضه^(٦) عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمه الله. وقال وهب بن منبه: قال موسى لفرعون: آمّن ولك الجنة، ولك ملكك. قال: حتى أشاور هامان فشاورة في ذلك فقال له هامان: بينما أنت إله تُعبد، إذ صرت تعبد، فأنت واستكبر، وكان من أمره ما كان. وعلى هذا النمط كان وزير الحجاج يزيد بن مسلم لا يألوه خبالاً، ولبس القراء، شر قرين لشر خدين. وأشرف منازل الآدميين النبوة، ثم الخلافة ثم الوزارة. وفي الأمثال: نِعْمَ الظهير الوزير، وأول ما يظهر نبل السلطان، وقوة تمييزه، وجودة عقله، في انتخاب الوزراء، واستقاء جلساء ومحاذة العقلاء، فهذه ثلاث خلال تدل على كماله، وبهذه خلال يجمل في الخلق ذكره، وترسخ في النفوس عظمته، والمرء موسوم بقرينه. وكان يقال: حلية الملوك، وزيتهم وزراؤهم. وفي كتاب كلیلة ودمنة: لا يصلح السلطان إلا بالوزراء والأعوان. وقال شريح بن عبيد: لم يكن في بني إسرائيل مَلِكٌ إلا ومعه رجل حكيم، إذا رآه غضبان كتب إليه صحائف، في كل صحيفة: ارحم المسكين، واخش الموت، واذكر الآخرة. فكلما غضب الملك ناوله الحكيم صحيفة حتى يسكن غضبه. ومَثَلُ الملك الخير، والوزير السوء الذي يمنع الناس خيره ولا يمكنهم من الدنو منه، كالماء الصافي فيه التماسح، فلا يستطيع المرء دخوله، وإن كان سابحاً، وإلى الماء محتاجاً. ومَثَلُ السلطان كمَثَلِ الطبيب، ومَثَلُ الرعية كمَثَلِ المرضى، ومَثَلُ الوزير كمَثَلِ السفير بين المرضى والأطباء، فإذا كذب السفير بطل التدبير، وكما أن السفير إذا أراد أن يقتل أحداً من المرضى وصف للطبيب نقیض

(١) سورة: طه، الآية: ٢٩.

(٢) سورة: طه، الآيات: ٣١ - ٣٢.

(٣) سورة: طه، الآيات: ٣٣ - ٣٤.

(٤) أحد الشفار: حد السيف.

(٥) بطانتان: الحاشية.

(٦) تحضه: تدفعه.

دائه، فإذا سقاه الطبيب على وصفة السفير هلك المليل. كذلك الوزير ينقل إلى الملك ما ليس في الرجل فيقتله الملك، فمن ههنا شرط في الوزير أن يكون صدوقاً في لسانه، عدلاً في دينه، مأموناً في أخلاقه، بصيراً بأمور الرعية، وتكون بطانة الوزير أيضاً من أهل الأمانة والبصيرة. وليحذر الملك أن يولي الوزارة لثيماً، فاللثيم إذا ارتفع جفا أقاربه، وأنكر معارفه، واستخف بالأشراف، وتكبر على ذوي الفضل. ودخل بعض الوزراء على بعض الخلفاء، وكان الوزير من أهل العقل والأدب فوجد عنده رجلاً ذمياً كان الخليفة يميل إليه ويقربه، فقال الوزير منشداً:

يا ملكاً طاعته لازمة وجبته مفترض واجب
إن السلي شرفت من أجله يزعم هذا أنه كاذب

وأشار إلى الذمي، فأسأله يا أمير المؤمنين عن ذلك، فسأله فلم يجد بداً من أن يقول هو صادق، فاعترف بالإسلام. وكان بعض الملوك قد كتب ثلاث رقاع، وقال لوزيريه: إذا رأيتي غضبان، فادفع إلي رقعة بعد رقعة، وكان في الأولى: إنك لست بإله وأنتك ستموت وتعود إلى التراب فيأكل بعضك بعضاً، وفي الثانية: ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء. وفي الثالثة: أقضي بين الناس بحكم الله فإنهم لا يصلحهم إلا ذلك. ولما كانت أمور المملكة عائدة إلى الوزراء، وأزمة الملوك في أكف الوزراء، سبق فيهم من العقلاء المثل السائر، فقالوا: لا تفتربمودة الأمير إذا غشك الوزير، وإذا أحبك الوزير فتم ولا تخش الأمير. ومثل السلطان كالدار، والوزير بابها فمن أتى الدار من بابها ولج، ومن أتاها من غير بابها اتزعج، وموقع الوزارة من المملكة كموقع المرأة من البصرة، فكما أن من لم ينظر في المرأة لا يرى محاسن وجهه وعبويه، كذلك السلطان إذا لم يكن له وزير: لا يعلم محاسن دولته وعبوبها. ومن شروط الوزير أن يكون كثير الرحمة للخلق رؤوفاً بهم.

واعلم: أنه ليس للوزير أن يكتم عن السلطان نصيحة وإن استغلقها، وموضع الوزير من المملكة كموضع العينين من الرأس، وكما أن المرأة لا تترك وجهها إلا بصفاء جوهرها، وجودة صقلها ونقاها من الصدأ، كذلك السلطان لا يكمل أمره إلا بجودة عقل الوزير، وصحة فهمه، ونقاء قلبه. والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

الباب السابع عشر: في ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر

أما الحجاب، فقد قيل: لا شيء أضيع للمملكة، وأهلك للرعية من شدة الحجاب. وقيل: إذا سهل الحجاب أحجمت الرعية عن الظلم، وإذا عظم الحجاب هجمت على الظلم. وقال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز فقال لحاجبه: مَنْ بالباب؟ فقال: رجل أناخ^(١) ناقته الآن، يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله ﷺ فأذن له أن يدخل. فلما دخل، قال: حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ ولي شيئاً من أمور المسلمين، ثم حجب^(٢) عنه، حجه الله عنه يوم القيامة». فقال عمر لحاجبه: الزم بيتك، فما روي على بابك بعد ذلك حاجب. وكان خالد بن عبد الله القسري يقول لحاجبه: إذا أخذت مجلسي فلا تحجبني عني أحداً، فإن الوالي لا يحتجب إلا لثلاث: عيب يكره أن يطلع عليه أحد، أو رية يخاف منها أن تظهر، أو بخل يكره معه أن يسأل شيئاً. وكانت العجم تقول: لا شيء أضيع للمملكة من شدة حجاب الملك، ولا شيء أهيأ للرعية، وأكف لهم عن الظلم من سهولتهم. وقيل لبعض الحكماء: ما الجرح الذي لا يندمل^(٣)؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم، ثم يرده بغير قضائها. قيل: فما الذي هو أشد منه؟ قال: وقوف الشريف بباب الدنيء ثم لا يؤذن له. ووقف عبد الله بن العباس بن الحسن العلوي على باب المأمون يوماً، فنظر إليه الحاجب ثم أطرق. فقال عبد الله لقوم معه: إنه لو أذن لنا لدخلنا، ولو صرفنا لانتصرفنا. ولو اعتذر إلينا لقبولنا، وأما النظرة بعد النظرة والتوقف بعد التمرّف فلا أفهم معناه ثم تمثل بهذا البيت:

وما عن رضى كان الحمار مطيتي ولكنّ مَنْ يمشي سيرضى بما ركب

ثم انتصرف فبلغ ذلك المأمون فضرب الحاجب ضرباً شديداً، وأمر لعبد الله بصلة جزيلة وعشر دواب.

قال الشاعر:

رأيت أناساً يُسرعون تبادراً وإذا فتح البواب بابك إصبعاً
ونحن جلوسٌ سكاتون رزانة^(٤) وحلماً إلى أن يفتح الباب أجمعاً

ووقف رجل خراساني بباب أبي دلف العجلي حيناً فلم يؤذن له، فكتب رقعةً وتلطف في وصولها إليه وفيها:

إذا كان الكريم له حجابٌ فما قُضِلَ الكريم على اللئيم

فأجابه أبو دلف بقوله:

إذا كان الكريم قليل مالٍ ولم يعلم تعلّل بالحجاب

(١) أناخ: أبرك ناقته.

(٢) حجب: منع.

(٣) يندمل: يبرأ ويشفى.

(٤) الرزانة: الاتزان والتعقل.

وأبواب الملوك محجبات
ومن محاسن النظم في ذم الاحتجاب قول بعضهم:
سأهجركم حتى يلين حجابكم
خذوا حذرکم من صفوة الدهر إنها
وقال آخر:

لما إذا على بواب داركم الذي
لو ردتنا رداً جميلاً عنكم
وقال آخر:

أمرت بالتسهيل في الإذن لي
فلن تراني بعدها عائداً
وقال آخر:

ولقد رأيتُ بباب دارك جفوةً
ما بال دارك حين تدخل جنة
وقال آخر:

إذا جئتُ ألقى عند بابك حاجباً
ومن عجب مغناك جنة قاصد
وقال آخر:

سأترك باباً أنت تملك إذنه
فلو كنت بواب الجنان تركتها
وقال آخر:

ماذا يفيلك أن تكون محجباً
ما أنت إلا في الحصار معي فلا
وقال أبو تمام:

سأترك هذا الباب ما دام إذنه
فما خاب من لم يأتيه متعمداً
إذا لم نجد للإذن عندك موضعاً

واستأذن رجل على أمير فقال للحاجب: قال له: إن الكرى^(١) قد خطب إليّ نفسي، وإنما هي

(١) التكدير: التمكير والتشويه.

(٢) الكرى: النعاس.

هجمة^(١) وأهبط^(٢). فخرج الحاجب فقال له الرجل: ما الذي قال لك؟ قال: قال كلاماً لا أفهمه وهو يريد أن يأخذ لك. وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: إنما أمهل فرعون مع دعواه الألوهية لسهولة إفذه، وبذل طعامه. وقال عمرو بن مرة الجهني لمعاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمير يغلق بابه دون ذوي الحاجة والخلة والمسالمة إلا أغلق الله أبواب السموات دون حاجته وخلته ومسألته». وجاء النامي الشاعر لبعض الأمراء فحجبه فقال:

سأصبر إن جفوت فكم صبرنا	لمثلك من أمير أو وزير
رجوناهم فلما أخلفونا ^(٣)	تمادت فيهم غير الدهور ^(٤)
فبتا بالسلامة وهي غم	وباتوا في المحابس والقبور
ولما لم نكل منهم سروراً	رأينا فيهم كل السرور

وأنشدوا في ذلك أيضاً:

قل للذين تحجبوا عن راغب	بمازلو من دونها الحجاب
إن حال عن لقيائكم بوابكم	فالله ليس لبابه بواب

واستأذن سعد بن مالك على معاوية فحجبه، فهتف بالكاء. فأتى إليه الناس وفيهم كعب، فقال: وما ييكك يا سعد؟ فقال: وما لي لا أبكي وقد ذهب الأعلام من أصحاب رسول الله ﷺ ومعاوية يلعب بهذه الأمة. فقال كعب: لا تبك فإن في الجنة قصرًا من ذهب يقال له عدن، أهله الصديقون والشهداء، وأنا أرجو أن تكون من أهله. واستأذن بعضهم على خليفة كريم وحاجبه لثيم فحجبه فقال:

في كل يوم لي يبابك وقفة	أطوي إليه سائر الأبواب
وإذا حضرت رغبْتُ عنك فإنه	ذنبت عقوبتُهُ على البواب

وأما ذكر الولايات وما فيها من الخطر العظيم: فقد قال الله تعالى لداود عليه السلام: «يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب»^(٥) جاء في التفسير أن من اتبع الهوى أن يحضر الخصمان بين يديك فتود أن يكون الحق للذي في قلبك حبه خاصة، وبهذا سلب سليمان بن داود ملكه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الذي أصاب سليمان ابن داود عليهما السلام، أن ناساً من أهل جرادة امرأته، وكانت من أكرم نسائه عليه، تحاكموا إليه من غيرهم، فأحب أن يكون الحق لأهل جرادة فيقضي لهم، فعوقب بسبب ذلك حيث لم يكن هواه فيهم واحداً. وروي عن عبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن لا تسأل الإمامة، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها من مسألة وكلت إليها». وقال معقل بن يسار رضي الله عنه: سمعت النبي ﷺ

(١) هجمة: رقعة.

(٢) أهبط: أستيقظ.

(٣) أخلفوا: نقضوا عهودهم.

(٤) غير الدهور: تقلبات الأزمان.

(٥) سورة: ص، الآية: ٢٦.

يقول: «ما من عبد يسترعه الله رعية فلم يحطها بنصيحته، ألا لم يجد رائحة الجنة» وفي الحديث: «من ولي من أمور المسلمين شيئاً ثم لم يحطها بنصيحته كما يحوط... أهل بيته فليتبوا مقعده من النار».

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعث إلى عاصم يستعمله على الصدقة فأبى، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا كان يوم القيامة يؤتى بالوالي فيقف على جسر جهنم فيأمر الله تعالى الجسر فيتنفض انتفاضة فيزول كل عضو منه عن مكانه ثم يأمر الله تعالى بالعظام فترجع إلى أماكنها، فإن كان لله مطيعاً أخذ بيده وأعطاه كفلين من رحمته، وإن كان لله عاصياً انخرق به الجسر فهوى به في نار جهنم مقدار سبعين خريفاً» فقال عمر رضي الله عنه: سمعت من النبي ﷺ ما لم أسمع. قال: نعم. وكان سلمان وأبو ذر حاضرين فقال سلمان: إي والله يا عمر ومع السبعين سبعون خريفاً في وادٍ يلتهب التهاباً، فضرب عمر رضي الله عنه بيده على جبهته وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون مَنْ يأخذها بما فيها. فقال سلمان: مَنْ أرغم الله أنفه وألصق خده بالأرض.

وروي أبو داود في السنن قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أبي عريف على الماء، وإني أسألك أن تجعل لي العرافة من بعده. فقال النبي ﷺ: «العرافاء في النار». وروي أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة الإمام الجائر»^(١). وقالت عائشة رضي الله عنها: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يود أنه لم يقض بين اثنين في ثمرة». وقال الحسن البصري: إن النبي ﷺ دعا عبد الرحمن بن سمرة يستعمله فقال: يا رسول الله خر^(٢) لي، فقال: اقعد في بيتك. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما من أمير يؤمر على عشرة إلا جيء به يوم القيامة مغلولاً^(٣)، أنجاه عمله أو أهلكه. وقال طاوس لسليمان بن عبد الملك: هل تدري يا أمير المؤمنين من أشد الناس عذاباً يوم القيامة؟ قال سليمان: قل. فقال طاوس: أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه، فجار في حكمه. فاستلقى سليمان على سريريه وهو يبكي، فما زال يبكي حتى قام عنه جلساؤه.

وقال ابن سيرين: جاء صبيان إلى أبي عبيدة السلماني يتخيرون إليه في ألواح، فلم ينظر إليهم وقال: هذا حكم لا أتولى حكماً أبداً. وقال أبو بكر بن أبي مريم: حج قوم فمات صاحب لهم بأرض فلاة فلم يجدوا ماء فأتاهم رجل فقالوا له: دلنا على الماء، فقال: احلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يمينا أنه لم يكن صرافاً، ولا مكائناً، ولا عريفاً، وروى ولا عرافاً ولا بريداً، وأنا أدلكم على الماء فحلفوا له ثلاثاً وثلاثين يمينا كما قال فدلهم على الماء. فقالوا له: أعنا على غسله. فقال: لا، حتى تحلفوا لي ثلاثاً وثلاثين يمينا كما تقدم. فحلفوا له، فصلى عليه. ثم التفتوا فلم يجدوا أحداً فكانوا يرون أنه الخضر عليه السلام. وقال أبو ذر رضي الله عنه: قال لي رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسي وإني أراك ضعيفاً فلا تأمرن على اثنين ولا تلين»^(٤) مال يتيم».

ومن غريب ما اتفق وعجيب ما سبق، ما حكى أن ملكاً من ملوك الفرس، يقال له أردشير، وكان ذا مملكة

(١) الجائر: الظالم.

(٢) خر لي: أي اصطف لي.

(٣) مغلولاً: مقبلاً بالسلاسل والأغلال.

(٤) من ولي يلي: تولي.

متسعة، وجند كثير وكان ذا بأس شديد قد وصف له بنت ملك بحر الأردن بالجمال البارع، وأن هذه البنت بكر ذات اخدر، فسير أردشير مَنْ يخطبها من أبيها فامتنع من إجابته ولم يرض بذلك، فعظم ذلك على أردشير وأقسم الأيمان المغلظة ليغزون الملك أبا البنت وليقتله هو وابنته شر قتلة، وليمثلن بهما أحبث مثله. فسار إليه أردشير في جيوشه فقاتله فقتله أردشير وقتل سائر خواصه، ثم سأل عن ابنته المخطوبة فبرزت إليه جارية من القصر من أجمل النساء وأكمل البنات حسناً وجمالاً وقدأ واعتدلاً فبهت أردشير من رؤيته إياها فقالت له: أيها الملك إنني ابنة الملك الفلاني، ملك المدينة الفلانية، وإن الملك الذي قتله أنت قد غزا بلدنا وقتل أبي وقتل سائر أصحابه، قبل أن تقتله أنت، وأنه أسرنى في جملة الأسرى وأتى بي في هذا القصر فلما رأته ابنتي أرسلت تخطبها أحبثي وسألت أباها: أن يتركني عندها لتأنس بي، فتركني لها فكنت أنا وهي كأننا روحان في جسد واحدة، فلما أرسلت تخطبها خاف أبوها عليها منك فأرسلها إلى بعض الجزائر في البحر الملح عند أقاربه من الملوك. فقال أردشير: وددت لو أنني ظفرت بها فكنت أقتلها شر قتلة، ثم إنه تأمل الجارية فرأها فافقه في الجمال، فعالت نفسه إليها فأخذها للتسري. وقال: هذه أجنبية من الملك ولا أحنت في يميني بأخذها، ثم إنه واقعها وأزال بكارتها فحملت منه فلما ظهر عليها الحمل اتفق أنها تحدثت معه يوماً، وقد رآته منشرح الصدر فقالت له: أنت غلبت أبي وأنا غلبتك. فقال لها: ومن أبوك؟ فقالت له: هو ملك من بحر الأردن وأنا ابنته التي خطبتها منه، وإنني سمعت أنك أقسمت لتقتلني فتحييت عليك بما سمعت، والآن هذا ولدك في بطني فلا يتهاى لك قتلي. فعظم ذلك على أردشير إذ قهرته امرأة وتحيلت عليه حتى تخلصت من يديه، فانتهرها وخرج من عندها مغضباً وعول على قتلها.

ثم ذكر لوزير ما اتفق له معها، فلما رأى الوزير عزمه قوياً على قتلها خشي أن تتحدث الملوك عنه بمثل هذا، وإنه لا يقبل فيها شفاعة شافع. فقال: أيها الملك، إن الرأي هو الذي خطر لك، والمصلحة هي التي رأيته أنت، وقتل هذه الجارية في هذا الوقت أولى وهو عين الصواب، لأنه أحق من أن يقال إن امرأة قهرت رأي الملك وحتته في يمينه لأجل شهوة النفس. ثم قال: أيها الملك إن صورتها مرحومة، وحمل الملك معها وهي أولى بالستر، ولا أرى في قتلها أستر ولا أهون عليها من الغرق. قال له الملك: نعم ما رأيته، خذها وغرقها، فأخذها الوزير، ثم خرج بها ليلاً إلى بحر الأردن ومعه ضوء ورجال وأعوان، فتحيل إلى أن طرح شيئاً في البحر أوهم مَنْ كان معه أنها جارية، ثم إنه أخضاها عنده فلما أصبح جاء إلى الملك فأخبره أنه غرقها فشكره على ما فعل.

ثم إن الوزير ناول الملك حقاً^(١) مختوماً، وقال: أيها الملك، إنني نظرت مولدي فرأيت أجلي قد دنا يقتضيه حساب حكماء الفرس في النجوم، وإن لي أولاداً، وعندي مال قد ادخرته من نعمتك فخذها إذا مت إن رأيته، وهذا الحق فيه جوهر أسأل الملك أن يقسمه بين أولادي بالسوية فإنه أرثي الذي قد ورثته من أبي وليس عندي شيء اكتسبه منه إلا هذا الجواهر. فقال له الملك: يطول الرب في عمرك ومالك لك، ولأولادك سواء كنت حياً أو ميتاً. فألح عليه الوزير أن يجعل الحق عنده وديعة. فأخذ الملك وأودعه عنده في صندوق.

ثم مضت أشهر الجارية فوضعت ولداً ذكراً جميلاً مثل فلقة القمر فلاحظ الوزير جانب الأدب في تسميته، فرأى أنه إن اخترع له اسماً وسماء به وظهر لوالده بعد ذلك فيكون قد أساء الأدب، وإن هو تركه بلا اسم لم

يتبها له ذلك فسماه (شاه بور) ومعنى شاه بور بالفارسية ابن ملك، فإن شاه ملك وبور ابن، ولغتهم مبنية على تأخير المتقدم، وتقدير المتأخر وهذه تسمية ليس فيها مؤاخذه، ولم يزل الوزير يلاطف الجارية والولد إلى أن بلغ الولد حد التعليم، فعلمه كل ما يصلح لأولاد الملوك من الخط، والحكمة، والفروسية وهو يوهم أنه مملوك له اسمه شاه بور إلى أن راهق البلوغ. هذا كله وأردشير ليس له ولد وقد طعن في السن وأقعدته الهرم فمرض وأشرف على الموت، فقال للوزير: أيها الوزير قد هرم جسمي وضعفت قوتي وإني أرى أنني ميت لا محالة وهذا الملك يأخذه من بعدي من قصي له به فقال الوزير لو شاء الله أن يكون للملك ولد كان قد ولي بعده الملك، ثم ذكره بأمر بنت ملك بحر الأردن وبحملها فقال الملك: لقد ندمت على تفريقها ولو كنت أبقيتها حتى تضع فلعل حملها يكون ذكراً، فلما شاهد الوزير من الملك الرضا قال: أيها الملك إنها عندي حية ولقد وضعت ولداً ذكراً من أحسن الغلمان خلقاً وخلقاً فقال الملك: أحق ما تقول؟ فأقسم الوزير أن نعم ثم قال: أيها الملك إن في الولد روحانية تشهد بأبوة الأب، وفي الوالد روحانية تشهد ببوة الابن، لا يكاد ذلك ينخرم أبداً، وإني سأتي بهذا الغلام بين عشرين غلاماً في سنه وهيته ولباسه، وكلهم ذور آباء معروفين خلا هو، وإني سأعطي كل واحد منهم صولجاناً وكرة وأمرهم أن يلعبوا بين يديك في مجلسك هذا، ويتأمل الملك صورهم، وخلقتهم، وشمالهم فكل من مالت إليه نفسه وروحانيته فهو هو. فقال الملك: نعم التدبير الذي قلت.

فأحضرهم الوزير على هذه الصورة، ولعبوا بين يدي الملك فكان الصبي منهم إذا ضرب الكرة وقربت من مجلس الملك تمنعه الهيئة أن يقدم ليأخذها إلا شاه بور فإنه كان إذا ضربها جاءت عند مرتبة أبيه تقدم فأخذها ولا تأخذه الهيئة منه. فلاحظ أردشير ذلك منه مراراً فقال له: أيها الغلام ما اسمك؟ قال: شاه بور. فقال له: صدقت، أنت ابني حقاً ثم ضمه إليه وقبله بين عينيه. فقال له الوزير: هذا هو ابنك أيها الملك، ثم أحضر بقية الصبيان ومعهم عدول فأثبت لكل صبي منهم والداً بحضرة الملك فتحقق الصدق في ذلك. ثم جاءت الجارية وقد تضاعف حسنهما وجمالهما فقبلت يد الملك فرفض عنها. فقال الوزير: أيها الملك قد دعت الضرورة في هذا الوقت إلى إحضار الحق المختوم. فأمر الملك بإحضاره ثم أخذه الوزير، وفك ختمه وفتحته فإذا فيه ذكر الوزير وأتياه^(١) مقطوعة مصانة فيه من قبل أن يتسلم الجارية من الملك وأحضر عدولاً من الحكماء وهم الذين كانوا فعلوا به ذلك فشهدوا عند الملك بأن هذا الفعل فعلناه به من قبل أن يتسلم الجارية بليلة واحدة. قال: فدعش الملك أردشير وبهت لما أبداه هذا الوزير من قوة النفس في الخدمة، وشدة مناصحته فزاده سروره، وتضاعف فرحه لصيانة الجارية، وإثبات نسب الولد ولحوقه به. ثم إن الملك عوفي من مرضه الذي كان به، وصح جسمه. ولم يزل يتقلب في نعمه وهو سرور بابه إلى أن حضرته الوفاة ورجع الملك إلى ابنه شاه بور بعد موت أبيه، وصار ذلك الوزير يخدم ابن الملك أردشير، وشاه بور يحفظ مقامه، ويرعى منزلته حتى توفاه الله تعالى. والله تعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

الباب الثامن عشر: في القضاء، وذكر القضاة، وقبول الرشوة والهدية على الحكم وما يتعلق بالديون وذكر القصاص والمتصوفة وفيه فصول

الفصل الأول: في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم

قال الله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَفْلِسُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحَسَابِ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾^(٣) وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ حَكَمَ بَيْنَ اثْنَيْنِ تَحَاكَمَا إِلَيْهِ وَارْتَضِيَاهُ فَلَمْ يَقْضِ بَيْنَهُمَا بِالْحَقِّ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ». وعن أبي حازم قال: دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما فسلم عليه فلم يرد عليه. فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف: أخاف أن يكون وجد علي^(٤) خليفة رسول الله ﷺ. فكلّم عبد الرحمن أبا بكر فقال: أتاني، وبين يديّ خصمان قد فرغت لهما قلبي وسمعي وبصري، وعلمت أن الله سألني عنهما، وعمّا قالا وقلت. وأدعى رجل على عليّ عند عمر رضي الله عنهما وعليّ جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا الحسن قم فاجلس مع خصمك فتناظرا. وانصرف الرجل ورجع عليّ إلى مجلسه، فتيين لعمر التغير في وجه عليّ. فقال: يا أبا الحسن ما لي أراك متغيراً أكرهت ما كان؟ قال: نعم. قال: وما ذاك؟ قال: كنتي بحضرة خصمي، هلاً قلت يا عليّ قم فاجلس مع خصمك. فأخذ عمر برأس عليّ رضي الله عنهما فقبله بين عينيه ثم قال: بأيّ أنتم بكم هذان الله، وبكم أخرجنا من الظلمات إلى النور. وعن أبي حنيفة رضي الله عنه: القاضي كالغريق في البحر الأخضر إلى متى يسبح وإن كان سابحاً. وأراد عمر بن هبيرة أن يولي أبا حنيفة القضاء فأبى فحلف ليضربه بالسياط وليسجنه فضربه حتى انتفخ وجه أبي حنيفة ورأسه من الضرب. فقال: الضرب بالسياط في الدنيا أهون عليّ من الضرب بمقام^(٥) الحديد في الآخرة. وعن عبد الملك بن عمير عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكشف عن باب مغلق، فظنناه كترأ فكبتنا إلى أبي بكر رضي

(١) سورة: ص، الآية: ٢٦.

(٢) سورة: ص، الآية: ٢٢.

(٣) سورة: المائدة، الآية: ٤٧.

(٤) وجد علي: غضب.

(٥) مقام: مفرداً مقمعة: عمود تتخذ للضرب.

الله عنه فكتب إلينا: لا تحركوه حتى يقدم إليكم كتابي، ثم فتح فإذا برجل على سرير عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب، وفي يده اليمنى لوح مكتوب فيه هذان اليتان:

إذا خان الأمير وكتباه
فويل ثم ويل ثم ويل
وقاضي الأرض داهن^(١) في القضاء
لقاضي الأرض من قاضي السماء

وإذا عند رأسه سيف، أشد خضرة من البقلة مكتوب عليه: هذا سيف عاد بن إرم. عن ابن أبي أوفى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله مع القاضي ما لم يجر، فإذا جار، يرى الله منه، ولزمه الشيطان». وقال محمد بن حريث: بلغني أن نصر بن علي راودوه على القضاء بالبصرة واجتمع الناس إليه فكان لا يجيبهم، فما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره وألقى ملاءة على وجهه وقال: اللهم إن كنت تعلم أنني لهذا الأمر كاره فأقبضني إليك فقبض^(٢). وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة». وقال حفص بن غياث لرجل كان يسأله من مسائل القضاء: لعلك تريد أن تكون قاضياً لأن يدخل الرجل أصبعه في عينه فيقلعهما ويرمي بهما خير له من أن يكون قاضياً. وقيل: أول من أظهر الجور من القضاة بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري كان أمير البصرة وقاضياً فيها، وكان يقول: إن الرجلين يتقدمان إليّ، فأجد أحدهما أخف على قلبي من الآخر فأقضي له.

وتقدم المأمون بين يدي القاضي يحيى بن أكثم مع رجل ادعى عليه ثلاثين ألف دينار فطرح للمأمون مصلى يجلس عليه، فقال له يحيى: لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، ولم يكن للرجل ينة^(٣) فأراد أن يحلف المأمون، فدفع إليه المأمون ثلاثين ألف دينار وقال: والله ما دفعت لك هذا المال إلا خشية أن تقول العامة إنني تناولتك من جهة القدرة، ثم أمر ليحيى بمال وأجزل عطائه. وقدم خادم من وجوه خدم المعتضد بالله إلى أبي يوسف بن يعقوب في حكم فارتفع الخادم على خصمه في المجلس فزجره الحاجب عن ذلك فلم يقبل. فقال أبو يوسف: قم أنؤمر أن تقف بمساواة خصمك في المجلس فتمتنع يا غلام، اتني بعمر بن أبي عمرو النخاس، فإنه إن قدم عليّ الساعة أمرته ببيع هذا العبد، وحمل ثمنه إلى أمير المؤمنين. ثم أن الحاجب أخذه بيده حتى أوقفه بمساواة خصمه، فلما انقضى الحكم رجع الخادم إلى المعتضد ويكي بين يديه وأخبره بالقصة فقال له: لو باعك لأجزت بيعه ولم أردك إلى ملكي فليست منزلتك عندي تزن رتبة المساواة بين الخصمين في الحكم، فإن ذلك عمود السلطان، وقوام الأديان. والله تعالى أعلم. وقال الأبرش العكلي يمدح بعض القضاة:

رفضت وعطلت الحكومة قبله
حتى إذا قام ألف بينها
في آخرين وملها رواضها^(٤)
بالحق حتى جمعت أرواضها^(٥)

(١) داهن: جامل.

(٢) قبض: أي توفي.

(٣) ينة: دليل وبرهان.

(٤) رواضها: أي ستمها مديروها.

(٥) الأرواض: ما تفرق واختلط.

وفي ضد ذلك قول بعضهم:

أبكى وأنذب ملة الإسلام إذ صرت تقعد مقعد الحكام
إن الحوادث ما علمت كثيرة وأراك بعض حوادث الأيام^(١)

وتقدمت امرأة إلى قاض، فقال لها: جاء معك شهودك؟ فسكت. فقال كاتبه: إن القاضي يقول لك جاء شهودك معك؟ قالت: نعم هلاً قلت مثل ما قال كاتبك، كبر سنك، وقل عقلك، وعظمت لحيتك حتى غطت على لك، ما رأيت ميتاً يقضي بين الأحياء غيرك. وقيل: المضروب بهم المثل في الجهل، وتحريف الأحكام قاضي منى، وقاضي كسكر، وقاضي أيدج، وهو الذي قال فيه أبو إسحاق الصايي:

يا رب علج^(٢) أعلج مثل البعير الأهوج
رأيت مظلماً خلف باب مرتج^(٣)
وخلفه عذينة تذهب طوراً وتجي
فقلت من هذا ترى فقيل قاضي أيدج

وقاضي شلبة وهو الذي قال فيه أبو الحسن الجوهري:

رأيت رأساً كدبة ولحية كالمذبة^(٤)
فقلت من أنت قل لي فقال قاضي شلبة

وتقدمت امرأة جميلة إلى الشعبي فادعت عنده فقضى لها، هذيل الأشجمي:

فتن الشعبي لما رفح الطرف إليها
فتنه بينان كيف لو رأى معصيتها
ومثت مثيلاً رويداً ثم هزئت منكيتها
فقضى جوراً على الخصم ثم ولم يقض عليها

فتناشدها الناس وتداولوها حتى بلغت الشعبي فضرب الأشجمي ثلاثين سوطاً.

وحكى ابن أبي ليلى قال: انصرف الشعبي يوماً من مجلس القضاء ونحن معه فمررنا بخادمة تغسل الثياب وهي تقول: فتن الشعبي لما، وأعادته ولم تعرف بقية البيت فلقتها الشعبي وقال رفع الطرف إليها. ثم قال: أبعده الله أما أنا فما قضيت إلا بالحق. وأنشد بعضهم في أمين الحكم:

تساوتن إذا مثيت تخشعاً حتى تصيب وديعة لتييم

(١) حوادث الأيام: نوازلها.

(٢) العليج: الغريب.

(٣) مرتج: باب مغلق بإحكام.

(٤) المذبة: طاردة الذباب.

الفصل الثاني: في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الديون

أما الرشوة فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لعن الله الراشي والمرتشي». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تولوا اليهود، ولا النصارى فإنهم يقبلون الرشا، ولا يحل في دين الله الرشا. قال الشهيد: وأصحابنا اليوم أقبل للرشا منهم. وفي نوايغ الحكم أن البراطيل^(١) تنصر الأباطيل. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: من شفع شفاعة ليرد بها حقاً، أو يدفع بها ظلماً فأهدي له قبل، فذلك السحت^(٢) قبيح له: ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم. قال: الأخذ على الحكم كفر، وانشد المبرد رحمه الله تعالى:

وكنْتُ إذا خاصمتُ خصماً كَيْتَه^(٣) على الوجه حتى خاصمتني الدارهم
فلما تنازعنا الحكومة غلبت عليّ وقالت قُمْ فإنك ظالم

وأما الدَّيْن وما جاء فيه نعوذ بالله من غلبة الدين وقهر الرجال: فقد روي عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من دأب بدين وفي نفسه وفاؤه، ثم مات تجاوز الله عنه وأوصى غريمه بما شاء. ومن تدأب بدين وليس في نفسه وفاؤه، ثم مات اقتصر الله لغريمه منه يوم القيامة» رواه الحاكم وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بجنائز لم يسأل عن شيء من عمل الرجل، ويسأل عن دينه فإن قيل عليه دين كفَّ عن الصلاة عليه، وإن قيل ليس عليه دين صلى عليه. فأتني بجنائز فلما قام ليكبر سألت ﷺ: هل على صاحبكم من دين؟ فقالوا ديناران يا رسول الله. فعذر النبي ﷺ عنه، وقال: صلوا على صاحبكم. فقال علي كرم الله وجهه: هما عليّ يا رسول الله وهو بريء منهما. فتقدم رسول الله ﷺ فصلى عليه، ثم قال لعلي رضي الله عنه جزاك الله عنه خيراً، فك الله رهانك كما فككت رهان أخيك، أنه ليس من ميت يموت وعليه دين إلا ومرتهن بدينه، ومن فكَّ رهان ميت فك الله رهانه يوم القيامة.

وقال بعض الحكماء: الدَّيْن هم بالليل، وذلَّ بالنهار، وهو غلَّ جعله الله في أرضه، فإذا أراد الله أن يذلَّ عبداً جعله طوقاً في عنقه. وجاء سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يتقاضى ديناً له على رجل فقالوا: خرج إلى الغزو. فقال: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيى، ثم قتل لم يدخل الجنة حتى يقضي دينه» وعن الزهري قال: لم يكن رسول الله ﷺ يصلي على أحد عليه دين، ثم قال بعد، أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، من مات وعليه دين فعليّ قضاؤه ثم صلى عليهم. وعن جابر: لا همَّ إلا همُّ الدين، ولا وجعٌ إلا وجعُ العين. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ تزوج امرأة بصدق ينوي أن لا يؤديه إليها فهو زانٍ، ومن استدان ديناً أن لا يقضيه، فهو سارق». وقال حبيب بن ثابت: ما احتجت إلى شيء استرضه إلا استرضته من نفسي. أراد أنه يصبر إلى أن تمكن الميسرة. ونظيره قول القائل:

وإذا غلى شيء عليّ تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

(١) البراطيل: الرشاوى.

(٢) السحت: الحرام.

(٣) كَيْتِه: رمية على الأرض.

وقال بعضهم أيضاً:

لقد كان القريضُ سَمِيرَ قلبي فألتهني القروضُ عن القريضِ

وقال غيلان بن مرة التميمي:

إنني لأقضي الدَّيْنَ بعدما يرى طالبي بالدَّيْن أن لست قاضياً

فأجابه ثعلبة بن عمير:

إذا ما قضيت الدَّيْنَ بالدَّيْنِ لم يكن قضاءً ولكن ذاك عُزْمٌ على غرمٍ

واستقرض من الأصمعي خليل له فقال: حباً وكرامة، لكن سَكَنْ قلبي برهن يساوي ضعف ما تطلبه. فقال:

يا أبا سعيد أما تتق بي؟ قال: بلى وإن خليل الله^(١) كان واثقاً بره، وقد قال له: «ولكن ليطمئن قلبي»^(٢).

اللهم أوف عا دَيْن الدنيا بالميسرة ودَيْن الآخرة بالمغفرة برحمتك يا أرحم الراحمين.

الفصل الثالث: في ذكر القصاص، والمتصوفة وما جاء في الرياء ونحو ذلك

أما ما جاء في ذكر القصاص والمتصوفة، فقد روي عن خباب بن الارت قال: قال رسول الله ﷺ: «إن بني

إسرائيل لما قصوا هلكوا». وروي أن كعباً كان يقص فلما سمع الحديث ترك القصص. وقال ابن عمر رضي الله

عنهما: لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وإنما كان

القصص حين كانت الفتنة. وقال ابن المبارك: سألت الثوري: من الناس؟ قال: العلماء. قال: فمن الأشراف؟ قال:

المثقون. قلت: فمن الملوك؟ قال: الزهاد. قلت: من الفوغاء؟ قال: القصاص الذين يتأصلون أموال الناس

بالكلام. قلت: فمن السفهاء؟ قال: الظلمة. قيل: وهب رجل لقاض خاتماً بلا فقص. فقال: وهب الله لك في الجنة

غرفة بلا سقف. وقال قيس بن جبير النهشلي: الصعقة^(٣) التي عند القصاص من الشيطان. وقيل لعائشة رضي الله

عنها: إن أقواماً إذا سمعوا القرآن صعقوا. فقالت: القرآن أكرم وأعظم من أن تذهب منه عقول الرجال. وسئل ابن

سيرين عن أقوام يصعقون عند سماع القرآن فقال: ميعاد ما بيننا وبينهم أن يجلسوا على حائط فيقرأ عليهم القرآن من

أوله إلى آخره، فإن صعقوا فهو كما قالوا. كان يمر قاضي يكي بمواعظه فإذا أطل مجلسه بالبكاء أخرج من كمة

طنبوراً صغيراً فيحركه، ويقول مع هذا الغم الطويل يحتاج إلى فرح ساعة. وقال بعضهم: قلت لصوفي بعني جبتك.

فقال: إذا باع الصياد شبكته فبأي شيء يصيد. وسئل بعض العلماء عن المتصوفة. فقال أكلة رقص^(٤) وعظ عيسى

عليه السلام بني إسرائيل فأقبلوا يمزقون الثياب فقال: ما ذنب الثياب أقبلوا على القلوب فعاتبواها.

(١) خليل الله: سيدنا إبراهيم عليه السلام.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٦٠.

(٣) الصعقة: شدة التأثر.

(٤) رقص: كثيرون الأكل والرقص.

وأما ما جاء في الرياء، فقد قال الله تعالى: ﴿يَرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١) وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا معاذ احذر أن يرى عليك آثار المحسنين وأن تخلو من ذلك فتحشر مع المرائين». وقيل: لو أن رجلاً عمل عملاً من البر فكتمه ثم أحب أن يعلم الناس أنه كتّمه فهو من أقيح الرياء. وقيل: كل ورع يحب صاحبه أن يعلمه غير الله، فليس من الله في شيء. وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر. قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء». وقيل: بينما عابد يمشي ومعه غمامة^(٢) على رأسه تظله فجاء رجل يريد أن يستظل معه فمنعه، وقال: إن أقمت معي لم يعلم الناس أن الغمامة تظللني، فقال له الرجل: قد علم الناس أنني لست بمن تظله الغمامة فحولها الله تعالى إلى ذلك الرجل. وقال عبد الأعلى السلمي يوماً: الناس يزعمون أنني مرء، وكنت أؤمن بالله صائماً، ولا أخبرت بذلك أحداً.

اللهم أصلح فساد قلوبنا واستر فضاحتنا برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) سورة: النساء، الآية: ١٤٢.

(٢) الغمامة: السحابة.

الباب التاسع عشر: في العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك

اعلم: أرشدك الله، أن الله تعالى أمر بالعدل، ثم علم سبحانه وتعالى أنه ليس كل النفوس تصلح على العدل، بل تطلب الإحسان، وهو فوق العدل. فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾^(١). الآية فلو وسع الخلاق العدل ما قرن الله به الإحسان، والعدل ميزان الله تعالى في الأرض الذي يؤخذ به للضعيف من القوي، والمحق من المبطل. واعلم أن عدل الملك يوجب محبته، وجوره يوجب الافتراق عنه. وأفضل الأزمنة ثواباً أيام العدل وروينا من طريق أبي نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لعمل الإمام العادل في رعيته يوماً واحداً، أفضل من عمل العابد في أهله مائة عام أو خمسين عاماً» وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة». وروينا في سنن أبي داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا ترد دعوتهم، الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم تحمل على الغمام وتفتح لها أبواب السماء». وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال الكعب الأحبار: أخبرني عن جنة عدن. قال: يا أمير المؤمنين، لا يسكنها إلا نبي، أو صديق، أو شهيد، أو إمام عادل. فقال عمر: والله ما أنا نبي وقد صدقت رسول الله ﷺ، وأما الإمام العادل فإني أرجو لا أجور، وأما الشهادة فأتى لي بها. قال الحسن: فجعله الله صديقاً، شهيداً، حكماً، عدلاً. وسأل الإسكندر حكماء أهل بابل أيما أبلغ عندكم الشجاعة، أو العدل؟ قالوا: إذا استطعنا العدل، استغنيا به عن الشجاعة

ويقال: عدل السلطان أنفع من خصب الزمان. وقيل: إذا رغب السلطان^(٢) عن العدل رغب الرعية عن طاعته. وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يشكو إليه من خراب مدينته، ويسأله مالاً يرممها به. فكتب إليه عمر: قد فهمت كتابك، فإذا قرأت كتابي فحَصِّنْ مدينتك بالعدل، وتَقَّ طرقها من الظلم فإنه مرممها والسلام. ويقال إن الحاصل من خراج سواد العراق في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان مائة ألف ألف وسبعة وثلاثين ألف ألف فلم يزل يتناقص حتى صار في زمن الحجاج ثمانية عشر ألف ألف. فلما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ارتفع في السنة الأولى إلى ثلاثين ألف ألف، وفي الثانية إلى ستين ألف ألف وقيل أكثر. وقال: إن عشتُ لا بلغتُ إلى ما كان في أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فمات في تلك السنة. ومن كلام كسرى: لا ملك إلا بالجند، ولا جند إلا بالمال، ولا مال إلا بالبلاد، ولا بلاد إلا بالراعايا، ولا راعايا إلا بالعدل.

ولما مات سلمة بن سعيد كان عليه ديون الناس، ولأمر المؤمنين المنصور. فكتب المنصور لعامله: استوف لأمر المؤمنين حقه، وفرق ما بقي بين الغرماء، فلم يلتفت إلى كتابه وضرب للمنصور بسهم من المال، كما ضرب لأحد الغرماء. ثم كتب للمنصور: إني رأيت أمير المؤمنين كأحد الغرماء. فكتب إليه المنصور: مكثت الأرض بك

(١) سورة: النحل، الآية: ٩٠.

(٢) رغب السلطان: أي زهد فيه ومال عنه.

عدلاً. وكان أحمد بن طولون والي مصر متحلياً بالعدل مع تجبره، وسفكه للدماء، وكان يجلس للمظالم، وينصف المظلوم من الظالم.

حكى أن ولده العباس استدعى بمغنية، وهو يصطبح^(١) يوماً فلقيها بعض صالحي مصر ومعها غلام يحمل عوده فكسره فدخل العباس إليه وأخبره بذلك. فأمر بإحضار ذلك الرجل الصالح فلما أحضر إليه قال: أنت الذي كسرت العود؟ قال: نعم. قال: أفعلت لمن هو؟ قال: نعم هو لابنك العباس، قال: أفما أكرمت لي؟ قال: أكرمه لك بمعصية الله عز وجل، والله تعالى يقول: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٢)، ورسول الله ﷺ يقول: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». فاطرق أحمد بن طولون عند ذلك ثم قال: كل منكر تراه فغيره وأنا من ورائك. ووقف يهودي لعبد الملك بن مروان فقال: يا أمير المؤمنين إن بعض خاصتك ظلمني فانصفني منه، وأذقني حلالة العدل، فأعرض عنه. فوقف له ثانياً فلم يلتفت إليه، فوقف له مرة ثالثة وقال: يا أمير المؤمنين إنا نجد في التوراة المثلثة على كليم الله موسى صلوات الله وسلامه عليه، أن الإمام لا يكون شريكاً في ظلم أحد حتى يرفع إليه فإذا رفع إليه ذلك ولم يُزلَّه فقد شاركه في الظلم والجور. فلما سمع عبد الملك كلامه فزع وبعث في الحال إلى مَنْ ظلمه فعزله وأخذ لليهودي حقه منه.

وروي أن رجلاً من العقلاء غصبه بعض الولاة ضيمة له فأتى إلى المنصور فقال له: أصلحك الله يا أمير المؤمنين، أذكر حاجتي أم أضرب لك قبلها مثلاً. فقال: بل اضرب المثل. قال: إن الطفل الصغير إذا نابه أمر يكرهه فإنما يفرغ إلى أمه إذ لا يعرف غيرها، وظناً منه أن لا ناصر له غيرها، فإذا ترعرع واشتد كان فراره إلى أبيه، فإذا بلغ وصار رجلاً وحدث به أمر شكاه إلى الوالي لعلمه أنه أقوى من أبيه، فإذا زاد عقله شكاه إلى السلطان لعلمه أنه أقوى ممن سواه، فإن لم ينصفه السلطان شكاه إلى الله تعالى لعلمه أنه أقوى من السلطان. وقد نزلت بي نازلة، وليس أحد فوق أقوى منك إلا الله تعالى، فإن أنصفتني وإلا رفعت أمري إلى الله تعالى في الموسم فلاني متوجه إلى بيته وحرمة. فقال المنصور: بل تنصك. وأمر أن يكتب إلى واليه برده ضيمته إليه.

وكان الإسكندر يقول: يا عباد الله إنما إلهكم الله الذي في السماء نصر نوحاً بعد حين، الذي يسقيكم الغيث عند الحاجة، وإليه مفزعكم عند الكرب، والله لا يبلغني أن الله تعالى أحب شيئاً إلا أحبته واستعملته إلى يوم أجلي، ولا أبغض شيئاً إلا أبغضته وهجرته إلى يوم أجلي، وقد أنبت أن الله تعالى يحب العدل في عبادته، ويبغض الجور من بعضهم على بعض، فويل للظالم من سيفي وسوطي، ومن ظهر منه العدل من عمالي فليتكى في مجلسي كيف شاء، وليتم علي ما شاء فلن تخطئه أمنيته والله تعالى المجازي كلُّه بعمله. ويقال: إذا لم يعمر الملك ملكه بالإنصاف خرب ملكه بالعصيان.

وقيل: مات بعض الأكاسرة فوجدوا له سقطاً^(٣) ففتح، فوجد فيه حبة رمان كأكبر ما يكون من النوى معها رقعة مكتوب فيها: هذه من حب رمان عمل في خراجة بالعدل.

(١) يصطبح: يشرب خمرة الصباح.

(٢) سورة: التوبة، الآية: ٧١.

(٣) السقط: العلية.

وقيل: تظلم أهل الكوفة من واليهم فشكوه إلى المأمون فقال: ما علمت في عمالي أعدل، ولا أقول بأمر الرعية، وأعود بالرفق عليه منه. فقال رجل منهم: يا أمير المؤمنين ما أجد أولى بالعدل والإنصاف منك، فإن كان بهذه الصفة فعلى أمير المؤمنين أن يوليه بلداً بلداً. حتى يلحق كل بلد من عدله الذي لحقنا، ويأخذ بقسطه منه كما أخذنا، وإذا فعل ذلك لم يصبنا منه أكثر من ثلاث سنين. فضحك المأمون من قوله وعزله عنهم. وقدم المنصور البصرة قبل الخلافة فتزل بواصل بن عطاء وقال: بلغني أبيات عن سليم بن يزيد العدوي في العدل، فقم بنا إليه. فأشرف عليهم من غرفة فقال لواصل: مَنْ هذا الذي معك؟ قال: عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم. فقال: رحب على رحب، وقرب على قرب. فقال: إنه يحب أن يسمع أبياتك في العدل فقال: سمعاً وطاعة وأنشد يقول:

حتى متى لا نرى عدلاً نرُبه ولا نرى لولاة الحق أعوانا
مستمكين بحق قائمين به إذا تلوّن أهل الجور ألوانا
يا للرجالِ لداء لا دواء له وقائدٍ ذي عصى يقتادُ عيانا

فقال المنصور: وددت لو أني رأيت يوم عدل، ثم مت. وقيل: لما ولي عمر بن عبد العزيز أخذ في رد المظالم فابتدأ بأهل بيته فاجتمعوا إلى عمه له كان يكرمها وسألوها أن تكلمه فقال لها: إن رسول الله ﷺ سلك طريقاً، فلما قبض سلك أصحابه به ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ، فلما أفضى الأمر إلى معاوية جره يميناً وشمالاً، وأيم الله لئن مدّ في عمري لأردنّه إلى ذلك الطريق الذي سلكه رسول الله ﷺ، وأصحابه. فقالت له: يا ابن أخي إني أخاف عليك منهم يوم عصياً فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا أمتنيه الله. وقال وهب بن منبه: إذا همّ الوالي بالجور أو عمل به أدخل الله التقص في أهل مملكته في الأسواق والزروع والضروع وكل شيء، وإذا هم بالخير والعدل أو عمل به أدخل الله البركة في أهل مملكته كذلك. وقال الوليد بن هشام: إن الرعية لتصلح بصلاح الوالي، وتفسد بفساده. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن ملكاً من الملوك خرج يسير في مملكته متكرراً فتزل عل رجل له بقرة تحلب قدر ثلاث بقرات، فتعجب الملك من ذلك وحدثه نفسه بأخذها. فلما كان من الغد من حلبت له النصف مما حلبت بالأمس فقال له الملك: ما بال حلبها تقص، أرعت في غير مرعاها بالأمس؟ فقال: لا، ولكن أظن أن ملكنا وآها أو وصله خبرها فهَمَّ بأخذها فتقص لبنها، فإن الملك إذا ظلم أو همّ بالظلم ذهبت البركة. فتاب الملك وعاهد ربه في نفسه أن لا يأخذها، ولا يحسد أحداً من الرعية، فلما كان الغد حلبت كعادتها. ومن المشهور بأرض المغرب إن السلطان بلغه أن امرأة لها حديقة فيها القصب الحلوى، وإن كل قصبة منها تعصر قدحاً، فعزم الملك على أخذها منها ثم أتاها وسألها عن ذلك. فقالت: نعم ثم إنها عصرت قصبة فلم يخرج منها نصف قدح، فقال لها: أين الذي كان يقال؟ فقالت: هو الذي بلغك إلا أن يكون السلطان قد عزم على أخذها مني فارتفعت البركة منها. فتاب الملك وأخلص لله التبة وعاهد الله أن لا يأخذها منها أبداً، ثم أمرها فعصرت قصبة منها فجاءت ملء قدح.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمه الله في كتابه سراج الملوك قال: حدثني بعض الشيوخ ممن كان يروي الأخبار بمصر قال: كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أراذب ولم يكن في ذلك الزمان نخلة تحمل نصف ذلك فنصبها السلطان فلم تحمل شيئاً في ذلك العام، ولا ثمرة واحدة. وقال لي شيخ من أشياخ الصعيد: أعرف هذه

النخلة وقد شاهدها وهي تحمل عشرة أرادب ستين وية^(١)، وكان صاحبها يبيعها في سني الغلاء، وكل وية بدينار.

وحكى أيضاً رحمه الله تعالى: شهدت في الاسكندرية والصيد مطلق للرعية، السمك يطفو على الماء لكثرة، وكانت الأطفال تصيده بالخرق من جانب البحر، ثم حجرة الوالي ومنع الناس من صيده فذهب السمك حتى لا يكاد يوجد إلى يومنا هذا، وهكذا تعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكتون ضمائرهم إلى الرعية، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وروى أصحاب التواريخ في كتبهم قالوا: كان الناس إذا أصبحوا في زمان الحجاج يتساءلون إذا تلاقوا: مَنْ قتل البارحة، ومن صلب، ومن جلد، ومن قطع؟ وما أشبه ذلك. وكان الوليد بن هشام صاحب ضياع واتخاذ مصانع، فكان الناس يتساءلون في زمانه عن البنيان، والمصانع والضياع، وشق الأنهار، وغرس الأشجار. ولما ولي سليمان بن عبد الملك وكان صاحب طعام ونكاح، كان الناس يتحدثون ويتساءلون في الأطعمة الرفيعة، ويتغالون في المناكح والسراي^(٢) ويعمرون مجالسهم بذكر ذلك. ولما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان الناس يتساءلون: كم تحفظ من القرآن، وكم وردك كل ليلة، وكم يحفظ فلان، وكم يختم، وكم يصوم من الشهر؟ وما أشبه ذلك.

فينبغي للإمام أن يكون على طريقة الصحابة والسلف رضي الله عنهم ويقتدي بهم في الأقوال والأفعال فمن خالف ذلك فهو لا محال هالك. وليس فوق السلطان العادل منزلة إلا نبي مرسل أو ملك مقرب. وقد قيل إن مثله كمثل الرياح التي يرسلها الله تعالى بشراً بين يدي رحمته فيسوق بها السحاب ويجعلها لقاهاً للثمرات، وروحاً للعباد.

ولو تبعت ما جاء في العدل والانصاف وفضل الإمام العادل لألفت في ذلك مجموعاً جامعاً لهذا المعنى، ولكن اقتصرت على ما ذكرته مخافة أن يمله الناظر ويسأله السامع، وبالله التوفيق إلى أقوم طريق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) وية: ٢٤ مَد: ٤٣٢ كيلو غرام.

(٢) مفرداً السرية: الجارية التي ينكحونها.

الباب العشرون: في الظلم وشؤمه وسوء عواقبه وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾^(٢) قيل هذا تسلية للمظلوم ووعيد للظالم. وقال تعالى: ﴿إِنَّا اعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَسَيُعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَى مَغْلَبٍ يَنْغْلِبُونَ﴾^(٤) وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَشَى مَعَ ظَالِمٍ لِيَعِينَهُ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ خَرَجَ مِنَ الْإِسْلَامِ». وقال أيضاً ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا كَانَ لِأَخِيهِ قَبْلَهُ مَظْلَمَةٌ فِي عَرْضٍ أَوْ مَالٍ فَأَتَاهُ فَتَحَلَّلَهُ»^(٥) منها قيل أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ مَعَهُ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ». وقال أيضاً ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ أَوْجَبَ اللَّهُ لَهُ النَّارَ وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلَوْ كَانَ شَيْئًا يَسِيرًا؟ قَالَ: وَلَوْ كَانَ قَضِيًّا مِنْ أَرَاكَ». وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيَّ يَا أَخَا الْمُرْسَلِينَ يَا أَخَا الْمُنْتَرِينَ أَنْتَرُ قَوْمَكَ فَلَا يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بَيْتِي، وَلَا أَحَدٌ مِنْ عِبَادِي عِنْدَ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَظْلَمَةٌ، فَنَازِلِي أَلْعَنَهُ مَا دَامَ قَائِمًا يَصْلِي بَيْنَ يَدَيَّ حَتَّى يَرُدَّ تِلْكَ الظَّلَامَةَ إِلَى أَهْلِهَا فَأَكُونُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَكُونُ مِنْ أَوْلِيَائِي وَأَصْفِيَائِي، وَيَكُونُ جَارِيٍّ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّالِحِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي الْجَنَّةِ». وعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إِيَّاكَ وَدَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّمَا يَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى حَقَّهُ». وعنه ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ ظَلَمَ فَشَخْصٌ»^(٦) يبصره إِلَى السَّمَاءِ إِلَّا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِيكَ عَبْدِي حَقًّا لِأَنْصَرَنَكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ». وعنه أيضاً أنه قال: «إِلَّا إِنْ الظُّلْمُ ثَلَاثَةٌ، فَظُلْمٌ لَا يَغْفَرُ، وَظُلْمٌ لَا يَتْرَكَ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لَا يَطْلُبُ. فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَغْفَرُ فَالشُّرْكُ بِاللَّهِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ تَعَالَى. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾»^(٧) وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَتْرَكَ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأَمَّا الظُّلْمُ الْمَغْفُورُ الَّذِي لَا يَطْلُبُ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ. وَرَجُلٌ بِرَجُلٍ قَدْ صَلَبَ الْحِجَابَ فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنْ حَلَمْتُ عَلَى الظَّالِمِينَ قَدْ أَضَرْتُ بِالْمَظْلُومِينَ. فَتَمَّ تِلْكَ اللَّيْلَةُ فَرَأَى فِي مَنَامِهِ أَنَّ الْقِيَامَةَ قَدْ قَامَتْ وَكَأَنَّهُ قَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ فَرَأَى ذَلِكَ الْمَصْلُوبَ فِي أَعْلَى عَلَيْنَ، وَإِذَا مَنَادٌ يَنَادِي: حَلَمِي عَلَى الظَّالِمِينَ أَحَلَّ الْمَظْلُومِينَ فِي أَعْلَى عَلَيْنَ. وَقِيلَ: مَنْ سَلَبَ نِعْمَةً غَيْرَهُ، سَلَبَ نِعْمَتَهُ غَيْرُهُ. وَسَمِعَ مُسْلِمٌ بَنَ بِشَارَ رَجُلًا يَدْعُو عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ، فَقَالَ

(١) سورة: هود، الآية: ١٨.

(٢) سورة: إبراهيم، الآية: ٤٢.

(٣) سورة: الكهف، الآية: ٢٩.

(٤) سورة: الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٥) تحلله: جعله في حل من التزامه.

(٦) شخص: تأمل بدمعة.

(٧) سورة: النساء، الآية: ٤٨.

له: كَلِّ الظَّالِمَ إِلَى ظَلَمِهِ فَهُوَ أَسْرَعُ فِيهِ مِنْ دَعَائِكَ. ويقال: مَنْ طَالَ عَدَوَانُهُ زَالَ سُلْطَانُهُ. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم. ورؤي لوح في أفق السماء مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله وتحت هذا البيت:

فلم أرَ مثلَ العدلِ للمرءِ رافعاً ولم أرَ مثلَ الجورِ للمرءِ واضعاً

وقال الشاعر:

كنتَ الصحيحَ وكنا منك في سقم فإن سقمتَ فلإنَّ السالمون غدا
دَعَتْ عليك أكفُّ طالما ظلمت ولن تردَّ يدُ مظلومةٍ أبداً

وكان معاوية يقول: إني لأستحي أن أظلم مَنْ لا يجد عليّ ناصراً إلا الله. وقال أبو العيَّان: كان لي خصوم ظَلَمْتُ فشكلتهم إلى أحمد بن أبي دؤاد وقلت: قد تضافروا عليّ وصاروا يداً واحدة. فقال: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾^(٢) فقلت له: إن لهم مكرأ، فقال: ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾^(٣) قلت: هم فئة كثيرة. فقال: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾^(٤) وقال يوسف بن أسباط من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يُعصى الله في أرضه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم عليه السلام: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، وإن كان أخاه لأبيه وأمه». وقال مجاهد: يسلط الله على أهل النار الجرب فيحكون أجسادهم حتى تبدو العظام، فيقال لهم: هل يؤذيك هذا؟ فيقولون أي والله، فيقال لهم: هذا بما كنتم تؤذون المؤمنين. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لما كشف العذاب عن قوم يونس عليه السلام تراءوا المظالم بينهم، حتى كان الرجل ليقلع الحجر من أساسه فيرده إلى صاحبه. وقال أبو ثور بن يزيد: الحجر في البنيان من غير حله عربون على خرابه. وقال غيره: لو أن الجنة وهي دار البقاء أسست على حجر من الظلم لأوشك أن تخرب. وقال بعض الحكماء: اذكر عند الظلم عدل الله فيك، وعند القدرة قدرة الله عليك، لا يعجبك رحب الذراعين سفك الدماء فإن له قاتلاً لا يموت. وقال سحنون بن سعيد: كان يزيد بن حاتم يقول: ما هبت شيئاً قط هييتي من رجل ظلمته، وأنا أعلم أن لا ناصر له إلا الله، فيقول حسبك الله، الله بيني وبينك. وقال بلال بن مسعود: اتق الله فيمن لا ناصر له إلا بالله. ويكي علي بن الفضل يوماً فقيل له: ما ييكك؟ قال: أبكي على مَنْ ظلمني إذا وقف غداً بين يدي الله تعالى ولم تكن له حجة. وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى اشتد غضبي على مَنْ ظلم مَنْ لا يجد له ناصراً غيري». ونادى رجل سليمان بن عبد الملك وهو على المنبر: يا سليمان اذكر يوم الأذان. فنزل سليمان من على المنبر ودعا بالرجل، فقال له: ما يوم الأذان؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٥). قال: فما ظلامتك؟ قال: أرض لي مكان كذا وكذا أخذها وكيلك، فكتب إلى وكيله ادفع إليه أرضه وأرضاً مع أرضه. وروي أن كسرى أنو شروان كان له معلم حسن التأديب يعلمه حتى فاق في العلوم، فضربه المعلم يوماً من غير ذنب، فأوجعه فحدد أنو شروان عليه، فلما ولي الملك قال للمعلم: ما حملك

(١) كَلِّ: أوكله.

(٢) سورة: الفتح، الآية: ١٠.

(٣) سورة: فاطر، الآية: ٤٣.

(٤) سورة: البقرة، الآية: ٢٤٩.

(٥) سورة: الأعراف، الآية: ٤٤.

على ضربي يوم كذا وكذا ظلماً؟ فقال له: لما رأيتك ترغب في العلم، رجوت لك الملك بعد أيك فأحببت أن أذكرك طعم الظلم لئلا تظلم. فقال أنو شروان زه زه^(١). وقال محمد بن سويد وزير المأمون:

فلا تأمنن الدهر حرّاً ظلمته فما ليل حرٌّ إن ظلمت بنائم

وروي أن بعض الملوك رقم على بساطه:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم مصدّره يفضي إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم متية يدعرك عليك وعين الله لم تنم

وما أحسن ما قال الآخر:

أنهزاً بالدعاء وتزدريه وما تدري بما صنع الدعاء
سهام الليل نافلة ولكن لها أمدٌ وللامد^(٢) انقضاء
فئسكها إذا ما شاء رأيي ويرسلها إذا نفذ القضاء

وقال أبو الدرداء: إياك ودعة اليتيم، ودعوة المظلوم فإنها تسري بالليل والناس نيام. وقال الهيثم بن فراس السامي من بني سامة بن لؤي في الفضل بن مروان:

تجبرت يا فضل بن مروان فاعبر قبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مفسوا لسيولهم أبادهم الموت المثلث والقتل

يريد الفضل بن الربيع، والفضل بن يحيى، والفضل بن سعد. ووجدت تحت فراش يحيى بن خالد البرمكي رقعة مكتوب فيها:

وحق الله إن الظلم لؤم وإن الظلم مرتعة وخيم
إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

ووجد القاسم بن عبيد الله وزير المكفي في مصلاه رقعة مكتوب فيها:

بغى وللبغى سهام تنظّر أنفذ في الأحشاء من وخز الإبر
سهام أيدي القاتنين^(٣) في السحر

قال المنصور بن المعتمر لابن هبيرة حين أراد أن يولية القضاء: ما كنت لألي هذا بعدما حدثني إبراهيم. قال: وما حدثك إبراهيم؟ قال: حدثني عن علقمة عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين الظلمة، وأعوان الظلمة، وأشياع الظلمة، حتى من برى لهم قملاً أو لاق^(٤) لهم دواة فيجمعون في تابوت

(١) زه زه: لفظة استحسان ومديح.

(٢) الأمد: الغاية.

(٣) القاتنون: طائفو الله.

(٤) لاق: جعل في جوفها حبراً.

من حديد ثم يرمى بهم في نار جهنم. وروى هارون بن محمد بن عبد الملك الزيات قال: جلس أبي للمظالم يوماً فلما اتقضى المجلس رأى رجلاً جالساً، فقال له: ألك حاجة؟ قال: نعم أدنني إليك فأني مظلوم، وقد أعوزني العدل والانصاف. قال: ومن ظلمك؟ قال: أنت ولست أصل إليك، فأذكر حاجتي. قال: وما يحبك وقد ترى مجلسي مبدولاً؟ قال: يحجبني عنك هيتك، وطول لسانك، وفصاحتك. قال: فقيم ظلمتك؟ قال: في ضيعتي الفلانية أخذها وكيكك غصباً مني بغير ثمن، فإذا وجب عليها خراج أدبته باسمي لئلا يثبت لك اسم في ملكها فيبطل ملكي. فوكيكك يأخذ غلتها، وأنا أؤدي خراجها، وهذا لم يسمع بمثله في المظالم. فقال له محمد: هذا قول تحتاج معه إلى بيّنة وشهود وأشياء، فقال له الرجل: أيؤمتي الوزير من غضبه حتى أجيب. قال: نعم قد أمتك. قال: البيّنة هم الشهود، وإذا شهدوا فليس يحتاج معهم إلى شيء آخر. فما معنى قوله بيّنة وشهود وأشياء، وأي شيء هذه الأشياء، إن هي إلا الجور وعدولك عن العدل. فضحك محمد وقال: صدقت والبلاء موكل بالمنطق، وإنني لأرى فيك مصطنعاً^(١)، ثم وقع له بردٌ ضيعته، وأن يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيّره من أصحابه، فكان قبل أن يتوصل إلى الانصاف وإعادة ضيعته له يقال له: يا فلان كيف الناس فيقول: بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا يتنصر. فلما صار من أصحاب محمد بن عبد الملك وردّ عليه ضيعته وأنصفه قال له ليلة: كيف الناس الآن؟ قال: بخير قد اعتمدت معهم الإنصاف ورفعت عنهم الاجحاف، ورددت عليهم الغصب، وكشفت عنهم الكروب وأنا أرجو لهم ببقائك نيل كل مرغوب، والفوز بكل مطلوب.

ومما نقل في الآثار الإسرائيلية في زمان موسى صلوات الله وسلامه عليه أن رجلاً من ضعفاء بني إسرائيل كان له عائلة، وكان صياداً يصطاد السمك ويقوّت منه أطفاله وزوجته. فخرج يوماً للصيد فوقع في شبكة سمكة كبيرة ففرح بها، ثم أخذها ومضى إلى السوق لبيعها ويصرف ثمنها في مصالح عياله. فلقيه بعض العوانية فرأى السمكة معه فأراد أخذها منه فمنعه الصياد، فرفع العوانية خشبة كانت بيده فضرب بها رأس الصياد ضربة موجعة وأخذ السمكة منه غصباً بلا ثمن فدعا الصياد عليه وقال: إلهي جعلتني ضعيفاً، وجعلته قوياً عنيفاً، فخذ لي بحقي منه عاجلاً، فقد ظلمني ولا صبر لي إلى الآخرة.

ثم إن ذلك الغاصب الظالم انطلق بالسمكة إلى منزله وسلمها إلى زوجته وأمرها أن تشويها، فلما شوتها قدمتها له ووضعها بين يديه على المائدة ليأكل منها ففتحت السمكة فهاها ونكرته في أصبح يده نكرة طار بها عقله، وصار لا يقربها قراره. فقام وشكا إلى الطبيب ألم يده وما حل بها فلما رآها قال له: إن دواؤها أن تقطع الأصبع لئلا يسري الألم إلى بقية الكف. فقطع أصبعه فانتقل الألم والوجع إلى الكف واليد، وازداد التألم وارتعدت من خوفه فرائضه. فقال له الطبيب: ينبغي أن تقطع اليد إلى المعصم لئلا يسري الألم إلى الساعد فقطعها، فانتقل الألم إلى الساعد، فما زال هكذا كلما قطع عضواً انتقل الألم إلى العضو الآخر الذي يليه، حتى خرج هائماً مستغيثاً إلى ربه ليكشف عنه ما نزل به. فرأى شجرة فقصدها فأخذها النوم عندها فنام فرأى في منامه قاتلاً يقول: يا مسكين إلى كم تقطع أعضائك، امض إلى خصمك الذي ظلمته فارضه. فانتبه من النوم وفكر في أمر فعلم أن الذي أصابه من جهة الصياد، فدخل المدينة وسأل عن الصياد وأتى إليه فوقع بين يديه يتمرغ على رجليه وطلب منه الإقالة مما جناه، ودفع إليه شيئاً من

ماله وتاب من فعله فرضي عنه خصمه الصياد فسكن في الحال ألمه. وبات تلك الليلة، فرد الله تعالى عليه يده كما كانت. ونزل الوحي على موسى عليه السلام: يا موسى وعزتي وجلالي لولا أن ذلك الرجل أرضى خصمه لعذبته مهما امتدت به حياته.

ومما تضمنته أخبار الأخيار: ما رواه أنس رضي الله عنه قال: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قاعد إذا جاءه رجل من أهل مصر فقال: يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ^(١) بك. فقال عمر رضي الله عنه: لقد عذت بمجير فما شأنك، فقال: سأبقت بفرسي ابناً لعمر بن العاص وهو يومئذ أمير على مصر فجعل يقنعني بسوطه ويقول: أنا ابن الأكرمين، فبلغ ذلك عمر أباه فخشي أن أتيك فحبسني في السجن فانقلت منه فهذا الحين أتيتك. فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص: إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان. وقال للمصري: أقم حتى يأتيك. فأقام حتى قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضى عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلى جانبه قام المصري فرمى إليه عمر رضي الله عنه بالدرة. قال أنس رضي الله عنه: فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه فلم يتزع حتى أحببنا أن يتزع من كثرة ما ضربه وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين: قال: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت. قال: ضعها على ضلع عمرو. فقال: يا أمير المؤمنين لقد ضربت الذي ضربني: قال: أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتى تكون أنت الذي تتزع. ثم أقبل على عمرو بن العاص وقال: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. فجعل عمرو يعتذر إليه ويقول: إني لم أشعر بهذا.

وقيل لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه، وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غد. فكتبت رقعة وفتت بها في طريقه وقالت: يا أحمد، يا بن طولون: فلما رآها عرفها فترجل عن فرسه، وأخذ منها الرقعة وقرأها، فإذا فيها: ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخولتم ففسدتم، وردت إليكم الأرزاق فقطعتم. هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب أوجعتموها، وأكباد جوعتموها، وأجساد عريتوها. فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإننا صابرون، وجوروا فإننا إلى الله مستجيرون، واطلموا فإننا بالله متظلمون، «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون»^(٢). قال: فعدل لوقته.

وحكي أن الحجاج حبس رجلاً في حبسه ظلماً فكتب إليه رقعة فيها: قد مضى من بؤسنا أيام، ومن نعيمك أيام، والموعود القيامة، والسجن جهنم، والحاكم لا يحتاج إلى بيعة وكتب في آخرها.

غداً عند الإله من الظلوم
وما زال الظلوم هو الملسوم
أداموه وينقطع النعيم
وعند الله تجتمع الخصوم

ستعلم يا نؤوم إذا التينا
أما والله إن الظلم لـؤوم
سيقطع التلذذ^(٣) عن أناس
إلى دين يوم الدين نمضي

(١) العائذ: المستجير.

(٢) سورة: الشعراء، الآية: ٢٢٧.

(٣) التلذذ: التمتع باللذائذ.

وحكى أبو محمد الحسين بن محمد الصالحى قال: كنا حول سرير المعتضد بالله ذات يوم نصف النهار، فنام بعد أن أكل، فانتبه مترعجاً وقال: يا خدم. فأسرعنا الجواب فقال: ويلكم أعينوني والحقوا بالشط بأول ملاح ترونه منحدراً في سفينة فارغة فاقبضوا عليه واتنوني به، واكلوا السفينة مَنْ يحفظها. فأسرعنا فوجدنا ملاحاً في سفينة فارغة فقبضنا عليه، واكلنا بها مَنْ يحفظها، وصعدنا به إلى المعتضد. فلما رآه الملاح كاد يتلف، فصاح عليه المعتضد صيحة عظيمة كادت روحه تذهب منها وقال: أصدقني يا ملعون عن قضيتك مع المرأة التي قتلتها اليوم، وإلا ضربت عتقك، فتلعثم وقال: نعم كنت سحرراً في المشرعة الفلانية فتزلت امرأة لم أر مثلها، عليها ثياب فاخرة، وحلي كثيرة، وجواهر فطمعت فيها واحتلت عليها حتى سددت فمها وأغرقتها وأخذت جميع ما كان عليها، ثم طرحتها في الماء، ولم أجسر على خنل سلبها إلى داري لئلا يفشوا الخبر عليّ فعولت على الهرب والانحدار إلى واسط. فصبرت إلى أن خلا الشط في هذه الساعة من الملاحين وأخذت في الانحدار فتعلق بي هؤلاء القوم فحملوني إليك. فقال: وأين الحلي والسلب؟ قال: في صدر السفينة تحت البواري. قال المعتضد: عليّ به الساعة فحضروا به فأمر بتفريق الملاح، ثم أمر أن ينادي ببغداد من خرجت له امرأة إلى المشرعة الفلانية سحرراً، وعليها ثياب فاخرة، وحلي فليحضر. فحضر في اليوم الثاني ثلاثة من أهلها وأعطوا صفتها، وصفة ما كان عليها فسلم ذلك إليهم. قال: فقلت: يا مولاي مَنْ أعلمك، أو أوحى إليك بهذه الحالة، وأمر هذه الصبية؟ فقال: بل رأيت في منامي رجلاً شيخاً أبيض الرأس واللحية والثياب وهو ينادي: يا أحمد أول ملاح ينحدر الساعة فاقبض عليه وقرره^(١) على المرأة التي قتلها اليوم ظلماً، وسلبها ثيابها، وأقم عليها الحد ولا يفتك، فكان ما شاهدتم.

فيتعين على كل ولي أمر أن يعدل في الأحكام، وأن يتبصر في رعيته، وعلى كل عاقل أن يكف يده عن الظلم ويسلك سنن العدل ويعامل بالصفة ويراقب الله في السر والعلانية ويعلم أن الله يجازي على الخير والشر... ويعاقب الظالم على ظلمه، ويتنصر للمظلوم، ويأخذ له حقه ممن ظلمه، وإذا أخذ الظالم لم يفته. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وحسبنا الله ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

الباب الحادي والعشرون: في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال وسيرة السلطان في استجابة الخراج وأحكام أهل الذمة فيه فصلان

الفصل الأول: في سيرة السلطان في استجابة^(١) الخراج والإنفاق من بيت المال وسيرة العمال

قال جعفر بن يحيى: الخراج عماد الملوك وما استعزوا بمثل العدل، وما استندروا^(٢) بمثل الظلم، وأسرع الأمور في خراب البلاد، تعطيل الأرضين، وهلاك الرعية، وانكسار الخراج من الجور. ومثلُ السلطان إذا أجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الأرضين مثلُ مَنْ يقطع لحمه من الجوع. فهو إن شيع من ناحية فقد ضعف من ناحية أخرى، وما أدخل على نفسه من الضعف والوجع أعظم مما دفع عن نفسه من ألم الجوع. ومثلُ من كلف الرعية فوق طاقتهم كالذي يطين سطحه بتراب أساس بيته، وإذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الأرضين، فيتركونها فتخرب الأرض، ويهرب المزارعون، فتضعف العمارة، ويضعف الخراج، ويتج من ذلك ضعف الأجناد، وإذا ضعف الجند طمع الأعداء في السلطان.

وروي أن المأمون أرق ذات ليلة فاستدعى سميراً يحدثه فقال: يا أمير المؤمنين كان الموصل بومة، وبالبصرة بومة، فخطبت بومة الموصل بنت بومة البصرة لابنها فقالت بومة البصرة: لا أجيب خطبة ابنك حتى تجعل لي في صداق ابنتي مائة ضيعة خرية. فقالت بومة الموصل: لا أقدر عليها، لكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت ذلك. قال: فاستيقظ لها المأمون وجلس للمظالم وأنصف الناس بعضهم من بعض، وتفقّد أمور الولاة والعمال والرعية. وقال أبو الحسن بن علي الأسدي: أخبرني أبي قال: وجدت في كتاب قبطني باللغة الصعيدية مما نقل بالعربية أن مبلغ ما كان يستخرج لفرعون في زمن يوسف الصديق صلوات الله وسلامه عليه، من أموال مصر لخراج سنة واحدة من الذهب العين، أربعة وعشرون ألف ألف وأربعمائة دينار. من ذلك ما ينصرف في عمارة البلاد كحفر الخللجان، والإنفاق على الجسور، وسد الترع، وتقوية مَنْ يحتاج إلى التقوية، من غير رجوع عليه بها لإقامة العوامل والتوسعة في البلدان وغير ذلك من الآلات. وأجرة مَنْ يستعان لحمل البذر، وسائر نفقات تطبيق الأرض، ثمانمائة ألف دينار. ولما ينصرف للأرامل والأيتام، وإن كانوا غير محتاجين، حتى لا يخلوا أمثالهم من برّ فرعون، أربعمائة ألف دينار.

(١) استجابة الخراج: تحصيله.

(٢) استندروا: أنفروا.

ولما ينصرف لكهنتهم، ويوت صلاحهم، مائتا ألف دينار. ولما ينصرف في الصدقات مما يصب صبا، وينادي عليه برئت الذمة من رجل كشف وجهه لفاقة ولم يحضر، فيحضر لذلك جمع كثير ويفرق عليهم مائتا ألف دينار. فإذا فرقت الأموال على أربابها دخل أمتاء فرعون إليه وهنؤوه بتفرقة الأموال، ودعوا له بطول البقاء، ودوام المز والنعماء والسلامة وأنهم إلى حال الفقراء، فيأمر بإحضارهم وتغيير شعهم^(١) ويمد لهم السماط فيأكلون بين يديه، ويشربون ويستغهم من كل واحد منهم عن سبب فاقتة، فإن كان ذلك من آفة الزمان زاد عليه مثل الذي كان له. ولما ينصرف في نفقات فرعون الراتب في كل سنة، مائتا ألف دينار. ويفضل بعد ذلك مما يتسلمه يوسف الصديق عليه السلام للملك، ويجعله في بيت المال لنواب الزمان، أربعة عشر ألف ألف وستمئة ألف دينار.

وقال أبو رهم: كانت أرض مصر أرضاً مدبرة حتى إن الماء ليجري تحت منازلها وأفتيتها فيجسونه حيث شاؤوا ويرسلونه حيث شاؤوا، وذلك قول فرعون: «أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي»^(٢) الآية. وكان ملك مصر عظيماً لم يكن في الأرض أعظم منه ملكاً، وكانت الجنان بحافتي النيل متصلة لا يقطع منها شيء عن شيء، والزروع كذلك من أسوان إلى رشيد، وكانت أرض مصر كلها تروى من ستة عشر ذراعاً لما دبروا من جسورها، وحافاتها، والزروع ما بين الجبلين من أولها إلى آخرها وذلك قوله تعالى: «كم تركوا من جنات وهيون ووزروع ومقام كريم»^(٣).

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: استعمل فرعون هامان على حفر خليج سردوس فأخذ في حفره وتدبيره. فجعل أهل القرى يسألونه أن يجري لهم الخليج تحت قراهم ويعطوه مالاً فكان يلعب به من قرية إلى قرية من المشرق إلى المغرب، ومن الشمال إلى القبلة، ويسوقه كيف أرادوا إلى حيث قصد فليس خليج بمصر أكثر عطوفاً منه. فاجتمع له من ذلك أموال عظيمة جزيلة، فحملها إلى فرعون وأخبره بالخبر فقال له فرعون: إنه ينبغي للسيد أن يعطف على عبيده، ويفيض عليهم من خزائنه، وذخائره، ولا يرغب فيما بأيديهم. رد على أهل القرى أموالهم. فرد عليهم ما أخذهم منهم. فإذا كانت هذه سيرة من لا يعرف الله ولا يرجو لقاءه، ولا يخاف عذابه، ولا يؤمن بيوم الحساب، فكيف تكون سيرة من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ويوقن الحساب، والثواب والعقاب؟

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «اجعلني على خزائن الأرض»^(٤) قال هي خزائن مصر، ولما استوثق أمر مصر ليوسف عليه السلام وكمل وصارت الأغنياء إليه وأراد الله تعالى أن يعوضه على صبره، لما لم يرتكب محارمه، وكانت مصر أربعين فرسخاً في مثلها، وما أطاع يوسف فرعون وهو الريان بن مصعب، وناب عنه إلا بعد أن دعاه إلى الإسلام فأسلم. وكانت السنون التي حصل فيها الغلاء والجوع. مات العزيز وتملك يوسف، وافترقت زليخا وعمي بصرها فجعلت تتكفئ الناس، قليل لها: لو تعرضت للملك ربما يرحمك ويعينك ويغنيك فطالما كانت تحفظينه وتكرمينه. ثم قيل لها: لا تغعلي لأنه ربما يذكر ما كان منك إليه من المراودة والحبس فيسيء إليك ويكافئك على ما سبق منك إليه. فقالت: أنا أعلم بحلمه وكرمه. فجلست له على راية في طريقه يوم خروجه، وكان يركب في

(١) الشمت: الفرقة.

(٢) سورة: الزخرف، الآية: ٥١.

(٣) سورة: الدخان، الآيتان: ٢٥ - ٢٦.

(٤) سورة: يوسف، الآية: ٥٥.

زهة ألف من عظماء قومه وأهل مملكته. فلما أحست به قامت ونادت: سبحان مَنْ جعل الملوك عبيداً بمعصيتهم، والعبيد ملوكاً بطاعتهم. فقال يوسف عليه السلام: من أنت؟ فقالت: أنا التي كنت أخدمك بنفسِي، وأرجل شعرك بيدي، وأكرم مثواك بجهدِي، وكان مني ما كان وقد ذقت وبالِ أمري، وذعبت قوتي، وتلف مالي وعمي بصري، وصرت أسأل الناس فمنهم مَنْ يرحمني، ومنهم مَنْ لا يرحمني. وبعدما كنت مغبوة أهل مصر كلها، صرت مرحومة بل محرومة منهم وهذا جزاء المفسدين. فبكى يوسف عليه السلام بكاء شديداً وقال لها: هل في قلبك من حبك إياي شيء؟ قالت: نعم والذي اتخذ إبراهيم خليلاً لَنَظَرَةٍ إليك أحبُّ إليَّ من ملء الأرض ذهباً وفضة. فمضى يوسف وأرسل إليها يقول: إن كنت أيمناً تَرَوِجُناك، وإن كنت ذات بعل أغنيك. فقالت لرسول الملك: أنا أعرف أنه يستهزئ بي، هو لم يردني في أيام شبابي وجمالي، فكيف يقبلني وأنا عجوز عمياء فقيرة. فأمر بها يوسف عليه السلام فجهزت وتَرَوِجَ بها. وأدخلت عليه فصف يوسف عليه السلام قلميه وقام يصلي، ودعا الله تعالى باسمه العظيم الأعظم فرد الله عليها حسنهما، وجمالها، وشبابها، وبصرها كهيتها يوم راودته. فواقعها فإذا هي بكر فولدت له أفراتيم بن يوسف، ومنشا بن يوسف وطاب في الإسلام عيشهما حتى فرق الموت بينهما.

فينبغي للقوي أن لا ينسى الضعيف، وللغني أنه لا ينسى الفقير فرب مطلوب يصير طالباً، ومرغوب فيه يصير راغباً، ومسؤول يصير سائلاً، وراحم يصير مرحوماً، فنسأل الله تعالى أن يرحمنا برحمته، ويغنينا بفضله. ولما ملك يوسف عليه السلام خزائن الأرض كان يجوع ويأكل من خبز الشعير. فقيل له: أتجوع ويملك خزائن الأرض؟ فقال: أخاف أن أشبع فأنسى الجائع.

ومن حسن سيرة العمال، ما روي أن عمر رضي الله عنه استعمل على حمص رجلاً يقال له عمير بن سعد، فلما مضت السنة كتب إليه عمر رضي الله عنه أن أقدم علينا. فلم يشعر إلا وقد قدم عليه ماشياً حافياً، عكازته بيده، وإداوته^(١) ومزوده وقصعته على ظهره. فلما نظر إليه عمر قال له: يا عمير أأجبتنا أم البلاد بلاد سوء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أما هناك الله أن تجهر بالسوء، وعن سوء الظن، وقد جئت إليك بالدنيا أجرها بقرابها. فقال له: وما معك من الدنيا؟ قال: عكازة أتوكأ عليها، وأدفع بها عدواً إن لقيته، ومزود أحمل فيه طعامي، وإداوة أحمل فيها ماء لشربي ولطهوري، وقصعة أتوضأ فيها، وأغسل فيها رأسي وأكل فيها طعامي، فوالله يا أمير المؤمنين ما الدنيا بعد إلا تبع لما معي. قال: فقام عمر رضي الله عنه من مجلسه إلى قبر رسول الله ﷺ وأبى بكر رضي الله عنه فبكاء شديداً، ثم قال: اللهم ألحقني بصاحبي غير مفتضح ولا مبدل. ثم عاد إلى مجلسه فقال: ما صنعت في عملك يا عمير؟ فقال: أخذت الإبل من أهل الإبل، والجزية من أهل الذمة، عن يدي وهم صاغرون^(٢). ثم قسمتها بين الفقراء والمساكين وأبناء السبيل. فوالله يا أمير المؤمنين لو بقي عندي منها شيء لأتيتك به. فقال عمر: عُدْ إلى عملك يا عمير: قال: أنشدك يا أمير المؤمنين أن تردني إلى أهلي، فأذن له فأتى أهله، فبعث عمر رجلاً يقال له حبيب بمائة دينار وقال له اختر لي عميراً. وأنزل عليه ثلاثة أيام حتى ترى حاله، هل هو في سعة أم ضيق، فإن كان في ضيق فادفع إليه المائة، فأتاه حبيب فترل به ثلاثاً، فلم ير له عيشاً إلا الشعير والزيت. فلما مضت ثلاثة أيام قال: يا حبيب إن رأيت أن تتحول إلى

(١) الإداوة: إناة يتخذ للماء.

(٢) صاغرون: راضون بالذل.

جيراننا، فلعلهم أن يكونوا أوسع عيشاً منا، فإننا والله وتالله لو كان عندنا غير هذا لآثرناك به، قال: فدفع إليه المائة دينار، وقال: قد بعث بها أمير المؤمنين إليك فدعاً بفرو خلقاً لأمراته فجعل يصير منها الخمسة دنانير، والسته، والسبعة، ويبعث بها إلى إخوانه من الفقراء إلى أن أنفدها. فقدم حبيب على عمر وقال: جئتك يا أمير المؤمنين من عند أزهّد الناس، وما عنده من الدنيا قليل ولا كثير. فأمر له عمر بوسقين^(١) من طعام، وثوبين. فقال: يا أمير المؤمنين أما الثوبان فأقبلهما، وأما الوسقان فلا حاجة لي بهما، عند أهلي صاع من برّ هو كافيهما حتى أرجع إليهم.

وروي أن عمر رضي الله عنه صرّ أربعمائة دينار، وقال للغلام: اذهب بها إلى أبي عبيدة بن الجراح ثم تريضه عنده في البيت ساعة حتى تنظر ما يصنع بها. فذهب بها الغلام إليه وقال له: يقول لك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اجعل هذه في بعض حوائجك. قال: وصله الله ورحمه. ثم دعا بجاريته وقال لها: اذهبي بهذه السبعة إلى فلان، وبهذه الخمسة إلى فلان حتى أنفدها. فرجع الغلام إلى عمر وأخبره فوجده قد عد مثلها لمعاذ بن جبل، فقال له: انطلق بها إلى معاذ بن جبل وانظر ما يكون من أمره. فمضى إليه وقال له كما قال لأبي عبيدة بن الجراح. ففعل معاذ كما فعل أبو عبيدة. فرجع الغلام فأخبره عمر، فقال: إنهم إخوة بعضهم من بعض رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

الفصل الثاني: في أحكام أهل الذمة

روي عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبنا لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حين صالح نصارى أهل الشام. بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من نصارى مدينة كذا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائعنا وأموالنا وأهل ملتنا، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدائننا ولا فيما حوالينا كنيسة ولا ديراً ولا قلية^(٢) ولا صومعة راهب. ولا نجدد منها ولا ما كان مختطاً منها في خطط المسلمين في ليل ولا في نهار وأن نوسع أبوابها للمار وابن السبيل، وأن ننزل من مرّ بنا من المسلمين ثلاث ليال نطعمهم، ولا نؤوي في كنايسنا ولا في منازلنا جاسوساً ولا نكتمه عن المسلمين، ولا نعلم أولادنا القرآن، ولا نظهر شرعنا، ولا ندعو إليه أحداً، ولا نمنع أحداً من ذوي قراياتنا الدخول في دين الإسلام إن أراداه، وأن نوفر المسلمين، ونقوم لهم من مجالسنا إذا أرادوا الجلوس. وأن لا تشبه بالمسلمين في شيء من ملابسهم من قلنسوة، ولا عمامة ولا نعلين، ولا نتكلم كلامهم، ولا نتكنى بكنائهم، ولا نركب في السروج، ولا نتخذ بالسيوف، ولا نتخذ شيئاً من السلاح ولا نحمله معنا، ولا ننقش على خواتمنا بالعربية، ولا نبيع الخمر. وأن نجزّ مقام رؤوسنا، ونلزم زينة حيثما كنا. وأن نشد الزنار على أوساطنا، ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا في شيء من أسواق المسلمين وطرقهم، ولا نصرب بالنواقيس في كنايسنا إلا ضرباً خفيفاً، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا ولا نظهر النيران في شيء من طرق المسلمين، ولا أسواقهم، ولا نجاورهم بموتانا ولا نتخذ من الرقيق ما جرى عليه سهام المسلمين، ولا نتطلع على منازلهم. وقد شرطنا ذلك على أنفسنا وعلى أهل ملتنا وقبلنا عليه الأمان. فإن نحن خالفنا في شيء مما شرطناه لكم وضمنناه على أنفسنا فلا ذمة لنا، وقد حل بنا ما يحل بأهل المعاندة والشقاق.

(١) الوسق: حمل بعير.

(٢) القلية: الصومعة.

فكتب إليه عمر رضي الله عنه أن أمض ما سألوه وألحق فيه حرفين واشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم: أن لا يشتروا شيئاً من سبایا المسلمين، ومن ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده.

وروي أن بني ثعلبة دخلوا على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فقالوا: يا أمير المؤمنين: إنا قوم من العرب أفرض لنا. قال: نصارى؟ قالوا: نصارى. قال: ادعوا إليّ حججاً ففعلوا، فجزّ نواصيهم، وشقّ من أردبتهم حزماً يحتمون بها، وأمرهم أن لا يركبوا بالسروج، وأن يركبوا على الأكف من شق واحد.

وروي أن أمير المؤمنين الخليفة جعفر المتوكل أقصى اليهود والنصارى، ولم يستعملهم وأذلهم وأبعدهم وخالف بين زبهم، وزی المسلمين وقرب منه أهل الحق وأبعد عنه أهل الباطل، فأحيا الله به الحق، وأمات به الباطل، فهو يذكر بذلك ويترحم عليه ما دامت الدنيا.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا تستعملوا اليهود والنصارى فإنهم أهل رشا في دينهم، ولا يحل في دين الله الرشا. ولما استقدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أبا موسى الأشعري رضي الله عنه: من البصرة وكان عاملاً عليها للحساب دخل على عمر وهو في المسجد فاستأذن لكتابه، وكان نصرانياً فقال عمر: قاتلك الله - وضرب يده على فخذه - وليت ذمياً على المسلمين، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾^(١)، الآية هلا اتخذت حنيفاً. فقال: يا أمير المؤمنين، لي كتابته، وله دينه. قال: لا أكرمهم، إذا هأنهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله.

وكتب بعض العمال إلى عمر رضي الله عنه: إن العدو قد كثر، وإن الجزية قد كثرت أفستعين بالأعاجم؟ فكتب إليه: إنهم أعداء الله، وإنهم لنا غشّة^(٢) فأنزّلهم حيث أنزلهم الله. ولما خرج رسول الله ﷺ إلى بدر لحقه رجل من المشركين عند الحرة، فقال: إني أريد أن أتبعك، وأصيب معك. قال: أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا. قال: ارجع فلن نستعين بمشرك. ثم لحقه عند الشجرة فقال: جئتك لأتبعك وأصيب معك. قال: أتؤمن بالله ورسوله؟ قال: لا. قال فارجع فلن نستعين بمشرك. ثم لحقه عند ظهر البيداء فقال له مثل ذلك، فأجابه بمثل الأول فقال نعم. فخرج به وفرح المسلمون وكان له قوة وجلد. وهذا أصل عظيم في أن لا يستعان بكافر. هذا، وقد خرج ليقاتل بين يدي النبي ﷺ، ويراقد دمه فكيف استعملهم على رقاب المسلمين.

وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه إلى عماله أن لا تولوا على أعمالنا إلا أهل القرآن. فكتبوا إليه إنا قد وجدنا فيهم خيانة، فكتب إليهم إن لم يكن في أهل القرآن خير، فأجدر أن لا يكون في غيرهم.

قال أصحاب الشافعي: ويلزمهم أن يتميزوا في اللباس عن المسلمين وأن يلبسوا قلائس، يميزونها عن قلائس المسلمين بالحمرة، ويشدوا الزنانير على أوساطهم، ويكون في رقابهم خاتم من نحاس، أو رصاص، أو جرس يدخلون به الحمام، وليس لهم أن يلبسوا العمائم ولا الطليسانات^(٣). وأما المرأة فإنها تشد الزنار تحت الإزار، وقيل فوق الإزار وهو الأولى. ويكون في عنقها خاتم تدخل به الحمام. ويكون أحد خفيها أسود والآخر أبيض. ولا

(١) سورة المائدة، الآية: ٥١.

(٢) غشّة: جمع غشاش (للكثرة).

(٣) الطليسان: كساء: أخضر اختص أهل العلم والمشايخ بلبسه.

يركبون الخيل، ولا البغال ولا الحمير، إلا بالكف عرضاً، ولا يركبون بالسروج. ولا يتصدرون في المجالس، ولا يبدأون بالسلام، ويلجأون إلى أضييق الطرق ويمنعون أن يتناولوا على المسلمين في البناء وتجوز المساواة، وقيل لا تجوز. وإن تملكوا داراً عالية أقرار عليها، ويمنعون من إظهار المنكر، كالخمر، والخزير والناقوس، والجهر بالتوراة، والإنجيل. ويمنعون من المقام في أرض الحجاز، وهي مكة والمدينة واليامة، وإن امتنعوا من أداء الجزية، والتزام أحكام أهل الملة انتقض عهدهم. وإن زنى أحد منهم بمسلمة، أو أصابها بكناح، أو آوى عيناً للكفار، أو دل على عورة المسلمين، أو فتن مسلماً عن دينه، أو قتله، أو قطع عليه الطريق، تنقض ذمته. وفي تقدير الجزية اختلاف بين العلماء فمنهم من قال إنها مقدرة الأقل، والأكثر على ما كتب به عمر رضي الله عنه إلى عثمان بن حنيف بالكوفة، فوضع على الغني ثمانية وأربعين درهماً، وعلى من دون أربعة وعشرين درهماً، وعلى من دونه اثني عشر درهماً. وذلك بمحض من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ولم يخالفه أحد، وكان الصرف اثنا عشر بدينار وهذا مذهب أبي حنيفة، وأحمد بن حنبل، وأحد قولي الشافعي، ويجوز للإمام أن يزيد على ما قدره عمر، ولا يجوز أن ينقص عنه، ولا جزية على النساء والمماليك والصبيان والمجانين. وأما الكنائس فأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن تهدم كل كنيسة بعد الإسلام، ومنع أن تجدد كنيسة وأمر أن لا تظهر عليه خارجه من كنيسة، ولا يظهر صليب خارج من كنيسة إلا كسر على رأس صاحبه، وكان عروة بن محمد يهدمها بصنعاء، وهذا مذهب علماء المسلمين أجمعين وشئد في ذلك عمر بن عبد العزيز وأمر أن لا يترك في دار الإسلام بيعة، ولا كنيسة بحال قديمة ولا حديثة.

والله تعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني والعشرون: في اصطناع المعروف وإغاثة الملهوف وقضاء حوائج المسلمين وإدخال السرور عليهم

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾^(٢) وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَشَى فِي عَوْنِ أَخِيهِ وَنَفَعْتَهُ فَلَهُ ثَوَابُ الْمَجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ». وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللَّهِ، فَأَحَبُّ خَلْقِهِ إِلَيْهِ أَنْفَعُهُمْ لِعِيَالِهِ» رواه البزار، والطبراني في معجمه. ومعنى عيال الله فقراء الله تعالى وهو يعولهم.

وروينا في مسند الشهاب عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «خَيْرُ النَّاسِ أَنْفَعُهُمُ لِلنَّاسِ». وعن كثير بن عبيد بن عمر وابن عوف المزني عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ شَهِدَ خَلْقًا خَلَقَهُمْ لِقَضَاءِ حَوَائِجِ النَّاسِ أَلَى^(٣) عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يَعْذِبُهُمُ بِالنَّارِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ وَضَعْتَ لَهُمْ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَحْدُثُونَ اللَّهُ تَعَالَى وَالنَّاسُ فِي الْحَسَابِ». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَعَى لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ فِي حَاجَةِ قَضِيَّتِهِ لَهُ أَوْ لَمْ تَقْضَ غُفِرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ وَكُتِبَ لَهُ بِرَاءَتَانِ: بَرَاءَةٌ مِنَ النَّارِ، وَبَرَاءَةٌ مِنَ النِّفَاقِ». وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَضَى لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ حَاجَةً كُتِبَ وَاقِعًا عِنْدَ مِيزَانِهِ، فَإِنْ رَجَحَ، وَإِلَّا شَفَعَتْ لَهُ»، رواه أبو نعيم في الحلية.

وروينا في مكارم الأخلاق لأبي بكر الخرائطي عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَشَى فِي حَاجَةِ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ سَبْعِينَ حَسَنَةً، وَكَفَّرَ عَنْهُ سَبْعِينَ سَيِّئَةً، فَإِنْ قُضِيَتْ حَاجَتُهُ عَلَى يَدِهِ خَرَجَ مِنْ قَنْوَبِهِ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ، فَإِنْ مَاتَ فِي خِلَالِ ذَلِكَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ». وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ فَتَنَاصَحَهُ^(٤) فِيهَا جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ سَبْعَ خَنَادِقٍ، مَا بَيْنَ الْخَنَدِيقِ وَالْخَنَدِيقِ، كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». رواه أبو نعيم وابن أبي الدنيا. وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ اللَّهُ عِنْدَ أَقْوَامٍ نَعْمًا يَقرُّهَا عَنْدهُمْ مَا دَامُوا فِي حَوَائِجِ النَّاسِ مَا لَمْ يَمْلُؤُوا، فَإِذَا مَلُوا تَقَلَّهَا اللَّهُ إِلَى غَيْرِهِمْ». رواه الطبراني.

وروينا من طريق الطبراني بإسناد جيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَاسْبَغَهَا عَلَيْهِ ثُمَّ جَعَلَ حَوَائِجِ النَّاسِ إِلَيْهِ فَتَبَرَّمَ فَقَدْ عَرَضَ تِلْكَ النِّعْمَةَ لِلزَّوَالِ». وعن أنس بن مالك رضي

(١) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٧.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ٢.

(٣) ألى: عهد وأقسم.

(٤) ناصحة: أخلص له النصيحة.

الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: من أغاث ملهوفاً كتب الله له ثلاثاً وسبعين حسنة، واحدة منها يصلح بها آخرته ودينه والباقي في الدرجات» وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال... قال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما يقول الأسد في زئيره؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: يقول اللهم لا تسلطني على أحد من أهل المعروف». رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول الله أيُّ الناس أحب إليك؟ قال: أنفع الناس للناس. قيل: يا رسول الله فأَيُّ الأعمال أفضل؟ قال: ادخال السرور على المؤمن. قيل: وما سرور المؤمن؟ قال: إشباع جوعته، وتنفيس كربته، وقضاء دينه. وَمَنْ مشى مع أخيه في حاجة كان كصيام شهر واعتكافه، وَمَنْ مشى مع مظلوم بعينه ثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام، وَمَنْ كفَّ غضبه ستر الله عورته، وإن الخلق السيء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لقي أخاه المسلم بما يحب ليسره بذلك، سره الله يوم القيام». رواه الطبراني في الصغير بإسناد حسن. وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أدخل على أهل بيت من المسلمين سروراً لم يرض الله له سروراً دون الجنة». رواه الطبراني. وعن جعفر بن محمد، عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أدخل رجل على مؤمن من سرور إلا خلق الله من ذلك السرور ملكاً يعبد الله تعالى، ويوحّد. فإذا صار العبد في قبره أتاه ذلك السرور فيقول له أما تعرفني فيقول له من أنت؟ فيقول أنا السرور الذي أدخلتني على فلان، أنا اليوم أوّانس وحشتك، وألقنك حجتك، وأثبتك بالقول الثابت وأشهد مشاهدك يوم القيامة، وأشفع لك إلى ربك. وأريك منزلك في الجنة». رواه ابن أبي الدنيا.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يرفعه: إذا أراد أحدكم الحاجة فليكر لها يوم الخميس وليقرأ إذا خرج من منزله آخر سورة آل عمران، وآية الكرسي. وإذا أنزلناه في ليلة القدر، وأم الكتاب فإن فيها حوائج الدنيا والآخرة وهو حديث مرفوع.

ومن كلام الحكماء: إذا سألت كريماً حاجة فدعه يفكر، فإنه لا يفكر إلا في خير. وإذا سألت لئيماً حاجة فعالجه لئلا يشير عليه طبعه أن لا يفعل. وسأل رجل رجلاً حاجة ثم تواني عن طلبها، فقال له المسؤول: أنمت عن حاجتك؟ فقال: ما نام عن حاجته مَنْ أسهرك لها، ولا عدل بها عن محبة النجع مَنْ قصدك بها. فعجب من فصاحته، وقضى حاجته وأمر له بمال جزيل. وقال مسلمة نصيب: سئني. فقال: كفك بالمعطية أبسط من لسانى بالمسألة. فأمر له بألف دينار. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: فَوْتُ الحاجة أهونُ من طلبها إلى غير أهلها. وعنه أيضاً قال: لا تكثر على أخيك الحوائج فإن العجل إذا أفرط في مص ثدي أمه نطحته. وقال ذو الرياستين لثمامة بن أشرس: ما أدري ما أصنع بكثرة الطلاب. فقال: زل عن موضعك وعليّ أن لا يلقاك منه أحد. فقال له: صدقت. وجلس لهم في قضاء حوائجهم. وحدث أبو جعفر بن محمد بن القاسم الكرخي قال: عرضت على أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات رقعة في حاجة لي فقرأها ووضعها في يده ولم يوقع فيها بشيء، فأخذتها وقمت وأنا أقول متملاً من حيث يسمع هذين البيتين:

وإذا خطبت إلى كريم حاجةً وأبى فلا تقعدْ عليه بحاجِبِ
فلربما منعَ الكريمُ وما به بخُلٍّ ولكن سوءَ حظِّ الطالبِ

فقال: وقد سمع ما قلت، ارجع يا أبا جعفر بغير سوء حظ الطالب، ولكن إذا سألتُمونا الحاجة فعاودونا فإن

القلوب بيد الله تعالى . فأخذ الرقعة وقع فيها بما أردت . وسأل إسحاق بن ريمي بن إسحاق بن إبراهيم المصعبي أن يوصل له رقعة إلى المأمون فقال لكاتبه : ضمّها إلى رقعة فلان فقال :

تأَنَّ^(١) لحاجتي واشدُّ عُراها قد أضحت بمنزلة الضياع
إذا شاركتها بلبانٍ أخرى أضرتَّ بها مشاركة الرضاع
وقال أبو دقاقة البصري :

أضحت حوائجنا إليك مناعةً معقولةً برحائب الوصال
أطلق فديتك بالنجاح عقالها حتى تُورَّ معاً بغير عقال
وقال سلم الخاسر :

إذا أذنَّ الله في حاجةٍ أتاك النجّاح على رسله^(٢)
فلا تألَّ الناس من فضلهم ولكنَّ سأل الله من فضله
ولله درّ القائل حيث قال :

أيها المادحُ العبادَ ليعطى إن لله ما بأيدي العبادِ
فأسأل الله ما طلبتَ إليهم وارحُ فَرَضَ المقسم الجوادِ

وعن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضي الله تعالى عنهم قال : أتيت باب عمر بن عبد العزيز في حاجة فقال : إذا كانت لك حاجة إليّ فارسل إليّ رسولاً ، أو اكتب لي كتاباً ، فإني لأستحي من الله أن يراك يباني . وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : والذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً ، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في اتحداره حتى يطردها عنه كما تُطرده غريبة الإبل . وقال لجابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنهما : يا جابر من كثرت نعم الله عليه ، كثرت حوائج الناس إليه ، فإن قام بما يجب لله فيها عرضها للدوام والبقاء ، وإن لم يقم فيها بما يجب لله ، عرضها للزوال .

نعوذ بالله من زوال النعمة ، ونسأله التوفيق والعصمة ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

(١) تأَنَّ: اصبر وتمهل .

(٢) رسله: مثلاً .

الباب الثالث والعشرون: في محاسن الأخلاق ومساوئها

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١)، فخص الله تعالى نبيه ﷺ من كريم الطباع، ومحاسن الأخلاق، من الحياء، والكرم، والصفح، وحسن العهد، بما لم يؤته غيره. ثم ما أثنى الله تعالى عليه بشيء من فضائله بمثل ما أثنى عليه بحسن الخلق فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾. قالت عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن، يغضب لغضبه، ويرضى لرضاه. وكان الحسن رضي الله عنه إذا ذكر رسول الله ﷺ قال: أكرم ولد آدم على الله عز وجل، أعظم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منزلة عند الله. أتى بمفاتيح الدنيا فاختار ما عند الله تعالى، وكان يأكل على الأرض، ويجلس على الأرض، ويقول: إنما أنا عبد أكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد، ولا يأكل متكئاً، ولا على خوان، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول، وكان يأكل القثاء بالرطب، ويقول يَرُدُّ هذا يطفئ حرَّ هذا، وكان أحب الطعام إليه اللحم، ويقول هذا يزيد في السمع، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل. وكان يحب الدباء ويقول: يا عائشة إذا طبختم قدرأ فأكثرُوا فيه من الدباء^(٢)، فإنها تشد قلب الحزين. وكان يقول: إذا طبختم الدباء فأكثرُوا من مرقها، وكان يكتحل بالأنثمد^(٣) ولا يفارقه في سفره قارورة الدهن^(٤) والكحل والمرأة والمشط والإبرة يخيظ ثوبه بيده، وكان يضحك من غير قهقهة، ويرى اللعب المباح ولا ينكره، وكان يسابق أهله. قالت عائشة رضي الله عنها: سابقتة فسبته، فلما كثر لحمي سابقتة فسبقتني ففُضِرَ بكفِّي، وقال: هذه بتلك. وكان له عييد وإماء لا يرتفع على أحد منهم في مأكل ولا مشرب، ولا ملبس، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، نشأ في بلاد الجهل والصحارى يتيماً لا أب له ولا أم. فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق، وكان أفصح الناس منطقاً، وأحلامهم كلاماً، وكان يقول: أنا أفصح العرب. وقال أنس رضي الله عنه: والذي بعثه بالحق نبياً ما قال لي في شيء قط كرهه، لم فعلته؟ ولا في شيء لم أفعله لم لا فعلته؟ ولا لأمي أحد من أهله إلا قال: دعوه كان هذا بقضاء وقدر. وقال بعض مشايخنا رحمهم الله تعالى: لا مانع من أن النبي ﷺ إذا هضم نفسه وتواضع لا يمنع من المرتبة التي هي أعلى مرتبة من العبودية. فالنبي ﷺ أعطاه الله تعالى مرتبة الملك مع كونه عبداً له متواضعاً. فحاز المرتبتين: مرتبة العبودية ومرتبة الملكية. ومع ذلك كان يلبس المرقع والصوف. ويرقع ثوبه، ويخصف^(٥) نعله، ويركب الحمار بلا أكاف، ويردف خلفه. ويأكل الخشن من الطعام وما شيع قط من خبز بدة ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى. مَنْ دعا لَبَّاهُ. وَمَنْ صافحه لم يرفع يده، حتى يكون هو الذي يرفعها، يعود المريض، ويتبع الجنائز، ويجالس الفقراء، أعظم

(١) سورة: القلم، الآية: ٤.

(٢) الدباء: القزع.

(٣) بالأنثمد: حجر يكتحل به.

(٤) الدهن: أي الطيب.

(٥) يخصف النعل: يصلحه ويخرزه.

الناس من الله مخافة، وأتبعهم الله عز وجل بدنأً، وأجدهم في أمر الله لا تأخذه في الله لومة لائم، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. أما والله ما كان تغلق من دونه الأبواب، ولا كان دونه حجاب ﷺ.

وقالت عائشة رضي الله عنها، ما ضرب رسول الله ﷺ امرأة قط ولا خادماً له، ولا ضرب يده شيئاً إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خير بين أمرين إلا واختار أسيرهما، إلا أن يكون إثماً أو قطعة رحم، فيكون أبعد الناس منه. وقال إبراهيم بن عباس: لو وزنت كلمة رسول الله ﷺ بمحاسن الناس لرجعت وهي قوله عليه الصلاة والسلام: «أنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعواهم بأخلاقهم». وفي رواية أخرى فسعواهم ببسط الوجه والخلق الحسن. وعنه ﷺ: «حسن الخلق زمام من رحمة الله تعالى في أنف صاحبه، والزمام بيد الملك، والملك يجره إلى الخير، والخير يجره إلى الجنة. وسوء الخلق زمام من عذاب الله تعالى في أنف صاحبه، والزمام بيده الشيطان، والشيطان يجره إلى الشر، والشر يجره إلى النار». وقال بعض السلف: الحسن الخلق ذو قرابة عند الأجانب، والسوء الخلق اجنبي عند أهله. وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخلق، أحب إلي من أن يصحبني عابد سئء الخلق، لأن الفاجر إذ حسن خلقه خفَّ على الناس وأحبوه، والعابد إذا ساء خلقه مقتوه.

إذا رامَ التخلُّفَ جاذبُهُ ^(١) خلاقه إلى الطبع القديم

قيل: أي الله لسوء الخلق التوبة، لأنه لا يخرج من ذنب، إلا دخل في ذنب آخر لسوء خلقه، وعن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل ما بال فلان، ولكن يقول ما بال أقوام يقولون، حتى لا يفضح أحداً. وعنه ﷺ: ما شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق. وعنه أيضاً ﷺ قال: «ثلاث مَنْ كُنْ فيه، كُنْ له، مَنْ صدق لسانه زكا عمله، وَمَنْ حسنت نيته زيد في رزقه، وَمَنْ حسن بره لأهل بيته زيد له في عمره». ثم قال: وحسن الخلق، وكفَّ الأذى يزيدان في الرزق. وقيل: سوء الخلق يعدي، لأنه يدعو إلى أن يقابل بمثله. وكتب الحسن بن علي إلى أخيه الحسين رضي الله عنهم في إعطائه الشعراء. فكتب إليه الحسين أنت أعلم مني بأن خير المال ما وفي به العرض. فانظر إلى شرف أدبه، وحسن خلقه، كيف ابتدأ كتابه بأنت أعلم مني، وكان بينه وبين أخيه كلام قليل له: ادخل على أخيك، فهو أكبر منك. فقال: إني سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: أيما اثنين بينهما كلام فطلب أحدهما رضا الآخر كان سابقه إلى الجنة وأنا أكره أن أسبق أخي الأكبر إلى الجنة. فبلغ ذلك الحسن فجاء عاجلاً رضي الله عنهما وأشد في المعنى:

وإني لألقى المرة أعلم أنه عدلاً وفي أحشائه الفطن كامنُ
فأمنحه بشراً ^(٢) فبرجع قلبه سليماً وقد مائت لديه الضمائنُ

وسرق بعض حاشية جعفر بن سليمان، جوهره نفية وباعها بمال جزيل فأنفذ إلى الجوهريين بصفحتها. فقالوا: يا هذا فلان من مدة، ثم إن ذلك الرجل الذي سرقها قبض عليها وأحضر بين يدي جعفر. فلما رأى ما ظهر عليه قال له: أراك قد تغير لونك، ألسنت يوم كذا طلبت مني هذه الجوهره فوهبتها لك؟ وأقسم بالله لقد أنسيت هذا، ثم أمر للجوهري بضمناها. وقال للرجل: خلها الآن حلالاً طلياً ويعها بالثمن الذي يطيب خاطرك به، لا تبغ بيع خائف.

(١) جاذبه: شئته.

(٢) بشراً: طلاقة الوجه.

ودخل محمد بن عباد على المأمون فجعل يعممه بيده وجارية على رأسه تبسم. فقال لها المأمون: مم تضحكين؟ فقال ابن عباد: أنا أخبرك يا أمير المؤمنين؛ تتعجب من قبحي، وإكرامك إياي. فقال: لا تعجبي، فإن تحت هذه العمامة كرمًا ومجدًا قال الشاعر:

وهل ينفعُ الفتیانُ حسنُ وجوههم إذا كانت الأعراض غيرَ حسانِ
فلا تجملِ الحسنَ الدليلَ على الفتى فما كل مصقولٍ الحديدِ يمانِي

وحكي أن بهرام الملك خرج يوماً للصيد فانفراد عن أصحابه فرأى صيداً، فتبعه طامعاً في لحاقه حتى بُعد عن عسكريه، فنظر إلى راعٍ تحت شجرة فتزل عن فرسه ليول وقال للراعي: احفظ عليّ فرسي حتى أبول. فعمد الراعي إلى العنان وكان ملبساً ذهباً كثيراً، فاستغل بهرام، وأخرج سكيناً قطع أطراف اللجام، وأخذ الذهب الذي عليه، فرفع بهرام نظره إليه فرآه فغض بصره وأطرق برأسه إلى الأرض، وأطال الجلوس حتى أخذ الرجل حاجته. ثم قام بهرام فوضع يده على عينيه وقال للراعي: قدم إليّ فرسي فإنه قد دخل في عيني من ساني^(١) الريح فلا أقدر على فتحهما، فقدمه إليه فركبه وسار إلى أن وصل إلى عسكريه، فقال لصاحب مراكبه: إن أطرف اللجام قد وهبتها فلا تتهم بها أحداً.

وذكر أن أنو شروان وضع الموائد للناس في يوم نيروز وجلس ودخل وجوه أهل مملكته في الإيوان، فلما فرغوا من الطعام جاؤوا بالشراب، واحضرت الفواكه، والمشموم في آنية الذهب والفضة، فلما رفعت آنية المجلس أخذ بعض من حضر جام ذهب وزنه ألف مثقال وخبأ تحت ثيابه، وأنو شروان يراه، فلما فقهه الشرابي صاح بصوت عال: لا يخرجن أحد حتى يفتش. فقال كسرى: ولم؟ فأخبره بالقضية فقال: قد أخذه من لا يوده، ورآه من لا ينم عليه، فلا تفتش أحداً. فأخذ الرجل اللجام، ومضى، فكسره وصاغ منه منطقة وحلية لسيفه، وجلد له كسوة جميلة، فلما كان في مثل ذلك اليوم جلس الملك، ودخل ذلك الرجل بتلك الحلية فدعاه كسرى وقال له: هذا من ذاك، فقبل الأرض وقال: نعم أصلحك الله. وقال عبد الله بن طاهر: كنت عند المأمون يوماً فنادى بالخادم. يا غلام، فلم يجبه أحد. ثم نادى ثانياً وصاح: يا غلام، فدخل غلام تركي وهو يقول ما ينبغي للغلام أن يأكل ويشرب، كلما خرجنا من عندك تصيح يا غلام يا غلام إليّ، كم يا غلام، فنكس المأمون رأسه طويلاً فما شككت أنه يأمرني بضرب عنقه، ثم نظر إليّ، فقال: يا عبد الله إن الرجل إذا حسنت أخلاقه، سامت أخلاق خدمه، وإذا سامت أخلاقه، حسنت أخلاق خدمه، وإنا لا نستطيع أن نسيء أخلاقنا لتحسن أخلاق خدمنا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ورد علينا الوليد بن عتبة بن أبي سفيان المدينة والياً وكان وجهه ورقة من ورق المصصف، فوالله ما ترك فينا فقيراً، إلا أغناه، ولا مديوناً إلا أدى عنه دينه، وكان ينظر إلينا بعين أرق من الماء، ويكلمنا بكلام أحلى من الجنى^(٢)، ولقد شهدت منه مشهداً لو كان معاوية لذكرته. تغدينا يوماً عنده فأقبل الفرائش بصحنه فعر في وسادة فوقمت الصفحة من يده، فوالله ما ردها إلا ذفن الوليد وانكب جميع ما فيها في حجره. فبقي الغلام متمثلاً واقعاً ما معه من روحه إلا ما يقيم رجله، فقام الوليد فدخل فغير ثيابه، وأقبل علينا تبرق أسارير جبهته، فأقبل على الفرائش، وقال: يا بائس ما أراتنا إلا

(١) ساني: غبارها.

(٢) الجنى: ما يجتى من الثمار.

روعتاك^(١) اذهب فانت وأولادك أحرار لوجه الله تعالى. ومرض أحمد بن أبي داود فعاده المعتصم وقال: نذرت إن عافاك الله تعالى أن أتصدق بعشرة آلاف دينار. فقال له أحمد: يا أمير المؤمنين فاجعلها في أهل الحرمين فقد لقوا من غلاء الأسعار شدة. فقال: نويت أن أتصدق بها على من ههنا، وأطلق أهل الحرمين مثلها، فقال أحمد: متع الله الإسلام وأهله بك يا أمير المؤمنين، فإنك كما قال النعماني لأبيك الرشيد رحمة الله تعالى عليه:

إن المكارم والمعروف أودية أحلك الله منها حيث تجتمع
من لم يكن بأمين الله معتصماً فليس بالصلوات الخمس يتعصم

وقيل للأخف بن قيس: ممن تعلمت حسن الخلق؟ فقال من قيس بن عاصم: بينما هو ذات يوم جالس في دلوه إذا جاءت خادماً له بسفود^(٢) عليه شواء حار، فترعت السفود من اللحم وألقته خلف ظهرها فوقع على ابن له فقتله لوقته فدهشت الجارية فقال: لا روع عليك، أنت حرة لوجه الله تعالى. وكان ابن عمر رضي الله عنه إذا رأى أحداً من عبيده يحسن صلاته يعتقه فعرّفوا ذلك من خلقه، فكانوا يحسنون الصلاة مراعاة له فكان يعتقهم. فقيل له في ذلك، قال: مَنْ خدعنا في الله انخدعنا له. وروي أن أبا عثمان الزاهد اجتاز ببعض الشوارع في وقت الهاجرة^(٣) فألقى عليه من فوق سطح طست رماد فتغير أصحابه وسطروا ألسنتهم في الملقى للرماد. فقال أبو عثمان: لا تقولوا شيئاً فإن من استحق أن يصب عليه النار، وصولح بالرماد، لم يجز له أن يغضب. وقيل لإبراهيم بن أدهم تغمدته الله تعالى برحمته: هل فرحت في الدنيا قط؟ فقال: نعم مرتين؛ إحداهما أنني كنت قاعداً ذات يوم فجاء إنسان فبال غلي، والثاني كنت جالساً فجاء إنسان فصفعني. وروي أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه دعا غلاماً له فلم يجبه فدعاه ثانياً وثالثاً فرآه مضطجماً فقال: أما تسمع يا غلام؟ قال نعم. قال: فما حملك على ترك جوابي؟ قال: أمنت عقوبتك فتكاسلت. قال: اذهب فانت حر لوجه الله تعالى.

وحكي أن أبا عثمان الحيري دعاه إنسان إلى ضيافة فلما وافى باب الدار قال له الرجل: يا أستاذ ليس لي وجه في دخولك فانصرف رحمك الله. فانصرف أبو عثمان، فلما وافى منزله عاد الرجل إليه، وقال: يا أستاذ ندمت، وأخذ يعتذر له، وقال احضر الساعة فقام معه فلما وافى داره قال له مثل ما قال في الأولى. ثم فعل به ذلك أربع مرات، وأبو عثمان ينصرف ويحضر ثم قال له: يا أستاذ إنما أردت بذلك اختبارك والوقوف على أخلاقك، ثم جعل يعتذر له ويمدحه. فقال أبو عثمان: لا تمدحني على خلق تجده في الكلاب فإن الكلب إذا دعي حضر وإذا زجر انزجر. وقال الحرث بن قصي: يعجبني من القراء كل فصيح مضحك^(٤)، فأما الذي تلقاه ببشر، ويلقاك بوجه عبوس، فلا كثر الله في المسلمين مثله.

ومن محاسن الأخلاق، ما حكى عن القاضي يحيى بن أكثم قال: كنت نائماً ذات ليلة عند المأمون فغطش، ففتحت أن يصيح بغلام يسقيه وأنا نائم فينقص عليّ نومي، فرأيت وقد قام يمشي على أطراف أصابعه حتى أتى موضع

(١) روعتاك: أفزعناك.

(٢) بسفود: الحليطة يشوى بها.

(٣) الهاجرة: منتصف النهار.

(٤) مضحك: كثير الضحك.

الماء وبينه وبين المكان الذي فيه الكيزان، نحو من ثلاثمائة خطوة. فأخذ منها كوزاً فشرب، ثم رجع يمشي على أطراف أصابعه حتى قرب من الفراش الذي أنا عليه فخطا خطوات خائفٍ لئلا ينهني حتى صار إلى فراشه. ثم رأته آخر الليل قام بيول وكان يقوم في أول الليل وآخره فقعده طويلاً يحاول أن أتحرك فيصيح بالغلام، فلما تحركت وثب قائماً وصاح: يا غلام تأهب للصلاة، ثم جاءني فقال لي: كيف أصبحت يا أبا محمد، وكيف كان ميئك؟ قلت: خير ميئت جعلني الله فداك يا أمير المؤمنين. قال: لقد استيقظت للصلاة فكرهت أن أصبح بالغلام فأزعجك. فقلت: يا أمير المؤمنين قد خصك الله تعالى بأخلاق الأنبياء، وأحب لك سيرتهم فهناك الله بهذه النعمة وأتمها عليك. فأمر لي بألف دينار فأخذتها وانصرفت. قال: ويت عنده ذات ليلة فاتبه وقد عرض له السعال فجعلت أرمقه^(١) وهو يحشو فمه بكم قميصه يدفع به السعال حتى غلبه فسل، وأكب على الأرض لئلا يعلو صوته فاتبه. قال يحيى: وكنت معه يوماً في بستان ندور فيه، فجعلنا نمرُّ بالريحان فيأخذ منه الطاقة والطاقتين ويقول لقيَم البستان أصلح هذا الحوض، ولا تغرس في هذا الحوض شيئاً من البقول. قال يحيى: ومشينا في البستان من أوله إلى آخره وكنت أنا مما يلي الشمس والمأمون مما يلي الظل، فكان يجلبني أن أتحوّل أنا في الظل، ويكون هو في الشمس فأمتنع حتى بلغنا آخر البستان، فلما رجعنا قال: يا يحيى والله لتكونن في مكاني، ولأكونن في مكانك، حتى أخذ نصيبي من الشمس كما أخذت نصيبك، وتأخذ نصيبك من الظل كما أخذت نصيبي. فقلت: يا أمير المؤمنين لو قدرت أن أريك يوم الهول بنفسي لفعلت. فلم يزل بي حتى تحولت إلى الظل، وتحول هو إلى الشمس، ووضع يده على عاتقي، وقال: بحياتي عليك إلا ما وضعت يدك على عاتقي مثل ما فعلت أنا فإنه لا خير في صحبة من لا ينصف.

فانظرْ إلى أخلاقهم رضي الله تعالى عنهم ما أحسنها وإلى أفعالهم ما أزينها. نسأل الله تعالى أن يحسن أخلاقنا وأن يبارك لنا في أرزاقنا إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع والعشرون: في حسن المعاشرة والمودة، والأخوة، والزيارة وما أشبه ذلك

أعلم أن المودة والأخوة والزيارة سبب التآلف، والتآلف سبب القوة، والقوة سبب التقوى، والتقوى حصن منيع، وركن شديد، بها يمنع الضيم^(١)، وتنال الرغائب، وتنجح المقاصد. وقد منّ الله تعالى على قوم وذكرهم نعمته عليهم بأن جمع قلوبهم على الصفاء، وردّها بعد الفرقة إلى الألفة والإخاء فقال تعالى: ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذا كنتم أعداء فألفَ بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾^(٢)، ووصف نعيم الجنة وما أعد فيها لأوليائه من الكرامة إذا جلعهم إخواناً على سرر متقابلين، وقد سنّ رسول الله ﷺ الإخاء، وندب^(٣) إليه، وآخى بين الصحابة رضي الله عنهم أجمعين. وقد ذكر الله تعالى أهل جهنم وما يلقون فيها من الألم، إذا يقولون ﴿فما لنا من شافعين * ولا صديق حميم﴾^(٤) وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه: الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين، وأنشدوا في ذلك:

وما المرء إلا بإخوانه كما يقبض الكف بالمعصم
ولا خير في الكف مقطوعة ولا خير في الساعد الأجلم^(٥)

وقال زياد: خير ما اكتسب المرء الإخوان، فإنهم معونة على حوادث الزمان، ونوابه الحدثن وعون في السراء والضراء^(٦). ومن كلام علي رضي الله عنه وكرم وجهه:

عليك بإخوان الصفاء فإنهم عماد إذا استجذبتهم وظهور
وإن قليلاً ألف خل وصاحب وإن عُادوا واحداً لكثير

وقال الأوزاعي: الصاحب للصاحب كالرقعة في الثوب، إن لم تكن مثله شاته. وقال عبد الله بن طاهر: المال غاد ورائح، والسلطان ظل زائل، والإخوان كنوز وافرة. وقال المأمون للحسن بن سهل: نظرت في اللذات فوجدتها كلها مملولة سوى سبعة. قال: وما السبعة يا أمير المؤمنين؟ قال: خبز الحنطة، ولحم الغنم، والماء البارد، والثوب الناعم، والرائحة الطيبة، والفراش الوطيء، والنظر إلى الحسن من كل شيء. قال: فأين أنت يا أمير المؤمنين من محادثة الرجال؟ قال: صدقت وهي أولاهن. وقال سليمان بن عبد الملك: أكلت الطيب، ولبست اللين، وركبت

(١) الضيم: الظلم.

(٢) سورة: آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٣) ندب: دعا له.

(٤) سورة: الشعراء، الآيتان: ١٠٠ - ١٠١.

(٥) الأجلم: المقطوع جزء منه.

(٦) الضراء: الضرر والحاجة.

الفاره، وافترضت العذراء فلم يبق من لذاتي إلا صديق أطرح معه مونة التحفظ. وكذلك قال معاوية رضي الله عنه: نكحت النساء حتى ما أفرق بين امرأة وحائط، وأكلت الطعام حتى لا أجد ما أستمرؤه^(١) وشربت الأشرية حتى رجعت إلى الماء، وركبت المطايا، حتى اخترت نعلي، ولبست الثياب حتى اخترت البياض فما بقي من اللذات ما تنوق إليه نفسي إلا محادثة أخ كريم. وأنشدوا في معنى ذلك:

وما بقيت من اللذات إلا محادثة الرجال ذوي العقول
وقد كنا نملهم قليلاً فقد صاروا أقل من القليل

وقال ليدي:

ما عاتب المرأة الليب كفيرو والمرء يصلحه الجليس الصالح^(٢)

وقال آخر:

إذا ما آتت من صاحب لك زلة فكُنْ أنت محالاً لزلته علماً

وقيل لأبن السماك: أي الإخوان أحق ببقاء المودة. قال: الوافر دينه، الوافي عقله، الذي لا يملك على القرب، ولا ينسك على البعد، إن دنوت منه ذنأك، وإن بعدت عنه راعاك، وإن استعت به عضدك وإن احتجت إليه رفدك، وتكون مودة فعله أكثر من مودة قوله: وأنشدوا في المعنى:

إن أخاك الصديق من يسعى معك ومن يضر نفسه ليضعفك
ومن إذا رب الزمان صدحك شئت فيك شملته ليجمعك

وقال غيره:

وليس أخي من ودني بلسانيه ولكن أخي من ودني وهو غائب
ومن ماله مالي إذا كنت معدماً ومالي له إن أحوزته النوائب

وقال أبو تمام:

من لي بإنسان إذا اغضبته وجهلت كان الحلم رد جوابه
وإذا صبوت إلى المدام شريت من أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراءه يضحني للحديث بطرفه ويقلبني ولعلله أدري به

وقيل لخالد بن صفوان: أي أخوانك أحب إليك. قال: الذي يسد خلتي، ويفر زلتي، ويقبل عثرتي. وقيل: من لا يؤاخي إلا من لا عيب فيه قل صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بإيثاره على نفسه دام سخطه ومن عاتب على كل ذنب، ضاع عتبه وكثر تعبه قال الشاعر:

(١) أستمرؤه: استسيفه وطيب لي أكله.

(٢) الرواية المشهورة للبيت. ما عاتب الحر الكريم كفضه.

وَمَنْ لَمْ يَفْخُضْ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ
وعن بعضي ما فيه يُمُتُّ وهو عاتبُ
وقال آخر^(١):

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِباً
صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الْيَوْمَ تَعَاتِبُهُ
وإن أنتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَاراً عَلَى الْقُدَى
ظَلَمْتَ وَإِجَى النَّاسِ تَصِفُو مِثَارَهُ

وقالوا: إذا رأيت من أخيك أمراً تكرهه، أو خلة لا تحبها، فلا تقطع حبله ولا تعصم^(٢) وده، ولكن داو كلمته، واستر عورته وابقه وابراً من عمله. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٣)، فلم يأمره بقطعهم وإنما أمره بالبراءة من عملهم السيئ. وقال عليه السلام: «الأرواح أجناد مجتدة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف». وقال عليه الصلاة والسلام: «إن روحي المؤمنين ليلتحيان من مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه». وفي ذلك قال بعضهم:

هَوِّنْكُمْ بِالسَّنْعِ قَبْلَ لِقَائِكُمْ
وَسَنِّعُ الْفَتَى يَهْوِي لِعَمْرِي كَطْرِفِهِ
وَجَبُرْتُ عَنْكُمْ كُلَّ جَوْدٍ وَرَفْعَةٍ
فَلَمَّا التَقِينَا كَتَمْتُ فَوْقَ وَصْفِهِ
وقال آخر:

تَبَسُّمُ الثَّفَرِ عَنْ أَوْصَافِكُمْ فَعَدَا
مِنْ طَيْبِ ذِكْرِكُمْ نَشْراً فَأَحْيَانَا
فَمِنْ هُنَاكَ عَشَقْنَاكُمْ، وَلَمْ نَرَكُمْ
وَالْأَذُنُ تَعَشَّقُ قَبْلَ الْعَيْنِ أَحْيَاناً

ما تحاب اثنان في الله إلا كان أفضلهما عند الله أشدهما حباً لصاحبه. ما زار أخ أخاً في الله شوقاً إليه، ورغبة في لقائه، إلا نادته ملائكة من روائه طبت وطابت لك الجنة. وقالوا: ليس سرور يعدل لقاء الإخوان، ولا غم يعدل فراقهم، وقالوا: شر الإخوان الواصل في الرخاء الخاذل عند الشدة. وقالوا: إن من الوفاء أن تكون لصديقك صديقاً، ولعدو صديقك عدواً. وقالوا: أعجب الأشياء ودُّ من يهودي، وحفظ من نصراني، ورياضة من دهر^(٤) وكرم من أعجمي، والحذر من الكريم إذا أمته، واللثيم إذا أكرمه، والعاقل إذا أخرجته، والأحمق إذا مازحته، والفاجر إذا عاشرته. وقالوا: اصحب من الإخوان، مَنْ أَوْلَاكَ جَمَائِلَ كَثِيرَةً فَكَافَاتُهُ بِجَمِيلَةٍ وَاحِدَةٍ فَنَسِيَ جَمَائِلَهُ، وَبَقِيَ شَاكِراً نَاشِراً لَجَمِيلَتِكَ، يُولِيكَ عَلَيْهَا الْإِحْسَانَ الْكَثِيرَ الْجَزِيلَ، وَيَجْعَلُ أَنَّهُ مَا بَلَغَ مِنْ مَكَافَاتِكَ الْقَلِيلَ. وقال ابن عائشة: لقاء الخليل، شفاء الغليل. وقال بعض الحكماء: إذا وقع بصرك على شخص فكرهته فاحذر جهلك. قال عبد الله بن طاهر:

خَلِيلِي لِلْبُغْضَاءِ حَالٌ مِينَةٌ
وَاللَّحِبِّ أَكْثَارٌ تُرَى وَمَعَارِفُ
فَمَا تُتَكَبَّرُ الْعَيْنَانِ فَالْقَلْبُ مُنْكَرٌ
وَمَا تَعْرِفُ الْعَيْنَانِ فَالْقَلْبُ عَارِفٌ

(١) تنب هذه الآيات لبشار بن برد.

(٢) صرم: قطع.

(٣) سورة: الشعراء، الآية: ٢١٦.

(٤) دهرى هنا: معمر، طويل العمر.

وقال آخر:

وكنْتُ إذا الصديقُ أراد غيظي وشَرُّتني على ظمأً بريقي^(١)
غفرتُ ذنوبَهُ وكظننتُ غيظي مخافةً أن أعيثَ بلا صديقي

وقال آخر:

وليس فتى الفتيان من جلَّ همهِ صبحُ وإن أمسى ففضل غبوق^(٢)
ولكن فتى الفتيان من راح أو غدا لضرِّ عدوٍّ أو لنفع صديقي

وأما آداب المعاشرة فالبشاشة، والبشر، وحسن الخلق، والأدب. فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من أخلاق النبيين والصديقين البشاشة إذا تراءوا، والمصافحة إذا تلاقوا». كان القعقاع بن شور الهذلي إذا جالس رجل يجعل له نصيباً من ماله، ويعينه على حوائجه، ودخل يوماً على معاوية فأمر له بألف دينار، وكان هناك رجل قد فسح له في المجلس فدفعها للذي فسح له فقال:

وكنْتُ جليساً قعقاعَ بن شورٍ وما يشقى بقعقاع جليساً
ضحوكُ السنِّ إن نطقوا بخيرٍ وعندَ الشرِّ مطراق^(٣) عبوس

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لجليسي علي ثلاث: أن أرمقه بطرفي إذا أقبل، وأوسع له إذا جلس، وأصفي له إذا حدث. ويقال: لكل شيء محل، ومحل العقل مجالسة الناس، ومثل الجليس الحسن كالعطار إن لم يصبك من عطره أصابك من رائحته. ومثل الجليس السوء مثل الكبريت إن لم يحرق ثوبك يناره أذاك بدخانه. وكانت تحية العرب: صبحتك الأنعمة، وطيب الأظعمة. وتقول أيضاً: صبحتك الأفالاح وكل طير صالح. ووصف المأمون ثمانية بحسن المعاشرة فقال: إنه يتصرف مع القلوب تصرف السحاب مع الجنوب^(٤). وقيل: أول ما يتعين على الجليس الإنصاف في المجالسة بأن يلاحظ بعين الأدب مكانه من مكان جليسه، فيكون كل منهما في محله.

وقال ﷺ: «هو العلم والسلطان أحق بشرف المنزل». وقال جعفر الصادق رضي الله عنه. إذا دخلت منزل أخيك فاقبل كرامته كلها ما عدا الجلوس في الصدر. وينبغي للإنسان أن لا يقبل بحديثه على من لا يقبل عليه. فقد قيل: إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع، ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله، ولا يتدع كلاماً لا يليق بالمجلس، فقد قيل: لكل مقام مقال. وغير القول ما وافق الحال. وأوجبوا على المستمع أنه إذا ورد عليه من المتكلم ما كان مر بسمعه أولاً أن لا يقطع عليه مما يقوله، بل يسكت إلى أن يستوعب منه القول، وعدوا ذلك من باب الأدب، ولعله إذا صبر وسكت استفاد من ذلك زيادة فائدة لم تكن في حفظه. وقيل: ثمانية إذا أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم: الجالس في مجلس ليس له بأهل، والمقبل بحديثه على من لا يسمعه، والداخل بين اثنين في حديثهما ولم يدخله فيه،

(١) أشرقه بريقه: أزمه الحجة وتغلب عليه.

(٢) الصبح والغبوق: من أسماء أزمته شرب الخمر.

(٣) مطراق: كثير الإطراق والضحك.

(٤) السحاب مع الجنوب: الريح الآتية من الجنوب.

والمتمرض لما لا يعنيه، والمتأمر على رب البيت في بيته، والآتي إلى مائدة بلا دعوة، وطالب الخير من أعدائه، والمستخف بقدر السلطان.

ويتعين على الجليس أن يراعي الفاظه، ويكون على حذر أن يعثر لسانه خصوصاً إذا كان جليس ذا هبة، فقد قيل: رُبَّ كلمةٍ سلبت نعمة. وقال أبو العباس السفاح: ما رأيت أغزر من فكر أبي بكر الهذلي لم يعد عليّ حديثاً قط. وقيل إن أبا العباس كان يحدثه يوماً إذ عصفت الريح فأرمت طستاً من سطح إلى المجلس فارتاع من حضر، ولم يتحرك الهذلي، ولم تزل عينه مطابقة لعين السفاح، فقال: ما أعجب شأنك يا هذلي. فقال إن الله يقول: ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه﴾^(١) وإنما لي قلب واحد، فلما غمره النور بمحادثة أمير المؤمنين لم يكن فيه لحادث مجال، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء^(٢) ما أحسست بها، ولا وجمت لها. فقال السفاح: لئن بقيت لك لأرفعن مكانك، ثم أمر له بمال جزيل، وصلة كبيرة. وكان ابن خارجة يقول: ما غلبني أحد قط غلبة رجل يصني إلى حديثي. وفي نواحي الحكم: أكرم حديث أخيك بانصاتك، وصُتْهُ من وصمة الثقاتك. وقيل: من حق الملك إذا تناب أو ألقى المروحة من يده أو مد رجله أو تمطى أو اتكا، أو فعل ما يدل على كسله أن يقوم مَنْ بحضرته. وكان أردشير إذا تمطى قام سماره. ومن حق الملك أن لا يعاد عليه حديث، وإن طال الدهر. قال روح بن زنباع: أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة فما أعدت عليه حديثاً إلا مرة واحدة، فقال لي: قد سمعته منك. وعن الشعبي قال: ما حدثت بحديث مرتين رجلاً بعينه. وقال عطاء بن أبي رباح: إن الرجل ليحدثني بالحديث فأنصت له كأنني لم أسمع قط وقد سمعت به من قبل أن يولد.

وقيل بالمودة طلاقة الوجه والتودد إلى الناس. وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: إن المسلمَيْن إذا التيا فضحك كل واحد منهما في وجه صاحبه ثم أخذ بيده تحاتت^(٣) ذنوبهما كحات ورق الشجر. وقيل: البشر يدل على السخاء كما يدل النور على الثمر. وقيل: من السنة إذا حدثت القوم أن لا تقبل على واحد منهم ولكن اجعل لكل واحد منهم نصيباً. وقالوا: إذا أردت حسن المعاشرة فالتق عدوك وصديقك بالطلاقة، ووجه الرضا والبشاشة، ولا تنظر في عطفك، ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات. وإذا جلست فلا تتكبر على أحد، وتحفظ من تشيك أصابعك، ومن العبث بلحيتك، ومن اللعب بغاتمك، وتخليل أسنانك، وإدخال أصبعك في أنفك، وكثرة بصاقتك، وكثرة التمطي والتثاوب في وجوه الناس وفي الصلاة، وليكن مجلسك هادئاً وحديثك منظوماً مرتباً، واصنع إلى كلام مجالسك. واسكت عن المضاحك، ولا تصنع تصنع المرأة في التزين. ولا تلح في الحاجات. ولا تشجع أحداً على الظلم، ولا تهازل أمتك ولا عبيدك فيسقط وقارك عندهما. وإذا خاصمت فانصف، وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك، وتفكر في حجتك، ولا تكثر الإشارة بيدك، ولا الالتفات إلى مَنْ وراءك، وأهدى غضبك وتكلم. وإذا قربك سلطان فكن منه على حذر، واحذر انقلابه عليك، وكلّمه بما يشتهي ولا يحملنك لطفه بك على أن تدخل بينه وبين أهله وحشمه، وإن كنت لذلك مستحقاً عنده. وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء، ولا تجعل مالك أكرم من عرضك. ولا تجالس الملوك فإن فعلت فالترم ترك الغيبة، ومجانبة الكذب، وصيانة السر، وقلة الحوائج،

(١) سورة: الأحزاب، الآية: ٤.

(٢) الغبراء: الأرض.

(٣) تحاتت: تفرقت.

وتهذيب الألفاظ، والمذاكرة بأخلاق الملوك والحذر منهم، وإن ظهرت المودة. ولا تتجشأ^(١) بحضرتهم، ولا تخلل أسنانك بعد الأكل عندهم. ولا تجالس العامة فإن فعلت فأدأب ذلك تركُ الخوض في حديثهم، وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم^(٢)، والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم. وإياك أن تمازح لبيئاً أو سفيهاً فإن اللبيب يحقد عليك، والسفيه يتجرأ عليك، ولأن المزاح يخرق الهيبة، ويذهب بماء الوجه، ويعقب الحقد، ويذهب بحلاوة الإيمان والود، ويشين فقه الفقيه، ويجريء السفيه، ويميت القلب، ويباعد عن الرب تعالى، ويكسب الغفلة والذلة. ومن بلي في مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه. فقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقول من مجلسه ذلك سبحانهك اللهم ويحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك غفر له ما كان في مجلسه ذلك».

وأما آداب المسامرة فقد روي أن رسول الله ﷺ تعاقب هو وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورجل آخر من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في سفر على بعير. فكان إذا جاءت نوبة في المشي مشى فيعزمان عليه أن لا يمشي، فيأبى ويقول: ما أنتم بأقدر مني على المشي، وما أنا بأغنى منكم على أجر. وقال ﷺ: لا تتخذوا ظهور الدواب كراسي. وقيل: لا تقدم الأصاغر على الأكابر إلا في ثلاث: إذا ساروا ليلاً، أو خاضوا سيلاً، أو واجهوا خيلاً. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث: نكته، وغيبته، ووفاته.

وأما ما جاء في الإخوان القليلي الموافاة، المديمي المكافاة ليس عندهم لصديق مصافاة، فقال وهب بن منبه: صحبتُ الناس خمسين سنة فما وجدت رجلاً غفر لي زلة، ولا أقال لي عثرة، ولا ستر لي عورة. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: إذا كان الغدر طبعاً، فالثقة بكل أحد عجز. وقيل لبعضهم: ما الصديق؟ قال: اسم وضع على غير مسمى، وحيوان غير موجود. قال الشاعر:

سَمِينًا بِالصَّدِيقِ وَلَا نَرَاهُ عَلَى التَّحْقِيقِ يَوْجَدُ فِي الْأَنَامِ
وَأَحْسَبُهُ مُحَالًا نَمُقُّوهُ^(٣) عَلَى وَجْهِ الْمَجَازِ مِنَ الْكَلَامِ

وقال أبو الدرداء: كان الناس ورقاً لا شوك فيه، فصاروا أشواكاً لا ورق فيه. وقال جعفر الصادق لبعض إخوانه: أقلل من معرفة الناس، وأكثر من عرفت منهم، وإن كان لك مائة صديق فاطرح تسعة وتسعين، وكن من الواحد على حذر. وقيل لبعض الولاة: كم لك صديق^(٤)؟ فقال: أما في حال الولاية فكثير، وأنشد:

الناسُ إخوانٌ من دامت له نِعَمٌ والويلُ للمرءِ إن زلَّتْ به القَدَمُ

ولما نكب علي بن عيسى الوزير لم ينظر بيباه أحد من أصحابه الذين يلقونه في ولايته، فلما ردت إليه الوزارة وقف أصحابه بيباه ثانياً فقال:

(١) تجشأ: صوت يخرج من المعدة.

(٢) أراجيفهم: الأخبار النافهة.

(٣) التميق: التحسين والترتين.

(٤) صوابها: «كم صديقاً لك؟».

فكلّما انقلبْتَ يوماً به انقلبُوا
يوماً عليه بما لا يشتهي وتَبُوا

ما الناسُ إلا مَعَ الدنيا وصاحبها
يعظمُون أحبا الدنيا فلإن وثَبْتَ

وقال آخر^(١):

لكنّهم في النّائباتِ قليلُ

فما أكثرَ الأصحابَ حين نعلّمهم

وقال البحري:

من ذي خداع يرى بشراً والطافاً
وسرّاً في الأرض أوساطاً وأطرافاً
ولا أخاً يدلُّ الإنصافَ إن صافى

إيّاك تغترُّ أو تخدمك بارقةً
فلو قلبتَ جميعَ الأرضِ قاطبةً
لم تلقَ فيها صديقاً صادقاً أبداً

وقال بعضهم في المعنى أيضاً:

فما نالني منهم سوى الهم والعنا^(٢)
خيلاً يوفي بالمهود ولا أنا

خيلني جرّبت الزمان وأهلَهُ
وعاشرتُ أبناءَ الزمان فلم أجِدْ

وقال آخر:

خلّ وفيّ للشّدائدِ أصطفي
القول والعقواء والخل الوفي

لما رأيتُ بني الزمان وما بهم
فعلمتُ أنّ المستحيل ثلاثة

وبيت مفرد:

فإنني به في ودّه غير واثق

وكلُّ خليلٍ ليس في الله ودّه

وقال آخر:

فلا تأمّن خليلك أن يخوننا
ولكن قلّما تلقى أميناً

إذا ما كنتَ متخذاً خيلاً
فإنك لم يخنك أخ أمينٌ

وقال آخر:

أودّك إن السّراي عنك لعنازبُ
ولكن أخي من ودّني وهو غائبُ
وما لي له إن أهوزتُهُ النوائبُ

تحبّ عدوي ثم نزعتم أنسي
وليس أخي من ودّني بلساني
ومن ماله مالي إذا كنت معدماً

ولما غضب السلطان على الوزير ابن مقلة وأمر بقطع يده لما بلغه أنه زوّر عنه كتاباً إلى أعدائه وعزله، لم يأت إليه أحد ممن كان يصحبه ولا توجع له، ثم إن السلطان ظهر له في بقية يومه أنه يرى مما نسب إليه فخلع عليه ورد إليه وظائفه فأشند يقول هذه الأبيات:

(١) ينسب لأبي فراس الحمداني.

(٢) العنا: مخفف العنا.

تحالفَ الناسُ والزمانُ فحيثُ كانَ الزمانُ كانوا
عاداني الدهرُ نصفَ يومٍ فأنكشفُ الناسُ ليَ ويانوا
يا أيُّها المعرضون^(١) عُنَا عودوا فقد عادَ ليَ الزمانُ

ومثله في المعنى:

أخوك أخوك مَنْ يذنو وترجو مودته وإن دُعي استجابا
إذا حازنتَ حازبَ مَنْ تعادي وزاد سلاخهُ منك اقترابا

وقال أبو بكر الخالدي:

وأخ رخصتُ عليه حتى ملّني والشيءُ ملولٌ إذا ما يرخصُ
ما في زمانك من يمزُ وجوده إن رُمتهُ إلا صديقٌ مخلصُ

فيجب على الإنسان أن لا يصحب إلا مَنْ له دين وتقوى، فإن المحبة في الله تنفع في الدنيا والآخرة، وما أحسن ما قال بعضهم:

وكلُّ محبوبٍ في الله تبقى على الحالين من فرج وضيق
وكلُّ محبوبٍ فيما سواه فكالحلفاء^(٢) في لهب الحريق

فينبغي للإنسان أن يجتنب معاشرَةَ الأشرار، ويترك مصاحبةَ الفجار، ويهجر من ساءت خلته وقبحت بين الناس سيرته: قال الله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ﴾^(٤) فأنبت الله المماثلة بيننا وبين البهائم، وذلك إنما هو في الأخلاق خاصة؛ فليس أحد من الخلق إلا وفيه خلق من أخلاق البهائم.

ولهذا تجد أخلاق الخلاق مختلفة، فإذا رأيت الرجل جاهلاً في خلقه، غليظاً في طباعه، قوياً في بدنه لا تؤمن ضغائنه، فألحِقهُ بعالم النمورة. والعرب تقول: أجهلُ من نمر: وإذا رأيت الرجل هجاماً على أعراض الناس فقد مائل عالم الكلاب. فإن دأب الكلب أن يعض من لا يجفوه، ويؤذي من لا يؤذيه، فعاملهُ بما كنت تعامل به الكلب إذا نبح، ألسنته تلعب وترتج؟ وإذا رأيت إنساناً قد جبل على الخلاف إن قلت نعم قال لا وإن قلت لا قال نعم: فألحِقهُ بعالم الحمير فإن دأب الحمار إن أدبته بُعِدَ، وإن أبعدته قُرِبَ، فلا تتضع به ولا يمكنك مفارقتة. وإن رأيت إنساناً يهجم على الأموال والأرواح فألحِقهُ بعالم الأسود. وتُخذ حذرك منه كما تأخذ حذرك من الأسد. وإذا بليت بإنسانٍ خبيث كثير الروغان فألحِقهُ بعالم الثعالب. وإذا رأيت مَنْ يمشي بين الناس بالنميمة، ويفرق بين الأحبة فألحِقهُ بعالم الظربان^(٥)، وهي دابة صغيرة تقول العرب عند تفرق الجماعة: مشى بينهم ظربان ففترقوا^(٦). وإذا رأيت إنساناً لا

(١) المعرضون: المتصرفون.

(٢) الحلفاء: نبت.

(٣) سورة: الزعفران، الآية: ٦٧.

(٤) سورة: الأنعام، الآية: ٣٨.

(٥) الظربان: حيوان تن الرمح.

(٦) ففترقوا: مثل للفرق بسبب النميمة.

يسمع الحكمة والعلم، وينفر من مجالسة العلماء، ويألف أخبار أهل الدنيا فالحق بهالم الخنافس فإنه يعجبها أكل العذرات، وملازمة النجاسات، وتنفر من ريح المسك والورد، وإذا شمت الرائحة الطيبة ماتت لوقتها. وإذا رأيت الرجل يصنع بنفسه كما تصنع المرأة لبعولها، يبيض ثيابه ويعدل عمامته، وينظر في عطفه فالحق بهالم الطواويس. وإذا بليت بإنسان حقود لا ينسى الهفوات ويجازي بعد المدة الطويلة على السقطات، فالحق بهالم الجمال. والعرب تقول: أخقذ من جمل. فتجنب قرب الرجل الحقود. وعلى هذا النمط فليحترز العاقل من صحبة الأشرار وأهل الغدر ومن لا وفاء لهم، فإنه إذا فعل ذلك سلم من مكائد الخلق وأراح قلبه وبدنه، والله أعلم.

وأما الزيارة والاستدعاء إليها، فقد قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: «وجبت محبتي للمتحابين في»، والمتبادلين في، والمتزورين في اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي» وقال ﷺ: «من عاد مريضاً، أو زار أخاً، نادى مناد أن طبت وطاب ممشاك وتبأت من الجنة منزلاً» وقيل: المحبة شجرة أصلها الزيارة. قال الشاعر:

رُزُّ مَنْ تَحَبُّ وَإِنْ شَطَّتْ بِكَ^(١) الدَّارُ وَحَالَ مِنْ دُونِهِ حَجَبٌ وَأَسْتَارُ
لَا يَمْنَعُكَ بُغْدٌ مِنْ زِيَارَتِهِ إِنَّ الْمَحَبَّ لَمَنْ يَهْوَاهُ زَوَارُ

ولكن الزيارة غيب^(٢) لقوله ﷺ: «رُزُّ غَيْبًا تَرَدَّدَ حَبًّا» قال الشاعر في معنى ذلك:

عليك بأغباب الزيارة إنها إِذَا كَثُرَتْ صَارَتْ إِلَى الْهَجْرِ مَلَكاً
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْغَيْثَ يُنَامُ دَائِماً يُسَالُّ بِالْأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْكَا

ويقال: الإكثار من الزيارة مل، والاقلال منها مخل. وكتب صديق إلى صديقه هذا البيت:

إِذَا مَا تَقَاطَعْنَا وَنَحْنُ بِلَدَةٍ فَمَا فَضْلُ قُرْبِ الدَّارِ مِنَّا عَلَى الْبَعْدِ

وقال آخر:

وَأَنْ مَرُورِي بِالْأَيْدِي النَّحْيَ بِهَا سَلِمَتِي وَلَمْ أَلَمَّ بِهَا لَجَفَاءَ

وقال آخر:

قَدْ أَتَانَا مِنْ آلِ سَعْدِي رَسُولٌ حَبِّدَا مَا يَقُولُ لِي وَأَقُولُ

وقال آخر:

أَزُورُ يَبُوتاً لَأَصْقَاتِ بَيْتَهَا وَقَلْبِي فِي الْبَيْتِ الَّذِي لَا أَزُورُهُ

وزار محمد بن يزيد المهلب المستمين، وهب له مائتي ألف درهم وأقطعه أرضاً فقال:

وخصصتني بزيارة أضحى لنا مجدُّ بها طول الزمان مؤثلاً^(٣)

وقضيت ديني وهو دين وافر لم يقضه مع جوده المتوكل

وكتب المأمون إلى جاريته الخيزران يستدعيها للزيارة:

(١) شطت: نأت وبعدت.

(٢) الغب: الزيارة يوماً بعد يوم.

(٣) المجد المؤثّل: الأصيل.

نحنُ في أفضلِ السرورِ ولكنَّ ليسَ إلا بكم يتمُّ السرورُ
 عيبُ ما نحن فيه يا أهلِ ودي أنكم غيُّتمْ ونحنُ حضورُ
 فاجِدُوا الميرَ بل إن قدرتمْ أن تطيروا مع الرياحِ فطيروا

وقيل لفيلسوف: أي الرسل أنجح؟ قال: الذي له جمال وعقل. وقيل: إذا أرسلتم رسولاً في حاجة فاتخذوه
 حسن الوجه، حسن الاسم. وقال لقمان لابنه: يا بني لا تبعث رسولاً جاهلاً، فإن لم تجد حكيماً عارفاً فكن رسول
 نفسك وقال بعضهم:

إذا أبطأ^(١) الرسولُ فقلْ نجاح ولا تفرِّخْ إذا عجلَ الرسولُ
 وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أبطأ: مقصور أبطأ.

الباب الخامس والعشرون: في الشفقة على خلق الله تعالى، والرحمة بهم، وفضل الشجاعة، وإصلاح ذات البين وفيه فصلان

الفصل الأول: في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم

قال الله تعالى: ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيزٌ عليه ما مِنَّكُمْ حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ﴾^(١) ووصف الله نفس لعباده فقال عز وجل: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾^(٢) وقال الله تعالى: ﴿الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم﴾^(٣) قال المفسرون: الرحمن اسم رقيق يدل على العطف والرفقة واللفظ والكرم والمنة والحلم على الخلق، والرحيم مثله. وقيل: يقال رحمن الدنيا، ورحيم الآخرة. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يَصْغُ الله الرحمة إلا على رحيم قلنا: يا رسول الله، كلُّنا رحيم. قال: ليس بالرحيم الذي يرحم نفسه وأهله خاصة، ولكن الرحيم الذي يرحم المسلمين». رواه أبو يعلى، والطبراني. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من لا يرحم لا يُرحم، ومن لا يَغْفِر لا يُغْفَر له» وعنه ﷺ قال: «لرحموا تُرحموا واغفروا يُغفَر لكم». وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال الله عز وجل: «إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي». رواه أبو محمد بن عدي في كتب الكامل.

وروينا، من طريق الطبراني، عن الشعبي، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنين في تراحمهم وتواددهم وتواصلهم كَمَثَلِ الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» قال الطبراني: إني رأيت رسول الله ﷺ في المنام، فسألته عن هذا الحديث فقال النبي ﷺ وأشار بيده: صحيح صحيح صحيح ثلاثاً. وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ مسح على رأس يتييم، كان له بكل شعرة تمر عليه يده نور يوم القيامة». ودخل عامل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فوجده مستلقياً على ظهره، وصبياناه يلعبون على بطنه فأنكر ذلك عليه. فقال له عمر: كيف أنت مع أهلك؟ قال: إذا دخلت سكت الناطق. فقال له: اعتزل فإنك لا تفرق بأهلك وولدك، فكيف تفرق بأمة محمد ﷺ؟ وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. أن رسول الله ﷺ قال: «إن أبدالاً»^(٤) أمتي لن يدخلوا الجنة بالأعمال، ولكن يدخلونها برحمة الله وسخاوة النفس، وسلامة الصدور والرحمة لجميع المسلمين.

(١) سورة: التوبة، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٤٣.

(٣) سورة: الفاتحة، الآيتان: ٢ - ٣.

(٤) أبدال: قوم من الصالحين لا تخلو الأرض منهم كلما مات واحداً بده الله.

الفصل الثاني: في الشفاعة وإصلاح ذات البين

قال الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كُفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا^(١)﴾ وقال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه، كما يسأله عن عمره، فيقول له: جعلت لك جاهاً، فهل نصرت به مظلوماً أو قمعت به ظالماً، أو غثت به مكروباً؟» وقال ﷺ: «أفضل الصدقة أن تعين بجاهك مَنْ لا جاه له». وعن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا جاءني طالب حاجة فاشفعوا له لكي تزجروا، يقضي الله تعالى على لسان نبيه ما شاء». وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل الصدقة صدقة اللسان، قيل: يا رسول الله وما صدقة اللسان؟ قال: الشفاعة تفكُّ بها الأسير، وتحقن بها الدماء، وتجزَّ بها المعروف إلى أخيك، وتدفع عنه بها كربة». رواه الطبراني في المعارج. وقال علي رضي الله عنه: الشفيح جناح الطالب.

وقال رجل لبعض الولاة: إن الناس يتوسلون إليك بغيرك، فينالون معروفك ويشكرون غيرك، وأنا أتوسل إليك بك، ليكون شكري لك لا لغيرك. وقيل: كان المنصور معجباً بمحادثة محمد بن جعفر بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وكان الناس لعظم قدره يفرعون إليه في الشفاعات فتتل ذلك على المنصور، فحجبه مدة، ثم لم يصبر عنه فأمر الربيع أن يكلمه في ذلك، فكلمه وقال: أعف يا أمير المؤمنين، لا تتل عليه في الشفاعات قبل ذلك منه. فلما توجه إلى الباب اعترضه قوم من قريش معهم رقاع فسألوه إيصالها إلى المنصور فقص عليهم القصة، فأبوا إلا أن يأخذها. فقال: اأخذوها في كمي، ثم دخل عليه وهو في الخضراء مشرف على مدينة السلام وما حولها من البساتين، فقال له: أما ترى إلى حسنها يا أبا عبد الله. فقال له: يا أمير المؤمنين، بارك الله لك فيما آتاك وهناك ياتمام نعمته عليك فيما أعطاك، فما بنت العرب في دولة الإسلام ولا العجم في سالف الأيام، أحسن ولا أحسن من مدينتك، ولكن سمجتها^(٢) في عيني خصلة، قال: وما هي؟ قال: ليس لي فيها ضيعة، فتبسم. وقال: قد حسنتها في عينك بثلاث ضياع قد أقطعتكها. فقال: أنت والله يا أمير المؤمنين شريف الموارد، كريم المصادر، فجعل الله تعالى باقي عمرك أكثر من ماضيه. ثم أقام معه يومه ذلك، فلما نهض ليقوم بدت الرقاع من كفه فجعل يردهن، ويقول: أرجعن خائبات خاسرات. فضحك المنصور، وقال: بحقي عليك ألا أخبرتني وأعلمتني بخبر هذه الرقاع فأعلمه. وقال: ما أثبت يا ابن معلم الخير إلا كريماً، وتمثل بقول عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر:

لسنا وإن احببنا كرمَثَ يوماً على الأحساب نكَلُ
تُثْني كما كانت أو ائتنا تبني ونفعلُ مثل ما فعلوا

ثم تصفح الرقاع وقضى حوائجهم عن آخرها. قال محمد: فخرجت من عنده وقد ربحت وأربحت. وقال المبرد: أتاني رجل لأشفع له في حاجة فأنشدني لنفسه:

إنني قصَدْتُكَ لا أدلي بمعرفو ولا بقربٍ ولكن قد فَشْتُ نَعْمُكَ

(١) سورة: النساء، الآية: ٨٥.

(٢) سمجتها: جعلها تبدو ثقيلة ممبوجة.

فَبِئْسَ حَيْرَانٌ مَكْرُوباً يَؤُرِقُنِي ذُلُّ الْغَرِيبِ، وَيَغْشِيَنِي الْكَرَى كَرْمُكَ
مَا زِلْتَ أَنْكَبْتُ، حَتَّى زَلَزَلْتَ قَدَمِي فَاخْتَلَّ لَتَيْتِهَا لَا زَلَزَلْتَ قَدَمُكَ
فَلَوْ هَمَمْتَ بِغَيْرِ الْعَرَفِ مَا عَلَقْتُ بِهِ يَدَاكَ وَلَا انْقَادَتْ لَهُ شِمُوكُ

قال: فشفعت له وأنته من الإحسان ما قدرت عليه. وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة فيها هذا البيت:

شَفِيعِي إِلَيْكَ اللَّهُ لَا شَيْءَ غَيْرِهِ وَلَيْسَ إِلَيَّ رَدُّ الشَّفِيعِ سَيْلٌ

فأمره بلزوم الدهليز، فكان يعطيه كل يوم عند الصباح ألف درهم، فلما استوفى في ثلاثين ألفاً ذهب الرجل. قال يحيى: والله لو أقام إلى آخر عمره ما قطعها عنه. وقال آخر:

وَقَدْ جِتُّكُمْ بِالصُّطْفَى مُشْفَعاً وَمَا خَابَ مَنْ بِالصُّطْفَى يَتَشَفَّعُ
إِلَى بَابِ مَوْلَانَا رَفَعْتُ ظِلَامَتِي عَسَى اللَّهُ عَنِّي وَالْمَصَائِبُ تُرْفَعُ

وقال آخر:

تَشَفَّعَ بِالنَّبِيِّ فَكُلُّ عَبْدٍ يُجَارُ إِذَا تَشَفَّعَ بِالنَّبِيِّ
وَلَا تَجَزَّعُ إِذَا ضَاوَتْ أُمُورٌ فَكَمْ لَهُ مِنْ لَطْفٍ خَفِيِّ

وروي أن جبريل عليه السلام قال: يا محمد لو كانت عبادتنا لله تعالى على وجه الأرض لعملنا ثلاث خصال: بقي الماء للمسلمين، وإعانة أصحاب العيال، وسرا للذنوب على المسلمين إذا اذنبوا.

اللهم استر ذنوبنا، واقض عنا تبتعاتنا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السادس والعشرون: في الحياء والتواضع ولين الجانب وخفض الجناح وفيه فصلان

الفصل الأول: في الحياء

قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، وصدق اللسان، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ اللئام للجار، وحفظ اللئام للمصاحب، وقرى الضيف، وأسهن^(١) الحياء. وقال رسول الله ﷺ: «الحياء شعبة من الإيمان». وقال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت» وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: من كسا بالحياء ثوبه لم يرى الناس عيبه. وعن زيد بن علي عن أبيه يرفعه: من لم يستح فهو كافر. وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: إني لأدخل البيت المظلم أختل فيه من الجنابة فأحني فيه صلي^(٢) حياء من ربي. وقال بعضهم: الوجه المصون بالحياء كالجواهر المكنون في الوعاء. وقال الخواص: إن العباد عملوا على أربع منازل: على الخوف، والرخاء، والتعظيم، والحياء، فأرفعها منزلة الحياء لما أيقنوا أن الله يراهم على كل حال. قالوا سواء علينا رأينا أو رأنا، وكان الحاجز لهم عن معاصيه الحياء منه. ويقال: القناعة دليل الأمانة، والأمانة دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله.

الفصل الثاني: في التواضع ولين الجانب، وخفض الجناح

قال الله تعالى: «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ»^(٣) وقال تعالى: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين»^(٤) وقال رسول الله ﷺ: «أفضل العباد التواضع» وقال ﷺ: «ولا ترفعوني فوق قدري فتقولوا في ما قالت النصارى في المسيح، فإن الله عز وجل اتخذني عبداً، قبل أن يتخذني رسولاً» وأنا ﷺ رجل فكلمه فأخذته رعدة. فقال ﷺ له: «هون عليك، فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد». وكان ﷺ يرفع ثوبه، ويخفف نعله، ويخدم من في مهنة أهله، ولم يكن متكبراً، ولا متجبراً، أشد الناس حياءً، وأكثرهم تواضعاً. وكان إذا حدث بشيء مما أتاه الله تعالى قال ولا فخر. وقال ﷺ: «إن العفو لا يزيد العبد إلا

(١) أسهن: أساسه.

(٢) الصُّلب: الظهر.

(٣) سورة: الحجر، الآية: ٨٨.

(٤) سورة: القصص، الآية: ٨٣.

عزاً فاعفوا يعزكم الله، وإن التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة، فتواضعوا يرفعكم الله، وإن الصدقة لا تزيد المال إلا نماء، فتصدقوا يزدكم الله». وقال عدي بن أرطاة لإياس بن معاوية: إنك لسريع المشية. قال: ذلك أبعد من الكبر، وأسرع في الحاجة. وخرج معاوية على ابن الزبير وابن عامر فقام ابن عامر، وجلس ابن الزبير. فقال معاوية لابن عامر: اجلس فأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ النَّاسُ قِيَاماً فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ». وقيل: التواضع سَلَمُ الشرف. ولبس مطرف بن عبد الله الصوف وجلس مع المساكين. فقيل له في ذلك فقال: إن أبي كان جباراً فأحببت أن أتواضع لربي لعله أن يخفف عن أبي تجبره. وقال مجاهد: إن الله تعالى لما أغرق قوم نوح، شمخت الجبال، وتواضع الجودي فرفعه فوق الجبال، وجعل قرار السفينة عليه. وقال الله تعالى لموسى عليه السلام: هل تعرف لِمَ كلمتك من بين الناس؟ قال: لا يا رب. قال: لأنني رأيتك تتمرغ بين يدي في التراب تواضعاً لي. وقيل: من رفع نفسه فوق قدره، استجلب مقت الناس، وقال أبو مسلم صاحب الذخيرة: ما تاة إلا وضيع، ولا فآخر إلا لقيط. وكلُّ مَنْ تواضع لله رفعه الله.

فسبحان من تواضع كل شيء لعز جبروت عظمته، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع العشرون: في العجب، والكبر، والخيلاء، وما أشبه ذلك

اعلم أن الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل، ويكسبان الرذائل. وحسبك من رذيلة تمنع من سماع النصيح، وقبول التأديب، والكبر يكسب المقت، ويمنع من التكلف. قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر». وقال رسول الله ﷺ: «من جَرَّ ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه». وقال الأحنف بن قيس: ما تكبر أحد إلا من زلة يجدها في نفسه. ولم تزل الحكماء تتحامى^(١) الكبر، وتأنف منه. ونظر أفلاطون إلى رجل جاهل معجب بنفسه. فقال: وددت أنني مثلك في ظنك، وأن أعدائي مثلك في الحقيقة. ورأى رجل رجلاً يختال في مشيه. فقال: جعلني الله مثلك في نفسك، ولا جعلني مثلك في نفسي. وقال الأحنف: عجت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر. ومَرَّ بعض أولاد المهلب بمالك بن دينار وهو يتبختر في مشيه. فقال له مالك: يا بني لو تركت هذه الخيلاء لكان أجمل لك. فقال: أو ما تعرفني؟ قال: أعرفك معرفة جيدة، أولئك نطفة مدرة^(٢) وأخوك جيفة قلدة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فأرخى الفتى رأسه، وكف عما كان عليه. وقال: لا يدوم الملك مع الكبر، وحسبك من رذيلة تسلب الرياسة، والسيادة.

وأعظم من ذلك أن الله تعالى حرم الجنة على المتكبرين فقال تعالى: «تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً»^(٣). فقرن الكبر بالفساد وقال تعالى: «سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق»^(٤) قال بعض الحكماء: ما رأيت متكبراً إلا تحول ما به، بي، يعني أنكبر عليه.

واعلم أن الكبر يوجب المقت، ومن مقته رجاله لم يستقم حاله. والعرب تجعل جذيمة الأبرش غاية في الكبر. يقال: إنه كان لا ينادم أحداً لتكبره، ويقول: إنما ينادمني الفرقدان. وكان ابن عوانة من أقبح الناس كبراً، روي أنه قال لغلامه: اسقني ماء. فقال: نعم. فقال: إنما يقول نعم من يقدر أن يقول لا، اصفعوه فصفع، ودعا أكاراً^(٥) فكلمه، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذاراً لمخاطبته. ويقال فلان وضع نفسه في درجة، لو سقط منها لتكسر. قال الجاحظ: المشهورون بالكبر من قريش، بنو مخزوم، وبنو أمية، ومن العرب بنو جعفر بن كلاب، وبنو زرة بن عدي. وأما الأكاسرة فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيداً، وأنفسهم إلا أرباباً. وقيل لرجل بن بني عبد الدار: ألا تأتي الخليفة؟ فقال: أخاف أن لا يحمل الجسر شرفي. وقيل للحجاج بن أرطاة: ما لك لا تحضر الجماعة؟ قال أخشى أن يراحمني البقالون. وقيل: أتى وائل بن حجر إلى النبي ﷺ فاقطعه أرضاً، وقال للمعاوية: اعرض هذه الأرض عليه.

(١) تتحامى: تتبعد عنه.

(٢) مدرة: فاسدة.

(٣) سورة: القصص، الآية: ٨٣.

(٤) سورة: الأعراف، الآية: ١٤٦.

(٥) أكارا: الحمال على الحمار.

وأكتبها له. فخرج معه معاوية في هاجرة شديدة، ومشى خلف ناقته، فأحرقه حر الشمس فقال له: اردفني خلفك على ناقتك، قال: لست من أرداف الملوك. قال: اعطني نعليك. قال: ما بخل يمنعني يا ابن سفيان، ولكن أكره أن يبلغ أقبال اليمن^(١) أنك لبست نعلي، ولكن امش في ظل ناقتي فحسبك بها شرفاً. وقيل: إنه لحق زمن معاوية ودخل عليه فأقعده معه على السرير وحده. وقال المسرور بن هند لرجل: أتعرفني؟ قال: لا، قال أنا المسرور بن هند. قال: ما أعرفك. فتعساً ونكساً لمن لم يعرف القمر. قال الشاعر:

قولا لأحمق يلسوي التيه أخذعة^(٢) لو كنت تعلم ما في التيه لم تته
التيه مفسدة للدين، منقصة للعقل، مهلكة للعرض فانتبه

وقيل: لا يتكبر إلا كل ضيع، ولا يتواضع إلا كل رفيع، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) ملوكها وواحدتهم: قيل.

(٢) الأخدع: حرق في الرقة.

الباب الثامن والعشرون: في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت

فمن شواهد المفاخرة قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾^(١) نزلت في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعقبة بن أبي معيط وكانا تفاخرا وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٢) نزلت في أبي جهل، وعمار بن ياسر، والنسب إلى سيدنا رسول الله ﷺ أشرف الأنساب. وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم، ولا فخر». وقد نفى الله تعالى الفخر بالأنساب بقوله تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتِّعَافُكُمْ﴾^(٣) فالفخر في الإسلام بالتقوى. وقال رسول الله ﷺ: «إِنْ نِيَكَمَ وَاحِدٌ. وَإِنْ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ. وَإِنَّهُ لَا فَضْلَ لِعَرَبٍ عَلَى أَعْصَمِي، وَلَا لَأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ إِلَّا بِالْقُوَى، أَلَا، هَلْ بَلَغْتَ». وقال الأصمعي: بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذ رأيت شاباً متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول:

يا كاشفَ الضرِّ والبلوى مع السقمِ
وأنتَ يا حيُّ يا قيومُ لم تنمِ
فأرحمَ بكائي بحقَّ البيتِ والحرمِ
فَمَنْ يجودُ على العصاينَ بالكرمِ

يا مَنْ يجيبُ دعا المَظْطَرِّ في الظلمِ
قد نامَ وفُلكَ حولَ البيتِ واتَّبهوا
أدعوكَ رُئيَّ حزيناً هائماً قلقاً
إِنْ كَانَ جودُكَ لا يرجوه ذو سفهِ

ثم بكى بكاءً شديداً وأشدّ يقول:

شكوتُ إليك الضرَّ فأرحمَ شكايَتي
فَهَبْ لي ذنوبي كُلَّها واقضِ حاجتي
وما في الوري^(٤) عبْدٌ جَنَى كجنايتي
فأينَ رجائي ثمَّ، أينَ مخافتِي

ألا أيُّها المقصودُ في كل حاجةٍ
ألا يا رجائي أنتَ تكشفُ كرتي
أنتَ بأعمالٍ قباحٍ رديئةٍ
أنحرفُني بالنارِ يا غايةَ المنى

ثم سقط على الأرض مغشياً عليه. فلنوت منه فإذا هو زين العابدين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين. فرفعت رأسه في حجري ويكيت فقطرت دمعة من دموعي على خده ففتح عينه وقال: مَنْ هذا الذي يهجم علينا قلت: عَيْتُكَ الأصمعي، سيدي ما هذا البكاء والجزع، وأنت من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، أليس الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٥) فقال: هيئات

(١) سورة: السجدة، الآية: ١٨.

(٢) سورة: فصلت، الآية: ٤٠.

(٣) سورة: الحجرات، الآية: ١٣.

(٤) الوري: الخلق.

(٥) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٣.

هيهات يا أصمعي، إن الله خلق الجنة لمن أطاعه، ولو كان عبداً حبشياً، وخلق النار لمن عصاه ولو كان حراً قرشياً أليس الله تعالى يقول: ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾^(١).

والفخر وإن نهت عنها الأخبار النبوية، وَمَجَّتْ^(٢) العقول الذكية، إلا أن العرب كانت تفتخر بما فيها من البيان طبعاً، لا تكلفاً، وجِلَّة^(٣) لا تعلماء، ولم يكن لهم من يتعلق بفضلهم إلا هم، ولا ينه على مناقبهم سواهم. وكان كعب بن زهير إذا أشد شعراً قال لنفسه: أحسنت وجاوزت والله الإحسان. فيقال: له أتحنلف على شعرك. فيقول: نعم لأنني أبصرُ به منكم. وكان الكميت إذا قال قصيدة صنع لها خطبة في الثناء عليها ويقول عند إنشادها: أي علم بين جنبي، وأي لسان بين فكي. وقال الجاحظ: لو لم يصفِ الطيب مصالح دوائه للمعالجين ما وجد له طالب. ولما أبدع ابن المقفع في رسالته التي سماها بالتيمة تنزيهاً لها عن المثل سكنت من النفوس موضع إرادته من تعظيمها ولو لم ينحلها هذا الاسم لكانت كسائر رسائله. وسنذكر في هذا الباب إن شاء الله تعالى شيئاً من نظم البلغاء، ونثرهم في الافتخار، ومن تفاخر منهم بعون الله وفضله وتيسيره.

قال أبو بكر الهذلي: سائرت المنصور فعرض لنا رجل على ناقة حمراء تطوي الفلاة^(٤) وعليه جبة خز وعمامة علنية، وفي يده سوط، يكاد يمس الأرض، فلما رآه المنصور أمرني بإحضاره، فدعوته وسألته عن نسبه وولاده، وعن قومه وعشيرته، وعن ولاية الصدقة، فأحسن الجواب فأعجبه ما رأى منه. فقال: أنشدني شعراً. فأنشده شعراً لأوس بن حجر وغيره من الشعراء من بني عمرو بن تميم، وحذَّته حتى أتى على بيت شعر لطريف بن تميم وهو قوله:

إن الأمور إذا أوردتها صدرت إن الأمور لها وردٌ وإصدار^(٥)

فقال: ويحك ما كان طريف فيكم حيث قال هذا البيت قال: كان أثقل العرب على عدوه وطأة، وأقراهم لضيئه، وأحوطهم من وراء جاره، اجتمعت العرب بمكاظ فكلهم أقروا له بهذه الخلال. فقال له: والله يا أخا بني تميم لقد أحسنت إذ وصفت صاحبك، ولكني أحق ببيته منه ومن شعر أبي الطحان:

وإني من القوم الذين هُمُ هُمُ	إذا مات منهم سيّد قام صاحبه
نجوم سماء كلما غاب كوكب	بدا كوكب تأوي إليه كواكبه
أضواء لهم أحسابهم ووجوههم	دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه ^(٦)
وما زال فيهم حيث كان مسودا	تسير المنايا حيث سارت ركائبه

ولما قدم معاوية المدينة صعد المنبر فخطب وقال: مَنْ ابْنُ عَلِيٍّ رضي الله تعالى عنه؟ فقام الحسن فحمد الله

(١) سورة: المؤمنون، الآيات: ١٠١ - ١٠٣

(٢) وَمَجَّتْ: لفظته وكرهته.

(٣) الْجِلَّةُ: الخلقة.

(٤) الفلاة: البرية.

(٥) إصدار: أي لكل ذاهب أوية.

(٦) ثاقبه: أي أنوارهم تكفي الصائغ لقب الجزوع والجواهر.

وأثنى عليه ثم قال: إِنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يبعث بعثاً إلا جعل له عدواً من المجرمين. فأنا ابن علي وأنت ابن صخر، وأمك هند، وأمي فاطمة، وجدتك قيلة، وجدتي خديجة. فلعن الله الأماناً حسباً، وأخملنا ذكراً، وأعظمنا كفراً، وأشدنا نفاقاً. فصاح أهل المسجد: آمين آمين. فقطع معاوية خطبته ودخل منزله.

وروي أن معاوية خرج فمرَّ بالمدينة. ففرق على أهلها أموالاً ولم يحضر الحسن بن علي رضي الله عنهما، فلما خرج من المدينة اعترضه الحسن بن علي فقال له معاوية: مرحباً برجل تركنا حتى نقد ما عندنا وتعرض لنا ليلخلنا. فقال له الحسن: ولمَ ينقد ما عندك، وخراج الدنيا يبغي إليك. فقال معاوية: إني قد أمرت لك بمثل ما أمرت به لأهل المدينة، وأنا ابن هند. فقال الحسن: قد رددته عليك وأنا ابن فاطمة. ودخل الحسين يوماً على يزيد بن معاوية فجعل يزيد يفتخر ويقول: نحن ونحن ولنا من الفخر والشرف كذا وكذا، والحسين ساكت. فأذن المؤذن، فلما قال: «أشهد أن محمداً رسول الله». قال الحسين: يا يزيد جُذ من هذا، فخجل يزيد ولم يرد جواباً. وفي ذلك يقول علي بن محمد بن جعفر:

لقد فاخرتُنا من قريشٍ عصابةً بمطَّ خدودٍ وامتدادٍ أصابعٍ
فلما تنازَعْنَا الفخارَ قضى لنا عليهم بما نهوى نداءُ الصوامعِ
ترانا سكوتاً والشهيدُ بفضلنا عليهم جهيرُ الصوت من كل جامعِ

وله أيضاً:

إني وقومي من أنساب قومهم كمسجد الخيف^(١) من بجوحة الخيفِ
ما علق السيف منا بابن عاشره إلا وهمة أمضى من السيفِ

وتفاخر العباس بن عبد المطلب، وطلحة بن شيبه، وعلي بن أبي طالب، فقال العباس: أنا صاحب السقاية والقائم عليها، وقال طلحة: أنا خادم البيت ومعي مفتاحه. فقال علي: ما أدري ما تقولان أنا صليت إلى هذه القبلة قبلكما بسة أشهر فنزلت: ﴿أَجْعَلُكُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾^(٢). الآية وتفاخر رجлан على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة آباء مشركين. فقال الآخر: أنا ابن فلان ولولا أنه مسلم ما ذكرته. فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أما الذي عدَّ تسعة آباء مشركين فحقَّ على الله أن يجعل عاشرهم في النار، والذي انتسب إلى أب مسلم فحقَّ على الله أن يجعله مع أبيه المسلم في الجنة. قال سلمان الفارسي:

أبسي الإسلام لا أب لي سواءً إذا افتخروا بقيسر أو تميم

وتفاخر جرير والفرزدق عند سليمان بن عبد الملك فقال الفرزدق: أنا ابن محيي الموتى. فأنكر سليمان قوله فقال: يا أمير المؤمنين قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾^(٣) وجدي فدى

(١) الخيف: أي مرتفع.

(٢) سورة: التوبة، الآية: ١٩.

(٣) سورة: المائدة، الآية: ٣٢.

الموءودات^(١) فاستحيان فقال سليمان: إنك مع شعرك لفقير. وكان صمصمة جد الفرزدق أول من فدى الموءودات. وللعباس بن عبد المطلب:

إِن القَبَائِلَ مِنْ قَرِيشٍ كُلِّهَا لِيَرَوْنَ أَنَا هَامٌ^(٢) أَهْلُ الأَبْطَحِ
وَتَرَى لَنَا فَضْلًا عَلَى سَادَاتِهَا فَضْلَ الْمَنَارِ عَلَى الطَّرِيقِ الأَوْضَحِ

وكتب الحكم بن عبد الرحمن المرواني من الأندلس إلى صاحب مصر يفتخر:

أَلَسْنَا بَنِي مَرْوَانَ كَيْفَ تَبَدَّلَتْ بِنَا الْحَالُ أَوْ دَارَتْ عَلَيْنَا الدَّوَابِرُ
إِذَا وُلِدَ المَوْلُودُ مِنَّا تَهَلَّلَتْ لَهُ الأَرْضُ وَاهْتَزَّتْ إِلَيْهِ الْمَنَابِرُ

وكتب إليه يهجو فيه وسبه. فكتب إليه صاحب مصر: أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبتك والسلام^(٣). وكان أبو العباس السفاح يعجبه السمر ومنازعة الرجال بعضهم بعضاً فحضر عنده ذات ليلة إبراهيم بن مخزومة الكندي، وخالد بن صفوان بن الأهمم فخاصوا في الحديث وتذاكروا مصر واليمن. فقال إبراهيم بن مخزومة: يا أمير المؤمنين، إن أهل اليمن هم العرب الذين دانت لهم الدنيا ولم يزالوا ملوكاً ورثوا الملك كابراً عن كابر وآخر عن أول. منهم النعمان، والمنذر، ومنهم عياض صاحب البحرين، ومنهم مَنْ كان «يأخذ كل سفينة فضباً»^(٤) وليس من شيء له خطر إلا إليهم ينسب، إن سئلوا أعطوا، وإن نزل بهم ضيف قروء، فهم العرب العاربة وغيرهم المتعربة. فقال أبو العباس: ما أظن التميمي رضي بقولك. ثم قال: ما تقول أنت يا خالد؟ قال إن أذن لي أمير المؤمنين في الكلام تكلمت. قال تكلم ولا تَهَبْ أحداً. قال: أخطأ المفتحم بغير علم، ونطق بغير صواب، وكيف يكون لقوم ليس لهم لسان فصيحة، ولا لغة صحيحة نزل بها كتاب، ولا جاءت بها سنة. يقتخرون علينا بالنعمان والمنذر، ونفتخر عليهم بخير الأنام، وأكرم الكرام سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فله المنة به علينا وعليهم، فمن النبي المصطفى والخليفة المرتضى، ولنا البيت المعمور وزمزم والحطيم، والمقام، والحجابه، والبطحاء، وما لا يحصى من المآثر. ومن الصديق والفاروق وذو النورين، والرضا والولي وأسد الله وسيد الشهداء وبنا عرفوا الدين، وأتاهم اليقين، فمن زاحمنا زاحمتناه، ومن عادانا اصطلمناه^(٥). ثم أقبل خالد على إبراهيم فقال: ألك علم بلغة قومك؟ قال: نعم. قال: فما اسم العين عندكم قال: الجمجمة، قال: فما اسم السن؟ قال: الميدن، قال: فما اسم الأذن؟ قال الصنارة. قال: فما اسم الأصابع؟ قال الشناتر. قال: فما اسم الذئب؟ قال: الكنع. قال: أفعالكم أتت بكتاب الله عز وجل؟ قال: نعم. قال فإن الله تعالى يقول: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا»^(٦) وقال تعالى: «بَلْسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»^(٧) وقال تعالى: «وَمَا

(١) الموءودات: اللاتي أعددن ليدفن أحياء.

(٢) هام: الرأس والنزوة.

(٣) المشهور في الحادثة أن الخليفة الفاطمي شتم الأندلسي وأنف هذا الأخير.

(٤) سورة: الكهف، الآية: ٧٩.

(٥) اصطلمناه: استأصلناه.

(٦) سورة: يوسف، الآية: ٢.

(٧) سورة: الشعراء، الآية: ١٩٥.

أرسلنا من رسول إلا بلسان قومهم^(١) فنحن العرب والقرآن بلساننا أنزل. ألم تر أن الله تعالى قال: ﴿والمين بالمين﴾^(٢) ولم يقل الجمجمة بالجمجمة؟ وقال تعالى: ﴿والسن بالسن﴾ ولم يقل الميدن بالميدن؟ وقال تعالى: ﴿والأذن بالأذن﴾ ولم يقل الصنارة بالصنارة؟ وقال تعالى: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم﴾^(٣) ولم يقل شناتيرهم في صناراتهم؟ وقال تعالى: ﴿فأكله الذئب﴾^(٤) ولم يقل فأكله الكنع؟ ثم قال لإبراهيم؟ إني أسألك عن أربع إن أقررت بهن فهرت، وإن جحدتهن كفرت. قال: وما هن؟ قال: الرسول منا أو منكم؟ قال: منكم. قال فالقرآن أنزل علينا أو عليكم؟ قال عليكم. قال: فالمنبر فينا أو فيكم؟ قال: فيكم. قال: فاليث لنا أو لكم؟ قال: لكم. قال: فاذهب فما كان بعد هؤلاء فهو لكم، بل ما أنت إلا سائس قرد، أو دايغ جلد، أو ناسج بُرد. قال: فضحك أبو العباس، وأقر لخالده وجباهما جميعاً. وقال بشار بن برد يفتخر:

هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دماً
ذرا^(٥) منبر صلى علينا وسلمنا

إذا نحن صلنا صولة مضرية
إذا ما أعزنا سيداً من قبيلة

وقال السموأل بن عادياء:

فكل رداء يرتديه جميل
فليس إلى حني الثناء سيل
فقلت لها إن الكرام قليل
شاب تسامى للعلا وكهول
عزيز وجار الأكرمين ذليل
منيع يرد الطرف وهو كليل
إلى النجم فزع لا يزال طويل
إذا ما رائته عامر وسلول
وتكرمه أجالهم فتطول
ولا ضل منا حيث كان قتيل
وليس على غير الطبات تسيل
كهام^(٨) ولا فينا يقد بخيل

إذا المرأة لم يدنس من اللوم عرضه
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها
تعبرنا أنا قليل عديدا
وما قل من كانت بقايا مثلاً
وما ضرنا أنا قليل وجارنا
لنا جبل يحتله من نجيرة
رسا أصله تحت الثرى وسما به
وإننا أناس لا نرى القتل سبة^(٦)
يقرب حب الموت آجالنا لنا
وما مات منا سيد خفف أنفه^(٧)
تسيل على حد الطبات نفوسنا
ونحن كماء المزن ما في نصائنا

(١) سورة: إبراهيم، الآية: ٤.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ٤٥.

(٣) سورة: البقرة، الآية: ١٩.

(٤) سورة: يوسف، الآية: ١٧.

(٥) ذرا: قمة المنبر ومرتفعه.

(٦) سبة: لا يسوؤنا الموت قتلاً.

(٧) أنفه: أي في فراشه.

(٨) كهام: عبي لا غناء عنده.

ونتكروا إن شئنا على الناس قولهم
إذا سيّد منا خلا قام سيّد
وما خمدت نار لنا دون طارق
وإيماننا مشهورة في عدونا
واسيافنا في كل شرق ومغرب
معوّدة أن لا تسأل نصالها
سلي أن جهلت الناس عنا وعنهم
فلان بني الريان قطب لقولهم
ولا ينكروا القول حين نقول
قوول بما قال الكرام فعول
ولا ذمنا في النازلين نزيل
لهاء غرر مشهورة وحجول
بها من قراع الدارعين فلول
فتغمد حتى يستباح قتل
فليس سواء عالم وجهول
تدور رحاهم حولهم وتجول

ولما قدم وفد تميم على رسول الله ﷺ ومعهم خطيبهم وشاعرهم خطب خطيبهم فافتخر فلما سكت، أمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس أن يخطب بمعنى ما خطب به خطيبهم. فخطب ثابت بن قيس فأحسن، ثم قام شاعرهم وهو الزريقان بن بدر فقال:

نحن الملوك فلا حي يفاخرنا
ونحن نطعمهم في القحط ما أكلوا
وتنحر الكوم^(٢) غبطاً في أرومتنا
تلك المكارم حزناتها مقارعة
فينا العلاء وفينا تنصب اليع
من العييط^(١) إذا لم يؤسر الفزع
للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
إذا الكرام على أمثالها اقترعوا

ثم جلس. فقال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت قم. فقام فقال:

إن الذوائب من فخر وإخوانتهم
يرضى بها كل من كانت سريرته
قوم إذا حاربوا ضرّوا عدوهم
سجية^(٣) تلك منهم غير محدث
لو كان في الناس سباقون بعدهم
لا يرفع الناس ما أوهت أكتفهم
فلا يضنون عن جار بفضلهم
خذ منهم ما أتوا عفواً إذا عطفوا
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم
قد بيئوا ستاً للناس تبع
تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفّعوا
إن الخلائق فاعلم شرها البدع
فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
ولا يمتهم في مطمع طمع
ولا يكن هلك الأمر الذي منعوا
إذا تفرقت الأهواء والشيع

فقال التميميون عند ذلك: وريكم أن خطيب القوم أخطب من خطيبنا، وأن شاعرهم أشعر من شاعرنا، وما تصفنا ولا قارنا. وقال شاعر من بني تميم:

(١) العييط: اللحم الطري.

(٢) الكوم: الإبل.

(٣) سجية: طبع.

أينغي آل شداد علينا
فإن نعلم مناصنا نجلها
وما يرعى لشداد فصيل
غلاظاً في أنامل من يصول
وقال سالم بن أبي وابصة:

عليك بالقصد فيما أنت فاعله
وموقف مثل حد السيف فمت به
إن التخلق يأتي دونه الخلق
أحمى النمار^(١) وترميني به الحق
فما زلقت ولا أبدت فاحشة
إذا الرجال على أمثالها زلقوا

وأما التفاضل والتفاوت

فقد روي أن رسول الله ﷺ كان إذا نظر لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل. قال: «يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي»^(٢) لأنهما كانا من خيار الصحابة وأبواهما أعدى عدو لله ولرسوله ﷺ. ومن كلام علي رضي الله عنه لمعاوية رضي الله عنه: أما قولك إننا بنو مناف فكذلك نحن، ولكن ليس أمة كهاشم، ولا حرب كعبد المطلب، ولا أبو سفیان كأبي طالب. وقال أحمد بن سهل: الرجال ثلاثة سابق، ولا حق، وماحق، فالسابق الذي سبق بفضل، واللاحق الذي لاحق بأبيه في شرفه، والملحق الذي محق شرف آبائه. وقيل إن عائشة بنت عثمان كفلت أبا الزناد صاحب الحديث، وأشعب الطماع ورثتهما. قال أشعب: فكنت أسفل وكان يعلو حتى بلغت أنا وهو هاتين الغائتين. وقال أبو العواذل زكريا بن هارون:

علي وعبد الله بينهما أب
ألم تر عبد الله يلحى على الندى
وشئان ما بين الطبائع والفعل
علياً ويلحاه علي على البخل

وحج أبو الأسود الدؤلي بامرأته وكانت شابة جميلة، فعرض لها عمر بن أبي ربيعة فغازلها فأخبرت أبا الأسود فأتاه يقول:

وإني لينهاني عن الجهل والخنا
حياة وإسلام وتقوى وإنني
فشئان ما بيني وبينك إنني
وقال ربيعة البرقي:

لشئان ما بين اليزيديين في الندى
يزيد سليم سالم المال والفتى
فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله
فلا يحسب القيسي أني هجوته
يزيد سليم والأعز بن حاتم
فتى الأزدي للأموال غير سالم
وهم الفتى القيسي جف الدراهم
ولكنني فضلت أهل المكارم

(١) النمار: ما عليك حمايته.

(٢) سورة: الروم، الآية: ١٩.

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر في أخيه الحسين:

يقولُ أنا الكبيرُ فعظموني	ألا تَكُنَّكَ أَثُكُ مَنْ كِيرِ
إذا كانَ الصغيرُ أعمَّ نفعاً	وأجلَدَ عندَ نائبةِ الأمورِ
ولم يأتِ الكبيرُ يومَ خيرٍ	فما فضلُ الكبيرِ على الصغيرِ

والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب التاسع والعشرون: في الشرف والسؤدد وعلو الهمة

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً فَبَدَّلَ مَعْرُوفَهُ، وَكَفَّ أَذَاهُ، فَذَلِكَ السَّيِّدُ». وقيل لقيس بن عاصم: بِمِ سُدَّتْ قَوْمَكَ؟ قال: لَمْ أَخَاصِم أَحَدًا إِلَّا تَرَكْتُ لِلصَّلَاحِ مَوْضِعًا. وقال سعيد بن العاص: مَا شَاتَمْتُ رَجُلًا مَذْكَرْتُ رَجُلًا، لِأَنِّي لَمْ أَشَاتِمِ إِلَّا أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ، إِمَّا كَرِيمٌ فَأَنَا أَحَقُّ أَنْ أَجْلَهُ، وَإِمَّا لَيْثٌ فَأَنَا أَوْلَى أَنْ أَرْفَعَ نَفْسِي عَنْهُ. وقالوا: مِنْ نَعْتِ السَّيِّدِ أَنْ يَكُونَ يَمَلَأُ الْعَيْنَ جَمَالًا؛ وَالسَّمْعَ مَقَالًا. وقيل: قَدِمَ وَفَدَّ مِنَ الْعَرَبِ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَفِيهِمُ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ. فقال الحاجب: إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَعْزِمُ عَلَيْكُمْ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا لِنَفْسِهِ. فلما وصلوا إِلَيْهِ قَالَ الْأَحْنَفُ: لَوْلَا عَزْمُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لَأَخْبَرْتُهُ أَنْ رَادِفَةَ رَدَفَتْ، وَنَازِلَةٌ نَزَلَتْ، وَنَائِبَةٌ نَابَتْ، وَالْكَلُّ بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَى الْمَعْرُوفِ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. فقال له معاوية: حَبِيبُ أَيَّ بَحْرٍ، فَقَدْ كَفَيْتَ الشَّاهِدَ وَالْغَائِبَ. وقال رجل للأحنف: بِمِ سُدَّتْ قَوْمَكَ وَمَا أَنْتَ بِأَشْرَفُهُمْ بَيْتًا، وَلَا أَصْبَحُهُمْ وَجْهًا، وَلَا أَحْسَنُهُمْ خَلْقًا؟ فقال: بِخِلَافِ مَا فِيكَ. قال: وَمَا ذَاكَ؟ قال: تَرَكِي مِنْ أَمْرِكَ مَا لَا يَعْنِينِي كَمَا عَنْكَ مِنْ أَمْرِي مَا لَا يَعْنِيكَ. وقيل: السَّيِّدُ مَنْ يَكُونُ لِلْأَوْلِيَاءِ كَالْفَيْثِ الْغَادِي، وَعَلَى الْأَعْدَاءِ كَاللَيْثِ الْغَادِي. وَكَانَ سَبَبُ ارْتِفَاعِ عَرَابَةِ الْأَوْسِيِّ وَسُودْدِهِ أَنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرِ فَجْمَعِهِ وَالشَّمَاخِ بْنِ ضَرَارِ الْمَزْنِيِّ الطَّرِيقِ، فَتَحَادَّثَا فَقَالَ لَهُ عَرَابَةٌ: مَا الَّذِي أَقْدَمَكَ الْمَدِينَةَ يَا شَمَاخَ؟ قال: قَدِمْتُهَا لِأَمْتَارٍ^(١) مِنْهَا فَعَمَلًا لَهُ عَرَابَةٌ رَوَّاحِلُهُ بَرَاءٌ وَتَمَرًا، وَأَتَحَفُهُ بِتَحَفٍ غَيْرِ ذَلِكَ. فَأَنْشَدَ يَقُولُ:

رَأَيْتُ عَرَابَةَ الْأَوْسِيِّ يَسْمُو إِلَى الْخَيْرَاتِ مَنْقَطَحَ الْقَرِينِ
إِذَا مَا رَايَةً رُفِعَتْ بِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ

وَأَمَّا عَلَوُ الْهِمَّةِ فَهُوَ أَصْلُ الرِّيَاسَةِ.

وَمَنْ عُلَتْ هِمَّتُهُ، وَشَرَفَتْ نَفْسُهُ، عِمَارَةُ بْنُ حِمَزَةَ. قِيلَ: إِنَّهُ دَخَلَ يَوْمًا عَلَى الْمَنْصُورِ وَقَعَدَ فِي مَجْلِسِهِ فَقَامَ رَجُلٌ وَقَالَ: مَظْلُومٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: وَمَنْ ظَلَمْتُكَ؟ قَالَ عِمَارَةُ بْنُ حِمَزَةَ: غَضِبَنِي ضَيْعَتِي. فَقَالَ الْمَنْصُورُ: يَا عِمَارَةُ قُمْ فَاقْعُدْ مَعَ خَصْمِكَ. فَقَالَ: مَا هُوَ لِي بِخَصْمٍ، إِنْ كَانَتْ الضَّيْعَةُ لَهُ فَلَسْتُ أَنْأَزِعُهُ فِيهَا، وَإِنْ كَانَتْ لِي فَقَدْ وَهَبْتُهَا لَهُ، وَلَا أَقْرَمُ مِنْ مَقَامِ شَرَفَنِي بِهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَفَعَنِي، وَأَقْعُدُ فِي أَدْنَى مِنْهُ لَضَيْعَةٍ. وَتَحَدَّثَ السَّفَاحُ هُوَ وَأَمَّ سَلْمَةَ يَوْمًا فِي نِزَاهَةِ نَفْسِ عِمَارَةَ وَكَبِيرِهِ فَقَالَتْ لَهُ: ادْعُ بِهِ وَأَنَا أَهْبُ لَهُ سَبْعَتِي هَذِهِ فَإِنْ ثَمَنَهَا خَمْسُونَ أَلْفَ دِينَارٍ فَإِنْ هُوَ قَبْلُهَا عَلِمْنَا أَنَّهُ غَيْرُ نِزْهِ^(٢) النَّفْسِ. فَوَجَّهَ إِلَيْهِ فَحَضَرَ فَحَادَثَهُ سَاعَةً ثُمَّ رَمَتْ إِلَيْهَا بِالسَّبِيحَةِ وَقَالَتْ: هِيَ مِنَ الطَّرَفِ وَهِيَ لَكَ فَجَعَلَهَا عِمَارَةُ بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ قَامَ وَتَرَكَهَا. فَقَالَتْ: لَعَلَّهُ نَسِيَهَا. فَبَعَثَتْ بِهَا إِلَيْهِ مَعَ خَادِمٍ، فَقَالَ لِلْخَادِمِ: هِيَ لَكَ. فَرَجَعَ الْخَادِمُ. فَقَالَ: قَدْ وَهَبَهَا لِي. فَأَعْطَتْ أُمَّ سَلْمَةَ لِلْخَادِمِ أَلْفَ دِينَارٍ وَاسْتَعَادَتْهَا مِنْهُ. وَأَهْدَى عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ السَّرِيِّ،

(١) لَأَمْتَارٍ: لِأَجْلِ الْمِيرَةِ وَهِيَ الطَّعَامُ الَّذِي يَحْفَظُ لِأَيَّامِ الْحَاجَةِ.

(٢) النِّزَاهَةُ: الْعِفَّةُ.

إلى عبد الله بن طاهر لما ولي مصر مائة وصيف، مع كل وصيف ألف دينار، ووجه إليه بذلك ليلاً فردّه وكتب إليه: لو قبلت هديتك ليلاً لقبلتها نهاراً ﴿فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرَ مَا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ يَهْدِيكُمْ تَفْرَحُونَ﴾^(١).

وكان سبب فتح المعتصم عمورية أن امرأة من الثغر سُيِّت فنادت: وامحمداء، وامعتصماه. فبلغه الخبر، فركب لوقته وتبعه الجيش. فلما فتحها قال: ليك أيتها المنادية. وكان سعيد بن عمرو بن العاص ذا نخوة وهمة، وقيل له في مرضه: إن المريض يستريح إلى الأئين وإلى شرح ما به إلى الطيب. فقال: أما الأئين فهو جزع وعار والله لا يسمع الله مني أنيناً فأكون عنده جزوعاً؛ وأما وصف ما بي إلى الطيب فوالله لا يحكم غير الله في نفسي، إن شاء أسكها، وإن شاء قبضها.

ومن كبر النفس ما روي عن قيس بن زهير أنه أصابته الفاقة واحتاج، فكان يأكل الحنظل حتى قتله ولم يخبر أحداً بحاجته: ومن الشرف والرياسة حفظ الجوار وحمل الذمار^(٢) وكانت العرب ترى ذلك ديناً تدعو إليه، وحقاً واجباً تحافظ عليه. وكان أبو سفيان بن حرب، إذا نزل به جار قال: يا هذا إنك اخترتني جاراً واخترت داري داراً، فجناية يدك عليّ دونك، وإن جنت عليك يد فاحتكم حكم الصبي على أهله. وكان الفرزدق يجير من عاد بقبر أبيه غالب بن صعصعة، فممن استجار بقبر أبيه فأجاره امرأة من بني جعفر بن كلاب خافت لما هجا الفرزدق بني جعفر أن يسميها وينسبها، فعادت بقبر أبيه، فلم يذكر لها اسماً ولا نسباً، ولكن قال:

عجوزٌ تصلي الخمسَ عادتُ بغالبٍ فلا والذي عادتُ به لا أضيرها
وقال مروان بن أبي حفصة:

هُمْ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَانُوا لَجَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَاكَيْنِ^(٣) مَنْزُلُ
وقال ابن نباتة:

ولو يَكُونُ سَوَادُ الشَّعْرِ فِي ذِمِّ مَا كَانَ لِلشَّيْبِ سُلْطَانٌ عَلَى الْقَمَمِ

وقيل: إن الحجاج أخذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وعذبه واستأصل موجوده، وسجنه فتوصل يزيد بحسن تلطفه، وأرغب السجان واستماله وهرب هو والسجان وقصدا الشام إلى سليمان بن عبد الملك بن مروان. وكان الخليفة في ذلك الوقت الوليد بن عبد الملك، فلما وصل يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك أكرمه، وأحسن إليه، وأقامه عنده. فكتب الحجاج إلى الوليد يعلمه أن يزيد هرب من السجن، وأنه عند سليمان بن عبد الملك أخيه أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين، وأن أمير المؤمنين أعلى رأياً. فكتب الوليد إلى أخيه سليمان بذلك، فكتب سليمان إلى أخيه يقول: يا أمير المؤمنين، إني ما أجرت يزيد بن المهلب إلا لأنه وأبوه وإخوته من صناعتنا، قديماً وحديثاً، ولم أجزْ عدواً لأمير المؤمنين. وقد كان الحجاج قصده وعذبه وأغرمه أربعة آلاف ألف درهم ظلماً، ثم طالبه بعدما بثلاثة آلاف ألف درهم، وقد صار إليّ واستجار بي فأجرتّه، وأنا أغرم عنه هذه الثلاثة آلاف ألف درهم، فإن

(١) سورة: النمل، الآية: ٣٦.

(٢) الذمار: ما يلزم حفظه والدفاع عنه.

(٣) سمكة سمكاً: رفعه فارتفع والسُّمُك: السقف، أو أعلى البيت إلى أسفله.

رأى أمير المؤمنين أن لا يخزني^(١) في ضيفي فليفعل، فإنه أهل الفضل والكرم. فكتب إليه الوليد: إنه لا بد أن ترسل إليّ يزيد مغلولاً مقيداً. فلما ورد ذلك على سليمان أحضر ولده أيوب ققيده، ودعا يزيد بن المهلب ققيده، ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغلّهما جميعاً بغالين وأرسلهما إلى أخيه الوليد وكتب إليه: أما بعد يا أمير المؤمنين فقد وجهت إليك يزيد وابن أخيك أيوب بن سليمان، ولقد هممت أن أكون ثالثهما، فإن هممت يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك أبداً بأيوب من قبله، ثم اجعل يزيد ثانياً، واجعلني إذا شئت ثالثاً والسلام. فلما دخل يزيد بن المهلب، وأيوب بن سليمان، في سلسلة واحدة أطرق الوليد استحياء وقال: لقد أسأنا إلى أبي أيوب، إذا بلغنا به هذا المبلغ، فأخذ يزيد ليتكلم وليحتج لنفسه فقال له الوليد: ما يحتاج إلى كلام فقد قلنا عنك، وعلما ظلم الحجاج. ثم إنه أحضر حداداً وأزال عنهما الحديد، وأحسن إليهما، ووصل أيوب ابن أخيه بثلاثين ألف درهم، ووصل يزيد بن المهلب بعشرين ألف درهم، وردّهما إلى سليمان وكتب كتاباً إلى الحجاج يقول له: لا سبيل لك على يزيد بن المهلب، فإياك أن تعاودني فيه بعد اليوم، فسار يزيد إلى سليمان بن عبد الملك، وأقام عنده في أعلى المراتب وأرفع المنازل.

وحكي أن رجلاً من الشيعة كان يسعى في فساد الدولة فجعل المهدي لمن دلّ عليه أو أتى به مائة ألف درهم فأخذه رجل من بغداد فأيس^(٢) من نفسه، فمر به معن بن زائدة، فقال له: يا أبا الوليد، أجزني أجارك الله. فقال معن للرجل: ما لك وما له؟ فقال: إن أمير المؤمنين طالبه. قال: خلّ سيّله. قال: لا أفعل. فأمر معن غلماناً فأخذه غصباً، وأردفه بعضهم خلفه ومضى الرجل فأخبر أمير المؤمنين المهدي بالقصة، فأرسل خلف معن فأخضره، فلما دخل عليه قال له: يا معن أتجير عليّ؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قتلت في يوم واحد في طاعتكم خمسة آلاف رجل، هذا مع أيام كثيرة تقدمت فيه طاعتي، أفما تروني أهلاً أن تجيروا إليّ رجلاً واحداً استجار بي. فاستحيا المهدي وأطرق طويلاً ثم رفع رأسه وقال: قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد. قال: إن رأى أمير المؤمنين أن يصل من استجار بي فيكون قد أجاره وحباه، قال: قد أمرت له بخمسين ألف درهم. فقال معن: يا أمير المؤمنين ينبغي أن تكون صلات الخلفاء على قدر جنایات الرعية، وأن ذنب الرجل عظيم، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجزل صلته فليفعل. قال: قد أمرت له بمائة ألف درهم. فرجع معن إلى منزله ودعا بالرجل ودفع له المال ووعظه. وقال: لا تعرض لمساخت الخلفاء.

وكان جعفر بن أبي طالب يقول لأبيه: يا أبت أني لا أستحي أن أطعم طعاماً، وجيراني لا يقدرّون على مثله. فكان أبوه يقول: أني لأرجو أن يكون فيك خلف من عبد المطلب. وسقط الجراد قريباً من بيت بعض العرب، فجاء أهل الحي فقالوا نريد جارك، فقال أما إذ جعلتموه جاري، فوالله لا تصلون إليه وأجاره حتى طار، فسمي مجير الجراد، وقيل هو أبو حنبل.

والحكايات في معنى ذلك كثيرة والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) لا يخزني: لا يجلب لي العار.

(٢) فأيس: من اليأس وفقدان الأمل.

الباب الثلاثون: في الخير والصلاح وذكر السادة الصحابة وذكر الأولياء والصالحين رضي الله تعالى عنهم أجمعين

اعلم أن أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ، أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم أجمعين، وفضائلهم أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، وإني والله أحبهم وأحب من يحبهم وأسأل الله أن يمتني على محبة النبي محمد ﷺ ومحبتهم، وأن يحشرنا في زمرة من تحت ألويتهم أنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

إنني أحبُّ أبا حفص^(١) وشيئته
وقد رضيْتُ علياً قدوةً علماً
كما أحبُّ عتيقاً^(٢) صاحبَ الغارِ
وما رضيْتُ بقتلِ الشيخ^(٣) في الدارِ
كلُّ الصحابةِ ساداتي ومعتدي
فهل عليَّ بهذا القولِ من عارٍ؟

وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح منكم اليوم صائماً؟ فقال أبو بكر: أنا يا رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «فمن أطعم اليوم منكم مسكيناً؟ فقال أبو بكر: أنا. قال: «فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: «والذي بعثني بالحق بشيراً ما سلكت وادياً، إلا سلك الشيطان وادياً غيره». ولما أسلم رضي الله عنه قال: يا رسول الله ألسنا على الحق؟ قال: بلى. قال: والذي بعثك بالحق نبياً لا نجد الله سراً بعد هذا اليوم.

ولما قدم عمر رضي الله عنه الشام وقف على طور سيناء فأرسل البطريق عظيماً لهم وقال: انظر ملك العرب فركه على فرس، وعليه جبة صوف مرقعة، يستقبل الشمس بوجهه ومخلاته في قريوس^(٤) السرج، وعمر يدخل يده فيها ويخرج فلق خبز يابس يمسحها من التبن ويلوكها، فوصفه للبطريق فقال: لا نرى بمحاربة هذا طاقة أعطوه ما شاء.

وأما أمير المؤمنين عثمان رضي الله تعالى عنه، فضائله كثيرة ومناقبه شهيرة، فهو جامع القرآن، ومن استحييت مع ملائكة الرحمن رضي الله عنه، وقال جميع بن عمير: دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت لها: أخبريني، مَنْ كان أحبَّ الناس إلى رسول الله ﷺ؟ قالت: فاطمة. قلت: إنما أسألك عن الرجال. قالت: زوجها، فوالله لقد كان صولماً قواماً ولقد سالت نفس رسول الله ﷺ في يده فردها إلى فيه. قلت: فما حملك على ما كان^(٥) فأرسلت

(١) أبا حفص: عمر بن الخطاب.

(٢) عتيقاً: أبو بكر الصديق.

(٣) الشيخ: عثمان بن عفان.

(٤) قريوس: ناحية في السرج.

(٥) يلمح إلى حادثة الجمل.

خمارها على وجهها وبكت وقالت: أمر قضي عليّ. وقال معاوية لضرار بن حمزة الكنانيّ، صف لي عليّاً، فاستعفى فألح عليه. فقال: أما إذن، فلا بدّ أنه والله كان بعيد المدى، شديد القوى، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل وظلمته. كان والله غزير العبرة، طويل الفكرة يقلب كفه، ويعاتب نفسه، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن. وكان والله يجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعوانه، ونحن والله مع تقريبه لنا، وقربه منا لا نكلمه هية له. يعظم أهل الدين، ويحب المساكين لا يطمع القويّ في باطله، ولا يئأس الضعيف من عدله. فأشهد الله لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، وقد مثل في محرابه قابضاً على لحية يتلملح تلملح الخائف، ويكي بكاء الحزين فكأنّي الآن أسمعه يقول: يا دنيا إليّ تعرّضتِ، أم إليّ تشوّقتِ هيهات هيهات، غرّي غيري لقد أبنتك^(١) ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير. آه من قلة الزاد، ووحشة الطريق. قال: فوكفت دموع معاوية حتى ما يملكها على لحية وهو يمسحها وقد احتق القوم بالبكاء. وقال: رحم الله أبا الحسن كان والله كذلك، فكيف حزنك عليه يا ضرار؟ قال: حزني عليه والله حزن من ذبح ولدها في حجرها فلا ترقأ^(٢) عبرتها، ولا تسكن حيرتها. ثم قام فخرج.

وقيل: أول من سلّ سيفاً في سبيل الله تعالى الزبير بن العوام رضي الله عنه وذلك أنه صاح على أهل مكة ليلاً صائح. فقال: قُتل محمد. فخرج متجرداً وسيفه معه صلتاً^(٣) فلقاه رسول الله ﷺ فقال: ما لك يا زبير؟ قال: سمعت أنك قتلت. قال: فماذا أردت أن تصنع؟ قال: أردت والله أن أستعرض على أهل مكة، وروي: أخبط بسيفي مَنْ قدّرت عليه. فضمّه رسول الله ﷺ وأعطاه إزاراً له فاستر به وقال له: أنت حواربي ودعا له. قال الأوزاعي: كان للزبير ألف مملوك يؤدون الضريبة لا يدخل بيت ماله منها درهم، بل كان يتصدق بها. وباع داراً له بستمائة ألف درهم. فقيل له: يا أبا عبد الله غُبت. قال: كلا والله، إني لم أغبن أشهدكم أنها في سبيل الله تعالى.

وهبط جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ يوم أحد فقال: مَنْ حملك على ظهره؟ وكان حمله على ظهره طلحة، حتى استقل على الصخرة. قال: طلحة. قال: أقرته السلام، وأعلمه أنني لا أراه يوم القيامة في هول من أهوالها إلا استغذته منه. من هذا الذي على يمينك؟ قال: المقداد بن الأسود قال: إن الله يحبه ويأمرك أن تحبه. من هذا الذي بين يديك يتقي عنك؟ قال: عمار بن ياسر، قال: بشره بالجنة حرمت النار على عمار. ومَرَّ أبو ذر على النبي ﷺ ومعه جبريل عليه السلام في صور دحية الكلبي فلم يسلم. فقال جبريل: هذا أبو ذر لو سلم لرددنا عليه. فقال: أتعرفه يا جبريل؟ قال: والذي بعثك بالحق نبياً لهو في ملكوت السموات السبع، أشهر منه في الأرض. قال: بم نال هذه المنزلة؟ قال: بزهد في هذه الحطام الفانية.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن ألف بيت من جيرانه البلاء»، ثم قرأ: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ»^(٤). الآية وقال أبو بكر السفاح لأبي بكر الهذلي: بِمَ

(١) أبنتك: أبعدتك وطلقتك.

(٢) لا ترقأ: لا تجف ولا تقطع.

(٣) صلتاً: حاداً.

(٤) سورة: البقرة، الآية: ٢٥١.

بلغ الحسن ما بلغ؟ قال: جمع كتاب الله تعالى وهو ابن اثني عشرة سنة، لم يجاوز سورة إلى غيرها، حتى يعرف تأويلها، ولم يقلب درهماً قط في تجارة، ولم يل عملاً لسلطان، ولم يأمر بشيء حتى يفعله، ولم ينه عن شيء حتى يدعه. قال السفاح: بهذا بلغ. وقال الجاحظ: كان الحسن يستني من كل غاية فيقال فلان أزهّد الناس إلا الحسن، وأفقه الناس إلا الحسن، وأفصح الناس إلا الحسن، وأخطب الناس إلا الحسن. وقال بعضهم: كان عمر بن عبد العزيز أزهّد من أويس، لأن عمر ملك الدنيا فزهّد فيها، وأويس لم يملكها. فقيل: لو ملكها لفعل كما فعل عمر، فقال: ليس من لم يجرب كمن جرب.

وقال أنس في ثابت البناني: إن للخير مفاتيح، وإن ثابتاً من مفاتيح الخير، وكان حبيب الفارسي من أنبياء الناس، وهو الذي اشترى نفسه من ربه أربع مرات، بأربعين ألفاً، كان يخرج البكرة^(١) فيقول: يا رب اشترت نفسي منك بهذه، ثم يتصدق بها. وكان أيوب السخيتاني من أزهّد الناس وأورعهم، ذكر عند أبي حنيفة رحمه الله تعالى فقال: رحم الله أيوب، لقد شهدت منه مقاماً عند منبر النبي لا أذكر ذلك المقام إلا اقشعر جلدي. وقال سفيان الثوري: جهدت جهدي على أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك فلم أقدر. وكان الخليل بن أحمد النحوي من أزهّد الناس وأعلامهم نفساً، وكان الملوك يقصدونه ويذلّون له الأموال، فلا يقبل شيئاً وكان يحج سنة، ويفزو سنة حتى مات رحمه الله. وقال ابن خارجة: جالست ابن عون عشرين سنة فما أظن الملكين كتباً عليه شيئاً، وروى أنه غسل كرز بن وبرة فلم يوجد على جسده مقال لحم^(٢). وعن محمد بن الحسن، قال: كان أبو حنيفة واحداً زمانه، ولو انشقت عنه الأرض، لانشتقت عن جبل من الجبال، في العلم والكرم والزهد والورع. وحج وكعب بن الجراح أربعين حجة، ورباط في عبادان أربعين ليلة، وختم بها القرآن أربعين ختمة، وتصدق بأربعين ألفاً، وروى أربعة آلاف حديث، وما رؤي واضحاً جنبه قط. ووقف عمر بن عبد العزيز على عطاء بن أبي رباح، وهو أسود مفلقل الشعر يفني الناس في الحلال والحرام فتمثل يقول: تلك المكارم لا قببان^(٣) من لبن. ومن مشايخ الرسالة رضوان الله عليهم أجمعين، سيدي أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربي، أستاذ إبراهيم بن شيان كان عجب الشأن، لم يأكل مما وصلت إليه أيدي بني آدم سنين كثيرة، وكان أكله من أصول العشب شيئاً تعود أكله.

ومنهم سيدي فتح بن شحرف بن داود ويكنى أبا نصر من الزاهدين الورعين لم يأكل الخبز ثلاثين سنة. قال أحمد بن عبد الجبار: سمعت أبي يقول: صحبت فتح بن شحرف ثلاثين سنة فلم أره رفع رأسه إلى السماء ثم رفعها يوماً فقال: طال شوقي إليك، فعجل قدومي عليك. وقال محمد بن جعفر: سمعت أنساناً يقول: غسلنا فتح بن شحرف فرأينا مكتوباً على فخذه لا إله إلا الله، فتروهناء مكتوباً؛ وإذا هو عرق داخل الجلد، ومات ينفد فصولي عليه ثلاثاً وثلاثين مرة أقل قوم كانوا يصلون عليه كانوا نحواً من خمسة وعشرين ألفاً إلى ثلاثين ألفاً.

ومنهم سيدي فتح بن سعيد الموصلي يكنى أبا نصر، من أقران بشر الحافي. وسري السقطي كبير الشأن في باب الورع والمجاهدات. قال إبراهيم بن نوح الموصلي: رجع فتح الموصلي إلى أهله بعد صلاة العتمة وكان صائماً

(١) البكرة: كيس يضم: ١٠ آلاف درهم.

(٢) مقال لحم: كتابة عن نحوه.

(٣) قببان: أقداح.

فقال: عشوني، فقالوا: ما عندنا شيء نعشيك به، فقال: ما بالكم جلوس في الظلمة؟ فقالوا: ما عندنا شيء نسرج به. فجعل يكي من الفرح ويقول: إلهي مثلي ترك بلا عشاء ولا سراج، بأي يد^(١) كانت مني، فما زال يكي إلى الصباح. وقال فتح: رأيت بالبادية غلاماً لم يبلغ الحلم وهو يمشي وحده ويحرك شفتيه فسلمت عليه فرد عليّ السلام. فقلت: إلى أين؟ فقال إلى بيت ربي عز وجل. فقلت: بماذا تحرك شفتيك؟ قال: أتلو كلام ربي. فقلت: إنه لم يجز عليك قلم التكليف. قال: رأيت الموت يأخذ من هو أصغر سنّاً مني. فقلت: خطاك قصيرة وطريقك بعيدة. فقال: إنما عليّ نقل الخطأ، وعليه البلاغ. فقلت: أين الزاد والراحلة؟ قال: زادّي يقيني وراحلتي رجلاي. فقلت: أسألك عن الخبز والماء؟ قال: يا عماء أرايت لو دعاك مخلوق إلى منزله أكان يجمل بك أن تحمل زادك إلى منزله؟ قلت: لا. فقال: إن سيدي دعا عباده إلى بيته، وأذنّ لهم في زيارته فحملهم ضعف يقينهم على حَمَلِ أزوداهم، وإني استبحت ذلك فحفظت الأدب معه أفتراه يضيئني؟ فقلت: حاشا وكلاً. ثم غاب عن بصري فلم أراه إلا بمكة، فلما رأيته قال: أيها الشيخ بعد عليّ ذلك الضعف من اليقين.

ومنهم سيدي أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الجبري، صحب شاه الكرمانى ويحيى بن معاذ الرازي. وكان يقال: في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم: أبو عثمان الجبري بنيسابور، والجنيد ببغداد، وأبو عبد الله الحلاج بالشام، ومن كلامه: لا يكمل الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء: المنع، والعطاء، والعز، والذل. وقال: منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالى في حالٍ فكرته، ولا تقلني إلى شيء فسخطه.

ومنهم سيدي سليمان الخواص يكنى أبا تراب كان أحد الزهاد المعروفين، والعباد الموصوفين سكن الشام، ودخل بيروت وكان أكثر مقامه بيت المقدس. وقيل: اجتمع حذيفة المرعشي، وإبراهيم بن أدهم، ويوسف بن أسباط فتذكروا الفقر والغنى وسليمان ساكت فقال بعضهم: الغنى من كان له بيت يسكنه وثوب يستره وسداد^(٢) من عيش يكفه عن فضول الدنيا. وقال بعضهم: الغنى من لم يحتاج إلى الناس. فقيل لسليمان: ما تقول أنت في ذلك؟ فبكى وقال: رأيت جوامع الغنى في التوكل، ورأيت جوامع الفقر في القنوط، والغنى حق الغنى من أسكن الله في قلبه من غناه يقيناً، ومن معرفته توكلأ، ومن قسمته رضاء، فذلك الغنى حق الغنى، وإن أمسى طاوياً، وأصبح معوزاً، فبكى القوم من كلامه.

ومنهم سيدي أبو سليمان بن عبد الرحمن بن أحمد بن عطية الداراني أحد رجال الطريقة قلنس الله سره. كان من أجَلِّ السادات وأرباب الجد في المجاهدات، ومن كلامه: من أحسن في نهاره كفي في ليله، ومن أحسن في ليله كفي في نهاره. ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه والله تعالى أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له. وقال: لكل شيء علامة، وعلامة الخذلان ترك البكاء. وقال لكل شيء صداً، وصداً نور القلب شيع البطن. وقال أحمد بن أبي الحواري: شكوت إلى أبي سليمان الوسواس، فقال: إذا أردت أن يقطع عنك، فأني وقت أحسست به فافرح، فإنك إذا فرحت به انقطع عنك، لأنه لا شيء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن، وإذا اغتممت به زادك. وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالى: اجتمعوا ليلاً على أبي سليمان الداراني فسمعوه يقول: يا رب إن طالبتي بسررتي،

(١) بأي يد: مكرومة وصنيع.

(٢) سداد: ما يكفي من القليل.

طالبك بتوحيدك، وإن طالبني بذنوبي طالبك بكرمك، وإن جعلتني من أهل النار أخبرت أهل النار بحبي إياك. وقال علي بن الحسين الحداد: سألت أبا سليمان بأي شيء تعرف الأبرار؟ قال: بكمات المصاب، وصيانة الكرامات. وروي عنه أنه قال: نمت ليلة عن وردي فإذا حوراء تقول لي: أئنم وأنا أرى لك في الخدور منذ خمسمائة عام.

ومنهم سيدي أبو محمد عبد الله بن حنيف من زهاد المتصوفة كوفي الأصل، ولكنه سكن انطاكية. ومن كلامه لا تغتم إلا من شيء يضرك غداً، ولا تفرح إلا بشيء يسرك غداً، وله كرامات ظاهرة، وبركات متواترة.

ومنهم سيدي أبو عبد الله محمد بن يوسف البناء، أصبهاني الأصل كتب عن ستمائة شيخ، ثم غلب عليه الانفراد والخلوة إلى أن خرج إلى مكة بشرط التصوف، وقطع البادية على التجريد^(١). وكان في ابتداء أمره يكسب في كل يوم ثلاثة دراهم وثلاثاً فيأخذ من ذلك لنفسه داتقاً، ويتصدق بالباقي. ويختم مع العمل كل يوم ختمة فإذا صلى العتمة في مسجده خرج إلى الجبل، إلى قريب الصبح، ثم يرجع إلى العمل، وكان يقول في الجبل: يا رب إما أن تهب لي معرفتك، أو تأمر الجبل أن ينطبق عليّ، فإني لا أريد الحياة بلا معرفتك.

ومنهم سيدي يحيى بن معاذ الرازي قدس الله سره سكنى أبا زكرياء أحد رجال الطريقة. كان أوحده وقته، ومن كلامه: لا تكن ممن يفضحه يوم موته ميراثه، ويوم حشره ميزانه. وقال: ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال، إن لم تنفعه، فلا تضره، وإن لم تسره فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تنمه. وقال: الصبر على الخلوة من علامات الإخلاص، وقال: بش الصديق صديقاً يحتاج إلى أن يقال له اذكرني في دعائك. وقال: على قدر حبك لله يحبك الخلق، وعلى قدر خوفك من الله تهابك الخلق، وعلى قدر شغلك بالله تشتغل في أمرك الخلق. وقال: مَنْ كان غناه في كسبه لم يزل فقيراً، ومَنْ كان غناه في قلبه لم يزل غنياً؛ ومَنْ قصد بحوائجه المخلوقين لم يزل محروماً. وروي أنه قدم شيراز فجعل يتكلم على الناس في علم الأسرار، فأتته امرأة من نساها فقالت: كم تريد أن تأخذ من هذه البلدة؟ قال ثلاثون ألفاً أصرفها في دين عليّ بخراسان. فقالت: لك عليّ ذلك، على أن تأخذها وتخرج من ساعتك. فرضي بذلك فحملت إليه المال فخرج من الغد. فعوتبت تلك المرأة فيما فعلت، فقالت: إنه كان يظهر أسرار أولياء الله تعالى للسوقة والعامّة فغرت على ذلك.

ومنهم سيدي يوسف بن الحسين الرازي يكنى أبا يعقوب. كان وحيد وقته في إسقاط التصنع، عالماً أديباً صاحب ذا النون المصري، وأبا تراب النخشي. من كلامه: إذا أردت أن تعلم العاقل من الأحق فحدثه بالمحال، فإن قبل فاعلم أنه أحق. وقال: إذا رأيت المريد^(٢) يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيء منه شيء. وقال: لأن ألقى الله تعالى بجميع المعاصي أحب من أن ألقاه بذرّة من التصنع. وقال أبو الحسن الدراج: قصلت زيارة بن الحسين الرازي من بغداد فلما دخلت بلده سألت عن منزله، فكل مَنْ سأله يقول: أي شيء تريد من هذا الزنديق^(٣)؟ فضيقوا صدره حتى عزمت على الإنصراف، فبت تلك الليلة في مسجد، ثم قلت في نفسي: جئت هذه البلدة فلا أقل من زيارته، فلم أزل أسأل عنه حتى وصلت إلى مسجده فوجدته جالساً في المحراب وبين يديه مصحف يقرأ فيه فدنوت منه

(١) التجريد: عارٍ من الثياب.

(٢) المريد: السائر في درب التصوف على هدي من شيخه وهو (المрад).

(٣) الزندق: الذي يظهر الإسلام وهو له منكر.

وسلمت عليه فرد علي السلام وقال: من أين؟ قلت: من بغداد فقال: أتحنن من قولهم شيئاً؟ قلت: نعم وأنشدته:

رَأَيْتُكَ تَبْنِي دَائِماً فِي قَطِيعَتِي وَلَوْ كُنْتُ ذَا حِزْمٍ لَهْدَمْتُ مَا تَبْنِي

فأطبق المصحف، ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته وثوبه ورحمته من كثرة بكائه. ثم التفت إلي وقال: يا بني أتلوم أهل البلد على قولهم يوسف بن الحسين زنديق؟ وما أنا ذا من وقت صلاة الصبح أقرأ القرآن، ولم تقطر من عيني قطرة، قامت علي القيامة بهذا البيت.

ومنهم سيدي حاتم بن علوان الأصم قلّس الله سره يكنى أبا عبد الرحمن، من أكابر مشايخ خراسان، صاحب شقيقاً البلخي. ومن كلامه: الزَّمْ خدمة مولاك تَأْتِيكَ الدُّنْيَا رَاغِمَةً، وَالْآخِرَةُ رَاغِبَةً. وقال: مَنْ أَدْعَى ثَلَاثاً بِغَيْرِ ثَلَاثٍ فَهُوَ كَاذِبٌ، وَمَنْ أَدْعَى حَبَّ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ وَرِعٍ عَنْ مُحَارَمَةِ فَهُوَ كَذَابٌ، وَمَنْ أَدْعَى مُحَبَّةَ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ غَيْرِ مُحَبَّةِ الْفَقْرِ فَهُوَ كَذَابٌ، وَمَنْ أَدْعَى حَبَّ الْجَنَّةِ مِنْ غَيْرِ إِتْفَاقِ مَالِهِ فَهُوَ كَذَابٌ. وسأله رجل: عَلَامَ بَنَيْتَ أَمْرَكَ فِي التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: عَلَى أَرْبَعِ خِصَالٍ؛ عَلِمْتُ أَنَّ رِزْقِي لَا يَأْكُلُهُ غَيْرِي فَأُطْمَأْنِنْتُ بِهِ نَفْسِي، وَعَلِمْتُ أَنَّ عِلْمِي لَا يَعْمَلُهُ غَيْرِي فَأَنَا مُشْغُولٌ بِهِ. وَعَلِمْتُ أَنَّ الْمَوْتَ يَأْتِينِي بَغْتَةً فَأَنَا أَبَادِرُهُ. وَعَلِمْتُ أَنِّي لَا أَخْلُو مِنْ عَيْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَيْثُ كُنْتُ فَأَنَا اسْتَحْيِي مِنْهُ. وَسَبَبُ تَسْمِيَةِ الْأَصْمَ مَا حَكَاهُ أَبُو عَلِيٍّ الدَّقَاقُ، أَنَّ امْرَأَةً جَاءَتْ تَسْأَلُهُ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَاتَّفَقَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا صَوْتُ رِيحٍ فَخَجَلَتِ الْمَرْأَةُ. فَقَالَ حَاتِمٌ: ارْفَعِي صَوْتَكَ وَأَرَاهَا أَنَّهُ أَصَمُّ فَسَرَتِ الْمَرْأَةُ بِذَلِكَ. وَقَالَتْ: إِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ الصَّوْتَ فَغَلَبَ عَلَيْهِ هَذَا الْأَسْمُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ.

ومنهم الحسن بن أحمد الكاتب من كبار مشايخ المصريين صاحب أبا بكر المصري وأبا علي الروذباري، وكان أوحده مشايخ وقته. من كلامه: رَوَائِحُ نَسِيمِ الْمُحَبَّةِ تَفُوحُ مِنَ الْمُحِبِّينَ وَإِنْ كَثُرُوا وَتَظْهَرُ عَلَيْهِمْ دَلَالَتُهَا وَإِنْ أَخْفَوْهَا، وَتَدُلُّ عَلَيْهِمْ وَإِنْ سَتَرُوا وَأَنْشَدُوا فِي هَذَا الْمَعْنَى:

إِذَا مَا أَسْرَتْ أَنْفُسُ النَّاسِ ذِكْرَهُ تَيَنَّبَهُ فِيهِمْ وَلَمْ يَتَكَلَّمُوا
تَطِيبُ بِهِ أَنْفُسَهُمْ فَتَذِيعُهَا وَهَلْ سُرُّ مَسْكٍ أَوْ دَغَّ الرِّيحُ يُكْمُ

ومن كلامه أيضاً: إِذَا انْقَطَعَ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالْكَلِيَّةِ، فَأُولَ مَا يَفِيدُهُ الْاسْتِغْنَاءُ بِهِ عَنِ النَّاسِ، وَقَالَ: صَحْبَةُ الْفَسَاقِ دَاءٌ وَدَوَائِهَا مَفَارِقَتُهُمْ. وَقَالَ: إِذَا سَكَنَ الْخَوْفُ فِي الْقَلْبِ لَا يَنْطِقُ اللِّسَانُ بِمَا لَا يَبِينُهُ.

ومنهم سيدي جعفر بن نصر الخلدي يكنى بأبي محمد، بغدادي المولد والمنشأ. صاحب الجنيد واتمى إليه، وحجاً قرياً من ستين حجة. روي أنه مر بمقبرة الشونيزية وامرأة على قبر تندب وتكفي بكاء بحرقه فقال لها: مَا لَكَ تَبْكِينَ؟ قَالَتْ: تَكَلَّى بَوْلَدِي فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

يَقُولُونَ تَكَلَّى وَمَنْ لَمْ يَلْقَ فِرَاقَ الْأَجْنَةِ لَمْ يَكُلْ
لَقَدْ جَرَّعْتَنِي لِأَلِي الْفِرَاقِ شَرَاباً أَمَرٌ مِنَ الْحَنْظَلِ

وروي أنه كان له فص فوقه منه يوماً في الدجلة وكان عنده دعاء مجرب لرد الضالة إذا دعا به عادت. فدعا به فوجد الفص في وسط أوراق كان يتصفحها، وصورة الدعاء أن تقول: يَا جَامِعَ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، اجْمَعْ عَلَيَّ ضَالَتِي. وقد روي أنه يقرأ قبله سورة الضحى ثلاثاً. ورزى الحافظ أبو بكر الخطيب في تاريخه قال: ودعت في بعض

حجاتي المزين الكبير الصوفي قلت زودني شيئاً. فقال: إن فقدت شيئاً أو أردت أن يجمع الله بيني وبينك أو بينك وبين إنسان فقل: يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين كذا فإن الله يجمع بيننا، أو بينك، وبين ذلك الشيء أو الإنسان.

ومنهم سيدي معروف بن فيروز الكرخي قدس الله سره يكتى أبا محفوظ من كبار المشايخ. مجاب الدعوة، وهو أستاذ السري، وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤديهم وهو صبي. فكان المؤدب يقول له قل: هو ثالث ثلاثة فيقول بل هو الواحد الصمد، فضربه المؤدب على ذلك ضرباً موجعاً فهرب منه فكان أبواه يقولان لفته يرجع إلينا على أي دين شاء فتوافق عليه. فرجع إلى أبويه فذكر الباب فقيل: من بالباب؟ فقال: معروف، فقيل: على أي دين؟ فقال: على دين الإسلام، فأسلم أبواه. وكان مشهوراً بإجابة الدعوة. ومن كلامه رضي الله عنه: إذا أراد الله بعد خيراً فتح له باب العمل، وأغلق عليه باب الفترة والكسل^(١). وكان يعاتب نفسه ويقول: يا مسكين كم تبكي، وتندب. أخلص تخلص. وقال سري: سألت معروفاً عن الطائعين لله بأي شيء قدروا على الطاعات لله عز وجل. قال: بخروج حب الدنيا من قلوبهم، ولو كانت في قلوبهم لما صحت لهم سجدة ومن انشادته:

الماء يغسل ما بالشوب من درن^(٢) وليس يغسل قلب المذنّب الماء

وقال إبراهيم الأطروش: كان معروف قاعداً يوماً على الدجلة ببغداد، فمر به صبيان في زورق يضربون بالملاهي ويشربون. فقال له أصحابه: أما ترى هؤلاء يعصون الله تعالى على هذا الماء؟ فادع عليهم. فرفع يده إلى السماء وقال: إلهي وسيدي كما فرحتهم في الدنيا أسألك أن تفرحهم في الآخرة. فقال له أصحابه: إنما سألناك أن تدعو عليهم، ولم نقل لك ادع لهم. فقال: إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم يضرهم ذلك. وقال سري: رأيت معروفاً في المنام كأنه تحت العرش والله تعالى يقول لملائكته: من هذا؟ فقالوا: أنت أعلم يا رب. قال: هذا معروف الكرخي سكر بحبي، لا يفيق إلا بقلائي. وقيل له في مرضه: أوصي. فقال: إذا مت فتصدقوا بقبصي هذا فإني أحب أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها عرياناً. وقال أبو بكر الخياط: رأيت في المنام كأنني دخلت المقابر فإذا أهل القبور جلوس على قبورهم وبين أيديهم الريحان، وإذا أنا بمعروف الكرخي بينهم يذهب ويحيى، فقلت: يا أبا محفوظ ما فعل الله بك، أو ليس قد مت؟ قال: بلى، ثم أنشد يقول:

موتُ النقيّ حياةٌ لا نفاذَ لها قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء

ومنهم قاسم بن عثمان الكرخي، يكتى أبا عبد الملك من أجلاء المشايخ، صحب أبا سليمان الداراني وغيره، وكان من أقران السري الحارث المحاسبي، وكان أبو تراب النخشي يصحبه. ومن كلامه: مَنْ أصلح فيما بقي من عمره غفر له ما مضى وما بقي، وَمَنْ أسفد فيما بقي من عمره أخذ بما مضى وما بقي. وقال: السلامة كلها في اعتزال الناس، والفرح كله في الخلوة بالله عز وجل. وسئل عن التوبة، فقال: التوبة رد المظالم، وترك المعاصي، وطلب الحلال، وأداء الفرائض. وقال لأصحابه: أوصيكم بخمس: إن ظلمتم فلا تظلموا، وإن مُدحمت فلا تفرحوا، وإن دُمتُم فلا تحزنوا، وإن كذبتُم فلا تغضبوا، وإن خانوكُم فلا تخونوا. وقال محمد بن الفرّج: سمعت قاسم ابن عثمان

(١) الفترة والكسل: الإنكسار والضعف.

(٢) درن: قنطرة.

يقول: إن لله عبادةً قصدوا الله بهمهمهم، فأفردوه بطاعتهم، واكتفوا به في توكلهم، ورضوا به عوضاً عن كل ما خطر على قلوبهم من أمر الدنيا، فليس لهم حبيب غيره، ولا قرّة عين إلا فيما قرب إليه. وكان يقول: قليل العمل مع المعرفة خير من كثير العمل بلا معرفة، ثم قال: اعرف وضع رأسك ونم، فما عبد الله الخلق بشيء أفضل من المعرفة.

وروي عنه أنه قال: رأيت في الطواف حول البيت رجلاً، ففكرت منه فإذا هو لا يزيد على قوله: اللهم قضيت حاجة المحتاجين وحاجتي لم تقض. فقلت له: ما لك لا تزيد على هذا الكلام؟ فقال: أحدثك؛ كنا سبعة رفقاء من بلاد شتى، غزونا أرض العدو فاستأسرونا كلنا، فاعتزل بنا لتضرب أعناقنا، فنظرت إلى السماء فإذا سبعة أبواب مفتحة، عليها سبع جوار، من الحور العين، في كل باب جارية، فقدم رجل منها ففكرت عنقه فرأيت جارية في يدها منديل قد هبطت إلى الأرض، ففكرت أعناق الستة وقيت أنا، وبقي باب وجارية فلما قدمت لتضرب عنقي استوهني بعض خواص الملك، فوهني له فسمعتها تقول: بأي شيء فاتك هذا يا محروم؟ وأغلقت الباب. فأنا يا أخي متحسر على ما فاتني، قال قاسم بن عثمان: أراه أفضلهم لأنه لا رأى ما لم يروا، وترك يعمل على الشوق.

ومنهم سيدي أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي، كان جليل القدر مالكي المذهب، عظيم الشأن، صاحب الجند ومن في عصره، وكان يبالغ في تعظيم الشرع المطهر، وكان إذا دخل شهر رمضان المعظم جُدد في الطاعات. يقول هذا شهر عظمه ربي، فأنا أولى بتعظيمه. وسئل عن قول النبي ﷺ «خير عمل المرء كسب يمينه» فقال: إذا كان الليل فخذ ماء وتهايا للصلاة وصل ما شئت، ومُد يدك وسل الله عز وجل فذلك كسب يمينك. ولما حج ورأى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وقع مغشياً عليه. فلما أفاق أنشد يقول:

هذه دارهم وأننت محبباً ما بقاء الدموع في الآفاق^(١)

وروي أنه قال: كنت يوماً جالساً فجرى في خاطري أنني بخيل، فقلت: مهما فتح الله عليّ به اليوم أدفعه إلى أول فقير يلقاني. قال: فينما أنا متذكر، إذ دخل عليّ شخص ومعه خمسون ديناراً، فقال: اجعل هذه في مصالحك، فأخذتها وخرجت وإذا أنا بفقير مكفوف بين يدي مزين يحلق رأسه، فتقدمت إليه وناولته الصرة، فقال لي: ادفعها للمزين، فقلت له: إنها دنائير، فقال: إنك لبخيل. قال: فناولتها للمزين، فقال المزين: إن من عادتنا أن الفقير إذا جلس بين أيدينا لا نأخذ منه أجراً. قال: فرميتها في الدجلة، وقلت: ما أعزك أحد إلا أذله الله تعالى.

ومنهم سيدي زرقان بن محمد، أخو ذي النون المصري صاحب سياحة^(٢)، كان بجبل لبنان. حكى عن يوسف بن الحسين الرازي قال: بينما أنا بجبل لبنان أدور إذ أبصرت زرقان أخا ذي النون المصري جالساً على عين ماء وقت صلاة العصر فسلمت عليه، وجلس من ورائه فالتفت إليّ وقال: ما حاجتك؟ فقلت: بيتا شعر سمعتهما من أخيك ذي النون المصري أعرضهما عليك، فقال: قل، فقلت: سمعته يقول:

قد بقينا ملبنيين حيارى نطلب الوصول ما إليه سبيل

(١) الموق: طرف العين.

(٢) سياحة: أسفار.

فدواعي الهوى تخفُّ علينا وخلافُ الهوى علينا ثقبُلُ
فقال زرقان ولكني أقول:

قد بقينا مذهلين حيارى حَبَّبَا رُبُّمَا وَنَفَمَ السُّوَكِيلُ
حيثما الفوزُ كان ذاك منانا وإليه في كل أمرٍ نميلُ

فعرضت أقوالهما على طاهر المقدسي فقال: رحم الله ذا النون المصري، رجع إلى نفسه فقال ما قال، ورجع زرقان إلى ربه فقال ما قال. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: زرقان بن محمد أخو ذي النون المصري، وأظن أنه أخوه مؤاخاة لا أخوة نسب، وكان من أقرانه ورفقائه.

ومنه سيدي أبو عبد الله الناجي سعيد بن بريد، كان من أقران ذي النون المصري، ومن أقران استاذي أحمد بن أبي الحواري، له كلام حسن في المعرفة وغيرها. روي عنه أنه قال: أصابني ضيق وشدة فبت وأنا مفكر في المسير إلى بعض إخواني، فسمعت قائلاً يقول لي في النوم: أيجمل بالحر المرید إذا وجد عند الله ما يريد أن يميل بقلبه إلى العبيد؟ فانتبهت وأنا من أغنى الناس.

ومنه سيدي بشر بن الحرث قلَّس الله روحه، يكنى أبا نصر، أحد رجال الطريقة، أصله من مرو، وسكن بغداد، وكان من كبار الصالحين وأعيان الأتقياء المتورعين، صحب الفضيل بن عياض، وروى عن سري السقطي وغيره. ومن كلامه: لا تكونُ كاملاً حتى يأمنك عدوك، وكيف يكون فيك خير وأنت لا يأمنك صديقك. وقال: أول عقوبة يُعاقبها ابن آدم في الدنيا مفارقة الأحباب. وقال: غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه، وخفاء مكانه عنهم. وقال: التكبر على المتكبر من التواضع. وسئل عن الصبر الجميل فقال: الصبر الجميل هو الذي لا شكوى فيه إلى الناس. وقيل: إنه لقي رجلاً سكران فجعل الرجل يقبل يد بشر ويقول: يا سيدي يا أبا نصر، وبشر لا يدفعه عن نفسه، فلما ولي الرجل تفرغرت^(١) عينا بشر وجعل يقول: رجل أحب رجلاً على خير توهمه لعل المحب قد نجا، والمحبوب لا يدري ما حاله. وروي أن امرأة جاءت إلى أحمد بن حنبل تسأله فقالت: إني امرأة أغزل بالليل والنهار وأبيعه، ولا أبيع غزل الليل من غزل النهار، فهل عليّ في ذلك شيء؟ فقال: يجب أن تبيني. فلما أنصرفت قال أحمد لابته: اذهب فانظري أين تدخل. فرجع فقال: دخلت دار بشر. فقال: قد عجبت أن تكون هذه المسائلة من غير بيت بشر. ولما مرض مرضه الذي مات فيه قال له أهله: نرفع ماءك^(٢) إلى الطيب. قال: أنا بعين الطيب يفعل بي ما يريد. فالتحوا عليه فقال لأخته: ادفعي إليهم الماء، فدفعته إليهم في قارورة، وكان بالقرب منهم طيب نصراني فدفعوا إليه القارورة، فقال: حركوا الماء. فحركوه. فقال: ضعوه فوضعوه، فقالوا له: ما بهذا وصفت لنا، قال: ماذا وصفت لكم؟ قالوا: وصفت بأنك أحلق أهل زمانك في الطب. قال: هو كما وصفت لكم. إن هذا الماء إن كان ماء نصراني فهو ماء رهاب قد فُتت الخوف كبده، وإن كان ماء مسلم فماء بشر الحافي، لأن ما في زمانه أخوف منه. قالوا: هو ماء بشر. فقال: أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فلما رجعوا إلى بشر، قال لهم: أسلم الطيب، قالوا له: ومن أعلمك بهذا، قال: لما خرجتم من عندي نوديت: يا بشر ببركة مائك أسلم الطيب. توفي سنة سبع وعشرين ومائتين.

(١) تفرغرت: امتلأنا دموعاً.

(٢) نرفع ماءك: لعله يقصد إلى تحليل بوله.

ومنهم سيدي أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي، من أجل المشايخ، كبير الشأن، ومن كلامه: ما زلت أسوق إلى الله تعالى نفسي وهي تبكي، إلى أن سقتها وهي تضحك، وسئل: بأي شيء وجدت هذا المعرفة؟ فقال: ببطن جائع، وبدن عار. وقيل له: ما أشد ما لقيت في سبيل الله تعالى؟ فقال: لا يمكن وصفه، فقيل له: ما أهون ما لقيته نفسك منك؟ فقال: أما هذا فنعم. دعوتها إلى شيء من الطاعات فلم تجبني، فمعتها الماء سنة^(١). وقال: الناس كلهم يهرون من الحساب، ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني، فقيل له: لِمَ؟ فقال: لعله يقول فيما بين ذلك يا عبدي. فأقول ليك، فقله لي يا عبدي أحب إلي من الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء. وقال له رجل: دُلّني على عمل أتقرب به إلى ربي. فقال: أجِبْ أولياء الله ليحبوك، فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه، فلعله ينظر إلى اسمك في قلب ولي فيغفر لك. وسئل عن المحبة، فقال: استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك. توفي سنة إحدى وستين ومائتين رحمه الله تعالى.

ومنهم شيخ الطائفة سيدي أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري شيخ وقته، وفريد عصره، أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه ببغداد صاحب جماعة من المشايخ، وصاحب خالد السري، والحرث المحاسبي^(٢)، ودرس الفقه على أبي ثور، وكان يفتي في مجلسه بحضوره وهو ابن عشرين سنة. ومن كلامه رضي الله عنه: علامة إعراض الله تعالى عن العبد، أن يشغله بما لا يعنيه. وقال: الأدب أدبان، أدب السر، وأدب العلانية، فأدب السر طهارة القلوب، وأدب العلانية حفظ الجوارح من الذنوب. ورؤي في يده يوماً سبحة، فقيل له: أنت مع تمكثك وشرfk تأخذ بيدك سبحة. فقال: نعم سبب وصلنا به إلى ما وصلنا لا تركه أبداً. وقال الحسن بن محمد السراج سمعت الجنيد يقول: رأيت إبليس في منامي وكأنه عريان، فقلت له: ألا تستحي من الناس؟ فقال: بالله هؤلاء عندك من الناس! لو كانوا من الناس ما تلاعبت بهم كما يتلاعب الصبيان بالكرة، ولكن الناس عندي ثلاثة نفر. فقلت: ومن هم؟ قال: في مسجد الشونيزي قد أضنوا^(٣) قلبي، وأنحلوا جسمي كلما هممت بهم أشاروا إلى الله عز وجل، فأكد أن أحرق. قال الجنيد: فانتبهت من نومي، ولبست ثيابي، وجئت إلى مسجد الشونيزي بليل فلما دخلت أخرج أحدهم رأسه وقال: يا أبا القاسم أنت كلما قيل لك شيء تقبل، قيل إن الثلاثة الذين كانوا في المسجد الشونيزي: أبو حمزة، وأبو الحسن الثوري، وأبو بكر الدقاق رضي الله عنهم. وقال محمد بن قاسم الفارسي: بات الجنيد ليلة العيد في الموضع الذي كان يعتاده في البرية فإذا هو وقت السحر بشاب ملتف في عباءة وهو يبكي يقول:

بحرمة غررتي كم ذا الصدودُ ألا تحنوا عليّ ألا تجودوا
سرور العيد قد عمّ النواحي وحرزني في ازدياد لا يبدؤ
فإن كنت اقترفت خلال سوء فعلدي في الهوى أن لا أعود

توفي الجنيد رحمه الله تعالى سنة سبع وتسعين ومائتين ببغداد، وصلى عليه نحو ستين ألفاً رضوان الله عليهم أجمعين.

(١) منعها الماء سنة: يقصد الامتناع عن الاستحمام.

(٢) الحرث المحاسبي: لعله الحرث بن عبد الله المحاسبي.

(٣) أضنوا: أنعموا.

وممن صحبته وانضعت بصحبته وفاضت الخيرات عليّ بركاته سيدي الشيخ الإمام العالم العامل أبو المعالي وأبو الصدق أبو بكر بن عمر الطريزي المالكي، قدس الله سره وروحه ونور ضريحه، كان أرواح زمانه في الزهد والورع قانعاً لأهل الضلال والبدع، وله أسرار ظاهرة، وبركات متواترة، قد أطاع أمره بالخلاتق عجباً وعرباً، وانتشر ذكره في البلاد شرقاً وغرباً، وأنت الملوك إلى بابه واختاروا أن يكونوا من جملة أصحابه، ما أتاه مكروب إلا فترج الله كربته، ولا طالب حاجة إلا قضى الله حاجته، كان محافظاً على النوافل، ملازماً للفرض، وكان أكثر أكله من المباح من نبات الأرض، لم يتمتع نفسه في الدنيا بالمأكّل والمشارب اللذيذة، بل قيل إنه غضب على نفسه مرة فمنعها شرب الماء شهوراً عديدة، وكان رضي الله عنه كثير الشفقة والحنو على أصحابه، نصحوا لجميع خلق الله من أعدائه وأحبابه يدخل عليه أعدى عدوه، فيقبل بيشره ويبره عليه، فيخرج من عنده وهو أحب الناس إليه كما قال بعضهم:

وانسي لألقى المرة أعلم أنه عدوي وفي أحشائه الضغنُ كامنُ
فأمنحه بشري فيرجع قلبه سليماً وقد ماتت لديه الضفائنُ

وكانت جملة أهل زمانه عليه، وأحوالهم في كل أمر راجعة إليه، وكنت كثيراً ما أسمعه يتمثل بهذا البيت:

وما حَمَلُونِي الضَّيْمَ إِلَّا حَمَلْتُه لأنني محبٌ والمحبُّ حَمُولٌ^(١)

وكان رضي الله عنه كثير المصافاة، عظيم الموافاة، شأنه الحلم والستر، لم يهتك حرمة مسلم ولا فضحه، وما استشاره أحد في أمرٍ إلا أرشده إلى الخير ونصحه، صحبته رضي الله عنه نحو خمس عشرة سنة، فكانها من طيبها كانت سنة، ما قطع برّه يوماً واحداً عني، حتى كنت أظن أن ليس عنده أخص مني، وكان ذلك فعله مع جميع أصحابه قاطبة يبض الله وجهه في القيامة، ويلغه من فضل ربه مآربه. وكان رضي الله عنه فقيهاً في مذهب الإمام مالك. إمام كبير لم ير له في زمانه من شبيه ولا نظير، وله في علم الحقيقة أقوال. وكم رأينا له من مكاشفات وأحوال، ولو تتبعته مناقبه لاتسع الكلام ولكني أقول كان أرواح عصره والسلام. عاش رضي الله عنه نيفاً وستين سنة، وكان الناس في زمانه في عيشة راضية وأحوال حسنة. وكان رضي الله عنه كثير الأمراض والأسقام، حصل له في آخر عمره ضعف شديد أقام به نحو سنة، ثم تزايد مرضه في العشر الأول من ذي الحجة الحرام، فلما كانت ليلة الحادي عشر اشتد به الأمر واحتضر ولم يزل في النزاع^(٢) إلى ثلث الليل الأول من الليلة المذكورة، ثم توفي رحمه الله تعالى، سعيداً حميداً في ليلة الجمعة حادي عشر ذي الحجة الحرام سنة سبع وعشرين وثمانمائة، ولما أخبر الناس وفاته عظم مصابه على المسلمين، ووقع النوح والبكاء والأسف في أقطار البلدان. حتى طواف المخالقين لليلة من النصارى وغيرهم، وصاروا يكون ويتوجعون ويتأسفون على فراقه، وكيف لا وهو إمام العصر علامة الدهر حق فيه قول القائل:

حلفَ الزمانُ ليأتيَنُ بمثلهِ خَشِيتُ يَمِينُكَ يا زمانُ فَكَفَّرِ^(٣)

رضي الله عنه، ورضي عنا به، ونفعنا ببركته في الدين والدنيا والآخرة. فشرعوا في تجهيزه وغسله فكنت ممن حضر غسله، ولكن لم يكن ذهني معي في تلك الساعة لما جرى علينا من المصيبة بفقدته. كيف لا؟ وقد كان لي والدًا

(١) المحبُّ حمولٌ: أي المحب كثير الاحتمال للجور.

(٢) النزاع: طلوع الروح.

(٣) فكفر: أي لم يف يمينه فوجبت الكفارة.

شفوقاً وباراً محسناً عشوقاً. فلما انتهى غسله رضي الله عنه جاء القضاة، والنواب، والكشاف والولاء، وحملوه على أعناقهم ومضوا به إلى جامع الخطبة بالمحلة فضاق بهم الجامع على سعة، وضافت الشوارع والسكك والطرقات من كثرة الناس، فلم ير أكثر جمعاً، ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم. وهذا دليل على أنه كان قطب أهل زمانه. قال الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه: بيننا وبينهم الجنائز، يريد بذلك اجتماع الناس. والله أعلم. فارتفع نعشه على أعناقهم، وتقدم للصلاة شيخه العارف بالله تعالى سيدي سليمان الدواخلي نفعنا الله ببركته ودفن يوم الجمعة بزاورته التي أنشأها بسندفا مع والده الشيخ الإمام العالم العلامة مفتي المسلمين سراج الدين أبي حفص عمر الطريني المالكي في قبر واحد نفعنا الله ببركته وجعل الجنة مقبله ومثواه، وحشرنا وإياه في زمرة سيد الأولين والآخرين محمد خاتم النبيين وأفضل المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. ونسأله لنا التوفيق والإعانة وأن يمتع المسلمين بطول بقاء أخيه سيدنا ومولانا الشيخ شمس الدين محمد الطريني أدام الله أيامه للمسلمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الباب الحادي والثلاثون: في مناقب الصالحين وكرامات الأولياء رضي الله عنهم

اعلم أن كرامات الأولياء لا تنكر، ومناقبهم أكثر من أن تحصر، نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم في زمرة نبينا محمد ﷺ يوم المحشر، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

حكاية: قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: احتبس عنا المطر بالبصرة، فخرجنا نستقي مراراً فلم نر للإجابة أثراً، فخرجت أنا وعطاء السلمي، وثابت البناني، ويحيى البكاء، ومحمد بن واسع، وأبو محمد السخيتاني، وحبيب الفارسي، وحسان بن ثابت بن أبي سنان، وعتبة الغلام، وصالح المزني حتى إذا صرنا إلى المصلى بالبصرة خرج الصبيان من المكاتب^(١) ثم استبقينا فلم نر للإجابة أثراً، حتى انتصف النهار، وانصرف الناس، وبقيت أنا وثابت البناني بالمصلى، فلما أظلم الليل إذا أنا بعبد أسود مليح، رقيق الساقين عليه جبة صوف. قومت ما عليه بدرهمين. فجاء بماء فتوضأ، ثم جاء إلى المحراب فصلى ركعتين خفيفتين. ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ومولاي إلى كم ترّد عبادك فيما لا ينفك، أفند ما عندك، أم نقص ما في خزائنك؟ أقسمت عليك بحبك لي إلا ما أسقيتنا غيثك الساعة. قال: فما أتم كلامه حتى تغيّمت السماء وجاءت بمطر كأفواه القرب. قال مالك: فتعرضت له، وقلت له: يا أسود أما تستحي مما قلت؟ قال: وما قلت؟ قلت: قولك بحبك لي وما يدريك أنه يحبك. قال: تنع^(٢) عني يا من اشتغل عنه بنفسه، أفترأى بدائي بذلك إلا لمحبه إياي؟ ثم قال: محبة لي على قدره، ومحبة لي على قدري. فقلت له: يرحمك الله أرفق قليلاً، فقال: إني مملوك على فرض من طاعة مالكي الصغير.

قال: فانصرف وجعلنا نقف^(٣) أثره على البعد، حتى دخل دار نخاس، فلما أصبحنا أتينا النخاس فقلت: يرحمك الله عند غلام تبعه لنا للخدمة؟ قال: نعم عندي مائة غلام للبيع، فجعل يعرض علينا غلاماً بعد غلام حتى عرض علينا سبعين غلاماً فلم ألقى حيبي فيهم. فقال: عودا إليّ في غير هذا الوقت، فلما أردنا الخروج من عنده، دخلنا حجرة خربة خلف داره وإذا بالأسود قائم يصلي. فقلت: حيبي ورب الكعبة، فجئت إلى النخاس فقلت له: يعني هذا الغلام. فقال: يا أبا يحيى هذا الغلام ليست له همة في الليل إلا البكاء، وفي النهار إلا الخلوة والوحدة. فقلت له: لا بد من أخذه منك ولك الثمن، وما عليك منه. فدعاه فجاء وهو يتناعى فقال: خذه بما شئت بعد أن تبرئني من عيوبه كلها. فاشتريته منه بعشرين ديناراً، وقلت له: ما اسمك؟ قال ميمون، فأخذت بيده أريد المنزل.

(١) مفرداً مكب: مكان تعليم الصبية (الكتاتيب).

(٢) تنع: ابتعد.

(٣) نقف: نتبع.

فالتفت إليّ، وقال: يا مولاي الصغير لماذا اشتريتني وأنا لا أصلح لخدمة المخلوقين؟ فقلت له: والله يا سيدي إنما اشتريتك لأخدمك بنفسِي. قال: ولمْ ذلك؟ فقلت: ألسنَ صاحبنا البارحة بالمصلى؟ قال: بلى وقد اطلعت على ذلك. قلت: نعم وأنا الذي عارضتك البارحة في الكلام بالمصلى. قال: فجعل يمشي حتى أتى إلى مسجد فاستأذني ودخل المسجد فصلى فيه ركعتين خفيفتين، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ومولاي سر كان بيني وبينك، اطلعت عليه غيرك، فكيف يطيب الآن عيشي؟ أقسمت عليك بك إلا ما قبضتني إليك الساعة. ثم سجد فانتظرته ساعة فلم يرفع رأسه فجئت إليك وحزّكته فإذا هو قد مات رحمة الله تعالى عليه. قال: فمددت يديه ورجليه فإذا هو ضاحك مستبشر وقد غلب البياض على السواد، ووجهه كالقمر ليلة البدر، وإذا شاب قد دخل من الباب وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أعظم الله أجورنا وأجوركم من أخينا ميمون، هاكم الكفن، فتناولني ثوبين ما رأيت مثلهما قط، ففسلناه، وكفناه بهما، ودفناه. قال مالك بن دينار: فبقيته نستقي إلى الآن، ونطلب الحوائج من الله تعالى رحمة الله عليه.

وحكي عن حذيفة المرعشي رضي الله عنه، وكان قد خدم إبراهيم الخواص، رضي الله عنه وصحبه مدة فقليل له: ما أعجب ما رأيت منه؟ فقال: بقينا في طريق مكة أياماً لم نأكل طعاماً، فدخلنا الكوفة فأورنا إلى مسجد خرب فنظر إليّ إبراهيم وقال: يا حذيفة أرى بك أثر الجوع. فقلت: هو كما ترى. فقال: عليّ بداوة وفرطاس فأحضرتهما إليه فكتب بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود بكل حال والمشار إليه بكل معنى ثم قال:

أنا حامدٌ أنا شاكِرٌ أنا ذاكرٌ	أنا جائعٌ أنا ضائعٌ أنا عاري
هي سئةٌ وأنا الضميرُ لنصفِها	فكن الضميرُ لنصفِها يا باري
مدحي لغيرك لهبٌ نارٍ خضتُها	فأجرُ عبيدك من لهيبِ النارِ

قال حذيفة: ثم دفع إليّ الرقعة وقال: اخرج بها ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى، وادفعها إلى أول من يلقاك. فخرجت فأول من لقيني رجل على بغلة فتناوله الرقعة فأخذها فقرأها ويكى، وقال: ما فعل بصاحب هذه الرقعة؟ قلت: هو في المسجد الفلاني. فدفع إليّ صرة فيها ستمائة درهم فأخذتها ومضيت فوجدت رجلاً فسألت: مَنْ هذا الراكب على البغلة؟ فقال: هو رجل نصراني. قال: فجئت إبراهيم وأخبرته بالقصة فقال: لا تمس الدراهم فإن صاحبها يأتي الساعة، فلما كان بعد الساعة أقبل النصراني راكباً على بغلة، فترجل على باب المسجد ودخل فأكب على إبراهيم يقبل رأسه ويديه ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فبكى إبراهيم الخواص فرحاً به وسروراً، وقال: الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. الصلاة والسلام.

وحكي أن بعضهم كان ملاحاً بينهر النيل المبارك بمصر. قال: كنت أعدي من الجانب الغربي إلى الجانب الشرقي، ومن الجانب الشرقي إلى الجانب الغربي. فبينما أنا ذات يوم في الزورق إذا بشيخ مشرق الوجه عليه مهابة. فقال: السلام عليكم. فرددت عليه السلام: فقال: أتحملني إلى الجانب الغربي لله تعالى؟ فقلت: نعم. فطلع إلى الزورق وعديت به إلى الجانب الغربي، وكان على ذلك الفقير مرقعة، ويده ركوة^(١) وعصا، فلما أراد الخروج من

(١) ركوة: وعاء للماء والسوائل.

الزورق قال: إني أريد أن أحملك أمانة. قلت: وما هي؟ قال: إذا كان غداً وقت الظهر تجدني عند تلك الشجرة ميتاً، وستنسى فإذا ألهمت فأنتي وغسلني وكفّني في الكفن الذي تجده عند رأسي، وصلّ عليّ وادفني تحت الشجرة، وهذه المرقعة، والعصا والركوة يأتيك مَنْ يطلبها منك فأدفعها إليه ولا تحتقره.

قال الملاح: ثم ذهب وتركني. فتمعجت من قوله وبثّ تلك الليلة فلما أصبحت انتظرت الوقت الذي قال لي فلما جاء وقت الظهر نسيت، فما تذكرت إلا قريب العصر فسرت بسرعة فوجدته تحت الشجرة ميتاً؛ ووجدت كفناً جديداً عند رأسه تفوح منه رائحة المسك ففسلته وكفّته. فلما فرغت من غسله حضر عندي جماعة عظيمة لم أعرف منهم أحداً فصليتنا عليه ودفنته تحت الشجرة كما عهد إليّ، ثم عدت إلى الجانب الشرقي وقد دخل الليل. فتمت فلما طلع الفجر وبانت الوجوه إذا أنا بشاب قد أقبل عليّ، فحققت النظر في وجهه فإذا هو من صبيان الملاهي كان يخدمهم فأقبل وعليه ثياب رفاق، وهو مخضوب الكفين وطارة^(١) تحت إبطه. فسلم عليّ فرددت عليه السلام فقال: يا ملاح، أنت فلان بن فلان؟ قلت: نعم. قال: هات الوديعة التي عندك. قلت: ومن أين لك هذا؟ قال: لا تسأل. فقلت: لا بد أن تخبرني. فقال: لا أدري، إلا أنني البارحة كنت في عرس فلان التاجر فسهرونا نرقص ونغني إلى أن ذكر الله الذاكرون على المآذن، فتمت لأستريح وإذا برجل قد أبقطني وقال: إن الله تعالى قد قبض فلاناً الولي، وأقامك مقامه، فسر إلى فلان بن فلان صاحب الزورق إن الشيخ أودع لك عنده كيت وكيت. قال: فدفعتهما له فخلع أثوابه الرقاق ورمي بها في الزورق، وقال: تصدق بها على مَنْ شئت، وأخذ الركوة والعصا، ولبس المرقعة وسار وتركني أتحرق وأبكي لما حرمت من ذلك. وأتمت يومي ذلك أبكي إلى الليل، ثم نمت فرأيت رب العزة جل جلاله في النوم فقال: يا عبدي، أثقل عليك إن منتث على عبد عاصي بالرجوع إليّ؟ إنما ذلك فضلي أوتيته من أشاء من عبادي، وأنا ذو الفضل العظيم.

وحكى أبو إسحاق الصعلوكي قال: خرجت سنة إلى الحج، فبينما أنا في البادية تائه، وقد جُرّ الليل^(٢)، وكانت ليلة مقمرة إذا سمعت صوت شخص ضعيف يقول: يا أبا إسحاق قد انتظرتك من الغداة، فدنوت منه فإذا هو شاب نحيف الجسم، قد أشرف على الموت، وحوله رياحين كثيرة، منها ما أعرف، ومنها ما لا أعرف، فقلت له: من أنت؟ ومن أين أنت؟ قال: من مدينة شمشاط كنت في عزة ورفعة، فطالبتني نفسي بالغريرة والعزلة، فخرجت وقد أشرفت الآن على الموت فدعوت الله تعالى أن يقبض لي ولياً من أوليائه، وأرجو أن تكون أنت هو. فقلت: ألك حاجة؟ قال: نعم لي والدلة وإخوة وأخوات. فقلت: هل اشتقت إليهم قط؟ قال: لا إلا اليوم اشتقت أن أشم ريحهم فهممت أريدهم فاحتوشنتي^(٣) السباع والهوام ويكين معي، وحملوا إليّ هذه الرياحين التي تراها. قال أبو إسحاق: فينما أنا معه يرقّ له قلبي، وإذا بحية عظيمة في فمها باقة نرجس كبيرة فقال: دع ولي الله تعالى، فإن الله يغار على أوليائه. قال: فغشي عليه وغشي عليّ، فما أفقت إلا وهو قد خرجت روحه رحمه الله. قال: فدخلت مدينة شمشاط بعدما حججت فاستقبلتني امرأة بيدها ركوة ما رأيت أشبه بالشاب منها، فلما رأته نادته: يا أبا إسحاق ما شأن الشاب الغريب الذي مات غريباً؟ فإني متظرتك منذ كذا، فذكرت لها القصة إلى أن قلت لها: أشم ريحهم، فصاحت أواه

(١) وطارة: ليست في المعاجم ولعلها آلة دائرية يعزف عليها (محرقة عن الإطار).

(٢) جُرّ الليل: أدلهم ظلامه.

(٣) احتوشنتي: اجتمعت حولي.

أزاه قد بلغ والله الشم، ثم شهقت شهقة خرجت روحها، فخرج إليها بنات أتراب عليهم مرقعات ومروط فكفلن أمرها وتولين دفنها وهن مسترات رضوان الله على الجميع.

يا نسيماً هب من وادي قبا^(١) خبريني كيف حال الغريب
كم سألت الدهر أن يجمعنا مثل ما كنا عليه فابى

ويحكى أن رجلاً كان يعرف بدینار العیار، وكان له والدة صالحة تعظه وهو لا يتعظ، فمر في بعض الأيام بمقبرة فأخذ منها عظماً فضتت في يده ففكر في نفسه. وقال: ويحك يا دينار كأنني بك وقد صار عظمك هكذا رفاتاً، والجسم تراباً فندم على تفریطه، وعزم على التوبة، ورفع رأسه إلى السماء وقال: إلهي وسيدي ألقيت إليك مقاليد أمري فأقبلني وارحمني. ثم أقبل نحو أمه متغير اللون منكسر القلب فقال: يا أماه، ما يصنع بالعبد الآبق إذا أخذه سيده؟ قالت: يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يديه وقدميه. فقال: أريد جبة من صوف، وأقراصاً من شعر وغلّين وافعلي بي كما يفعل بالعبد الآبق، لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني ففعلت به ما أراد، فكان إذا جُنَّ عليه الليل، أخذ في البكاء والعويل، ويقول لنفسه: ويحك يا دينار ألك قوة على النار؟ كيف تعرضت لغضب الجبار؟ ولا يزال كذلك إلى الصباح، فقالت له أمه: يا بني ارفق بنفسك. قال: دعيني أنتعب قليلاً لعلني أستريح طويلاً، يا أماه إن لي غداً موقفاً طويلاً بين يدي رب جليل، ولا أدري أيؤمر بي إلى ظل ظليل، أو إلى شر مقيّل^(٢) ١٩ قالت: يا بني خذ لنفسك راحة. قال: لست للراحة أطلب كأنك يا أماه غداً بالخلاق يساقون إلى الجنة، وأنا أساق إلى النار مع أهلها، فتركته وما هو عليه فأخذ في البكاء والعبادة وقراءة القرآن قرأ في بعض الليالي: ﴿فوريك لسألتهم أجمعين * عما كانوا يعملون﴾^(٣) ففكر فيها وجعل يكي حتى غشي عليه، فجاءت أمه إليه فنادته فلم يجيبها، فقالت له: يا حبيبي وقرة عيني أين الملتقي؟ فقال بصوت ضعيف: يا أماه إن لم تجديني في عرصات^(٤) القيامة فأسألي مالكاً خازن النار عني. ثم شهق شهقة فمات رحمه الله تعالى. ففسلته أمه وجهزته وخرجت تنادي: أيها الناس هلموا إلى الصلاة على قتيل النار، فجاء الناس من كل جانب فلم ير أكثر جمعاً ولا أغزر دمعاً من ذلك اليوم. فلما دفنوه نام بعض أصدقائه تلك الليلة فرآه يتبختر في الجنة، وعليه حلة خضراء، وهو يقرأ الآية ﴿فوريك لسألتهم أجمعين * عما كانوا يعملون﴾ ويقول: وعزته وجلاله سألني، ورحمني، وغفر لي، وتجاوز عني، ألا أخبروا عني والدتي.

وحكي عن الحسن البصري قال: نزل سائل بمسجد فسأل الناس أن يطعموه كسرة فلم يطعموه. فقال الله تعالى لملك الموت: اقْبِض روحه فإنه جائع، فقبض روحه فلما جاء المؤذن رآه ميتاً فأخبر الناس بذلك، فتعاونوا على دفنه. فلما دخل المؤذن المسجد وجد الكفن في المحراب مكتوباً عليه: هذا الكفن مردود عليكم، بشن القوم أنتم، استطعمكم فقير فلم تطعموه، حتى مات جوعاً مَنْ كان من أحبائنا لا نكله إلى غيرنا.

وحكى أبو علي المصري قال: كان لي جار شيخ يغسل الموتى فقلت له يوماً: حدثني بأعجب ما رأيت من

(١) قبا: اسم موضع بفرغانة.

(٢) مقيّل: لا معنى للجملة إلا إذا كانت مقيّل.

(٣) سورة: الحجر، الآيتان: ٩٢ - ٩٣.

(٤) عرصات: ساحاتها.

الموتى. فقال: جاءني شاب في بعض الأيام مليح الوجه، حسن الثياب فقال لي: أتغسل لنا هذا الميت؟ قلت: نعم. فتبعته حتى أوقفني على باب فدخل هنيهة، فإذا بجارية هي أشبه الناس بالشاب قد خرجت وهي تمسح عينيها. فقالت: أنت الغاسل؟ قلت: نعم. قالت: باسم الله أدخل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فدخلت الدار، وإذا أنا بالشاب الذي جاءني يعالج سكرات^(١) الموت وروحه في لبت^(٢)، وقد وضع بصره، وقد وضع كفته وحنوطه عند رأسه فلم أجلس إليه حتى قبض. فقلت سبحان الله هذا ولي من أولياء الله تعالى حيث عرف وقت وفاته، فأخذت في غسله وأنا أرتعد، فلما أدرجته أتت الجارية وهي أخته فقبلته، وقالت: أما أني سألحق بك عن قريب. فلما أردت الانصراف شكرت لي وقالت: أرسل إلي زوجتك إن كانت تحسن ما تحسنه أنت. فارتعدت من كلامها وعلمت أنها لاحقة به، فلما فرغت من دفنه جئت أهلي فقصصت عليها القصة وأتيت بها إلى تلك الجارية فوقفت بالباب واستأذنت فقالت: باسم الله تدخل زوجتك. فدخلت زوجتي وإذا بالجارية مستقبلة القبلة وقد ماتت ففسلتها زوجتي وأزالتها على أخيها رحمة الله عليهما.

أَحْبَابًا بَتَمَ عَنِ الدَّارِ فَاشْتَكَّتْ	لَعَبْدِكُمْ أَصَالُهَا وَضَحَاهَا ^(٣)
وَفَارَقْتُمُ الدَّارَ الْأَيْبَةَ فَاسْتَوَتْ	رَسُومُ مَبَانِيهَا وَفَاحَ كَلَاهَا ^(٤)
كَأَنَّكُمْ يَوْمَ الْفِرَاقِ رَحَلْتُمْ	بَنُومِي فَعَيْنِي لَا تَصِيبُ كَرَاهَا
وَكُنْتُ شَاحِبًا مِنْ دَمُوعِي بِقَطْرَةٍ	فَقَدْ صُرْتُ سَمَحًا بَعْدَكُمْ بِلَمَاهَا
يُرَانِي بِأَمَامِ خَلِيلِي يَظُنُّ بِي	سُرُورًا وَأَحْشَايَ السَّقَامُ مَلَاهَا
وَكَمْ ضَحِكَةٍ فِي الْقَلْبِ مِنْهَا حَرَارَةٌ	يَشُبُّ لَهَا لَوْ كَشَفْتُ غَطَاهَا
رَعَى اللَّهُ أَيَّامًا بِطَيْبِ حَدِيثِكُمْ	تَقَفَّضَتْ وَحْيَاهَا الْحَيَا وَسَقَاهَا
فَمَا قُلْتُ لَهَا بَعْدَهَا لِمَامِرٍ	مَنْ النَّاسُ إِلَّا قَالَ قَلْبِي آهَا

وحكى سري السقطي رحمه الله تعالى قال: أرقت ليلة، ولم أقدر على النوم، فلما طلع الفجر صليت فلما أصبحت دخلت المارستان^(٥) فإذا أنا بجارية مقيدة مغلولة وهي تقول:

تَفَلُّ بِيَدِي إِلَى عُنُقِي	وَمَا خَانَتْ وَمَا سَرَقَتْ
وَيَبِينُ جَوَانِحِي كَبَدٌ	أَحْرُ بِهَا قَدْ احْتَرَقَتْ

قال: فقلت للقيم: مَنْ هذه الجارية؟ قال: هذه جارية اختلَّ عقلها فحبست لعلها تصلح، فلما سمعت كلامها تبست وقالت:

مَعشَرَ النَّاسِ مَا جِئْتُ وَلَكِنْ أَنَا سَكْرَانَةٌ وَقَلْبِي صَاحِي

(١) سكرات: نزعات الروح.

(٢) لبت: منخره.

(٣) أصالها وضحاها: أي أطراف اليوم.

(٤) وفاح كلاها: صارت مستوية فيحاء.

(٥) المارستان: المشفى وكما يبدو المخصص للأمراض العقلية.

لِمَ غَلَّثْتُمْ يَدَيَّ وَلَمْ آتِ ذَنْبًا غَيْرَ هَتَكِي فِي حَبِّهِ وَافْتِضَاحِي
أَنَا مَفْتُونَةٌ بِحَبِّ حَيِّبٍ لَسْتُ أَبْنِي عَنْ بَابِهِ مِنْ بَرَّاحٍ^(١)
مَا عَلَيَّ مَنْ أَحَبَّ مَوْلَى الْمَوَالِي وَارْتَضَاهُ لِنَفْسِهِ مِنْ جَنَاحٍ

وقال: فلما سمعت كلامها بكيت بكاء شديداً فقالت: يا سري، هذا بكاؤك: من الصفة، فكيف لو عرفته حق المعرفة؟ قال: فبينما هي تكلمني إذ جاء سيدها فلما رأيته عظمي. فقلت: والله هي أحق مني بالتعظيم فلم فعلت بها هذا؟ قال: لتقصيرها في الخدمة، وكثرة بكائها، وشدة حنينها وأينها كأنها ثكلى، لا تام ولا تدعنا ننام، وقد اشتريتها بعشرين ألف درهم لصناعتها فإنها مطربة.

وَحَقُّكَ لَا نَقُضْتُ الدَّهْرَ عَهْدًا وَلَا كُدْرَتُ^(٢) بَعْدَ الصَّفَرِ وَدًّا
مَلَأَتْ جَوَانِحِي وَالْقَلْبَ وَجَدًا فَكَيْفَ أَقْرَأُ يَا سَكْنِي وَأَهْدًا
فِيَا مَنْ لَيْسَ لِي مَوْلَى سِوَاهُ تَرَاكَ رَضِيَّتَنِي بِالْبَابِ عَبْدًا

فقلت لسيدها: اطلقها وعليّ ثمنها، فصاح: واقفوا من أين لك عشرون ألفاً يا سري. فقلت لا تعجل عليّ. فقال: تكون في المارستان حتى توفياني ثمنها، فقلت: نعم. قال سري: فأنصرفت وعيني تدمع وقلبي يخشع وأنا والله ما عندي درهم من ثمنها. فبت طول ليلتي أتضرع إلى الله تعالى. فإذا بطارق يطرق الباب ففتحت ودخل عليّ رجل ومعه ستة من الخدم ومعهم خمس بدر، فقال: أتعرفني يا سري؟ قلت: لا. قال: أنا أحمد بن المشي كنت نائماً، فهتف بي هاتف وقال لي: يا أحمد، هل لك في معاملتنا؟ فقلت: ومن أولى مني بذلك؟ فقال: احمل إلى سري السقطي خمس بدر من أجل الجارية الفلانية، فإن لنا بها عناية. قال سري: فسجدت لله شكراً، وجلست أتوقع طلوع الفجر، فلما طلع صلينا وذكرنا وأنصرفنا نحوها فسمعناها تقول:

قَدْ تَصَبَّرْتُ إِلَى أَنْ عَمِلَ مِنْ حَبِّكَ صَبْرِي
ضَاقَ مِنْ غَلِيٍّ وَقِيدِي وَامْتَهَانَنِي مِنْكَ صَنْدَرِي
لَيْسَ يَخْفِي عَنْكَ أَمْرِي يَا مُنَى قَلْبِي وَذُخْرِي
أَنْتَ قَدْ تَعَتَّقُ رَقِّي وَتَفْكَ الْيَوْمَ أُنْصَرِي

قال سري: فبينما أنا أسمعها، وإذا بمولاها قد جاء وهو يبكي. فقلت: لا بأس عليك قد جئت بك برأس مالك وربع عشرة آلاف درهم، فقال: والله لا فعلت ذلك، قلت: نزيك، قال: والله لو أعطيتني ما بين الخافقين ما فعلت، وهي حرة لوجه الله تعالى. قال: فتعجبت من ذلك، وقلت: ما كان هذا كلامك بالأمس. فقال: حبيبي لا توبخني فالذي وقع لي من التوبخ كفاني، وأشهدك أنني قد خرجت من جميع مالي صدقة في سبيل الله تعالى، وأنني هارب إلى الله تعالى، فبالله لا تردني عن صحبتك. فقلت: نعم. ثم التفت فرأيت صاحب المال يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال: يا أستاذي ما قبلني مولاي لما ندبني إليه، ورد عليّ ما بذلت. أشهدك أنني قد خرجت من جميع ما أملكه لله تعالى في سبيل الله، وكل عبد أملكه وجارية أحرار لوجه الله تعالى. قال سري: فقلت: ما أعظم بركك يا جارية. قال: فترعنا

(١) براح: مفادة.

(٢) كدوت: عكرت.

القل من عنقها، والقيد من رجلها، وأخرجناها من المارستان فتزعت ما كان عليها من ناعم الثياب ولبست خماراً من صوف ومدرعة من شعر، وولت. قال سري: فتوجهت أنا ومولاها وصاحب المال إلى مكة، فبينما نحن نطوف إذا سمعنا صوتاً فتبعناه فإذا هي امرأة كالخيال، فلما رأتي قالت: السلام عليك يا سري. فقلت لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، مَنْ أنت؟ فقالت: لا إله إلا الله، وقع الشك بعد المعرفة، فتأملتها فإذا هي الجارية. فقلت لها: ما الذي أفادك الحق بعد انفرادك عن الخلق؟ فقالت: أنسي به، ووحشتي من غيره. ثم توجهت إلى البيت وقالت: إلهي لِمَ تخلفني^(١) في دار لا أرى فيها أنيساً، قد طال شوقي إليك، فمجل قدومي عليك، ثم شهقت شهقة وخرت ميتة رحمة الله تعالى عليها. فلما نظر إليها مولاها بكى وجعل يدعو ويضعف كلامه إلى أن خر إلى جانبها ميتاً رحمة الله عليه فدفنهما في قبر واحد.

بحرمة ما قد كان بيني وبينكم
ولا تحرموني نظرة من جمالك
فوالله ما يهوى فؤادي سواكم
من السود إلا ما رجفتم إلى وصل
فلن تجدوا عبداً ذليلاً لكم مثلي
ولو رشقوه بالأسنة والنبل^(٢)

وحكي أنه كان في زمن بني إسرائيل رجل من العباد الموصوفين بالزهد وكان قد سخر الله له سحابة تسير معه حيث يسير، فاعتراه فتور^(٣) في بعض الأيام، فأزال الله عنه سحابه، وحجب إجابته، فكثر لذلك حزنه وشجونه، وطال كمده وأبينه وما زال يشتاق إلى زمن الكرامة ويكي، ويتأسف، ويتحسر ويتلهف، فقام ليلة من الليالي فصلى ما شاء الله، وبكى وتضرع، ودعا الله تعالى ونام. فقيل له في المنام: إذا أردت أن يرد الله تعالى عليك سحابتك فأت الملك الفلاني في بلد كذا، واسأله أن يدعو الله لك أن يرد عليك سحابتك. قال: فسار الرجل يقطع الأرض حتى وصل إلى تلك البلدة التي ذكرت له في المنام فدخلها، وسأل مَنْ يرشده إلى قصر الملك، فجا إلى القصر وإذا عند بابه غلام جالس على كرسي عظيم من الذهب الأحمر، مرصع بالدر، والجوهر، والناس بين يديه يسألونه حوائجهم وهو يصرف الناس. فوقف الرجل الصالح بين يديه وسلم عليه فقال له الغلام: من أين أنت؟ وما حاجتك؟ فقال: من بلاد بعيدة وقصدي الاجتماع بالملك. فقال له الغلام: لا سبيل لك إليه اليوم فسل حاجتك أقضها لك أن استطعت. فقال: إن حاجتي لا يقضيها إلا الملك، فقال الغلام: إن الملك ليس له إلا يوم واحد في الجمعة يجتمع إليه الناس فيه، فاذهب حتى يأتي ذلك اليوم، فانصرف الرجل إلى مسجد دائر^(٤) وأقام يعبد الله تعالى فيه، وأنكر على الملك لاحتجابه عن الناس، فلما كان ذلك اليوم الذي يجلس فيه الملك جاء إلى القصر فوجد خلقاً كثيراً عند الباب يتظرون الإذن فوقف مع جملة الناس، فلما خرج الوزير أذن للناس في الدخول فدخل أرباب الحوائج ودخل صاحب السحابة معهم، وإذا بالملك جالس وبين يديه السحابة، فلما نظر إليه الملك قال: مرحباً بصاحب السحابة. اجلس حتى أفرغ من حوائج الناس وانظر في أمرك، قال: فتحير صاحب السحابة في أمره. فلما فرغ الملك من حوائج الناس قام من مجلسه فأخذ بيد صاحب السحابة وأدخله معه إلى قصره، ثم مشى به في دهليز القصر فلم يجد في طريقه إلا مملوكاً

(١) تخلفني: تجملني خليفاً لك.

(٢) النبل: السهام.

(٣) تور: كسل.

(٤) دائر: منح.

واحداً، فسار به حتى انتهى إلى باب من جريد، وإذا به بناء مهذوم، وحيطان مائلة، وبيت خرب فيه برش^(١)، وليس هناك ما يساوي عشرة دراهم إلا سجادة خلقة، وقدح للوضوء، وحصير رثة، وشيء من الخوص فانخلع الملك من ثياب الملك، ولبس مرقعة من صوف، وجعل على رأسه قلنسوة من شعر، ثم جلس وأجلس صاحب السحابة ونادى: يا فلانة قالت: لييك. قال: أتدريين مَنْ هو الليلة ضيفنا. قالت: نعم هو صاحب السحابة، فدعا بها لحاجة فخرجت، فإذا هي امرأة كالشن^(٢) البالي عليها مسح من شعر خشن وهي شابة صغيرة. قال الرجل: فالتفت إليّ الملك وقال: يا أخي نطعمك على حالنا أو نقضي حاجتك وتنصرف. فقلت: والله لقد شغلني حالكما عما جئت بسببه، فقال الملك: الله يعلم، إنه كان لي في هذا الأمر آباء كرام صالحون يتوارثون المملكة كابراً عن كابر، فلما توفوا إلى رحمة الله تعالى، ووصل الأمر إليّ بغض الله إليّ الدنيا وأهلها فأردت أن أسبح في الأرض، وأترك الناس ينظرون لهم من يسوس أمرهم فيملكونه عليهم، فخفت عليهم دخول الفتنة وتضييع الدين، والشرائع، وتبديل شمل الدين فبايعوني وأنا والله كاره. فتركت أمورهم على ما كانت عليه وجعلت السباط على عادته، والحراس على حالها، والممالك على دأبها، ولم أغير شيئاً، وأقعدت الممالك على الأبواب بالسلاح إرهاباً لأهل الشرور، وردعاً عن أهل الخير، وتركت القصر مزيناً على حاله، وفتحت له باباً وهو الذي رأيته يوصلني إلى هذه الخربة، فأدخل فيها وأنزع ثياب الملك وألبس هذا، وأضفر الخوص^(٣) وأبيعه، وأتقوت من ثمنه أنا وزوجتي هذه التي رأيتها وهي ابنة عمي زهدت في الدنيا كزهدي، واجتهدت حتى صارت كالشن البالي، والناس لا يعلمون ما نحن فيه، ثم إنني أقمت لي نائباً ينوب عني طول الجمعة^(٤) وعلمت أنني مسؤول، فجعلت لي يوماً في الجمعة أبرز للناس فيه، وأكشف عن مظالمهم كما رأيت. وأنا على هذه الحالة مدة فأقم عندنا يرحمك الله حتى نبيع خويصاتنا، ونبتاع من ثمنها طعاماً ونطعم معنا وتبيت عندنا الليلة ثم تنصرف بحاجتك إن شاء الله تعالى. فلما كان آخر النهار دخل علينا غلام خماسي العمر فأخذ ما عملناه من خوص، وسار به إلى السوق فباعه واشترى من ثمنه خبزاً وفولاً، واشترى بياقي ثمنه خوصاً، فلما كان عند الغروب أظفرا وأظفرت معهما ويت عندهما. قال: فقاما في نصف الليل يصليان ويكيان فلما كان السحر قال الملك: اللهم إن عبدك هذا يطلب منك رد سحابته، وإنك قد دللته علينا، اللهم ارددنا عليه إنك على كل شيء قدير، والمرأة تؤمن على دعائي، وإذا بالسحابة قد طلعت من قبل السماء فقال لي: لك البشارة بقضاء حاجتك، وتعجيل إجابتك، قال فودعتهما وانصرفت والسحابة معي كما كانت، فأنا بعد ذلك لا أسأل الله تعالى بسرهما شيئاً إلا أعطاني إياه رحمة الله تعالى عليهما.

ولازم الباب حتى تبلغ الأملا
واحمل لمرضاتي في الحب كل بلا^(٥)
صب لثقل الهوى والوجد قد حملا
فانهض وكن رجلاً بالسعي قد وصلا

استعمل الصبر تجني بعده العلا
ومرغ الخد في أعتابه سحراً
فما ينور بوصل يا أخي سوى
هذا الحبيب ينادي في الدجى سحراً

(١) برش: قطع.

(٢) كالشن: القرية.

(٣) الخوص: ورق النخل.

(٤) الجمعة: أي الأسبوع.

(٥) مقصور: بلاء.

وحكي عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى قال: خرجت إلى مكة حاجاً فبينما أنا سائر، إذ رأيت شاباً ساكتاً لا يذكر الله تعالى. فلما جن الليل رفع وجهه نحو السماء، وقال: يا من لا تسره الطاعات ولا تضره المعاصي، هب لي ما لا يسرك، واغفر لي ما لا يضرك، ثم رأته بنزي الحليفة وقد لبس احرامه والناس يلثون، وهو لا يلبي. فقلت: هذا جاهل. فدنوت منه فقلت له: يا فتى، قال: ليك. قلت: لِمَ لا تلبي، فقال: يا شيخ وما تغني التلبية وقد بارزته بذنوب سالفات وجرائم مكتوبات؟ والله إني لأخشى أن أقول، ليك فيقول لا ليك، ولا سمعديك، لا أسمع كلامك ولا أنظر إليك. فقلت له: لا تقل ذلك، فإنه حليم، إذا غضب رضي، وإذا رضي لم يغضب، وإذا وعد وفى ومتى تواعد عفا، فقال: يا شيخ أنشير عليّ بالتلبية؟ قلت: نعم. فبادر إلى الأرض واضطجع ووضع خده على التراب، وأخذ حجراً فوضعه على خده الآخر وأسبل دموعه، وقال: ليك، اللهم ليك قد خضعت لك وهذا مصري بين يديك. فأقام كذلك ساعة ثم مضى، فما رأته إلا بمعنى وهو يقول: اللهم إن الناس قد ذبحوا ونحروا، وتقربوا إليك، وليس لي شيء أتقرب به إليك سوى نفسي، فتقبلها مني. ثم شفق شفقة وخر ميتاً رحمة الله تعالى عليه.

وحكي أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبي عبد الله الأندلسي، وكان شيخاً لكل من بالعراق، وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ، وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات. فخرج في بعض السنين إلى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلي وغيرهما من مشايخ العراق. قال الشبلي: فلم نزل في خدمته ونحن مكرمون بعناية الله تعالى، إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار. فطلبنا ماء نتوضأ به فلم نجد، فجعلنا ندور بتلك القرية، وإذا نحن بكنائس، وبها شماسة وقساوسة، ووربان وهم يعبدون الأصنام، والصلبان فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم، ثم انصرفنا إلى بئر في آخر القرية، وإذا نحن بجوارٍ يستقي الماء على البئر، وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها، وفي عنقها قلائد الذهب. فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال: هذه ابنة من؟ فقيل له: هذه ابنة ملك هذه القرية، فقال الشيخ: فليَمَ لا يدلُّها أبوها ويكرمها ويدعها تستقي الماء، فقيل له: أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمه، وخدمته ولا تعجبها نفسها. فجلس الشيخ ونكس رأسه، ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل، ولا يشرب، ولا يكلم أحداً غير أنه يؤدي الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه، ولا يدرون ما يصنعون.

قال الشبلي: فتقدمت إليه وقلت له: يا سيدي إن أصحابك ومريدك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام، وأنت ساكت لم تكلم أحداً. قال: فأقبل علينا، وقال: يا قوم اعلّموا أن الجارية التي رأيتموها أمس قد شغفت بها حباً، واشتغل بها قلبي، وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض. قال الشبلي: فقلت له: يا سيدي أنت شيخ العراق، ومعروف بالزهد في سائر الآفاق، وعدد مريدك اثنا عشر ألفاً، فلا تفضحنا وإياهم، بحرمة الكتاب العزيز. فقال: يا قوم جرى القلم بما حكم، ووقعت في بحار العدم، وقد انحلت عني عرى^(١) الولاية، وطويت عني أعلام الهداية. ثم إنه بكى بكاء شديداً، وقال: يا قوم انصرفوا فلقد نفذ القضاء والقدر. فتعجبنا من أمره، وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره، ثم بكينا وبكى حتى أروى التراب، ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد، فخرج الناس إلى لقائه، ومريدوه في جملة الناس فلم يروه، فسألوا عنه فعرفناهم بما جرى، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزناً عليه وأسفاً، وجعل الناس يكون،

ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم، وغلقت الرباطات^(١) والزوايا والخوانق^(٢)، ولحق الناس حزن عظيم. فأقمنا سنة كاملة وخرجت مع بعض أصحابي نكشف خبره، فأتينا القرية فسألنا عن الشيخ فقيل لنا إنه في البرية يرعى الخنازير. قلنا: وما السبب في ذلك؟ قالوا: إنه خطب الجارية من أبيها فأبى أن يزوجه إلا ممن هو على دينها. ويلبس العباءة، ويشد الزنار، ويخدم الكنائس، ويرعى الخنازير ففعل ذلك كله. ها هو في البرية يرعى الخنازير. قال الشبلي: فانصدعت قلوبنا. وانهملت بالبكاء عيوننا، وسرنا إليه وإذا به قائم قدام الخنازير، فلما رأنا نكس رأسه، وإذا عليه قلنسوة النصارى، وفي وسطه زنار وهو متوكئ^(٣) على العصا التي كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب فسلمنا عليه، فرد علينا السلام فقلنا: يا شيخ ما ذاك؟ وماذا؟ وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم؟ فقال: يا إخواني وأحبائي ليس لي من الأمر شيء، سيدي تصرف في. كيف شاء وحيث أراد أبعذني عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبائه، فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وإبعاده، والحذر الحذر يا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء. ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: يا مولاي ما كان ظني فيك هذا. ثم جعل يستغيث ويكي ونادي: يا شبلي اتَّيِّظْ بغيرك. فنادى الشبلي بأعلى صوته: بك المستعان، وأنت المستغاث، وعليك التكلان^(٤) أكشف عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك. قال: فلما سمعت الخنازير بكاءهم وضجيجهم أقبلت إليهم، وجعل تمرغ وجهها بين أيديهم، وزعقت زعقة واحدة دويت منها الجبال.

قال الشبلي: فظننت أن القيامة قد قامت، ثم إن الشيخ بكى بكاء شديداً، قال الشبلي: فقلنا له: هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد؟ فقال: كيف لي بذلك، وقد استرعت الخنازير، بعد أن كنت أرى القلوب؟ فقلت: يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرأ بالسبع، فهل بقيت تحفظ منه شيئاً؟ فقال: نسيته كله إلا آيتين. فقلت وما هما قال: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مَكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾^(٥) والثانية قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْغُلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(٦) فقلت: يا شيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ فهل تحفظ منها شيئاً؟ قال: حديثاً واحداً وهو قوله ﷺ: «من بدل دينه فاقتلوه».

قال الشبلي: فتركناه وانصرفنا ونحن متعجبون من أمره فسرنا ثلاثة أيام وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر، وطلع وهو يشهد شهادة الحق، ويجدد إسلامه. فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور، فنظر إلينا وقال: يا قوم أعطوني ثوباً طاهراً، فأعطيناه ثوباً قلبه، ثم صلى وجلس فقلنا له: الحمد لله الذي ردك علينا وجمع شملنا بك، فصِفْ لنا ما جرى لك، وكيف كان أمرك. فقال: يا قوم لما وليتم من عندي سأله بالوداد القديم، وقلت له: يا مولاي أنا المذنب الجاني، فعفا عني بجلوه، وبستره غطاني. فقلنا له: بالله نسألك هل كان لمحتك من سبب؟ قال: نعم، لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حول الكنائس، قلت في نفسي ما قلدر هؤلاء عندي، وأنا مؤمن موحد،

(١) الرباطات: مدرسة أو مسجد يجتمع فيها أهل العبادة.

(٢) مفردا خاتناه: بقعة يسكنها أهل الصلاح من الصوفية.

(٣) متوكئ: مستند.

(٤) التكلان: الاتكال والاعتماد.

(٥) سورة: الحج، الآية: ١٨.

(٦) سورة: البقرة، الآية: ١٠٨.

فتوديت في سري ليس هذا منك، ولو شئت عرّفناك، ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبي فكان ذلك الطائر هو الإيمان.

قال الشبلي: فرحنا به فرحنا شديداً وكان يوم دخولنا يوماً عظيماً مشهوداً وفتحت الزوايا، والرباطات والخواتق، ونزل الخليفة للقاء الشيخ، وأرسل إليه الهدايا، وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفاً، وأقام على ذلك زماناً طويلاً، ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث، وزاده على ذلك. فبينما نحن جلوس عنده في بعض الأيام بعد صلاة الصبح، وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية فنظرت من الباب فإذا شخص ملثف بكساء أسود. فقلت له: ما الذي تريد؟ فقال: قل لشيخكم إن الجارية الرومية التي تركها بالقرية القلانية قد جاءت لخدمتك. قال: فدخلت فعرفت الشيخ فاصفر لونه، وارتعد، ثم أمر بدخولها فلما دخلت عليه بكت بكاء شديداً. فقال لها الشيخ: كيف كان مجيئك ومن أوصلك إلى هنا؟ قالت: يا سيدي لما وليت من قريتنا جاءني من أخبرني بك، فبت ولم يأخذني قرار، فرأيت في منامي شخصاً وهو يقول: إن أحببت أن تكوني من المؤمنات فاتركي ما أنت عليه من عبادة الأصنام، واتبعي ذلك الشيخ، وادخلي في دينه. فقلت: وما دينه؟ قال: دين الإسلام. قلت: وما هو؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقلت: كيف لي بالوصول إليه؟ قال: اغمضي عينيك واعطيني يدك ففعلت، فمشى قليلاً ثم قال: افتحي عينيك. ففتحتهما فإذا أنا بشاطئ الدجلة. فقال: امضي إلى تلك الزاوية واقربي الشيخ مني السلام، وقولي له إن أذاك الخضر يسلم عليك. قال: فأدخلها الشيخ إلى جواره، وقال: تعبدي ههنا. فكانت أعبد أهل زمانها، تصوم النهار، وتقوم الليل حتى نحل جسمها وتغير لونها فمرضت مرض الموت، وأشرفت على الوفاة ومع ذلك لم يرها الشيخ فقالت: قولوا للشيخ يدخل عليّ قبل الموت. فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها فلما رآته بكت. فقال لها: لا تبكي. فإن اجتماعنا غداً في القيامة، في دار الكرامة، ثم انتقلت إلى رحمة الله تعالى. فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياماً قلائل حتى مات رحمة الله تعالى عليه.

قال الشبلي: فرأيت في المنام وقد تزوج بسبعين حواء، وأول ما تزوج بالجارية، وهما مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني والثلاثون: في ذكر الأشرار والفجار وما يرتكبون من الفواحش والوقاحة والسفاهة

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ: أنه قال: «قبل قيام الساعة يرسل الله ريحاً باردة طيبة فتقبض روح كل مؤمن، ويبقى شرار الخلق يتهارجون»^(١)، تهارج الحمير، وعليهم تقوم الساعة. وقال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: كفى بالمرء شراً أن لا يكون صالحاً، ويقع في الصالحين. وقال لقمان لابنه: يا بني كذب من قال الشر يطفئ الشر، فإن كان صادقاً فليوقد نارين ثم ينظر، هل تطفئ إحداهما الأخرى، وإنما يطفئ الشر الخير، كما يطفئ الماء النار. ووصف بعضهم رجلاً من أهل الشر فقال: فلان عري من حلة التقوى، ومحي عنه طابع الهدى، لا تشبه يد المراقبة، ولا تكفه خيفة المحاسبة، وهو لدعائم دينه مضيع، ولدواعي شيطانه مطيع.

كَأَنَّهُ التَّيْسُ قَدْ أُوْدِيَ بِهِ هَرَمٌ فَلَا لَحْمَ وَلَا صَوْفَ تَمَرٍ

وقيل: من فعل ما شاء، لقي ما ساء، وقيل: زنى رجل بجارية فأجلها. فقالوا له: يا عدو الله هلا إذا ابتليت بفاحشة عزلت. قال: قد بلغتني أن العزل مكروه. قالوا: فما بلغك أن الزنا حرام؟ وقيل لأعرابي كان يتعشق قينة: ما يضرك لو اشتريتها ببعض ما تنفق عليها؟ قال: فمن لي إذا ذاك بللة الخلصة، ولقاء المسارقة، وانتظار الموعد؟ وقال أبو العيئة: رأيت جارية مع النخاس، وهي تحلف أن لا ترجع لمولاها فسألته عن ذلك، فقالت: يا سيدي، إنه يواقعني من قيام، ويصلي من قعود، ويشتمني بإعراب، ويلحن في القرآن، ويصوم الخميس والاثنين، ويفطر رمضان، ويصلي الضحى، ويترك الفرض. فقلت: لا أكثر الله في المسلمين مثله. وكانت ظَلَمَةُ القَوَادِ^(٢) وهي صغيرة في المكتب تسرق دويات الصبيان وأقلامهم، فلما ثبت زنت، فلما كبرت قادت. وقال صاحب المسالك والممالك: إن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحاً، خلا ملك قمار. قال الزمخشري رحمه الله: أقمت بقمار سنين فلم أر ملكاً أغير منه، وكان يعاقب على الزنا وشرب الخمر بالقتل، وقمار ينسب إليها العود القمار كما ينسب إلى مندل. قال مسكين الدارمي:

وَلَا ذَنْبَ لِلْعُودِ الْقِمَارِيِّ إِنَّهُ يَحْرِقُ إِنْ نَمَتْ عَلَيْهِ رَوَائِحُهُ

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عهدت الناس وهواهم لأديانهم، وإن الناس اليوم أديانهم تبع لأهوائهم. وقال رسول الله ﷺ: «حسب امرئ من الشر، أن يحقر أخاه المسلم».

ما جاء في الوقاحة والسفاهة وذكر الغوغاء: قال رسول الله ﷺ: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت». وفي ذلك قيل:

(١) يتهارجون: يتلاغظون.

(٢) القواد: صاحبة تزيينات للزنا (احترافاً).

إذا لم تَصُنْ عَرَضاً ولم تَخْشَ خالقاً وتَسْجِ مخلوقاً فما شئت فاصنع

وقال ابن سلام: العاقل شجاع القلب، والأحمق شجاع الوجه. وذم الرجل قوماً فقال: وجوههم وأيديهم حديد، أي وقاح بخلاء، ووصف رجل وقحاً فقال: لو دق الحجارة بوجهه لردّها، ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها، قال الشاعر:

لو أنّ لي من جلد وجهك رقعةً لجعلتُ منها حافراً للأشهب^(١)

وقال آخر:

إذا رُزِقَ الفتى وجهاً وقاحاً^(٢) تقلّب في الأمور كما يشاء

وقال أبو شروان: أربعة قبائح، وهي في أربعة أقيع، البخل في الملوك، والكذب في القضاء، والحسد في العلماء، والوقاحة في النساء، ويقال: من جسر أيسر ومن هاب خاب، قال الشاعر:

لا تكوننّ في الأمور هيوياً فالى خيوة يصير الهيوث

وقال علي رضي الله عنه: إذا هبت أمراً ففّع فيه، فإن شراً توقّه^(٣) أعظم مما تخاف منه. وقال رضي الله عنه: الغوغاء إذا اجتمعوا ضرروا وإذا افرقوا نفعوا. فقيل: قد علمنا مضرة اجتماعهم، فما منفعة افراقهم. قال: يرجع أهل المهن إلى مهنتهم فيستفع الناس بهم، كرجوع البّناء إلى بنائهم، والنساج إلى منسجهم، والخباز إلى مخبزه. وقال بعض السلف: لا تسبوا الغوغاء فإنهم يطفئون الحريق، ويخرجون الغريق. وقال الأحنف: ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا. وقال حكيم: لا يخرج أحد من بيته إلا وقد أخذ في حجره قيراطين من جهل، فإن الجاهل لا يدفعه إلا الجهل، أراد السفه. قال الشاعر^(٤):

ألا لا يجهلن أحداً علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقيل: الجاهل من لا جاهل له، أي من لا سفيه له يدفع عنه. وقيل: بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه جالس، إذا جاء أعرابي فلطمه، فقام إليه واقد بن عمرو فجلد به الأرض.

فقال عمر: ليس بعزيز، من ليس في قومه سفيه. وقال الشاعر:

ولا يلبث الجهال أن يتهموا أخا الحلم ما لم يتعنّ بجهول

وقال صالح بن جناح:

إذا كنت بين الجهل والحلم فاعداً وخيّرت أنى شئت فالحلم أفضل

ولكن إذا أنصفت من ليس منصفاً ولم يرض منك الحلم فالجهل أمثل

وقال الأحنف بن قيس:

(١) الأشهب: هو الخيل.

(٢) وجهاً وقاحاً: أي وقحاً قليل الحياء.

(٣) توقّه: تجتبه.

(٤) عمرو بن كلثوم التغلبي.

وفِي ضَغْنِي أَيْتُ الْقَوْلَ عَنْهُ
وَمَنْ يَحْلُمُ وَلَيْسَ لَهُ سَفِيَّةٌ
بِحُلُمٍ فَاسْتَمَرَّ عَلَى الْمَقَالِ
يَلْأَقُ الْمُعْضَلَاتِ مِنَ الرِّجَالِ
وقال آخر:

فَإِنْ كُنْتَ مُحْتَاجاً إِلَى الْحِلْمِ إِنِّي
وَلِي فَرَسٌ لِلْخَيْرِ بِالْخَيْرِ مُلْجَمٌ
إِلَى الْجَهْلِ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ أَحْوَجُ
وَلِي فَرَسٌ لِلشَّرِّ بِالشَّرِّ مَسْرُجٌ
وَمَنْ رَامَ تَقْوِيْمِي فَإِنِّي مَقْوَمٌ
وقال آخر:

فَإِنْ قِيلَ حِلْمٌ قُلْتُ لِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ
وَحِلْمٌ الْفَتَى فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ جَهْلٌ
اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نَجْهَلَ، أَوْ يُجْهَلَ عَلَيْنَا بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

الباب الثالث والثلاثون: في الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق واصطناع المعروف وذكر الأمجاد وأحاديث الأجواد

أعلم أن الجود بذلك المال، وأنفعه ما صرف في وجه استحقاقه، وقد ندب الله تعالى إليه في قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾^(١) قيل: إن الجود، والسخاء، والإيثار بمعنى واحد. وقيل: مَنْ أعطى البعض وأمسك البعض، فهو صاحب سخاء، وَمَنْ بذل الأكثر فهو صاحب جود، وَمَنْ أثر غيره بالحاضر، وبقي هو في مقاساة الضرر فهو صاحب إيثار. وأصل السخاء هو السماحة، وقد يكون المعطي بخيلاً إذا صعب عليه البذل، والممسك سخياً، إذا كان لا يستصعب العطاء.

فمن الإيثار ما حكى عن حذيفة العدوي أنه قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي في القتلى، ومعى شيء من الماء، وأنا أقول إن كان به رمق^(٢) سقيته، فإذا أنا به بين القتلى. فقلت له: أسقيك. فأشار إليّ أن نعم. فسمع برجل يقول أه، فأشار إليّ ابن عمي أن انطلق إليه. فجئته فإذا هو قد مات، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات.

ومن عجائب ما ذكر في الإيثار: ما حكاه أبو محمد الأزدي قال: لما احترق المسجد بمرور وظن المسلمون أن النصارى أحرقوه فأحرقوا خاناتهم. فقبض السلطان على جماعة من الذين أحرقوا الخانات، وكتب رقاعاً فيها القطع، والجلد، والقتل. ونثرها عليهم فمن وقع عليه رقعة فعل به ما فيها. ف وقعت رقعة فيها القتل بيد رجل فقال: والله ما كنت أبالي لولا أم لي. وكان بجنبه بعض الفتيان فقال له: في رقعتي الجلد، وليس لي أم، فخذ أنت رقعتي وأعطني رقمتك ففعل. فقتل ذلك الفتى وتخلص هذا الرجل. وقيل لقيس بن سعد: هل رأيت قط أسخى منك؟ قال: نعم نزلنا بالبادية على امرأة فجاء زوجها فقالت له: إنه نزل بنا ضيفان، فجاء بناقة فنحرها. وقال: شأنكم. فلما كان من الغد جاء بأخرى فنحرها وقال: شأنكم. فقلنا: ما أكلنا من التي نحرنا البارحة إلا القليل. فقال: إني لا أطعم ضيفاني البائت. فبقينا عنده أياماً، والسماء تمطر، وهو يفعل كذلك فلما أردنا الرحيل وضعنا مائة دينار في يته. وقلنا للمرأة اعتنري لنا إليه ومضيها. فلما ارتفع النهار إذا برجل يصيح خلفنا. فقوا أيها الركب اللثام، أعطيتمونا ثمن قرانا. ثم إنه لحقنا وقال: خذوها وإلا طعتمكم برمحي هذا. فأخذناها وانصرفنا.

وقال بعض الحكماء: أصل المحاسن كلها الكرم، وأصل الكرم نزاهة النفس عن الحرام، وسخاؤها بما يملك على الخاص والعام. وجميع خصال الخير من فروعه. وقال رسول الله ﷺ: «تجاوزوا عن ذنب السخي، فإن الله أخذ

(١) سورة: آل عمران، الآية: ٩٢.

(٢) رمق: بقية من روح.

بيده كلما عثر، وفتح له كلما افتقر». وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا. وعنه ﷺ أنه قال: «السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخیل بعيد من الله بعيد من الناس، بعيد من الجنة، قريب من النار، ولَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ». وقال بعض السلف: منع الموجد سوء ظن بالمعبود وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾^(١) وقال الفضيل: ما كانوا يعدون القرض معروفاً. وقال أكرم بن صيفي: صاحب المعروف لا يقع، وإن وقع وجد له متكاً. وقيل للحسن بن سهل: لا خير في السرف، فقال: لا سرف في الخير قلب اللفظ، واستوفى المعنى. ووجد مكتوباً على حجر: انتهِز الفرصَ عند إمكانها، ولا تحمل نفسك همَّ ما لم يأتك، واعلم أن تقتيرك^(٢) على نفسك توفيرٌ لخزانة غيرك، فكم من جامعٍ لبعل حليته. وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما جمعت من المال فوق قوتك، فإنما أنت فيه خازن لغيرك.

وقال النعمان بن المنذر يوماً لجلسائه: مَنْ أَفْضَلُ النَّاسِ عِشَاءً وَأَنْعَمَهُمْ بَالَاءً، وَأَكْرَمَهُمْ طِبَاعاً، وَأَجْلَهُمْ فِي النُّفُوسِ قَدْرًا؟ فسكت القوم. فقام فتى فقال: أبيت اللعن، أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَاشَ النَّاسُ فِي فَضْلِهِ. فقال: صدقت. وكان أسماء بن خارجة يقول: ما أحبُّ أن أرد أحداً عن حاجة، لأنه إن كان كريماً أصون عرضه، أو لثيماً أصون عنه عرضي. وكان مروق العجلي يتلطف في إدخال السرور والرفق على إخوانه فيضع عند أحدهم البكرة ويقول له: أمسكها حتى أعود إليك، ثم يرسل يقول له: أنت منها في حل. وقال الحسن رضي الله عنه: باع طلحة بن عثمان رضي الله تعالى عنه أرضاً بسبع مائة ألف درهم، فلما جاءه المال قال: إن رجلاً بيت هذا عنده، لا يدري ما يطرقه، لغريز^(٣) بالله تعالى ثم قسمه في المسلمين. ولما دخل المنكدر على عائشة رضي الله عنها قال لها: يا أم المؤمنين أصابتنى فاقة. فقالت: ما عندي شيء، فلو كان عندي عشرة آلاف درهم لبعثت بها إليك. فلما خرج من عندها جاءتها عشرة آلاف درهم من عند خالد بن أسيد، فأرسلت بها إليه في أثره فأخذها ودخل بها السوق فاشتري جارية بألف درهم فولدت له ثلاثة أولاد، فكانوا عباد المدينة، وهم محمد، وأبو بكر، وعمرو بنو المنكدر.

وأكرم العرب في الإسلام طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه، جاء إليه رجل فسأله برحم بينه وبينه. فقال: هذا حاطلي بمكان كذا وكذا، وقد أعطيت فيه مائة ألف درهم يراح إليّ بالمال العشية، فإن شئت فالمال، وإن شئت فالحائط. وقال زياد بن جريز: رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة ألف في مجلس، وإنه ليخيط ازواره بيده.

وذكر الإمام أبو علي القالي في كتاب الأمالي أن رجلاً جاء إلى معاوية رضي الله تعالى عنه، فقال له: سألتك بالرحم التي بيني وبينك إلا ما قضيت حاجتي. فقال له معاوية: أيرى قريش أنت؟ قال: لا، قال: فأيرى رحمتي بيني وبينك قال: رحمتي آدم عليه السلام. قال: رحمتي مجفوة والله لأكونن أول من وصلها. ثم قضى حاجته.

وروي أن الأشعث بن قيس أرسل إلى عدي بن حاتم يستعير منه قدوراً كانت لأبيه حاتم، فملأها مالاً وبعث بها إليه، وقال: إنا لا نعيدها فارغة، وكان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي من الأجواد. ولم يتناول أحداً شيئاً، وإنما كان

(١) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٩.

(٢) تقتير: الشح والتوفير.

(٣) الغريز: قليل القوة، مفتر بشكل فاسد.

يطرحه في الأرض، فيتناوله الآخذ من الأرض. وكان يقول الدنيا أقل خطراً من أن ترى من أجلها يد فوق يد أخرى، وقد قال النبي ﷺ: «اليد العليا، خير من اليد السفلى». وسأل معاوية الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهم عن الكرم، فقال: هو التبرع بالمعروف، قبل السؤال، والرأفة بالسائل مع البذل. وقدم رجل من قريش من سفر فمر على رجل من الأعراب على قارعة الطريق قد أقعده الدهر، وأضرَّ به المرض. فقال له: يا هذا أعنا على الدهر. فقال لغلامه: ما بقي معك من النفقة فدفعه إليه. فصب في حجره أربعة آلاف درهم فهُمْ ليقوم فلم يقدر من الضعف فبكى، فقال له الرجل: ما ييكك لعلك استقلت ما دفعناه إليك، فقال: لا والله ولكن ذكرت ما تأكل الأرض من كرمك فأبكاني. وقال بعضهم: قصد رجل إلى صديق له فلقَّ عليه الباب فخرج إليه وسأله عن حاجته. فقال: علي دين كذا وكذا. فدخل الدار وأخرج إليه ما كان عليه، ثم دخل الدار باكياً، فقالت له زوجته: هلاً تعللت حيث شقت عليك الإجابة، فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله، حتى احتاج إلى أن يسألني.

ويروى أن عبد الله بن أبي بكر، وكان من أجود الأجواد، عطش يوماً في طريق فاستقى من منزل امرأة، فأخرجت له كوزاً، وقامت خلف الباب وقالت: تنحوا عن الباب، وليأخذ بعض غلمانكم، فإني امرأة عذب^(١) مات زوجي منذ أيام فشرب عبد الله الماء، وقال: يا غلام احمل إليها عشرة آلاف درهم. فقالت: سبحان الله أسخر بي؟ فقال: يا غلام احمل إليها عشرين ألفاً، فقالت: أسأل الله العافية، فقال: يا غلام احمل إليها ثلاثين ألفاً، فما أمست حتى كثر خطابها. وكان رضي الله تعالى عنه ينفق على أربعين داراً من جيرانه عن يمينه، وأربعين عن يساره، وأربعين أمامه وأربعين خلفه، ويصنع إليهم بالأضاحي والكسوة في الأعياد، ويعتق في كل عيد مائة مملوك رضي الله عنه. ولما مرض قيس بن سعد بن عبادة استبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم فقيل له إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين. فقال: أخزى الله ما لا يمنع عني الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي من كان لقيس عنده مال فهو منه في حل، فكسرت عتبة بابه بالعشي لكثرة العواد. وكان عبد الله بن جعفر من الجود بالمكان المشهود، وله فيه أخبار يكاد سامعها ينكرها لبعدها عن المعهود، وكان معاوية يعطيه ألف ألف درهم في كل سنة فيفرقها في الناس ولا يرى إلا وعليه دين. وستن رجل بهيمة، ثم خرج بها لبيعها فمر بعبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه. فقال: يا صاحب البهيمة أتبيعها؟ قال: لا، ولكنها هي لك هبة، ثم تركها له وانصرف إلى بيته، فلم يلبث إلا يسيراً وإذا بالحمامي على بابه عشرين نفراً، عشرة منهم يحملون حنطة، وخمسة لحماً وكسوة، وأربعة يحملون فاكهة وتقلداً، وواحد يحمل مالا فأعطاه جميع ذلك واعتذر إليه رضي الله تعالى عنه. ولما مات معاوية رضي الله تعالى عنه وفد عبد الله بن جعفر على يزيد ابنه فقال: كم كان أمير المؤمنين معاوية يعطيك، فقال: كان رحمه الله يعطيني ألف ألف، فقال يزيد: قد زدناك لترحمك عليه ألف ألف. فقال: بأبي وأمي أنت. فقال: ولهذه ألف ألف. فقال: أما أني لا أقولها لأحد بعدك. فقيل ليزيد: أعطيت هذا المال كله من مال المسلمين لرجل واحد. فقال: والله ما أعطيته إلا لجميع أهل المدينة، ثم وكل به يزيد من صحبه وهو لا يعلم، لينظر ما يفعل، فلما وصل المدينة فرق جميع المال حتى احتاج بعد شهر إلى الدين. وخرج رضي الله تعالى عنه، هو والحسان وأبو دحية الأنصاري رضي الله تعالى عنهم، من مكة إلى المدينة، فأصابتهن السماء بمطر، فلجؤوا إلى خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء، فلبث لهم الأعرابي

فأصابتهم السماء بمطر، فلدجؤوا إلى خباء أعرابي، فأقاموا عنده ثلاثة أيام حتى سكنت السماء، فنبج لهم الأعرابي شاة، فلما ارتحلوا قال عبد الله للأعرابي: إن قدمت المدينة فسل عنا. فاحتاج الأعرابي بعد سنين. فقالت له امرأته: لو أتيت المدينة فقلت أولئك الفتيان. فقال: قد نسيت أسماءهم. فقالت: سل عن ابن الطيار. فأتى المدينة فلقى سيدنا الحسن رضي الله تعالى عنه فأمر له بمائة ناقة بفحولها وورعاتها. ثم أتى الحسين رضي الله تعالى عنه فقال: كفانا أبو محمد مؤونة الإبل. فأمر له بألف شاة، ثم أتى عبد الله بن جعفر رضي الله تعالى عنه فقال: كفاني إخواني الإبل والشيء. فأمر له مائة ألف درهم، ثم أتى أبا دحية رضي الله تعالى عنه فقال: والله ما عندي مثل ما أعطوك، ولكن اتني يابلك فأقرها لك تمراً. فلم يزل اليسار في عقب الإعرابي من ذلك اليوم.

وقال الحسن والحسين يوماً لعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم: إنك قد أسرفت في بذل المال. فقال: بأبي أنتم، إن الله عز وجل عودني أن يتفضل عليّ، وعودته أن أتفضل على عباده. فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني المادة. وامتدحه نصيب فأمر له بخيل، وأساس ودنانير، ودرهم. فقال له رجل: مثل هذا الأسود تعطي له هذا لمال. فقال: إن كان أسود فإن ثنائه أبيض. ولقد استحق بما قال أكثر مما نال، وهل أعطياه إلا ثياباً تبلى، ومالاً ينفى، وأعطانا مدحاً يروى، وثناء يبقى. وخرج عبد الله رضي الله تعالى عنه يوماً إلى ضيعة له فنزل على حائط به نخيل لقوم، وفيه غلام ثم رمى إليه بالثاني، والثالث فأكلهما، وعبد الله ينظر إليه. فقال: يا غلام، كم قوتك كل يوم؟ قال: ما رأيت. قال: فلم أثرت هذا الكلب؟ قال: أرضنا ما هي بأرض كلاب، وإنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً، فكرهت أن أرده. قال: فما أنت صانع اليوم؟ قال: أطوي^(١) يومي هذا. فقال عبد الله بن جعفر: ألام على السخاء؟ وإن هذا لأسخى مني، فاشترى الحائط وما فيه من النخيل والآلات. واشترى الغلام، ثم أعتقه، ووهبه الحائط بما فيه من النخيل والآلات. فقال الغلام: إن كان ذلك لي، فهو في سبيل الله تعالى، فاستعظم عبد الله ذلك منه، فقال: يجود هذا، وأبخل أنا، لا كان ذلك أبداً.

وكان عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما من الأجواد، أتاه رجل وهو بفناء داره فقام بين يديه وقال: يا ابن عباس إن لي عندك يدأ، وقد احتجت إليها. فصعد فيه بصره فلم يعرفه. فقال: ما يدك؟ قال: رأيتك واقفاً بفناء زمزم وغلامك يمنح^(٢) لك من مائتها والشمس قد صهرتك فظللتك بفضل كسائي حتى شربت. فقال: أجل إنني لأذكر ذلك، ثم قال لغلامه: ما عندك؟ قال مائتا دينار، وعشرة آلاف درهم. فقال: ادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده. وقدم عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما على معاوية مرة فأهدى إليه من هدايا النوروز حلالاً كثيرة ومسكاً، وآنية من ذهب وفضة. ووجهها إليه مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه، نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها. فقال له: هل في نفسك منها شيء. قال: نعم. والله إن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب بن يوسف عليهما الصلاة والسلام. فضحك عبد الله وقال: خذها فتهي لك. قال: جعلت فداءك، أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيحقد عليّ. قال: فاختمها بخاتمك، وسلمها إلى الخازن، فإذا كان وقت خروجنا حملناها إليك ليلاً. فقال الحاجب: والله لهذه الحيلة في الكرم، أكثر من الكرم.

(١) أطوي: أجمع.

(٢) يمنح الماء: رفعه.

إذا عصفت، وأسخر من البحر إذا زخر. ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب يذكر فيه حبس معاوية صلاته عنه، وضيق حاله، وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم، فلما قرأ عبد الله كتابه انهملت عيناه، وقال: ويلك يا معاوية أصبحت لين المهادر رفيع العماد^(١) والحسين يشكو ضيق الحال، وكثرة العيال. ثم قال لوكيله: احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من ذهب، وفضة، ودواب، وأخبره أنني شاطرته، فإن كفاه وإلا احمل إليه النصف الثاني. فلما أتاه الرسول قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ثقلت والله على ابن عمي، وما حسب أنه يسمح لنا بهذا كله. رضوان الله عليهم أجمعين.

وجاء رجل من الأنصار إلى عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، فقال له: يا ابن عم محمد، إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإنني سميت به باسمك تبركاً منك، وإن أمه ماتت. فقال له: بارك الله لك في الهبة، وأجرك على المصيبة، ثم دعا بوكيله وقال له: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع لأبيه مائتي دينار ليشفقها على تربيته، ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام، فإنك جئتنا وفي العيش يسر، وفي المال قلة. فقال الأنصاري: جعلت فداك لو سبقت حاتماً يوماً ما ذكرته العرب. وقال أبو جهم بن حذيفة يوماً لمعاوية: أنت عندنا يا أمير المؤمنين، كما قال ابن عبد كلال:

يَقِينَا مَا نَخَافُ وَإِنْ ظَنَّنَا
نَمِيلُ عَلَى جَوَانِبِهِ كَأَنَّا
إِذَا مَلْنَا نَمِيلُ عَلَى أَيْنَا
فَنَجْبِرُ مِنْهُمَا كَرَمًا وَلَيْنَا

فأمر له بمائة ألف درهم، وأنشده عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما:

بَلَوْتُ النَّاسَ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ
وَلَمْ أَرْ فِي الْخُطُوبِ أَشَدَّ وَقَعًا
فَلَمْ أَرْ غَيْرَ خَتَالٍ^(٢) وَقَالَ^(٣)
وَأَمْضَى مِنْ مَعَادَةِ الرِّجَالِ
وَذَقْتُ مَرَارَةَ الْأَشْيَاءِ طَرًّا^(٤)
فَمَا شَيْءٌ أَمْرٌ مِنَ السُّؤَالِ

فأعطاه مائة ألف درهم. ودخل عليه الحسن يوماً وهو مضطجع على سريره، فسلم عليه، وأقعدته عند رجله. وقال: ألا تعجب من قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؟ تزعم أنني لست للخلافة أهلاً، ولا لها موضعاً. فقال الحسن: أو عجباً مما قالت؟ قال: كل العجب. قال الحسن: وأعجب من هذا كله جلوسي عند رجلك. فاستحيا معاوية، واستوى جالساً. ثم قال: أقسمت عليك يا أبا محمد إلا ما أخبرتني كم عليك ديناً؟ قال: مائة ألف درهم فقال: يا غلام أعط أبا محمد ثلثمائة ألف درهم، مائة ألف يقضي بها دينه، ومائة ألف يفرقها على مواله، ومائة ألف يستعين بها على نوائبه وسوغها إليه الساعة.

وكان معن بن زائدة من الأجواد، وكان عاملاً على العراق بالبصرة. قيل إنه أتى إليه بعض الشعراء فأقام بيباه مدة يريد الدخول عليه فلم يتهياً له ذلك. فقال يوماً لبعض الخدم. إذا دخل الأمير البستان فعرقي، فلما دخل أعلمه

(١) رفيع العماد: سيد مرفه.

(٢) ختال: مخادع.

(٣) وقال: كاره.

(٤) طراً: جميعاً.

بذلك. فكتب الشاعر بيتاً ونقشه على خشبة، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان، وكان معن جالساً على القناة فلما رأى الخشبة أخذها وقرأها فإذا فيها بيت مفرد:

أيا جودُ مَعْنٍ نَاجٍ مَعْناً بِحَاجَتِي فَلَيْسَ إِلَيَّ مَعْنٍ سِوَاكَ شَفِيعُ

فقال: مَنْ الرجل صاحب هذه؟ فأتني به إليه. فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطة فلما كان في اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ونظر فيها، وقال عليّ بالرجل صاحب هذه. فأتني به. فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت. فأمر له بعشر بدر فأخذها وانصرف. ووضع معن الخشبة تحت بساطه، فلما كان في اليوم الثالث أخرجها ونظر فيها وقال: عليّ بالرجل صاحب هذه فأتني به إليه. فقال له: كيف قلت؟ فأنشده البيت. فأمر له بعشر بدر فأخذها. وتفكر في نفسه، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه فخرج من البلد بما معه، فلما كان في اليوم الرابع طلب الرجل فلم يجده. فقال معن: لقد ساء والله ظنه، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار وفيه يقول القائل^(١):

يَقُولُونَ مَعْنٌ لَا زَكَاةَ لِمَالِهِ وَكَيْفَ يَزْكِي الْمَالَ مَنْ هُوَ بِأَذْلُهُ
إِذَا حَالَ حَوْلٌ لَمْ تَجِدْ فِي دِيَارِهِ مَنْ الْمَالِ، إِلَّا ذِكْرُهُ وَجَمَائِلُهُ
نَرَاهُ إِذَا مَا جَنَّتْهُ مِنْهُلًا كَأَنَّكَ تَعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ نَائِلُهُ
تَعَوَّدُ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ أَرَادَ انْقِبَاضاً لَمْ تُطْفِئْهُ أُنَامِلُهُ
فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ نَفْسِهِ لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهُ

ومن قول معن:

دَعَيْتَنِي أَنْهَبَ الْأَمْوَالَ حَتَّى أَعَفَّ الْأَكْرَمِينَ عَنِ اللَّثَامِ

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد الأسخياء، وله أخبار في الجود عجيبة. من ذلك ما حكاه عقيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال: لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط، أتته فقلت: أيها الأمير إن رأيت أن تأذن لي فأصحبك، قال: إذا قدمت واسط فأتني إن شاء الله تعالى. فسافر وأقمت. فقال لي بعض إخواني: اذهب إليه. فقلت: كان جوابه فيه ضعف. قالوا: أتريد من يزيد جواباً أكثر مما قال. قال: فسرت حتى قدمت عليه، فلما كان في الليل دعيت إلى السمر فتحدث القوم حتى ذكروا الجوارى. فالتفت إليّ يزيد وقال: إيه يا عقيل فقلت:

أَفَاضَ الْقَوْمُ فِي ذِكْرِ الْجَوَارِي فَأَنَا الْأَعَزُّ بَيْنَهُمْ فَلَمْ يَقُولُوا

قال: إنك لن تبقى عزياً. فلما رجعت إلى منزلي، إذا أنا بخادم قد أتاني ومعه جارية وفرش بيت، وبدره عشرة آلاف درهم، وفي الليلة الثانية كذلك. فمكثت عشرة ليال وأنا على هذه الحالة. فلما رأيت ذلك دخلت عليه في اليوم العاشر فقلت: أيها الأمير قد والله أغيت وأقنت، فإن رأيت أن تأذن لي في الرجوع فأكتب عدوي، وأسر صديقي. فقال: إنما أخيرك بين خلتين، وإما أن تقيم فنوليك، أو ترحل فنغنيك. فقلت: أو لم تغتني أيها الأمير؟ قال: إنما هذا أثاث المنزل، ومصلحة القدم. فنالني من فضله ما لا أقدر على وصفه.

وحدث أبو اليقظان عن أبيه قال: حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقاً يحلق رأسه، فجاءوه بحلاق فحلق رأسه فأمر له بخمسة آلاف درهم. فتحير الحلاق ودعش، وقال: أخذ هذه الخمسة آلاف وأمضي إلى أم فلان، وأخبرها أنني قد استغنيت. فقال: أعطوه خمسة آلاف أخرى. فقال: امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك. وقيل: إن الحاجب حبسه على خراج وجب عليه، مقدار مائة ألف ألف درهم، فجمعت له وهو في السجن، فجاءه الفرزدق يزوره، فقال للحاجب: استأذن لي عليه. فقال: إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه فيه. فقال الفرزدق: إنما أتيت متوجعاً لما هو فيه، ولم آت ممتدحاً فأذن له، فلما أبصره قال:

أبا خالد ضاقت خراسانُ بعدكم وقال ذوو الحاجات أين يزيدُ
فما قطرتُ بالشرقِ بعدك قطرةً ولا أخضرُ بالمروينِ بعدك عودُ
وما لسرورُ بعد عزك بهجةً وما لجوادٍ بعد جودك جودُ

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة ألف ألف درهم، التي جمعت لنا، ودع الحاجب ولحمي يفعل فيه ما يشاء. فقال الحاجب للفرزدق: هذا الذي خفت منه لما منعتك من دخولك عليه، ثم دفعها إليه فأخذها وانصرف. ومز يزيد بن المهلب عند خروجه من سجن عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه بعجوز أعرابية فذبحت له عتراً فقال لابنه: ما معك من الثقة؟ قال: مائة دينار. قال: ادفعها إليها. فقال: هذه يرضيها اليسير وهي لا تعرفك. قال: إن كان يرضيها اليسير فأنا لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي. وقال مروان بن أبي الحبوب الشاعر: أمر لي بمائة وعشرين ألفاً، وخمسين ثوباً، ورواحل كثيرة. فقلت أبياتاً في شكره فلما بلغت قولي:

فأسبك ندى كُفَيْتِكَ عني ولا تزدُ فقد خفتُ أن أطفئُ وأن أتجبراً

فقال: والله لا أسبك حتى أغرقك بجودي، وأمر له بضياع بألف ألف. وقال أبو العيناء: تذاكروا السخاء فاتفقوا على آل المهلب في الدولة المروانية، وعلى البرامكة في الدول العباسية، ثم اتفقوا على أن أحمد بن أبي داود أسخى منهم جميعاً وأفضل. وسئل إسحاق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد فقال: أما الفضل فيرضيك فعله، وأما جعفر فيرضيك قوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد. وفي يحيى يقول القائل:

سألت الندى هل أنت حرٌّ فقال لا ولكتي عبدٌ ليحيى بن خالدٍ
فقلتُ شراً قال لا بل ورائةً تورائي من والدٍ بعد والدٍ
وفي الفضل يقول القائل:

إذا نزلَ الفضلُ بنُ يحيى يلبدةً رأيتُ بها غيتَ الساحةَ يبتُ
فليس بسعالٍ^(١) إذا سبلَ حاجةً ولا بمكبٍ^(٢) في ثرى الأرضِ ينكتُ
وفي محمد يقول القائل:

سألت الندى والجودَ ما لي أراكما تبذلُّما عزاً بذلَّ مؤيدٍ

(١) سعال: يتنحع ويسعل في غير راحة للعطاء.

(٢) بمكب: مطرق يلهي.

وما بال ركنُ المجدِ أَمسى مهتماً فقالا أصبنا بابينِ يحيى محمداً
قللتُ فهلاً ثُمّاً بعدَ موتهِ وقد كتما عبدَيه في كلِّ مشهدٍ
قالا أقمنا كي نُعزّي بفقدهِ مسافةً يومٍ ثم نلّوه في غدٍ

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه: من كانت له إليّ حاجة فليرفعها إليّ في كتاب لأصون وجهه عن المسألة. وجاءه رضي الله تعالى عنه أعرابي، فقال: يا أمير المؤمنين إن لي إليك حاجة، الحياء يمنعي أن أذكرها. فقال خطها في الأرض فكتب: إني فقير. فقال: يا قنبر، أكبه، حلتني. فقال الأعرابي:

كسوتني حلةً تبلى محاسنها سوف أكسوك من حسنِ الثنا حللاً
إن نلت حسنَ الثنا قد نلتَ مكرمةً وليس تبغي بما قدّنته بدلاً
إن الثناء ليحيي ذكرَ صاحبه كالغيثِ يُحيي نداءَ السهلِ والجبلِ
لا تزهدِ الدهرَ في عرفٍ بدأت به كلُّ امرئٍ سوف يُجزى بالذي فعلاً

فقال يا قنبر: زده مائة دينار. فقال: يا أمير المؤمنين لو فرقتهما في المسلمين لأصلحت بها من شأنهم. فقال رضي الله تعالى عنه: صه يا قنبر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: اشكروا لمن أثنى عليكم، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه. ولعبد الله بن جدهان:

إنني وإن لم يَنْل مالي مداخلتي ومابُ ما ملكتُ كُفي من المالِ
لا أحبسُ المالَ إلا حيثُ أنفقهُ ولا يغيّرني حالٌ إلى حالٍ

وقال بعض العرب لولده: يا بني لا تهذهن في معروف، فإن الدهر ذو صروف؛ فكم راغب كان مرغوباً إليه، ومطالب كان مطلوباً ما لديه، وكن كما قال القائل:

وعُدّ من الرحمنِ فضلاً ونعمةً عليك إذا ما جاء للخير طالبُ
ولا تمنعن ذا حاجٍ جاء راغباً فإنك لا تدري متى أنت راغبُ

وقال بعضهم:

أبيتُ خميصَ البطن^(١) عريانَ طاوياً وأوترُ بالزادِ الرفيقَ على نفسي
وأمنحه فرشي وأفرش الشرى وأجعل ستر الليل من دونه لبسي^(٢)
حذارِ أحاديثِ المحافلِ في غدٍ إذا ضمّني يوماً إلى صدره رمسي^(٣)

وقال يحيى البرمكي: أعط الدنيا وهي مقبلة، فإن ذلك لا يتقصك منها شيئاً، وأعط منها وهي مدبرة فإن منعك لا يقي عليك منها شيئاً. فكان الحسن بن سهل يتمجب من ذلك ويقول: لله دره ما أطبعه على الكرم وأعلمه بالدنيا. وقد أملى يحيى من نظمه فقال:

(١) خميص البطن: خاليه - جائعاً.

(٢) اللبس: الخفاء.

(٣) الرمس: اللحد - القبر.

لا تبخلنَّ بدنينا وهي مقبلَةٌ فليس ينقصُها التبذيرُ والسرفُ
فإن تولَّتْ فأحرى أن تجودَ بها فليسَ تبقى ولكنْ شكرها خلف^(١)

وقال يحيى لولده جعفر يا بني: ما دام قلمك يردد فأمطره معروفاً. وقال بعضهم:

لا تكثري في الجودِ لائمتي وإذا بخلتْ فاكثري لومي
كفّي فليستْ بحاملٍ أبداً ما عشتُ همَّ غدٍ إلى يومي

وقال علي رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه: لا تسح من عطاء القليل فالحرمان أقل منه. وسئل إسحاق الموصلي عن المخلوع فقال: كان أمره كله عجباً، كان لا يبالي أين يقعد مع جلسائه، وكان عطاؤه عطاء من لا يخاف الفقر. كان عنده سليمان بن أبي جعفر يوماً فأراد الرجوع إلى أهله فقال له: سفر البر أحب إليك أم سفر البحر؟ قال: البحر ألين عليّ. فقال: أوفروا^(٢) له زورقه ذهباً، وأمر له بألف درهم. وشكا سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، موسى شهوات إلى سليمان بن عبد الملك وقال: قد هجاني يا أمير المؤمنين. فاستحضره سليمان وقال: لا أم لك، أتتهجو سعيداً. قال: يا أمير المؤمنين أخبرك الخبر. عشقت جارية مدنية وأتيت سعيداً فقلت: إني أحب هذه الجارية، وإن مولاتها أعطيت فيها مائتي دينار، وقد أتيتك فقال لي بورك فيك. فقال سليمان: ليس هذا موضع بورك بورك فيك. قال: فأتيت يا أمير المؤمنين سعيد بن خالد فذكرت له حالي فقال: يا جارية هاتي مطرفاً فأنته بمطرف خز فصرت لي في كل زاوية مائتي دينار فخرجت وأنا أقول:

أبا خالدٍ أعني سعيد بن خالد اخا العرفِ لا أعني ابن بنت سعيد
ولكنني أعني ابن عائشة الذي أبو أبويه خالد بن أسيد
عقيد الندى ما عاش يرضى به الندى فإن مات لم يرضَ الندى بعقيد^(٣)
ذروه ذروه إنكم قد رقدتمو وما هو عن إحسانكم برقود

فقال سليمان: قل ما شئت. وكتب كلثوم بن عمر إلى بعض الكرماء رقعة فيها:

إذا تكهرت أن تعطي القليلَ ولم تقبِز على سعةٍ لم يظهر الجودُ
بثَّ النوالِ ولا تمنَّك قلَّةُ فكلُّ ما سدَّ فقراً فهو محمودُ

فشاطره ماله حتى بعث إليه بنصف خاتمه، وفردة نعله. وباع عبد الله بن عتبة بن مسعود أرضاً بثمانين ألفاً. فقيل له: لو اتخذت لولدك من هذا المال ذخراً. فقال: بل اجعله ذخراً لي واجعل الله ذخراً لولدي، وقسمه بين ذوي الحاجات. وكان ابن مالك القشيري من الأجواد. قيل إنه أنهب الناس ماله بمكاظ ثلاث مرات فعاتبه خالد فقال:

يا خالَ دَرنِي ومالي ما فعلتُ به وخُذْ نصيكَ منه إنني مودي^(٤)

(١) خلف: أي يجعل لها خلفاً.

(٢) أوفروا: حملوه وأثقلوه.

(٣) بعقيد: من يعقد له الرأي والزعامة.

(٤) مودي: هالك.

فلن أطيعك إلا أن تخلصني فانظر بكيدك هل تستطيع تخليدي
الحمد لا يشتري إلا بمكرمة ولن أعيش بمال غير محمود

وقال المهلب: عجبت لمن يشتري الممالك بماله، كيف لا يشتري الأحرار بفعاله. ونزل بأبي البحري وهب ابن وهب القرشي ضيفاً، فسارع عبيده إلى إنزاله وخدموه أحسن خدمة، وفعلوا به كل جميل، فلما هم بالرحيل لم يقره أحد منهم وتجنبوه فأنكر ذلك عليهم. فقالوا: نحن إنما نعين النازل على الإقامة ولا نعينه على الرحيل. ووفدت ليلى الأخيلية على الحجاج فقالت فيه:

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة تبغ أقصى داءها فشفاهما
شفاهما من الداء العضال^(١) الذي بها غلام إذا هز القنأة سقامها

فقال: لا تقولي غلام، ولكن قولي / همام/ يا غلام أعطها خمسمائة. فقال: أيها الأمير اجعلها نعماً، فجعلها إبلاً إنثاءً. وقال أبو الفياض الطبري:

والعزّ ضيف لا يراه بريرة من لا يرى بلذّ التلاد تلادا
والجود أعلى كمب كمب قبلنا فمضى جواداً يوم مات جوادا

وقال آخر:

أيقنت أن من السامح شجاعة وعلمت أن من السامحة جودا

وقال أحمد بن حمدون النديم: عملت أم المستعين بساطاً على صورة كل حيوان من جميع الأجناس وصورة كل طائر من ذهب، وأعينهم يواقيت وجواهر، أنفقت عليه مائة ألف دينار وثلاثين ألف دينار، وسأله أن يقف عليه، وينظر إليه، فكسل ذلك اليوم عن رؤيته. قال أحمد بن حمدون: فقال لي ولأترجة الهاشمي: اذهبا فانظرا إليه، وكان معنا الحاجب. فمضينا ورأيناه، فوالله مارأينا في الدنيا شيئاً أحسن منه، ولا شيئاً حسناً إلا وقد عمل فيه. فمددت أنا يدي إلى غزال أمير المؤمنين إنه قد سرق منه شيئاً، وغمره على كمي، فأريته الغزال فقال: بحياتي عليكما ارجعوا فخذوا ما أحببتما. فمضينا فملأنا أكمامنا، وأقيتنا، وأقبلنا نمشي كالجبالى. فلما رأنا ضحك، فقال بقية الجلساء: ونحن فما ذنبنا يا أمير المؤمنين، فقال: قوموا فخذوا ما شئتم، ثم قام فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ويضحك.

ونظر يزيد المهلبى سطلاً من ذهب مملوءاً مسكاً فأخذه بيده وخرج. فقال له المستعين: إلى أين؟ فقال: إلى الحمام يا أمير المؤمنين، فضحك من قوله، وأمر الفراشين والخدم أن يتهبوا الباقي فانتبهوه فوجهت إليه أمه تقول: سر الله أمير المؤمنين، لقد كنت أحب أن يراه أن يفرقه، فإني أنفقت عليه مائة ألف دينار وثلاثين ألف دينار. فقال: يُحمل إليها مثل ذلك، حتى تعيد مثله. ففعلت ومضى حتى رآه وفعل به كفعله بالأول. ودخل طلحة بن عبد الله بن عوف السوق يوماً فوافق فيه الفرزدق فقال: يا أبا فراس اختر عشراً من الإبل ففعل. فقال: ضم إليها مثلها فلم يزل يقول مثل ذلك حتى بلغت مائة. فقال: هي لك. فقال:

(١) الداء العضال: الذي لا يبرؤه منه.

يا طَلَحَ أَنْتَ أَخُو النَّدَى وَعَقِيدُهُ إِنَّ النَّدَى مَا مَاتَ طَلْحَةُ مَا تَا
إِنَّ النَّدَى أَلْقَى إِلَيْكَ رَحَالَهُ فَبِحَيْثُ بَيْتٍ مِنَ الْمَنَازِلِ بَاتَا
وقدم زياد الأعجم على عبد الله بن الحشرج بنيسابور فأكرمه، وأنعم عليه، وبعث إليه بألف دينار. فقال:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمَرْوَةَ وَالنَّدَى فِي قَبْزِ ضُرَيْتٍ عَلَى ابْنِ الْحَشْرِجِ
فقال: زدني. فقال: كل شيء وثمنه. ووفد أبو عطاء السدي على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له فأنزله، وأحسن إليه وقال: ما عندك يا أبا عطاء. فقال: وما عسى أن أقول وأنت أشعر العرب غير أنني قلت بيتين. قال: هات ما قلت فقال:

يَا طَالِبَ الْجُودِ أَمَا كُنْتَ تَطْلُبُهُ فَاطْلُبْ عَلَى بَابِهِ نَصْرَ بْنَ سِيَارِ
الْوَاهِبِ الْخَيْلَ تَفْدُو فِي أَعْتَهَا مَعَ الْقِيَانِ وَفِيهَا أَلْفُ دِينَارِ

فأعطاه ألف دينار، ووصائف، وكساء كسوة جميلة، فقسم ذلك بين رفيقيه ولم يأخذ منه شيئاً، فبلغ ذلك نصراً فقال: يا له، قاتله الله من سيد ما أضخم قدره، ثم أمر له بمثله. وقال العتي أشرف عمرو بن هيرة يوماً من قصره فإذا هو بأعرابي يرقل^(١) قلوصه، فقال عمرو لحاجبه: إن أردني هذا الأعرابي فأوصله إليّ. فلما وصل الأعرابي سأله الحاجب، فقال: أردت الأمير، فدخل به عليه فلما مثل بين يديه قال له: ما حاجتك؟ فأنشد الأعرابي يقول:

أَصْلَحَكَ اللَّهُ قُلْ مَا يَيْدِي وَلَا أَطِيقُ الْعِيَالَ إِذَا كَسَرُوا
أَنْسَاخَ دَهْرِي عَلَيَّ كُلَّكَ^(٢) فَارْسُلُونِي إِلَيْكَ، وَانْتَظَرُوا

فأخذت عمر الأريحية فجعل يهترّ في مجلسه، ثم قال: أرسلوك إليّ وانتظروا، إذن لا تجلس حتى ترجع إليهم، ثم أمر له بألف دينار. وقيل: أراد ابن عامر أن يكتب لرجل بخمسين ألف درهم فجري القلم بخمسمائة ألف. فراجع الخازن في ذلك فقال: انفذ ما بقي إلا نفاذه، وإن خروج المال أحب إليّ من الإعتذار فاستشرفه الخازن. فقال إذا أراد الله بعد خيراً صرف القلم عن مجرى إرادة كاتبه إلى إرادته. وأنا أردت شيئاً، وأراد الجواد الكريم أن يعطي عبده عشرة أضعافه، فكانت إرادة الله الغالبة وأمره النافذ. ووقف أعرابي على ابن عامر فقال: يا قمر البصرة، وشمس الحجاز، ويا ابن ذروة العرب، وابن بطحاء مكة، برّحت بي الحاجة، وأكلت بي^(٣) الآمال إلا بفنائك فامنحني بقدر الطاقة لا بقدر المجد، والشرف، والهمة. فأمر له بمائتي ألف. وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل:

أَتَرَكُ إِنْ قُلْتُ دِرَاهِمُ خَالِدٍ زِيَارَتَهُ إِنِّي إِذَا لَلْتُكُمْ

فقال: أَوَلَقُلْتُ دِرَاهِمُ خَالِدٍ! أحملوا إليه مائة ألف درهم، فبعثها خالد بن يحيى إلى عمارة بن عقيل وقال: هذه قطرة من سحابك. ولما عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكى ثم قال: والله ما بكائي جزعاً من العزل، ولا أسفاً على الولاية، ولكن أخاف على هذه الوجوه أن يلي أمرها من لا يعرف لها حقاً. وأراد الرشيد أن يخرج إلى

(١) يرقل: يجذ بالسير عليها.

(٢) كللكه: صدره ويكنى عن مصائبه.

(٣) أكلت بي: أعوزتني.

بعض المتفرجات فقال يحيى بن خالد لرجاء بن عبد العزيز وكان على نفقاته: ما عند وكلائنا من الأموال؟ قال: سبعمائة ألف درهم، قال: فاقبضها إليك يا رجاء. فلما كان من الغد دخل عليه رجاء فقبل يده، وعنده منصور بن زياد، فلما خرج رجاء قال يحيى لمنصور: قد ظننت أن رجاء توهم أنا قد وهبنا المال له، وإنما أمرناه بقبضه من الوكلاء ليحفظه علينا لحاجتنا إليه في وجهنا هذا. فقال منصور: أنا استخبر لك هذا، فقال يحيى: إذن يقول لك قل له يقبل يدي كما قبلت يده، فلا تقل له شيئاً فقد تركتها له. وقيل إن الرشيد وصل في يوم واحد بألف ألف وثلاثمائة ألف وخمسين ألفاً. ووصل المنصور في يوم واحد لبني هاشم ووجوه قواده بعشرة آلاف ألف دينار على ما ذكر. وعن الأخفش الصغير قال: كان أسيد بن عتقاء الفزاري من أكبر أهل زمانه قدراً، أكثرهم أدباً، وأفصحهم لساناً، وأثبتهم جناناً^(١)، فطال عمره، ونكبه دهره، فخرج عشية يتفل لأهله فمر به عميلة الفزاري فسلم عليه وقال: ما أشارك يا عم إلى ما أرى؟ فقال بُخْلٌ مثلكُ بماله، وصَوْنٌ وجهي عن مسألة الناس. فقال: والله لئن بقيت إلى غد لأغيرن ما أرى من حالك. فرجع ابن عتقاء إلى أهله فأخبرها بما قال له عميلة فقالت له: لقد غرك كلام غلام في جنح ليل. قال: فكأنما ألقيت فاه حجراً، ويات متمللاً بين رجاء ويأس، فلما كان وقت السحر سمع رغاء الإبل، وصهيل الخيل تحت الأموال، فقال: ما هذا؟ قالوا عميلة قد قسم ماله شطرين وبعث إليك بشره. فأنشأ يقول:

رَأَيْتُ عَلَى مَا بِي عَمِيلَةً فَاشْتَكَيْتُ	إِلَى مَالِهِ حَالِي فَوَاسِي وَمَا هَجَزْتُ
وَلَمَّا رَأَى الْمَجْدَ اسْتَعِيرَتْ ثِيَابُهُ	تَرْتَدِّي رِدَاءَ سَابِغِ الذَّيْلِ وَأَتَزَرُّ
غُلَامٌ جَاءَهُ اللَّهُ بِالْحَسَنِ يَاقِعْماً	لَهُ سَيْمِيَاءُ ^(٢) لَا تَشُقُّ عَلَى الْبَسَرِ
كَأَنَّ الثَّرِيَاءَ ^(٣) عُلِقَتْ فِي جَيْبِهِ	وَفِي أَنْفِهِ الشُّغْرَى وَفِي جَيْبِهِ الْقَمَرُ

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي من الأجواد. قيل: إنه كان لرجل جارية يهاواها فاحتاج إلى بيعها فأبناها منه ابن معمر بمال جزيل، فلما قبض ثمنها أنشأت تقول:

هَيْئَةً لَكَ الْمَالُ الَّذِي قَدْ قَبَضْتُهُ	وَلَمْ يَبْقَ فِي كَفِّي غَيْرُ التَّحْشُرِ
أَبَوْهُ بَخْرُني مِنْ فَرَاقِكَ مَوْجَعٌ	أَنَاجِي بِهِ صَدْرًا طَوِيلَ التَّغْكُرِ

فأجابها بقوله:

وَلَوْلَا قَمُودُ الدَّهْرِ بِي عَنْكَ لَمْ يَكُنْ	يَفْرُقُنَا شَيْءٌ سِوَى الْمَوْتِ فَاعْلُرِي
عَلَيْكَ سَلَامٌ لَا زِيَارَةَ يَتَنَا	وَلَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ ابْنُ مَعْمَرٍ

فقال ابن معمر: قد شئت، وقد وهبتك الجارية وثمنها فخلها وانصرف. ووفد أبو الشعمق إلى مدينة سابور يريد محمد بن عبد السلام فلما دخلها توجه إلى منزله فوجده في دار الخراج يطالب فدخل عليه يتوجع له فلما رآه محمد قال:

وَلَقَدْ قَدِمْتُ عَلَى رِجَالٍ طَالَمَا	قَدِمَ الرِّجَالُ عَلَيْهِمْ فَتَمَوَّلُوا
--	--

(١) جناناً: القلب.

(٢) سيمياء: علامة.

(٣) الثريا: مجموعات نجمية (من النجوم).

أخنى^(١) الزمانُ عليهم فكأنما كانوا بأرضي أقفرَ فتحولوا
فقال أبو الشمقمق:

الجودُ أفلسَهُم وأذَقَبَ مالَهُم فاليومُ إن راثوا الساحةَ يخلوا

قال: فخلع محمد ثوبه وخاتمه ودفعهما إليه. فكتب بذلك مستوفي الخراج إلى الخليفة. فوقع إلى عامله بإسقاط الخراج عن محمد بن عبد السلام في تلك السنة، وإسقاط ما عليه من البقايا، وأمر له بمائة ألف درهم معونة له على مروهته.

وقال أبو العيناء: حصلت لي ضيقة شديدة فكتمتها عن أصدقائي فدخلت يوماً على يحيى بن أكرم القاضي فقال: إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم، وأخذ القصص فهل لك في الحضور. قلت: نعم فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه، وأجلسني، ثم قال: يا أبا العيناء بالإلقة والمحبة، ما الذي جاء بك في هذه الساعة فأنشدته:

لقد رجوتُكَ دونَ الناسِ كلهم وللرجاءِ حقوقٌ كلها تجبُ
إن لم يكنْ لي أسبابٌ أعيشُ بها ففي الملاكَ أخلاقٌ هي السببُ

فقال: يا سلامة، انظر أي شيء في بيت مالنا دون مال المسلمين. فقال: بقية من المال. قال: فادفع له منها مائة ألف درهم، وابعث له بمثلها في كل شهر. فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون فبكى عليه أبو العيناء حتى تفرحت أجنانه فدخل عليه بعض أولاده فقال: يا أبناه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء فأنشأ أبو العيناء يقول:

شيان لو بكتِ الدماءُ عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهابِ
لم يلفنا المعشاة من حقَّيْهما فقُدَّ الشبابُ وفرقةُ الأحبابِ

وكان أحمد بن طولون كثير الصدقة، وكان راتبة منها في الشهر ألف دينار، سوى ما يطرأ عليه من نذر أو صلة، وسوى ما يطبخ في دار الصدقة. وكان الموكل بصدقته سليم الخادم، فقال له سليم يوماً: أيها الأمير إنني أطوف القبائل، وأدق الأبواب لصدقاتك، وإن اليد تمتد إليّ، وفيها الحناء وربما كان فيها الخاتم الذهب، والسوار الذهب، أفأعطي أم أurd. قال: فأطرق طويلاً ثم قال: كل يد امتدت إليك فلا تردّها. وقال سلمة بن عياش في جعفر بن سليمان:

وما شمَّ أنفي ريحَ كفِّ شمتها منَ الناسِ إلّا ريحُ كفِّكَ أطيبُ

فأمر له بألف دينار، ومائة مثقال مسك، ومائة مثقال عنبر. وكان عبد العزيز بن عبد الله جواداً مضيافاً، فتغدى عنده يوماً أعرابي، فلما كان من الغد مر على بابه فرأى الناس في الدخول على هيتهم الأس. فقال: أو كلّ يوم يطعم الأمير الناس؟ قالوا: نعم. فأنشأ يقول:

كلُّ يومٍ كأنه عيدٌ أضحى عندَ عبدِ العزيزِ أو عيدُ فطرٍ

وله ألف جفنة^(١) مترعاتٍ كلُّ قدرٍ يمُدُّها ألفُ قدرٍ

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص فلما خرجوا بقي فتى من الشام قاعداً فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفا الشمعة كراهة أن يخجل الفتى. فذكر أن أباه مات، وخلف ديناً، وعيالا، وسأله أن يكتب له كتاباً إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله فدفع له عشرة آلاف دينار. وقال له: لا أدعك تقاسي الذل على أبوابهم. ودخل رجل على علي بن سليمان الوزير فقال له: سألتك بالله العظيم، وبنيه الكريم إلا ما أجزتني من خصمي. فقال: ومن خصمك حتى أجريك منه؟ قال: الفقر. فأطرق الوزير ساعة، وقال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم فأخذها وانصرف. فبينما هو في الطريق إذا أمر الوزير برده إليه، فلما رجع قال له: سألتك بالله العظيم وبنيه الكريم متى أتاك خصمك معنفاً فأرجع إلينا متظلماً. وقال الأعمش: كانت عندي شاة فمرضت، وقعدت الصبيان لبنها، فكان خيشمة بن عبد الرحمن يعودها بالغداة والعشي ويسألني هل استوفت علفها، وكيف صبر الصبيان منذ فقدوا لبنها، وكان تحتي لبد أجلس عليه فكان إذا خرج يقول: خذ ما تحت اللبد حتى وصل إلي من علة الشاة أكثر من ثلثمائة دينار من بره حتى تمنيت أن الشاة لم تبرأ^(٢).

وحكى أبو قدامة القشيري قال: كنا مع يزيد بن يزيد يوماً فسمع صائحاً يقول: يا يزيد بن يزيد. فطلبه فأتني به إليه، فقال: ما حملك على هذا الصياح؟ قال: فقدت دابتي، ونفدت نفقتي، وسمعت قول الشاعر:

إذا قيلَ مَنْ للجودِ والمجدِ والندى فنادِ بصوتِ يا يزيدُ بنُ يزيدٍ

فأمر له بفرس أبلق كان معجباً به، وبمائة دينار، وخلعة سنية، فأخذها وانصرف.

وحكى أن قوماً من العرب جاؤوا إلى قبر بعض أسخياتهم يزورونه فباتوا عند قبره، فرأى رجل منهم صاحب القبر في المنام وهو يقول له: هل لك أن تيعني بعيرك بنجيبي^(٣)؟ وكان الميت قد خلف نجياً، وكان للرائي بعير سمين، فقال: نعم. وباعه في النوم بعيره بنجييه. فلما وقع بينهما عقد البيع عمد صاحب القبر إلى بعيره فنحره في النوم، فانتبه الرائي من نومه فوجد الدم يسبح من نحر بعيره فقام وأتم نحره، وقطع لحمه وطبخوه، وأكلوا ثم رحلوا. وساروا. فلما كان اليوم الثاني وهم في الطريق سائرون استقبلهم ركب فتقدم منهم شاب فتادى: هل فيكم فلان بن فلان؟ فقال صاحب البعير: نعم ها أنا ذا فلان بن فلان. فقال: هل بعث من فلان الميت شيئاً؟ قال: نعم بعته بعيري بنجييه في النوم، فقال هذا نجيه فخذ، وأنا ولده وقد رأيته في النوم وهو يقول: أن كنت ابني فادفع نجبي إلى فلان فانظر إلى هذا الرجل الكريم كيف أكرم أضيافه بعد موته.

وروي عن الهيثم بن عدي أنه قال: تمارى^(٤) ثلاثة نفر في الأجواد. فقال رجل: أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله بن جعفر. فقال الآخر: أسخى الناس قيس بن سعيد بن عبادة. فقال الآخر: بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسي. فتنازعا بفناء الكعبة. فقال لهم رجل: لقد أفرطتم في الكلام فليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى

(١) جفنة: وعاء يسكب فيه الطعام.

(٢) تبرأ: تشفى.

(٣) بنجييه: الإبل النجيس.

(٤) تمارى: تجادل.

نظر بما يعود، فنحكم على العيان. فقام صاحب بن جعفر فوافاه، وقد وضع رجله في ركاب راحلته يريد ضيعة له. فقال الرجل: يا ابن عم رسول الله ﷺ، ابن سبيل ومتقطع به. قال: فأخرج رجله، وقال: ضع رجلك واستو على الناقة وخذ ما في الحقيبة وكان فيها مطارف خز، وأربعة آلاف دينار. ومضى صاحب قيس فوجده نائماً فقالت له جارية لقيس: ما حاجتك؟ فقال: ابن سبيل، ومتقطع به، فقالت له الجارية: حاجتك أهون من إيقاظه، هذا كيس فيه سبعمائة دينار، ما في دار قيس اليوم غيرها، وامض إلى معاطن^(١) الإبل فخذ راحلة من رواحله وما يصلحها وعبداً، وامض لشأنك. قيل: إن قيساً لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت فاعتقها. ولو لم تعلم أن ذلك يرضيه ما جسرت أن تفعله، فخلقَ خدام الرجل مقتبس من خلقه قال بعض الشعراء:

وَإِذَا مَا اخْتَبَرْتُ وَدَّ صَدِيقِي فَاخْتَبِرْ وَدَّ مِنَ الْغُلَامَانِ

ومضى صاحب عرابة فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة. فقال: يا عرابة، ابن سبيل ومتقطع به، وكان معه عبدان فصفق بيده اليمنى على اليسرى. وقال: أواه أواه والله ما أصبح ولا أسي الليلة عند عرابة شيء، ولا تركت له الحقوق مالأً، ولكن خذ هذين العبدين. فقال الرجل والله ما كنت بالذي يسلبك عبدك. فقال: إن أخذتهما أو لا فهما حران لوجه الله تعالى، فإن شئت فخذ، وإن شئت فاعتق. فأخذ الرجل العبدين ومضى. ثم اجتمعوا وذكروا قصة كل واحد فحكوا لعرابة لأنه أعطى على جهده.

قيل: إن شاعراً قصد خالد بن يزيد فأنشده شعراً يقول فيه:

سَأَلْتُ النَّدَى وَالْجُودَ حَرَّانَ أَنْتَمَا فَقَالَ يَقِيناً إِنَّمَا لِعِيْدُ
فَقُلْتُ وَمَنْ مَوْلَاكُمَا فَتَطَاوَلَا إِلَيَّ وَقَالَا خَالِدٌ وَيَزِيدُ

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم. وقل له إن زدتنا زدناك فأنشد يقول:

كَرِيمٌ كَرِيمُ الْأَمْهَاتِ مَهْدَبٌ تُدَقُّ يَمْنَاهُ النَّدَى وَشَمَائِلُهُ
هُوَ الْبَحْرُ مِنْ أَيِّ الْجِهَاتِ أَتَيْتُهُ فَلَجَّئُهُ الْمَعْرُوفُ وَالْجُودُ سَاحِلُهُ
جَوَادٌ بَسِيطُ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ دَعَاها لَقَبِيهِ لَمْ تُجِبْهُ أَنْامِلُهُ

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم، وقال له: إن زدتنا زدناك فأنشد يقول:

تَبَرَّعْتُ لِي بِالْجُودِ حَتَّى نَعِشْتَنِي وَأَعْطَيْتَنِي حَتَّى حَبُّكَ تَلْعَبُ
وَأَنْبَتُ رِيشاً فِي الْجَنَابِجَيْنِ بَعْدَمَا تَسَاقَطَ مِنِّي الرِّيشُ أَوْ كَادَ يَلْهَبُ
فَأَنْتَ النَّدَى، وَابْنُ النَّدَى، وَأَخُو النَّدَى حَلِيفُ النَّدَى مَا لِلْنَدَى عَنْكَ مَلْهَبُ

فقال: يا غلام أعطه مائة ألف درهم. وقل له: إن زدتنا زدناك. فقال: حسب الأمير ما سمع، وحسي ما أخذت وانصرف.

وأما الذين انتهى إليهم الجود في الجاهلية فهم: حاتم بن عبد الله الطائي، وهرم بن سنان، وخالد بن عبد الله،

وكعب بن أمامة الأيادي، وضرب المثل بحاتم وكعب، وحاتم أشهرهما. فأما كعب فجاء بنفسه، وآثر رفيقه بالماء في المفازة^(١) ومات عطشاً، وليس له خبر مشهور. وأما خالد بن عبيد الله فإنه جاء إليه بعض الشعراء ورجله في الركاب يريد الغزو، فقال له: إني قلت فيك بيتين من الشعر. فقال: في مثل هذا الحال. قال: نعم. فقال هاتهما فأنشده يقول:

يا واحد العرب الذي ما في الأنعام له نظيرُ
لو كان مثلك آخره ما كان في الدنيا قبيحُ

فقال: يا غلام أعطه عشرين ألف دينار فأخذها وانصرف.

وأما حاتم فأخبره كثيرة، وآثاره في الجود شهيرة، ويكنى أبا سفانة، وأبا عدي، وكان يسير في قومه بالمرباع، والمربع ربع الغنيمة، وكان ولده عدي يعادي النبي ﷺ فبعث النبي ﷺ علياً إلى طيء، فهرب عدي بأهله وولده ولحق بالشام، وخلف أخته سفانة، فأسرتها خيل رسول الله ﷺ. فلما أتى بها إلى النبي ﷺ قالت: يا محمد هلك الوالد وغاب الرافض، فإن رأيت أن تخلي عني، ولا تشمت بي أحياء العرب. فإن أبي كان سيد قومه يفك العاني^(٢)، ويقتل الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الدمار، ويفرج عن المكروب، ويطعم العطام، ويفشي السلام، ويحمل الكل^(٣)، ويعين على نواب الدهر. وما أتاه أحد في حاجة فردة خائباً. أنا بنت حاتم الطائي. فقال لها النبي ﷺ: يا جارية هذه صفات المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه، خلّوا عنها، فإن أباهام كان يحب مكارم الأخلاق. وقال فيها: ارحموا عزيزاً ذل، وغنياً افتقر، وعالماً ضاع بين جهال. فأطلقها ومنّ عليها، فاستأذنته في الدعاء له فأذن لها وقال لأصحابه: اسمعوا وعوا. فقالت: أصاب الله بترك موافقه، ولا جعل لك إلى لثيم حاجة، ولا سلب نعمة عن كريم قوم إلا وجعلك سبباً في ردها عليه.

فلما أطلقها ﷺ رجعت إلى قومها فأتت أخاها عدياً، وهو بدومة الجندل فقال له: يا أخي إئت هذا الرجل قبل أن تعلقك حباله، فإنني قد رأيت هدياً. ورأياً سيغلب أهل الغلبة، رأيت خصلاً تعجني، رأيت يحب الفقير، ويفك الأسير، ويرحم الصغير، ويعرف قدر الكبير، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ﷺ. وإنني أرى أن تلحق به، فإن يك نبياً فللسابق فضله، وإن يك ملكاً فلن يذل في عز اليمن. فقدم عدي إلى النبي ﷺ فألقى له وسادة محشوة ليفاً، وجلس النبي ﷺ على الأرض فأسلم عدي بن حاتم، وأسلمت أخته سفانة بنت حاتم المتقدم ذكرها وكانت من أجود نساء العرب، وكان أبوها، يعطيها الضريبة من إبله فتبها وتعطيها الناس. فقال لها أبوها: يا بنية أن الكريمين إذا اجتمعا في المال أثلفاه فإما أن أعطي وتمسكي، وإما أن أمسك وتمطي، فإنه لا يبقى على هذا شيء. فقالت له: منك تعلمت مكارم الأخلاق.

قال ابن الأعرابي: كان حاتم الطائي من شعراء الجاهلية وكان جواداً يشبه جوده شعره، ويصدق قوله فعله، وكان حيشما نزل عرف منزله، وكان مظفراً إذا قاتل غلب، وإذا ستل وهب، وإذا سابق سبق، وإذا أسر أطلق، وكان إذا

(١) المفازة: الصحراء المقفرة.

(٢) العاني: الأسير.

(٣) يحمل الكل: الضعيف.

هل رجب الذي كانت تعظمه مضر في الجاهلية نحر كل يوم عشراً من الإبل وأطعم الناس واجتمعوا إليه. وكان قد تزوج ماوية بنت عفير وكانت تلومه على أتلاف المال، فلا يلتفت لقولها، وكان لها ابن عم يقال له مالك. فقال لها يوماً: ما تصنعين بحاتم فوالله لئن وجد مالاً ليتلفه، وإن لم يجد ليتكلفن، ولئن مات ليتركن أولاده عائلة على قومك. فقالت ماوية: صدقت إنه كذلك، وكانت النساء يطلقن الرجال في الجاهلية، وكان طلاقهن إن يكن في بيوت من شعر، فإن كان باب البيت من قبل المشرق حولته إلى المغرب، وإن كان من قبل المغرب حولته إلى المشرق، وإن كان من قبل اليمن حولته إلى الشام، وإن كان من قبل الشام حولته إلى اليمن فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها طلقته فلم يأتيها. ثم قال لها ابن عمها: طلقي حاتماً وأنا أتزوجك، وأنا خير لك منه وأكثر مالا، وأنا أسك عليك وعلى ولدك. فلم يزل بها حتى طلقته فاتأها حاتم وقد حولت باب الخباء. فقال حاتم لولده: يا عدي أما ترى ما فعلت أمك؟ فقال: قد رأيت ذلك.

قال: فأخذ ابنه وهبط بطن واد فترل فيه. فجاءه قوم فترلوا على باب الخباء كما كانوا يتزلون، كانت عدتهم خمسين فارساً، فضاقت بهم ماوية ذراعاً وقالت لجاريتها اذهبي إلى ابن عمي مالك وقولي له إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا وهم خمسون رجلاً، فأرسل إلينا بشيء نقرئهم، ولبن نسقيهم، وقالت لها: انظري إلى جبينه وفمه فإن شافهك بالمعروف فأقبلي منه، وإن ضرب بلحيته على زوره، ولطم رأسه، فأقبلي ودعيه. فلما آتته وجدته متوسداً وطباً^(١) من لبن، فأيقظته، وأبلغته، الرسالة. وقالت له: إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكان حاتم، فلطم رأسه بيده، وضرب بلحيته. وقال: أقرئها السلام وقولي لها: هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتماً لأجله، وما عندي لبن يكفي أضياف حاتم. فرجعت الجارية فأخبرتها بما رأت وبما قال لها. فقالت لها: اذهبي إلى حاتم وقولي له إن أضيافك قد نزلوا بنا الليلة، ولم يعلموا مكانك، فأرسل إلينا بناقة نقرئهم، ولبن نسقيهم. فأنت الجارية حاتماً فصاحت به فقال: لييك، قريباً دعوت، فأخبرته بما جاءت بسببه. فقال: حباً وكرامة، ثم قام إلى الإبل فأطلق اثنتين من عقاليهما وصاح بهما حتى أتيا الخباء، ثم ضرب عراقيهما فطفقت ماوية تصيح هذا الذي طلقته بسببه ترك أولادنا وليس لهم شيء. فقال: ويحك يا ماوية الذي خلقهم، وخلق الخلق متكفل بأرزاقهم. وكان إذا اشتد البرد، وغلب الشتاء أمر غلمان به بنار فيؤقدونها في بقاع الأرض لينظر إليها من ضل عن الطريق ليلاً فيقصدوها، ولم يكن حاتم يمسك شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه فإنه كان لا يجود بهما، ثم جاد بفرسه في سنة مجدية.

حكى أن ملكان ابن أخي ماوية قال: قلت لها يوماً يا عمة حديثي عجائب حاتم، وبعض مكارم أخلاقه، فقالت: يا ابن أخي أعجب ما رأيت منه؛ أصابت الناس سنة^(٢) أذهبت الخف والظلف وقد أخذني وإياه الجوع وأسهرنا، فأخذت سفانة، وأخذ عدياً وجعلنا نعللها حتى ناما فأقبل عليّ يحدثني ويملئني بالحديث حتى أنام فرفقت به، لما به من الجوع، فأمسكت عن كلامه لينام فقال لي: أنمت؟ فلم أجبه، فسكت ونظر في فناء الخباء، فإذا شيء قد أقبل، فرفع رأسه فإذا امرأة فقال: ما هذا؟ فقالت: يا أبا عدي أتيتك من عند صبية يتعاونون كالكلاب، أو كالذئاب جوعاً، فقال لها: أحضري صبيانك فوالله لأشبعنهم فقامت سريمة لأولادها، فرفعت رأسي وقلت: يا حاتم بماذا

(١) الوطب: وعاء جلدي خاص باللبن.

(٢) أصابت الناس سنة: جذب وجفاف.

تشبع أطفالها؟ فوالله ما نام صبيانك من الجوع إلا بالتعليل، فقال: والله لأشبعنك وأشبعن صبيانك وصبيانها، فلما جاءت المرأة نهض قائماً وأخذ المديّة بيده وعمد إلى فرسه فذبحه ثم أجمج ناراً، ودفع إلينا شفرة وقال قطعي واشوي، وكلّي، وأطعمي صبيانك. فأكلت المرأة وأشبع صبيانها فأيقطت أولادي، وأكلت وأطعمتهم. فقال: والله إن هذا هو اللؤم، تأكلون وأهل الحي حالهم مثل حالكم، ثم أتى الحي بيتاً يقول لهم: انهضوا عليكم بالنار، فاجتمعوا حول الفرس وتفتح حاتم بكسائه وجلس ناحية. فوالله ما أصبحوا وعلى وجه الأرض منها قليل ولا كثير، إلا العظم والحافر، ولا والله ما ذاقها حاتم وإنه لأشدهم جوعاً. وأخباره كثيرة مشهورة، ومن شعره:

أماويّ إنّ المالَ غادٍ ورائعٌ ويقي من المالِ الأحاديثُ والذكرُ
وقد علمَ الأقوامُ لو أن حاتمًا أراد ثراءَ المالِ كان له وفرُّ

وأغار قوم على طيء فركب حاتم فرسه، وأخذ رمحه ونادى في جيشه، وأهل عشيرته، ولقي القوم فهزمهم وتبعهم. فقال له كبيرهم: يا حاتم هب لي رمحك فرمي به إليه. فقيل لحاتم. عرضت نفسك للهلاك ولو عطف عليك لقتلك. فقال: قد علمت ذلك، ولكن ما جواب من يقول هب لي؟ ولما مات عظم على طيء موته فادعى أخوه أنه يخلفه. فقالت له أمه: هيهات شتان والله ما بين خلفتكما؛ وضعته بقي والله سبعة أيام لا يرضع حتى ألقت إحدى ثديي طفلًا من الجيران، وكنت أنت ترضع ثدياً ويدك على الآخر فأني لك ذلك.

قال الشاعر:

يعيش النسي ما عاشَ حاتمُ طيءٍ وإن ماتَ قامَ للسخاءِ مآتمُ

وكانت العرب تسمي الكلب، داعي الضمير، ومتمم النعم، ومشيد الذكر، لما يجلب من الأضياف بنباحه، والضمير الغريب، وكانوا إذا اشتد البرد، وهبت الرياح لم تشب النيران، فرقوا الكلاب حوالي الحي وربطوها إلى العتمة لتستوحش فتنبج، فتهدّي الضلال، وتأتي الأضياف على نباحها.

والحكايات في ذكر الأجواد، والكرماء، والأسخياء، وأهل المعروف وما كانوا من السخاء، والكرم، أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر. ففي مثل هذه المناقب فليتأقّر المتأقسون، ولمثلها فليعمل العاملون، فإن فيها عزّ الدنيا، وشرف الآخرة، وحسن الصيت، وخلود جميل الذكر، فإننا لم نجد شيئاً يبقى على مر الدهر إلا الذكر حسناً كان، أو قبيحاً. وقد قال الشاعر:

ولا شيئاً يدومُ فكُنْ حديثاً جميلَ الذكرِ، فالدنيا حديثُ

فانتبهز فرصة العمر، ومساعدة الدنيا، ونفوذ الأمر، وقمّ لنفسك كما قدموا، تذكر بالصالحات كما ذكروا، وأدخّر لنفسك في القيامة كما أدخروا، واعلم أن المأكول للبدن، والموهوب للمعاد، والمتروك للعدو فاختر أي الثلاث شئت، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع والثلاثون: في البخل والشح وذكر البخلاء وأخبارهم وما جاء عنهم

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخُلُون وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١) الآية وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم». وعنه ﷺ أنه قال: «البخل جامع لمساوي القلوب، وهو زمام يقاد به إلى كل سوء». وقالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنهما: إن البخل لو كان قميصاً ما لبسته، أو كان طريقاً ما سلكته.

وقيل: بخلاء العرب أربعة؛ الحطيئة وحמיד الأرقط وأبو الأسود الدؤلي، وخالد بن صفوان. فأما الحطيئة فمر به إنسان، وهو على داره ويده عصا. فقال: أنا ضيف، فأشار إلى العصا وقال: لكعاب الضيفان أهدتها. وأما حميد الأرقط فكان هجاء للضيفان فحاشاً^(٢) عليهم، نزل به مرة أضياف فأطعمهم تمرأ وهجاهم، وذكر أنهم أكلوه بنواه. وأما أبو الأسود فتصلق على سائل بتمره. فقال له: جعل الله نصيبك من الجنة مثلاً. وكان يقول: لو أطعنا المساكين في أموالنا كنا أسوأ حالاً منهم. وأما خالد بن صفوان فكان يقول للدرهم إذا دخل عليه: يا عيار^(٣)، كم تعير، وكم تطوف وتطير، لأطيلن حبسك، ثم يطرحه في الصندوق ويقفل عليه. وقيل له: لم لا تتفق ومالك عريض. فقال الدهر أعرض منه. وأنشد بعضهم:

وقبني جمعتُ المال ثم خزنتُهُ وحانت وفاتي هل أزدُ به عمرا
إذا خزن المال البخلُ فإنه سيورثه غمًا، ويعقبه وزرا

واستأذن حنظلة على صديق بخل قليل: هو محمود. فقال: كلوا بين يديه حتى يعرق. وكتب سهل بن هارون كتاباً في مدح البخل وأهداه إلى الحسن بن سهل فوقع على ظهره قد جعلنا ثوابك عليه ما أمرت به فيه.

وقال ابن أبي فتن:

فَرِنِي وَإِتْلَافِي لِمَالِي فَإِنِّي أَحِبُّ مِنَ الْأَخْلَاقِ مَا هُوَ أَجْمَلُ
وَإِنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِاللُّومِ، شَاعِرٌ يَلُومُ عَلَى الْبَخْلِ الرِّجَالَ وَيَخْلُ

وكان عمر بن يزيد الأسدي بخيلاً جداً أصابه القولنج في بطنه، فحقنه الطيب بدهن كثير فأنحل ما في بطنه في

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٧.

(٢) فحاشا: يقول بالفحش.

(٣) يا عيار: مكثر الذهاب والمجيء.

الطست، فقال لغلامه: اجمع الدهن الذي نزل من الحقنة واسرج به. وكان المنصور شديد البخل جداً، مر به مسلم الحادي في طريقه إلى الحج فحدا له يوماً بقول الشاعر:

أغرَّيْنِ الحَاجِجِينَ نَوْرُهُ يَزِينُهُ حِجَاؤُهُ وَخِيَرُهُ
وَمُسْكُهُ يَشْوِيهِ كَافُوْرُهُ إِذَا تَفَلَّيْتُ رَفَعْتَ سَوْرُهُ

فطرب حتى ضرب برجله المحمل. ثم قال: يا ربيع أعطه نصف درهم. فقال مسلم: نصف درهم يا أمير المؤمنين، والله لقد حدوت لهشام، فأمر لي بثلاثين ألف درهم. فقال: تأخذ من بيت مال المسلمين ثلاثين ألف درهم يا ربيع. وكُلَّ به مَنْ يستخلص منه هذا المال. قال الربيع: فما زلت أمشي بينهما وأروضه حتى شرط مسلم على نفسه أن يحدو له في ذهابه وإيابه بغير مؤنة.

وكان أبو العتاهية ومروان بن أبي حفصة بخيلين يضرب بيخلهما المثل. قال مروان: ما فرحت بشيء أشد مما فرحت بمائة ألف درهم وهبها إليّ المهدي فوزنتها فرجحت درهماً، فاشتريت به لحماً. واشترى يوماً لحماً بدرهم، فلما وضعه في القدر دعاه صديقه فرد اللحم على القصاب بتقصان داتين، فجعل القصاب ينادي على اللحم ويقول: هذا لحم مروان. واجتاز يوماً بأعرابية فأضافته. فقال: إن وهب لي أمير المؤمنين مائة ألف درهم وهبت لك درهماً فوهبه سبعين ألف درهم فوهبها أربعة دوائق.

ومن الموصوفين بالبخل أهل مرو. يقال إن من عادتهم إذا تراقفوا في سفر أن يشتري كل واحد منهم قطعة لحم ويشكها في خيط، ويجمعون اللحم كله في قدر ويمسك كل واحد منهم طرف خيطه، فإذا استوى، جر كل منهم خيطه وأكل لحمه وتقاسموا المرق. وقيل لبخيل: مَنْ أشجع الناس؟ قال: مَنْ سَمِعَ وَقَعَ أَصْرَاسِ النَّاسِ عَلَى طَعَامِهِ، وَلَمْ تَشَقَّ مَرَاتِهِ. وقيل لبعضهم: أما يكسوك محمد بن يحيى؟ فقال: والله لو كان له بيت مملوء إيرأ وجاء يعقوب ومعه الأنبياء شفعاء والملائكة ضماناً، يستعير منه إبرة ليخيط بها قميص يوسف الذي قُدَّ^(١) من دبر ما أعاره إياها، فكيف يكسوني؟ وقد نظم ذلك من قال:

لَوْ أَنَّ دَارَكَ أَبْتَشْتَ لَكَ وَاحِفَةً إِيْرَأَ يَضِيْقُ بِهَا فَنَاءُ الْمَنْزِلِ
وَأَتَاكَ يَوْسُفُ يَسْتَعِيْرُكَ إِبْرَةَ لِيَخِيْطَ قَدَّ قَمِيصِهِ لَمْ تَفْعَلِ

وكان المتنبّي بخيلاً جداً، مدحه إنسان بقصيدة فقال له: كم أملت منا على مدحك؟ فقال: عشرة دنائير. قال له: والله لو نذفت قطن الأرض بقوس السماء على جباه الملائكة ما دفعت لك داتقاً^(٢). وقال دعيل: كنا عند سهل بن هارون فلن نبرح حتى يكاد يموت من الجوع. فقال: ويلك يا غلام آتنا غداءنا، فأنتي بقصعة فيها ديك مطبوخ تحت ثريد قليل، فتأمل الديك فرأه بغير رأس. فقال لغلامه: وأين الرأس؟ فقال: ريمته. فقال والله إنني لأكره من يرمي برجله، فكيف برأسه، ويحك أما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء، ومنه يصيح الديك، ولولا صوته ما أريد وفيه فرقه الذي يتبرك به، وعينه التي يضرب بها المثل، فيقال شراب كمين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم تر عظماً

(١) قُدَّ: قطع وشُقَّ.

(٢) الداتق: ١/٦ من الدرهم.

أهش تحت الأسنان من عظم رأسه وهبك ظننت أنني لا أكله؛ أما قلت عنده مَنْ يأكله؟ أنظر في أي مكان رميته فأتني به. فقال: والله لا أدري أين رميته. فقال: لكني أنا أعرف أين رميته، رميته في بطنك الله حبك. وقيل: من الناس مَنْ يبخل بالطعام، ويجود بالمال. وبالعكس. قال بعضهم في أبي دلف:

أبو دلفٍ يضيئُ ألف ألف ويضربُ بالحسام على الرغيفِ
أبو دلفٍ لمطبخه قنار^(١) ولكن دونه سُلُ السُيوفِ

واشتكى رجل مروي صدره من سعال، فوصفوا له سوق اللوز، فاستقل الثقة ورأى الصبر على الوجع أخف عليه من الدواء. فبينما هو يماطل الأيام، ويدافع الآلام، إذ أتاه بعض أصدقائه فوصف له ماء النخالة، وقال إنه يجلو الصدر، فأمر بالنخالة فطبخت له وشرب من مائها، فجلا صدره ووجده يعصم. فلما حضر غداؤه أمر به. فرفع إلى العشاء، وقال لامرأته: إطبخي لأهل بيتنا النخالة، فإني وجدت ماءها يعصم، ويجلو الصدور. فقالت: لقد جمع الله لك بهذه النخالة بين دواء وغذاء فالحمد لله على هذه النعمة.

وعن خاقان بن صبيح قال: دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً فأتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الرقة، وقد علّق فيها عوداً بيخيط، فقلت له: ما بال هذا العود مربوطاً، قال: قد شرب الدهن، وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره فلا نجد إلا عوداً عطشاناً، ونخشى أن يشرب الدهن. قال: فبينما أنا أتعجب، وأسأل الله العافية إذا دخل علينا شيخ من أهل مرو فنظر إلى العود فقال للرجل: يا فلان، لقد فررت من شيء، ووقعت فيما هو شر منه، أما علمت أن الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء، وينشفان هذا العود، لِمَ لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد، فإن الحديد أملس وهو مع ذلك غير نشاف، والعود أيضاً بما يتعلق به شعرة من قطن الفتيلة فينقصها. فقال له الرجل الخراساني: أرشدك الله، ونفع بك، فلقد كنت في ذلك من المرفين. وقال الهيثم بن عدي: نزل على أبي حفصة الشاعر، رجل من اليمامة فأخلى له المنزل ثم هرب مخافة أن يلزمه قراه في هذه الليلة. فخرج الضيف واشترى ما احتاج إليه ثم رجع وكب إليه:

يا أيها الخارجُ من بيتي وهارباً من شدة الخوفِ
ضيئُك قد جاء بزادٍ له فارجعْ وكن ضيفاً على الضيفِ

واشترى رجل من البخلاء داراً وانتقل إليها، فوقف ببابه سائل فقال له: فتح الله عليك. ثم وقف ثان فقال له مثل ذلك. ثم وقف ثالث فقال له مثل ذلك. ثم التفت إلى ابنته فقال لها: ما أكثر السؤال في هذا المكان. قالت: يا أبت ما دمت مستمسكاً لهم بهذه الكلمة فما تبالي، كثروا، أم قلوا.

والأم اللثام وأبخلهم حميد الأرقط الذي يقال له: هجاء الأضياف، وهو القاتل في ضيف له يصف أكله بهذا البيت من قصيدة له:

ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت وبين أخرى تليها قيدُ أظفوري^(٢)

(١) قنار: رائحة شواء.

(٢) أظفور: هذه كناية عن سرعة نوالي اللقم.

وقال فيه أيضاً:

تجهز كفاه ويحدر حلقه إلى الزور^(١) ما ضمت عليه الأنامل
وأكل أعرابي مع أبي الأسود رطباً فأكثر، ومد أبو الأسود يده إلى رطبه ليأخذها فسيقه الأعرابي إليها فسقطت
منه في التراب، فأخذها أبو الأسود وقال: لا أدعها للشيطان يأكلها. فقال الأعرابي: والله ولا لجبريل وميكائيل لو نزل
من السماء ما تركها. وقال أعرابي لتزيل نزل به: نزلت بواد غير مطور ورجل بك غير مسرور، فأقم بعدم، أو ارحل
بندم. وللحمدوني:

رأيتُ أبا زرارة قال يوماً
لثني وَصَحَ الخوانَ ولاخَ شخصُ
فقال سوى أهلك فذاك شيخُ
فقامَ وقالَ مِن حنقٍ إليه
أبي وابنا أبي والكلبُ عندي
وقال له ابنُ لي يا ابنَ كلبٍ
إذا حضِرَ الطعامُ فلا حقوقُ
فما في الأرضِ أقبَحُ من خوانٍ
فأين هذا من القائل:

بخيلٌ يرى في الجودِ عاراً وإنما
إذا المرءُ أثرى ثم لم يرجِ نفعه
وقال آخر:

وأمره بالبخل قلتُ لها اقصري
أرى الناسَ إخوانَ الكريمِ وما أرى
وقالوا: إذا سألتَ لئماً شيئاً فعاجله، ولا تدعه يفكر، فإنه كلما فكر ازداد بعداً. وقال ربي الهمداني.
جمعتهُ صنوفَ المال من كل وجهٍ
وانسي لأرجو أن أموت وتغضي
وأشد الجاحظ لأبي الشعمق:

ممن تعلمت هذا
أما مررت بعبد
أن لا تجود بشيء
لعبد حاتم طيء

(١) الزور: أعلى الصدر.

(٢) بمنزلة: أي بمنزلة واحدة.

وما قالته الشعراء في البخلاء وطعامهم: فمن أجهى ما قيل فيهم بيت جرير في بني تغلب:

والتغلبسي إذا تحنَّحَ للقرى
حكَّ استَه^(١) وتمثل الأمثالا

وله أيضاً فيهم:

قومٌ إذا أكلوا أخفَّوا كلامَهُمْ
قومٌ إذا استبح الضيفان كلَّهُمْ
فتمنع البول شحاً أن تجودَ به
والخبزُ كالعبرِ الهنديِّ عندَهُمْ
واستوثقوا من رتاج الباب والدارِ
قالوا لأُمَّهُم بولي على النارِ
وما تبولُ لهم إلا بمقدارِ
والقمحُ خمسون أردباً بدينارِ

فأين هؤلاء من الذي قاله فيه الشاعر:

أبلغ بين حاجيه نوره
إذا تغلَّى رُفَعَتْ ستوره

وقال بعضهم في بخل:

أنا بخيلٌ بخبزٍ له
إذا ما تنفَّسَ حولَ الخوانِ
كمثل الدرهم في رقة
تطائر في البيت من خفة

وقال آخر:

تراهم خشبة الأضيافِ خرسا
يقيمون الصلاة بلا أذان

وقال آخر، وقد بات عند بخل:

فتنا كنا بينهم أهل ماتم
يحدثُ بعضاً بعضاً بمصابه
على ميتٍ متودع بطن ملحد^(٢)
ويأمر بعضنا بعضاً بالتجلد

وقال آخر:

وجيرة لا نرى في الناسٍ مثلهم
إن يوقدوا يوسعوننا من دخانهم
إذا يكونُ لهم عيدٌ وإفطارُ
وليس يبلغنا ما تطبخُ النارُ

وقال آخر وأجاد:

فصلق إيمانه إن قال مجتهداً
فلن همت به فاعث بخبزته
لا والرخيف فذاك البر من قسمة
فإن موقعتها من لحمه ودمه
قد كان يعجنني لو أن غيرته
على جرادقه^(٣) كانت على حرمة

(١) الأست: المعجز.

(٢) ملحد: مدفون في قبر.

(٣) الجرافق: الرخيف.

وقال آخر:

ذهب الكرامُ فلا كرام
من لا بقل ولا ينه
وبقي المضاريط^(١) اللثام
ل ولا يشم له طمام

وقال آخر:

خليلي من كعبٍ أحيانا أخاكما
ولا تبغلا بخل ابن قزعة إنه
على دهره إن الكريم معين
فلم تلقه إلا وأنت كمين
إذا جئت في حاجة سد باب

وقال آخر:

له يومان، يوم نلدي ويوم
فأما جوده فعلى قحاب
يسل السيف فيه من القراب
وأما سيفه فعلى الكتاب

وقال آخر:

زفت إلى نهران من صفو فكرتي
فقبلها عشراً وهام بحبها
عروساً غدا بطن الكتاب لها صدرا
فلما ذكرت المهر طلقها عشرا

وقال آخر:

لو عبر البحر بأمواجه
وكفه مملوءة خردلا
في ليلة مظلمة باردة
ما سقطت من كفو واحدة

وقال آخر:

يا قائماً في داره قائداً
قد مات أحيافك من جوعهم
من غير مئني لا ولا فائنة
فاقرأ عليهم سورة المائدة

وقال آخر:

نوالك دونه شوك القتاد
فلو أبعزت ضيفاً في منام
وخبزك كالثريا في البعاد
لحرمت الرقاد إلى المعاد

وقال آخر:

لا تعجبن لخبز زل من يله
فالكوكب النحس يسقي الأرض أحياناً

وقال ابن أبي حازم:

(١) المضاريط: لثام الأجراء.

وقالوا قد مدّخت فتى كريماً
فقلت وكيف لي بفتى كريم
بلوث ومربّي خمسون حولاً
وحبّك بالمجرّب من عليم
فلا أحدٌ يعدُّ ليومٍ خيرٍ
ولا أحدٌ يجودُ على عديمٍ

ومن رؤساء أهل البخل: محمد بن الجهم، وهو الذي قال وددت لو أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الخطباء، وعشرة من الشعراء، وعشرة من الأدباء، تواطؤوا على ذمي واستهلوا شمي حتى يتشر ذلك في الآفاق، فلا يمتد إليّ أمل أمل، ولا يسط نحوي رجاء راج. وقال له أصحابه يوماً: إنا نخشى أن تقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استئمالك لمجالستنا. فقال: علامة ذلك أن أقول يا غلام هات الغداء.

وقال عمر بن ميمون: مررت ببعض طرق الكوفة فإذا أنا برجل يخاصم جاراً له. فقلت: ما بالكما؟ فقال أحدهما: إن صديقاً لي زارني فاشتبهى رأساً فاشترته وتغديتني، وأخذت عظامه فوضعتها على باب داري أتجمل بها، فجاء هذا فأخذها ووضعها على باب داره يوهم الناس إنه هو الذي اشترى الرأس.

قال رجل من البخلاء لأولاده: اشترؤا لي لحماً، فاشترؤوه، فأمر بطبخه فلما استوى أكله جميعه حتى لم يبق فيه منه إلا عظمة، وعيون أولاده ترمقه. فقال: ما أعطي أحداً منكم هذه العظمة حتى يحسن وصف أكلها. فقال ولده الأكبر: أشمشها يا أبت وأمضها حتى لا أدع للدر فيها مقيلاً. قال: لست بصاحبها. فقال الأوسط: ألوّكها يا أبت والحبسها حتى لا يدري أحد لعام هي أم لعامين. قال: لست بصاحبها. فقال الأصغر: يا أبت أمصها، ثم أدفها، وأسفها سفاً. قال: أنت صاحبها وهي لك زادك الله معرفة وحزماً.

ووقف أعرابي على أبي الأسود وهو يتغنّى فسلم فردّ عليه ثم أقبل على الأكل، ولم يعزم عليه. فقال له الأعرابي: أما أني قد مررت بأهلك. قال: كذلك كان طريقك. قال: وامرأتك حبلى. قال: كذلك كان عهدي بها. قال: قد ولدت. قال: كان لا بد لها أن تلد. قال: ولدت غلامين. قال: كذلك كانت أمها. قال: مات أحدهما. قال: ما كانت تقوى على إرضاع اثنين. قال: ثم مات الآخر، قال: ما كان ليقي بعد موت أخيه، قال: وماتت الأم. قال: حزناً على ولديها. قال: ما أطيب طعامك قال: لأجل ذلك أكلته وحدي والله لا ذقتها يا أعرابي.

وقبل خرج أعرابي قد ولاء الحجاج بعض النواحي فأقام بها مدة طويلة، فلما كان في بعض الأيام ورد عليه أعرابي من حيه فقّم إليه الطعام. وكان إذا جاء فسأله عن أهله وقال: ما حال ابني عمير؟ قال: على ما تحب قد ملأ الأرض والحي رجلاً ونساء. قال: فما فعلت أم عمير؟ قال: صالحة أيضاً. قال: فما حال الدار؟ قال: عامرة بأهلها. قال: وكلبنا إيقاع؟ قال: ملأ الحي نبهاً. قال: فما حال جملي زريق؟ قال: على ما يسرك. قال: فالتفت إلى خادمه، وقال: ارفع الطعام فرفعه، ولم يشبع الأعرابي، ثم أقبل عليه يسأله وقال: يا مبارك الناصية^(١) أعِدْ عليّ ما ذكرت. قال: سل عما بدا لك. قال: فما حال كليي إيقاع؟ قال: مات. قال: وما الذي أماته؟ قال: اختنق بعظمة من عظام جملك زريق فمات. قال: أو مات جملي زريق؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماته؟ قال: كثرة نقل الماء إلى قبر لم عمير. قال: أو مات أم عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماتها؟ قال: كثرة بكائها على عمير. قال: أو مات

عمير؟ قال: نعم. قال: وما الذي أماته، قال: سقطت عليه الدار. قال: أو سَقَطَتِ الدار. قال: نعم. قال: فقام له بالعصى ضارباً فولّى من بين يديه هارباً.

وحكى بعضهم قال: كنت في سفر فضلت عن الطريق، فرأيت بيتاً في القلاة، فأتيته فإذا به أعرابية، فلما رأيته قالت: مَنْ تكون؟ قلت: ضيف. قالت: أهلاً ومرحباً بالضيف، انزل على الرحب والسعة. قال: فنزلت فقدمت لي طعاماً فأكلت، وماء فشربت، فبينما أنا على ذلك إذا أقبل صاحب البيت. فقال: مَنْ هذا؟ فقالت ضيف. فقال: لا أهلاً ولا مرحباً، ما لنا وللضيف. فلما سمعتُ كلامه ركبت من ساعتى وسرت، فلما كان من الغد رأيت بيتاً في القلاة فقصدته فإذا فيه أعرابية فلما رأيته قالت: مَنْ تكون؟ قلت: ضيف. قالت: لا أهلاً ولا مرحباً بالضيف، ما لنا وللضيف، فبينما هي تكلمني إذا أقبل صاحب البيت. فلما رأيته قال: من هذا؟ قالت ضيف. قال: مرحباً وأهلاً بالضيف. ثم أتى بطعام حسن فأكلت، وماء فشربت، فتذكرت ما مرّ بي أمس فتبسمت. فقال: مِمَّ تبسمك؟ فقضضت عليه ما اتفق لي مع تلك الأعرابية وبعلمها، وما سمعت منه ومن زوجته، فقال: لا تعجب إن تلك الأعرابية التي رأيته هي أختي، وإن بعلمها أخو امرأتي هذه. فغلب على كل طبع أهله.

وحكايات هؤلاء، وأمثالهم كثيرة، وأخبارهم ونوادرهم شهيرة، وفيما ذكرته كفاية، وأسأل الله تعالى التوفيق والهداية، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الخامس والثلاثون: في الطعام وآدابه، والضيافة وآداب المضيف والضيف وأخبار الأكلة وما جاء عنهم وغير ذلك

أما إباحة الطيب من المطاعم: فقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَطَيِّبَاتٍ مِّنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٣) وقال رسول الله ﷺ: «مَحْرَمُ الْحَلَالِ، كَمَحْلَلِ الْحَرَامِ» وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنِ اللَّهُ يَحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ فِي مَأْكَلِهِ وَشَرِبِهِ». وكان الحسن رضي الله تعالى عنه يقول: ليس في اتخاذ الطعام سرف. وسئل الفضل عمن يترك الطيبات من اللحم والخبيص^(٤) للزهد. فقال: ما للزهد وأكل الخبيص ليتك تأكل وتتقي الله، إن الله لا يكره أن تأكل الحلال، إِذَا اتَّقَيْتَ الْحَرَامَ. انظر كيف بَرَكَ بوالديك وصلتك للرحم وكيف عطفك على الجار، وكيف رحمتك للمسلمين، وكيف كظمك للغيط، وكيف عفوك عَمَّن ظلمك، وكيف إحسانك إلى مَنْ أساء إليك، وكيف صبرك واحتمالك للأذى. أنت إلى أحكام هذا أحوج من ترك الخبيص.

وأما نعوت الأطعمة وما جاء فيها؛ فقد نُقِلَ عن الرشيد أنه سأل أبا الحرث عن الفالودج واللوزنج^(٥) أيهما أطيب، فقال: يا أمير المؤمنين، لا أقضي على غائب، فأحضرهما إليه فجعل يأكل من هذا لقمة، ومن هذا لقمة، ثم قال: يا أمير المؤمنين، كلما أردت أن أقضي لأحدهما أتى الآخر بحجته. واختلف الرشيد وأم جعفر في الفالودج واللوزنج أيهما أطيب فحضر أبو يوسف القاضي فسأله الرشيد عن ذلك. فقال: يا أمير المؤمنين، لا يقضى على غائب فأحضرهما فأكل حتى اكتفى فقال له الرشيد: أحكم. قال: قد اصطَلَحَ الخصمان يا أمير المؤمنين. فضحك الرشيد، وأمر له بألف دينار، فبلغ ذلك زبيدة فأمرت له بألف دينار إلا ديناراً^(٦). وسمع الحسن البصري رجلاً يعيب الفالودج فقال لباب البر بلعاب النحل، بخالص السمن، ما أظن عاقلاً يعيبه. وقال الأصمعي: أول مَنْ صنَعَ الفالودج عبد الله بن جدعان. وأتى أعرابي بالفالودج فأكل منه لقمة فقيل له: هل تعرف هذا؟ فقال هذا وحياتك الصراط المستقيم.

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٧٢.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ٤.

(٣) سورة: الأعراف، الآية: ٣٢.

(٤) اللحم والخبيص: نوع من الحلواء.

(٥) الفالودج واللوزنج: نوعان من الحلواء يصنعان من الدقيق والسكر والسمن.

(٦) ديناراً: هذا أدب وتهذيب من زبيدة لئلا تساوي عطاء الخليفة.

وكان أحب الطعام إلى رسول الله ﷺ اللحم. وعن أبي الدرداء رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: سيد طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحم. وكان ﷺ يقول: «هو سيد الطعام في الدنيا والآخرة، وهو يزيد في السمع، ولو سألت ربي أن يطعمني كل يوم لفعل. وكان ﷺ يحب الدباء ويقول: يا عائشة إذا طبختم قدرًا فأكثروا فيها من الدباء، فإنها تشد القلب الحزين وهي شجرة أخى يونس. وعنه ﷺ أنه قال: عليكم بالقرع فإنه يشد الفؤاد ويزيد في الدماغ، وعليكم بالعدس فإنه يرق القلب، ويغزر الدمعة. وعن أبي رافع قال: كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يقول: أكلُ الثمر أمانٌ من القولنج، وشربُ العسل على الريق أمان من الفالج، وأكلُ السفرجل يحسن الولد، وأكلُ الرمان يصلح الكبد، والزبيب يشد العصب، ويذهب بالنصب والوصب^(١)، والكرفس يقوي المعدة، ويطيب النكهة، وأطيب اللحم الكتف. وكان يديم أكل الهريسة. وكان يأكل على سباط معاوية، ويصلي خلف علي، ويجلس وحده، فستل عن ذلك فقال: طعام معاوية أدمس، والصلاة خلف علي أفضل، وهو أعلم، والجلوس وحدي لي أسلم. وسميت المتوكلية بالمتوكل، والمأمونية بالمأمون. وقال الحسن بن سهل يوماً على مائدة المأمون: الأرز يزيد في العمر، فسأله المأمون عن ذلك فقال: يا أمير المؤمنين، إن طب الهند صحيح، وهم يقولون إن الأرز يُري مناماتٍ حسنةً، ومن رأى مناماً حسناً كان في نهارين، فاستحسن قوله ووصله. وقال أبو صفوان: الأرز الأبيض بالسمن والسكر ليس من طعام أهل الدنيا. وقيل لأبي الحرث: ما تقول في الفالوذة؟ قال: وددت لو أنها ملك الموت اعتلجا^(٢) في صدري، والله لو أن موسى لقي فرعون بالفالوذة لآمن، ولكنه لقيه بمصا. وكانت العرب لا تعرف الألوان، إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح. حتى كان زمن معاوية رضي الله تعالى عنه فأتخذ الألوان.

ويقال للمرقة المسخنة بنت نارين. وكان بعض المترفين يقول: جنبوا مائدتي بنت نارين. وقالوا: كل طعام أعيد عليه التسخين مرتين فهو فاسد. وقيل: إذا ألقى اللحم في العسل ثم أخرج بعد شهر طرياً فإنه لا يتغير. ويقال للسكاج^(٣) سيد المرق، وشيخ الأطعمة، وزين الموائد، ويقال: إذا طبخت اللحم بالخل فقد ألفت عن معدتك ثلث المؤنة ويقال للخبز ابن حبة. قال بعضهم:

فِي حَبِّ الْقَلْبِ مِنِّي زَرَعْتُ حُبَّ ابْنِ حَبِّهِ

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رفعه: أكرموا الخبز. قالوا: وما كرامته يا رسول الله؟ قال: لا يتظر به الإنسان، إذا وجدتم الخبز فكلوه، حتى تؤتوا بغيره. وفي الحديث: مَنْ دَاوَمَ عَلَى اللَّحْمِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا قَسَا قَلْبُهُ، وَمَنْ تَرَكَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا سَاءَ خَلْقُهُ. وقيل: المائدة التي أنزلت على بني إسرائيل كان عليها كل البقول إلا الكراث، وسمكة عند رأسها خل، وعند ذنبها ملح، سبعة أرغفة على كل واحد زيتون، وحب رمان. ودخل ابن قرعة يوماً على عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز فتأخر عن استدعائه فقال: ما بال مولانا ليس يدعوني إلى الفوز بأكل الموز؟ فقال: صفه حتى أطعمك منه. فقال: ما الذي أصف من حسن لونه فيه سباتك ذهبية، كأنها حشيت زبدًا وعسلًا، أطيب الثمر كأنه مخ الشحم، سهل المقشر، لين المكسر، عذب المطعم بين الطعوم، سلس في الحلقوم، ثم مد يده وأكل. وسمع

(١) بالنصب والوصب: الإعياء والمرض.

(٢) اعتلجا: اجتمعا وتصارعا.

(٣) للسكاج: أكلة فيها لحم وقرع من خل.

رجلاً يذم الزبد فقال له: ما الذي ذممت منه سواد لونه أم بشاعة طعمه، أم صعوبة مدخله، أم خشونة ملمسه؟ وقيل له ما تقول في الباذنجان؟ قال: أذئاب المحاجم، بطون العقارب، ويزور الزقوم. قيل له: إن يحشى باللحم فيكون طيباً. فقال: لو حشي بالتقوى والمغفرة ما أفلح. وصنع الحجاج وليمة واحتفل فيها ثم قال لزاذان: هل عمل كسرى مثلاً فاستعفا^(١) فأقسم عليه. فقال: أولمَّ عبد عند كسرى فأقام على رؤوس الناس ألف وصيفة، في يد كل واحدة إيريق من ذهب. فقال الحجاج: أف والله ما تركت فارس لمن بعدها من الملوك شرفاً. وأهدى رجل إلى آخر فالوذجة زنخة، وكتب إليه: إني اخترت لعمليها السكر السوسي، والعسل المارداني، والزعفران الأصهباني. فأجابه: والله العظيم ما علمت إلا قبل أن توجد أصبهان، وقبل أن تفتح السوس، وقبل أن يوحى ربك إلى النحل. وقيل إن أبا جهم بن عطية كان عيناً: لأبي مسلم الخولاني على المنصور. فأحسن المنصور بذلك فطاوله الحديث يوماً حتى عطش فاستقى فدعا له بقدر من سويق اللوز فيه السم فتاوله إياه فشرب منه فما بلغ داره حتى مات فقيل في ذلك:

تَجَنَّبَ سَوِيقَ اللُّوزِ لَا تَقْرَأَهُ
فَشَرِبْتُ سَوِيقَ اللُّوزِ أَرَدَى أَبَا جَهْمٍ
وقال أبو طالب المأموني:

فَمَا حَمَلْتُ كَفُّ امْرِئٍ مُنْطَقِماً
أَلَدٌ وَأَشْهَى مِنْ أَصَابِعِ زَيْنِبِ

وأصابع زينب ضرب من الحلوى يُعمل ببغداد، يشبه أصابع النساء المنقوشة.

ودخل السائب على علي، رضي الله تعالى عنه في يوم شاتٍ، فتاوله قدحاً فيه عسل وسمن ولبن، فأباه فقال: أما إنك لو شربته لم تزل دفتاً شعبان سائر يومك. وعن نافع بن أبي نعيم قال: كان أبو طالب يعطي علياً قدحاً من اللبن يصبه على اللات^(٢) فكان علي يشرب اللبن ويبول على اللات.

وأما الزهد في المآكل؛ فقد زهد فيه كثير من الأخيار مع القدرة عليه، ومنهم من لا يقدر عليه. قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما كان لنا منخل. ولا أكل رسول الله ﷺ خبزاً منخولاً منذ بعثه الله تعالى إلى أن قبض. قيل: فكيف كتم تأكلون الشعير، قالت: كنا نقول أف أف. وعن جابر رضي الله تعالى عنه رفعه: نعم الأدم الخل. وكفى بالمرء سرفاً أن يتسخط ما قرب إليه. وقال عمر رضي الله تعالى عنه: ما اجتمع عند رسول الله ﷺ إدمان، إلا أكل أحدهما، وتصدق بالآخر. وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: ما كان يجتمع لولان في لقمة في فم رسول الله ﷺ، إن كان لحمًا لم يكن خبزاً، وإن كان خبزاً لم يكن لحمًا. وعن النبي ﷺ قال: «يا علي أبدأ بالملح، واختم به، فإن فيه شفاء من سبعين داء». وروي أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شكا إلى الله الضعف، فأمره أن يطبخ اللحم باللبن، فإن القوة فيهما، وسنذكر فضل الزهد في المآكل والمشارب في باب مدح الفقراء إن شاء الله تعالى.

وأما ما جاء في آداب الأكل: فقد قال رسول الله ﷺ: من قال عند مطعمه ومشربه باسم الله خير الأسماء باسم الله رب الأرض والسماء، لم يضره ما أكل وما شرب. وكان ﷺ إذا وضع بين يديه الطعام قال باسم الله، اللهم بارك

(١) استعفا: اعتذر عن الطلب وطلب إعفاء.

(٢) اللات: من أصنام الجاهلية.

لنا فيما رزقنا وعليك خلفه. وقال ﷺ: «مَنْ أَكَلَ طَعَاماً فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي (أَطْعَمَنِي هَذَا وَرَزَقَنِي مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ غُفَرٍ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا لَبَسَ ثَوْباً فَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا وَرَزَقَنِي مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةَ غُفَرٍ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ». وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَذْكُرْ اسْمَ اللَّهِ فَإِنْ نَسِيَ فِي أَوَّلِهِ، فَلْيَقُلْ بِسْمِ اللَّهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ». وفي حديث ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُلْ بِيَمِينِهِ، وَإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِشِمَالِهِ». وقال ﷺ: «الْأَكْلُ فِي السُّوقِ ذَنَاءَةٌ» وعن أنس رضي الله تعالى عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ زَجَرَ عَنْ الشَّرْبِ قَائِماً، قَالَ: فَسَأَلْنَاهُ عَنِ الْأَكْلِ قَائِماً، فَقَالَ: هُوَ شَرٌّ مِنَ الشَّرْبِ. وَأَوْصَى رَجُلٌ مِنْ خَدَمِ الْمَلُوكِ ابْنَهُ فَقَالَ إِذَا أَكَلْتَ فَضُمَّ شَفَتَيْكَ. وَلَا تَلْتَفَتَنَّ يَمِيناً وَلَا شِمَالاً، وَلَا تَلْقَمَنَّ بِسَكِينٍ، وَلَا تَجْلِسَ فَوْقَ مَنْ هُوَ أَشْرَفُ مِنْكَ وَأَرْفَعُ مِزْلَةً، وَلَا تَبْصُقَ فِي الْأَمَاكِنِ النَّظِيفَةِ.

ومن هذا ما رواه الزهري أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الْفُخْخِ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ. وقال علي رضي الله تعالى عنه: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُوَكَّلَ الطَّعَامُ حَارّاً. وفي الصحيحين عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله تعالى عنه، قَالَ: مَا عَابَ النَّبِيُّ ﷺ طَعَاماً قَطُّ، إِنْ أَشْتَهَاهُ أَكَلَهُ، وَإِلَّا تَرَكَهُ. وقال عمر بن هبيرة: عَلَيْكُمْ بِمَبَاكِرَةِ الْغَدَاءِ فَإِنْ مَبَاكِرَتُهُ تَطْيِبُ النَّكْهَةَ وَتَعِينُ عَلَى الْمَرْوَةِ. قِيلَ: وَمَا إِعَاتَتُهُ عَلَى الْمَرْوَةِ؟ قَالَ: إِنْ لَا تَتَوَقَّعُ نَفْسُكَ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِكَ. وعن النبي ﷺ قَالَ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ سَقَطِ الْمَائِدَةِ عَاشَ فِي سَعَةٍ، وَعُوفِيَ فِي وَلَدِهِ، وَوُلِدَ وَلَدُهُ مِنَ الْحَقِّ». وعنه ﷺ: «مَنْ لَقِطَ شَيْئاً مِنَ الطَّعَامِ فَأَكَلَهُ حَرَّمَ اللَّهُ جِلْدَهُ عَلَى النَّارِ». وكان الحرث بن كلفة يقول: إِذَا تَغَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَتَمَنَّ عَلَى غَدَائِهِ، وَإِذَا تَعَشَّى فَلْيَخْطُ أَرْبَعِينَ خُطْوَةً. وقيل: خَيْرُ الْغَدَاءِ بَوَاكِرُهُ، وَخَيْرُ الْعِشَاءِ سَوَافِرُهُ. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّجُلُ بَصْرَهُ لِقَمَةِ أَخِيهِ. وقال الحجاج لأعرابي يوماً عَلَى سَمَاطِهِ: اارْقُ بِنَفْسِكَ. فَقَالَ: وَأَنْتَ يَا حَجَّاجُ اغْضُضْ مِنْ بَصْرِكَ. وقال معاوية لرجل على مائدته: خُذِ الشَّعْرَةَ مِنْ لِقْمَتِكَ. فَقَالَ: وَإِنَّكَ تَرَاعِينِي مِرَاعَاةَ مَنْ يَرَى الشَّعْرَةَ فِي لِقْمَتِي، لَا أَكَلْتُ لَكَ طَعَاماً أَبَداً. ووضع معاوية بين يدي الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما دجاجة ففكها. فقال معاوية: هَلْ يَبْتَكَ وَبَيْنَ أُمِّهَا عِدَاوَةٌ؟ فَقَالَ الْحَسَنُ: فَهَلْ يَبْتَكَ وَبَيْنَ أُمِّهَا قَرَابَةٌ؟ أَرَادَ مُعَاوِيَةُ أَنَّ الْحَسَنَ يُوقِرُ مَجْلِسَهُ، كَمَا تُوقِرُ مَجَالِسُ الْمُلُوكِ، وَالْحَسَنُ أَعْلَمُ مِنْهُ بِالْآدَابِ وَالرُّسُومِ الْمُسْتَحْسَنَةِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا. وَحَضَرَ أَعْرَابِي عَلَى مَائِدَةِ بَعْضِ الْخُلَفَاءِ فَقَدَّمَ جِدْيً مَشْوِيًّا، فَجَعَلَ الْأَعْرَابِيُّ يَسْرِعُ فِي أَكْلِهِ مِنْهُ. فَقَالَ لَهُ الْخَلِيفَةُ: أَرَأَيْكَ تَأْكُلُهُ بِحَرْدٍ، كَانَ أُمُّهُ نَطَحَتْكَ. فَقَالَ: أَرَأَيْكَ تَشْفَقُ عَلَيْهِ كَانَ أُمُّهُ أَرْضَعَتْكَ.

وأما ما جاء في كثرة الأكل؛ فقد روي عن حذيفة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «مَنْ قَلَّ طَعَامُهُ صَحَّ بَطْنُهُ وَصَفَا قَلْبُهُ. وَمَنْ كَثُرَ طَعَامُهُ سَقَمَ بَطْنُهُ وَقَسَا قَلْبُهُ». وعنه ﷺ: «لَا تَمِيتُوا الْقُلُوبَ بِكَثْرَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَإِنَّ الْقُلُوبَ كَالزُّرْعِ إِذَا كَثُرَ عَلَيْهِ الْمَاءُ مَاتَ». وقال ﷺ: «مَا زَيْنَ اللَّهُ رَجُلًا بِزِينَةِ أَفْضَلٍ مِنْ عِفَافِ بَطْنِهِ». وقال عمرو بن عبید: مَا رَأَيْتُ الْحَسَنَ ضَاحِكاً إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً. قَالَ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: مَا آذَانِي طَعَامٌ قَطُّ. فَقَالَ لَهُ آخَرُ: أَنْتَ لَوْ كَانَتْ فِي مَعْدَتِكَ الْحِجَارَةُ لَطَحْتَهَا. وَقَالَ عَلِيٌّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: الْبَطْنَةُ ^(١) تَذْهَبُ الْفُطْنَةُ. وَقَالَ ابْنُ الْمُقَفَّعِ: كَانَتْ مُلُوكُ الْأَعَاجِمِ إِذَا رَأَتْ الرَّجُلَ نَهْمًا شَرَّهًا أَخْرَجُوهُ مِنْ طَبَقَةِ الْجَدِّ إِلَى بَابِ الْهَزْلِ، وَمِنْ بَابِ التَّعْظِيمِ إِلَى بَابِ الْاحْتِقَارِ. وَتَقُولُ الْعَرَبُ: أَقَلُّ طَعَاماً تَحْمَدُ نَمَاماً. وَكَانَتْ الْعَرَبُ تَعْبِرُ بِبَعْضِهَا بِكَثْرَةِ الْأَكْلِ وَأَنْشَدُوا:

لَسْتُ بِأَكْلٍ كَأَكْلِ الْعَبْدِ وَلَا بِنَوْمٍ كَنَوْمِ الْفَهْدِ
وَأَشَدُّ الْأَصْمَعِي لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي فَهْدٍ:

إِذَا لَمْ أَزُزْ إِلَّا لَأَكْلٍ أَكَلَةٍ فَلَا رَفَعَتْ كَفِّي إِلَّا طَعَامِي^(١)
فَمَا أَكَلَةٍ إِلَّا نَلْتَهَا بِغَنِيمَةٍ وَلَا جُرْعَةٍ إِلَّا جَعْتُهَا بِغَرَامٍ

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: أراد رسول الله ﷺ أن يشتري غلاماً، فالتى بين يديه تمرأ يأكله فأكثر فقال ﷺ: إن كثرة الأكل شوم. وقالوا: الوحدة خير من جليس سوء، وجليس سوء من الأكل سوء. وشكا أبو العناء إلى صديق له سوء الحال، فقال: اشكر فإن الله قد رزقك الإسلام، والعافية. قال: أجل ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد. ودعت أبا الحرث، حبيبة له فحدثته ساعة فجاج، فطلب الأكل فقالت له: أما في وجهي ما يشغلك عن الأكل؟ قال: جعلت فداءك لو أن جميلاً وبشينة قعدا ساعة لا يأكلان لبصق كل منهما في وجه صاحبه وافترقا.

وأما أخبار الأكلة؛ فقد قيل إن وهب بن جرير سأل ميسرة البراش عن أعجب ما أكل. فقال: أكلت مائة رغيف بمكوك^(٢) بلح. ومز ميسرة المذكور يوماً يقوم وهو راكب حماراً فدعوه للضيافة فلبحوا له حماره، وطبخوه وقدموه له، فأكله كله، فلما أصبح طلب حماره ليركبه فقليل له: هو في بطنك. وقال المعتمر بن سليمان: قلت لهلال المازني: ما أكلة بلغتني عنك. قال: جعت مرة ومعني بعير لي فحرته وشويته وأكلته، ولم أبق منه إلا شيئاً يسيراً حملته على ظهري. فلما كان الليل أردت أن أجامع أمة لي فلم أقدر أن أصل إليها. فقالت: كيف تصل إليّ، وبيننا جمل. فقلت له: كم تكفيك هذه الأكلة؟ فقال: أربعة أيام. وقال الأصمعي: إن سليمان بن عبد الملك كان شراً نهماً، وكان من شره أنه إذا أتى بالسفود وعليه الدجاج السمين المشوي لا يصبر إلى أن يبرد ولا أن يؤتى بمندبل، فيأخذ بكمه واحدة واحدة حتى يأتي عليها. فقال الرشيد: ويحك يا أصمعي ما أعلمك بأخبار الناس إنني عُرِضْتُ عليّ جباب سليمان فرأيت فيها آثار الدهن فظنته طيباً حتى حدثتني، ثم أمر لي بجبة منها فكنْتُ إذا لبستها أقول هذه جبة سليمان بن عبد الملك.

وقال الشمردل وكيل عمرو بن العاص: قدم سليمان بن عبد الملك الطائف فدخل هو وعمر بن عبد العزيز إليّ، وقال: يا شمردل ما عندك ما تطعمني؟ قلت: عندي جدي كأعظم ما يكون سمناً. قال عَجَلْ به فأتيته به كأنه عكة^(٣) سمن فجعل يأكل منه ولا يدعو عمر، حتى إذا لم يبق منه إلا فخذ قال: هلم يا أبا جعفر. فقال: إني صائم، فأكله. ثم قال: يا شمردل ويليك أما عندك شيء؟ قلت: ست دجاجات كأنهن أفخاذ نعام. فأتيته بهن فأتى عليهن. ثم قال: يا شمردل أما عندك شيء؟ قلت: سوق^(٤) كأنه فراصة الذهب، فأتيته به فبعه حتى أتى عليه. ثم قال: يا غلام أفرغت من غدائنا؟ قال: نعم. قال: ما هو؟ قال نيف وثلاثون قدراً قال اتنني بقدر قدر فاتاه بها، ومعه الرقاق فأكل من كل قدر ثلاثة ثم مسح يده، واستلقى على فراشه وأِذِنَ للناس فدخلوا، وصف الخوان فقعده وأكل مع الناس. وكان

(١) فلا رفعت كفي إليّ طعامي: يدعو على نفسه بالشلل.

(٢) المكوك: مكيال يسع صاعاً ونصف أو ما يقارب ذلك.

(٣) عكة سمن: آنية خاصة بالسمن.

(٤) سوق: شراب خاص.

هلال بن الأسمر يضع القمع على فيه ويصب اللبن أو النيذ وكان غليظاً عتلاً^(١).

وقال أعرابي لرجل رآه سميناً أرى عليك قطيفة^(٢) من نسج أضراسك. وقال أبو المجسر الأعرابي كانت لي بنت تجلس معي على المائدة، فتبرز كفاً كأنها صلقة^(٣) في ذراع، كأنه جمارة فلا تقع عينها على لقمة نفيسة إلا خصتني بها، فكبرت وزوجتها، وصرت أجلس إلى المائدة مع ابن لي، فيبرز كفاً كأنها كرناقة^(٤)، فوالله لم تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها. وقال مسلم بن قتيبة: عددت للحجاج أربعة وثمانين رغيفاً مع كل رغيف سمكة. ويقال: فلان يحاكي حوت يونس في جودة الالتقام، وعضا موسى في سرعة الإلتقام. وقيل لأبي مرة: أي الطعام أحب إليك قال: لحم سمين، وخبز سميد. أضرب فيه ضرب ولي السوء في مال البيت. وقال صدقة بن عبيد المازني: أؤلم لي أبي لما تزوجت فعمل عشر جفان ثريد من جزور^(٥)، فكان أول من جاءنا هلال المازني فقدمنا له جفنة مترعة فأكلها، ثم أخرى فأكلها حتى أتى على الجميع، ثم أتى بقرية مملوءة من النيذ فوضع طرفها في شدقه، وفرغها في جوفه، ثم قام فخرج واستأنفنا عمل الطعام. وكان عيد الله بن زياد يأكل في كل يوم خمس أكلات، فخرج يوماً يريد الكوفة. فقال له رجل من بني شيبان: الغداء، أصلح الله الأمير، فنزل فذبح له عشرين طائراً من الأوز فأكلها، ثم قدم الطعام فأكل، ثم أتى بزنبيلين في إحدهما تين، وفي الآخر بيض فجعل يأكل من هذا تينة، ومن هذا بيضة حتى أتى على ذلك جميعه ثم رجع وهو جائع، وكان ميسرة البراش يأكل الكباش العظيم، ومائة رغيف. فذكر ذلك للمهدي فقال: دعوت يوماً بالفيل، وأمرت فألقي إليه رغيف رغيف فأكل تسعة وتسعين، وألقي إليه تمام المائة فلم يأكله. وحدث الشيخ نبيه الدين الجوهري أنه سمع الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام يقول: إن معاوية بن أبي سفيان كان يأكل في كل يوم مائة رطل بالدمشقي ولا يشبع. ونزل رجل بصومعة راهب، فقدم إليه الراهب أربعة أرغفة، وذهب ليحضر إليه العلس، فحملة وجاء. فوجده قد أكل الخبز فذهب فأتى بخبز، فوجده قد أكل العلس، ففعل معه ذلك عشر مرات، فسأله الراهب: أين مقصداً؟ قال: إلى الأردن، قال: لماذا، قال بلغني أن بها طيباً حاذقاً أسأله عما يصلح معدتي، فإني قليل الشهوة للطعام. فقال له الراهب: إن لي إليك حاجة قال: وما هي؟ قال: إذا ذقت وأصلحت معدتك فلا تجعل رجوعك علي.

وأما المهازلة على الطعام: فقد روي عن يحيى بن عبد الرحمن رضي الله تعالى عنه قال: قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كان عندي رسول الله ﷺ وسودة فصنعت حرية فجمت به. فقلت لسودة كلي فقالت: لا أحبه. فقلت: والله لتأكلين، أو لأطخن وجهك. فقالت: ما أنا بذائقة فأخذت من الصفحة شيئاً فططخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها، فتناولت من الصفحة شيئاً فططخت به وجهي. وجعل رسول الله ﷺ يضحك. واشترى غنلر يوماً سمكاً. وقال لأهله: أصلحوه. ونام فأكل عياله السمك ولطخوا يده، فلما اتبته قال: قدموا إلي السمك، قالوا: قد أكلت. قال: لا. قالوا: شُئم يدك. ففعل، فقال: صدقتم ولكن ما شبعتم. ودخل الحمدوني على رجل وعنده أقوام

(١) عتلاً: ضخماً غليظاً.

(٢) قطيفة: كساء مخملي.

(٣) صلقة: لضخامتها تبدو كالإناء الضخم.

(٤) كرناقة: جنوع الكرب.

(٥) جزور: ذبيحة الإبل.

بين أيديهم أطباق الحلوى، ولا يمدون أيديهم. فقال: لقد ذكرتوني ضيف إبراهيم، وقول الله تعالى: ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾^(١) ثم قال: كلوا رحمكم الله، فضحكوا وأكلوا. والحكايات في ذلك كثيرة.

وأما الضيافة وإطعام الطعام؛ فقد قال الله تعالى: ﴿هل إناك حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾^(٢) وقال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ولا يؤذ جاره» وقال ﷺ: «من أكل وذو عينين ينظر إليه، ولم يواسه ابتلى بداء لا دواء له». وقال الحسن: كنا نسمع أن إحدى مواجب الرحمة، إطعام الأخ المسلم الجائع، وقيل لإبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام: بم اتخلك الله خليلاً؟ قال: بثلاث؛ ما خيرت بين شيئين، إلا اخترت الذي لله على غيره، ولا اهتممت بها تكفل لي به، ولا تغديت ولا تعشيت إلا مع ضيف. ويقولون: ما خلا مضيف الخليل عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا ليلة واحدة من ضيف. وكان الزهري إذا لم يأكل أحد من أصحابه من طعامه حلف لا يحدثه عشرة أيام، وقالوا: المائدة مرزوقة. أي من كان مضيافاً وسع الله عليه. وقالوا: أول من سنّ القرى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام. وأول من ثرد الثريد وهشمه هاشم، وأول من أفطر جيرانه على طعامه في الإسلام عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، وهو أول من وضع موائده على الطريق، وكان إذا خرج من بيته طعام لا يعود منه شيء، فإن لم يجد من يأكله تركه على الطريق. وقيل لبعض الكرماء: كيف اكتسبت مكارم الأخلاق، والتأدب مع الأضياف؟ فقال: كانت الأسفار تحوجني إلى أن أفد على الناس، فما استحسنه من أخلاقهم اتبعته، وما استقبته اجتنبته.

وأما آداب المضيف: فهو أن يخدم أضيافه، ويظهر لهم الغنى، وسط الوجه. فقد قيل: البشاشة في الوجه، خير من القرى. قالوا: فكيف بمن يأتي بها وهو ضاحك؟ وقد ضمن الشيخ شمس الدين البديري رحمه الله هذا الكلام بأبيات فقال:

إذا المرء وافى منزلاً منك قاصداً	قراك وأرمته لديك المسالك
فكن باسماً في وجهه متهللاً	وقل مرحباً أهلاً ويوم مبارك
وقدّم له ما تستطيع من القرى	عجولاً ولا تبخل بما هو هالك
فقد قيل بيت سالف متقدم	تداوله زيد وعمرو ومالك
بشاشة وجه المرء خير من القرى	فكيف بمن يأتي به وهو ضاحك

وقال العرب: تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة، وإطالة الحديث عند المؤكلة. وقال حاتم الطائي:

سلى الطارق ^(٣) المعترياً أم مالك	إذا ما أتاني بين ناري ومجزري ^(٤)
أبسط وجهي إنه أول القرى	وأبذل معروفني له دون منكري

(١) سورة: هود، الآية: ٧٠.

(٢) سورة: النازيات، الآية: ٢٤.

(٣) الطارق: القادم ليلاً

(٤) المجزر: مكان النبح.

وقال آخر في عبد الله بن جعفر:

إنك يا ابنَ جعفرٍ خيرُ فتى وخيرُهم لطارقٍ إذا أتى
ولله در القائل:

الله يعلمُ أنه ما سرني شيءٌ كطارقةِ الضيوفِ النزلِ
ما زلتُ بالترحيبِ حتى خلّتي ضيفاً له، والضيفُ ربُّ المنزلِ
أخذه من قول الشاعر:

يا ضيفنا لو زرتنا لوجَدتنا نحنُ الضيوفُ وأنتَ ربُّ المنزلِ
وما أحسن ما قال سيف الدولة بن حمدان:

منزلُنا رحبٌ لمن زاره نحنُ سوا فيه والطارقُ
وكلُّ ما فيه حلالٌ له إلا الذي حرّمه الخالقُ

وقال الأصمعي: سألت عينة بن وهب الدارمي عن مكارم الأخلاق فقال: أو ما سمعت قول عاصم بن وائل:

وأنا لتُقرى الضيفَ قبل نزولِهِ ونشيعُهُ بالبشرِ من وجهِ ضاحكٍ
وقال بعض الكرام:

أضاحكٌ ضيفي قبلَ إنزالِ رحلِهِ ويخصبُ عندي والمحلُّ جديبُ
وما الخصبُ للأضيافِ أن تكثر القُرى ولكنما وجهُ الكريمِ خصيبُ
وقال آخر:

عَوَدْتُ نفسي إذا ما الضيفُ تَبَهَّني عقرتُ^(١) العشار^(٢) على عسرٍ وإيسارٍ
ومن آداب المضيف أن يتخذ دابة ضيفه ويكرمها، قبل إكرام الضيف. قال الشاعر:

مطية^(٣) الضيفِ عندي تلو صاحبها لن يأمنَ الضيفُ حتى تكرمَ الفرسا

وقال علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: من تمام المروءة خدمة الرجل ضيفه، كما خدمهم أبونا إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه بنفسه وأهله. أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَأَمْرُهُ قَائِمَةٌ﴾^(٤).

ومن آداب المضيف: أن يحدث أضيافه بما تميل إليه نفوسهم، ولا ينأى قبلهم، ولا يشكو الزمان بحضورهم،

(١) عقرت: ذبحت.

(٢) العشار: الناقة في عمر عشرة أشهر.

(٣) مطية: مركوبة.

(٤) سورة: هود، الآية: ٧١.

ويش عند قدمهم، ويتألم عند وداعهم، وأن لا يحدث بما يروعههم به، كما حكى بعضهم قال: استدعاني إسحاق بن إبراهيم الظاهري إلى أكل هريسة في بكرة نهار، فدخلت فأحضرت لنا الهريسة، فأكلنا فإذا شعرة قد جاءت على لقمة غفل عنها طبّاخه، فاستدعى خادمه فأسر إليه شيئاً لم نعلمه، فعاد الخادم ومعه صينية مغطاة، فكشف عن الصينية فإذا يد الطباخ مقطوعة تختلج^(١)، فتكدر علينا عيشنا، وقمنا من عنده، ونحن لا نعقل.

فيجب على المضيف: أن يراعي خواطر أضيافه كيفما أمكن، ولا يفضب على أحد بحضورهم، ولا ينقص عيشهم بما يكرهونه، ولا يعبس بوجهه، ولا يظهر نكداً، ولا ينهر أحداً، ولا يشتبه بحضورتهم، بل يدخل على قلوبهم السرور بكل ما أمكن. كما حكى عن بعض الكرام أنه دعا جماعة من أصحابه إلى بستانه، وعمل لهم سماًطاً، وكان له ولد جميل الطلعة، فكان الولد في أول النهار يخدم القوم، ويأمنون به ففي آخر النهار صعد إلى السطح فسقط فمات لوقته، فحلف أبوه على أمه بالطلاق الثلاث أن لا تصرخ، ولا تبكي إلى أن تصبح. فلما كان الليل سأل أضيافه عن ولده، فقال: هو نائم، فلما أصبحوا وأرادوا الخروج، قال لهم: إن رأيتهم أن تصلوا على ولدي فإنه بالأمس سقط من على السطح فمات لساعته. فقالوا له: لِمَ لا أخبرتنا حين سألناك؟ فقال: ما ينبغي لعاقل أن ينقص على أضيافه في التذاذهم، ولا يكثر عليهم في عيشهم، فتعجبوا من صبره وتجلده، ومكارم أخلاقه، ثم صلوا على الغلام وحضروا دفنه، وبكوا عليه وانصرفوا.

وعلى المضيف أن يأمر غلمانه بحفظ نعال أضيافه وتفقّد غلمانهم بما يكفيهم ويسهل حجابهم وقت الطعام ولا يمنع وارداً. وقيل لبعض الأمراء الكرام: لا بأس بالحجاب، ثلثا يدخل من لا يعرفه الأمير، ويحترز^(٢) عن العدو. فقال: إن عدوا يأكل طعامنا ولا يندفع لا يمكّنه الله منا، والأليق بالكريم الرئيس أن يمنع حاجبه من الوقوف ببابه عند حضور الطعام، فإن ذلك أول الشناعة^(٣) عليه، وعليه أن يسهر مع أضيافه ويؤانسهم بلذيق المحادثة وغريب الحكايات، وأن يستميل قلوبهم بالبذل لهم من غرائب الطرف إن كان من أهل ذلك، وأن يري أضيافه مكان الخلاء. فقد قيل عن ملك الهند، إنه قال: إذ ضافك أحد فأره الكنيفَ فإنّي ابتليت به مرة فوضعت في قلنسوتي. وقالوا: لا بأس أن يدخل الرجل دار أخيه يستطعم للصدقة الوكيدة^(٤)، وقد قصد النبي ﷺ والشيخان منزل الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري، وكذلك كانت عادة السلف رضي الله تعالى عنهم. فقد كان لعون بن عبد الله المسعودي ثلثمائة وستون صديقاً فكان يدور عليهم في السنة. ولا بأس أن يدخل الرجل بيت صديقه فيأكل وهو غائب فقد دخل رسول الله ﷺ دار بريرة رضي الله عنها فأكل طعامها وهي غائبة. وكان الحسن رضي الله عنه يوماً عند بقال فجعل يأخذ من هذه الجونة تينة، ومن هذه فسطة فيأكلها، فقال له هشام: ما بدا لك يا أبا سعيد في الورع؟ فقال له: يا لكع اتل عليّ آية الأكل فتلا: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بَيْتِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾^(٥) فقال: الصديق من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب.

(١) تختلج: تتحرك بيقية روح.

(٢) يحترز: يتحصن.

(٣) الشناعة: الفظاعة.

(٤) الوكيدة: المتينة.

(٥) سورة: النور، الآية: ٦١.

وعلى المضيف الكريم، أن لا يتأخر عن أضيافه ولا يمنعه عن ذلك قلة ما في يده بل يحضر إليهم ما وجد. فقد جاء عن أنس وغيره من الصحابة رضي الله تعالى عنهم أنهم كانوا يقدمون الكسرة اليابسة، وحشف الثمر، ويقولون: ما ندري أيهما أعظم وزراً، الذي يحتقر ما قدم إليه، أو الذي يحتقر ما عنده أن يقدمه. وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَلْقَمَ أَخَاهُ لُقْمَةً حَلَوَةً صَرَفَ اللَّهُ عَنْهُ مَرَارَةَ الْمَوْقِفِ». وحكي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه كان نازلاً عند الزعفراني ببغداد فكان الزعفراني يكتب في كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان ويدفعها إلى الجارية فأخذها الشافعي منها يوماً، وألحق فيها لوناً آخر، فعرف الزعفراني ذلك، فأعتق الجارية سروراً بذلك. وكانت سنة السلف رضي الله عنهم أن يقدموا جملة الألوان دفعة، ليأكل كل شخص ما يشتهي.

ومن السنة أن يشيع المضيف الضيف إلى باب الدار، وعلى المضيف إذا قدم الطعام إلى أضيافه أن لا يتظر مَنْ يحضر من عشرته، فقد قيل: ثلاثة تضيي: سراج لا يضيء، ورسول بطيء، ومائدة يتظر لها من يجيء. ونزل الإمام الشافعي رضي الله عنه بالإمام مالك رضي الله عنه فصَبَّ بنفسه الماء على يديه، وقال له: لا يرعك ما رأيت مني فخدمة الضيف على المضيف فرض.

اعرض طعامك وأبدله لمن أكل
واحلف على من أبى واشكر لمن فعلا
ولا تكن سابري^(١) العرض محتشماً
من القليل فليست الدهر محتضلاً

ومن البخلاء من يعزم على الضيف فيعتذر له فينسك عنه بمجرد الاعتذار كأنه تخلص من ورطة وقيل لبعض البخلاء: ما الفرج بعد الشدة؟ قال: أن يعتذر الضيف بالصوم.

ومن البخلاء من يعجبه طعامه ويصف زياده ويشتهي أن تبقى على حالها ومنهم من يحضر طعامه فإذا رآه ضيوفه أمر بأن يرفع فهذا أطيبها وأشهاها إلى الثغوس ويعتذر أن في أصحابه من يحضر بالغداة عنده وحكي عن بعض البخلاء أنه استأذن عليه ضيف وبين يديه خبز وزبدية فيها عسل نحل، فرفع الخبز وأراد أن يرفع العسل، فدخل الضيف من قبل أن يرفعه فظن البخيل أن ضيفه لا يأكل العسل بلا خبز فقال له: ترى أن تأكل عسلاً بلا خبز قال نعم، وجعل يلحق العسل لعقة بعد لعقة. فقال له البخيل: مهلاً يا أخي والله إنه يحرق القلب: قال: نعم صدقت، ولكنه قلبك وحكي عن بعضهم أنه قال: غلبت على الجوع مرة فقلت أمضي إلى دار فلان لأتغدى عنده فجئت إلى باب بيته فوجدت غلامه فقلت له أين سيدك؟ فقال: والله لا قلت لك عليه إلا أن أعطيتي كسرة. قال فرجعت هارباً.

ومن البخل تقديم الشيء السير وتفخيمه. حكي عن بعض البخلاء أنه حلف يوماً على صديقه وأحضر له خبزاً وجبناً وقال له: لا تستقل الجبن فإن الرطل منه بثلاثة دراهم، فقال ضيفه: أنا أجعله بدرهم ونصف قال وكيف ذلك؟ قال أكل لقمة بجبن ولقمة بلا جبن فأين هؤلاء من الذي يقول:

قَالَتْ أَمَا تَرَحَّلُ تَبْغِي الْفَنَى
قَالَتْ فَهَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ لَهُ
قُلْتُ فَمَنْ لِلطَّارِقِ الْمَعْتَمِ^(٢)
قُلْتُ نَعَمْ جُهِدُ الْفَتَى الْمَعْدَمِ

(١) سابري: رقيقه أي قليل الدفاع عنه.

(٢) المعتم: القادم ليلاً.

فَكَمْ وَحَقُّ اللَّهِ مِنْ لَيْلَةٍ قَدْ أَطْعِمَ الضَّيْفُ وَلَمْ أَطْعَمْ
إِنْ الْغِنَى بِالنَّفْسِ يَا هَذِهِ لَيْسَ الْغِنَى بِالْمَالِ وَالْدَرَهَمِ
وقال بعض البخلاء:

سرى نحونا يبغي القِرَى طاوي الحشَى^(١) لقد عملتُ فيه الظنون الكواذبُ
فبات له منا إلى الصبحِ شاتمٌ يعدد تطفيلَ الضيوفِ وضاربُ
فشتانٌ ما بين القائلين.

وأما آداب الضيف فهو: أن يادر إلى موافقة المضيف في أمور، منها أكل الطعام، ولا يعتذر بشبع، بل يأكل كيف أمكن. فقد حكى أنه ورد على بعض الأعراب ضيف فدخل به إلى بيته وقدم له الطعام فقال الضيف: لستُ بجائع، وإنما احتاج إلى مكان أبيت فيه. فقال الأعرابي: إذا كان هذا عزمك فكن ضيف غيري فإنني لا أرى أن تملحن في البلاد وتهجونني فيما بيني وبينك. وحكى عن بعض التجار قال: استدعاني أبو حفص محمد بن القاسم الكرخي لأعرض عليه قماشاً من تجارتي، فبينما أنا بين يديه، وإذا بأطباق الفاكهة قد حضرة فقامت من مجلسه فقال: يا فلان ما هذا الخلق العامي؟ اجلس فجلست وتحققت كرمه، وجعلت أكل الكمثرى في لقمة، والفاحة في لقمة، ثم قدم الطعام وكنتُ جائعاً، فأكلت أكلاً جيداً ثم انصرفت. فلم أشعر في اليوم الثاني إلا وقد جاءني غلامه يبغته فاستدعاني إليه فقال لي: يا فلان إني قليل الأكل، بطيء الهضم ولقد طابت لي مواصلتك بالأمس فأريد أن لا تنقطع بعدها عني. قال: فكنت متى انقطعت حضر غلامه في طلبي، فحصل لي بقربي منه مال كثير، وجاء عريض.

ومن آداب الضيف: أيضاً أن لا يسأل صاحب المنزل عن شيء من داره سوى القبله، وموضع قضاء الحاجة، وأن لا يتطلع إلى ناحية الحريم، وأن لا يخالفه إذا أجلسه في مكان أكرمه به، وأن لا يمتنع من غسل يديه، وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها. فقد نقل في بعض المجاميع أن بعض الكرماء كان عريداً^(٢) على أضيافه سيئ الخلق بهم، فبلغ ذلك بعض الأذكياء فقال: الذي يظهر لي من هذا الرجل أنه كريم الأخلاق وما أظن سوء أخلاقه إلا لسوء أدب الأضياف، ولا بد أن أتطفل عليه لأرى حقيقة أمره. قال: فقصدته وسلمت عليه، فقال: هل لك أن تكون ضيفي؟ قلت: نعم. فسار بين يدي إلى أن جاء إلى باب داره فأذن لي فدخلت فأجلسني في صدر مجلسه فجلست حيث أجلسني، وأعطاني مسنداً فاستندت إليه، فأخرج لي شطرنجاً وقال: أنتن شيئاً؟ قلت: نعم. فلعبت معه فلما حضر الطعام جعل يقدم لي ما استطابه وأنا أكل، فلما فرغنا قدم طستاً وإبريقاً وأراد أن يسكب الماء على يدي فلم أمنعه من ذلك، وأراد الخروج من بين يدي بعد أن قدم نعلي، فلم أرده عن ذلك. فلما أراد الرجوع قلت: يا سيدي أنشدك الله ألا فرجت عني كربة. قال: وما هي؟ فأخبرته الخبر فقال: والله ما يحوجني لذلك إلا سوء أدبهم، يصل الضيف إلى داري فأجلسه في الصدر فيأبى ذلك، ثم أقدم إليه الطعام فلا أتخفه بشيء مستظرف إلا رده علي. ثم أريد أن أصب الماء على يديه عند الغسل فيحلف بالطلاق الثلاث ما تفعل، ثم أريد أن أشيعه فلا يمكنني من ذلك فأقول في نفسي: لا يحكم الإنسان على نفسه حتى في بيته، فعند ذلك أشتمه وألعه. بل أضربه وفي معنى ذلك يقول بعضهم:

(١) طاوي الحشَى: فارغ الجوف من الجوع.

(٢) عريداً: سيئ الخلق.

لا ينبغي للضيف أن يعترض إن كان ذا حزم وطبع لطيف
فالأمر للإنسان في بيته إن شاء أن ينصف أو أن يُخيف^(١)

ومما يعاب على الضيف: أمور منها، كثرة الأكل المفرط إلا أن يكون بدوياً فإنها عادته. ومنها أن تتبع طريق الشرهين كمن يتخذ معه خريطة مشمة^(٢)، يقلب فيها الزبادي، والإمراق، والحلوى وغير ذلك، ومنها أن يأخذ معه ولده الصغير ويعلمه أن يكي وقت الإنصراف من الطعام، ليعطى على اسم ولده الصغير، ومنها قبح المؤكلة وقد عُدَّ فيها عيوب كثيرة فمنها، المتشاوف، والعداد، والجراف، والرشاف، والتفاض، والقراض، والبهاث، والثلاث، والعوام، والقسام، والمخلل، والمزيد، والمرنخ، والمرشش، والمفتش، والمنشف، والملبب، والصباغ، والتفاخ، والحامي، والمجنح، والشطرنجي، والمهندس، والمتني، والفضولي. فأما المتشاوف: فهو الذي يستحكم جوعه قبل فراغ الطعام فلا تراه إلا متطلعاً لناحية الباب يظن أن كل ما دخل هو الطعام. وأما العداد: فهو الذي يستغرق في عد الزبادي ويعد على أصابعه، ويشير إليها، وينسى نفسه. والجراف: هو الذي يجعل اللقم في جانب الزبدية ويجرف بها إلى الجانب الآخر. والرشاف: هو الذي يجعل اللقمة في فيه ويرتشها فيسمع لها حين البلع حس لا يخفى على جلسائه وهو يلتذ بذلك. والتفاض: هو الذي يجعل اللقمة في فيه ويغض أصابعه في الزبدية. والقراض: هو الذي يقرض اللقمة بأطراف أسنانه ويضعها في الطعام بعد ذلك. والبهاث: هو الذي يبهت في وجه الآكلين حتى يبهتهم ويأخذ اللحم من بين أيديهم. والثلاث: هو الذي يلت اللقمة بأطراف أصابعه قبل وضعها في الطعام. والعوام: هو الذي يميل ذراعيه يمناً ويسرة لأخذ الزبادي، والقسام: هو الذي يأكل نصف اللقمة ويبعد باقيها في الطعام من فيه. والمخلل: هو الذي يخلل أسنانه بأظفاره. والمزيد: هو الذي يحمل معه الطعام. والمرنخ: هو الذي يرنخ اللقمة في الأمراق فلا يبلغ الأولى، حتى تلين الثانية. والمرشش: هو الذي يفسخ الدجاج بغير خبرة فيرش على مؤكله. والمفتش: هو الذي يفتش على اللحم بأصابعه. والمنشف: هو الذي يتشف يديه من الدهن باللقم، ثم يأكلها. والملبب: هو الذي يملأ الطعام لباباً والصباغ: هو الذي يقل الطعام من زبدية إلى زبدية ليرده. والتفاخ: هو الذي يثغ في الطعام. والحامي: هو الذي يجعل اللحم بين يديه فيحميه عن مؤكله. والمجنح: هو الذي يلاحم مؤكله بجناحيه حتى يفسح له في المجلس فلا يشق عليه الأكل. والشطرنجي: هو الذي يرفع زبدية، ويضع زبدية أخرى مكانها. والمهندس: هو الذي يقول لمن يضع الزبادي ضع هذه هنا، وهذه هنا حتى يأتي قدامه ما يحب. والمتني: هو الذي يقول ليتني لم يكن معي من يأكل. والفضولي: هو الذي يقول لصاحب المنزل عند فراغ الطعام، إن كان قد بقي عندك في القدور شيء فاطعم الناس فإن فيهم من لم يأكل.

ومن الأضياف: من لا يلد له حديث إلا وقت غسل يديه، فيبقى الغلام واقفاً والإبريق في يده، والناس ينتظرونه. ومنهم: من يغسل يديه بالاشنان مرة واحدة، فإذا اجتمع الوسخ والرفر تسوك بهما. ومنهم: من يدخل الدار فيبتلى بالهندسة أولاً، فيقول كان ينبغي أن يكون باب المجلس من هنا، والإيوان كان ينبغي أن يكون هنا. ويتقل من الهندسة إلى ترتيب المجلس، فيقل الفاكهة من موضعها إلى موضع آخر، وإن كان قد استحكم جوعه استعفى من

(١) يُخيف: يجور.

(٢) خريطة مشمة: وعاء من آدم يشد على ما فيها.

الطعام وذهل عن بقية الأضياف وشدة جوعهم. ومنهم: مَنْ يخرج فيطوف على أصدقاء صاحب الدعوة فيتألم من انقطاعهم، ويستوحش من غيبتهم، ويسلطهم على عرض صاحبهم. ولقد حكى عن مغن غير مجيد أنه لم يطل ولا ليلة واحدة وما ذاك إلا أنه كان إذا سئل: أين كنت؟ قال: كنت عند الناس، وإذا قيل له: أين أكلت؟ قال أكلت في بطني، وإذا قيل له: أين شربت؟ قال: شربت في فمي. ومنهم: مَنْ يفهم عن صاحب الدعوة أنه يقول لغلامه اشتر كذا، فيقول: والله العظيم أو الطلاق الثلاث يلزمه ما يشتري شيئاً فأذوقه فيعجز صاحب المنزل ويخجله إذا لم يكن في يده شيء موجود، وليت شعري إذا كان لا يأكل فلا شيء حضر، ومنهم: من يرى صاحب البيت قد أسر إلى صديقه فيقول: ما الذي قال المولى لصاحبنا؟ وهو لا يريد أن يعلمه. ومنهم: من يستعجل صاحب المنزل بالأكل، ويشكو الجوع، ويظن أن ذلك بسط ومكارم أخلاق، وإنما ذلك يكون في بيته لا في بيوت الناس. ومنهم: مَنْ يقول لصاحب الدعوة: من يغني لنا؟ فيقول، فلان. فيقول له: غلظت لم لا دعوت فلاناً؟ ومنهم: مَنْ يسأل صاحب البيت: كيف قوته في النكاح؟ فيقول له: أنا رجل كبير قد ضعفت قوتي وشهوتي، أو يقول: ما لي قوة طائلة في ذلك. فيقول: أنا والله كلما مرّ عليّ عام تزايدت شهوتي وكثر لهذا الفن تشوقي، ويعلن بذلك حتى تسمعه صاحبة البيت. ومنهم: من يشكو حاله مع أهل بيته، ويذكر نفقته عليهن وكسوته عليهن، وكثرة أنعامه وإحسانه إليهن، وما عليه زوجته من سوء الأخلاق، وكبر النفس لتستقل زوجة صاحب البيت ما هي فيه مع زوجها، وربما كان ذلك سبباً لفراقها. ومنهم مَنْ تعجبه نفسه ويستحسن لباسه ويستطيب رائحته، وإذا سمع الغناء تواجد وأظهر الطرب وحرك رأسه، ويقوم قائماً يتمايل حتى يرى أهل الرجل أنه لطيف الشكل، بديع الحركات، ويظن في نفسه أنه يعشق، وأن رسول صاحبة البيت لا يطيعه عنه. ومنهم: مَنْ يقال له العب الشطرنج فيأباه، ويشغل بالدندنة فيقع في الفضول. ومنهم: مَنْ يتأمر على غلمان صاحب البيت ويهين أولاده ويظن أنه يدل عليهم. ومنهم: مَنْ يقول له صاحب البيت: كُلْ، فيقول: ما أكل إلا أنا ورفيقي. ومنهم: مَنْ يسمع السائل على الباب فيتصدق عليه من مال صاحب البيت بغير إذنه، أو يقول للسائل: فتح الله عليك. ومنهم: من يدعو الناس لصاحب الوليمة بغير إذنه، ويقلده بذلك المن، وأكثر الناس واقع في ذلك. نسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا وأن يعيذنا من شرور أنفسنا بمنه وكرمه أنه جواد كريم رؤوف رحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السادس والثلاثون: في العفو والحلم الصفح وكظم الغيظ والاعتذار وقبول المعذرة والعتاب، وما أشبه ذلك

قد ندب الله عز وجل نبيه ﷺ إلى الصفح والعفو بقوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾^(١) قيل هو الرضا بلا عتاب وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ﴾^(٤) ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٥) وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ قَصُوراً مُشْرِقَةً عَلَى الْجَنَّةِ، فَقُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ لِمَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: لِلْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ». وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه لما بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قال: «مَا زَالَ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُوصِينِي بِالْعَفْوِ، فَلَوْلَا عِلْمِي بِاللَّهِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوصِينِي بِتَرْكِ الْحُدُودِ». وقال الحسن بن أبي الحسن: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ أَجْرٌ فَلْيَقُمْ، فَلَا يَقُمْ إِلَّا الْعَافُونَ عَنِ النَّاسِ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾»^(٦) وقال علي كرم الله وجهه: «أُولَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ. وَكَانَ الْمَأْمُونُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ الْعَفْوَ وَيُؤْثِرُهُ وَيَقُولُ: لَقَدْ حَبَبَ إِلَيَّ الْعَفْوَ، حَتَّى إِنِّي أَخَافُ أَنْ لَا أَثَابَ عَلَيْهِ. وَكَانَ يَقُولُ: لَوْ عَلِمَ أَهْلُ الْجَرَائِمِ لَدُنِّي فِي الْعَفْوِ لَارْتَكَبُوهَا. وَقَالَ: لَوْ عَلِمَ النَّاسُ حَبِيٍّ لِلْعَفْوِ لَمَا تَقَرَّبُوا إِلَيَّ إِلَّا بِالْجَنَائِمْ». وقال علي كرم الله وجهه: «إِذَا قَدَّرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ، فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ. وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: أَقْبِلُوا»^(٧) ذَوِي الْمَرْوَةِاتِ عَثَرَتُهُمْ، فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ غَائِرٌ، إِلَّا وَيَدُهُ بِيَدِ اللَّهِ يَرْفَعُهُ. وَقَالَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: «إِنْ أَوَّلَ عَوْضِ الْحَلِيمِ عَنْ حِلْمِهِ أَنْ النَّاسَ أَنْصَارُ لَهُ عَلَى الْجَاهِلِ. وَقَالَ الْمُتَصَرِّ: لَذَّةُ الْعَفْوِ يَلْحَقُهَا حَمْدُ الْعَاقِبَةِ، وَلَذَّةُ التَّشْنِي يَلْحَقُهَا ذَمُّ النَّدَمِ، وَقَالَ ابْنُ الْمَعْتَرِ: لَا تَتَّشَّنْ»^(٨) وَجْهَ الْعَفْوِ بِالتَّضَرُّعِ بِهِ. وَقِيلَ: مَا عَفَا عَنِ الذَّنْبِ مَنْ قَرَعَ بِهِ، وَقَالَ رَجُلٌ لِرَجُلٍ سَبَّهَ: إِيَّاكَ أَعْنِي. فَقَالَ لَهُ: وَعَنْكَ أَعْرِضْ. وَكَانَ الْأَحْنَفُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى كَثِيرَ الْعَفْوِ، وَالْحَلِمِ، وَكَانَ يَقُولُ: مَا أَذَانِي أَحَدٌ إِلَّا أَخَذْتُ فِي أَمْرِهِ يَأْخُذُ ثَلَاثَ: إِنْ كَانَ فَوْقِي عَرَفْتُ لَهُ فَضْلَهُ، وَإِنْ كَانَ مِثْلِي تَفَضَّلْتُ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ دُونِي أَكْرَمْتُ نَفْسِي عَنْهُ. وَكَانَ مَشْهُوراً بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَلِمِ، وَبِذَلِكَ سَادَ عَشِيرَتَهُ وَكَانَ يَقُولُ: وَجَدْتُ

(١) سورة: الحجر، الآية: ٨٥.

(٢) سورة: الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٣) سورة: آل عمران، الآية: ١٣٤.

(٤) سورة: الشورى، الآية: ٤٣.

(٥) سورة: آل عمران، الآية: ١٨٦.

(٦) سورة: الشورى، الآية: ٤٠.

(٧) أقبلوا ذوي: ادفعوها عنهم.

(٨) تَتَشَّنْ: تَقْبَحُ.

الاحتمال أنصر لي من الرجال. وقيل له: ممن تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم كنا نختلف إليه في الحلم، كما يُختلف إلى الفقهاء في الفقه، ولقد حضرت عنده يوماً وقد أتوه بأخ له قد قتل ابنه، فجاؤوا به مكتوفاً فقال: ذعرتم أخي أطلقوه، واحملوا إلى أم ولدي ديت، فإنها ليست من قومنا، ثم أنشأ يقول:

أقول للنفس تصييراً وتعزية إحدى يدي أصابني ولم ترد
كلاهما خلف من قفد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي

وقيل: من عادة الكريم إذا قدر غفر، وإذا رأى زلة ستر، وقالوا: ليس من عادة الكرام سرعة الغضب، والانتقام. وقيل من انتقم فقد شفى غيظه، وأخذ حقه، فلم يجب شكره ولم يحمد في العالمين ذكره: والعرب تقول: لا سودد مع الانتقام، والذي يجب على العاقل إذا أمكنه الله تعالى أن لا يجعل العقوبة شيمته، وإن كان لا بد من الانتقام فليفرق في انتقامه إلا أن يكون حداً من حدود الله تعالى. وقال المنصور لجار عجز عن العذر: ما هذا الوجوم^(١) وعهدي بك خطياً لسناً^(٢) فقال: يا أمير المؤمنين، ليس هذا موقف مباهاة ولكنه موقف توبة، والتوبة بالاستكانة والخضوع، فرق له، وعفا عنه. وسعى إلى المنصور برجل من ولد الاشر النخعي ذكر له عنه أنه يميل إلى بني علي، والتعصب لهم. فأمر بإحضاره فلما مثل بين يديه قال: يا أمير المؤمنين، ذنبي أعظم من نعمتك وعفوك أعظم من ذنبي ثم قال:

فهنيئاً مسباً كالذي قلت ظالماً فغفواً جميلاً كي يكون لك الفضل
فإن لم أكن للعفو منك لسوء ما أتيت به أهلاً فانت له أهل

فعفا عنه، وأمر له بصلة.

وأحضر إلى المأمون رجل قد أذنب ذنباً. فقال له أنت الذي فعلت كذا وكذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا ذاك الذي أسرف على نفسه واتكل على عفوك، فعفا عنه وخلق سبيله. وأحضر إلى الهادي رجل من أصحاب عبد الله بن مالك فوبخه على ذنب، فقال: يا أمير المؤمنين، إن إقراراي يلزمني ذنباً لم أفعله، ويلحق بي جرماً لم أقف عليه، وإتكاراي رد عليك، ومعارضة لك، ولكني أقول:

فإن كنت تبغي بالعقاب تشقياً فلا تزهّدن عند التجاوز في الأجر

فقال: لله درك من معتذر بحق أو باطل، ما أمضى لسانك، وأثبت جنانك. وعفا عنه وخلق سبيله.

وركب يوماً عمرو بن العاص رضي الله عنه بغلة له شهباء ومراً على قوم. فقال بعضهم: من يقوم للأمير فيسأله عن أمه وله عشرة آلاف. فقال واحد منهم: أنا. فقام وأخذ بمنان بغلته وقال: أصلح الله الأمير، أنت أكرم الناس خيلاً فلم ركب دابة اشهاب وجهها فقال: إني لا أمل دابتي حتى تملني، ولا أمل رفيقي حتى يملني. فقال: أصلح الله الأمير أما العاص فقد عرفناه، وعلمنا شرفه، فمن الأم؟ قال: علي الخير سقطت أمي التابعة بنت حرملة بن عزة، سبتها رماح العرب فأتي بها سوق عكاظ، فبيعت فاشترها عبد الله بن جدعان، ووهبها للعاص بن وائل، فولدت

(١) الوجوم: العبوس.

(٢) خطياً لسناً: مكلاماً ذو لسان طيب.

وأنجبت فإن كان قد جُعِلَ لك جُعلٌ، فارجع وخذه وأرسل عنان الدابة. وقيل إن أمه كانت بغياً عند عبد الله بن جدعان فوطئها في طهر واحد أبو لهب، وأمّية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، والعاص بن وائل فولدت عمراً فادعاه كلهم، فحكمت فيه أمه فقالت: هو للعاص، لأن العاص هو الذي كان يتفق عليها. وقالوا: كان أشبه بأيي سفيان.

وكان الواثق يشبه بالمأمون في أخلاقه وحلمه، وكان يقال له المأمون الصغير. نقل عنه أنه دخلت عليه ابنة مروان بن محمد فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: لست به. فقالت: السلام عليك يا أيها الأمير. فقال لها: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. فقالت: ليسعنا عدلكم. فقال: إذا لا يبقى على وجه الأرض منكم أحد، لأنكم حاربتهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومنعتم حقه وسممتم الحسن رضي الله عنه ونقضتم شرطه وقتلتم الحسين رضي الله عنه وسيتم أهله، ولعتم علي بن أبي طالب رضي الله عنه على منابرهم وضربتم علي بن عبد الله ظملاً بسياطكم، فعدلنا لا يبقى منكم أحداً. فقالت: فليسعنا عفوكم. قال: أما هذا فنعم. وأمر برد أموالها عليها وبإلغ في الإحسان إليها.

وكان معاوية رضي الله عنه يعرف بالحلم، وله فيه أخبار مشهورة، وآثار مذكورة وكان يقول: إني لآنف أن يكون في الأرض جهل لا يسعه حلمي، وذنب لا يسعه عفوي وحاجة لا يسعها جودي، وهذه مروءة عالية المرتبة. وقال له رجل يوماً ما أشبه استك باست أمك. فقال: ذاك الذي أعجب أبا سفيان منها. وكب معاوية إلى عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه يعتذر إليه من شيء جرى بينهما. يقول: من معاوية بن أبي سفيان إلى عقيل بن أبي طالب. أما بعد، يا بني عبد المطلب، فأنتم والله فروع قصي، ولباب عبد مناف، وصفوة هاشم، فأين أخلاقكم الراسية، وعقولكم الكاسية، وقد، والله، أساء أمير المؤمنين ما كان جرى ولن يعود لمثله، إليه أن يغيب في الثرى. فكتب إلى عقيل يقول:

صَدَقْتَ وَقُلْتَ حَقًّا غَيْرَ أَنِّي أَرَى أَنْ لَا أَرَاكَ وَلَا تَرَانِي
وَلَسْتُ أَقُولُ سُوءًا فِي صَدِيقِي وَلَكُنِّي أَصْلُدُ إِذَا جَفَّانِي

فركب إليه معاوية رضي الله عنه وناشده في الصفيح عنه، واستعطفه حتى رجع. وحكي عنه رضي الله عنه أنه لما ولي الخلافة، وانتظمت إليه الأمور، وامتلات منه الصدور وأذعن لأمره الجمهور، وساعده في مراده القدر المقدور، استحضر ليلة خواص أصحابه وذاكرهم وقائع أيام صفين، ومَنْ كان يتولى كبر الكريهة من المعروفين، فانهمكوا في القول الصحيح والمريض وآل حديثهم إلى مَنْ كان يجتهد في إيقاد نار الحرب عليهم بزيادة التحريض. فقالوا: امرأة من أهل الكوفة تسمى الزرقاء بنت عدي كانت تتعمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة يا أصحاب علي، تسمعهم كلاماً كالصورام مستحثة لهم يقول لو سمعه الجبان لقاتل، والمدير لأقبل، والمسالم لحارب، والغاز لكر، والمتزلزل لاستقر. فقال لهم معاوية رضي الله عنه: أيكم يحفظ كلامها؟ فقالوا: كلنا نحفظه. قال: فما تشيرون علي فيها؟ قالوا: نشير بقتلها فإنها أهل لذلك. فقال لهم معاوية رضي الله عنه: بش ما أشرت به، وقبحاً لما قلت، أيحسن أن يشتهر عني، أنني بعدما ظفرت وقدرت قتلت امرأة قد وقت لصاحبها؟ إني إذا للثيم. لا والله لا فعلت ذلك أبداً ثم دعا بكتابه فكتب كتاباً إلى واليه بالكوفة أن أنفذ إلى الزرقاء بنت عدي مع نفر من عشيرتها وفرسان من قومها، ومهذ لها وطاء ليناً، ومركباً ذلولاً. فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها وقرأ عليها فقالت بعد قراءة الكتاب: ما أنا بزائفة عن الطاعة، فحملها في هودج، وجعل غشاه خزاناً مبطناً، ثم أحسن صحبتها. فلما قدمت على معاوية قال لها: مرحباً

وأهلاً خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك يا خالة؟ وكيف رأيت سيرك؟ قالت: خير سير. فقال: هل تعلمين لِمَ بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله سبحانه تعالى. قال: أليس راجيةً الجمل الأحمر يوم صفين، وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب وتحرضين على القتال؟ قالت: نعم. قال: فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس وبتر الذنب والدهر ذو غَيْرٍ، وَمَنْ تَقَكَّرَ أبصر، والأمرُ يحدث بعده الأمر. فقال: صدقت، فهل تعرفين كلامك وتحفظين ما قلت؟ قالت: لا والله. قال: لله أبوك فلقد سمعتك تقولين: أيها الناس إن المصباح لا يضيء في الشمس، وأن الكواكب لا تضيء مع القمر، وأن البغل لا يسبق الفرس، ولا يقطع الحديد إلا بالحديد؛ ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه، إن الحق كان يطلب ضالةً فأصابها. فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار فكأنكم وقد التأم شمل الشتات وظهرت كلمة العدل وغلب الحق باطله فإنه لا يستوي المحق والمبطل ﴿أَقْمِنَ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوِينَ﴾^(١) فالترال التزال، والصبر الصبر. ألا وإن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجال الدماء، والصبر خير الأمور عاقبة، اتوا الحرب غير ناكسين^(٢)، فهذا يوم له ما بعده. يا زرقاء أليس هذا قولك وتحريضك؟ قالت: لقد كان ذلك. قال: لقد شاركتِ علياً في كل دم سفكه. فقالت: أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين، وأدام سلامك. مثلك من يشرب بخير ويُسِرُّ جليسه. فقال معاوية: أو قد سررتك ذلك؟ قالت: نعم والله لقد سرني قولك، وأنا لي بصديقه. فقال لها معاوية: والله لو فاؤكم له بعد موته أعجب إلي من حُكْمٍ في حياته، فاذكري حوائجك تقضى. فقالت: يا أمير المؤمنين إني آليت على نفسي أن لا أسأل أحداً بعد علي حاجة. فقال: قد أشار علي بعض من عرفك بقتلك، فقالت: لوم من المشير ولو أطلعت لشاركته، قال: كلا بل نعوذ بك ونحسن إليك ونزعاك. فقالت: يا أمير المؤمنين، كرم منك، ومثلك من قدر فمفاً، وتجاوز عن أسأوا، وأعطى من غير مسألة. قال: فأعطاها كسوة ودرهم، وأقطعها ضيعة تغل لها في كل سنة عشرة آلاف درهم، وأعادها إلى وطنها سالمة، وكتب إلى والي الكوفة بالوصية بها وبعشيرتها.

وقيل كان لعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أرض، وكان له فيها عبيد يعملون فيها، وإلى جانبها أرض لمعاوية وفيها أيضاً عبيد يعملون فيها، فدخل عبيد معاوية في أرض عبد الله بن الزبير. فكتب عبد الله كتاباً لمعاوية يقول له فيه: أما بعد ما معاوية، إن عبيدك قد دخلوا في أرضي، فأنهيهن عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأن. والسلام. فلما وقف معاوية على كتابه وقرأه دفعه إلى ولده يزيد، فلما قرأه قال له معاوية: يا بني ما ترى؟ قال: أرى أن تبعث إليه جيشاً يكون أوله عنده، وآخره عندك يأتوك برأسه. فقال: بل غير ذلك خير منه يا بني. ثم أخذ ورقة وكتب فيها جواب كتاب عبد الله بن الزبير يقول فيه: أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حواري رسول الله ﷺ وسأمني ما ساءه، والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه، نزلت عن أرضي فاضفها إلى أرضك بما فيها من العبيد والأموال، والسلام. فلما وقف عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما على كتاب معاوية رضي الله عنه كتب إليه: قد وقفت على كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، ولا أعدمه الرأي الذي أحله من قريش هذا المحل، والسلام. فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله بن الزبير وقرأه رمى به إلى ابنه يزيد. فلما قرأه تهلل وجهه وأسفر فقال له أبوه: يا بني من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز استمال إليه القلوب. فإذا ابتليت بشيء من هذه الأدواء فلداه بمثل هذا الدواء.

(١) سورة: السجدة، الآية: ١٨.

(٢) ناكسين: محجمن ومتراجعين.

ولما دخل الفيل دمشق واجتمع الناس لرؤيته صعد معاوية في مكان مرتفع ينظر إليه، فبينما هو كذلك إذا نظر في بعض الحجر من قصره رجلاً مع بعض حرمة. فأتى الحجرة ودق الباب فلم يكن من فتحه بدّ فوقعت عينه على الرجل فقال له: يا هذا في قصري، وتحت جناحي تهتك حرمتي وإنك في قبضتي، ما حملك على هذا؟ قال: فبهت الرجل وقال: وحلمك أوقعني. فقال له معاوية: فإن عفوت عنك تسرها عليّ. قال: نعم. ففعا عنه، وخلق سبيله. وهذا من الحلم الواسع أن يطلب السر من الجاني وهو عروض قول الشاعر:

إذا مرضتم أتيّاكم نعوذكم وتلذّبون فتأتيكم وتعتذر^(١)

وحكي عن الربيع مولى الخليفة المنصور، قال: ما رأيت رجلاً أربط جاشأً، وأثبت جنائاً من رجل سعى به إلى المنصور أن عنده ودائع وأموالاً لبني أمية فأمرني بإحضاره فأحضرتة إليه. فقال له المنصور: قد رفع إلينا خبر الودائع والأموال التي عندك لبني أمية، فأخرج لنا منها وأخضرها ولا تكتم منها شيئاً. فقال: يا أمير المؤمنين أنت وارث بني أمية؟ قال: لا. قال: أفوصي لهم في أموالهم ورباعهم^(٢)؟ قال: لا. قال: فما سألتك عما في يدي من ذلك؟ قال: فأطرق المنصور وتفكر ساعة ثم رفع رأسه وقال: إن بني أمية ظلموا المسلمين فيها، وأنا وكيل المسلمين في حقوقهم وأريد أن أخذ ما ظلموا المسلمون فيه فأجمله في بيت أموالهم. فقال: يا أمير المؤمنين فتحتاج إلى إقامة بينة عادلة أن ما في يدي لبني أمية مما خانوه وظلموه، فإن بني أمية كانت لهم أموال غير أموال المسلمين. قال: فأطرق المنصور ساعة ثم رفع رأسه، وقال: يا ربيع ما أرى الشيخ إلا قد صدق، وما يجب عليه شيء، وما يسعنا إلا أن نعفو عما قيل عنه. ثم قال: هل لك من حاجة؟ قال: نعم، حاجتي يا أمير المؤمنين أن تجمع بيني وبين من سعى فيّ إليك، فوالله الذي لا إله إلا هو، ما في يدي، لبني أمية مال، ولا وديعة، ولكنني لما مثلت بين يديك وسألتني عما سألتني عنه قابلت بين هذا القول الذي ذكرته الآن، وبين ذلك القول الذي ذكرته أولاً. فرأيت ذلك أقرب إلى الخلاص والنجاة. فقال: يا ربيع اجمع بينه وبين من سعى به فجمعت بينهما. فلما رآه قال: هذا غلامي اختلس لي ثلاثة آلاف دينار من مالي، وأبق^(٣) مني، وخاف من طلبي له فسمى بي عند أمير المؤمنين. قال: فشدد المنصور على الغلام وخوفه، فأقر بأنه غلامه، وأنه أخذ المال الذي ذكره وسعى به كذباً عليه، وخوفاً من أن يقع في يده. فقال له المنصور: سألتك أيها الشيخ أن تعفو عنه. فقال: قد عفوت عنه وأعتقته ووهبته الثلاثة آلاف التي أخذها، وثلاثة آلاف أخرى أدمعها إليه. فقال له المنصور: ما على ما فعلت من مزيد. قال: بلى يا أمير المؤمنين إن هذا كله لقليل في مقابلة كلامك لي، وعفوك عني، ثم انصرف. قال الربيع فكان المنصور يتعجب منه وكلما ذكره يقول: ما رأيت مثل هذا الشيخ يا ربيع.

وغضب الرشيد على حميد الطوسي فدعا له بالنطع^(٤) والسيف فبكى، فقال له: ما يبكيك؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما أفزع من الموت لأنه لا بد منه، وإنما بكيت أسفاً على خروجي من الدنيا وأمير المؤمنين سخط عليّ. فضحك وعفا عنه، وقال: إن الكريم إذا خادعته انخدع. وأمر زياد بضرب عنق رجل فقال: أيها الأمير إن لي بك حرمة. قال: وما هي؟ قال: إن أبي جارك بالبصرة. قال ومن أبوك؟ قال: يا مولاي إني نسيت اسم نفسي، فكيف لا

(١) المحفوظ في البيت: إذا مرضتم أتيّاكم نعوذكم...

(٢) رباعهم: دينارهم.

(٣) أبق: هرب.

(٤) النطع: جلد يوضع تحت المراد قطع رأسه.

أنسى اسم أبي، فرد زيادة كفه على فمه وضحك وعفا عنه. وأمر الحجاج بقتل رجل فقال: أسألك بالذي أنت غداً بين يديه أذلّ موقفاً مني بين يديك إلا عفوت عني. فعفا عنه. ولما ضرب الحجاج رقاب أصحاب ابن الأشعث، أتى رجل من بني تميم فقال: والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب، ما أحسنت في العفو. فقال الحجاج: أفب لهذه الجيف^(١)، أما كان فيهم من يحسن الكلام مثل هذا وعفا عنه، وخلى سبيله. وكان إبراهيم بن المهدي يقول: والله ما عفا عني المأمون تقريباً إلى الله تعالى، ولا صلة للرب ولكن له سوق في العفو يكره أن تكسد بقتلي. وسئل الفضل عن الفتوة فقال: الصنع عن عثرات الإخوان. وفي بعض الكتب الممتلئة. إن كثرة العفو زيادة في العمر، وأصله قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَا يَبْتَغِي النَّاسُ فِيمَكُّ فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) وقال يزيد بن مزيد: أرسل إليّ الرشيد ليلاً يدعوني فأوجست منه خيفة^(٣) فقال له: أنت القاتل أنا ركن الدولة، والثائر لها، والضارب أعناق بغاتها، لا أم لك، أي ركن، وأي ثائر أنت؟ قلت: يا أمير المؤمنين ما قلت هذا إنما قلت أنا عبد الدولة، والثائر لها فأطرق وجعل ينحل غضبه عن وجهه، ثم ضحك. فقلت: أحسن من هذا قولي:

خِلافَةُ اللَّهِ فِي هَارُونَ ثَابِتَةٌ وَفِي بَنِيهِ إِلَى أَنْ يَنْفَخَ الصُّورُ

فقال: يا فضل أعطه مائتي ألف درهم قبل أن يصبح. وأمر مصعب بن الزبير بقتل رجل فقال: ما أقبح بي أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يستضاء به، فأتعلق بأطواقك. وأقول أي رب سلّ مصعباً لِمَ قتلني؟ فقال: أطلقوه فلما أطلقوه قال: أيها الأمير اجعل ما وهبت لي من حياتي في خفض عيش^(٤). قال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم فقال:

أَنَا الْمَذْنُوبُ الْخَطَاءُ وَالْعَفْوُ وَاسِعٌ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ ذَنْبٌ لَمَا عُرِفَ الْعَفْوُ

وتغيظ عبد الملك بن مروان على رجل فقال: والله لئن أمكنتني الله منه لأفعلن به كذا وكذا، فلما صار بين يديه قال له رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين قد صنع الله ما أحببت فاصنع ما أحب الله. فعفا عنه، وأمر له بصلة. وقال الحسن: إن أفضل رداء تردّي به الإنسان الحلم، وهو، والله، عليك أحسن من برد الخبر^(٥)، وفيه قال أبو تمام: رقيق حواشي الحلم لو أن حلمه بكفّيك ما مازنت^(٦) في أنه برد

ويقال الحليم عليم، والسفيه كليم، وقال محمد بن عجلان: ما شيء أشدّ على الشيطان من عالم معه حلم، إن تكلم، تكلم بعلم، وإن سكّت سكّت بحلم. يقول الشيطان سكوتك عليّ أشد من كلامه:

إِذَا كُنْتَ تَبْغِي شِمَةً غَيْرَ شِمَةٍ طَبَعَتْ عَلَيْهَا لَمْ تَطْعَمْكَ الْفُرَائِبُ

وعن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما: أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب. وفي التوراة:

(١) مفردها جيفة: الجثة التنة.

(٢) سورة: الرعد، الآية: ١٧.

(٣) خيفة: ارتعبت.

(٤) خفض عيش: دعة ولين.

(٥) الخبر: العالم.

(٦) مازنت: جادلت.

أذكرني إذا غضبت، أذكرك إذا غضبت. فلا أمحكك^(١) فيما أمحق، وإذا ظلمت فاصبر وارضَ بنصرتي، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك. وكان ابن عون إذا غضب على إنسان قال له: بارك الله فيك، وكانت له ناقة كريمة فضربها الغلام فاندثر عيناها، فقالوا: إن غضب ابن عون فإنه يغضب اليوم. فقال للغلام: غفر الله لك. وقال رجل لرسول الله ﷺ: أي شيء أشد؟ قال: غضب الله. قال: فما يواعدني من غضب الله؟ قال: أن لا تغضب. ويقال: مَنْ أطاع الغضب، أطاع الأرب. قال أبو العتاهية:

ولم أرَ في الأعداء حينَ اختبرتهم
عدوًّا لعقل أعدَى من الغضبِ

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ليس الشديد بالصرعة^(٢)، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كفى بالمرء إثماً أن يقال له اتق الله فيغضب ويقول عليك نفسك. وكتب عمر بن العزيز رضي الله عنه إلى عامل من عماله: أن لا تعاقب عند غضبك، وإذا غضبت على رجل فاحبسه، فإذا سكن غضبك فاخرجه فعاقه على قدر ذنبه، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً قبل لابن المبارك رحمه الله تعالى: اجمع لنا حسن الخلق في كلمة واحد قال: ترك الغضب. وقال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب، ويشد غضبه، فكتب ثلاث صحائف. فأعطى كل صحيفة رجلاً، وقال للأول: إذا اشتد غضبي فقم إلي بهذه الصحيفة، وناولنيها. قال للثاني: إذا سكن بعض غضبي فناولنيها، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي فناولنيها. وكان في الأولى: أقصر، فما أنت وهذا الغضب، إنك لست بإلاه، إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً. وفي الثانية: ارحم مَنْ في الأرض، يرحمك مَنْ في السماء. وفي الثالثة: احمل عباد الله على كتاب الله فإنه لا يصلحهم إلا ذاك. روي أنه أنو شروان. وكان الشعبي أولع شيء بهذا البيت:

ليس الأحلام في حال الرضا
إنما الأحلام في حال الغضبِ

وعن معاذ بن جبل عن أنس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ: «من كظم غيظه وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره في أي الحور شاء» وروي: ملأه الله أمناً وإيماناً، وقال ابن السماك: أذنب غلام لامرأة من قريش، فأخذت السوط ومضت خلفه حتى إذا قاربت رمت بالسوط وقالت: ما تركت التقوى أحداً يشفي غيظه. وقال أبو ذر لغلामه: لِمَ أرسلت الشاة على علفِ الفرس؟ قال: أردت أن أغيظك. قال: لأجمعن مع الغيظ أجراً، أنت حر لوجه الله تعالى. واستأذن رهمط من اليهود على رسول الله ﷺ فأذن لهم، فقالوا: السام عليك يا محمد: فقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: بل السام عليكم، واللعنة، فقال: يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله. فقالت: ألم تسمع ما قالوا: قال قد قلت وعليكم. ورفع إلى عبد الملك بن مروان أعرابي يقال له حمزة، سرق وقامت عليه البيعة. فهم عبد الملك بقطع يده فكتب إليه حمزة من السجن يقول:

بدي يا أمير المؤمنين أعيئها
بغفوك أن تلقى مقاماً يشيئها
فلا خير في الدنيا وكانت خيئة
إذا ما شمالاً فارقها يميئها

قال: فأبى عبد الملك إلا قطعته، فدخلت عليه أم حمزة. وقالت: يا أمير المؤمنين بني وكاسي وواحدي. فقال

(١) أمحكك: أبطله ومحاه.

(٢) الصرعة: الشدة والغلبة.

لها عبد الملك: بش الكاسب لك، هذا حدٌ من حدود الله تعالى. فقالت: يا أمير المؤمنين فاجعله أحد ذنوبك التي تستغفر الله منها، فقال عبد الملك: ادفعوه إليها وخلي سبيله.

إذا ما طاش^(١) حلمك عن عدو
فلست إذا أخا عفوي وصفح
إذا زل الرفيق وأنت ممن
إذا أنت اتخذت أخاً جديداً
فما تدري لعلك مستجير
فكم من سالك لطريقي أمني
وهان عليك هجران الصديق
ولا لأخ على عهد وثيق
بلا رفيق بقى بلا رفيق
لما أنكرت من خلقو عتيق
من الرمضاء فر إلى الحريق
أناه ما يحايز في الطريق

وشتم رجل رجلاً. فقال له: يا هذا، لا تفرق في شتمنا ودع للصلح موضعاً فإنني آيت مشامة الرجال صغيراً، فلن اجبها كبيراً، ولاني لا أكافئ من عصي الله في أكثر من أن أطيع الله فيه.

وحكي عن جعفر الصادق رضي الله عنه أن غلاماً وقف يصب الماء على يديه، فوقع الإبريق من يد الغلام في الطست، فطار الرشاش في وجهه، فنظر جعفر إليه نظر مغضب، فقال: يا مولاي والكاظمين الغيظ، قال: قد كظمت غيظي، قال: والعافين عن الناس، قال: قد عفوت عنك، قال: والله يحب المحسنين، قل: اذهب فأنت حر لوجه الله تعالى. وقيل لما قدم نصر بن منيع بين يدي الخليفة وكان قد أمر بضرب عنقه، قال: يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمات أقولها، قال: قل. فأنشأ يقول:

زعموا بأن الصقر صادف مرة
فتكلم العصفور تحت جناحه
إنني لمثلك لا أتم لقمه
فتهاون الصقر المذل^(٢) ببيده
عصفور بر ساقه التقدير
والصقر متقض عليه يطير
وإن شويت فلنني لحقير
كرماً وأفلت ذلك العصفور

قال: فعفا عنه، وخلي سبيله. قال الشاعر:

أقرز بذنبك ثم اطلب تجاوزهم
عنه فإن جحود الذنب ذنبان

وقال بعضهم:

يستوجب العفو الفنى إذا اعترف
لقوله قل للذين كفروا
وتاب عما قد جناه واعترف
أن يتهوا يفر لهم ما قد سلف

وقال آخر:

إذا ذكرت أياذك التي سلفت
مع قبح فعلي وزلاتي ومجرمي

(١) طاش: ذهل وأخطأ.

(٢) المذل: الراجي.

أَكَادُ أَقْتُلُ نَفْسِي ثُمَّ يُدْرِكُنِي عِلْمِي بِأَنَّكَ مَجْبُولٌ عَلَى الْكَرَمِ
وروي أن عمر رضي الله عنه رأى سكران فأراد أن يأخذه ليعزره^(١). فشتمه السكران فرجع عنه. فقيل له: يا
أمير المؤمنين لِمَا شتمتك تركته. قال: إنما تركته لأنه أغضبني، فلو عززته لكنت قد انتصرت لنفسي، فلا أحب أن
أضرب مسلماً لحمية نفسي.

وغضب المنصور على رجل من الكتاب فأمر بضرب عنقه فأنشأ يقول:

وَأَنَا الْكَاتِبُونَ وَإِنْ أَسَانَا فَهِنَا لِلْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ

فعفا عنه وخلقى سبيله وأكرمه. وقال الرشيد لأعرابي. يَمَ بَلَغَ فَيْكُمُ هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ هَذِهِ الْمَتَزَلَةُ. قال: بحلمه
عن سفيثنا، وعفوه عن مسيئنا، وحمله عن ضعيفنا، لا مثان^(٢) إذا وهب، ولا حقود إذا غضب، رحب الجنان، سمح
البنان، ماضي اللسان. قال: فأومأ الرشيد إلى كلب صيد كان بين يديه وقال: والله لو كانت هذه في هذا الكلب
لاستحق بها السوداء^(٣) وقيل لمعن بن زائدة: المؤاخنة بالذنب من السوداء. قال: لا ولكن أحسن ما يكون الصفع
عن عظم جرمه، وقل شفاعوه، ولم يجد ناصراً. وقال محمود الوراق:

سَأَلَزَمُ نَفْسِي الصَّفْحَ عَنْ كُلِّ مَذْنِبٍ وَإِنْ عَظُمَتْ مِنْهُ عَلَيَّ الْجَرَائِمُ
فَمَا النَّاسُ إِلَّا وَاحِدًا مِنْ ثَلَاثَةٍ شَرِيفٌ، وَمَشْرُوفٌ، وَمُثْلِي مَقَاوِمُ
فَأَنَا الَّذِي فَوْقِي فَأَعْرِفُ قَدْرَهُ وَاتَّبِعْ فِيهِ الْحَقُّ، وَالْحَقُّ لَازِمُ
وَأَمَّا الَّذِي دُونِي فَإِنْ قَالَ صَنْتُ عَنْ إِبْجَابَتِهِ نَفْسِي، وَإِنْ لَمْ لَائِمُ
وَأَمَّا الَّذِي مِثْلِي فَإِنْ زَلَّ، أَوْ هَفَا تَفَضَّلْتُ^(٤)، إِنَّ الْحَرَّ بِالْفَضْلِ حَاكِمُ

وقال الأخنف بن قيس لابنه: يا بني، إذا أردت أن تواخي رجلاً، فاغضبه فإن أنصفك، وإلا فاحذرْه. قال الشاعر:

إِذَا كُنْتَ مَخْتَصِمًا لِنَفْسِكَ صَاحِبًا فَمِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَاهُ بِالْوَدِّ أَغْضِبْهُ
فَإِنْ كَانَ فِي حَالِ الْقَطِيعَةِ مَنْصَفًا وَإِلَّا فَقَدْ جَرَّئْتَهُ فَتَجَبَّنْهُ

ومن أمثال العرب: احلم تسد. قال الشاعر:

وَلَنْ يَلْغَ الْمَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ شَرُّوْا حَتَّى يَذَلُّوْا، وَإِنْ عَزَوْا لِأَقْوَامٍ
وَيَشْتَمُوا قَتَرَى الْأَلْوَانِ مَسْفَرَةٌ لَا صَفْحَ ذَلِكَ وَلَكِنْ صَفْحُ إِكْرَامٍ

وقال آخر:

وَجَهْلِي^(٥) رَدَدَنَاهُ بِفَضْلِ حُلُمِنَا وَلَوْ أَتَيْنَا شَتَا رَدَدْنَاهُ بِالْجَهْلِ

(١) يعزره: يعاقبه.

(٢) لا مثان: صاحب منة.

(٣) السوداء: المجد والرياسة.

(٤) تفضلت: تكرمت.

(٥) جهلي: طيش.

وقال الأحنف: إياكم ورأي الأوغاد. قالوا: وما رأي الأوغاد؟ قال: الذين يرون الصفع والعفو عاراً. وقال رجل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: لاسبتك سباً يدخل معك قبرك. فقال: معك والله يدخل لا معي. وقيل: إن الأحنف سبه رجل وهو يماشيه في الطريق فلما قرب من المنزل وقف الأحنف وقال له: يا هذا إن كان قد بقي معك شيء فهات. وقله ههنا، فإني أخاف أن يسمعك فتيان الحي فيؤذوك، ونحن لا نحب الانتصار لأنفسنا. وقال لقمان لابنه: يا بني ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة؛ لا يعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا أخوك إلا عند الحاجة إليه. ومن أشعر بيت قيل في الحلم قول كعب بن زهير:

إذا أنت لم تُعرض عن الجهل والخنا^(١) أصبت خليماً أو أصابك جاهلٌ

وقال آخر:

وإذا بغى باغ^(٢) عليك بجهله فاقته بالمعروف لا بالمنكر

وقال آخر:

قل ما بدا لك من صدقٍ ومن كذبٍ حلمي أصمٌ وأذني غيرُ صماءٍ

ويروى في بعض الأخبار أن ملكاً من الملوك أمر أن يصنع له طعام، وأحضر قوماً من خاصته، فلما مد السماط أقبل الخادم، وعلى كفه صحن فيه طعام. فلما قرب من الملك أدركته الهيبة، فثر فوقه من مرق الصحن شيء يسير على طرف ثوب الملك، فأمر بضرب عنقه. فلما رأى الخادم العزيمة على ذلك عمد بالصحن فصب جميع ما كان فيه على رأس الملك فقال له: ويحك يا هذا؟ فقال: أيها الملك إنما صنعت هذا شنعاً على عرضك، وغيره عليك لثلاث يقول الناس إذا سمعوا ذنبه الذي به تقتلني، قتله في ذنب خفيف فلم يضره وأخطأ فيه العبد ولم يقصده، فتنسب إلى الظلم والجور، فصنعت هذا الذنب العظيم لتعذر في قتلي، وترفع عنك الملامة. قال: فأطرق الملك ملياً ثم رفع رأسه إليه وقال: يا قبيح الفعل يا حسن الاعتذار، قد وهبنا قبيح فعلك، وعظيم ذنبك لحسن اعتذارك اذهب فانت حر لوجه الله تعالى.

وحكي عن أمير المؤمنين المأمون وهو المشهود له بالاتفاق على علمه، والمشهور في الآفاق بعفوه وحلمه، أنه لما خرج عنه إبراهيم بن المهدي عليه وبإيعه العباسيون بالخلافة ببغداد وخلعوا المأمون، وكان المأمون إذ ذاك بخراسان، فلما بلغه الخبر قصد العراق. فلما بلغ بغداد اختفى إبراهيم بن المهدي، وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون، ولم يزل المأمون متطلباً لإبراهيم حتى أخذه وهو منتقب مع نسوة. فحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدي المأمون فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال المأمون: لا سلم الله عليك، ولا قرب دارك. استغواك^(٣) الشيطان حتى حدثك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام، فقال إبراهيم: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإن وليّ الثار محكم في القصاص، والعفو أقرب للتقوى، ولك من رسول الله ﷺ شرف القرابة. وعدل السياسة، وقد جعلك الله

(١) الخنا: الفحش.

(٢) باغ: معتد.

(٣) استغواك: أضلك.

فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذي ذنب دونك. فإن أخذت فبحقك، وإن عفوت فبفضلك. والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين. ثم قال هذه الآيات:

ذَنبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
فَعُذُّ بِحَقِّكَ أَوْ لَا فَاصْفَخْ بِعَفْوِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فِعَالِي مِنْ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع في عينيه وقال: يا إبراهيم الندم توبة، وعفو الله تعالى أعظم مما تحاول، وأكثر مما تأمل، ولقد حجب إليّ العفو حتى خفت أن لا أوجر عليه، لا تتريب عليك اليوم. ثم أمر بفك قيوده، وإدخاله الحمام، وإزالة شعثه، وخلع عليه ورداً أمواله جميعها إليه، فقال فيه مخاطباً:

رَدَدْتَ مَالِي وَلَمْ تَبْخُلْ عَلَيَّ بِهِ وَقَبْلَ رَدِّكَ مَالِي قَدْ حَقَّتْ دَمِي
إِنْ جَعَلْتُكَ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ كَرَمٍ إِنِّي لِبَالِ لُومِ أَوْلَى مِنْكَ بِالْكَرَمِ

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره أن يبعث إليه برأس عباد بن أسلم البكري فقال له عباد: أيها الأمير أنشدك الله أن لا تقتلني، فوالله إني لأعول أربعاً وعشرين امرأة. ما لهن كاسبٌ غيري، فرق لهن واستحضرهن، وإذا واحدة منهن كالبلر. فقال لها الحجاج: ما أنتِ منه، قالت: أنا بنته فاسمع يا حجاج مني ما أقول، ثم قالت:

أَحْبَابُ إِمَّا أَنْ تَمُرَّ بِزَرْكِهِ عَلَيْنَا، وَإِنَّا أَنْ تُقْتَلْنَا مَعَا
أَحْبَابُ لَا تَجْعَلْ بِهِ إِنْ قُتِلَتْهُ ثَمَاناً وَعَشْراً وَاثْنِينَ وَأَرْبَعَا
أَحْبَابُ لَا تَتْرُكْ عَلَيْهِ بَنَاتِهِ وَخَالَاتِهِ يَنْدَبُهُ الدَّهْرُ أَجْمَعَا

فبكى الحجاج، وورق له واستوهبه^(١) من أمير المؤمنين عبد الملك وأمر له بصلة. ولما قدم عينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من الثغر الذين يدينهم عمر رضي الله عنه، وكان القراء أصحاب مجلس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً، فقال عينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لي عليه فاستأذن، فأذن له عمر. فلما دخل قال: هيه يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم فينا بالعدل. فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر: يا أمير المؤمنين إن الله سبحانه وتعالى قال لنيه عليه الصلاة والسلام: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢) وإن هذا من الجاهلين فوالله ما جاوزها عمر رضي الله عنه حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله تعالى.

وحكي أن رجلاً زور ورقة عن خط الفضل بن الربيع، تتضمن أنه أطلق له ألف دينار، ثم جاء بها إلى وكيل الفضل، فلما وقف الوكيل عليها لم يشك أنها خط الفضل، فشرع في أن يزن له الألف دينار، وإذا بالفضل قد حضر ليتحدث مع وكيله في تلك الساعة في أمر مهم. فلما جلس أخبره الوكيل بأمر الرجل، وأوقفه على الورقة فنظر الفضل فيها، ثم نظر في وجه الرجل فرآه كاد يموت من الوجل^(٣) والخجل، فأطرق الفضل بوجهه، ثم قال للوكيل: أنتدري

(١) استوهبه: طلب أن يهبه إياه.

(٢) سورة: الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٣) الوجل: شدة الخوف.

لِمَ أَتَيْتَ فِي هَذَا الْوَقْتِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: جئت لاستنهضك حتى تعجل لهذا الرجل إعطاء المبلغ الذي في هذه الورقة. فأسرع عند ذلك الوكيل في وزن المال وناوله الرجل قبضه وصار متحيراً في أمره. فالتفت إليه الفضل وقال له: طِبْ نَفْساً وَامْضِ إِلَى سَبِيلِكَ أَمَّا عَلَى نَفْسِكَ. فقبل الرجل يده وقال له: سترتني سترك الله في الدنيا والآخرة، ثم أخذ المال ومضى. فيجب على الإنسان أن يتأسى بهذه الأخلاق الجميلة، والأفعال الجليلة، ويقضي سنة نبيه عليه الصلاة والسلام. فقد كان أكثر الناس حلماً، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم خلقاً، وأكثرهم تجاوزاً وصفحاً، وأبرهم للمقتر عليه نجحاً ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

وأما ما جاء في العتاب؛ فقد قيل: العتاب خير من الحقد، ولا يكون العتاب إلا على زلة، وقد مدحه قوم فقالوا: العتاب حقائق المتحابين، ودليل على بقاء المودة. وقد قال أبو الحسن بن منذر:

أَسْطَوْ عَلَيْهِ وَقَلْبِي لَوْ تَمَكَّنَ مِنْ بَدَلِي غَلَّهَ مَا غِيظاً إِلَى عُنُقِي
وَأَسْتَعِيرُ لَهُ مِنْ سَطَوَتِي حَقّاً^(١) وَأَيْنَ ذَلِكَ الْهَوَى مِنْ عَزَّةِ الْحَقِّ

وذمه بعضهم، قال إياس بن معاوية: خرجت في سفر، ومعى رجل من الأعراب، فلما كان في بعض المناهل لقبه ابن عم له فتعانقا، وتعاثبا وإلى جانبهما شيخ من الحي. فقال لهما: أنعما عيشاً، إن المعاتبة تبعث التجني، والتجني يبعث المخاصمة، والمخاصمة تبعث العداوة، ولا خير في شيء ثمرته العداوة قال الشاعر:

فَدَخَ ذَكَرَ الْعِتَابِ فَرُبُّ شَرٍّ طَوِيلٌ هَاجَ أَوَّلُهُ الْعِتَابِ
وَقِيلَ: الْعِتَابُ مِنْ حَرَكَاتِ الشُّوقِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ هَذَا بَيْنَ الْمُتَحَابِّينَ قَالَ الشَّاعِرُ:

عَلَامَةٌ مَا يَبِينُ الْمُحِبِّينَ فِي الْهَوَى عِتَابُهُمْ فِي كُلِّ حَقٍّ وَبَاطِلٍ
وَكُتِبَ بَعْضُهُمْ، يِعَاتِبُ صَدِيقَهُ عَلَى تَغْيِيرِ حَالِهِ مَعَهُ يَقُولُ:

عَرَضْنَا أَنْفُساً عَزَزَتْ عَلَيْنَا عَلَيْكُمْ فَاسْتَخَفَّ بِهَا الْهَوَانُ
وَلَوْ أَنَّا رَفَعْنَاهَا لَعَزَّتْ وَلَكِنْ كُلُّ مَعْرُوضٍ مَهَانُ

وقال آخر يعاتب صديقه:

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ أَدْنَيْتُ مَجْلِسِي وَوَجْهُكَ مِنْ فَرْطِ الْبِشَاشَةِ يَقَطُرُ
فَمَنْ لِي بِالْعَيْنِ الَّتِي كُنْتُ مَرَّةً إِلَيَّ بِهَا فِي سَالِفِ الدَّهْرِ تَنْظُرُ

وقال أبو الحسن بن منذر:

أَخْلَاقُكَ الْغَرُّ السَّجَايَا، مَا لَهَا حَمَلْتُ قَلَى الْوَاشِيْنَ وَهِيَ سَلَافُ^(٢)
مَرَاةٍ رَأَيْكَ فِي عَيْدِكَ مَا لَهَا صَدِئْتُ وَأَنْتَ الْجَوْهَرُ الشَّفَافُ

وقال آخر يعاتب صديقه على كتاب أرسله إليه وفيه خط عليه:

(١) حقاً: غيظاً.

(٢) سلاف: خمر.

اقْرَأْ كِتَابَكَ، وَاعْتِزْهُ قَرِيباً - فَكَفَى بِنَفْسِكَ لِي عَلَيْكَ حَيَا
أَكْذَا يَكُونُ خُطَابُ إِخْوَانِ الصَّفَا
مَا كَانَ عُنْدِي إِنْ أَجَبْتُ بِمِثْلِهِ
أَوْ كُنْتُ بِالْعَنَسِ الْعَنِيقِ مَجِيئاً
لَكُنِّي خِفْتُ انْتِصَاصَ مَوَدَّتِي
فَيَعْنُدُ إِحْسَانِي إِلَيْكَ ذَنْباً

وقال آخر:

أَرَاكَ إِذَا مَا قُلْتَ قَوْلًا قَبْلَهُ
وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنْ ظَنَنْتَ سَيِّئاً
فَكُنْ قَائِلاً قَوْلَ الْحِمَاسِي تَائِهاً
وَلَا يَنْكُرُ إِنْ شَتْنَا عَلَى النَّاسِ قَوْلُهُمْ
وَلَيْسَ لِأَقْوَالِي لَدَيْكَ قَبُولُ
بِأَهْلِ الْوَفَا وَالظُّلْمِ فَيْكَ جَمِيلُ
بِنَفْسِكَ عَجَباً وَهُوَ مِنْكَ قَلِيلُ
وَلَا يَنْكُرُونَ الْقَوْلَ حِينَ تَقُولُ^(١)

كان لمحمد بن الحسن بن سهل، صديق قتالته إضافة ثم ولي عملاً فائزاً، فقصده محمد مسلماً، فرأى منه تغيراً فكتب إليه:

لَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا أَنَا لَتَكَ ثَرَوَةً
فَقَدْ كَشَفَ الْإِثْرَاءُ مِنْكَ خِلَافَتَا
فَأَصْبَحْتَ ذَا يَسْرِ وَقَدْ كُنْتَ ذَا عَرٍ
مَنْ اللَّؤْمُ كَانَتْ تَحْتَ ثَوْبٍ مِنَ الْفَقْرِ

وقال آخر في المعنى:

دَعَاكَ اللَّهُ أَنْ تَسْمُوَ وَتَعْلُوَ
فَلَمَّا أَنْ سَمَوْتَ بَعُدْتَ عَنِّي
عَلَوُ النُّجْمِ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ
فَكَانَ إِذَا عَلَى نَفْسِي دُعَائِي

وكان ابن عرادة السعدي مع سلم بن زياد بخراسان، وكان له مكرماً، وابن عرادة يتجنى عليه فقارقه وصاحب غيره ثم ندم ورجع إليه وقال:

عَبْتُ عَلَى سَلَمٍ فَلَمَّا فَقَدْتُهُ
رَجَعْتُ إِلَيْهِ بَعْدَ تَجَرُّبٍ غَيْرِهِ
وَصَاحَبْتُ أَقْوَاماً بِكَيْتٍ عَلَى سَلَمٍ
فَكَانَ كِبَرُهُ بَعْدَ طَوْلٍ مِنَ الْقَمِ

وقال مسلم بن الوليد:

وَرُجِعْتَنِي إِلَيْكَ إِذَا نَأَتْ بِي
دِيَارِي عَنْكَ تَجَرُّبَةُ الرِّجَالِ

وقال أبو الحسن القاسبي:

إِذَا أَنَا عَابَيْتُ الْمَلُومَ فَلَمَّا
وَهَبَهُ ارْعَوِ^(٢) بَعْدَ الْعِتَابِ أَلَمْ تُكُنْ
أَخْطُ بِأَقْلَامِي عَلَى الْمَاءِ أَحْرَفَا
مَوَدَّتُهُ طَبْعاً فَصَارَتْ تَكَلُّفَا

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: معاتبته الصديق أهون من قتله. وما أحسن ما قيل في العتاب:

(١) تضمين ليت السؤال.

(٢) ارعوى: انزجر ولتد إلى السلامة.

وفي العتاب حياة بين أقوام وهو المحك لئلا يسر وإيها
فما ثم شيء أحسن من معاتبة الأحباب، ولا ألد من مخاطبة ذوي الألباب، والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله
على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع والثلاثون: في الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية الذمم

أرجح دليل يتمسك به الإنسان كتاب الله تعالى، الذي من تمسك به هُداً، ومن استدلَّ به أرشده هُداً، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾^(١) وقال جل ذكره و قدس اسمه: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾^(٢) وقال جل وعلا: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾^(٤) والآيات في ذلك كثيرة ومن أشدها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٥). وروي في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان». فالوفاء من شيم النفوس الشريفة، والأخلاق الكريمة، والخلال الحميدة، يعظم صاحبه في العيون، وتصدق فيه خطرات الظنون. ويقال: الوعد وجه، والإنجاز محاسنه، والوعد سحابة، والإنجاز مطره. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لكل شيء رأس، ورأس المعروف تعجيله وأنشدوا:

إذا قلتَ في شيءٍ نَعَمْ فأتَمَّهُ فإنَّ نَعَمْ ذَيْنَ عَلَى الْحَرِّ وَاجِبُ
وإلا قُلْ لا، تَسْرِخْ وَتُريخْ بها لئلا تقولَ النَّاسُ إِنَّكَ كاذِبُ

وقال آخر:

لا كَلَّفَ اللَّهُ نَفْساً فَوْقَ طَاقِهَا ولا تجوِّدُ يَدٌ إلا بما تجدُ
فلا تَعِدْ عِدَّةً إلا وَفَّيْتَ بها وأخذَ خلافَ مقالٍ للذي تَعِدُ

وقال أعرابي: وعد الكريم نقد وتعجيل. ووعد اللئيم مطل وتعليل^(٦). وقال أعرابي أيضاً: العذر الجميل خير من المطل الطويل. ومدح بشار خالد بن برمك فأمر له بعشرين ألفاً فأبطأت عليه فقال لقائله: أقمني حيث يمر فأقامه، فمر فأخذ بلجام بغلته وأنشأ يقول:

أظَلَّتْ علينا منك يوماً سحابةٌ أضاء لها برقٌ وأبطأ رشاشُها
فلا غِيْمُها يجلي فيأس طامعٌ ولا غِيْمُها يأتني فتُروى عطاشُها

- (١) سورة: المائدة، الآية: ١.
- (٢) سورة: الرعد، الآية: ٢٠.
- (٣) سورة: النحل، الآية: ٩١.
- (٤) سورة: الإسراء، الآية: ٣٤.
- (٥) سورة: الصف، الآيتان: ٢-٣.
- (٦) مطل وتعليل: تأجيل وتسوف.

فقال: لا نبرح حتى تؤتي بها. وقال صالح اللخمي:

لئن جَمَعَ الآفات فالبخل شرُّها وشراً مِنَ البخلِ المواعيدُ والمطلُ
ولا خيرَ في وعدٍ إذا كان كاذباً ولا خيرَ في قولٍ إذا لم يكن فعلُ

وقيل: ماتت للهذلي أم ولد، فأمر المنصور الريح أن يعزيه ويقول له: إن أمير المؤمنين موِّجُّ إليك جارية نفيسة لها أدب وظرف، يسليك بها، وأمر لك معها بفرس، وكسوة، وصلة. فلم يزل الهذلي يتوقع وعد أمير المؤمنين. ونسبه المنصور فحج المنصور ومعه الهذلي فقال المنصور وهو بالمدينة: إني أحبُّ أن أطوف الليلة المدينة، فأطلب لي مَنْ يطوف بي. فقال الهذلي: أنا لها يا أمير المؤمنين. فطاف به حتى وصل بيت عاتكة فقال: يا أمير المؤمنين وهذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص:

يا بيتَ عاتكةَ الذي أتغزلُ حنَّزَ العِداَ وبه الفؤادُ موكلُ
إنني لأمنُحُكَ الصدودَ وإنني قسماً إليك مع الصدودِ لأميلُ

فكره المنصور ذكر بيت عاتكة من غير أن يسأله عنه، فلما رجع المنصور أمر القصيدة على قلبه فإذا فيها:
وأراك تفعلُ ما تقول وبعضُهم ملقُ^(١) اللسانِ يقولُ ما لا يفعلُ
فذكر المنصور الوعد الذي وعد به الهذلي فأنجزه له واعتذر إليها وقال الشاعر:

تعيجلُ وغَدَ المرءِ أكرومةً تتسرُّ عنه أطيبَ الذكرِ
والحرُّ لا يمتلِ معروفه ولا يلقُ المطلُ بالحرِّ

وقال آخر:

ولقد وعدتَ وأنتَ أكرمُ وأعدِ لا خيرَ في وعدٍ بغيرِ تمامِ
أنعمَ عليَّ، بما وعدتَ تكرماً فالمطلُ يُذهبُ بهجةَ الإنعامِ

وقال آخر:

لبيدِكَ وغَدَ قد قلَّمتَ ذكره فأولُّهُ حنَّذٌ، وآخرُهُ شكرُ
وقد جُمِعَتْ فيكَ المكارمُ كلُّها فما لك عن تأخيرِ مكرمةٍ عنزُ

وقال آخر:

وميعادُ الكريمِ عليه دينُ فلا تَزِدِ الكريمَ على السلامِ
بذكْرِهِ سلائكُ ما عليه ويغنيك السلامُ عن الكلامِ

وقال آخر:

شكاكَ لسانِي ثم أمكثُ نصفه فنصفُ لسانِي بامتداحِكَ ينطقُ

فإن لم تنجز ما وعدت تركتني وباقى لساني بالمذمة مطلقاً
وقال آخر:

باتت لوعيدك عيني غير راقدة والليل حيّ الدياجي منبت السحر^(١)
هذا وقد بث من وعد على ثقة فكيف لو بث من هجر على حذر
وقال آخر:

نذّر بالرقاع إذا نسينا وبأبى الله أن تنسى الكرام

وأما الوفاء بالعهد ورعاية الذمم، فقد نقل فيها من عجائب الوقائع، وغرائب البدائع، ما يطرب السماع ويشف المسمع، كقصية الطائي وشريم نديم النعمان بن المنذر. وتلخيص معناها أن النعمان كان قد جعل له يومين، يوم يؤس، من صادفه فيه قتله وأرداه، ويوم نعيم من لقيه أحسن إليه وأغناه. وكان هذا الطائي قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره، فأخرجته الفاقة من محل استقراره ليرتاد^(٢) شيئاً لصيبه وصغاره. فبينما هو كذلك إذ صادفه النعمان في يوم يؤسه، فلما رآه الطائي علم أنه مقتول، وأن دمه مطلوب. فقال: حيا الله الملك، إن لي صبية صغاراً، وأهلاً جياً، وقد أرقّت ماء وجهي في حصول شيء من البلغة لهم، وقد أقدمني سوء الحظ على الملك في هذا اليوم العبوس، وقد قربت من مقر الصبية والأهل. وهم على شفا^(٣) تلف من الطوى ولن يضاوت الحال في قلتي بين أول النهار وآخره، فإن رأى الملك أن يأذن لي في أن أوصل إليهم هذا القوت، وأوصي بهم أهل المروءة من الحي، لئلا يهلكوا ضياعاً، ثم أعود إلى الملك وأسلم نفسي لنفاذ أمره. فلما سمع النعمان صورة مقالته، وفهم حقيقة حاله، ورأى تلهفه على ضياع أطفاله، رقى له ورثى لحاله غير أنه قال له: لا أذن لك حتى يضمك رجل معنا، فإن لم ترجع قتلناه، وكان شريك بن عدي بن شرحبيل نديم النعمان معه، فالتفت الطائي إلى شريك وقال له:

يا شريك بن عدي ما من الموت انهزام
من لأطفال ضعاف علموا طعم الطعام
بين جوع وانتظار وافترار وسقام
يا أخاك كريم أنت من قوم كرام
يا أخا النعمان جُد لي بضممان والتزام
ولك الله بأنني راجع قبل الظلام

فقال شريك بن عدي: أصلح الله الملك، عليّ ضمانه، فمر الطائي مسرعاً، وصار النعمان يقول لشريك: إن صدر النهار قد ولى، ولم يرجع. وشريك يقول: ليس للملك عليّ سبيل حتى يأتي المساء، فلما قرب المساء قال النعمان لشريك: قد جاء وقتك، قم فتأهب للقتل. فقال شريك: هذا شخص قد لاح مقبلاً، وأرجو أن يكون الطائي،

(١) منبت السحر: أي في انتظار طويل شيء الوقع.

(٢) يرتاد: يطلب القوت.

(٣) شفا: حُرِف.

فإن لم يكن فأمر الملك ممثل. قال: فبينما هو كذلك، وإذا بالطائي قد اشتد عدوه في سيره مسرعاً حتى وصل. فقال: خشيت أن ينقضي النهار قبل وصولي. ثم وقف قائماً وقال: أيها الملك مُرْ بأمرك. فأطرق النعمان، ثم رفع رأسه وقال: والله ما رأيتُ أعجبَ منكما، أما أنت يا طائي فما تركتَ لأحد في الوفاء مقاماً يقول فيه، ولا ذكراً يفتخر به. وأما أنت يا شريك فما تركتَ لكريم سماحة يذكر بها في الكرماء، فلا أكون أنا الأم الثلاثة، ألا وإني قد رفعت يوم يوسي عن الناس، ونقضتُ عادتي كرامة لوفاء الطائي، وكرم شريك. فقال الطائي:

ولقد دَعَنْتِي للخلافَ عَشِيرَتِي فَعَدَدْتُ قَوْلَهُمْ مِنَ الإِضْلَالِ
إِنِّي أَمَرْتُ مِنْهُ الْوَفَاءَ سَجِيَّةً وَفَعَالَ كُلِّ مَهْذَبٍ مَفْضَالُ

فقال له النعمان: ما حملك على الوفاء، وفيه إتلاف نفسك؟ فقال: ديني، فمن لا وفاء فيه ولا دين له. فأحسن إليه النعمان، ووصله بما أغناه مكرماً إلى أهله وأتاله ما تمناه.

ومن ذلك ما حكى أن الخليفة المأمون، لما ولّى عبد الله بن طاهر بن الحسين مصر والشام، وأطلق حكمه دخل على المأمون بعض إخوانه يوماً فقال: يا أمير المؤمنين إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب، وهواه مع العلويين، وكذلك كان أبوه قبله، فحصل عند المأمون شيء من كلام أخيه من جهة عبد الله بن طاهر، فتشوش فكره وضاق صدره. فاستحضر شخصاً وجعله في زي الزهاد، والنسك الغزاة ودسه إلى عبد الله بن طاهر وقال له: امض إلى مصر، وخالط أهلها، ودخل كبراءها واستملهم إلى القاسم بن محمد العلوي، واذكر مناقبه، ثم بعد ذلك اجتمع ببعض بطانة عبد الله بن طاهر، ثم اجتمع بعبد الله بن طاهر بعد ذلك وادعاه إلى القاسم بن محمد العلوي، واكشف باطنه، وأبيح عن دفين نيته وانتهى بما تسمع. ففعل ذلك الرجل ما أمره به المأمون، وتوجه إلى مصر، ودعا جماعة من أهلها، ثم كتب ورقة لطيفة ودفعها إلى عبد الله بن طاهر وقت ركوبه، فلما نزل من الركوب، وجلس في مجلسه، خرج الحاجب إليه وأدخله على عبد الله بن طاهر وهو جالس وحده، فقال له: لقد فهمت ما قصدته، فهات ما عندك، فقال: ولي الأمان؟ قال: نعم. فأظهر له ما أراده ودعاه إلى القاسم بن محمد. فقال له عبد الله: أوتئصفتني فيما أقوله لك؟ قال: نعم. قال: فهل يجب شكر الناس بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة؟ قال: نعم. قال: فيجب عليّ وأنا في هذه الحالة التي تراها من الحكم والنعمة، والولاية ولي خاتم في المشرق، وخاتم المغرب، وأمر فيهما مطاع، وقولي مقبول. ثم أتى ألغت يميناً وشمالاً فأرى نعمة هذا الرجل غامرة، وإحسانه فائضاً عليّ، أفندعوني إلى الكفر بهذه النعمة، وتقول أغدر وجانب الوفاء، والله لو دعوتني إلى الجنة عياناً لما غدرتُ ولما نكثتُ بيعته، وتركت الوفاء له فسكت الرجل فقال له عبد الله: والله ما أخاف إلا على نفسك. فأرحل من هذا البلد، فلما يس الرجل منه وكشف باطنه، وسمع كلامه رجع إلى المأمون فأخبره بصورة الحال فسيره ذلك، وزاد في إحسانه إليه، وضاعف إنعامه عليه.

ومما يعد من محاسن الشيم، ومكارم أخلاق أهل الكرم، ويحث على الوفاء بالعهود ورعاية الذمم، ما رواه حمزة بن الحسين الفقيه في تاريخه قال: قال لي أبو الفتح المنطقي: كنا جلوساً عند كافور الأخشيدي، وهو يومئذ صاحب مصر والشام، وله من البسطة^(١) والمكنة ونفوذ الأمر، وعلو القدر، وشهرة الذكر ما يتجاوز الوصف والحصص

فحضرت المائدة والطعام فلما أكلنا نام. وانصرفنا فلما انتبه من نومه طلب جماعة منا، وقال: امضوا الساعة إلى عتبة التجارين وسلوا عن شيخ منجم أعور كان يقعد هناك، فإن كان حياً فاحضروه، وإن كان قد توفي فسلوا عن أولاده، واكشفوا أمرهم. قال: فمضينا إلى هناك وسألنا عنه فوجدناه قد مات، وترك ابنتين، إحداهما متروجة، والأخرى عاتق^(١). فرجعنا إلى كافور وأخبرناه بذلك فسير في الحال واشترى لكل واحدة منهما داراً وأعطاهما مالاً جزيلاً، وكسوة فاخرة، وزوج العاتق وأجرى على كل واحدة منهما رزقاً وأظهر أنهما من المتعلقين به لرعاية أمورهما. فلما فعل ذلك وبالغ فيه ضحك. وقال: أتعلمون سبب هذا؟ قلنا: لا فقال: اعلما أني مررت يوماً بوالدهما المنجم، وأنا في ملك ابن عباس الكاتب، وأنا بحالة رثة فوقت عليه فنظر إليّ واستجلبني وقال: أنت تصير إلى رجل جليل القدر، وتبلغ منه مبلغاً كبيراً، وتنال خيراً كثيراً. ثم طلب مني شيئاً فأعطيته درهمين كانا معي، ولم يكن معي غيرهما فرما بهما إليّ، وقال: أبشرك بهذه البشارة، وتعطيني درهمين. ثم قال: وأزديك أنت والله تملك هذا البلد، وأكثر منه. فاذكرني إذا صرت إلى الذي وعدتك به، ولا تسر. فقلت له: نعم. فقال: عاهدني أنك تقي لي، ولا يشغلك ذلك عن افتقادي فعاهدته. ولم يأخذ مني الدرهمين، ثم إني شغلت عنه بما تجدد لي من الأمور والأحوال، وصرت إلى هذه المنزلة، ونسيت ذلك. فلما أكلنا اليوم ونمت رأيته في المنام قد دخل عليّ، وقال لي: أين الوفاء بالمعهد الذي بيني وبينك، وإتمام وعدك، لا تغدر فيغدر بك، فاستيقظت وفعلت ما رأيتم. ثم زاد في إحسانه إلى بنات المنجم وفاء لوالدهما بما وعده، والله أعلم.

ومما أسفرت عنه وجوه الأوراق، وأخبرت به الثقات في الآفاق، وظهرت روايته بالشام والمراق وضرب به الأمثال في الوفاء بالإنفاق، حديث السموأل بن عاديّا، وتلخيص معناه أن امرئ القيس الكندي، لما أرتاد المضي إلى قيصر ملك الروم، أودع عند السموأل دروعاً وسلاحاً، وأتمتع تساوي من المال جملة كثيرة. فلما مات امرؤ القيس أرسل ملك كندة يطلب الدروع والأسلحة المودعة عند السموأل. فقال السموأل: لا أدفعها إلا لمستحقها. وأبى أن يدفع إليه منها شيئاً، فعاوده فأبى، وقال: لا أغدر بلمتي، ولا أخون أمانتي، ولا أترك الوفاء والواجب عليّ. فقصده ذلك الملك من كندة بمسكركه فدخل السموأل في حصنه، وامتنع به. فحاصره ذلك الملك، وكان ولد السموأل خارج الحصن فظفر به ذلك الملك فأخذه أسيراً، ثم طاف حول الحصن وصاح بالسموأل. فأشرف عليه من أعلى الحصن. فلما رآه قال له: إن ولدك قد أسرته، وما هو ذا معي، فإن سلمت إليّ الدروع والسلاح التي لامرئ القيس عندك رحلت عنك وسلمت إليك ولدك، وإن امتنعت من ذلك ذبحت ولدك وأنت تنظر. فاختر أيهما شئت. فقال له السموأل: ما كنت لأخفر ذمامي، وأبطل وفائي، فأصنع ما شئت. ففنيح ولده وهو ينظر. ثم لما عجز عن الحصن رجع غائباً. واحتسب السموأل ذبيح ولده وصبر محافظة على وفاته. فلما جاء الموسم وحضر وردة امرئ القيس سلم إليهم الدروع والسلاح. ورأى حفظ ذمامه ورعاية وفاته أحب إليه من حياة ولده ويقاته. فصارت الأمثال في الوفاء تضرب بالسموأل وإذا مدحوا أهل الوفاء في الأنام ذكر السموأل في الأول. وكم أعلى الوفاء رتبة من اعتقله بيديه، وأعلى قيمة من جعله نصب عينيه، واستنطق الأفواه لقاعله بالثناء عليه، واستنطق الأيدي المقبوضة عنه بالإحسان إليه.

ومما وضع في بطون الدفاتر، واستحسنته عيون البصائر، ونقلته الأصاغر عن الأكابر، وتداولته الألسنة من

الأوائل، والأواخر، ما رواه خادم أمير المؤمنين المأمون. قال: طلبني أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثه. فقال لي: خذ معك فلاناً وفلاناً وسماهما: أحدهما علي بن محمد، والآخر دينار الخادم، واذهب مسرعاً لما أقوله لك فإنه قد بلغني أن شيخاً يحضر ليلاً إلى دور البرامكة وينشد شعراً، ويذكرهم ذكراً، ويندبهم ويكي عليهم ثم ينصرف. فامض الآن أنت وعلي ودينار حتى تروا هذه الخرابات، فاستروا خلف بعض الجدران، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد شيئاً فأتوني به. قال: فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات وإذا نحن بغلام قد أتى ومعه بساط وكرسی حديد، وإذا الشيخ وسيم، له جمال، وعليه مهابة ووقار، قد أقبل فجلس على الكرسي وجعل يبكي ويتحب ويقول:

ولما رأيْتُ السيفَ جندَلْ جعفرأ ونادى منادٍ للخليفة في يحيى
بكيتُ على الدنيا وزاد تأسفي عليهم وقلتُ الآن لا تنفُ الدنيا

مع أبيات أطالها ورددها. فلما فرغ قبضنا عليه، وقلنا له: أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعاً شديداً وقال: دعوني حتى أوصي وصية، فإني لا أوقن بعدها بحياة. ثم تقدم إلى بعض الدكاكين فاستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية ودفعها إلى غلامه. ثم سرنا به فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين زجره وقال له: من أنت؟ وبماذا استوجبت البرامكة منك ما تفعله في خرائب دورهم، وما تقوله فيها؟ قال الخادم ونحن وقوف نسمع، فقال: يا أمير المؤمنين إن للبرامكة عندي أيادي خطيرة أتاذن لي أن أحدثك حديثي معهم؟ قال: قل. قال:

يا أمير المؤمنين أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد زالت عني نعمتي، كما تزول عن الرجال، فلما ركبني الدين واحتجت إلى بيع مسقط رأسي ورؤوس أهلي، وأشاروا علي بالخروج إلى البرامكة فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصيياً وصيبة، وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد، فدعوت بثريات لي كنت قد أعددتها لأستمع بها الناس فلبستها وخرجت وتركتهم جاعاً لا شيء عندهم، ودخلت شوارع بغداد أسائل عن دور البرامكة. فإذا أنا بمسجد مزخرف وفيه مائة شيخ بأحسن زي وزينة، وعلى الباب خادمتان فطمعت في القوم، وولجت المسجد، وجلست بين أيديهم وأنا أقدم وأوخر والعرق يسيل مني لأنها لم تكن صناعتي وإذا بخادم قد أقبل فدعا القوم فقاموا وأنا معهم فدخلوا دار يحيى بن خالد ودخلت معهم، وإذا بيحيى جالس على دكة له في وسط بستان، فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحداً وبين يديه عشرة من ولده. وإذا غلام أمرد عذاراه خداه قد أقبل من بعض المقاصير بين يديه مائة خادم منطلقون في وسط كل خادم منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، ومع كل خادم مجمرة من ذهب، في كل مجمرة قطعة من عود كهية الفهر^(١)، قد قرن بها مثلها من العنبر السلطاني فوضعوه بين يدي الغلام، وجلس الغلام إلى جنب يحيى. ثم قال يحيى للقاضي: تكلم بزواج ابنتي عائشة من ابن عمي هذا. فخطب القاضي وزوجه وشهد أولئك الجماعة، وأقبلوا علينا بالشار بيتادق المسك والعنبر، فالتقطت والله يا أمير المؤمنين ملء كمي ونظرت فإذا نحن في المكان ما بين يحيى والمشايع، وولده والغلام مائة وإثنا عشر رجلاً، فخرج إلينا مائة وإثنا عشر خادماً؛ مع كل خادم صينية من فضة عليها ألف دينار، فوضعوا بين يدي كل رجل منا صينية فرأيت القاضي والمشايع يصبون الدنانير في أكمامهم، ويجعلون الصواني تحت أباطهم، ويقوم الأول فالأول. حتى

بقيت وحدي بين يدي يحيى لا أجسر على أخذ الصنية. فغمزني الخادم، فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي، وأخذت الصنية في يدي. وقمت وجعلت أنضت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب بها.

فيئنا أنا كذلك في صحن الدار ويحيى يلحظني إذ قال للخادم: اتني بذلك الرجل فرددت إليه فأمر بصب الدنانير والصنية وما كان في كمي، ثم أمرني بالجلوس فجلست. فقال لي: ممن الرجل؟ فقصصت عليه قصتي. فقال للخادم: اتني بولدي موسى، فأتى به. فقال له: يا بني هذا رجل غريب فخذك إليك، واحفظه بنفسك، وينعمتك. فقبض موسى على يدي وأدخلني إلى دار من دوره فأكرمني غاية الإكرام وأقامت عنده يومي وليتي في ألد عيش وأتم سرور. فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال: إن الوزير قد أمرني بالمطف على هذا الرجل. وقد علمت اشتغالي في دار أمير المؤمنين فاقبضه إليك وأكرمه. ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام فلما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد، ثم لم أزل في أيدي القوم يتداولوني عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصياني، أفي الأموات هم أم في الأحياء: فلما كان اليوم الحادي عشر جاني خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا لي: قم فإخرج إلى عيالك بسلام. فقلت: وأويلاه سلبت الدنانير والصنية وأخرج إلى عيالي على هذه الحالة إنا لله وإنا إليه راجعون فرفع السر الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، فلما رفع الخادم السر الأخير قال لي: مهما كان لك من الحوائج فارفعها إليّ فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به. فلما رفع السر رأيت حجرة كالشمس حسناً ونوراً واستقبلني منها رائحة الند والعود، ونفحات المسك. وإذا بصياني وعيالي يتقلبون في الحرير والدياج، وحمل إليّ ألف ألف درهم، وعشرة آلاف دينار، ومنشورين بضيعتين، وتلك الصنية التي كنت أخذت بما فيها من الدنانير والبنادق، وأقامت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أم رجل غريب اصطعنوني. فلما جاءتهم البلية ونزل بهم من أمير المؤمنين الرشيد ما نزل أجفني عمرو بن مسعدة، والأزمي في هاتين الضيعتين من الخراج، مالا يفي دخلهما به. فلما تحامل عليّ الدهر كنت في أواخر الليل أقصد خرابات القوم فأندبهم، وأذكر حسن صنيعهم إليّ، وأشكرهم على إحسانهم. فقال المأمون: عليّ بعمرو بن مسعدة، فما أتى به قال له: يا عمرو أتعرف هذا الرجل؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين هو بعض صنائع البرامكة. قال: كم ألزمت في ضيعته؟ قال: كذا وكذا. قال: رد له كل ما استأديته منه في مدته. ووقع له بهما ليكونا له ولعقبه من بعده. قال: فعلا نحب الرجل وبكاؤه، فلما رأى المأمون كثرة بكاؤه قال له: يا هذا قد أحسنا إليك فلم تبكي؟ قال: يا أمير المؤمنين وهذا أيضاً من صنائع البرامكة، إذ لو لم أت خراباتهم فأبكيهم، وأندبهم، حتى اتصل خبري بأمير المؤمنين ففعل ما فعل، فمن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين؟ قال إبراهيم بن ميمون: فلقد رأيت المأمون وقد دمعت عيناه، وظهر عليه حزنه. وقال: لعمري هذا من صنائع البرامكة فعليهم فأبكي، وإياهم فأشكر، ولهم فأؤف، وإلحسانهم فأذكر.

قيل: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ودوام عهده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه، وكثرة بكاؤه على ما مضى من زمانه. قال الشاعر:

سقى الله أطلال الوفاء بكفٍّ قد درست أعلامه^(١) ومنازلهُ

وقال آخر:

أشدُّ بِدَيْكَ بِمَنْ بِلُوت^(١) وفاءهُ إن الوفاء من الرجال عزيزُ

وقال مالك بن عماره اللخمي: كنت جالساً في ظل الكعبة أيام الموسم عند عبد الملك بن مروان وقيصة بن ذؤيب وعروة بن الزبير، وكنا نخوض في الفقه مرة، وفي المذاكرة مرة، وفي أشعار العرب وأمثال الناس مرة. فكنت لا أجد عند أحد ما أجده عند عبد الملك بن مروان من الاتساع في المعرفة، والتصرف في فنون العلم، وحسن استماعه إذا حَدَّث، وحلاوة لفظه إذا حَدَّث. فخلوت معه ليلة فقلت له: والله إني لمسرور جداً بك لما شاهدته من كثرة تصرفك، وحسن حديثك، وإقبالك على جليسك. فقال: إن تعش قليلاً فسترى العيون طامحة إليّ والأعناق نحوي متطاولة، فإذا صار الأمر إليّ فلعلك أن تنقل إلي ركابك فلاملأن يدك. فلما أفقت إليه الخلافة توجهت إليه فوافيته يوم الجمعة وهو يخطب على المنبر. فلما رأيته أعرض عني فقلت لعله لم يعرفني، أو عرفني، وأظهر لي نكره. فلما قضيت الصلاة ودخل بيته لم ألبث أن أخرج الحاجب فقال: أين مالك بن عماره فقممت فأخذ بيدي، وأدخلني عليه فمد إليّ يده وقال: إنك تراءيت لي في موضع لا يجوز فيه إلا ما رأيت، فأما الآن فمرحّباً وأهلاً، كيف كنت بعدي فأخبرته. فقال لي: أتذكر ما كنت قلت لك؟ قلت: نعم. فقال: والله ما هو بميراث رعيانه، ولا أثر رويانه، ولكنني أخبرك بخصال مني سمت بها نفسي إلى الموضع الذي ترى. ما خنت ذا ودّ قط، ولا شمتُ بمصيبة عدو قط، ولا عرضتُ عن محلّث حتى يتهم حديثه، ولا قصصت كبيرة من محارم الله تعالى متلذذاً بها، فكنت أؤمل بهذه أن يرفع الله تعالى منزلتي وقد فعل. ثم دعا بغلام فقال له: يا غلام بوته^(٢) منزلاً في الدار، فأخذ الغلام بيدي وأفرد لي منزلاً حسناً، فكنت في الدّ حال، وأنعم بال، وكان يسمع كلامي، واسمع كلامه، ثم أدخل عليه في وقت عشاءه وغدائه فيرفع منزلتي، وقبل عليّ، ويحدثني ويسألني مرة عن العراق، ومرة عن الحجاز حتى مضت لي عشرون ليلة فتغديت يوماً عنده فلما تفرق الناس نهضت قائماً. فقال: على رسلك. فقمعت. فقال: أي الأمرين أحب إليك المقام عندنا مع النصفة لك في المعاشرة، أو الرجوع إلى أهلك ولك الكرامة. فقلت: يا أمير المؤمنين فارتق أهلي وولدي على أني أزور أمير المؤمنين وأعود إليهم. فإن أمرني أمير المؤمنين اخترت رؤيته على الأهل والولد. فقال: لا بل أرى لك الرجوع إليهم، والخيار لك بَعْدُ في زيارتنا، وقد أمرنا لك بعشرين ألف دينار، وكسوناك وحملناك، أتراني قد ملأت يدك، فلا خير فيمن ينسى إذا وعد وعداً، إذا شئت صحبتك السلامة.

ومن ذلك ما روي عن أبي بكار الأعمى وكان قد انقطع إلى آل برمك. قال مسرور الكبير: لما أمرني الرشيد بقتل جعفر بن يحيى دخلت عليه فوجدت عنده أبا بكار الأعمى يغنيه ويقول:

فلا تحزَنَ فكلُ نسي سبأني عليه الموت يطرقُ أو ينادي

فقلت: في هذا والله قد أتيتك. ثم أمسكت بيد جعفر وأقمته وضربت عنقه. فقال أبو بكار: ناشدتك الله إلا ما ألحقني به. فقلت له: ما الذي حملك على هذا؟ فقال: أغواني عن الناس. فقلت: حتى استأمر الرشيد. ثم أحضرت الرأس إلى الرشيد وأخبرته بخبر أبي بكار فقال: هذا رجل فيه مصطنع أضمه إليك، وانظر ما كان يجري

(١) بلوت: اخترت.

(٢) بوته منزلاً: أنزله.

عليه جعفر، فادفعه إليه، وكان يحيى بن خالد إذا أكد في يمينه قال: لا والذي جعل الوفاء أعز ما يرى. قال أبو فراس بن حمدان الشاعر:

بمن يَتَّقِي الإنسانُ فيما يَنوُّهُ ومن أين للحرِّ الكريمِ صحابُ
وقد صارَ هذا الناسُ إلا أَقلُّهُم ذئاباً على أَجَادِهِمْ ثيابُ

وسأل المنصور بعض بطانة هشام عن تدبيره في الحروب، فقال: كان رحمه الله تعالى يفعل كذا وكذا. فقال المنصور: عليك لعنة الله تطأ بساطي، وتترحم على عدوي. فقال: إن نعمة عدوك لقلادة في عني، لا يترعها إلا غاسلي. فقال له المنصور: ارجع يا شيخ، فإني أشهد أنك لوفي، حافظ للخير. ثم أمر له بمال فأخذه ثم قال: والله لولا جلالة أمير المؤمنين، وإمضاء طاعته ما لبست لأحد بعد هشام نعمة. فقال له المنصور: لله درك فلو لم يكن في قومك غيرك لكنت قد أبقيت لهم مجدداً مخلداً.

وخرج سليمان بن عبد الملك ومعه يزيد بن المهلب في بعض جبايين الشام فإذا امرأة جالسة على قبر تبكي. قال سليمان: فرفعت البرقع عن وجهها فحككت شمساً من متون غمامة. فوقفنا متحيرين ننظر إليها فقال لها يزيد بن المهلب: يا أمة الله هل لك في أمير المؤمنين بعلأ فتظرت إلينا ثم أنشأت تقول:

فإن تسألني عن هوائٍ فلأنه يَجُولُ بهذا القبرِ يا فتیانِ
وإنني لأستخيبه والقبرِ يتنا كما كنتُ استخيبه وهو يراني

ومن ذلك ما روي عن نائلة بنت القرافصة بن الأحوص الكلبي، زوج عثمان رضي الله عنهما: أن عثمان لما قتل أصابته ضربة على يدها، وخطبها معاوية فردته. وقالت: ما يعجب الرجل مني؟ قالوا: ثياك؟ فكسرت ثياها، وبعثت بها إلي معاوية، فكان ذلك مما رغب قريشاً في نكاح نساء بني كلب. ولما أحس مصعب بن الزبير بالقتل دفع إلى مولاه زياد فص ياقوت قيمته ألف ألف. وقال له: انج بهذا فأخذ زياد ودقه بين حجرين وقال والله لا يتنح به أحد بعدك. ولما قدّم هذبة بن الخشرم للقتل بحضرة مروان بن الحكم قالت زوجته: إن لهذبة عندي ودبة فأمهله حتى أتيك بها. فقال: أسرعي فإن الناس قد كثروا، وكان مروان قد جلس لهم بارزاً عن داره فمضت إلى السوق وأتت إلى قصاب فقالت: أعطني شفرتك، وخذ هذين الدرهمين وأنا أرداه عليك. فأخذتها وقربت من حائط وأرسلت ملحفها على وجهها، ثم جدعت أنفها من أصله، وقطعت شفيتها وردت الشفرة إلى القصاب ثم أقبلت حتى دخلت بين الناس. فقالت: أتراني يا هذبة متروجة بعد ما ترى. فقال: الآن طابت نفسي بالموت فجزاك الله من حليلة وفيه خيراً.

ولنجعل لهذا الباب من القضايا ختاماً هو أوجزها كلاماً، وأحسنها نظاماً؛ وأبينها حكماً وأحكاماً. وهي قضية جمعت الأمرين: وفاء وغدر، وعرفاً ونكراً، وخيراً وشرأ، ونفعاً وضرأ، واشتملت على حالة شخصين أحدهما وفي بعده فزاز ونجا وحاز من مقترحات مناه ما أمل ورجا. وغدر الآخر فلم يجد له من جزاء غدره إلى النجاة فرجأ، ولم يلتق له من ضيق الغدر مخرجاً، وهو ما ذكره عبد الله بن عبد الكريم، وكان مطلعاً على أحوال بن طولون عارفاً بأموره عالماً بوروده وصدوره، فقال ما معناه:

إن أحمد بن طولون وجد عند سقايته طفلاً مطروحاً فالتقطه ورباه، وسماه أحمد وشهره باليتيم. فلما كبر ونشأ كان أكثر الناس ذكاه وفطنة وأحسنهم زئاً وصورة، فصار يرعاه ويعلمه حتى تهذب وتمرن، فلما حضرت أحمد بن

طولون الوفاة أوصى ولده أبا الجيش خمارويه به فأخذه إليه. فلما مات أحمد بن طولون أحضره الأمير أبو الجيش إليه: وقال له: أنت عندي بمكانة أركانك بها. ولكن عادتي أنني آخذ العهد على مَنْ أصرفه في شيء أنه لا يخونني. فعاهده ثم حكمه في أمواله وقدمه في أشغاله فصار أحمد اليتيم مستحوذاً على المقام، حاكماً على جميع الحاشية الخاص والعام. والأمير أبو الجيش بن طولون يحسن إليه فلما رأى خدمته متصفة بالنصح، ومسايعه متسمة بالنجح، ركن إليه واعتمد في أمور بيوته عليه. فقال له يوماً: يا أحمد امض إلى الحجرة القلاية ففي المجلس حيث أجلس سبعة جوهر فالتفتي بها فمضى أحمد، فلما دخل الحجرة وجد جارية من مغنيات الأمير وحظاياها مع شاب من الفرائشين ممن هو من الأمير بمحل قريب. فلما رآياه خرج الفتى، وجاءت الجارية إلى أحمد وعرضت نفسها عليه، ودعته إلى قضاء وطره. فقال لها: معاذ الله أن أخون الأمير، وقد أحسن إليّ، وأخذ العهد عليّ، ثم تركها وأخذ السبعة وانصرف إلى الأمير وسلمها إليه. وبقيت الجارية شديدة الخوف من أحمد بعد ما أخذ السبعة وخرج من الحجرة، لئلا يذكر حالها للأمير. فأقامت أياماً لم تجد من الأمير ما غيره عليها.

ثم اتفق أن الأمير اشترى جارية وقدمها على حظاياها، وغمرها بعطاياها، واشتغل بها عن سواها وأعرض لشغفه بها عن كل مَنْ عنده، حتى كاد لا يذكر جارية غيرها ولا يراها. وكان أولاً مشغولاً بتلك الجارية الخاسرة الخائنة الفادرة العاتبة العاهرة الفاسقة الفاجرة، فلما أعرض عنها اشتغلاً بالجارية الجديدة الممجنة، السعيدة المسعدة، الحاملة المحمودة، الوصيفة الموصوفة، الأليفة المألوفة، العارفة المعروفة. وصرف لبهجة محاسنها وكثرة أدبها وجهه من ملاعبة أترابها، وشغلته بعذوبة رضاها^(١) عن ارتشاف ضرب أضرابها^(٢). وكانت تلك الجارية الأولى لحسنها متأثرة على تأميره لا تخاف من وليه ولا نصيره، فكبر عليها إعراضه عنها، ونسبت ذلك إلى أحمد اليتيم لاطلاعه على ما كان منها. فدخلت على الأمير وقد ارتدت من الكآبة بجلباب نكرها، وأعلنت بالبكاء بين يديه لإتمام كيدها ومكرها. وقالت: إن أحمد اليتيم راودني عن نفسي. فلما سمع الأمير ذلك استشاط غيظاً وغضباً وهم في الحال يقتله، ثم عاوده حاكم عقله فتأنى في فعله واستحضر خادماً يعتمد عليه وقال له: إذا أرسلت إليك إنساناً ومع طبق من ذهب وقلت لك على لسانه إملأ هذا الطبق مسكاً فاقتل ذلك الإنسان واجعل رأسه في الطبق وأحضره مغطى. ثم إن الأمير أبا الجيش جلس لشربه وأحضر عنده ندماء الخواص، وأدناهم لمجلس قربه وأحمد اليتيم واقف بين يديه آمن في سره^(٣) لم يخطر بخاطره شيء، ولا هاجس في قلبه. فلما مثل بين يدي الأمير وأخذ منه الشراب شرع في التثبير، فقال: يا أحمد خذ هذا الطبق وامض به إلى فلان الخادم وقل له يقول لك أمير المؤمنين إملأ هذا الطبق مسكاً، فأخذه أحمد اليتيم ومضى فاجتاز في طريقه بالمغنين، وبقية الندماء والخواص. فقاموا إليه وسألوه الجلوس معهم، فقال: أنا ماض في حاجة للأمير أمرني بإحضارها في هذا الطبق. فقالوا له أرسل مَنْ ينوب عنك في إحضارها وخذها أنت، وادخل بها على الأمير، فأدار عينيه فرأى الفتى الفرائش الذي كان مع الجارية فأعطاه الطبق وقال له: امض إلى فلان الخادم وقل له يقول لك الأمير إملأ هذا الطبق مسكاً.

فمضى ذلك الفرائش إلى الخادم فذكر له ذلك فقتله وقطع رأسه وغطاه وجعله في الطبق وأقبل به فناوله لأحمد

(١) رضاها: الريق.

(٢) أضرابها: مثل برودة فمها.

(٣) سرية: قلبه ونفسه.

اليتيم فأخذه وليس عنده علم من باطن الأمر. فلما دخل به على الأمير كشفه وتأمله، وقال: ما هنا؟ قصص عليه خبره وقموده مع المغنين، وبقية الندماء وسؤالهم له الجلوس معهم وما كان من إنفاذ الطبق، وإرساله مع الفراش وأنه لا علم عنده غير ما ذكره. قال: أتعرف لهذا الفراش خبراً يستوجب به ما جرى عليه؟ فقال: أيها الأمير إن الذي تمَّ عليه بما ارتكبه من الخيانة. وقد كنت رأيت الإعراض عن إعلام الأمير بذلك. وأخذ أحمد يحدثه بما شاهده وما جرى له من حديث الجارية، من أوله إلى آخره لما أنفذه لاحضار السبحة الجوهرة. فدعا الأمير أبو الجيش بتلك الجارية واستقررها، فأقرت بصنعة ما ذكره أحمد فأعطاه إياها وأمره بقتلها ففعل. وازدادت مكانة أحمد عنده، وعلت منزلته لديه، وضاعف إحسانه إليه، وجعل أزمة جميع ما يتعلق به بيديه.

فانظر رحمك الله إلى آثار الوفاء، كيف تحمي من المعاطب، وتنجي من قبضة التلف، بعد إمضاء القواضب^(١)، ويفضي بصاحبه إلى إرتقاء غوارب^(٢) المراتب. فهذا الغلام لما وفى لمولاه بعده، وهو بشر مثله، وليس في الحقيقة بعبد، وأطلع الله عز وجل على صدق نيته وقصده، ودفع عنه هذه القتلة الشنيعة بلطف من عنده، فإذا كان العبد مع خالقه ورازقه وافيّاً في طاعته بعقده، كيف لا يفيض عليه من الطاف مواهب يره، ورفده ويفتح له من أبواب رحمته، وأقسام نعمته، مما لا ممسك له من بعده. وقالوا: ليس شيء أوفى من القمرية، إذا مات ذكرها لم تقرب آخر بعده. ولا تزال تنوح عليه إلى أن تموت.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

(١) القواضب: السيوف القاطمة.

(٢) غوارب: أهلها وسنماها.

الباب الثامن والثلاثون: في كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه

قال الله تعالى حكاية عن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾^(١) الآية، فلما أفشى يوسف عليه رؤياه بمشهد امرأة يعقوب، أخبرت أخوته فحل به ما حل. ومن شواهد الكتاب العزيز في السر قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عِيسَىٰ مَا أُوحِيَ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾^(٣) أي بعثهم، وفي الحديث: استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان. فإن كل ذي نعمة محسود. وقال علي رضي الله عنه وكرم وجهه: سرُّك أسيرك فإذا تكلمت به صرت أسيره.

واعلم أن أمناء الأسرار، أقول وجوداً من أماء الأحوال، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار، لأن احراز الأموال منيعة بالأبواب والأقفال، واحراز الأسرار بارزة يذيعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق، وحمل الأسرار أثقل من حمل الأموال، فإن الرجل يستغل بالحمل الثقيل فيحمله ويمشي به، ولا يستطيع كتم السر وإن الرجل يكون سره في قلبه فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحقه من حمل الأثقال، فإذا أذاعه استراح قلبه، وسكن خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً. وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: القلوب أوعى، والشفاه أقالها، والألسن مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره. ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرت خزائنها كان أوثق لها، وأما الأسرار فإنها كلما كثرت خزائنها كان أضعف لها، وكم من إظهار سر أراق دم صاحبه ومنعه من بلوغ مآربه، ولو كتمه أمين من سطوته. وقال أبو شروان: من حصن سره فله بتحفظه خصلتان، الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات، وقيل: كلما كثرت خزان الأسرار زادت ضياعاً. وقيل: انفرذ بسرك لا تودعه حازماً فيزل، ولا جاهلاً فيخون. وقال كعب بن سعد الغنوي:

ولا أنا عن أسرارهم بسوؤ

ولست بعبء للرجالو سريرتي^(٤)

وقال أبو مسلم صاحب الدولة:

عنه ملوك بني مروان إذ جهنوا
والقوم في غفلو بالشام قد رقدوا
من نومو ينهها قبلهم أحد
ونام عنها تولي زعيمها الأسد

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت
ما زلت أسعى عليهم في ديارهم
حتى ضربتهم باليف فانتبهوا
ومن زعاً غمماً في أرضي مسبعة^(٥)

(١) سورة: يوسف، الآية: ٥.

(٢) سورة: النجم، الآية: ١٠.

(٣) سورة: التكوين، الآية: ٢٤.

(٤) سريرتي: ما أخفي.

(٥) مسبعة: تكثر فيها السباع.

وأسرّ رجل إلى صديقه حديثاً، ثم قال له: أفهمت؟ قال: بل جهلت. ثم قال له: أحفظت؟ قال: بل نسيت. وقيل لبعضهم: كيف كتمانك للسر؟ قال أجحد المخبر، وأحلف للمستخبر. وقال المهلب: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلى أخلاقه نسيان ما أسر إليه. ومن أحسن ما قيل في كتمان السر قول الشاعر:

ولها سرائرُ في الضميرِ طويُّتها نسيَ الضميرُ بأنها في طيّهِ
وقد أجازهُ الشيخ شمس الدين البديري^(١) فقال:

إنني كتمت حديثَ ليلي لم أبخ يوماً بظواهرِهِ ولا بخفيهِ
وحفظتُ عهدَ ودادِها متمسكاً في حبِّها برشادِهِ أو غيهِ
ولها سرائرُ في الضميرِ طويُّتها نسيَ الضميرُ بأنها في طيّهِ

وقيل: كتمان الأسرار يدل على جواهر الرجال، وكما أنه لا خير في آية لا تمسك ما فيها، فكذلك لا خير في إنسان لا يمسك سره. قال الشاعر:

ومستودعي سرّاً كمتُ مكانه عن الحسنِ خوفاً أن يُنمَّ به الحسنُ
وخفتُ عليه من هوى النفسِ شهوةً فأودَعْتُهُ من حيثُ لا تبلغُ النفسُ
وقال قيس بن الخطيم:

أجودُ بمكنونِ التلاذِ وإنني سرّي عمن سألني^(٢) لضيّنُ
وإن ضيَّعَ الأقوامُ سرّي فإنني كسومٍ لأسرارِ العشيرِ أمينُ
وقال جعفر بن عثمان:

يا ذا الذي أودَعَنِي سرّاً لا تَزجُ أن تسمَعَهُ مني
لم أجِرِهِ قطُّ على فكرتي كأنَّهُ لم يَجِرِ في أذني

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما أفشيت سرّي إلى أحد قط فأفشاه، فلمته إذ كان صدري به أضيّق. وقال الأحنف بن قيس: يضيّق صدر الرجل سرّه، فإذا حدث به أحداً قال: اكتمه عليّ. قال الشاعر:

إذا المرءُ أفشى سرّه بلسانِهِ ولاَمَ عليه غيرةً فهو أحمقُ
إذا ضاقَ صدرُ المرءِ عن سرِّ نَفْسِهِ فصدرُ الذي يتودّعُ السرُّ أضيّقُ
وقال آخر:

إذا ما ضاقَ صدركَ عن حديثِ وأفشَتُهُ الرجالُ فمَن تلوّمُ
وإن عاتبْتُ مَنْ أفشى حديثي وسرّي عنه فأنا الملوّمُ

وقال صالح بن عبد القدوس: لا تودّع سرّك إلى طالبه، فالطالب للسر مذيع. ولا تودع مالك عند مَنْ يستدعيه،

(١) ورد في نسخ: البدوي.

(٢) سألني: أي سألني مخففة الهمز للضرورة.

فالتألم للودعة خائن. وقيل لأعرابي: ما بلغ من حفظك للسر؟ قال: أفرقه تحت شغاف قلبي ثم أجمعه، وأنساء، كأنني لم أسمع. وكان يقال: أحزم الناس مَنْ لا يفشي سره إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شر فيفشي عليه. وقال حكيم: قلوب الأحرار قبور الأسرار. وقيل: الطمأنينة إلى كل أحد قبل الاختبار حمق. وقال بعضهم:

إذا ما غفرت الذنوب يوماً لصاحب فليست معيلاً ما حييت له ذكرا
ولست إذا ما صاحب خائن عهد وعندي له سرٌّ مذيغاً له سراً
وأين هذا من قول القائل:

ولا تودع الأسرار أذني وإنما تصبّئ ماءً في إناء مثلم
أو القائل:

ولا أكنم الأسرار لكن أذيعها ولا أدع الأسرار تعلقو على قلبي
وإن قبل العقل من بات لبه قلبه الأسرار جنباً إلى جنب
وقال آخر:

وإنك كلما استودعت سرّاً أنم من النسيم على الرياض
وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: فلما كتمنا السر عنهم تقوّلوا
ولله در المتبي حيث قال:

وللسر مني موضع لا ينال نديم ولا يفشي إليه شراب

وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كبيراً، إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

الباب التاسع والثلاثون: في الغدر والخيانة والسرقة والعداوة والبغضاء والحسد

وفيه فصول

الفصل الأول: في الغدر والخيانة

قال رسول الله ﷺ: «أعجل الأشياء عقوبة البغي»^(١) وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المكر والخديعة والخيانة في النار» وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: ثلث من كنَّ فيه كنُّ عليه؛ البغي والنكث والمكر. قال الله تعالى: «إِنَّمَا بِغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ»^(٢) وقال تعالى: «فَمَنْ نَكَثَ فُتِمَا بِنَكَثٍ عَلَيَّ نَفْسِهِ»^(٣) وقال تعالى: «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ»^(٤) وكم أوقع الغدر في المهالك من غادر، وضاعت عليه من موارد الهلكات فسيحات المصادر، وطوقه غدره طوق خزي، فهو على فكة غير قادر، وأوقعه في خطة خسف^(٥) وورطة حتف، فما له من قوة ولا ناصر. ويشهد لصحة هذه الأسباب ما أحاطت به علوم ذوي الأكباب، من قصة ثعلبة بن حاطب الأنصاري. وتلخيص معناها أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبي ﷺ فجاءه يوماً وقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره، خير من كثير لا تطيقه»، ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ﷺ: «يا ثعلبة أما لك في رسول الله أسوة حسنة، والذي نفسي بيده، لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت» ثم أتاه بعد ذلك مرة ثالثة فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق نبياً لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه، وعاهد الله تعالى على ذلك فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارزق ثعلبة ما قال» فاتخذ ثعلبة غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة، ففتح عنها ونزل وادياً من أوديتها، وهي تنمو كما ينمو الدود.

وكان ثعلبة لكثرة ملازمته للمسجد يقال له حمامة المسجد، فلما كثرت الغنم، وتنحى صار يصلي مع رسول الله ﷺ الظهر والعصر، ويصلي بقية الصلوات في غنمه. فكثرت ونمت حتى بعد عن المدينة فصار لا يشهد إلا الجمعة، ثم كثرت ونمت فتباعد أيضاً عن المدينة حتى صار لا يشهد الجمعة ولا جماعة. فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس ويسألهم عن الأخبار فذكره رسول الله ﷺ ذات يوم. فقال: ما فعل ثعلبة؟ قالوا: يا رسول الله اتخذ

(١) البغي: الظلم.

(٢) سورة: يونس، الآية: ٢٣.

(٣) سورة: الفتح، الآية: ١٠.

(٤) سورة: فاطر، الآية: ٤٣.

(٥) خسف: غار في الأرض.

غَنَمًا مَا يَسْعَهَا وَاد. فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح ثعلبة»، فأنزل الله تعالى آية الصدقة فبعث رسول الله ﷺ رجلين، رجل من بني سليم، ورجل من جهينة، وكتب لهما أنصاب الصدقة وكيف يأخذانها. وقال لهما مرا بشعلبة بن حاطب، ويرجل آخر من بني سليم، فخذوا صدقاتهما. فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة، وأقرأه كتاب رسول الله ﷺ فقال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية، انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي. فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أبله فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأياه قالا: ما هذا؟ قال: خذاه فإن نفسي به طيبة. فمرا على الناس، وأخذوا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة. فقال: أروني كتابكما. فقرأه ثم قال: ما هذه إلا جزية، أو ما هذه إلا أخت الجزية. اذها حتى أرى رأيا. قال: فذهبا من عنده، وأقبلا على رسول الله ﷺ فلما رأهما قال قبل أن يتكلما: يا ويح ثعلبة فأنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْنَ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فلما أتاهم من فضله بَخُلُوءًا يَوْمَ تَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿فَاعْقِبْهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ﴿لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سُرَّهُمْ وَيَخْلُوهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(١).

وكان عند رسول الله ﷺ رجل من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتى أتاه فقال: ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فخرج ثعلبة حتى أتى للنبي ﷺ فسأله أن يقبل صدقته، فقال: إن الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقة، فجعل ثعلبة يحثو^(٢) التراب على رأسه ووجهه. فقال رسول الله ﷺ: هذا عملك، قد أمرتك فلم تطعني. فلما أتى رسول الله ﷺ أن يقبل صدقته رجع إلى منزله، وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئا. ثم أتى إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين استخلف فقال: قد علمت منزلي من رسول الله ﷺ وموضعي من الأنصار. فأقبل صدقتي. فقال أبو بكر رضي الله عنه: لم يقبلها رسول الله ﷺ منك فلا أقبلها أنا. فقبض أبو بكر رضي الله تعالى عنه ولم يقبلها. فلما ولي عمر رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، أقبل صدقتي فلم يقبلها منه وقال: لم يقبلها رسول الله ﷺ ولا أبو بكر رضي الله عنه فأننا لا أقبلها. وقبض عمر رضي الله عنه ولم يقبلها. ثم ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه فسأله أن يقبض صدقته فقال له: لم يقبلها رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر، ولا عمر رضي الله عنهما فأننا لا أقبلها. ثم هلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه.

فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره، ووسمهُ بِسَمِّ عَارِ قُضِتْ عَلَيْهِ بِخْرُهُ، وَأَعْقَبَهُ نِفَاقًا يَخْزِيهِ يَوْمَ فِاقَتِهِ وَفَقْرِهِ. فأَي خزي أَرْجَحُ مِنْ تَرْكِ الْوَفَاءِ بِالْمِيثَاقِ، وَأَي سُوءٍ أَقْبَحُ مِنْ غَدْرِ يَسُوقُ إِلَى الشَّقَا، وَأَي عَارٍ أَفْضَحُ مِنْ قَبْضِ الْمَهْدِ إِذَا عَدَّ مَسَاوِيءَ الْأَخْلَاقِ. وكان يقال: لم يَغْدِرْ غَادِرٌ قَطُّ إِلَّا لَصَفَرِ هِمَّتِهِ عَنِ الْوَفَاءِ، وَاتِّضَاعِ^(٣) قَدْرِهِ عَنْ إِحْتِمَالِ الْمَكَارِهِ، فِي جَنْبِ نَيْلِ الْمَكَارِمِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

غَدَرْتُ بِأَمْرِ كُنْتُ أَنْتَ جَذِبْتَنِي إِلَيْهِ وَنَسِيتُ الشِّيمَةَ الْغَدْرُ بِالْمَهْدِ

ولما حلف محمد الأمين للمؤمنين في بيت الله الحرام وهما وليا عهد، طالبه جعفر بن يحيى أن يقول: خذني الله إن خذته. فقال ذلك ثلاث مرات. فقال الفضل بن الربيع: قال لي الأمين في ذلك الوقت عند خروجه من بيت

(١) سورة: التوبة، الآيات: ٧٥-٧٨.

(٢) يحثو: تمعر به.

(٣) اتضاع: وضاعته وسفاله.

الله: يا أبا العباس أجد في نفسي أن امري لا يتم. فقلت له: ولم ذلك أعز الله الأمير؟ قال: لأنني كنت أحلف وأنا أنوي الغدر، وكان كذلك لم يتم أمره.

وورد في أخبار العرب أن الضيزن بن معاوية بن قضاة، كان ملكاً بين دجلة والفرات، وكان له هناك قصر مشيد، يعرف بالجوسق، وبلغ ملكه الشام، فأغار على مدينة سابور ذي الاكتاف، فأخذها وأخذ أخت سابور، وقتل منهم خلقاً كثيراً. ثم إن سابور جمع جيوشاً وسار إلى الضيزن فأقام على الحصن أربع سنين لا يصل منه إلى شيء. ثم إن النصيرة بنت الضيزن عركت أي حاضت. فخرجت من الرض^(١) وكانت من أجمل أهل دهرها، وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حَضْنَ. وكان سابور من أجمل أهل زمانه فرأه ورأته فمشقها وعشقه، وأرسلت إليه تقول: ما تجعل لي إن ذلك على ما تهدم به هذه المدينة وتقتل أبي؟ فقال: أحكمك. فقالت عليك بحمامة مطوقة ورقاء^(٢) فاكب عليها بحوض جارية ثم أطلقها فإنها تقعد على حائط المدينة، فتداعى المدينة كلها. وكان ذلك طلسماً لا يهدمها إلا هو، ففعل ذلك فقالت له: وأنا أسقي الحرس الخمر، فإذا صرعوا فاقتلهم ففعل ذلك. فتداعت المدينة وفتحها سابور عنوة، وقتل الضيزن واحتمل ابنة النصيرة وأعرس بها، فلما دخل بها لم تزل ليلتها تتضرر وتتململ في فراشها وهو من حرير محشو بريش النعام. فالتمس ما كان يؤذيها فإذا هو ورقة آس التصقت بعنكها^(٣)، وأثرت فيها، وقيل: كان ينظر إلى مخ عظمها من صفاء بشرتها. ثم أن سابور بعد ذلك غدر بها وقتلها. وقيل إنه أمر رجلاً فركب فرساً جموحاً، وضفر غداثها بذنبه ثم استركضه فقطعها قطعاً قطعاً الله ما أغدره.

وتقول العرب: جزاني جزاء سنمار، وهو أن ازدجرد بن سابور لما خاف علي ولده بهرام وكان قبله لا يعيش له ولد سأل عن منزل صحيح مريء. فدل على ظهر الجزيرة فدفع ابنه بهرام إلى النعمان، وهو عامله على أرض العرب، وأمره أن يبني له جوسقاً فامتثل أمره، وبني له جوسقاً كأحسن ما يكون. وكان الذي بني الجوسق رجلاً يقال له سنمار، فلما فرغ من بنائه، عجبوا من حسنه. فقال: لو علمت أنكم توفوني أجرته لبنيتي بناء يدور مع الشمس حيث دارت. فقالوا: وإنك لتبني أحسن من هذا ولم تبنيه، ثم أمر به فطرح من أعلى الجوسق فتقطع. فكانت العرب تقول: جزاني جزاء سنمار.

وممن غدر، عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله غدر بعلي رضي الله عنه وقتله. وعمرو بن جرموز غدر بالزبير بن العوام رضي الله عنه وقتله. وأبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة لعنه الله غدر بأمر المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقتله. وجعل المنصور العهد إلى عيسى بن موسى، ثم غدر به وأخره، وقدم المهدي عليه فقال عيسى:

أَيْتَسَى بُنُو الْعَبَّاسِ ذُبِّي ^(٤) عَنْهُمْ	بِسَيْفِي وَنَارِ الْحَرْبِ زَادَ سَعِيرُهَا
فَتَحْتُ لَهُمْ شَرْقَ الْبِلَادِ وَغَرْبَهَا	فَذَلَّ مَعَادِيهَا وَعَزَّ نَصِيرُهَا
أَقْطَعُ أَرْحَاماً عَلَيَّ عَزِيزَةً	وَأَبْدِي مَكِيدَاتٍ لَهَا وَأَثِيرُهَا

(١) الرض: دغلة خارج المدن.

(٢) ورقاء: في لونها يابض إلى سواد.

(٣) بعنكها: بين ثناياها.

(٤) ذبِّي: دفاعي.

فلما وضعت الأمر في مستقره ولاحت له شمس تلالاً نورها
دفعت عن الأمر الذي استجفه وأوسق^(١) أوساقاً من الغدير غيرها

وخرج قوم لصيد، فطردوا ضبعة حتى ألجؤوها إلى خباء أعرابي فأجارها، وجعل يطعمها ويسقيها فينما هو نائم
فأت يوم إذ وثبت عليه فبقرت بطنه وهربت. فجاء ابن عمه يطلبه فوجده ملقى فتبعها حتى قتلها وأنشد يقول:

ومن يصنع المعروف مع غير أهله يلاق كما لاقى مجير^(٢) أم عامر^(٣)
أعد لها لما استجارته بيته أحالب ألبان اللقاح الدرائر
واسمها حتى إذا ما تمكنت فرثه بأنياب لها وأظافر
فقل لذوي المعروف هذا جزاء من يجود بمعروفه على غير شاكر

وحكى بعضهم قال: دخلت البادية فإذا أنا بمعجوز بين يديها شاة مقتولة، وإلى جانبها جرو ذئب. فقالت:
أتدري ما هذا؟ فقلت: لا. قالت: هذا جرو ذئب أخذناه صغيراً وأدخلناه بيتنا ورببناه، فلما كبر فعل بشاتي ما ترى
وأنشدت:

بقرت شويهي وفجعت قومي وأنت لثاتنا إين ريب
غذيت بذرها ونشأت معها فمن أباك أن أباك ذيب
إذا كان الطباغ طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

اللهم أنا نعوذ بك من البغي وأهله، ومن الغادر وفعله، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الفصل الثاني: في السرقة والسراق

قيل: مر عمر بن عبيد بجماعة وقوف فقال: ما هذا؟ قيل: السلطان يقطع سارقاً. فقال لا إله إلا الله. سارق
العلانية يقطع سارق السر. وأمر الاسكندر بصلب سارق، فقال: أيها الملك إني فعلت ما فعلت وأنا كاره. فقال:
وتصلب أيضاً وأنت كاره. وسرق مدني قميصاً فأعطاه لابنه يبيعه فسرق منه، فجاء له فقال: بكم بعته فقال: برأس
المال. وقال أكلت السلمي وكان لصاً فاتكأ:

وانسي لأستحيي من الله أن أرى أجرجر جلي ليس فيه بعير
وأن أسأل المرء الدنيء بعيرة وأجمال رأي في البلاد كبير

قال الفرزدق:

وإن أبا الكرشاء ليس بسارق ولكن متى ما يسرق القوم يأكل

وكان لعمر بن دويرة البجلي أخ قد كلف بيت عم له، فتصور عليها الدار ذات ليلة فأخذة إختونها وأتوا به

(١) أوسق: أحمل جموعاً.

(٢) مجير أم عامر: من كنى الضيف.

خالد بن عبد الله القسري وجعلوه سارقاً، فسأله خالد فصدقهم ليدفع الفضيحة عن الجارية. فهم خالد بقطعه فقال عمر وأخوه:

أخالدُ قد والله أوطئتَ عشوةً وما العاشقُ المظلومُ فينا بسارقُ
أقرُّ بما لم يأتِهِ المرءُ أنه رأى القطعَ خيراً من فضيحةِ عاشقِ
فعفا عنه خالد، وزوجه الجارية.

الفصل الثالث: في العداوة والبغضاء

قد ذكر الله عز وجل العداوة والبغضاء في كتابه العزيز فقال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(٢).. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿إِنْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾^(٤) وقال رسول الله ﷺ: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك». وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: العداوة تتوارث. وقال زياد بن عبد الله.

فلو أني بليتُ بهاشمي خؤولته بنو عبد المدان
صبرتُ على عداوتِهِ ولكن تعالوا فانظُّروا بمنِ ابتلاتني
أريتُ رجل في وجه أبي عبيدة مكروهاً فأنشأ يقول:

فلو أن لحمي إذ همي^(٥) لعبت به سباعٌ كرام أو ضباعٌ وأذؤب
لهوّن وجليي، أو لئس مصيني ولكنما أودى بلحمي أكلبُ

وقيل لكسرى: أي الناس أحب إليك أن يكون عاقلاً. قال: عدوي. قيل وكيف ذلك. قال لأنه إذا كان عاقلاً كنت منه في عافية وأمن. وقيل: كونوا من المرء الدغل أخوف من الكاشح المعلن، فإن مداواة أهل العلل الظاهرة، أهون من مداواة ما خفي ويطن. وقالوا: إياك أن تعادي من إذا شاء طرح ثيابه، ودخل مع الملك في لحافه. وقال أبو العتاهية:

تبع عن الفصح ولا تُرِدهُ ومن أوليته حناً فزِدهُ
ستلقى من عدوك كل كيدهُ إذا كاذ العدو ولم تَكِندهُ

وكانت جليلة بنت مرة أخت جساس تحت كليب، فقتل أخوها زوجها وهي حبلى بهجرس بن كليب. فلما كبر وشب قال:

(١) سورة: المائدة، الآية: ١٤.

(٢) سورة: يوسف، الآية: ٥.

(٣) سورة: فاطر، الآية: ٦.

(٤) سورة: التغابن، الآية: ١٤.

(٥) وهي: اتحل وضغف.

أصابَ أبي خالي وما أنا بالذي
وأورثَ جئاسُ بنَ مرةٍ غصّةً
ثم قال بعد ذلك:

يا للرجالِ لِقَلْبٍ ما له جلدُ
ثم حمل على خاله فقتله وقال:

ألم تَرَنّي نازتُ أبي كليباً
غسلتُ العارَ عن جسمِ ابنِ بكرٍ
وقد قيل:

سُرَّ العداوةَ أباءُ لنا سلفوا
ويقال: دَارَ عدوك لأحد أمرين، إما لصداقة تؤمنك، أو لفرصة تمكّتك. وكتب سويد إلى مصعب:

فلن تبيدَ وللاباءِ أبناءُ
فبلغ مصعباً عني رسولي
تعلّم أنّ أكثرَ من تناجي

ويقال: فلان كثير المراق من المذاق^(١). وقال الحجاج لخارجي: والله إني لأبغضك. قال: أدخل الله الجنة لشدنا بغضاً لصاحبه. ولما أراد أنو شروان أن يقتل ابنه هرمز ولاية العهد استشار عظماء مملكته فأنكروا عليه. وقال بعضهم: إن أمه تركية وقد علمت في أخلاقهم ما علمت. فقال: إن الأبناء ينسبون إلى الآباء، لا إلى الأمهات. وكانت أم قباز تركية وقد رأيت من حسن سيرته ما رأيتم. فقيل: هو قصير وذلك يذهب بيهاء الملك. فقال: إن قصره من رجله، ولا يكاد يرى إلا جالساً أو راكباً، فلا يستين ذلك فيه. فقيل: هو يبغيض في الناس. فقال: أواه هلك ابني هرمز. فقد قيل: إذا كان في الإنسان خير واحد، ولم يكن ذلك الخير المحبة في الناس، فلا خير فيه، وإذا كان فيه عيب واحد، ولم يكن ذلك العيب البغض في الناس فلا عيب فيه.

ولستُ براه عيبَ ذي الودِّ كلّه
فعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليله
وفي المعنى قيل:

وعينُ البغض تبرز كلَّ عيبٍ
وعينُ الحبِّ لا تجدُ العيوباً

وعن أبي حيان قال: قال لقمان: نقلت الصخور، وحملت الحديد، فلم أر شيئاً أثقل من الدّين. وأكلت الطيات وعانقت الحسان، فلم أر شيئاً ألدّ من العافية، وأنا أقول: لو نزعوا البحار وكنسوا القفار لوجدوها أهون من شماتة الأعداء، خصوصاً إذا كانوا مساهمين في نسب، أو مجاورين في بلد. اللهم إنا نعوذ بك من تتابع الإثم، وسوء الفهم،

(١) ذي البول: المراء.

(٢) من المذاق: قلة الإخلاص.

وشماتة ابن العم، وقيل لأيوب عليه السلام: أي شيء كان عليك في بلائك أشد؟ قال: شماتة الأعداء، وأنشد الجاحظ:

تَقُولُ العاذِلَاتُ تَسَلُّ عَنْهَا وَدَاوِ عَلِيلَ قَلْبِكَ بِالسَّلَوِ
وَكَيْفَ، وَنَظْرَةً مِنْهَا اخْتِلَاساً أَلَدُّ مِنَ الشَّمَاتَةِ بِالْعَدُوِّ

وقال ابن أبي جهينة المهلي:

كُلُّ المَصَائِبِ قَدْ تَمَرُّ عَلَى الْفَتَى فَتَهْوُونَ غَيْرَ شِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ

قال الجاحظ: ما رأيْتُ سناناً أنْفَذَ من شماتة الأعداء. وقيل لما قبض رسول الله ﷺ وسمع بموته نساء من كتدة وحضرموت، فخصبن أيديهن وضربن بالدفوف، فقال رجل منهم:

أَبْلَغُ أبا بَكْرٍ إِذَا مَا جَتَّهْ إِنَّ الْبَغَايَا مِنْ بَنِي مَرَامٍ
أَظْهَرَنَ فِي مَوْتِ النَّبِيِّ شِمَاتَةً وَخَضِبْنَ أَيْدِيَهُنَّ بِالْمُلَامِ^(١)
فَاقْطَعْ مُدِيَّتْ أَكْثَرُنَّ بِصَارِمٍ كَالْبَرْقِ أَوْمَضَ فِي مَتُونِ غَمَامٍ

فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المهاجر عامله فأخذهن وقطع أيديهن. ويقال: فلان يترص بك الدوائر ويتمنى لك الغوائل، ولا يؤمل صلاحاً إلا في فسادك، ولا رفعة إلا في سقوط حالك. وقال حكيم: لا تأمن من عدوك وإن كان ضعيفاً، فإن القناة، قد تقتل، وإن علمت السنان. قال الشاعر:

فَلَا تَأْمَنِ عَدُوَّكَ لَوْ تَرَاهُ أَتَلَّ إِذَا نَظَرْتَ مِنَ الْقَرَادِ^(٢)
فَإِنَّ الْحَرْبَ يَشَأُ مِنْ جِبَانٍ وَإِنَّ النَّارَ تَضْرِمُ مِنْ رِمَادٍ

بيت مفرد:

فَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِسْياً فَإِنَّهُ يَشُدُّ عَلَى كَفِّ الْمَسِيءِ فَيَجْلِبُ
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهَبٍ:

كَفَايَةُ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ تَوْقِينَا وَعَادَةُ اللَّهِ الْمَاخِيْنَ تَكْفِينَا
كَادَ الْأَعَادِي فَلَا وَاللَّهِ مَا تَرْكُوا قَوْلًا وَفِعْلًا وَتَلْقِينًا وَتَهْجِينَا
وَلَمْ نَزِدْ نَحْنُ فِي سِرٍّ وَفِي عَلَنٍ عَلَى مَقَالَتَا يَا رِيثًا أَكْفِينَا
فَكَانَ ذَلِكَ رَدَّ اللَّهِ حَاسِنَنَا بَغِيْظِهِ لَمْ يَنْلُ تَقْلِيدِهِ فِينَا

الفصل الرابع: في الحسد

قال الله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣) وقال رسول الله ﷺ: «استعينوا على قضاء

(١) بالْمُلَامِ: نبات أحمر يختضب به.

(٢) القراد: حشرة صغيرة من أضراب القمل.

(٣) سورة: النساء، الآية: ٥٤.

حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود». وقال علي رضي الله عنه: الحاسد مغتاذ على من لا ذنب له. وقيل الحسود غضبان على القدر، ويقال ثلاثة لا يهنا لصاحبها عيش الحقد والحسد وسوء الخلق. . . وقيل: بش الشعار الحسد. وقيل لبعضهم: ما بال فلان يفضك. قال: لأنه شقيقي في النسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصناعة، فذكر جميع دواعي الحسد. وقال إعرابي: الحسد داء منصف يفعل في الحاسد أكثر من فعله في المحسود، وهو مأخوذ من الحديث: قاتل الله الحسد ما أعدَّله، بدأ بصاحبه فقتله، وقال الفقيه أبو الليث السمرقندي رحمه الله تعالى: يصل إلى الحاسد خمس عقوبات قبل أن يصل حسده إلى المحسود. أولاهما غم لا ينقطع، الثانية مصيبة لا يؤجر عليها، الثالثة مذمة لا يحمد عليها، الرابعة سخط الرب، الخامسة يغلق عنه باب التوفيق.

ومن ذلك، ما حكى أن رجلاً من العرب دخل على المعتصم فقرَّبه وأذناه وجعله نديمه، وصار يدخل على حريمه من غير استئذان. وكان له وزير حاسد فغار من البدوي وحسده وقال في نفسه. إن لم أحتمل على هذا البدوي في قتله، أخذ بقلب أمير المؤمنين وأبعدني عنه. فصار يتلطف بالبدوي، حتى أتى به إلى منزله، فطبخ له طعاماً، وأكثر من الثوم، فلما أكل البدوي منه فقال له: احذر أن تقترب من أمير المؤمنين، فيشم منك رائحة الثوم فيتأذى من ذلك، فإنه يكره رائحته. ثم ذهب الوزير إلى أمير المؤمنين فحلا به وقال: يا أمير المؤمنين إن البدوي يقول عنك للناس: إن أمير المؤمنين أبخر وهلك من رائحة فمه. فلما دخل البدوي على أمير المؤمنين جعل كفه على فمه مخافة أن يشم منه رائحة الثوم. فلما رآه أمير المؤمنين وهو يستر فمه بكفه قال: إن الذي قاله الوزير عن هذا البدوي صحيح، فكتب أمير المؤمنين كتاباً إلى بعض عماله يقول له فيه: إذا وصل إليك كتابي هذا فاضرب رقبة حامله ثم دعا بالبدوي ودفع إليه الكتاب وقال له امض به إلى فلان، واتني بالجواب، فامثل البدوي ما رسم به أمير المؤمنين، وأخذ الكتاب وخرج به من عنده. فبينما هو بالباب إذ لقيه الوزير، فقال: أين تريد؟ قال: أتوجه بكتاب أمير المؤمنين إلى عامله فلان. فقال الوزير في نفسه. إن هذا البدوي يحصل له من هذا التقليد مال جزيل. فقال له: يا بدوي ما تقول فيمن يريحك من هذا التعب الذي يلحقك في سفرك ويعطيك ألفي دينار. فقال: أنت الكبير، وأنت الحاكم، ومهما رأيته من الرأي افعل. قال: أعطني الكتاب فدفعه إليه، فأعطاه الوزير ألفي دينار وسار بالكتاب إلى المكان الذي هو قاصد. فلما قرأ العامل الكتاب أمر بضرب رقبة الوزير. فبعد أيام تذكر الخليفة في أمر البدوي. وسأل عن الوزير فأخبر بأن له أياماً ما ظهر، وأن البدوي بالمدينة مقيم، فتعجب من ذلك وأمر بإحضار البدوي فحضر. فسأله عن حاله فأخبره بالقصة التي اتفقت له مع الوزير من أولها إلى آخرها. فقال له: أنت قلت عني للناس إنني أبخر. فقال: معاذ الله يا أمير المؤمنين أن أتحدث بما ليس لي به علم، وإنما كان ذلك مكرأ منه وحسداً، واعلمه كيف دخل به إلى بيته وأطعمه الثوم، وما جرى له منه. فقال: يا أمير المؤمنين قاتل الله الحسد ما أعدَّله، بدأ بصاحبه فقتله. ثم خلع على البدوي واتخذ وزيراً، وراح الوزير بحسده، وقال المغيرة شاعر آل المهلب:

أَلْ مَهْلَبٍ قَوْمٌ إِنْ مَدَّخَتْهُمْ كَانُوا الْأَكَاوِمَ أَبَاءَ وَأَجْدَادَا
إِنْ الْعَرَانِينَ^(١) تَلَقَّاهَا مُحَدَّة وَلَا نَرَى لِلنَّاسِ حَسَادَا

وقال عمر رضي الله عنه: يكفيك من الحاسد أنه يغم وقت سرورك. وقال مالك بن دينار: شهادة القراء مقبولة

في كل شيء، إلا شهادة بعضهم على بعض، فإنهم أشدُّ تحاسداً من التيوس. وعن أنس رضي الله عنه رفعه «إن الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب» وقال منصور الفقيه:

منافسةُ الفتى فيما يزولُ على نقصانِ هَيْئَتِهِ دليلاً
ومختارُ القليلِ أقلُّ منه وكلُّ فوائِدِ الدنيا قليلُ

يقول الله عز وجل: الحاسد عدوٌ نعمتي، متسخط لفعلتي، غير راض بقسمتي، التي قسمت لعبادي. قال الشاعر:

أيا حاسداً لي على نعمتي أتدري على مَنْ أسأتِ الأدب؟
أسأتِ على الله في حكمِهِ لأنَّكَ لَمْ تَرْضَ لي ما وَفَبَ
فأخزأك^(١) ربي بأن زادني وسدَّ عليك وجوةَ الطلبِ

وقال الأصمعي: رأيت أعرابياً بلغ عمره مائة وعشرين سنة، فقلت له: ما أطول عمرك. فقال: تركت الحسد فبقيت. وقالوا: لا يخلوا السيد من ودود يمدح وحسود يقده. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ألا لا تعادوا نعم الله، قيل: ومن يعادي نعم الله؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم من فضله، وقيل لعبد الله بن عروة: لِمَ لَزِمْتَ البدو وتركت قومك؟ فقال: وهل بقي إلا حاسد على نعمة، أو شامت على نكبة؟ وقال الشاعر:

يا طالبَ العيشِ في أمني وفي دعوة^(٢) رغباً بلا قترِ صفواً بلا رنق^(٣)
خلصَ فؤادك من غلٍّ ومن حسدٍ فالغلُّ في القلبِ مثلُ الغلِّ في العنق^(٤)

وقال آخر:

إصبرْ على حسي حَسِدِ الحسدِ سودِ فإن صبرَكَ قاتلةُ
كالنارِ تأكلُ بعضها إن لم تجد ما تأكلُهُ

وفي نوابغ الحكم: الحسد حسك، مَنْ تعلق به هلك. ولبعضهم:

إنني حُسدْتُ فزاد الله في حسدي لا عاشَ مَنْ عاشَ يوماً غير محسودِ
وقال نصر بن سيار:

إنني نشأتُ وحسادي ذوو أعدِدِ يا ذا المعارجِ لا تنقص لهم عدداً
أن يحسدوني على ما بي لَمَّا بهم فمثلُ ما بي مما يجلبُ الحسداً

وكان عمر رضي الله عنه يقول: نعوذ بالله من كل قنر وافق إرادة حاسد. وقيل لأرسطاطاليس: ما بال الحسود أشد غمّاً؟ قال: لأنه أخذ بنصيبه من غموم الدنيا، ويضاف إلى ذلك غمه لسرور الناس. والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أخزأك: أذلّك وأهانك.

(٢) دعوة: خفض عيش.

(٣) رنق: كدر.

(٤) العنق: الغل الأولى الحقد، والثانية القيد.

الباب الأربعون: في الشجاعة وثمرتها والحروب وتديرها وفضل الجهاد وشدة اليأس والتحريض على القتال وفيه فصلان

الفصل الأول: في فضل الجهاد في سبيل الله، وشدة اليأس

قد أنشئ الله تعالى على الصابر في البأساء والضراء وحين اليأس، ووصف المجاهدين فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَّانَ مَرْضُوعَيْنِ﴾^(١) ونذب إلى جهاد الأعداء ووعد عليه أفضل الجزاء، والرأي في الحرب أمام الشجاعة. قال رسول الله ﷺ: «الحرب خدعة». وقال ﷺ: «ما من فطرة أحب إلى الله من فطرة دم في سبيله، أو فطرة دمع في جوف ليل من خشية». وسمع رجل عبد الله بن قيس رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إن الجنة تحت ظلال السيوف». فقال يا أبا موسى: أنت سمعت رسول الله ﷺ يقوله؟ قال: نعم. فرجع إلى أصحابه فقال: اقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن^(٢) سيفه فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل. وكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد: اعلم أن عليك عيوناً من الله ترعاك وتراك، فإذا لقيت العدو فاحرص على الموت توهب لك السلامة، ولا تغفل الشهداء من دمائهم، فإن دم الشهيد يكون له نوراً يوم القيامة. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حين انتهينا إلى خير، الله أكبر، خربت خير، إننا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين». وعنه رفعه: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها». وعن ابن مسعود رفعه: «إن أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل». وقيل إن أنس بن النضر، عم أنس بن مالك رضي الله عنه، لم يشهد بدرأ فلم يزل متحسراً يقول: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غيبته عنه، فلما كان يوم أحد قال: واهأ لريح الجنة دون أحد فقاتل حتى قتل فوجد في بدنه بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية. فقالت أخته الربيع بنت النضر: فما عرفت أخي إلا ببنائه. وعن فضالة بن عبيد رفعه: «كل ميت يختم على عمله إلا المرباط فإنه ينمي له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتنة القبر» وعن سهل بن حنيف رفعه: «من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه». فسنأل الله أن يرزقنا الشهادة ويجعلنا من الذين أحسنوا، فلهم الحسنى وزيادة.

(١) سورة: الصف، الآية: ٤.

(٢) وعاءه أي: غمدته.

الفصل الثاني: في الشجاعة وثمرتها والحروب وتبديرها

اعلم أن الشجاعة عماد الفضائل، ومن فقدتها لم تكمل فيه فضيلة يعبر عنها بالصبر وقوة النفس. قال الحكماء: وأصل الخير كله في ثبات القلب، والشجاعة عند اللقاء على ثلاثة أوجه: الوجه الأول: إذا التقى الجمعان، وتزاحف المسكران وتكالحت الأحداق بالأحداق، برز من الصف إلى وسط المعترك يحمل ويكرّ وينادي هل من مبارز؟ والثاني: إذا نشب القوم واختلطوا، ولم يدر أحد منهم من أين يأتيه الموت، يكون رابط الجأش، ساكن القلب حاضر اللب، لم يخالطه الدهش، ولا تأخذه الحيرة، فيقلب قلب المالك لأموره، القائم على نفسه؛ والثالث: إذا انهزم أصحابه يلزم الساقة^(١)، ويضرب في وجوه القوم ويحول بينهم وبين عدوهم، ويقوي قلوب أصحابه، ويرجي الضعيف، ويمدهم بالكلام الجميل، ويشجع نفوسهم، فمن وقع أقامه، ومن وقف حمّله، ومن كبا به فرسه حماه حتى يأس العدو منهم. وهذا أحمدهم شجاعة. وعن هذا قالوا: إن المقاتل من وراء الفارين كالمستغفر من وراء الغافلين، ومن أكرم الكرم الدفاع عن الحرم.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه في كتابه سراج الملوك، قال: كان شيوخ الجند يحكون لنا في بلادنا قالوا: دارت حرب بين المسلمين والكفار ثم افرقوا فوجدوا في المعترك قطعة خوزة^(٢) قدر الثلث بما حوته الرأس، فقالوا: إنه لم ير قط ضربة أقوى منها، ولم يسمع بمثلا في جاهلية، ولا إسلام. فحملتها الروم وعلقتها في كنيسة لهم، فكانوا إذا عيروا بانهازمهم يقولون: لقينا أنوماً هذا ضربهم فيرحل أبطال الروم إليها ليروها. قالوا: من الحزم أن لا يحترق الرجل عدوه وإن كان ذليلاً، ولا يغفل عنه وإن كان حقيراً فكم برغوث أسهر فيلاً، ومنع الرقاد ملكاً جليلاً قال الشاعر:

فلا تحقرنْ عدوّاً رماك وإن كانَ في ساعدَيْهِ قصْرُ
فإن السيوفَ تحزُّ الرقابَ وتمجُرُ عما تنالُ الإبرُ

واعلموا أن الناس قد وضعوا في تبدير الحروب كتباً، ورتبوا فيها ترتيباً، منها أشياء تبدأ منها أولاً بما ذكره الله تعالى في القرآن العظيم قال الله تعالى: ﴿وَأَعِزُّوْا لَهُمْ مَا اسْتَظَنُّمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِئُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾^(٣) فقله تعالى: ﴿مَا اسْتَظَنُّكُمْ﴾ مشتملاً على كل ما هو في مقدور البشر من العدة والآلة والحيلة. وفسر النبي ﷺ القوة حين مرّ على أناس يرمون فقال: «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، وأفضل العدة أن تقدم بين يدي اللقاء عملاً صالحاً من صدقة وصيام، ورد المظالم، وصلة الرحم، ودعاء مخلص، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر وأمثال ذلك.

والشأن كل الشأن في استجادة القواد وانتخاب الأمراء وأصحاب الأكوية؛ فقد قالت حكماء العجم: أسد يقود ألف ثعلب، خير من ثعلب يقود ألف أسد. فلا ينبغي أن يقدم الجيش إلا الرجل ذو البسالة، والنجلة والشجاعة،

(١) الساقة: مؤخرة الجيش.

(٢) خوزة: غطاء الرأس للمحارب.

(٣) سورة: الأنفال، الآية: ٦٠.

والجرأة، ثابت الجأش، صامم القلب، صادق البأس، ممن توسط الحروب، ومارس الرجال ومارسوه، ونازل الأقران. وقارع الأبطال، عارفاً بمواضع الفرص، خبيراً بمواقع القلب، والميمنة، والميسرة، من الحروب، فإنه إذا كان كذلك، وصدر الكل عن رأيه كانوا جميعاً كأنهم مثله، فإنه إن رأى لقراع الكتائب وجهاً، وإلا رَدَ الغنم إلى الزرية.

واعلم أن الحرب خدعة عند جميع العقلاء. وكان عظماء الترك يقولون ينبغي للعاقل العظيم القيادة أن يكون فيه عدة أخلاق: من البهائم شجاعة الديك، وبحث الدجاجة، وقلب الأسد، وحيلة الخنزير، وروغان الثعلب، وصبر الكلب على الجراح، وحراسة الكركي، وغارة الذئب، وسمن نغير، وهي دوية تكون بخراسان تسمن على التعب والشقاء، وكان يقال أشد خلق الله تعالى عشرة: الجبال والحديد ينحت الجبال، والنار تأكل الحديد والماء يطفئ النار، والسحاب يحمل الماء، والريح تصرف السحاب، والإنسان يتقي الريح بجناحيه، والسكر يصرع الإنسان والنوم يذهب السكر، والله يمنع النوم، فأشد خلق ربك هم، اللهم إنا نعوذ بك من الهم والحزن.

ومن الحيل في الحرب أن يث جواسيسه في عسكر عدوه ليستعلم أخبارهم، ويستميل قلوب رؤسائهم وذوي الشجاعة منهم، فيدس إليهم ويعددهم وعداً جميلاً ويقوي أطماعهم في نيل ما عنده من الهبات الفخيمة، والولايات السنية، وإن رأى وجهاً عاجلهم بالهدايا، وسامهم^(١) إما الغدر بصاحبهم، وإما الاعتزال وقت اللقاء، ويكتب على السهام أخباراً مزورة، يرمي بها في جيوشهم.

واعلم أن الحيلة لا ترد القضاء والقدر، وأن الدول إذ زالت صارت حيلتها^(٢) وبالأعلى عليها، وإذا أذن الله تعالى في حلول البلاء كانت الآفة في الحيلة. وقال الحكماء: إذا نزل القضاء كان العطب في الحيلة، ويغلب الضعيف بإقبال دولته، كما يغلب القوي ببقاء مدته، فمن الحزم المألوف عند سواس الحروب، أن تكون حماة الرجال، وكماه الأبطال في القلب، فإنه انكسر الجناحان كانت العيون ناظرة إلى القلب، فإذا كانت رايته تخفق، وطبولة تضرب، كان حصناً للجناحين، يأوي إليه كل منهزم، وإذا انكسر القلب تمزق الجناحان، مثال ذلك أن الطائر إذا انكسر أحد جناحيه ترجى عودته ولو بعد حين. وإذا انكسر الرأس ذهب الجناحان، وقلَّ عسكرُ انكسر قلبه فأفلح، أو تراجع. اللهم إلا أن تكون مكيدة من صاحب الجيش، فيخلي القلب قصداً أو تعمداً حتى إذ توسطه العدو، واشتغل بنهبه انطبق عليه الجناحان، فقد فعل ذلك رجال من أهل الحروب. ويقال: حُب إلى عدوك القرار، بأن لا تتبعهم إذا انهزموا. ويقال الشجاع محب حتى إلى عدوه، والجبان مبغض حتى إلى أمه. ولما أقبل كسرى بن هرمز إلى محاربة بهرام قال له صاحبه: أما تستعد؟ قال: عدتي ثياب قلبي، وإصابة رأيي، ونصل سيفي، ونصرة خالقي، وخرج يزيد بن عبد الملك من بعض مقاصيره وعليه درع، وذلك في أيام قتال يزيد بن المهلب فأنشده مسلمة قول الحطيئة:

قومٌ إذا حاربُوا شَدُّوا مآزرهم دونَ النساءِ ولو بآثِ بأطهار^(٣)

فقال يزيد: إنما ذاك إذا حاربنا أكفأنا، وأما مثل هذا ونظرائه فلا، فقام إليه مسلمة فقبله بين عينيه. وقيل لما

(١) وسامهم: أذاقهموه.

(٢) وبالأعلى: وخيماً.

(٣) معنى البيت أنهم يعتزلونهم.

مات ملك الفرس أرادوا أن يملكوا عليهم رجلاً من آل ساسان، فوفد عليهم بهرام جور فقال: اعمدوا إلى أسدين جائعين فأطرحوا بينهما التاج فمن أخذه فهو الملك ففعلوا، فدنا منهما فأهويا نحوه، فأخذ برأس أحدهما فأدناه من رأس الآخر ثم نطحه به فقتلها جميعاً، وشد على التاج فأخذه ووضعه على رأسه وملكته الفرس عليهم.

وقيل: لم يكن في المعجم أرمي من الملك بهرام، خرج يتصيد يوماً وهو مردف حظية له كان يعشقها، فعرضت له ظباء. فقال: في أي موضع تريدان أن أضع هذا السهم. فقالت: أريد أن تشبه ذكرائها بالإناث، وأنائها بالذكرا، فرمى ظبياً ذكراً بنشابة ذات شعبتين فاقتلع قرنيه، ورمى ظبية بنشابتين أثبتهما في موضع القرنين. ثم سأله أن يجمع بين ظلف الظبي وأذنه بنشابة، فرمى أصل الأذن ببندقية ثم أهوى الظبي برجله إلى أذنه ليحتك فرماه بنشابة فوصل أذنه بظلفه. ويقال إن من أعظم المكاييد في الحرب الكمين، وذلك أن الفارس لا يزال على حمية في الدفاع، وحمل الدمار، حتى يلتصق فيرى وراءه بندا منشوراً، ويسمع صوت الطبل فيحتلّ يكون همه خلاص نفسه، وعليك بانتخاب الفرسان، واختيار الأبطال، ولا تنس قول الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أئمر عني

بل قد جرب ذلك فوجد الواحد خيراً من عشرة آلاف. وسأحكى لك من ذلك ما ترى فيه العجب. فمن ذلك: لما التقى المستعين بن هود مع الطاغية ابن روميل النصراني على مدينة وشقة من ثغور بلاد الأندلس، وكان المسكران كالمكافئين كل واحد منهما يقارب عشرين ألف مقاتل، خيل ورجل. فحدث من حضر الواقعة من الأجناد قال: لما دنا اللقاء، قال الطاغية ابن روميل لمن يتق بعقله وممارسته للحروب من رجاله: استعلم لي من في عسكر المسلمين من الشجعان الذين نعرفهم كما يعرفوننا، ومن غاب منهم، ومن حضر. فذهب ثم رجع فقال: فيهم فلان وفلان فعذ سبعة رجال. فقال له: انظر في عسكري من الرجال المعروفين بالشجاعة، ومن غاب منهم. فعذهم فوجدهم ثمانية رجال لا يزيدون. فقام الطاغية ضاحكاً مسروراً، وهو يقول: ما أبيضك من يوم. ثم ثارت الحرب بينهم فلم تزل المضاربة بين الفريقين، ولم يول أحد دبره^(١)، ولا ترحزح عن مقامه حتى فني أكثر العسكريين، ولم يفر واحد منهم. قال: فلما كان وقت العصر نظروا إلينا ساعة ثم حملوا علينا جملة، وداخلونا مداخلة، ففرقوا بيننا وصرنا شطرين، وحالوا بيننا وبين أصحابنا. فكان ذلك سبب وهتنا وضعفنا، ولم تقم الحرب إلا ساعة ونحن في خسارة معهم. فأشار مقدم العسكر على السلطان أن ينجو بنفسه. وانكسر عسكر المسلمين، وتفرق جمعهم، وملك العدو من مدينة وشقة فليعتبر ذو الحزم والبصيرة، من جمع يحتوي على أربعين ألف مقاتل، ولم يحضره من الشجعان المعدودين إلا خمسة عشر نفرأ، وليعتبر بضمان العلاج^(٢) بالظفر، واستبشاره بالغميمة لما زاد في أبطاله رجل واحد.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمة الله تعالى عليه. قال: سمعت أستاذنا القاضي أبا الوليد يحيى، قال: بينما المنصور بن عامر في بعض غزواته إذا وقف على نشر^(٣) من الأرض مرتفع فرأى جيوش المسلمين من بين يديه،

(١) دبره: أي ظهره (أي لم ينهزم).

(٢) العلاج بالظفر: الأجنبي الغليظ.

(٣) نشر: مرتفع.

ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله. قد ملؤوا السهل والجبل، فالتفت إلى مقدم العسكر وهو رجل يعرف بابن المضجمي فقال له: كيف ترى هذا العسكر أيها الوزير؟ قال: أرى جمعاً كثيراً، وجيشاً واسعاً كبيراً. فقال له المنصور: وما ترى هل يكون في هذا الجيش ألف مقاتل من أهل الشجاعة والنجدة والبسالة؟ فسكت ابن المضجمي. فقال له المنصور: ما سكوتك؟ أليس في هذا الجيش ألف مقاتل؟ قال: لا. فتعجب المنصور، ثم قال: فهل فيهم خمسمائة مقاتل من الأبطال المعدودين؟ قال: لا. فحتق^(١) المنصور، ثم قال: أفيهم مائة رجل من الأبطال؟ قال: لا. قال: فيهم خمسون رجلاً من الأبطال؟ قال: لا. قال: فسبه المنصور وأغلظ عليه وأمر به فأخرج على أسوأ حال، فلما توسطوا بلاد الروم واجتمعت الروم وتصاف الجمعان، فبرز عالج من الروم بين الصفين شاكي السلاح وجعل يكر ويفر ويقول: هل من مبارز؟ فبرز إليه رجل من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله العالج، ففرح المشركون وصاحوا واضطرب المسلمون لها. ثم جعل العالج يموج بين الصفين وينادي: هل من مبارز اثنين لواحد؟ فبرز إليه رجل من المسلمين، فتجاولا ساعة فقتله العالج وجعل يكر ويحمل وينادي ويقول: هل من مبارز ثلاثة لواحد؟ فبرز إليه رجل من المسلمين فقتله العالج. فصاح المشركون وذلل المسلمون وكادت أن تكون كسرة. فقيل للمنصور: ما لها إلا ابن المضجمي، فبعث إليه فحضر. فقال له المنصور: ألا ترى ما صنع هذا العالج الكلب منذ اليوم؟ فقال: لقد رأيته فما الذي تريد؟ قال: أن تكفي المسلمين شره. قال: الآن يكفي المسلمون شره إن شاء الله تعالى. ثم قصد إلى رجال يعرفهم، فاستقبله رجل من أهل الثغور على فرس قد تهت أوراكاها هزلاً، وهو حامل قرية ماء بين يديه على الفرس، والرجل في حليته ونفسه غير متصنع. فقال له ابن المضجمي: ألا ترى ما يصنع هذا العالج منذ اليوم، قال: قد رأيته فما الذي تريد؟ قال: أريد أن تكفي المسلمين شره. قال حياً وكرامة. ثم إنه وضع القرية بالأرض وبرز إليه غير مكترث به فتجاولا ساعة، فلم ير الناس إلا المسلم خارجاً إليهم يركض، ولا يدرون ما هناك وإذا برأس العالج يلعب بها في يده ثم ألقى الرأس بين يدي المنصور. فقال له ابن المضجمي: عن هؤلاء الرجال أخبرتكم. قال: فرد ابن المضجمي إلى منزله وأكرمه ونصر الله جيوش المسلمين وعساكر الموحدين.

حكى أنه كان للعرب فارس يقال له ابن فتحون، وكان أشجع العرب والمعم في زمانه. وكان المستعين يكرمه ويعظمه ويجري له في كل عطية خمسمائة دينار. وكانت جيوش الكفار تهابه وتعرف منه الشجاعة، وتخشى لقاءه. فيحكى أن الرومي كان إذا سقى فرسه ولم يشرب يقول له: ويلك لم لا تشرب؟ هل رأيت ابن فتحون في الماء؟ فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلة من السلطان. فوشوا به عند المستعين فأبعده ومنعه من عطائه. ثم إن المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم فتقابل المسلمون والمشركون صفوفاً، ثم برز عالج إلى وسط الميدان، ونادى وقال: هل من مبارز؟ فبرز إليه فارس من المسلمين فتجاولا ساعة فقتله الرومي. فصاح المشركون سروراً وانكسرت نفوس المسلمين. وجعل الكلب الرومي يجول بين الصفين وينادي: هل من اثنين لواحد؟ فخرج إليه فارس من المسلمين فقتله الرومي. فصالح الكفار سروراً، وانكسرت نفوس المسلمين. وجعل الكلب يجول بين الصفين وينادي ويقول: ثلاثة لواحد فلم يجترأ أحد من المسلمين أن يخرج إليه، وبقي الناس في حيرة. فقيل للسلطان: ما لها إلا أبو الوليد بن فتحون فدعاه وتلف به، وقال له: يا أبا الوليد أما ترى ما يصنع هذا العالج؟ فقال: ها هو بعيني، قال: فما

الحيلة فيه؟ قال: الساعة أكفي المسلمين شره، فلبس قميص كان واستوى على سرج فرسه بلا سلاح وأخذ بيده سوطاً طويلاً، وفي طرفه عقدة معقودة، ثم برز إليه فتعجب منه النصراني، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه فلم تخط طعنة النصراني سرج ابن فتحون. وإذا ابن فتحون متعلق برقبة الفرس، ونزل إلى الأرض لا شيء منه في السرج، ثم انقلب في سرجه وحمل على العليج، وضربه بالسوط فالتوى على عنقه فجذب به بيده من السرج فاقتلعه، وجاء به يجره حتى ألقاه بين يدي المستعين. فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ في صنعه مع أبي الوليد بن فتحون فاعتذر إليه، وأكرمته، وأحسن إليه، وبالحق في الإنعام عليه، وردته إلى أحسن أحواله، وكان من أعز الناس إليه.

ويبغى لقائد الجيش أن يخفي العلامة التي هو مشهور بها، فإن عدوه قد يستعلم حيلته، وألوان خيله، ورايته ولا يلزم خيمته ليلاً ولا نهاراً، أو ليلد زيه، ويغير خيمته كيلا يلتص عدوه غرة منه، وإذا سكنت الحرب فلا يمشي في النفر السير من قومه خارج عسكره، فإن عيون عدوه متجسة عليه. وبهذا الوجه كسر المسلمون جيوش أفرقية عند فتحها؛ وذلك أن الحرب سكنت وسط النهار، فجعل مقدم العدو يمشي خارج عسكره يتميز عساكر المسلمين فجاء الخبر إلى عبد الله بن أبي السرح وهو نائب في قبة، فخرج فيمن وقى به من رجاله، وحمل على العدو فقتل الملك وكان الفتح. ويمثل هذا قهر ألب أرسلان ملك الترك ملك الروم وقمعه، وقتل رجاله، وأباد جمعه. وكانت الروم قد جمعت جيوشاً يقل أن يجمع لغيرهم من بعدهم مثلاً، وكان قد بلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل، كتاب متواصلة، وعساكر مترادفة، وكراديس يتلو بعضها بعضاً، لا يدركهم الطرف، ولا يحصيهم العدد، وقد استعدوا من الكراع^(١)، والسلاح، والمجانيق، والآلات المعدة للحروب وفتح الحصون بما لا يحصى. وكانوا قد قسموا بلاد المسلمين: الشام، والعراق، ومصر، وخراسان، وديار بكر. ولم يشكوا أن الدولة قد دارت لهم، وأن نجوم السعد قد خدمتهم. ثم استقبلوا بلاد المسلمين فتواترت أخبارهم إلى بلاد المسلمين، واضطربت لها ممالك أهل الإسلام. فاحتشد للقائهم الملك ألب أرسلان وهو الذي يسمى الملك العادل، وجمع جموعه بمدينة أصبهان، واستعد بما قدر عليه، ثم خرج يؤمهم فلم يزل العسكران يتدانيان إلى أن عادت طلائع المسلمين إلى المسلمين. وقالوا لألب أرسلان غداً يتراى الجمعان، فبات المسلمون ليلة الجمعة، والروم في عدد لا يحصيهم إلا الله الذي خلقهم، وما المسلمون فيهم إلا أكلة جائع، فبقي المسلمون وجلين^(٢) لما دهمهم، فلما أصبحوا صباح يوم الجمعة نظر بعضهم إلى بعض، فهال المسلمون ما رأوا من كثرة العدو، فأمر ألب أرسلان أن يعدّ المسلمون، فبلغوا اثني عشر ألفاً، فكانوا كالشامة البيضاء في الثور الأسود. فجمع ذوي الرأي من أهل الحرب والتدبير، والشفقة على المسلمين، والنظر في العواقب، واستشارهم في استخلاص أصوب الرأي فتشاوروا برهة، ثم اجتمع رأيهم على اللقاء. فتواعد القوم، وتحالوا، وناصرهم الإسلام وأهله، وتأهبوا أهبة اللقاء. وقالوا لألب أرسلان: باسم الله نحمل عليهم. فقال ألب أرسلان: يا معشر أهل الإسلام أمهلوا، فإن هذا يوم الجمعة، والمسلمون يخطبون على المنابر، ويدعون لنا في شرق البلاد وغربها، فإذا زالت الشمس، وعلمنا أن المسلمين قد صلوا ودعوا الله أن ينصر دينه، حملنا عليهم إذ ذاك. وكان ألب أرسلان قد عرف خيمة ملك الروم، وعلامته، وزيه، وزيته، وفرسه. ثم قال لرجاله: لا يتخلف أحد منكم أن يفعل كفعلي، ويتبع أثري، ويضرب بسيفه ويرمي سهمه حيث أضرب بسيفي، وأرمي سهمي، ثم حمل برجاله حملة رجل

(١) الكراع: الخيول المعدة للحرب.

(٢) وجلين: خائفين.

واحد إلى خيمة ملك الروم فقتلوا من كان دونها، ووصلوا إلى الملك فقتلوا من كان دونه، وجعلوا ينادون بلسان الروم: قتل الملك، قتل الملك. فسمعت الروم أن ملكهم قد قتل، فتبددوا، وتمزقوا كل ممزق، وعمل السيف فيهم أياماً؛ وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم. وأتوا بالملك أسيراً بين يدي ألب أرسلان، والجل في عقه. فقال له ألب أرسلان: ماذا كنت تصنع بي لو أسررتي، قال: هل تشك أنني كنت أقتلك. فقال له ألب أرسلان: أنت أقل في عيني من أن أقتلك اذهبوا به فبيعه لمن يزيد فيه. فكان يقاد والجل في عقه، وينادي عليه من يشتري ملك الروم. وما زالوا كذلك يطوفون به على الخيام، ومنازل المسلمين وينادون عليه بالدرهم، والفلوس فلم يدفع فيه أحد شيئاً حتى باعوه من إنسان بـكـلب، فأخذه الذي ينادي عليه، وأخذ الكلب وأتى بهما إلى ألب أرسلان، وقال: قد طقت به جميع العسكر، وناديت عليه، فلم يذل أحد فيه شيئاً، سوى رجل واحد دفع فيه هذا الكلب. فقال: قد أنهضك، إن الكلب خير منه. ثم أمر ألب أرسلان بعد ذلك بإطلاقه، وذهب إلى القسطنطينية. فعزلته الروم وكحلوه بالثار.

فانظر ماذا يأتي على الملوك إذا عرفوا في الحرب من الحيلة، والمكيـدة. اللهم انصر جيوش المسلمين، وعساكر الموحدين وأهلك الكفرة والمشركين، وانصر المسلمين نصراً عزيزاً برحمتك يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

الباب الحادي والأربعين: في ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال وطبقاتهم وأخبارهم وذكر الجبناء وأخبارهم وذم الجبن

الطبقة الأولى الذين أدركوا الجاهلية والإسلام: حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، عم رسول الله ﷺ أسد الله، وأسد رسوله ﷺ قتل في غزاة أحد، رماه وحشي مولى جبير بن مطعم بحربة فقتله. وكان فارس قريش غير مدافع وبطلها غير ممانع. وعظم قتله على النبي ﷺ ونذر أن يقتل به سبعين رجلاً من قريش، وكبر عليه في الصلاة سبعين تكبيرة. أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرّم وجهه، آية من آيات الله ومعجزة من معجزات رسول الله ﷺ، ومؤيد بالتأييد الإلهي، كاشف الكروب ومجليها^(١)، ومثبت قواعد الإسلام ومرسيها، وهو المتقدم على ذري الشجاعة كلهم بلا مرية^(٢)، ولا خلاف. روي عنه رضي الله عنه أنه قال: والذي نفس ابن أبي طالب بيده، لألف ضربة بالسيف أهون عليّ من موة على فراش. وقال بعض العرب: ما لقينا كتيبة فيها علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلا أوصى بعضنا على بعض. وقال رضي الله عنه لمعاوية: قد دعوت الناس إلى الحرب فدع الناس جانباً وأخرج إليّ ليعلم أينما المران^(٣) على قلبه، والمغطى على بصره، وأنا أبو الحسن قاتل جدك، وخالك وأخيك شدخاً^(٤) يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوّي. وقيل له كرم الله وجهه. إذا جالت الخيل، فأين نطلبك؟ قال: حيث تركموني. وقيل له: كيف كنت تقتل الأبطال؟ قال: لأنني كنت ألقى الرجل فأقدر أنني أقتله، ويقدر هو أنني قتله، فأكون أنا ونفسه عوناً عليه. وقال مصعب بن الزبير: كان علي رضي الله عنه حذراً في الحروب، شديد الروغان، لا يكاد أحد يتمكن منه، وكان درعه صدراً لا ظهر لها. فقيل له: أما تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك؟ فقال: إذا مكنت عدوّي من ظهري^(٥) فلا أبقي الله عليه إن أبقي عليّ. قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادي لعنة الله تعالى عليه، غدره وهو في صلاة الصبح. وسبب ذلك أن عبد الرحمن بن ملجم لعنة الله تعالى عليه مكررة تزوج بقطام بنت علقمة وكانت خارجية فقالت له: لا أفنع إلا بصدّاق أسّيه، وهو ثلاثة آلاف درهم، وعبد وأمة، وأن تقتل علي بن أبي طالب. فقال لها: لك ما سألت، إلا علي بن أبي طالب وكيف لي به؟ قالت: نغتاله فإن سلمت أرحمت الناس من شره وأقمت مع أهلك وإن أصبت دخلت الجنة فقال:

وضرب علي بالحسام المخضم^(٦)

ثلاثة آلاف وعبد وقينة

(١) مجليها: مظهرها.

(٢) مرية: جدال أو نقاش.

(٣) المران: المغطى.

(٤) شدخاً: كسراً بعضف.

(٥) ظهري: كناية عن الحرب.

(٦) المخضم: القاطع.

فلا مهر أغلى من عليّ وإن علا ولا فيك إلا دون قتلك ابن ملجم

وقيل: إنه طعنه وهو داخل المسجد في الغلس^(١) وذلك في التاسع عشر رمضان المعظم سنة أربعين. كفن رضي الله عنه في ثلاثة أثواب ودفن في الرحبة، مما يلي كنيسة من أبواب المسجد. قالوا: ولما ضربه ابن ملجم، لعنه الله، ثار الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم فاحتضنوه، وقام المغيرة بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب فأخذه فأومأ عليّ رضي الله عنه إلى المغيرة أن صلّ بالناس. فصلى بهم الفجر. وأقبلت همدان فدخلوا على عليّ فقالوا: يا أمير المؤمنين لا تقوم لهم قائمة إن شاء الله تعالى. فقال: لا تفعلوا إنما النفس بالنفس. قال: ثم إن الحسن رضي الله عنه صلى الفجر، وصعد المنبر فأراد الكلام فخفقتة العبرة ثم نطق فقال: الحمد لله على ما أحيينا وكرهنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، وإنني أحسب عند الله عز وجل مصابي بأفضل الآباء رسول الله القاتل ﷺ: «مَنْ أُصِيبَ بِمَصِيَّةٍ فَلْيَتَسَلَّ بِمَصِيَّتِهِ فِيْ فَئَاهُ أَعْظَمَ الْمَصَائِبِ». والله الذي لا إله إلا هو، الذي أنزل على عبده الفرقان، لقد قبض في هذه الليلة رجل ما سبقه الأولون بعد رسول الله ﷺ. ولا يدركه الآخرون. فعند الله نحسب ما دخل علينا وعلى جميع أمة محمد ﷺ. فوالله لا أقول اليوم إلا حقاً لقد دخلت مصيبة اليوم على جميع العباد والبلاد، والشجر والدواب. ولقد قبض في الليل التي رفع فيها عيسى ابن مريم عليهما السلام إلى السماء، وقبض فيها موسى بن عمران، ويوشع بن نون عليهما السلام. وأنزل فيها القرآن على محمد ﷺ. ولقد كان رسول الله ﷺ يبعث في السرية، ويسير جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره، فما يرجع حتى يفتح الله عز وجل على يديه. وما ترك صفراء، ولا بيضاء إلا سبعمائة درهم أراد أن يتاع بها خادماً لأهله، ألا إن أمور الله تعالى تجري على أحوالها، فما أحسنها من الله، وأسوأها من أنفسكم، ألا إن قريشاً أعطت أزمتها شياطينها، فقادت بها بآعيتها إلى النار. فمنهم مَنْ قاتل رسول الله ﷺ حتى أظهره الله تعالى عليهم. ومنهم مَنْ أَسْرَ الضغينة حتى وجد على النفاق أعواناً رفع الكتاب وجف القلم. وأمور تقضي في كتاب قد خلا. ثم أطرق الحسن. فبكى الناس بكاء شديداً ثم نزل فجرد سيفه ودعا بآبن ملجم فأقبل يخطر واضعاً شعره على أذنيه، حتى قام بين يديه. فقال: يا حسن إني ما عاهدت الله تعالى على عهد قط إلا وفيت به؛ عاهدت الله تعالى على أن أقتل أباك وقد قتلت. فإن تخلني أقتل معاوية. فإن أنا قتلت أضع يدي على يدك. وأن أقتل فهو الذي تريد. فقال الحسن رضي الله عنه: أما والله لا سبيل إلى بقائك، ثم قال إليه فضربه بالسيف فاتقاه ابن ملجم يده، ثم أسرع السيف فيه فقتله.

ومن الأبطال خالد بن الوليد بن المغيرة المخدومي رضي الله عنه، سيف الله، وسيف رسول الله ﷺ بطل مذكور، وفارس مشهور، في الجاهلية والإسلام. قتل مالك بن نويرة، وقتل مسيلمة الكذاب لعنه الله. وكان الفتح لخالد يوم اليمامة، وهو الذي فتح دمشق وأكثر بلاد الشام، وله وقائع عظيمة في الروم أيّد الله بها الإسلام، مات على فراشه. وكان يقول: لقد شهدت كذا وكذا زحفاً، وما في جسدي موضع شبر، إلا وفيه أثر من طعنة، أو ضربة، أو رمية، وها أنا أموت على فراشي، لا نامت عين الجبان، وكان يشد ويرتجز ويقول رضي الله عنه:

لا ترعبونا بالسيف المبرق إن السهام بالردى مفوّقة^(٢)

(١) الغلس: ظلمة آخر الليل.

(٢) مفوّقة: أكثر علوّاً في هذا المجال.

والحرب دونها العقل مطلقاً وخالدٌ من دينه على ثقته

الزبير بن العوام رضي الله عنه حوارِي رسول الله ﷺ، وابن عمته، بطل شجاع لا يمارى، وشهم لا يجارى، قتله عمرو بن جرموز، اغتاله وهو في الصلاة. عمرو بن معدِي كرب الزبيدي، فارس من فرسان الجاهلية، وله مواقف مذكورة، ومواطن مشهورة، وأسلم ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام وشهد حروب الفرس، وكان له فيها أفعال عظيمة، وأحوال جسيمة. وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رآه قال الحمد لله الذي خلقنا وخلق عمرًا. روي عنه رضي الله عنه أنه سأل يوماً فقال له: يا عمرو أي السلاح أفضل في الحرب؟ قال: فمن أيها تسأل. قال: ما تقول في السهام؟ قال: منها ما يخطيء ويصيب. قال: فما تقول في الرمح؟ قال: أخوك ربما خانك، قال: فما تقول في الترس؟ قال: هو الدائرة، وعليه تدور الدوائر. قال: فما تقول في السيف؟ قال: ذلك العدة عن الشدة. وقيل: أنه نزل يوم القادسية على النهر فقال لأصحابه: أنني عابر على هذا الجسر، فإن أسرعتم مقدار جزر الجزور، وجدتموني وسيفي بيدي أقاتل به تلقاء وجهي، وقد عرفني القوم، وأنا قائم بينهم، وإن أبطأتم وجدتموني قتيلاً بينهم، ثم انغمس فحمل على القوم. فقال بعضهم لبعض: يا بني زيد علام تدعون صاحبكم، والله ما نظن إنكم تتركونه حياً فحملوا فانتهوا إليه وقد صرع عن فرسه. وقد أخذ برجل فرس رجلاً من المعجم، فأمسكها الفارس يضرب فرسه، فلم تقدر أن تتحرك، فلما رأنا أدركناه رمى الرجل نفسه، وخلص فرسه فركبه عمرو. وقال: أنا أبو ثور كدتم والله تفقدوني، فقالوا: أين فرسك؟ فقال: رمي بشابة فغار، وشب فصرعني^(١). ويروى أنه حمل يوم القادسية على رستم، وهو الذي كان قدّمه يزيد جرد ملك الفرس يوم القادسية على قتال المسلمين، فاستقبله عمرو وكان رستم على فيل، فضرب عمرو الفيل فقطع عرقوه فسقط رستم، وسقط الفيل عليه مع خرج كان فيه أربعون ألف دينار. قتل رستم وانهزم المعجم. وقتل عمرو بنهاوند في وقعة الفرس بعد أن عمّر حتى ضعف، وكان من الشعراء المعدادين. وفيه يقول العباس بن مرداس:

إذا مات عمرو قلت للخيل أوطني زبيداً فقد أودى بنجدها عمرو^(٢)

ومنهم طلحة الأسدي رضي الله عنه، كان من أكبر الشجعان جاهلية وإسلاماً، ثم ارتد وتباً وجمع جمعاً عظيماً قتل^(٣) خالد بن الوليد جمعه. وكان يتكهن، ثم عاد إلى الإسلام وشهد حرب القادسية وغيرها من الفتح. المقداد بن الأسود رضي الله عنه، كان من أشجع الفرسان، شديد البأس، قوي الجنان، رابط الجأش، وله في الشجعان اسم مشهور، ووصف مذكور، يعجز الواصف عن وصف صفاته رضي الله عنه وأرضاه. سعد بن أبي وقاص الزهري الأنصاري رضي الله عنه، كان فارساً بطلاً رامياً، وهو أول من رمى في سبيل الله بسهم. ولما قتل عثمان بن عفان رضي الله عنه اعتزل ولم يشهد الحرب بعده، ومات حتف أنفه. أبو دجانة الأنصاري رضي الله عنه، الذي خرج يتبخر بين الصنفين فقال عليه الصلاة والسلام: «إنها لمشية يخفضها الله تعالى إلا في هذا الموضع». المثني بن حارثة الشيباني رضي الله عنه، هو أول من فتح حرب الفرس. أبو عبيد بن مسعود الثقفي رضي الله عنه، قاتل القوم يوم قس الناطف

(١) صرعني: أوقعني.

(٢) بنجدها عمرو: أي ذهب مجد هذه البلدة بلعاب بطلها هذا.

(٣) قلّ جمهم: فرقهم واتصّر عليهم.

في حرب القادسية. عمار بن ياسر رضي الله عنه، صاحب رسول الله والذي قال فيه رسول الله: «الحق يدور مع عمار حيث دار»، وأخبر أنه تقتله الفئة الباغية، فقتل بصفين وكان مع علي رضي الله عنه. هاشم بن عتبة رضي الله عنه من أكابر الشجعان، صاحب راية علي رضي الله عنه بصفين. مالك بن الحرث النخعي الأشتر رضي الله عنه، مات مسموماً في شربة من عسل. فقال معاوية: إن الله جنوداً منها العسل. القعقاع بن عمرو طاعن الفيل في عشة القادسية رضي الله عنه.

الطبقة الثانية: عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنه قاتل جرجير ملك أفريقية الذي كان يرى أنه أشجع أهل عصره. قال عمر بن عبد العزيز لابن أبي مليكة: صف لي عبد الله بن الزبير. فقال: والله ما رأيت جلدأ قط ركب على لحم، ولا لحماً على عصب، ولا عصباً على عظم، مثل جلده، ولحمه، وعصبه. ولا رأيت نفساً بين جنين مثل نفس ركبت بين جنينه، ولقد قام يوماً إلى الصلاة فمر حجر من حجارة المنجنيق بين لحيته وصدره فوالله ما خشع له بصره، ولا قطع له قراءته، ولا ركع دون الركوع الذي كان يركع. قتله الحجاج بعد أن حوَّص بمكة، وأسلمه أصحابه وعشيرته، وصلبه الحجاج، ألا إلى الله تصير الأمور. أبو هاشم محمد بن علي بن أبي طالب ابن الحنفية رضي الله عنه، كان أبوه يلقبه في الوقائع، ويتقي به العظام، وهو شديد البأس، ثابت الجنان. قيل له يوماً: ما بال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه يقحمك الحروب، دون الحسن والحسين رضي الله عنهما؟ فقال: لأنهما كانا عيني، وكنت أنا يديه، فكان يتقي عيني بيديه. وقيل إن أباه علياً رضي الله عنه اشترى درعاً فاستطالها فأراد أن يقطع منها. فقال له محمد: يا أبت علم موضع القطع، فعلم على موضع منها، فقبض محمد بيده اليمنى على ذيلها، وبالأخرى على موضع العلامة، ثم جذبها فقطعها من الموضع الذي حدَّه أبوه. وكان عبد الله بن الزبير مع تقدمه في الشجاعة يحسده على قوته، وإذا حدث بهذا الحديث غضب. مات حتف أنفه بشعب رضوي. عبد الله بن حازم السلمي رضي الله عنه، والي خراسان، شجاع مضر وفارسها في عصره، قتله وكيع بن أبي سويد بخراسان في الفتنة. وكيع بن أبي سويد قاتل عبد الله بن حازم المتقدم ذكره، شجاع فاتك أهوج والي خراسان، قيل لما قتل عبد الله بن حازم، ولم يتم أمره لهوجه فمات حتف أنفه. مصعب بن الزبير بن العوام شجاع بطل جواد، جاد بماله وينفسه، قتله عبيد الله بن زياد في الحروب التي كانت بينه وبين عبد الملك بن مروان. عمير بن الحباب السلمي، فارس الإسلام، قتله بنو تغلب في الحرب التي كانت بينهم وبين قيس. مسلمة بن عبد الملك بن مروان، فحلَّ بني أمية وفارسها ووالي حروبها، قيل إنه جلس يوماً ليقضي بين الناس بمصر فكلَّمته امرأة، فلم يقبل عليها، فقالت: ما رأيت أقل حياء من هذا قط. فكشف عن ساقه فإذا فيها أثر تسع طعنات. فقال لها: أترين أثر هذا الطعن؟ والله لو أخرت رجلي قيد شبر ما أصابتي واحدة منهن، وما منعني من تأخيرها إلا الحياء، وأنت تتحليني قلته. المعتصم بطل شجاع، فارس صنديد، لم يكن في بني العباس أشجع منه ولا أشد قلباً. قال ابن أبي داود: كان المعتصم يقول لي: يا أبا عبد الله عض على ساعدي بأكثر قوتك. فأقول: والله يا أمير المؤمنين ما تطيب نفسي بذلك. فيقول: إنه لا يضرني فأروم ذلك، فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة، فكيف تعمل فيه الأسنان. ويقال إنه طعنه بعض الخوارج وعليه درع، فأقام المعتصم ظهره فقسم الرمح نصفين، وكان يشد يده على كتابة الدينار فيمحوها، ويأخذ عمود الحديد فيلويه حتى يصير طوقاً في العنق. إبراهيم بن الأشتر النخعي كان من الشجعان المعدودين، حارب عبيد الله بن زياد وهو في أربعة آلاف، وعبيد الله في سبعين ألفاً فظفر به، وقتله بيده، وهزم جيشه. عبد الله بن الحر الجعفي، شجاع، شاعر فاتك، له وقائع عظيمة هائلة، وأخباره

في الشجاعة مشهورة. جحدر بن ربيعة العكلي كان بطلاً شجاعاً فاتكاً مغيراً، شاعراً، قهر أهل اليمامة، وأبادهم فبلغ ذلك الحجاج بن يوسف فكتب إلى عامله يويخه بتغلب جحدر عليه، ويأمره بالتجرد له حتى يقتله، أو يحمله إليه أسيراً. فوجه العامل إليه فتية من بني حنظلة، وجعل لهم جعلاً عظيماً أن هم قتلوا جحدرًا أو أتوا به أسيراً، فتوجه الفتية في طلبه، حتى إذا كانوا قريباً منه، أرسلوا يقولون له، إنهم يريدون الانقطاع إليه، والارتفاق به، فوثق بذلك منهم، وسكن إلى قولهم، فبينما هو معهم يوماً، إذ وثبوا عليه فشده وناقاً، وقدموا به على العامل فوجه به إلى الحجاج معهم، فلما قدموا به عليه ومثل بين يديه قال له: أنت جحدر. قال: نعم أصلح الله الأمير. قال: ما جرأك على ما بلغني عنك؟ قال: أصلح الله الأمير، كلب الزمان، وجفوة السلطان، وجرأة الجبان. قال: وما بلغ من أمرك؟ قال: لو ابتلاني الأمير، وجعلني مع الفرسان لرأى مني ما يعجبه. قال: فتعجب الحجاج من ثبات عقله، ومنطقه، ثم قال: يا جحدر إنني قاذف بك في حاجر فيه أسد عظيم فإن قتلك كفتانا مؤتتك، وإن قتلك عفونا عنك. قال: أصلح الله الأمير قرب الفرج إن شاء الله تعالى. فأمر به فصعدوه بالحديد، ثم كتب إلى عامله أن يرتاد له أسداً ويحمله إليه. فتحيل العامل وارتاد له أسداً كان كاسراً خبيثاً قد أفنى عامة المواشي، فتحيلوا حت أخذوه وصيروه في تابوت وسحبوه على عجل. فلما قدموا به على الحجاج أمر به، فألقي في الحاجر ولم يطعم شيئاً ثلاثة أيام حتى جاع واستكلب، ثم أمر بجحدر أن يزلوه إليه فأعطوه سيفاً وأنزلوه إليه مقيداً وأشرف الحجاج والناس حوله ينظرون إلى الأسد ما هو صانع بجحدر. فلما نظر الأسد إلى جحدر نهض، ووثب وتمطى وزعق زعقة دويت منها الجبال، وارتاعت أهل الأرض، فشد عليه جحدر وهو ينشد ويقول:

ليث وليث في مجال ضنك كلاهما ذو قوّة وسفك
وصولؤ وبطشؤ وفنك أن يكشف الله قناع الشك

فأنت لي في قبضي وملكي

ثم دنا منه، وضربه بسيفه، ففلق هامته^(١)، فكبر الناس. وأعجب الحجاج ذلك، وقال: لله درك ما أنجك. ثم أمر به فأخرج من الحاجر، وفك عنه قيوده، وقال له: اختر إما أن تقيم معنا فنكرمك، وتقرب منزلتك، وإما أن نأذن لك فتلحق ببلادك وأهلك، على أن تضمن لنا أن لا تحدث بها حدثاً، ولا تؤذي بها أحداً. قال: بل اختار صحبتك أيها الأمير، فجعله من سماره وخواصه، ثم لم يلبث أن ولاه على اليمامة، وكان من أمره ما كان. المهلب بن أبي صفرة كان من الشجعان، ومن الأبطال المعدودة، وأولاده كلهم أنجاد أبطال، إلا أن المغيرة من بينهم، كان أشد تمكناً، وكان المهلب يقول: ما شهد معي حرباً، إلا رأيت البشري في وجهه، وحمل عليه بعض الشجعان وفي يده شجرة، فلما رآها نكس رأسه على قريوس السرج، وحمل من تحتها فبراها بسيفه، وكان المهلب يقول: أشجع الناس ثلاثة: ابن الكلبية، واحمر قريش، وراكب البغلة، فابن الكلبية، مصعب بن الزبير. وأحمر قريش عمر بن عبيد الله بن معمر. ما لقي خيلاً قط إلا فرقها. وراكب البغلة عباد بن الحصين. ما كان قط في كربة إلا فرجها، وهو من فرسان الإسلام، وكان للمهلب في الحروب مكاييد مشهورة، ووقائمه أبادت الخوارج بعد أن كانوا قد استولوا على المسلمين، وكان سيداً كريماً، مات حتف أنفه وكذلك ابنه المغيرة وفيه يقول زياد الأعجم:

مات المغيرة بعد طول تعرض للقتل بين أسنة وصفائح

وكان في الخوارج فوارس مشهورة، لا تثبت لهم الرجال، وذكرهم يطول ويخرج عما أردناه. فمنهم أبو بلال مرداس خرج في أربعين فهزم ألفين. وشييب الخارجي الذي غرق في الفرات، نذرت امرأته غزاة أن تصلي في جامع الكوفة ركعتين، تقرأ في الأولى البقرة، وفي الثانية آل عمران، فعبر بها جسر الفرات، وأدخلها الجامع ووقف على بابه يحميها حتى وفّت بنزرها، والحجاج في الكوفة في خمسين ألفاً. ومنهم قطري بن الفجاءة، كان رأس الخوارج، وخطبوه بأمر المؤمنين، وعظموه وبعجلوه، وأشاعره في الشجاعة تدل على مكانه منها. قتل في بعض وقائع الخوارج.

الطبقة الثالثة: معن بن زائدة الشيباني قتله الخوارج بسجستان في أيام المهدي. الوليد بن طريف الشيباني قتله يزيد بن يزيد. عمرو بن حنيف كان من الفرسان المعدودة نقل عنه أنه كان يتصيد فتبع حمام وحش، وما زال يركض إلى أن حاذاه فجمع رجليه ووثب من على فرسه، وصار على ظهر حمام الوحش، وصار يحز عنقه بسيف أو سكين في يده حتى قتله. أبو دلف القاسم بن عيسى العجلي، فارس بطل شاعر، نديم، جامع لما تفرق في غيره، طعن فارسين رديفين فأنفذ الرمح من ظهرهما، وحمل برمحه أربعة نفر، وفيه يقول بكر بن النطاح:

قالوا وينظم فارسين بطعنوا
يَوْمَ اللقاء ولا يراه جليلاً
لا تعجبوا لو كان مَدُّ قَتَائِهِ
مِثْلًا إِذَا نَظَّمِ الْفَوَارِسَ مِثْلًا
وسأله يوماً رجل شيئاً. فقال له: أتسأل وجدك القاتل:

وَمَنْ يَفْتَحِرُ مَنْ يَحْسِبُهُ
وَمَنْ يَفْتَحِرُ مَنْ سَاطِرِ النَّاسِ يَسْأَلُ
وَأَنَا لَنَلْهُوَ بِالسَّيْفِ كَمَا لَهَتْ
فَتَاةٌ بِعَقْدٍ أَوْ سِخَابٍ قَرْنَفَلٍ^(١)

فخرج الرجل، فجرد سيفه، فلم يصادفه في طريقه إلا وكيل لأبي دلف ومعه مال جزيل، فاستلبه منه وقلته، فبلغ الخبر أبا دلف فقال: دعوه فإنني علمته على نفسي. بكر بن النطاح بطل شجاع، فارس فاتك، له أشعار مشهورة، وأخبار مذكورة.

ومما جاء في مدح السيف قال رسول الله ﷺ: الخير في السيف، والخير بالسيف، وكان صمصام^(٢) عمرو، أشهر سيوف العرب ومن تمثل به نهشل فقال:

أَحْ مَا جَدُّ مَا خَانَنِي يَوْمَ مَشْهَدٍ
كَمَا سِيفُ عَمْرٍو لَمْ تَخْنَهُ مِضَارُهُ
ولما وهبه عمرو لخالد بن سعيد بن العاص عامل رسول الله ﷺ على اليمن قال:

خَلِيلِي لَمْ أَخْنَهُ وَلَمْ يَخْنِي
إِذَا مَا صَابَ أَوْسَاطُ الْعِظَامِ
خَلِيلِي لَمْ أَحْبِبْهُ مِنْ قَلَاءِ
وَلَكِنْ الْمُسَوَاهِبَ لِلْكَرَامِ

(١) سخاب قرنفل: عقد من القرنفل.

(٢) صمصام: سيفه.

جوث به كريماً من قريش
وودعت الصفي^(١) صفي نفسي
فر به وحين عن اللثام
على الصمصام أضعاف السلام

ولم يزل في آل سعيد، حتى اشتراه خالد بن عبد الله القسري بـمال جزيل لهشام، وكان قد كتب إليه فيه. فلم يزل عند بني مروان، ثم طلبه السفاح، والمنصور والمهدي فلم يجدوه، فجذ^(٢) الهادي في طلبه حتى ظفر به وكان مكتوباً عليه هذا البيت:

ذكر يمان في يمين يمانني
ذكر على ذكر يصول بصرام
وقال ابن الرومي:

لم أر شيئاً حاضراً نفعة
يقضي له الدرهم حاجاته
والمرء كالدرهم والخييف
واليف يحميه من الخيف^(٣)
وقال زيد بن علي رضي الله عنهما:

السيف يعرف عزمي عند هزته
إننا لنأمل ما كانت أوائلنا
والرمح بي خبر والله لي وزر^(٤)
من قبل تأمله إن ساعد القدر
وقال عبد الله بن طاهر:

بيت ضجعي السيف طورا وتارة
أخو ثقو أرضاه في الروح صاحبا
تعض بهامات^(٥) الرجال مضارئة
وفوق رضاه أنني أنا صاحبه
وليس أخو العلياء إلا فتى له
بها كلف ما تنخر ركايبه

وقدم عروة بن الزبير على عبد الملك بن مروان بعد قتل أخيه عبد الله فطلب منه سيف الزبير وقال له: رده عليّ، فإنه السيف الذي أعطاه رسول الله ﷺ له يوم حنين. فقال له عبد الملك: أو تعرفه؟ قال: نعم. قال: بماذا؟ قال: أعرفه بما لا تعرف به سيف أيك، أعرفه بقول الشاعر^(٦):

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم
بهن فلول من قراع الكتائب
وقال الأجدع الهمداني:

لقد علمت نوان همدان أنني
وأبذل في الهجاء وجهي وإنني
لهن غداة الروح غير خذول
له في سوى الهجاء غير بذول^(٧)

(١) الصفي: الخليل ذو الصفاء.

(٢) جذ: اجتهد.

(٣) الحيف: الجور.

(٤) وزر: مؤازر ومعين.

(٥) بهامات: رؤوسهم.

(٦) النابغة الذبياني في الفساسة.

(٧) بذول: أي صائته.

وقال آخر:

عشرون ألف فتى ما منهم أحدٌ إلا كالف فتى مقدمه بطل
راحت مزاولهم مملوءةً أملاً فسرغوها وأوكوها من الأجل

ومن أخبار الشجعان ما حكاه الفضل بن يزيد: نزل علينا بنو ثعلب في بعض السنين وكنت مشغولاً بأخبار العرب أن أسمعاها وأجمعها، فبينما أن أدور في بعض أحيائهم إذا أنا بامرأة واقفة في فناء خباثها، وهي آخذة بيد غلام قلما رأيت مثله في حسنه وجماله، له ذؤابتان كالسج^(١) المنظوم، وهي تعاتبه بلسان رطب، وكلام عذب، تحن إليه الأسماع، وترتاح له القلوب، وأكثر ما أسمع منها: أي بني وهو يتسم في وجهها، قد غلب عليه الحياء والخجل، كأنه جارية بكر لا يرد جواباً. فاستحسنت ما رأيت واستحليت ما سمعت، فدنوت منه، وسلمت فرد علي السلام، فوقفت أنظر إليها. فقالت: يا حضري ما حاجتك، قلت: الاستكثار مما أسمع، والاستمتاع بما أرى من هذا الغلام. فقالت: يا حضري إن شئت سقت إليك من خبره ما هو أحسن من منظره. قلت: قد شئت يرحمك الله. فقالت: حملته والرزق عسر، والعيش نكد، حملاً خفيفاً حتى مضت له تسعة أشهر، وشاء الله عز وأجل أن أضعه، فوضعتة خلقاً سوياً، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه، حتى أفضل الله عز وجل وأعطى، وأتى من الرزق بما كفى أغنى، ثم أرضعته حولين كاملين، فلما استتم الرضاع نقلته من خرق المهد إلى فراش أبيه فرياً كأنه شبل أسد، أقيه برد الشتاء، وحر الهجير. حتى إذا مضت له خمس سنين، أسلمته إلى المؤدب فحفظه القرآن قتلاًه، وعلمه الشعر فرواه، ورغب في مفاخر قومه وآبائه وأجداده. فلما أن بلغ الحلم، واشتد عظمه، وكمل خلقه حملته على عتاق الخيل ففرس، وتمرس ولبس السلاح، ومشى بين بويات الحي الخيلاء. فأخذ في قرى الضيف، وإطعام الطعام، وأنا عليه وجلة أشفق عليه من العيون أن تصيبه. فاتفق أن نزلنا بمنهل من المناهل بين أحياء العرب، فخرج فتيان الحي في طلب ثار لهم، وشاء الله تعالى أن أصابته وعكة شغلته عن الخروج، حتى إذا أمعن القوم ولم يبق في الحي غيره، ونحن آمنون وادعون إلى أن أدير الليل، وأسفر الصباح، حتى طلعت علينا غر الجياد، وطلائع العدو، فما هو إلا هنية حتى أحرزوا الأموال دون أهلها، هو يسألني عن الصوت، وأنا أستر عنه الخبر اشفاقاً عليه، وضناً به إذ علت الأصوات وبرزت المخدرات، رمى دثاره، وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لامة حرب، وأخذ رمحه بيده ولحق حماة القوم، فطعن أذنانهم منه فرمى به، ولحق أبعدهم منه فقتله، فانصرفت وجوه الفرسان فرأوه صبيّاً صغيراً، لا مدد وراءه. فحملوا عليه فأقبل يؤم البيت ونحن ندعو الله عز وجل له بالسلامة، حتى إذا مدهم وراءه وامتدوا في أثره عطف عليهم ففرق شملهم، وشتت جمعهم، وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق، ومرق كما يمرق السهم، وناداهم: خلوا عن المال فوالله لا رجعت إلا به، أو لأهكلن دونه. فانصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، وتميزت له الفتيان وحملوا عليه قد رفعوا إليه الأسته وعطفوا عليه بالأعنة. فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل من وراء الأبل. وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطماها، ولا كنية إلا مزقها، حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه ثم ساق المال، وأقبل به فكبر القوم عند رؤيته، وفرح الناس بسلامته، فوالله ما رأينا قط يوماً كان أسمح صباحاً، وأحسن رواحاً^(٢) من ذلك اليوم، ولقد سمعته يقول في وجوه فتيات الحي هذه الآيات:

(١) السج: الخرز.

(٢) رواحاً: مساءً.

إذا حشرجت نفسُ الجبانِ من الكربِ
من الخوفِ ملبوبُ العزيمةِ والقلبِ
من السمهي^(١) اللدني والمرهفِ العقبِ
سليلاً المعالي والمكارمِ والسيبِ
وطرفُ قويِّ الظهرِ والجوفِ والجنبِ
جبالِ الرواسي لا تحططنَ إلى التربِ
ويثُ شريفٌ في ذرى ثعلبِ القلبِ
لكن وأحميكنُ بالطعنِ والضربِ
يهينه بالفارسِ البطلِ النذبِ

تأثُننَ فِغلي هل رأيتنَ مثله
وضاقتُ عليه الأرضُ حتى كأنه
الم أعطِ كلاً حقهُ ونصييهُ
أنا ابنُ هندِ بن قيسِ بن مالكِ
أبى لي أن أعطي الظلامةَ مرهفُ
وعزْمٌ صحيحٌ لو ضررتُ بحلّه الـ
وعرضُ نقبي أثقي أن أعييه
فإن لم أقاتل دونكُنْ وأحمي
فلا صدقُ اللاتي مثيننَ إلى أبي

وقال الشاعر:

في الحادثاتِ إذا دجّونَ نجوم^(٢)
تجلو اللّجى والأخرياتُ رجوم^(٣)

أراهم ووجوههم وسيوفهم
منها معالمٌ للهوى ومصابيحُ

وقال آخر:

وليس على غير الرؤوسِ مجالُ
تشبُّ على أطرافهنَّ ذبال^(٤)

فوارسُ قوّالونَ للخيّلِ اقلّمي
بأيديهم سمرُ العوالي كأنما

وقال آخر:

شمساً وخلت وجوههم أقماراً
عدّلَ الزمانُ عليهم أو جارا
بذلوا الضوسَ وفارقوا الأعمارا

قوم إذا اقتحمّوا العجاجَ رأيتهم
لا يمدلونَ برّفليهم عن سائل
وإذا الصّريخُ دعاهم لملئو

ذكر الجبن، والجبناء وأخبارهم وما جاء عنهم: قد استعاذ سيدنا رسول الله ﷺ من الجبن فقال: «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين، وقهر الرجال». نعوذ بالله مما استعاذ منه سيد الخلق رسول الله ﷺ. ويحكفك أن يقال في وصف الجبان: إن أحس بعصفور طار فؤاده، وإن طنت بعوضة طال سهاده، يفرج من صرير الباب، ويقلق من طنين الثئاب، ان نظرت إليه شزراً أغمي عليه شهراً، يحسب خفوق الرياح قعقة الرماح قال الشاعر:

وليث حديدُ النابِ عند الثرائدِ

إذا صوّت العصفورُ طار فؤاده

(١) السمهي: نوع من السيوف.

(٢) دجت الحادثات: أظلمت.

(٣) رجوم: صخور للرجم.

(٤) ذبال: قتال مشتعلة.

وكان حسان بن ثابت رضي الله عنه من الجبناء. روي عن ابن الزبير أنه قال: كان حسان في قاع أطم مع النساء يوم الخندق، فأتاهم في ذلك اليوم يهودي يطوف بالحصن. فقالت صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها: يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطوف بالحصن، وأناي والله ما آمنه أن يدلّ على عوراتنا من وراءه من اليهود. فأنزل إليه فاقته. فقال: يغفر الله لك يا بنت عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا. قال: فاعتجرت صفية ثم أخذت عموداً ونزلت من الحصن فضربت بالعمود حتى قتلت ورجعت إلى الحصن. فقالت: يا حسان قم إليه فاسلبه فإنه ما مني من سلبه إلا أنه رجل. فقال: ما لي بسلبه من حاجة.

وقيل: كان لفتى من قريش، جارية مليحة الوجه، حسنة الأدب، وكان يحبها حباً شديداً فأصابته إضاعة وفاقة، فاحتاج إلى ثمنها فحملها إلى العراق وكان ذلك في زمن الحجاج بن يوسف فابتاعها منه الحجاج فوَقعت منه بمترلة فقدم عليه فتى من ثقيف من أقاربه فأنزله قريبا منه. وأحسن إليه فدخل على الحجاج والجارية تكبسه، وكان الفتى جسيلاً فجعلت الجارية تسارقه النظر ففطن الحجاج بها فوهبها له، فأخذها وانصرف فبات معه ليلتها وهربت بغلس^(١) فأصبح لا يدري أين هي. وبلغ الحجاج ذلك فأمر منادياً أن ينادي برئت الذمة ممن رأى وصيفة، من صفتها كذا وكذا، ولم يحضرها. فلم يلبث أن أتى له بها. فقال لها الحجاج: يا عدوة الله كنت عندي من أحب الناس إليّ، فاخترت لك ابن عمي شاباً حسن الوجه، ورأيتك تسارقيه النظر فعلمت أنك شغفت به فوهبتك له، فهربت من ليك. فقالت: يا سيدي اسمع قصتي ثم اصنع بي ما شئت. قال: هاتي ولا تخفي شيئاً. قالت: كنت للفتى القرشي فاحتاج إلى ثمني فحملني إلى الكوفة، فلما قربنا منها دنا مني فوق عليّ فسمع زئير الأسد فوثب واخترط سيفه وحمل عليه وضربه فقتله وأتى برأسه. ثم أقبل عليّ وما يرد ما عنده، ثم قضى حاجته. وإن ابن عمك هذا الذي اخترته لي لما أظلم الليل قام إليّ، فلما علا بطني وقعت فارة من السقف، فضرط ثم غشي عليه. فمكث زماناً طويلاً وأنا أُرش عليه الماء وهو لا يفيق. فخفت أن يموت فتتهمني به فهربت فزعاً منك، فما ملك الحجاج نفسه من شدة الضحك، وقال: ويحك اكلمي هذا، ولا تعلمي به أحداً. قالت: على أن لا تردني إليه، قال: لك ذلك...

وحلّت جار لأبي حنيفة النميري قال: كان لأبي حنيفة سيف ليس بينه وبين العصا فرق، وكان يسميه لعاب المنية، فأشرفت عليه ذات ليلة وقد انتضاه^(٢) وهو واقف على باب بيته، وقد سمع حساً في داره وهو يقول: أيها المغتر بنا، المجترى علينا بش والله ما اخترت لنفسك، خير قليل وسيف صقيل وهو لعاب المنية، الذي سمعت به، أخرج بالعفو عنك، قبل أن أدخل بالعقوبة عليك. ثم فتح الباب على وجل فإذا كلب قد خرج فقال: الحمد لله الذي مسحك كلباً وكفناً حرياً. وخرج المعتصم يوماً إلى بعض متصيداته فظهر له أسد فقال لرجل من أصحابه أعجبه قوامه وسلاحه وتماخى خلقه: أفيك خير يا رجل؟ قال: لا. فضحك المعتصم، وقال: قبح الله الجبان. ورأى الاسكندر سميّاً له، لا يزال ينهزم. فقال له: يا رجل إما أن تتغير فملك وأما أن تغتير اسمك. ووقع في بعض العساكر ضجة فوثب خراساني إلى دابته ليلجمها، فصر اللجام في الذنب من الدهش. وقال يخاطب الفرس: هب جبهتك عرضت فनावيتك كيف طالت.

(١) بغلس: ظلمة آخر الليل.

(٢) انتضاه: استله كهية المبارز.

وخرج أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين لمحاربة أبي بلال مرداس وكان مرداس في أربعين رجلاً فانهزم أسلم منه فلاموه على ذلك، وذمه ابن أبي زياد فقال: لأن يذمني ابن أبي زياد حياً أحب إليّ من أن يمدحني ميتاً. وكان أسلم بعد ذلك إذا خرج إلى السوق ومراً بصبيان صاحوا به: أبو بلال وراك. فكبر ذلك عليه، فشكاهم إلى ابن زياد فأمر صاحب الشرطة أن يكفهم عنه. وفي ذلك يقول بعضهم شعراً:

يقولُ جبانُ القومِ في حال سكرِهِ	وقد شربَ الصهباءُ ^(١) هل من مبارزِ
وأين الخيولُ الأعوجياتُ ^(٢) في الوغى	أنازلُ منهم كلَّ مناهزِ
ففي السكرِ قيس، وابن معدي وعامرِ	وفي الصحو تلقاءُ بعضِ العجائزِ

هذا ما انتهى إلينا من هذا الباب والحمد لله الكريم الوهاب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الطاهرين والحمد لله رب العالمين.

(١) الصهباء: الخمر.

(٢) الأعوجيات: فرسٌ أصلية.

الباب الثاني والأربعون: في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة وفيه فصول

الفصل الأول: في المدح والثناء

المدح وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها يكون نعتاً حميداً. وهذا يصح من المولى في حق عبده. فقد قال الله تعالى في حق نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(١) وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾^(٣) إلى آخر الآية فعلى هذا يجوز مدح الإنسان بما فيه من الأخلاق الحميدة. وأما قوله ﷺ: «إذا رأيتم المادحين فاحثوا في وجوههم التراب»، فقد قال العتيبي: هو المدح الباطل والكذب. وأما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به، وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول الله ﷺ، ولم ييلفنا أنه حثا في وجه ممدوح تراباً. وقد مدح هو ﷺ المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم. وفي حثو التراب معنيين؛ أحدهما التغليظ في الرد عليه، والثاني كأنه يقال له يكفيك التراب. وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا مدح قال: اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، واللهم اجعلني خيراً مما يحسبون واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون. ومدح سارية الديلي رسول الله ﷺ وهو سارية الذي أمره عمر رضي الله عنه على السرية، وناداه في خطبته بقوله: يا سارية الجبل، فمن مدحه في رسول الله ﷺ قوله:

فما حملت من ناقة فوق ظهرها أبر وأوفى ذمة من محمد
وهو أصدق بيت قالته العرب، ومن أحسن ما مدحه به حسان رضي الله عنه قوله:

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تكذب الناء
خلفت مبراً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

ومن أحسن ما مدحه به عبد الله بن رواحة الأنصاري رضي الله عنه قوله:

لو لم تكن فيه آيات مينة كانت بديته تتيك بالخبر

ولما حججت وزرته ﷺ تطلعت على جنبه المعظم وامتدحته بأيات مطوّلة وأنشدتها بين يديه بالحجرة الشريفة، تجاه الصندوق الشريف، وأنا مكشوف الرأس وأبكي من جمعتها:

(١) سورة: ص، الآية: ٤٤.

(٢) سورة: القلم، الآية: ٤.

(٣) سورة: المؤمنون، الآية: ١ - ٢.

أَرْجُو رِضَاكَ وَاحْتَمِي بِحِمَاكَ
 قَلْباً مَشُوقاً لَا يَرُومُ سِوَاكَ
 وَاللَّهِ يَعْلَمُ أَنَّنِي أَهْوَاكَ
 كَلًّا وَلَا خُلِقَ الْوَرَى لَوْلَاكَ
 وَالشَّمْسُ مَشْرِقَةً بَنُورٍ بَهَاكَ
 بِكَ قَدْ سَمَتْ وَتَزَيَّنَتْ لِسْرَاكَ^(١)
 وَلَقَدْ دَعَاكَ لِقَرِيبٍ وَحَبَاكَ
 نَادَاكَ رُبُّكَ لَمْ تَكُنْ لِسِوَاكَ
 مِنْ ذَنْبِهِ بِكَ فَازَ وَهُوَ أَبَاكَ
 بَرِّدَا وَقَدْ خَمَدَتْ بَنُورٌ سَنَاكَ^(٢)
 فَأَزِيلُ عَنْهُ الضَّرُّ حِينَ دَعَاكَ
 بِصِفَاتِ حُسْنِكَ مَا دِحَا لِعُلَاكَ
 بِكَ فِي الْقِيَامَةِ مَرْتَجٍ لِنَدَاكَ
 وَالرَّسُلُ وَالْأَمَلَاكُ تَحْتَ لِسَاكَ
 وَفَضَائِلُ جَلَّتْ فَلَيْسَ تَحَاكِي
 وَالضُّبُّ قَدْ لَبَّاكَ حِينَ أَتَاكَ
 بِكَ تَسْتَجِيرُ وَتَحْتَمِي بِحِمَاكَ
 وَشَكَا الْبَعِيرُ إِلَيْكَ حِينَ رَاكَ
 وَسَمَتْ إِلَيْكَ مَجِيئةً لِنَدَاكَ
 صَمٌّ^(٣) الْحَصَى بِالْفَضْلِ فِي يَمَانِكَ
 وَالْجَلْعُ حَزْنٌ إِلَى كَرِيمٍ لِقَاكَ
 وَالصَّخْرُ قَدْ غَاصَتْ بِهِ قَدَمَاكَ
 وَمَلَأَتْ كُلَّ الْأَرْضِ مِنْ جَدْوَاكَ^(٤)
 وَابْنُ الْحَصِينِ شَفِيتُهُ بِشَفَاكَ
 جَرَحَا شَفِيتُهُمَا بِلَمْسِ يَدَاكَ
 فِي خَيْرٍ فَشَفَى بِطِبِّ لِمَاكَ^(٥)
 قَدْ مَاتَ أَحْيَاهُ وَقَدْ أَرْضَاكَ

يَا سَيِّدَ السَّادَاتِ جُشِكَ قَاصِداً
 وَاللَّهِ يَا خَيْرَ الْخَلَائِقِ إِنَّ لِي
 وَوَحَقَّ جَاهُكَ إِنَّنِي بِكَ مَغْرَمٌ
 أَنْتَ الَّذِي لَوْلَاكَ مَا خُلِقَ امْرُؤُ
 أَنْتَ الَّذِي مَنْ نُورُكَ الْبَلَدُ اكْتَسَى
 أَنْتَ الَّذِي لَمَّا رُفِعَتْ إِلَى السَّمَاءِ
 أَنْتَ الَّذِي نَادَاكَ رَبُّكَ مَرْجَباً
 أَنْتَ الَّذِي فِينَا سَأَلْتَ شِفَاعَةً
 أَنْتَ الَّذِي لَمَّا تَوَسَّلَ آدَمُ
 وَبِكَ الْخَلِيلُ دَعَا فَعَادَتْ نَارُهُ
 وَدَعَاكَ أَيُّوبُ لَضَرْ مَسَّهُ
 وَبِكَ الْمَسِيحُ أَتَى بِشِيراً مُخْبِراً
 وَكَذَلِكَ مُوسَى لَمْ يَزَلْ مُتَوَسِّلاً
 وَالْأَنْبِيَاءُ وَكُلُّ خَلْقٍ فِي الْوَرَى
 لَكَ مَعْجَزَاتٌ أَحْجَزَتْ كُلَّ الْوَرَى
 نَطَقَ الْفِرَاعُ بِسْمَةِ لَكَ مَعْلَناً
 وَالذُّبُّ جَاءَكَ وَالْغَزَالَةُ قَدْ أَتَتْ
 وَكَذَا الْوَحُوشُ أَتَتْ إِلَيْكَ وَسَلَّمَتْ
 وَدَعَوَتْ أَشْجَاراً أَتَتْكَ مَطِيعَةً
 وَالْمَاءُ فَاضَ بِرَاحَتِكَ وَسَبَّحَتْ
 وَعَلَيْكَ ظَلَمَتِ الْغَمَامَةُ فِي الْوَرَى
 وَكَذَلِكَ لَا أَثَرَ لِمَشِيكَ فِي الثَّرَى
 وَشَفِيتَ ذَا الْعَامَاتِ مِنْ أَمْرَاضِهِ
 وَرَدَدْتَ عَيْنَ قَتَادَةٍ بَعْدَ الْعَمَى
 وَكَذَا حَيَّبَ وَابْنُ عَفْرَا عِنْدَمَا
 وَعَلَيَّ مِنْ رَمَدٍ بِهِ دَاوَيْتُهُ
 وَسَأَلْتَ رَبُّكَ فِي ابْنِ جَابِرٍ بَعْدَمَا

(١) تزيت لسراكا: أي بإسراء النبي ﷺ.

(٢) بنور سناكا: نورك.

(٣) صم: التي لا تسمع.

(٤) جدواكا: عطايك.

(٥) اللمي: سمرة بالشفاء.

وَمَسَّنَتْ شَاةً لَأَمْ مَعْبِدَ بَعْدَمَا
وَدَعَوْتَ عَامَ الْمَحَلِّ رُبُّكَ مَعْلَنًا
وَدَعَوْتَ كُلَّ الْخَلْقِ فَاتَّقَادُوا إِلَى
وَحَفَّضْتَ دِينَ الْكَفْرِ يَا عَلَمَ الْهَدَى
أَعْدَاكَ عَادُوا فِي الْقَلْبِ بِجَهْلِهِمْ
فِي يَوْمٍ بَدَرَ قَدْ أَتَيْتَ مَلَايِكَ
وَالْفَتْحُ جَاءَكَ يَوْمَ فَتَحَكَ مَكَّةَ
هُودٌ وَيُونُسُ مِنْ يَهَاكَ تَجَمُّلًا
قَدْ قُتَّتْ يَا طَهَ جَمِيعَ الْأَنْبِيَا
وَاللَّهُ يَا يَاسِينَ مِثْلَكَ لَمْ يَكُنْ
عَنْ وَصْفِكَ الشُّعْرَاءُ يَا مَذْثِيرَ
إِنْجِيلِ عِيسَى قَدْ أَتَى بِكَ مَجْبِرًا
مَاذَا يَقُولُ الْمَادِحُونَ وَمَا عَسَى
وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ الْبَحَارَ مَدَادُهُمْ
لَمْ تَقْدِرِ الْقُلُوبُ تَجَمُّعُ فِزَّةٍ
لِي فِيكَ قَلْبٌ مَغْرَمٌ يَا سَيِّدِي
فَإِذَا سَكَّتْ فَمِنْكَ صَمْتِي كُلُّهُ
وَإِذَا سَمِعْتُ فَمِنْكَ قَوْلًا طَيِّبًا
يَا مَالِكِي كُنْ شَافِعِي مِنْ فَاغْتِي
يَا أَكْرَمَ الثَّقَلَيْنِ يَا كُنْزَ الْوَرَى
أَنَا طَامِعٌ فِي الْجُودِ مِنْكَ وَلَمْ يَكُنْ
فَمَسَاكَ تَشْفَعُ عِنْدَ يَوْمِ حِسَابِهِ
وَلَأَنْتَ أَكْرَمُ شَافِعٍ وَمُشْفِعٍ
فَاجْعَلْ قِرَائِي شِفَاعَةً لِي فِي غَدٍ
صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ يَا خَيْرَ الْوَرَى
وَعَلَى صَحَابِكَ الْكَرَامِ جَمِيعِهِمْ

نَشَفْتُ فِدْرُثَ مَنْ شَفَا رَقِيكَ^(١)
فَانْهَلْ قَطَرُ السَّحَابِ عِنْدَ دَعَاكَ
دَعَاكَ طَوْعًا سَامِعِينَ زِدَاكَ
وَرَفَّقْتَ دِينَكَ فَاسْتَقَامَ هَذَا
صَرَعِي وَقَدْ حَرَمُوا الرِّضَا بِجَهْلِكَ
مَنْ عِنْدَ رَبِّكَ قَاتَلَتْ أَعْدَاكَ
وَالنَّصْرُ فِي الْأَحْزَابِ قَدْ وَافَاكَ
وَجَمَالُ يَوْمَافٍ مِنْ ضِيَاءِ سَنَاكَ
نُورًا فَسُبْحَانَ الَّذِي سَوَّاكَ
فِي الْعَالَمِينَ وَحَقُّ مَنْ نَبَّأَكَ
عَجَزُوا وَكَلَّوْا عَنْ صِفَاتِ عِلَّاكَ
وَأَنَّى الْكَتَابُ لَنَا بِمَدْحِ حِلَّاكَ
أَنْ يَجْمَعَ الْكُتُبُ مِنْ مَعْنَاكَ
وَالْعُشْبُ أَقْلَامُ جُؤْلَنَ لَذَاكَ
أَبْدًا وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ إِدْرَاكَ
وَحَشَايَةُ^(٢) مَحْشُورَةٌ بِهَوَاكَ
وَإِذَا نَفَقْتُ فَمَادَحُ عَلَيْكَ
وَإِذَا نَظَرْتُ فَلَا أَرَى إِلَّاكَ
إِنِّي قَقِيرٌ فِي الْوَرَى لِفَنَّاكَ
جُذْ لِي بِجُودِكَ وَارْضِنِي بِرِضَاكَ
لَا بِنِ الْخَطِيبِ مِنَ الْأَنَامِ سَوَاكَ
فَلَقَدْ غَدَاً مَسْتَمَكًا بِقُرَاكَ
وَمِنْ التَّجَا لِحَمَّاكَ نَالَ وَفَاكَ
فَعَسَى أَرَى فِي الْحَشْرِ تَحْتَ لَوَاكَ
مَا حَرُّ مَشْنَقٍ إِلَى مَنَوَاكَ
وَالنَّابِيعِينَ وَكُلَّ مَنْ وَالَاكَ

وماذا عسى أن يقول المادحون في وصف من مدح الله تعالى، وأثنى عليه وقد قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، والله لو أن البحار مداد، والأشجار أقلام، وجميع الخلائق كتاب، لما استطاعوا أن يجمعوا التزير^(٣) اليسير من

(١) الرقية: الدعاء.

(٢) الحشاة: بقية النفس.

(٣) التزير: القليل.

بعض صفاته، ولكلوا عن الأتيان ببعض بعض وصف معجزاته ﷺ. ومدح رجل هشام بن عبد الملك فقال له: يا هذا إنه قد نهى عن مدح الرجل في وجهه. فقال: ما مدحتك ولكن ذكرتك نعم الله عليك لتجدد لها شكراً. فقال له هشام: هذا أحسن من المدح، ووصله وأكرمه. وكتب رجل إلى عبد الله بن يحيى بن خاقان: رأيت نفسي فيما أتعاطى من مدحك كالمخير عن ضوء النهار الباهر، والقمر الزاهر، وأيقنت أنني حيث أنتهى بي القول منسوب إلى العجز مقصر عن الغاية. فانصرفت عن الثناء عليك، إلى الدعاء لك، وولكت الأخبار عنك إلى علم الناس بك. وقال الحرث بن ربيعة في رجل من آل المهلب:

ففى دهره شطران فيما ينوءه ففى بأسه شطر وفي جوده شطر
فلا من بغاة الخير فى عينه قذى ولا من زئير الحرب فى أذنه وقر^(١)

وقال أعرابي لرجل: لا يذم بلد أنت تأويه^(٢)، ولا يشتكي زمان أنت فيه. وكان الحجاج يستقل زياد بن عمرو العكلي، فلما قدم على عبد الملك بن مروان قال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو وسهمك الذي لا يطيش، وخادمك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم، فلم يكن بعد ذلك على قلب الحجاج أخف منه. وقال رجل لآخر: أنت بستان الدنيا، فقال له: وأنت النهر الذي يسقي منه ذلك البستان. وقال رجل لأبي عمرو الزاهد صاحب كتاب اليقوتة في اللغة: أنت والله عين الدنيا. فقال له: وأنت والله نور تلك العين. وقال القاسم بن أمية بن أبي الصلت الثقيفي:

قومٌ إذا نزل الغريبٌ بدارهم تركبوه رب صواهل^(٣) وقيان
وإذا دعوتهم ليوم كريهٍ سلوا شعاع الشمس بالفرسان
وقال أوس بن حاتم الطائي:

فإن تكحى مارية الخير حاتماً فما مثله فينا ولا في الأعاجم
ففى لا يزال الدهر أكبر همِّه فكاك أسير، أو معونة غارم
وقال ابن حمدون في آل المهلب:

آل المهلب منشر أمجاد ورثوا المكارم والوفاء فسادوا
شاد المهلب ما بنى أباه وأتى بئوه ما بئاه فسادوا
وكذلك من طابث مفارس نيه ونى له الآباء والأجداد

وكان الفرزدق هجاء لعمر بن هبيرة. فلما سجن ونقب له السجن، وسار هو وبنوه تحت الأرض قال الفرزدق:

ولما رأيت الأرض قد سدد ظهرها ولم يبق إلا بطئها لك مخرجاً
دعوت الذي ناداه يونس بعدما ثوى^(٤) في ثلاث مظلمات فقرجاً

(١) الورق: ثقل السمع.

(٢) تأويه: تسكنه وترعاه.

(٣) صواهل: الأفراس.

(٤) ثوى: رقد.

فقال ابن هيرة: ما رأيت أشرف من الفرزدق هجاني أميراً، ومدحني أسيراً. وقال سري بن عبد الرحمن الرفاء في خالد بن حاتم:

يا واحد العرب الذي دانت له
إنني لأرجو إن تقيتكَ سالماً
وقال كعب بن مالك الأنصاري في آل هاشم:

يا آل هاشم الإله جاكم
قوم لأصلهم السيادة كلها
وقال الحسين بن دعلج الخزاعي:

ملك الأمور بجوده وحسامه
فأطاع أمر الجود في أمواله
وقال آخر:

يلقى السيوف بصدوره وينحره^(١)
ويقول للطرف اصطبر لسنى القنا
وإذا تراءى شخص ضيف مقبل
أومى إلى الكوماء هذا طارق
وقال شاعر بني تميم:

إذا لبسوا عمائمهم طروها
يبيح ويشنري لهم سواهم
إذا ما كنت جاز بني تميم

وقالت امرأة من بني نمير وقد حضرتها الوفاة وأهلها مجتمعون: من ذا الذي يقول:

لممري ما رماح بني نمير
بطائش الصدور ولا القصار^(٢)

قالوا: زياد الأعجم. قالت: أشهدكم أن له الثلث من مالي. وكان مالاً كثيراً. وأثنى رجل على رجل فقال: هو أفصح أهل زمانه إذا حدث، وأحسنهم استماعاً إذا حدث، وأمسكهم عن الملاحاة^(٣) إذا خولف يعطي صديقة النافلة، ولا يسأل الفريضة له نفس عن الفحشاء محصورة على المعالي، مقصورة كالذهب الإبريز الذي يمز كل أوان، والشمس المنيرة التي لا تخفى بكل مكان، هو النجم المضيء للحيران والمنهل العذب للعطشان، وقال الحسن بن هانئ:

(١) النحر: أعلى الصدر.

(٢) القصار: أصل العنق.

(٣) الملاحاة: المراء والجدال الفارغ.

إذا نحنُ أثينا عليك بمصالح
وإن جرت الألفاظ يوماً بمدح
وله في الفضل بن الربيع:

لقد نزلت أبا العباس منزلة
وكلت بالدهر عيناً غير غافلة
وقال زياد الأعجم في محمد بن القاسم الثقفي:
إن المنابر أصبحت مختالة
قاد الجيوش لسبع عشرة حجة
ومن بدائع مدائح المتنبّي قوله:

لبت المدائح تستوفي مناقبه^(١)
خُذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به
وقد وجدت مكان القول ذا سعة
فما كليب وأهل الأعصر الأول
في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل
فإن وجدت لساناً قاتلاً قتل

ومدح أبو العتاهية عمرو بن العلاء فأعطاه سبعين ألفاً، وخلع عليه خلعاً ستيه، حتى أنه لم يستطع أن يقوم فغار الشعراء منه. فجمعهم وقال: يا الله العجب ما أشد حسد بعضكم لبعض، إن أحدكم يأتينا لمدحنا فيتنزل في قصيدته بخمسين بيتاً فما يبلغنا حتى يذهب رونق شعره. وقد تشبب أبو العتاهية بأبيات يسيرة ثم قال:

إنني أمنت من الزمان ومصرفه
لو يستطيع الناس من إجلاله
إن المطايا تشتكك لأنها
فإذا وردن بنا وردن خفافاً
لما علقن من الأمير جبالا
جعلوا له حرّ الوجوه نعالا
قطعت إليك سباسباً^(٢) ورمالا
وإذا صرّنا بنا صرّنا ثقالا

ووفد أبو نواس على الخصيب بمصر فأذن له وعند الشعراء، فأشد الشعراء أشعارهم، فلما فرغوا قال أبو نواس: أنشد أيها الأمير قصيدة هي كمصا موسى تلقف ما صنعوا. قال: أنشد. فأشدّه قصيدته التي منها قوله:

إذا لم تَزُرْ أرضَ الخصيبِ ركبنا
فأني فتى بعد الخصيبِ تزور
فأني يشتري حسنَ الثناء بماله
ويعلم أن البدائرات تدور
فما فاتهُ جُودٌ ولا ضلُّ دونه
ولكن يسيّر الجود حيث يسيّر

فاهترّ الخصيب لها طرباً وأمر له بألف دينار ووصيف ووصيفة.

(١) مطرحاً: متزلاً ومرمى.

(٢) مناقبه: حسناته.

(٣) سباسباً: مسافات بعيدة.

وحكي أن أبا دلف سار يوماً مع أخيه معقل فرأيا امرأتين تتماشيان، فقالت إحداهما للآخرى: هذا أبو دلف. قالت: نعم، الذي يقول فيه الشاعر:

إنما الدنيا أبو دلف بين ياديه ومحتضره
فلماذا ولي أبو دلف ولي الدنيا على أثره

فبكى أبو دلف حتى جرت دموعه. فقال له معقل: ما لك يا أخي تبكي؟ فقال: لأنني لم أقض حق الذي قال هذا. قال: أو لم تعطه مائة ألف درهم؟ قال: والله ما في نفسي حسرة إلا لكوني لم أعطه مائة ألف دينار. ويقال هذه المدحة فأين المنحة؟ قال بعضهم:

إذا ما المدح صار بلا نوال من الممدوح كان هو الهجاء

وامتدح محمد بن سلطان المعروف بابن جيوش محمد بن نصر صاحب حلب فأجازه بألف دينار. ثم مات محمد بن نصر، وقام ولده نصر مقامه، فقصده محمد بن سلطان بقصيدة مدحه بها منها:

تباعدت عنكم حرمة لا زهادة وسرت إليكم حين مني الضر
فجاد أبو نصر بألف تصرمت وأنني عليم أن سيخلفها نصر

فلما فرغ من إنشادها قال نصر: والله لم قال سيضاعفها نصر لاضعفتها له وأعطاه ألف دينار في طبق من فضة. ومدح بعض الشعراء، وقيل هو البديع الهمداني إنساناً فقال:

يكاد يحكيه صوب الغيث منكباً لو كان طلق المجيا يطر الذهب
والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

وقال آخر:

أخو كرم يفضي الوري من بساطه إلى روض مجذ بالسماح مجود
وكم لجبا الراغبين لذته من مجال سجود في مجالس جود

ويقال: فلان رفيق الجود ودخيله، وزميل الكرم ونزله، وغرة الدهر وتحجيلة، مواهبه الأنواء، وصدرة الدهناء، عون موقوف على اللهيف، وغوثة مبدول للضعيف، يطفو جوده على موجوده، وهمة على قدرته، يتابع الجود تنجر من أنامله، وربع السماح يضحك عن فواضله، إن طلبت كريماً في جوده، مث قبل وجوده، أو ماجداً في أخلاقه مث ولم تلاقه، بأسل تعمّد الإقدام، حيث تزل الأقدام، وشجاع يرى الإحجام^(١) عاراً لا تمحوه الأيام، له خلق لو مازج البحر لنفى ملوحته وصفى كدورته، خلق كنسيم الأسحار على صفحات الأنهار، وأطيب من زمن الورد في الأيام، وأبهج من نور البدر في الظلام، خلق يجمع الأهواء المتفرقة على محبته، ويؤلف الآراء المشتتة في مودته، هو ملح الأرض إذا فسدت، وعمارة الدنيا إذا خرجت. يحل دقات الإشكال، ويزيل جلال الأشكال. البيان أصغر صفاته، والبلاغة عنوان خطراته كأنما أوحى التوفيق إلى صدره، وحبس الصواب بين طبعه وفكره، فهو يعث

(١) الإحجام: النكوص والتردد.

بالكلام ويقول به بألین زمام، حتى كان الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خواطره، والمعاني تتفاير في الإمثال لأوامره، يوجز فلا يخل، ويطنب فلا يمل، كلامه يشتد مرة حتى تقول الصخر أو آيس، ويلين تارة حتى تقول الماء أو أسلس. فهو إذا أنشأ وشى، وإذا عبّر حبر، وإذا أوجز أعجز، تاهت به الأيام، وباهت في يمينه الأقاليم، له أدب لو تصوّر شخصاً لكان بالقلوب مختصاً قال الشاعر:

لَه خَلَقَ عَلَى الْأَيَّامِ يَصْفُو كَمَا تَصْفُو عَلَى الزَّمَنِ الْعَقَارُ^(١)

وقال آخر:

لَوْ كَانَ يَحْوِي الرُّوضُ نَاصِرَ خَلْقِهِ مَا كَانَ يَذْبُلُ نُورُهُ بِشَتَائِهِ
أَوْ قَابِلُ الْأَفْلَاقِ طَالِعُ سَعْدِهِ مَا صَارَ نَحْسٌ فِي نَجُومِ سَمَائِهِ

وقال آخر:

وَوَجْهَكَ بَدَرٌ فِي الْغِيَاهِبِ^(٢) مَشْرِقٌ وَكُفُّكَ فِي شَهَبِ السَّيْنِ غَمَامٌ
عَجِيبٌ لِبَدْرِ لَا يَزَالُ أَمَامَهُ تَلْقَى مَكَانَ الْبَرْقِ مِنْهُ حَسَامٌ

وقال الحسين بن مطير الأسدي:

لَه يَوْمٌ بؤْسٍ فِيهِ لِلنَّاسِ أَبُوسٌ فَيَمْطُرُ يَوْمَ الْجُودِ مِنْ كُفِّهِ النَّدى
فَلَوْ أَنَّ يَوْمَ الْبؤْسِ خَلَى عِقَابُهُ وَلَوْ أَنَّ يَوْمَ الْجُودِ خَلَى يَمِينُهُ

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

وَالله مَا عَجَبِي لِقُدْرِكَ إِنَّهُ قَلَزَ عَلَى بَاغِي مَدَاهُ بَعِيدُ
إِلَّا لَكُونُكَ لَسْتَ تَنْكُرُو وَحْشَةً فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَأَنْتَ وَحِيدُ

ولصفي الدين الحالي:

أَتَنِي فَتْنِينِي^(٣) صَفَائِكَ مَظْهَرًا عِجَا وَكَمْ أَعْيَتْ صَفَائِكَ خَاطِبًا
لَوْ أَنَّنِي وَالْخُلُقَ جَمَعَا السَّن نَتْنِي عَلَيْكَ لَمَا قَفَّيْنَا الْوَاجِبَا

وللشيخ برهان الدين القيراطي:

أَوْصَافُكُمْ تَجْرِي أَحَادِيثُهَا مَجْرَى النُّجُومِ الزُّهَرِ فِي الْآفَاقِ

(١) العقار: الخمر العتيقة.

(٢) الغياهب: الظلمات.

(٣) أتنى: أطري. وتنيني: تمنعني.

كما أحاديثُ النَّدَى عنكم
وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

رَوَتْ عَنْكَ أَخْبَارُ الْمُعَالِي مُحَاسِنَا
فِرْجُوكَ عَنْ بَشِيرٍ وَكُفُّكَ عَنْ عَطَا
وقال غيره:

مَنْ زَادَ بِإِيَّكَ لَمْ تَبْرَحْ جَوَارِحُهُ
فَالْعَيْنُ عَنْ قِرَّةٍ وَالْكَفُّ عَنْ صَلَوةٍ
ولأبي فراس بن حمدان:

لَئِنْ خُلِقَ الْأَنَامُ لِحُبِّ كَاسٍ
فَلَمْ يُخْلَقْ بِنُورِ حَمْدَانٍ إِلَّا
وقال آخر:

إِنَّ الْهَبَاتِ الَّتِي جَادَ الْكَرَامُ بِهَا
مَا زِلْتَ تَسْبِقُ حَتَّى قَالَ حَاسِدُكُمْ
ولمحمد بن مناذر في آل برمك:

أَتَانَا بَنُو الْأَمْلَاجِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ
لَهُمْ رَحْلَةٌ فِي كُلِّ عَامٍ إِلَى الثَّنَادِ
إِذَا نَزَلُوا بِطَحَاءَ^(١) مَكَّةَ أَشْرَقَتْ
فَمَا خُلِقَتْ إِلَّا لَجُودِ أَكْفُهُمْ
إِذَا رَامَ يَحْيَى الْأَمْرَ ذَلَّتْ صَعَابُهُ

ولما عزل إبراهيم بن المنذر عن صدقات البصرة تلقاه مجنون وأنشده:

لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ قَوْمٍ أَجْدَبُوا
نَظَرَ اللَّهِ لَهُمْ مَنْ يَتَنَا
يَا أَبَا إِسْحَاقَ سِرِّ فِي دَعَا^(٢)
إِنَّمَا أَنْتَ رَيْيَعٌ بَاكِرٌ

وقال آخر:

(١) بطحاء: ميل مكة ووادئها.

(٢) دعة: هناية.

قوم لقييل اقمعدوا يا آل عباس
إلى السماء فأتتم سادة الناس

لو كان يعقد فوق الشمس من كرم
ثم ارتقوا في شعاع الشمس وارتفعوا
وللحسن بن مطير الأسدي في المهدي:

ما كان في الناس إلا أنت معبود
لا بل يمينك منها صور الجود
في السود طراً إذن لا يبيض السود

لو يعبد الناس يا مهدي أفضلهم
أضحت يمينك من جود مصورة
لو أن من نوره مثقال خردلوة

وقال آخر:

وبررتني حتى رأيتك والدا
ما كنت إلا راعماً لك ساجدا

أوليتني نعماً وفضلاً زائداً
أقسنت لو جاز السجود لمنعم

وقال آخر:

وحظك في الدنيا جزيل موقر
رعى الله كفاً فيه بحر وأنهر
فلا زالت الحساد تنبى^(١) وتصفر
لأنني قبير والفقير مقصر

ثاؤك في الدنيا من المك أعطر
وكثك بحر والأنامل أنهر
أصيلك بالرحمن من كل حاسد
لساني قصير في مديحك سيدي

الفصل الثاني: في شكر النعمة

أما الشكر الواجب على جميع الخلاق فشكر القلب، وهو أن يعلم العبد أن النعمة من الله عز وجل، وأن لا نعمة على الخلق من أهل السماوات والأرض إلا وبدايتها من الله تعالى حتى يكون الشكر لله عن نفسك وعن غيرك. والدليل على أن الشكر محله القلب وهو المعرفة قوله تعالى: ﴿وما بكم من نعمي فمن الله﴾^(٢) أي أيقنوا أنها من الله. وقيل: الشكر معرفة العجز عن الشكر. وقد روي أن داود عليه السلام قال: إلهي كيف أشكرك، وشكري لك نعمة من عندك. فأوحى الله تعالى إليه: الآن قد شكرتني. وفي هذا يقال: الشكر على الشكر أتم الشكر. ولحمود الوراق:

عليّ له في مثلها يجب الشكر
وإن طالت الأيام وأنقص العمر
وإن مس بالفسر أعقبها الأجر
تضيئ بها الأوهام والسر والجهر

إذا كان شكري نعمة الله نعمة
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضل
إذا مس بالسراء^(٣) عم سرورها
فما منهما إلا له فيه نعمة

وفي مناجاة وفعلت موسى عليه السلام: إلهي خلقت آدم بيديك، وفعلت فكيف أشكرك؟ فقال: اعلم أن ذلك

(١) تنبى: تظهر غية.

(٢) سورة: النحل، الآية: ٥٣.

(٣) السراء: الخير والسرور.

مني فكانت معرفته بذلك شكره لي. وأما شكر اللسان فقد قال الله تعالى فيه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(١) وروى عن النعمان بن بشير رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يشكر القليل، لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله والتحدث بالنعمة شكر». وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: تذكروا النعم فإن ذكرها شكر. وأما الشكر الذي في الجوارح. فقد قال الله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾^(٢) الآية فجعل العمل شكراً.

وروي أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماء، فقيل له: يا رسول الله ﷺ، أفعل هذا بنفسك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبداً لله شكوراً؟ وقال أبو هارون: دخلت على أبي حازم فقلت له: يرحمك الله، ما شكر العينين؟ قال: إذا رأيت بهما خيراً ذكرته، وإذا رأيت بهما شراً سترته. قلت: فما شكر الأذنين؟ قال: إذا سمعت بهما خيراً حفظته، وإذا سمعت بهما شراً نسيت. وفي حكمة إدريس عليه الصلاة والسلام: لن يستطيع أحد أن يشكر الله على نعمه بمثل الإنعام على خلقه ليكون صانعاً إلى الخلق، مثل ما صنع الخالق إليه، فإذا أردت أن تحرس دوام النعمة من الله تعالى عليك فأدم مواساة الفقراء. وقد وعد الله تعالى عباده بالزيادة على الشكر. فقال تعالى: ﴿لَنُكْرِمَنَّكُمْ شَرْكُتُمْ لِأَزْيَلِكُمْ﴾^(٣) وقد جعل لعباده علامة يعرف بها الشاكر، فمن لم يظهر عليه المزيد علمنا أنه لم يشكر، فإذا رأينا الغني يشكر الله تعالى بلسانه وماله في نقصان، علمنا أنه قد أخل بالشكر، إما إنه لا يركي ماله، أو يركيه لغير أهله، أو يؤخره عن وقته، أو يمنع حقاً واجباً عليه من كسوة عريان، أو إطعام جائع أو شبه ذلك فيدخل في قول النبي ﷺ «لو صدق السائل ما أفلح من رده». قال الله تعالى: ﴿إِنَ اللّٰهُ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغَيِّرُوْا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(٤) وإذا غيروا ما بهم من الطاعات غيّر الله ما بهم من الإحسان. وقال بعض الحكماء: مَنْ أَعْطَىٰ أَرْبَعًا، لَمْ يَمْنَعْ مِنْ أَرْبَعٍ؛ مَنْ أَعْطَىٰ الشُّكْرَ لَا يَمْنَعْ الْمَزِيدَ. وَمَنْ أَعْطَىٰ التَّوْبَةَ لَا يَمْنَعْ الْقَبُولَ. وَمَنْ أَعْطَىٰ الْإِسْتِخَارَةَ لَمْ يَمْنَعْ الْخَيْرَ. وَمَنْ أَعْطَىٰ الْمَشُورَةَ لَمْ يَمْنَعْ الصَّوَابَ. وقال المغيرة بن شعبه: اشْكُرْ مَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ، وَأَنْعِمْ عَلَىٰ مَنْ شَكَرَكَ فَإِنَّهُ لَا بَقَاءَ لِلنَّعْمِ إِذَا كَفَرْتَ، وَلَا زَوَالَ لَهَا إِذَا شَكَرْتَ. وكان الحسن يقول: ابن آدم متى تنفك من شكر النعمة وأنت مرتين بها. كلما شكرت نعمة تجدد لك بالشكر أعظم منها عليك فأنت لا تنفك بالشكر من نعمة إلا إلى ما هو أعظم منها. وروي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه دعي إلى أقوام ليأخذهم على رية فافترقوا قبل أن يأخذهم عثمان، فأعتق رقبة شكراً لله تعالى إذ لم يجر على يديه فضيحة مسلم.

ويروى أن نملة قالت لسليمان بن داود عليهما السلام: يا نبي الله أنا على قدرتي أشكر الله منك. وكان راجباً على فرس ذلول^(٥) فخر ساجداً لله تعالى، ثم قالت: لولا أنني أبجلك لسألتك أن تتزع مني ما أعطيتني. وقال صدقة بن يسار: بينما داود عليه السلام في محرابه إذا مرت به دودة فتصكر في خلقها، وقال: ما يعبا الله بخلق هذه، فأنطقها الله تعالى له، فقالت: يا داود تعجبك نفسك وأنا على قدر ما آتاني الله تعالى أذكرك الله وأشكرك له منك على ما آتاك. وقال

(١) سورة: الضحى، الآية: ١١.

(٢) سورة: سبأ، الآية: ١٣.

(٣) سورة: إبراهيم، الآية: ٧.

(٤) سورة: الرعد، الآية: ١١.

(٥) فرس ذلول: فرس سهل القيادة.

علي رضي الله عنه: احذروا نثار النعم فما كل شارد^(١) مردود. وعنه عليه السلام: «إذا وصلت إليكم أطراف النعم فلا تنفروا اتصالها بقلة الشكر». وقيل: إذا قصرت يداك على المكافأة فليطل لسانك بالشكر. وقال حكيم: الشعر ثلاث منازل؛ ضمير القلب، ونشر اللسان، ومكافأة اليد. قال الشاعر:

أفادتكُمُ النعماءُ مني ثلاثة يدي ولساني والضميرُ المحجبا

وقال ابن عائشة: كان يقال ما أنعم الله على عبد نعمة فظلم بها إلا أن كان حقاً على الله تعالى أن يزيلها عنه. وأشد أبو العباس بن عمار في المعنى:

أعاركَ ماله لتقومَ فيه بواجبه وتقضي بعضَ حقِّه
فلم تقضَ لطاعتهِ ولكن قويتَ على معاصيه برزقه

وقال آخر:

ولو أن لي في كل منبتِ شعرةٍ لساناً يُطيلُ الشكر كنت مقصرا

وقال محمد بن حبيب الراوية: إذا قل الشكر خسر المَن. وروي: إذا جحدت الصنيعة خسر الامتنان. ومثل بعض الحكماء: ما أضيع الأشياء؟ قال: مطر الجود في أرض سبخة لا يجف ثراها، ولا ينبت مرعاها، وسراج يوقد في الشمس، وجارية حسناء ترف إلى أعمى، وصنيعة تسدى إلى من لا يشكرها. وقال عبد الأعلى بن حماد: دخلت على المتوكل فقال: يا أبا يحيى قد هممت أن نصلك بخير فتدافعت الأمور. فقلت: يا أمير المؤمنين بلغني عن جعفر بن محمد الصادق أنه قال: من لم يشكر الهمة لم يشكر النعمة. وأشدته:

لاشكرنَ لك معروفاً هممتُ بهِ فإنَّ همَّكَ بالمعروفِ معروفُ
ولا الوُملُك إن لم يمضِ قدرُ فالشرُّ بالقدرِ المحترَمِ مصروفُ

وقال أبو فراس بن حمدان:

وما نعمةٌ مكفورةٌ قد صنعتها إلى غير ذي شكرٍ تمنعني أخرى
سأتي جيباً ما حييت فإني إذا لم أفدُ شكراً أفدْتُ بهِ أجراً

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من امتطى الشكر بلغ به المزيد. وقيل: مَنْ جعل الحمد خاتمة النعمة جعله الله فاتحة للمزيد. وقال ابن السماك: النعمة من الله تعالى على عبده مجهولة. فإذا فقدت عرفت. وقيل: مَنْ لم يشكر على النعمة فقد استدعى زوالها. وكان يقال: إذا كانت النعمة وسيمة فاجعل الشكر لها تيممة^(٢). وقال حكيم: لا تصطنعوا ثلاثة، اللئيم فإنه يمتزلة الأرض السبخة^(٣)، والفاحش فإنه يرى أن الذي صنعه إليه إنما هو لمخافة فحشه، والأحمق فإنه لا يعرف قدر ما أسديت إليه. وإذا اصطنعت الكريم فازرع المعروف واحصد الشكر. ودخل أبو نخيلة على السفاح لينشده، فقال: ما عسيت أن تقول بعد قولك لمسلمة:

(١) شارد: تائه.

(٢) تيممة: رقبة وجرز.

(٣) الأرض السبخة: المالحة لا تصلح لزراع.

أَسْلَمَةُ يَا فخر كُلِّ خَلِيفَةٍ وَيَا فَارِسَ الدُّنْيَا وَيَا جِبَلَ الْأَرْضِ
شَكَرْتُكَ إِنَّ الشُّكْرَ ذَيْنٌ عَلَى الْفَتَى وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتُهُ نِعْمَةً يَقْضِي
وَأَحْبَبْتُ لِي ذِكْرِي وَمَا كَانَ خَامِلاً وَلَكِنْ بَعْضَ الذِّكْرِ أَنْبَهُ مِنْ بَعْضِ

وسمعه الرشيد، فقال: هكذا يكون شعر الإشراف؛ مدح صاحبه ولم يضع نفسه. وعن نصر بن سيار عن
عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَنْعَمَ عَلَى رَجُلٍ نِعْمَةً فَلَمْ يَشْكُرْ لَهُ فِدْعَا عَلَيْهِ
اسْتَجِيبَ لَهُ». ثم قال نصر: اللهم إني أنعمت على بني سام فلم يشكروا اللهم اقتلهم، فقتلوا كلهم. وعن علي بن
الحسين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِيَشِيعَ مِنَ الطَّعَامِ فَيُحْمَدُ اللَّهُ تَعَالَى فَيُعْطِيهِ مِنَ الْأَجْرِ مَا
يُعْطِي الصَّائِمَ الْقَائِمَ، إِنْ اللَّهُ شَاكِرٌ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ». وعن محمد بن علي: ما أنعم الله على عبد نعمة، فعلم أنها من
الله، إلا كتب الله له شكرها قبل أن يحمد عليها. ولا أذن عبد ذنباً فعلم أن الله قد أطلع عليه، إن شاء غفر له، وإن
شاء أخذه قبل أن يستغفره، إلا غفر الله له قبل أن يستغفره. وأولى رجل رجلاً إغريباً خيراً فقال: لا أبلاك الله ببلاء
يعجز عنه صبرك. وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك، وأنشد بعضهم وأجاد:

سَأَشْكُرُ لَا أَنِي أَجَازِيكَ مَنْعاً بِشُكْرِي وَلَكِنْ كَيْ يَزَادَ لَكَ الشُّكْرُ
وَأَذْكُرُ أَيْمَاناً لَدَيَّ اصْطَنَعْتُهَا^(١) وَآخِرَ مَا يَبْقَى عَلَى الشَّاكِرِ الذِّكْرُ

وقال آخر:

أَوْلَيْتَنِي نِعْمَةً أَبُوحُ بِشُكْرِهَا وَكَفَيْتَنِي كُلَّ الْأُمُورِ بِأَسْرِهَا
فَلَا شُكْرَ لَكَ مَا حَبِيتَ وَإِنْ أَمْتُ فَلَتَشْكُرَنَّكَ أَعْظَمِي فِي قَبْرِهَا

وقال آخر:

أَيَا رَبِّ قَدْ أَحْسَنْتَ عَوْداً وَبِدَاءً إِلَيَّ فَلَمْ يَنْهَضْ بِإِحْسَانِكَ الشُّكْرُ
فَمَنْ كَانَ ذَا عَذْرِ لَدَيْكَ وَحُجَّةً فَعَذْرِي إِقْرَارِي بِأَنْ لَيْسَ لِي عَذْرُ

وقال محمود الوراق:

إِلَهِي لَكَ الْحَمْدُ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ عَلَى نِعْمٍ مَا كُنْتُ قَطُّ لَهَا أَهْلاً
إِنْ أَزِدْتُ تَقْصِيرًا تَزِيدُنِي تَفْضُلاً كَأَنِّي بِالتَّقْصِيرِ اسْتَوْجِبُ الْفَضْلَ

وقد أحسن نصيب في وصف الثناء والشكر بقوله:

فَعَايَظُوا وَأَنْشَرُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَفَائِبُ

وقال رجل من غطفان:

الشُّكْرُ أَفْضَلُ مَا حَاوَلْتُ مُلْتَمِئاً بِهِ الزِّيَادَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

قيل: أشكر المنعم عليك، وأنعم على الشاكر لك تستوجب من ربك الزيادة ومن أخيك المناصحة.

(١) اصطنعتها: أنعمت فيها علي.

الفصل الثالث: في المكافأة

قال رسول الله ﷺ: «من أسدى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تقدروا فادعوا له». ولما قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ قام يخدمهم بنفسه. فقيل له: يا رسول الله، لو تركنا كفيّناك. فقال: كانوا لأصحابي مكرمين. وقيل: أتى رجل من الأنصار إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال:

أذكر صنيعي إذا فاجأك^(١) ذو سفه يوم السقيفة والصديق مشغول

فقال عمر بأعلى صوته: ادن مني فدنا منه، فأخذ بئراعه حتى استشرفه الناس وقال: ألا إن هذا ردّ عني سفيهاً من قومه يوم السقيفة. ثم حمّله على نجيب وزاد في عطائه وولاه صدقة قومه وقرأ: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾^(٢). وقال رجل لسعيد بن العاص وهو أمير الكوفة: يدي عندك بيضاء. قال: وما هي؟ قال: كتبت بك فرسك فتقدمت إليك قبل غلمانك فأخذت بعضدك وأركبتك وأسقيتك ماء. قال: فأين كنت إلى الآن؟ قال: حجت عن الوصول إليك. قال: قد أمرنا لك بمائتي ألف درهم وبما يملكه الحاجب إذا حجبتك عنا.

وقال: قطري بن الفجاءة الخارجي أمره الحاجب ثم منّ عليه فأطلقه، فقيل له: عاود قتال عدو الله. فقال: هيئات شديداً مطلقها وأرق رقة معتقها. ثم قال:

أقاتل الحجاج عن سلطانهِ يدي تقرأ بأنها مولائهُ
ماذا أقول إذا وقفت إزاءهُ في الصف واحتجبت له فعلائهُ
أقول جاز علي لا أني إذا لأحق من جارت عليه ولائهُ
وتحدثت الأقوام أن صنائعاً عرست لدي فحفظت نخلائهُ^(٣)

واجتاز الشافعي رحمه الله تعالى بمصر في سوق الحدادين فسقط سوطه، فقام إنسان فأخذه ومسحه وناول له إياه. فقال لغلامه: كم معك؟ قال: عشرة دنانير. قال: ادفعها إليه، واعتذر له. واستنشد عبد الملك عامر الشعبي فأنشده لغير ما شاعر، حتى أنشد لحيان:

من سره شرف الحياة فلم يزَلْ في عصبه من صالح الأنصار
البائمين نفوسهم لنبيهم بالمشرفي^(٤) وبالقنا الخطار
الناظرين بأعين محمّرة كالجمر غير كليل الأبرار

فقام أنصاري فقال: يا أمير المؤمنين استوجب عامر الصلة، عليّ له ستون من الإبل كما أعطينا حسان يوم قالها. فقال عبد الملك: وله عندي ستون ألفاً، وستون من الإبل. وعن عليّ كرم الله وجهه: أحسنوا في عقب غيركم تحفظوا في عقبكم. وقال المدائني: رأيت رجلاً يطوف بين الصفا والمروة على بغلة، ثم رأته ماشياً في سفر فسأته

(١) فاجأك: فاجأك سفيه.

(٢) سورة: الرحمن، الآية: ٦٠.

(٣) نخلته: صارت كالحنظل المر.

(٤) المشرفي: السيف.

عن ذلك فقال: ركبته حيث يمشي الناس فكان حقاً على الله أن يرجلني^(١) حيث يركب الناس.

ومما جاء في المكافأة: ما حكى عن الحسن بن سهل قال: كنت يوماً عند يحيى بن خالد البرمكي وقد خلا في مجلسه لأحكام أمر من أمور الرشيد. فبينما نحن جلوس إذ دخل عليه جماعة من أصحاب الحوائج فقضاهما لهم، ثم توجهوا لشأنهم فكان آخرهم قياماً أحمد بن أبي خالد الأحول. فنظر يحيى إليه والتفت إلى الفضل ابنة وقال: يا بني، إن لأبيك مع أبي هذا الفتى حديثاً فإذا فرغت من شغلي هذا فذكرني أحدثك به، فلما فرغ من شغله وطعم، قال له إليه الفضل: أعزك الله يا أبي أمرتي أن أذكرك حديث أبي خالد الأحول. قال: نعم يا بني، لما قدم أبوك من العراق ليلم المهدي كان فقيراً لا يملك شيئاً، فاشتد بي الأمر إلى أن قال لي مَنْ في منزلي إننا قد كتمنا حالنا وزاد ضررنا ولنا اليوم ثلاثة أيام ما عندنا شيء نقتات به. قال: فبكيت يا بني لذلك بكاء شديداً، وبقيت ولهان حيران مطرقاً مفكراً، ثم تذكرت منديلاً كان عندي، فقلت لهم: ما حال المنديل؟ فقالوا: هو باق عندنا. فقلت: اذهبوه إليّ. فأخذته ودفعته إلى بعض أصحابي وقلت له: به بما تيسر فباعه بسبعة عشر درهماً فدفعته إلى أهلي، وقلت: انفقوها إلى أن يرزق الله غيرها. ثم بكرت من الغد إلى باب أبي خالد وهو يومئذ وزير المهدي، فإذا الناس وقوف على دارة ينتظرون خروجه، فخرج عليهم راكباً، فلما رأيته سلم عليّ، وقال: كيف حالك؟ فقلت: يا أبا خالد ما حال رجل يبيع من منزله بالأمس منديلاً بسبعة عشر درهماً. فنظر إليّ نظراً شديداً وما أجابني جواباً؛ فرجعت إلى أهلي كسير القلب وأخبرتهم بما اتفق لي مع أبي خالد. فقالوا: بئس والله ما فعلت توجهت إلى رجل كان يرتضيك لأمر جليل، فكشفت له سره وأطلعت على مكنون أمره فأزريت عنده بنفسك، وصغرت عنده منزلتك، بعد أن كنت عنده جليلاً فما يراك بعد اليوم إلا بهذه العين. فقلت: قد قضي الأمر الآن بما لا يمكن استدراكه. فلما كان من الغد بكرت إلى باب الخليفة، فلما بلغت الباب استقبلني رجل فقال لي: قد ذكرت الساعة بباب أمير المؤمنين. فلم ألتفت لقوله. فاستقبلني آخر فقال لي كمقالة الأول، ثم استقبلني حاجب أبي خالد فقال لي: أين تكون؟ قد أمرني أبو خالد بإجلاسك إلى أن يخرج من عند أمير المؤمنين. فجلست حتى خرج. فلما رأيته دعاني وأمر لي بمركوب. فركبت وسرت معه إلى منزله. فلما نزل قال: عليّ بفلان وفلان الحناطين^(٢)، فأحضروا فقال لهما: ألم تشتريا مني غلات السواد بثمانية عشر ألف درهم؟ قالوا: نعم، قال: ألم أشرط عليكم شركة رجل معكما؟ قالوا: بلى، قال: هو الرجل الذي اشترطت شركته لكما. ثم قال لي: قم معهما. فلما خرجنا قال لي: أدخل معنا بعض المساجد حتى نكلمك في أمر يكون له فيه الربح الهنيء. فدخلنا مسجداً فقالا لي: إنك تحتاج في هذا الأمر إلى وكلاء، وأمناء وكيالين وأعاون ومؤن لم تقدر منها على شيء، فهل لك أن تبيعنا شركتك بمال نعمله لك فتستغنى به، ويسقط عنك التعب والكلف، فقلت لهما: وكم تبدلان لي؟ قالوا: مائة ألف درهم. فقلت: لا أفعل. فما زالوا يزيديني، وأنا لا أرضى إلى أن قالوا لي: ثلثمائة ألف درهم ولا زيادة عندنا على هذا. فقلت حتى أشاور أبا خالد قالوا: ذلك لك. فرجعت إليه وأخبرته فدعا بهما وقال لهما: هل وافقتماه على ما ذكر؟ قالوا: نعم. قال: اذهبا فاقبضاه المال الساعة. ثم قال لي: أصلح أمرك ونهياً فقد قلدتك العمل. فأصلحت شأنني وقلدني ما وعدني به، فما زلت في زيادة حتى صار أمري إلى ما صار. ثم قال لولده الفضل: يا بني فما تقول في ابن من فعل بأبيك هذا الفعل، وما جزاؤه؟ قال: حق لعمرى وجب عليك له. فقال والله يا ولدي

(١) يرجلني: يترع مطيبي وأمضي على قدمي.

(٢) الحناط: المشتغل بالحنطة.

ما أجد له مكافأة غير أنني أعزل نفسي وأوليه. ففعل ذلك رضي الله عنه وهكذا تكون المكافأة.

ومن ذلك ما حكى عن العباس صاحب شرطة المأمون، قال: دخلت يوماً مجلس أمير المؤمنين. وكان بين يديه رجل مكبل بالحديد فلما رأيته قال لي: عباس. قلت ليك يا أمير المؤمنين قال: خذ هذا إليك فاستوثق منه، واحفظ به ويكز به إليّ في غد، واحترز^(١) عليه كل الاحتراز، قال العباس: فدعوت جماعة فحملوه، ولم يقدر أن يتحرك. فقلت في نفسي: مع هذه الوصية التي أوصاني بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به ما يجب إلا أن يكون معي في بيتي. فأمرتهم فتركوه في مجلس لي في داري. ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله، ومن أين هو؟ فقال: أنا من دمشق. فقلت: جزى الله دمشق وأهلها خيراً، فمن أنت من أهلها؟ قال: وعمن تسأل؟ قلت: أتعرف فلاناً؟ قال: ومن أين تعرف هذا الرجل؟ فقلت: وقع لي معه قضية. فقال ما كنت بالذي أعرفك بخبره حتى تعرفني قضيتك معه. فقلت: ويحك كنت مع بعض الولاة بدمشق، فبنى أهلها وخرجوا علينا حتى أن الوالي تدلى في زنبيل من قصر الحجاج وهرب هو وأصحابه، وهربت في جملة القوم، فبينما أنا هارب في بعض الدروب وإذا بجماعة يعدون خلفي، فما زلت أعدو أمامهم حتى فتمهم، فمررت بهذا الرجل الذي ذكرته لك وهو جالس على باب داره، فقلت: أغثني أغاثك الله. قال: لا بأس عليك ادخل الدار فدخلت، فقالت زوجته: أدخل تلك المقصورة فدخلتها، ووقف الرجل على باب الدار فما شعرت إلا وقد دخل والرجال معه يقولون: هو والله عندك، فقال: دونكم الدار فتشوها، ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة وامراته فيها. فقالوا: هو هنا. فصاحت بهم المرأة ونهرتهم فانصرفوا وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة، وأنا قائم أرجف ما تحملني رجلاي من شدة الخوف. فقالت المرأة: اجلس لا بأس عليك. فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال: لا تخف قد صرف الله عنك شرهم. وصرت إلى الأمن والدعة^(٢) إن شاء الله تعالى. فقلت له: جزاك الله خيراً، فما زال يماشرني أحسن معاشرة وأجملها، وأفرد لي مكاناً في داره، ولم يحوجنني إلى شيء ولم يفر عن تفقد أحوالي. فأقمت عنده أربعة أشهر في أرغد عيش وأهتة إلى أن سكنت الفتنة، وهدأت، وزال أثرها فقلت له: أتاذن لي في الخروج حتى أتفقد حال غلماني، فلعلي أقف منهم على خبر. فأخذ عليّ الموائيق بالرجوع إليه. فخرجت وطلبت غلماني فلم أر لهم أثراً، فرجعت إليه وأعلمته الخبر وهو مع هذا كله لا يعرفني، ولا يسألني، ولا يعرف اسمي ولا يخاطبني إلا بالكنية. فقال: علام تعزم؟ فقلت: عزمت على التوجه إلى بغداد. فقال: القافلة بعد ثلاثة أيام تخرج، وها أنا ذا قد أعلمتك، فقلت له: إنك تفضلت عليّ هذه المدة ولك عليّ عهد الله أنني لا أنسى لك هذا الفضل، ولأوفيتك مهما استطعت. قال: فدعا غلاماً له أسود وقال له: أسرج الفرس الفلاني، ثم جهّز آلة السفر فقلت في نفسي: أظن أنه يريد أن يخرج إلى ضيعة أو ناحية من النواحي، فأقاموا يومهم ذلك في كد وتعب، فلما كان يوم خروج القافلة جاءني السحر وقال لي: يا فلان، قم فإن القافلة تخرج الساعة، وأكره أن تنفرد عنها، فقلت في نفسي: كيف أصنع وليس معي ما أتزود به ولا ما أكرى^(٣) به مركوباً، ثم قمت فإذا هو وامراته يحملان بقجة من أفخر الملابس، وخفين جديدين، وآلة السفر ثم جاءني بسيف ومنطقة فشدهما في وسطي، ثم قدّم بغلاً فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ودفع إليّ نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم، وقدم

(١) احترز: احتط في حفظه.

(٢) الدعة: الهناء والأمن.

(٣) أكرى: استأجر.

إليّ الفرس الذي كان جهزه، وقال اركب، وهذا الغلام الأسود يخدمك، ويسوس مركوبك. وأقبل هو وامرأته يعتذران إليّ من التقصير في أمري وركب معي يشيعني، وانصرفوا إلى بغداد وأنا أتوقع خبره لأفي بعهدي له في مجازاته ومكافأته واشتغلت مع أمير المؤمنين فلم أفرغ أن أكشف خبره وأنا أسأل عنه.

فلما سمع الرجل الحديث قال: لقد أمكنك الله تعالى من الوفاء له، ومكافأته على فعله ومجازاته على صنيعه، بلا كلفة عليك، ولا مؤنة تلزمك. فقلت: وكيف ذلك؟ قال: أنا ذلك الرجل، وإنما الضّر الذي أنا فيه غير عليك حالي، وما كنت تعرفه عني، ثم لم يزل يذكر لي تفاصيل الأسباب حتى أثبت معرفته، فما تماكنت أن قمت وقبلت رأسه، ثم قلت له: فما الذي أشارك إلى ما أرى؟ فقال: هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التي كانت في أيامك فنسبت إليّ وبعث أمير المؤمنين بجيوش فأصلحوا البلد وأخذت أنا وضربت إلى أن أشرفت على الموت وقيدت، وبعث بي إلى أمير المؤمنين وأمري عنده عظيم وخطيبي لديه جسيم، وهو قاتلي لا محالة وقد أخرجت من عند أهلي بلا وصية، وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري، وهو نازل عند فلان، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن ترسل من يحضره لي حتى أوصيه بما أريد، فإن أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حدّ المكافأة، وقمت لي بوفاء عهدي.

قال العباس: قلت يصنع الله خيراً، ثم أحضر حداداً في الليل فكّ قيوده، وأزال ما كان فيه من الأنكال^(١)، وأدخله حمام داره وألبسه من الثياب ما احتاج إليه ثم ستر من أحضر إليه غلامه. فلما رآه جعل يبكي ويوصيه، فاستدعى العباس نائبه وقال: عليّ بالفرس الفلاني، والفرس الفلاني. والبغل الفلاني والبغلة الفلانية. حتى عدّ عشرة، ثم عشرة من الصناديق من الكسوة كذا وكذا ومن الطعام كذا وكذا. قال ذلك الرجل: وأحضر لي بدرة عشرة آلاف درهم وكيساً فيه خمسة آلاف دينار وقال لنائبه في الشرطة: خذ هذا الرجل وشيعه إلى حدّ الأنبار، فقلت له: إن فتني عند أمير المؤمنين عظيم، وخطيبي جسيم، وإن أنت احتججت بأنني هربت بعث أمير المؤمنين في طلبي كلّ من على بابه فأردّ وأقتل، فقال لي: انج بنفسك ودعني أدبر أمري، فقلت: والله ما أبرح بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك، فإن احتجت إلى حضوري حضرت. فقال لصاحب الشرطة: إن كان الأمر على ما يقول فليكن في موضع كذا، فإن أنا سلمت في غداة غد أعلمته، وإن أنا قتلت فقد وقته بنفسي كما وقاني بنفسه. وأنشدك الله أن لا يذهب من ماله درهم وتجهتد في إخراجه من بغداد.

قال الرجل: فأخذني صاحب الشرطة وصيرني في مكان أتق به، وافرغ العباس لنفسه وتحنط وجهه له كفناً، قال العباس: فلم أفرغ من صلاة الصبح، إلا ورسّل المأمون في طلبي يقولون: يقول لك أمير المؤمنين هات الرجل معك وقم. قال: فتوجهت إلى دار أمير المؤمنين فإذا هو جالس وعليه ثيابه، وهو ينتظرنا فقال: أين الرجل؟ فسكت. فقال: ويحك أين الرجل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين اسمع مني، فقال: لله عليّ عهد لئن ذكرت أنه هرب لأضربن عتقك. فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين ما هرب، ولكن اسمع حديثي وحديثه ثم شأنك ما تريد أن تفعله في أمري. قال: قل. فقلت: يا أمير المؤمنين كان من حديثي معه كيت وكيت وقصصت عليه القصة جميعها وعرفته أنني أريد أن أفي له وأكافئه على ما فعله معي، وقلت أنا وسيدي ومولاي أمير المؤمنين بين أمرين: إما أن يصفح عني فأكون قد

وفيت وكافأت، وإما أن يقتلني فأقيه بنفسي وقد تحنطت، وها كفتي يا أمير المؤمنين.

فلما سمع المأمون الحديث قال: ويلك لا جزاك الله عن نفسك خيراً. إنه فعل بك ما فعل من غير معرفة وتكافئه بعد المعرفة، والعهد بهذا لا غير، هلاً عرفتني خبره فكنا نكافئه عنك ولا نقصر في وفائك له. فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه ههنا قد حلف أن لا يبرح حتى يعرف سلامتي فإن احتجت إلى حضوره حضر. فقال المأمون: وهذه منة^(١) أعظم من الأولى اذهب الآن إليه فطيّب نفسه، وسكّن روعه، واتّني به حتى أتولى مكافأته. قال العباس: فأتيته إليه وقلت له: ليزل خوفك. إن أمير المؤمنين قال كيت وكيت فقال: الحمد لله الذي لا يحمد على السراء والضراء سواء. ثم قام فصلى ركعتين ثم ركب وجثنا، فلما مثل بين يدي أمير المؤمنين أقبل عليه وأذناه من مجلسه وحذّته حتى حضر الغداء وأكل معه وخلع عليه، وعرض عليه أعمال دمشق فاستعفى، فأمر له المأمون بعشرة أفراس بسروجها ولجمها، وعشرة أبغال بالآنها، وعشر بدر، وعشرة آلاف دينار، وعشرة ممالك بدوابهم. وكب إلى عامله بدمشق بالوصية به، وإطلاق خراجها، وأمره بمكاتبتها بأحوال دمشق. فصارت كبه تصل إلى المأمون. وكلما وصلت خريطة البريد وفيها كتابه يقول لي يا عباس: هذا كتاب صدّيقك. والله تعالى أعلم.

ومن عجائب هذا الأسلوب وغرائب: ما أورده محمد بن القاسم الأنباري رحمه الله تعالى: أن سواراً صاحب رجة سوار وهو من المشهورين قال: انصرفت يوماً من دار الخليفة المهدي، لما دخلت منزلي دعوت بالطعام فلم تقبله نفسي فأمرت به فرفع. ثم دعوت جارية كنت أحبها وأحب حديثها وأشتغل بها فلم تطب نفسي، فدخل وقت القائلة^(٢) فلم يأخذني النوم. فنهضت وأمرت ببغلة لي فأسرجت وأحضرت فركبتها فلما خرجت من المنزل استقبلني وكيل لي ومعه مال. فقلت: ما هذا؟ فقال: ألفا درهم جيبته من مستفلك^(٣) الجديد. قلت: أسكنها معك واتبعني. فأطلقت رأس البغلة حتى عبرت الجسر ثم مضيت في شارع دار الرقيق. حتى انتهيت إلى الصحراء، ثم رجعت إلى باب الأنبار وانتهيت إلى باب نظيف عليه شجرة، وعلى الباب خادم فعطشت فقلت للخادم أعندك ماء تسقيني؟ قال: نعم. ثم دخل وأحضر قلة^(٤) نظيفة طيبة الرائحة، عليها منديل فناولني فشربت، وحضر وقت العصر فدخلت مسجداً على الباب فصليت فيه، فلما قضيت صلاتي إذا أنا بأعمى يلتمس، فقلت: ما تريد يا هذا؟ قال: إياك أريد. قلت: فما حاجتك؟ فجاء حتى جلس إلى جانبي وقال: شممت منك رائحة طيبة، فظننت أنك من أهل النعيم، فأردت أن أحذّك بشيء، فقلت: قل: قال: ألا ترى إلى باب هذا القصر؟ قلت: نعم. قال: هذا قصر كان لأبي فباعه وخرج إلى خراسان، وخرجت معه. فزالت عنا النعم التي كنا فيها، وعميت فقدمت هذه المدينة فأتيته صاحب هذه الدار لأسأله شيئاً يصلني به، وأتوصل إلى سوار فإنه كان صديقاً لأبي. فقلت: ومن أبوك؟ قال فلان بن فلان فعرفته، فإذا هو كان من أصدق الناس إليّ. فقلت له: يا هذا إن الله تعالى قد أتاك بسوار، منعه من الطعام والنوم والقرار، حتى جاء به فأقعده بين يديك. ثم دعوت الوكيل فأخذت الدراهم منه فدفعتهما إليه وقلت له: إذا كان الغد فسر إلى منزلي. ثم مضيت وقلت: ما أحدث أمير المؤمنين بشيء أعظم من هذا فأتيته، فاستأذنت عليه، فأذن لي

(١) منة: فضل وإحسان.

(٢) القائلة: القيلولة ظهراً.

(٣) مستفلك: المستعمر.

(٤) قلة: جرة.

فلما دخلت عليه حدثته لما جرى لي فأعجبه ذلك، وأمر لي بألفي دينار فأحضرت. فقال: ادفعها إلى الأعمى. فنهضت لأقوم، فقال: اجلس، فجلست. فقال: أعليك دين؟ قلت: نعم. قال: كم دينك؟ قلت خمسون ألفاً. فحادثني ساعة وقال: امض إلى منزلك، فمضيت إلى منزلي فإذا بخادم معه خمسون ألفاً. وقال: يقول لك أمير المؤمنين اقض بها دينك. قال: فقبضت من ذلك فلما كان من الغد أبطأ عليّ الأعمى، وأتاني رسول المهدي يدعوني فجتته فقال قد فكرت البارحة في أمرك. فقلت يقضي دينه، ثم يحتاج إلى القرض أيضاً؛ وقد أمرت لك بخمسين ألفاً أخرى. قال: فقبضتها وانصرفت فجاءني الأعمى فدفعتم إليه الألفي دينار وقلت له: قد رزقك الله تعالى بكرمه وكافاك على إحسان أبيك، وكافأني على إسداء المعروف إليك، ثم أعطيته شيئاً آخر من مالي فأخذته وانصرف. والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومما هو أوضح حسناً وأرجح معنى، ما حكاه القاضي يحيى بن أكرم رحمة الله تعالى عليه قال: دخلت يوماً على الخليفة هارون الرشيد ولد المهدي وهو مطرق مفكر فقال لي: أتعرف قاتل هذا البيت:

الخَيْرُ أَبْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ وَالشَّرُّ أَنْجَبُ مَا أُوْعِيَتْ مِنْ زَادٍ

فقلت: يا أمير المؤمنين إن لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص فقال: عليّ بعيد. فلما حضر بين يديه قال له: أخبرني عن قضية هذا البيت. فقال: يا أمير المؤمنين، كنت في بعض السنين حاجاً فلما توسطت البادية في يوم شديد الحر سمعت ضجة عظيمة في القافلة ألحقت أولها بآخرها. فسألت عن القصة فقال لي رجل من القوم: تقدم تَرَّ ما بالناس. فتقدمت إلى أول القافلة، فإذا أنا بشجاع أسود فاغر فاه كالجدع، وهو يخور كما يخور الثور، ويرغو كرهاء البعير، فهالني أمره وبقيت لا أهتمدي إلى ما أصنع في أمره، فعدلتنا عن طريقه إلى ناحية أخرى، فعارضنا ثانياً فعلمت أنه لسبب، ولم يجسر أحد من القوم أن يقربه، فقلت: أفندي هذا العالم بنفسي، وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة من هذا. فأخذت قرية من الماء فتقلدتها وسللت سيفي وتقدمت، فلما رأيته قريت منه سكن، وبقيت متوقفاً منه وثبة يتلعبني فيها. فلما رأى القرية فتح فاه فجعلت فم القرية في فيه، وصببت الماء كما يصب في الإناء فلما فرغت القرية تسبب في الرمل، ومضى فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا به. ومضينا لحجنا ثم عدنا في طريقنا ذلك. وحططنا في منزلنا ذلك في ليلة مظلمة مدلهمة، فأخذت شيئاً من الماء وعدت إلى ناحية عن الطريق فقضيت حاجتي، ثم توضأت وعليت وجلست أذكر الله تعالى فأخذتني عيني، فتمت مكاني فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً وقد ارتحلوا وبقيت منفرداً لم أر أحداً ولم أهتمد إلى ما أفعله، وأخذتني الحيرة وجعلت أضطرب، وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول:

يا أيها الشخص المفضل مركبة ما عنده من ذي رشاد يصحبه
دونك هذا البكر منا تركبة ويكره الميمون حقاً تجببه
حتى إذا ما الليل زال غيبه عند الصباح في القلا نسيه

فنبذت فإذا أنا ببكر قائم عندي، ويكري إلى جانبي فأنخته وركبته وجنبت بكري فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لي القافلة، وانفجر الفجر ووقف البكر، فعلمت أنه قد حان نزولي بتحولي إلى بكري وقلت:

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب ومن هموم تفصل المدلج الهادي

من ذا الذي جادَ بالمعروف في الوادي
بوركت من ذي سنامٍ رائحٍ غادي

ألا تخبرني بالله خالقنا
وارجع حميداً فقد أبلغتنا متناً
فالتفت بالبكر إلي وهو يقول:

والله يكشفُ ضرَّ الحائر الصادي
تكرمأ منك لم تمننْ بأنكادِ
والشرُّ أخبثُ ما أوعيت من زادِ
فاذهب حميداً رعاك الخالق الهادي

أنا الشجاعُ الذي ألفتني رمضاً
فجذت بالمناء لها صنَّ حامله
فالخيرُ أبقى وإن طال الزمانُ به
هذا جزاؤك مني لا أملُ به

فمجب الرشد من قوله، وأمر بالقصة والآيات فكتب عنه، وقال لا يضيع المعروف أين وضع. والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

تم بعونه تعالى الجزء الأول من كتاب المستطرف
وبليه الجزء الثاني وأوله الباب الثالث والأربعون

الجزء الثاني

الباب الثالث والأربعون: في الهجاء ومقدماته

القصـد من الهجاء الوقوف على مُلجِه، وما فيه من ألفاظ فصيحة ومعان بديعة، لا التشفي بالأعراض والوقوع من الهجاء دليلاً على إساءة المهجو، ولا صدق الشاعر فيما رماه به، فيما ليس كل مذموم بذميم، وقد يهجو الإنسان بهتاناً وظلماً أو عبثاً أو إرهاباً. قال المتوكل لأبي العيـاء: كم تمدح الناس وتذمهم؟ قال: ما أحسنوا وأساءوا. وقد رضي الله تعالى على عبد من عبيده فمدحه فقال: «نعم العبد إنه أواب»^(١) وغضب على آخر فقال: «مناخ للخير معتد أثيم * عتل بعد ذلك زنيم»^(٢) قيل: الزنيم الملتصق بالقوم وليس منهم. وقال دعبل في المأمون بعد البيعة له وقتل الأمين:

إنني من القوم الذين همو همو قتلوا أخاك وشرفوك بمقعد
شادوا لذكرك بعد طول خمولة واستقذك من الحضيض الأوهدي^(٣)

فقال المأمون: ما أبهت^(٤)، ليت شعري متى كنت خاملاً؟ وفي حجر الخلافة ربيت، ويدزها غذيت. ولما قتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نواس. ف قيل له: أتبكي على جعفر وأنت هجوته؟ فقال كان ذلك لركوب الهوى وقد بلغه والله أني قلت:

ولست وإن أطنبت في وصف جعفر بأول إنسان خرى في ثياب
فكتب يدفع إليه عشرة آلاف درهم يغسل بها ثيابه.

ومن العبث بالهجو ما وري أن الحطيئة، هم بهجاء فلم يجد من يستحقه فقال:

أبئت شغفائي اليوم إلا تكلماً بشر فلا أدري لمن أنا فائلة
أرى بي وجهاً قبّح الله خلقه قبّح من وجوه وقبح حاملة
وعبث بأمه فقال:

تنحني فاجلسي عني بعيداً أراح الله منك المالمينا
أغريالاً إذا استدعيت سرّاً وكانونا^(٥) على المتحدّثينا

(١) سورة: ص، الآيتان: ٣٠ و٤٤.

(٢) سورة: القلم، الآيتان: ١٢ - ١٣.

(٣) الأوهـد: الأرض المنخفضة.

(٤) البهتان: الكذب والزور.

(٥) الكانون: الموقد.

حيأتك ما علمتُ حياةً سوء وموتك قد يسرّ الصالحينا

قال رجل: ما أبالي، أهجيت أم مدحت. فقال له الأحنف: ارحت نفسك من حيث تعب الكرام. وقال رجل الآخر: إن هجوتني أمتوت ابنتي؟ قال: لا، قال: أفتخرب ضيعتي؟ قال: لا، قال: فرجلي مع ساقبي إلى حلقي في حر^(١) أمك: قال: ولم تركت رأسك؟ قال: لأنظر ما تصنع. وأنا أقول: إنما يخشى من الهجو مَنْ يخاف على عرضه، وأما مَنْ لا يخاف على عرضه فقد يستوي عنده المدح والذم ويش الرجل ذاك. وكان الرجل من نمير إذا قيل له: ممن الرجل؟ يقول: من نمير وأمال بها عنقه فلما هجاهم جرير بقوله:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

صنار إذا قيل لأحدهم: ممن الرجل؟ يقول: من بني عامر. وما لقيت قبيلة من العرب بهجو ما لقيت نمير بهجو جرير. وهجا ابن بسام رجلاً فقال:

يا طلوع الرقيب من غير ألف يا غريماً أتى على ميعاد
يا ركوداً في وقت غيم وصيف يا وجوه التجار يوم كساد

وقصد ابن عينة قبيصة المهلب واستماحه فلم يسمح له بشيء، فأنصرف مغضباً فوجه إليه داود بن حاتم فترضاه وأحسن إليه فقال في ذلك:

داود محمود وأنت ملثم عجباً لذاك وأتما من عود
ولترب عود قد يشق لمسجد فصفا وباقيه لحش^(٢) يهودي
فالحش أنت له وذاك بمسجد كم بين موضع مسلح^(٣) وسجود
هذا جزاؤك يا قيص لأنّه جادث يده وأنت قفل حديد

وله هجاء في خالد:

أبوك لنا غيث يغيث بويله^(٤) وأنت جرأ لست تبقي ولا نذر
له أثر في المكرمات يسرنا وأنت تُعفي دائماً ذاك الأثر

وقال المبرد في حقه: لم يجتمع لأحد من المحدثين في بيت واحد هجاء رجل، ومدح أيّه إلا له. ولما قعد حماد عجرد لتأديب ولد الأمين قال بشار بن برد:

قال للأمين جزاك الله صالحاً لا يجمعُ الله بين السخل^(٥) والديب
السخل يعلم أن النخب أكله والذنب يعلم ما بالسخل من طيب

(١) الحر: قبل المرأة.

(٢) الحش: كناية عن المراض.

(٣) مسلح: مكان التفرط.

(٤) بويله: بمطر جوده وغيثه.

(٥) السخل: ولد الشاة.

وقال فيه أيضاً:

يا أبا الفضل لا تَنَمَّ وَقَعَ الذَّنْبُ فِي الْغَنَمِ
إن حمادَ عَجَرِدٍ شَيْخُ سَوْءٍ قَدْ اغْتَنَمَ
يَبْنُ فُخْزَيْبٍ حَرِيَّةً فِي غُلَافٍ مِنَ الْأَدَمِ
إن رَأَى نَاسٌ غَفْلَةً يَجْمَعُ الْمِيمَ بِالْقَلَمِ

فشاعت الأبيات فأمر الأمين باخراج حماد. وقال رجل لأخيه لأبويه: لأهجونك هجاء يدخل معك في قبرك. قال: كيف تهجونني وأبوك أبي وأمك أمي. قال: أقول^(١):

بني أميةَ هبوا طالَ نومكمو إن الخليفةَ يعقوبُ بن داودِ
ضاعَتْ خلافتُكم يا قومُ فالتَمِسُوا خليفة الله بينَ الماءِ والعمودِ

فدخل يعقوب على المهدي فأخبره أن بشاراً هجاء، فاغتاظ المهدي وانحدر إلى البصرة لينظر في أمرها فسمع لذاناً في ضحى النهار فقال: انظروا ما هذا؟ وإذا به بشار وهو سكران. فقال له: يا زنديق عجب أن يكون هذا من غيرك، ثم أمر به فضربه سبعين سوطاً حتى أثلفه بها، وألقي في سفينة. فقال عين الشمقمق تراني حيث يقول:

إن بشارَ بنَ بَرْدٍ تَبْنُ أَعْمَى فِي سَفِينَةٍ

فلما مات ألقيت جثته في الماء، فحملته الماء فأخرجه إلى الدجلة، فجاء بعض أهله فحملوه إلى البصرة وأخرجت جنازته فما تبعه أحد، وتباشر عامة الناس بموته لما كان يلحقهم من الأذى منه. وخاصم أبو دلامة رجلاً فارتفعا إلى عافية القاضي فلما رآه أبو دلامة أنشد يقول:

لقد خَاصَمْتُني دُهاةُ الرجالِ وَخَاصَمْتُهَا سَنَةٌ وَاقِيَةٌ
فَمَا أَدْحَضَ اللهُ لِي حِجَةً وَلَا خَيَّبَ اللهُ لِي قَافِيَةً
وَمَنْ خَفْتُ مِنْ جَوْرِهِ فِي الْقَضِ إِنْ فُلَسْتُ أَخَافُكَ يَا عَافِيَةً

فقال عافية: لأشكوئك إلى أمير المؤمنين ولأعلمته أنك هجوتني. قال له أبو دلامة: إذا والله يعزلك. قال: ولم؟ قال: لأنك لا تعرف الهجاء من المدح. قال: فبلغ ذلك المنصور فضحك وأمر له بجائزة. ودخل أبو دلامة على المهدي وعنده إسماعيل بن علي، وعيسى بن موسى، والعباس بن محمد، وجماعة من بني هاشم فقال له المهدي: والله لئن لم تهج واحداً ممن في هذا البيت لأقطعن لسانك. فنظر إلى القوم وتحير في أمره، وجعل ينظر إلى كل واحد فيغمره بأن عليه رضاه. قال أبو دلامة: فازددت حيرة، فما رأيت أسلم لي من أن أهجو نفسي فقلت:

ألا أبلغُ لَدَيْكَ أبا دَلَامَةَ فَلَسْتُ مِنَ الْكِرَامِ وَلَا كِرَامَةٍ
جَمَعْتَ دِمَامَةً وَجَمَعْتَ لُؤْمًا كَذَاكَ اللَّؤْمُ تَبِعَةُ الدِّمَامَةِ
إِذَا لَبَسَ الْعِمَامَةَ قَلَّتْ قَرْدًا وَخُزَيْرًا إِذَا نَزَعَ الْعِمَامَةَ

(١) هذا القول لبشار ويبدو هنا سقط قبل أبيات بشار لم أهدأ إليه.

فضحك القوم ولم يبق منهم أحد إلا أجازره.

وقال ابن الأعرابي: إن أهجى بيت قاله المحدثون قول محمد بن وهب في محمد بن هاشم:

لَمْ تَنْدَ كَمَاكَ مِنْ بَذْلِ النِّوَالِ كَمَا لَمْ يَنْدَ سَيْفُكَ مَذْ قُلْدَتَهُ بَدَمِ

وهجا بعضهم القمر فقال: يهدم العمر، ويوجب أجرة المنزل، ويشحب الألوان ويقرض الكتان ويضل الساري^(١) ويعين السارق ويفضح العاشق.

ولابن منقذ في ابن طليب المصري وقد احترقت داره:

انْظُرْ إِلَى الْإِيمَانِ كَيْفَ تَسْوَقُنَا قُمْرًا إِلَى الْأَقْدَارِ بِالْأَقْدَارِ
مَا أَوْقَدَ ابْنُ طَلِيبٍ قَطْ بَدَارِهِ نَارًا وَكَانَ خِرَابُهَا بِالنَّارِ

وكان للوجيه بن صورة المصري دلال الكتب، دار بمصر موصوفة بالحسن فاحترقت فقال فيها ابن المنجم:

أَقُولُ وَقَدْ عَايَنْتُ دَارَ ابْنِ صَوْرَةٍ وَلِلنَّارِ فِيهَا وَهْجَةٌ تَضُرُّ
فَمَا هُوَ إِلَّا كَافِرٌ طَالَ عَمْرُهُ فَجَاءَتْهُ لَمَّا اسْتَبْطَأَتْهُ جَهَنَّمُ

وقد أحسن الأديب كمال الدين علي بن محمد بن المبارك الشهير بابن الأعمى في ذم دار كان يكتنها حيث

قال:

دَارٌ سَكَنْتُ بِهَا أَقْلُ صَفَاتِهَا أَنْ تَكْثُرَ الْحَشَرَاتُ فِي جَنَابَاتِهَا
الْخَيْرُ عَنْهَا نَازِحٌ مَبَاعِدُ وَالشَّرُّ دَانٌ مِنْ جَمِيعِ جَهَاتِهَا
مِنْ بَعْضِ مَا فِيهَا الْبَعُوضُ عَدِمَتْ كَمْ أَعْدَمَ الْأَجْنَانُ طِيبُ سَنَاتِهَا
وَبِتَّتْ تَعْدُّهَا بِرَاغِبِثٍ مَتَى غُنَّتْ لَهَا رَقَصَتْ عَلَى نَفَمَاتِهَا
رَقَصٌ بِتَقْيِطٍ وَلَكِنْ قَافَهُ قَدْ قَدِمَتْ فِيهِ عَلَى أَخَوَاتِهَا
وَبِهَا ذِنَابٌ كَالضَّبَابِ يَسُدُّ عَيْ مَنِ الشَّمْسِ مَا طَرَبِي سَوَى غَنَاتِهَا
أَيْنَ الصَّوَارِمُ وَالْقَنَا مِنْ فَتْكِهَا فِينَا وَأَيْنَ الْأَسَدُ مِنْ وَثْبَاتِهَا
وَبِهَا مِنَ الْخُطَافِ مَا هُوَ مُعْجَزُ أَبْصَارُنَا عَنْ وَصْفِ كَيْفِيَاتِهَا
وَبِهَا خُفَافِشٌ تَطِيرُ نَهَارَهَا مَعَ لَيْلَهَا لَيْسَتْ عَلَى عَادَاتِهَا
وَبِهَا مِنَ الْجُرْذَانِ مَا قَدْ قَصَرَتْ عَنْهُ الْعَتَاقُ^(٢) الْجَرْدُ فِي حِمَلَاتِهَا
وَبِهَا خُنَافِسُ كَالطَّنَافِسِ^(٣) أَفْرَشَتْ فِي أَرْضِهَا وَعَلَتْ عَلَى جَنَابَاتِهَا
لَوْشَمَ أَهْلُ الْحَرْبِ مَتَنَ فُسُوحِهَا أَرَادَى الْكَمَاءُ الصَّيْدَ^(٤) عَنْ صَهَوَاتِهَا

(١) الساري: السائر ليلاً.

(٢) العتاق: الخيول الكريمة.

(٣) الطنافس: المخدات.

(٤) الصيد: ذوي الحساب والشرف.

مما يفوت العين كنه ذواتها
حجامة لبذت على كاساتها
قد قل ذؤ الشمس عن ذراتها
فتعمّذوا بالله من لدغاتها
ورق الحمام سجعن في شجراتها
حرّ السموم أخفّ من زفراتها
فينا حمائنا الله لدعّ حماتها^(٣)
ساة ولا حياة لمن رأى حياتها
والأرض قد نجّت على آفاتها
وترايبها كالرمل في خنثاتها
والدود يبحث في ثري عرصاتها
تحكي الخيول الجرد في حملاتها
وجهنم تعزى إلى لفحاتها
ورايث مطوراً على جناتها
تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها
يا ربّ نجّ الناس من آفاتها
يضرّق الكان من ساحاتها
كذب الرواة فأين صدق روايتها
للنفس إذا غلبت على شهواتها
فيها وتندب باختلاف لغاتها
شوق الصباح تسخّ^(٤) من عبراتها
يا رازقاً للوحش في فلواتها
أخراي حبّ لي الخلد في جناتها
يا جامع الأرواح بعد شتاتها^(٥)

وبنات وردان^(١) واشكال لها
أبدأ تمصّ دمانا فكأنها
وبها من النمل السليمانى ما
ما راغني شيء سوى وزغاتها^(٢)
سجعت على أوكارها فظننتها
وبها زنايبر تظنّ عقارباً
وبها عقارب كالآقارب رنع
كيف السيل إلى النجاة ولا نجد
منسوجة بالعنكبوت سماها
فضجيجها كالرعد في جناتها
والبوم عاكفة على أرجائها
والجنّ تأتيها إذ جنّ الدجى
والنار جزء من تلّهب حرّها
شاهدت مكتوباً على أرجائها
لا تقرّبوا منها وخافوها ولا
أبدأ يقول الداخلون ببابها
قالوا إذا ندب الغراب منازل
وبدارنا ألفا غراب ناعق
صبراً لعلّ الله يعقب راحة
دار نيت الجنّ تحرس نفسها
كم بك فيها مفرداً والعين من
وأقول يا ربّ السموات العلاء
أسكتني بجهنم الدنيا قفي
واجمع بمن أهواه شملني عاجلاً

ولبعضهم في بلان^(٦):

- (١) وردان: ما تعرف الآن بالصراصير.
- (٢) زغاتها: حيوان زاحف فيح من قبيل الحرياء.
- (٣) حماتها: تورية بين حلة العقرب والحمة أم الزوج.
- (٤) تسخّ: تسيل.
- (٥) الشتات: التفرق.
- (٦) البلان: عامل الحمام.

مَتَّ أَنْامُلُهُ ظَهْرِي فَأَدْمَانِي
وَلَا يَسْرُخُ تَسْرِيحاً بِإِحْسَانٍ

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ بَلَاناً بَلِيْثُ بِهِ
فَلَا يُدَلِّكَ تَدْلِيْكَاً بِمَعْرِفَةٍ
وَلِلشَّيْخِ شَمْسِ الدِّينِ الْبَدِيِّ فِي بِلَانٍ أَيْضاً:

بِهِ حَذَّ الشُّفَارِ الْمَرْهَفَاتِ
عَلَى حُلِيِّ السُّتُورِ السَّابِلَاتِ
فَأَيَّسَهَا وَكَثَّرَ فَوْقَاتِي
وَذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ الْمَهْلَكَاتِ
يَفُوحُ بِهِ عَلَى كُلِّ الْجِهَاتِ
يَغْسِلُنِي إِذَا حَانَتْ وَفَاتِي

وَبَلَانٍ لَهُ ظَهْرٌ يَسَاهِي
هَرَى جَمِيٍّ فَأَلْبَسَهُ نَجِيعاً^(١)
وَرَامَ يَلِينُ أَعْضَائِي بِرَفَقٍ
وَلَمْ أَنْظُرْ لَهُ أَبَداً جَمِيلاً
وَأَعْمَى مَقَلَّتِي بِصَنَانٍ إِسْطِ
فَلَا تَجْعَلْ إِلَهِي مِثْلَ هَذَا
وَلِبَعْضِهِمْ فِي حَتَامٍ:

حَكَى سَقَرًا وَفِيهَا الْمَجْرُمُونَ
فَإِنْ عُذْنَا فَلَنَا ظَالِمُونَ

وَحَتَامٌ دَخَلْنَاهُ لَأَمْرٍ
فِيصْطَرِّخُوا يَقُولُونَ اشْرَجُونَا
وَلِلشَّرِيفِ أَبِي يَعْلَى الْهَاشِمِيِّ الْبَغْدَادِيِّ فِي نِظَامِ الْمَلِكِ يَهْدِيهِ بِالْهَجَاءِ يَقُولُ:

أَعَاوُدُ مِنْ ذَرَاكَ كَمَا قَدِمْتُ
بِأَفْوَاهِ الثُّقَاةِ وَمَا وَرَدْتُ
وَيَخْبُرُ عَنْ نَوَالِكَ إِنْ كَمْتُ
وَقَدْ عَمَّ الْوَرَى كَرَمًا سَكْتُ

أَيَجْمَلُ يَا نِظَامَ الْمَلِكِ أَنِي
وَأَصْدُرُ عَنْ حِيَاظِكَ وَهِيَ نَهْبٌ
يَدُّ عَلَى فَعَالِكَ سُوءَ حَالِي
إِذَا اسْتُخْبِرْتُ مَاذَا نَلْتُ مِنْهُ

وَمَنْ عَرَّضَ بِالْهَجْوِ فِي شِعْرِهِ الْخَوَارِزْمِي قَالَ فِي أَبِي جَعْفَرٍ:

وَمِثْلُكَ إِنْ قَالَ قَوْلًا يَفِي
وَلَا هُجِيئَتْ وَأَذْخِلْتْ فِي
فَقَطُّ الْحَدِيثِ وَلَا تَكْشِفُ

أَبَا جَعْفَرَ لَسْتُ بِالْمُنْصَفِ
فَإِنْ أَنْتَ أَنْجَزْتَ لِي مَا وَعَدْتَ
وَقَدْ عَلِمَ النَّاسُ مَا بَعْدَ فِي

وَمَدَحِ السَّراجِ الْوَرَّاقِ إِنْسَانًا فَلَمْ يَجْزِهِ فَكَبَّ يَعْزُضُ لَهُ بِالْهَجَاءِ وَيَهْدِيهِ يَقُولُ:

فَقَدْ أَنْعَبْتَنِي يَا مَتْرِيحُ
سَوَاهُ وَقِيلَ لِي هَذَا صَحِيحُ

أَعِذْ مَدْحِي عَلَيَّ وَخُذْ سَوَاهُ
وَلَا تَغْضَبْ إِذَا أَنْشَدْتَ يَوْمًا
وَلَهُ أَيْضاً يَقُولُ:

وَقَدْ عَوَّقِبْتُ بِالْحَرَمَانِ عَنْهُ
فَلَا يَصْعَبُ عَلَيْكَ الْحَقُّ فِيهِ

أَعِذْ مَدْحًا كَذِبْتُ عَلَيْكَ فِيهِ
وَلَكِنِّي سَأَصْدُقُ فِيكَ قَوْلًا

وقال بعضهم في حجاج قلموا ولم يهدوا إليه شيئاً:

مَضَنُوا لِحِجَّتِمْ وَالسُّجُودَ كَأَنَّهُا
وَعَادُوا كَأَنَّ الْقَارَ^(١) فَوْقَ وَجُوهِهِمْ
وَجَاءُوا وَمَا جَاءُوا بِمَعُودِ أَرَاكُةٍ

وقال آخر:

إِذَا رَمَتْ هَجْرًا فِي فُلَانٍ تَصْلُنِي
تَجَاوَزَ قَنْزُ الْهَجْرِ حَتَّى كَأَنَّهُ

وهجا بعضهم امرأة فقال:

لَهَا جِسْمٌ بِرَغُوثٍ وَمَا قُورُوعُ
تَبَرَّقَ عَيْنُهَا إِذَا مَا رَأَتْهَا
لَهَا مَنَظَرٌ كَالنَّارِ تَحْسِبُ أَنَّهَا
إِذَا عَايَنَ الشَّيْطَانُ صُورَةَ وَجْهِهَا

ولبعضهم في عظيم أنف:

لَكَ وَجَةٌ وَفِيهِ قِطْعَةُ أَنْفٍ
وَهُوَ كَالْقَبْرِ فِي الْمَثَالِ وَلَكِنْ

وفيه أيضاً:

رَأَيْنَا لِلزُّكِيِّ جِدَارَ أَنْفٍ
تَصَلَّى لِلْهَلَالِ لَكِي يَرَاهُ

ولبعضهم في أبخر^(٤) مخنث:

قَالُوا فَلَانٌ نَتْنٌ قَلْتُ لَهُمْ
يَا قَوْمُ لَا تَعْبُجُوا مِنْ نَتْنِ نَكْهَتِهِ

ولصفي الدين الحلبي^(٦):

- (١) البشر: السرور.
- (٢) القار: الزفت.
- (٣) تلفح: تحرق.
- (٤) أبخر: ذو نكهة رديئة.
- (٥) فيه الأولى جار ومجرور: فيه الثانية: فمه.
- (٦) يشطر في هذه الآيات. آياتاً لأمرى القيس من المعلقة هي الشطر الثاني من كل بيت.

رأى فرسي إصطبلَ عيسى فقال لي
به لم أدقّ طعمَ الشعيرِ كأنني
تقعقع من بردِ الشتاء أضالعي
وله أيضاً:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بقط اللوى بين الدخول فحومل
لما نسجتُها من جنوبٍ وشمالٍ

لهنك أن لبي ولدأ وعبدأ
فهذا سابقٌ من غير سيني^(١)
وله في طيب يدعى إسحاق:

سواء في المقال وفي المقام
وهذا عاقبٌ من غير لام^(٢)

مباضع^(٣) إسحاق الطيب كأنها
معوذة أن لا تزل نصالها
وله في أحق طويل اللسان:

لها ينفاء العالمين كليل
فتغمد حتى يتباح قيل

لو أن قوة وجهه في قلبه
أو كان طول لسانه يمينه
وهجا إعرابي رجلاً ثم مدحه فقال:

قنص الأسود وجندل الأبطال
أفنى الكنوز وأنفد الأموال

إني مدختك من فساد قريحتي
لكن رأيت المسك عند فسادِه

وعلمت أن المدح فيك يضيع
يدني إلى بيت الخلا فيضوع

وقيل لبعضهم: ما تقول في فلان وفلان؟ قال: هما الخمر والميسر، إثمهما أكثر من نفعهما. وقيل لرجل:
كيف وجدت فلاناً؟ قال طويل اللسان في اللؤم، قصير الباع في الكرم، وثاباً على الشر، متاعاً للخير. وسمع إعرابي
قوله تعالى: ﴿الأعراب أشد كفرةً ونفاقاً﴾^(٤) انتفض ثم سمع قوله تعالى: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم
الآخر﴾^(٥) فقال: الله أكبر هجاناً ثم مدحنا وكذلك قال الشاعر:

هجوته زهيراً ثم إنني مدخته

وما زالت الأشراف تهجى وتمدح

استب رجلان فقال أحدهما للآخر: لو قطع زبك وعلق لم تبق زانية بالكوفة إلا عرفته. وقال أبو زيد العبادي:

ولقد قتلثك بالهجاء فلم تئمت

إن الكلاب طويلاً الأعمار

وقال المتوكل لأبي العيناء: ما بقي أحد في المجلس إلا هجأك وذمك غيري فقال:

إذا رضيت عني كرام عيشتي

فلا زال غضباناً علي لئامها

(١) غير سيني: أي أبى، غير مطيع.

(٢) أي عاق: غير بار.

(٣) المبضع: المشروط.

(٤) سورة: التوبة، الآية: ٩٧.

(٥) سورة: التوبة، الآية: ٩٩.

الباب الرابع والأربعون: في الصدق والكذب وفيه فصلان

الفصل الأول: في الصدق

قال الله تعالى مبشراً للصادقين: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾^(٢)، فمدحهم وبين لهم المغفرة والأجر العظيم. وقال عمر رضي الله عنه: عليك بالصدق وإن قتلك. وما أحسن ما قيل في ذلك:

عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ وَلَوْ أَنَّهُ أَحْرَقَكَ الصِّدْقُ بِنَارِ الْوَعِيدِ
وَابْتَغِ رِضَا الْمَوْلَى فَاغْبَى الْوَرَى مَنْ أَسْخَطَ الْمَوْلَى وَأَرْضَى الْعِيْدِ

وقال إسماعيل بن عبيد الله: لما حضرت أبي الوفاة جمع بينه فقال لهم: يا بني، عليكم بتقوى الله، وعليكم بالقرآن فتعاهدوه^(٣)، وعليكم بالصدق حتى لو قتل أحدكم قتيلاً. ثم سئل عنه أَقْرَبُ بِهِ، والله ما كذبت قط مذ قرأت القرآن. وعن عائشة رضي الله عنها قالت؛ سألت رسول الله ﷺ: بِمَ يُعْرَفُ الْمُؤْمِنُ؟ قال: بِوَقَارِهِ، وَلِينِ كَلَامِهِ، وَصِدْقِ حَدِيثِهِ. وقيل: لكل شيء حلية، وحلية النطق الصدق. وقال محمود الوزاق:

الصِّدْقُ مَنْجَاةٌ لِأَرْبَابِهِ وَقَرِيبَةٌ تُنْجِي مِنَ الرَّبِّ

وقيل: الصدق عمود الدين، وركن الأدب، وأصل المروءة فلا تتم هذه الثلاثة إلا به. وقال أرسطاطاليس: أحسن الكلام ما صدق فيه قائله، وانتفع به سامعه. وقال المهلب بن أبي صفرة: ما السيف الصارم في يد الشجاع بأحرز له من الصدق. وكان يقال عن الصدوق فلان وقف لسانه على الصدق. ويقال: الصدق محمود من كل أحد، إلا من الساعي. ويقال لو صدق عبد فيما بينه وبين الله تعالى حقيقة الصدق لأطلع على خزائن الغيب ولكان أميناً في السموات والأرض. وقيل: مَنْ لَزِمَ الصِّدْقَ وَعَوَّدَ لِسَانَهُ بِهِ وَقَفَّ. ويقال: الصدق بالحرّ أحرى. وقال عتبة بن أبي سفیان: إذا اجتمع في قلبك أمران لا تدري أيهما أصوب، فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه، فإن الصواب أقرب إلى مخالفة الهوى. وقال أرسطاطاليس: الموت مع الصدق خير من الحياة مع الكذب. وكان نقش خاتم ذي يزن: وضع الخد للحق عز. وامتدح ابن ميادة جعفر بن سليمان. فأمر له بمائة ناقة، فقبل يده وقال: والله ما قبلت يد قرشي

(١) سورة: المائدة، الآية: ١١٩.

(٢) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٥.

(٣) تعاهدوه: تحفظوه واعتصموا به.

غيرك إلا واحداً. فقال: أهو المنصور؟ قال: لا والله. فمن هو؟ قال: الوليد بن يزيد. قال: ففضب، وقال: والله ما قبلتها لله تعالى، فقال: والله ولا يدك ما قبلتها لله تعالى، ولكن قبلتها لنفسى. فقال: والله لا ضرك الصدق عندي أعطوه مائة أخرى.

وقال عامر العدواني في وصيته: إني وجدت صدق الحديث طرفاً من الغيب فاصدقوا. يعني من لزم الصدق وعوّده لسانه وفق، فلا يكاد ينطق بشيء يظنه إلا جاء على ظنه. وخطب بلال لأخيه امرأة قرشية فقال لأهلها: نحن من قد عرفتم، كنا عبيد فاعفنا الله تعالى، وكنا ضالين فهدانا الله تعالى، وكنا فقيرين فأغنانا الله تعالى، وأنا أخطب إليكم فلانة لأخي فإن تنكحوها له فالحمد لله تعالى، وإن تردونا فإله أكبر. فأقبل بعضهم على بعض فقالوا: بلال ممن عرفتم سابقته ومشاهدته ومكانه من رسول الله ﷺ، فزوجوا أخاه فزوجوه، فلما انصرفوا قال له أخوه: يغفر الله لك ما كنت تذكر سوابقنا ومشاهدنا مع رسول الله ﷺ، وترك ما عدا ذلك فقال: مه^(١) يا أخي، صدقت فأنكحك الصدق. وخطب الحجاج فأطال قيام رجل فقال: الصلاة، فإن الوقت لا يتظر، والرب لا يعذر. فأمر بحجسه فأثاه قومه وزعموا أنه مجنون وسألوه أن يخلي سبيله فقال: إن أقرّ بالجنون خليته قليل له: فقال: معاذ الله، لا أزعج أن الله ابتلاني وقد عافاني، فبلغ ذلك الحجاج فعمّا عنه لصدقه.

الفصل الثاني: في الكذب وما جاء فيه

قال الله تعالى في الكاذبين ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَّسْوُودَةٌ﴾^(٣) وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار وتحروا»^(٤) الصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «إذا كذب العبد كذبة تباعد الملكان عنه مسيرة ميل من تنن ما جاء به» ويقال: راوي الكذب أحد الكذابين. ويقال: رأس المأثم الكذب، وعمود الكذب البهتان. وقيل: أمران لا يفتكان من الكذب؛ كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾^(٥) وهي لكل واصف كذب إلى يوم القيامة. وقال الأصمعي: قلت لكذاب: أصدقت قط؟ قال: لولا أنني أخاف أن أصدق في هذا لقلت لك لا، فتعجب.

وقال محمود بن أبي الجنود:

وليس في الكذاب حيلة
ول فحيتي فيه قليلة

لي حيلة فيمن ينم
من كان يخلق ما يق

(١) مه: اسم فعل بمعنى: كف.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٠.

(٣) سورة: الزمر، الآية: ٦٠.

(٤) تحروا: توخّوا.

(٥) سورة: الأنبياء، الآية: ١٨.

ويقال: فلان أكذب من لمعان السراب ومن سحاب تموز. وكان بفارس محتسب يعرف بجرب الكذب وكان يقول: إن منعت الكذب انشقت مرارتي، وإنني والله لأجد به مع ما يلحقني من عاره من المسرة، ما لا أجده بالصدق، مع ما ينالني من نفعه. وقال فيلسوف: من عرف من نفسه الكذب لم يصدق الصادق فيما يقوله: ول بعضهم:

حُبُّ الكَذِبِ مِنَ الْبَلِّ حِبَّةٌ بِعَفْزٍ مَا يُحْكِي عَلَيْهِ
فَمَنْ سَمِعَتْ بِكَذِبَةٍ مِنْ غَيْرِهِ نُسِبَتْ إِلَيْهِ

وأضاف صيرفي قوماً فأقبل يحدثهم فقال بعضهم: نحن كما قال تعالى: ﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلْحَيِّثِ﴾^(١) وعن عبد الله بن السدي قال قلت لابن المبارك: حدثنا حديثاً. قال: ارجعوا فليست أحدثكم فقيل له: إنك لم تحلف. فقال لو حلفت لكفرت وحديثكم. ولكن لست أكذب فكان هذا أحب إلينا من الحديث. وقال مجاهد: يكتب على ابن آدم كل شيء حتى أنه في سقمه، وحتى أن الصبي ليكي فتقول له أمه: اسكت وأشتري لك كذا ثم لا تفعل فتكتب كذبة. وقال الفضيل: ما من مضغة أحب إلى الله تعالى من اللسان إذا كان صدوقاً، ولا مضغة أبغض إلى الله تعالى من اللسان إذا كان كذوباً. وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً «أعظم الخطايا اللسان الكذوب».

قال الشاعر:

لَا يَكْذِبُ الْمَرْءُ إِلَّا مِنْ مَهَانَتِهِ أَوْ فِغْلِهِ السُّوءِ أَوْ مِنْ قَلْوَةِ الْأَدَبِ
لَبَفْضٍ جِيفَةٍ كُلِّبَ خَيْرٌ رَائِحَةٍ مِنْ كَذِبَةِ الْمَرْءِ فِي جَدٍّ وَفِي لَعِبِ

ولما نصب معاوية رضي الله عنه ابنه يزيد لولاية العهد أقعده في قبة حمراء وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يسلمون على يزيد، حتى جاء رجل ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين اعلم أنك لو لم تول هذا أمور المسلمين لأضعتها، والأحنف ساكت. فقال: معاوية ما لك لا تقول يا أبا بحر. فقال: أخاف الله تعالى إن كنت، وأخافكم إن صدقت. فقال جزاك الله خيراً عما تقول ثم أمر له بالوف، فلما خرج الأحنف لقيه ذلك الرجل بالباب فقال له: يا أبا بحر إنني لأعلم أن هذا من شرار خلق الله تعالى، ولكنهم استوثقوا من الأموال بالأبواب والأقفال، فلننا نطمع في إخراجها إلا بما سمعت. فقال له الأحنف يا هذا أمسك، فإن ذا الوجهين خليق أن لا يكون عند الله وجيهاً. وقيل إن الكذب يحمده إذا وصل بين المتقاطعين، أو أصلح بين الزوجين، ويذم الصدق إذا كان غيبة، وقد رفع الحرج عن الكاذب في الحرب وعن المصلح بين المرء وزوجه. وكان المهلب في حرب الخوارج يكذب لأصحابه، يقوي بذلك جأشهم. فكانوا إذا رأوه مقبلاً إليهم قالوا جاءنا بكذب. وقال يحيى بن خالد رأينا شارب خمر نزع، ولصاً أقطع، وصاحب فواحش رجع، ولم نر كذاباً صار صادقاً. وكان عمرو بن معد يكرب مشهوراً بالكذب. وقيل لخلف الأحمر وكان شديد التنصب لليمن: أكان ابن معد يكرب يكذب. فقال: كان يكذب في المقال، ويصدق في الفعل. قيل: إن بلالاً لم يكذب منذ أسلم رضي الله تعالى عنه. والحمد لله وحده.

الباب الخامس والأربعون: في بر الوالدين وذم العقوق وذكر الأولاد وما يجب لهم وعليهم وصلة الرحم والقربات وذكر الأنساب وفيه فصول

الفصل الأول: في بر الوالدين وذم العقوق

قال الله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿إِنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُنْثَىٰ وَلَا تَنْهَزْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيماً * وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيراً﴾^(٤) وعن علي رضي الله عنه: لو علم الله شيئاً في العقوق أدنى من أفٍ لحرمة، فليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة، وليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار. وقيل: إن رضا الرب في رضا الوالدين، وسخط الرب في سخط الوالدين. وحكى أبو سهل عن أبي صالح، عن أبي نجيع، عن ربيعة، عن عبد الرحمن، عن عطاء بن أبي مسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حَجَّ عَنْ وَالِدِهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ كَتَبَ اللَّهُ لَوَالِدِهِ حِجَّةً، وَكَتَبَ لَهُ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ». وقال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَعَقُوقُ الْوَالِدَيْنِ فَإِنَّ رِيحَ الْجَنَّةِ يَوْجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسَمِائَةِ عَامٍ، وَلَا يَجِدُ رِيحَهَا عَاقٌ». وكان رجل من النساك يقبل كل يوم قَدَمَ أُمِّهِ فَأَبْطَأَ يَوْماً عَلَى إِخْوَتِهِ فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: كُنْتُ أَتَمَرُغُ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ، فَقَدْ بَلَغْنَا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ أَقْدَامِ الْأُمَّهَاتِ. وَبَلَّغْنَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَلَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَخَمْسَمِائَةِ كَلِمَةٍ. فَكَانَ آخِرَ كَلَامِهِ: يَا رَبِّ أَوْصِنِي. قَالَ: أَوْصِيكَ بِأُمِّكَ حَسَنًا قَالَ لَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ. قَالَ: حَسْبِي. ثُمَّ قَالَ: يَا مُوسَى أَلَا إِنَّ رِضَاهَا رِضَايَ وَسَخَطُهَا سَخَطِي. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ لِابْنِ مِهْرَانَ: لَا تَأْتِينَ أَبْوَابَ السُّلَاطِينِ وَإِنْ أَمَرْتَهُمْ بِمَعْرُوفٍ أَوْ نَهَيْتَهُمْ عَنْ مَنكَرٍ، وَلَا تَخْلُونَ بِأُمِّهَاءَ، وَإِنْ عَلِمْتَهُ سُورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَا تَصْحَبَنَّ عَاقاً فَإِنَّهُ لَنْ يَقْبَلَكَ وَقَدْ عَقَّ وَالِدِيهِ. وَقَالَ فِيلَسُوفٌ: مَنْ عَقَّ وَالِدِيهِ عَقَهُ وَلَدُهُ. وَقَالَ الْمَأْمُونُ: لَمْ أَرِ أَحَدًا أَبْرَ مِنَ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بِأَبِيهِ، بَلَغَ مِنْ بَرِّهِ لَهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يَتَوَضَّأُ إِلَّا بِمَاءٍ سَخَنَ فَضَعْنَهُمُ السَّجَانَ مِنَ الْوُقُودِ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فَلَمَّا أَخَذَ يَحْيَى مُضْجَعَهُ قَامَ الْفَضْلُ إِلَى قَعْمَقٍ مِنْ نَحَاسٍ فَمَلَأَهُ مَاءً وَأَدْنَاهُ مِنَ الْمَصْبَاحِ، فَلَمْ يَزَلْ قَائِمًا وَهُوَ فِي يَدِهِ إِلَى الصَّبَاحِ، حَتَّى اسْتَبْقَظَ يَحْيَى مِنْ مَنَامِهِ. وَقِيلَ طَلَبَ بَعْضُهُمْ مِنْ وَلَدِهِ أَنْ يَسْقِيَهُ مَاءً، فَلَمَّا أَتَاهُ بِالشَّرْبَةِ نَامَ أَبُوهُ، فَمَا زَالَ الْوَلَدُ وَاقِفًا وَالشَّرْبَةَ فِي

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٦.

(٢) سورة: الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة: لقمان، الآية: ١٤.

(٤) سورة: الإسراء، الآيتان: ٢٣ - ٢٤.

يده إلى الصباح حتى استيقظ أبوه من منامه. وقال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: إن لي أماً بلغ منها الكبر، أنها لا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية، فهل أدبت حقها، قال: لا لأنها كانت تصنع بك ذلك وهي تسمى بقمك، وأنت تصنعه وتسمى فراقها. وقال ابن المنكدر: بت أجلس رجل أبي ويات آخر يصلي ولا يسرني ليته بليتي. وقيل إن محمد بن سيرين كان يكلم أمه كما يكلم الأمير الذي لا يتصف منه. وقيل لعلي بن الحسين رضي الله تعالى عنه: إنك من أبر الناس، ولا تأكل مع أمك في صحفة، فقال: أخاف أن تسبق يدي يدها إلى ما تسبق عيناها إليه فأكون قد عفتها.

الفصل الثاني: في الأولاد وحقوقهم وذكر النجباء والأذكىاء والبلداء والأشقياء

قال رسول الله ﷺ: «الولد ريحانة من الجنة». وقال الفضل: ربح الولد من الجنة. وكان يقال: ابنك ريحانك سباً، ثم حاجبك سباً، ثم عدو أو صديق. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، قال: قلت لسيد رسول الله ﷺ: يا رسول الله هل يولد لأهل الجنة؟ قال: «والذي نفسي بيده، إن الرجل يشتهي أن يكون له ولد فيكون حمله ووضعه وشبابه الذي يتهيأ إليه في ساعة واحدة». وقيل: من حق الولد على والده أن يوسع عليه حاله كي لا يفسق. وقال عمر رضي الله تعالى عنه: إني لأكره نفسي على الجماع رجاء أن يخرج الله مني نسمة تسبحه وتذكره. وقال رضي الله تعالى عنه: أكثروا من العيال فإنكم لا تدرن بمن ترزقون. وقال شبيب بن شبة: ذهب اللذات إلا من ثلاث: شم الصبيان، وملاقة الأخوان، والخلو مع النسوان. ودخل عمرو بن العاص على معاوية وعنده ابنة عائشة فقال من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه تفاحة القلب. فقال: انبذها عنك فانهن يلدن الأعداء ويقربن البعداء، ويورثن الضغائن. قال: لا تفل يا عمرو ذلك، فوالله ما مرضى المرضي، ولا نذب الموتى، ولا أعان على الأخوان إلا هن. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين إنك حبيتهن إلي. وقيل لرجل: أي ولدك أحب إليك؟ قال: صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يحضر. وقال ابن عامر لأمراته أمامة بنت الحكم الخزاعية: إن ولدت غلاماً فلك حكمك. فلما ولدت، قالت: حكمي أن تطعم سبعة أيام كل يوم على ألف خوان، من فالودج، وأن تعلق بألف شاة. ففعل لها ذلك. وغضب معاوية على يزيد فهجره، فقال الأحنف: يا أمير المؤمنين أولادنا ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة، وبهم نصول على كل جليلة، فإن غضبوا فأرضهم، وإن سألوا فأعطهم، وإن لم يسألوا فابتدئهم، ولا تنتظر إليهم شزراً^(١) فيملوا حياتك، ويتمنوا وفاتك. فقال معاوية: يا غلام إذا رأيت يزيد فاقره السلام واحمل إليه مائتي ألف درهم، ومائتي ثوب. فقال يزيد: من عند أمير المؤمنين؟ فقيل له: الأحنف. فقال يزيد بن معاوية: علي به فقال: يا أبا بحر كيف كانت القصة فحكاهما له فشكر صنيعه وشاطره الصلة.

وحكى الكسائي أنه دخل على الرشيد يوماً فأمر باحضار الأمين والمأمون ولديهما، قال: فلم يلبث قليلاً أن أقبل كوكبي أفق يزينهما هداهما، وقد غضا أبصارهما حتى وقفا في مجلسه فسلما عليه بالخلافة ودعوا له بأحسن الدعاء فاستدناهما وأسند محمداً عن يمينه، وعبد الله عن يساره، ثم امرني أن ألقى عليهما أبواباً من النحو فما سألتها شيئاً إلا أحسنا الجواب عنه، فسره ذلك سروراً عظيماً وقال: كيف ترأهما؟ فقلت:

أرى قمرِي أفتَرِ وفَرَعِي شَامَةً
سليَلي أمير المؤمنين وحائِزِي
يسُدُّان أنْفَاقَ النِّفاقِ بِشيمَةٍ
يزيُنهما عِرْقَ كَريمٍ ومَحَنَدٍ
موارِثَ ما أبْقَى النِّبْيُ مُحَمَّدُ
يزيُنهما حِزْمٌ وسيفٌ مَهْنَدُ

ثم قلت: ما رأيت، أعز الله أمير المؤمنين، أحداً من أبناء الخلافة. ومعدن الرسالة، وأغصان هذه الشجرة الزلالية آدب منهما السناء، ولا أحسن ألفاظاً، ولا أشد اقتداراً على الكلام روية وحفظاً منهما، أسأل الله تعالى أن يزيد بهما الإسلام تأييداً وعزاً، ويدخل بهما على أهل الشرك ذلاً وقمعاً. وأمن^(١) الرشيد على دعائه ثم ضمهما إليه وجمع عليهما يديه فلم يسطهما حتى رأيت الدموع تتحدر على صدره، ثم أمرهما بالخروج. وقال: كأنكم بهما وقد دهم القضاء، ونزلت مقادير السماء، وقد تثقت أمرهما، وافترقت كلمتهما بسفك الدماء وتهتك الستور. وكان يقال: بنو أمية دن^(٢) خل، أخرج الله منه زق عمل، يعني عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه. وسب إعرابي ولده وذكر له حقه فقال: يا أبتاه إن عظيم حقك علي لا يطل صغير حقي عليك. قال سيدي عبد العزيز الديلمي رحمه الله تعالى:

أحبُّ بنيي ووددتُ أني
وما بي أن تهونَ عليّ لكن
فإن زوّجْتُها رجلاً فقيراً
وإن زوّجْتُها رجلاً غنياً
سألتُ الله يأخذُها قرياً
دَفَنْتُ ببَيِّي في قاعٍ لحدٍ^(٣)
مخافةً أن تلوِّقَ الذَّلَّ بعدي
أراها عنْدَهُ والهمُّ عندي
فيلطُمُ خَلْمَها ويسبُّ جنِّي
ولو كانتُ أحبَّ الناسِ عندي

وقال هارون بن علي بن يحيى المنجم:

أرى ابني تشابَهَ من علي
وإن يشبههما خلقاً وخلقاً
ومن يحيى وذاك به خليقُ
فقد تسري إلى الشبه العروقُ

وقال أبو النصر مولى بني سليم:

ونفرحُ بالمولودِ من آلِ برمكٍ
ولا سيما إن كانَ من ولدِ الفضلِ

وقال الحسن بن زيد العلوي:

قالوا عقيمٌ ولم يولد له ولدٌ
فقلتُ مَنْ علقتُ بالحربِ هُتَّةُ
والمرءُ يخلُقُهُ من بَعْدِهِ الولدُ
عاف^(٤) النساءُ ولم يكسر له عندُ

وكان الزبير بن العوام رضي الله عنه يرقص ولده يقول:

أزهَرُ من آلِ بني عتيقٍ
مباركٌ من ولدِ الصّديقِ

(١) أمن الرشيد: قال آمين.

(٢) الذَّلَّ: وعاء.

(٣) اللحد: القبر.

(٤) عاف النساء: لم يقبل عليهن.

الذو كما الذو رقي

وكانت أعرابية ترقص ولدها وتقول:

يا حبذا ربح الولد ربح الخزامى في البلد
أهكذا كل ولد أم لم يلد مثلي أحد

وكان أعرابي يرقص ولده ويقول:

أجبه حب الشحيح ماله قد ذاق طعم الفقر ثم ناله
إذا أراد بذلك بدله^(١)

وكان لأعرابي امرأتان فولدت إحداهما جارية، والأخرى غلاماً فرقصته أمه يوماً. وقالت معايرة لضرتها:

الحمد لله الحميد العالي أنقذني العام من الجوالي^(٢)
من كل شوهاء كثر بالي لا تدفع الغيم عن العيال

فسمعتها ضرتها فأقبلت ترقص ابنتها وتقول:

وما علي أن تكون جارية تغسل رأسي وتكون الفالية^(٣)
وترفع الساقط من خماري حتى إذا ما بلغت ثمانية
أزوتها بتقبو يمانية أنكحها مروان أو معاوية

أصهار صلق، ومهور غالية

قال: فسمعها مروان فتزوجها على مائة ألف مثقال، وقال: إن أمها حقيقة^(٤) أن لا يكذب ظنها ولا يخان عهدها. فقال معاوية: لولا مروان سبقنا إليها لأضعفنا لها المهر ولكن لا تحرم الصلة، فبعث إليها بمائتي ألف درهم. والله أعلم.

ومما جاء في الأولاد البلقاء القليلي التوفيق: قيل: نظر أعرابي إلى ولد له قبيح المنظر فقال له: يا بني إنك لست من زينة الحياة الدنيا. وقال رجل لولده وهو في المكتب: في أي سورة أنت؟ قال: لا أقسم بهذا البلد، ووالدي بلا ولد. فقال: لعمرى من كنت أنت ولده فهو بلا ولد. وأرسل رجل ولده يشتري له رشاء^(٥) للبشر طوله عشرون ذراعاً، فوصل إلى نصف الطريق ثم رجع فقال: يا أبت عشرون في عرض كم؟ قال: في عرض مصيبي فيك يا بني. وكان لرجل من الأعراب ولد اسمه حمزة فبينما هو يمشي مع أبيه إذا برجل يصيح بشاب يا عبد الله، فلم يجه ذلك

(١) بدا له: أي بدا له بداء.

(٢) الجوالي: التطواف.

(٣) الفالية: التي تغطي الشعر، تنظفه.

(٤) حقيقة: جدية.

(٥) الرشاء: الحبل يكون للبشر.

الشاب. فقال: ألا تسمع؟ فقال: يا عم كلنا عبيد الله فأبي عبد الله تعني؟ فالتفت أبو حمزة إليه وقال: يا حمزة ألا تنظر إلى بلاغة هذا الشاب؟ فلما كان من الغد إذا برجل ينادي شاباً: يا حمزة، فقال حمزة بن الأعرابي كلنا حماميز الله، فأبي حمزة تعني؟ فقال له أبوه: ليس يعنيك يا من خمد الله به ذكر أبيه. وكان لمحمد بن بشير الشاعر ابن جسيم، فأرسله في حاجته فأبطأ عليه ثم عاد ولم يقضها فنظر إليه ثم قال:

عقلُ عقل طائر وهو في خلقه الجمّل

فأجابه:

مبته بك يا أبي ليس لي عنك متقل

ونهى أعرابي ابنه عن شرب النبيذ فلم يته وقال:

أمن شربة من ماء كرم شربتها
سأشرب فاسخط لا رضية كلاهما
غضبت علي الآن طابت لي الخمر
حيب إلى قلبي، عقوقك^(١) والسكر

وقيل: قال ذلك يزيد بن معاوية لأبيه حين نهاه عن شرب الخمر.

ومما جاء في صلة الرحم: قال رسول الله ﷺ: «صلة الرحم منجاة للولد مثارة للمال» وقيل: وجد حجر حين حفر إبراهيم الخليل عليه السلام أساس البيت مكتوب عليه بالعبرانية: أنا الله ذو بكة^(٢) خلقت الرحم، وشققت لها أسماء من أسمائي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بهت أي قطعته. وقال رسول الله ﷺ: «أعجل الخير ثواباً، صلة الرحم» وحدثنا أبو سهل عن صالح بن جرير بن عبد الحميد عن منصور عن عطاء بن أبي مروان عن أبيه عن كعب الأحبار أنه قال: والذي فلق البحر لموسى بن عمران إن في التوراة لمكتوب: يا ابن آدم اتق ربك، وبر والدك، وصل رجمك أزد في عمرك، وأيسر لك في سيرك، وأصرّف عنك عسرك. وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب جلّ وعلا، وصلة الرحم تزيد في العمر» وذكر تمام الحديث.

الفصل الثالث: في ذكر الأنساب، والأقارب، والعشيرة

قال عمر رضي الله عنه: تعلموا أنسابكم تعرفوا بها أصولكم، ففصلوا بها أرحامكم. وقيل: لو لم يكن من معرفة الأنساب إلا اعتزازها من صولة الأعداء وتنازع الأكفاء^(٣)، لكان تعلمها من أحزم الرأي، وأفضل الثواب، ألا ترى إلى قول قوم شيعب عليه السلام حيث قالوا: «ولولا رهطك لرجمتك»^(٤) فأبقوا عليه لرهطه. وقال عمر رضي الله عنه: تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة، وتعلموا النسب فرب رحم مجهولة قد وصلت بعرفان نسبها. وسئل

(١) عقوقك: معصيتك.

(٢) ذو بكة: غلبة وشدة.

(٣) الأكفاء: الأنداد.

(٤) سورة: هود، الآية: ٩١.

عيسى عليه السلام: أي الناس أشرف؟ فقبض قبضتين من تراب وقال: أي هاتين أشرف؟ ثم جمعهما وطرحهما، وقال: الناس كلهم من تراب ﴿إِنْ أكرمكم عند الله اتقاكم﴾^(١). كان أبو كبشة جد رسول الله ﷺ من قبل أمه، فلما خالف رسول الله ﷺ دين قريش قالوا: نزع عرق أبي كبشة، حيث خالفهم في عبادة الشعري. وقال خالد بن عبد الله القسري سألت واصل بن عطاء عن نسبه، ومن حفظه فقد حفظ نسبه، فقال نسي الإسلام الذي من ضييعه فقد ضيع نسبه، ومن حفظه فقد حفظ نسبه، فقال خالد: وجه عبد وكلام حر. ومن كلام علي كرم الله وجهه: أكرم عشيرتك فتحهم جناحك الذي به تطير، فإنك بهم تصول، وبهم تطول وهم العدة عند الشدة أكرم كريمهم، وعد^(٢) سقيمهم واشركهم في أمورك، ويسر عن معسرهم. وكان يقال إذا كان لك قريب فلم تمش إليه برجلك، ولم تعطه من مالك فقد قطعته. ويقال حق الأقارب إعظام الأصغر للأكبر، وحنو الأكبر على الأصغر. قال رسول الله ﷺ: «حق كبير الإخوة على صغيرهم كحق الوالد على والده» قال بعضهم:

وَإِذَا رَزَقْتَ مِنَ النِّوَافِلِ ثَرَوَةً فَاَمْنَحْ عَشِيرَتَكَ الْأَدْنَى فَضْلَهَا
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَا تُسَوِّدُ فِيهِمْ حَتَّى تَرَى دَمْتَ الْخَلَائِقِ سَهْلَهَا

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) وعد: زر المريض.

الباب السادس والأربعون: في الخلق وصفاتهم وأحوالهم وذكر الحسن والقبیح والقصر والألوان والثياب وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في الحسن ومحاسن الأخلاق

والى سيدنا محمد رسول الله ﷺ ينتهي الحسن والجمال. كان سيدنا محمد ﷺ ربة من القوم، لا باتناً من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، أبيض اللون مشرباً بحمرة، أدعج^(١) العينين، مفلج الثنايا^(٢) دقيق المسربة^(٣)، أزهر الجبين، واضح الخد، أقى الأنف كأن عتقه إيريق فضة، ظاهر الوضاعة، يتلألاً وجهه تلالؤ القمر، شثن^(٤) الكفين، مسح القدمين، واسع الصدر من لبتة إلى سرتة، شعره يجري كالقضب، ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، أشعر الذراعين والمنكبين، لم يبلغ شبيه في رأسه ولحيته عشرين شعرة، ضخم الكراديس^(٥)، أنور المتجرد إذا مشى كأنما ينحط من صلب وإذا التفت التفت جميعاً، بين كتفيه خاتم النبوة كأنه زرّ حجلة، أو بيض حمامة لونه كلون جسده، أبلج الوجه حسن الخلق، وسيماً قسيماً في جبينه زجج^(٦)، وفي عينه دعج، وفي عتقه سطع وفي لحيته كثافة إن صمّت فعليه الوقار، وإن تكلم سما وعلاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأكملهم من قريب، كأنما منطلقه خرزات نظم يتحدّرن. قال أنس رضي الله عنه: ما رأيت من ذي لمة سواده في حلة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ. ومدحه ﷺ حسان بن ثابت، رضي الله عنه فقال:

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء
خُلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خُلقت كما تشاء

اللهم صلّى وسلم عليه واجعله شافعاً لمن يصلي عليه. وقال ﷺ: «ما حسن الله خلق عبد وخلقه إلا استحيا أن يطعم لحمه النار». وقد كان المتوكل رحمه الله من أحسن الخلفاء العباسيين وجهاً، وأبهاهم منظراً، وكان مصعب بن الزبير من أحسن الناس وجهاً.

- (١) أدعج: واسع.
- (٢) الثنايا: الأستان في مقدمة القم.
- (٣) المسربة: شعر الصدر.
- (٤) شثن: خشن.
- (٥) الكراديس: رؤوس العظام.
- (٦) زجج: كثافة في شعر الحاجبين.

وحكي أنه كان جالساً بفناء داره يوماً بالبصرة إذ جاءت امرأة فوقفت تنظر إليه، فقال لها: ما وقوفك يرحمك الله؟ فقالت: طفء مصباحنا، فجئنا نقتبس من وجهك مصباحاً. وقيل لأعرابية ظريفة: ما بال شفئك مشقة؟ فقالت: إن التين إذا حلا تشقق، والورد يشقق إذا مسه الندى. وكانت لبابة بنت عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهم، من أجمل الناس وجهاً، وكانت عند الوليد بن عتبة بن أبي سفيان فكانت تقول: ما نظرت وجهي في مرآة مع إنسان إلا رحمته من حسن وجهي، إلا الوليد، فكننت إذا نظرت إلى وجهي مع وجهه رحمت وجهي من حسن وجهه. قال الشاعر:

ولو أنها في عهد يوسف قطعت
قلوب رجالو، لا أكف نساء
وقال كثير:

ولو أن عزة حاكمت شمس الضحى
في الحسن عند موفى^(١) لقضى لها
ومما جاء في محاسن الخلق منظوماً على الترتيب، من الفرق إلى القدم.

ما قيل في الشعر: كان يقال: من تزوج امرأة أو اتخذ جارية فليستحسن من شعرها، فإن الشعر الحسن أحد الوجهين. قال بكر بن النطاح:

بيضاء سحب من قيام شعرها
فكانها فيه نهاض ساطع
وللمنتبي:

نشرت ثلاث ذوائب من شعرها
واستقبلت قمر الزمان بوجهها
وله أيضاً:

لبن الوشي لا متجملات
وضفرن الغدائر لا لحسن
وقال الصفدي:

لولا شفاعه شعره في صبه
لكن تنازل في الشفاعه عنده
وقال ابن الصائغ:

نسى غصناً ومدّ عليه فزعاً
كحظي حين أطلب منه وضلاً

(١) موفى: قاض مشهور في الحقبة الأموية.

(٢) أسحم: بالغ السواد.

(٣) يضمن: يحمين ويحفظن.

وبلَّكَه^(١) على الأردافِ منه
فلم أرَ مثلَ ذاكِ الفرعِ أصلاً
وقال آخر:

أرغى ثلاثاً يومَ حمامِهِ
فقلتُ والقصدُ ذوابائِهِ
وقال آخر:

بلت ثرياً قرطها وشعرها
يا عجباً لشعرها لما ابتلى
وقال ابن المعتز:

توارث عن الواشي بليل ذوائِبِ
ينغلي عليها شعرها بظلامِهِ
ومما قيل في الأصداف: قال ابن المعتز:

ريمٌ يتيهُ يخُننِ صورتِهِ
وكان عقربٌ صَدِغَهُ وَقَتِ
وقال العادلي:

وعهلي بالعقاربِ حينَ تشنُّو
فما بالُ الشتاءِ أتى وهلي
وقال آخر:

وما ضرُّهُ نارٌ بخَلْيِهِ ألَهَبَتْ
عناقيدُ صدغيهِ بخَلْيِهِ تَلَقَّوِي
وقال آخر:

حلُّ القبا^(٢) ولوى صدغيهِ فانعقدَا
وأسكرتني ثناباه وريقُهُ

ومما قيل في مدح العذار^(٤): قال أبو فراس بن حمدان:

(١) بلَّكَه: فرقه.

(٢) الغوال: اسم لطيب.

(٣) القبا: رداء.

(٤) العذار: السالف.

يَا مَنْ يَلُومُ عَلَى هَوَاهُ جِهَالَةً
حَسَنَتْ وَطَابَ نَيْمُهَا فَكَأَنَّمَا

وقال محمد بن وهب:

صَدُودُكَ وَالْهَوَىٰ فَتَكَاسَتَارِي^(١)
وَكَمْ أَبْصَرْتُ مِنْ حَسَنِ وَلَكِنْ
وَلَمْ أَنْخَلِجْ عَذَاراً فِيكَ إِلَّا

وقال آخر:

وَمَعْنَرٍ^(٢) رَقَّتْ حَوَاشِي خَدَّه
لَمْ يَكُنْ عَارِضَةً السَّوَادُ وَإِنَّمَا

وقال آخر:

وَمَهْفَهْفٍ^(٣) رَاقَتْ نَضَارُهُ وَجْهَهُ
أَصْلَىٰ بِنَارِ الْخُدِّ عَنِيرُ خَالِهِ

وقال آخر:

أَصْبَحْتَ سُلْطَانَ الْقُلُوبِ مِلَاحَةً
طَلَعْتَ طَلَاعُ وَجْهِكَ مَيِرَةً

وقال آخر:

يَا ذَا الَّذِي خَطَّ الْعَذَارَ بِخَدِّهِ
مَا صَغَّ عِنْدِي أَنَّ لِحْظَكَ صَارِمٌ

وقال آخر:

مَنْ لَا أَرَىٰ كَعْبَةَ الْحَسَنِ الَّتِي حُرِسَتْ
فَلْيُنْظَرْ النَّمْلُ أَضْحَىٰ فَوْقَ عَارِضِهِ

وقال بدر الدين الدماميني:

يَحْدُثُ لَيْلُ عَارِضِهِ بِأَنِّي
فَأَشْرِقُ صَبْحُ غُرَّتِهِ يَنْتَادِي

وقال آخر:

وَقَالُوا تَسْلَىٰ فَقَدْ شَانَهُ

انْظُرْ إِلَىٰ تِلْكَ السَّوَالِفِ تَعْدِرُ
مَسْكَ تَسَاقَطَ فَوْقَ خُدِّ أَحْمَرٍ

وَسَاعَدَنِي الْبُكَاءُ عَلَى اشْتِهَارِي
عَلَيْكَ لِشَقَوَتِي وَقَعَ اخْتِيَارِي
لَمَّا عَايَنْتَ مِنْ خَلْعِ الْعَذَارِ

قُلُوبُنَا وَجُدَا عَلَيْهِ رِقَاقُ
نَفَضْتُ عَلَيْهِ سَوَادَهَا الْأَحْدَاقُ

وَالْعَيْنُ تَنْظُرُ مِنْهُ أَحْسَنَ مَنْظَرٍ
فَبَدَا الْعَذَارُ دَخَانَ ذَاكَ الْعَنِيرِ

وَجَمَالُ وَجْهِكَ لِلْبَرِيَّةِ عَكْرُ
بِالنَّصْرِ يَقْدُمُهَا اللَّوَاهُ الْأَخْضَرُ

خَطَيْنِ هَاجَا لَوْعَةً وَبِلَابِلَا
حَتَّى حَمَلَتْ بِعَارِضِيكَ حَمَائِلَا

بِالنَّمْلِ حَيْثُ مَقَامُ النَّمْلِ فِي فَمِهِ
يَطُوفُ سَبْعاً وَسَبْعاً حَوْلَ مَبْمِهِ

سَأَلُوهُ وَيَنْصَرُّ الْمَنْزَارُ
حَدِيثُ اللَّيْلِ يَمَحُوهُ التَّهَارُ

عَذَارُ أَرَاخَكَ مِنْ صَدِّهِ

(١) استاري: فضج ما أخفيه.

(٢) معنر: نابت العنلار.

(٣) المهفهف: ضامر البطن.

فقلتُ وَهْمْتُكُمْ وَلَكْتُسِي

وقال سيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء:

على وجيئه جنّة ذاتُ بهجةٍ
حمى ورد خديه حماة عذاره

وقال ابن نباتة:

ويمهجنِي رشا يعمسُ قوائمه
شففَ العذارُ بخدّه ورأه قد

وقال الموصلي:

لحديثِ نَبَتِ العارضينِ خلّوة
فإذا نهاني المرأة قلْتُ ترقّقوا

وقال آخر:

أصبحتُ مكسوراً بهم لحاظه
حتى بدا سيفُ العذارِ مجرّداً

وقال آخر:

يا صاح قد حضرَ المدامُ وثني
وكنا العذارُ الخدّ حسناً فاسقني

وقال ابن نباتة:

وضعتُ سلاحَ الصبرِ عنه فما لَه
وسالَ عذارُ فوقَ خدّيه سائلُ

ومما قيل في ذم العذار: قال الشاعر:

عَدا لما التّحى ليلاً بهيماً
وقد كتبَ السوادُ بعارضيه

وقال آخر في ذمه:

قلتُ لأصحابي وقد مرّ بي
بالله يا أهلَ ودي قفّوا

وقال آخر:

ما زالَ يتفّ ريحاناً بعارضيه
كأنما طور سينا فوق عارضيه

وقال آخر:

خلعتُ العذارَ على خدّه

تَرى لعيونِ الناسِ فيها تَراحِمًا
فيا حسنَ ريحانَ العذارِ حمّاً حمى

فكأنه نشوانٌ من شفتيه
نعتُ لواحظه فدبّ عليه

وطلاوة هامت بها العشاقُ
فإلّكم هذا الحديثُ يُساقُ

ومقيداً من صَدِغِهِ بلسانهِ
فخشيْتُ يقتلني وذا مِن شأنهِ

وحظيتُ بعدَ الهجرِ بالإناسِ
واجعلْ حديثك كُلّه في الكاسِ

يفازلُ بالألحاظِ مَنْ لا يفازلُه
على خدّه فليُتّق الله سائلُه

وكانَ كأنّه قمرٌ منيرُ
لَمَن يقرأ وجاءكُم النّليِرُ

متقبلاً بعيدَ الضيّبِ بالظلمِ
ثمّ انظُرُوا كيفَ زوالُ النّعمِ

حتى استطالَ عليه صارَ يحلقُه
طولَ الزمانِ فموسى لا يفارقُه

أَن لا يَزَالَ مَدَى الزَمَانِ مَصَاحِبِي
فَتَعَجُّبُوا لِسَوَادِ وَجْهِ الكَاذِبِ

مَا زَالَ يَحْلِفُ لِي بِكُلِّ الْبَيَّةِ
لَمَّا جُسْنَ نَزَالُ العَذَارِ بِخُدِّهِ
وقال ابن المعتز:

وَلَمْ يَكُنْ فَرَجٌ مِنْ طَوْلِ جَفَوَيْهِ
وَاسْتُرَ مَلَا حَةَ خَدَّيْهِ بِلَحْيَتِهِ

يَا رَبِّ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي وَصْلِهِ طَمَعٌ
فَاشْفِ السَّقَامَ الَّذِي فِي لَحْظِ مَقْلَتِهِ
ومما قيل في الجبين والحواجب: قال خالد الكاتب:

وَمِنْ نَاضِرِ الرِّيحَانِ خَضِرَةُ حَاجِبِ
وَمِنْ حَالِكِ الحَبْرِ اسْوَدَادُ الذَّوَابِ

لَهَا مِنْ طَبَاءِ الرَّمْلِ عَيْنٌ مَرِيضَةٌ
وَمِنْ يَانِعِ الْأَغْصَانِ قَدْ وَقَامَتْ
وقال آخر:

وَهَبْ عَلَيَّ الْجَيْشُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
وَمِمْنَةً تَقْضِي بِزَجِّ الحَوَاجِبِ

غَزَاتِي الهَوَى فِي جِيشِهِ وَجَنُودِهِ
بِمِمْرَةٍ أَجْنَادَهَا أَعْيُنُ المَهَا
وقال آخر:

وَيَا غَصْنَأَ يَمِيلُ مَعَ الرِّيحِ
صَبَاحاً فِي صَبَاحٍ فِي صَبَاحٍ

أَيَا قَمَرًا تَبْسُمُ عَنْ إِقْبَاحِ
جَبِينِكَ وَالْمَقْبَلِ وَالثَّنَائِيَا
ومما قيل في العيون: قال الأصمعي ما وصف أحد العيون بمثل ما وصف أحمد بن الرقاع في قوله:

عَيْنَيْهِ أَحْوَرُ مِنْ جَاذِرٍ^(١) جَائِمِ
فِي جَفْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِنَائِمِ

وَكَأَنَّمَا دُونَ النِّسَاءِ أَعَاذَهَا
وَسَنَانُ أَقْصَدُهُ النِّعَاسُ تَلَاعَبَتْ
وقال ابن المعتز:

سَرِيعٌ بِكَسْرِ اللَّحْظِ وَالْقَلْبِ جَاوِزُ
كَمَا لَأَنَّ مَثْنُ السِّيفِ وَالْحَدُّ قَاطِعُ

عَلِيمٌ بِمَا تَحْتَ الْعَيُونِ مِنَ الهَوَى
فَيَجْرَحُ أَحْشَائِي بِعَيْنِ مَرِيضَةٍ
وقال الأخطل:

وَلَا تَقْرَبْ لَهَا أَبَدًا رَحَالَا
يَكْذَنُ يَكْذَنُ^(٢) بِالْحَرْقِ الرِّجَالَا

وَلَا تَلْمَسْ بِلَدَارِ بَنِي كَلِيبِ
تَرَى فِيهَا بِوَارِقَ مَرْهَفَاتِ
وقال أبو فراس وأحسن:

هَزَزَنَ سَيُونًا وَاسْتَلَلَنَ خُنَاجِرَا
فَغَاذَرَنَ قَلْبِي بِالتَّصْبِيرِ غَاوِرَا
وَمِنْ غُصُونَا وَالتَّقَنَّنِ جَاذِرَا^(٣)

وَيَضُّ بِأَلْحَاطِ الْعَيُونِ كَأَنَّمَا
تَصْدُقُنِي لِي يَوْمًا بِمَنْعَرَجِ اللَّوَى
سَفَرُنَ بَدُورَا وَانْتَقَبْنَ أَهْلَةً

(١) جاذر مفرد: جؤذر: ولد النعامة.

(٢) يكذن يكذن: أي يقارن إكداد الرجال.

(٣) جاذرا: أربع حالات في أربع أوصاف: بدور عند الأسفار: أهلة عند الانتداب: غصونا في الشيء: جاذرا في رشاقة الاضات.

وقال آخر:

ومريضٌ جفني ليس يصرفُ طرفه
قد قلتُ إذ أبصرتهُ متمائلاً
يا من يُسلمُ خصره من ردفه

وقال أبو هتان:

أخو دنف^(١) رمته فأقصذته
فوايك لا يقال سوى احورار
أصبَن فؤادَ مهجته فأصْحى
كياً إن ترخَّل عنه جيشٌ

وقال آخر:

وجاءوا إليه بالتماريذ والرقى
وقالوا به من أعين الجن نظرة

وقال عز الدين الموصل:

لها عين لها غزورٌ وغزلٌ
وحاكت في فعائلها المواضي

وقال برهان الدين القيراطي:

شبه السيف والنان بعتي
فأنى السيف والنان وقالوا

وله أيضاً:

بأبي أيف المعاطف لند
ذو جفونٍ مذ رمث منها كلاماً

وقال بدر الدين بن حبيب:

عينا قد شهدت بأنني مخطيء
يا حاكم الحب أئذ في قلتي

وقال جلال الدين بن خطيب داريا:

شهدت جفونٌ معذبتي بملاله
لكتني لم أنا عنه لأنّه

نحو امرئٍ إلا رماءٌ بخنجه
والردف يجذبُ خصره من خلفه
سلم فؤاد محبه من ظرفه

سهاً من جفونك لا تطيش
بهن ولا سوى الأهداب ريش
سقيماً لا يموت ولا يعيش
من البلوى أناخ به جيوش

فصبوا عليه الماء من شدة النكر
ولو انصفوا قالوا به عين الإنسان

مكحلة ولي عين تباكت
فيا لك مقالة غزلت وحاكت

من لقتلي بين الأنام استحلاً
حلنا دون ذلك حاشى وكلاً

حسد الأمر المتخف قلّه^(٢)
كلتني سيوفهن بخله

وأثت بخط عذاره تذكارا
فالخط زور والشهود سكارى

منني وأن وداده تكليف
خبر رواه الجفن وهو ضعيف

(١) دنف: شدة السقم.

(٢) قلّه: أي السيف حده.

وقال الشيخ عز الدين الموصلي:

يا مقلّة^(١) الحب مهلاً
وانت يا وجبتيه

قد أخذت بشارك
لا تحرقيني بشارك

وقال ابن الصائغ:

لمثلي من لواظيها سهام
إذا رامت تشك فؤاداً

لها في القلب فك أي فك
يموت المتهام بغير شك

وقال الصلاح الصفدي:

يا عاذلي على عيني محبوبة
وغد فؤادي ودعة نصب مقلتها

خفت سحر ناظرها فالسحر فيه خفي
لا تزم نفسك بين الهم والهدف

وقال آخر:

بهم أجزائي رماني
إن مك ما لي سواء خصم

فلنبت من هجره وبينه
لأنه قاتلي بعينه

وقال آخر:

سهام الجفني كم قتلت لغمر
فما أقوى جفونك وهي مرضى

مبرة من السوى زكية
واقدرها على قتل البرية

ومما قيل في الخال: للصلاح الصفدي:

بروحي خله المحمر أضحى
كان الحسن يمشقه قديماً

عليه شامة شرط المحبة
فقطه بدينار وحب

ولابن الصائغ:

بروحي أندي خاله فوق خده
تبارك من أخلص من الشعر خده

ومن أنا في الدنيا فأفديه بالمال
واسكن كل الحسن في ذلك الخال

وللشيخ جمال الدين بن نباتة:

له خال على خد الحبيب له
أورثه حبة القلب القليل به

في العاشقين كما شاء الهوى عبث
وكان عهدي بأن الخال لا يبرث

وقال آخر:

يا سالباً قمر السماء جماله
أحرقت قلبي فارتضى بشرارة

ألبتني في الحزن ثوب سماه
علقت بخدك فانطقت في مائه

وللشيخ تقي الدين بن حجة:

قلت للخال إذ بَدَا
فزت يا عبدُ قال لي
وقال ابن أبيك:

ففي الجانب الأيمن من خدّها
حبسْتُ لما بَدَا خالها

وقال الحسين بن الضحاك:

يا صائد الطير كم ذا
نصبت تقطعة خالو

ومما قيل في الخلود. قال ابن المعتز:

مِلْ بخدي خديك تلقَ عجباً
فبخديك للريح رياض

وقال آخر:

ورد الخدود ونرجس اللحظات
شيء أسرُّ به وأعلم أنه

ومما قيل في الثغور. قال يوسف بن مسعود الصواف:

بروحي مَنْ وَلِي^(١) فولى بمهجتي
حَسَى ثغره مني بسيف لحاظه

وقال آخر:

أنفقت كنز مدامعي في ثغره
وطلبت منه جزاء ذلك قبله

وقال آخر:

رأى ثغر مَنْ أهوى عدولي فقال لي
شغلْتُ بهذا وارتبطت بحسينه

وقال ابن ريان:

لاحت على مسمو المشتى
لا تعجبوا إن كثرت حوله

ومما قيل في طيب الريق والنكهة. قال ذو الرمة:

(١) وَلِي: أعرض.

(٢) الثغر: الفم وكذلك الحدود.

عروب^(١) كإيماض الغمام ابتسائها
زجاجة خمر طاب فيها مداؤها

أسيلة مجرى الدمع هيفاء طفلة
كان على فيها وما ذقت طعمه

قال شهاب الدين الكردي:

بشرب راح تعطّر
فالشئ بالشئ يذكر

ذكرت ريح حبيبي
وليس ذا بعجيب

وقال غيره:

ولم يكن لي صبر
فأول الغيث قطر

رشفت ريقك خلوا
وسوف أحظى بوصل

وقال الصلاح الصفدي:

من قهوة مُزجت بماء الكوثر
يرويه نضاً عن صحاح الجوهر

نقل الأراك^(٢) بأن ريقه ثغره
قد صغ ما نقل الأراك لأنه

وقال آخر:

صلاح أدلتها واضحه
هي الطعام واللون والرائحة

ثلاث تجتمع في ثغرها
فإن قيل ما هي قل لي أقل

وقال آخر:

بنوره كالبنر بين غيومه
فسكرت في الحالين من خرطوميه

يا رب متنع الوصال محجب
دارت مرافقه علي وكأسه

وقال آخر:

رشفت فكنت^(٣) منه فلن أفيقا
جهلت بأن في الأسماء ريقا

أريقاً من رضاك أم رقيقاً
وللصبيان أسماء ولكن

ومما قيل في حسن الحديث. قال البحري:

تعجب رائبي اللذ حناً ولاقطه
ومن لولو عند الحديث تاقطه

ولما التقينا والنقا موعداً لنا
فمن لولو تجلوه عند ابتسامها

وقال سلم الخاسر:

يوم ولم نشرب شرباً ولا خمرا
وإن نطق هاجت لأبائنا سكرا

ظلتنا فبتنا عند أم محمّد
إذا صمت عنا ضجرتنا لصمتها

(١) عروب: عفيفة عن الفحش.

(٢) الأراك: نبت طيب العرق.

(٣) كدت: تعبت.

وقال ابن الرومي:

يمسي ويصبح معرضاً فكأنه
ليست إساءته بناقصة له
ملكٌ عزيزٌ قاهرٌ سلطانه
دُرٌّ يساقطه إليّ لسانه

وما أحسن هذه الأبيات، وهي من طارف الشعر ووافره وناقده وجيد الكلام وبارع الوصف:

وكل حديث الناس إلا حديثها
جرّخَنَ بأعناقِ الظباء وأعين الـ
رجّخَنَ بأردافِ تقالٍ وأسوقِ
رجيعٌ وفيما حدّثكَ الطرائفُ
جاذِبٌ وارْتَجَّتْ بهنَّ الروادفُ
جذالٍ وأعضاءٌ عليها المطارفُ

ومما قيل في رقة البشارة. قال ابن المعتز^(١):

نَفَثَ^(٢) عنها القميصَ لصَبٍّ ماءٍ
وقابَلَتِ الهواةَ وقد تعرّثَ
وملئت راحةً كالماء منها
فلما أن قَفَضَتْ وطراً وهُمُتْ
رأت شخصَ الرقيبِ على التذاني
فغاب الصبحُ منها تحتَ ليلٍ
فورّدَ خُدّها فرطُ الحياءِ
بمعدّلٍ أرقٍّ من الهواءِ
إلى ماءٍ مُعَدٍّ في إناءٍ
على عجلٍ إلى أخذِ الرداءِ
فاسْتَبَلَّتِ الظلامَ على الضياءِ
وظلّ الماءُ يقطرُ فوقَ ماءٍ

وقال آخر:

تغيّرَ عني مودّتيهِ وحالاً^(٣)
وعلمتُ التبدّلَ كيفَ هجري
تَرَى من فوقِ حقويه^(٤) قضياً
إذا كلّمتُهُ أَلَمْتُ فيه
وكان مواصلاً فطوى الوصالاً
فليت الوصلَ كان له دلالاً
إذا ما حَرَكْتُه خطاه مالا
وإن حَرَكْتُه فالخمرُ مالا

وقال بشار:

وما ظفرت عيني غداة لقيتها
كحوراء من حور الجنانِ غريرةٍ^(٥)
بشيء سوى أطرافها والمحاجرِ^(٥)
يَرى وجهه في وجهها كلُّ ناظرٍ

ومنه أخذ أبو نواس قوله:

نظرتُ إلى وجههِ نظرةً
فأبصرتُ وجهي في وجههِ

(١) المحفوظ أنها لأبي نواس.

(٢) نفث: خعلت.

(٣) وحالا: تحول.

(٤) حقويه: أي فوق الخصر.

(٥) المحجر: العين.

(٦) غريرة: ساذجة - غير مجربة.

وقال آخر:

توهمه قلبي فأصبح خله
ومرّ بفكري جسمه فجرحته

وقال آخر:

سقى الله روضاً قد تبدّى لناظري
وقد نضحت خده من ماء ورده

وقال آخر:

وأهيف قلّه كُسيّ احمراراً
فلو أخرجته بالقول جهدي

ومما قيل في التّجليل . قال المظفر الأعمى:

قبّلتُه فتغلّطى جمرٌ وجّته
وجال بينهما ماء ولا عجب

وقال آخر:

سألته في ثغره قبله
فهاكها في الخد واقنع بها

قال صاحب حماة:

قال الذي يّمني
بروم مني قبله

وقال الشيخ عزّ الدين الموصلي:

كالزرد المنظوم أصداغه
بالفت في اللثم وقبّله

وقال آخر:

رأيت الهلال على وجهه
سوى أن ذاك بعيد المزار
فلم أدري أيهما أنور
وهذا قريب لمن ينظر
وذاك يغيب وذو حاضر
وما من يغيب كمن يحضر

(١) الشادن: الغزال.

(٢) العبق: الفواح.

(٣) الخبل: ذهاب العقل.

(٤) ورد: أتى.

ونفَعُ الهلالِ قليلُ لنا

وقال ابن صابر:

قَبْلْتُ وَجْهَهُ فَأَلْفَتَ جَيْدَهُ
فَانْهَلَّ مِنْ خَدَّيْهِ فَوْقَ عَذَارِهِ
فَكَأَنَّنِي اسْتَقْطَرْتُ وَرَدَّ خَدُودِهِ

وقال آخر:

قَبْلْتُ رَجُلًا حَيِيًّا
وَقَالَ تَلُّهُمْ رَجُلِي
قَلْتُ مَا جِئْتُ بِدَعَا
رَجُلٍ سَعَتْ بِكَ نَحْوِي

ومما قيل في الوجه الحسن لابن نباتة:

إِنْسِيَّةٌ فِي مِثَالِ الْجَنِّ تَحْسِبُهَا
شَقَّتْ لَهَا الشَّمْسُ ثَوْبًا مِنْ مُحَاسِنِهَا

وقال عبد الله بن أبي خيصر:

تَمَلُّ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ
كَأَنَّهَا حِينَ تَدُنُّو
وَأَنْ أَضَاعَتْ بِلِيلٍ

وقال آخر:

أَقْسِمُ بِاللَّهِ وَأَيَّاتِهِ
وَلَا بَدَا وَجْهَهُ لِي طَالِعًا

وقال آخر:

أَقِيمِي مَكَانَ الْبَدْرِ إِنْ أَقَلَّ^(٣) الْبَدْرُ
فَقِيكِ مِنَ الشَّمْسِ الْمَنِيرَةِ نَوْرُهَا

وقال عمر بن أبي ربيعة:

ذَاتَ حُسْنٍ إِنْ تَوَقَّبَ شَمْسُ الضُّحَى
أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى تَفْضِيلِهَا

ونفَعُ الحبيبِ لنا أكثرُ

خَجَلًا وَمَاسٍ بِعَظْفِهِ الْمِيَّاسِ^(١)
عَرَقٌ يَحَاكِي الطَّلَّ فَوْقَ الْأَسَى
بِتَصَاعِدِ الزَّفَرَاتِ مِنْ أَنْفَاسِي

فَازُورَ وَاحْمَرَّ خَدَا
لَقَدْ تَنَازَلْتُ جَدَا
وَلَا تَجَاوَزْتُ حَدَا
حَقُوقُهَا لَا تَوَدِّي^(٢)

شَمْسًا بَدَتْ يَنْ تَشْرِيقُ وَتَغْمِيمُ
فَالْوَجْهَ لِلشَّمْسِ وَالْعَيْنَانِ لِلرَّيْمِ

بِالْعَمْرِ أَضَحَّتْ مَذْلَّةُ
شَمْسٍ عَلَيْهَا مَظْلَّةُ
تَفَوْقَ نَوْرِ الْأَهْلَّةِ

مَا نَظَرْتُ عَيْنِي إِلَيْهِ مِثْلَةَ
إِلَّا سَأَلْتُ اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ

وَقَوْمِي مَقَامَ الشَّمْسِ قَدَائِمًا الْفَجْرُ
وَلَيْسَ لَهَا مِنْكَ التَّبَسُّمُ وَالْثَغْرُ

فَلَنَا مِنْ وَجْهِهَا عَنْهَا خَلْفُ
وَهَوَاهُمْ فِي سَوِيِّ هَذَا اخْتَلَفُ

(١) ماس: تنى.

(٢) تودى: أي لا يستطيع مكافأتها.

(٣) أقل: غاب.

أخذ أبو تمام المعنى فردّه إلى المدح فقال:

لو أن إجماعنا في فضل سؤدده

وقال آخر:

يا مفرداً في الحسن والشكل

البدر من شمس الضحى نوره

وقال آخر:

ففي أربع مني حلّت منك أربع

أرجهك في عيني أم الريق في فمي

فلما سمعه إسحاق بن يعقوب الكندي قال: هذا تقسيم

وفي خمسة مني حلّت منك خمسة

ووجهك في عيني ولمسك في يدي

وقال ابن نباتة:

أيها العاذل الغيّي تأمل

وتعجّب لطرؤ وجيبي

وقال محمود المخزومي:

رأيتك في الشمس المنيرة غدوة

لأنك تزهو إن بدا الليل بهجة

وقال آخر:

إذا احتجبت لم يَكفك البدر وجهها

وحبك من خمر مذاقة ريقها

ومما قيل في البنان المنخضب. قال ابن الرومي:

وقفت وقفةً ياب الطاق

بنت سبع وأربع وثلاث^(١)

قلت من أنت يا غزال فقالت:

لا ترم وملكنا فهذا بنان

في الدين لم يختلف في الأمة اثنان

من دلّ عينك على قلبي

والشمس من نورك تستملي

فما أنا أدري أيها هاج لي كربي

أم النطق في سمني أم الحب في قلبي

فلسفي، وجعله العلوي خمسة فقال:

فريقك منها في فمي طيب الرشف^(١)

ونطقك في سمني وعرفك^(٢) في أنفي

من غدا في صفات القلب ذائب

إن في الليل والنهار عجائب

فكنت على عيني أبهى من الشمس

وشمس الضحى ليست تضيء إذا تمي

وتكفي قعد البدر إن غرب البدر

ووالله ما من ريقها حبك الخمر

ظيفة من مخدرات^(٣) العراق

أسرت قلب صبيها المشتاق

أنا من لطف صنعة الخلاق

قد صبغناه من دم العشاق

(١) الرشف: الإرتشاف والمص.

(٢) العرف: الريح الطيبة.

(٣) مخدرات: نبات خلدور وأستار.

(٤) بنت أربع عشرة سنة.

وقال الراضي بالله:

قالوا الرحيلُ فأنشَبْتُ أظفارَها
ففلتتُ أن بناتها من ففؤة

وقال آخر:

لما اعتنقنا للوداع وأعرزت
فرقن بين محاجرٍ ومعاجر^(١)

وقال آخر:

ولما تلاقينا رأيتُ بناتها
فقلت خضبتِ الكفَّ بعدي أهكذا
قالت وأذكتُ في الحنا لاجع^(٢) الجوى
بكيثُ دماً يومَ النوى فمسختهُ

وقال آخر:

دنُونُ عشيّةَ التوديعِ مني
فلم يمسُخن إكراماً جفوني

ومما قيل في النحور. قال دعلج:

أتاحَ لك الهوى يفضاً حسناً
نظرتُ إلى النحورِ فِكُنْتُ تُفْضي

ومما قيل في نعت اليهود. قال العباس بن الأحف:

والله لو أن القلوبَ كَلَّها
جاءَ الوشاحُ على قضيبِ زائِه

وقال آخر:

ومحبوبةٌ عندَ الوداعِ رأيتها
وتبكي حذارَ اليأسِ منها بدمعة
فتحسبُ مجرى الدمعِ من وجنتها

(١) المعاجر: نوع من الألبنة.

(٢) العندم: نبات أحمر.

(٣) لاجع الجوى: شدة الشوق.

(٤) الوالد: أي قلبها قلس.

(٥) الممسك: الرداء المدهون بالمسك.

وقد سَفَرَتْ عَنْ غِرِّهِ بِأَبْلَيْهِ

وقال عمرو بن كلثوم:

نَرَاكَ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى خَلَاءٍ
لنَهْدٍ مِثْلَ حَقِّ الْعَاجِ حَسَنًا

وقال آخر:

بِهَدْرٍ كَرَوَّجَا دُرٌّ كَأَنَّهُمَا
صَاتَتُهُمَا بِسُورٍ مِنْ غِلَاتِلْهَا

وقال آخر:

صَدُورٌ فَوْقَهُنَّ حَقَاقُ عَاجٍ
يَقُولُ النَّاطِلُونَ إِذَا رَأَوْهُ
وَمَا تِلْكَ الْحَقَاقُ سِوَى ثَدْيٍ
نَوَاهِدُ لَا يُعَدُّ لَهَا عَيْبٌ

وقال آخر:

لَقَدْ فَتَكَّتْ عَيُونُ الْغَيْدِ (١) فِينَا
وَتَطَلَّتْ الْقُدُودُ إِذَا تَقَيَّتَا

ومما قيل في الأرواف والخصور. قال ابن الرومي:

وَشَرِبْتُ كَأَنَّ مَدَامُ مِنْ كَفِّهَا
وَتَمَايَلْتُ فَضَحِكْتُ مِنْ أَرْدَانِهَا

وقال الطنبغا المحاربي:

رَدْفُهُ زَادَ فِي الثَّقَالِ حَتَّى
نَهَضَ الْخَصِرُ وَالْقَوَامُ وَقَالَا

وقال آخر:

يَا خَصِرُهُ كَمْ جَفَاءٍ
يَا رَدْفُهُ مِلْتُ عَنِّي

وقال القيراطي:

بَلَدْتُ رَوَادِفُ بَنَدْرِ

وَصَدِرَ بِهِ نَهْدٌ بِحَقٍّ (٢) مَفْكُكِ

قَدْ امْتَلَأَتْ عَيُونُ الْكَاشِحِينَ (٣)
حَصِينًا مِنْ أَكْفِ اللَّامِينَا

رَكْنَانٍ لَمْ يَدْنَسَا مِنْ لَمَسٍ مُسْتَلِمٍ
فَالنَّاسُ فِي الْحُلِّ وَالرَّكْنَانِ فِي الْحَرَمِ

وَدُرٌّ زَانَةٌ حَسَنُ أَثْقَاقٍ
أَهَذَا الْحَلِيِّ مِنْ هَلِيِّ الْحَقَاقِ
جَمَلَنَ مِنَ الْحَقَاقِ عَلَى وَفَاقٍ
سِوَى مَنْعِ الْمُحِبِّ مِنَ الْعِنَاقِ

بِيضِي مَرْهَفَاتٍ وَهِيَ سَوْدُ
بَسْمِرٍ مِنْ أَسْتِهَا النَّهْدُ

مَقْرُونَةٌ بِمَدَامُ مِنْ ثَغْرِهَا
عَجْبًا وَلَكِنِّي بِكِتْ لَخَصِرِهَا

أَقْعَدُ الْخَصِرَ وَالْقَوَامَ السَّوِيَا
فَضَعِيفَانِ يَغْلِبَانِ قَوِيَا

تُبْدِي وَأَنْتَ نَحِيلُ
مَا أَنْتَ إِلَّا بَخِيلُ

تَحْتَ الْحَيْنِ لَعَيْنِي

(١) الحُق: إناه.

(٢) الكاشحينا: الأعداء.

(٣) الغيد: مفردة غيداء: الحساء ذات العنق المميز.

فقلت يا بدرُ هذا حقاً خيالٌ لحيني

وقال آخر:

أَسْأَلُهَا أَيْنَ الْوُشَاخُ وَقَدْ سَرَتْ
فَقَالَتْ وَأَوَسْتُ لِلسَّوَارِ نَحْلَتُهُ
مَعْطَلَةٌ مِنْهُ مَعْطَرَةُ النَّشْرِ^(١)
إِلَى مَعْصِي لِمَا تَلَقَّلَقَ^(٢) فِي خَصْرِي

وقال آخر:

بِئْسَ وَسْمٌ مَقْلَتَاهُ وَقَلْبُهُ
أَقْسَى مِنَ الْحَجَرِ الْأَصَمِّ فَوَادُهُ
بِئْسَ وَلَيْلٌ وَجَتَاهُ وَشَعْرُهُ
وَأَرْقُ مِنْ شَكْوَى الْمُتِمِّ خَصْرُهُ

وقال آخر:

رَغِيْمَاتُ الْمَقَالِ مَدَلَّلَاتُ
جَمْعُنْ فَخَامَةٌ وَخُلُوصٌ جِيدُ
وَمَا قِيلَ فِي الْمَعَاصِمِ. قَالَ عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ:
حَسَرُوا الْوَجُوهَ بِأَذْرِعٍ وَمَعَاصِمِ
جَوَاعِلُ فِي الشَّرَى قُضِبًا جَذَالًا^(٣)
وَقَدْأَ بَعْدَ ذَلِكَ وَاعْتَدَالًا
رَرْنُوا بِنَجْلِ الْقُلُوبِ كَوَالِمِ^(٤)
فَكَأَنَّمَا انْتَصَبَتْ مَنُونُ صَوَارِمِ
وَمَا قِيلَ فِي اعْتَدَالِ الْقَوَامِ. قَالَ صَاحِبُ الدِّينِ الصَّفْدِي:

تَقُولُ لَهُ الْأَغْصَانُ مَذْهَبٌ عَطْفُهُ
فَقَمِ نَحْتَكُمُ لِلرُّوْضِ عِنْدَ نَسِيمِهِ
أَنْزَعَمُ أَنْ اللَّيْنَ عِنْدَكَ مَا نَوَى
لِيَقْضِيَ عَلَى مَنْ مَالٌ مَنَا إِلَى الْهَوَى

وقيل: ليس لأحد من شعراء العرب في نعت محاسن النساء من الأوصاف البارعة مع جودة البك ورقة اللفظ ما للنبي الرمة حتى كأنه حضري من أهل المدن لا من أهل الدير.

وقال القاضي مجد الدين بن مكناس:

أَقُولُ لِحَبِّي قُمْ وَمِلْ يَا مَعْلَبِي
وَلَا تَلُغْ عَنْ شَيْءٍ إِذَا مَا حَكِيهَا
كَتِيلَةُ خَوْدِ^(٥) غَيْرِ الْكُرِّ حَالِهَا
فَقَامَ كَعَصِي الْبَانِ لِيناً وَمَالِهَا

وقال آخر:

وَمَحْكَمٌ أَعْطَافُهُ
فَاعْجَبْ لِعَادِلِ قَدِّهِ
فِي قَتْلِ صَبٍّ مَا عَوَى
فِي النَّفْسِ يَحْكُمُ بِالْهَوَى

(١) النشر: الرائحة.

(٢) تَلَقَّلَقَ: صار فضفاضاً.

(٣) جَذَالًا: مرحاتٍ.

(٤) كَوَالِمِ: جوارح.

(٥) خَوْدِ: الفتاة الناعمة الجميلة.

وقال آخر:

يوماً إليّ فصحتُ من ألم الجوى
فأجابَ كيفَ وأنتَ من أهل الهوى

ومفهمفٍ عني يميلُ ولم يميلُ
لِمَ لا تميلُ إليّ يا غصنَ النقا

ومما قيل في الساق. قال ذو الرمة:

عن ساقه كاللؤلؤ البراق
إن القيامة يوم كشف الساق^(١)

لم أنسه إذ قام يكشفُ عامداً
لا تعجبوا إن قامَ فيه قيامتي

وقال آخر:

كلؤلؤ يبدو لعناقها
وقامت الحربُ على ساقها

جاءت بساقٍ أبيضٍ أملسٍ
فانتكتَ فيها جميعَ السورى

وقال ابن مقبل:

ظبي ولكنّه أنيسُ
فما لأعطافه تيس^(٢)

بدّر ولكنّه قريبُ
إن لم يكن قلبه قضيّاً

ومما قيل في مشي النساء. قال بعضهم:

هزّ الشمالُ ضحى عيدان نسرين
أيدي الرجالِ فزادَ المتنُ في اللين

يهززن للمشي أطرافنا مخضبةً
أو كاهنرازٍ ردينّي نداوله

وقال آخر:

قبّ البطون^(٤) رواجح الأضال^(٥)
يقلّعن أجلهنّ من أحوال

يمشين مَنّي قفا البطاح تأودا^(٣)
فكانهنّ إذا أزدنّ زياره

ومما قيل في العناق وطيه. قال ابن المعتز:

وأهونَ السقمِ إلى العائدِ
تفتّت في ليلها الباردِ
حيثما في جسدٍ واحدٍ

ما أقصرَ الليلَ على الراقِدِ
كانني عانتُ ريحانةً
فلو ترانا في قميصٍ الدجى

وقال آخر:

وأعزّته من ساعديّ وشاحا

وموشحٍ نازعتُ فضلَ وشاحه

(١) كشف الساق: «والفت الساق بالساق».

(٢) تيس: تميل.

(٣) تأودا: تمايل دلاً.

(٤) قبّ البطون: يطن كالقبة.

(٥) الأضال: عظيمات الورك.

وَأَمَّا أَعْطَافاً عَلَيَّ مَلاحاً

بَاتَ الْغَيُورُ يَشُقُّ جِلْدَةً وَجْهَهُ

وقال ابن المعدل:

وَاللَّيْلِ فِي كُلِّ فَجٍّ يَدُ
فَلَّله مَا ضَمَّنَا الْمَسْجِدُ
فَلَا تَنْدُ مِنْ لَيْتِي يَا غَدُ
كَمَا لَيْلَةُ الْهَجْرِ لَا تَفْدُ

أَقُولُ وَجَنَحُ الدُّجَى مَسْبِلُ
وَنَحْنُ ضَجِيعَانِ فِي مَسْجِدِ
أَيَا غَدُ إِنْ كُنْتَ لِي مُحْنَاً
وَيَا لَيْلَةَ الْوَصْلِ لَا تَقْصُرِي

وقال آخر:

كَوَاكِبُهُ مِنْ بَدْرِهِ الْمَتَالِقُ
تَمِثُّ الْهَوَى مَا يَنْ صَدْرٍ وَمَرْفُوقِ

وَلَيْلٍ رَقِيقِ الطَّرِيقَيْنِ^(١) تَظَلَّمْتُ
لَهَوْنَا بِغَزَلَانِ الصَّرِيمَةِ تَحْتَهُ

وقال ابن المعتز:

مَخْطَلَاتُ حَنَازٍ مَرْتَقِبِ
مَنْ النُّوَاطِيرِ^(٢) يَنْعَ الرُّطَبِ

وَكَمْ عَنَاقٍ لَنَا وَكَمْ قُبُلِ
تَقَرَّ الْعَصَافِيرِ وَهِيَ خَافِئَةٌ

وقال ديك الجن:

فَنَصْنُ وَأَنَا قَلَمًا قَفْصِيْبُ
لَتَطْلُعَ أَحْيَاناً لَهُ فِيغِيْبُ
وَغَضْنُ الْهَوَى غَضُّ النَّبَاتِ رَطِيْبُ
وَأَنْتَ الْهَوَى أَدْعَى لَهُ فَأَجِيْبُ

وَمَعْدُولَةٌ مَهْمَا أَمَالَتْ إِزَارَهَا
لَهَا الْقَمَرُ السَّارِي شَقِيْقٌ وَإِنَهَا
أَقُولُ لَهَا وَاللَّيْلُ مُرْخٌ سَدُولُهُ^(٣)
لَأَنْتَ الْمَنِي يَا زَيْنَ كُلِّ مَلِيْحَةٍ

وقال علي بن الجهم:

وَأَدْنَى فَوَادٍ مِنْ فَوَادٍ مَعْلَبِ
مَنْ الْخَمْرِ فِيمَا يَيْتَا لَمْ تَسْرَبِ

سَقَى اللَّهَ لَيْلاً ضَمَّنَا بَعْدَ فَرْقَةٍ
فَيْتَا جَمِيعاً لَوْ تُرَاقَ زَجَاجَةٌ

وقال آخر:

حَبِي بِوَجْهِ مَعْلَبِي مَصْبَاحَا
خَمِراً وَحَبِي خَلْدُهُ تَقَاحَا
مَسْتَفْنِياً عَنْ كُلِّ نَجْمٍ لَاحَا
وَجَعَلْتُ كَفِّي لِلشَّامِ وَشَاحَا
مَتَعَاتِقَيْنِ فَلَا نَرِيدُ بَرَاحَا

يَا لَيْلُ دُمِّ لِي لَا أَرِيدُ بَرَاحَا
حَبِي بِهِ نُوراً وَحَبِي رَيْقُهُ
حَبِي بِمَضْحَكِهِ إِذَا اسْتَضَحَّكَهُ
طَرَّقَتْهُ طَوَقُ الْعَنَاقِ بِسَاعِدِ
هَذَا هُوَ الْيَوْمُ النِّعِيمُ فَخَلْنَا

(١) الطَّرِيقَيْنِ: الأطراف.

(٢) النُّوَاطِيرُ: الحارِس.

(٣) سَدُولُهُ: مَتَرٌ أَسْتَارُهُ.

وقال آخر:

ولم أنسَ ضمِّي للحبيب على رضا وورثني رضاباً كالرحيق المسلسل^(١)
ولا قوله لي عند تقيل خدِّه تتقلَّ فلذاتُ الهوى في التقلُّ

ومما قيل في السمن. قال الربيع بن سليمان سمعت الشافعي رضي الله عنه يقول: ما رأيت سمناً عاقلاً إلا محمد بن الحسن. قال الشاعر:

لا أعشقُ الأيضَ المنفوخَ من سمنٍ لكنتي أعشقُ الثمرَ المهازيل
إني امرؤ أركبُ المهرَ المضمر^(٢) في يوم الرهاب، وغيري يركبُ الفيل

وما قيل في مدح الألوان والثياب، مدح الياض: قال رسول الله ﷺ: «الياضُ نصف الحسن»، وكان ﷺ أبيض زهر اللون مشرباً بحمرة. قال الشاعر^(٣):

يبيضُ الوجوهَ كريماً أحابهم شمُّ الأنوفِ من الطرازِ الأول

ومما قيل في مدح السواد. قيل لبعضهم: ما تقول في السواد؟ قال: النور في السواد. أراد بذلك نور العينين في سوادهما. وقال بعضهم:

قالوا تعشَّتها سوداء قلتُ لهم لونُ الغوالي ولوَّ المسكِ والعود
إني امرؤ ليسَ شأنُ اليضي مرتفعاً عندي ولو خلَّت الدنيا من السود

وقال الحيقطان:

لئن كنتَ جمَدَ الرأسِ واللونُ فاحمٌ فلنبي بسيطُ الكفِّ والعرضُ أزهرُ

ومما قيل في الوجه الحسن:

إن سوادَ اللونِ ليسَ بضائري إذا كنتَ يومَ الروعِ بالسيفِ أخطرُ

ودخل إبراهيم بن المهدي على المأمون فقال: إنك لنعم الخليفة الأسود، فقال إبراهيم نعم، فتمثل المأمون بيت نصيب، فقال:

إن كنتَ عبداً فغسي حرَّةٌ كرماً أو أسودَ اللونِ إنسي أبيضُ الخلقِ

ثم قال: يا عم أخرجنا من الهزل إلى الجدِّ، فأنشد إبراهيم:

ليس يزري السوادَ بالرجلَ الشهـ سم ولا بالفَتى الأريب^(٤) الأديبِ
إن يَكُنْ للسوادِ فيك نصيبٌ فيياضُ الأخلاقِ منك نصيبي

وقال آخر:

(١) المسلسل: العذب.

(٢) المضمر: النجيب من الخيل.

(٣) الشاعر حسان بن ثابت يمدح الغساسنة.

(٤) الأريب: العاقل اللبيب.

لَمْ العواذِلُ فِي سَوَادٍ فَاحِمَةٍ كَأَنهَا فِي سَوَادِ الْقَلْبِ تَمَثَالُ
وَهَامَ فِي الْخَالِ أَقْوَامٌ وَمَا عَلِمُوا أَنِّي أَهِيْمُ بِشَخْصٍ كُلِّهِ خَالُ
وَقِيلَ لِلْمَدَنِيِّ: كَيْفَ رَغِبْتُمْ فِي السَّوَادِ؟ فَقَالَ: لَوْ وَجَدْنَا بِيضَاءَ لَسَوَدْنَاها.

وقال آخر:

يَكُونُ الْخَالُ فِي خَدِّ قِيحٍ فَيَكُوهُ الْمَلَا حَةُ وَالْجَمَّالَا
فَكَيْفَ يَلَامُ ذُو عَشْقٍ عَلَى مَنْ يَرَاهَا كُلَّهَا فِي الْخَدِّ خَالَا

وقال آخر:

فَاسْتَخَسَّنُوا الْخَالَ فِي خَدِّ فَقَلْتُ لَهُمْ إِنِّي عَشَقْتُ مَلِيحاً كُلَّهُ خَالُ
وَكَانَ أَبُو حَاتِمٍ الْمَدَنِيُّ يَشْدُ: وَمَنْ يَكُ مُعْجِبَتاً بَيِّنَاتٍ كَسَرَى

وتفاخرت حبشية ورومية، فقالت الرومية: أنا حبة كافور، وأنت عدل فحم. فقالت الحبشية: أنا حبة مك، وأنت عدل ملح. وقد قال الشاعر:

أَحِبُّ لِحَبِّهَا السُّودَانَ حَتَّى أَحِبُّ لِحَبِّهَا سَوَدَ الْكَلَابِ

وقال آخر:

أَشْبَهَكَ الْمَسْكُ وَأَشْبَهَنِيهِ قَائِمَةٌ فِي لَوْنِهِ فَاعِدَةٌ
لَا شَكَّ إِذْ لَوْنُكُمَا وَاحِدٌ إِنَّكُمَا مِنْ طِينَةٍ وَاحِدَةٍ

ومما قيل في الصفرة. قال الشاعر:

أَصْفَرَاءُ كَانَ الْهَجْرُ مِنْكَ مَزَاحاً لِيَالِي كَانَ الْوَدُّ مِنْكَ مَبَاحاً
كَأَنَّ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا دَمَسَتْ فِيهِمْ قَبَاحاً فَلَمَّا غَبَتِ صِرُنَ مَلَا حاً

وقال آخر:

قَالُوا بِهِ صَفْرَةٌ شَأْنَتْ مُحَابِنَةً فَقُلْتُ مَا ذَاكَ مِنْ عَيْبٍ بِهِ نَزَلَا
عَيْنَاهُ مَطْلُوبَةٌ فِي ثَارٍ مَنْ قَتَلَتْ فَلَسْتُ تَلْقَاهُ إِلَّا خَافِضاً وَجَلَا

ومما قيل في طول اللحية. قيل: إن اللحية الطويلة عش البراغيث. ونظر يزيد الشيباني إلى رجل ذي لحية عظيمة تلتف على صدره وإذا هو خاضب^(٢). فقال له: يا هذا إنك من لحيتك في مؤنة فقال أجل ولذلك أقول:

لَهَا دَرَاهِمٌ لِلْمَدَنِيِّ فِي كُلِّ جَمْعَةٍ وَآخِرُ الْحَنَاءِ يَتَدَبَّانِ
وَلَوْ لَا نَوَالٌ مِنْ يَزِيدَ بْنِ مَزِيدٍ لَأَصْبَحَ فِي حَائِثِهَا الْحَمْنَانِ^(٣)

(١) بنات حام: أي الزوج.

(٢) خاضب: يضع الحناء.

(٣) الحمnan: القرادات.

وقال إسحاق بن خلف في قصير طويل اللحية.

ماشيتُ داودَ فاستَضَحَكْتُ من عجبٍ
كأنَّه والدٌ يمشي بمولودٍ
ما طولُ داودَ إلا طولُ لحيتهِ
يُظُنُّ داودَ فيها غيرَ موجودٍ

وقال ابن المقفع:

تأملتُ أسواقَ العراقِ فلم أجِدْ
دكايتَهُم إلا عليها المواليا
جلوساً عليها ينفضون لحاءهم
كما نفَضْتُ عَجْفُ البغالِ المخاليا^(١)

ومما جاء في عظم الخلقة والطول والقصر. قيل: خرب القهندر^(٢) فبرزت منه جماجم أموات فتصدعت
جمجمة فانتشرت أسنانها، فوزن السن منها فكان وزنها أربعة أرتال، فأتى بها إلى ابن المبارك فجعل يقلبها ويتعجب
من عظمتها ثم قال:

إذا ما تذكَّرتُ أجسامَهُم
تصاعَّرتِ النفسُ حتى تهونَ

وأراد ملك الروم أن يباهي أهل الشام فبعث إلى معاوية رجلين أحدهما طويل، والثاني قصير شديد القوة، فدعا
للطويل بقيس بن سعد بن عبادة فترج قيس سراويله ورمى بها إليه فلبسها الطويل فبلغت ثدييه فلاموا قيساً على نزح
للراويل فقال:

أردتُ لكِما يعلمَ الناسُ أنها
وكمي لا يقولوا خانَ قيسٌ وهذه
سراويلُ قيسٍ والوفودُ شهودُ
سراويلُ عادٍ أحرَزَتْها ثمودُ
وإني من القومِ اليمانيين سيِّدُ
وما الناسُ إلا سيِّدٌ ومسودُ

ثم دعا معاوية للرجل الشديد في قوته بمحمد بن الحنفية فخيرته بين أن يقعد فيقيم، أو يقوم فيقعده فغلبه في
الحالتين وانصرفا مغلوبين. وقيل: كان سلمة بن مرة الناموسي أسر أمراً القيس بن النعمان اللخمي الملك، وكان
الناموسي قصيراً مقتحماً، واللخمي طويلاً جسيماً، فقالت بنت امرئ القيس: يا هذا القصير أطلق أبي، فسمعها
سلمة بن مرة فقال:

لقد زعمتُ بنتُ امرئِ القيسِ أنني
وربَّ طويلٍ قد نَزَعْتُ سلاحَهُ
قصيرٌ وقد أعيا أباهما قصيرُها
وعانقتهُ والخيلُ تدمى نحورها

وقالوا: عظم اللحية يدل على البله، وعرضها على قلة العقل، وصغرها على لطف الحركة، وإذا وقع الحاجب
على العين دل على السحد، والعين المتوسطة في حجمها تدل على الفطنة وحسن الخلق والمروءة، والتي يطول
تحديقها تدل على الحق. والتي تكسر طرفها تدل على خفة وطيش، والشعر على الأذن يدل على جودة السمع،
والأذن الكبيرة المتصببة تدل على حمق وهذيان.

ومما قيل في القبح والدمامة: أراد رجل أن يكتب كتاباً لبعض أصحابه فلم يجد من يرسله معه إلا رجلاً

(١) المخاليا: يفضونها من الغبار.

(٢) القهندر: موضع.

وخش الصورة^(١) بشع المنظر فلم يقدر على تحليته لفرط دماسته، فكتب إلى صاحبه يقول: يأتيك بهذا الكتاب آية من آيات الله تعالى وقدره، فدعه يذهب إلى نار الله وسقره.

ومر أبو الأسود الدؤلي بمجلس لبني بشير، فقال بعض فتيانهم: كأن وجهه عجوز راحت إلى أهلها بطلاقها. وقال الجاحظ: ما أخجلني قط إلا امرأة مرّت بي إلى صائغ فقالت له: اعمل مثل هذا، فبقيت مبهوتاً، ثم سألت الصائغ، فقال: هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان، فقلت: لا أدري كيف أصوره، فأنت بك إليّ لأصوره على صورتك. وفي الجاحظ يقول الشاعر:

لَوْ يُسَخُّ الْخَنْزِيرُ مَسْخاً ثَانِياً مَا كَانَ إِلَّا دُونَ قُبْحِ الْجَاحِظِ
رَجُلٌ يَنْوِبُ عَنِ الْجَحِيمِ بِوَجْهِهِ وَهُوَ الْقَذَى فِي عَيْنِ كُلِّ مَلَا حِظٍ
وَلَوْ أَنَّ مَرَأَةً جَلَّتْ تَمَثَالُهُ رَأَاهُ كَانَ لَهُ كَأَعْظَمِ وَاعِظٍ

وقال الأصمعي: رأيت بدوية من أحسن الناس وجهاً ولها زوج قبيح. فقلت: يا هذه أترضين أن تكوني تحت هذا؟ فقالت: يا هذا لعله أحسن فيما بينه وبين ربه فجعلني ثوابه، وأسأت فيما بيني وبين ربي فجعله عذابي، أفلا أرضى بما رضي الله به. وحج مخنث فرأى رجلاً قبيح الوجه يستغفر، فقال: يا حبيبي ما أراك أن تبخل بهذا الوجه على جهنم. وقال بعضهم لرجل: طلع لي دمل في أقبح المواضع فقال له: كذبت هذا وجهك ليس فيه شيء. وخرج رجل قبيح الوجه إلى المتجر فدخل اليمن فلم ير فيها أحسن منه وجهاً فقال:

لَمْ أَرْ وَجْهًا حَسَنًا مِنْذَ دَخَلْتُ الْيَمَنَ
فِي شِقَاءٍ بَلَدٍ أَحْسَنُ مَنْ فِيهَا أَنَا

وخطب رجل عظيم الأنف امرأة فقال لها: قد عرفت أنني رجل كريم المعاشرة محتمل المكاره، فقالت: لا شك في احتمالك المكاره معَ حَمَلِكَ هذا الأنف أربعين سنة. وقال الشاعر في رجل كبير الأنف:

لَكَ وَجَةٌ فِيهِ قِطْعَةُ أَنْفٍ كَجِدَارٍ قَدْ أَدْعَمُوهُ بِيَغْلَةِ
وَهُوَ كَالْبَقَرِ فِي الْمَثَالِ وَلَكِنْ جَعَلُوا نَصَبَهُ عَلَى غَيْرِ قِئْلَةٍ

وقال آخر:

لَكَ أَنْفٌ ذُو أَنْوْفٍ أَنْفَتْ مِنْهُ الْأَنْوُفُ
أَنْتَ فِي الْقُنُسِ تَصْلِي وَهُوَ فِي الْيَتِّ يَطْوُفُ

ومما جاء في الثقلاء: قال مطيع بن أبياس:

قُلْ لِعَبَاسٍ أَخِينَا يَا ثَقِيلَ الثَّقَلَاءِ
أَنْتَ فِي الصَّيْفِ سَمُومٌ^(٢) وَجَلِيدٌ فِي الشِّتَاءِ
أَنْتَ فِي الْأَرْضِ ثَقِيلٌ وَثَقِيلٌ فِي السَّمَاءِ

(١) وخش الصورة: أي سيء الهيئة والمنظر.

(٢) سموم: ريح حارة مرملة.

ومما جاء في الملابس وألوانها والعمائم ونحوها، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(١) وقد تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾^(٢) وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَةٍ عَلَى عَبْدِهِ» وقال ﷺ: «تَمَتُّمُوا تَزَادُوا جَمَالاً» وقال ﷺ: «الْعَمَائِمُ تِبْجَانُ الْعَرَبِ». وكان الزبير بن العوام يقاتل يوم بدر وعنه عمامة صفراء، فنزلت الملائكة وعليهم عمامة صفراء قد أرخوها. وبعث رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل فتحلف عن الجيش وأتى إلى رسول الله ﷺ وعليه عمامة سوداء في خبز فقضها رسول الله ﷺ وعممه بيده وأسدلها بين كفيه قدر شبر وقال: هكذا اعتم يا ابن عوف. وبعث ملك الروم إلى النبي ﷺ جبة ديباج فلبسها ثم كساها عثمان. وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم، ويدخل المسجد. فقيل له في ذلك فقال: إني أجالس ربي. وقيل: المروءة الظاهرة، الثياب الطاهرة. وقيل: ألبس البياض والسواد فإن الدهر هكذا بيض ونهار وسواد وليل.

ومما قيل في لبس السواد قول أبي قيس:

رَأَيْتُكَ فِي السَّوَادِ فَقُلْتُ بَدْرًا بَدَأَ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ
وَأَلْقَيْتُ السَّوَادَ فَقُلْتُ شَمْسًا مَحَتْ بِشُعَائِهَا ضَوْءَ النُّجُومِ

وقدم تاجر إلى المدينة يحمل من خُمُر^(٣) العراق فباع الجميع منها إلا السود، فشكا إلى الدارمي ذلك، وكان الدارمي قد نسك وتعبد فعمل بيتين وأمر مَنْ يبغي بهما في المدينة، وهما هذان البيتان:

قُلْ لِلْمِلْحَةِ فِي الْخُمَارِ الْأَسْوَدِ مَاذَا فَقُلْتِ بِزَاهِدٍ مُتَعَبِدِ
قَدْ كَانَ شَمْرٌ لِلصَّلَاةِ إِزَارَةً حَتَّى قَعَدَتْ لَهُ بِيَابُ الْمَسْجِدِ

قال: فشاع الخبر في المدينة أن الدارمي رجع عن زهده وتعشق صاحبة الخمار الأسود فلم يبق في المدينة ملححة إلا واشترت لها خماراً أسود، فلما أنفذ التاجر ما كان معه رجع الدارمي إلى تعبدته وعمد إلى ثياب نسكه فلبسها. وقال آخر في لابس الأحرار:

وَشَمْرٌ مِنْ قَضِيبٍ فِي كَيْسٍ تَبَدُّثٌ فِي لِبَاسٍ جَلَنَارِيٍّ^(٤)
سَقَتْنِي رِيْقَهَا صَرْفًا وَحَيْثُ بَوَجَّهَهَا فَهَاجَتْ جِلُّ نَارِي

وقال آخر في لابس ثوب خمري:

فِي ثَوْبِهَا الْخُمْرِيُّ قَدْ أَقْبَلْتُ بِوَجْنٍ حَمْرَاءَ كَالْجَمْرِ
فَعَمِلْتُ سُكْرًا حِينَ أَبْصَرْتُهَا لَا تَتَكْرَرُ مِنْ الْخُمْرِ^(٥)

وقال الصنوبري في لابس أخضر:

(١) سورة: الفصحى، الآية: ١١.

(٢) سورة: الأعراف، الآية: ٣١.

(٣) جمع خمار: غطاء الوجه.

(٤) الجَلَنَار: زهر الرمان.

(٥) من الخمر: أي من اللون الخمر.

وجاريت أدبته الشطاره
بلدت في قميص لها أخضر
فقلت لها ما اسم هذا اللباس
شققتا مرائر قوم به
تري الشمس من حشها مستعارة
كما ستر الورق الجلانة
فأبدت جواباً لطيف العارة
فحنن نسيه شق المرارة

وقال حكيم لابنه: إياك أن تلبس ما يديم الملا^(١) نظره إليك به، واعلم أن الوشي لا يلبسه إلا الأحمق أو ملك، وعليك بالياض. وقيل: لباس البخل الاستبرق لطول بقاته، ولباس المترفين السنلس لقله بقاته، ولباس المقتصدين الدياج لتوسط بقاته. وقال بعض الأمراء لحاجبه: أدخل علي عاقلاً، فأتاه برجل، فقال: بم عرفت عقله؟ فقال: رأيته يلبس الكتان في الصيف، والقطن في الشتاء، والملبوس في الحر، والجديد في البرد.

وقيل: كان لأبريز عمامة طولها خمسون ذراعاً إذا اتسخت ألغاه في النار فيحترق الوسخ ولا تحترق، وكان له رداء حسن يتلون كل ساعة، وسراويل مجوهره ونكة من أنابيب الزمرد. وقيل: الأقية^(٢) لباس الفرس، والقراطق^(٣) لباس الهند، والأزر^(٤) لباس العرب. وسئل بعض العرب عن الثياب فقال: الصفر أشكل، والحرر أجمل، والخضر أقبل، والسود أهول، والبيض أفضل. وقال أفلاطون: الصبغ الشفافي والروائح الزعفرانية تسكن الغضب، والصبغ الباقوتي والروائح الوردية تحرك السرور، وإذا قرب اللون الأحمر إلى اللون الأصفر تحركت القوة العشقية، وإذا مزجت الحمرة بالصفرة تحركت القوة الغريزية، وإذا مزجت التفاحية بالحمرة تحركت الطباع كلها. وكان مصعب بن الزبير يقول: لكل شيء راحة، وراحة البيت كنسه، وراحة الثوب طيه. وقال بعض الأعراب: رأيت بالبصرة بروداً كأنها نسجت بأنواع الربيع. ودخل بعض العذرين على معاوية وعليه عباءة فازدراء، فقال: يا أمير المؤمنين إن العبادة لا تكلمك، وإنما يكلمك من فيها.

ومما قيل فيمن رذل لبه وعرف نفسه. قال الأصمعي: رأيت إعرابياً فاستشدته آياتاً، وروى أخباراً فتمجبت من جماله، وسوء حاله فسكت سكته ثم قال:

أأخبي إن الحادثا
لا تنكرن أن قد رأيت
إن كان أثوابي رثا
ت عرگتني عرك الأديم
ست أخاك في طمر^(٥) عديم
ن^(٦) فإنهن على كريم

قال بعضهم: وقيل للشافعي رحمه الله تعالى:

علي ثياب لو تقاس جميعها
بفلس لكان الفلس منهن أكثرا

(١) الملا: الناس المجتمعون.

(٢) الأقية: ج. قباه، لباس طويل مفتوح الوسط.

(٣) القراطق: ج. قرطق، من الأردية.

(٤) الأزر: ج. مزر.

(٥) طمر: لباس بالي.

(٦) رثا: باليت.

وفيهن نفسٌ لو يقاسُ ببعضها
وما ضرَّ نصلُ السيفِ إخلاقَ غمدهِ
ودخل بعضهم على الرشيد فازدراه فأنشده: (١)

ترى الرجلَ الخفيفَ فتزدريه
ويعجبُكَ الطريرُ فتبليه
لقد عَظُمَ البعيرُ بغير لبٍ
يصرُّهُ الصبيُّ بغيرِ وجهِ
وتضرُّهُ الوليدةُ بالهراوى
فإن أك في شراركُم قليلاً
وفي أثوابِهِ أسدٌ هصورُ
فيخلفُ طَنَكُ الرجلِ الطريرُ (٢)

ويقال: كُلُّ ما تشبهه نفسك، والبس ما تشبهه الناس. وقد نظم من قال:
إن الميونَ رَمَنَكَ إذ فاجأَتْها
أما الطعامُ فكلُّ لنفسِكَ ما اشتهَتْ
وعليكَ مَنْ مهنِ الثيابِ لباسُ
واجعلْ لباسَكَ ما اشتهَتْه الناسُ
وفي هذا القدر كفاية والله أعلم بالصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) عضباً: حاداً قاطعاً.

(٢) هذه الأبيات لكثير عزة في حضرة عبد الملك لا الرشيد كما وهم المؤلف.

(٣) الطرير: الشاب خط شاربه.

الباب السابع والأربعون: في التختم والحلي والمصوغ والطيب والتطيب وما أشبه ذلك

وما جاء في التختم: عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يتختم في يمينه، وقبض عليه الصلاة والسلام والخاتم في يمينه. قال بعض مَنْ مدحه عليه الصلاة والسلام:

كفُ الرِسالَةِ ليسَ يخفى حُسْنُها وتَمَامُ حِسنِ الكَفِّ لبسُ الخاتمِ

وذكر السلامي: أن رسول الله ﷺ كان يتختم في يمينه والخلفاء بعده. فنقله معاوية رضي الله تعالى عنه إلى اليسار، وأخذ الأموية بذلك، ثم نقله السفاح إلى اليمين فبقي إلى أيام الرشيد رضي الله تعالى عنه، فنقله إلى اليسار وأخذ الناس بذلك. وعن علي رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «تختموا بخواتيم العقيق فإنه لا يصيب أحدكم غم ما دام عليه ذلك». وبلغ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن ابنه اشترى فصّ خاتم بألف دينار فكتب إليه: عزمت عليك إلا ما بعث خاتمك بألف دينار وجعلتها في بطن جائع واستعمل خاتماً من ورق^(١) وانقش عليه: «رحم الله امرأ عرف نفسه» وكان خاتم علي رضي الله عنه ورق، ونقشهُ «نعم القادر» وكان لأبي نواس خاتمان؛ أحدهما عقيق مربع وعليه مكتوب:

تعاظمني ذنبي فلما قرئتُ بعفوك ربي كان عفوك أعظما

والآخر حديد صيني وعليه: «أشهد أن لا إله إلا الله مخلصاً»، وأوصى عند موته أن يغسل الفصّ ويجعل في فمه. قال جعفر بن محمد رضي الله تعالى عنه: ما افتقرت يد تختمت بخاتم فيروزج، وقيل: الخواتم أربعة: الياقوت للعطش، والفيروزج للمال، والعقيق للسنة، والحديد الصيني للحرز^(٢)، وقيل: للخوف، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ذكر ما جاء في الحلي: قيل إن قرطبي مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية كان فيهما درتان كبيض الحمام لم ير مثلهما ولم يدر قيمتهما. وقال محمد: بعثني يوسف بن عمر إلى هشام يياقوتة حمراء يخرج طرفاها من كفي. كانت للراقة جارية خالد بن عبد الله القسري اشترتها بثلاثة وسبعين ألف دينار، وحة لؤلؤ أعظم ما يكون من الحب فدخلت عليه بهما فقال: اكتب معك بوزنهما، فقلت: يا أمير المؤمنين هما أعظم من أن يكتب بوزنهما فقال: صادق. وبعث معاوية إلى عائشة رضي الله تعالى عنها طوقاً من ذهب فيه جوهرة قومت بمائة ألف دينار فقسمته بين أزواج النبي ﷺ وكان ملك العرب كلما مرت عليه سنة من سني ملكه زيدت في تاجه خرزة. وكان يقال لها خرزات الملك.

(١) ورق فضة.

(٢) للحرز الرقة.

ذكر ما جاء في الطيب والتطيب. قال رسول الله ﷺ: «أطيب الطيب المسك» وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: كاني أنظر وإلى بيص^(١) الطيب في مفارق رسول الله ﷺ وهو محرم. وعن سهل بن سعد يرفعه: «إن في الجنة لمرعى من مسك مثل مراعي دوابكم هذه». وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: دخل علينا رسول الله ﷺ فنام عندنا فغرق، فجاءت أمي بقارورة فجعلت تسلك العرق فيها فاستيقظ وقال: «يا أم سليم ما هذا الذي تصنعين؟» فقالت: هذا عرقك نجعله في طيبنا وهو من أطيب الطيب. وعن عمر رضي الله تعالى عنه قال: لو كنت تاجرأ ما اخترت على العطر، إن فاتني ريحه لم يفتني ريحه. وناول المتوكل فتى فأرة^(٢) المسك فقال:

لئن كانَ هذا طيِّبًا وهو طيِّبٌ لقد طيِّبْتُه من يدِكَ الأناملُ

وأهدى عبد الله بن جعفر لمعاوية قارورة من الغالية^(٣)، فسأله: كم أنفق عليها؟ فذكر مالا جزيلا، فقال: هذه غالية فسميت بذلك، وشمها مالك بن سليمان بن خازجة من أخته هند بنت أسماء، فقال: علميني كيف تصنعين طيبك؟ فقالت: لا أفعل، تريد أن تعلم جواريك، هو لك مني كلما أردته، ثم قالت: والله إني ما تعلمته إلا من شعرك حيث تقول:

أطيبُ الطيبِ عرفُ أم أبان فأرُّ مَكٍ بعنبرٍ محروق

قال أبو قلابة: كان ابن مسعود رضي الله تعالى عنه إذا خرج من بيته إلى المسجد عرف جيران الطريق أنه مر، من طيب ريحه. وعن الحسن بن زيد الهاشمي عن أبيه قال: رأيت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يطلي جسده فإذا مر في الطريق قال الناس: أمر ابن عباس أم مر المسك؟ وعنه عن أبيه قال: رأيت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما حين أحرم والغالية على صدغيه كأنها لزقة. وقال أبو الضحى: رأيت على رأس الزبير من المسك ما لو كان لي لكان رأس مالي. وقيل: لما بنى عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه بفاطمة بنت عبد الملك أسرج في مسارجه تلك الليلة بالغالية. وقال الشعبي: الرائحة الطيبة تزيد في العقل. وقال علي كرم الله تعالى وجهه: تشموا النرجس ولو في العام مرة فإن في قلب الإنسان حالة لا يزيلها إلا النرجس. وكان الشعبي يقول: إذا أورد الورد صدر البرد، وكانت الصحابة رضي الله تعالى عنهم يستحبون إذا قاموا من الليل أن يمسوا لحاهم الطيب. وكان من اختلف في طرقات المدينة وجد عرفاً طيباً. قيل: ولذلك سميت طيبة، وأقول: والله ما طابت إلا بالطيب الطاهر، صلى الله عليه وسلم وما أحسن ما قيل:

إذا لم أطلب في طيبٍ عند طيِّبٍ به طيبةً طابت فأينَ أطيِّبُ

وقيل: وإن فأرة المسك دوية شبيهة بالخشف^(٤) تصاد لسرتها فإذا صاها الصياد عصب السرة بعصاة شديدة فيجتمع فيها دمها ثم يذبها، ثم يأخذ السرة فيدفنها في الشعر حتى يستحيل الدم المجتمع فيها مسكاً ذكياً بعد أن كان لا يرام تتأ. وقد يوجد جردان سود يقال لها فأرات المسك ليس عندها إلا رائحة لازمة لها. وحكي أن العنبر يأتي

(١) بيص: لمع.

(٢) فأرة المسك: نافحته.

(٣) الغالية: طيب معروف.

(٤) بالخشف: ولد الظبي.

على طفاوة الماء لا يدري أحد معدنه فلا يأكله شيء إلا مات. ولا يقره طائر إلا بقي متقاره فيه، ولا يقع عليه حيوان إلا نصلت أظفاره فيه، والتجار والمطارون ربما وجدوا أظفاراً فيه. وقال الزمخشري عفا الله عنه: سمعت ناساً من أهل مكة يقولون: هو من زيد بحر سرنديب، وأجود العنبر الأشهب، ثم الأزرق وأدونه الأسود. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في العنبر زكاة إنما هو شيء نثره البحر. وأما العود فأجوده البندلي، وهو منسوب إلى مندل قرية من قرى الهند، وأجوده أصلبه، وامتحان رطبه أن تطيع فيه نقش الخاتم فإن انطبع فرطب وإلا فلا، ومن خصائصه أن رائحته تطيع في الثوب أسبوعاً فلا يقل ما دامت فيه. وأما الكافور فهو ماء شجر بجزيرة الكافور. يحزونه بالحديد فإذا خرج ظاهراً وضربه الهواء انعقد كالصمغ الجامدة على الأشجار. وأما الند فمصنوع وهو العود المستقطر والعنبر واللبان.

لو كنتُ أحملُ جمرًا حين زرتُكمُ لم ينكر الكلب أني صاحبُ الدارِ
لكن أتيتُ وريحُ المسكِ يقدمني والعنبرُ الندُّ مشوبٌ على النارِ

وكانت ملوك الفرس تأمر برفع الطيب أيام الورد. وكان المتوكل يلبس أيام الورد الثياب الموردة ويفرش الورد في مجلسه، ويطيب جميع آلاته بالورد. وقال الحسن بن سهل: أمهات الرياحين تقوى بأمهات الطيب، فالترجى يقوى بالورد، والورد يقوى بالمسك، والبفسج يقوى بالعنبر والريحان يقوى بالكافور، والنسرين يقوى بالعود. وقال جالينوس: المسك يقوّي القلب، والعنبر يقوّي الدماغ، والكافور يقوّي الرئة، والعود يقوّي المعدة، والغالية تحل الزكام، والصندل يحل الأورام. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تردّوا الطيب فإنه طيب الريح خفيف المحمل».

تبخر بعض الأمراء وعنده أعرابي ففرطت من الأمير ريح خفيفة فأراد أن يعلم هل فطن بها الأعرابي أم لا، فقال ما أطيب هذا المثلث، قال نعم ولكنك ريعتها. وقال الأحنف: إن شمّ رائحة المسك يحمي القلب. وقال سلمة لابن عباس وعنده جعفر بن سليمان: ما شمت أنفي من ريح مسك شمته من الناس إلا ريح كفك أطيب. فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر.

والله أعلم بالصواب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن والأربعون: في الشباب والشيب والصحة والعافية وأخبار المعمرين وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في الشباب وفضله

روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما بعث الله نبياً إلا شاباً، ولا أوتي العلم عالم إلا شاباً ثم تلا هذه الآية: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾^(١) وقد أخبر الله تعالى به، ثم أتى يحيى بن زكريا الحكمة، قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحاً﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿إِذَا أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾^(٣) وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فَتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاةٍ﴾^(٥) وقال أنس رضي الله تعالى عنه: قبض رسول الله ﷺ وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء، وقد قدم رسول الله ﷺ أسامة بن زيد على جميع الأنصار وكبار المهاجرين على حدائث سنه، وعتاب بن أسيد ولآه مكة وبها أكابر قريش، وعبد الله بن عباس على جلالة قدره وحفظه من العلم. وقال بعض البلغاء: الشباب باكورة الحياة، وأطيب العيش أوائله، كما أن أطيب الثمار بواكيرها، والشباب أبلغ الشفعاء عند النساء، وأكثر الوسائل لقلوبهن، ولذلك قال الشاعر:

أحلى الرجال مع النساء موقعا مَنْ كَانَ أَشْبَهُهُمْ بِهِمْ خُدودا

وما بَكَتِ العربُ على شيء ما بكت على الشباب، ولو لم يكن هذا الشباب حميداً، وزمانه حياً، لوسامة صورته، وبهجة منظره، وجمال خلقته، واعتدال قامته، ولما جاور الله في جنات خلده شاب كما قال رسول الله ﷺ: «جرذا مردأ أبناء ثلاثين» وقد جاء في ذلك أشياء كثيرة ليس هذا موضع بسطها.

الفصل الثاني: في الشيب وفضله

أول من شاب سيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وفي الخبر: «إن الله تعالى يقول الشيب نوري وأنا

(١) سورة: الأنبياء، الآية: ٦٠.

(٢) سورة: مريم، الآية: ١٢.

(٣) سورة: الكهف، الآية: ١٠.

(٤) سورة: الكهف، الآية: ١٣.

(٥) سورة: الكهف، الآية: ٦٠.

استحي أن أحرقه بناري». وعن جعفر بن محمد عن أبيه قال: جاء رجلان إلى النبي ﷺ، شيخ وشاب، فتكلم الشاب قبل أن يتكلم الشيخ فقال عليه الصلاة والسلام: كبر كبر. وبهذه الرواية: «من وفر كبيراً لكبر سنه، آمنه الله من فزع يوم القيامة». وعن أنس رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى وعزني وجلالي وفاقة حنفي إلي، إني لأستحي من عبدي وأمتي يشيان في الإسلام أن أعذبهما» ثم بكى فقبل له: ما يكيك يا رسول الله؟ قال: «أبكي ممن يستحي الله منه، وهو لا يستحي من الله». وقال: «من بلغ ثمانين من هذه الأمة حرّمه الله على النار» وقال: «إذا بلغ المؤمن ثمانين سنة فإنه أسير الله في الأرض تكتب له الحسنات وتمحى عنه السيئات». وقيل: كان الرجل فيمن كان قبلكم لا يحتلم^(١) حتى يبلغ ثمانين سنة. وقال ابن وهب: إن أصغر من مات من ولد آدم ابن مائتي سنة، فبكته الإنس والجن لحدائثه سنة. وقال النخعي: كان يقال إذا بلغ الرجل أربعين سنة على خلق لم يتغير عنه حتى يموت. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما رفعه «من أتى عليه أربعون سنة، ثم لم يغلب خيره على شره فليتهجز إلى النار». وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: قال ملك الموت لنوح عليه الصلاة والسلام: يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذتها؟ قال: كرجل دخل في بيت له بابان فقام وسط البيت ساعة ثم خرج من الباب الثاني. ويقال: أطلع أكبر منك ولو بليلة. وقال عبد العزيز بن مروان من لم يتعظ بثلاث لم يته بشيء: الإسلام والقرآن والشيب. قال الشاعر:

يا عامر الدنيا على شيء فبك أعاجيب لمن يعجب
ما عذر من يعمّر بنيانه وعمره منه لم يخرب

وقال الشعبي: الشيب علة لا يعاد منها، ومصيبة لا يعزى عليها.

وقال الفرزدق:

ويقول كيف يميل مثلك للطبا^(٢) وعليك من عظم الشيب عذار
والشيب يقتصر في الشباب كأنه ليل يصبح بعارضيه نهار

وقال أبو دلف في بياض اللحية:

وتكوّني هم ليضاء نابته لها بغضة في مضمير القلب نابته
ومن عجب أني إذا رميت قصها قصصت سواها وهي تضحك نابته

وقال أيضاً:

أرى شيب الرجال من الغواني بمبلغ شيهن من الرجال

وقال ابن المعتز:

فظلل أطلب وصلها بتدليل والشيب يغمزها بأن لا تفعل

قيل: صاح شاب بشيخ أحذب: بكم ابتعت هذا القوس يا عماء؟ قال: يا بني إني أعطيتها بغير ثمن. ومز رجل

(١) يحتلم: يصير حليماً.

(٢) للطبا: للغزلان.

لشمط بامرأة عجيبة في الجمال فقال: يا هذه إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه، وإلا فأعلمينا. فقالت: كأنك تخطبني. قال: نعم، فقالت: إن في عيأ، قال: وما هو؟ قالت: شيب في رأسي، فتني عنان دابته. فقالت: على رسولك فلا والله ما بلغت عشرين سنة، ولا رأيت في رأسي شعرة بيضاء ولكنتي أحيت أن أعلمك أني أكره منك مثل ما تكره مني، فأنشد ويقال إنه لابن المعتز:

رَأَيْتُ الْعَوَانِي الشَّيْبَ لَاحَ بِمُفْرَقِي فَأَعْرَضَنِي عَنِي بِالْخُدُودِ النُّوَاضِرِ
وقال آخر:

سَأَلْتُهَا قَبْلَةَ يَوْمًا وَقَدْ نَظَرْتُ شَيْبِي وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ وَذَا نَعَمٍ
فَأَعْرَضَتْ وَتَوَلَّتْ وَهِيَ قَائِلَةٌ لَا وَالَّذِي أَوْجَدَ الْأَشْيَاءَ مِنْ عَدَمٍ
مَا كَانَ لِي فِي بِيَاضِ الشَّيْبِ مِنْ أَرْبٍ أَنِّي الْحَيَاةَ يَكُونُ الْقَطْعُ حَشَوٌ فَمِي
وقال آخر:

قَالَتْ: أَرَى مَسَكَةَ الشَّعْرِ الْبَهِيمِ غَدَتْ كَافُورَةً قَدْ أَحَالَتَهَا يَدُ الزَّمَنِ
قَلْتُ: طَيِّبٌ طَيِّبٌ وَالتَّقَلُّ فِي مَعَادِنِ الطَّيِّبِ أَمْرٌ غَيْرُ مَمْتَنٍ
قَالَتْ: صَدَقْتُ وَمَا أَنْكَرْتُ ذَاكَ بَذَا الْمَسْكُ لِلشَّمِّ، وَالْكَافُورُ لِلْكَفَنِ
وقال آخر:

قَالَتْ: أَرَاكَ خَضِبْتَ الشَّيْبَ قَلْتُ لَهَا سَرَّيْتُ عَنْكَ يَا سَمْعِي وَيَا بَصَرِي
فَقَهَقَتْ ثُمَّ قَالَتْ مَنْ تَعَجَّبُهَا تَكَثَّرَ الْغُشُّ حَتَّى صَارَ فِي الشَّعْرِ
وقال ابن نباتة:

تَبَسُّمُ الشَّيْبِ بِوَجْهِ الْفَتَى يَوْجِبُ سَخَّ الدَّمْعِ مِنْ جَفْنِهِ
وَكَيْفَ لَا يَكِي عَلَى نَفْسِهِ مَنْ ضَحِكَ الشَّيْبَ عَلَى ذَفْنِهِ
وقال ابن المعتز:

فَمَا أَقْبَحَ التَّضَرُّيْطَ فِي زَمَنِ الْعُصَا فَكَيْفَ بِهِ وَالشَّيْبُ فِي الرَّأْسِ شَامِلُ
وكان المأمون يتمثل بقول الشاعر:

رَأَتْ وَضَحًا^(١) فِي الرَّأْسِ مِنِّي فَرَاغَهَا فَرِيقَانِ مِيضُ بِهِ وَبَهِيمُ
تَفَارِيقُ شَيْبٍ فِي السَّوَادِ لَوَامِعُ فَيَا حَسَنَ لَيْلٍ لَاحَ فِيهِ نَجُومُ
ويقال في الرجل إذا شاب: ليله عمس وصُبْحُهُ تنفس:

إِذَا نَازَعَ الشَّيْبُ الشَّبَابَ فَأَصْلَحَا بِفِيهِمَا فَالشَّيْبُ لَا شَكَّ غَالِبُ
وقال آخر:

ألا إنَّ شَيْبَ العَدِّ من تَقَرُّ القفا
وقال العتي:

قَالَتْ عَهْدُكَ مَجْنُوناً قَلْتُ لَهَا

وقال علي بن ربيع:

كَبُرْتُ وَدَقَّ العَظْمُ مِنِّي وَعَقْنِي
وأصبحتُ أعشى أخطأ الأرض بالعصا

وقال آخر^(٢):

عَرِيتُ من الشَّبَابِ وَكُنْتُ عُفْناً
وَنُخْتُ على الشَّبَابِ بَدَمْعَ عَيْنِي
فَمَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعودُ يَوماً
كما يَغْرى من الورق القَضيبُ
فَمَا نَفَعَ البُكَاءُ ولا النَحِيبُ
فَأخْبِرُهُ بما فَعَلَ المَشِيبُ

وقال ابن القتيب:

وَكَمْ كانَ من عَيْنِ عَلِيٍّ وَحَافِظِ
فلما بدا شَيْبِي أَطْمَأْنَنْتُ قَلْبِيهِمْ
وَكَمْ كانَ من وَائِشٍ لَهَا وَرَقِيبِ
ولم يَحْفَظُونِي وَاكْضُوا بِمَشِيبِي

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: ما شبهت الشباب إلا كشيء كان في كمي فسقط. قال الشاعر:

شَيْثَانٌ لو بَكَتِ السَّمَاءُ عَلِيْهِمَا
لَمْ يَلْغَا المَعشَرَ من حَقِيقَتِهِمَا
عَيْنَاكَ حَتَّى يَؤُفِنَا بِذِمَّتِهِمَا
قَدْ الشَّبَابَ وَفَرَقَهُ الأَحْبَابِ

وقال الجاحظ:

أَتَرْجُو أن تَكُونَ وَأَنْتَ شَيْخٌ
لَقَدْ كَلَبْتُكَ نَفْسُكَ لَبْسَ ثَوْبِ
كَمَا قَدْ كُنْتَ فِي زَمَنِ الشَّبَابِ
دَرِيسَ^(٣) كَالجَدِيدِ مِنَ الثِّيَابِ

ومما جاء في الخضاب: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالخضاب فإنه أهيأ لعدوكم وأعجب لنسائكم». وعن أبي عامر الأنصاري رضي الله عنه: رأيت أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يغير بالحناء والكم. وقيل: خضاب الحناء يصفي البصر، ويذهب بالصداع، ويزيد في الباه^(٤):

تَسْوَدُ أَعْلَامُهَا وَتَأْبَى أَصُولُهَا
وليس إلى رَدِّ الشَّبَابِ سِيْلُ

وقيل: وفد عبد المطلب بن هاشم على سيف بن ذي يزن، فقال له: لو خضبت شعرك! فلما رجع إلى مكة اختضب، فقالت امرأته نبيلة: ما أحسن هذا لو دام، فقال:

(١) الولائد: أصبح قليل النظر يحتاج مينا.

(٢) هو أبو العتاهية.

(٣) دريس: قديم.

(٤) الباه: القدرة الجنسية.

وَكَانَ بَدِيلًا مِنْ خَلِيلٍ قَدْ انْصَرَمَ
وَلَا بَدْ مِنْ مَوْتٍ نَيْلَةً أَوْ هَرَمَ

لَوْ دَامَ لِي هَذَا الْخَضَابُ حَمْدُهُ
تَمَتَّنْتُ مِنْهُ وَالْحَيَاءُ قَصِيرَةٌ

وقال آخر:

فِي كُلِّ ثَلَاثَةٍ يَعُودُ
فَكَأَنَّهُ شَيْبٌ جَدِيدُ
فَلَنْ يَعُودَ كَمَا تَرِيدُ

يَا خَاضِبَ الشَّيْبِ الَّذِي
إِنَّ الْخَضَابَ إِذَا نَضًّا^(١)
فَدَعِ الْمَشِيبَ وَمَا يَرِيدُ

وقال محمود الوراق:

إِذَا سَامَكَ لِحْيَتُكَ الْخَضَابُ

فَمَا مِنْكَ الشَّابُّ وَلَسْتُ مِنْهُ

الفصل الثالث: في العافية والصحة

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِلَيْكَ انْتَهتِ الْأَمَانِي يَا صَاحِبَ الْعَافِيَةِ». وعنه ﷺ أنه قال: «أَوَّلُ مَا يَحْسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَقَالَ لَهُ: أَلَمْ أَصْخْ بِدَنْكَ وَأَرْوِكَ بِالْمَاءِ الْبَارِدِ». وقال علي رضي الله عنه في قوله تعالى: «ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ»^(٢) هو الأمن، والصحة، والعافية. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يسأل الله العباد عن الأبدان والأسماع فيم استعملوها وهو أعلم بذلك. وقال ابن عينة: من تمام النعمة طول الحياة في الصحة والأمن والسرور. وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: لو رأيت ليلة القدر ما سألت الله إلا العفو والعافية. وقال قبيصة بن ذؤيب: كنا نسمع نداء عبد الملك بن مروان من وراء الحجرة في مرضه: يَا أَهْلَ النِّعَمِ لَا تَسْتَلُوا شَيْئًا مِنَ النَّعَمِ مَعَ الْعَافِيَةِ، وَيَقَالَ: الْبَحْرُ لَا جَوَارَ لَهُ، وَالْمَلِكُ لَا صَدِيقَ لَهُ، وَالْعَافِيَةُ لَا ثَمَنَ لَهَا، قَالَ ابْنُ رُومِي:

وَلَمْ تَخُلْ مِنْ قَوْتٍ يَحُلُّ وَيَقْرُبُ
عَلَى قَدْرِ مَا يَعْطِيهِمُ الدَّهْرُ يَسْلُبُ

إِذَا مَا كَسَاكَ الدَّهْرُ سَرِيالَ صَحْوٍ
فَلَا تَنْبَطُنْ أَهْلَ الْكَثِيرِ فَإِنَّمَا

ويقال: صحة البدن أوفر القسم. وذكر بعضهم العافية فقال: وأي وطاء^(٣)، وأي غطاء. وقال حكيم: إن كان شيء فوق الحياة فالصحة، وإن كان شيء مثل الحياة فالغنى، وإن كان شيء فوق الموت فالمرض، وإن كان شيء مثل الموت فالفقر. وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما المبتلى الذي اشتدَّ به البلاء بأحوج إلى الدعاء، من المعافى الذي لا يأمن البلاء. وقيل: إن فأرة البيوت رأت فأرة الصحراء في شدة ومحنة، فقالت لها: ما تصنعين ههنا؟ اذهبي معي إلى البيوت التي فيها أنواع النعيم والخصب. فذهبت معها وإذا صاحب البيت الذي كانت تسكنه قد هيا لها الرصد لبنة تحتها شحمة فاقتحمت لتأخذ الشحمة فوقعت عليها اللبنة فحطمتها فهربت الفأرة البرية، وهزّت رأسها متعجبة

(١) نضاً: زال وخلع.

(٢) سورة: التكاثر، الآية: ٨.

(٣) وطاء: حسنت موضع قدم.

وقالت: أرى نعمة كثيرة وبلاء شديداً، ألا وإن العافية والفقير أحب إليّ من غنى يكون فيه الموت ثم قرأت إلى البرية. وكان عند رومي خنزير فربطه إلى أسطوانة ووضع العلف بين يديه ليسمنه، وكان بجنبه أتان لها جحش، وكان ذلك الجحش يلتقط من العلف ما يتناثر، فقال لأمه: يا أماء ما أطيب هذا العلف لو دام، فقالت له: يا بني لا تقربه فإن وراءه الطامة الكبرى، فلما أراد الرومي أن يذبح الخنزير ووضع السكين على حلقه جعل يضطرب وينفخ، فهرب الجحش وأتى إلى أمه وأخرج لها أسنانه وقال: ويحك يا أماء انظري هل بقي في خلال أسناني شيء من ذلك العلف فأقلعه فما أحسن القنع مع السلامة، والله أعلم بالصواب.

الفصل الرابع: في أخبار المعمرين في الجاهلية والإسلام

قال الحسن رضي الله تعالى عنه: أفضل الناس ثواباً يوم القيامة المؤمن المعمر. وقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بخياركم؟» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «أطولكم أعماراً في الإسلام إذا سَدَدُوا»، وزعموا أن تُبَعَّا الفزاري كان من المعمرين، وأنه دخل على بعض خلفاء بني أمية فسأله عن عمره، فقال: عشت أربعمئة وعشرين سنة في فترة عيسى ابن مريم عليه السلام في الجاهلية، وستين في الإسلام، قال له: أخبرني عما رأيت في سالف عمرك؟ قال: رأيت الدنيا ليلة في أثر ليلة، ويوماً في أثر يوم، ورأيت الناس بين جامع مال مفرق، ومفرق مال مجموع، وبين قوي يظلم، وضعيف يُظلم، وصغير يكبر، وكبير يهرم، وحي يموت، وجنين يولد، وكلهم بين مسرور بموجود، ومحزون بمفقود. وقد قال ابن الجوزي: إن آدم عليه السلام عاش ألف سنة، وعاش ابنه شيث تسعمائة سنة، وعاش ابنه مهلايل ثمانمئة وخمسة وتسعين سنة، وعاش ابنه إدريس ثلثمائة وخمسة وتسعين سنة، وعاش ابنه هود تسعمائة واثنين وستين سنة، وعاش ابنه متوشلخ تسعمائة وستين سنة، وأما ابنه نوح عليه السلام فروي عن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: عاش نوح عليه السلام ألفاً وأربعمئة وخمسين عاماً. وأما الخضر عليه السلام واسمه خضرون فهو أطول بني آدم عمراً. وذكر أن لقمان عليه السلام عاش ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة. وكانت العرب لا تعد من الأعمار إلا ما بلغ مائة وعشرين سنة فما فوقها. وعاش أكرم بن صيفي ثلثمائة وستين سنة وأدرك الإسلام. وعاش سطوح سبعمائة سنة. وعاش قس بن ساعدة الإيادي سبعمائة سنة وكان من حكماء العرب. وعاش ليث بن ربيعة الشاعر مائة وعشرين سنة وأدرك الإسلام، وعاش دريد بن الصمة مائة وسبعين سنة حتى سقط حاجباه على عينيه وأدرك الإسلام ولم يسلم. ومن المعمرين عدي بن حاتم الطائي، وزهير بن جنادة عاشاً مائتين وعشرين سنة. ومن المعمرين ذو الأصابع العذري عاش مائتين وعشرين سنة وهو أحد حكماء العرب في الجاهلية، ومن المعمرين عمرو بن معد يكرب الزبيدي. ومن المعمرين عبد المسيح بن نفيلة عاش ثلاثمئة وعشرين سنة وأدرك الإسلام. وقد رأيت رجلاً من أهل محلة مسير بالغربية وذكر أنه بلغ من العمر مائة وأربعين سنة، وأن امرأة بلغت من العمر كذلك ولقد رأيت منه ما لم أر من بعض شبان هذا العصر في القوة، وشدة البأس ورأيت له ولداً شيخاً هو أشد قوة من ولده وذلك في صفر سنة تسع وعشرين وثمانمئة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباب التاسع والأربعون: في الأسماء والكنى والألقاب وما استحسنت منها

فأشرف الأسماء وأعظمها بسم الله الرحمن الرحيم قال الله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(١) وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن رسول الله ﷺ: «مَنْ رَفَعَ قَرطاساً مِنَ الْأَرْضِ مَكْتُوباً عَلَيْهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِجْلَالاً لَهُ لاسمه عَنْ أَنْ يَدَّاسَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الصَّادِقِينَ وَخَفَّفَ عَنْهُ وَعَنْ وَالِدَيْهِ الْعَذَابَ وَإِنْ كَانَ مُشْرِكِينَ». وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لَمْ يَرَنَّ إِبْلِيسَ لَعَنَهُ اللَّهُ قَطُّ إِلَّا ثَلَاثَ رَنَاتٍ، رَنَةً حِينَ لَعَنَ وَأَخْرَجَ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَرَنَةً حِينَ وَلَدَ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَرَنَةً حِينَ أَنْزَلَتْ سُورَةُ الْحَمْدِ وَفِي أَوَّلِهَا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وعن رسول الله ﷺ: «لَا يَرُدُّ دَعَاءُ أَوَّلِهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَإِنْ أَمَتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُونَ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَتُحْتَلُّ حَسَنَاتُهُمْ فِي الْمِيزَانِ، فَتَقُولُ الْأُمَمُ مَا أَثْقَلَ مَوَازِينَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ، فَتَقُولُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ابْتِدَاءَ كَلَامِهِمْ ثَلَاثَةَ أَسْمَاءَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى لَوْ وَضِعَتْ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَوُضِعَتْ سَيِّئَاتُ الْخَلْقِ فِي كِفَّةٍ لَرَجَحَتْ كِفَّةَ الْأَسْمَاءِ».

وأما الأسماء والكنى: ففي صحيح مسلم عن أبي عمر رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «أَحَبُّ أَسْمَائِكُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى عَبْدُ اللَّهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَصْدَقُهَا حَارِثٌ، وَهَمَامٌ، وَأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمَرَّةٌ». وينبغي أن تنادي مَنْ لَا تَعْرِفُ اسْمَهُ بِعِبَارَةٍ لَطِيفَةٍ لَا يَأْذِي بِهَا وَلَا يَكُونُ فِيهَا كَذِبٌ، كَقَوْلِكَ يَا فُقَيْهَ، يَا أَخِي، يَا فَقِيرَ، يَا سَيِّدِي يَا صَاحِبَ الثَّوْبِ الْفُلَانِي، أَوْ الْبَغْلَ الْفُلَانِي، أَوْ الْفَرَسَ الْفُلَانِي أَوْ السِّيفَ الْفُلَانِي، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. ودخل عبادة على المتوكل وبين يديه جام^(٢) من ذهب فيه ألف مقال. فقال له: «أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ إِنْ أَجَبْتَنِي عَنْهُ ابْتِدَاءَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتَكَبَّرَ فَلَكَ الْجَامُ بِمَا فِيهِ». فقال: سل يا أمير المؤمنين: قال أسألك عن شيء له اسم، ولا كنية له، وعن شيء له كنية، ولا اسم له. قال: المنارة وأبو رياح. فمعجب المتوكل وأعطاه الجام بما فيه. وقيل لعثمان ذو النورين رضي الله عنه لأنه هو ورقية كانا أحسن زوجين في الإسلام. وقيل لأنه تزوج برقية، ثم بأم كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ ولم يوجد مَنْ تَزَوَّجَ بِابْنَتَيْ نَبِيِّ غَيْرِهِ. وكان قتادة بن النعمان الأنصاري رضي الله تعالى عنه أصيب في عينه يوم أحد فسقطت على خده، فردها رسول الله ﷺ فكانت أحسن وأصح من الأخرى، فكانت تعتل أي ترمد عنه الباقية، ولا تعتل عنه المردودة فقبل له ذو النورين. وقال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: كُنْتُ بِهَرَّةٍ صَغِيرَةٍ كُنْتُ أَحْمِلُهَا فِي حَجْرِي^(٣) فَالْعَبُّ بِهَا وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ يَا أَبَا هَرِيرَةَ وَاخْتَلَفَ فِي اسْمِهِ، فَقِيلَ: عَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَقِيلَ عَبْدُ شَمْسٍ وَقِيلَ عَمِيرٌ، وَقِيلَ سُلَيْمَانٌ. وقال الشعبي رضي الله تعالى عنه: كُنِيَ الدِّجَالُ أَبُو يَوْسُفَ. ذُو الشَّهْرَةِ أَبُو دِجَانَةَ الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ كَانَ لَهُ

(١) سورة: مريم، الآية: ٦٥.

(٢) جام: وعاء.

(٣) حجري: حضني.

شهرة^(١) يلبسها بين الصفيين. ذو الرياستين الفضل بن سهل لأنه دبر أمر السيف والقلم، وولي رياسة الجيوش والدواوين ودخل عليه شاعر يوم المهرجان وبين يديه الهدايا فقال:

اليوم يوم المهرجان	هليتي في اللسان
لك دولتان حديثه	وقديمة رياستان
لك في الوري من هاشم	تبت وبيت خسروان
علم الخليفة كيف أن	ت فصرت في هذا المكان

فأمر له بجميع الهدايا. المطيون بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، ونعيم بن مرة والحارث بن فهر غمسا أيديهم في خلق^(٢) ثم تحالفوا. شية الحمد عبد المطلب لقب بشية كانت في رأسه حين ولد قال حذافة:

بنو شية الحمد الذي كان وجهه نفسي ظلام الليل كالقمر البدر

وقيل له عبد المطلب، لأنه عمه المطلب مَرَّ به في سوق مكة مردوقاً له فجعلوا يقولون من هذه الذي وراءك فيقول عبد لي. سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه اسمه عبد الله ولقبه العتيق والصديق لجماله وتصدقه بخبر الإسراء، أو لأنه أول من صدق رسول الله ﷺ. سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه لقب بالفاروق لأنه قال يوم أسلم لا يعبد الله اليوم سراً فظهر به الإسلام وفرق بين الحق والباطل. الكامل سعد بن عباد رضي الله تعالى عنه، لأنه كان يكتب ويحسن الرمي والعموم. طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه كان يقال له طلحة الخير، وطلحة الفياض، وطلحة الطلحات لسخاته. رشح الحجر وأبو الذباب عبد الملك بن مروان لقب بذلك لبخله وبخره. عكة^(٣) العسل سعيد بن العاص رضي الله تعالى عنه. الحبر عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه لقب بذلك لعلمه كان يقال له مرة البحر، ومرة الحبر. الأشدق عمرو بن سعيد لأنه كان مائل الشدق^(٤). الفياض عكرمة بن ربيع لقب بذلك لسخاته. المصطلق خزيمه بن سعد الخزاعي قيل له المصطلق، لحسن صوته وشدته، وكان أول من غنى من خزاعة. راح يكذب لقب به المهلب لأنه كان يضع الحديث أيام الخوارج فيحدث به، فإذا رآوه قالوا راح يكذب. وأصل الغزال كان يكثر الجلوس في سوق الغزالين وكان يتبع المجائر فيتصدق عليهم ولم يكن غزالاً. سليمان التيمي كان داره ومسجده في بني تميم ولم يكن منهم، وهو شيباني، أبو عمر الشيباني لم يكن من بني شيبان، وإنما كان يعلم يزيد بن مزيد الشيباني. اليزيدي كان يعلم يزيد بن منصور الجميري فنسب إليه. ذو القروح^(٥) امرؤ القيس كان ملك الروم كساه الحلة المسمومة فقرحته.

وقالوا لم تكن الكنى لأحد من الأمم إلا للعرب وهي مفاخرهم وقال بعضهم:

(١) شهرة: وردت في كتب التراجم: «شَهْرَة» وهي فرس معروفة لأبي دجانة لاردا

(٢) خلق: طيب.

(٣) عكة العسل: وعاء معلني.

(٤) الشدق: الفم.

(٥) ذو القروح: ذو الدمل المتقرحة.

أَكْنِيهِ حِينَ أَنْادِيهِ لِأَكْرَمِهِ وَلَا الْقَبِيحَ وَالسُّوءَةَ اللَّقَبُ

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا﴾^(١) أي كنياء، ولما ضرب موسى عليه الصلاة والسلام البحر ولم يتفلق أوحى الله تعالى إليه أن كنهه، فقال: اتفلق أبا خالد، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم.

وأما الألقاب. فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِشَرِّ الْأَسْمَاءِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾^(٢) سمّاه الله تعالى فسوقاً، واتفق العلماء رضي الله تعالى عنهم على جواز ذلك على وجه التعريف لمن لا يعرف إلا بذلك، كالأعمش والأعمى، والأعرج والأحول، والأفطس، والأفزع، ونحو ذلك. وقلّ من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب، ولم يزل في الأمم كلها يجري في المخاطبات والمكاتبات من غير نكير، غير أنها كانت تطلق على حسب الموسمين. وأما ما استحسن من تلقيب السفلة بالألقاب العلية حتى زال الفضل، وذهب الثاوت، وانقلب النقص والشرف شرعاً واحداً فمُنْكَرٌ. وهَبْ أَنْ الْعُلُرَ مَبْسُوطٌ فِي ذَلِكَ، فَمَا الْعُلُرُ فِي تَلْقِيْبٍ مِنْ لَيْسَ مِنَ الدِّينِ فِي دَبِيرٍ وَلَا قَبِيلٍ، وَلَا لَهُ فِيهِ نَاقَةٌ وَلَا فَصِيلٌ، بَلْ هُوَ مُحْتَرٌّ عَلَى مَا يَضَادُّ الدِّينَ، وَيَتَنَافَى كِمَالِ الدِّينِ وَشَرَفِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ لَعْمَرُ اللَّهِ الْغَصَّةُ الَّتِي لَا تَسَاغُ، وَالْغَبْنُ الَّذِي يَعْجِزُ الصَّبْرَ دُونَهُ فَلَا يَسْتَطَاعُ، نَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِعْزَازَ دِينِهِ، وَإِعْلَاءَ كَلِمَتِهِ، وَأَنْ يَصْلَحَ فُسَادُنَا، وَيَوْقُظَ غَافِلُنَا.

الرجل يكنى باسم ولده والمرأة كذلك، وإذا كنوا من لم يكن له ولد فعلى جهة التناؤل وبناء الأمر على رجاء أن يعيش فيولد له، وقد يكون بما يلائم المكنى من غير الأولاد، كقول رسول الله ﷺ في عليّ رضي الله تعالى عنه «أبو تراب» وذلك أنه نام في غزوة ذي العشيرة فذهب به النوم، فجاء رسول الله ﷺ وهو متمرغ في التراب، فقال له: اجلس يا أبا تراب وكان أحب أسمائه إليه، وكقولهم: أبي لهب لعمرة خديج ولونه. وقال الزمخشري رحمه الله تعالى: وسمعتهم يكونون الكبير الرأس والعمامة بأبي الرأس، وأبي العمامة، وسمعت العرب ينادون الطويل اللحية: يا أبا الطويلة، وسمعت عرب البحيرة^(٣) يكونون بأسماء بناتهم كأبي زهو، وأبي سلطانة، وأبي ليلى ونحو ذلك، ولا حرج في ذلك، وقد تكنى جماعة من أفاضل الصحابة بأبي فلانة: منهم سيلنا عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه كان له ثلاث كنى: أبو عمرو، وأبو عبد الله، وأبو ليلى. ومنهم أبو أمامة، وأبو رقية تميم الداري، وأبو كريمة المقداد بن معد يكرب وكثير من الصحابة ومن التابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. أبو عائشة مسروق بن الأجدع. وكان لأنس أخ صغير وله نغير^(٤) يلعب به فمات، فدخل رسول الله ﷺ فرآه حزينا، فقال: ما شأنه؟ فقالوا: مات نغيره، فقال: يا أبا عمير ما فعل النغير. ونظر المأمون إلى غلام حسن في الموكب، فسأله عن اسمه، فقال: لا أدري، فقال:

تَسَمَّيْتُ لَا أَدْرِي فَلِئِنَّكَ لَا تَدْرِي بِمَا فَعَلَ الْحَبُّ الْمَبْرُغُ فِي صَدْرِي

وعن علي رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: «إِذَا سَمِيتُمْ الْوَلَدَ مُحَمَّدًا فَآكِرْمُوهُ، وَوَسَّعُوا لَهُ فِي الْمَجْلِسِ، وَلَا تَقْبَحُوا لَهُ وَجْهًا». وعنه «مَا مِنْ قَوْمٍ كَانَ بَيْنَهُمْ مَشُورَةٌ فَحَضَرَ مَعَهُمَ مَنْ كَانَ اسْمُهُ مُحَمَّدًا أَوْ أَحْمَدًا فَادْخَلُوهُ فِي

(١) سورة: طه، الآية: ٤٤.

(٢) سورة: الحجرات، الآية: ١١.

(٣) عرب البحيرة: ربما عرب الحيرة.

(٤) نغير: طير أحمر المقار بحجم المصفر.

مشورتهم إلا كان خيراً لهم، وما من مائدة وُضِعت فحضر عليها مَنْ اسمه محمد أو أحمد إلا قدّس الله ذلك المنزل في كل يوم مرتين، كل ذلك بركة هذا الاسم الشريف. ومما جاء في مدح الأسماء منظوماً. قال بعضهم في مליح اسمه إبراهيم.

رأيتُ حيي في المنام مُعَانِي
وقد رَقَّ لي من بعدِ هجرٍ وقسوةٍ
وفيه أيضاً:

لا زال بِأُثْكَ كعبةً محجوبةً
حتى ينادي في البقاعِ بأسرها
وفيه أيضاً:

يا سَمِيَّ الْخَلِيلِ^(١) إنَّ فؤادي
وعجيبٌ يا قَاتِلِي أنَّ قلبي
ولبعضهم في مليح اسمه عمر:

يا أَعْدَلِ النَّاسِ أَسْمَاكَ تَجَوُّزُ عَلَى
أَظْهَرِهِمْ سَرَقُوكَ الْقَافَ مِنْ قَمَرٍ
وفيه أيضاً:

ما عليهم في الهوى لو نظروا
أبدلوا قَاتَكَ عَيْناً غَلَطاً
ولبعضهم في مليح حامل شَمْعَةٍ موقودة اسمه عثمان:

وافى إِلَيَّ بِشَمْعَةٍ وَضِياؤها
ناديْتُه ما الاسمُ يا كُلَّ الْمَنَى
ولبعضهم في مليح اسمه يوسف:

يا مَنْ سَبَى الشَّعْرَاءَ نَمَلُ عَنَابِهِ
صَيَّرَتْ قَلْبِي مِنْ صَدُودِكَ فَاطِراً^(٢)
وللصفي الحلبي فيمن اسمه داود:

(١) الرُّوْيَا: تورية في قصة سيدنا إبراهيم.

(٢) سَمِيَّ الْخَلِيلِ: شبيهه في الاسم.

(٣) الْبَيْنَ: الفراق والبعد.

(٤) مَدْنَق: متعب.

(٥) فَاطِراً: يستخدم أسماء السور «الشعراء» «النمل» «فاطر» «يوسف».

(٦) يا يوسف: يستخدم أسماء السور «الشعراء» «النمل» «فاطر» «يوسف».

وثقتُ بأن قلبي من حديدٍ وفيه على الهوى بأسٌ شديدٌ
فلانٌ على هواك ولا عجبٌ إذا داوُدُ لأن له الحديدُ
وله فيمن اسمه موسى:

أتى موسى بآية خال خذ حوتة صوارمُ الحنقِ المراضِ^(١)
فآيةٌ ذا يياضٍ في متواذٍ وآيةٌ ذا سوادٍ في يياضٍ
فجاء بضد ما قد جاء موسى كليمُ الله في الحَقْبِ المواضي
وللقرطبي في ملحق اسمه بدر:

سَمُوهُ بِدُرٍّ وَذَاكَ لَمَّا أن فاقَ في حنِـهِ وتَمَّا
واجتمعَ الناسُ إذا رأوه بأنه اسمٌ على مُسَمَّى
ولمؤلفه رحمه الله تعالى في قاضي القضاة علم الدين صالح البلقيني:

وعظَ الأسماءَ إمامًا الجبرُ الذي سكبَ العلومَ كجبرِ فضلٍ طافحٍ
فشفى القلوبَ بعلمِهِ وبوعظِهِ والعلمُ يشفي إنْ يَكُنْ من صالحٍ

وتوجهت مرة إلى بلتاج لاجتمع بالحاج خليل بن منصور في ضرورة فلم أجده ولم يبق أحد من إخوانه بقضاء ما توجهت بسببه فقلت:

خصالُ خليلٍ كلهن حَمِيدَةٌ وأوصافُهُ نُزْرِي^(٢) بكلِّ جميلٍ
فلا خيرَ في بلتاج إن لم يَكُنْ بها ولا خيرَ في الدنيا بغير خليلٍ
وقال آخر في مقل:

يا من تحجَّبَ عن محبٍّ صادقٍ ما زالَ عنه كلُّ يومٍ يسألُ
مَن لي يومٍ فيه سمعٌ باللقاءِ ويقالُ لي هذا حيُّكَ مقلُ
ولبعضهم في ملحق اسمه مخسن:

وأهيفَ يملو على عِناقِهِ برتبةٍ من الجمالِ سالها
واسمُهُ وهو العجيبُ محسنٌ وكم دموعٍ في الهوى أسالها
ولصفي الدين الحلبي في اسم حين:

حييي وافرٌ والشوقُ مني طوبىً والهوى عندي مديدٌ
وأعجبُ أنتي أهوى حيناً وشوقي في محبته يزيدُ
ومما قيل في أسماء النساء. في فاطمة:

(١) المراض: العيون الناعسة.

(٢) نُزْرِي: تُشِين.

عجبتُ من فاتنٍ لم تزلْ
تُكرِّ ما ألقاهُ من وجيلِها
وقال ابن مكناس في اسم عائشة:
يا دهرُ خبّرني بحَقِّكِ وإشْفِني
أحِلُّ أنِّي في المحبَّةِ مَيِّتُ
وقال شمس الدين البديري في اسم حليلة:
ولما رأتني في هواها ميثماً
فجاءتْ بطيبِ الوصلِ منها ولم تجزْ
ولبعضهم في اسم بركة «دويت»^(١):
لما نصبَ الهوى لقلبي شرَكه
يا قلبُ أفقْ ولا تَمِلْ لشرَكه
مردوفاً^(٢) أيضاً:

لما نصبَ الهوى لقلبي شرَكه
ناديتُ وقلبي تاركُ مَنْ تركه
يا قلبُ أفقْ ولا تملْ للشرَكه
تغنيك سنين ساعة من برَكه
في كلِّ طريق
لو كانَ يفقُ
ما الشرَكُ يلبقُ
عن كلِّ صديق

ولو تبعت هذا المعنى لاحتجت إلى مجلدات، ولكن فيما ذكرته كفاية والله الموفق وأسأله العناية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) فاطمه: أي منعت بعد قبول.

(٢) دويت: يتان.

(٣) المردوف: من فنون النظم: الشطر الأول بقافية غير الشطر الثاني.

الباب الخمسون

في الأسفار والاعتراب وما قيل في الوداع والفراق والحث على ترك الإقامة بدار الهوان وحب الوطن والحنين إليه

أما ما جاء في الأسفار والحث على ترك الإقامة بدار الهوان، فقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ طَوْلًا﴾^(١) وفي الأثر: سافروا تغنموا، وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لأصبح الناس على ظهر سفر وهو ميزان الأخلاق إن الله بالمسافر رحيم». ويقال: الحركة ولود، والسكون عاقر. وقال حكيم: السفر يسفر عن أخلاق الرجال. وكان بعضهم يريد السفر فيمنعه والده إشفاقاً عليه فقال يوماً:

ألا خلّني أمضي لشأني ولا أكنّ	علي لأهل كلاً ^(٢) إن ذا لشديد
تهيني ربّ المنون ولم أكنّ	لأهرب عما ليس منه محيد
فلو كنتُ ذا مالٍ لقرب مجلسي	وقيل إذا أخطأت أنت رشيد
فدغني أجول ^(٣) الأرض عمري لعله	يُسرّ صديق أو يفاظ حوّد

وقال رسول الله ﷺ: لا عليكم بالدلجة^(٤) فإن الأرض تطوى بالليل، ولا تطوى بالنهار. وقال كعب بن مالك رضي الله تعالى عنه: كان رسول الله ﷺ يكره أن يسافر الرجل في غير رقة. وقال ﷺ: «الراكب شيطان والراكبان شيطانان والثلاثة ركب» وقال ﷺ: «إذا خرج ثلاثة في ركب فليؤمروا أحدهم».

وقيل: أغار حذيفة بن بدر على هجان^(٥) النعمان بن المنذر بن ماء السماء وسار في ليلة مسافة ثمان ليال فضرب به المثل، وقال قيس بن الخطيم:

هَمَمْنَا بِالْإِقَامَةِ ثُمَّ سِرْنَا مِيرَ حَذِيفَةَ الْخَيْرِ بْنِ بَدْرٍ
وسار ذكوان مولى عمر رضي الله تعالى عنه من مكة إلى المدينة في يوم وليلة. وقال المأمون: لا شيء ألدّ من السفر في كفاية وعافية لأنك تحل كل يوم في محلة لم تحل فيها، وتعاصر قومًا لم تعرفهم. ومما قيل في ترك الإقامة بدار الهوان.

(١) سورة: الملك، الآية: ١٥.

(٢) كلاً: عائلة.

(٣) أجول: أسبح.

(٤) الدلجة: المشي ظلمة.

(٥) هجان: نوقه.

قال الفرزدق:

وفي الأرض عن دار القلى^(١) متحولٌ وكلُّ بلادٍ أوطئك^(٢) بلادٌ

وقال آخر:

وما هي إلا بلدةٌ مثلُ بلدتي خيارهما ما كان عوناً على دمري

وقال آخر:

وإذا البلادُ تغيّرت عن حالها فدع المقام وبادر التحويلا
ليس المقام عليك فرضاً واجباً في بلدةٍ تدعُ العزيزَ ذليلاً

وقال الصفي الحلبي:

تنقلُ قلْدَاتُ الهوى في التنقل وزد^(٣) كلُّ صافي لا يقف عند منهل^(٤)
ففي الأرضِ أجابٌ وفيها منازلٌ فلا تبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلٍ
ولا تستمع قول امرئ القيسِ إنه مُضِلٌّ ومن ذا يهتدي بمضللٍ

وقال عبد الله الجعدي:

فإن تجفُ عني أو تزُرنِي إهانةً أجذُ عنك في الأرضِ العريضةِ مذهباً

ومما قيل في الوداع والفراق والشوق والبكاء، قال جرير:

لو كنتُ أعلمُ أن آخرَ عهدِكُم يومُ الرحيلِ فعلتُ ما لم أفعلِ

وقيل لعمارة بن عقيل بن بلال بن جرير: ما كانت جدك صانعاً في قوله فعلت ما لم أفعل؟ قال: كان يقطع عنبه حتى لا يرى مظمن^(٥) أحبابه ثم أنشد يقول:

وما وجدُ مغلولٍ بصنعاء موثقٌ بساقيه من ماء الحديدِ كَبُولُ^(٦)
قليلُ الموالِيِ مسلمٌ بجزيرةٍ له بعد نوماتِ العيونِ أيلُ
يقولُ له الحدادُ أنتَ معذبٌ غداةً غداً أو مسلمٌ فقتيلُ
بأكبرَ مني لوعةً يومَ راعني فراقُ حبيبٍ ما إليه سيلُ

وقال الشاعر:

وما أُمُّ خشفٍ طولُ يومٍ وليلةٍ يلقعه يبداءُ ظمآنٌ صادياً
تهمُّ ولا تدري إلى أين تبغي مولهةً حزناً تجوزُ الفياقيا^(٧)

(١) القلى: البغض.

(٢) أوطئك: جعلتك مواطنها.

(٣) زد: زرع.

(٤) منهل: موضع الشرب.

(٥) مظمن: وقت رحيلهم.

(٦) كبول: أغلال.

(٧) الفاقيا: القفار والصحارى.

أَصْرَ بِهَا حَرُّ الْهَجِيرِ فَلَمْ تَجِدْ لَفَلْتَهَا^(١) مِنْ بَارِدِ الْمَاءِ شَافِيَا
إِذَا بَعْدَتْ عَنْ خَشْفِهَا انْعَطَقَتْ لَهُ فَالْقَتُّ مَلْهُوفُ الْجَوَانِحِ طَاوِيَا
بِأَوْجَعِ مِنْي يَوْمَ شَدُّوا حَمُولَهُمْ وَنَادَى مُنَادِي الْيَتِيمِ أَنْ لَا تَلَايَا

وقال عبد العزيز الماجشون وهو من فقهاء المدينة: قال لي المهدي يا ماجشون ما قلت حين فارقت أحبابك؟
قال: قلت يا أمير المؤمنين:

لِلَّهِ بِأَلِّ عَلَى أَحْبَابِهِ جِزْعًا قَدْ كُنْتُ أَحْلَزُ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَقْعَا
مَا كَانَ وَاللَّهِ شَوْمُ الدَّهْرِ يَتْرُكُنِي حَتَّى يَجُرَّ عَنِّي^(٢) مِنْ بَعْدِهِمْ جِرْعَا
إِنْ الزَّمَانُ رَأَى إِلْفَ السَّرُورِ لَنَا فَدَبَّ بِالْيَتِيمِ فِيمَا يَتَنَا وَسَعَى
فَلْيَضْحَعْ الدَّهْرُ بِي مَا شَاءَ مَجْتَهِدَا فَلَا زِيَادَةَ شَيْءٍ فَوْقَ مَا صَنَعَا
فَقَالَ: وَاللَّهِ لِأَعْيُنِكَ، وَأَعْطَاهُ / ١٠ / آلَافَ دِينَارٍ.

وقال آخر:

وَقَفْتُ يَوْمَ النَّوَى مِنْهُمْ عَلَى بُعْدٍ وَلَمْ أَوْدَعُهُمْ وَجَدًا وَنَسَانٍ
إِنِّي خَشِيتُ عَلَى الْأَطْعَمَانِ مِنْ نَفْسِي وَمِنْ دَمْعِي إِحْرَاقًا وَزَعْرَاقًا
وقال عمر بن أحمد:

أَنْتَى الرَّحِيلُ فَحِينَ جَدُّ تَرَحَّلْتُ مَهَجُ النَّفُوسِ لَهُ عَنِ الْأَجَادِ
مَنْ لَمْ يَيْتِ وَالْيَتِيمُ يَصْدَعُ قَلْبَهُ لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تَفَقُّتِ الْأَكْبَادِ

وحكى بعضهم قال: دخلنا إلى دير هرقل فنظرنا إلى مجنون في شباك وهو ينشد شعراً فقلنا له: أحنت، فأومأ
بيده إلى حجر يرمينا به، وقال: ألمثلني يقال أحنت؟ ففررنا منه، فقال: أقسمت عليكم إلا ما رجعتم حتى أنشدكم
فإن أنا أحنت فقولوا أحنت، وإن أنا أسأت فقولوا أسأت. فرجعنا إليه فأنشد يقول:

لَمَّا أَنْأَخُوا قِيلَ الصَّبْحَ عَيْسَهُمْ^(٣) وَخَلَّلُوهُمَا وَسَارَتْ بِالْأُمَى الْإِبِلُ
وَقَلْبْتُ بِخِلَالِ الشُّجْفِ نَاطِرَهَا يَرْنُو إِلَيَّ وَدَمْعُ الْعَيْنِ يَنْهَمِلُ
وَوَدَّعْتُ بَيْنَانِ زَانَهُ عَنَّمُ نَادَيْتُ لَا حَمَلْتُ رَجُلَاكَ يَا جَمَلُ
يَا حَادِي الْعَيْسِ عَرِّجْ كَيْ أَوْدَعَهُمْ يَا حَادِي الْعَيْسِ فِي تَرْحَالِكَ الْأَجَلُ
إِنِّي عَلَى الْمَهْدِ لَمْ أَنْقُضْ مَوَدَّتَهُمْ يَا لَيْتَ شِعْرِي لَطُولِ الْبَعْدِ مَا فَعَلُوا

فقلنا له: ماتوا. فقال: والله وأنا أموت. ثم شق شققة فإذا هو ميت رحمه الله تعالى:

لَمَّا عَلِمْتُ بِأَنَّ الْقَوْمَ قَدْ رَحَلُوا وَرَاهِبُ الدَّيْرِ بِالنَّاقُوسِ مُشْتَغِلُ
شَبَكْتُ عَشْرِي عَلَى رَأْسِي وَقُلْتُ لَهُ يَا رَاهِبَ الدَّيْرِ هَلْ مَرَّتْ بِكَ الْإِبِلُ

(١) لفلتها: عطشها.

(٢) يجر: يسقيني.

(٣) العيس: النوق.

وقال لي يا فتى ضاقت بك الحيلُ
بالأمر كانوا هنا والآن قد رحلوا

وقال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن العربي رحمه الله تعالى:

إلا وقد حملوا فيها الطواويسا
تخالها فوق عرش الدر بلقيسا
شماً على فلك في حجر إدريسا
ترى عليها من الأنوار ناموسا
في بيت خلوتها للذكر ناووسا^(١)
فساوساً أو بطريقاً شاميسا^(٢)
يا حادي العيس لا تحدو بها العيسا
على الطريق كراديساً كراديسا^(٣)
والوجد في القلب لا ينفك مغروسا

فحنّ لي وبكى بل رقّ لي ورثى
إنّ الخيام التي قد جنت تطلبهم

ما رحلوا يوم ساروا البزل العيسا^(١)
من كل فاتكة الأحاط مالكة
إذا تمشت على صرح الزجاج ترى
أسفة^(٢) من بنات الروم عاطلة
وحشة ما لها أنس قد اتخذت
إن أومات تطلب الإنجيل تحبهم
ناديت إذ رحلوا للين نافتها
غيت أجناد صبري يوم بينهم
ساروا وأصبحت أنعي الربع بعدهم

وقال آخر:

وجدت بنا سيراً وفاقت مدامع
وناظرتها باللولؤ الرطب دامع
وأومت بعينها متى أنت راجع
يسر ويدري ما به الله صانع
فالت من الطرف الكحيل مدامع
فيا رب ما خابت لديك الودائع

ولما تبئت للرحيل جمائنا
تبئت لنا مذعورة من خباثنا
أشارت بأطراف البنان وودعت
قللت لها والله ما من مسافر
فشالت نقاب الحس من فوق وجهها
وقالت إلهي كنّ عليه خليفة

وقال آخر:

هل من سيل إلى لقاك ينفق
ولا وفى لك قلبي وهو يحترق

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه
ما أنصفك دموعي وهي دامية

وقال البغدادي:

والين صعب على الأجاب موقفة
قواه عن حمل ما فيه وأضلعة
من شئت شمل الهوى بالين يجمعه

قالت وقد نالها للين أوجمة
اجعل يديك على قلبي فقد ضعفت
واعطف على المطايا ساعة فمسي

(١) العيسا: التوق الشعب.

(٢) أسفة: درجة كهوتية وقد ورد في الآيات حسب التسلسل.

(٣) ناووسا: قبراً.

(٤) شاميسا: شمس - قيس - أسقف مطران - بطريق.

(٥) كراديسا: الكتبة من الجند.

كأنني يومٍ ولئت حيرةً وأسى
وقال ابن البديري:

قفا حاديتي ليلي فلاني وامق^(١)
وزما مطاياها قبيل مسيرها
ولا تزجروا^(٢) بالسوقِ أظعانَ عيسها
ولما التفتنا والغرامُ يُذيهها
وقفنا ودمع العين يحجبُ يتا
فلا تسالا ماحلً بالين يتا

وقال أيضاً:

تذكرتُ ليلي حين شطَّ مزاؤها^(٣)
بكيتُ عليها والقفا يقرعُ القنا
وخالفْتُ لوامي عليها وعذلي
ولم أستطع يومَ النوى ردَّ عبرةٍ
فقال خليلي إذ رأى الدمعَ دائماً
لئن كانَ هذا الدمعُ يجري صباةً

وقال آخر:

مددتُ إلى التوديع كفاً ضعيفةً
فلا كانَ هذا آخرَ العهدِ منكمو

وقال آخر:

ولما وقفنا للسوداع عشيةً
بكيتُ فأضحكتُ الوشاةَ شماتةً
ولمؤلفه رحمه الله تعالى:

يا سادةً في سويد القلبِ مسكنهم
أوحشتمونا وعزَّ الصبرِ بعدكمو

وقال آخر:

لو أن مالك جالمٌ بذرى الهوى

غريقٌ بحرٍ يرى الشاطيءَ ويمنعهُ

ولا تعجلاً يوماً على مَنْ يفارقُ
ليلتدَّ منها بالتزودِ عاشقُ
فلأنَّ حيي للظمائنِ مائقُ
ونحنُ كلانا في الضكْرِ غارقُ
تسارِقُني في نظرةٍ وأسارقُ
ولا تعجباً إنا مثوقٌ وثائقُ

وعادتْ منازلها خيلاتٌ بلقع^(٤)
وشمرُ العوالي للمنايا تشرعُ
وحالفْتُ سُهدي والخلَّيونَ هُجُعُ
فؤادي أسي من حرِّها يتقطعُ
يفيضُ دماً من مقلتي ليس يدفعُ
على غيرِ ليلي فهو دمعٌ مضيعُ

وأخرى على الرمضاء فوقَ فؤادي
ولا كانَ ذا التوديعِ آخرَ زادي

وطرفي وقلبي دامعٌ وخسوفُ
كأنني سحابٌ والوشاةُ بروقُ

وفي منامي أرى أني أعانقهم
يا مَنْ يعزُّ علينا أن نفارقهم

ومحلُّه من أضلعِ العشاقِ

(١) وامق: محب.

(٢) تزجروا: النهي.

(٣) مزاؤها: بعد موضعها.

(٤) بلقع: قعر لا حياة فيها.

ما عَذَّبَ العشاقَ إلَّا بالهوى
وقال ابن الوردي:

دهرُنَا أضْحَى ضنيناً
يا ليالي الوصلِ عُودي

وقال الشريف الرضي:

عَلَّانِي بِذِكْرِهِمْ واسْقِيَانِي
وَحُذَا النَّوْمَ مِنْ جَفَوْنِي فإِنِّي

وقال آخر عند ذلك:

قالوا أترقدُ إذا غبنا فقلتُ لهم
ما حقُّ طرفٍ هَدَانِي نحو حَنُوكِمْ

وقال الموصلي:

فَسَدْتُ لَطُولَ بَعَادِكُمْ أَحْلَانَا
وَالطَّيْفُ قَدْ وَعَدَ الْجَفَوْنَ بِزُورِهِ

ومما قيل في البكاء: قال الشاعر:

رَجَوْتُ طَيْفَ خَيْالِهِ
وَالذَّارِيَاتُ جُفَوْنِي

وقال آخر:

ارْحَمْ رَجِئْتُ لِلْوَعْنِي
وَدَمَوْعُ عَيْنِي لَا تَسْلُ

وقال آخر:

إِنْ غِنِي مُذْ غَابَ شَخْصُكَ عَنْهَا
بِدَمَوْعٍ كَأَنَّهُنَّ الْغَوَادِي

وقال آخر:

يَا قَلْبُ صَبْرًا عَلَى الْفِرَاقِ وَلَوْ
وَأَنْتَ يَا دَمْعُ إِنْ ظَهَرْتَ بَمَا

(١) ضنيناً: بخيلاً.

(٢) أجمعينا: لمي شملنا جميعاً.

(٣) دهاق: قدح مثقلة.

(٤) دموعي: الذاريات - المرسلات سور قرآنية.

وقال آخر:

خاض العواذل في حديث مدامعي
فجئته لأصون سرّاً هواكمو
لما غدا كالبحر سرعة سيره
حتى يخوضوا في حديث غيره

وقال ابن الموز:

رحت يوم الفراق أجري دموعي
قيل كم ذا تجري دموعك تغمي
حسرة إذ قفسي الفراق بيني
أزف الدمع قلت من بغد عيني

وقال آخر:

لما لبست لبغده ثوب الفنى
أجريت وقف مدامعي من بعده
وغدوت من ثوب اصطباري عاريا
وجعلته وقفاً عليه جاريا

وقال آخر:

ولم أر مثلي غار من طول ليله
وما زلت أبكي في دجى الليل صوة
عليه كأن الليل يعثقه معي
من الوجد حتى أبيض من فني آدمي

وقال الموصلي:

عبر أنصت دموعي
ووجنة الخد قالت
لطول صد وين
رائت غلبي بعيني

وقال آخر:

وما فارقت ليلي من مراد
بكيث نعم بكيث وكل ألف
ولكن شقوة بلغت مداها
إذا ماتت حيته بكاهها

وفي بعض الكتب السماوية: إن مما عاقبت به عبادي أن ابتليهم بفراق الأحبة.

ومما جاء في الحنين إلى الوطن؛ أما محبة الوطن فمستولية على الطباع، مستدعية أشد الشوق إليها. روي أن أبان قدم على النبي ﷺ، فقال: يا أبان كيف تركت مكة؟ قال: تركت الإذخر^(١) وقد أعذق، والنمام^(٢) وقد أورق. فاغروقت عينا رسول الله ﷺ. وقال بلال رضي الله تعالى عنه:

ألا ليت شعري هلا أيتن ليلة
وهل أردد يوماً مائة مجنة
بواو وحولي إذخر وجليل
وهل يبدون لي شامة وطفيل^(٣)

وقيل: من علامة الرشد أن تكون النفس إلى بلدها تواق، وإلى مسقط رأسها مشتاقة.

ومن حب الوطن؛ ما حكى أن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام أوصى بأن يحمل تابوته إلى مقابر آبائه، فمنع

(١) الإذخر: من النباتات نافذة الرائحة.

(٢) النمام: من النباتات نافذة الرائحة.

(٣) طفيل: جبال بوطن الشاعر.

أهل مصر أوليائه من ذلك، فلما بعث موسى عليه الصلاة والسلام وأهلك الله تعالى فرعون لعنه الله حملة موسى إلى مقابر آبائه فقبره بالأرض المقدسة. وأوصى الإسكندر رحمه الله تعالى أن تحمل رمته في تابوت من ذهب إلى بلاد الروم حباً لوطنه. واعتلّ سابور ذي الأكتاف وكان أسيراً ببلاد الروم، فقالت له بنت الملك وكانت قد عشقته: ما تشتهي؟ قال: شربة من ماء دجلة، وشمة من تراب إصطخر، فأثته بعد أيام بشربة من ماء وقبضة من تراب، وقالت له: هذا من ماء دجلة ومن تربة أرضك، فشرب واشتم بالوهم ففضعه من علته. وقال الجاهظ: كان النفر في زمن البرامكة إذا سافر أحدهم أخذ معه تربة أرضه في جراب يتلوى به، وما أحسن ما قال بعضهم:

بِلاَدُ الْفَنَاءِ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ وَقَدْ يُولَفُ الشَّيْءَ الَّذِي لَيْسَ بِالْحَسَنِ
وَنَسْتَعْلِبُ الْأَرْضَ الَّتِي لَا هَوَاءَ بِهَا وَلَا مَأْوَاهَا عَذْبٌ وَلَكِنَّهَا وَطَنُ

ووصف بعضهم بلاد الهند فقال: يجرها دَرٌّ، وجبالها ياقوت، وشجرها عود، وورقها عطر. وقال عبد الله بن سليمان في نهاوند: أرضها مسك، وترابها الزعفران، وثمارها الفاكهة، وحيطانها الشهد. وقال الحجاج لعامله على أصبهان: وقد وليتك على بلدة حجرها الكحل، وفذابها النحل، وحشيشها الزعفران. وكان يقال: البصرة خزانة العرب، وقبة الإسلام لانتقال قبائل العرب إليها، واتخاذ المسلمين بها وطناً ومركزاً. وكان أبو إسحاق الزجاج يقول: بغداد حاضرة الدنيا وما سواها بادية، وأنا أقول: مصر كثانة الله في أرضه والسلام.

ومما جاء في ذم السفر: قيل لرجل: السفر قطعة من العذاب، فقال: بل العذاب قطعة من السفر.

وقال بعضهم:

كُلُّ الْعَذَابِ قِطْعَةٌ مِنَ السَّفَرِ يَا رَبِّ فَارِدِدْنَا عَلَى خَيْرِ الْحَضَرِ

وقيل لأعرابي: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان. ومَرَّ إِيَّاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ بِمَكَانٍ فَقَالَ: أَسْمِعْ صَوْتَ كَلْبٍ غَرِيبٍ، فَقِيلَ لَهُ: بِمَ عَرَفْتَ ذَلِكَ؟ قَالَ: بِخُضُوعِ صَوْتِهِ وَشِدَّةِ نَبَاحِ غَيْرِهِ. وَأَرَادَ أَعْرَابِيَّ السَّفَرِ فَقَالَ لَامْرَأَتِهِ:

عَذِّي السَّيْنَ لَغَيْنِي وَتَصْبَّرِي وَذُرِّي الشُّهُورَ فَتُفْنِنَهُنَّ قَصَارُ

فأجابته:

فَاذْكُرْ صَبَابَتَا إِلَيْكَ وَشَوْقَنَا وَارْحَمْ بَنَاتَكَ إِنَّهُنَّ صَفَارُ

فأقام وترك السفر، ويقال: رب ملازم لمهته فاز ببغيته. وقال ابن الهيثم:

لَعَمْرُكَ مَا ضَاكَّتْ بِلَادُ بَآهْلِهَا وَلَكِنْ أَخْلَاقُ الرِّجَالِ تَضِيقُ

وفيما ذكرته كفاية، وأسأل الله التوفيق والهداية، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الحادي والخمسون: في ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه

قال الله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(١) وقيل: الفقر رأس كل بلاء، وداعية إلى مقت الناس وهو مع ذلك مسلبة للمروءة لمذهبة للحياء، فمتى نزل الفقر بالرجل لم يجد بداً من ترك الحياء، وَمَنْ فَقَدَ حَيَاةَهُ فَقَدَ مَرْوَتَهُ، وَمَنْ فَقَدَ مَرْوَتَهُ مَقَتَ، وَمَنْ مَقَتَ اِزْدَرَى بِهِ، وَمَنْ صَارَ كَذَلِكَ كَانَ كَلَامُهُ عَلَيْهِ لَا لَهُ. وقال رسول الله ﷺ: **«بِكَ إِنْ تَذَرْتُ»**^(٢) ورثتك أغنياء خير من أن تلزهم عائلة يتكففون الناس». وفي الحديث: **«لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَحِبُّ الْمَالَ لِيَصِلَ بِهِ رَحْمَهُ، وَيُؤَدِّي بِهِ أَمَانَتَهُ، وَيَسْتَفْغِي بِهِ عَنِ خَلْقِ رَبِّهِ»**. وقال علي كرم الله تعالى وجهه: **«الفقر الموت الأكبر»** وقد استعاذ رسول الله ﷺ من الكفر والفقر وعذاب القبر. وقيل مَنْ حَفِظَ دُنْيَاهُ حَفِظَ الْأَكْرَمِينَ: دينه وعرضه. وقال الشاعر:

لَا تَلْمِزْنِي إِذَا وَقَيْتَ الْأَوَاقِي^(٣) بِالْأَوَاقِي لِمَاءِ وَجْهِهِ وَأَقِي

وقال لقمان لابنه: يَا بَنِيَّ أَكَلْتُ الْحَنْظَلُ وَذَقْتُ الصَّبْرَ فَلَمْ أَرْ شَيْئاً أَمَرَ مِنَ الْفَقْرِ فَإِنْ افْتَحَرْتَ فَلَا تَحَدَّثْ بِهِ النَّاسَ كَيْلَا يَتَضَوَّكَ، وَلَكِنْ أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ، فَمَنْ ذَا الَّذِي سَأَلَ اللَّهَ فَلَمْ يُعْطَهُ أَوْ دَعَاهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، أَوْ تَضَرَّعَ إِلَيْهِ فَلَمْ يَكْشِفْ مَا بِهِ. وكان العباس رضي الله عنه يقول: الناس لصاحب المال ألزم من الشعاع للشمس وهو عندهم أعذب من الماء، وأرفع من السماء، وأحلى من الشهد، وأزكى من الورد، خطؤه صواب، وسيئاته حسنات، وقوله مقبول، يرفع مجلسه ولا يمل حديثه. والمفلس عند الناس أكذب من لمعان السراب، وأثقل من الرصاص، لا يسلم عليه إن قدم، ولا يُسأل عنه إن غاب، إن حضر ازدروه، وإن غاب شتموه، وإن غضب صفعوه، مصافحته تنقض الوضوء، وقراءته تحطع الصلاة. وقال بعضهم: طلبت الراحة لنفسي فلم أجِدْ لها أرواح من ترك ما لا يعينها، وتوحشت في البرية فلم أر وحشة أقر من قرين السوء، وشهدت الزحوف وغالبت الأقران فلم أر قريناً أغلب للرجل من المرأة السوء، ونظرت إلى كل ما يذل القوي ويكرسه فلم أر شيئاً أذل له ولا أكرس من الفاقة. قال الشاعر:

وَكُلُّ مَقْلٍ حِينَ يَغْدُو لِحَاجَةٍ إِلَى كُلِّ مَا يَلْقَى مِنَ النَّاسِ مَذْنَبُ
وَكَاثَتْ بَنُو عَمِّي يَقُولُونَ مَرَحِبَا فَلَمَّا رَأَوْنِي مَعْدَمًا مَاتَ مَرَحِبُ

وقال آخر:

الْمَالُ يَرْفَعُ سَقْفًا لَا عِمَادَ لَهُ وَالْفَقْرُ يَهْدِمُ بَيْتَ الْعِزِّ وَالشَّرَفِ

وقال آخر:

(١) سورة: الكهف، الآية: ٤٦.

(٢) تذر: ترك.

(٣) الأواقي: حمتك الحاميات.

وعيشُ الفنى بالفقر ليس طيبٌ
تحققهُ الأقوام وهو ليسٌ^(١)
يبت وهو مغلوبُ الفؤاد سليبٌ
إذا قال كلُّ الناس أنت مصيبٌ

وقد يسوءُ غيرَ الثيد المألُ

سبًا وإن الفقرَ بالمرء قد يُزري
ولا وُضِعَ النفسُ النفية كالفقرِ

وهانَ على الأدنى فكيفَ الأبعدُ

والناسُ تغلقُ دونَهُ أبوابَها
ويرى العداوةَ لا يرى أسبابَها
خضعتَ لَدَيْهِ وَحَرَّكَتْ أَذْنَابَها
نَبَحَتْ عَلَيْهِ وَكَثُرَتْ أَيْابَها

مثلَ اصفرارِ الشمسِ عندَ المغيبِ
إذا بلىَ بالفقرِ إلا غريبُ

تَكُورُ الرِجَالُ مَهَابَةً وَجَمَالاً
وهي السِّلَاحُ لِمَن أَرَادَ قِتَالاً

فكلما انقلبَتْ يوماً بهِ انقلبوا
يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

جروحُ الليالي ما لهنَّ طيبُ
وحبكُ أن المرءَ في حالٍ فقرِهِ
ومن يغترِرَ بالحادثاتِ وصرفها
وما ضرَّتني أنْ قالَ أخطأتَ جاهلُ

وقال آخر:

الفقرُ يُزري^(٢) بأقوامٍ ذوي حسبٍ

وقال آخر:

لعمركَ إن المالَ قد يجعلُ الفنى
وما رَفِيعُ النفسِ الدنية كالنقى

وقال آخر:

إذا قلَّ مالُ المرءِ لانتَ فتائهُ

وقال ابن الأحنف:

يمشي الفقيرُ وكلُّ شيءٍ ضلَّهُ
وتراه مبغوضاً وليسَ بمذنبٍ
حتى الكلابُ إذا رأَتْ ذا ثروةٍ
وإذا رأَتْ يوماً فقيراً عابراً

وقال آخر:

فقرُ الفنى يُذهبُ أنواره
والله ما الإنسانُ فنى قومه

وقال آخر:

إن الدراهمَ في المواطنِ كلَّها
فهي اللسانُ لمن أَرَادَ فصاحةً

وقال آخر:

ما الناسُ إلا معَ الدنيا وصاحبُها
يعظمونَ أخوا الدنيا فإنْ وُجِبَتْ

وقال بعضُ الفرس: من زعم أنه لا يحب المال فهو عندي كذاب:

وقال الكتاني:

(١) ليب: يظنونه أحمقٌ وهو ليب.

(٢) يزري: يشين.

أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا لَنَا عِبْرَةً فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ
قَدْ أَجْمَعَ النَّاسَ عَلَى ذَمِّهَا وَمَا أَرَى مِنْهُمْ لَهَا تَارِكًا
وقال الزمخشري:

وَإِذَا رَأَيْتَ صَعُوبَةً فِي مَطْلَبٍ فَاحْمِلْ صَعُوبَتَهُ عَلَى الدِّينَارِ
وَابْعَثْهُ فِيمَا تَشْتَهِيهِ فَإِنَّهُ حَجَرٌ يَلِينُ قُوَّةَ الْأَحْجَارِ

قال الثوري رحمه الله تعالى: لئن اخلف عشرة آلاف درهم يحاسبني الله عليها أحب إلي من أن احتاج إلى لثيم. وفي هذا المعنى قال الشاعر:

أَحْفَظُ عُرَى مَالِكَ تَخْطُ بِهِ وَلَا تُقَرِّطُ فِيهِ تَبَقَّ ذَلِيلُ
وَإِنْ يَقُولُوا بِاخْلُ بِالْعَطَا فَالْبَخْلُ خَيْرٌ مِنْ سَوَالِ الْبَخِيلِ
وَاحْفَظْ عَلَى نَفْسِكَ مِنْ زَلَّةٍ يُرَى عَزِيزُ الْقَوْمِ فِيهَا ذَلِيلُ

وأما ما جاء في الاحتراز على الأموال: فقد قالوا: ينبغي لصاحب المال أن يحترز ويحفظ عليه من المطمعين والمبرطحين^(١) والمحترفين الموهمين والمتمين^(٢).

فأما المطمعون؛ فهم الذين يتلقون أصحاب الأموال بالبشرى والإكرام والإعظام إلى أن يأنسوا بهم ويعرفوهم بالمشاهدة، وربما قضا ما قدروا عليه من حوائجهم إلى أن يألفوهم ويحصل بينهم سبب الصداقة، ثم إن أحدهم يفكر لصاحب المال في معرض المقال أنه كسب فائدة كثيرة في معيشته، ثم يمشي معه في الحديث إلى أن يقول إني فكرت فيما عليك من المؤن والنفقات، وهذا أمر يعود ضرره في المستقبل إن لم تساعد بالمكاسب، وغرضي التقرب إليك ونصحك وخدمتك وأريد أن أوجه إليك فائدة من المتجر بشرط أن لا أضع يدي على مال، بل يكون مالك تحت يدك، أو تحت يد أحد من جهتك، ويخرج له في صفة الناصحين المشفقين فإذا أجابه إلى ذلك كان أمره معه على قسمين، إن اتمنه هو جعل المال بيده، أعطاه اليسير منه على صفة أنه من الريح وطاول به الأوقات ودفع إليه في المدة الطويلة الشيء اليسير من ماله ثم يحتج عليه ببعض الآفات ويدعي الخسارة، فإن لزمه صاحب المال، قابحه ويرطل من جملة المال صاحب جاه فيدفعه ويقول هذا رباباني^(٣)، فإن روعي صاحب المال وفق بينهما، على أن يكتب عليه يقية المال وثيقة فلا يستوفي ما فيها إلا في الآخرة، وإن هو لم يأت منه وعول أن يكون القبض بيده والمتاع مخزوناً لديه وإطاً^(٤) عليه البائعين والمشتريين وحصل لنفسه وعمل ما يقول به، فإن حصل لصاحب المال أدنى ربح أو همه أن مفتاح الأرزاق بيده، وإن كسد المشتري، أو رخص أحوال الأمر على الأقدار وقال ليس لي علم بالغيب.

ومن أشد المطمعين، المعترضون لصناعة الكيمياء وهم الطماعون المطمعون في عمل الذهب والفضة من غير معدنهما، فيجب أن يحذر التقرب منهم والاستماع لهم في شيء من حديثهم فإن كذبهم ظاهر وذلك أنهم يوهمون

(١) المبرطحين: سيأتي تفصيل شرحهما وهما من أصناف المحتالين في حيازة المال.

(٢) المتمينين: سيأتي تفصيل شرحهما وهما من أصناف المحتالين في حيازة المال.

(٣) رباباني: منسوب إلى الربا.

(٤) إطاً: شاركهم الغرم.

الغير أنهم ينيلونهم خيراً ويطلعونهم على صنعتهم ابتداء منهم لا لحاجة، وهذا يستحيل ويحتجون بأن ما يلجئهم إلى ذلك عدم الإمكان وتعدّل المكان، فمنهم من يكون شوقه إلى أن يدخل إلى مكان ويترك عنه عدة لها قيمة، فيأخذها وينسحب، ومنهم من يشترط أن عمله لا ينتهي إلى مدة، فيقتنع في تلك المدة بالأكل غدوة وعشية، وسيله بعد ذلك إن كان معروفاً قال فسد عليّ العمل من جهة كيت وكيت، ويقول للذي يتفق عليه هل لك في المعاودة، فإن حمله الطمع ووافقه كان هذا له أتم غرض، ثم يحتال آخر المدة على الفراق بأيّ سبب كان، وإن كان منكوراً غافل صاحب المكان وخارج هارباً.

ومن المطمعين، قوم يجعلون في الجبال أمارات من ردم وحجر ويأتون إلى أصحاب الأموال ويقولون: إنا نعرف علم كثر فيه من الأمارات كيت وكيت، ثم يوقونهم على ورقة متصّعة ويقولون نريد أن تأخذ لنا عدة وتنفق علينا ومهما حصل من فضل الله تعالى لنا ولك، فيوافقهم على ذلك ويوطن نفسه على أن المادة تكون قرية فيعملون يوماً أو يومين، فيظهر لهم أكثر الأمارات فيزداد طمعاً ويعتقد الصحة، ثم يستدرجونه إلى أن يتفق عليهم ما شاء الله تعالى ويكون آخر أمرهم كصاحب الكيمياء، وإن كانوا منكورين ورغبتهم الطمعة في قماشه أو في العدة التي معه فربما قتلوه هناك لأجل ذلك ومضوا فهذا أمر المطمعين.

وأما المبرطحوون؛ فهم من الخونة والناس بهم أكثر غرراً^(١)، وذلك أنهم إذا ندب صاحب المال أحداً منهم لشراء حاجة سارع فيها، واحتاط في جودتها، وتوفّر كيلها أو وزنها أو ذرعها ووضع من أصل ثمنها شيئاً وزنه من عنده، سرّاً، حتى يبيض وجهه عند صاحب المال، ويعتقد نصحه وأمانته ونجح مساعيه وكذلك إن ندبه لشيء يبيعه استظهر واستجاد النقد ولا يزال هكذا دأبه حتى يلقي مقاليد أمره إليه فيستعطفه ويفوز به ثم يغير الحال الأول في الباطن فينبغي لصاحب المال أن لا يغفل عنه.

وأما المحترفون الموهمون؛ فهم الذين يتعرّضون للدوي الأموال فيظهرون لهم الغنى والكفاية ويباسطونهم بمساحة الأصدقاء، ويعتمدون جودة اللباس، ويستعملون كثيراً من الطيب، ثم إن أحدهم يذكر أنه يريح الأرباح العظيمة فيما يعانیه، ويذكر ذلك مع الغير، ولا يزال كذلك حتى يثبت ويستقر في ذهن صاحب المال أنه يكسب في كل سنة الجمل الكثير من المال، وأنه لا يبالي إذا أنفق، أو أكل، أو شرب، فشره^(٢) نفس صاحب المال لذلك فيقول له على سبيل المداعة: يا فلان، تريد الدنيا كلها لنفسك لم لا تشاركنا في متاعك هذه، وأرياحك، فيقول له: أنت جبان يمزّ عليك إخراج الدينار، وتظن أنك إن أظهرته خطف منك، ولا تدري أنه مثل البازي إن أرسلته أكل وأطعمك، وإن أمسكته لم يصد شيئاً، واحتجت إلى أن تطعمه وإلا مات، وأنا والله لو كان عندي علم أنك تنبسط لهذا، كنت فعلت معك خيراً كثيراً ولكن ما كان إلا هكذا، وما كان لا كلام فيه، والعمل في المستأنف، فيشكره صاحب المال ويسأله أخذ المال فيمطله بتسليمه فيزداد فيه رغبة إلى أن يسلمه إليه فيكون حاله كحال المطمع إذا صار المال تحت يده.

وأما المتمسسون؛ فهم أهل الرياء المظهرون التعفف والنسك، ومجانبة الحرام، ومواظبة الصلاة والصيام لكي

(١) غرراً: انخداعاً.

(٢) شره: تصاب بالطمع.

يشتهر ذكرهم عند الخاص والعام، ثم يلقون ذوي الأموال بالبشر والإكرام والتلطف في المقال، ويمشون إلى أبواب الملوك على صفة التهانى بالأعياد، وربما يأتي معه بأحد من الأولاد ويظهرون التزاهة والغنى، ويجعلون الدين سلماً إلى الدنيا، وأكثر أغراضهم أن تودع عندهم الأموال، وتفوض إليهم الوصايا، ويجلهم^(١) العوام، وتقبل شهادتهم للحكام، وتندبهم الملوك إلى الوصايا والأموال وهؤلاء أشتر من اللصوص والقطاع، وذلك أن شهرة اللصوص والقطاع تدعو إلى الاحتراز منهم وتشبه هؤلاء بأهل الخير يحمل الناس على الاغترار^(٢) بهم. قال الشاعر:

صَلَّى وَصَامَ لَأَمْرِ كَانَ أَثْمَهُ حَتَّى حَوَّاهُ فَمَا صَلَّى وَلَا صَامَا

وقيل: لا فقير أفقر من غني يأمن الفقير: قال الشاعر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَقْرَ يُرْجَى لَهُ الْغِنَى وَأَنَّ الْغِنَى يُخْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْفَقْرِ

وأوصى بعض الحكماء ولده فقال له: يا بني عليك بطلب العلم وجمع المال فإن الناس طائفتان، خاصة وعامة، فالخاصة تكرمك للعلم، والعامة تكرمك للمال. وقال بعض الحكماء إذا افتقر الرجل اتهمه من كان به وثقاً، وأساء به الظن من كان ظنه به حسناً، ومن نزل به الفقر والفاقة لم يجد بدا من ترك الحياء ومن ذهب حياؤه ذهب بهاؤه، وما من خلة هي للغني مدح إلا وهي للفقير عيب، فإن كان شجاعاً سمي أهوج، وإن كان مؤثراً سمي مفسداً، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً، وإن كان وقوراً سمي بليداً، وإن كان لئناً سمي مهذاراً، وإن كان صموتاً سمي عيباً. قال ابن كثير:

الناس أتباع مَنْ دامت له نعمُ المالِ زينٌ وَمَنْ قَلَّتْ دراھُمُ لما رأيتُ أخلاقِي وخالفَتِي أبدوا جفاءً وإعراضاً فقلتُ لهم والويلُ للمرءِ إن زلَّتْ به القدمُ^(٣) حيٌّ كَمَنْ ماتَ إلا أَنه صَنَمٌ والكُلُّ مُنْتَبِرٌ عَنِّي ومحتشمٌ أَذْنَبْتُ ذنباً فقالوا ذنبُكَ العَدَمُ^(٤)

وكان ابن مقلة وزيراً لبعض الخلفاء فزور عنه يهودي كتاباً إلى بلاد الكفار وضمنه أموراً من أسرار الدولة ثم تحيل اليهودي إلى أن وصل الكتاب إلى الخليفة فوقف عليه، وكان عند ابن مقلة حظية هويت هذا اليهودي فأعطته درجاً بخطفه، فلم يزل يجتهد حتى حاكى خطه ذلك الذي كان في الدرج، فلما قرأ الخليفة الكتاب أمر بقطع يد ابن مقلة وكان ذلك يوم عرفة وقد لبس خلعة العيد ومضى إلى داره وفي موكبه كل من في الدولة، فلما قطعت يده وأصبح يوم العيد لم يأت أحد إليه ولا توجع له، ثم اتضحت القضية في أثناء النهار للخليفة أنها من جهة اليهودي والجارية فقتلها شراً قتلة ثم أرسل إلى ابن مقلة أموالاً كثيرة وخلعاً سنياً وندم على فعله واعتذر إليه فكتب ابن مقلة على باب داره يقول:

تَحَالَفَ النَّاسُ وَالزَّمَانُ فَعِثْتُ كَانَ الزَّمَانُ كَانُوا

(١) يجلهم: يحترمهم.

(٢) الاغترار: الانخداع.

(٣) القدم: عثرت به.

(٤) العدم: الفاقة.

عاداني الدهرُ نصفَ يومٍ فانكشفَ الناسُ لي وبأنوا
 يا أيها المُفْرِضُونَ عني عودوا فقد عادَ لي الزمانُ
 ثم أقام بقية عمره يكتب بيده اليسرى قال بعضهم:
 إنما قسوةُ الظهورِ القسودُ وبها يكملُ الفنى ويسودُ
 كم كريمٍ أزرى به الدهرُ يوماً ولئيمٍ تسعى إليه الوفودُ
 والأطباء يعلمون أمراضاً من علاجها، اللعب بالدينار، وشرب الأدوية والماليق^(١)، التي يغلى فيها الذهب.

قال الشاعر:

إحرص على الدرهم والعين تلسم من العيلة والذئبن
 قسوة العين بإنسانها^(٢) وقسوة الإنسان بالثيبن

واعلم أن القلب عمود البدن، فإذا قوي القلب قوي سائر البدن، وليس له قوة أشد من المال، وبالضد إذا ضعف من الفقر ضعف له البدن.

حكى أن ملكاً رأى شيخاً قد وثب وثبة عظيمة على نهر فتخطاه والشاب يعجز عن ذلك فعجب منه فاستحضره فحادثه في ذلك فأراه ألف دينار مربوطة على وسطه. وقال لقمان لابنه: يا بني شيان إذا أنت حفظتهما لا تبالي بما صنعت بعدهما، دينك لمعادك، ودرهمك لمعاشك. والكلام في هذا المعنى كثير، وقد اقتصرنا منه على التزير اليسير، وقد كان في الناس من يتظاهر بالفنى ويراه مروءة وفخراً، فمن ذلك ما حكى عن أحمد بن طولون أنه دخل يوماً بعض بساطينه فرأى الترجس وقد تفتح زهره فاستحسنه فدعا بغداته فتغلى ثم دعا بشرا به فشرب، فلما انتشى قال: عليّ بألف مثقال من المسك فثره على أوراق الترجس.

ولنذكر الآن نبذة من الذخائر والتحف؛ حكى الرشيد بن الزبير في كتابه الملقب بالمعجائب والطرف أن أبا الوليد ذكر في كتابه المعروف بأخبار مكة أن رسول الله ﷺ، لما فتح مكة عام الفتح في سنة ثمان من الهجرة، وجد في الجب الذي كان في الكعبة سبعين ألف أوقية من الذهب، مما كان يهدى للبيت قيمتها ألف ألف وتسعمائة ألف وتسعون ألف دينار. وباع زهرة التميمي يوم القادسية منطقة كان قتل صاحبها بشانين ألف دينار، ولبس سلبه وقيمت خمسمائة ألف وخمسون ألفاً. وأصاب رجل يوم القادسية راية كسرى فعوض عنها ثلاثين ألف دينار، وكانت قيمتها ألف ألف دينار ومائتي ألف. ووجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية إربيق ذهب مرصعاً بالجواهر فلم يدر أحد ما قيمته. فقال رجل من الفرس أنا أخذه بعشرة آلاف دينار ولم يعرف قيمته، فذهب به إلى سعد بن أبي وقاص فأعطاه إياه. وقال لا تبعه إلا بعشرة آلاف دينار فباعه سعد بمائة ألف دينار.

ولما أتت الترك إلى عبد الله بن زياد ببخارى في سنة أربع وخمسين كان مع ملكهم امرأته خاتون، فلما هزمهم الله تعالى أعجلوها عن لبس خفها فلبست إحدى فردتيه، ونسيت الأخرى فأصابها المسلمون فقومت بمائتي ألف

(١) الماليق: مفرد ما يسلق لي شرب.

(٢) بإنسانها: بؤس العين.

فيتار. ولما فتح قتيبة بن مسلم بخارى في سنة تسع وثمانين وجد فيها قدور ذهب يتزل إليها بسلاسل. ودفع مصعب بن الزبير حين أحسن بالقتل إلى زياد مولاه فصاً من ياقوت أحمر، وقال له انج به وكان قد قوّم ذلك القص بألف ألف درهم، فأخذ زياد ورضه بين حجرين وقال والله لا يتنفع به أحد بعد مصعب. وذكر مصعب بن الزبير أن بعض عمال خراسان في ولايته عثر على كثر فوجد فيه حلة كانت لبعض الأكاسرة مصوغة من الذهب، مرصعة بالدر والجواهر، والياقوت الأحمر والأصفر والزرجد فجعلها إلى مصعب بن الزبير فخرج من قوّمها فبلغت قيمتها ألفي ألف دينار، فقال إلى من أَدفعها قليل إلى نساك وأهلك. فقال لا بل إلى رجل قدّم عندنا يدا، وأولانا جميلاً، ادع لي عبد الله بن أبي دريد فدفعها إليه. ولما صار موجود عماد الدولة في قبضة أمير الجيوش وجد في جملته دملج ذهب فيه جوهرة حمراء كالبيضة وزنها سبعة عشرة مثقالاً، فأنفلها أمير الجيوش إلى المستنصر فقوّم بتسعين ألف دينار.

ووجد في بستان العباس بن الحسن الوزير مما أعد له من آلة الشرب يوم قتل سبعمائة صينية من ذهب وفضة، ووجد له مائة ألف مثقال عنبر. وترك هشام بن عبد الملك بعد موته اثني عشر ألف قميص وشي، وعشرة آلاف تكة حرير وحملت كسوته لما حج على سبعمائة جمل، وترك بعد وفاته أحد عشر ألف ألف دينار. ولم تأت دولة بني العباس إلا وجميع أولاده فقراء لا مال لواحد منهم، وبين الدولة العباسية، و وفاة هشام سبع سنين. ولما قتل الأفضل ابن أمير الجيوش في شهر رمضان سنة خمس وعشرة وخمسائة خلف بعده مائة ألف ألف دينار، ومن الدراهم مائة وخمسين أردباً وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج، ودواة من الذهب قوّم ما عليها من الجواهر والياقوت بمائتي ألف دينار، وعشرة بيوت في كل بيت منها مسمار ذهب، قيمته مائة دينار على كل مسمار عمامة لونا، وخلف كعبة عنبر يجعل عليها ثيابه، إذ نزعها، وخلف عشرة صناديق مملوءة من الجواهر الفائق الذي لا يوجد مثله، وخلف خمسمائة صندوق كبار لكسوة حشمه، وخلف من الزبادي الصيني والبلور المحكم، وسق^(١) مائة جمل، وخلف عشرة آلاف ملحقة فضة، وثلاثة آلاف ملحقة ذهب، وعشرة آلاف زبدية فضة كبار وصغار، وأربع قدور ذهباً، كل قدر وزنها مائة رطل، وسبعمائة جام^(٢) ذهباً بفصوص زمرد، وألف خريطة مملوءة دراهم خارجاً عن الأردب، في كل خريطة عشرة آلاف درهم، وخلف من الخدم والرفيق والخيول والبغال والجمال وحلي النساء ما لا يحصى عدده إلا الله تعالى، وخلف ألف حسكة^(٣) ذهباً وألفي حسكة فضة وثلاثة آلاف نرجسة ذهباً، وخمسة آلاف نرجسة فضة، وألف صورة ذهباً وألف صورة فضة، منقوشة عمل المغرب، وثلاثمائة ثور ذهباً، وأربعة آلاف ثور فضة، وخلف من البسط الرومية والأندلسية ما ملأ به خزائن الإيوان وداخل قصر الزمرد، وخلف من البقر والجاموس والأغنام ما يباع لونه في كل سنة بثلاثين ألف دينار، وخلف من الحواصل المملوءة من الجيوب ما لا يحصى.

ولما احتوى الناصر على ذخائر قصر العاضد وجد فيه طبعاً كان بالقرب من موضع العاضد محتفظاً له، فلما رأوه سخروا منه، فضرب عليه إنسان فضرط فضحكوا منه، ثم أمسكه آخر وضربه فضرط فضحكوا عليه، فكسروه استهزاء وسخرية ولم يدروا خاصيته، وكانت الفائدة فيه أنه وضع للقولنج^(٤)، فلما أخبروا بخاصيته ندموا على كسره.

(١) وسق: حمولة.

(٢) جام: وعاء زجاجي.

(٣) حسكة: من الأسلحة.

(٤) القولنج: أحد الأمراض الباطنية.

وقد جمعت الملوك من الأموال والذخائر والتحف كنوزاً لا تحصى، وبعد ذلك ماتوا ونفذت ذخائرهم، وفنيت أموالهم فسبحان من يلوم ملكه ويقاؤه. قال بعضهم:

هَبِ الدُّنْيَا تُقَادُ إِلَيْكَ عَفْوَاً^(١) أَيْسَ مَصِيرُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ

فضمنت أنا هذا البيت وقلت:

أَيَا مَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا طَوِيلاً وَأَتَعَبَ نَفْسَهُ فِيمَا سِيفَنِي
وَأَفْنَى الْعَمَرَ فِي قَبْلِ وَقَالِ وَجَمَعَ مِنْ حَرَامٍ أَوْ حَلَالِ
هَبِ الدُّنْيَا تُقَادُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أَيْسَ مَصِيرُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني والخمسون: في ذكر الفقر ومدحه

قد دل قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ﴾ * أن رآه استغنى^(١) على ذم الغنى إن كانت سبب الطغيان. وسئل أبو حنيفة رحمه الله تعالى عن الغنى والفقر فقال: وهل طغى من طغى من خلق الله عز وجل إلا بالغنى، وتلا هذه الآية المتقدمة. والمحققون يرون الغنى والفقر من قبل النفس لا في المال. وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم يرون الفقر فضيلة، وحدث الحسن رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يدخل فقراء أمتي الجنة قبل الأغنياء بأربعين عاماً». فقال جليس للحسن: أمن الأغنياء أنا أم من الفقراء؟ فقال: هل تغديت اليوم؟ قال: نعم. قال: فهل عندك ما تمشى به؟ قال: نعم قال: فإذا أنت من الأغنياء. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان النبي ﷺ يبيت طاوياً ليالي ما له ولا لأهله عشاء. وكان عامة طعامه الشعير. وكان يعصب^(٢) الحجر على بطنه من الجوع وكان يأكل خبز الشعير غير منخول، هذا وقد عرضت عليه مفاتيح كنوز الأرض فأبى أن يقبلها صلوات الله وسلامه عليه. وكان يقول: «اللَّهُمَّ توفني فقيراً ولا توفني غنياً، واحشرنى في زمرة المساكين». وقال جابر رضي الله تعالى عنه: دخل النبي ﷺ على ابنته فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى، وعليها كساء من وبر الإبل فبكى وقال: تجرعي^(٣) يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾^(٤) وقال ﷺ: الفقر موهبة من مواهب الآخرة وهبها الله تعالى لمن اختاره، ولا يختاره إلا أولياء الله تعالى. وفي الخبر: إذا كان يوم القيامة يقول الله عز وجل لملائكته: أدنوا إليّ أحبائي فتقول الملائكة: ومن أحبائك يا إله العالمين؟ فيقول: فقراء المؤمنين أحبائي. فيدنونهم منه. فيقول: يا عبادي الصالحين إني ما زويت^(٥) الدنيا عنكم لهوانكم عليّ، ولكن لكرامتكم تمتعوا بالنظر إليّ وتمنوا ما شتم فيقولون وعزتك وجلالك لقد أحسنت إلينا بما زويت عنها منها. ولقد أحسنت بما صرفت عنا فيأمر بهم فيكرمون ويحبرون ويزفون إلى أعلى مراتب الجنان. وقال ﷺ: «هل تنصرون إلا بفقرائكم وضعفائكم، والذي نفسي بيده ليدخلن فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام والأغنياء يحاسبون على زكاتهم». وقال عليه الصلاة والسلام: «رب أشعث أغبر ذي طمرين^(٦) لا يؤبه به لو أقسم على الله تعالى لأبره» أي لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً. وقال عليه الصلاة والسلام «إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه به الذين إذا استأذنوا على الأمير لا يؤذن لهم وإن خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم، حوائج

(١) سورة: الملق، الآيات: ٦ - ٧.

(٢) يعصب: يربطه بضمصة.

(٣) تجرعي: ذوقي.

(٤) سورة: الفصحى، الآية: ٥.

(٥) زويت: حبستها عنكم.

(٦) طمرين: ثوبين باليين.

أحدهم تلجلج في صدره لو قسم نوره على الناس يوم القيامة لوسعهم^(١). وروي عن خالد بن عبد العزيز أنه قال: كان حيوة بن شريح من البكائين وكان ضيق الحال جداً، فجلست إليه ذات يوم وهو جالس وحده يدعو. فقلت له: يرحمك الله لو دعوت الله تعالى ليوسع عليك في معيشتك. قال: فالتفت يميناً وشمالاً فلم ير أحداً، فأخذ حصاة من الأرض وقال: اللهم اجعلها ذهباً فإذا هي تبرة في كفه، ما رأيت أحسن منها، قال: فرمى بها إلي. وقال: هو أعلم بما يصلح عباده، فقلت: ما أصنع بهذه؟ قال: أنفقها على عيالك فهبته والله أن أردّها عليه، وقال عون بن عبد الله: صحبت الأغنياء فلم أجد فيهم أحداً أكثر مني همّاً لأنني كنت أرى ثياباً أحسن من ثيابي، ودابة أحسن من دابتي، ثم صحبت الفقراء بعد ذلك فاسترحت. قال بعضهم:

وقد يُهلك الإنسان كثرةً مالِهِ كما يُذبح الطاووسُ من أجل زيشه
وقال عبد الله بن طاهر:

ألم تَرَ أن الدمرَ يهدمُ ما بنى ويأخذُ ما أعطى ويفسدُ ما أسدى^(٢)
فمن مرّه أن لا يرى ما يسوّه فلا يتخذُ شيئاً ينالُ به فقداً

وكان من دعاء السلف رضي الله تعالى عنهم: اللهم إني أعوذ بك من ذل الفقر وبطر^(٣) الغنى. وقيل: مكتوب على باب مدينة الرقة: ويل لمن جمع المال من غير حقه، ويلان لمن ورثه لمن لا يحمدّه. وقدم على من لا يعذره. ولما فتحت بلخ في زمن عمر رضي الله تعالى عنه وجد على بابها صخرة مكتوب فيها: إنما يتبين الفقير من الغني بعد الإنصراف من بين يدي الله تعالى، أي بعد العرض. قال الشاعر:

ومن يطلبُ الأعلى من العيش لم يؤل حزيناً على الدنيا رهينَ غبونها
إذا شئت أن تحياً سعيداً فلا تكن على حالٍ إلا رضيتَ بدونها^(٣)

وقال آخر:

ولا ترهبَنَّ الفقرَ ما عشتَ في غدٍ لكلِّ غدي رزقٌ من الله واردٌ
قال هارون بن جعفر الطالبي:

بُوعِدَتْ هَيْبَتِي وَقُرِيبَ مَالِي فقَعَالِي مَقْصَرٌ عَنْ مَقَالِي
ما اكتسبَ الناسُ مثْلَ ثوبِ اقتناعٍ وهو من بين ما اكتسوا سربالي
ولقد تعلّمُ الحوادثُ أنني ذو اصطبارٍ على صروفِ الليالي

وقال أعرابي: مَنْ ولد في الفقر أبطره الغنى. ومن ولد في الغنى لم يزدّه إلا تواضعاً. فما أحسن الفقر وأكثر ثوابه وأعظم أجر من رضي به وصبر عليه. اللهم اجعلنا من الصابرين برحمتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

(١) أسدى: ما أعطى.

(٢) وبطر: الأشر.

(٣) بدونها: بأقل منها.

الباب الثالث والخمسون: في ذكر التلطف في السؤال وذكر من سئل فجاد

روى الإمام مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أعطوا السائل ولو جاء على فرس». وما سئل عليه السلام شيئاً قط فقال لا. وأتى إعرابي إلى علي رضي الله تعالى عنه فسأله شيئاً. فقال: والله ما أصبح في بيتي شيء فضل عن قوتي. فولى الأعرابي وهو يقول: والله ليسألك الله عن موقعي بين يديك يوم القيامة. فبكى علي رضي الله تعالى عنه بكاء شديداً وأمر برده. وقال يا قنبر: اتني بدرعي الفلانية فدفعها إلى الأعرابي وقال لا تخدعن عنها، فطالما كشفت بها الكروب عن وجه رسول الله ﷺ. فقال قنبر: يا أمير المؤمنين كان يجزيه عشرون درهماً. فقال يا قنبر: والله ما يسرنى أن لي زنة الدنيا ذهباً وفضة فتصدقت به، وقبل الله مني ذلك، وأنه يسألني عن موقف هذا، بين يديه. وقال علي رضي الله تعالى عنه: إن لكل شيء ثمرة، وثمره المعروف تعجيل السراح^(١). وقال مسلمة لنصيب: سئني فقال: كفك بالمطية أبسط من لساني بالمسألة فقال لحاجبه: ادفع إليه ألف دينار. وسأل رجل الحسن رضي الله تعالى عنه. فقال له: ما وسيلتك؟ قال: وسيلتي أنني أتيتك عام أول فبررتني. قال: مرحباً بمن توسل إلينا بنا ثم وصله وأكرمه. ويقال: الكريم إذا سئل ارتاح، واللئيم إذا سئل ارتاع. ولما وفد المهدي من الري إلى العراق امتدحه الشعراء فقال أبو دلالة:

إنني نذرت لئن رأيتك قداماً
أرضى العراق وأمت ذو وقـر
لتصليتن على النبي محمد
ولتسلأن دراهمنا حجـري

فقال المهدي: صلى الله على محمد. فقال أبو دلالة: ما أسرعك للأولى، وأبطأك عن الثانية. فضحك وأمر بكرة فصبت في حجره.

وسمع الرشيد إعرابية بمكة تقول:

طحتنا كالأكل الأعوام^(٢)
فأتيناكمو نكأ أكفأ
فأطلبوا الأجر والمشوية فينا
فأترثنا طوارق الأيام
لألتقام من زادكم والطعام
أيها الزائرون بيت حرام

فبكى الرشيد. وقال لمن معه: سألتكم بالله تعالى إلا ما دفعتم إليها صدقاتكم فألقوا عليها الثياب حتى وارتها كبرة، وملأوا حجرها دراهم ودينار. وسأل أعرابي بمكة وأحسن في سؤاله فقال: أخ في الله، وجار في بلد الله، وطالب خير من عند الله، فهل من أخ يواسيني في الله. قال الشاعر:

ليس في كل هلة وأوان
تهياً صنائع الإحسان

(١) السراح: المطية.

(٢) الأعوام: شدتها ونوازله.

فإذا أمكنت فبادر إليها
حذراً من تعذر الإمكان
وقال البصري:

أضحت حوائجنا إليك مناحة
مقولةً برحابك البوصال
أطلقن فديتك بالنجاح عقالها^(١)
حتى تور بنا بغير عقال

وعن علي رضي الله تعالى عنه: قال: يا كميل مر أهلك أن يروحوا في كسب المكارم، ويدلجوا في حاجة من هو نائم، فوالذي وسع وسمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلا خلق الله تعالى من ذلك السرور لطفاً، فإذا نابت نائبة جرى إليها كالماء في انحداره حتى يطردها عنه، كما تطرد غرية الأيل. وقال لجابر بن عبد الله: يا جابر من كثرت نعم الله تعالى عليه، كثرت حوائج الناس إليه، فإذا قام بما يجب لله فيها فقد عرضها للدوام والبقاء.. ومن لم يقم بما يجب لله فيها عرض نعمه لزوالها. وكان لبيد رحمه الله تعالى آتى على نفسه كلما هبت العبا^(٢) أن ينحر ويطعم، وربما ذبح العناق إذا ضاق الخناق، فخطب الوليد بن عتبة يوماً فقال: قد علمت ما جعل أبو عقيل على نفسه فأعينوه على مروءته. ثم بعث إليه بخمسة من الإبل وبهذه الأبيات:

أرى الجزاز يشحذ مدتيه
إذا هب ريح بني عقيل
طويل الباع أبلج جعفري
كريم الجيد كالسيف الصقيل
وفي ابن الجعبري بما نواه
على الملأ بالمال القليل

فدعا لبيد بتأله خماسية وقال: يا بنية إني تركت قول الشعر فأجيبني الأمير عني:

إذا هبت ريح بني عقيل
تداعينا لهيبها الوليد
طويل الباع أبلج عشمي^(٣)
أعان على مروءته ليذا
بأمثال الهضاب كأن رعيأ
عليها من بني حام قعود
أبا وهب جزاك الله خيراً
نحرزناها وأطعمنا الثريد
فعد إن الكريم له معاد
وظني في ابن عتبة أن يعود

فقال: لقد أحسنت والله يا بنية، لولا أنك سألت وقلت عذ. فقالت: يا أبت إن الملوك لا يتحيا منهم في المسألة. فقال: والله لأنت في هذا أشعر مني. ووفد رجل من بني ضبة على عبد الملك فأنشده:

والله ما ندري إذا ما فاتنا
طلبك إليك من الذي نطلب
ولقد ضررتنا في البلاد فلم نجد
أحدًا سواك إلى المكارم ينب
فاصبر لعادتك التي عودتنا
أو لا فأزئفنا إلى من نذهب

فأمر له بألف دينار. فعاد إليه من قابل وقال: يا أمير المؤمنين إن الروي^(٤) لينازعني، وإن الحياء يمنعي فأمر له

(١) عقالها: أي فك حبلاها.

(٢) العبا: الريح الشرقية.

(٣) عشمي: منسوب إلى عبد شمس (من قرش).

(٤) الروي: ربما القصيد.

بالحق دينار وقال: والله لو قلت حتى تنفذ بيوت الأموال لأعطيتك. وقيل: إن رجلاً عرض للمنصور فسأله حاجة فلم يقضها، فعرض له بعد ذلك، فقال له المنصور: أليس قد كلمتني مرة قبل هذه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ولكن بعض الأوقات أسعد من بعض، وبعض البقاع أعز من بعض. فقال: صدقت وقضى حاجته وأحسن إليه.

وروي أن أبا دلالة الشاعر كان واقفاً بين يدي السفاح في بعض الأيام فقال: له سلني حاجتك. فقال: كلب صيد. فقال: أعطوه إياه. فقال: ودابة أصيد عليها. فقال: أعطوه دابة. فقال: وغلاماً يقود الكلب ويصيد به. قال: أعطوه غلاماً. قال: وجارية تصلح لنا الصيد وتطعمنا منه. قال: أعطوه جارية. فقال: هؤلاء يا أمير المؤمنين عيال ولا يد لهم من دار يسكنونها، قال: أعطوه داراً تجمعهم. قال: فإن لم يكن لهم ضيعة فمن أين يعيشون. قال: قد أقطعت عشر ضياع عامرة، وعشر ضياع غامرة. فقال: ما الغامرة يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لا نبات فيها. قال: قد أقطعتك يا أمير المؤمنين مائة ضيعة غامرة من فيافي بني أسد فضحك وقال: اجعلوها كلها عامرة. فانظر إلى حذقه بالمسألة ولطفه فيها، كيف ابتدأ بكلب صيد فسهل القضية، وجعل يأتي بمسألة بعد مسألة على ترتيب وفكاهة حتى سأل ما سأل، ولو سأل ذلك بديهة لما وصل إليه.

وحكي عن المأمون أنه قال ليحيى بن أكرم يوماً: سر بنا نخرج، فسارا فينما هما في الطريق وإذا بمقصة^(١) خرج منها رجل بقصة للمأمون يتظلم له ففرت دابته فألقته على الأرض صريعاً فأمر بضرب ذلك الرجل. فقال: يا أمير المؤمنين إن المضطر يرتكب الصعب من الأمور، وهو عالم به ويتجاوز حد الأدب وهو كاره لتجاوزه، ولو أحسنت الأيام مطالبتني لأحسنت مطالبتك، ولأنت على رد ما لم تفعل أقدر مني على رد ما قد فعلت. قال: فبكى المأمون وقال: بالله أعد علي ما قلت. فأعاده فالتفت المأمون إلى يحيى بن أكرم وقال: أما تنظر إلى مخاطبة هذا الرجل بأصغرته والنبي ﷺ يقول: «المرء بأصغريه قلبه ولسانه» والله لا وقت لك إلا وأنا قائم على قدمي، فوق وأمر له بصلة جزيلة واعتذر إليه، فلما هم المأمون بالإنصراف قال الرجل: يا أمير المؤمنين بيتان قد حضراتي، ثم أشد يقول:

ما جاد بالوفير إلا وهو معتذرٌ ولا عفا قط إلا وهو مقتدرٌ
وكلما قصده زاد نائله^(٢) كالنار يؤخذ منها وهي تستعر

وقيل: إن بعض الحكماء لزم باب كسرى في حاجة دهرأ فلم يصل إليه، فكتب أربعة أسطر في ورقة ودفعها للحاجب فكان في السطر الأول: العديم لا يكون معه صبر على المطالبة. وفي السطر الثاني: الضرورة والأمل أقدماني عليك. وفي السطر الثالث: الإنصراف من غير فائدة شماتة الأعداء. وفي السطر الرابع: أما نعم، فثمرة وأما لا، فمريحة، فلما قرأها كسرى دفع له في كل سطر ألف دينار.

وحكى أن رجلاً كان جاراً لابن عبيد الله فأصاب الناس فحط^(٣) بالعراق حتى رحل أكثر الناس عنه فعزم جار ابن عبيد الله على الخروج من البلاد في طلب المعيشة، وكانت له زوجة لا تقدر على السفر، فلما رأت زوجها تهيأ للسفر

(١) بمقصة: موضع كثير القصب.

(٢) نائله: عطائه.

(٣) فحط: جفاف.

قالت له: إذا سافرت من يتفق عليك؟ قال: إن لي على ابن عبيد الله ديناراً ومعي به إشهدا عليه شرعي، فخذني الإشهدا وقدميه إليه، فإذا قرأه أنفق عليك مما عنده حتى أحضر، ثم ناولها رقعة كتب فيها هذه الآيات يقول:

قالت وقد رأت الأحمالَ محدجة^(١) واليّن قد جمع المشكّر والشاكي
مَنْ لي إذا غبتَ في ذا المحلِّ قلتُ لها الله وإبسنُ عبيد الله مولاكِ

فمضت إليه المرأة وحكت له ما قال زوجها، وأخبرته بسفره، وناولته الرقعة فقرأها وقال: صدق زوجك وما زال يتفق عليها ويواصلها بالبرّ والإحسان إلى أن قدم زوجها، فشكره على فضله وإحسانه.

وحكي أن مطيع بن إياس مدح معن بن زائدة بقصيدة حسنة ثم أنشدها بين يديه، فلما فرغ من إنشاده أراد معن أن يياسته فقال: يا مطيع، إن شئت أعطيتك، وإن شئت مدحناك كما مدحتنا. فاستحيا مطيع من اختيار الثواب، وكره اختيار المدح وهو محتاج، فلما خرج من عند معن أرسل إليه بهذين البيتين:

ثنا من أمير خيرٍ كسب لصاحبٍ نعمو وأخي ثراء
ولكن الزمانَ بَرى عظامي^(٢) وما لي كالدرهم من دواء

فلما قرأها معن ضحك وقال: ما مثل الدرهم من دواء، وأمر له بصلة جزيلة، ومال كثير. قال الشاعر:
هزرتك لا أني جعلتُك ناسياً
ولكن رأيتُ السيفَ من بعدِ سلّه
لأمري ولا أني أردتُ التفاضي
إلى الهزّ محتاجاً وإن كان ماضياً

وقال آخر:

ماذا أقولُ إذا رجعتُ وقيلَ لي ماذا لقيتَ من الجوادِ الأفضل
إن قلتُ أعطاني كذبتُ، وإن أقلَّ بخلَ الجوادِ بماله لم يجمِل^(٣)
فاختَر لنفسك ما أقولُ فإنني لا بدّ أخبرهم وإن لم أسأل

وقال آخر:

لنوائب الدنيا خباتك فاتية أعلَى الصراطِ تزيلُ لوعةَ كربتي
يا نائماً من جملةِ النّوام أم في المعادِ تجودُ بالإنعام

ومما يستحسن إلحاقه بهذا الباب ذكر شيء مما جاء في ذمّ السؤال والنهي عنه. روي عن عبد الرحمن بن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله تعالى عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: ألا تبايعون رسول الله ﷺ فبسطنا أيدينا، وكنا حديثي عهد بالمبايعه، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام يا رسول الله نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتقيموا الصلوات الخمس، وتطيعوا الله، وأسر كلمة خفية وهي ولا تسألوا الناس شيئاً، فلقد رأيت بعض أولئك الفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إياه» رواه مسلم. وقال رجل لابنه: إياك أن تريق ماء وجهك عند من لا ماء في وجهه. وكان لقمان يقول لولده: يا بني إياك والسؤال فإنه يذهب ماء

(١) محدجة: معلقة للسير.

(٢) عظامي: أنفها.

(٣) لم يجمل: لم يحسن به.

الحياء من الوجه، وأعظم من هذا استخفاف الناس بك. وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: لئن تدخل يدك في قم التين إلى المرفق خير لك من أن تبسطها إلى غني قد نشأ في الفقر. وقيل لأعرابي: ما السقم الذي لا يبرأ، أو الجرح الذي لا يندمل؟ قال: حاجة الكريم إلى اللئيم. وقال أبو محلم السعدي:

إذا ما رماك الدهرُ في الضيقِ فانتجع^(١) قديمَ الغنى في الناس إنك حامدُه
ولا تطلبنَّ الخيرَ مِنَّ أفادُه حديثاً وَمَن لا يورث المجدَ والدُه

وقال رسول الله ﷺ: «مسألة الناس من الفواحش ما أحلّ من الفواحش غيرها». وقال عليه الصلاة والسلام: «لئن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه» قال الشاعر:

ما اعتاضَ باذُلٌ وجهه بسؤالِه عوضاً ولو نالَ الغنى بسؤالِ
وإذا السؤالُ مع النوالِ وزنته رجحَ السؤالُ وخفَّ كلُّ نوالِ^(٢)

وقال أحمد الأنباري:

لَمَوْتُ الْفَتَى خَيْرٌ مِنَ النُّخْلِ لِلْغَنَى وَلَلْبُخْلِ خَيْرٌ مِنْ سَوَالِ بِخِيلِ
لَعَمْرُكَ مَا شَيْءٌ لِرُجْهِكَ قِيمَةٌ فَلَا تَلْقَ إِنْسَاناً بِوَجْهِ ذَلِيلِ

وقال سلم الخاسر:

إذا أَذَّنَ اللهُ فِي حَاجَةٍ أَنْتَاكَ النِّجَاحُ عَلَى رَسَلِهِ
فَلَا تَسْأَلِ النَّاسَ مِنْ فَضْلِهِمْ وَلَكِنْ سَأَلِ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ

ويقال: أحب الناس إلى الله من سأله، وأبغض الناس إلى الناس من احتاج إليهم وسألهم، وفي هذا المعنى قيل:

لَا تَسْأَلَنَّ بَنِيَّ أَدَمَ حَاجَةً وَسَلِ الَّذِي أَبَوَاهُ لَا تَحْجُبُ^(٣)
الله يغضبُ إن تَرَكْتِ سَوَالَهُ وَبَنِيَّ أَدَمَ حِينَ يُسَالُ يَغْضَبُ

وقال محمود الوراق:

شَادَ الْمُلُوكُ قُصُورَهُمْ وَتَحَفَّنُوا مِنْ كُلِّ طَالِبِ حَاجَةٍ أَوْ رَاغِبِ
فَارْعَبْ إِلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ وَلَا تُكُنْ يَا ذَا الْفِرَاعَةِ^(٤) طَالِباً مِنْ طَالِبِ

وقال ابن دقيق العيد:

وَقَائِلَةٌ مَاتَ الْكَرَامُ فَمَنْ لَنَا إِذَا عَضْنَا الدَّهْرُ الشَّدِيدُ بِنَابِهِ
فَقُلْتُ لَهَا مَنْ كَانَ غَايَةُ قَصْدِهِ سَوْلاً لِمَخْلُوقٍ فَلَيْسَ بِنَابِهِ

(١) انتجع: اقصد.

(٢) نوال: عطاء.

(٣) تحجب: ليس بها من يمنع.

(٤) الفراعة: أي الذي يضرع إلى مولاه ويدعوه.

إذا ماتَ من يُرجى فمقصودنا الذي
وقال بعض أهل الفضل:

ترجيئة باقٍ فلوندي بإيه

لجأتُ لله لبّاني وأغناني
فلو بذلتُ إلى مولاي والاني^(١)

لما افتقرتُ لصحبي ما وجدتهمو
واهأ على بذلٍ وجهي للورى سفهاً

وسأل رجل رجلاً حاجة فلم يقضها فقال: سألت فلاناً حاجة أقل من قيمته فردني رداً أقيح من خلقتة. وسأل عروة مصعباً حاجة فلم يقضها فقال: علم الله تعالى أن لكل قوم شيئاً يفزعون إليه، وأنا أفزع^(٢) منك. ويقال لا شيء أوجع للاختيار من الوقوف بباب الأشرار. وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

سوى مَنْ غدا والبخل ملء إهابه^(٣)
قطعتُ رجائي منهم بذبابه
ولا ذا يراني قاعداً عند بابيه
وليس الغني إلا عن الشيء لا به
ولجّ عتواً^(٤) في قبيح اكتسابه
سُئلي له ما لم يكن في حبابه
يرى النجم تهباً تحت ظل ركايبه
أنأختُ صروف الحادثات بابيه
ولا حناتٍ تلقي في كتابه
وصبّ عليه الله سوط عذابه

بلوثُ بني الدنيا فلم أرَ فيهم
فجردتُ من غمد القناعة صارماً
فلا ذا يراني واقفاً في طريقه
غني بلا مالٍ عن الناس كلهم
إذا ظالمٌ يستحسن الظلم مذمماً
فكنه إلى صرّف الليالي فإنها
فكم قد رأينا ظالماً متمرّداً
فمما قليل وهو في غفلاته
فأصبح لا مال ولا جاء يرتجى
وجوزي بالأمر الذي كان فاعلاً

وقال آخر:

فيحولُ عنك كما الزمان يحولُ
ما صانَ عرضك لا يقال قليلُ
وأخو الحوائج وجهه مملولُ
ومنى علقته به فأنتَ ثقیلُ

لا تسألنّ إلى صديقٍ حاجةً
واستعنّ بالشيء القليل فأنه
من عفتُ خفتُ على الصديق لقاءه
وأخوك مَنْ وفرت ما في كفه

وقال آخر:

قد يهزُّ السؤال غير جوادٍ
لم تُلَقَّ فيه ذلة التردادٍ

ليس جوداً أعطيتَه بسؤالٍ
إنما الجوادُ ما أتاك ابتداءً

وقال آخر:

- (١) والاني: نصره.
- (٢) أفزع: أخاف.
- (٣) إهابه: أي قد صار البخل من أصل خلقتة.
- (٤) العتو: التكبر.

وقال آخر:

لا تحسبن الموت موتَ البلا إنما الموتُ سؤالُ الرجالِ
كلاهما موتٌ ولكنَّ ذا أخفُّ من ذاك لذلِّ السؤالِ

وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه:

فَنَعْتُ بِالْقَوْتِ مِنْ زَمَانِي وَصُنْتُ نَفْسِي عَنِ الْهَوَانِ^(١)
خَوْفًا مِنَ النَّاسِ أَنْ يَقُولُوا فَكُلَّ فِتْلَانٍ عَلَى فِلَانٍ
مَنْ كُنْتُ عَنْ مَالٍ غَنِيًّا قَلَا أَبَانِي إِذَا جُفَانِي
وَمَنْ رَأَى بَعِيْنِي قَمِيًّا رَأَيْتُهُ بِبَانِي رَأَيْتِي
وَمَنْ رَأَى بَعِيْنِي تَمًّا^(٢) رَأَيْتُهُ كَامِلَ الْمَعَانِي

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الهوان: اللذل.

(٢) بعين تم: عين كاملة.

الباب الرابع والخمسون: في ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَيَّيْتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾^(١) فسرّها بعضهم بالهدية. وقال ﷺ: «تهادوا تحابوا فإنها تجلب المحبة وتذهب الشحنة» وقال ﷺ: «الهدية مشتركة» وقال ﷺ: «من سألكم بالله فأعطوه، ومن استعاذكم فأعينوه، ومن أهدى إليكم كريماً فأقبلوه» وكان ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ما هو خير منها. وفي الأثر: الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر. ومن الأمثال: إذا قدمت من سفر فأهد لأهلك ولو حجراً. وقال الفضل بن سهل: ما استرضي الغضبان، ولا استعطف السلطان، ولا سلبت السخائم^(٢)، ولا دفعت المغارم، ولا استميل المحبوب، ولا توقى المحذور بمثل الهدية. وأتى فتح الموصلي بهدية وهي خمسون ديناراً فقال: حدّثنا عطاء عن النبي ﷺ أنه قال: «من آتاه الله رزقاً من غير مسألة ورده فكانما رده على الله تعالى». وأهدى رسول الله ﷺ هدية إلى عمر فردّها فقال: يا عمر لم رددت هديتي؟ فقال عمر رضي الله تعالى عنه: إني سمعتك تقول: خيركم من لم يقبل شيئاً من الناس. فقال: يا عمر إنما كان ذلك ما كان عن ظهر مسألة، فأما إذا أتاك من غير مسألة، فإنما هو رزق ساقه الله إليك. وقالت أم حكيم الخزاعية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تهادوا فإنه يضاعف الحب، ويذهب بغوائل»^(٣) الصدر» ويقال في نشر المهادة طي المعادة.

ذكر أنواع الهدايا للخلفاء وغيرهم ممن قصرت به قدرته فأهدى السير وكتب معه مكتابة يعتلز بها

أهدى إلى سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام ثمانية أشياء متباينة في يوم واحد: فيلة من ملك الهند، وجارية من ملك الترك، وفرس من ملك العرب، وجوهرة من ملك الصين، وإستبرق من ملك الروم، ودرّة من ملك البحر، وجراة من ملك النمل، وذرّة من ملك البعوض، فتأمل ذلك وقال: سبحان القادر على جمع الأضداد. وأهدى ملك الروم إلى المأمون هدية، فقال: أهدوا له ما يكون ضعفها مائة مرة، ليعلم عز الإسلام، ونعمة الله تعالى علينا، ففعلوا ذلك، فلما عزموا على حملها. قال: ما أعز الأشياء عندهم؟ قالوا: المسك والسمور، قال: وكم في الهدية من ذلك؟ قالوا: مائتا رطل مسكاً، ومائتا فروة سمور. وأهدت قطر الندى إلى المعتضد بالله في يوم نيروز في سنة اثنتين وثمانين ومائتين هدية، كان فيها عشرون صينية ذهب، في عشرة منها مشام عنبر وزنها أربعة وثمانون رطلاً، وعشرون صينية فضة، في عشرة منها مشام صندل، زنتها نيف وثلاثون رطلاً، وخمس خلع وشي قيمتها خمسة آلاف دينار، وعملت شمامات ليوم النيروز بلغت النفقة عليها ثلاثة عشر ألف دينار.

وأهدى يعقوب بن الليث الصفار إلى المعتمد على الله هدية في بعض السنين من جملة عشر بازات، منها باز أبلق لم ير مثله، ومائة مهر، وعشرون صندوقاً على عشر بغال فيها طرقت الصين وغرائبه، ومسجد فضة بدرابزين

(١) سورة: النساء، الآية: ٨٦.

(٢) السخائم: الأحقاد.

(٣) غوائل الصدر: أحقاد.

يصلّي فيه خمسة عشر إنساناً، ومائة رطل من مسك، ومائة رطل عود هندي، وأربعة آلاف ألف درهم.

وأهدت ثريا بنت الأوباري ملكة افرنجة وما والاها إلى المكتفي بالله من سنة ثلاث وسبعين ومائتين خمسين سيفاً، وخمسين رمحاً، وعشرين ثوباً منسوجاً بالذهب، وعشرين خادماً صقلياً، وعشرين جارية صقلية. وعشرة كلاب كبار لا تليقها السباع، وستة بازات، وسبعة صقور، ومضرب حرير متلون بجميع الألوان كلون قوس قزح، يتلون في كل ساعة من ساعات النهار، وثلاثة أطيار من الأطيار الإفريقية، إذا نظرت إلى الطعام أو الشراب المسموم صاحت صياحاً منكراً، وصفقت بأجنحتها حتى يعلم بذلك، وخرزاً يجذب النصول بعد نبات اللحم عليها بغير وجع، وحمارة وحشية عظيمة الخلقة في قدر البغل وأذناها شبه آذان البغل وهي مخططة تخطيطاً عاماً لجميع خلقتها.

وأهدى قسطنطين ملك الروم إلى المستنصر بالله في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة هدية عظيمة اشتملت قيمتها على ثلاثين قطاراً من الذهب الأحمر، كل قطار منه عشرة آلاف دينار عربية. قيمة ذلك ثلاثمائة ألف دينار عربية.

وحكي أن الخيزران جارية المهدي كانت أدبية شاعرة فعزم المهدي على شراء دواء، فأنفذت إليه جام بلور في شراب اختارته له مع وصيفة بكر بارعة الجمال وكتب إليه تقول:

إذا خرج الإمام من الدواء	وأعقب بالسلامة والشفاء
وأصلح حاله من بعد شرب	بهذا الجام من هذا الطلاء
فينعم للتي قد أنفذته	إليه بضرورة بعد العشاء

فسر بذلك ووقعت الجارية منه أعظم موقع، وزار الخيزران وأقام عندها يومين.

وأهدى الصابئي إلى عضد الدولة إسطرلاباً في يوم المهرجان وكتب إليه يقول:

أهدى إليك بنو الأملاك واحتفلوا	في مهرجان جديد أنت تبليه
لكن عبدك إبراهيم حين رأى	سموّ قدرك عن شيء يدايه
لم يرض بالأرض يهديها إليك وقد	أهدى لك الفلك الأعلى بما فيه

وأهدى رجل إلى المتوكل قارورة ذهب وكتب معها: إن الهدية إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت ودقت كانت أبهى وأحسن، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلّت كانت أوقع وأنفع. وأهدى مرة أبو الهذيل إلى موسى بن عمران دجاجة ووصفها له بصفات جليلة، ثم لم يزل يذكرها، وكلما ذكر شيء بجمال، أو سمن قال هو أحسن، أو أسمن من الدجاجة التي أهديتها إليكم، وإن ذكر حادث قال ذلك، قبل أن أهدي لكم الدجاجة بشهر، وما كان بين ذلك وبين إهداء الدجاجة إلا أيام قلائل فصارت مثلاً لمن يستعظم الهدية ويذكرها. قال الشاعر:

وإن امرؤ أهدى إليّ صنعةً ودكّرنيها مرةً للثيم

وقال سفيان الثوري: إذا أردت أن تتزوج فأهد للأم. وكان سفيان يروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: من أهديت إليه هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها، فأهدى إليه صديق له ثياباً من ثياب مصر وعنده قوم فذكروا الخير فقال إنما ذلك فيما يؤكل ويشرب، أما في ثياب مصر فلا. وكتب الحمدوني إلى جارية اسمها برهان وقد حج مواليتها فقال:

حجوا مواليك يا برهان واعتمروا وقد أتتك الهدايا من مواليك
فاطرفني بما قد أطرفوك به ولا تكن طرفتي غير المساويك
ولست أقبل إلا ما جلوت به ثنيك وما رددت في فيك

وكتب بعضهم إلى صديقه وقد أهدى إليه هدية بسيرة يقول:

تفضل بالقبول عليّ إنسي بعثتُ بما يقل العبدُ عندك

وأهدى بعضهم إلى صديقه هدية في يوم نيروز وكتب إليه يقول: هذا يوم جرت فيه العادة بالطاف العيد للسادة، وقلد الأمير يجلّ عما تحيط به المقدره، وفي سودده ما يوجب التفضل ببسط المعنرة، وقد وجهت ما حضر علماً بأنه لا يستكثر ما جلّ ولا يستقل لمبده ما قل، فإن رأى أن يتطول بقبول القليل كتطول بهاداء الجزيل فعل، وجعل يقول:

رأيتُ كثيرَ ما يهدى إليكم قليلاً فاقصرتُ على الدعاء

ويلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش يقع فيه ويقول: ظالم ولي المظالم فأهدى إليه هدية فمدحه الأعمش بعد ذلك وقال: الحمد لله الذي ولي علينا من يعرف حقوقنا. فقيل له: كنت تلمه ثم الآن تمدحه. فقال: حدثني خيثة عن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: «فجلبت القلوب على حب من أحسن إليها ويغض من أساء إليها» وقال عبد الملك بن مروان: ثلاثة أشياء تدل على عقول أربابها: الكتاب يدل على عقل كاتبه، والرسول يدل على عقل مرسله، والهدية تدل على عقل مهديها. والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الخامس والخمسون: في العمل والكسب والصناعات والحرف وما أشبه ذلك

أما العمل فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل العمل أدومه وإن قلّ» وقال عليّ بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: قليل مُدَامٌ عليه خير من كثير مملول. وفي التوراة: حَرَكْ يَدَكَ فَيُفْتَحْ لَكَ بَابُ الرِّزْقِ. وكان إبراهيم بن أدهم يقي ويرعى ويعمل بالكراء ويحفظ البساتين والمزارع ويحصد بالنهار ويصلي بالليل. وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ما ينفي عني حجة العلم؟ قال: «العمل». وعنه ﷺ أنه قال: «الكيس»^(١) من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني». وقال الأوزاعي: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعطاهم الجدل ومنعهم العمل، وأنشد يقول:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأعمال نفسه فاجعل

وقال بعض الحكماء: لا شيء أحسن من عقل زانه حلم، ومن عمل زانه علم، ومن حلم زانه صدق. ودخل بعض الخواص على إبراهيم بن صالح وهو أمير فلسطين فقال له: عِظْني، فقال له الولي: بلغني رحمك الله أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى، فانظر ماذا تعرض على رسول الله ﷺ من عملك، فبكى إبراهيم حتى سالت دموعه وقيل: من جدّ وجد، وأنشدوا في المعنى:

إنني رأيتُ وفي الأيام تجربةً للصبر عاقبةً محمودةً الأثر
وقل من جدّ في أمرٍ يحاوله واستصحب الصبرَ إلا فاز بالظفر

وتقول العرب: فلان وثاب على الفرص. وقال بعضهم:

وإنني إذا باشرتُ امرأً أريدُ تدانَتْ أقاصيه^(٢) وهانَ أشدُّه

وعن أنس رضي الله تعالى عنه: يتبع الميت ثلاث، يرجع اثنان ويبقى واحد، يتبعه: أهله، وماله، وعمله، فيرجع أهله وماله ولا يرجع عمله. وقال بعضهم: العمل سعي الأركان إلى الله والنية سعي القلوب إلى الله، والقلب ملك، والأركان جنود، ولا يحارب الملك إلا بالجنود، ولا الجنود إلا بالملك. وقيل: الدنيا كلها ظلمات إلا موضع العلم، والعلم كله هباء إلا موضع العمل، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص، وهذا هو العمل.

وأما الكسب: فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾^(٣) أي دروع من الحديد، وذلك أن

(١) الكيس من دان: اللبق ذو الكياسة.

(٢) أقاصيه: تقاربَ أباعده.

(٣) سورة: الأنبياء، الآية: ٨٠.

داود عليه الصلاة والسلام كان يدور في الصحاري فإذا رأى مَنْ لا يعرفه تحدّث معه في أمر داود، فإذا سمعه عابه بشيء يصلحه من نفسه. فسمع يوماً مَنْ يقول: إني لا أجد في داود عيباً إلا أنه يأكل من غير كسبه، فعند ذلك صلى داود عليه الصلاة والسلام في محرابه وتضرّع بين يدي الله تعالى، وسأله أن يعلمه ما يستعين به على قوته، فعلمه الله تعالى صنعة الحديد وجعله في يده كالشمع، فاحترقها واستعان بها على أمره وصار يحكم منها الدروع. وقال رسول الله ﷺ: «جعل رزقي تحت رمحي» فكانت حرفته الجهاد. وقال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد المحترف»^(١) قال ﷺ: «إن الله تعالى يفيض العبد الصحيح الفارغ». وقال عليه الصلاة والسلام «مَنْ اكسب قُوته ولم يسأل الناس لم يعذبه الله تعالى يوم القيامة، ولو تعلمون ما أعلم من المسألة لما سأل رجل شيئاً وهو يجد قوت يومه، وليس عند الله أحب من عبد يأكل من كسب يده، إن الله تعالى يفيض كل فارغ من أعمال الدنيا والآخرة». وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ «مَنْ بات في طلب الحلال أصبح مغفوراً له». وعن الحسن رحمه الله: كسب الدرهم الحلال أشد من لقاء الزحف. وقيل لمحمد بن مهران: إن ههنا أقواماً يقولون نجلس في بيوتنا وتأتينا أرزاقنا، فقال: هؤلاء قوم حمقى، إن كان لهم مثل يقين إبراهيم خليل الرحمن فليفعلوا. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول: اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وقال أيضاً: إني لأرى الرجل فيعجبني، فأول الله حرفة؟ فإن قالوا لا سقط من عيني. واشترى سليمان وسقاً من طعام وهو ستون صاعاً، فقيل له في ذلك، فقال: إن النفس إذا أحرزت رزقها اطمأنت. قال بعضهم في السعي:

خاطرُ بنفسِكَ كي تصيبَ غنيمةً إنَّ الجلوسَ معَ العيالِ قبيحٌ

وقيل: إنَّ أوَّلَ مَنْ صَنَعَ لسانَ الميزان عبد الله بن عامر، وكان الناس إنما يزنون بالشاهيني^(٢). وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله سقر لنا، فقال: «إن الله الخالق القابض المسعر الرازق، وإني لأرجو أن ألقى الله تعالى وليس أحد يطلبني بمظلمة ظلمته بها في أهل ولا مال».

وأما ما جاء في المعجز والثاني: فقد روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال: مَنْ أطاع التواني ضيع الحقوق، ومن عجز طلب ما فات مما لا يمكن استدراكه، وترك ما أمكن مما تحمد عواقبه. قال الشاعر:

على المرء أن يسعى ويذلَّ جهدهُ ويقفسي إلهُ الخلقِ ما كان قابضاً
ومثله قوله:

على المرء أن يسعى لما فيه نفعهُ وليس عليه أن يساعدهُ الدهر

وقيل: احذر مجالسة العاجز، فإنه مَنْ سكن إلى عاجز أعداه من عجزه وأمدّه من جزعه، وعوده قلة الصبر، ونساء ما في العواقب، وليس للمعجز ضد إلا الحزم، وقال بعض العلماء: من الخذلان مسامرة الأمانى، ومن التوفيق بغض التواني^(٣). وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «باكروا في طلب الرزق والحوائج فإن الغدو^(٤) بركة ونجاح».

(١) العبد المحترف: ذو الحرفة.

(٢) الشاهيني: قصة توضع المواد في طرفيها بعد ربطها بخيط في المنتصف تحمل منه.

(٣) التواني: الكلل.

(٤) الغدو: التكبر.

وقال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس فإنه لا سبيل إلى السلامة من السنة الناس. وقال علي رضي الله تعالى عنه: التواني مفتاح البؤس، وبالعجز والكسل تولدت الفاقة ونتجت الهلكة، ومن لم يطلب لم يجد وأفضى إلى الفساد. وقال حكيم: من دلائل العجز كثرة الإحالة على المقادير. وقال بعض الحكماء: الحركة بركة، والتواني هلكة، والكسل شؤم، وقلب طائف خير من أسد رابض، ومن لم يحترف لم يختلف. وقيل: من العجز والتواني تنتج الفاقة. قال هلال بن العلاء الرقاء هذين البيتين من جملة أبيات:

كأنَّ التواني أنكَحَ العَجْزَ بَشَّةً وساقَ إليها حَبْنِ زَوْجَها مَهْرا
فِرَاشاً وَطَيْئاً ثُمَّ قالَ لَها اتَكِي فإِنكما لا بَدْءَ أن تَلدا الفُقرا

وقال آخر:

تَوَكَّلْ على الرَّحْمَنِ في الأَمْرِ كُلِّهِ ولا تَرغِبْ في العَجْزِ يوماً عن الطَلَبِ
أَلَمْ تَرَ أن الله قالَ لَمَريمَ وهزَي إليك الجذعَ يساقطِ الرَطَبِ
فلو شاءَ أن تجيَه من غيرِ هَزْءٍ جَتَّهْ ولكن كُلْ رزقاً له سَبَبِ

وسأل معاوية رضي الله تعالى عنه سعيد بن العاص عن المروءة، فقال: العفة والحرفة. وكان أيوب السخيتاني يقول: يا فتيان احترفوا فإني لا آمن عليكم أن تحتاجوا إلى القوم، يعني الأمراء. وقال رجل للحسن: إني أنشر مصحفني فأقرؤه بالنهار كله. فقال: اقرأه بالغداة والعشي ويكون يومك في صنعتك وما لا بد منه. ومزَّ رحمه الله تعالى يلكافي فقال: يا هذا اعمل وكلَّ فإن الله يحب مَنْ يعمل ويأكل، ولا يحب من يأكل ولا يعمل، وقال أبو تمام:

اعاذِلْني ما أحسنَ اللَّيْلِ مَرَكِباً وأحسنُ منه في المَلَمَّاتِ راجِبَةً
ذَرِينِي^(١) وأهوالَ الزَّمانِ أَقاسِها فأهوالُ العُظمى تليها رِغائِبَةً
أرى عاجزاً يدعي جليداً لقسوةِ ولو كَلَّفَ التَّصَوُّى لَكُلَّتْ مضارِبُهُ
وعقاً يسمي عاجزاً بعفافيهِ ولولا التَّقَى ما أعجزَتْهُ مَذاهِبُهُ
وليس بعجزِ المرءِ أخطأهُ الفِئسَى ولا باحتيالٍ أدركَ المالَ كاسِبُهُ

وقال آخر:

فلا تَرُكُنْ إلى كَلِّ وعَجْزٍ يُحِيلُ على المَقاديرِ والقضاءِ

وقال أعرابي: العاجز هو الشاب القليل الحيلة الملازم للأمانى المستحيلة، ويقال: فلان يخدعه الشيطان عن الحزم فيمثل له التواني في صورة التوكل ويريه الهوينا باحاله على القدر. وقال لقمان لابنه: يا بني إياك والكسل والضجر فإنك إذا كسلت لم تؤدَّ حقاً، وإذا ضجرت لم تصبر على حق. قال أبو العتاهية:

إذا وَضَعَ الراعي على الأرض صدرَهُ فحقُّ على المعزى بأنَّ تَبَدُّداً^(٢)

فالتواني هو الكسل، وتضييع الحزم، وعدم القيام على مصالح النفس، وترك التسبب والاحتراف والإحالة على

(١) ذريني: دعيني.

(٢) تبداً: تفرق.

المقادير، وهذا من أقيح الأفعال. وأما الثاني فإنه خلاف التواني وهو الرفق ورفض العجلة والنظر في العواقب، وقد قيل: من نظر في عواقب الأمور سلم من آفات الدهور. ومما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾^(١) وقال رسول الله ﷺ: «من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من الدنيا والآخرة». وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة رضي الله عنها: «عليك بالرفق فإن الرفق لا يخالط شيئاً إلا زانَهُ ولا يفارق شيئاً إلا شانهُ». وفي التوراة: الرفق رأس الحكمة. وقالوا: القعل أصله الثبت وثمرته السلامة. ووجد على سيف مكتوباً. الثاني فيما لا يخاف فيه الفوت أفضل من العجلة في إدراك الأمل. وقال بعض الحكماء: إذا شككت فاجزم، وإذا استوضحت فاعزم. وقالوا يد الرفق تجني ثمرة السلامة، ويد العجلة تغرس شجرة الندامة. وأنشدوا في ذلك:

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقالوا: الثاني حصن السلامة، والعجلة مفتاح الندامة. وقالوا: إذا لم يدرك الظفر بالرفق والثاني فبماذا يدرك؟ وقال المهلب: أناة في عواقبها درك خير من عجلة في عواقبها قوت. وقالوا: من تأتى نال ما تمنى، والرفق مفتاح النجاح. وقال بعض الحكماء: إياك والعجلة فإنها تكنى أم الندامة لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويجب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكر، ويحمد قبل أن يجرب، ولن تصحب هذه الصفة أحداً إلا صحب الندامة وجانب السلامة.

وأما الصناعات والحرف وما يتعلق بها: فقد روي عن سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عمل الأبرار من الرجال الخياطة، وعمل الأبرار من النساء الغزل». وكان ﷺ يخط ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويغلف ناضحه^(٢)، وقال سعيد بن المسيب: كان لقمان الحكيم خياطاً، وقيل: كان إدريس عليه السلام خياطاً، ووقف علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على خياط فقال له: يا خياط تكلتك الثواكل صلب الخيط، ودق الدروز، وقارب الغروز؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله الخياط الخائن وعليه قميص ورداء مما خاط وخان فيه». واحذر السقطات فإن صاحب الثوب أحق بها، ولا تتخذ بها الأيادي وتطلب المكافأة. وقال فيلسوف: إن من القبيح أن يتولى امتحان الصانع من ليس بصانع. وفي الحديث: «أكذب أمتي الصواغون والصابغون». وكذب الدلال مثل. وقالوا: لكل أحد رأس مال، ورأس مال الدلال الكذب. وقال عبد الرحمن بن شبل: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التجار هم الفجار»، قيل: أليس الله تعالى قد أحل البيع؟ قال: نعم، ولكن يحدثون فيكذبون، ويحلفون فيحشون. وقال الفضيل: بخس الموازين سواد في الوجه يوم القيامة، وإنما أهلك القرون الأولى لأنهم أكلوا الربا، وعطلوا الحدود، ونقصوا الكيل والميزان. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعْكَ الْأَرْدَلُونَ﴾^(٣) قيل: هم الحاكة والأساكفة وقيل: إن حاكماً سأل إبراهيم الحربي ما تقول فيمن صلى العيد ولم يشتر نافعاً ما الذي يجب عليه؟ فتبسم إبراهيم ثم قال: يتصدق بدرهمين، فلما مضى قال: ما علينا أن نفرح المساكين من مال هذا الأحمق. وقيل لرجل: هل فيكم حائك؟ قال: لا، قيل: فمن ينسج لكم ثيابكم؟ قال: كل منا ينسج لنفسه في بيته، وكان أردشير بن بابك لا يرتضي لمنامته ذا صناعة رديئة، كحائك وحجام، ولو كان يعلم الغيب مثلاً. وقال كعب: لا تستشيروا

(١) سورة: طه، الآية: ١١٤.

(٢) ناضحه: بعيره.

(٣) سورة: الشعراء، الآية: ١١١.

الحكمة فإن الله تعالى سلب عقولهم، ونزع البركة من كسبهم، لأن مريم عليها السلام مرت بجماعة من الحياكين
سألهم عن الطريق فدلّوها على غير الطريق، فقالت: نزع الله البركة من كسبكم. قال أبو العتاهية:

ألا إنما التقوى هي العزُّ والكرمُ وجُبُّك للدنيا هو الذلُّ والسقمُ
وليس على عبدٍ تقىً نقيصةً إذا صحَّحَ التقوى وإن حاك أو حَجَمَ

وهذا ما أردنا سياقه في هذا الباب، والله الموفق للصواب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم.

الباب السادس والخمسون: في شكوى الزمان وانقلابه بأهله والصبر على المكاره والتسلي عن نوائب الدهر وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول: في شكوى الزمان وانقلابه بأهله

روي عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه قال: «ما من يوم ولا ليلة ولا شهر ولا سنة إلا والذي قبله خير منه» سمعت ذلك من نبيكم ﷺ. وكان معاوية رضي الله تعالى عنه يقول: معروف زماننا منكرو، زمان قد مضى، ومنكره معروف، زمان لم يأت. وكانت ناقة رسول الله ﷺ العضباء لا تسبق، فجاء أعرابي فسبقها فشق ذلك على الصحابة رضي الله تعالى عنهم. فقال ﷺ: «إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من هذه الدنيا إلا وضعه».

وحكي عن شيخ من همدان قال: بعثني أهلي في الجاهلية إلى ذي الكلاع الحميري بهدايا، فمكثت شهراً لا أصل إليه، ثم بعد ذلك أشرف اشرافة من كوة له، فخرّ له من حول القصر ساجداً، ثم رأيته بعد ذلك وقد هاجر إلى حمص، واشترى بلدهم لهماً وسطه خلف دابته، وهو القاتل هذه الآيات:

أفب للذنيا إذا كائن كذا	أنا منها في بلاء وأذى
إن صفاً عيش امرئ في ضيغها	جرّعت مميأ كاس الرذى
ولقد كنت إذا ما قيل من	أنعم العالم عيشاً قيل ذا

وقال يونس بن ميرة: لا يأتي علينا زمان إلا بكينا منه، ولا يتولى عنا زمان إلا بكينا عليه، ومن ذلك قوله:
رُبَّ يومٍ بكيتُ منه فلما صرتُ في غيره بكيتُ عليه
ومثله:

وما مرَّ يومٌ ارتجى فيه راحة	فأخبره إلا بكيتُ على أسي
------------------------------	--------------------------

ومن كلام ابن الأعرابي:

عن الأيام عدّ فعدّ قليل	ترى الأيام في صور الليالي
-------------------------	---------------------------

وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما قال الناس لشيء طويلاً إلا وقد خبا له الدهر يوم سوء. قال الشاعر:
فما الناس بالناس الذين عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت أعهد

ودخل داود عليه الصلاة والسلام غاراً فوجد فيه رجلاً ميتاً وعند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا فلان بن فلان الملك

عشت ألف عام، وبنيت ألف مدينة، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش، ثم صار أمري إلى أن بعثت زنبيلاً من الدراهم في رغيغ، فلم يوجد، ثم بعثت زنبيلاً من الجواهر فلم يوجد، فدقت الجواهر واستفيتها فمئت مكاني فمعت أصبح وله رغيغ، وهو يحسب أن على وجه الأرض أغنى منه أماته الله كإماتي. وذكر أن عبد الرحمن بن زياد لما ولي خراسان حاز من الأموال ما قدر لنفسه أنه إن عاش مائة سنة ينفق في كل يوم ألف درهم على نفسه فإنه يكفيه، فرؤي بعد مدة وقد احتاج إلى أن باع حلية مصحفه وأنفقها. وقال هيثم بن خالد الطويل: دخلت على صالح مولى متارة في يوم شاتٍ وهو جالس في قبة مغطاة بالسمر^(١)، وجميع فروشها سمور، وبين يديه كانون فضة ييخر فيه بالعود، ثم رأيته بعد ذلك في رأس الجسر وهو يسأل الناس. ولما قتل عامر بن إسماعيل مروان بن محمد ونزل في داره وقعد على فرشه، دخلت عليه عبدة بنت مروان فقالت: يا عمر إن دهرأ أنزل مروان عن فرشه وأقعدك عليه لقد أبلغ في عظتك. وقال مالك بن دينار مرت بقصر تضرب فيه الجوازي بالدفوف ويقلن:

ألا يا داراً لا يدخلك حزنٌ ولا يغدُرُ بصاحبك الزمانُ
فَنفَمَ الدارُ تأوي كلَّ ضيفٍ إذا ما ضاق بالضيف المكانُ

ثم مررت عليه بعد حين وهو خراب وبه عجوز فأسألته عما كنت رأيت وسمعت فقالت: يا عبد الله إن الله يغير ولا يتغير، والموت غالب كل مخلوق، وقد والله دخل بها الحزن وذهب بأهلها الزمان. وقال أبو العتاهية:

لئن كنت في الدنيا بصيراً فلئنما بلاغك^(٢) منها مثل زاد المسافرِ
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فائده منها فليس بضائرِ

وقال عبد الملك بن عمير رأيت رأس الحسن رضي الله تعالى عنه بين يدي ابن زياد في قصر الكوفة، ثم رأيت رأس ابن زياد بين يدي المختار، ثم رأيت رأس المختار بين يدي مصعب، ثم رأيت رأس مصعب بين يدي عبد الملك. قال سفیان: فقلت له: كم كان بين أول الرؤوس وآخرها قال اثنا عشرة سنة. وقال الشاعر:

إنَّ للسَّهرِ صرعةً فأخذَرنَها لا تبيِّنُ قد أمنت الشُّرورا
قد يبيتُ الفتى معافى فيردى ولقد كان آمناً مسرورا

وكان محمد بن عبد الله بن طاهر في قصره على الدجلة ينظر فإذا هو بحشيش في وسط الماء وفي وسطه قصبه على رأسها رقعة فدعا بها فإذا فيها مكتوب شعراً وهو للشافعي رضي الله تعالى عنه:

تاء الأعيرجُ واستعلسى به البطرُ قُلْ له خيرٌ ما استعملتُ الحذرُ
أحسنت ظنك بالأيام إذا حُنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدرُ
وسالمتك الليالي فأعترزت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدرُ

وقال: فما انتفع بنفسه مدة. وأعجب ما وجد في السير خبر القاهر أحد الخلفاء، وقلعه من الملك وخروجه إلى الجامع في بطانة جبة بغير ظهارة ومدَّ يده يسأل الناس بعد أن كان ملكه لأقطار الأرض، فبارك الله يعز من يشاء ويذل من يشاء. وقيل: كان لمحمد المهلب قبل اتصاله بالسلطان حال ضعيف، فبينما هو في بعض أسفاره مع رفيق له من

(١) السمر: جلود حيوان غالية الثمن غزيرة الفراء.

(٢) بلاغك: ما تحصل عليه.

أصحاب الحرث والمحراث إلا أنه من أهل الأدب إذ أنشده يقول:

ألا موتٌ يباع فأشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه
ألا رَجَمَ المهيمَنُ نفسَ حرٍّ تصدَّقَ بالوفاةِ على أخيه

قال: فرثا له رفيقه وأحضر له بدرهم ما سد به رمقه، وحفظ الأبيات وتفرقا، ثم ترقى المهلي إلى الوزارة وأخى^(١) الدهر على ذلك الرجل الذي كان رفيقه فتوصل إلى إيصال رقعة إليه مكتوب فيها:

ألا قُلْ للوزيرِ قَدْتُه نفسي مقالاً مُذكراً ما قد نسيه
أتذكرُ إذا تقولُ لفضنك عيشي^(٢) ألا مَوْتُ يباع فأشتريه

فلما قرأها تذكر، فأمر بسمائة درهم ووقع تحت رقعة: «مَثَلُ الذين يَتَقَوْنَ أموالهم في سبيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ في كُلِّ سَبْلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ»^(٣) ثم قلبه عملاً يرتزق منه. ودخل مسلمة بن زيد بن وهب على عبد الملك بن مروان فقال: أي الزمان أدرته أفضل وأي الملوك أكمل؟ فقال: أما الملوك فلم أر إلا حامداً وذاماً، وأما الزمان فيرفع أقواماً ويضع آخرين وكلهم يذكر أنه يلي جديدهم، ويفرق عديدهم، ويهرم صغيرهم، ويهلك كبيرهم. وقال حبيب بن أوس:

لم أبكِ من زمني لم أرضَ خلَّتْه إلا بكيت عليه حين ينصرِمُ
وقال آخر:

يا معرضاً عني بوجهٍ مدبرٍ ووجهٌ دنياهُ عليهِ مقبلٌ
هل بعدَ حالِكِ هذِهِ مِنْ حالٍ أو غايَةٍ إلا انحطاطُ المنزلِ
وقال عبد الله بن عروة بن الزبير:

ذهبَ الذين إذا رأوني مقبلاً بشوا إلي ورحبوا بالمقبلِ
ويقيتُ في خلفٍ كأنَّ حديثهم ولغُ الكلابِ^(٤) تهاشَّتْ في المنزلِ

وقال آخر في معناه:

يا منزلاً عبثَ الزمانُ بأهله فأبادهم بفرقٍ لا يجمعُ
أين الذين عهدتُهم بك مرةً كأنَّ الزمانَ بهم يضمرُّ وينزعُ
إيام لا يفتنى لذكرك مريعُ إلا وفيه للمكارمِ مرتعُ^(٥)
ذهبَ الذين يعاشُ في أكتافهم^(٦) وبقيَ الذين حياتهم لا تنزعُ

(١) أخى: أساء.

(٢) ضنك عيش: ضيق حال.

(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٦١.

(٤) ولغ الكلاب: شرب بطرف لسانه.

(٥) مرتع: ملعب.

(٦) في أكتافهم: في رعايتهم.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي:

وإني رأيت الدهر منذ صبيته
إذا سرّني في أول الأمر لم أزل
محاسنه مقبرونه ومعاينه
على حذر من أن تدم عواقبه

وقال بعضهم:

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم
وبيت في خلف يزين بعضه
والمنكرون لكل أمر منكبر
بعضاً ليدفع مغرور عن معور
حلف الزمان لبأتين بمثلهم
حشّث يمينك يا زمان فكفر

وكان يقال: إذا أدير الأمر أتى الشر من حيث يأتي الخير. وكان يقال: يتقلب الدهر تعرف جواهر الرجال، ويقال: زمام العافية بيد البلاء، ورأس السلامة تحت جناح العطب. وقال بعضهم: نحن في زمن لا يزداد الخير فيه إلا اعتباراً، والشر إلا إقبالاً، والشيطان في هلاك الناس إلا طمعاً. اضرب بطرقك حيث شئت هل تنظر إلا فقيراً يكابد فقيراً، أو غنياً بدل نعمة الله كفراً، أو بخيلاً اتخذ بحق الله وفراً، أو متمرداً كأن يسمعه عن سماع المواعظ وقراً؟ وقال آخر: نحن في زمان إذا ذكرنا الموتى حبيت القلوب، وإذا ما ذكرنا الأحياء ماتت القلوب. ويؤيد ذلك قوله عليه السلام: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر أخيه فيقول يا ليتني مكانه». ويقال: لا يقاوم عز الولاية بذل العزل:

ما من شيء وإن طالّت إساءته
إلا ويكفيك يوم من معايه

وقال الأمين:

يا نفس قد حقّ الحذر
كل أمرىء مما يخ
أين المفر من القدر
فان يرتجيه على خطر
سان يفض يوماً بالكدر
من يرتثف صفو الزم

وقال بعضهم:

وقائلو ما بال وجهك قد نضت^(١)
فقلت لها هاتي من الناس واحداً
محاسنه والجسم بان شحوبه
صفا وقته والنائبات تنوبه

وللأمير أبي علي بن منقذ:

أما والذي لا يملك الأمر غيره
لئن كان كتمان المصائب مؤلماً
ومن هو بالسر المكتم أعلم
لإعلانها عندي أشد وأعظم
وبى كل ما يكي العيون أقله
وإن كنت منه دائماً أنبئهم

وقال علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: وإيم الله ما كان قوم في خفض عيش فزال عنهم إلا بذنوب اقترفوها لأن الله تعالى ليس بظلام للعبيد. ولو أن الناس حين يتزل بهم الفقر ويحول عنهم الغنى فزعوا إلى ربهم بصدق نياتهم لرد عليهم كل شارد، وأصلح لهم كل فاسد. قال الشاعر:

يقولون الزمانُ به فادُّ وهم فدوا وما فدَّ الزمانُ

وكفى بالقرآن واعظاً قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^(١) والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثاني: في الصبر على المكاره ومدح الثبوت وذم الجزع

قد مدح الله تعالى الصبر في كتابه في مواضع كثيرة وأمر به وجعل أكثر الخيرات مضافاً إلى الصبر، وأثنى على فاعله وأخبر أنه سبحانه وتعالى معه، وحث على الثبوت في الأشياء ومجانبة الاستعجال فيها. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٢) فبدأ بالصبر قبل الصلاة ثم جعل نفسه مع الصابرين دون المصلين، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَمِّلُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَوْنَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾^(٤). وقوله تعالى: ﴿وَوَعَدْتُ كَلِمَةً رَبِّكَ الْحَسَنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾^(٥) وبالجمله فقد ذكر الله سبحانه وتعالى الصبر في كتابه العزيز في نيف وسبعين موضعاً، وأمر نبيه ﷺ به فقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَرْشِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾^(٦).

وقد روي عن النبي ﷺ في ذلك أخبار كثيرة. فمن ذلك قوله ﷺ: «النصر في الصبر»، وقوله عليه الصلاة والسلام: «بالصبر يتوقع الفرج»، وقوله: «الأناة من الله تعالى والمجلة من الشيطان». فمن هداه الله تعالى بنور توفيقه ألهمه الصبر في مواطن طلباته والثبوت في حركاته ومسكناته. وكثيراً ما أدرك الصابر مراده أو كاده، وفات المستعجل غرضه أو كاده. وقال الأشعث بن قيس: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلاً ونهاراً، فقلت: يا أمير المؤمنين إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زادني إلا أن قال:

اصبرْ على مَضْضِي الإِدْلاجِ^(٧) فِي السَّحْرِ
إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْأَيَّامِ تَجَرِبَةً
وَقُلْ مَنْ جَدَّ فِي أَمْرِ يَوْمِهِ
وَالصَّبْرُ عَاقِبَةُ مَحْمُودَةِ الْأَثَرِ
وَفِي الرِّوَاكِ إِلَى الطَّاعَاتِ فِي الْبَكْرِ
وَأَسْتَضْحَبُ الصَّبْرَ إِلَّا فَارَ بِالظَّفْرِ

فحفظتها منه، وألزمت نفسي الصبر في الأمور فوجدت بركة ذلك. وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «ما يصيب المسلم من نصبٍ ولا وصبٍ^(٨) ولا همٍّ ولا حزنٍ ولا أذى ولا غمٍّ

(١) سورة: الرعد، الآية: ١١.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٥٣.

(٣) سورة: الزمر، الآية: ١٠.

(٤) سورة: السجدة، الآية: ٢٤.

(٥) سورة: الأعراف، الآية: ١٣٧.

(٦) سورة: الأحقاف، الآية: ٣٥.

(٧) الإدلاج: السير.

(٨) وصب: تعب شديد.

حتى الشوكة يشاكها إلا حظ الله بها من خطاياها». وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة» وقال ﷺ: «إن أعظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط» رواه الترمذي وقال حديث حسن. وعن إسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن أنس بن مالك قال، قال النبي ﷺ: «الضرب على الفخذ عند المصيبة يحبط الأجر، والصبر عند الصدمة الأولى، وعظم الأجر على قدر المصيبة، ومن استرجع^(١) بعد مصيبته جدد الله له أجرها كيوم أصيب بها». وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: احفظوا عني خمساً، اثنتين واثنتين وواحدة: لا يخافن أحدكم إلا ذنبه، ولا يجرؤن إلا ربه، ولا يستحي أحد منكم إذا سئل عن شيء وهو لا يعلم أن يقول لا أعلم، واعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد إذا فارق الرأس الجسد فسد الجسد، وإذا فارق الصبر الأمور فسدت الأمور، وأما رجل حبسه السلطان ظمناً فمات في حبسه مات شهيداً، فإن ضربه فمات فهو شهيد.

وروي في الخبر: لما نزل قوله تعالى: «مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ»^(٢) قال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله، كيف الفرح بعد هذه الآية؟ فقال رسول الله ﷺ: «غفر الله لك يا أبا بكر أليس تعرض؟ أليس يصيبك الأذى؟ أليس تحزن؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: فهذا ما تجزون به» يعني جميع ما يصيبك من سوء يكون كفارة لك. وبهذا اتضح لك أن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلا بالصبر على الشدة والبلاء. وروى عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة وأبو جهل وأصحابه جلوس وقد نحرت جزور بالأس فقال أبو جهل لعنه الله: أيكم يقوم إلى سلا^(٣) الجزور فيلقيه على كفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم»^(٤) فأخذه وأتى به، فلما سجد ﷺ وضع بين كفيه السلا والفرت والدم فضحكوا ساعة وأنا قائم أنظر: فقلت: لو كان لي منعة لطرحت عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة رضي الله تعالى عنها، فجاءت فطرحت عن ظهره ثم أقبلت عليهم فستهم، فلما قضى ﷺ الصلاة رفع يديه فدعا عليهم فقال: اللهم عليك بقریش ثلاث مرات، فما سمع القوم دعاءه ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته. فقال اللهم عليك بأبي جهل وعتبة وشيبة وربيعة والوليد وأمية بن خلف. فقال علي رضي الله تعالى عنه: والذي بعث محمداً بالحق رأيت الذين سماهم صرعى يوم بدر.

وكان الصالحون يفرحون بالشدة لأجل غفران الذنوب لأن فيها كفارة السيئات ورفع الدرجات. وروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ثلاث مَنْ رُزِقَهُنَّ فقد رُزِقَ خيرَي الدنيا والآخرة: الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والدعاء في الرخاء». وحكي أن امرأة من بني إسرائيل لم يكن لها إلا دجاجة فسرقها سارق فصبرت ورددت أمرها إلى الله تعالى ولم تدع عليه، فلما ذبحها السارق ونسف ريشها نبت جميعه في وجهه فسعى في إزالته فلم يقدر على ذلك إلى أن أتى حبراً من أحبار بني إسرائيل فشكا له فقال: لا أجد لك دواء إلا أن تدعو عليك هذه المرأة، فأرسل إليها من

(١) قال «إنا لله وإنا إليه راجعون».

(٢) سورة: النساء، الآية: ١٢٣.

(٣) سلا: أدراجه.

(٤) عتبة بن أبي معيط.

قال لها: أين دجاجتك؟ فقالت: سُرقت: فقال: لقد آذاك من سرقتها؟ فقالت: قد فعل ولم تدع عليه. قال: وقد فجعتك في بيضها؟ قالت: هو كذلك، فما زال بها حتى أثار الغضب منها فدعت عليه فتساقط الريش من وجهه. فقيل لذلك الحبر: من أين علمت ذلك؟ قال: لأنها لما صبرت ولم تدع عليه انتقم لها الله، فلما انتصرت لنفسها ودعت عليه سقط الريش من وجهه. فالواجب على العبد أن يصبر على ما يصيبه من الشدة ويحمد الله تعالى، ويعلم أن النصر مع الصبر، وأن مع العسر يسرا، وأن المصائب والرزايا^(١) إذا توالى أعقبها الفرج والفرح عاجلاً.

ومن أحسن ما قيل في ذلك من المنظوم:

وَإِذَا مَسَّكَ الزَّمَانُ بِضَرْ
وَأَتَتْ بِمَدَّةِ نَوَائِبِ أُخْرَى
فَاصْطَبِرْ وَانْتَظِرْ بِلَوْغِ الْأَمَانِي
وَإِذَا أَوْفَيْتَ قِوَاكُ وَجَلَسْتَ

ولمحمد بن بشر الخارجي:

إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا اسْتَدَّتْ^(٢) مَسَالِكُهَا
لَا تَبَاسُرُ وَإِنْ طَالَتْ مَطَالِبُهُ

ولزهير بن أبي سلمى:

ثَلَاثَ بَعْرُ الصَّبْرِ عِنْدَ حُلُولِهَا
خُرُوجُ اضْطِرَارٍ مِنْ بِلَادِ يَحْبُهَا

وقال بعضهم:

عَلَيْكَ بِإِظْهَارِ التَّجَلُّدِ لِلْعَدَا
أَمَّا تَنْظُرُ الرِّيحَانَ يُشَمُّ نَافِئَا

ولابن نباتة:

صَبْرًا عَلَى نَوْبِ الزَّمَنِ
فَلَكَ كُلُّ شَيْءٍ آخِرُ

وقال أبو الأسود وأجاد:

وَإِنَّ أَمْرًا قَدْ جَرَّبَ الدَّهْرَ لَمْ يَخَفْ
وَمَا الدَّهْرُ وَالْأَيَّامُ إِلَّا كَمَا تَرَى

ومن كلام الحكماء: ما جُوِّهَدَ الهوى بمثل الرأي، ولا اسْتَبْطِ الرَّأْيُ بمثل المشورة، ولا حُفِظَتِ النعم بمثل

(١) الرزايا: التوازل.

(٢) تولت: انقضت.

(٣) استدَّت: أغلقت.

للمواساة، ولا اكتسبت البغضاء بمثل الكبر، وما استنجحت الأمور بمثل الصبر. وقال نهشل:
 ويومٌ كأن المصطلين بحرهُ
 صبرنا له صبراً جميلاً وإنما
 وإن لم يكن نار قيامٍ على الجمرِ
 تفرج أبواب الكريهة بالصبرِ

وقال ابن طاهر:

حذرتني وذا الحذر
 ليس من يكتُم الهوى
 إنما يعرف الهوى
 نفس يا نفس فاصبري
 ليس يغني من القدر
 مثل من باح واشتهر
 من على مره صبر
 فاز بالصبر من صبر

وكان يقال: من تبصر تصبر. وكان يقال: إن نواب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر. وكان يقال لا دواء لداء
 الدهر إلا بالصبر، والله در القائل:

الدهر أدبني والصبر ريانني
 وحكمتني من الأيام تجربة
 والقوت أفتنني والياس أغنانني
 حتى نهيت الذي قد كان ينهاني
 وما أحسن ما قال مخمود الوزاق:

إنني رأيت الصبر خير معول^(١)
 ورأيت أسباب القناعة أغدت
 فإذا بنا بي منزل جاوزته
 وإذا غلا شيء علي تركته
 في النائبات لمن أراد معولاً
 بمرى الغنى فجعلتها لي معقلاً
 وجعلت منه غيرة لي منزلاً
 فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعضهم:

إذا ما أتاك الدهر يوماً بنكبة
 فإن تصاريف الزمان عجيبة
 فأفرغ لها صبراً وومع لها صدراً
 فيوماً ترى يسراً ويوماً ترى عُسراً

وقال بعضهم:

وما منني عسر ففؤضت أمره
 إلى المليك الجبار إلا تيسراً

وما أحسن ما قيل:

الدهر لا يبقى على حالة
 فإن تلقاك بمكروهه
 لا بد أن يقبل أو يدبر
 فاصبر فإن الدهر لا يصبر

ونقل عن محمد بن الحسن رحمه الله تعالى قال: كنت معتقلاً بالكوفة فخرجت يوماً من السجن مع بعض
 الرجال وقد زاد همي وكادت نفسي أن تزهق وضاعت علي الأرض بما رحبت، وإذا برجل عليه آثار العبادة قد أقبل
 علي ورأى ما أنا فيه من الكآبة، فقال: ما حالك؟ فأخبرته القصة، فقال: الصبر الصبر، فقد روي عن النبي ﷺ أنه

قال: «الصبر سترٌ للكروب وعونٌ على الخطوب». وروي عن ابن عمه علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: «الصبر مطية لا تدبر»^(١) وسيفٌ لا يكلّ وأنا أقول:

ما أحسن الصبر في الدنيا وأجملهُ عند الإله واتجأه من الجزع
من شدّ بالصبر كفّاً عند مؤلمة ألوث يدها بجبلٍ غير منقطع

فقلت له: بالله عليك زدني فقد وجدت بك راحة، فقال: ما يحضرني شيء عن النبي ﷺ ولكني أقول:

أما والذي لا يعلم الغيب غيره ومن ليس في كل الأمور له كفؤ
لئن كان بدء الصبر مرّاً مذاقه لقد يُجتنى من بعده الثمر الحلو

ثم ذهب. فسألت عنه فما وجدت أحداً يعرفه ولا رآه أحد قبل ذلك في الكوفة، ثم أخرجت في ذلك اليوم من السجن، وقد حصل لي سرور عظيم بما سمعت منه وانتفعت به. ووقع في نفسي أنه من الأبدال الصالحين قيضه الله تعالى لي؛ يوقظني ويؤدبني ويسليني. وقيل: إن رجلاً كان يضرب بالسياط، ويجلد جلدأً بليغاً ولم يتكلم ويصبر ولم يتأوه، فوقف عليه بعض مشايخ الطريقة فقال له: أما يؤلمك هذا الضرب الشديد؟ فقال: بلى. قال: لم لا تصيح؟ فقال: إن في هؤلاء القوم الذين وقفوا عليّ صديقاً لي يعتقد في الشجاعة والجلادة وهو يرقبني بعينه فأخشى إن ضجيت^(٢) يذهب ماء وجهي عنده، ويسوء ظنه بي، فأنا أصبر على شدة الضرب وأحتمله لأجل ذلك. قال الشاعر:

على قدر فضل المرء تأتي خطوئهُ ويُخمد منه الصبرُ مما يصيئهُ
فمن قلّ فيما يلقيه اصطبارُهُ لقد قلّ فيما يرتجيه نصيئهُ

وقال رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة إن الله تعالى لم يرص من أولي العزم من الرسل إلا بالصبر، ولم يكلفني إلا ما كلفوا به»، فقال عز وجل: «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل»^(٣)، وإني والله لأصبرن كما صبروا فإن النبي ﷺ لثما صبر كما أمر أسفر وجهه صبره عن ظفروه ونصره. وكذلك الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين الذين هم أولو العزم لما صبروا ظفروا وانتصروا. وقد اختلف أهل العلم فيهم على أقوال كثيرة فقال مقاتل رضي الله تعالى عنه: هم نوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويونس وأيوب صلوات الله عليهم. وقال قتادة: هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، ويقال: ما الذي صبروا عليه حتى سماهم الله تعالى أولي العزم؟ فأقول ذكر ما صبروا عليه:

أما نوح عليه الصلاة والسلام فقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان نوح عليه الصلاة والسلام يضرب ثم يلف في لبد ويلقى في بيته يرون أنه قد مات ثم يعود ويخرج إلى قومه ويدعوهم إلى الله تعالى، ولما أيس منهم ومن إيمانهم جاءه رجل كبير يتوكأ على عصاه ومعه ابنة فقال لابنه: يا بني انظر إلى هذا الشيخ واعرفه ولا يترك، فقال له ابنة: يا أبت مكّني من العصا، فأخذها من أبيه وضرب بها نوحاً عليه الصلاة والسلام فشق بها رأسه وسال الدم على وجهه، فقال: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يكن لك فيهم حاجة فاهدم وإلا فصبرني إلى أن تحكم، فأوحى

(١) لا تدبر: لا تنهزم.

(٢) ضجيت: صرخت.

(٣) سورة: الأحقاف، الآية: ٣٥.

الله تعالى إليه: ﴿إِنَّهُ لَنْ يُّؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ * وَأَضْنَحِ الْفُلُكَ^(١) قال: يا رب وما الفلك؟ قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء أنجي فيه أهل طاعتي وأغرق أهل معصيتي. قال: يا رب وأين الماء؟ قال: أنا على كل شيء قدير قال: يا رب وأين الخشب؟ قال أغرس الخشب، فغرس الساج عشرين سنة. وكفَّ عن دعائهم، وكفوا عن ضربه، إلا أنهم كانوا يستهزئون به، فلما أدرك الشجر، أمره ربه فقطعها وجففها، وقال: يا رب، كيف أنتخذ هذا البيت؟ قال: اجعله على ثلاث صور، وبعث الله له جبريل فعلمه، وأوحى الله تعالى إليه أن عَجَلْ بعمل السفينة فقد اشتد غضبي على مَنْ عصاني، فلما فرغت السفينة جاء أمر الله سبحانه وتعالى بانتصار نوح ونجاته وإهلاك قومه وعذابهم، إلا مَنْ آمَنَ معه، وفار التور، وظهر الماء على وجه الأرض، وقذفت السماء بططار كافوا القرب حتى عظم الماء وصارت أمواجه كالجبال، وعلا فوق أعلى جبل في الأرض أربعين ذراعاً. واتَّخَمَ الله سبحانه وتعالى من الكافرين ونصر نبيه نوحاً عليه الصلاة والسلام، وفي تمام قصته، وحديث السفينة كلام مبسوط لأهل التفسير ليس هذا موضع شرحه وبسطه، فهذا زبدة صبر نوح عليه الصلاة والسلام وانتصاره على قومه.

وأما إبراهيم عليه الصلاة والسلام فإنه لما كسر أصنام قومه التي كانوا يعبدونها لم يروا في قتله ونصرة آلهتهم لبغ من إحراره، فأخذوه وحبسوه بيت ثم بنوا حاجزاً كالحوش طول جداره ستون ذراعاً إلى سفح جبل عال، ونادى صلي ملكهم أن احتطبوا لإحراق إبراهيم، وَمَنْ تَخَلَّفَ عن الاحتطاب أحرقه، فلم يتخلف منهم أحد، وفعلوا ذلك أربعين يوماً، ليلاً ونهاراً حتى كاد الحطب يساوي رؤوس الجبال، وسدوا أبواب ذلك الحاجز وقذفوا به النار، فارتفع لهيها حتى كان الطائر يمر بها فيحترق من شدة لهبها، ثم بنوا بنياناً شامخاً وبنوا فوقه منجنيقاً، ثم رفعوا إبراهيم على رأس البنيان، فرفع إبراهيم عليه الصلاة والسلام طرفه إلى السماء. ودعا الله تعالى وقال: حسبي الله ونعم الوكيل. وقيل كان عمره يومئذ ستة وعشرين سنة. فنزل إليه جبريل عليه الصلاة والسلام وقال: يا إبراهيم، ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا. فقال جبريل: سَلْ رَبِّكَ، فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي. فقال الله تعالى: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾^(٢) فلما قذفوه فيها نزل معه جبريل عليه الصلاة والسلام فجلس به على الأرض وأخرج الله له ماء عذبا. قال كعب: ما أحرقت النار غير كانه^(٣) وأقام في ذلك الموضع سبعة أيام، وقيل أكثر من ذلك. ونجاه الله تعالى ثم أهلك تعود قومه بأحسن الأشياء، واتَّخَمَ منهم وظفر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بهم. فهذه ثمرة صبره على مثل هذه الحالة العظمى، ولم يجزع منها وصبر وفوض أمره إلى الله تعالى في ذلك، وتوكل عليه ووثق به. ثم جاءت قصة ذبح ولده، ولعله الله تعالى بذلك فقابل أمره بالتسليم والامثال، وسارع إلى ذبحه من غير إهمال ولا إهمال، وقصته مشهورة وتفاصيل القصة في كتب التفسير مسطورة، فلما ظهر صدقه ورضاه ومبادرته إلى طاعة مولا، وصبره على ما قدره وقضاه، عَزَّاهُ الله تعالى عن ذبح ولده أن فداه، واتَّخَذَهُ خَلِيلًا من بين خلقه واجتباؤه. وأما الذبيح صلوات الله وسلامه عليه فإنه صبر على بلية الذبح، وتلخيصها أن الله تعالى لما ابتلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ولده قال: إني أريد أن أقرب قرباناً، فأخذ ولده والسكران والحبل وانطلق، فلما دخل بين الجبال قال ابنه: أين قربانك يا أبت؟ قال: إن الله

(١) سورة: هود، الآيات: ٣٦ - ٣٧.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٦٩.

(٣) كانه: وثاقه.

تعالى قد أمرني بذبحك فانظر ماذا ترى قال: ﴿يَا أَبَتِ أَفَلَمْ مَا تَوَمَّرْ سَتَجِدْنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾^(١). يا أبت أشدد وثاقي كي لا أضطرب واجمع ثيابك حتى لا يصل إليها رشاش الدم فتراه أُمي فيشتد حزنها، وأسرع إمرار السكين على حلقي ليكون أهون للموت علي، وإذا لقيت أُمي فاقرا السلام عليها. فأقبل إبراهيم عليه الصلاة والسلام على ولده يقبله ويكي ويقول: نعم العون أنت يا بني على ما أمر الله تعالى. قال مجاهد: لما أمر السكين على حلقة انقلبت السكين فقال: يا أبت اطعن بها طعناً. وقال السدي: جعل الله حلقة كصفحة من نحاس لا تعمل فيها السكين شيئاً، فلما ظهر فيهما صدق التسليم نودي أن يا إبراهيم هذا فداء ابنك، فأثاه جبريل عليه السلام بكبس أملح، فأخذه وأطلق ولده وذبح الكبش، فلا جرم أن جعل الذبيح نبياً بصبره وامتناله لأمره.

وأما يعقوب عليه الصلاة والسلام فإنه لما ابتلي بفراق ولده، وذهاب بصره، واشتداد حزنه، قال: ﴿فصبر جميل﴾^(٢) وكذلك يوسف صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، لما ابتلاه الله تعالى بالقائه في ظلمة الحب وبيعه كما تباع العبيد، وفراقه لأبيه، وإدخاله السجن وحسه فيه بضع سنين، وأنه تلقى ذلك كله بصبره وقبوله، فلا جرم أورثهما جمع شملهما واتساع القدرة بالملك في الدنيا مع ملك النبوة في الآخرة.

وأما أيوب عليه الصلاة والسلام، فإنه ابتلاه الله تعالى بهلاك أهله وماله وتتابع المرض المزمن والسقم المهلك حتى أفضى أمره إلى ما تضعف القوى البشرية عن حمله. ولتذكر شيئاً مختصراً من ذلك وهو أن ملكاً من ملوك بني إسرائيل كان يظلم الناس، فنهاه جماعة من الأنبياء عن الظلم، وسكت عنه أيوب عليه الصلاة والسلام ولم يكلمه ولم ينهه لأجل خيل كانت له في مملكته. فأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام: تركت نهيه عن الظلم لأجل خيلك لأطيلنّ بلاءك. فقال إبليس لعنه الله: يا رب سَلِّطْني على أولاده وماله، فسلطه، فبث إبليس مردته من الشياطين، فبث بعضهم إلى دوابه ورعاتها، فاحتملوها جميعاً وقذفوها في البحر، وبعث بعضهم إلى زرعهم وجناتهم فأحرقوها، وبعث بعضهم إلى منازلهم، وفيها أولاده وكانوا ثلاثة عشر ولداً وخدمه وأهله فزلزلوها فهلكوا، ثم جاء إبليس إلى أيوب عليه الصلاة والسلام وهو يصلي فتمثل له في صورة رجل من غلمان. فقال: يا أيوب أنت تصلي ودوابك ورعاتك قد هبت عليها ريح عظيمة وقذفت الجميع في البحر، وأحرق زرعك، وهدمت منازلك على أولادك وأهلك، فهلك الجميع ما هذه الصلاة؟ فالتفت إليه وقال: الحمد لله الذي أعطاني ذلك كله ثم قبله مني، ثم قام إلى صلاته، فرجع إبليس ثانياً فقال: يا رب سَلِّطْني على جسده، فسلطه فنفخ في إبهام رجله فانتفخ، ولا زال يسقط لحمه من شدة البلاء إلى أن بقي أوعاه تين^(٣)، وهو مع ذلك كله صابر محتسب، مفوض أمره إلى الله تعالى، وكان الناس قد هجروه واستغلروه وألقوه خارجاً عن البيوت من تنن ريحه، وكانت زوجته رحمة بنت يوسف الصديق قد سلمت فترددت إليه متفقدة، فجاءها إبليس يوماً في صورة شيخ ومعه سخلة وقال لها: لينبح أيوب هذه السخلة على اسمي فيبرأ. فجاءته فأخبرته فقال لها: إن شفاني الله تعالى لأجلدنك مائة جلدة، تأمريني أن أذبح لغير الله تعالى فطردها عنه، فذهبت وبقي ليس له من يقوم به فلما رأى أنه لا طعام له، ولا شراب، ولا أحد من الناس يتفقده خز

(١) سورة: الصافات، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة يوسف: الآيات: ١٨ و ٨٣.

(٣) تين: تظهر.

ساجداً لله تعالى وقال: رب ﴿إِنِّي مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١) فلما علم الله تعالى منه ثباته على هذه البلوى طول هذه المدة وهي على ما قيل ثمان عشرة سنة، وقيل غير ذلك، وأنه تلقى جميع ذلك بالقبول، وما شكا إلى مخلوق ما نزل به، عاد الله تعالى بالطفاه عليه فقال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ هُنَّا﴾^(٢) وأفاض عليه من نعمه ما أنساه به بلوى نقمه، ومنحه من أقسام كرمه أن أفتاه في يمينه تحلة قسمه، ومدحه في نص الكتاب فقال تعالى: ﴿وَوَحَّدْ يَدَكَ ضَعْفًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾^(٣) فلو لم يكن الصبر من أعلى المراتب، وأسنى المواهب لما أمر الله تعالى به رسله ذوي الحزم وسماهم بسبب صبرهم أولي العزم، وفتح لهم بصبرهم، أبواب مرادهم وسؤالهم، ومنحهم من لدنه غاية أمرهم ومأمولهم ومرامهم^(٤). فما أسعد من اهتدى بهذاهم، واقتدى بهم وإن قصر عن مداهم، وقيل: العسر يعقبه اليسر، والشدة يعقبها الرخاء، والتعب يعقبه الراحة، والضيق يعقبه السعة، والصبر يعقبه الفرج، وعند تناهي الشدة تنزل الرحمة، والموفق من رزقه الله صبراً ولجراً، والشقي من ساق القدر إليه جزعاً ووزراً.

ومما شنف السمع من نجاح هذه الإشارة، وأتحف النفع في نهج هذه العبارة ما روي عن الحسن البصري رضي الله تعالى عنه قال: كنت بواسط فرأيت رجلاً كأنه قد نبش من قبر، فقلت: ما دهاك يا هذا؟ فقال: اكتم علي أمري، حسني الحجاج منذ ثلاث سنين فكنت في أضيّق حال، وأسوأ عيش، وأقبح مكان، وأنا مع ذلك كله صابر لا أتكلم، فلما كان بالأمس أخرجت جماعة كانوا معي فضربت رقابهم، وتحدث بعض أعوان السجن أن غداً تضرب عني، فأخذني حزن شديد وبكاء مفرط، وأجرى الله تعالى على لساني، فقلت: إلهي اشتدّ الضر وفقد الصبر وأنت المستعان. ثم ذهب من الليل أكثره فأخذتني غشية وأنا بين اليقظان والنائم إذ أتاني آت فقال لي: قُمْ فصل ركعتين وقل: يا مَنْ لا يشغله شيء عن شيء، يا مَنْ أحاط علمه بما ذراً ويراً^(٥)، وأنت عالم بخفيات الأمور ومحصي وسوس الصدور، وأنت بالمتزل الأعلى وعلمك محيط بالمتزل الأدنى تعاليت علواً كبيراً، يا مغيثاً أغثني وفكاً أسري واكشف ضري فقد نفذ صبري. فقممت وتوضأت في الحال وصليت ركعتين وتلوت ما سمعته منه ولم تختلف علي منه كلمة واحدة. فما تمّ القول حتى سقط القيد من رجلي ونظرت إلى أبواب السجن فرأيتها قد فتحت فقممت فخرجت ولم يعارضني أحد فأننا والله طليق الرحمن، وأعقبني الله بصبري فرجاً وجعل لي من ذلك الضيق مخرجاً، ثم ودعني واتصرف يقصد الحجاز. وفيما يروى عن الله تعالى أنه أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام: يا داود مَنْ صبر علينا وصل إلينا. وقال بعض الرواة: دخلت مدينة يقال لها وقار، فبينما أنا أطوف في خرابها إذ رأيت مكتوباً بباب قصر خرب بماء الذهب واللازورد هذه الآيات:

يَا مَنْ السَّخِّ عَلَيْهِ الِهْمُّ وَالْفَكْرُ
وغيّرت حاله الأيام والغير^(٦)

(١) سورة: الأنبياء، الآية: ٨٣.

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٨٤.

(٣) سورة: ص، الآية: ٤٤.

(٤) مرامهم: مرادهم.

(٥) ذراً ويراً: ترك وبرىء.

(٦) الأيام والغير: نواب الدمر.

أما سِغِفَتَ لما قد قيل في مثل
ثم الخطوبُ إذا أحداً طَرَقَتْ
عند الإياسِ فأَيِّنَ الله والقدرُ
فاصْبِرْ قد فَازَ أَقْوَامٌ بما صَبَرُوا
وكلُّ ضيقٍ سِيَّاتِي بعده سَعَةٌ
وكلُّ قوتٍ وشيكٌ بعده الظفرُ

ولما حبس أبو أيوب في السجن خمس عشرة سنة ضاقت حيلته وضاق صدره، فكتب إلى بعض إخوانه يشكو إليه طول حبسه وقلة صبره، فردّ عليه جواب رقعة يقول:

صبراً أبا أيوب صبرَ مبرِّح
إن الذي عَقَدَ الذي انْعَقَدَتْ به
وإذا عجزتَ عن الخطوبِ فَمَنْ لها
عَقَدَ المَكَاوِرِ فيكَ يملكُ حلّها
ولعلّها أن تجلّي ولعلّها
صبراً فإن الصبرَ يعقبُ راحةً

فأجابه أبو أيوب يقول:

صَبْرَتِي ووَغَطَتِي وأنا لها
ويحلّها مَنْ كان صاحبَ عَقْدِهَا
وستجلّي بل لا أقولُ لعلّها
كرمأً به إذ كَانَ يملكُ حلّها

فما لبث بعد ذلك أياماً حتى أطلق مكرماً. وأنشدوا:

إذا ابتليتَ فثِقْ بالله وأرضَ به
اليأسُ يقطعُ أحياناً بصاحبه
إن الذي يكشفُ البلوى هو الله
لا تَبَاسَنَ فإنَّ الصانعَ الله
فما تَرَى حيلةً فيما قَضَى الله
إذا قضَى الله فاستسلمْ لقدرته

الفصل الثالث: في التأسي في الشدة والتسلي عن نوائب الدهر

قال الثوري رحمه الله تعالى: لم يفقه عندنا من لم يعدّ البلاء نعمة، والرخاء مصيبة. وقيل: الهنوم التي تعرض للقلوب كفارات للذنوب. وسمع حكيم رجلاً يقول لآخر: لا أراك الله مكروهاً. فقال: كأنك دعوت عليه بالموت، فإن صاحب الدنيا لا بدّ له أن يرى مكروهاً. وتقول العرب: ويلّ أهونُ من ويلين. وقال ابن عينة: الدنيا كلها غومٌ فما كان فيها من سرور فهو ربحٌ. وقال العتيبي: إذا تناهى الغمّ انقطع الدمعُ بدليل أنك لا ترى مضروباً بالسياط ولا مقدماً لضرب العنق يكي. وقيل: تزوّج مغنٍ بناتحة فسمعها تقول: اللهم أوسع لنا في الرزق، فقال لها: يا هذه، إنما الدنيا فرحٌ وحزنٌ وقد أخذنا بطرفي ذلك، فإن كان فرح دعوني، وإن كان حزن دعوك. وقال وهب بن منبه: إذا سلك بك طريق البلاء سلك بك طريق الأنبياء.

وقال مطرف: ما نزل بي مكروه قط فاستعظمت إلا ذكرت ذنوبي فاستصغرت. وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه يرفعه: «يودّ أهلُ العافية يومَ القيامة أنّ لحومهم كانت تُقرض بالمقاريض، لما يَرَوْنَ من ثواب الله تعالى لأهل البلاء». وروى أبو عتبة عن النبي ﷺ قال: «إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه فإذا أحبّه الحبّ البالغ اقتناه. قالوا: وما اقتناه؟ قال: لا يترك له مالاً ولا ولداً». ومزّ موسى عليه الصلاة والسلام برجل كان يعرفه مطيعاً لله عزّ وجلّ قد مزقت السباع لحمه، وأضلّاعه، وكبده ملقاة على الأرض فوقف متعجباً فقال: أي ربي عبدك ابتليته بما أرى. فأوحى الله

تعالى إليه إنه سألني درجة لم يبلغها بعمله فأحببت أن أبليه لأبلغه ذلك الدرجة.

وكان عروة بن الزبير صبوراً حين ابتلي، حكى أنه خرج إلى الوليد بن يزيد فوطيء عظماً فأصابته فما بلغ إلى دمشق حتى بلغ به كل مذهب، فجمع له الوليد الأطباء، فأجمع رأيهم على قطع رجله. فقالوا له: اشرب مرقداً^(١). فقال: ما أحب أن أغفل عن ذكر الله تعالى، فأحمني له المنشار وقطعت رجله. فقال: ضموها بين يدي ولم يتوجع. ثم قال: لئن كنتُ ابتليتُ في عضوٍ فقد عوفيتُ في أعضاء. فبينما هو كذلك إذا أتاه خبر ولده أنه اطلع من سطح على دواب الوليد فسقط بينها فمات. فقال: الحمد لله على كل حال، لئن أخذت واحداً لقد أبقيت جماعة. وقدم على الوليد وفد من عبس فيهم شيخ ضرير، فسأله عن حاله وسبب ذهاب بصره. فقال: خرجت مع رفقة مسافرين ومعي مالي، وعيالي، ولا أعلم عسباً يزيد ماله على مالي، فعرسنا في بطن وادٍ فطرقتنا سبلٌ فذهب ما كان من أهل، ومال، وولد، غير صبي صغير، وبعير. فشرد البعير فوضعت الصغير على الأرض ومضيت لأخذ البعير فسمعت صيحة الصغير فرجعت إليه فإذا رأس الذئب في بطنه وهو يأكل فيه فرجعت إلى البعير فحطم وجهي برجله فذهبت عياني فأصبحت بلا عينين ولا ولد ولا مال ولا أهل. فقال الوليد: اذهبوا به إلى عروة ليعلم أن في الدنيا من هو أعظم مصيبة منه. وقيل: الحوادث الممضة^(٢) مكسبة لحظوظ جلية، إما ثواب مدخر، أو تطهير من ذنب، أو تنبيه من غفلة، أو تعريف لقدر النعمة. قال البحري يسلي محمد بن يوسف على حبه:

وما هذه الأيامُ إلا منازلٌ فمن منزلٍ رحبٍ إلى منزلٍ ضنكٍ^(٣)
وقد دهمتُكِ الحادثاتُ وإنما صفًا الذهبُ الإبريزُ قبلك بالسبكِ
أما في نبيِّ الله يوسفَ أسوءُ لمثلِكَ محبوسٌ عن الظلمِ والإفكِ
أقام جميلَ الصبرِ في السجنِ برهةً فآلَ به الصبرُ الجميلُ إلى الملكِ

وقال علي بن الجهم لما حبه المتوكل:

قالوا حُيِّنَتْ قُلَّتْ ليس بضائري حَبْسِي وأني مهتدٍ لا يغمُدُ
والشمسُ لولا أنها محجوبةٌ عن ناظرِكَ لما أضاءَ الفرقدُ^(٤)
والنارُ في أحجارٍها مخبوءةٌ لا تصطلي إن لم تُزَهِزَها الأزندُ
والجبنُ ما لم تغشهُ لَدَيْتِي شِعَاءُ يَغْمُ المنزلُ المتوددُ
يبتُّ يجتدُّ للكريمِ كرامةٌ ويُزار فيه ولا يزور ويُحمَدُ
لو لم يكن في الجبرِ إلا أنه لا تشذُّلُكَ بالحجابِ الأعبَدُ
غرُّ الليالي باديَاتُ عُودٍ والمالُ عارِضةٌ يُعار وينفدُ
ولكلِّ حيٍّ معقبٌ ولربما

(١) مرقداً: متوماً.

(٢) الممضة: الموجعة.

(٣) ضنك: ضيق.

(٤) الفرقد: نجم في السماء.

لا يُؤَيِّسُكَ^(١) من تفرُّج نكبت
كم من عليل قد تخطاه الردى
خطبُ رماك به الزمانُ الأنكدُ
فنجاً ومات طيُّه والمُؤدُّ
صبراً فإن اليوم يعقبه غدٌ
ويدُ الخلافه لا تطاولها يدُ

قال وأنشد إسحاق الموصلي إبراهيم بن المهدي حين حبس:

هي المقادير تجري في أعنتها
يوما تُريك خبيس الأصل ترفعه
فاصبر فليس لها صبرٌ على حالٍ
إلى العلاء ويوماً تخفضُ العالي

فما أسي حتى وردت عليه الخلع السنية من المأمون رضي الله عنه. وقال إبراهيم بن عيسى الكاتب في إبراهيم بن المديني حين عزل:

ليهن أبا إسحاق أسبابُ نعمه
شهدتُ لقد مثوا عليك وأحنوا
مجندةً بالعزل والعزل أنبلُ
لأنك يومَ العزلِ أعلى وأفضلُ

وقال آخر:

قد زاد ملك سليمان فعابده
والشمس تنحط في المجرى وترفعُ

وقال أبو بكر الخوارزمي لمعزول: الحمد لله الذي ابتلى في الصغير وهو المال، وعافى في الكبير وهو الحال:

ولا عارَ إن زالت عن الحرِّ نعمةٌ
ولكنَّ عاراً أن يزولَ التجملُ^(٢)

وقيل: المال حظ يتقص ثم يزيد، وظلّ ينحسر ثم يعود. وستل بزرجمهر عن حاله في نكبتة؟ فقال: عوّلت على أربعة أشياء: أولها أني قلت القضاء والقدر لا بد من جريانهما، الثاني أني قلت إن لم أصبر فما أصنع، الثالث أني قلت قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا، الرابع أني قلت لعلّ الفرج قريب.

والله تعالى أعلم. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) لا يؤيسُّك: لا يزيهك.

(٢) التجمل: الصبر.

الباب السابع والخمسون: في اليسر بعد العسر والفرج بعد الشدة والفرح والسرور ونحو ذلك مما يتعلق بهذا الباب

فيما يليق بهذا الباب من كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٢) وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَلُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾^(٣) ويروى عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لو كان العسرُ في حجرٍ لدخل عليه اليسر حتى يخرجهُ». وقال عليه الصلاة والسلام: «عند تنامي الشدة يكون الفرج، وعند تضاييق البلاء يكون الرخاء». وقال علي رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «أفضلُ عبادةٍ أمتي انتظارُها فرجُ الله تعالى». وقال الحسن لما نزل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(٤) قال النبي ﷺ: «أُبَشِّرُوا فَلن يَغْلِبَ عُسْرُ يَسْرَيْن» ومن كلام الحكماء: إن تيقنت لم يبقَ همٌّ. وقال أبو حاتم:

إذا اشتملت على البؤس القلوب	وضاق بما به الصدر الرحيبُ
وأوطنت المكاره وأطمأنت	وأزست في مكائنها الخطوبُ
ولم تَرَ لانكشاف الضرّ وجهاً	ولا أغنى بحلته الأربُ ^(٥)
أتاك على قنوط منك غرورٌ	يمرُّ به اللطيف المستجيبُ

وقال آخر:

عسى الهمُّ الذي أمّنت فيه	يكون وراءه فرجٌ قريبُ
فيأمنَ خائفٌ ويغاثَ عانٍ ^(٦)	ويأتي أهله النائي الغريبُ

وقال آخر:

تصبرُ أيُّها العبدُ اللبيبُ	لعلَّك بعدَ صبرِكَ ما تخبُ
وكلُّ الحادثاتِ إذا تنافت	يكون وراءها فرجٌ قريبُ

(١) سورة: الطلاق، الآية: ٧.

(٢) سورة: الشورى، الآية: ٢٨.

(٣) سورة: يوسف، الآية: ١١٠.

(٤) سورة: الشرح، الآيتان: ٥ و ٦.

(٥) الأرب: الذكي.

(٦) عان: أسير.

وقال إبراهيم بن العباس:

ولرب نازلة يضيق بها الفتى
ضاقف فلما استحكمت حلقاتها

وقال آخر:

لئن صَدَعَ الْيَنُّ الْمَشْتَّتْ شَمَلَنَا
وللنجم من بعد الرجوع استقامة
وإن نعمة زالت عن الحر وانقضت
فكن وثقاً بالله واصبر لحكميه
فللّين حكم في الجموع صدوع
وللشمس من بعد الغروب طلوع
فإن لها بعد الزوال رجوع
فإن زوال الشّر عنك سريع

ولنذكر نبذة ممن حصل له الفرج بعد الشدة:

روي أن الوليد بن عبد الملك كتب إلى صالح بن عبد الله عامله على المدينة المنورة أن أخرج الحسن بن الحسن بن علي من السجن، (وكان محبوباً) واضربه في مسجد رسول الله ﷺ خمسمائة سوط، فأخرجه إلى المسجد واجتمع الناس وصعد صالح يقرأ عليه الكتاب، ثم نزل يأمر بضربه فينما هو يقرأ الكتاب إذ جاء علي بن الحسين عليه السلام فأفرج له الناس حتى أتى إلى جنب الحسن فقال: يا ابن العم ما لك؟ أذع الله تعالى بدعاء الكرب يُفرج الله عنك. قال: ما هو يا ابن العم؟ فقال: لا إله إلا الله الحليم الكريم، لا إله إلا الله العلي العظيم، سبحان رب السموات السبع ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين، ثم انصرف عنه. وأقبل الحسن يكررها فلما فرغ صالح من قراءة الكتاب ونزل قال: أراه في سجنه مظلوماً أخرجه، وأنا أراجع أمير المؤمنين في أمره فأطلق بعد أيام، وأتاه الفرج من عند الله. وقال الربيع: لما حبس المهدي موسى بن جعفر رأى في المنام علياً رضي الله تعالى عنه وهو يقول: يا محمد «فهل سيئتم إن توليتم أن تفسلوا في الأرضي وتقطعوا أرحامكم»^(١) قال الربيع: فأرسل المهدي إلي ليلاً فراعني ذلك فجئته فإذا هو يقرأ هذه الآية وكان حسن الصوت فقصص علي الرويا، ثم قال: اتني بموسى بن جعفر فجئته به فعانقه وأجلسه إلى جانبه، وقال: يا أبا الحسن رأيت أمير المؤمنين يقرأ علي كذا فعاهدني أن لا تخرج علي ولا على أحد من ولدي. فقال: والله ما ذاك من شائي. فقال: صدقت ثم قال: يا ربيع أعطه ثلاثة آلاف دينار وزده إلى أهله بالمدينة. قال الربيع: فأحكمت أمره ليلاً فما أصبح إلا على الطريق. وقال إسماعيل بن بشار:

وكل حر وإن طالت بيئته يوماً تفرج غمّه^(٢) وتكشِفُ

وقال مسلم بن الوليد: كنت يوماً جالساً عند خياط بإزاء منزلي، فمر بي إنسان أعرفه، فقامت إليه وسلمت عليه وجئت به إلى منزلي لأضيفه وليس معي درهم، بل كان عندي زوج أخفاف، فأرسلتهما مع جاريتي لبعض معارفي فباعهما بتسعة دراهم واشترى بها ما قلته لها من الخبز واللحم، فجلسنا نأكل، وإذا بالباب يطرق فنظرت من شق الباب وإذا بإنسان يسأل: هذا منزل فلان؟ ففتحت الباب وخرجت. فقال: أنت مسلم بن الوليد؟ قلت: نعم، واستشهدت له بالخياط على ذلك، فأخرج لي كتاباً وقال: هذا من الأمير يزيد بن يزيد فإذا فيه: «قد بعثنا لك بعشرة آلاف درهم

(١) سورة: محمد، الآية: ٢٢.

(٢) الغمة: الكربة.

لتكون في منزلك، وثلاثة آلاف درهم تجعل بها لقدمك علينا. فأدخلته إلى داري وزدت في الطعام واشترت فاكهة وجلسنا فأكلنا، ثم وهبت لضيبي شيئاً يشتري به هدية لأهله، وتوجهنا إلى باب يزيد بالركة فوجدناه في الحمام. فلما خرج استؤذن لي عليه فدخلت فإذا هو جالس على كرسي ويده مشط يسرح به لحيته، فسلمت عليه فرد أحسن ر: وقال: ما الذي أقعدك عنا؟ قلت: قلة ذات اليد^(١)، وأنشدته قصيدة مدحته بها. قال: أتدري لم أحضرتك؟ قلت: لا أدري. قال: كنت عند الرشيد منذ ليل أحاده فقال لي يا يزيد من القاتل فيك هذه الآيات؟

سَل الخليفة سيفاً من بني مضر يمضي فيخترق الأجسام والهَامَا
كَالدَّهْرِ لَا يَشْتِي عَمَّا يَهُمُّ بِهِ قَدْ أَوْسَعَ النَّاسُ إِنْعَاماً وَإِرْغَاماً^(٢)

فقلت: والله لا أدري يا أمير المؤمنين. فقال: سبحان الله أيقال فيك مثل هذا ولا تدري من قاله؟ فسألت. فقيل لي هو مسلم بن الوليد. فأرسلت إليه فانهض بنا إلى الرشيد، فسرنا إليه واستؤذن لنا فدخلنا عليه، فقبلت الأرض، وسلمت فرد علي السلام فأنشدته ما لي فيه من شعر، فأمر لي بمائتي ألف درهم، وأمر لي يزيد بمائة وتسعين ألف درهم، وقال: لا ينبغي لي أن أساوي أمير المؤمنين في العطاء، فانظر إلى هذا التيسير الجسيم بعد العسر العظيم، وما أحسن ما قيل:

الْأَمْنُ وَالْخَوْفُ إِثَامٌ مَدَاوِلَةٌ يَبِينُ الْأَنَامُ وَيَعْدُ الضَّبَقُ تَسْبِغُ

ولما وجه سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد إلى العراق، ليطلق أهل السجون، ويقسم الأموال ضيق على يزيد بن أبي مسلم. فلما ولي يزيد بن عبد الملك الخلافة ولي يزيد بن أبي مسلم إفريقية، وكان محمد بن يزيد والياً عليها، فاستخفى محمد بن يزيد فطلبه يزيد بن أبي مسلم وشد في طلبه، فأتي به إليه في شهر رمضان عند المغرب، وكان في يد يزيد بن أبي مسلم عقود عنب فقال لمحمد بن يزيد حين رآه: يا محمد بن يزيد. قال: نعم، قال: طالما سألت الله أن يمكنتني منك. فقال: وأنا والله طالما سألت الله أن يجيرني منك. فقال: والله ما أجارك، ولا أحاذك، وإن سبقني ملك الموت إلى قبض روحك سبقته، والله لا أكل هذه الحبة العنب حتى أقتلك، ثم أمر به فكشف، ووضع في الطع وقام السيف فأقيمت الصلاة، فوضع العقود من يده وتقدم ليصلي، وكان أهل إفريقية قد أجمعوا على قتله، فلما رفع رأسه ضربه رجل بعمود على رأسه فقتله. وقيل لمحمد بن يزيد: اذهب حيث شئت فسبحان مَنْ قَتَلَ الْأَمِيرَ وَفَكَ الْأَسِيرَ. قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: رأيت رسول الله ﷺ في النوم وهو يقول: أطلق القاتل فارتعت لذلك، ودعوت بالشموع ونظرت في أوراق السجن، وإذا ورقة إنسان أدعي عليه بالقتل، وأقر به فأمرت بإحضاره، فلما رأيته وقد ارتاع قلت له: إن صدقتني أطلقتك. فحدثني أنه كان هو وجماعة من أصحابه يرتكبون كل عزيمة، وأن عجوزاً جاءت لهم بامرأة، فلما صارت عندهم صاحبت الله الله وغشي عليها، فلما أفأقت قالت: أنشدك الله في أمري فإن هذه العجوز غرتني وقالت إن هذه دار نساء صالحات، وأنا شريفة جنتي رسول الله ﷺ وأمي فاطمة، وأبي الحسين بن علي فاحفظوهم في، فقامت دونها وناضلت عنها، فاشتد علي واحد من الجماعة وقال لا بد منها، وقاتلني وخلصت الجارية من يده، فقالت: سترك الله كما سترتني، وسمع الجيران الصيحة فدخلوا علينا فوجدوا الرجل مقتولاً

(١) قلة ذات اليد: الفقر.

(٢) إرغاما: غصباً وجبروتاً.

والسكين يدي، فأمسكوني وأتوا بي إليك وهذا أمرى. فقال إسحاق: قد وهبتك لله ولرسوله، فقال: وحق اللذين وهبتي لهما لا أعود إلى معصية أبداً. وأمر الحجاج باحضار رجل من السجن، فلما حضر أمر بضرب عنقه، فقال: أيها الأمير أترزني إلى غد، قال: وأي فرج لك في تأخير يوم واحد؟ ثم أمر برده إلى السجن، فسمعه الحجاج وهو راجع إلى السجن يقول:

عسى فرج يأتي به الله إن شاء له كل يوم في خليقته أمر

فقال الحجاج والله ما أخذه إلا من كتاب الله وهو قوله تعالى: ﴿كل يوم هو في شأن﴾^(١)، وأمر باطلاقه. وقال بعض جلساء المعتد: كنا بين يديه ليلة فخطق رأسه بالنعاس فقال: لا تبرحوا حتى أغفر سوية، فغفا ساعة ثم أفاق جزءاً مرعوباً، وقال: امضوا إلى السجن واتنوني بمنصور الجمال، فجاءوا به فقال له: كم لك في السجن؟ قال: سنة ونصف. قال: على ماذا؟ قال أنا جمال من أهل الموصل وضاق علي الكسب ببلدي، فأخذت جملي وتوجهت إلى بلد غير بلدي لأعمل عليه فوجدت جماعة من الجند قد ظفروا بقوم غير مستقيمي الحال وهم مقدار عشرة أنفس، وجدوهم يقطعون الطريق، فدفع واحد منهم شيئاً للأعوان فأطلقوه وأمسكوني عوضه، وأخذوا جملي فاشدتهم الله، فأبوا وسجنت أنا والقوم فأطلق بعضهم، ومات بعضهم، وبقيت أنا. فدفع له المعتد خمسمائة دينار وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل شهر. وقال: اجعلوه على جمالنا، ثم قال: أتدرون ما سبب فعلي هذا؟ قلنا: لا. قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو يقول: أطلق منصوراً الجمال من السجن، وأحسن إليه. وأخذ الطاعون أهل بيت فسد بابه، ففضل فيه طفل يرضع لم يشعر به أحد، ففتح الباب بعد شهر فوجدوا الطفل قد عطف الله عليه كلبه ترضعه مع جرو لها، فسبحان القادر على كل شيء، لا إله غيره ولا معبود سواه. قال الشاعر:

إذا تضايقتُ أمرٌ فانتظر فرجاً فأضيقُ الأمر أدناه^(٢) إلى الفرج

وقال آخر:

فلا تجزعن إن أظلم الدهر مرة فإن اعتكاز^(٣) الليل يؤذن بالفجر

وقال آخر:

لعمرك ما كل التعاطيل ضائراً إذا كانت الأرزاق في القرب والنوى فإن ضقت فاصبر يُفرج الله ما ترى ولا كل شغل فيه للمرء منفعة عليك سواء فاعتنم لئلا الدعة ألا رب ضيق في عواقبه سعة^(٤)

وقال الرياشي: ما اعتراني هم فأنشدت قول أبي العتاهية حين قال:

هي الأيام والغير وأمر الله يتظفر فأين الله والقدر

(١) سورة: الرحمن، الآية: ٢٩.

(٢) أدناه: أقربه.

(٣) اعتكاز: اختلاط الظلمة.

(٤) السعة: الوداعة والنعيم.

إلا سري عني وهبَّت ريحُ الفرج. ويروى أن سلطان صقلية أرق ذات ليلة ومُنِع النوم، فأرسل إلى قائد البحر وقال له: انفذ الآن مركباً إلى أفريقية يأتوني بأخبارها. فعمد القائد إلى مقدم مركب وأرسله فلما أصبحوا إذا بالمركب في موضعه كأنه لم يرح، فقال الملك لقائد البحر: أليس قد فعلت ما أمرتك به؟ قال: نعم قد امتثلت أمرك، وأنفذت مركباً فرجع بعد ساعة، وسيحدثك مقدم المركب. فأمر باحضاره فجاء ومعه رجل فقال له الملك: ما منعك أن تذهب حيث أمرت؟ قال: ذهبت بالمركب، فبينما أنا في جوف الليل، والرجال يجدفون إذا بصوت يقول: يا الله، يا غياث المستفيثين يكرّرها مراراً، فلما استقرَّ صوته في أسماعنا ناديتاه مراراً: لييك لييك، وهو ينادي يا الله يا غياث المستفيثين، فجدنا بالمركب نحو الصوت فلقينا هذا الرجل غريقاً في آخر رمق من الحياة فطلعنا به المركب وسألناه عن حاله، فقال: كنا مقلعين من أفريقية ففرقت سفينتنا منذ أيام وأشرفت على الموت، وما زلت أصبح حتى أتاني الغوث من ناحيتكم، فسبحان مَنْ أسهر سلطاناً، وأرقه في قصره لغريق في البحر حتى استخرجه من تلك الظلمات الثلاث: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الوحدة فسبحانه لا إله غيره ولا معبود سواه.

وحكى سيدي أبو بكر الطرطوشي في كتابه سراج الملوك، قال: أخبرني أبو الوليد الباجي عن أبي ذر. قال: كنت أقرأ على الشيخ أبي حفص عمر بن أحمد بن شاهين ببغداد جزءاً من الحديث في حانوت رجل عطار، فينا أنا جالس معه في الحانوت إذ جاءه رجل من الطّوافين ممن يبيع العطر في طبق يحمله على يده، فدفع إليه عشرة دراهم وقال له: أعطني بها أشياء سماها له من العطر فأعطاه إياها فأخذها في طبقه، وأراد أن يمضي، فسقط الطبق من يده، فاتكب جميع ما فيه. فبكى الطّواف، وجزع حتى رحمنه. فقال أبو حفص لصاحب الحانوت: لعلك تعينه على بعض هذه الأشياء. فقال: سمعاً وطاعة. فنزل وجمع له ما قدر على جمعه منها، ودفع له ما عدم منها، وأقبل الشيخ على الطّواف يصبره ويقول له: لا تجزَعْ فأمر الدنيا أيسرُ من ذلك. فقال الطّواف: أيها الشيخ، ليس جزعي لضياح ما ضاع لقد علم الله تعالى أنني كنت في القافلة الغلانية، فضاع لي هميان^(١) فيه أربعة آلاف دينار ومعها فصوص قيمتها كذلك، فما جزعت لضياحها حيث كان لي غيرها من المال، ولكن ولد لي ولد في هذه الليلة فاحتجنا لأمه ما تحتاج النساء، ولم يكن عندي غير هذه العشرة دراهم، فخشيت أن أشتري بها حاجة للنساء، فأبقى بلا رأس مال، وأنا قد صرت شيخاً كبيراً لا أقدر على التكسب. فقلت في نفسي: أشتري بها شيئاً من العطر فأطوف به صدر النهار فعسى أسفّضل شيئاً أسدّ به رمق أهلي، ويبقى رأس المال أتكسب به. واشتريت هذا العطر، فحين انكبت الطبق علمت أنه لم يبق لي إلا الفرار منهم، فهذا الذي أوجبّ جوعي.

قال أبو حفص: وكان رجل من الجند جالساً إلى جانبي يستوعب الحديث، فقال للشيخ أبي حفص: يا سيدي أريد أن تأتي بهذا الرجل إلى منزلي فظننا أنه يريد أن يعطيه شيئاً. قال: فدخلنا إلى منزله فأقبل على الطّواف وقال له: عجبت من جزعك، فأعاد عليه القصة، فقال له الجندي: وكنت في تلك القافلة؟ قال: نعم وكان فيها فلان وفلان، فعلم الجندي صحة قوله، فقال: وما علامة الهيمان؟ وفي أي موضع سقط منك؟ فوصف له المكان والعلامة. قال الجندي: إذا رأيته تعرفه؟ قال: نعم. فأخرج الجندي له همياناً ووضع بين يديه، فحين رآه صاح وقال: هذا همياني والله، وعلامةٌ صحّة قولي أن فيه الفصوص ما هو كيت، وكيت. ففتح الهيمان فوجده كما ذكر. فقال الجندي: خذ

مالك بارك الله لك فيه. فقال الطواف إن هذه الفصوص قيمتها مثل الدنانير وأكثر، فخذها وأنت في حلّ منها ونفسي طيبة بذلك، فقال الجندي: ما كنت لأخذ على أمانتي مالا، وأبى أن يأخذ شيئا، ثم دفعها للطواف جميعها فأخذها ومضى، ودخل الطواف وهو من الفقراء، وخرج وهو من الأغنياء. اللهم أغني فقرنا، ويسّر أمرنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

وحكي أن الملك ناصر الدولة من آل حمدان كان يشكو وجع القولنج حتى أعيأ الأطباء دواؤه، ولم يجدوا له شفاء فدمسوا على قتله، وأرصدوا له رجلاً ومعه خنجر فلما كان في بعض دهاليز القصر وثب عليه ذلك الرجل وضربه بالخنجر فجاءت الضربة أسفل خاصرته فلم تخط المعى الذي فيه القولنج فخرج ما فيه من الخلط فعافاه الله تعالى، وبرى أحسن ما كان.

ويضد هذا ما حكاه أبو بكر الطرطوشي قال: حدثنا القاضي أبو مروان الداراني بطرطوشة قال: نزلت قافلة بقرية خربة من أعمال دانية فأووا إلى دار خربة هناك فاستكنوا فيها من الرياح والأمطار، واستوقدوا نارهم وسوّوا معيشتهم وكان في تلك الخربة حائط مائل قد أشرف على الوقوع. فقال رجل منهم: يا هؤلاء لا تقعدوا تحت هذا الحائط ولا يدخلن أحد في هذه البقعة فأبوا إلا دخولها. فاعتزلهم ذلك الرجال ويات خارجاً عنهم ولم يقرب ذلك المكان فأصباحوا في عافية، وحملوا على دوابهم. فبينما هم كذلك إذ دخل ذلك الرجل إلى الدار ليقتضي حاجته فخرّ عليه الحائط فمات لوقته.

قال: وأخبرني أبو القاسم بن حبيش بالموصل قال: لقد جرت في هذه الدار - وأشار إلى دار هناك - قضية عجيبة. قلت: وما هي؟ قال: كان يسكن هذه الدار رجل من التجار ممن يسافر إلى الكوفة في تجارة الخزّ، فاتفق أنه جعل جميع ما معه من الخزّ في خرج وحمله على حماره وسار مع القافلة، فلما نزلت القافلة، أراد إزال الخرج عن الخمار، فنقل عليه، فأمر إنساناً هناك فأعانه على إزاله، ثم جلس يأكل فاستدعى ذلك الرجل ليأكل معه، فسأله عن أمره، فأخبره أنه من أهل الكوفة، وأنه خرج لحاجة عرضت له بغير نفقة ولا زاد، فقال له الرجل: كن رفيقي آنس بك وتعيني على سفري ونفقتك ومؤنتك علي، فقال له الرجل: وأنا أيضاً أختار صحبتك وأرغب في مرافقتك، فسار معه في سفره وخدمه أحسن خدمة إلى أن وصلا إلى تكريت، فنزل الرقعة خارج المدينة، ودخل الناس إلى قضاء حوائجهم، فقال التاجر لذلك الرجل: احفظ حوائجنا حتى أدخل المدينة وأشتري ما نحتاج إليه. ثم دخل المدينة وقضى جميع حوائجه ورجع فلم يجد القافلة ولا صاحبه، ورحلت الرقعة ولم ير أحداً فظنّ أنه لما رحلت الرقعة رحل ذلك الخادم معهم فلم يزل يسير ويجد السير في المشي إلى أن أدرك القافلة بعد جهد عظيم وتعب شديد، فسألهم عن صاحبه، فقالوا: ما رأيناه ولا جاء معنا ولكنه ارتحل على أثرك فظننا أنك أمرته. فكّر الرجل راجعاً إلى تكريت وسأل عن الرجل فلم يجد له أثراً ولا سمع له خبراً فبش منه، ورجع إلى الموصل مسلوب المال فوصلها نهراً فقيراً جائعاً عرياناً مجهوداً، فاستحى أن يدخلها نهراً فتشمت به الأعداء، نعوذ بالله من شماتتهم، وخشي أن يحزن الصديق إذا رآه على تلك الحالة فاستخفى إلى الليل، ثم عاد إلى داره فطرق الباب فقبل له: من هذا؟ قال فلان يعني نفسه. فأظهروا له سروراً عظيماً وحاجة إليه وقالوا: الحمد لله الذي جاء بك في هذا الوقت على ما نحن فيه من الضرورة والحاجة، فإنك أخذت مالك معك وما تركت لنا نفقة كافية، وأطلت سفرك واحتجنا وقد وضعت زوجتك اليوم، والله وما وجدنا ما نشترى به شيئاً للنساء، فأتينا بدقيق ودهن نسرج به علينا، فلا سراج عندنا.

فلما سمع ذلك ازداد غمّاً على غمه وكره أن يخبرهم بحاله فيحزنهم ذلك، فأخذ وعاء للدهن، ووعاء للدقيق وخرج إلى حانوت أمام داره وكان فيه رجل يبيع الدقيق والزيت والمسل ونحو ذلك، وكان البياع أظفأ سراجة وأغلق حانوته ونام فناداه فعرفه وأجابه وشكر الله على سلامته فقال له: افتح حانوتك واعطنا ما نحتاج إليه من دقيق وعسل ودهن. فنزل البياع إلى حانوته وأوقد المصابيح ووقف يزن له ما طلب، فبينما هو كذلك إذا حانت من التاجر التفاتة إلى قعر الحانوت، فرأى خرجه الذي هرب به صاحبه، فلم يملك نفسه أن وثب إليه والتزمه وقال: يا عدوّ الله اتنبي بمالي، فقال له البياع: ما هذا يا فلان! والله ما علمتك متعدياً، وأنا أبداً ما جنيت عليك ولا على غيرك؛ فما هذا الكلام؟ قال: هذا خرجه هرب به خادم كان يخدمني وأخذ حماري وجميع مالي. فقال البياع: والله ما لي علم غير أن رجلاً ورد علي بعد العشاء واشترى مني عشاءه، وأعطاني هذا الخرج فجعلته في حانوتي وديعة إلى حين يصبح، والحمار في دار جارنا، والرجل في المسجد نائم. قال له: احمل معي الخرج وامض بنا إلى الرجل، فرفع الخرج على عاتقه ومضى معه إلى المسجد فإذا الرجل نائم في المسجد فوكزه برجله فقام الرجل مرعوباً فقال: ما لك؟ قال: أين مالي يا خائن؟ قال: ها هو في خرجه فوالله ما أخذت منه ذرة. فأين الحمار وأكته؟ قال: هو عند هذا الرجل الذي معك، فعفا عنه وغلّى سبيله ومضى بخرجه إلى داره فوجد متاعه سالماً فوسع على أهله وأخبرهم بقصته فازداد سرورهم وفرحهم وتركوا بذلك المولود، فسبحان مَنْ لا يخيّب مَنْ قصده ولا ينسى مَنْ ذكره.

ولنلحق بهذا الباب ذكر مما جاء في التهتهة والبشائر؛ كتب بعضهم إلى أخيه وقد أتاه خبر استبشر به: سمعت عنك خبراً ساراً كتب في الألواح، وامترج بالأرواح، وعدّ في جملة البشائر العظام وجرى في العروق وتمشى في العظام. وكان خالد بن عبد الله القسري أخا هشام بن عبد الملك من الرضاع، وكان يقول: إني لأرى فيك آثار الخلافة ولا تموت حتى تليها. فقال له: إن أنا وليتها فلك العراق، فلما ولي أتاه فقام بين الصفين وقال: يا أمير المؤمنين أعزك الله بعزته وأيدك بملايكته، وبارك لك فيما ولّاك ورعاك فيما استرعاك، وجعل ولايتك على أهل الإسلام نعمة، وعلى أهل الشرك نقمة، لقد كانت الولاية إليك أشوق منك إليها، وأنت لها أزين منها لك. وما مثلها ومثل إلا كما قال الأحوص هذه الأبيان:

وإن السدّ زادَ حسنَ وجوهٍ كان للذّرّ حسنُ وجهك زينا
وتزيّدتُ أطيبَ الطيبِ طيباً إن تمسّنه أين مثلك أيناً

ودخل على المهدي أعرابي فقال له: فيم جئت؟ قال: أتيتك برسالة، قال: هاتها. قال: أتاني آت في منامي فقال: أنت أمير المؤمنين فابلغه هذه الآيات:

لَكُمْ إرثُ الْخِلاَفَةِ مِنْ قَرِيشٍ تسزّفُ إليكمو أبداً عروسا
إلى هَارُونَ تَهْدِيْ بَعْدَ مُوسَى تميسُ^(١) وما لها أن لا تميسا

فقال المهدي: يا غلام علي بالجواهر، فحشا فاه حتى كان يشقّ. ثم قال: أكتبوا هذه الآيات واجعلوها في بخانق^(٢) صيانتا. وقال إبراهيم الموصلي في تهتهة الرشيد بالخلافة:

(١) تميسُ: تمايل.

(٢) بخانق: خرق توضع حول الرقة.

ألم تر أن الشمس كانت مريضةً فلما أتى هارونُ أشرقَ نورُها
تلبَّست الدنيا جمالاً بملكِهِ فهارونُ واليهما ويحيى وزيرُها

وغناه بهما من وراء الحجاب فوصله بمائة ألف دينار، ويحيى بخمسين ألفاً.

ودخل عطاء بن أبي سفيان على يزيد بن معاوية وهو أول من جمع بين التهمة والتعزية فقال: رزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله قضى معاوية نجه، فغفر الله ذنبه، ووليت الرئاسة وكنت أحق بالسياسة، فاحتسب عند الله أعظم الرزية، وأشكر الله على أعظم العطية. ومر عمر بن هيرة بعد إطلاقه من السجن بالرقعة فإذا امرأة من بني سليم على سطح لها تحدث جارة لها ليلاً وهي تقول: لا والذي أسأله أن يخلص عمر بن هيرة مما هو فيه ما كان كذا، فرمى إليها بصرة فيها مائة دينار وقال قد خلص الله عمر بن هيرة قطيعي نفساً وقرى عيناً.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن والخمسون: في ذكر العبيد والإماء والخدم

الفصل الأول: في مدح العبيد والإماء والاستيلاء بهم خيراً

عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول من يدخل الجنة شهيد، وعبد أحسن عبادة ربه، ونصح لسيده». وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما رفعه: «إن العبد إذا نصح لسيده، وأحسن عبادة ربه فله أجره مرتين». وكان زيد بن حارثة خادماً لخديجة رضي الله تعالى عنها اشترى لها بسوق عكاظ فوهبه لرسول الله ﷺ، فجاءه أبوه يريد شراءه منه، فقال رسول الله ﷺ: إن رضي بذلك فعلت. فستل زيد فقال: ذل الرق مع صحابة رسول الله ﷺ، أحب إلي من عز الحرية مع مفارقتي. فقال رسول الله ﷺ: إذا اختارنا اخترناه، فأعتقه وزوجه أم أيمن وباعها زينب بنت جحش. وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ: «أوصيكم بالصلاة، واتقوا الله فيما ملكت أيما نكم». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نساكنكم إماء الله، ولكن ليقُل غلامي وجاريتي وقتاي وقتاتي. وعن ابن مسعود الأنصاري قال: ضربت غلاماً لي فسمعت من خلفي صوتاً: اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك عليه. فالتفت فإذا هو النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله هو حر لوجه الله تعالى. فقال: أما إنك لو لم تفعل للقمحتك النار. وروي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله كم تغفو عن الخادم؟ ثم أعاد عليه فصمت. فلما كانت الثالثة قال له: أعفو عنه كل يوم سبعين مرة. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: حدثني أبو القاسم نبي التوبة ﷺ: «مَنْ قَذَف مملوكه وهو بريء مما قال جلد له يوم القيامة حذاء». وقيل: أراد رجل يَبِّعْ جاريته فبكت. فقال لها: ما لك؟ فقالت: لو ملكت منك ما ملكت مني، ما أخرجتك من يدي، فأعتقها وتزوجها. وقال أبو اليقظان: إن قريشاً لم تكن ترغب في أمهات الأولاد حتى ولدن ثلاثة هم خير أهل زمانهم: علي بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله. وذلك أن عمر رضي الله تعالى عنه أني بينات يزجد بن شهر يار بن كسرى مسيئات، فأراد يبعهن فأعطاهن للدلال ينادي عليهن بالسوق فكشف عن وجه إحداهن فلطمته لطمه شديدة على وجهه فصاح: واعمره، وشكا إليه، فدعاهن عمر وأراد أن يضربهن بالدرية. فقال علي رضي الله تعالى عنه: يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قال: أكرموا عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر، إن بنات الملوك لا يُعْنَن، ولكن قوموهن. فقومهن وأعطاهن أثمانهن، وقسمهن بين الحسين بن علي، ومحمد بن أبي بكر، وعبد الله بن عمر، فولدن هؤلاء الثلاثة، وقيل استبق بنو عبد الملك فسيقوا مسلمة، وكن ابن أمة، فتمثل عبد الملك بقول عمرو العبدية:

هَجِينَا لَكُمْ يَوْمَ الرِّهَانِ فَيَدْرُكُ
وَيَخْلُزُّ سَاقَاهُ فَمَا يَتَحَرَّكُ
وهذا ابنُ أخرى ظهرها مَشْرُكُ

نَهَيْتُكُمْ أَنْ تَحْمِلُوا فَوْقَ خَيْلِكُمْ
فَتَعَثُرُ كَفَّاهُ وَيَسْقُطُ سَوْرُطُهُ
وهل يتوي المرآن هذا ابنُ حُرَّةٍ

فقال له مسلمة: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين ليس هذا مثلي، ولكن كما قال ابن معمر هذه الآيات:

فما أنكحونا طامعين بناتهم
ولكن خطبناهم بأرماننا قنرا
فما زادنا فيها السباء مذلة
ولا كلفت خبزاً ولا طيخت قدرا
وكم قد ترى فينا من ابن سيء
إذا لقي الأبطال يطعنهم شزرا
ويأخذ ريان الطعان بكفه
فيوردها ييضاً ويضدّها حمرا

فقبل رأسه وعينه وقال: أحسنت يا بني ذاك والله أنت، وأمر له بمائة ألف درهم مثل ما أخذ السابق والله أعلم.

الفصل الثاني: في ذم العبيد والخدم

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بئس المال في آخر الزمان المماليك» وقال مجاهد: إذا كثرت الخدم كثرت الشياطين. وقال لقمان لابنه: لا تأمن امرأة على سر، ولا تطأ خادماً تريدك للخدمة. ووصف بعضهم عبداً فقال: يأكل فارهاً، ويعمل كارهاً، ويغض قوماً، ويحب نوماً، وقيل لبعضهم: ألك غلام، فقال:

وما لي غلام فأدعوه به
سوى من أبوه أخو عمتي

وقال أكنم: الحر حر وإن مسه الضر، والعبد عبد وإن ألبسته الدر. ودعا بعض أهل الكوفة إخوانه، وله جارية فقصرت فيما ينبغي لهم من الخدمة فقال:

إذا لم يكن في منزل المرء حرّة
رأى خللاً فيما تولّى الولائد
فلا يتخذ منهنّ حرّاً قعيدةً
فهنّ لعمرك الله بئس القعائد

وكان لرجل غلام من أكمل الناس، فأرسله يوماً يشتري له عباً وتيناً، فأبطأ عليه حتى عيل صبره، ثم جاء بأحدهما فضربه وقال: ينبغي لك إذا استعصيتك حاجة أن تقضي حاجتين، فمرض الرجل فأمر الغلام أن يأتيه بطبيب فغاب ثم جاء بالطبيب ومعه رجل آخر فسأله عنه. فقال: أما ضربتني وأمرتني أن أقضي حاجتين في حاجة فجتك بالطبيب؟ فإن شفاك الله تعالى وإلا حفر لك هذا قبرك، فهذا طبيب، وهذا حفر.

وقيل: كان عمرو الأعجمي يلي حكم السند فكتب إلى موسى الهادي أن رجلاً من أشراف الهند من آل المهلب بن أبي صفرة اشترى غلاماً أسود فرباه وتبناه. فلما كبر وشبّ اشتدّ به هوى مولاته فراودها عن نفسها فأجابته، فدخل مولاه يوماً على غفلة منه من حيث لا يعلم فإذا هو على صدر مولاته فعمد إليه، فجبّ ذكره، وتركه يتشخط في دمه. ثم أدركته عليه رقة وندم على ذلك فعالجه إلى أن برىء من علته، فأقام الغلام بعدها مدة يطلب أن يأخذ ثاره من مولاه، ويدبر عليه أمراً يكون فيه شفاء غليله، وكان لمولاه ابنان أحدهما طفل، والآخر يافع كأنهما الشمس والقمر، فغاب الرجل يوماً عن منزله لبعض الأمور، فأخذ الأسود الصبين فصعد بهما على ذروة سطح عالي فنصبهما هناك، وجعل يعللهما بالمطعم مرة، وباللعب أخرى إلى أن دخل مولاه فرفع رأسه فرأى ابنيه في شاق مع الغلام فقال: ويلك عرضت ابني للموت. قال: أجل، والله الذي لا يحلف العبد بأعظم منه، لئن لم تجب ذكرك مثل ذكرك مثل ما جيتني لارميّ بهما. فقال: الله الله يا ولدي في تريتي لك، قال: دع هذا عنك، فوالله ما هي إلا نفسي وإني لأسمع

يها في شربة ماء، فجعل يكرر عليه، ويتضرع له، وهو لا يقبل ذلك. ويذهب الوالد يريد الصعود إليه فيدليهما من تلك الشاهق. فقال أبوهما: ويلك فاصبر حتى أخرج مدية وأفعل ما أردت، ثم أسرع وأخذ مدية فجب نفسه وهو يراه، فلما رأى الأسود ذلك رمي الصبيين من الشاهق فتقطعا وقال: إن جبك لنفسك ثأري، وقتل أولادك زيادة فيه. فآخذ الأسود وكتب بخبره لموسى الهادي، فكتب موسى لصاحب السند عمرو الأعجمي بقتل الغلام. وقال: ما سمعت بمثل هذا قط وأمر أن يخرج من مملكته كل أسود فما ترى أردأ من العبيد، ولا أقل خيراً منهم. وأكثرهم رداءة المولدون، لو أحسنت إلى أحدهم الدهر كله بكل ما تصل يدك إليه أنكروه، كأن لم ير منك شيئاً، وكلما أحسنت إليه تمرد، وإن أسأت إليه خضع وذلّ، وقد جريت أنا ذلك كثيراً، وما أحسن ما قيل:

إذا أنت أكرمت الكريمَ ملكتَهُ وإن أنت أكرمت اللئيمَ تمرّدَا

وقيل: إن العبد إذا شيع فسق، وإن جاع سرق. وكان جدي لأمي يقول: شر المال تربية العبيد، والمولدون منهم الأثم من الزنوج وأردأ، لأن المولد لا يعرف له أباً، وربما يعرف الزنجي أبيه. ويقال في المولد بغل لأنه مجنس، والبهل تكون أمه فرساً، وأبوه حماراً، وبالعكس فلا تتق بمولد لأنه قل أن يكون فيه خير، وإن كان فذاك تحذر لا حكم له.

وأنا أستغفر الله العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الباب التاسع والخمسون: في أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم^(١) وذكر غرائب من عوائلهم وعجائب من أكاذيبهم

للعرب أوابد وعوائد كانوا يرونها فضلاً وقد دلّ على بعضها القرآن العظيم وأكذب الله دعاويهم فيها فمن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَانُوا أَكْثَرُهم لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٢). قال أهل اللغة: البحيرة ناقة كانت إذا نتجت خمسة أبطن، وكان الأخير ذكرأ بحروا أذنهما، أي شقوا أذنهما، وامتنعوا من ذكاتها ولا تمنع من ماء ولا مرعى. وكان الرجل إذا اعتق عبداً، قال: هو سائبة، فلا عقد بينهما ولا ميراث، وأما الوصيلة ففي الغنم، كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم، وإن ولدت ذكرأ جعلوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكرأ وأنثى قالوا وصلت أخاها فلا يذبح الذكر لآلهتهم. وأما الحام فالذكر من الأبل. كانت العرب إذا نتج من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: حمي ظهره فلا يحمل عليه، ولا يمنع من ماء ولا مرعى. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣) فالخمر ما خامر العقل ومنه سميت الخمر خمرأ، والميسر القمار، والأنصاب حجارة كانت لهم يعبدونها وهي الأوثان وأحدها نصب، والأزلام سهام كانت لهم مكتوب على بعضها «أمرني ربي»، وعلى بعضها «نهاني ربي»، فإذا أراد الرجل سفراً أو أمراً يهتم به ضرب بتلك القداح فإذا خرج الأمر مضى لحاجته، وإذا خرج النهي لم يعض.

ومن أوابدهم وأد البنات أي دفنهن أحياء. كانوا في الجاهلية إذا رزق أحدهم أنثى وأدها، وإذا بشر بها ضاق صدره، وكظم غيظه، وأسود وجهه، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^(٤) وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا لَوْ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾^(٥) وقد قيل إنهم كانوا يقتلونهن خوف العار، وبمكة جبل يقال له أبو دلامة كانت قريش تدد فيه البنات. وقيل إن صعصة جد الفرزدق كان يشتري البنات ويفديهن من القتل كل بنت بناقين عشاوين وجمل. وفاخر الفرزدق رجلاً عند بعض خلفاء بني أمية فقال: أنا ابن محبي الموني. فأنكر الرجل ذلك. فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَانَ مِثْلَ مَنْ أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٦)

وأما الرفادة في الحج فكانت خرجاً تخرجه قريش في كل موسم من أموالهم إلى قصبي، فيصنع به طعاماً للحاج فيأكله مَنْ لم يكن له سعة ولا زاد. وذلك أن قصياً فرضه على قريش فقال لهم حين أمرهم به: يا معشر قريش إنكم

(١) الآية: باقية الدهر.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة: المائدة، الآية: ٩٠.

(٤) سورة: النحل، الآية: ٥٨.

(٥) سورة: الإسراء، الآية: ٣١.

(٦) سورة: المائدة، الآية: ٣٢.

جيران الله، وأهل بيته، وأهل الحرام وإن الحجاج ضيوف الله، وزوار بيته، وهم أحق ضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدروا^(١) عنكم. ففعلوا وكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم فيدفعونه إليهم. وقيل: أول من أقام الرفادة عبد المطلب، وهو الذي حفر بئر زمزم وكانت مطمومة واستخرج منها الغزالين الذهب اللذين عليهما الدر والجوهر وغير ذلك من الحلي، وسبعة أسياف، وخمسة دروع سوابغ^(٢)، فضرب من الأسياف يباب الكعبة، وجعل أحد الغزالين الذهب صفائح الذهب، وجعل الآخر في الكعبة.

واعلم وفقني الله وإياك أنه لم يسمع، بمُحِب أعظم من عجب سعيد بن زرارة وعبد الله بن زياد التميمي، وابن سماك الأسدي الذين ضرب بهم المثل. أما سعيد بن زرارة فقيل إنه مرّت به امرأة، فقالت له: يا عبد الله كيف الطريق إلى مكان كذا؟ فقال لها: يا هتاه،^(٣) مثلي يكون من عبيد الله. وأما عبد الله بن زياد التميمي فقيل إنه خطب بالناس بالبصرة فأحسن وأوجز فنودي من نواحي المسجد: كثر الله فينا مثلك. فقال: لقد كلفتم الله شططاً، وأما ابن سماك فإنه أضل راحلته فالتمسها فلم توجد. فقال: والله لئن لم يرد راحلتي علي لا صليت له أبداً، فوجدت وقد تعلق زمامها ببعض أغصان الشجر. فقيل له: قد رد الله عليك راحلتك فصلّ. فقال: إنما كانت يميني يميناً قصداً. فانظر رحمك الله إلى هذا العجب كيف ذهب بهم حتى أفضى بهم إلى الكفر وصاروا حديثاً مستشعاً ومثلاً بين العالمين مستشعاً نعوذ بالله من الخذلان المؤدي إلى النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

حكى عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه قيل له: كيف وجدت متزك بالمراق؟ قال: خير منزل، إن الله أظفرني بأناس بلغني الأمل فيهم، وأعانني على الإنتقام منهم، فكنت أتقرب إليه بدمائهم. فقيل له: مَنْ هم؟ فذكر هؤلاء الثلاثة وذكر حديثهم، ولا محالة أنها من محاسن الحجاج، وإن قلّت في جنب سيئاته والله تعالى أعلم.

ذكر أديان العرب الجاهلية: كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاة. وكانت اليهودية في نمر، وبني كنانة، وبني الحرث بن كعب، وكننة. وكانت المجوسية في بني تميم منهم زرارة بن عدي، وابنه علي، وكان تزوج ابنته ثم ندم، ومنهم الأقرع بن حابس كان مجوسياً. وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الجزيرة. وكانت بنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية صنماً من حيس^(٤) فعبدوه دهرأ ثم أدركتهم مجاعة فأكلوه. وقد قيل إن أول مَنْ غير الحنيفية عمرو بن لحي أبو خزاعة، وهو أنه رحل إلى الشام فرأى العماليق يعبدون الأصنام فأعجبه ذلك. فقال: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها. قالوا: هذه أصنام نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال: أعطوني منها صنماً أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه. فأعطوه صنماً يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

وقيل: إن أول ما كانت عبادة الأبحار في بني إسماعيل، وسبب ذلك أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم، حتى ضاقت عليهم، وتفرقوا في البلاد؛ وما من أحد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة، وأفضى ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحسنوه من الحجارة، ثم خلفت الخلف،

(١) يصدروا: يصطرونكم.

(٢) سوابغ: طويلة.

(٣) يا هتاه: يا مصييتي.

(٤) صنماً من حيس: خليط من تمر ودقيق وغيره.

ونسوا ما كانوا عليه من دين إسماعيل فعبدوا الأوثان، وصاروا إل ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلال.

وكانت قريش قد اتخذت صنماً على بئر في جوف الكعبة، يقال له: هبل. وأيضاً اتخذوا إسافاً ونائلة على موضع زمزم فينحرون عندها ويطعمون. وكان إساف ونائلة رجلاً وامراًة فوقع إساف على نائلة في الكعبة فمسخهما الله حجراً. واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه، فإذا أراد الرجل سفراً تمسح به حين يركب، وكان ذلك آخر ما يصنع إذا توجه إلى سفره. وإذا قدم من سفره بدأ به قبل أن يدخل إلى أهله، واتخذت العرب الأصنام واتهمكوا على عبادتها، وكانت لقريش وبني كنانة، العزى وكان حجابها بني شيبه، وكانت اللات، لتحيث بالطائف، وكان حجابها بني مغيث من ثقيف، وكانت مناة للأوس والخزرج ومن دان بدينهم. وأما يغوث ويعوق ونسر فقيل: إنهم كانوا أسماء أولاد آدم عليه الصلاة والسلام، وكانوا أقبية عبادة، فمات أحدهم فحزنوا عليه حزناً شديداً، فجاءهم الشيطان وحسن لهم أن يصوروا صورته في قبلة مسجدهم ليزكروه إذا نظروا فكروا ذلك. فقال: اجعلوه في مؤخر المسجد، ففعلوا وصوروه من صفر^(١) ورصاص، ثم مات آخر ففعلوا ذلك إلى أن ماتوا كلهم فصوروهم هناك وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين، وحسن لهم الشيطان عبادة شيء غير الله، فقالوا له: مَنْ نعبد؟ قال: آلهتكم المصورة في مصالكم، فعبدوها إلى أن بعث الله نوحاً عليه الصلاة والسلام فنهاهم عن عبادتها. فقالوا كما أخبر الله عنهم: ﴿لَا تَلْزَمُ آلِهَتُكُمْ وَلَا ثُلُوتٌ وَمَا وَلَا سِوَاهُ﴾^(٢) الآية.

ولما عمَّ الطوفان الأرض طمها وعلا عليها التراب زماناً طويلاً فأخرجها الشيطان لمشركي العرب فعبدوها، وذكر الواحد في الوسيط أن هذه أسماء قوم صالحين كانوا بين آدم ونوح عليهما الصلاة والسلام، فسول الشيطان لقومهم بعد موتهم أن يصوروا صورهم ليكون أنشط لهم، وأشوق للعبادة كلما رأوهم ففعلوا، ثم نشأ بعدهم قوم جهال بالأحوال فحسن لهم عبادتها، وأن من سبقهم من قومهم عبدها فسموها بأسمائهم، وقال الواقدي: كان ودّ على صورة رجل، وسواع على صورة امرأة، ويغوث على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس، ونسر على صورة نسر، والله تعالى أعلم أي ذلك كان.

ذكر أوابدهم

الرمم: شجر معروف كانت العرب إذا خرج أحدهم إلى سفر عمد إلى شجرة منه فيعقد غصناً منها، فإذا عاد من سفره ووجده قد انحلّ قال قد خانتني امرأتي، وإن وجده على حالته قال لم تخني.

الرثيمة: ناقة كانت العرب إذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وسدّوا عينيها حتى تموت، يزعمون أنه إذا بعث من قبره ركبها.

التعمية والتفقة: كان الرجل إذا بلغت إليه ألفاً قلع عين الفحل يقولون: إن ذلك يدفع عنها العين، فإذا زادت عن الألف فقأ عينه الأخرى.

العر: داء يصيب الإبل، شبه الجرب كانوا يكونون السليمة، ويزعمون أن ذلك يرى داء العر.

(١) صفر: نحاس.

(٢) سورة: نوح، الآية: ٢٣.

ضرب الثور عن البقر: كانت البقر إذا امتنعت عن الشرب ضربوا الثور، يزعمون أن الجن يركبون الثيران فيصدون البقر عن الشرب.

الهامة: كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يسمى الهامة وهو كالبومة فلا يزال يصيح على قبره اسقوني إلى أن يؤخذ بثأره. وكان للعرب مذاهب في الجاهلية في النفس، وتنازع في كفياتها فمنهم من زعم أن النفس هي الدم، وأن الروح الهواء الذي في باطن جسم الإنسان الذي منه نفسه وقالوا: إن الميت لا يوجد فيه الدم وإنما يوجد في الحياة مع الحرارة والرطوبة، لأن كل حي فيه حرارة ورطوبة، فإذا مات ذهب حرارته، وحل به اليبس والبرودة. وطائفة منهم يزعمون أن النفس طائر ينشط من جسم الإنسان إذا مات أو قتل، ولا يزال متصوراً في صورة الطائر يصرخ على قبره مستوحشاً له، وفي ذلك يقول بعضهم:

سُلطَ الموتُ والمنونُ عليهم فلهم في صَنَى المقابرِ هامٌ

ثم جاء الإسلام والعرب ترى صحة أمر الهام حتى قال النبي ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ولا صفر ولا هام». وزعموا أن هذا الطائر يكون صغيراً ويكبر حتى يصير كضرب من البوم، ويتوحش ويصرخ ويوجد في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى، يزعمون أن الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت.

والصفر: زعموا أن الإنسان إذا جاع عَضَّ على شرسوفه^(١) الصفر، وهي حية تكون في البطن.

ثنية الضربة: زعموا أن الحية تموت في أول ضربة فإذا ثنيت عاشت.

الغيلان والتغول: للعرب في الغيلان والتغول أخبار وأقاويل، يزعمون أن الغول يتغول لهم في الخلوات في أنواع الصور فيخاطبونها وتخاطبهم، وزعمت طائفة من الناس أن الغول حيوان مشؤوم وأنه خرج مفرداً لم يستأنس وتوحش وطلب القفار وهو يشبه الإنسان والبهيمة ويتراءى لبعض السفار في أوقات الخلوات وفي الليل.

وحكي أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رآه في سفره إلى الشام فضربه بالسيف. وقال الجاحظ: الغول كل شيء يتعرض للسيارة ويتلون في ضروب من الصور والثياب وفيه خلاف. وقالوا: إنه ذكر وأنثى إلا أن أكثر كلامهم أنه أنثى. وأما القطرب في قولهم فهو نوع من الأشخاص المتشيطنة يعرف بهذا الاسم فيظهر في أكناف اليمن، وصعيد مصر في أعاليه، وربما إنه يلحق الإنسان فينكحه فيدود دبره فيموت، وربما نزا على الإنسان وأمسكه فيقول أهل تلك النواحي التي ذكرناها: أمكنوح هو أو مذعور؟ فإن كان قد نكحه أيسوا منه، وإن كان قد ذعر سكن روعه، وشجع قلبه، وإذا رآه الإنسان وقع مغشياً عليه، ومنهم من يظهر له فلا يكرث به لشهامته وثبات قلبه.

ذكر الهوائف

أما الهوائف فقد كانت كثرت في العرب، وكان أكثرها أيام ولد سيدنا رسول الله ﷺ وأن من حكم الهوائف أن يهتف بصوت مسموع وجسم غير مرئي. ومن عجيب ما حكى من أمر الهوائف ما حكاه أبو عمرو بن العلاء قال:

(١) شرسوفه: طرف الضلع جهة البطن.

خرجنا حجاجاً فصاحبنا رجل وجعل يقول في طريقه: ليت شعري هل بغت علي؟ فلما انصرفنا من مكة قالها في بعض الطريق فأجابه صوت في الظلام:

نعم نعم وناكهاً حجياً وهو رجل أحمر ضخم في قفاه^(١) كية

فسكت الرجل. فلما سرنا إلى البصرة، أخبرنا ذلك الرجل قال: دخل جبراني يسمون علي فإذا فيهم رجل أحمر ضخم في قفاه كية فقلت لأهلي: مَنْ هذا؟ قالت: رجل كان ألطف جيراننا بنا فجزاه الله خيراً، فسألته عن اسمه فقالت: حجة. فقلت: إلحقي بأهلك.

وأما بكاء المقتول فكانت النساء لا يكيين المقتول حتى يؤخذ بثأره فإذا أخذ بثأره بكينه.

وأما رمي السن فكانوا يزعمون أن الغلام إذا أثمر فرمى سنه في عين الشمس بسببته وإبهامه وقال: أبدليني بأحسن منها فإنه يأمن على أسنانه العوج والفالج.

وأما خضاب النحر، فكانوا إذا أرسلوا الخيل على الصيد فسبق واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد علامة.

وأما نصب الراية فكانت العرب تنصب الرايات على أبواب بيوتها لتعرف بها.

وأما جزّ النواصي، فكانوا إذا أسروا رجلاً ومنوا عليه وأطلقوه جزوا ناصيته^(٢).

وأما الالتفات، فكانوا يزعمون أن من خرج في سفر والتفت وراءه لم يتم سفره، فإن التفت تطيروا له، وكانوا يقولون: من علق عليه كعب الأرنب لم تصبه عين ولا سحر، وذلك أن الجنّ تهرب من الأرنب لأنها تحيض، وليست من مطايا الجن. ويزعمون أن المرأة إذا أحببت رجلاً وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد جبهما. ويزعمون أن الرجل إذا قدم قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما تنهق الحمير لم يصبه وباءها. ويزعمون أن الحرقوص وهو دوية أكبر من البرغوث تدخل في فروج الأبقار فتفتضهن. ويزعمون أن الرجل إذا ضل قلب ثيابه اهتدى. وكانوا يزعمون أن الناقة إذا نفرت^(٣) وذكر اسم أمها فإنها تسكن. وكانت لهم خرزة يزعمون أن العاشق إذا حكها وشرب ما يخرج منها صبر، وتسمى السلوان. ونكاح المقت من ستهم وهو أن الرجل إذا مات قام ولده الأكبر فآلقى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها فإن لم يكن له بها حاجة زوّجها لبعض إخوته بمهر جديد، فكانوا يرثون النكاح كما يرثون المال.

ولهم حكايات عجيبة وأحوال غريبة والله تعالى أعلم بالضوابط وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) قفاه كية: طرف عقه الخلفي.

(٢) ناصيته: مقدمة شعر الرأس.

(٣) نفرت: شمت.

الباب الستون: في الكهانة والقيافة والزجر والعرافة والفأل والطيرة والفراسة والنوم والرؤيا وما أشبه ذلك

أما الكهانة: فكانت فاشية في الجاهلية حتى جاء الإسلام فلم يسمع فيه بكاهن، وكان ذلك من معجزات النبوة وآياتها. وللكهنة أخبار، فمنهم سطيح ورد عليه عبد المسيح وهو يعالج الموت وأخبره على ما يزعمون بما جاء لأجله وذلك أن المويضان رأى إبلاً صعباً تقود خيلاً عرباً وقد قطعت دجلة وانتشرت في بلادها فلما أصبح أعلم كسرى بذلك فتصير كسرى تشجعاً، ثم رأى أن لا يكتف ذلك عن وزرائه ورؤساء مملكته، فلبس تاجه وقعد على سريره، وجمع وزراءه ورؤساء مملكته فأخبرهم بالخبر فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب بخمود النيران، وارتجاس الإيوان، فازدادوا غمّاً على غمهم. فكتب كسرى كتاباً إلى النعمان بن المنذر: أما بعد فَوَجَّهْ إِلَيَّ رجلاً عالماً بما أريد أن أسأله عنه. فَوَجَّهْ إليه عبد المسيح الغساني. فقال له كسرى: أعتدك علم بما أريد أن أسألك عنه؟ قال: ليخبرني الملك، فإن كان عندي علم منه، وإلا أخبرته بمنّ يعلمه به، فأخبره بما رآه المويضان، فقال: علم ذلك عند كساهن يسكن مشارف الشام يقال له سطيح. قال فَأَتَيْهِ فأسأله عما سألتك واتني بالجواب. فركب عبد المسيح وتوجه إلى سطيح فوجده قد أشرف على الضريح فسلم عليه وحياه ولم يخبره عبد المسيح بما جاء بسببه غير أنه أنشده شعراً يذكر فيه أنه جاء برسالة من قبل ملك العجم، ولم يذكر له السبب. فرفع رأسه وقال: عبد المسيح على جمل يسبح إلى سطيح بعثك ملك بني ساسان لارتجاس الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا المويضان، رأى إبلاً صعباً تقود خيلاً عرباً، قد قطعت الدجلة وانتشرت في بلادها. يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة وفاض وادي سماوة، وغاصت بحيرة ساوة، وخمدت نار فارس، فليس الشام لسطيح شاماً، ولا العجم لعبد المسيح مقاماً يرتفع أمر العرب وأظن أن وقت ولادة محمد قد اقترب يملك منهم ملوكاً وملكات بعدد الشرافات، وكل ما هو آت آت. ثم قضى سطيح مكانه فسار عبد المسيح إلى راحلته وعاد فأخبر كسرى بذلك.

وحكي أن ربيعة بن مضر اللخمي رأى مناماً هاله فأراد تفسيره فقال له أهل مملكته: ما يفسره لك إلا شق وسطيح. فأحضرهما وقال لسطيح: إني رأيت مناماً هالتي فإن عرفته أصبحت تفسيره. فقال: رأيت جمجمة خرجت من ظلمة، فوقعت بأرض نهمة، فأكل منها كل ذات جمجمة. فقال له الملك: ما أخطأت شيئاً فما تفسيره؟ قال: ليهبطن بأرضك الحبش وتملك ما بين آيين إلى جرش. فقال الملك إن هذا لغاظ موجه، فمتى هو كائن، أفي زمني أم بعده؟ قال: بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين تمضي من السنين، ثم يقتتلون بها أجمعين ويخرجون منها هارين. قال: ومن ذا الذي يملك بعدهم؟ قال: أراه ذا يزن يخرج عليهم من عدن فما يترك منهم أحداً باليمن. قال الملك: فيدوم ذلك أم ينقطع؟ قال: بل ينقطع. قال: ومن يقطعه؟ قال: نبي زكي يأتيه الوحي من العلي. قال: وممن يكون هذا النبي؟ قال: من ولد عدنان بن فهر بن مالك بن النضر يكون في قومه الملك إلى آخر الدهر. قال: وهل للدهر من

آخر؟ قال: نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون، ويسعد فيه المحسنون، ويشقى المسيئون. قال: أَوْحَقُّ ما تخبر؟ قال: والشفق والقمر إذا اتسقا إن ما أنبأتك به لحق. ثم دعا بشق، فقال مثل ما قال سطيح.

ومن ذلك ما حكى أن أمية بن عبد شمس دعا هاشم بن عبد مناف إلى المفاخرة. فقال له هاشم: أفاخرك على خمسين ناقة سود الحلق تنحر بمكة فرضي أمية بذلك، وجعل بينهما الخزاعي الكاهن حكماً، فخبأوا له شيئاً وخرجا إليه ومعهما جماعة من قومهما. فقالوا: قد خبأنا لك شيئاً فإن علمته تحاكمنا إليك، وإن لم تعلمه تحاكمنا إلى غيرك. فقال: لقد خبأتكم لي كيت وكيت. قالوا: صدقت احكم بين هاشم بن عبد مناف، وبين أمية بن عبد شمس، أيهما أشرف بيتاً ونسباً ونفساً. فقال والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر، ولأمية أواخر، فأخذ هاشم الإبل ونحرها وأطعمها من حضر. وخرج أمية إلى الشام وأقام بها عشر سنين. ويقال إنها أول عداوة وقعت بين بني هاشم وبني أمية.

وحكى أن هند بنت عتبة بن ربيعة كانت تحت الفاكه بن المغيرة، وكان الفاكه من فتيان قريش، وكان له بيت ضيافة خارجاً عن البيوت تغشاه الناس من غير إذن، فخلا البيت ذات يوم واضطجع فيه هو وهند ثم نهض لحاجة، فأقبل رجل ممن كان يقضى البيت فولجه، فلما رأى هنداً رجع هارباً، فلما نظره الفاكه دخل عليها فضرها برجله، وقال لها: مَنْ هذا الذي خرج من عندك. قالت: ما رأيت أحداً قط وما انتهت حتى نهيتي. قال: فارجمي إلى بيت أبيك. وتكلم الناس فيها فقال أبوها: يا بنية إن الناس قد أكثروا فيك الكلام، فإن يكن الرجل صادقاً دسيت عليه مَنْ يقتله ليقطع كلام الناس، وإن يك كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن. فقالت له: لا والله ما هو علي بصادق. فقال له: يا فاكه إنك قد رميت ابنتي بأمر عظيم فحاكمني إلى بعض كهان اليمن. فخرج الفاكه في جماعة من بني مخزوم، وخرج أبوها في جماعة من بني عبد مناف ومعهم هند ونسوة فلما شارقوا البلاد قالوا غداً نرد على هذا الرجل. فتغيرت حالة هند فقال لها أبوها: إني أرى حالك قد تغير وما هذا إلا لمكروه عندك. فقالت: لا والله ولكن أعرف أنكم تأتون بشراً يخطيء ويصيب، ولا آمنه أن يسمني بسيما تكون علي سبة. فقال لها: لا تخشي فسوف اختره فصفه لفرسه حتى أدلى، ثم أدخل في إحليله حبة حنطة وربطه فلما أصبحوا قدموا على الرجل فأكرمهم ونحر لهم، فلما تغدوا قال له عتبة: قد جئتكم في أمر وقد خبأنا خبيثة نخترك بها. قال خبأتكم لي ثمرة في كمره. قال: إني أريد أبين من هذا. قال: حبة برّ في إحليل مهر قال: فانظر في أمر هؤلاء النسوة فجعل يأتي إلى كل واحدة منهن ويضرب يده على كنفها ويقول لها: انهضي، حتى بلغ هنداً فقال: انهضي غير رسحاء^(١) ولا زانية وستلدين ملكاً اسمه معاوية. فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها فجذبت يدها من يده. وقالت: إليك عني فوالله إني لأحرص أن يكون ذلك من غيرك. فتزوجها أبو سفيان، فولدت منه أمير المؤمنين معاوية رضي الله تعالى عنه.

وأما القيافة فهي على ضربين: قيافة البشر وقيافة الأثر. فأما قيافة البشر فالاستدلال بصفات أعضاء الإنسان، وتختص بقوم من العرب يقال لهم بنو مدلج يعرض على أحدهم مولود في عشرين نفراً فيلحقه بأحدهم.

وحكى عن بعض أبناء التجار أنه كان في بعض أسفاره راكباً على بعيره يقوده غلام أسود، فمرّ بهؤلاء القبيلة فنظر إليه واحد منهم وقال: ما أشبه الراكب بالقائد. قال ولد التاجر: فوقع في نفسي من ذلك شيء، فلما رجعت إلى

(١) رسحاء: أي غير عصفاء نحيلة بل مكترة.

لمي ذكرت لها القصة. فقالت: يا ولدي إن أباك كان شيخاً كبيراً ذا مال وليس له ولد، فخشيت أن يفوتنا ماله فمكنت هذا الغلام من نفسي فحملت بك ولولا أن هذا شيء ستعلمه غداً في الدار الآخرة لما أعلمتك به في الدنيا. وأما قيافة الأثر فلا استدلال بالأقدام والحوافر والخفاف، وقد اختص به قوم من العرب أرضهم ذات رمل، إذا هرب منهم هارب أو دخل عليهم سارق، تتبعوا آثار قدمه فيظفروا به، ومن العجب يعرفون قدم الشاب من الشيخ، والمرأة من الرجل، والبكر من الثيب، والغريب المستوطن، ويذكر أن في قطية وثغر البرلس أقواماً بهذه الصفة. وقد وقعت من قريش حين خرج النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار على صخر صلد، وأحجار صم، ولا طين ولا تراب تبين فيه الأقدام فحججهم الله تعالى عن نبيه ﷺ وبما كان من نسيج العنكبوت، وما لحق القائف^(١) من الحيرة، وقوله إلى هنا انتهت الأقدام، هذا ومعهم الجماعة من قريش وأبصارهم سليمة، ولولا أن هناك لطيفة لا يتساوى الإنسان فيها يعني في عملها لما استأثر بعلم ذلك طائفة دون أخرى. وقيل: القيافة لبني مدلج في أحياء مضر، واختلف رجلان من القافة في أمر بعير، وهما بين مكة ومنى، فقال، أحدهما: هو جمل، وقال الآخر: هي ناقة، وقصدا يتبعان الأثر حتى دخلا شعب بني عامر، فإذا بعير واقف فقال أحدهما لصاحبه: أهو ذا؟ قال: نعم. فوجداه خشي فأصابا جميعاً. ومنهم من كان يخط الرمل في الأرض ويقول فيوافق قوله ما يأتي بعد.

وقال رجل: شردت لي إبل فجئت إلى خراش فسأله عنها فأمر ابته أن تخط لي في الأرض فخطت، ثم قامت فضحك خراش ثم قال أتدري قيامها لأي شيء؟ قلت لا قال قد علمت أنك تجد إبلك وتزوجه فاستحيت، ثم خرجت فوجدت إبلي ثم تزوجتها. وخرج عمرو بن عبد الله بن معمر ومعه مالك بن خراش الخزاعي غازيين فمرا بامرأة وهي تخط للناس في الأرض، فضحك منها مالك هزواً وقال: ما هذا؟ فقالت: أما والله لا تخرجن من سجستان حتى تموت، وتزوج عمرو هذا زوجتك، فكان كما ذكرت.

وأما الزجر والعرافة، فأحسنه ما روي أن كسرى أبرويز بعث إلى النبي ﷺ حيث بعث زاجراً ومصوراً، فقال للزاجر: انظر ما ترى في طريقك وعنده، وقال للمصور: اتني بصورته فلما عاد إليه أعطاه المصور صورته ﷺ فوضعها كسرى على وسادته، ثم قال للزاجر: ماذا رأيت؟ قال: ما رأيت ما أزجر به إلا أنه سيعلو أمره عليك لأنك وضعت صورته على وسادتك. وبعث صاحب الروم إلى النبي ﷺ رسلاً وقال له: انظر إليه، ومل إلى جانبه، وانظر إلى ما بين كتفيه حتى ترى الخاتم والشامة. فقدم الرسول فرأى النبي ﷺ على نشر عال واضعاً قدميه في الماء، وعن يمينه علي رضي الله تعالى عنه، فلما رآه رسول الله ﷺ قال له: تحوّل فانظر ما أمرت به، فنظر الرسول، فلما رجع إلى صاحبه أخبره الخبر، فقال: ليعلوّن أمره وليملكن ما تحت قدمي، فضاءل بالنشر، العلوّ. وبالماء، الحياة.

وقال المدائني: وقع الطاعون بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان حين أتاها فخرج هارباً ونزل بقرية من قرى الصعيد، فقدم عليه حين نزلها رسول لعبد الملك بن مروان. فقال للرسول: ما اسمك؟ قال: طالب بن مدرك. فقال: أواه ما أظنّ أنني أرجع إلى القسطنطين فمات ولم يرجع. وكانت نائلة بنت عمار الكلبي تحت معاوية، فقال لفاختة بنت قرظة: اذهبي فانظري إليها فلذبت ونظرت فقالت: ما رأيت مثلاً، ولكني رأيت تحت سرتها خالاً ليوضع معه رأس زوجها في حجرها. فطلقها معاوية وتزوجها بعده رجلان، حبيب بن مسلمة، والنعمان بن بشير، فقتل أحدهما ووضع

رأسه في حجرها. وبينما مروان بن محمد جالس في إيوانه يتفقد الأمور إذا تصدعت زجاجة من الإيوان فوقعت منها الشمس على منكب مروان، وكان هناك عرّاف، وقيل قياف فقام فتبعه ثوبان، مولى مروان فسأله فقال: صدع الزجاج صدع السلطان، ستذهب الشمس بملك مروان، بقوم من الترك أو خراسان ذلك عندي واضح البرهان. فما مضى غير شهرين حتى مضى ملك مروان. وروى المدايني أن علياً رضي الله تعالى عنه بعث معقلاً في ثلاثة آلاف ليقيم بالركة، وذلك في وقعة صفين فسار حتى نزل الحديبية، فبينما هو ذات يوم جالس، إذ نظر إلى كبشين يتطحان فجاء رجلان فأخذ كل منهما كبشاً فذهب به. فقال شذاد بن أبي ربيعة الخثعمي الزاجر: إنكم لتصرفون من موجهكم هذا لا تغفلون ولا تغفلون. أما ترى الكبشين كيف انتطحا حتى حجز بينهما فتراً ولا فضل لأحدهما على الآخر؟

وحكي أن الإسكندر ملك بعض البلاد فدخل فيها فوجد امرأة تنسج ثوباً فلما رآته قالت له: أيها الملك قد أعطيت ملكاً ذا طول وعرض. ثم دخل عليها بعد ذلك فقالت: ستعزل من الملك. قال: فغضب عند ذلك. فقالت له: لا تغضب، فإنك في المرة الأولى دخلت علي والشقة يئدي أدير طولها وعرضها، ودخلت علي الآن والشقة في يدي أريد قطعها لأنني فرغت من نسجها فلا تغضب، فإن النفوس تعلم أشياء بعلامات. قال الراوي: فكان كذلك.

وحكي أن سيف بن ذي يزن لما استجد كسرى على قتال الحبشة بعث إليه بجيش عظيم فخرج إليه ملك الحبشة وهو مسروق بن أبرهة في مائة جلف من الحبشة، وكان بين عينيها ياقوتة حمراء بعلاقة من الذهب على تاجه تضيء كالنور وهو على فيل عظيم. قال: وكان في عسكر ذي يزن رجل يقال له زهير، فتأمل ذلك منه ثم قال لأمره: اصبر لننظر إلى ما يكون من أمره. قال: فتحوّل مسروق من الفيل إلى جمل، فقال: اصبر. فتحوّل بعد ذلك إلى فرس، ثم إلى بغل، ثم إلى حمار وكأنه أنف من مقاتلتهم على شيء من ذلك إلا على حمار، لما أنه استصغروهم واستحقرهم، وتفرس ذلك الرجل فيه من الانتقال من أعلى إلى أدنى، وقال: احملوا عليهم فإن ملكهم قد ذهب فإنه انتقل من كبير إلى صغير. فحملوا عليهم فكسروهم وقتل الملك.

وحكي أنه كان عرّاف من الطريقين ببغداد يخبر بما يُسأل عنه فلم يخطيء. فسأله رجل عن شخص محبوس هل ينطلق. قال نعم، ويخلص عليه. قال: فقلت له بأي شيء عرفت ذلك؟ فقال: إنك لما سألتني التفت يميناً وشمالاً فوجدت رجلاً على ظهره قربة ماء ففرغها ثم حملها على كتفه فأولت الماء بالمحبوس، وتفرغه بالانطلاق، ووضعها على كتفه بالخلة، قال: وكان الأمر كذلك.

وأما الفأل: فقد روي أن النبي ﷺ كان يحب الفأل الصالح والاسم الحسن، وروي أنه ﷺ لما نزل المدينة على كلثوم دعا غلامين له: يا بشار، ويا سالم فقال ﷺ لأبي بكر رضي الله تعالى عنه: أبشُر يا أبا بكر فقد سلمت لنا الدار. وقال الأصمعي: سألت ابن عون عن الفأل قال: هو أن يكون مريض، فيسمع يا سالم أو طالب حاجة فيسمع يا واحد وما أشبه ذلك.

وأما الطيرة: فقد كان ﷺ يحب الفأل ويكره الطيرة. وقيل ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل: «اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» وعنه ﷺ أنه قال: «ليس منا من تطير أو تطير له أو تكهن له» وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما

رفعه: «من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «من أتى كاهناً فصدقه فيما يقول، أو أتى امرأته حائضاً أو أتى امرأته في دبرها فقد برىء مما نزل على محمد». وأنشد المبرد هذه الأبيات يقول:

لا يعلم المرء ليلاً ما يصبُّه
والفأل والزجر والكهان كلهم
إلا كواذب ما يجري به الفأل
مُضَلَّلُونَ ودون الغيب أفعال

وقال لييد:

لَعَمْرِي ما تدري الطوارق بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقال آخر:

تعلّم أنهُ لا طير إلا
على شيء يوافق بعض شيء
على متطير وهو الثبور
أحايينا وباطلُهُ كير

وكانت العرب تطير بأشياء منها العطاس. وسبب تطيرهم منه أن دابة يقال لها العاطوس كانوا يكرهونها، وكانوا إذا أرادوا سفراً خرجوا من الغلس، والطير في أوكارها على الشجر فيطيرونها فإن أخذت يميناً أخذوا يميناً، وإن أخذت شمالاً أخذوا شمالاً، ومنه قول امرئ القيس:

وقد اغتدي والطير في وكنائِها
مكراً مفراً مقبل مُدبر معاً
بمنجرد قيد الأبواب هيكلاً^(١)
كجلمود صخر حطّة السيل من عل

والعرب أعظم ما يتطيرون منه الغراب. فالقول فيه أكثر من أن يطلب عليه شاهد، ويسمونه حاتم لأنه يحتم عندهم بالفراق، ويسمونه الأعور على جهة التطير إذا كان أصح الطير بصراً. وفيه يقول بعضهم:

إذا ما غراب الين صاح فقل له
لأنت على العشاق أبغ منظر
تَرَفَّقَ رماك الله يا طيرُ بالبعد
وأبغ في الأبصار من رؤية اللحد
تصبح يمين ثم تعثر ماشياً
متى صحت صَحَّ الين وانقطع الرجا
وَبَرَزَ في ثوب من الحزن مسود
كانك من يوم الفراق على وغد

وأعرض بعضهم عن الغراب، وتطير بالإبل، وذلك لكونها تحمل أثقال من ارتحل، وفي ذلك قال بعضهم مفرداً وأجاد:

زعموا بأن مطيئهم سبب النوى
والمؤذّنات بفرقة الأجاب

وقالوا: مَنْ تطير من شيء وقع فيه. وحكي عن إبراهيم بن المهدي قال: أرسل إلي محمد بن زبيدة في ليلة من ليالي الصيف المقمرة يقول: يا عم، إني مشتاق إليك فاحضر الآن عندنا. فجتته وقد بسط له على سطح زبيدة، وعنده سليمان بن أبي جعفر وجارته نعيم. فقال لها: غنيا شيئاً فقد سررت بعمومتي. فغنت وهي تقول هذه الأبيات:

(١) هيكلاً: يصف فرسه بأنه ذو عضلات يفرغ الوحوش بضخامته.

همو قتلوه كي يكونوا مكانه كما فعلت يوماً بكسرى مرارته^(١)
نبي هاشم كيف التوصل يبتا وجند أخيه سيفه ونجائبه

فقال: فغضب وتطير، قال لها: ما قصتك؟ ويحك، انتبهي وغني ما يسرني فغنت تقول:
كليب لعمرى كان أكثر ناصراً وأكثر حزمًا منك ضرج بالدم

فقال لها ويحك! ما هذا الغناء في هذه الليلة، غني غير هذا فغنت هذه الأبيات:
ما زال يمدو عليهم رب دهرهم حتى تفانوا ورب الدهر عدا
تبكي فراقهم عيني فأزفها إن الضرئق للمشتاق بكاء

قال: فانتهرها. وقال لها: قومي إلى لعنة الله. فقالت: والله يا مولاي لم يجر على لساني غير هذا، وما ظننت إلا أنك تحبه، ثم أنها قامت من بين يديه. وكان بين يديه قدح بلور كان أبوه يحبه فأصابه طرف رداها فانكسر. قال إبراهيم بن المهدي: فالتفت إلي وقال: يا عمي، أرى أن هذا آخر أمرنا. فقلت: كلا بل يبيحك الله، يا أمير المؤمنين، ويسرك. فسمعت هاتفاً يقول: «تُفْصِي الأمر الذي فيه تستغيثان» فقال لي: أسمعت ما سمعت يا عم؟ فقلت: ما سمعت شيئاً، وما هذا إلا تولهم. فإذا الصوت قد علا، فقال: يا عم اذهب إلى بيتك فمحال أن يكون بعد هذا اجتماع. قال فانصرف من عنده وكان هذا آخر عهدي به. وخرج أبو الشمقم مع خالد بن يزيد بن مزيد وقد تقلد الموصل فلما أراد الدخول إليها اندق لواؤه في أول درب منها فطير لذلك فأشده أبو الشمقم يقول:

ما كان منلق اللواء لريو تخشى ولا أمر يكون مبدلاً
لكن هذا الرمح ضعف متة صغر الولاية فاستقل الموصل

فسر خالد وأمر لأبي الشمقم بعشرة آلاف درهم. ودخل الحجاج الكوفة متوجهاً إلى عبد الملك فصعد المنبر، فانكسر تحت قدمه لوح فعلم أنهم قد تطيروا له بذلك، فالتفت إلى الناس قبل أن يحمد الله تعالى فقال: شامت^(٢) الوجوه، وتبت الأيدي، وبؤتم^(٣) بغضب من الله إذا انكسر عود جذع ضعيف تحت قدم أسد شديد تفاءلتم بالشؤم، وإني على أعداء الله تعالى لأنك من الغراب الأبقع، وأشأم من يوم نحس مستمر، وإني لأعجب من لوط وقوله: «لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد»^(٤) فأني ركن أشد من الله تعالى، أو ما علمتم ما أنا عليه من التوجه إلى أمير المؤمنين، وقد وليت عليكم أخي محمد بن يوسف وأمرته بخلاف ما أمر به رسول الله ﷺ معاذاً في أهل اليمن، فإنه أمره أن يحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن سيئهم، وقد أمرته أن يسيء إلى محسنكم وأن لا يتجاوز عن سيئكم، وأنا أعلم أنكم تقولون بعدي لا أحسن الله له الصحابة، وأنا معجل لكم الجواب، لا أحسن الله عليكم الخلافة، أقول قولني هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم. وخرج بعض ملوك الفرس إلى الصيد فأول من استقبله أعور فضربه وأمر بحبسه، ثم ذهب للصيد فاصطاد صيداً كثيراً فلما عاد استدعى بالأعور فأمر له بمال. فقال: لا حاجة لي به، ولكن

(١) مرارته: أحواله.

(٢) شامت: سامت.

(٣) بؤتم: عُدتم.

(٤) سورة: هود، الآية: ٨٠.

اتخذ لي في الكلام فقال: تكلم، فقال: أيها الملك إنك تلقيتني فضررتني وجبستني وتلقيتك فصدت وسلمت فأيتنا أشام صباحاً على صاحبه، فضحك منه وأمر له بصلة.

وحكي أيضاً أن صاحب قرطبة أصابه وجع فأمر بعض جواريه أن تغنيه ليلهو عن وجعه فقالت:

هذي الليالي عِلْمُنَا أن ستطوِينَا قشعشعِينَا^(١) بماء المزنِ واسقِينَا

فقال: فطير من ذلك وأمرها بالانصراف ولم يقم بعد ذلك غير خمسة أيام ومات.

وحكي أن نور الدين محمود وهمام الدين ركباً في يوم عيد وخرجا للتفرج فتجالوا في الكلام ثم قال محمود: يا مَنْ درى هل نعيش إلى مثل هذا اليوم؟ فقال له همام الدين: هل نعيش إلى آخر هذا الشهر؟ فإن العام كثير. قال: فأجرى الله على منطوقهما ما كان مقدراً في الأزل، فمات أحدهما قبل تمام الشهر، ومات الآخر قبل تمام العام.

وأما الفراسة فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَشِّعِينَ﴾^(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» وقال علي رضي الله تعالى عنه: ما أضمر أحد شيئاً إلا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه. وقيل: أشار ابن عباس رضي الله تعالى عنهما على علي رضي الله تعالى عنه بشيء فلم يعمل به ثم ندم فقال: يرحم الله ابن عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

وحكى أبو سعيد الخراز أنه كان في الحرم فقير ليس عليه إلا ما يستر عورته، فأنتقت نفسي منه، ففترس ذلك مني قراً: ﴿واعلموا أنَّ الله يعلم ما في أنفسكم فَاخْلَوْهُ﴾^(٣) فنلت واستغفرت الله في قلبي، ففترس ذلك أيضاً قراً: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ جَبَاهِهِ﴾^(٤).

وحكى عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما رأيا رجلاً فقال أحدهما إنه نجار، وقال الآخر إنه حداد فسألاه عن صناعته، فقال: كنت حداداً وأنا الآن نجار.

وحكى أن شخصاً من أهل القرآن سأل بعض العلماء مسألة فقال له: اجلس فإني أشم من كلامك رائحة الكفر، فاتفق بعد ذلك أنه سافر السائل، فوصل إلى القسطنطينية فدخل في دين النصرانية. قال من رآه: ولقد رأيته متكثراً على دكة ويده مروحة يروح بها عليه، فقلت السلام عليك يا فلان، فسلم عليّ وتعارفنا، ثم قلت له بعد ذلك: هل القرآن باقٍ على حاله أم لا؟ فقال لي لا أذكر منه إلا آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿رَبِّمَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾^(٥) قال فبكيت عليه وتركتُه وانصرفت. وكان الحسن بن السقاء من موالي بني سليم ولم يكن في الأرض أحزر منه كان ينظر إلى السفينة فيحزر ما فيها فلا يخطيء، وكان حزره للمكيول والموزون والمعدود سواء، كان يقول في هذه الرمانة كذا وكذا حبة وزنتها كذا وكذا، ويأخذ العمود الآس فيقول فيه كذا وكذا ورقة فلا يخطيء.

(١) شمعينا: أبردي صلورنا.

(٢) سورة: الحجر، الآية: ٧٥.

(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٥.

(٤) سورة: الشورى، الآية: ٢٥.

(٥) سورة: الحجر، الآية: ٢.

وقالوا: إذا رأيت الرجل يخرج بالغداة ويقول لشيء: ما عند الله خير وأبقى فاعلم أن في جوارحه وليمة ولم يدع إليها. وإذا رأيت قوماً يخرجون من عند قاض وهم يقولون ما شهدنا إلا بما علمنا فاعلم أن شهادتهم لم تقبل. وإذا قيل للمتزوج صبيحة البناء على أهله: كيف ما تقدمت عليه؟ فقال: الصلاح خير من كل شيء فاعلم أن امرأته قبيحة. وإذا رأيت إنساناً يمشي ويلتفت فاعلم أنه يريد أن يحدث، وإذا رأيت فقيراً يعدو ويهرول فاعلم أنه في حاجة غني. وإذا رأيت رجلاً خارجاً من عند الوالي وهو يقول: يد الله فوق أيديهم فاعلم أنه صفع.

ويقال: عين المرء عنوان قلبه. وكانوا يقولون: عظم الجبين يدل على البله، وعرضه تدل على قلة العقل، وصخره يدل على لطف الحركة. وإذا وقع الحاجب على العين دل على الحسد، والعين المتوسطة في حجمها دليل الفطنة وحسن الخلق والمروءة، والتي يطول تحديقها تدل على الحمق، والتي يكسر طرفها تدل على خفة وطيش، والشعر في الأذن يدل على جودة السمع، والأذن الكبيرة المتصبية تدل على حمق وهذيان. وكانت الفرس تقول: إذا فشا الموت في الوحوش دل على ضيقة، وإذا فشا في الفأر دل على الخصب. وإذا نقر غراب فجأوته دجاجة عمر الخراب. وإذا قوّت دجاجة فجأوها غراب خرب العمار والله أعلم بكل شيء، عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

وأما النوم والسهو وما جاء فيهما: فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «أشرف أمتي حملة القرآن وأصحاب الليل». وروي أن أم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام قالت له: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن صاحب النوم يجيء يوم القيامة مفلساً. وكان زمعة بن صالح يصلي ليلاً طويلاً فإذا أسحر نادى أهله:

يا أيها الركب المَعْرُونُ^(١) أكل هذا الليل ترقدونا

فيتأثبون بين بالك وداع ومتضرع، فإذا أصبح نادى: عند الصباح يحمد القوم السرى. وأنشدوا:

يا أيها الراقِدُ كم ترقدُ	قُمْ يا حيي قد دَنَا الموعدُ
وخذْ منَ الليلِ وساعاتِهِ	حظاً إذا ما هجَعَ الرقْدُ
مَنْ نَامَ حتّى يَنْقُضِي ليلَهُ	لَمْ يُلْغِ المنزَلَ أو يجهِدْ
قُلْ لذي الأبوابِ أهلِ التقى	قطرةُ الحشرِ لكم موعدُ

وقيل: إن نومة الضحى تورث الغم والخوف، ونومة العصر تورث الجنون، وأنشد بعضهم:

ألا إنَّ نوماتِ الضحى تورثُ الفتى غموماً، ونوماتِ العصرِ جنوناً

وعن العباس بن عبد المطلب أنه مرّ يوماً بابنه وهو نائم نومة الضحى فوكزه برجله وقال له: قم لا أنام الله عينك، أنام في ساعة يقسم الله تعالى فيها الرزق بين العباد؟ أو ما سمعت ما قالت العرب أنها مكسلة مهزلة منية

للحاجة. والنوم على ثلاثة أنواع: نومة الخرق^(١)، ونومة الخلق، ونومة الحمق، فنومة الخرق نومة الضحى، ونومة الخلق هي التي أمر النبي ﷺ بها أمته فقال: «قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ» ونومة الحمق النومة بعد العصر لا ينامها إلا سكران أو مجنون. وكان هشام بن عبد الملك يقول لولده: لا تصطحب بالنوم فإنه شؤم ونكد. وقال الثوري لطبيب: دُلَّنِي عَلَى شَيْءٍ إِذَا أُرِدْتُ النَّوْمَ جَاءَنِي. فقال: ادهن رأسك وأكثر من ذلك واتق الله. وكان طاووس يقول: لئن تختلف الشياطين على ظهري، أحب إلي من أن أنام يوم الجمعة والإمام يخطب. وكان شداد بن أوس يتلوى على فراشه كالحية على المقلَى ويقول اللهم إن النار منعتني النوم، وأنشدوا في المعنى:

غَيَّرْتُ مَوْضِعَ مِرْقَدِي يَوْمًا ففَارَقَنِي السَّكُونُ
قُلْ لِي فَأَوَّلُ لَيْلَتِي فِي حَفْرَتِي، أَنَّى أَكُونُ

وأنشد أبو دلف:

أَمَّا الْكَتْبِي رَدِّيَ عَلَيَّ رَقَادِيَا^(٢) وَتَوَمِّي فَقَدْ شَرَّذْنِيهِ عَنْ وَسَادِيَا
أَمَّا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِي قُلُوبِ عَاشِقِي أَمْتُ الْكَرَى عَنْهُ فَأَحْبَا اللَّيَالِيَا

وأنشد أبو غانم الضمضي:

رَقَدْتُ رَقَادَ الْهَيْمِ حَتَّى لَوْ أَنَّنِي يَكُونُ رَقَادِي مَغْنَمًا لَغَنِيْتُ

فقيل: لمن هذا؟ فقال لرقاد من رقاد العرب. وقيل إن نوم عبود يضرب به المثل، وكان عبود هذا عبداً أسود قيل إنه نام أسبوعاً، وقيل: إنما تماوت على أهله وقال: اندبوني لأعلم كيف تندبوني إذا أنا مت فسُجِّي^(٣) ونام وندب فإذا هو قد مات.

وأما الرؤيا فقد قيل فيها أقاويل. وهو أنهم قالوا: إن النوم هو اجتماع الدم وانحداره إلى الكبد، ومنهم من رأى أن ذلك هو سكون النفس، وهدوء الروح، ومنهم من زعم أن ما يجده الإنسان في نومه من الخواطر إنما هو من الأطعمة والأغذية الطباع. وذهب جمهور الأطباء إلى أن الأحلام من الأخلاط، وأن ذلك بقدر مزاج كل واحد منها وقوته، فالذي يغلب عليه الصفراء يرى بحوراً وعيوناً ومياهاً كثيرة، ويرى أنه يسبح ويصيد سمكاً، ومن غلبت على مزاجه السوداء رأى في منامه أحداثاً وأموثاً مكفين يسود ويكاه وأشياء مفزعة، ومن غلب على مزاجه الدم رأى الخمر والرياحين وأنواع الملاحى والشياب المصبغة. والذي يقع عليه التحقيق أن الرؤيا الصالحة كما قد جاء جزء من ستين جزءاً من النبوة. وكان النبي ﷺ أول ما بدىء به من الوحي الرؤيا الصالحة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. والرؤيا على ضربين فمنهم من يرى رؤيا فتجيء على حالها لا تزيد ولا تنقص، ومنهم من يرى الرؤيا في صورة مثل ضرب له.

فمن ذلك ما حكى أن النبي ﷺ رأى في الجنة غرقاً فقال: لمن هذه؟ فقيل لأبي جهل بن هشام فقال: ما لأبي

(١) الخرق: الأحرق.

(٢) رقادى: نومي.

(٣) سُجِّي: وضع عليه غطاه من رأسه إلى أخمص قدميه.

جهل والجنة، والله لا يدخلها أبداً. قال فأتاه عكرمة ولده مسلماً فتأولها به. وكذلك تأول في قتل الحسين لما رأى أن كلباً أبقع بلغ في دمه، وكان ذلك بعد رؤياه عليه الصلاة والسلام بخمسين عاماً. وكذلك حين قال لأبي بكر رضي الله تعالى عنه: إني رأيت كأنني رقيت أنا وأنت درجاً في الجنة فسبقتك بدرجتين ونصف. فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله أبض بعدك بستين ونصف. ورأت عائشة رضي الله تعالى عنها سقوط ثلاثة أقمار في حجرتها، فأولها أبوها بموته، وموت النبي ﷺ، وموت عمر رضي الله تعالى عنهما. ودفنهم في حجرتها فكان الأمر كذلك.

وحكي أن أم الشافعي رضي الله تعالى عنه، لما حملت به رأت كأن المشتري خرج من فرجها وانقض بمصر، ثم تفرق في كل بلد قطعة، فأول بعالم يكون بمصر ويتشر علمه بأكثر البلاد فكان كذلك.

وحكي أيضاً أن عاملاً أتى عمر رضي الله تعالى عنه فقال: رأيت الشمس والقمر اقتلا، فقال له عمر مع من كنت؟ قال مع القمر فقال مع الآية المحمودة، والله لا وليت لي عملاً فعزله. ثم اتفق أن علياً رضي الله تعالى عنه وقع بينه وبين معاوية ما وقع، فكان ذلك الرجل مع معاوية.

وأما مَنْ مهر في تعبیر الرؤيا فهو ابن سيرين. جاءه رجل فقال له: رأيت كأنني أسقي شجرة زيتون زيتاً، فاستوى جالساً فقال: ما التي تحتك؟ قال: علجة اشتريتها، وفي رواية جارية، وأنا أطؤها. فقال: أخاف أن تكون أمك فكشف عنها فوجدتها أمه. وجاءه رجل فقال: رأيت كأن في يدي خاتماً أختم به فروج النساء وأفواه الرجال. فقال له: أنت مؤذن تؤذن بالليل فتمنع الرجال والنساء من الأكل والوطء. وجاءه رجل فقال: رأيت جارية لي قد ذهبت في بيت من دارها. فقال: هي امرأة نكحت في ذلك البيت، وكانت امرأة لصديق ذلك الرجل فاغتم^(١) لذلك، ثم بلغه أن الرجل قدم في تلك الليلة وجامع مع زوجته في ذلك البيت. وجاءه رجل ومعه جراب فقال له: رأيت في النوم كأنني أسد الزقاق سداً وثيقاً شديداً. فقال له: أنت رأيت هذا؟ قال: نعم. فقال لمن حضره: ينبغي أن يكون هذا الرجل يخنق الصبيان، وربما يكون في جرابه آلة الخنق، فوثبوا عليه وفتشوا الجراب فوجدوا فيه أوتاراً وحلقاً فسلموه إلى السلطان. وجاءته امرأة وهو يتغدى فقالت له: رأيت في النوم كأن القمر دخل في الثريا ونادى مناو من خلفي أن اتني ابن سيرين فقضي عليه، فقلصت يده وقال: ويلك كيف رأيت هذا فأعادت عليه، فقال لأخته: هذه تزعم أنني أموت لسبعة أيام، وأمسك يده على فؤاده وقام يتوجع، ومات بعد سبعة أيام. وجاءه رجل فقال: رأيت كأنني آخذ البيض وأقشره فأكل بياضه وألقي صفاره. فقال: إن صدق منامك فأنت نباش الموتى فكان كذلك.

وحكي أن ابن سيرين رأى الجوزاء قد تقدمت على الثريا فجعل يوصي وقال: يموت الحسن وأموت بعده وهو أشرف مني فمات الحسن، ومات هو بعده بمائة يوم.

وحكي أن رجلاً رأى عيسى عليه السلام فقال له: يا نبي الله صلبك حق؟ قال: نعم. فعبه على بعضهم فقال: تكذب رؤياك بقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾^(٢) ولكن هو عائد على الراي فكان كذلك. وأتى ابنه مغيث أتى في المنام فقال لها:

(١) اغتم: حزن واهتم.

(٢) سورة: النساء، الآية: ١٥٧.

لك البشيري بولد
إذا الرجال في كبد^(١)
أشبه شيء بالأسد
تغالبوا على بلد
كان له حظ الأسد

فولدت المختار بن أبي عبيد وذلك في عام الهجرة. وقال رجل لسعيد بن المسيب: رأيت كأنني بليت خلف المقام أربع مرات. قال: كذبت لست صاحب هذه الرؤيا. قال: هو عبد الملك. فقال: يلي أربعة من صلبه الخلافة. وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه: رأيت علياً رضي الله عنه في المنام. فقال لي: ناولني كبك فتناولته إياها فأدخلها وندمها فأصبحت أنا كآبة. فأتيت الجعد فأخبرته فقال: سيرفع الله شأنك وينشر علمك. وعن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ رَأَى فِي مَنَامِهِ فَقَدْ رَأَى حَقّاً فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتِمُّ لِيَّ» وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: رأيت كأن رأسي قد قطع وأنا أنظر إليه فضحك رسول الله ﷺ وقال: بأي عين كنت تنظر إلى رأسك؟ فلم يلبث رسول الله ﷺ أن توفي وأولوا رأسه به بنبيه ونظروا إليه باتباع سته. وقال رجل لعلي بن الحسين: رأيت كأنني أبول في يدي. فقال: تحتك محرم فنظروا فإذا بينه وبين امرأته رضاع. وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: رأيت كأنني نبشت قبر رسول الله ﷺ فضممت عظامه إلى صدري فهالني ذلك، فسألت ابن سيرين، فقال: ما ينبغي من أهل هذا الزمان أن يرى هذه الرؤيا، قلت: أنا رأيتها. قال: إن صدقت رؤياك لتحيين سنة نبيك ﷺ. وقال النبي ﷺ: «الرؤيا الصالحة بشارة للمؤمن بما له عند الله من الكرامة في الدنيا والآخرة». وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: قد تضرعت إلى ربي سنة أن يريني أبي في النوم حتى رأيته وهو يمسح العرق عن جبينه، فسأته فقال: لولا رحمة الله لهلك أبوك، إنه سألني عن عقاب بعير للصدقة، فسمع بذلك عمر بن عبد العزيز، فصاح وضرب يده على رأسه وقال: فعل هذا بالتقي الطاهر، فكيف بالمقترف عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنهم أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الحادي والستون: في الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد والنيقظ والتبصر

الحيلة من فوائد الآراء المحكمة وهي حسنة ما لم يستبح بها محظور، وقد مثل بعض الفقهاء عن الحيل في الفقه فقال علمكم الله ذلك فإنه قال: «وَحُذِّ بِبَيْدِكَ ضَعْفًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْتَثْ»^(١) وكان عليه السلام إذا أراد غزوة ورى بغيرها وكان يقول: «الحرب خدعة» ولما أراد عمر رضي الله تعالى عنه قتل الهرمزان استسقى ماء فأتوه بقدر فيه ماء فأمسكه في يده واضطرب. فقال له عمر: لا بأس عليك حتى لا تشربه فألقى القدح من يده فأمر عمر بقتله. فقال: أَوْلَمْ تَوَسِّنِي؟ قال: كيف أمتك؟ قال: قلت لا بأس عليك حتى تشربه، وقولك لا بأس عليك أمان، ولم أشره. فقال عمر: قاتلك الله أخذت مني أماناً ولم أشر. وقيل: كان دهاء العرب أربعة كلهم ولدوا بالطائف: معاوية، وعمر بن العاص، والمغيرة بن شعبة، والسائب بن الأقرع. وكان يقال: الحاجة تفتح أبواب الحيل. وكان يقال ليس العاقل الذي يحتال للأمور إذا وقع فيها، بل العاقل الذي يحتال للأمور أن لا يقع فيها. وقال الضحاك بن مزاحم لنصراني. لو أسلمت. فقال: ما زلت محباً للإسلام إلا أنه يمنعي منه حبي للخمر. فقال: أسلم واشربها. فلما أسلم قال له: قد أسلمت فإن شربتها، حَدِّثْنَاكَ، وإن ارتددت قتلناك فاختر لنفسك. فاختر الإسلام وحسن إسلامه فأخذه بالحيلة. وقيل: دليت من السماء سلسلة في أيام داود عليه الصلاة والسلام عند الصخرة التي في وسط بيت المقدس، وكان الناس يتحاكمون عندها فمن مدَّ يده إليها وهو صادق نالها، ومن كان كاذباً لم يئلها إلى أن ظهرت فيهم الخديعة فارتفعت، وذلك أن رجلاً أودع رجلاً جوهرة فخبأها في مكانه في عكازة ثم إن صاحبها طلبها من الذي أودعها عنده فأنكرها فتحاكما عند السلسلة. فقال المدعي: اللهم إن كنت صادقاً فلتدن^(٢) مني السلسلة فدنّت منه فمسها، فدفع المدعى عليه العكازة للمدعي، وقال: اللهم إن كنت تعلم أنني رددتُ الجوهرة إليه فلتدن مني السلسلة. فدنّت منه فمسها، فقال الناس: قد سوت السلسلة بين الظالم والمظلوم فارتفعت بشؤم الخديعة.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام أن أحْكُمَ بين الناس بالينة واليمين فبقي ذلك إلى قيام الساعة. وكان المختار بن أبي عبيد الثقفي من دعاة ثقيف، وتقيف دهاء العرب. قيل إنه وجه إبراهيم بن الأشتر إلى حرب عبيد الله بن زياد ثم دعا برجل من خواصه فدفع إليه حمامة بيضاء وقال له: إن رأيت الأمر عليكم فأرسلها. ثم قال للناس: إني لأجد في محكم الكتاب وفي اليقين والصواب أن الله ممدكم بملائكة غضاب صعب تأتي في صور الحمام تحت السحاب. فلما كادت الدائرة تكون على أصحابه عمد ذلك الرجل إلى الحمامة فأرسلها فتصايح الناس: الملائكة. الملائكة!! وحملوا فانتصروا وقتلوا ابن زياد.

(١) سورة: ص، الآية: ٤٤.

(٢) فلتدن: اقرب.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فخرجت امرأتان ومعهما صبيان فعدا الذئب على صبي إحداهما فأكله، فاختصمتا في الصبي الباقي إلى داود عليه الصلاة والسلام فقال: كيف أمركما؟ فقصتا عليه القصة، فحكم به للكبرى منهما، فاختصمتا إلى سليمان عليه الصلاة والسلام فقال: انتوني بسكين أشق الغلام نصفين لكل منهما نصف. فقالت الصغرى أتشقه يا نبي الله؟ قال: نعم قالت: لا تفعل ونصيبي فيه للكبرى. فقال: خذيه فهو ابنك وقضى به لها. وجاء رجل إلى سليمان بن داود عليه الصلاة والسلام وقال: يا نبي الله إن جيراناً يسرقون أوزي فلا أعرف السارق، فنادى الصلاة جامعة ثم خطبهم وقال في خطبته: وإن أحدكم ليسرق أوز جاره ثم يدخل المسجد والريش على رأسه، فمسح الرجل رأسه فقال سليمان: خذوه فهو صاحبكم.

وخطب المغيرة بن شعبة وفتى من العرب امرأة، وكان شاباً جميلاً فأرسلت إليهما أن يحضرا عندها فحضرا وجلست بحيث تراهما وتسمع كلامهما. فلما رأى المغيرة ذلك الشاب وعاین جماله علم أنها تؤثره عليه فأقبل على الفتى وقال: لقد أوتيتَ جمالاً فهل عندك غير هذا؟ قال: نعم، فعُدَّ محاسنه ثم سكت. فقال المغيرة: كيف حسابك مع أهلِكَ؟ قال: ما يخفى عليّ منه شيء وإني لأستدرك منه أدق من الخردل^(١). فقال المغيرة: لكني أضع البذرة في بيتي فينفقها أهلي على ما يريدون فلا أعلم بنفادها حتى يسألوني غيرها. فقالت المرأة: والله لهذا الشيخ الذي لا يحاسبني أحب إليّ من هذا الذي يحصي عليّ مثقال الذرة. فتزوجت المغيرة.

ويبلغ عضد الدولة أن قوماً من الأكراد يقطعون الطريق ويقيمون في جبال شامخة ولا يقدر عليهم. فاستدعى بعض التجار، ودفع إليه بطلاً عليه صندوقان فيهما حلوى مسمومة كثيرة الطيب في ظروف فاخرة، ودنانير وافرة، وأمره أن يسير مع القافلة ويظهر أن هذه هدية لأحد نساء الأمراء. ففعل التاجر ذلك وسار أمام القافلة فتزل القوم فأخذوا الأمتعة والأموال وانفرد أحدهما بالبغل وصعد به الجبل فوجد به الحلوى فقبض على نفسه أن ينفرد بها دون أصحابه فاستدعاهم فأكلوا على مجاعة فماتوا عن آخرهم، وأخذ أرباب الأموال أموالهم. وأتى لبعض الولاة برجلين قد اتهما بسرقة فأقامهما بين يديه ثم دعا بشربة ماء فجيء له بكوز^(٢) فرماه بين يديه فارتاع أحدهما وثبت الآخر، فقال للذي ارتاع: اذهب إلى حال سيالك، وقال للآخر: أنت أخذت المال وتلذذت به. وتهلّده فأقر. فسنل عن ذلك فقال: إن اللص قوي القلب، والبريء يجزع ولو تحرك عصفور لفرغ منه. وقصد رجل الحج فاستودع إنساناً مالاً فلما عاد طلبه منه فجحده المستودع فأخبر بذلك القاضي إياساً. فقال: أعلم بأنك جتني؟ قال: لا. قال: فعُدْ إليّ بعد يومين. ثم إن القاضي إياساً بعث إلى ذلك الرجل فأحضره، ثم قال له: أعلم أنه قد تحصلت عندي أموال كثيرة لأيتام وغيرهم وودائع للناس وإني مسافر سافراً بعيداً، وأريد أن أودعها عندك لما بلغني من دينك وتحصين ممتلكك. فقال: حباً وكرامة. قال: فادهب وهىء موضعاً للمال وقوماً يحملونه. فذهب الرجل وجاء صاحب الوديعة، فقال له القاضي إياس: امض إلى صاحبك وقل له ادفع إليّ مالي وإلا شكوتك للقاضي إياس. فلما جاء وقال له ذلك دفع إليه ماله واعتذر إليه فأخذته وأتى إلى القاضي إياس وأخبره. ثم بعد ذلك أتى الرجل ومعه الحمالون لطلب الأموال التي ذكرها له القاضي، فقال له القاضي بعد

(١) الخردل: يحاسبهم بدقة وشدة.

(٢) بكوز: إناء للشرب.

أن أخذ الرجل ماله منه: بدا لي تَرْكُ السفر، امضي لشأنك لا أكثر الله في الناس مثلك.

ولما أراد شيرويه قتل أبيه أبرويز، قال شيرويه للداخل عليه ليقته: إني لأدلك على شيء فيه غناك لوجوب حَقِّك علي. قال: وما هو؟ قال: الصندوق الفلاني، فلما قتله وذهب إلى شيرويه وأخبره الخبر فأخرج الصندوق فإذا فيه حق فيه حبٌّ ورقعة مكتوب فيها: مَنْ تناول منه حبة واحدة اقتضت عشرة أبكار، وكان لشيرويه غرام في الباه^(١)، فتناول منه حبة فهلك من ساعته. فكان أبرويز أول مقتول أخذ بثأره من قاتله.

ولما بايع الرشيد لأولاده الثلاثة بولاية العهد تخلف رجل مذكور من الفقهاء فقال له الرشيد: لِمَ تخلفت؟ فقال: عاقني عاتق. فقال: اقروا عليه كتاب البيعة. فقال: يا أمير المؤمنين هذه البيعة في عتقي إلى قيام الساعة. فلم يفهم الرشيد ما أراد وظن أنه إلى قيام الساعة يوم الحشر، وما أراد الرجل إلا قيامه من المجلس.

وقال المغيرة بن شعبة: لم يخدعني غير غلام من بني الحرث بن كعب فإني ذكرت امرأة منهم لأتزوجها فقال: أيها الأمير لا خير لك فيها. فقلت: ولم؟ قال: رأيت رجلاً يقبلها فأعرض عنها فتزوجها الفتى فلمته وقلت: ألم تخبرني أنك رأيت رجلاً يقبلها؟ قال: نعم رأيت أباه يقبلها. وأتى رجل إلى الأحنف فطمه^(٢). فقال: ما حملك على هذا؟ فقال: لجعل لي جعل على أن أطم سيد بني تميم فقال لست بسيدهم عليك بحارثة ابن قدامة فإنه سيدهم، فمضى إليه فطمه فقطعت يده.

وقال الشعبي: وجهني عبد الملك إلى ملك الروم فقال لي: من أهل بيت الخلافة أنت؟ قلت: لا ولكني رجل من العرب. فكتب إلى عبد الملك رقعة دفعها إلي، فلما قرأها عبد الملك قال لي: أتدري ما فيها؟ قلت: لا. قال: فيها المعجب لقوم فيهم مثل هذا كيف يولون أمرهم غيره. قال: أتدري ما أراد بهذا؟ قلت: لا. قال: حسدني عليك فأراد أن أقتلك، فقلت: إنما كبرت عنده يا أمير المؤمنين لأنه لم يترك شيئاً إلا سألني عنه، وأنا أجيبه. فبلغ ملك الروم ما قاله عبد الملك للشعبي، فقال: لله أبوه ما عدا ما في نفسي. ولما ولي عبد الملك بن مروان أخاه بشراً الكوفة وكان شاباً ظريفاً غزلاً بعث معه روح بن زنباع وكان شيخاً متورعاً فقتل على بشر مرافقته، فذكر ذلك لندمائه فتوصل بعضهم إلى أن دخل بيت روح بن زنباع ليلاً في خفية، فكتب على حائط قريب من مجلسه هذه الآيات:

يا رَوْحُ مَنْ لَبَّيَاتٍ وَأَرْمَلَةٍ إِذَا نَعَاكَ لِأَهْلِ الْمَغْرِبِ النَّاعِي
إِنَّ ابْنَ مَرْوَانَ قَدْ حَانَتْ مَنِيَّتُهُ فَاحْتَلْ بِنَفْسِكَ يَا رَوْحُ بْنُ زَنْبَاعٍ

فتخوف من ذلك وخرج من الكوفة، فلما وصل إلى عبد الملك أخبره بذلك، فاستلقى على قفاه من شدة الضحك وقال: قتل على بشر وأصحابه فاحتالوا لك.

ومن الحيل الظريفة: ما حكى أن النبي ﷺ لما فتح خيبر، وأعرس بصفية، وفرح المسلمون جاءه الحجاج بن علاط السلمي وكان أول من أسلم في تلك الأيام وشهد خيبر، فقال: يا رسول الله إن لي بمكة مالا عند صاحبتني أم

(١) الباه: القدرة الجنسية.

(٢) طمه: ضربه يده.

شبهة، ولي مال متفرق عند تجار مكة فأذن لي يا رسول الله في العودة إلى مكة عسى أسبق خبر إسلامي إليهم، فإني أخاف إن علموا بإسلامي أن يذهب جميع مالي بمكة، فأذن لي لعلني أخلصه. فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني أحتاج إلى أن أقول، فقال له رسول الله ﷺ: قل وأنت في حل. قال الحجاج: فخرجت فلما انتهيت إلى الشبة ثية البيضاء وجدت بها رجلاً من قريش يسمعون الأخبار وقد بلغهم أن رسول الله ﷺ سار إلى خير، فلما أبصروني قالوا: هذا لعمرك الله عنده الخير، أخبرنا بالحجاج فقد بلغنا أن القاطع، يعنون محمداً ﷺ، قد سار إلى خير؟ قال: قلت إنه سار إلى خير وعندي من الخبر ما يسركم. قال: فاحذقوا حول ناقتي يقولون إيه يا حجاج. قال: قلت هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وأسر محمد، وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلونه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم. قال فصاحوا بمكة: قد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تتظنون أن يقدم به عليكم فيقتل بين أظهركم. قال: قلت أعينوني على جمع مالي من غرماتي فإني أريد أن أقدم خير فأغنم من ثقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هناك. فقاموا معي فجمعوا لي مالي كأحسن ما أحب. فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أبل علي حتى وقف إلى جانبي وأنا في خيمة من خيام التجار، فقال: يا حجاج ما هذا الخبر الذي جئت به؟ قال: قلت: وهل عندك حفظ لما أودعه عندك من السر؟ فقال: نعم والله. قال: قلت استأخر عني حتى ألقاك على خلاء فإني في جمع مالي كما ترى، فانصرف عني حتى إذا فرغت من جمع كل شيء كان لي بمكة، واجمعت على الخروج لقيت العباس فقلت له: احفظ علي حديثي يا أبا الفضل فإني أخشى أن يتبعوني، فأكنم علي ثلاثة أيام ثم قل ما شئت. قال: لك علي ذلك. قال: قلت والله ما تركت ابن أخيك إلا عروساً على ابنة ملكهم يعني صفية، وقد افتتح خيراً وغنم ما فيها وصارت له ولأصحابه. قال: أحق ما تقول يا حجاج؟ قال: قلت إي والله ولقد أسلمت وما جئت إلا مسلماً لأخذ مالي خوفاً من أن أغلب عليه، فإذا مضت ثلاثة فاطهر أمرك فهو والله على ما تحب. قال: فلما كان في اليوم الرابع لبس العباس حلة له، وتخلق بالطيب وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها فلما رآوا قالوا يا أبا الفضل هذا والله هو التجلد لحر المصيبة. قال: كلا والذي حلفتم به لقد افتتح محمد خير، وترك عروساً على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه. قالوا: من جاءك بهذا الخبر؟ قال: الذي جاءكم بما جاءكم ولقد دخل عليكم مسلماً، وأخذ ماله وانطلق ليلحق محمداً وأصحابه ليكون معهم. قالوا: تفلت عدو الله، أما والله لو علمنا به لكان لنا وله شأن. قال: ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك، فتوصل الحجاج بقطته واحتياه إلى تخليصه وتحصيل ماله.

ولما اجتمعت الأحزاب على حرب رسول الله ﷺ عام الخندق، وقصدوا المدينة وتظاهروا وهم في جمع كثير، وجم غفير من قريش وخطفان، وقبائل العرب، وبني النضير، وبني قريظة من اليهود ونازلوا رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، واشتد الأمر، واضطرب المسلمون، وعظم الخوف على ما وصفه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنَّونا﴾ هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا وزلزالاً شديداً^(١) فجاء نعيم بن مسعود بن عامر الغطفاني إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ: خذ^(٢) عنا إن استطعت فإن

(١) سورة: الأحزاب، الآيات: ١٠ - ١١.

(٢) خذ: اجعلهم يتخاذلون.

الحرب خدعة. فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان نديماً لهم في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة قد علمتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت لست عندنا بمتهم، فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأتم، فإن البلد ببلدكم، وبه أموالكم وأبناؤكم، ونسائكم لا تقدرين على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهروهم عليه، وأموالهم، وأولادهم، ونسائهم بغير بلدكم وليسوا مثلكم لأنهم إن رأوا فرصة اغتصموها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به، إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمداً. قالوا: أشرت بالرأي. ثم أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به، إن خلا بكم فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن تقاتلوا معهم محمداً. قالوا: أشرت بالرأي. ثم أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب وكان إذ ذاك قائد المشركين من قريش ومن معه من كبراء قريش: قد علمتم ودي لكم وفراقي محمداً وأنه قد بلغني أمر وأحببت أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكموه علي. قالوا: نعم. قال: اعلّموا أن معشر يهود بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا فيما بينهم وبين محمد. وقد أرسلوا إليه يقولون: إنا قد ندمنا على نقض العهد الذي بيننا وبينك فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنسلمهم إليك فتضرب رقابهم، ثم نكون معك على من بقي منهم فنستأصلهم. فأرسل يقول نعم. فإن بعث إليكم يهود يلتصون منكم رهائن من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحداً، ثم خرج حتى أتى غطفان فقال لهم مثل ما قال لقريش وحلّهم، فلما كانت ليلة السبت أرسل أبو سفيان ورؤوس بني غطفان إلى بني قريظة يقولون لهم: إنا لسنا بدار مقام وقد هلك الخف والحافر، فاعتدوا^(١) للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ فيما بيننا وبينه. فأرسلوا يقولون لهم اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً، فإننا نخشى إن دهمتكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تشمروا إلى بلادكم وتتركنا، والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا به. فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة يقولون: إنا لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا وقاتلوا. فقالت بنو قريظة، حين انتهت إليهم الرسل: إن الكلام الذي ذكره نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك شمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم، فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنا لا نقاتل حتى تعطونا رهناً، فأبوا عليهم، فخذل الله تعالى بينهم. وأرسل عليهم الريح ففرقوا وارتحلوا وكان هذا من لطف الله تعالى أن ألهم نعيم بن مسعود هذه الفتنة وهده إلى اليقظة التي عمّ قمعها وحسن وقعها.

وأما ما جاء في التبليغ والتبصر في الأمور: فقد قالت الحكماء: من أيقظ نفسه وألبسها لباس التحفظ أيس عدوه من كيد له، وقطع عنه أطماع الماكرين به. وقالوا: اليقظة حارس لا ينام، وحافظ لا ينسام، وحاكم لا يرتشي فمن تدرع بها أمن من الاختلال، والغدر، والجور، والكيد، والمكر. وقيل إن كسرى أنو شروان كان أشد الناس تطلّعاً

في خفايا الأمور، وأعظم خلق الله تعالى في زمانه تفحصاً وبحثاً عن أسرار الصدور، وكان يث العيون على الرعايا، والجواسيس في البلاد، ليقف على حقائق الأحوال، ويطلع على غوامض القضايا، فيعلم المفسد فيقابل بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالإحسان ويقول: متى غفل الملك عن تعرف ذلك، فليس له من الملك إلا اسمه وسقطت من القلوب هيبة.

وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: خرج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ليلة من الليالي يطوف يتفقد أحوال المسلمين فرأى بيتاً من الشعر مضروباً لم يكن قد رآه بالأمس فدنا منه فسمع فيه أنين امرأة، ورأى رجلاً قاعداً فدنا منه وقال له: من الرجل؟ فقال له: رجل من البادية قدمت إلى أمير المؤمنين لأصيب من فضله. قال: فما هذا الأنين؟ قال: امرأة تتمخض قد أخذها الطلق، قال: فهل عندها أحد؟ قال: لا. فانطلق عمر والرجل لا يعرفه فجاء إلى منزله فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب بنت فاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنهما: هل لك في أجرة قد ساقه الله تعالى لك؟ قالت: وما هو؟ قال: امرأة تتمخض ليس عندها أحد. قالت: إن شئت. قال: فخذني معك ما يصلح للمرأة من الخرق والدهن واثنني بقدر وشحم وحبوب، فجاءت به فحمل القدر ومشيت خلفه حتى أتى البيت، قال: ادخلي إلى المرأة، ثم قال الرجل: أوقد لي ناراً، ففعل، فجعل عمر ينفخ النار ويضرعها والدخان يخرج من خلال لحية حتى أنفضجها، وولدت المرأة، فقالت أم كلثوم رضي الله تعالى عنها: بشر صاحبك يا أمير المؤمنين بغلام، فلما سمعها الرجل تقول يا أمير المؤمنين ارتاع وخجل وقال: واخجلتاه منك يا أمير المؤمنين أهكذا تفعل بنفسك؟ قال: يا أبا العرب من ولي شيئاً من أمور المسلمين ينبغي له أن يتطلع على صغير أمورهم وكبيره فإنه عنها مسؤول، ومتى غفل عنها خسر الدنيا والآخرة. ثم قام عمر رضي الله تعالى عنه وأخذ القدر من فوق النار، وحملها إلى باب البيت، وأخذتها أم كلثوم وأطعمت المرأة، فلما استقرت وسكنت طلعت أم كلثوم، فقال عمر رضي الله تعالى عنه للرجل: قم إلى بيتك وكل ما بقي في البرمة وفي غد أتت إلينا. فلما أصبح جاءه فجهره بما أغناه به وانصرف. وكان رضي الله تعالى عنه من شدة حرصه على تعرف الأحوال، وإقامة قسطاس العدل، وإزاحة أسباب الفساد، وإصلاح الأمة يعرض بنفسه ويأمر أمور الرعية سراً في كثير من الليالي، حتى إنه في ليلة مظلمة خرج بنفسه فرأى في بعض البيوت ضوء سراج وسمع حديثاً، فوقف على الباب يتجسس، فرأى عبداً أسود قدماه إناء فيه ميزر^(١) وهو يشرب ومعه جماعة فهم بالدخول من الباب فلم يقدر من تحصين البيت فتسور على السطح ونزل إليهم من الدرجة ومعه الدرة، فلما رآوه قاموا وفتحوا الباب وانهمزوا فمسك الأسود، فقال له يا أمير المؤمنين إن كنت قد أخطأت وإنني تائب فاقبل توبتي، فقال أريد أن أضربك على خطيئتك، فقال يا أمير المؤمنين إن كنت قد أخطأت في واحدة فأنت قد أخطأت في ثلاث فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَجَسَّوْا﴾^(٢) وأنت تجسس. وقال تعالى ﴿وَأَتُوا تَسْتَأْذِنُوا وَتَسْلَمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٣) وأنت آتيت من السطح وقال تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بِيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتَسْلَمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٤) وأنت دخلت وما سلمت فهب هذه لهذه، وأنا تائب إلى الله تعالى على يدك أن لا أعود، فاستوبه واستحسن كلامه. وله رضي الله تعالى عنه وقائع كثيرة مثل هذه.

(١) ميزر: خمر من الشعر.

(٢) سورة: الحجرات، الآية: ١٢.

(٣) سورة: البقرة، الآية: ١٨٩.

(٤) سورة: النور، الآية: ٢٧.

وكان معاوية بن أبي سفيان رضي الله تعالى عنه قد سلك طريق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في ذلك. وكان زياد بن أبيه يسلك مسلك معاوية في ذلك حتى نقل عنه أن رجلاً كلمه في حاجة له وجعل يتعرف إليه ويظن أن زياداً لا يعرفه فقال أنا فلان بن فلان، فتبسم زياد وقال له: أتعرف إلي وأنا أعرف بك منك بنفسك؟ والله إني لأعرفك وأعرف أباك وأعرف أمك، وأعرف جدك، وجدتك وأعرف هذه البردة التي عليك وهي لفلان وقد أعارك إياها. فبهت الرجل وارتعد حتى كاد يغشى عليه. ثم جاء بعدهم من اقتدى بهم، وهو عبد الملك بن مروان والحجاج، ولم يسلك بعدهما ذلك الطريق واقتضى^(١) آثار ذلك الفريق، إلا المنصور ثاني خلفاء بني العباس.

ولي الخلافة بعد أخيه السفاح وهي في غاية الاضطراب، فنصب العيون وأقام المتطلعين واث في البلاد والنواحي مَنْ يكشف له حقائق الأمور والرعايا، فاستقامت له الأمور ودانت له الجهات، ولقد ابتلي في خلافته بأقوام نازعوه وأرادوا خلعهم، وتمردوا عليه، وتكاثروا، فلولا أن الله تعالى أعانه بتيقظه وتبصره ما ثبت له في الخلافة قدم ولا رفع له مع قصد أولئك القاصدين علم، لكنه بث العيون فعرف مَنْ انطوى على خلافه فعالجه باتلافه، واطلع على عزائم المعاندين فقطع رؤوس عنادهم بأسيافه، وكان لكمال يقظته يتلقى المحذور يدفعه دون رفعه، ويعاجل المخوف بفريق شمله قبل جمعه، فذلت له الرقاب ولانت لخلافته الصعاب، وقرّر قواعدها وأحكمها بأوثق الأسباب.

فمن آثار يقظته وفطنته ما نقله عنه عقبة الأزدي قال: دخلت مع الجند على المنصور فارتابني، فلما خرج الجند أدناني وقال لي: من أنت؟ فقلت: رجل من الأزدي، وأنا من جند أمير المؤمنين قدمت الآن مع عمر بن حفص، فقال: إني لأرى لك هيبة، وفيك نجابة، وإني أريدك لأمر وأنا به معني فإن كفتيه رفعتك، فقلت: إني لأرجو أن أصدق ظن أمير المؤمنين في، فقال: أخض نفسك واحضر في يوم كذا. قال: فغبت عنه إلى ذلك اليوم وحضرت، فلم يترك عنده أحداً، ثم قال لي: أعلم أن بني عمنا هؤلاء قد أبوا إلا كيد ملكنا واغتياله، ولهم شيعة بخراسان بقرية كذا، يكتابونهم ويرسلون إليهم بصدقات أموالهم والأطاف بلادهم، فخذ معك عيناً من عندي وأطافاً وكتباً واذهب حتى تأتي عبد الله ابن الحسن بن علي بن أبي طالب فأقدم عليه متخشعاً، والكتب على السنة أهل تلك القرية، والأطاف من عندهم إليه، فإذا رآك فإنه سيردك ويقول: لا أعرف هؤلاء القوم، فاصبر عليه وعاوله وقل له: قد سيروني سرّاً وسيروا معي أطافاً وعيناً، وكلما جبهك وأنكر، اصبر عليه وعاوله واكشف باطن أمره.

قال عقبة: فأخذت كتبه، والعين، والأطاف وتوجهت إلى جهة الحجاز حتى قدمت على عبد الله بن الحسن فلقيته بالكتب فأنكرها ونهرني^(٢) وقال: ما أعرف هؤلاء القوم. قال عقبة: فلم أنصرف وعاولته القول، وذكرت له اسم القرية، وأسماء أولئك القوم وأن معي أطافاً وعيناً فأنس بي وأخذ الكتب وما كان معي. قال عقبة: فتركت ذلك اليوم ثم سأله الجواب. فقال: أما كتاب فلا أكتب إلى أحد، ولكن أنت كتابي إليهم فاقترنهم السلام وأخبرهم أن ابني محمداً وإبراهيم خارجان لهذا الأمر وقت كذا وكذا. قال عقبة: فخرجت من عنده وسرت حتى قدمت على المنصور فأخبرته بذلك، فقال لي المنصور: إني أريد الحج فإذا صرت بمكان كذا وكذا وتلقاني بنو الحسن، وفيهم عبد الله فإني أعظمه وأكرمه وأرفعه وأحضر الطعام، فإذا فرغ من أكله ونظرت إليه فتمثل بين يدي وقف قدماه، فإنه سيصرف

(١) اقتضى: تتبع أثرهم.

(٢) نهرني: زجرني.

وجهه عنك فُلز حتى تقف من ورائه واغمز ظهره بإبهام رجلك حتى يملأ عينيه منك، ثم انصرف عنه وإياك أن يراك وهو يأكل. ثم خرج المنصور يريد الحج حتى إذا قارب البلاد تلقاه بنو الحسن، فأجلس عبد الله إلى جانبه فحدثه فطلب الطعام للغداء فأكلوا معه فلما فرغوا أمر برفعه فرفع، ثم أقبل على عبد الله بن الحسن وقال يا أبا محمد: علمت أن مما أعطيتني من اليهود والموائيق أنك لا تريدني بسوء ولا تكيد لي سلطاناً قال: فأنا على ذلك يا أمير المؤمنين. قال عقبه: فلحظني المنصور بعينه فقامت حتى وقفت بين يدي عبد الله بن الحسن فأعرض عني فدرت من خلفه وغمزت ظهره بإبهام رجلي فرفع رأسه وملأ عينيه مني، ثم وثب حتى جثا بين يدي المنصور وقال: أقلني^(١) يا أمير المؤمنين أقالك الله، فقال له المنصور: ولا أقالك الله إن لم أقتلك، وأمر بحبسه وجعل يتطلب ولديه محمداً وإبراهيم ويستعلم أخبارهما.

قال علي الهاشمي صاحب غدائه: دعاني المنصور يوماً فإذا بين يديه جارية صفراء وقد دعا لها بأنواع العذاب وهو يقول لها: ويلك أصدقيني فوالله ما أريد إلا الألفة ولئن صدقتني لأصلنّ رحمك، ولأتابعنّ البرّ إليه وإذا هو يسألها عن محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وهي تقول: لا أعرف له مكاناً فأمر بتعذيبها، فلما بلغ العذاب منها أغمي عليها فقال: كفوا عنها، فلما رأى أن نفسها كادت تتلف قال: ما دواء مثلها؟ قالوا: شَم الطيب، وصَب الماء البارد على وجهها، وأن تسقى السويق. ففعلوا بها ذلك وعالج المنصور بعضه بيده، فلما أفاقت سألتها عنه فقالت لا أعلم، فلما رأى إصرارها على الجحود^(٢) قال لها: أتعرفين فلانة الحجامة؟ فلما سمعت منه ذلك تغير وجهها وقالت: نعم يا أمير المؤمنين تلك في بني سليم قال: صدقت هي والله أمي ابتعتها بمالي ورزقي يجري عليها في كل شهر، وكسوة شتائها من عندي، وأمرتها أن تدخل منازلكم وتحجمكم وتعرف أحوالكم وأخباركم. ثم قال لها: أتعرفين فلاناً البقال؟ قالت: نعم يا أمير المؤمنين هو في بني فلان قال: صدقت هو والله غلامي دفعت إليه مالاً وأمرته أن يبتاع به ما يحتاج إليه من الأمتعة وأخبرني أن أمة لكم يوم كذا وكذا جاءت إليه بعد صلاة المغرب تسأله حناء وحوائح، فقال لها: ما تصنعين بهذا؟ قالت: كان محمد ابن عبد الله بن الحسن في بعض الضياع بناحية البقيع وهو يدخل الليلة وأردنا هذا ليتخذ النساء ما يحتجن إليه عند دخول أزواجهنّ من المغيب، فلما سمعت الجارية هذا الكلام من المنصور ارتعدت من شدة الخوف، وأذعنت له بالحديث وحدثته بكلّ ما أراد.

والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) أقلني: أحمل عثرتي.

(٢) الجحود: النكرات.

الباب الثاني والستون: في ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات وما أشبه ذلك مرتباً على حروف المعجم

حرف الهمزة

الأسد: من السباع والأنثى أسدة، وله أسماء كثيرة: فمن أشهرها أسامة، والحرث، وقنور والفضنفر، وحيدرة، والليث، والضرغام، ومن كناه أبو الأبطال، وأبو الشبل، وأبو العباس. وهو أنواع: منها ما وجهه وجه إنسان وشكل جسده كالبقر، وله قرون سود نحو شير. ومنها ما هو أحمر كالغالب. وغير ذلك، وتلد أنه قطعة لحم وتستمر تحرسه ثلاثة أيام، ثم يأتي أبوه فينخ فيه فتفزع أعضاؤه وتشكل صورته ثم ترضعه، وتستمر عيناه مغلقة سبعة أيام ثم تفتح، ويقم على تلك الحالة بين أبيه وأمه إلى ستة أشهر ثم يتكلف الكسب بعد ذلك، وله صبر على الجوع والعطش وعنده شرف نفس، يقال: إنه لا يعاود فريسته ولا يأكل من فريسة غيره، ولا يشرب من ماء ولغ فيه كلب. وفي ذلك يقول بعضهم:

سأترك حبكم من غير بغضي	وذاك لكثرة الشركاء فيه
إذا وقع الذباب على طعام	رفعت يدي ونفسي تشبهه
وتجنب الأسود وروء ماء	إذا كان الكلاب يلغن فيه

وإذا أكل نهش نهشاً، وريقه قليل جداً ولذلك يوصف بالبحر، وعنده شجاعة وجبن وكرم، فمن شجاعته: الإقدام على الأمور، وعدم الاكتراث بالغير، ومن جبه: أنه يفر من صوت الديك، والسنور^(١) والطست، ويتحير عند رؤية النار. ومن كرمه أنه لا يقرب المرأة خصوصاً إذا كانت حائضاً. وقيل: أربع عيون تضيء بالليل: عين الأسد، وعين النمر، وعين السنور، وعين الأفعى، وروي أنه لما تلا رسول الله ﷺ: «والنجم إذا هوى»^(٢) قال عتبة بن أبي لهب: كفرت برب النجم يعني نفسه، فقال رسول الله: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ينهشه، فخرج مع أصحابه في غير إلى الشام حتى إذا كانوا بمكان يقال له الزرقاء زار الأسد، فجعلت فرائصه^(٣) ترتعد، فقالوا له: من أي شيء ترتعد فرائصك، فوالله ما نحن وأنت إلا سواء، فقال: إن محمداً دعا علي، والله ما أظلت السماء من ذي لهجة أصدق من محمد، ثم وضعوا العشاء فلم يدخل يده فيه، ثم جاء النوم فحاطوا أنفسهم بمتاعهم وجعلوه بينهم وناموا فجاء الأسد يتهمس وشمهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إليه فضغطة ضغطة كانت إياها فسمع وهو بأخر رمق يقول: ألم أقل لكم إن محمداً أصدق الناس. ولبعضهم في الأسد:

(١) السنور: الحصر.

(٢) سورة: النجم، الآية: ١.

(٣) فرائصه: أطرافه.

عبوسٌ شمسٌ مصلخد^(١) مكابدٌ جريٌّ على الأقران للقرن قاهرٌ
برائته شش^(٢) وعيناه في الدجى كجمر الغضى في وجهه الشرُّ ظاهرٌ
يديل^(٣) بأنياب حدادٍ كأنها إذا قلص الأشداق عنها خناجرٌ

فائدة: إذا أقبلت على واد مسيح^(٤) فقل أعود بدانيال والجب من شر الأسد، وسبب ذلك على ما قيل أن يختصر رأى في نومه أن هلاكه يكون على يد مولود فجعل يأمر بقتل الأطفال فخافت أم دانيال عليه فجاءت إلى بشر فآلفته فيه، فأرسل الله له أسداً يحرسه، وقيل إن يختصر توهم ذلك في دانيال فصرى له أسدين وجعلهما في الجب وألقاه عليهما فلم يؤذياه، وصاراً يصبصان حوله ويلحسانه فأقام ما شاء الله تعالى أن يقيم، ثم انتهى الطعام والشراب فأوحى الله تعالى إلى أرمياء بالشام أن أذهب إلى أخيك دانيال بجب كذا، بمكان كذا، قال أرمياء فسرت إلى ذلك الموضع فلما وقفت على رأس ذلك الجب ناديت فعرفتي فقال من أرسلك إلي قلت أرسلني إليك ربك بطعام وشراب قال الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره والحمد لله الذي لا يخيب من قصده، والحمد لله الذي من وثق به لا يكله إلى غيره، والحمد لله الذي يجزي بالإحسان إحساناً وبالصبر نجاةً وغفراناً، والحمد لله الذي يكشف ضرنا بعد كربنا، والحمد لله الذي هو ثقتنا حين تسوء ظولنا بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحيل عنا. قال ثم صعد به أرمياء من الجب وأقام عنده مدة ثم فارقه ورجع.

وحكي أن يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام مر بقبر دانيال عليه الصلاة والسلام فسمع منه صوتاً يقول: سبحان من تعزز بالقدره وقهر العباد بالموت. قال بعض الصالحين: من قال هذه الكلمات استغفر له كل شيء.

وحكي أن إبراهيم بن أدهم كان في سفر ومعه رفقة فخرج عليهم الأسد فقال لهم قولوا: اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واحفظنا بركتك الذي لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا، فلا نهلك وأنت رجاؤنا يا الله يا الله يا الله. قال: فولى الأسد هارباً. وقيل: لما حمل نوح عليه الصلاة والسلام في سفينته من كل زوجين اثنين قال أصحابه: كيف نطمئن ومعنا الأسد، فسلط الله عليه الحمى، وهي أول حمى نزلت في الأرض ثم شكوا إليه العذرة، فأمر الله تعالى الخنزير ففطس فخرج منه الفأر فلما كثر ضرره شكوا ذلك إلى نوح عليه الصلاة والسلام فأمر الله سبحانه وتعالى الأسد ففطس فخرج منه الهر فحجب الفأر عنهم ويحرم أكل السبع لئله عليه الصلاة والسلام عن أكل كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير.

خواصه: فمن خواصه أن صنوته يقتل التماسيح، وشحمه من طلى به يده لم يقربه سبع، ومرارة الذكر منه تحل المعقود، ولحمه ينفع من الفالج وإذا وضعت قطعة من جلده في صندوق لم يقربه سوس ولا أرضة، وإذا وضع على جلد غيره من السباع تساقط شعره وهو من الحيوان الذي يعيش ألف سنة على ما ذكر وعلامة ذلك كثرة سقوط أسنانه.

الإبل: قيل ما خلق الله شيئاً من الدواب خيراً من الإبل، إن حملت أثقلت، وإن سارت أبعدت، وإن حلبت

(١) مصلخد: قوي شديد.

(٢) شش: غليظة.

(٣) يدیل: يغلب.

(٤) مسیح: كثير السباع.

أروت، وإن نحرث أشبعت وفي حديث «الإبل عز لأهلها، والغنم بركة، والخليل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة» وهي من الحيوان العجيب وإن كان عجبه قد سقط لكثرة مخالطته الناس وقد أطاعها الله للآدمي وغيره حتى قيل إن قطاراً^(١) كان يبعض جبهه دهن، فمرت فأرة فجذبت، فسار معها القطار بواسطة جذبها له، وهي مراكب البر، ولذلك قرنها الله تعالى بالسفن فقال تعالى: ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾^(٢) ولما كانت مراكب البر، والبر فيه ما ماؤه قليل، وما ماؤه كثير جعل الله تعالى لها صبراً على العطش حتى قيل إنه يرتفع ظمؤها إلى عشر، وفي الحديث: «لا تسبوا الإبل فإنها من نفس الله تعالى» أي مما يوسع به على الناس حكاية ابن سيده، والذي يعرف: لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن قال أصحاب الكلام في طبائع الحيوان ليس لشيء من الفحول مثل ما للجمل عن هيجانه فإنه يسوء خلقه، فيظهر زبده، ويقل رغاؤه فلو حمل عليه ثلاثة أضعاف عادته حمل، ويقل أكله، ويخرج له عند رغاؤه شقيقة لا تعرف من أي شيء هي من أجزائه، وهو من الأحرار حتى قيل إنه لا يتزو على أمه، ولا على أخته، حتى قيل إن بعض العرب ستر ناقة بثوب، ثم أرسل عليها ولدها، فلما عرف ذلك عمد إلى إحليله فأكله ثم حقد على صاحبه حتى قتله، وليس له مرارة ولذلك كثر صبره. وقيل يوجد على كبده شيء رقيق يشبه المرارة ينفع الغشاوة في العين كحلا، وفي معدته قوة حتى أنها تهضم الشوك وتستطيعه، ويحل أكله بالنص والإجماع. وأما تحريم يعقوب عليه الصلاة والسلام أكلها فباجتهاد منه. وذلك أنه كان يسكن البوادي فاشتكى عرق النسا فلم يجد ما يلائمه إلا ترك أكل لحومها فلذلك حرّمها. وأما انتقاص الضوء بأكل لحمها فاختلف العلماء في ذلك، فذهب طلحة، وعامر بن ربيعة، وأبو أمامة وجماهير التابعين، وبه أخذ مالك والشافعي وأبو حنيفة وأصحابهم، وخالف في ذلك أحمد، وإسحاق، ويحيى بن يحيى، وابن المنذر، وابن خزيمة. واختاره أليهقي وهو مذهب الشافعي القديم.

خواصه: قال ابن زهير: أكل لحمه يزيد في الباه وفي الإنعاط^(٣) بعد الجماع ويوله يفيق السكران، وويره إذا أحرق وذّر على دم سائل قطعه، وفراده إذا ربط على كم عاشق يزول عشقه.

الأرضة: بفتح الهمزة والراء دويبة صغيرة كنصف العدسة تأكل الخشب والورق، ولما كان فعلها في الأرض أضيف اسمها إليها. قال القزويني: إذا أتى على الأرضة سنة نبت لها جناحان طويلان تطير بهما، ويقال إنها الدابة التي دلت الجنّ على موت سليمان عليه الصلاة والسلام. ومن شأنها أنها تبني لنفسها بيتاً من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت منخرطاً من أسفله إلى أعلاه، وله في إحدى جهاته باب مربع ومنه تعلم الأوائل وضع النواويس لموتاهم، والنمل عدوها وهو أصغر منها فيأتي من خلفها ويحتملها ويمشي بها إلى جحره لأنه إذا أتاها مستقبلاً لا يغلبها.

الأرنب: حيوان شبه العناق قصير البدن طويل الرجلين يطأ الأرض على مؤخر قدميه، وهو اسم يطلق على الذكر والأنثى، وله شدة شبق، وربما تسفد^(٤) وهي حبلى ويكون عاماً ذكراً، وعاماً أنثى. ومن عجائبا أنها تنام وعيناها مفتوحتان فيأتي الصياد فيظنها مستيقظة. قيل: من رأى أرنباً عند خروجه من بيته أول ما يخرج أو رآه عند قدميه من

(١) قطار: قافلة فيها متاليات الإبل.

(٢) سورة: المؤمنون، الآية: ٢٢.

(٣) الإنعاط: الشهوة والشبق.

(٤) تسفد: تنكح.

نومه واصطبح به لم تقض له حاجة في ذلك اليوم. ومن عجيب أمره أن تحمل الأنثى منه باثنين وثلاثة وأربعة، ولا تلد إلا تحت الأرض خوفاً على أولادها من الإنسان، وتحفر تحت الأرض الحفائر القوية حتى أنها تخرب الجدران وعند ولادتها يتحل شعرها، وتحضن الأولاد إلى عشرين يوماً، ومن طبعه أنه أبله وفيه قوة وشدة وفي سفاده حالة نزوه يصرخ الذكر والأنثى كالسنابير، فإذا وقع منه الإنزال وقع على الأرض قليل الحركة تدير له وجهها فإذا ملكها بعد ذلك فإنها تجري به وهو راكب عليها ويجري معها.

فائدة: ذكر ابن الأثير في الكامل أن صديقاً له اصطاد أرنباً، وله أنثيان، وذكر وفرج، وقيل: التقطت الأرنب تمره فاختلسها الثعلب فأكلها فانطلقا يتخاصمان إلى الضب. فقال الأرنب: يا أبا حسل، فقال: سمياً دعوت. قالت: أتيناك لختصم. قال: عادلاً حكيماً. قالت: فاخرج إلينا. قال: في بيته يؤتى الحكم. قالت: إني وجدت تمره حلوة. قال: فكليها. قالت: قد اختلسها^(١) الثعلب قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته. قال: بحق أخذت. قالت: فلطمني قال: اقتص. قالت: فاقض بيننا. قال: قد قضيت. فذهبت أقواله أمثالاً. ومن ذلك ما حكى أن عدي بن أرطاة أتى شريحاً القاضي في مجلس حكمه فقال له: أين أنت؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: فاسمع مني. قال: للاستماع جلست. قال: إني تزوجت امرأة. قال: بالرفاء والبنين. قال: فشرط أهلها أن لا أخرجها من بينهم. قال: أوف لهم الشرط. قال: فأنا أريد الخروج. قال: الشرط أملك. قال: أريد أن أذهب. قال: في حفظ الله. قال: فاقض بيننا. قال: قد فعلت. قال: فعلى من قضيت؟ قال: على ابن أمك. قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت خالك.

الخواص: قال الجاحظ: من علق عليه كعب أرنب لم تضره عين ولا سحر، وأكل دماغه يبرئ من الارتعاش العارض من البرد، وإن شربت المرأة الحامل أنفحة الذكر ولدت ذكراً، وإن شربت أنفحة الأنثى ولدت أنثى، وإن علقت عليها زبلها لم تحمل، والأرنب البحري من السموم فلا يحل أكله.

سقنقور: دابة شكلها كالوزغة^(٢) إذا أخذت وسلخت وملحت وشرب منها مثقال، زاد في الباه. من الأشياء النفيسة عن أهل الهند، يقال إنه يهدي إليهم فيذبحونه بسكين من الذهب ويحشونه من ملح مصر فإذا وضعوا منه مثقالاً على لحم أو بيض نفع عظيماً.

الأفعى: الأنثى من الحيات، والذكر أفعون، وهو يعيش ألف سنة على ما يقال، ويعرف بالشجاع والأسود وهو أشر الحيات، وأشرها حيات وأفاعي سجستان. ومن عجيب ما يحكى عنها أنها لدغت إنساناً في رجله فانصدعت جبهته. وحكي أنها نهشت ناقة وفصيلها يرضع فمات قبل أمه. وقيل: لما دخل شبيب بن شبة على المنصور قال له يا شبيب أدخلت سجستان؟ فقال: نعم. قال صف لي أفاعيها. قال يا أمير المؤمنين هي دقاق الأعناق. صفار الأذناب، مقلصة الرؤوس، رقص برش كأنما كسين أعلام الحبرات، كبارهن حتوف، وصغارهن سيوف. وقيل إنها تندفن في التراب أربعة أشهر في البرد، ثم تخرج وقد أظلمت عيناها فتمرّ بشجر الرزايانج وهو الشمر الأخضر فتحك عينها به فيرجع إليها بصرها، فسبحان من ألهمها ذلك. وقال الزمخشري: إذا عميت الأفعى بعد ألف سنة ألهمها الله تعالى أن

(١) اختلسها: سرقها.

(٢) الوزغة: زاحفة من أضراب الحرباء.

تأتي البساتين وتلقي نفسها على هذه الشجرة وتحكّ عينيها بها فتبصر. وقيل: إذا قطع ذنبها عاد كما كان، وإذا قلع نابها، عاد بعد ثلاثة أيام، وهي أعدى عدو للإنسان. وقال بعضهم: رأيت حية قد ابتلعت كبشاً عظيم القرنين فجعلت تضرب به الحجارة يميناً ويساراً حتى كسرت القرنين وابتلعته وقرنيه والله تعالى أعلم. وقيل: إذا قطع ذنب الحية تعيش إن سلمت من الذر^(١) وقيل إن بالحبشة حيات لها أجنحة تطير بها. وقيل: إن جلدتها ينسلخ عنها في كل سنة مرة. وقيل: إن الجلد لا ينسلخ، وإنما الذي ينسلخ قشر فوق الجلد، وغلاف يخلق لها كل عام، وهي تبيض على عدد أضلاعها: أي ثلاثين بيضة فيجتمع عليها النمل فيفسدها بقدرة الله تعالى إلا نادراً.

ومن عجيب أمرها أنها لا ترد الماء، ولا تريده ولكنها إذا شمّت رائحة الخمر فلا تكاد تبصر عنه مع أنه سبب هلاكها لأنها إذا شربت سكرة فتعرضت للقتل، والذكر لا يقيم في الموضع، وإنما يقيم الأنثى لأجل فراخها حتى تكتسب قوة، فإذا قويت أخذتهم وانسابت، فأتي جحر وجدته دخلت فيه وأخرجت صاحبه منه، وعينها لا تدور، إذا قلعت عادت.

ومن عجيب أمرها أنها تهرب من الرجل العريان، وتفرح بالنار وتقرب منها، وتحبّ اللبن حباً شديداً وإذا دخلت بصدرها في حجر لا يستطيع أقوى الناس إخراجها منه ولو قطعت قطعاً وليس لها قوائم ولا أظفار وإنما تقوى بظهرها لكثرة أضلاعها.

وحكى عمر بن يحيى العلوي قال: كنا في طريق مكة فأصاب رجلاً منا استسقاء، فاتفق أن العرب سرقوا منا قطار جمال على أحدها ذلك الرجل. قال: ثم بعد أيام جمعتنا المقادير فوجدته قد برىء فسألناه عن حاله، فقال: إن العرب لما أخذوني جعلوني في أواخر بيوتهم فكانت في حالة أمني فيها الموت، وبينما أنا كذلك إذا أتوني يوماً بأفاصي اصطادوها وقطعوا رؤوسها وأذنانها وشووها بعد ذلك، فقلت في نفسي: هؤلاء اعتادوها فلا تضرهم فلعلي إن أكلت منها مت فاسترحت، فاستطعمتهم فأطعموني واحدة، فلما استقرت في بطني أخذني النوم فنمت نوماً ثقيلاً، ثم استيقظت وقد عرقت عرقاً شديداً، واندفعت طبعتي^(٢) نحو مائة مرة، فلما أصبحت وجدت بطني قد ضمّر وقد انقطع الألم، فطلبت منهم مأكولاً فأكلت وأقمت عندهم أياماً فلما نشطت ووثقت من نفسي بالحركة أخذت في الطريق مع بعضهم وأتيت الكوفة.

فأثلة: قيل إن الريحان الفارسي لم يكن قبل كسرى وإنما وجد في زمانه، وسببه أن كسرى كان ذات يوم جالساً في بعض متفرجاته إذا جاءته حية فانسابت بين يديه وتمرّغت وصارت تتلق مثل الذي يشتكي، فأراد بعض الجند قتلها فمنعهم الملك. ثم قال لهم: انظروا أمرها فلما سمعت ذلك انسابت بين يديه، فأمرهم أن يتبعوها إلى المكان الذي تريده. قال: فجاءت إلى بئر وصارت تنظر فيه قال فنظروا فإذا فيه حية عظيمة وعلى ظهرها عقرب أسود فتحسها بعضهم برمح فقتلها وتركوها ورجعوا فأخبروا الملك بذلك، فلم كان الغد جاءت الحية للملك وفي فمها بزر فشرته بين يدي الملك وذهبت فقال الملك: إنها أرادت مكافأتنا اجعلوه في الأرض لتنظر ما يكون من أمره. قال: ففعلوا ذلك فطلع منه الريحان. قال: انتهى أمره أتوا به إلى الملك. قال: وكان به زكام فشمه فبرىء.

(١) الذر: صغيرات النمل.

(٢) طبعتي: أي تقياً مرات.

لطيفة: من غريب ما اتفق لعماد الدولة أنه لما ملك شيراز اجتمع عليه أصحابه وطلبوا منه مالاً ولم يكن عنده ما يرضيهم به فاغتم لذلك ونام مستلقياً على قفاه مفكراً في ذلك، وإذا بحية عظيمة خرجت من سقف ذلك المجلس ودخلت في سقف آخر. قال: فطلب سلماً وصعد لينظر المكان الذي خرجت منه فلما رآه وجد كوة فنظر في داخلها فإذا هي مطمورة فدخلها، فوجد فيها صندوقاً فيه خمسمائة ألف دينار فأمر بإخراجه وإنفاقه على عسكره.

ومن ألطف ما اتفق له أيضاً أنه كان بتلك البلد خياط أطروش^(١)، وكان الملك الذي قبله قد أودع عنده وديعة مال، قال: فطلبه عماد الدولة ليخيط له على عادته لأنه هو الذي يخيط للملوك. قال: فتوهم الأطروش أنه غمز عليه بسبب الوديعة، فلما حضر بين يدي عماد الدولة قال له: إن فلاناً الملك لم يدع عندي سوى اثني عشر صندوقاً ولم أدر ما فيها، فأمر بإحضارها فأحضرها فأخذها عماد الدولة ووسع بها على جنده وتمجب من هاتين القضيتين. فكانت هذه الأسباب من دلائل السعادة له. وأمر النبي ﷺ بقتل الحيات بعد أن تنذر ثلاث مرات، وقيل ثلاثة أيام، وأما سكان البيوت فالإنذار لها متعين. وفي الحديث: «من قتل حية فكأنما قتل مشركاً ومن لبس خفاً فليفضه، ومن آوى إلى فراشه فلينظفه».

الخواص: يقال إن دمها يجلو البصر، وقلبها إذا علق على إنسان لا يؤثر فيه السحر، وضرسها إذا علق على من به وجع الضرس سكن الأيمن للأيمن، والأيسر للأيسر. ولحمها قال بقراط الحكيم: من أكله أمن من الأمراض الصعبة. الأنيس: وتسميه الرماة الأنيسة لأنه من طيور الواجب عندهم، وهو طير له لون حسن، غذاؤه الفاكهة، ومأواه الأنهار والبساتين والغياض، وله صوت حسن كالقمري.

الأوز: طير يحب السباحة وفراخه تخرج من البيضة تسبح.

الخواص: في جوفه حصاة تنفع المبطون، ودهنه ينفع من ذات الجنب، وداء الثعلب إذا طلي به، ولسانه ينفع لقطار البول، وغذاؤه جيد إلا أنه بطيء الهضم.

الأيمل: بتشديد الياء المكسورة، ذكر الوعل وله أسماء باختلاف اللغات، وهو يشبه بقر الوحش، وإذا خاف من الصياد رمى بنفسه من رأس الجبل ولا يتضرر بذلك، وإذا لسعته حية ذهب إلى البحر فأكَل السرطان فيشفى.

خواصه: إن السمك يحب رؤيته وهو يحب ذلك ولذلك أكثر ما يكون بقرب البحر، والصيداؤون يعرفون ذلك فيلبسون جلده ليراهم السمك، فيأتي لهم وهو مولع بأكل الحيات وربما لسعته فتسيل دموعه تحت محاجر عينيه، حتى تصير نقرتين من كثرة ذلك ثم تجمد تلك الدموع فتصير كالشمع، فتؤخذ وتجعل دواء للسم. وهو الذي يسمى بالبتزهر الحيواني، وأجوده الأصفر، وأكثر ما يكون ببلاد الهند، والسند، وفارس، وإذا وضع على لسعة الحيات أبرأها، وإن وضعه الملسوع في فيه نفعه، وهذا الحيوان لا تنبت قرناه إلا بعد ستين، وينبتان في أول الأمر مستقيمين ثم بعد ذلك يحصل فيهما التشعب، ولا يزالان إلى ست سنين فحينئذ يصيران كخنثيتين، ثم بعد ذلك يلقيهما في كل سنة مرة ثم ينبتان. قال أرسطو: وهذا النوع يصاد بالصفير، والأصوات المطربة فإنه يحب الطرب، والصيداؤون يشغلونه بذلك، ويأتونه من ورائه فإذا رأوه قد استرخت أذناه وثبوا عليه، وقرنه مصمت، وإحليله من عصب لا عظم

فيه ولا لحم، وهو من الحيوان الذي يزيد في السمن، فإذا حصل له ذلك فرّ من مكانه خوفاً من الصيادين وحكمه حل أكله.

ومن خواصه إذا بخر بقرنه البيت طرد الهوام التي فيه، وإذا أحرق واستاك به الذي به صفرة الأسنان زال ذلك عنه، ومن علق عليه شيء منه ذهب نومه. ومن خواصه أن دمه يفتت الحصة التي بالمثانة شرباً، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

حرف الباء الموحدة

باز: كنيته أبو الأشعث، وهو من أشد الحيوان تكبراً، وأضيقها خلقاً، قال القزويني: إنها لا تكون إلا أنثى، وذكرها من غيرها، إما من جنس الحداة أو الشواهين ولأجل ذلك تختلف ألوانها وهو أصناف منها البازي، والباشق، والشاهين، والبيدق، والصقر. والبازي أحمرها مزاجاً لأنه لا يصبر على العطش فلذلك لا يفارق الماء والأشجار المتسعة، والظل الظليل، وهو خفيف الجناح، سريع الطيران تكثر أمراضه من كثرة طيرانه لأنه كلما طار انحط لحمه وهزل، وأحسن أنواعه ما قل ريشه واحمرت عيناه مع حدة فيهما. قال الشاعر:

لو استضاء المرء في إدلاجه بعينه كفتة عن سراجيه

ودونه الأزرق، الأحمر العيين، والأصفر دونهما. ومن صفاته المحمود أن يكون طويل العنق، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، شديد الانحطاط من الجوف، غليظ الذراعين مع قصر فيهما.

لطيفة: من عجيب أمره أن الرشيد خرج ذات يوم للصيد فأرسل بازاً فغاب قليلاً ثم أتى وفي فمه سمكة، فأحضر الرشيد العلماء وسألهم عن ذلك. فقال مقاتل: يا أمير المؤمنين رويانا عن جلك ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: إن الجور معمور بأسم مختلفة الخلق، وفيه دواب تبيض وتفرخ على هيئة السمك لها أجنحة ليست بذوات ريش. فأجاز مقاتلاً على ذلك وأكرمه.

باله: سمكة عظيمة. قال القزويني يقال إن طولها يبلغ خمسمائة ذراع، وقال غيره خمسون، ويقال لها العنبر، وهي تظهر في بعض الأحيان لأصحاب المراكب، فإذا رأواها طلبوا بالطبول، حتى إنها لا تنفر لأن لها جناحين كالقناطر إذا نشرتهما أغرقتهما، فإذا بغت على حيوان البحر وزاد شرها أرسل الله عليها سمكة نحو الذراع تلتصق بأذنها ولا خلاص لها منها، فتتزل إلى قعر البحر وتضرب رأسها به حتى تموت ثم تطفو بعد ذلك فيقذفها الريح إلى الساحل فيأخذها أهله ويشقون جوفها ويستخرجون منها العنبر.

بيضاء: هي أصناف كثيرة منها الأخضر، والرمادي، والأصفر، والأبيض يتخذها الملوك والرؤساء لحسن لونها، وصوتها، وفصاحتها.

حكى أنه أهدى لمعز الدولة درة بيضاء سوداء الرجلين والمقار ويقال إن نوعاً منها يقرأ القرآن. الخواص: من أكل لسانها تفصح، وإذا جفف دما وجعل بين الصديقين حصلت بينهما الخصومة، وزيلها يخلط بماء الحصرم ويكتحل به ينفع من الرمد وظلمة البصر. يجمع: طائر أبيض اللون يميل إلى صفرة المقار، كبير البطن أكثر أكله السمك.

بح^(١): طائر لطيف يأوي أطراف الماء، وهو خلقه شريفة لم يوجد غالباً إلا اثنين فقط.

براق: هو الدابة التي ركبها النبي ﷺ، وهو دون البغل، وفوق الحمار أبيض اللون.

برذون: نوع من الخيل دون الفرس العربي، وفي الحديث أن النبي ﷺ ركب، وكذا عمر رضي الله تعالى عنه،

فلما ركب عمر جعل يتخلخل به فتزل عنه، وضرب وجهه وقال لا علم الله من علمك هذه الخيلاء^(٢) ولم يركب برذوناً

قبله ولا بعده، وكنيته أبو الأخطل لطول ذنبه. وأنشد السراج الوراق في ذم البراذين يقول:

لصاحب الأحباس ^(٣) برذونة	بعيدة العهد عن القسوط
إذا رأيت خيلاً على مربط	تقول سبحانك يا معطي
تمشي إلى خلف إذا ما مشيت	كأنما تكتب بالقبطي ^(٤)

الخواص: إذا شربت امرأة دمه لم تحبل أبداً وزبله يخرج المشيمة والجنين الميت، وإذا جفف وذر منه على من

به الرعاف انقطع رعاؤه وكذا الجرح.

برغوث: تفتح منه الباء وتضم وكنيته أبو طامر، وأبو عدي، وأبو وثاب وهو يشب إلى ورائه.

حكي أنه يعرض له الطيران كالنمل وهو يطيل السفاد ويبض، ويفرخ وأصله أولاً من التراب لا سيما في

الأمكن المظلمة، وسلطانه في أواخر الشتاء وأول فصل الربيع، ويقال إنه على صورة الفيل وله أنياب وخرطوم وقال

بعضهم دببها من تحتي أشد من عضها، وليس ذلك بدبيب، ولكن البرغوث حيث يستلقي على ظهره ويرفع قوائمه

فيزغزغ بها فيظن من لا علم له أنه يمشي تحت جنبه، وكان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يفلّي ثوبه فيلقط البراغيث

ويدع القمل فقال له أنس في ذلك. فقال أبداً بالفرسان وأكر على الرجالة وأنشد أعرابي:

ليل البراغيث أعياني وأنصبي	لا بارك الله في ليل البراغيث
كأنهنّ وجلدي إذ خلونّ به	قضاء سوء أغاروا في المواريث

وقال أبو الرماح الأزدي:

تطاول بالفساط ليلي ولم يكن	بوادي العفسي ليلي عليّ يطول
تورقني حذب قصار أدلة	وإن الذي يؤذني لذليل
إذا جلست بعض الليالي منهنّ جولة ^(٥)	تعلقنّ في رجلي حيث أجول
إذا ما قتلنا من أضعفن ككرة	عينا ولا ينكي لهنّ قتل
ألا ليت شعري هل أيتنّ ليلة	وليس لبرغوث عليّ سيل

(١) بح: لعلها ذلك الطائر الأبيض الجميل الذي يدعونه حيناً «تم» وحيناً آخر يخلطون بينه وبين البجع، وفيه كب «تشايفسكي» باليه: «بحيرة التم» وليس هو البجع حتماً.

(٢) الخيلاء: التكبر.

(٣) الأحباس: الأوقاف.

(٤) القبطي: بلغة القبط.

(٥) الشطر مختل الوزن.

وقال ابن أبيك الصفدي:

أشكو إلى الرحمن ما نالني من البراغيث الخفاف الثقال
تعصّبوا الليل لما دروا أني تقنعت بطيف الخيال

ولا يسب البرغوث لما ورد أن النبي ﷺ سمع رجلاً يسب برغوثاً فقال: لا تسبه فإنه أيقظ نبياً إلى صلاة الفجر.

فائدة: سئل مالك عن البرغوث، من يقبض روحه. فقال: أله نفس؟ قيل نعم الله يتوفى الأنفس حين موتها. ولقد شكّا عامل إفريقية إلى عمر بن عبد العزيز شر الهوام فكتب إليه: إذا أرى أحدهم إلى فراشه فليقرأ: ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله﴾^(١) الآية. وقال حنين بن إسحاق: الحيلة في دفع البرغوث أن تأخذ شيئاً من الكبريت فتدخن به في البيت فإنها تفرّ من ذلك، وقيل يرش البيت بماء السذاب^(٢)، وقيل مشاق^(٣) المراكب يحرق في البيت مع قشور النارج.

بعوض: قيل إنه على خلقه القليل إلا أنه أكثر إعضاء منه، فإن للقليل أربعة أرجل والبعوض ستة، أو يزيد عليه بأربعة أجنحة، وله خرطوم مجوّف نافذ فإذا طعن به جسد إنسان استقى الدم وقذف به إلى جوفه فهو له كالبلعوم والحلقوم، ومما ألهمه الله تعالى إذا جلس على عضو إنسان يتبع مسام العروق فإنها أرق وأسرع له في إخراج الدم وعنده شره في مصّة حتى قال إنه لا يمتص شيئاً فيتركه باختياره إلى أن ينشق أو يطار. ومن عجيب أمره أنه ربما قتل البعير وغيره من ذوات الأربع فيتركه طريحاً. وقال الجاحظ: من علّم البعوض أن وراء جلد الجاموس دماً، وأن ذلك الدم غذاء لها، وأنها إذا طعنت في ذلك الجلد الغليظ نفذ فيه خرطومها مع ضعفه ولو أنك طعنت فيه بمسلات شديدة المتن رهيقة الحدّ لا تكسرت، فسبحان من رزقها على ضعفها بقوّته وقدرته. قال بعضهم:

أقول لنازل البستان طوي لعيشك لم تشكّ فيه البعوض^(٤)
يمليّ له قرا ويشخّنه فليس له نهوض
حماء قرصه وطنينه أن يبيت وعيشه فيها غموض
كأنك حين تهدي بالأغاني تكرر في سامعك العروض

ومن الحكم التي أودعها الله تعالى إياها أن جعل فيها قوة الحافظة، والفكر، وحاسة اللمس والبصر، والشم ومنفذ الغذاء، وجوقاً، ومخاً، وعروقاً وعظاماً فسبحان من قدر فهدي ولم يترك شيئاً سدى. وقال الزمخشري في تفسير سورة البقرة في ذلك:

يا مَنْ يرى مدّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نخرها والمخ من تلك العظام النحل
ويرى خريز الدم في أوداجها متقللاً من مفصل في مفصل

(١) سورة: إبراهيم، الآية: ١٢.

(٢) السذاب: نوع من البقول.

(٣) مشاق: جله.

(٤) الشطر الثاني مختل الوزن.

ويرى وصولَ غذا الجنين يَبْطُنْها في ظلمةِ الأُخْشا بغيرِ تمقل
ويرى مكانَ الوطءِ من أقدامِها في سيرِها وحِيثِها المستعجل
ويرى ويسمعُ حُسنَ ما هو دونها في قاعِ بحرٍ مظلمٍ متَهوّل
أَمْنِنَ عليَّ بتوبِو تمحو بها ما كان مني في الزمانِ الأوّل

بغل: معروف، وكنيته أبو قموص، وأبو حرون وله كنى غير ذلك كثيرة، وهو مركب من الفرس، والحمار، ولذلك صار له صلابة الحمار، وعظم الخيل وهو عقيم لا نسل له. روى ابن عساكر في تاريخ دمشق عن علي كرم الله وجهه، أنها كانت تتناسل فدعا عليها إبراهيم الخليل لأنها كانت تسرع في نقل الحطب لنار المنجنيق فقطع الله نسلها، وهو أشر الطباع لأنه تجاذبه الأعراق المتضادة، والأخلاق المتباينة والعناصر المتباعدة، ومن العجيب أن كل عضو فرّضته منه كان بين الفرس والحمار.

الخواص: يقال إن حافر البغلة السوداء ينفع لطرد الفأر إذا بخر به البيت، وإذا سحق حافره بعد حرقه وخلط بلهّن الآس وجعل على رأس الأقرع نبت شعره، وزيله إذا شمه المزكوم زال زكامه على ما ذكروه.

بقر: هو حيوان شديد القوة خلقه الله تعالى لمصلحة الإنسان، وهو أنواع منها الجواميس وهي أكثر ألباناً، وكل حيوان إنائه أرق أصواتاً من ذكوره، إلا البقر وأثاء يضربها الفحل في السنة مرة، إذا اشتد شبقها تركت المرعى وذهبت، وإذا طلع الفحل عليها التوت تحته إذا أخطأ المجرى لشدة صلابة ذكره. قال المسعودي: رأيت بالري البقر تحمل كالبعير فتبرك على ركبتيها ثم تثور بالحمل.

عجبية: حكى في الإحياء أن شخصاً كان له بقرة وكان يشوب لبنها بالماء ويبيعه، فجاء السيل في بعض الأودية وهي واقفة ترعى فمر عليها ففرقها فجلس صاحبها ينديها فقال له بعض بني: يا أبت لا تنديها فإن المياه التي كنا نخلطها بلبنها اجتمعت ففرّقتها.

فائدة: ذكر ابن الفضل في كتابه عن وهب بن منبه أنه قال: لما خلق الله تعالى الأرض ماجت واضطربت كالسفينة فخلق الله تعالى ملكاً في نهاية العظم والقوة وأمره أن يدخل تحتها ويجعلها على منكبيه فدخل وأخرج يداً من المشرق، ويداً من المغرب وقبض على أطراف الأرض وأمسكها ثم لم يكن لقدميه قرار، فخلق الله تعالى صخرة من ياقوتة حمراء في وسطها سبعة آلاف ثقب، فخرج من كل ثقب بحر لا يعلم عظمه إلا الله تعالى، ثم أمر الصخرة أن تدخل تحت قدمي الملك، ثم لم يكن للصخرة قرار فخلق الله تعالى ثوراً عظيماً يقال له كيوثاً، له أربعة آلاف عين، ومثلها أنوف وأذان وأفواه وألسنة، وقوائم ما بين كل قائمتين منها مسيرة خمسمائة عام، وأمر الله تعالى هذا الثور فدخل تحت الصخرة، وحملها على ظهره وقرونه، ثم لم يكن للثور قرار، فخلق الله تعالى حوتاً يقال له يهموت ثم أمره الله تعالى أن يدخل تحته، ثم جعل الحوت على ماء، ثم جعل الماء على الهواء، ثم جعل الهواء على ماء أيضاً، ثم جعل الماء على الثرى، ثم الثرى على الظلمة، ثم انقطع علم الخلائق.

الخواص: شحم البقر إذا خلط بزرنيخ أحمر طرد العقارب، وإذا طلي به إناء اجتمعت البراغيث إليه، وإذا شرب لبنها زاد في الإنعاض، وقرنها إذا سحق وجعل في طعام صاحب الحمى فأكله زالت الحمى، ومرارتها إذا خلطت بماء الكراث نفعت من البواسير طلاء. وإذا طلي به على الأثر الأسود في البدن أزاله، وخصية الفحل إذا جففت وسحقت

وجعلت في عسل وأكلت فإنها تزيد في الباه، وشعرها إذا أحرق واستيك به نفع من وجع الأسنان، وإذا خلط مع السكجين وشرب نفع من الطحال على ما ذكروه.

بومة: وكنتها أم الخراب، وأم الصبيان ومن طبعها أن تدخل على كل طير في وكره وتأكل أفراده، ولمعدة الطيور لها يجعلها الصيادون في أشراكهم حتى يقع عليها الطير. ونقل المسعودي عن الجاحظ أن البومة لا تخرج بالنهار خوفاً من العين لأنها تظن أنها حسناء وهي أصناف وكلها تحب الخلوة بنفسها.

الخواص: من خواصها أنها تنام بإحدى عينيها، والأخرى مفتوحة، فإذا أخذت المفتوحة وجعلت تحت فص خاتم فمن لبسه لم ينم ما دام في يده، وعكسها المغموضة، وإذا أردت معرفة ذلك فألقهما في الماء، فالراسبة للنوم، والطافية لليقظة وإذا أخذ قلب البومة وجعل على اليد اليسرى من المرأة، وهي نائمة تحدثت في نومها بجميع ما فعلته.

بوقير: طير أبيض يأتي منه في كل سنة طائفة إلى جبل بالصعيد، يقال له جبل الطير، فيه كوة فتدخل من تلك الكوة فيمسك منها شيء، فإن أمسكت واحدة كان ذلك العام متوسط الخصب، وإن أمسكت اثنتين كان كثير الخصب، وإن لم تمسك شيئاً كانت السنة مجربة وأهل تلك الناحية تعرف ذلك. وهذا الجبل بالقرب من بلدة مارية أم إبراهيم ولد النبي ﷺ.

حرف التاء

تمساح: حيوان عجيب على صورة الضب، له فم واسع، وفيه ستون ناباً، وقيل ثمانون وبين كل نابين سن صغيرة وهي أنثى في ذكر، إذا أطبق فمه على شيء لا يفكته حتى يخلعه من موضعه، وله لسان طويل، وظهره كالسحفاة ولا يعمل الحديد فيه، وله أربعة أرجل وذنب طويل وهو لا يوجد إلا بنيل مصر. وقال المسافرون إنه يوجد ببحر الهند وطوله في الغالب ستة أذرع إلى عشرة في عرض ذراعين، أو ذراع، ويقع في البحر تحت الماء أربعة أشهر لا يظهر وذلك في زمن الشتاء، ويتغوط من فيه في الغالب ويحصل في فيه الدود فيؤذيه فيلهمه الله تعالى فيخرج إلى بعض الجزائر ويفتح فاه فيرسل الله تعالى له طيراً يقال له القطقاط فيدخل في فيه فيأكل من الدود فيحصل له راحة، فعند ذلك يطبق فمه على الطير ليأكله فيضربه بريشتين خلقهما الله تعالى في جناحيه كريشة الفصاد فيؤلمه فيفتح فاه فيخرج ولذلك يضرب به المثل فيقال جازاه مجازاة التمساح. وزعم بعض الباحثين عن أحوال التمساح، أن له ستين ناباً وستين عرقاً ويسفد ستين مرة، ويبيض ستين بيضة ويحضن ذلك ستين يوماً، ويعيش ستين سنة، فإذا أفرغ فما صعد الجبل صار ورلاً، وما نزل البحر صار تمساحاً، وفكه الأسفل لا يستطيع تحريكه لأن فيه عظماً متصلاً بصدرة، وإذا أراد السفاد أخذ أثناءه وطلع بها إلى البر وقلبها وجامعها فإذا قضى حاجته قلبها ثانية لأنه لو تركها على تلك الحالة بقيت حتى تموت. وما ذلك إلا أنها لا تستطيع الانقلاب ليبوسة ظهرها وصلابته، وقد سلط الله تعالى عليه أضعف الحيوان، وهو كلب الماء يقال إنه يتلبط بالطين ويغافل التمساح ويقذف بنفسه في فيه فيتلعه لنعمته فإذا حصل في جوفه ذاب ما عليه من سخونة بطنه فيعمد إلى أمعائه فيقطعها ويقطع مرق بطنه فيقتله.

الخواص: عينه تشد على من به رمد اليمنى لليمنى واليسرى لليسرى وشحمه إذا قطر في أذن من به صمم نفعه. تنين: ضرب من الحيات، وهو طويل كالنخلة السحوق، وجسده كالليل، أحمر العينين لهما بريق واسع القم

والجوف، يتلع الحيوان وأول أمرة يكون حية متمردة ثم تطفئ وتسلط على حيوان البر فيستغيث منها، فيأمر الله تعالى ملكاً فيحملها ويلقيها في البحر فتقيم فيه مدة، ثم تسلط على حيوانه أيضاً فيستغيث منها إلى ربه فيأمر الله تعالى بإلقائها في النار فيعذب بها الكافرين وقيل يأمر الله تعالى بإلقائها على يأجوج ومأجوج. وروى ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يسلط الله على الكافر في قبره تسعة وتسعين تيناً تنهشه وتلدغه حتى تقوم الساعة ولو أن تيناً منها نفخ على الأرض ما نبتت فيها خضراء».

حرف الثاء

ثعلب: وهو معروف ذو مكر وخديعة وله حيل في طلب الرزق. فمن ذلك أنه يتماوت ويضغ بطنه ويرفع قوائمه حتى يظن أنه مات. فإذا قرب منه حيوان وثب عليه وصاده، وحيلته هذه لا تتم على كلب الصيد. ومن حيلته أنه إذا تعرض للقتل نفس القنفذ شوكة، فيسلح^(١) هو عليه، فيلم شوكة فيقبض على مرق بطنه ويأكله، وسلحه أثن من سلح الحباري^(٢).

ومن لطيف أمره أنه إذا تسلطت عليه البراغيث حملها وجاء إلى الماء وقطع قطعة من صوفه وجعلها في فيه ونزل في الماء والبراغيث تطير قليلاً حتى تجتمع في تلك الصوفة فيلقها في الماء ويخرج. وفروه أدفا الفراء وفيه الأبيض والرمادي وغير ذلك. وذكر في عجائب المخلوقات أنه أهدى إلى أبي منصور السلمي ثعلب له جناحان من ريش، إذا قرب الإنسان منه نشرهما وإذا بعد لصقهما.

لطيفة: ذكر ابن الجوزي في آخر كتاب الأذكىاء، والحافظ أبو نعيم في حلية الأولياء عن الشعبي أنه قال: مرض الأسد فعادته السباع والوحوش ما خلا الثعلب فتم عليه الذئب، فقال الأسد إذا حضر فأعلمني، فلما حضر الثعلب أعلمه الذئب بذلك وكان قد أخبره بما قاله الذئب. فقال الأسد: أين كنت يا أبا الفوارس قال: كنت أطلب لك الدواء. قال: وأي شيء أصبته؟ قال: قيل لي خرزة في عرقوب أبي جعد قال فضرب الأسد بيده في ساق الذئب فأدامه ولم يجد شيئاً، فخرج ودمه يسيل على رجله، وانسل الثعلب. فمر به الذئب فناداه يا صاحب الخف الأحمر إذا قعدت عند الملوك فانظر ما يخرج منك فإن المجالس بالأمانات. وقيل خرج الأسد والثعلب والذئب يتصيدون فاصطادوا حمار وحش، وضباً، وغزالاً ثم جلسوا يقتسمون فقال الأسد للذئب: أقسم علينا فقال: حمار الوحش لي، والغزال لأبي الحرث، والضب للثعلب فضربه الأسد في رأسه فرضخها. فقال: الثعلب: أنا أقسم حمار الوحش لأبي الحرث يتغذى به، والغزال لأبي الحرث يتعشى به، والضب لأبي الحرث يتقل^(٣) به فيما بين ذلك. فقال له الأسد: لله درك من فرضي ما أعلمك بالفرائض. من علمك هذا؟ قال علمني التاج الأحمر الذي ألبسته هذا وأشار إلى الذئب.

وحكي أن الثعلب مر في السحر بشجرة فرأى فوقها ديكاً. فقال له: أما تنزل نصلي جماعة فقال إن الإمام نائم خلف الشجرة فأيقظه، فنظر الثعلب فرأى الكلب ففصرط وولى هارباً فناداه أما تأتي لنصلي. فقال: قد انتقض وضوئي فاصبر حتى أجدد لي وضوءاً وأرجع. ومن العجيب في قسمة الأرزاق أن الذئب يصيد الثعلب فيأكله، والثعلب يصيد

(١) يسلح: يتنوط.

(٢) الحباري: طائر.

(٣) يتقل: أي يتخذه قفلاً.

القنفذ فيأكله، والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها، والأفعى تصيد العصفور، والعصفور يصيد الجراد، والجراد يصيد الزنابير، والزنابير تصيد النحل، والنحل تصيد الذباب، والذباب يصيد البعوض، والبعوض يصيد النمل، والنمل يأكل كل ما يسر من صغير وكبير فتبارك الله الذي أتقن ما صنع.

الخواص: رأسه إذا ترك في برج حمام هرب الحمام منه، وثابه يشد على الصبي يحسن خلقه ومرارته يجعل منها في أنف المصروع يبرأ، ولحمه ينفع من اللقوة^(١) والجذام، وخصيته تشد على الصبي تثبت أسنانه، وفروه أنفع شيء للمربوط، ودمه إذا جعل على رأس أقرع نبت شعره إذا كان دون البلوغ، وطحاله يشد على من به وجع الطحال يبرأ.

ثعبان: هو الكبير من الحيات ذكراً كان أو أنثى، وهو عجيب الشأن في هلاك بني آدم يلتوي على ساق الإنسان فيكسرها وليس له عدو إلا النمس، ولولا النموس لأكلت الثعابين أهل مصر.

لطيفة: قيل إن عبد الله بن جدعان كان في ابتداء أمره صعلوكاً وكان شريفاً يفتك ويقتل، وكان أبوه يعقل عنه، فضجر من ذلك وأراد قتله فخرج هارباً على وجهه فتوصل لجبل فوجد فيه شقاً فدخل فيه فوجد في صدره شيئاً كهيئة الثعبان، فدنا منه وقال لعله يشب عليّ فيقتلني وأستريح. قال فدنا منه فوجده مصنوعاً من ذهب، وعيناه ياقوتان ثم وجد من داخله بيتاً فيه جثث طوال بالية على أسرة الذهب والفضة، وعند رؤوسهم لوح مكتوب فيه تاريخهم، وإذا بهم رجال من جرهم، وفي وسط البيت كرم من الياقوت الأحمر، والزمرد، والذهب والفضة، واللؤلؤ فأخذ منه قدر ما يحمل وعلم الشق وذهب إلى قومه فأغناهم ورجع فلم يدر مكان الشق. قال رسول الله ﷺ: «لقد كنت أستظل بجفنة عبد الله ابن جدعان من الهجير». قالت عائشة: يا رسول الله هل ينفعه ذلك شيئاً قال: «لا لأنه لم يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين».

حرف الجيم

جراد: حيوان معروف وليس له جهة مخصوصة، وإنما يكون هائماً هارباً، وإذا أراد أن يبيض ذهب إلى بعض الصخور فضربها بذنبه فخرج له فيلقي بيضه فيها، وله ستة أرجل وأطراف أرجله كالمنشار، وهو ألوان عديدة، وفيه خلقة عشرة من الجبابرة، وجه فرس، وعينا فيل، وعق ثور، وقرنا أيل، وصدر أسد، ويطن عقرب، وجناحا نسر، وفخذاً جمل، ورجلاً نعام، وذنب حية، وهو من الحيوان الذي يقاد إلى رئيسه كالعسكر، إذا طعن أميره يتابع خلفه وفي الحديث: أن جرادة وقعت بين يدي رسول الله ﷺ فإذا مكتوب على جناحها بالعبرانية نحن جند الله الأكبر، ولنا تسعة وتسعون بيضة. ولو تمت لنا المائة لأكلنا الدنيا بما فيها. فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم أهلك الجراد اللهم أقتل كبارها، وأمت صغارها، وأفسد بيضها، وسد أفواهها عن مزارع المسلمين وعن معاشهم إنك سميع الدعاء». قال: فجاء جبريل فقال إنه قد استجيب لك في بعضها، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق ألف أمة، ستمائة منها في البحر، وأربعمائة في البر، وأن أول هلاك هذه الأمة الجراد، فإذا هلك الجراد تابعت الأمم مثل الدر إذا قطع سلكه» قيل: كان طعام يحيى بن زكريا عليهما الصلاة والسلام الجراد، وقلوب الشجر، وكان يقول: من

لنعم منك يا يحيى وقد أجمع المسلمون على أكل لحمه، ومن خواصه أن الإنسان إذا تبخر به نفعه من عسر البول.
جرو: بكسر الجيم وفتحها وضمها، وهو الصغير من أولاد الكلاب والسباع، وقد كان ﷺ أمر بقتل الكلاب.
وسيه أن جبريل عليه السلام وعده ليأتيه، فتأخر. قال فلقه النبي ﷺ بعد ذلك فقال ما أخرك عن وعدك؟ فقال ما
تأخرت ولكن لا ندخل بيتاً فيه صورة، ولا كلب فأمر بقتلها. وروى مسلم والطبراني عن خولة بزيادة ولفظها، أن
جرواً دخل تحت سرير في بيته ﷺ فمكث النبي ﷺ أياماً لا يأتيه الوحي قال لعله حدث في البيت شيء،
فخرج للمسجد فترل عليه الوحي، قالت خولة: قممت^(١) البيت فوجدت الكلب تحت السرير.

عجبة: حكي أن رجلاً لم يولد له ولد، فكان يأخذ أولاد الناس فيقتلهم فنهت زوجته عن ذلك وقالت:
يؤاخذك الله بذلك. فقال: لو أخذ لفعل في يوم كذا، وصار يعدد أفعاله لها. فقالت له: إن صاعك لم يمتلئ، ولو
امتلاً أخذك. قال فخرج ذات يوم وإذا بغلامين يلعبان ومعهما جرو فأخذهما الرجل ودخل البيت فقتلها وطردهم الجرو.
قال فطلبهما أبوهما فلم يجدهما فانطلق إلى نبي لهم فأخبره بذلك فقال: ألهما لعبة كانا يلعبان بها؟ قال جرو كلب.
قال اتني به فأثابه به فجعل خاتمة بين عيني ثم قال اذهب خلفه فأبي بيت دخله ادخل معه فإن ولدك فيه. قال فجعل
الجرو يجوز الدروب، والحارات حتى دخل بيت القاتل فدخل الناس خلفه وإذا بالغلامين متعفران بدمهما، وهو قائم
يحضر لهما مكاناً يدفنها فيه، فأمسكوه وأتوا به لنبيهم فأمر بصلبه، فلما رآته زوجته على الخشبة قالت: ألم أحذرك
هذا اليوم، وتقول ما تقول! الآن امتلاً صاعك. وسيأتي الكلام على الكلب في حرف الكاف إن شاء الله تعالى.

جعل: دوية معروفة تسمى أبا جعران والزعقوق يعرض البهائم في وجهها فتهرب منه وهو أكبر من الخنفساء
شديد السواد، في بطنه لون حمرة، للذكر قرنان، يوجد كثيراً في مراح^(٢) البقر والجاموس، قيل أنه يتولد، من
أخاثئهما^(٣) ومن شأنه جمع الروث وادخاره، ومن عجيب أمره أنه إذا شم الورد مات، ويعيش بعوده للروث، وله
جناحان لا يكادان يريان إلا إذا طار، وله ستة أرجل وستام مرتفع جداً، وهو يمشي القهقري، ومن طبعه أنه يحرس
النيام فإذا قام أحدهم يتغوط تبعه لياكل من رجليه، وذلك من شدة شهوته للغائط.

حرف الحاء

حجل: طير فوق الحمامة أغبر اللون، أحمر المنقار والرجلين يسمى دجاج البر، وهو صفان نجدى، وتهامي،
النجدى أغبر، والتهامي أبيض وله شدة في الطيران. وإذا تقاتل ذكران تبعت الأنثى الغالب. وله شدة شبق وأفراخه
تخرج من البيض كاسية، ويعمر في الغالب عشرين سنة وإذا قوي على غيره أخذ بيضه فحضنه، ومن سر الله تعالى إذا
أفرخ ذلك البيض تبع الفرخ أمه التي باضته، ومن طبعه أنه يخدع غيره في قرقرته. ولذلك يتخذ الصيادون في
أشراكهم.

غرية: قيل إن أبا نصر بن مروان أكل مع بعض مقدمي الأكراد فأثى على سباطه بحجلتين مشويتين فلما رآهما
ضحك فقال مم تضحك؟ قال: كنت أقطع الطريق في عقوان شبايى فمزى بي تاجر فأخذته، فلما أردت قتله تضرع إلي

(١) قممت: نظفته من القمامة.

(٢) مراح: حظيرة.

(٣) أخاثئهما: الأدران.

فلم أقله، فلما علم أنه لا بد لي من قتله التفت يميناً وشمالاً فرأى حجلتين كانتا بقرينا فقال: أشهد لي أنه قاتلي ظلماً، فقتلته، فلما رأيت الحجلتين تذكرت حمقه في استشهاده بهما، فقال أبو نصر: والله لقد شهدا عليك عند من أفادك بالرجل، ثم أمر به فضربت عنقه.

الخواص: لحمها جيد معتدل الهضم، ومرارتها تنفع الغشاوة في العين وإذا سعط بها إنسان في كل شهر مرة جاد ذهنه، وقلّ نسيانه، وقوي بصره.

حدأة: بكسر الحاء وفتح الدال مع همزة، أحسن الطير تبيض بيضتين وربما باضت ثلاثاً وتحضن عشرين يوماً، ومن ألوانها الأسود والرمادي، وهي لا تصيد إلا خطأ وفي طبعها أنها تقف في الطيران، وهي أحسن الطير مجاورة لأنها إذا جاعت لا تأكل كل أفراخ جارجها. ويقال إنها طرشاء وفي طبعها أنها لا تخطف من الجهة اليمنى لأنها عسراء، وهي سنة ذكر، وسنة أنثى كالأرنب.

عجبية: روى الحافظ النسفي في فضائل الأعمال أن عاصم بن أبي النجود شيخ القراء في زمانه قال: أصابني خصاصة. فجئت إلى بعض إخواني فأخبرته بأمرى فرأيت في وجهه الكراهة فخرجت من منزله إلى الجبانة فصليت ما شاء الله ثم وضعت رأسي على الأرض وقلت: يا مسبب الأسباب، يا فاتح الأبواب، يا سامع الأصوات، يا مجيب الدعوات، يا قاضي الحاجات، اكفني بحلالك عن حرامك وأغني بفضلك عن سواك. فوالله ما رفعت رأسي حتى سمعت وقعة بقربي فإذا بحدأة قد طرحت كيساً أحمر فقممت فأخذته فإذا فيه ثمانون ديناراً، وجوهرة ملفوفة في قطن، قال: فاتجرت بذلك واشترت لي عقاراً وتزوّجت.

الخواص: مرارتها تجفف في الظل، وتنفع في إناء زجاج فمن لسع وقطر منها في ذلك الموضع واكتحل مخالفاً لجهة اللسع ثلاثة أميال أبراته، ودسمها إذا خلط بقليل من المسك وماء الورد وشرب على الريق نفع من ضيق النفس، وإذا وضع في بيت لم تدخله حية ولا عقرب.

حرياء: دوية صغيرة على هيئة السمك ورأسها تشبه رأس الحجل، إذا رأت الإنسان انتفشت وكبرت، ولها أربعة أرجل وسنام كهية الجمل، ولها كنى كثيرة منها أم قرة، ويقال لها جمل اليهود وهي أبداً تطلب الشمس فمن أجل ذلك يقال إنها مجوسية وتستقبلها بوجهها وتدور معها كيفما دارت فإذا غابت الشمس أخذت في كسبها ومعاشها، ويقال إن لسانها طويل نحو ذراع وهو مطوي في حلقها فلذلك تخطف به ما بعد عنها من الذباب وتبتله. والأنثى من هذا النوع تسمى أم حبين، ويقال إن الصبيان ينادونها: أم حبين انشري برديك، إن الأمير ناظر إليك، وضارب بسوطه جنبيك. فإذا زادوا عليها نشرت جناحيها وانتصبت على رجلها، فإذا زادوا عليها أيضاً نشرت أجنحة أحسن من تلك ملونة. وإذا مشت تطأ على برأسها وتلّون ألواناً ولذا يقال يتلون كالحرباء.

حمار أهلي: معروف ليس في الحيوان من يتزو^(١) على غير جنسه إلا هو والفرس ونزوه بعد تمام ثلاثين شهراً، وكنيته أبو محمود، وأبو جحش وغير ذلك، وهو أنواع فمنه ما هو لين الأعطاف سريع الحركة، ومنه ما هو بضد ذلك ويوصف بالهداية إلى سلوك الطريق.

لطيفة: في الحديث عن النبي ﷺ أنه لما فتح خيبر أصاب حماراً أسود فكلّمه فقال ما اسمك؟ فقال يزيد بن شهاب أخرج الله تعالى من نسل جدي ستين حماراً كلها لا يركبها إلا نبيّ، ولم يبق من الأنبياء غيرك، وكنت أتوقعك لتركبي، وأنا عند يهودي يجيع بطني، ويضرب ظهري، وكنت أعرّبه عمداً فسماه النبيّ ﷺ يعفوراً وقال له: أتشتهي الإناث قال لا وكان ﷺ يركبه في حوائجه، وإذا أراد حاجة عند إنسان أرسله إليه فيدفع الباب برأسه فيخرج صاحب البيت فيعرفه ويقضي حاجته، فلما توفي النبيّ ذهب إلى بئر كانت لأبي الهيثم فتردى^(١) فيها جزعاً على النبيّ ﷺ فكانت قبره. وقيل هذا الحديث منكر، وقد ذكره السهيلي في التعريف والإعلام، وللناس في ذمه ومدحه أقوال متباينة بحسب الأغراض، فمن مدحه أن أبا صفوان وجد راكباً على حمار فقيل له في ذلك. فقال: غير هنيء من نسل الأكراد، يحمل الرجل ويبلغ العقبة، ويمعني أن أكون جباراً في الأرض. وقال آخر هو أقل الدواب مؤنة، وأكثرها معونة، وأخفها مهوى، وأقربها مرتعاً وكان حمار أبي يسارة مثلاً في الصحة والقوة وهو حمار أسود حمل الناس عليه من منى إلى المزدلفة أربعين سنة. وكان خالد بن صفوان، والفضل بن عيسى الرقاشي يختاران ركوب الحمار ويجعلان أبا يسارة قدوة لهما وحجة. ومن ذمه ما نقل عن عبد الحميد الكاتب أنه قال لا نركب الحمار فإنه إن كان فارهاً أتعب يدك، وإن كان بليداً أتعب رجلك. وقيل ما ينبغي لمركب الدجال أن يكون مركباً للرجال. وقال أعرابي: الحمار بشّ المطية إن أوقفته أدلى، وإن تركته ولى، كثير الروث، قليل الفوث، سريع إلى الفرارة بطيء في الغارة لا توفي به الدماء، ولا تمهر^(٢) به النساء ولا يحلب في الإناء. قال الزمخشري:

إن الحمارَ ومن فوقه حماران شرهما الراكبُ

ومن العرب من لا يركبه أبداً ولو بلغت به الحاجة والجهد. قيل: كان لرجل بالبادية حمار، وكلب، وديك. فالدّيك يوقظه للصلاة، والكلب يحرسه إذا نام، والحمار يحمل أثاثه إذا رحل. قال فجاء الثعلب فأكل الديك. فقال عسى أن يكون خيراً، ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال لا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم عسى أن يكون خيراً، ثم جاء الذئب فبقر بطن الحمار فقال عسى أن يكون خيراً. قال ثم إن جيرانه من الحيّ أغير عليهم فأخذوا فأصبح ينظر إلى منازلهم وقد خلت فليل له إنما أخذوا بأصوات دوابهم. إنما كانت الخيرة في هلاك ما عندي فمن عرف لطف الله رضي بفعله.

حمار: هو أنواع كثيرة والكلام في الذي ألف البيوت وهو قسمان: أحدهما بري، وهو الذي يوجد في القرى والآخر أهلي. وهو أنواع وأشكال فمنه الرواعب، والمراعيش، والشداد، والغلاب، والمنسوب، ومن طبعه أنه يطلب وكره ولو كان في مسافة بعيدة ولأجل ذلك يحمل الأخبار ومنه من يقطع عشرة فراسخ في يوم واحد، وربما صيد وغاب عن وطنه عشر سنين. وهو على ثبات عقله، وقوة حفظه، حتى يجد فرصة فيطير ويعود إلى وطنه، وسباع الطير تطلبه أشد الطلب وخوفه من الشاهين أشد من غيره وهو أطيّر منه، لكن إذا أبصره يعتريه ما يعتري الحمار إذا رأى الأسد، والشاة إذا رأت الذئب، والقار إذا رأى الهر، ومن طبعه أنه لا يريد إلا ذكره إلى أن يهلك أو يفقد أحدهما، ويحب الملاعبة والتفليل ويسفد لتمام أربعة أشهر، ويحمل أربعة عشر يوماً، ويبيض بيضتين، ويحضن

(١) تردى: وقع.

(٢) لا تمهر: لا يتخذ مهراً.

عشرين يوماً، ويخرج من إحدى البيضتين ذكر، والأخرى أنثى واتخاذها في البيوت لا بأس به غير أنه لا يجوز تطهيرها والإشتغال بها، والإرتقاء بها على الأسطحة، وعليه حمل أهل العلم قوله عليه الصلاة والسلام: «شيطان يتبع شيطانة حين رأى شخصاً يتبع حمامة» فإن لم يحصل شيء مما ذكر جاز اتخاذها. قال رسول الله ﷺ: «اتخذوا الحمام في بيوتكم فإنها تلهي الجن عن صبيانكم» واللعب بها من عمل قوم لوط. وقال النخعي: من لعب بالحمام لم يمت حتى يذوق ألم الفقر ولم يوجد شيء أبله من الحمام فإنه تؤخذ أفراده فتذبح في مكان، ثم يعود في ذلك المكان ويبض فيه ويفرخ. وقال الجاحظ: وللحمام من الفضيلة والفخر أن الحمامة قد تباع بخمسمائة دينار، ولم يبلغ ذلك القدر شيء من الطير غيره، وهو الهادر الذي جاوز الغاية. قالوا: ولو دخلت بغداد والبصرة وجدت ذلك بلا معاناة. ولو حدث أن برزونا أو فرساً بيع بخمسمائة دينار لكان ذلك سمراً، وقد تباع البيضة الواحدة من يبيض ذلك الحمام بخمسة دنائير، والفرخ بعشرين. فمن كان له زوج منه قام في الغلة مقام ضيعة، وأصحابه يبنون من أمانه الدور والحوائيت، وهو مع ذلك ملهى عجيب ومنظر أنيق.

الخواص: دمه ينفع الجراحات العارضة للعين والغشاوة ويقطع الرعاف، ويبرء حرق النار إذا خلط بالزيت منه، وزيل الأحمر ينفع للسع العقرب إذا وضع عليه وإذا شرب منه مقدار درهمين مع ثلاثة دراهم دار صيني نفع من الحصة.

حرف الخاء

الخطاف: أنواع كثيرة فمنه نوع دون المصفور رمادي اللون يسكن ساحل البحر، ومنه ما لونه أخضر، وتسميه أهل مصر الخطار، ونوع طويل الأجنحة رقيق يآلف الجبال، ونوع أصفر، يألف المساجد يسميه الناس السنونو، وزعم بعضهم أنه الطير الأبايل، ويقال إن آدم عليه الصلاة والسلام لما أميط إلى الأرض حصل له وحشة فخلق الله له هذا الطير يؤنسه فلاجل ذلك لا تجدهما تفارق البيوت، وهي تبني بيتها في أعلى مكان بالبيت، وتحكم بنيانه وتطينه فإن لم تجد الطين ذهبت إلى البحر فتمرغت في التراب والماء وأتت فطيته، وهي لا تزال داخله بل على حافته أو خارجاً عنه، وعنده روع كثير لأنه وإن آلف البيوت لا يشارك أهلها في أقواتهم ولا يلتصق منهم شيئاً ولقد أحسن واصفه حيث يقول:

كُنْ زَاهِداً فِيمَا حَوَتْهُ يَدُ الْوَرَى تَبْقَى إِلَى كُلِّ الْأَنَامِ حَيَا
وَاتَّقِرْ إِلَى الْخَطَافِ حَرَمَ زَادُهُمْ أَضْحَى مَقِيماً فِي الْبُيُوتِ رِيَا

ومن شأنه أن لا يفرخ في عشّ عتيق، بل يجدد له عشاً، وأصحاب اليرقان^(١) يلمطخون أفراده بالزعفران فيذهب فيأتي بحجر اليرقان ويلقيه في عشه لئولهم أن اليرقان حصل لأولاده، وهو حجر صغير فيه خطوط يعرفه غالب الناس، فعند ذلك يأخذه من به اليرقان ويحكه ويستعمله، ومن عجيب أمره أنه يكاد يموت من صوت الرعد، وإذا عمي ذهب إلى شجرة يقال لها عين شمس فيتعرّج فيها فيفقي من غشوته ويفتح عينه.

لطيفة: قيل إن خطافاً وقف على قبة سليمان وتكلم مع خطافة وراودها عن نفسها فامتعت. فقال لها تمنعين

مني ولو شئت قلبت هذه القبة. قال فسمع سليمان فدعاه وقال ما حملك على ما قلت؟ فقال: يا نبي إن العشاق لا يؤخذون بأقوالهم.

الخواص: مرارته تسود الشعر ولحمه يورث السهر، وقلبه يهيج الباء، إذا أكل جافاً، ودمه يسكن الصداع.

خفاش: طير يوجد في الأماكن المظلمة وذلك بعد الغروب. وقبل العشاء لأنه لا يبصر نهاراً، ولا في ضوء القمر وقوته البعوض، وهذا الوقت الذي يخرج فيه البعوض أيضاً لطلب رزقه فيأكله الخفاش فيسلط طالب رزق، على طالب رزق، وهو من الحيوان الشديد الطيران. قيل إنه يطير الفرسخين في ساعة، وهو يعمر مثل النسر وتعاديه الطيور فتقتله لأنه قيل إن عيسى عليه الصلاة والسلام لما سأله النصارى في طير لا عظم فيه صنع لهم ذلك بإذن الله تعالى، فهي تكرهه لأنه مبين لخلقها، ومن طبعه الحنو على ولده حتى قيل إنه يرضعه وهو طائر.

خنزير: حيوان معروف وله كنى كثيرة منها أبو جهم، وأبو زرعة، وأبو دلف وهو مشترك بين البهيمة والسبع^(١) لأنه ذو ناب ويأكل العشب والعلف وهو كثير الشبق حتى قيل إنه يجامع الأنثى وهي سائرة فيرى في مشيها ستة أرجل فيتوهم الراي أنه حيوان بستة أرجل وليس كذلك، والذكر منها يطرد الذكر مثله، فمن غلب استقل بالتزو على الأنثى وتحرك أذنانها في زمن هيجانها وتطأ رأسها، وتغير أصواتها وتحمل من نزوة واحدة، وتحمل ستة أشهر وتضع عشرين ولداً، ويتزو الذكر إذا بلغ ستة أشهر، وقيل أربعة باختلاف البلاد، وقيل ثمانية وإذا بلغت الأنثى خمس عشرة سنة لا تحمل، وهذا الجنس أسعد الحيوان، والذكر أقوى الفحول وليس لذوات الأربع ما للخنزير في نابه من القوة حتى قيل إنه يضرب به السيف والرمح فيقطع ما لاقاه، وإذا التقى ناباه من الطول مات، لأنهما حيثل يمنعانه من الأكل، ومن عجيب أمره أنه يأكل الحيات ولا يؤثر فيه سمها، وإذا عض كلباً سقط شعره، وإذا مرض وأطعم السرطان فيق، ومن عجيب أمره أنه إذا ربط على ظهر حمار وبال الحمار وهو على ظهره مات، ولا يسلخ جلده إلا بالقلع مع شيء من لحمه على ما ذكروا.

خنفساء: دوية تتولد من عفونات الأرض وبينها وبين العقرب مودة، وكنيتها أم فسو، لأن كل من وضع يده عليها يشم رائحة كريهة.

فائدة: قيل إن رجلاً رأى خنفساء فقال ما يصنع الله بهذه. فابتلاه الله تعالى بقرحة عجز الأطباء فيها فينما هو ذات يوم وإذا بطرقه^(٢) يقول من به وجع كذا، إلى أن قال من به قرحة، فخرج إليه ذلك الرجل فلما رأى ما به قال اتوني بخنفساء فضحك منه الحاضرون فقال اتوه بالذي يطلب فأثوه بها فأخذها فأحرقها وأخذ رمادها وجعل منه على تلك القرحة فبرئت فعلم ذلك المقروح أن الله تعالى ما خلق شيئاً سدى، وأن في أخس المخلوقات أهم الأدوية، فسبحان القادر على كل شيء.

الخواص: إذا قطعت رؤوس الخنافس وجعلت في برج الحمام كثر في ذلك البرج، والاكتحال بما في جوفها من الرطوبة يحد البصر، ويجلو الغشاوة واليباض، وإذا بخر المكان بورق اللب هربت منه الخنافس على ما ذكر.

(١) السبع: الوحوش.

(٢) طرقه: سوقي.

خيل: جماعة الأفراس، وسميت بذلك لأنها تختال في مشيتها وهي من الحيوان المشرف ولقد مدحها الله تعالى ووصى بها النبي عليه الصلاة والسلام فقال: «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة» وقال: «عليكم بإنات الخيل فإن ظهورها عز ويطونها كثر»^(١). وروي عن ابن عباس أو علي رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لما أراد الله تعالى خلق الخيل أوحى إلى الريح الجنوب. وقال إني خالق منك خلقاً فاجتمعني فاجتمعت، فأتى جبريل فأخذ منها قبضة فخلق الله منها فرساً كميثاً، وقال خلقتك عربياً، وفضلتك على سائر البهائم فالرزق بناصيتك، والغنائم تقاد على ظهرك، ويصهيلك أرهب المشركين وأعز المؤمنين ثم وسمه بفرّة وتحجيل»^(٢)، فلما خلق الله تعالى آدم قال له: يا آدم اختر أي الدابتين الفرس أو البراق، فقال الفرس يا رب، فقال الله تعالى: اخترت عرك وعز أولادك. وفي الحديث «ما من فرس إلا ويقول في كل يوم اللهم من جعلتني له فاجعلني أحب أهله إليه» وقيل الخيل ثلاثة: فرس للرحمن وهي المغزوة عليها، وفرس لك وهي التي تسابق عليها، وفرس للشيطان وهي التي جمعت للخيلاء. وفي الحديث: «إن الملائكة لا تحضر شيئاً من اللهو إلا في مسابقة الخيل، وملاعبة الرجل أهله» ولقد سبق النبي ﷺ على الخيل، وقيل إن الذكر من الخيل أقوى من الأنثى. ولا يرد علينا ركوب جبريل في قصة موسى وفرعون الأنثى، لأن ذلك من حكمة الله تعالى حتى تبعها أحصتهم فأغرقوا، لأن الحصان إذا رأى الحجرة^(٣) تبعها. وقيل إن الله تعالى أمر نبيه موسى عليه الصلاة والسلام أن يعبر البحر فعبه وهم خلفه فأعمى أعينهم عن الماء فكانوا يرون بلقماً، والخيل تراه ماء فلولا دخول جبريل البحر بفرسه لما دخلت خيلهم، وهي أصناف: منها الصافنات وهي التي إذا ربطت في مكان وقفت على إحدى رجليها، وقلبت بعض الأخرى في الوقوف، وقيل غير ذلك، وكانت الصافنات ألف فرس لسليمان عليه الصلاة والسلام فعرضها يوماً ففاته الصلاة. قيل صلاة العصر، فأمر بعقرها فعوضه الله عنها الريح فكانت فرسه، وقيل إنما عقرها على وجه القريبى كالهدي، وقيل إن الفرس لا يحب الماء الصافي ولا يضرب فيه يده، كما يضرب بها في الماء الكدر فرحاً به، فإنه يرى شخصه في الماء الصافي فيفرغه، ولا يراه في الماء الكدر، وقد قيل في الحث على حب الخيل:

أحبوا الخيلَ واصطبروا عليها	فإن العزَّ فيها والجمالا
إذا ما الخيلُ ضيَّعها أناسٌ	ربطناها فأشركت العيالا
تُقاسِمُها المعيشة كلَّ يوم	وتكسبنا الأباعرَ والجمالا

حرف الدال

دابة: اسم لكل ما دب على الأرض، وأما التي ذكرها الله تعالى في سورة سبأ، فقيل الأرضة، وقيل السوسة، وسبب ذلك أن سليمان عليه الصلاة والسلام كان قد أمر الجن ببناء صرح فبنوه، ودخل فيه وأراد أن يصفو له يوم واحد من دهره، فدخل عليه شاب. فقال له: كيف دخلت من غير استئذان فقال أذن لي رب البيت، فعلم سليمان أن رب البيت هو الله تعالى، وأن الشاب ملك الموت أرسل ليقبض روحه، فقال سبحان الله هذا اليوم طلبت فيه الصفاء، فقال: طلبت ما لم يخلق، قال وكان قد بقي من بناء المسجد الأقصى بقية، فقال يا أخي يا عزرائيل أمهلني حتى

(١) أي ما تلده.

(٢) تحجيل: يياض في قوائمها.

(٣) الحجرة: أنثى الخيل.

يفرغ. قال: ليس في أمر ربي مهلة قال فقبض روحه وكان من عادته الانقطاع في التعبد شهرين وثلاثة، ثم يأتي فينظر ما صنعت الجن، فلما قبض كان متوكئاً على عصاه، واستمر ذلك مدة والجن تتوهم أنه مشرف عليها فتعمل كل يوم بقدر عشرة أيام، حتى أراد الله ما أراد فسلط على العصا الأرضة فأكلتها فخر ميتاً ففرقت الجن عنه. وقيل إن واحداً منهم مر عليه فسلم فلم يجبه فدنا منه فلم يجد له نفساً، فحركه فسقطت العصا فإذا هو ميت. قال: وكان عمره ثلاثاً وخمسين سنة، والعصا التي اتكأ عليها من خرنوب. قال الله تعالى: ﴿فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾^(١) قال فشكرت الجن الأرضة حتى قيل إنهم كانوا يأتونها بالماء حيث كانت. وأما الدابة التي من أشراط الساعة فاختلف في أمرها فقليل تخرج من الصفا وهو الصحيح، وقيل من الطائف، وقيل من الحجر وطولها ستون ذراعاً ذات قوائم، وهي مختلفة الألوان وذلك في ليلة يكون الناس مجتمعين بمنى أو سائر إلى منى، ومعها عصا موسى، وخاتم سليمان لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب، تلتحق المؤمن فتضربه بالعصا فتكتب في وجهه مؤمن، وتلدرك الكافر فتسمه بالخاتم، وتكتب في وجهه كافر، وروي أنها تخرج إذا انقطع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقل الخير.

داجن: هو ما يربيه الناس في البيوت من صفار الغنم، والحمام، والدجاج، وغير ذلك وفي حديث الإفك «ما نعلم لها قضية غير أنها جارية حديثة السن، تعجن وتنام فتأتي الداجن فتأكل والعجين».

دب: من السباع وكنيته أبو جهينة، وأبو جهل، وغير ذلك ولا يخرج زمن الشتاء حتى يطيب الهواء، وإذا جاع يمص يديه ورجليه فيندفع جوعه، وهو كثير الشبق وينزل بأنثاء وتضع جرواً واحداً وتصعد به إلى أعلى شجرة خوفاً عليه من النمل لأنها تضعه قطعة لحم ثم لا تزال تلحسه وترفعه في الهواء أياماً حتى تنفجر أعضاؤه وتخشن، ويصير له جلد. في ولادتها صعوبة وربما ماتت منها، وقد تلده ناقص الخلق شوقاً منها للسفاد، وهي من الحيوان الذي يدعو الإنسان للفعل به، وقيل إن الدب يقيم أولاده تحت شجرة الجوز ثم يصعد فيرمي بالجوز إليها إلى أن تشبع، وربما قطع من الشجرة الغصن العتل الضخم الذي لا يقطع إلا بالفأس والجهد ثم يشد به على الفارس فلا يضرب أحداً إلا قتله.

دجاجة: وكنيتها أم ناصر الدين، وأم الوليد، وغير ذلك وإذا هربت لم يبق ليضها مح وتوصف بقله النوم، وقيل إن نومها بقدر ما تنفخ وعندها خوف في الليل ولأجل ذلك تطلب وقت الغروب مكاناً عالياً، وتخشى الثعلب، قيل إنها إذا رأت ألفت نفسها إليه من شدة الخوف ولا تخشى من بقية السباع وقيل يعرف الذكر من الأنثى بإمساك مقاربه فإن تحرك فذكر، وإلا فأنثى: ومن الدجاج ما يبيض في اليوم مرتين وهو من أسباب موتها، ويستكمل خلق البيضة في بطن الدجاجة في عشرة أيام، وفي الحديث أن النبي ﷺ أمر باتخاذ الغنم للأغنياء، وباتخاذ الدجاج للفقراء. ومن العجيب في صنعة الله تعالى أن خلق الفروج من البياض، وجعل الصفار غذاء له، كما خلق الطفل من المنى، وجعل دم الحيض غذاء له فبارك الله أحسن الخالقين.

الخواص: لحم الدجاج الفتى يزيد في العقل، ويصفي اللون ويزيد في المنى ويقم الباه، والمداومة عليه تورث القرمس والبواسير على ما ذكر.

دج: طير كبير أغبر يكون بساحل البحر كثيراً، وبالقرب من الإسكندرية، والناس يصطادونه ويأكلون.

دود: اسم جنس ومنه دود القز ويقال لها الهندية. ومن عجيب أمرها أنها تكون أولاً مثل بزر التين، ثم تصير دوداً وذلك في أوائل فصل الربيع، ويكون عند خروجه مثل الذر في قدره ولونه ويخرج في الأماكن الدافئة، إذا كان مصروراً في حق، وربما تأخر خروجه فتجعله النساء تحت ثديهن بصبرته فيخرج وغذاؤه ورق الثوت الأبيض. قال ولا يزال يكبر حتى يصير بقدر أصبع، ويتقل من السواد إلى البياض، وكل ذلك في مدة ستين يوماً. قال: ثم يأخذ في النسيج بما يخرج من فيه إلى أن ينفد ما في جوفه، ثم يخرج شيئاً كهية الفراش له جناحان لا يسكنان من الاضطراب وعند خروجه يهيج إلى السفاد ويلصق الذكر مؤخره إلى مؤخر الأنثى ويلتصمان مدة ثم يفرقان ويكون قد فرش لهما خرقه بيضاء فينثران البزر عليها ثم يموتان: هذا إذا أريد منهما البزر، وإن أريد الحرير تركا في الشمس بعد فراغهما من النسيج فيموت، وهو سريع العطب حتى إنه ليخشى عليه من صوت الرعد والمطاس، ومن المرأة الحائض، والرجل الجنب، ورائحة الدخان، والحر الشديد، والبرد الشديد، ونحو ذلك. قال أبو الفتح البستي:

الم تر أن المرأة طولَ حياتِهِ معنيّ بأميرٍ لا يزالُ يعالجه
كذلك دودُ القزِ ينسجُ دائماً ويهلكُ غمّاً وسطَ ما هو ناسجه

وقال آخر:

يُفني الحريمُ بجمع المالِ مدتهُ وللحوداثِ ما يقي وما يدعُ
كدودةِ القزِ ما تبنيه يهلكها وغيرها بالذي تبنيه يتضعُ

ديك: وكنيته أبو حسان، وأبو حماد، وغير ذلك. ويسمى الأنيس والمؤانس، ومن طبعه لا يألف زوجة واحدة، وهو أبله الطبيعة لأنه إذا سقط من بيت أصحابه لا يهتدي إلى الرجوع إليه، وفيه من الخصال الحميدة ما لا يحصر: منها أنه يساوي بين أزواجه في الطعمة، ويذكر الله تعالى في الليل حتى قيل إنه ليوقته، ويقسمه، وربما لا يخرم في توقته. وفي الحديث «إذا سمعتم صياح الديك فاذكروا الله تعالى فإنه يصبح بصياح ديك العرش». وروى الغزالي عن ميمون بن مهران: إن الله ملكاً تحت العرش على صورة الديك. فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحه وقال ليقيم الذاكرون، فإذا كان السحر وطلع الفجر ضرب بجناحه وقال ليقيم الغافلون وعليهم أوزارهم. وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إنَّ لله ديكاً أبيض له جناحان موشحان بالزبرجد، والياقوت، واللؤلؤ، جناح بالمشرق، وجناح بالمغرب، ورأسه تحت العرش، وقوائمه في الهواء فإذا كان ثلث الليل الأول خفق بجناحه وقال: سبحان الملك القدوس، فإذا كان الثلث الثاني خفق بجناحه وقال: قدوس قدوس، فإذا كان الثلث الثالث خفق بجناحه وقال: ربنا الرحمن الرحيم لا إله إلا هو». وروى الثعلبي بإسناده عن النبي ﷺ أنه قال: ثلاثة أصوات يحبها الله تعالى: صوت الديك، وصوت قارئ القرآن، وصوت المستغفر بالأسحار». وفي الحديث: «لا تسبوا الديك فإنه يؤقت للصلاة».

وزعم أهل التجربة أن الرجل إذا ذبح الديك الأبيض الأفرق لم يزل ينكب في أهله وماله.

نادرة: قيل كان لإبراهيم بن مزيد ديك، وكان كريماً عليه، فجاء العيد وليس عنده شيء يضحى عليه فأمر امرأته بنذبه واتخاذ طعام منه، وخرج إلى المصلى فأرادت المرأة أن تسكه فز فتبعته فصار يخرق من سطح إلى سطح وهي تتبعه، فسألها جيرانها وهم قوم هاشميون عن موجب ذبحه فذكرت لهم حال زوجها. فقالوا: ما نرضى أن يبلغ

الاضطرار بأبي إسحاق إلى هذا القدر فأرسل إليه هذا، شاة، وهذا شاتين، وهذا بقرة، وهذا كبشاً حتى امتلأت الدار فلما جاء رأى ذلك قال ما هذا؟ فقصت عليه زوجته القصة، فقال: إن هذا الديك الكريم على الله فإن إسماعيل نبي الله قتي بكبش واحد وهذا فدي بما أرى.

حرف الذال

ذباب: وكنيته أبو جعفر، وهو أصناف كثيرة يتولد من العفونة. ومن عجيب أمره أنه يلقي رجليه على الأبيض يسود، وعلى الأسود يبيض ولا يقعد على شجرة الدباء. وفي الحديث «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه فإن في أحد جناحيه دواء وفي الآخرة داء»، وإن من طبعه أن يلقي نفسه بالجناح الذي فيه الداء.

وحكي أن المنصور كان جالساً فآلح عليه الذباب حتى أضجره. فقال انظروا من بالباب من العلماء؟ فقالوا مقاتل بن سليمان فدعا به، ثم قال له: هل تعلم لأي حكمة خلق الله الذباب؟ قال ليذلل به الجابرة. قال صدقت ثم أجازاه. ومن خصائص النبي ﷺ أنه كان لا يقع عليه ذباب قط. وقال المأمون: قال إن الذباب إذا ذلك به موضع لسعة الزنبور سكن ألمه، فلسعني زنبور فحككت على موضعه أكثر من عشرين ذبابة فما سكن له ألم، فقالوا هذا كان حقاً^(١) قاضياً، ولولا هذا العلاج لقتلك. وقال الجاحظ: من منافع الذباب أنها تحرق وتخلط بالكحل، فإذا اكتحلته المرأة كانت عينها أحسن مات يكون. وقيل: إن المواشط تستعمله ويأمرن به العرائس، وقيل إن الذباب إذا ما وألقي عليه برادة الحديد عاش، وإذا بخر البيت بورق القرع هرب منه الذباب.

ذئب: حيوان معروف وكنيته أبو جعدة، وأبو جاعد، وأبو ثمامة، لونه رمادي، وهو من الحيوان الذي ينام بإحدى عينيه ويحرس بالأخرى حتى تمل فيغمضها ويفتح الأخرى كما قال بعض واصفيه:

ينام بإحدى مقلتيه ويحكي بأخرى المنايا فهو يقظانُ هاجع^(٢)

وإذا أراد السفاد اختفى ويطول في سفاده كالكلب، وإذا جاع عوى فتجتمع الذئاب حوله، فمن هرب منها أكلوه، وإذا خاف منه الإنسان طمع فيه، وليس في الأرض أسد يعض على عظم إلا ويسمع لتكسيره صوت بين لحييه إلا الذئب، فإن لسانه ييري العظم بري السيف ولا يسمع له صوت. وقيل: إذا أدماه الإنسان فشم الذئب رائحة الدم لا يكاد ينجو منه، وإن كان أشد الناس قلباً وأتمهم سلاحاً، كما أن الحية إذا خدشت طلبها اللز، فلا تكاد تنجو منه، والكلب إذا عض الإنسان يطلبه الفأر فيبول عليه فيكون في ذلك هلاكه فيحتال له بكل حيلة. قيل: ولا يعرف الالتحام عند السفاد إلا في الكلب والذئب، وإذا هجم الصياد على الذئب والذئبة وهما يتسافدان قتلها كيف شاء والله أعلم.

حرف الراء

رخ: طير عظيم الخلقة يوجد بجزائر الصين. قال أبو حامد الأندلسي: ذكر لي بعض المسافرين في البحر أنهم أرسوا بجزيرة، فلما أصبحوا وجدوا في طرفها لمعاناً وبريقاً فتقدموا إليه وإذا هم بشيء مثل القبة قال فجعلوا يضربون

(١) الحنف: الهلال.

(٢) هاجع: نائم.

فيه بالفؤوس إلى أن كسروه فوجدوه كهية البيضة وفيه فرخ عظيم قال فتعلقوا بريشة وجزّوه ونصبوا القدور وخرجوا يحتطبون من تلك الجزيرة حطباً يقال له حطب الشباب، فلما أكلوا ذلك الطعام أسودّت لحية ولمة كل ذي شيب، قال فلما أصبحوا جاءهم الرخ فوجدهم قد صنعوا بفرخه ما صنعوا، فذهب وأتى في رجله بحجر عظيم وتبعهم بعد ما ساروا في البحر وألقاه على سفيتهم فسبقت السفينة وكانت مشرعة بتسع قلع^(١) ووقع الحجر في البحر فنجاهم الله تعالى منه، وكان ذلك من لطف الله تعالى بهم، وقال وقد كان بقي معهم أصل ريشة، قيل إنهم كانوا يجعلون فيها الماء فتسع مقدار قرية، فسبحان الخالق الأكبر.

رخم: طير أصفر المنقار معروف وهو من أشرف الطيور، ويقال إنها صماء وسبب ذلك ما قيل في بعض الحكايات أن موسى عليه الصلاة والسلام لما توفي تكلمت بوفاته وكانت تعرف مكانه فأصمها الله تعالى حتى لا ترشد أحداً إلى موضعه.

حرف الزاي

زرافة: حيوان غريب الخلقة، ولما كان مأكولها ورق الشجر خلق الله تعالى يديها أطول من رجلها، وهي ألوان عجيبة يقال إنها متولدة من ثلاث حيوانات: الناقة الوحشية، البقرة الوحشية، والضبع فيتزو الضبع على الناقة، فتأتي بذكر فيتزو ذلك الذكر على البقرة فتولد منه الزرافة والصحيح أنها خلقة بذاتها، وذكر وأنتى كبقية الحيوانات لأن الله تعالى لم يخلق شيئاً إلا بحكمة.

زنبور: حيوان فوق النحل له ألوان وقد أودعه الله حكمة في بنيانه يته، وذلك أنه يبنه مربعاً له أربعة أبواب، كل باب مستقبل جهة من الرياح الأربعة، فإذا جاء الشتاء دخل تحت الأرض، ويبقى إلى أيام الربيع فيفتح الله تعالى فيه الروح فيخرج ويطير، وفي طبعه التهافت على الدم واللحم، ومن خاصيته أنه إذا وضع في الزيت مات، وفي الخل، عاش، ولسعته تزال بعصارة الملوخية.

حرف السين

سعللة: نوع من المتشيطنة. قال السهيلي: هو حيوان يترامى للناس بالنهار، ويقول بالليل وأكثر ما يوجد بالغياض، وإذا انفردت السعللة بإنسان وأمسكته صارت ترقصه وتلعب به كما يلعب القط بالفأر، قال وربما صاها الذئب وأكلها، وهي حيثئذ ترفع صوتها وتقول: أدركوني فقد أخذني الذئب، وربما قالت من يقظني منه وله ألف دينار، وأهل تلك الناحية يعرفون ذلك فلا يلتفتون إلى كلامها.

سمندل: حيوان يوجد بأرض الصين، ومن عجب أمره أنه يبيض في النار ويفرخ فيها ويؤخذ وبره فينسج ويجعل منه المناشف، وهذه المناشف إذا اتسخت جعلت في النار فتأكل النار وسخها ولا تحرقها.

حكي أن شخصاً بلّ واحدة من هذه المناشف بالزيت، وجعلت في النار وأوقدت ساعة ولم تحترق.

سجباب: حيوان كهية الفأر يوجد في بلاد الترك على قدر اليربوع إذا أبصر الإنسان هرب منه، وشعره كشعر

الفأر، وهو ناعم فيؤخذ ويسلخ جلده ويجعل فرواً يلبس، وطبعه موافق لكل طبع وأحسنه الأزرق.

سنور: حيوان متواضع ألوف خلقه الله تعالى لدفع الفأر والحشرات، كناه وأسماءه كثيرة.

حكى أن إعرابياً صاد سنوراً فرآه شخص. فقال ما تصنع بهذا القط؟ ولقيه آخر فقال ما تصنع بهذا الخيدع؟ ولقيه آخر فقال ما تصنع بهذا الخيطل؟ ولقي آخر فقال ما تصنع بهذا الهر؟ قال أيّعه. قال له بكم قال بمائة درهم فقال إنه يساوي نصف درهم. قال فرمى به وقال لعنه الله ما أكثر أسماءه وأقل قيمته، وهذا الحيوان يبيع في زمان الشتاء في شهرين منه. وتراهن يتردّدن صارخات في طلب السفاد، فكم من حرة خجلت، وذئ غيرة، هاجت حميته، وعزب تحركت شهوته. وطيب فم السنور كطيب فم الكلب في النكهة، وقيل إنّ الهرة تحمل خمسين يوماً وهو يجمع بين العض بالناب والخمش بالمخالب وليس كل سبع كذلك، وهو يناسب الإنسان في بعض الأحوال فيعطس ويتمطى، ويغسل وجهه بلعابه ويلطخ وير ولده بلعابه حتى يصير كأن الدهن يسري في جلده. وقيل إذا بال الهرّ شم بوله ودفنه، قيل لأجل الفأر فإذا شمه علم أن هناك هراً فلم يخرج، وأما سنور الزباد^(١) فهو بأرض الهند ويوجد الزباد تحت إبطيه وفخذه.

سوس: هو دود الحبوب والفاكهة، ومن الفوائد التي تكتب في الحبوب فلا تسوس أسماء الفقهاء السبعة الذين كانوا بالمدينة وقد نظمها بعضهم فقال:

ألا كلٌّ مَنْ لا يقتدي بأئمة فقسمته ضيزي^(٢) عن الحقّ خارجة
فأخذهم عبيد الله عروة قاسم سعيد أبو بكر سليمان خارجة

حرف الشين

شاهوار: حيوان يوجد بأرض الترك يقال إن له قرناً عليه اثنتان وسبعون شعبة مجوّفة فإذا هبت الريح سمع لها تصويت عجيب يكاد يدهش وربما قيل إن فيه شعبة يورث سماعها البكاء والحزن وأخرى تورث الفرح والضحك وأنه أهدي إلى بعض الملوك شيء من شعبها. . . فرأى فيه ذلك. ويقال إن من الحيوان شيئاً يوجد بالقياض في قصبة أنفه اثنا عشر ثقباً، إذا تنفس يسمع له صوت كصوت المزمار، فتأتيه الحيوانات لتسمعه فتدهش فيفعل بعضها من الطرب فيشب عليه فيأخذه ويأكله وهي تعلم ذلك منه وتحترز، فإذا لم يمسك بها شيئاً ضاق خلقه، وصاح بها صيحة فتهرب وتركه.

شاهين: طير يكون كهية الصقر إلا أنه عظيم الهامة، واسع العينين ومزاجه أيس من مزاج الصقر، وحركته من العلو إلى أسفل أقوى ولذلك ينقض على الطير بشدة وربما يخطئه فيضرب نفسه بالأرض بشدة فيموت، وقيل أول من صاده قسطنطين، وذلك أنه قد جعل له الحكماء الشواهين تظله من الشمس إذا سار، فاتفق في بعض الأيام أنه ركب فدارت الشواهين عليه وسار. قال فطار واحد منها وانقضّ على صيد فأخذه فأعجب الملك ذلك وصار يصيد به.

شحرور: طير أسود فوق العصفور يصوت بأصوات عجيبة مطربة.

(١) الزباد: قط يستخرج منه طيب.

(٢) ضيزي: غير عادلة.

حرف الصاد

صرد: حيوان يسمى الصرصار على قدر الخنفساء له جناحان ويقال له الصوام لأنه أزل طير صام يوم عاشوراء.
صعو: طير من صغار العصفائر أحمر الرأس.

حرف الضاد

ضأن: نوع من الحيوانات ذوات الأربع وهو من الحيوانات المباركة تحمل الأنثى منه بواحد واثنين، وفيها البركة وغيرها تحمل بالسبعة والتسعة، وليس فيها بركة، وإذا رعت زرعاً نبت عوضه وذلك لبركتها بخلاف غيرها من ذوات الأربع، ومن عجيب أمرها أنها إذا رأت اللب تخور وتخاف منه ولا تخاف من سائر السباع. قال بعض القصاص: مما أكرم الله تعالى به الكباش أن خلقه مستور العورة من قبل، ومن دبر ومما أهان به التيس أن خلقه مهتوك السر مكشوف العورة من قبل ومن دبر، ويقال الضأن من دواب الجنة وهي صفوة الله من البهائم. ويقال في المدح وهو كبش من الكباش، وفي الدِّم هو تيس من التيوس. وأهدى بعضهم إلى صديقه شاة هزيلة فقال:

تقولُ لي الإخوانُ حينَ طبختها أتطبخُ شطرنجاً عظاماً بلا لحم

ومن العجب أن يأتي غنم من الهند، للكبش منها ألية^(١) في صدره، وآليات في كفيه، وآلية على ذنبه وربما تكبر ألية الضأن حتى تمنعه من المشي، ومن عجيب أمرها أنها إذا تسافتت وقت المطر لا تحمل وعند هبوب الريح إن كانت شمالية حملت ذكراً، أو جنوبية أنثى والله أعلم.

ومن خواصها: أن لحمها ينعف للسوداء ويزيد في المني والياه، وإذا تحملت المرأة بصوفها قطع جلها، وإذا غطى إناء العسل بصوف الضأن الأبيض منع وصول النمل إليه، وإذا دفن كبش تحت شجرة كثر حملها على ما ذكر، والله أعلم.

ضب: حيوان جعل حجره في الأرض الصلدة وعنده بلد فرما لا يهتدي لحجره إذا خرج منه، فلذلك لا يحفره إلا بقرب كودية^(٢)، أو إشارة وهو من الحيوان الذي يعمر، قيل إنه يعيش سبعمائة سنة ومن طبعه أنه يصبر على الماء. يقال إنه لا يشرب فإنه يول في كل أربعين يوماً قطرة، والأنثى تبيض سبعين بيضة وأكثر وتجعلها في الأرض وتعاهدما في كل يوم إلى أربعين يوماً فيخرج ويضعها قدر بيض الحمام، وهذا الحيوان شديد الخوف من الآدمي، ولذلك يجعل العقارب في حجره حتى يمتنع بها، ويخرج من حجره كليل البصر فيستقبل الشمس فيحصل له بذلك حدة في بصره وإذا عطش تشقق النسيم فيروى، ويته وبين الأفاعي مناسبة وذلك أنه لا يخرج زمن الشتاء.

فائدة: قيل إن أعرابياً أتى النبي ﷺ وفي كفه ضب قد صاده وقال لولا أن تسميني العرب عجولاً لقتلتك وسررت الناس بقتلك. فقال عمر: دعني يا رسول الله أقتله فقال عليه الصلاة والسلام: «مهلاً يا عمر أما علمت أن الحليم كاد أن يكون نبياً»، قال: ثم أقبل الأعرابي على النبي ﷺ وقال: والله لا آمنت بك إلا أن يؤمن بك هذا الضب، وأخرجه من كفه، قال: فعند ذلك قال النبي ﷺ يا ضب فأجابه بلسان فصيح ليك وسعديك يا رسول الله رب

(١) ألية: كتلة دهنية توضع في مؤخرته.

(٢) كودية: قلة تربية.

العالمين. فقال: مَنْ تعبد؟ قال: الذي في السماء عرشه، وفي الأرض سلطانه، وفي البحر سبيله، وفي الجنة رحمته، وفي النار عذابه. فقال: مَنْ أنا يا ضب؟ قال: رسول رب العالمين قد أفلح مَنْ صدّقك وقد خاب مَنْ كذّبك. قال: قال الأعرابي عند ذلك: يا ويلاه ضب اصطدته بيدي من البرية يشهد لك بالرسالة، أنا أولى منه بذلك؛ هات يدك أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله حقاً ولقد أتيتك وما على وجه الأرض أحد أكثر بغضاً مني لك، ولقد صرت الآن اذهب من عندك وما على وجه الأرض أحد أكثر محبة مني لك، ولأنت الساعة أحب إلي من أهلي وولدي وما تملك يدي فقد آمن بك شعري وبشري، ودخلي وخارجي، وسري وعلايتي. فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله». قال: فاعلمني يا حبيبي: قال: فعلمه سورة الفاتحة، وسورة الإخلاص، وقال: مَنْ قرأها ثلاث مرات فكأنما قرأ القرآن. وقال: إلهنا يقبل اليسير، ويعفو عن الكثير، ثم سأله: ألك مال؟ فقال: يا حبيبي ليس في بني سليم أفقر مني. فقال لأصحابه: أعطوه، فأعطوه حتى أقبلوه. فقال عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله عندي ناقة عشارية أعطيها له. فقال: إن الله يعطيك ناقة في الجنة من ذرة، قوائمها من الزبرجد الأخضر، وعيناهما من الياقوت الأحمر، وعليها هودج من السندس تخطفك من الصراط كالبرق. قال: فخرج الأعرابي من عنده فتلّقاء ألف فارس من المشركين كلهم يريدون قتل النبي ﷺ. فأخبرهم بقصته فأسلموا عن آخرهم. وأمر النبي ﷺ خالد بن الوليد عليهم وهذه القصة ذكرها الدارقطني بتامها والبيهقي، والحاكم، وابن عدي.

الخواص: قلبه يذهب الحزن والخفقان، وشحمه يطلى به الذكر يزيد في البناء، وكعبه يشد على وجع الضرس، يبرأ وإذا جعل على وجه فرس لا يسبقه شيء، وبعره يذهب البرص والكلف طلاء، ومن أكل لحمه لا يعطش زماناً طويلاً.

ضبع: حيوان معروف، ومن كناه أم عامر، ومن طبعه حب لحم الآدمي حتى قيل إنه ينبش القبور، وإذا مرّ بإنسان نائم حفر تحت رأسه ووثب عليه وبقر بطنه وشرب دمه.

الخواص: من شرب دمه ذهب وسواسه، ومن علق عليه عينه أحبه الناس، وإذا جعلها في خل سبعة أيام ثم جعلها تحت فص خاتم، فكل من كان به سحر وجعل الخاتم في قليل ماء وشربه زال سحره.

ضفدع: حيوان يتولد من المياه الضعيفة الجري، ومن العفونات، وعقيب الأمطار وأول ما يظهر مثل الحب الأسود ثم ينمو ثم تتشكل له الأعضاء، وإذا نَقَّ جعل فكه الأسفل في الماء والأعلى من خارج وفي صوته حدة. قال سفيان ليس من الحيوانات أكثر ذكراً لله تعالى من الضفدع. وفي الآثار أن داود عليه الصلاة والسلام قال لأسبحن الله تعالى بتسبيح ما سبحه أحد قبلي، فتدته ضفدعة: يا داود تمنّ على الله تعالى بتسبيحك؟ وأنا لي تسعون سنة ما جف لساني عن ذكر الله تعالى. قال فما تقولين في تسبيحك؟ قالت أقول: سبحان من هو مسبح بكل لسان، سبحان من هو مذكور بكل مكان، فقال داود: وما عسى أن أقول؟ وقال بعضهم: إنها كانت تأخذ الماء بفيها وتجعله على نار إبراهيم الخليل والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرف الطاء

طاوس: طير مليح ذو ألوان عجيبة، وعنده الزهر في نفسه، والعجب، ومن طبعه العفة وهو من الطير كالفرس

من الحيوان، والأنثى تبيض حتى يمضي لها من العمر ثلاث سنين وفي ذلك الأوان يكمل ريش الذكر، ويتم لونه. وتبيض الأنثى مرة واحدة في كل شهر، ففي السنة اثنتا عشرة بيضة أو أقل، أو أكثر ويسفد الذكر في أيام الربيع ويرمي ريشه في أيام الخريف فإذا بدا طلوع الورق طلع ريشه، ومدة حضته ثلاثون يوماً.

فائدة: قيل إن آدم لما غرس الكرمة جاء إبليس لعنه الله فذبح عليها طاوساً فشربت دمه فلما طلعت أوراقها ذبح قرداً فشربت دمه، فلما طلعت ثمرتها ذبح عليها أسداً فشربت دمه فلما انتهت ثمرتها ذبح عليها خنزيراً فشربت دمه، فمن أجل ذلك تجد شارب الخمر أول ما يشربها وتدب فيه يزهو بنفسه، ويميس عجباً كالطاوس، فإذا جاء مبادي السكر لعب وصفق يديه كالقرد، فإذا قوي سكره قام وعريد كهية الأسد، فإذا انتهى سكره انقبض كما ينقبض الخنزير، ثم يطلب النوم والناس تشام بإقامته بالدور قيل لأنه كان سبباً لدخول إبليس الجنة وخروج آدم منها، والله على كل شيء قدير.

حرف الظاء

ظبي: واحد الغزلان وهو ثلاثة أصناف: الأول الآرام وهو ظباء الرمل ولونها رمادي وهي سمينة العنق، والثاني العفر ولونه أحمر وهي قصيرة العنق، والثالث الأدم وهي طويلة العنق وتوصف بحدة البصر. وقيل إن الظبي يقضم الحنظل قضمًا ويمضغه مضغًا، وماؤه يسيل من شذقيه ويرد الماء الملح فيشرب الماء الأجاج، ويفس خراطومه فيه كما تفس الشاة لحيها في الماء العذب، فأى شيء أعجب من حيوان يستعذب ملوحة البحر ويستحلي مرارة الحنظل.

الخواص: لسانه يجفف ويطعم للمرأة السليطة^(١) تزول سلاطتها، ويعره وجلده يحرقان ويسحقان ويجعلان في طعام الصبي، يزيد ذكاؤه ويصير فصيحاً ذلقاً^(٢) حافظاً.

ظربان: دوية فوق جرو الكلب، متنة الريح تزعم العرب أن من صاهاها وفست في ثوبه لا تزول الرائحة منه حتى يغلي الثوب. ويحكى من شؤمها أنها تأتي بيت الظبي فتضو فيه ثلاث مرات فتقتل ما فيه وتأكله بعد ذلك.

حرف العين

هجل: حيوان معروف، وهو ذكر البقر وسمي بذلك لاستعجال بني إسرائيل بعبادته، والسبب في ذلك أن موسى عليه الصلاة والسلام وقت الله له ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر، وكان فيهم شخص يسمى موسى بن ظفر السامري في قلبه من حب عبادة البقر شيء، فابتلى الله به بني إسرائيل فقال: اتنوني بحلي قال فأتوه جميع حليهم فصنع منه عجلاً جسداً، وألقى عليه قبضة من التراب الذي كان أخذه من أثر فرس جبريل عليه السلام فصار له خوار، كما أخبر الله تعالى، فعكفوا على عبادته من دون الله تعالى وكانوا يأتون إليه ويرقصون حوله ويتواجدون^(٣) فيخرج منه تصويت كهية الكلام فيتمتعون من ذلك، ويظنون أنه تكلم وإنما فعل ذلك بإغواء إبليس لعنه الله حتى يخطيئهم.

(١) السليطة: كثيرة الكلام وقحة.

(٢) ذلقاً: حاذقه.

(٣) يتواجدون: يشون أحزانهم.

فائدة: نقل القرطبي عن سيدي أبو بكر الطرطوشي رحمهما الله، أنه سئل عن قوم يجتمعون في مكان فيقرأون من القرآن، ثم يشد لهم الشر فيرقصون ويطربون، ثم يضرب لهم بعد ذلك بالدف والشبابة، هل الحضور معهم حلال أم حرام؟ فقال: مذهب الصوفية أن هذه بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وستة رسوله ﷺ وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذوا العجل فهذه الحالة هي حالة عبادة العجل، وإنما كان النبي ﷺ ومع أصحابه في جلوسهم كأنما على رؤوسهم الطير مع الوقار والسكينة، فينبغي لولاة الأمر وفقهاء الإسلام أن يمنعوهم من الحضور في المساجد وغيرها ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم ولا يعينهم على باطلهم. هذا مذهب الشافعية، وأبي حنيفة، ومالك، وأحمد بن حنبل رحمهم الله تعالى.

عقرب: هو من الحشرات. قال الجاحظ: إنها تلد من فيها مرتين، وتحمل أولادها على ظهرها وهم كهية القمل كثير العدد، وقال غيره إذا حملت تسلط عليها أولادها فأكلوا بطنها وخرجوا كهية الذر ثم يكبرون ويطوفون بالأرض ولها ثمانية أرجل، ومن عجيب أمرها أنها لا تضرب النائم إلا إذا تحرك شيء منه، والخنافس تأتي إليها وربما لسعت الثنين العظيم فقتلته.

غريبة: قال ذو النون المصري بينما أنا في بعض سياحتي إذ مررت بشاطئ البحر فرأيت عقرباً أسود قد أقبل إلى أن جاء إلى شاطئ البحر فظننت أنه يشرب فقممت لأنظر فإذا بضفدع قد خرج من الماء وأتاه فحمله على ظهره وذهب به إلى ذلك الجانب. قال ذو النون فاتزرت بمتزري وعمت خلفه، حتى إذا صعد من ذلك الجانب صعدت وسرت وراءه فما زال حتى جاء إلى شجرة فوجدت تحتها غلاماً نائماً من شدة السكر قد أقبل عليه ثنين عظيم. قال فلصقت للعقرب برأس الثنين ولسعته فقتلته، ثم رجعت إلى ظهر الضفدع فعب بها الماء وسار بها إلى المكان الذي جاءت منه. قال ذو النون فتعجبت وأنشدت:

يا راقداً والجيلُ يحفظه من كل سوء يكونُ في الظلم
كيف تنامُ العيونُ عن ملكٍ يأتيكُ منه فوائدُ النعم

ثم أيقظت الغلام وأخبرته بذلك. قال فلما سمع ذلك قال أشهدك عليّ أني قد تبت عن هذه الخصلة ثم جرينا ذلك الثنين ورميناه في البحر ولبس ذلك الغلام مسحاً^(١) وساح إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه، وما أحسن ما قال بعضهم:

إذا لم يالمك الزمانُ فحاربِ وباعدِ إذا لم تتخفِ بالأقاربِ
ولا تحترِ كيدَ الضعيفِ فربما تموتُ الأفاعي من سمومِ العقاربِ
فقد هُدَّ قدماً عرش بلقيسَ هدهدُ وخربَ فأزَّ قبل ذا سدَّ مارِبِ
إذا كانَ رأسُ المالِ عمركَ فاحترِ عليه من التضييعِ في غير واجبِ
فبينَ اختلافِ الليلِ والصبحِ معركُ يكرُّ علينا جيئُه بالمعائبِ

فائدة: إذا لدغ أحد فاقراً عليه هذه الكلمات وهي: سلام على نوح في العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد في المرسلين من حاملات السم أجمعين، لا دابة بين السماء والأرض إلا ربي أخذ بناصيتها كذلك يجزي عباده

(١) مسحاً: لباس التشف والرهبة.

المحسنين، إن ربي على صراط مستقيم. نوح قال لكم من ذكرني لا تلذغوه، إن ربي بكل شيء عليم، وصلى الله على سيدنا محمد الكريم. وقال بعض العلماء: من قال عقدت زيان^(١) العقرب، ولسان الحية، ويد السارق بقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أمن من العقرب، والحية، والسارق، وفي البخاري: أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله ماذا لقيت من عقرب لدغتي البارحة، فقال له النبي ﷺ: «أما إنك لو قلت إذا أمسيت أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم تضر» وروى الترمذي: «إن من قال حين يمشي أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق ثلاث مرات، ثم قال سلام على نوح في العالمين لم تضره الحية والعقرب» والسر في ذكر نوح دون غيره هو، أنه لما ركب في السفينة سأله الحية والعقرب أن يحملهما معه فشرط عليهما أنهما لا يضران من ذكر اسمه بعد ذلك فشرطا له ذلك.

الخواص: من يخر البيت بزرنج أحمر وشحم بقر، هربت منه العقارب، ومن شرب مثقالين من حب الأترج أبرأه من سمها، ومن علق عليه شيء من ورق الزيتون برى أيضاً لوقته.

عقق: طير ذو لونين طويل الذنب قدر الحمامة على شكل الغراب وجناحه أكبر من جناحي الحمامة وهو لا يأري إلا إلى الأماكن العالية، وإذا باض جعل حول بيضه ورق الدلب^(٢) خوفاً عليه من الخفاش لا يفسده.

الخواص: دمه إذا جعل على قطن وألصق على موضع النصل، والشوكة الغائبة في البدن أخرجه. علق: دود أحمر وأسود يكون بالماء يعلق بالخيول والآدمي، فإذا علق بك قرش عليها ماء وملحاً، وإذا علق بفرس فبخره بوبر الثعلب فإنها تنفصل من رائحة دخانه.

ومن خواصه: أن البيت إذا بخر به هرب ما فيه من البق والبعوض وإذا جفف وسحق وقلع الشعر وطلي به مكانه منع نباته.

عتقاء: اختلف فيها، فقال بعضهم هو طائر عظيم الخلقة له وجه إنسان، وفيه من كل حيوان لون. وقال بعضهم هو طائر غريب الشكل يبيض أيضاً كالجبال، ويعد في طيرانه، وسميت بذلك لأنه كان في عتقها طوق أبيض، قال القزويني: إنها تخطف القيلة لمظلمها وكبر جثتها كما تخطف الحداة القار. وقال: وكانت في قديم الزمان بين الناس إلى أن خطف عروساً بحليها فذهب أهلها إلى نبي ذلك الزمان فشكوها إليه فدعا عليها، فذهب بها إلى بعض الجزائر التي خلف خط الاستواء وهي جزيرة لا يصل إليها أحد وجعل لها فيها ما تقتات به من السباع كالنمل والكركند وغير ذلك. وقال أصحاب التواريخ: إن هذا الطير يعمر حتى قيل إنه يعيش ألفي سنة ويتزوج إذا مضى عليه خمسمائة.

وحكى الزمخشري في ربيع الأبرار أن الله تعالى خلق في زمن موسى عليه الصلاة والسلام طيراً يقال له العتقاء له وجه كوجه الإنسان، وأربعة أجنحة من كل جانب، وخلق له أنثى مثله، ثم أوحى الله تعالى إلى موسى أني خلقتة كهية الطير، وجعلت رزقه الوحوش والطيور التي حول بيت المقدس. قال: فتناسلا وكثر نسلهما، فلما توفي موسى عليه

(١) زيان: إبرته ومكمن الحلة.

(٢) الدلب: شجر متوسط حجم الورق.

الصلاة والسلام انتقلت إلى نجد والعراق فلم تزل تأكل الوحوش وتخطف الصبيان إلى أن تنبأ خالد بن سنان العنكبوت فتكورها له فدعا عليها فانقطعت وانقطع نسلها وانقرضت.

عنكبوت: دوية لها ثمانية أرجل وستة عيون وهو من الحيوان الذي صيده الذباب، وولده يخرج قوياً على التسج من غير تعليم ولا تلقين، ويخرج أولاده دوداً صغيراً ثم يتغير ويصير عنكبوتاً وتكمل صورته.

قائلة: قيل إن امرأة ولدت جارية ثم قالت لخدام لها: اقتبس لنا ناراً، فخرج فوجد بالباب سائلاً فقال له ما ولدت سيدتك؟ فقال بتاً، فقال لا تموت حتى تبغي^(١) بألف رجل ويتزوجها خادمها ويكون موتها بالعنكبوت، فقال الخادم: وأنا أصبر لهذه حتى يحصل منها ما يحصل فصبر حتى قامت أمها لتقصي بعض شؤونها وعمد إلى البنت فشقّ يطنها بسكين وهرب. قال: فجاءت أمها فوجدتها على تلك الحالة فدعت بمن يعالجها حتى شفيت فلما كبرت بغت. قال: ثم إنها سافرت وأتت مدينة على ساحل من سواحل البحر فأقامت هناك تبغي. قال وأما الرجل فإنه صار من التجار وقدم بتلك المدينة ومعه مال كثير فقال لامرأة عجوز هناك: اخطي لي امرأة حسنة أتزوج بها. قال: فوصفتها له وقالت ليس هنا أحسن منها ولكنها تبغي، فقال للعجوز اتني بها. قال فذهبت وأخبرتها بالقصة، فقالت لها حباً وكرامة فتي قد تبت عن البغي، فتزوج الرجل بها وأحبها حباً شديداً وأقام معها أياماً، وكان يؤد أن يراها متجردة فلم يمكنه ذلك، حتى إذا كان في بعض الأيام خرج على عادته لقضاء أشغاله ودخلت هي الحمام وعرضت له حاجة فرجع إلى الدار وصعد إلى قصرها فلم يرها، فسأل عنها فقبل له هي في الحمام فدخل عليها فراها متجردة، ورأى في بطنها أثراً كالخياطة، فقال ما هذا؟ قالت له: لا أعلم إلا أن أمي أخبرتني أنه كان لنا خادم وأنه يوم ولادتي غافل أمي، وشقّ بطني بسكين وهرب، وأنها حين رأيته كذلك دعت بعض الأطباء فحاط بطني وعالجني حتى اندمل جرحي وشفيت وبقي هذا الأثر، فقال لها: أنا ذلك الخادم وحكى لها السبب وأن ذلك السائل أخبره أنها تموت بالعنكبوت، ثم إنه لعتم بأمرها وجمع مهندسي البلدة التي هم فيها وسألهم أن يبنوا له بناء لا ينسج عليه العنكبوت، فقالوا كل بناء ينسج عليه إلا أن يكون البلور لنعمته لا ينسج عليه، فأمرهم أن يصنعوا لها قصراً من البلور وبذل لهم ما أرادوا فعملوه وفرشه، وأمرها أن تقيم فيه ولا تخرج منه خوفاً عليها من العنكبوت. قال: فبينما هو ذات يوم إذ رأى عنكبوتاً قد نسج في ذلك القصر، فقام إليه فرماه وقال لها: هذا الذي يكون موتك منه. قال: فداسته بإبهامها وقالت كالمستهزئة أهذا الذي يقتلني؟ فتدخه فتعلق بطرف إبهامها من مائه شيء ففعل بها حتى ورمت ساقها ثم وصل الورم إلى قلبها فقتلها فما أفاده قصره ولا صرحه شيئاً. قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا بِدِرْكُكُمْ الْمَوْتِ وَلَوْ كُتِمَ فِي بَرْوَجٍ مُّشِيدَةٍ﴾^(٢).

قائلة: نسج العنكبوت على ثلاثة مواضع: على غار النبي ﷺ، وعلى غار عبد الله بن أنيس لما بعثه النبي ﷺ لخالد الهذلي فقتله وحمل رأسه ودخل به في غار خوفاً من أهله، ونسج على عورة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم لما صلب عرياناً. وقيل إنها نسجت مرتين على داود حين كان جالوت يطلبه.

الخواص: نسجها إن وضع على الجراح الطرية يقطع دمها ويجلو الفضة إذا دلكت به والذي يوجد من نسجها في بيت الخلاء ينفع المحموم إذا تبخر به.

(١) تبغي: تجامعهم بالحرام.

(٢) سورة: النساء، الآية: ٧٨.

ابن عرس: حيوان معروف وهو بأرض مصر كثير ويسمى العرسة، وهو عدو للفأر وعنده الحيل، قيل إنه عدا خلف فأر فصعد منه على شجرة فصعد خلفه وأمر أثنائه أن تقف تحت الشجرة ثم قطع الغصن الذي كان عليه الفأر فسقط فأخذته أثنائه. ومما يحكى عنه أنه يحب الذهب فيسرقه ويلد عليه.

عجبية: قيل إن رجلاً صاد فرخاً من أولاده وحبسه تحت طاسة فجاء أبوه فوجده فذهب وأتى بدينار فوضعه فلم يفلته. ثم ذهب وأتى بآخر، وما زال كذلك حتى أتى بخمسة دنائير فلم يفلته، ثم أتى بخارقة فأراد ابن عرس أن يأخذ ما برطله منه، فلما علم الرجل ذلك فهم أنه لم يبق عنده شيء فأقلته له.

حرف الغين

غراب: وكنيته أبو حاتم، وله كنى غير ذلك وهو أنواع كثيرة: منها الأكحل، وغراب الزرع، والأزرق، وهذا النوع يحكى جميع ما سمعه، والعرب تتفائل بصياح الغراب فتقول إذا صاح مرتين فشر، وإذا صاح ثلاثة فخير. وهو كالإنسان عند الجماع، وفي طبعه الإستار عن الناس عند مجامعته، والأنثى تبيض ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً وتحضن ذلك، والأب يسعى في طعمتها إلى أن تفرخ، فإذا فرخت خرجت أفرأخها قبيحة المنظر فتفرق عنها وتتركها وتغيب فيرسل الله لها البعوض فتغذى به، ثم لا تزال تعاودها حتى يبت لها الريش فتأتيها، ومنه قول الحريري:

يا رازق النعاب في عثِّه وجابرَ العظم الكبير المهيضي^(١)

ومن طبعه لا يتعاطى الصيد بل إن وجد رمة أكل منها، ويقم^(٢) من الأرض ما وجد، ويسمى بالفاسق لأنه لما أرسله نوح عليه السلام ليكشف عن الماء فوجد في طريقه رمة فسقط عليها وترك ما أرسل إليه، ويسمى بالبين لأنه إذا رحل العرب من مكان نزل فيه وزعق في أثرهم. ومن الغرائب أن بين الغراب وبين الذئب إلفة، وذلك أنه إذا رأى الذئب بقر بطن شاة سقط وأكل منها معه والذئب لا يضره.

الخواص: إذا غمس الغراب في الخل ثم جفف ومسح ريشه وطلبي به الشعر سوده، وإذا علق متقاره على إنسان زالت عنه العين. وزبل الغراب الأبقع ينفع الخواثيق والخنازير طلاء، وإن صرَّ في خرقه على من به السعال زال.

غرغر: دجاج بني إسرائيل، يقال إن فرقة من بني إسرائيل كانت بتهامة فطفت ويغت وتجبرت وكفرت فعاقبهم الله تعالى بأن جعل رجالهم القردة، وكلابهم الأسود، وعنبهم الأراك وجوزهم المقل، ودجاجهم الغرغر، وهو دجاج الحبشة فلا ينفع لحمه لرائحته الكريهة وهذا مشاهد في زماننا هذا الآن على ما نقل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرف الفاء

فاخته: طير أغبر من ذوات الأطواق بقدر الحمام لها حسن الصوت، يحكى أن الحيات تهرب من صوتها وفي طبعها الأنس، فمن أجل ذلك تتخذ بيتها في البيوت وهي من الحيوانات الذي يعمر وقد ظهر منها ما عاش خمساً وعشرين سنة.

(١) الكبير المهيضي: المكسور.

(٢) يقيم: يبحث عن القمامة.

الخواص: دمه ينفع من الآثار في العين من ضربة أو قرحة إذا قطر فيها.

فأرة: وكنيتها أم خراب وغير ذلك وتسمى بالفويسقة، وذلك أن النبي ﷺ انتبه ليلة فوجدها قد جذبت الفتيلة وأحرقت طرف سجّادته فقتلها وأمر بقتلها. وهي التي قطعت جبل سفينة نوح عليه السلام وأذاها لا يكاد ينحصر، ومنه أنها تأتي إلى إناء الزيت فتشرب منه فإذا نقص صارت تشرب بذبها فإذا لم تصل إليه ذهبت وأتت في فيها بماء وأفرغته فيه حتى يعلوها الزيت فتشربه، وربما وضعت فيه حجراً فكسرتة ويقال إنها من بقايا الممسوخين الذين كانوا يهوداً. ومن أراد أن يعلم ذلك فليضع لها لبن ناقة في إناء فإن لم تشربه فهي منهم.

الخواص: عنه تشد على الماشي يسهل تعبه وإذا بخر البيت بزيل الذئب أو الكلب ذهب منه الفأر.

فرس البحر: حيوان غليظ، يوجد بالنيل، أفطس الوجه، ناصيته كالفرس، ورجلاه كالبرق، وذنبه قصير يشبه ذنب الخنزير وجلده غليظ، ووجهه أوسع من وجه الفرس، يصعد البرّ ويرعى الزرع وربما قتل الإنسان وغيره.

فهد: حيوان شرس الأخلاق، قال أرسطو: هو متولد من الأسد والنمر وفي طبعه مشابهة بطبع الكلب ونومه ثقيل، وفي طبعه الحنوّ على أنثاه، وقيل أوّل من صاد به كلب بن وائل، وأوّل من حمّله على الخيل يزيد بن معاوية، وأكثر من اشتهر باللعب به أبو مسلم الخراساني.

فيل: حيوان يوجد بأرض الهند وكنيته أبو الحجاج. والأنثى أم سيل، وهو يتزو على أنثاه إذا بلغ من العمر خمس سنين، وتحمل أنثاه ستين ثم تضع، ولا يقربها الذكر في مدة حملها ولا بعده بثلاث سنين ولا يلقح إلا بيلاده. وإذا أرادت الوضع دخلت النهر لأن رجليها لا يشيان فتخاف عليه، والذكر يحرسها خوفاً على ولده من الحيات فإنها تأكله وهو عند شدة غلمته كالجمل، ويبيع في زمن الربيع، وزعم أهل الهند أن لسانه مقلوب ولولا ذلك لكان يتكلم لشدة ذكائه، وقيل إن ثدييه في صدره كالإنسان، وهو أضخم الحيوان وأعظمه جرماً^(١)، وما ظنك بخلق ربما كان نابه أكثر من ثلاثمائة سنّ، وهو مع ذلك أملح وأظرف من كل نحيف الجسم، رشيق وربما مرّ الفيل مع عظم بدنه خلف القاعد فلا يشعر برجله ولا يحس بعوروره لخفة همسه، واحتمال بعض جسده لبعض، وأهل الهند يزعمون أن أنياب الفيل قرناته يخرجان مستطنتين حتى يخرقان، وخرطوم الفيل أنفه ويده، وبه يتناول الطعام إلى جوفه، وبه يقاتل، وبه يصيح وصياحه ليس في مقدار جرمة، وقيل إن الفيل جيد السباحة وإذا سبح رفع خرطوميه، كما يغيب الجاموس جميع بدنه إلا منخره ويقوم خرطوميه مقام عنقه، والخرق الذي في خرطوميه لا ينفذ وإنما هو وعاء إذا ملأ من طعام أو ماء أولجه في فيه لأنه قصير العنق، لا ينال ماء ولا مرعى وأهل الهند تجعله في القتال وهو أيضاً يقاتل مع جنسه فمن غلب دخلوا تحت أمره، وقيل جعل الله في طبع الفيل الهرب من السور.

حكى عن هارون مولى الأزدي أنه خبا معه هراً ومضى بسيف إلى الفيل، فلما دنا منه رمى بالهر في وجهه فأدبر هارباً وكبر المسلمون وظنوا أنه هرب منه. قال أبو الشمقمق:

يا قومُ إنّي رأيتُ الفيلَ بعدكم تبارك الله لي في رؤية الفيل
رأيتُ بيتاً له شيء يحركه فكذلك أفعُلُ شيئاً في السراويل^(٢)

(١) جرماً: جسماً.

(٢) السراويل: أي كاد يول فيه من الخوف.

وقيل: إذا اغتم الفيل لم يكن لشواسه (ج: سائس) هم إلا الهرب بأنفسهم ويتركونه، ومن عجيب أمره أن سوطه الذي به يحث ويضرب محجن حديد أحد طرفيه في جبهته، والآخر في يد راجبه فإذا أراد شيئاً غمز به في لحمه، وأول شيء يؤدّبون به الفيل يعلمونه السجود للملك. قيل: خرج كسرى أبريز لبعض الأعياد وقد صفوا له ألف فيل، وأحلق به ثلاثون ألف فارس، فلما رآته الفيلة سجدت له فما رفعت رؤوسها حتى جذبت بالمحاجن وراضتها الفيلون. وتزعّم أهل الهند أن جبهة الفيل تعرق كل عام عرقاً غليظاً سائلاً أطيب من رائحة المسك، ولا يعرض ذلك العرق إلا في بلادها خاصة، وأن عظام الفيل كلها عاج إلا أن جواهر نابه أكرم وأثمن ولولا شرف العاج وقدره لما فخر الأحنف بن قيس على أهل الكوفة في قوله: نحن أكثر منكم عاجاً وساجاً، وديباجاً وخراجاً. وقيل إن الفيلة لا تتسافد في غير بلادها.

فائدة: من قرأ سورة الفيل ألف مرة في كل يوم، عشرة أيام متواليه ثم جلس على ماء جار وقال: اللهم أنت الحاضر المحيط بمكنونات الضمائر، اللهم عزّ الظالم وقلّ الناصر، وأنت المطلع العالم، اللهم إن فلاناً ظلمني وأساءني ولا يشهد بذلك غيرك أنت مالكة فأهلكه، اللهم سربله سربال الهوان وقمصه قميص الردى، اللهم اقصفه ست مرات، اللهم اخفضه مرتين، فأخذهم الله واق، فإن الله بذنوبهم وما كان لهم من الله واق، فإن الله يستجيب له ما لم يكن ظالماً.

الخواص: جلده إذا بخر به بيت هرب بقاءً وإذا سقي إنسان من وسخ أذنيه نام نومة طويلة، وإذا علق من نابه شيء على شجرة لم تثمر، وإذا عمل من جلده ترس يكون أصلب من كل ترس.

حرف القاف

قائم: دوية تشبه السنجاب إلا أنه أبرد منه مزاجاً وهو أبيض يقق^(١) وجلده أعزّ قيمة من السنجاب. قاوند: طير يكون بساحل البحر يبيض في الرمل، ويحضر بيضه سبعة أيام ثم تخرج أفراده بعد ذلك فيزقها بعد سبعة أيام، ويقال ما يمك الله البحر في هيجانه عن أن يفيض على الساحل إلا إكراماً له، لأنه يقال إنه يربّ بوالديه.

خواصه: أنه يقيم المقعد، ويحلل البلاغم المزمنة، وينفع الأمراض الباردة، وأوجاع الأعصاب. قرد: حيوان معروف وكنيته أبو خالد، وغير ذلك وهو قبيح المنظر مليح الذكاء، سريع الفهم، يتعلم الصنائع. قيل إنه أهدي للمتوكل قرد خياط، وآخر صائغ وأهل اليمن يعلمون القردة البيع والجلوس في الدكاكين حتى قيل إنه يخرز النعل، ويصّر القرطاس وهو ذو غيرة وعنده لواط حتى قيل إنه يعدو خلف المليح من شدة المحبة، والتفت ابن الرومي يوماً إلى أبي الحسن الأخفش وهو يحاكي مشية القرد فقال:

هنيئاً يا أبا الحسن المفلدى بلغت من الفضائل كلّ غايه
شركت القرد في قبح وسخف وما قصرت عنه في الحكايه

قنفذ: بالذال المعجمة، وكنيته أبو سفيان، ومن عجيب أمره أنه يصعد الكرم فيرمي العنقود ثم يتزل فيأكل منه ما أطاق، فإن كان له أفرارخ تمرغ في الباقي فيتعلق بشوكه فيذهب به إلى أولاده، وهو مولع بأكل الأفاعي فإذا لدغته لا

(١) أبيض يقق: شديد البياض ناصعه.

يؤثر فيه سمها لدفع ذلك بشوكه وإذا تأذى منها ذهب فأكل السعتر البري، فيزول أذاها وهو من الحيوان الذي يسفد مباطنة كالرجل وله خمسة أرجل.

حرف الكاف

كركد^(١): حيوان يوجد ببلاد الهند والنوبة وهو دون الجاموس وله قرن واحد عظيم لا يستطيع رفع رأسه منه لثقله، وهو مصمت^(٢) قوي يقاتل به الفيل فيغلبه ولا تعمل ناباه شيئاً معه وعرض قرنه شبران وليس بطويل جداً، وهو محدد الرأس شديد الملاسة وإذا نشر قرنه ظهرت في معاطفه صور عجبية كالطواويس، والغزلان، وأنواع الطير والشجر، وبني آدم ولذلك يتخذ منه صفائح الأسرة، والمناطق للملوك ويتغالون في ثمنها بحيث تبلغ المنطقة أربعة آلاف، أو أكثر، والأنثى تحمل ثلاث سنين، ويخرج ولدها ثابت الأسنان والقرون قوي الحافر. ويقال إنها إذا قاربت الوضع أخرج الولد رأسه من بطنها وصار يرى أطراف الشجر، فإذا شيع أدخل رأسه في بطن أمه، ويزعم أهل الهند أنه إذا كان ببلاد لم يدع فيها من الحيوان شيئاً حتى يكون بينها وبينه مائة فرسخ من جميع الجهات هية له، وهرباً منه، ويسمى الحمار الهندي، وهو شديد العداوة للإنسان يتبعه إذا سمع صوته فيقتله ولا يأكل منه شيئاً.

كروان: طير معروف لا ينام غالب الليل خصوصاً في القمر وعنده ذكاء، قيل إنه يتكلم بجميع ما يبصره ولا يحتمل المغالبة^(٣).

كركي: طير محبوب للملوك وله مشى ومصيف، فمشته بأرض مصر، ومصيفه بأرض العراق وهو من الحيوان الرئيس. قيل إنه إذا نزل بمكان اجتمع حلقة ونام، وقام عليه واحد يحرسه، وهو يصوت تصويماً لطيفاً حتى يفهم أنه يقظان، فإذا تمت نوبته أيقظ غيره لنوبته. قال القزويني: وإذا مشى وطىء الأرض يا حدى رجله وبالأخرى قليلاً خوفاً من أن يحسن به، وإذا طار سار سطراً يتقدمه واحد كهية الدليل ثم تتبعه البقية.

كلب: معروف وهو نوعان: أهلي، وسلوقي وهذان النوعان سواء، إلا أن أنثى السلوقي أسرع في التعلم من ذكره، وهذا الحيوان حلیم وعنده رياضة وفي طبعه إكرام الأجلاء من الناس.

حكى أن رجلاً عزم جماعة، فتخلف شخص منهم في منزله ودخل على زوجة صاحب المنزل فضاجمها فوثب الكلب عليهما فقتلها فرجع صاحب المنزل فوجدتهما قتيلين فأشدد يقول:

وما زال يرعى ذمتي ويحوطنني ويحفظ عهدي والخليلُ يخونُ
فواعجباً للخللِ يهتك حرمتي وواعجباً للكلبِ كيف يصونُ

وحكى أبو عبيدة قال: خرج رجل إلى الجبانة ومعه أخوه وجاره لينظروا إلى الناس، فتبعه كلب فضربه ورماه بحجر فلم يته ولم يرجع، فلما قعد رضى الكلب بين يديه فجاء عدو له في طلبه، فلما رآه خاف على نفسه فإذا بثر هناك قرية القعر فترل فيها وأمر أخاه وجاره أن يهيلا عليه التراب، ثم ذهب أخوه وجاره إلى سيله وصار الكلب ينبج

(١) كركند: أو كركدن.

(٢) مصمت: مفرغ القلب.

(٣) المغالبة: المخادعة.

حوله. فلما انصرف العدو أتاه الكلب فما زال يبحث في التراب إلى أن كشفه عن رأسه، ففتفس الرجل ومرّ به أناس فتناولوه وردوه إلى أهله. فلما مات ذلك الكلب عمل له قبراً ودفنه فيه وجعل عليه قبة وسمى ذلك قبر الكلب وفي ذلك قيل:

تفرّق عنه جاره وشقيقه وما حادّ عنه كلبه وهو ضاربه

ومن ذلك ما حكى أن رجلاً قتل ودفن وكان معه كلب، فصار يأتي كل يوم إلى الموضع الذي دفن فيه، وينبح وينبش ويتعلق برجل هناك فقال الناس: إن لهذا الكلب شأنًا فكشفوا عن ذلك وحضروا ذلك الموضع، فوجدوا قتيلاً، فقبضوا على ذلك الرجل الذي ينبع عليه الكلب وضربوه فأقرّ بقتله فقتل. وهو من الحيوان الذي يعرف الحسنة. وقيل إن الأنثى تحيض في كل شهر سبعة أيام، وأكثر ما تضع إثنا عشر جرواً، وذلك في النادر والغالب خمسة أو ستة، وربما ولدت واحداً، ويعيش الكلب في الغالب عشر سنين، وربما بلغ عشرين سنة. وصف للمتوكل كلب بأرمينية يفترس الأسد فأرسل من جاء به إليه فجزع أسداً وأطلقه عليه فتهاشأ وتواثبا حتى وقعا ميتين. وقيل كلب الصيد، يشبه به الفقير المجاور للغني، لأنه يرى في نعمته، ويؤس نفسه ما يقتت كبده. وقيل لرجل ما بال الكلب يرفع رجله إذا بال، قال يخاف أن يلوث ذراعيه قيل أو للكلب ذراعان قال هو يتوهم ذلك.

فائدة: حكى أن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه سمع شخصاً من وراء النهر يروي أحاديث مثله، فسار إليه ودخل عليه، فوجده يطعم كلباً، وهو مشتغل به. قال الإمام أحمد: فأخذت في نفسي وأضمرت أن أرجع إذا لم يلتفت الرجل إليّ، ثم قال حدثني أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة فلم يلج الجنة» وإن أرضنا هذه ليست بأرض كلاب وقد قصدني هذا الكلب فخشيت أن أقطع رجاءه. قال: فقال الإمام أحمد رحمه الله، هذا الحديث يكفيني ثم رجع قافلاً إلى أهله.

فائدة أخرى: قال الترمذي: لما أهبط الله تعالى آدم إلى الأرض سلط عليه إبليس السباع وكان أشدها الكلب. قال فتزل عليه جبريل عليه السلام وأمره أن يضع يده عليه، ففعل واطمأن إليه وألفه، وصار يحرسه، وبقيت الإلفة فيه لأولاده إلى يوم القيامة. وقيل إن أول من اتخذ الكلب بعد آدم نوح عليهما الصلاة والسلام، وذلك لأن قومه كانوا يعمدون بالليل فيفسدون ما صنعه في السفينة بالنهار، فأمره الله أن يتخذ كلباً حارساً ففعل. قال فكان الكلب إذ أتاه مفسد قام عليه فيتقيظ نوح عليه الصلاة والسلام فيدفعه.

فائدة أخرى: قيل كان كلب أهل الكهف أسمر واسمه قطمير، وقيل أصفر وقيل خلنجي^(١) اللون وليس في الحيوان ما يدخل الجنة إلا هو، وكبش إسماعيل، وناق صالح، وحمار العزيز، وبراق النبي ﷺ.

فائدة أخرى: إذا نبع عليك كلب وخفت منه فاقرا «يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان»^(٢) وقل بعد ذلك لا إله إلا الله فإنك تكفاه.

(١) خلنجي: مائل للخصرة.

(٢) سورة: الرحمن، الآية: ٣٣.

حرف اللام

لغلق^(١): طير معروف. قيل إنه من طيور الفواخت ويأتي إلى أرض مصر في أيام الشتاء فيأكل ما قسم الله له من الرزق، ويأكل منه من له فيه رزق ثم يرحل إلى بلاده.

حرف الميم

مالك الحزين: طير يوجد بالضحضاح^(٢) غذاؤه السمك، وسمي بذلك لأنه قيل إنه لا يشرب حتى يروى خوفاً من أن ينقص الماء وإذا نشف الضحضاح حزن لأنه لا يستطيع العوم. ونظيره دوية بأرض فارس معروفة عندهم يقال إن غذاها التراب فإذا أكلت لا تشبع خوفاً من أن يفرغ.

حرف النون

نمل: قال عليه الصلاة والسلام: «ألا تنظرون إلى صغير من خلق الله كيف أحكم خلقه، وأتقن تركيبه. وخلق له السمع والبصر، وسوى له العظم والبشر، انظروا إلى النملة في صغر جثتها، ولطافة هيبتها، ولا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر كيف دبّت على الأرض، وسعت في مناكبها، وطلبت رزقها تنقل الحبة إلى جحرها تجمع في حرها لبردها، وفي وردها لصدرها، لا يغفل عنها المنان، ولا يحرمها الديان، ولو فكرت في مجاري أكلها في علوها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجباً، وللقيت من وصفها تعباً، فتعالى الله أقامها على قوائمها، وبنّاها على دعائمها لم يشركه في فطرتها فاطر، ولم يعنه على خلقها قادر لا إله إلا هو ولا معبود سواه» وقيل إذا خافت على حبيها أن يعفن أخرجه إلى ظهر الأرض ليحفظ، وقيل إنها تفلق الحبة نصفين خوفاً من أن تنبت فتفسد، إلا الكزبرة فإنها تفلقها أرباعاً لأنها من دون الحب، ينبت نصفها وليس كل أرباب الفلاحة يعرف هذا، فسبحان من ألهمها ذلك. وقيل إنها تشم رائحة الشيء من بعيد ولو وضعته على أنفك لم تجد له رائحة، وإذا عجزت عن حمل الشيء استعانت برفقته فيحملونه جميعاً إلى باب حجرها، وقيل إذا انفتح باب قرية النمل فجعلت فيه زرنجاً أو كبيراً تهجرتها والله أعلم.

نحل: حيوان ليس له نظر في العواقب، وله معرفة بفصول السنة وأوقاتها، وأوقات المطر، وفي طبعه الطاعة لأميره، والانقياد له، ومن شأنه في تدبير معاشه أن يبنى له بيتاً من الشمع شكلاً مسدساً لا يوجد فيه اختلاف كالقطعة الواحدة، وإذا طار ارتفع في الهواء وحط على الأماكن النظيفة، وأكل نوار الزهور والأشياء الحلوة، وشرب من الماء الصافي وأتى فأخرج ذلك، فأول ما يخرج الشمع ليكون كالوعاء، ثم العسل، وقيل: إنه يقسم الأعمال، فبعضه يعمل البيوت، وبعضه يعمل الشمع، وبعضه يعمل العسل، وفي طبعه النظافة فيجعل رجليه خارج الخلية، وما مات منه أخرجه ورماء، وعنده الطرب فيحب الأصوات اللذيذة، وله آفات تقطعه كالظلمة، والغيم، والريح، والمطر، والدخان، والنار، وكذلك المؤمن له آفات تقطعه منها ظلمة الغفلة، وغيم الشك، وريح الفتنة، ودخان الحرام، ونار الهوى.

فائلة: قيل مرض شخص فقال اثنتوني بماء وعسل فأتوه بذلك فخلط الجميع وشربه فشفي، وروي أن شخصاً

(١) لغلق: المعروف لقلق.

(٢) الضحضاح: المستقع.

شكا للنبي ﷺ، بطن أخيه فأمره بشرب العسل فشربه، ثم جاء ثانياً فأمره بشربه، ثم جاء في الثالثة، فقال يا رسول الله ﷺ إن بطنه لم يزل، فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك، أسقه عسلاً» فسقاه الثالثة فشفي.

نادرة: قيل إن بعضهم حضر مجلس المنصور، فقال بعض الحاضرين المراد من قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾^(١) أهل البيت فإنهم النحل، والشراب القرآن، فقال له بعض من حضره من اللطفاء: جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بني هاشم، فضحك الحاضرون عليه وأبهته^(٢).

الخواص: إذا خلط العسل الخالص بمسك خالص واكتحل به نفع من نزول الماء في العين، والتلطيخ به يقتل القمل ولعقه علاج لعضة الكلب، والمطبوخ منه نافع للمسموم.

نسر: هو سيد الطيور ويعمر طويلاً، وقيل إنه يعيش ألف سنة وله قوة على الطيران حتى قيل إنه يقطع من المشرق إلى المغرب في يوم، وجثته عظيمة حتى قيل إنه يحمل أولاد الفيلة، وله قوة حاسة الشم، حتى قيل إنه يشم رائحة الجيفة من مسيرة أربعمائة فرسخ^(٣)، وإذا سقط على جيفة تباعدت عنها الطيور هية له حتى يفرغ من الأكل، وعنده شره، قيل إنه يأكل حتى يضعف عن الحركة بحيث إن أضعف الناس لو أراد إمساكه في تلك الحالة أمسكه، وإذا باض ذهب وأتى بورق الذهب فجعله في عشه خوفاً من الخفاش أن يفسد بيضه. وهو لا يحضن البيض وإنما يبيض في الأماكن العالية ويقيه في الشمس فتكون حرارتها له بمنزلة الحضن. ومن طبعه أنه لو شم الطيب مات، وعنده الحزن على فراق إلفه حتى قيل إنه ليموت كمدأ، ويقال للأُنثى منه أم تشعم وفي الحديث: «أنا في جبريل عليه الصلاة والسلام فقال يا محمد لكل شيء سيد فسيد البشر آدم، وسيد ولد آدم أنت، وسيد الروم صهيب، وسيد فارس سليمان، وسيد الحبش بلال. وسيد الطيور النسر، وسيد الشهور رمضان، وسيد الأيام الجمعة، وسيد الكلام العربي، وسيد العربي القرآن وسيد القرآن سورة البقرة».

الخواص: إذا أخذ قلب النسر وجعل في جلد ذئب وعلق على شخص كان مهاباً عند الناس مقضي الحاجة، وإذا عسر على المرأة الوضع جعل تحتها من ريشه يسهل وضعها.

نعام: يذكر ويؤنث، وتسمى الأنثى بأم البيض والذكر بالظليم^(٤). ومن عجب أمرها أنها تبيض بيضاً طويلاً متساوية القدر وتجعلها أثلاثاً: ثلثاً للحضن، وثلثاً تأكله في حضنها، وثلثاً تكسره وتفتحه فتعفن ويدود فيكون منه غداء أولادها، وعندها الحمق، يقال إنها تخرج من حضنها فتجد بيض غيرها فتحضنه وتترك بيض نفسها.

فائقة: روى كعب الأحبار رضي الله تعالى عنه: إن الله تعالى لما خلق القمح، وأنزله على آدم كان على قدر بيض النعام، وقال له هذا رزقك، ورزق أولادك، قم فاحرث وازرع. قال ولم يزل الحب على مدة ثم نزل إلى بيض الدجاجة، ثم الحمامة، ثم النبق^(٥)، وكان في زمن العزيز على قدر الجحش. وقيل كل حيوان إذا كسرت رجله مشى

(١) سورة: النحل، الآية: ٦٩.

(٢) أبهته: أخذه.

(٣) فرسخ: ١٧,٢ كم.

(٤) الظليم: ذكر النعام.

(٥) النبق: طائر صغير.

بالأخرى إلا النعام، فإنه يترك إلى أن يموت، وخلق الله تعالى له قوة الشمّ البليغ. حتى قيل إنه يشم رائحة القناص، من مسيرة نصف ميل. وهي لا تشرب الماء كالضف، ويقال إن القناص إذا أدركها أدخلت رأسها في شيء، إما شعب، أو حجر تظن أنها قد استترت منه، ولها معدة قوية تقطع الحديد والصوّان والجمر، وفي طبعها الأذى يقال إنها تخطف الحلق من أذن الصغير. وقيل إن الذئب لا يتعرض لبيض النعام وأفراخه ما دام الأبوان حاضرين لأنهما إذا رآياه ركضه الذكر إلى أن يسلمه إلى الأنثى فتركضه إلى أن تسلمه إلى الذكر ولا يزالان به حتى يقتلاه أو يعجزهما هرباً، وقيل أشد ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح، وتقول العرب: صفان من الحيوان أصمان لا يسمعان: النعام والأفاعي: وسأل أبو عمرو الشيباني بعض العرب عن الظليم هل يسمع؟ فقال: يعرف بعينه وأنفه ولا يحتاج معها إلى سمع.

نمر: حيوان أغبر وكنيته أبو الصعب، وهو صفان: صنف عظيم الجثة صغير الذنب، والآخر بالعكس. قال الجاحظ: وهو يحبّ الشراب وعنده شراسة في خلقه ويقال: إن أنثاه لا تدع ولدها إلا مطوّقاً بحية، ولا يضرّه نهشها وذلك لأجل الصيد حتى لا يظفر به، وإذا مرض أكل الفأر فيراً، وفي طبعه عداوة الأسد. وعنده شرف في نفسه، يقال: إنه لا يأكل جيفة ولا يأكل من صيد غيره، ولا يملك نفسه عند الغضب وأدنى وثبة عشرون ذراعاً وأكثرها لربعون.

الخواص: من حمل من جلده شيئاً صار مهاباً عند الناس، ومن كان به بواسير فجلس على جلده زالت بواسيره.

حرف الهاء

هدهد: طير معروف، وهو من رسل سليمان عليه الصلاة والسلام وعنده حنة البصر حتى قيل إنه يرى الماء تحت الأرض، وسبب غيابه عن خدمة سليمان عليه الصلاة والسلام حين سأل عنه ولم يجده، هو أن هدهداً من سبأ أخبره أن عرش بلقيس صفته كذا وكذا فذهب لينظر، فدخلت الشمس من مكانه فرأها سليمان عليه الصلاة والسلام فضقده وطلبه فلما حضر قال: يا نبي الله إني رأيت كيت وكيت وقصّ عليه القصة، ويقال إنه قال لسليمان عليه الصلاة والسلام لما أراد تعذيبه: يا نبي الله اذكر وقوفك بين يدي الله تعالى. فارتعد سليمان من هذا الكلام وأطلقه.

الخواص: إذا بخر البيت بريشه طرد الهوام^(١) عنه، وعينه إذا علفت على صاحب النسيان ذكر ما نسيه، وريشه إذا حملة إنسان وخاصم غلب خصمه، وقضيت حاجته، وظفر بما يريد، ولحمه إذا أكل مطبوخاً نفع من القولنج، وإن بخر بمخه برج حمام لم يقربه شيء يؤذيه، من علق عليه لحمه^(٢) الأسفل أحبه الناس، والله سبحانه وتعالى أعلم.

حرف الواو

ورشان: طير يتولد بين الحمام والفاخنة، وهو حسن شديد الحنوّ يقال إنه يكاد يقتل نفسه إذا أمسك القناص أولاده من شدة حنّوه. وقال بعضهم إنه يقول في صياحه: لدوا للموت وابنوا للخراب^(٣)، والهدهد يقول: إذا نزل

(١) الهوام: الحشرات.

(٢) لحمه: الفك.

(٣) شطر يت لأبي العاتية وتماه: فكلكم يصير إلى نياح.

القضاء عني البصر، والفاخنة تقول: ليت هذا الخلق ما خلقوا، وليتهم إذا خلقوا علموا لماذا خلقوا، وليتهم عملوا لما علموا، والخطاف يقول: قَدِّمُوا خيراً تجدوه عند ريكم. والحمامة تقول: سبحان ربي الأعلى، والبازي يقول: سبحان ربي ويحمده، والسرطان يقول: سبحان المذكور بكل لسان، والدراج يقول: الرحمن على العرش استوى، والعقاب يقول: البعد عن الناس رحمة، ومن الطيور من يقرأ الفاتحة كالدرة ويمدّ صوته في الضالين كالقاريء.

حرف الياء

يأجوج ومأجوج: سماوا بذلك لكثرتهم، وقيل بل هو اسم أعجمي غير مشتق. قال مقاتل: هم ولد يافث بن نوح عليه الصلاة والسلام. وقول من قال إن آدم نام فاحتلم فالتصق منه بالتراب فتولد منه هذا الحيوان، مردود بعدم احتلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي الحديث «يأجوج ومأجوج أمة عظيمة لا يموت أحدهم حتى يرى من صلبه ألف نسمة» انتهى. وهم أصناف: منهم ما طوله عشرون ذراعاً، وما طوله ذراع، وأقل وأكثر. وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أن لهم مخالف الطير، وأنياب السباع، وتداعي الحمام، وتسافد البهائم، ولهم شعور تقيهم الحر والبرد، وإذا مشوا في الأرض كان أولهم بالشام وآخرهم بخراسان. يشربون مياه المشرق إلى بحيرة طبرية، ويمنعهم الله تعالى من دخول مكة والمدينة وبيت المقدس، ويكلون كل شيء يمرون به ومن مات منهم أكلوه. ويقال إن صنفاً منهم له أذانان إحداها صلدة، والأخرى وبرة. فهو يلتحف بإحداها ويفترش الأخرى وفي الحديث: «إنه عليه الصلاة والسلام سئل هل بلغتهم الدعوة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: دعوتهم ليلة أسري بي فلم يجيبوا فهم خلق النار». وفي الحديث أيضاً: «إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة قال: يا آدم أرسل بعث النار. فيقول يا رب وما بعث النار؟ فيقول الله تعالى: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون للنار، وواحد للجنة. قال: فاشتد الأمر على المسلمين: فقال رسول الله ﷺ أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً ومنكم واحد». وفي الحديث: «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فأخبره بالردم. فقال صفة. فقال يا رسول الله انطلقت إلى أرض ليس لأهلها إلا الحديد يعملونه فدخلت في بيت، فلما كان وقت الغروب سمعت ضجة عظيمة أفزعني فارتعدت منها قال: فقال صاحب البيت لا بأس عليك، إن هذه الضجة أصوات قوم يذهبون هذه الساعة من خلف هذا الردم، أتريد أن تنظر إليه، فإذا لبه مثل الصخرة ومساميره مثل جذوع النخل كله من حديد كأنه البرد المجبر. فقال رسول الله ﷺ: «من سره أن ينظر إلى من رأى الردم فلينظر هذا الرجل».

قال المفسرون: وهذا هو السد الذي بناه ذو القرنين، وهذه الأمة خلفه تطلب المجيء إلى هذه الجهة تنقبه كل يوم فيعيده الله كما كان إلى أن يقضي الله أمره ثم يسلط عليهم بعد ذلك دوداً يطلع حلاقيهم فيهلكهم الله به، والأخبار في ذلك كثيرة.

يحمور: دابة وحشية لها قرنان طويلان كأنهما مشاران تنشر بهما الشجر، وقيل هو كالإبل يلقي قرنيه في كل سنة وهما صامتان. وقال الجوهري هو الحمار الوحشي.

نادرة: قيل: ترافق رجلان في طريق، فلما قربا من مدينة من المدن قال أحدهما للآخر قد صار لي عليك حق، إني رجل من الجانّ ولي إليك حاجة، قال وما هي؟ قال إذا وصلت إلى المكان الغلاتي من هذه المدينة فهناك عجوز عندها ديك فاشتره منها وانبحه. فقال له الآخرة وأنا أيضاً لي إليك حاجة قال وما هي؟ قال إذا ركب الجني إنساناً ما

يحمل له . قال تشد إبهاميه بسير من جلد اليعمور، تقطر في أذنيه من ماء السذاب في اليمنى أربعاً، وفي اليسرى ثلاثاً، فإن الراكب له يموت . ثم تفرقا ودخل الإنسي، ففعل ما أمره به الجني من شراء الديك وذبحه فلم يشعر بعد أيام إلا وقد أحاط به أهل صبية من تلك البلدة وقالوا له أنت ساحر، ومن حين ذبحك الديك سلبت من صبية عندنا عقلها فلا هلك إلا إلى صاحب المدينة . قال: فقلت لهم اتوني بسير من جلد اليعمور وقليل من ماء السذاب، ودخلت على الصبية فربطت إبهاميهما، وقطرت ماء السذاب في أذنيها فسمعت صوتاً يقول: آه علمتك على نفسي، ثم مات من ساعته . وشفى الله تلك الشابة .

فصل: في خواص الطير والحيوان على الإجمال

الضب والختير لا يلقيان شيئاً من أسنانهما أبداً وكل حيوان يعوم بالطبع، إلا الإنسان والقرد، وكل ذي عين فإن لمداب عينه في الجهة العليا فقط، إلا الإنسان فإنه من الجهتين والفرس لا طحال له، والبعير لا مراة له، والظليم لا مخ لمظمه، والحيات لا السنة لها، والسمكة لا رة لها لأنها تتنفس من كبدها، وكل حيوان لا حافر له فله قرن، وما لا قرن له، فله حافر، والحيوان المتهم باللواط: القرد والختير والحمار، والسنور . والعيون التي تضيء بالليل: عين الأسد والنمر والأفعى والسنور: والذي يذخر القوت من الحيوان: الإنسان، والقار، والغراب والنحل، والنمل، والذي يحيض من الحيوان: الإنسان والفرس، والكلب والأرنب، والضبع، والخفاش، ويقال أيضاً الرعاد من السمك، فتبارك الله أحسن الخالقين، وهذا آخر ما قصدت إيراده في هذا الباب والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب .

الباب الثالث والستون: في ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم

ذكر المسعودي في كتابه عن بعض العلماء أن الله سبحانه وتعالى خلق في الأرض قبل آدم ثمانياً وعشرين أمة على خلق مختلفة، وهي أنواع، منها ذوات أجنحة وكلامهم قرقرة، ومنها ما له أبدان كالأسود، ورؤوس كالطير، ولهم شعور وأذنان وكلامهم دوي ومنها ما له وجهان واحد من قبله والآخر من خلف وأرجل كثيرة، ومنها ما يشبه الإنسان بيد ورجل وكلامهم مثل صياح الغرائق^(١)، ومنها ما وجهه كالآدمي وظهره كالسحفاة وفي رأسه قرن، وكلامهم مثل عواء الكلاب، ومنها ما له شعر أبيض وذنب كالبحر، ومنها ما له أنياب بارزة كالخناجر، وأذان طوال. ويقال إن هذه الأمم تناكحت وتناسلت حتى صارت مائة وعشرين أمة. ولم يخلق الله تعالى أفضل ولا أحسن ولا أجمل من الإنسان. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: خلق الله تعالى ألف أمة وعشرية أمة، منها ستمائة في البحر، وأربعمائة وعشرون في البر، وفي الإنسان من كل خلق، فلذلك سخر الله له جميع الخلق، واستجمعت له جميع اللذات، وعمل بيده جميع الآلات، وله النطق، والضحك، والبكاء، والفكرة، والفتنة، واختراعات الأشياء، واستنباط جميع العلوم، واستخراج المعادن وعليه وقع الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والنعيم والعذاب، وإياه خاطب وله قرب، وخلق الله تعالى إسرافيل عليه السلام على صورة الإنسان، وهو أقرب الملائكة إليه، وفي الحديث: «لا تضربوا الوجوه فإنها على صورة إسرافيل» وآيات الله تعالى في البشر أكثر من أن تحصر: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾^(٢)

وقال الشيخ عبد الله صاحب كتاب تحفة الألباب: دخلت إلى باشقرد فرأيت قبور عاد فوجدت سنّ أحدهم طوله أربعة أشبار وعرضه شبران، وكان عندي في باشقرد نصف ثنية أخرجت لي من فك أحدهم، الأسفل فكان نصف الثنية شبرين ووزنها ١٢٠٠ / مثقالاً وكان دور فك ذلك العادي سبعة عشر ذراعاً وطول عظم عضد أحدهم ٨ / أذرع، وعرض كل ضلع من أضلاعهم ثلاثة أشبار كلوح الرخام، قال: ولقد رأيت في بلغار سنة ثلاثين وخمسمائة من نسل عاد، رجلاً طويلاً، طوله أكثر من سبعة وعشرين ذراعاً كان يسمى دنقي أو دبغي كان يأخذ الفرس تحت إبطه كما يأخذ الإنسان الولد الصغير، وكان من قوته يكسر بيده ساق الفرس، ويقطع جلده وأعضائه كما يقطع باقة البقل، وكان صاحب بلغار قد اتخذ له درعاً تحمل على عجلة، وبيضة عادية لرأسه كأنها قطعة من جبل، وكان يأخذ في يده شجرة من البلوط كالعصا لو ضرب بها الفيل لقتله وكان خيراً متواضعاً، كان إذا لقيني يسلم علي ويوحب بي ويكرمني، وكان رأسي لا يصل إلى ركبته رحمة الله تعالى عليه. ولم يكن في بلغار حمام يمكنه دخولها إلا حمام واحدة، وكانت له أخت على طوله ورأيتها مرات في بلغار، وقال لي قاضي بلغار يعقوب بن النعمان إن هذه المرأة العادية قتلت زوجها،

(١) الغرائق: طيور من أضراب اللقلق.

(٢) سورة: المؤمنون، الآية: ١٤.

وكان اسمه آدم، وكان أقوى أهل بلغار، قيل إنها ضمته إليها فكسرت أضلاعه فمات من ساعته.

وروي عن وهب بن منبه في عوج بن عتق أنه كان من أحسن الناس وأجملهم، إلا أنه كان لا يوصف طوله، قيل كان يخوض في الطوفان فلم يبلغ ركبته، ويقال إن الطوفان علا على رؤوس الجبال أربعين ذراعاً، وكان يجتاز بالمدينة فيخطأها كما يتخطى أحدكم الجدول الصغير، وعمره الله دهرأ طويلاً حتى أدرك موسى عليه الصلاة والسلام، وكان جباراً في أفعاله يسير في الأرض برأ وبحراً ويفسد ما شاء، ويقال إنه لما حصر بنو إسرائيل في التيه ذهب فأتى بقطعة من جبل على قدرهم واحتملها على رأسه ليلقيها عليهم، فبعثه الله طيراً في منقاره حجر مدور فوضعه على الحجر الذي على رأسه فانتقب من وسطه وانخرق في عنقه وأخبر الله عز وجل نبيه موسى عليه الصلاة والسلام بذلك فخرج إليه وضربه بعصاة فقتله، ويقال إن موسى عليه الصلاة والسلام كان طوله عشرة أذرع، وعصاه عشرة أذرع، وقفز في الهواء عشرة أذرع، وضربه فلم يصل إلى عرقوبه «فتبارك الله أحسن الخالقين»^(١)، ومن ذلك ما قيل عن أمه عتق بنت آدم عليه الصلاة والسلام، وكانت مفردة بغير أخ، وكانت مشوّهة الخلقة لها رأسان وفي كل يد عشرة أصابع، ولكل أصبع ظفران كالمنجلين. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هي أول من بنى في الأرض، وعمل الفجور، وجاهر بالمعاصي، واستخدم الشياطين وصرفهم في وجوه السحر. وكان قد أنزل الله على آدم عليه الصلاة والسلام أسماء عظيمة تطيعها الشياطين بها، وأمره أن يدفعها إلى حواء لتحترز بها فغافلها عتق وسرقها، واستخدمت بها الشياطين وتكلمت بشيء من الكهانة فدعا عليها آدم. وأمنت على ذلك حواء فأرسل الله عليها أسداً أعظم من الفيل فهجم عليها وقتلها وذلك بعد ولادتها عوجاً بستين. ومن ذلك ما حكى عن بعض فقهاء الموصل أنه شاهد ببلاد الأكراد المحمدية في جبل من جبال الموصل إنساناً طوله تسعة أذرع، وهو صبي لم يبلغ الحلم، وكان يأخذ بيده الرجل القوي ويرميه خلف ظهره فأراد صاحب الموصل استخدامه فقبل له في عقله خبل^(٢) فتركه.

وروي عن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال: دخلت بلدة من بلاد اليمن فرأيت بها إنساناً من وسطه إلى أسفله بدن واحد، ومن وسطه إلى أعلاه بدنان مفترقان برأسين ووجهين، وأربع أيدي وهما يأكلان ويشربان، ويتغاثلان ويتلاطمان ويصطلحان. قال: ثم غبت عنهما قليلاً ورجعت فقبل لي أحسن الله عزاءك في أحد الشقين فقلت وكيف صنع به فقيل ربط في أسفله جبل وثيق وترك حتى ذبل ثم قطع ورأيت الجسد الآخر في السوق ذاهباً وراجعاً ومنه ما أرسله بطارقة الأرمن إلى ناصر الدولة. وهو رجلان في جسد واحد، فاحضر الأطباء وسألهم عن انفصال أحدهما عن الآخر فسألوهما هل تجوعان معاً وتمطشان معاً قالوا نعم فقالوا لا يمكن فصلهما. ويقال إنه أحضر أباهما فسأله عن حالهما فأخبر أنهما يختصمان في بعض الأحيان وأنه يصلح بينهما. ومن ذلك ما ذكر أنه أهدي إلى أبي منصور الساماني فرس له قرنان، وثعلب له جناحان إذا قرب منه إنسان نشرهما وإذا بعد الصقهما. وذكر القاضي عياض رحمة الله تعالى عليه أنه ولد له مولود على أحد جنبيه مكتوب إلا إله إلا الله محمد رسول الله، وهذا لا يبعد فإنه يوجد كثيراً في السنور الديركي. وذكر أنه ولد بالقاهرة غلام له أربعة أرجل، ومثلها أيد، وذكر أنه كان لبعض ولادة مصر مملوك يدعى طقطو فولاه قوص من أعمال الصعيد فتزوج بها وولدت له ولد. ثم انقلب امرأة، فتزوج بها وولدت

(١) سورة: المؤمنون، الآية: ١٤.

(٢) خبل: لومة.

ولدين. وأما كبش بأربعة قرون، ودجاجة بأربعة أرجل، وحيوان برأسين والمخرج واحد فكثير وعجائب الله تعالى في مصنوعاته غير متناهية فله الحمد على ما أنعم به علينا لا نحصي ثناء عليه. ومن ذلك إنسان الماء، وهو حيوان يشبه الآدمي، وفي بعض الأوقات يطلع ببحر الشام شيخ بلحية بيضاء ويستبشر الناس برؤيته في تلك السنة بالخصب. ومن ذلك بنات الماء وهو أمه يبحر الروم يشبهن النساء ذوات شعور وثدي وفروج، وهن حسان ولهن كلام لا يفهم وضحك ولعب ولهن رجال من جنسهن ويقال إن الصيادين يطصادونهن، ويجامعونهن فيجدون لذة عظيمة لا توجد في غيرهن من النساء، ثم يعيدونهن في البحر ثانياً. ويقال إن هذا الصنف يوجد بالبرلس ورشيد^(١) على ما ذكر.

وحكي عن الشيخ أبي العباس الحجازي قال: حدثني بعض التجارة أنه في سنة من السنين خرجت إليه سمكة عظيمة فتقبوا أذننها وجعلوا فيها الحبال وأخرجوها ففتحت أذننها فخرجت جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر، حمراء الخدين، كحلأ العينين، من أحسن ما يكون من النساء، ومن صررتها إلى نصف ساقها شيء كالثوب يستر قبلها ودبرها ودائر عليها كالإزار فأخذها الرجال إلى البر فصارت تلطم وجهها وتنتف شعرها، وتعض يدها كما تصيح النساء حتى ماتت في أيديهم فألقوها في البحر فبارك الله أحسن الخالقين. وحكى القزويني عن بعض البحرين أن الريح ألقتهم على جزيرة ذات أشجار وأنهار فأقاموا بها مدة، وكانوا إذا جاء الليل يسمعون همهمة^(٢) وأصواتاً وضحكاً ولعباً، فخرج من المركب جماعة وكمنوا في جانب البحر فلما جاء الليل خرج بنات الماء على عادتهن فوثبوا عليهن فأخذوا منهن اثنتين فتزوج بهما شخصان، فأما أحدهما فوثق بصاحبه فأطلقها فوثبت في البحر، وأما الآخر فبقي مع صاحبه زماناً وهو يحرسها حتى ولدت له ولداً كأنه القمر، فلما طاب الهواء، وركبوا البحر ووثق بها فأطلقها فأغفلت وألقت نفسها في البحر، فتأسف عليها تأسفاً عظيماً، فلما كان بعد أيام ظهرت من البحر، ودنت من المركب، وألقت لصاحبها صدفاً فيه دُرّ وجوهر فباعه وصار من التجار.

ونظير هذه الحكاية ما ذكره ابن زولاق في تاريخه أن رجلاً من الأندلس من الجزيرة الخضراء صاد جارية منهن حسناء الوجه، سوداء الشعر، حمراء الخدين، نجلاء العينين، كأنها البدر ليلة التمام كاملة الأوصاف فأقامت عنده سنين، وأحبها حباً شديداً وأولدها ولداً ذكراً، وبلغ من العمر أربع سنين ثم إنه أراد السفر فاستصحبها معه ووثق بها، فلما توسطت البحر أخذت ولدها وألقت نفسها في البحر فكاد أن يلقي نفسه خلفها حسرة عليها فلم يمكنه أهل المركب من ذلك، فلما كان بعد ثلاثة أيام ظهرت له وألقت له صدفاً كبيراً فيه دُرّ ثم سلمت عليه وتركته، فكان ذلك آخر العهد بها، فبارك الله ما أكثر عجائب خلقه. وما لم نشاهده ونسمع به أكثر فسيحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو ولا معبود سواه فالعاقل يعرف الجائر والمستحيل، ويعلم أن كل مقدور بالإضافة إلى قدرة الله تعالى قليل، وإذا سمع عجباً جائزاً استحسنته ولم يكذب قائله، والجاهل إذا سمع ما لم يشاهده قطع بتكذيب قائله وتزييف ناقله وذلك لقلة عقله وقد وصف الله تعالى الجاهل بعدم العقل بقوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾^(٣) وقد

(١) البرلس ورشيد: نواح وبحيرات في الشمال المصري.

(٢) همهمة: تكلم بخفاء.

(٣) سورة: الفرقان، الآية: ٤٤.

أودع الله تعالى من عجائب المصنوعات في الآفاق والسموات ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَايْنِ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^(١) فلا تكن منكر العجائب فكل الأشياء من آياته:

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدلّ على أنه الواحد

ومن شاهد حجر المغناطيس وجذبه للحديد، وكذلك حجر الماس الذي يعجز عن كسره الحديد ويكسره الرصاص، ويثقب الباقوت والفولاذ ولا يقدر على ثقب الرصاص يعلم أن الذي أودعه هذا السر قادر على كل شيء فلا تكن مكذباً بما لا تعلم وجه حكمته فإن الله تعالى قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾^(٢) قال صاحب تحفة الألباب: إن في بلاد السودان أمة لا رؤوس لهم، وقد ذكرهم الشعبي في كتاب سير الملوك، وذكر أن في بلاد المغرب أمة من ولد آدم كلهم نساء ولا يعيش في أرضهم ذكر، وأن هؤلاء النساء يدخلن في ماء عندهن فيحبلن من ذلك الماء، وتلد كل امرأة منهن بنتاً، ولا يلدن ذكراً أبداً، وقيل: إن ولد تبع اليماني وصل إليهم لما أراد أن يصل إلى الظلمات التي دخلها ذو القرنين، وإن ولد تبع هذا كان اسمه إفريقش، وهو الذي بني إفريقية وسماها باسمه، وأنه وصل إلى وادي السبت وهو وادٍ يجري فيه الرمل كما يجري السيل، لا يمكن أن يدخل فيه حيوان إلا هلك، فلما رآه استعجل الرجوع، وذو القرنين لما وصل إليه أقام إلى يوم السبت فسكن جريانه فعبه إلى أن وصل إلى الظلمات فيما يقال. والله سبحانه وتعالى أعلم. وتلك الأمة التي لا رؤوس لهم، أعينهم في منابهم، وأفواههم في صدورهم، وهم كثيرون كالبهائم يتناسلون ولا مضرة على أحد منهم. وأما الملك العظيم، والعدل الكثير، والنعم الجزيلة، والسياسة الحسنة والرخاء والأمن الذي لا خوف معه، ففي بلاد الهند وبلاد الصين، وأهل الهند أعلم الناس بعلم الطب، وعلم النجوم والهندسة والصناعات العجيبة، التي لا يقدر أحدهم سواهم على أمثالها، وفي بلادهم جزائرهم ينبت العود، وشجر الكافور، وجميع أنواع الطيب كالقنقل، والسنبل، والدارصيني، والكبابه، والبساسة وأنواع العقاقير والأدوية، وعندهم حيوان المسك وهو حيوان كالغزال يجتمع المسك في سرتة، وعندهم حيوان بالزباد، وهو حيوان كالسنور يخرج منه عرق كالقطران أسود نخين يسيل من جسده وتزيد رائحته بالتغزب بحيث يكون أذكى من المسك الأذفر، ويخرج من بلادهم أنواع اليواقيت وأكثرها في جزيرة سرنديب، وعلى جبلها نزل آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة فيما يقال.

وحكي أنه كان ببابل سبع مدائن، كل مدينة فيها أعجوبة، كان في إحداها تمثال الأرض فإذا التوى على الملك بعض أهل مملكته، وامتنعوا عن القيام بالخراج خرق أنهارها عليهم في التمثال، فلا يطيق أهل تلك الناحية سدّ الماء حتى يعتدلوا، وما لم يسدّ في التمثال لا يسدّ في الكل البلد، وفي الثانية حوض إذا أراد الملك أن يجمعهم لطعامه أتى كل واحد بما أحبّ من الشراب فصبه في ذلك الحوض فاختلطت الأشربة فكل من سقى من ذلك الحوض كان شرابه الذي جاء به، وفي الثالثة طبل إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب عن أهله قرعوه، فإن كان حياً سمع له صوت، وإن كان ميتاً لم يسمع له صوت. وفي الرابعة مرآة إذا أرادوا أن يعلموا حال الغائب نظروا فيها فأبصروه على أي حالة هو

(١) سورة: يوسف، الآية: ١٥٠.

(٢) سورة: يونس، الآية: ٣٩.

عليها، كأنهم يشاهدونه. وفي الخامسة أوزة من نحاس فإذا دخل الغريب صوتت الأزوة صوتاً يسمعه أهل المدينة، وفي السادسة قاضيان جالسان على الماء فيأتي الخصمان فيمشي المحق على الماء حتى يجلس مع القاضيين ويقع المبطل في الماء، وفي السابعة شجرة ضخمة لا تظل إلا ساقها، فإن جلس تحتها أحد أظلمته إلى ألف شخص، فإذا زادوا على الألف واحداً جلسوا في الشمس كلهم، ولو بسطت المقال في ذلك لاتسع المجال. وقد اقتصرنا في ذلك على ما ذكرت، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع والستون: في خلق الجن وصفاتهم

روي عن الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب أنه قال: قرأت في بعض الكتب المتقدمة المأثورة عن العلماء رحمهم الله تعالى، أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الجن خلق نار السموم، وخلق من مارجها^(١) خلقاً سماه جناً كما قال الله تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾^(٢) وقال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَوَخَّلَى الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾^(٣). وقيل إن الله تعالى خلق الملائكة من نور النار، الجن من لهبها، والشياطين من دخانها. وقد جاء في بعض الأخبار أن نوعاً من الجن في قديم الزمان قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام كانوا سكاناً في الأرض قد طبقوها برأ وبحراً، وسهلاً وجبلاً وكان فيهم الملك والنبوة، والدين والشرعة، وكانوا يطيرون إلى السماء، ويسلمون على الملائكة، ويستعلمون منهم خبر ما في السماء، وكثرت نعم الله عليهم إلى أن بغوا وطفخوا وتركوا وصايا أنبيائهم، فأرسل الله تعالى عليهم جنوداً من الملائكة فحصل بينهم مقتلة عظيمة، وغلبوا الجن وطردوهم إلى أطراف البحار وأسروا منهم أمماً كثيرة.

وذكر المسعودي أن الفرس واليونان قالوا: كان الجن بالأرض قبائل منهم من يسترق السمع، ومنهم من ينط مع لهب النار، ومنهم من يطير ولكل قبيلة ملك، وكان من جملةهم إبليس لعنه الله ثم بعد خمسة آلاف سنة افتقروا وملكوا عليهم ملوكاً وأقاموا على ذلك مدة طويلة، ثم تحاسدوا على الملك وأغار بعضهم على بعض، وجرت بينهم وقائع وحروب، وكان إبليس لعنه الله يصعد إلى السماء، ويختلط بالملائكة فبعثه الله تعالى بجيوش من الملائكة فهزم الجن وقتلهم، وتملك الأرض مدة طويلة إلى أن خلق آدم عليه الصلاة والسلام واتفق له معه ما اتفق، وأهبط آدم إلى الأرض وعظم شأنه فعند ذلك انتقل إبليس إلى البحر المحيط وسكن هناك، ثم ألقى عليه قوة شهوة السفاد فهو لا يلد لكنه يلقح كالطير ويبيض ويفرخ. قيل إنه يخرج من كل بيضة ستون ألف شيطان فيسلطهم على الخلق، وأقربهم إليهم وأذنانهم منه ومن مجلسه أكثرهم إيذاء للخلق. وفي الحديث: «إن إبليس لعنه الله قال يا رب أنزلني إلى الأرض وطردتني وجعلتني رجيماً^(٤) فاجعل لي مسكناً، قال مسكنك الأسواق، قال فاجعل لي طعاماً قال ما لم يذكر اسمي عليه، قال: فاجعل لي شرباً قال: كل مسكراً، قال: فاجعل لي مؤذناً، قال: المزمار، قال: فاجعل لي صيداً أو قال مصايد قال: النساء».

(١) مارجها: النار أولجتها.

(٢) سورة: الحجر، الآية: ٢٧.

(٣) سورة: الرحمن، الآية: ١٥.

(٤) رجيماً: مرمياً بالحجارة.

فصل: في مكايده لعنه الله

منها أنه كان في بني إسرائيل عابد يدعى برصيصاً، وله جار له بنت، فحصل لها مرض فقال له جيرانه لو حملتها إلى جارك برصيصاً ليدعو لها. قال فجاء إبليس إلى العابد وقال: إن لجارك عليك حق الجوار، وإن له بتاً مريضة، فما ضررك لو جعلتها عندك في جانب البيت، ودعوت الله لها عقب عبادتك، فمضى أن تشفى من مرضها. قال فلما أتاه جاره بالبنت قال له العابد دعها وانصرف، قال فتركها عنده مدة حتى شفيت. فجاء له إبليس ووسوس له حتى وطئها فحملت منه، فلما حملت جاء له إبليس لعنه فقال له اقتلها لئلا تفتضح قال فقتلها ودفنها. قال فعند ذلك ذهب الشيطان إلى أهلها وأعلمهم بذلك. فجاءوا إلى العابد وكشفوا عن قضيته، ثم أخذوه ومضوا ليقتلوه فعارضه إبليس اللعين في الطريق. فقال له إن سجدت لي خلصتك منهم، فسجد له فعند ذلك تبرأ منه. ومات الرجل كافراً. اللهم اعصمنا من مكايده الشيطان برحمتك يا أرحم الراحمين. ومن ذلك ما اتفق أن بني إسرائيل اتخذوا شجرة وصاروا يعبدونها، فجاء بعض عبادهم بفأس ليقطعها فعارضه إبليس لعنه الله. وقال له تركت عبادتك وجئت لشيء لا يعود عليك نفعه، ولم يزل به حتى تقاتل معه فصرعه العابد وجلس على صدره، ثم رجع ولم يزل يعمل معه ذلك في كل يوم إلى ثلاثة أيام، فلما رآه لا يرجع، قال له: اترك قطعها وأنا أجعل لك في كل يوم دينارين تستعين بهما على نفقتك وعبادتك. وعاهده على ذلك، فرجع قال: فجعل له تحت وسادته دينارين، ثم دينارين، ثم دينارين ثم قطع ذلك عنه فأخذ العابد الفأس وذهب إلى قطع الشجرة فعارضه إبليس في الطريق وتجاوز معه وتجادبا فصرعه^(١) إبليس وجلس على صدره وقال له: إن لم ترجع عن قطعها وإلا ذبحتك فقال له العابد: خلّ عني وأخبرني كيف غلبتني. فقال له: لما غضبت لله غلبتني، ولما غضبت لنفسك غلبتني. ومنها أشياء كثيرة ليس هذا محلّ استيفائها قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَسْتَحْيُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا^(٢)﴾.

فصل: في المتشبطنة وهم أنواع كثيرة

منها الولهان يوجد في جزائر البحار على صورة الإنسان. حكى بعض المسافرين أنه عرض لمركب وهو راكب على نعامة يريد أخذ المركب وصاح بهم صيحة عظيمة خروا منها على وجوههم. وأخذ بعض من في المركب ومنه السعلاة. يحكى أن صنفاً منها يتريا بزّي النساء ويتراعى للرجال. وحكى أن بعضهم تزوج امرأة منهن وهو لا يعلم، فأقامت معه مدة وولدت منه أولاداً ذكوراً وإناثاً فلما كانت ذات ليلة صعدت معه السطح فنظرت فرأت ناراً من بعد عند الجبانة فاضطربت وقالت. ألم تر نيران السعالي وتغير لونها. وقالت بنوك وبناتك أوصيك بهم خيراً، ثم طارت ولم تعد إليه. ومنها نوع يقال له المذهب يخدم العباد ومقصوده بذلك أن يعجبوا بأنفسهم. حكى أن بعض العباد نزل صومعة يتعبد فيها فأثاه شخص بسراج وطعام فتعجب العابد من ذلك. فقال له شخص بالصومعة إنه المذهب يريد أن يخيل لك أن ذلك من كرامتي، والله أني لأعلم أنه شيطان. وقال بعض الصوفية المذهب أصناف منهم من يحمل

(١) صرعه: غلبه.

(٢) سورة: الكهف، الآية: ٥٠.

القانوس بين يدي الشيخ، ومنهم من يأتيه بالطعام والشراب وغير ذلك، ومنهم من ينشد الشعر. وقال بعض المسافرين لبق لي غلام فخرجت في أثره فإذا أنا بأربعة يتناشدون شعر الفرزدق، وجريز. قال فدنوت منهم وسلمت عليهم. قالوا: ألك حاجة؟ قلت لا، فقال بعضهم تريد غلامك قلت وما أعلمك بغلامي؟ قال كعلمي بجهلك قلت أو جاهل أنا؟ قال نعم وأحمق، قال: ثم غاب وأتاني بالغلام مقيداً، فلما رأيته غشي علي فلما أفقت قال أنفخ في يده ففعلت فأنفج القيد عنه وصرت لا أنفخ في شيء من ذلك، ولا في وجع من الأرجاع إلا برىء وخلص صاحبه. ومنها نوع يقال له العفريت يختطف النساء، يقال إن رجلاً اختطف ابنته في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. وقال بعض المسافرين بينما نحن سائرون ذات ليلة إذ عرض لي قضاء الحاجة فأنفردت عن رفقتي وضللت عنهم، فبينما أنا سائر في أثرهم إذ رأيته ناراً عظيمة وخيمة فجئت إلى جانبها وإذا أنا بجارية جميلة جالسة فيها فسألته عن حالها، فقالت أنا فزارة اختطفني عفريت يقال له ظليم وجعلني ههنا فهو يغيب عني بالليل ويأتيني بالنهار، فقلت لها امضي معي، فقالت: أهلك أنا وأنت، فإنه يتبعنا ويأتينا فيأخذني ويقتلك، فقلت لا يستطيع أخذك ولا قتلي، وما زلت أرددها الحديث حتى رضيت فأنخت لها ناقتي فركبتها وسرت بها حتى طلع الفجر. فالتفت فإذا أنا بشخص عظيم مهول قد أقبل ورجلاه تخطان في الأرض. فقالت ها هوذا قد أتانا فأنخت لها ناقتي وخططت حولها خطأ، وقرأت آيات من القرآن وتعوذت بالله العظيم فتقدم وأنشأ يقول:

يا ذا الذي للحين يدعوه القدر خلّ عن الحسناء رسلاً ثم سر
وإن تكن ذا خبرة فينا اصطبّر

قال فأجبه:

يا ذا الذي للحين يدعوه الحمق خلّ عن الحسناء رسلاً وانطلق
ما أنت في الجنّ بأول من عشق

قال فتبدى لي في صورة أسد وجاذبه ساعة، فلم يظفر أحد منها بصاحبه فلما أيس مني قال هل لك في جز ناصيتي^(١) أو إحدى ثلاث خصال. قلت: وما هن؟ قال: مائتان من الإبل، أو أخذك أيام حياتي، أو ألف دينار الساعة، وخلّ بيني وبين الجارية، فقلت لا أبيع ديني بديناي ولا حاجة لي بخدمتك فاذهب من حيث أتيت. قال فانطلق وهو يتكلم بكلام لا أفهمه، وسرت بالجارية إلى أهلها وتزوجت بها وجاءني منها أولاد. وقيل لما سخر الله تعالى الجن لسليمان عليه الصلاة والسلام نادى جبريل عليه السلام أيها الجن والشياطين أجيئوا نبي الله سليمان بن داود بإذن الله تعالى. قال فخرجت الجن والشياطين من الجبال، والكهوف، والغيران، والأودية، والفلوات والآجام وهم يقولون ليك ليك والملائكة تسوقهم سوق الراعي للغنم حتى حشرت بين يدي سليمان عليه الصلاة والسلام طائفة ذليلة وكانوا إذ ذاك أربعاً وعشرين فرقة، فنظر إلى ألوانها فإذا هي سود، وشقر، ورقط، ويض، وصفر، وخضر، وعلى صور جميع الحيوانات، ومنهم من رأسه رأس الأسد، وبدنه بدن القيل ومنهم من له خرطوم وذنب، ومنهم من له قرون وحوافر وغير ذلك من الأنواع، قال فعند ذلك تعجب نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام من هذه الأشكال وسجد شكراً لله تعالى وقال: إلهي ألسني هبة من عندك، وجعل يسألهم عن طباعهم، وعن طعامهم وشرابهم وهم

يجيئون، ثم فرّقتهم في الصنائع من قطع الصخور، والأحجار، والأشجار، والغوص في البحار، وأبنية الحصون، وفي استخراج المعادن والجواهر. قال الله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١).

ونكتفي من ذلك بهذا القدر اليسير والله المسؤول في تيسير كل عسير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الخامس والستون: في ذكر البحار وما فيها من العجائب وذكر الأنهار والآبار وفيه فصول

الفصل الأول: في ذكر البحار

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لما أراد الله تعالى أن يخلق الماء خلق ياقوته خضراء لا يعلم طولها وعرضها إلا الله سبحانه وتعالى، ثم نظر إليه بعين الهيبة فذابت وصارت ماء، فاضطرب الماء، فخلق الريح ووضع عليها الماء، ثم خلق العرش ووضع على متن الماء وعليه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾^(١) واعلم أن بحر الظلمات لا يدخله شمس ولا قمر، وأن بحر الهند خليج منه، وبحر اللاذقية خليج منه، وبحر الصين خليج منه، وبحر الروم خليج منه، وبحر فارس خليج منه، وكل هذه البحار التي ذكرتها أصلها من البحر الأسود الذي يقال له البحر المحيط. وأما بحر الخزر وبحر خوارزم، وبحر أرمينيا والبحر الذي عند مدينة النحاس وغير ذلك من البحار الصغار فهي منقطعة عن البحر الأسود، ولذلك ليس فيها جزر ولا مد. وقيل: سئل النبي ﷺ عن الجزر والمد فقال: «هو ملك عال قائم بين البحرين إن وضع رجله في البحر حصل له المد، وإذا رفعها حصل لها الجزر» وقيل إنما سمي البحر الأسود لأن مائه في رأي العين كالبحر الأسود فإن أخذ منه الإنسان في يده شيئاً رآه أبيض صافياً إلا أنه أمر من الصبر، مالح شديد الملوحة، فإذا صار ذلك الماء في بحر الروم، تراه أخضر كالزنجار^(٢)، والله تعالى يعلم لأي شيء ذلك، وكذلك يرى في بحر الهند خليج أحمر كالدّم، وبحر أصفر كالذهب، وخليج أبيض كاللبن، تتغير هذه الألوان في هذه المواضع، والماء في نفسه أبيض صاف. وقيل إن تغير الماء بلون الأرض. وأما ما يخرج من البحر من السمك وغيره فقد روي عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى ساحل البحر، وأمرنا علينا أبا عبيدة رضي الله تعالى عنه نتلقى عير قريش وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا ثمرة ثمرة نمصها ثم نشرب عليها الماء، فتكفينا يوماً إلى الليل، فأشرفنا على ساحل البحر فرأينا شيئاً كهية الكتيب الضخم فأتيناه فإذا هو دابة من دواب البحر تدعى العنبر، فأقمنا شهراً نأكل منها ونحن ثلثمائة حتى سمنا ولقد رأيتنا نغترف من الدهن الذي وقب^(٣) عينيها بالقلال، ونقطع منه القطعة كالشور ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في

(١) سورة: هود، الآية: ٧.

(٢) الزنجار: نوع سمك.

(٣) وقب: محجرهما.

وقب عينها وأخذ ضلعاً من أضلاعها فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا فمر من تحتها وتزودنا من لحمها، فلما قدمنا المدينة ذكرنا لرسول الله ﷺ ذلك. فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم شيء من لحمها فتطعمونا فأرسلنا له منه فأكله. وقيل يخرج من البحر سمكة عظيمة، فتتبعها سمكة أخرى أعظم منها لتأكلها، فتهرب منها إلى مجمع البحرين، فتتبعها فيضيق عليها مجمع البحرين لعظمتها وكبرها، فترجع إلى البحر الأسود، وعرض مجمع البحرين مائة فرسخ، فتبارك الله رب العالمين.

وقال صاحب تحفة الألباب: ركب في سفينة مع جماعة، فدخلنا إلى مجمع البحرين فخرجت سمكة عظيمة مثل الجبل العظيم، فصاحت صيحة عظيمة لم أسمع قط أهول منها ولا أقوى، فكاد قلبي ينخلع وسقطت على وجهي أنا وغيري ثم ألت السمكة نفسها في البحر، فاضطرب البحر اضطراباً شديداً وعظمت أمواجه وخفنا الغرق فنجاناً الله تعالى بفضلها، وسمعت الملاحين يقولون: هذه سمكة تعرف بالبغل. قال ورأيت في البحر سمكة كالجبل العظيم، ومن رأسها إلى ذنبها عظام سود كأسنان المنشار كل عظم أطول من ذراعين وكان بيتنا وبينها في البحر أكثر من فرسخ. فسمعت الملاحين يقولون: هذه السمكة تعرف بالمنشار إذا صادفت أسفل السفينة قصمتها^(١) نصفين. ولقد سمعت أنا من يقول إن جماعة ركبوا سفينة في البحر، فأرسوا على جزيرة، فخرجوا إلى تلك الجزيرة ففسلوا ثيابهم واستراحوا، ثم أوقدوا ناراً لييطبخوا، فتحركت الجزيرة وطلبت البحر وإذا بها سمكة فسبحان القادر على كل شيء لا إله إلا هو ولا معبود سواه. وقيل إن في البحر سمكة تعرف بالمنارة لطولها، يقال إنها تخرج من البحر إلى جانب السفينة فتلقي نفسها عليها فتحطمها وتهلك من فيها، فإذا أحسن بها أهل السفينة صاحوا، وكبروا، وضجوا، وضربوا الطبول، ونفروا الطسوت والسطول والأخشاب لأنها إذا سمعت تلك الأصوات ربما صرفها الله تعالى عنهم بفضلها ورحمته.

وقال الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب: كنت يوماً في البحر على صخرة فإذا أنا بلنب حية صفراء منقطعة بسواد طولها مقدار باع فطلبت أن تقبض على رجلي فتباعدت عنها فأخرجت رأسها كأنه رأس أرنب من تحت تلك الصخرة، فسللت خنجرأ كبيراً كان معي فطعنت به رأسها فغار فيه فلم أقدر على خلاصه منها فأمسكت نصابه بيدي جميعاً، وجعلت أجره حتى ألصقتُها بباب الجحر فتركت الجحر وخرجت من تحت الصخرة، فإذا هي خمس حيات في رأس واحد، فتعجبت من ذلك وسألت من كان هناك عن اسم هذه الحية فقال هذه تعرف بأُم الحيات. وذكروا أنها تقبض على الآدمي في الماء فتمسكه حتى يموت وتأكله، وأنها تعظم حتى تكون كل حية أكثر من عشرين ذراعاً، وأنها تقلب الزوارق، وتأكل من قدرت عليه من أصحابها، وأن جلدنا أرق من جلد البصل، ولا يؤثر فيها الحديد شيئاً.

قال: ورأيت مرة في البحر صخرة عليها شيء كثير من التارنج الأحمر الطري الذي كأنه قطع من شجرة فقلت في نفسي هذا قد وقع من بعض السفن، فذهبت إليه قبضت منه نارنجة، فإذا هي ملتصقة بالحجر فجنبتها، فإذا هي حيوان يتحرك ويضرب في يدي فلففت يدي بكم ثوبي وقبضت عليه وعصرته فخرج من فيه مياه كثيرة وضمر فلم أقدر أن أقلعه من مكانه فتركته عجزاً عنه، وهو من عجائب خلق الله تعالى، وليس له عين ولا جارحة إلا اللم والله سبحانه وتعالى أعلم لأي شيء يصلح ذلك. قال: ولقد رأيت يوماً على جانب البحر عتقود عنب أسود كبير الحب،

لخضر المرجون^(١) كأنما قطف من كرمه، فأخذته وكان ذلك في أيام الشتاء، وليس في تلك الأرض التي كنت فيها عنب، فرمت أكل منه فقبضت على حبة منه وجذبته فلم أقدر أن أقلمها من العنقود، حتى كأنها من الحديد قوة وصلابة فجذبته جذبة أقوى من الأولى فانقشرت قشرة من تلك الحبة كقشر العنب وفي داخلها عجم كعجم العنب فسألت عن ذلك فقيل لي هذا من عنب البحر ورائحته كرائحة السمك. وفي البحر أيضاً حيوان رأسه يشبه رأس العجل وله أنياب كأنياب السباع وجلده، له شعر كشعر العجل، وله عتق، وصدر، ووطن، وله رجلان كرجلي الضفدع وليس له يدان، يعرف بالسمك اليهودي، وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت يخرج من البحر ويلقي نفسه في البر ولا يتحرك ولا يأكل ولو قتل، ولا يدخل البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد فحيث يدخل البحر، ولا تلحقه السفن لخبثته وقوته، وجلده يتخذ منه نعل لصاحب النقرس، فلا يجد له ألماً ما دام ذلك الجلد عليه وهو من المعجائب.

وقيل: إن في بحر الروم سمكاً طويلاً طول السمكة مائة ذراع وأكثر، وله أنياب كأنياب الفيل، تؤخذ وتباع في بلاد الروم، وتحمل إلى سائر البلاد وهي أحسن وأقوى من أنياب الفيل، وإذا شق الناب منها يظهر فيه نقوش عجيبة، ويسمونه الجواهر ويتخذون منه نصباً^(٢) للسكاكين وهو مع قوته وحسن لونه ثقيل الوزن كالرصاص. وفي البحر أيضاً سمك يسمى الرعاد، إذا دخل شبكة فكل من جرّ تلك الشبكة، أو وضع يده عليها، أو على حبل من حبالها، تأخذه الرعدة^(٣) حتى لا يملك من نفسه شيئاً كما يرعد صاحب الحمى. فإذا رفع يده زالت عنه الرعدة فإن أعادها عادت إليه الرعدة. وهذا أيضاً من المعجائب فسبحان الله جلّت قدرته.

وقال صاحب تحفة الألباب: حدّثني الشيخ أبو العباس الحجازي قال: حدّثني رجل يعرف بالهاروني من ولد هارون الرشيد أنه ركب سفينة في بحر الهند فرأى طاووساً قد خرج من البحر أحسن من طاووس البر، وأجمل ألواناً قال فكبرنا لحسنه فجعل يسبح وينظر لنفسه وينشر أجنحته وينظر إلى ذنبه ساعة ثم غاص في البحر. وفي البحر دابة يقال لها الدرفين^(٤) تنجي الغريق لأنها تدنو منه حتى يضع يده على ظهرها فيستعين بالانكاء عليها، ويتعلق بها فتسبح به حتى ينجيه الله بقدرته، فسبحان من دبر هذا التدبير اللطيف، وأحكم هذه الحكمة البالغة. وزعموا أن السمك يتجه نحو الغناء والصوت الحسن، ويهتو لسماعه، وربما قيل إن بعض الصيادين يحفرون في البحر حفائر، ثم يجلسون فيضربون بالمعازف وآلات الطرب فيجتمع السمك ويقع في تلك الحفائر، وقيل إن الدرفين وأنواع السمك إذا سمعت صوت الرعد هربت إلى قعر البحر، وقيل إن خيل البحر توجد بنيل مصر، وهي صفة خيل البر، وقيل إنها تأكل التماسيح وربما خرجت فرعت الزرع، وإذا رأى أهل مصر أثر حوافرها حكموا أن ماء النيل ينتهي في طلوعه إلى ذلك المكان، وقيل إن البحر المحيط شيئاً يترأى كالحصون فيرتفع على وجه الماء ويظهر منه صور كثيرة ويغيب. ومن عجيب ما حكى أن فيه جزيرة فيها ثلاث مدن عامرة، وهي كثيرة الأمطار، وأهلها يحصدون زرعها قبل جفافه لقلة طلوع الشمس عندهم ويجعلونه في بيت ويوقدون حوله النيران حتى يجف وعجائبه لا تحصى ولا يمكن حصرها. ويقال إن الإسكندر لما سار إلى بحر الظلمات مرّ بجزيرة بها أمة رؤوسها مثل رؤوس الكلاب يخرج من أفواههم مثل

(١) المرجون: العنكول، العنقود.

(٢) نصباً: قبضة.

(٣) الرعدة: هي سمكة مكهربة.

(٤) الدرفين: هو الدولفين.

لهب النار، وخرجوا إلى مراكبه وحاربوه ثم تخلص منهم وسار فرأى صوراً متلونة بألوان شتى، وسمكاً طوله مائة ذراع وأكثر، وأقل. فسيحان الله تعالى ما أكثر عجائب خلقه. ويقال إنه مرّ في بعض الجزائر على قصر مصنوع من البلور على قلعة محكمة البناء وحولها قناديل لا تطفأ.

ومن جزائر البحر جزيرة القُمر، ويقال: إن بها شجراً طول الشجرة مائتا ذراع، ودور ساقها مائة وعشرون ذراعاً، وبها طوائف من السودان عرايا الأبدان يلتحفون بورق الشجر، وهو ورق يشبه ورق الموز لكنه أسمك وأعرض وأنعم، ويقال إن هذه الجزيرة بالقرب من نيل مصر، وإن هذه الأمة التي بها يتمذهبون بمذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه، وهم في غاية اللطافة من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وبالقرب منهم معدن الذهب، والياقوت، وبها الفيلة البيض وحيوانات مختلفة الأشكال من الوحوش وغيرها، وبها العود القماري^(١) والآبنوس والطوايس، وبها مدن كثيرة، ومنها جزيرة الواق خلف جبل يقال له اصطفيون داخل البحر النوبي، ويقال إن هذه الجزيرة كانت ملكتها امرأة، وأن بعض المسافرين وصل إليها ودخل ورأى هذه الملكة وهي جالسة على سرير وعلى رأسها تاج من ذهب وحولها أربعمائة وصيفة كلهنّ أبكار. وفي هذه الجزيرة من العجائب شجر يشبه شجر الجوز، وخيار الشبر^(٢)، ويحمل حملاً كهية الإنسان فإذا انتهى سمع له تصويت يفهم منه واق واق ثم يسقط. وهذه الجزيرة كثيرة الذهب حتى قيل إن سلاسل خيلهم، ومقاود كلابهم وأطواقها من الذهب.

ومنها جزيرة الصين يقال إن بها ثلثمائة مدينة ونيفاً سوى القرى والأطراف، وأبوابها اثنا عشر باباً وهي جبال في البحر بين كل جبلين فرجة وهذه الجبال تمرّ بها المراكب مسيرة سبعة أيام، وإذا جاوزت السفينة الأبواب سارت في ماء عذب حتى تصل إلى الموضع الذي تريده، وفيها من الأودية والأشجار والأنهار ما لا يمكن وصفه فتبارك الله رب العالمين. وقيل: إن الإسكندر لما فرغ من بناء سدّه حمد الله تعالى وأثنى عليه ثم نام، وإذا بحيوان عظيم صعد من البحر إلى أن علا وسدّ الأفق فظنّ من حول الملك أنه يريد ابتلاعهم ففزعوا فانتبه. فقال: ما لكم؟ فقالوا له انظر ما حلّ بنا. فقال: ما كان الله ليأخذ نفساً قبل انقضاء أجلها، وقد منعتني من العدو فلا يسلط علي حيواناً من البحر. قال: فإذا بالحيوان قد دنا من الملك وقال: أيها الملك أنا حيوان من هذا البحر وقد رأيت هذا السدّ بني وخرب سبع مرات ولم يزد على ذلك ثم غاب في البحر فتبارك من له هذا الملك العظيم لا إله إلا هو العزيز الحكيم. وقيل إن بجزيرة النسناس باليمن مدينة بين جبلين وليس لها ماء يدخل فيها إلا من المطر وطولها نحو ستة فراسخ، وهي حصينة ذات كروم، ونخيل، وأشجار وغير ذلك، وإذا أراد إنسان الدخول فيها حثا في وجهه التراب، فإن أبى إلا الدخول خنق أو صرع، وقيل إنها معمورة بالجنان، وقيل بخلق من النسناس. ويقال إنهم من بقايا عاد الذين أهلكهم الله بالريح العقيم. وكل واحد منهم شقّ إنسان^(٣). ونقل عن بعض المسافرين أنه قال: بينما نحن سائرون إذ أقبل علينا الليل فبتنا بواد، فلما أصبح الصباح سمعنا قائلًا يقول من الشجر: يا أبا بجير الصبح قد أسفر والليل قد أدبر، والقناص قد حضر فالحذر الحذر. قال: فلما ارتفع النهار أرسلنا كليين كانا معنا نحو الشجرة فسمعت صوتاً يقول ناشدتك. قال: فقلت لرفيقي دعهما. قال: فلما وثقا منه نزلا هاربين فتبعهما الكلبان وجدّا في الجري فأمسكا شخصاً منهما. قال: فأدركناه وهو يقول:

(١) القماري: من أعواد البخور.

(٢) الشبر: شجر معروف في مصر.

(٣) شقّ إنسان: أي شطر إنسان.

الويلُ لي مما بي دهاني دهمري من الهموم والأحزان
قفا قليلاً أيها الكلبان إلى مئسى إليّ تجريان

قال: فأخذناه ورجعنا فذبحه رفيقي وسواه ففعله، ولم أكل منه شيئاً. فتبارك الله ما أكثر عجائب خلقه لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الفصل الثاني: في ذكر الأنهار والآبار والعيون

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ﴾^(١). قال المفسرون هو المطر، ومعنى سلكه أدخله في الأرض وجعله عيوناً وسابيل ومجاري كالعروق في الجسد، فمن الأنهار ما هو من الأمطار المجتمعة، ولهذا ينقطع عند فراغ مادته، ومنها ما ينبع من الأرض وأطول ما يكون من الأنهار ألف فرسخ، وأقصاه عشرة فراسخ إلى اثنين وثلاثة وبين ذلك، وكلها تتبدى من الجبال وتنتهي إلى البحار والبطائح، وفي ممرها تسقي المدن والقرى وما فضل منها ينصب في البحر الملح، ويختلط به، ولا يمكن استيفاء عددها لكننا نشير إلى بعضها فنقول:

النيل المبارك، ليس في الأنهار أطول منه لأنه مسيرة شهرين في بلاد الإسلام، وشهرين في بلاد النوبة، وأربعة في الخراب. وقيل إن مسافته من منبعه إلى أن ينصب في البحر الرومي ألف وسبعمائة فرسخ وثمانية وأربعون فرسخاً^(٢). قال ذلك صاحب «مباهج الفكر ومناهج العبر» واختلف في زيادته، فقيل: إن الأنهار والعيون تعد في الوقت الذي يريد الله تعالى. وفي الحديث أنه من أنهار الجنة. وقال أهل الأثر: إن الأنهار التي من الجنة تخرج من أصل واحد من قبة أرض الذهب، ثم تمرّ بالبحر المحيط وتشقّ فيه. قالوا: ولولا ذلك لكانت أحلى من العسل وأطيب رائحة من الكافور. نهر الفرات يوجد بأرض أرمينية فضائله كثيرة والنيل أصدق حلاوة منه، وبه من السمك الأبيض ما تكون الواحدة قطاراً بالدمشقي، وطول هذا النهر من حين يخرج من عند ملطية إلى أن يأتي إلى بغداد ستمائة وثلاثون فرسخاً، وفي وسطه مدن وجزائر تعدّ من أعمال الفرات.

جيحون نهر عظيم تتصل به أنهار كثيرة ويمرّ على مدن كثيرة حتى يصل إلى خوارزم ولا يتضع به شيء من البلاد سوى خوارزم لأنها متسفلة^(٣) عنه، ثم ينصب في بحيرة بينها وبين خوارزم ستة أيام، وهو يجمد في الشتاء خمسة أشهر، والماء يجري من تحت الجمد فيحفر أهل خوارزم منه لهم أماكن ليستقوا منها وإذا اشتدّ جموده مروا عليه بالقوافل والعجل المحملة ولا يبقى بينه وبين الأرض فرق، ويعلوه التراب ويبقى على ذلك شهرين.

سيحون نهر عظيم قيل: إن مبداء من حدود الترك ويجري حتى يتصل ببلاد الفرغانة، وربما يجتمع مع جيحون في بعض الأماكن.

(١) سورة: الزمر، الآية: ٢١.

(٢) ثمانية وأربعون فرسخاً: هذا الرقم مبالغ فيه إن كان المعنى الفرسخ الهاشمي.

(٣) متسفلة: أي منخفضة.

الدجلة نهر بغداد وله أسماء غير ذلك، وماؤه أعذب المياه بعد النيل وأكثرها نفعاً. قيل مقداره ثلثمائة فرسخ وفي بعض الأوقات يفيض حتى قيل إنه يخشى على بغداد الغرق منه، وهو نهر مبارك كثيراً ما ينجو غريقه. حكى أنه وجد به غريق فيه الروح فلما أفاق سأله عن حاله فأخبرهم أنه لما غلب على نفسه رأى كأن أحداً يحمله ويصعد به. وروي في الأثر: أن الله تعالى أمر دانيال عليه الصلاة والسلام أن يحضر لعباده ما يستقون منه ويستنعون به، فكان كلما مر بأرض ناشده أهلها أن يحضر ذلك عندهم إلى أن حفر دجلة والفرات.

وأما الأنهار الصغار فكثيرة ولكننا نذكر منها طرفاً فنقول: نهر حصن المهدي، قال صاحب تحفة الألباب: إنه بين البصرة والأهواز وأنه يرتفع منه في بعض الأوقات شيء يشبه صورة الفيل ولا يعرف أحد شأنه. نهر أذربيجان قيل: إن بالقرب منه، نهراً يجري فيه الماء سنة، ثم يقطع ثمان سنين، ثم يعود في التاسعة. وقيل: إنه ينعدق حجراً يستعمل منه اللبن ويبنى به. وقيل إن في تلك الأرض بحيرة تجف فلا يوجد فيها ماء ولا سمك ولا طين سبع سنين ثم يعود الماء والسمك والطين فتبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير. نهر صقلاب، يجري فيه الماء يوماً واحداً في كل أسبوع ثم يقطع ستة أيام. نهر العاصي، بأرض حماة وقيل بحمص وهو نهر معروف وفيه يقول بعضهم:

مدينة حمص كعبة القصف^(١) أصحبت يطوف بها الداني ويسعى لها القاصي
بها روضة من حُسْنِها سندسية تعلق في أكتاف أذيالها العاصي

نهر العمود بأرض الهند عليه شجرة نابتة من حديد، وقيل من نحاس وتحتها عمود من نحاس، وقيل من حديد طوله من فوق الماء نحو عشرة أذرع وعرضه ذراع وعلى رأسه ثلاث شعب مسنونة محددة وعنده رجل يقرأ كتاب الله تعالى ويقول: يا عظيم البركة طوبى لمن صعد هذه الشجرة وألقى بنفسه على هذا العمود فيدخل الجنة، وقال أهل ملك الناحية من يريد ذلك فيصعد على تلك الشجرة ويلقي نفسه فيقطع. نهر باليمن، قال صاحب تحفة الألباب إنه عند طلوع الشمس يجري من المشرق إلى المغرب وعند غروبها يجري من المغرب إلى المشرق. نهر ببلاد الحبشة والسودان، يجري إلى المشرق يشبه النيل في زيادته ونقصانه وأرضه بها الخصب والبركة، وبها شجر كالأراك يحمل ثمرأ كالبطيخ داخله شيء يشبه القند^(٢) في الحلاوة، ولكن فيه بعض حموضة، وهذا النهر يجري في بلادهم ثمانية أشهر ثم ينصب في البحر المحيط فبحان من دبر هذا التدبير وأحكم هذه الصنعة لا إله إلا هو الحكيم الخبير.

الفصل الثالث: في ذكر الآبار

قال مجاهد: كنت أحب أن أرى كل شيء غريب، فسمعت أن بابل بئر هاروت وماروت فسرت إليهما، فلما وصلت إلى ذلك المكان وجدت عنده بيوتاً قد دخلت في بعضها فوجدت شخصاً فلسمت عليه فرحب بي وسألني عن حاجتي، فذكرت له غرضي فأمر يهودياً يذهب معي فيوقفني على البئر ويطلعني على الملكين. قال فسرنا إلى البئر

(١) القصف: اللهور والمرح.

(٢) القند: عمل قصب.

ففتح سرداباً ونزلنا، فأمرني أن لا أذكر اسم الله تعالى. قال فلما رأيت الملكين رأيت شيئاً كالجبليين العظيمين منكسين على رأسيهما وعليهما الحديد من أعناقهما إلى ركبهما. قال مجاهد فلما رأيت ذلك ففكرت بالله تعالى قال فاضطراباً اضطراباً شديداً حتى كادا يقطعان السلاسل. قال ففر اليهودي فتعلقت به. فقال: أما أمرتك أن لا تذكر اسم الله تعالى كدنا والله نهلك.

بئر برهوت بقرب حضرموت وهي التي قال النبي ﷺ إنها مجمع أرواح الكفار. قال علي كرم الله وجهه: أبغض البقاع إلى الله تعالى بئر برهوت ماؤها أسود متن تأوي إليها أرواح الكفار، والموكل بها ملك يسمى دومة.

بئر عسفان: ماؤها يستشفى به قيل إن النبي ﷺ نفل فيها. قالت أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما: كنا نفضل المريض منها فيعافى، وقيل إن النبي ﷺ توضأ منها.

بئر معروفة بأرض حلب خاصيتها أنها إذا شرب منها المكروب زال كلبه ما لم يجاوز الأربعين.

وينسابور آبار كثيرة وهي معادن الفيروزج، وإنما يمنع الناس عنها كثرة عقاربها. وبأرض فارس بئر ينبع منها ماء في وقت من السنة، فيرتفع على وجه الأرض لمحة واحدة ويجري فيتنبع به في سقي الزرع ثم يعود إلى ما كان. وعجائب الله كثيرة لا تكاد تنحصر لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الباب السادس والستون: في ذكر عجائب الأرض وما فيها من الجبال والبلدان وغرائب البنين وفيه فصول

الفصل الأول: في ذكر الأرض وما فيها من العمران والخراب

روى وهب بن منبه رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ثمانية عشر ألف عالم، الدنيا منها عالم واحد، وما العمران في الخراب إلا كخردلة في كف أحدكم» وقال رواة الأثر: إن الله عز وجل دابة في مرج من مروج في غامض علمه رزقها في كل يوم بقدر رزق العالم بأسره، وجميع مدائن الدنيا أربعة آلاف مدينة وخمسائة وست وخمسون مدينة وقيل غير ذلك. وأقاليم الأرض سبعة: الإقليم الأول: الهند. الثاني: الحجاز. الثالث: إقليم مصر. الرابع: إقليم بابل. الخامس: إقليم الروم والشام. السادس: إقليم الترك. السابع: إقليم الصين، وأوسط الأقاليم إقليم بابل وهو أعمرها وفيه جزيرة العرب وفيه العراق الذي هو سرّة الدنيا، وبغداد في وسط هذا الإقليم، فلاتداله اعتدلت ألوان أهله فسلموا من شقرة الروم، وسواد الحبشة، وغلظ الترك، وجفاء أهل الجبال، ودمامة أهل الصين. والممالك المشهورة التي ضبقت عدتها في زمن المأمون ثلاثمائة وثلاث وأربعون مملكة، أوسعها ثلاثة أشهر، وأضيقتها ثلاثة أيام، وقال أهل الهيئة إنه يكون عند خط الاستواء ربيعان وصيفان وخريفان وشتاءان في سنة واحدة. وإنه يكون في بعض البلاد ستة أشهر ليل، وستة أشهر نهار وبعضها حرّ وبعضها برد فنبحان من خلق كلّ شيء فائقه لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

الفصل الثاني: في ذكر الجبال

قيل إن الله تعالى لما خلق الأرض ماجت واضطربت فخلق الجبال وأرساها بها فاستقرّت وجموع ما عرف بالأقاليم السبعة من الجبال مائة وثمانية وتسعون جبلاً فمنها ما طوله عشرون فرسخاً، ومنها ما طوله مائة فرسخ، إلى ألف فرسخ. ولتذكر منها ما هو مشهور معروف بين الناس. فمن أعجبها جبل سرنديب: وطوله مائتان ونيف وستون ميلاً، وفيه أثر قدم آدم عليه الصلاة والسلام حين أهبط، وحوله الباقوت، وفي أوديته الماس الذي يقطع به الصخور ويحب به اللؤلؤ، وفيه العود والفلفل ودابة المسك ودابة الزباد. جبل الروم الذي فيه السد: طوله سبعمائة فرسخ، وينتهي إلى بحر الظلمات. جبل أبي قيس: سمي بذلك لأن آدم عليه الصلاة والسلام كناه بذلك حين اقتبس منه النار التي بين أيدي الناس وقيل غير ذلك. جبل القلمس جبل شريف مبارك فيه غار يضيء بالليل من غير سراج ويزوره

النس. جبل ارونند: بهمذان برأسه عين تخرج من صخرة أياماً معدودة في السنة، تقصد من كل وجه يستشفى بها. جبل بالشام: لونه أسود كالقمح، وترابه أبيض تبيض به الثياب. جبل الأندلس: فيه غار إذا دهنت فتيلة وأدخلتها فيه لوقدت، وبها جبل به عينان إحدهما باردة، والأخرى حارة والمسافة التي بينهما مقدار شبر. وجبل به معدن الكبريت والزنبرق والزنجفر. جبل سمرقند: يقطر منه ماء في الصيف يصير جليداً وفي الشتاء يحرق من حرارته. جبل الصور: بكرمان يكسر حجرة فيخرج منه كصور الآدميين، قائمين وقاعدين، ومضطجعين وإذا سحق وطرح في الماء يرى كذلك. جبل الأرجان: بطبرستان يقطر منه ماء كل قطرة تصير حجراً مسدساً أو مثناً. جبل هرمز: يتزل منه ماء إلى وهدة فإن صاح إنسان صيحة وقف، فإن ثنى جرى. جبل الطير: بإقليم الصعيد يجتمع عنده الطير في كل سنة مرة ويدخل في كوة هناك، فتمسك الكوة على واحدة وتطير البقية، ويكون ذلك علامة الخصب في تلك السنة. ولتقتصر على ذلك من أراد الوقوف على جميعها فعليه بتاريخ امرأة الزمان.

الفصل الثالث: في ذكر المباني العظيمة وغرائبها وعجائبها

قال أهل التواريخ ونقله الأخبار: إن أول بناء بني على وجه الأرض الصرح الذي بناه نمرود الأكبر بن كوش بن حام بن نوح عليه الصلاة والسلام، ويقعته بكوني من أرض بابل وبه إلى عصرنا أثر ذلك البناء كأنه جبال شاهقات، قالوا وكان طوله خمسة آلاف ذراع بناء بالحجارة والرصاص والشمع واللبن ليمتنع هو وقومه من طوفان ثان فأخرب الله تعالى ذلك الصرح في ليلة واحدة بصيحة فتبلبت بها السنة الناس فسميت أرض بابل. ﴿إِذْ ذَاتِ الْعُمَاءِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾^(١).

حكى الشعبي في كتاب سير الملوك أن شداد بن عاد ملك جميع الدنيا وكان قومه قوم عاد الأولى زادهم الله بسطة في الأجسام وقوة حتى قالوا من أشد منا قوة قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾^(٢) وأن الله تعالى بعث إليهم هوداً نبياً عليه الصلاة والسلام فدعاهم إلى الله تعالى فقال له شداد إن آمنت بإلهك فماذا لي عنده؟ قال يعطيك في الآخرة جنة مبنية من ذهب، ويواقيت ولؤلؤ وجميع أنواع الجواهر. قال شداد أنا أبني مثل هذه الجنة ولا أحتاج إلى ما تعديني به. قال: فأمر شداد ألف أمير من جبابرة قوم عاد أن يفرجوا ويطلبوا أرضاً واسعة كثيرة الماء، طيبة الهواء، بعيدة من الجبال لينني فيها مدينة من ذهب. قال فخرج أولئك الأمراء ومع كل أمير ألف رجل من خدمه وحشمه فساروا في الأرض حتى وصلوا إلى جبل عدن فأروا هناك أرضاً واسعة طيبة الهواء فأعجبهم تلك الأرض فأمرؤ المهندسين والبنائين فخطوا مدينة مربعة الجوانب دورها^(٣) أربعون فرسخاً، من كل جهة عشرة فراسخ، فحفروا الأساس إلى الماء ونوا الجدران بحجارة الجزع^(٤) البماني حتى ظهر على وجه الأرض، ثم أحاطوا به سوراً ارتفاعه خمسمائة ذراع، وغشوه بصفائح الفضة المموهة بالذهب فلا يكاد يدركه البصر إذا أشرقت الشمس. وكان شداد قد بعث إلى جميع معادن الدنيا فاستخرج منها الذهب، واتخذ له لبناً، ولم يترك في يد أحد من

(١) سورة: النجر، الآيتان: ٧-٨.

(٢) سورة: فصلت، الآية: ١٥.

(٣) دورها: محيطها.

(٤) الجزع: ضرب من الرخام.

الناس في جميع الدنيا شيئاً من الذهب إلا غصبه، واستخرج الكنوز المدفونة، ثم بنى داخل المدينة مائة ألف قصر بعدد رؤساء مملكته، كل قصر على عمد من أنواع الزبرجد والياقوت معقودة بالذهب طول كل عمود مائة ذراع، وأجرى في وسطها أنهاراً وعمل منها جداول لتلك القصور والمنازل، وجعل حصاها من الذهب والجواهر والياقوت، وحلى قصورها بصفائح من الذهب والفضة، وجعل على حافات الأنهار أنواع الأشجار، جذوعها من الذهب، وأوراقها وثمرها من أنواع الزبرجد والياقوت واللآلئ، وطلّى حيطانها بالمسك والعنبر، وجعل فيها جنة مزخرفة له، وجعل أشجارها الزمرد والياقوت وسائر أنواع المعادن، ونصب عليها أنواع الطيور المسموعة، الصادح والمغرد وغير ذلك، ثم بنى حول المدينة مائة ألف منارة يرسم الحراس الذين يحرسون المدينة، فلما كمل بناؤها أمر في مشارق الأرض ومغاربها أن يتخذوا في البلاد بسطاً، وستوراً، وفرشاً، من أنواع الحرير لتلك القصور والغرف، وأمر باتخاذ أواني الذهب والفضة فاتخذوا جميع ما أمر به.

فلما فراغوا من ذلك جميعه خرج شداد من حضرموت في أهل مملكته وقصد مدينة إرم ذات العماد فلما أشرف عليها ورآها قال قد وصلت إلى ما كان هو يعدني به بعد الموت وقد حصلت عليه في الدنيا فلما أراد دخولها أمر الله تعالى ملكاً فصاح بهم صيحة الغضب، وقبض ملك الموت أرواحهم في طرفه عين، فخروا على وجوههم صرعى، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾^(١) وذلك قبل هلاك عاد بالريح العقيم، وأخفى الله تعالى تلك المدينة عن أعين الناس فكانوا يرون بالليل في تلك البرية التي بنيت فيها معادن الذهب والفضة والياقوت تضيء كالمصابيح، فإذا وصلوا إليها لم يجدوا هناك شيئاً. وقد نقل أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له عبد الله بن قلابة الأنصاري دخل إليها، وذلك أنه ضلت له إبل فخرج في طلبها فوصل إليها، فلما رآها دهش وبهت ورأى ما أذهله وحيره وقال في نفسه: هذه تشبه الجنة التي وعد الله بها عباده المتقين في الآخرة فقصد باباً من أبوابها، فلما وصل إليها أناخ راحلته ودخل المدينة فرأى تلك القصور، والأنهار، والأشجار ولم ير في المدينة أحداً، فقال: أرجع إلى معاوية وأخبره بهذه المدينة وما فيها، ثم حمل معه شيئاً من تلك الجواهر والياقوت في وعاء وجعله على راحلته، وعلم على المدينة علامة، وقال قريبا من جبل عدن كذا، ومن الجهة الفلانية كذا، ثم انصرف عنها بعد ما ظفر بإبله، ثم دخل على معاوية رضي الله تعالى عنه بدمشق وأخبره بجميع ما رآه. فقال له معاوية: في اليقظة رأيتها أم في المنام. قال بل في اليقظة وقد حملت معي من حصانها وأخرج له شيئاً مما حملة من الجواهر والياقوت فتعجب معاوية من ذلك ثم أرسل إلى كعب الأحبار رضي الله تعالى عنه فلما دخل عليه قال معاوية: يا أبا سحاق هل بلغك أن في الدنيا مدينة من ذهب؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين وقد ذكرها الله عز وجل في القرآن لنبيه ﷺ بقوله عز من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾^(٢) وقد أخفاها الله تعالى عن أعين الناس وسيدخلها رجل من هذه الأمة يقال له عبد الله بن قلابة الأنصاري. ثم التفت فرأى عبد الله بن قلابة. فقال: ها هوذا يا أمير المؤمنين وصفته واسمه في التوراة ولا يدخلها أحد بعده إلى يوم القيامة. وقيل إن ذلك كان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وأن الرجل الذي دخلها حكى ذلك لعمر بن الخطاب فلم ينكره ولا من كان حاضراً، بل قال إن النبي ﷺ قال: يدخلها بعض أمتي والله سبحانه وتعالى أعلم.

(١) سورة: النجم، الآية: ٥٠.

(٢) سورة: الفجر، الآيات: من ٦ - ٨.

ومن المباني العجيبة الخورنق الذي بناه النعمان بن امرئ القيس، وهو النعمان الأكبر بناء في عشرين سنة، فلما انتهى أعجبه فخشي أن يني لغيره فأمر أن يلقي بانيه من أعلاه فألقوه فتقطع، واسم بانيه سنمار فصارت العرب تضرب به المثل: جزاء جزاء سنمار قال الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر
وحسن فعل كما يُجزى سنمار

ومن المباني العجيبة حائط العجوز واسمها دلوك القبطية، وسبب بنائها لذلك أنها ولدت ولدأ فأخذت له الرصد، فقيل له يخشى عليه من التماسح، فلما شب الغلام خافت عليه فبنت الحائط وجعلته من العريش إلى أسوان شاملاً لكورة مصر من الجانب الشرقي. وقيل بته خوفاً على مصر وأهلها بعد غرق فرعون أن يطمع الملوك فيها. وقد قيل إنها أرادت أن تخوف ولدها من التماسح حتى لا يتزل البحر فصورت له صورة التماسح فرآه شكلاً مهولاً فأذهله، وأخذته الفرع والهلم فضعف وانسل إلى أن مات لا مفر من قضاء الله تعالى.

ومن المباني العجيبة الأهرام وهي بالجانب الغربي من مصر مشاهدة في زماننا هذا، قيل إن دور الهرم الأكبر من الثلاثة، ألفا ذراع، من كل جهة خمسمائة ذراع وعلوه خمسمائة ذراع، وقد ذهب المأمون إلى مصر حتى شاهدها على ما ذكر، وفتح منها هرمًا وتعجب من بنائها وصفتها. قيل إن كل حجر من حجارتها ثلاثون ذراعاً في عرض عشرة أذرع وقد أحكم إصاقه ونحته وتسويته، ولا يقدر النجار الصانع أن يتخذ من خشب صندوقاً صغيراً على إحكامه، وهي من عجائب الدنيا. قال بعضهم:

أين الذي الهرمان من بنيانه
ما قومه ما يومه ما المصراع
تخلف الآثار عن سكانها
حيناً ويدركها الفناء فتصراع

وزعم قوم أن الأهرام الموجودة بمصر قبور لملوك عظام أرادوا أن يتميزوا بها عن الناس بعد مماتهم، كما تميزوا عنهم في حياتهم، ورجوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور. ولما وصل المأمون إلى مصر أمر بتقريبها فنقب أحدها بعد جهد شديد وعناء طويل فوجد داخله مزاليق ومهاوي يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ووجد في أعلاه بيتاً وفي وسطه حوض من رخام مطبق، فلما كشف غطاؤه لم يوجد فيه إلا رمة بالية فعند ذلك أمر المأمون بالكف عما سواه، ويقال إن الذي بناها اسمه سوريد بن سهراب بن سرياق لرؤيا رآها، وهي آفة تنزل من السماء وهي الطوفان. فقالوا إنه بناها في ستة أشهر وقال: قل لمن يأتي بعدنا يهدمها في ستمائة سنة، والهدم أيسر من البناء، وكسوناها الدياج الملون فليُكسبها حصراً، الحصر أهون من الدياج والأمر فيها عجيب جداً والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن المباني العجيبة منارة الاسكندرية: التي بناها ذو القرنين. قيل إنها كانت مبنية بحجارة مهتمة مغموسة في الرصاص فيها نحو من ثلثمائة بيت تصعد الدابة بحملها إلى كل بيت، وللبووت طاقات تطل على البحر، ويقال إن طولها كان ألف ذراع وفي أعلاها تماثيل من نحاس، منها تمثال رجل قد أشار بيده إلى البحر فإذا صار العدو على نحو ليلة منه سمع له تصويت يعلم به أهل المدينة مجيء العدو فيستعدون له، ومنها تمثال كلما مضى من الليل ساعة صوت مطرباً، ويقال إنه كان بأعلاها امرأة من الحديد الصيني عرضها سبعة أذرع كانوا يرون فيها المراكب بجزيرة قبرس، وقيل كانوا يرون فيها من يخرج من البحر من جميع بلاد الروم، فإن كانوا أعداء تركوهم حتى يقرؤوا من

المدينة، فإذا مالت الشمس للغروب أداروا المرأة مقابلة الشمس واستقبلوا بها السفن فيقع شعاعها بضوء الشمس على السفن فتحرق في البحر ويهلك كل من فيها. وكانت الروم تؤذي الخراج ليأمنوا بذلك من إحراق السفن ولم تزل كذلك إلى زمن الوليد بن عبد الملك.

قال المسعودي: قيل إن ملكاً من الروم تحيل على الوليد وأظهر أنه يريد الإسلام، وأرسل إليه تحفاً وهدايا، وأظهر له بواسطة حكماء كانوا عنده أن يبلاده دفائن، وأرسل له بذلك قسيسين من خواصه، وأرسل معهم أموالاً، قيل إنهم حفروا بقرب المنارة ودفنوا تلك الأموال. وقالوا للوليد إن تحت المنارة كنوزاً لا تعد ويازاتها خبية، بها كذا وكذا ألف دينار فأمرهم باستخراج ما بالقرب من المنارة، فإن كان ذلك حقاً استخرجوا ما تحت المنارة بعد هدمها، فحفروا واستخرجوا ما دفنوه بأيديهم، فعند ذلك أمر الوليد بهدم المنارة واستخراج ما تحتها، فهدموها فلم يجدوا شيئاً وهرب أولئك القسيسون، فعلم الوليد أنها مكيدة عليه فندم على ذلك غاية الندم، ثم أمر ببنائها بالآجر ولم يقدروا أن يرفعوا إليها تلك الحجارة، فلما أتموها نصبوا عليها المرأة كما كانت. فصدئت ولم يروا فيها شيئاً مثل ما كانوا يرون أولاً ويطل إحراقها فندموا على ما فعلوا، وفاتهم من جهلهم وطمعهم نفع عظيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقد عملت الجَنّ لسليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام في الإسكندرية مجلساً على أعمدة من الجرز اليماني المصقول كالمرأة، إذا نظر الإنسان إليها يرى من يمشي خلفه لصفاتها، وفي وسط ذلك المجلس عمود من الرخام طوله مائة وأحد عشر ذراعاً، وفي تلك الأعمدة عمود واحد يتحرك شرقاً وغرباً بطلوع الشمس وغروبها يشاهد الناس ذلك ولا يعلمون ما سببه. وفي مدينة حمص، مدينة أخرى تحت المدينة المسكونة العليا، فهي من عجائب البنيان، والبيوت، والغرف والماء الجاري في كل طريق من طرقها ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وعند حوران مدينة عظيمة يقال له اللجأة، فيها من البنيان ما يعجز عن وصفه ألسنة العقلاء، كل دار منها مبنية من الصخر المنحوت، ليس في الدار خشبة واحدة، بل أبوابها وغرفها وسقوفها، وبيوتها من الصخر المنحوت الذي لا يستطيع أحد أن يعمل من الخشب، وفي كل دار بئر وطاحون، وكل دار مفردة لا يلاصقها دار أخرى، وكل دار كالقلعة الحصينة، إذا خاف أهل تلك النواحي من العدو دخلوا إلى تلك المدينة، فيتزل كل إنسان في دار بجميع عياله، وخيله، وغنمه، ويقره ويغلق بابه، ويجعل خلف الباب حصاة فلا يقدر أحد على فتح ذلك الباب لإحكامه، وفي هذه المدينة أكثر من مائتي ألف دار فيما يقال ولا يعلم أحد من بناها، وسمتها العرب اللجأة لأنهم يلجأون إليها عن الخوف.

ومن المباني العجيبة إيوان كسرى أنو شروان: بناه سابور ذو الاكثاف في نيف وعشرين سنة، وطوله مائة ذراع في عرض خمسين بناء بالآجر والجص، وجعل طول كل شرافة من شرافته خمسة عشر ذراعاً، ولما ملك المسلمون المدائن أحرقوا هذا الإيوان، فأخرجوا منه ألف ألف دينار ذهباً. وحكي أن المنصور لما أراد بناء بغداد عزم على هدمه، وأن يجعل آتة في بنائه قليل له إن نقضه يتكلف بقدر العمارة فلم يسمع وهدم شرافة، وحسب ما أنفق عليها فوجد الأمر كذلك. وقيل إن بعض رؤساء مملكته قال له لما أراد هدمه هو آية الإسلام فلا تهدمه. وحكي أنه كان بمدينة قيسارية كنيسة بها امرأة، إذا أتهم الرجل امرأته بزنا نظر في تلك المرأة فيرى صورة الزاني، فاتفق أن بعض الناس قتل غريمه فعمد أهله إليها فكسروها والله سبحانه وتعالى أعلم، وقد اقتصرنا من ذلك على هذا القدر اليسير وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع والستون: في ذكر المعادن والأحجار وخواصها

المعادن لا تكاد تحصى لكن منها ما يعرفه الناس، ومنها ما لا يعرفونه، وهي مقسومة إلى ما يذوب وإلى ما لا يذوب، والذي اشتهر بين الناس من المعادن سبعة وهي: الذهب، والفضة، والنحاس، والحديد، والقصدير، والأسرب، والمخارصيني. ولنبدأ أولاً بذكر الذهب: فقليل طبعه حار لطيف ولشدة اختلاط أجزائه المائية بالترابية قبل إن النار لا تقدر على تفريق أجزائه فلا يحترق، ولا يبلى ولا يصدأ وهو لين برّاق، حلو الطعم أصفر اللون، فالصفرة من ناريته، والليمونة من دهنيته، والبراقة من صفاء مائه.

خواصه: يقوّي القلب، ويدفع الصرع تعليقاً ويمنع الفزع والخفقان ويقوّي العين كحلاً ويجلوها إن كان ميلاً ويحسن نظرها، وإذا ثبت به الأذن لم تلتحم، وإذا كوي به لم ينفط ويبرأ سريعاً، وإسكاه في الفم يزيل البخر.

الفضة: قريبة منه، وتصدأ، وتحترق وتبلى بالتراب وإذا أصابها رائحة الرصاص والزئبق تكسرت ورائحة الكبريت اسودّت. ومن خواصها أنها تزيل البخر من الفم إذا وضعت فيه، وإذا أذيت مع الزئبق وطلبي بها البدن نفع ذلك من الحكمة والجرب وعسر البول.

النحاس: قريب منها لكنه أيسر وأغلظ في الطبع. ومن خواصه إذا صدىء و طلي بالحامض زال صدؤه، والأكل في آنيته، يولد أمراضاً لا دواء لها.

الحديد: كثير الفائدة إذ ما من صنعة إلا وله فيها مدخل. ومن خواصه أنه يمنع غطيظ النائم إذا علق عليه، وحمله يقوّي القلب، ويزيل الخوف والأفكار والأحلام الرديئة، ويسرّ النفس، وصدؤه ينفع أمراض العين كحلاً، والبواسير تحملاً.

القصدير: صنف من الفضة دخل عليه آفات من الأرض. ومن خواصه أنه إذا ألقي في قدر لم ينضج ما فيها.

الأسرب: هو الرصاص. ومن خواصه أنه يكسر الماس، ومن خواص الماس الدخول في كلّ شيء، وإذا شذ من الرصاص قطعة على الخنازير والغدد أبرأتها.

المخارصيني: حجر لونه أسود يعطي حمرة. ومن خواصه إذا عمل منه مرآة ونظر فيها في الظلمة نفعت للقوة، وإذا نفث الشعر بملقاط منه لم ينبت.

الأحجار الجوهريّة: أصل الجوهر، وهو الدرّ على ما قيل إن حيواناً يصعد من البحر على ساحله وقت المطر، ويفتح أذنه يلتقط بها المطر ويضمها ويرجع إلى البحر فيتزل، إلى قراره، ولا يزال طابقاً أذنه على ما فيها خوفاً أن يخالط بأجزاء البحر حتى ينضج ما فيها ويصير درأ، فإن كانت القطرة صغيرة كانت الدرّة صغيرة، وإن كانت كبيرة فكبيرة، فإن كان في بطن هذا الحيوان شيء من الماء المرّ كانت الدرّة كدرة، وإن لم يكن، كانت صافية وقيل غير

ذلك. والدّرّ نوعان كبير وصغير. وقيل إنه تصل الواحدة إلى مثقال. ومن خواصه أنه يفرح القلب، ويسيط النفس، ويحسن الوجه، ويصفي دم القلب، وإذا خلط مع الكحل شدّ عصب العين.

الياقوت: سيد الأحجار وأصول ألوانه أربعة: الأحمر، والأصفر، والأزرق، والأسمانجوني^(١)، ويتولد منها ألوان كثيرة وأعدلها الأحمر الخالص الرماني الشبيه بحبّ الرمان الأحمر، ودونه الأحمر المشرب بياض، ثم الورد، ثم الخمر، ثم العصفري، وأرؤه الأزرق الذي لون يشبه زهر السوسن، وأقله قيمة الأبيض. خواصه أنه لا يعمل فيه الفولاذ، ولا حجر الماس، ولا تدنسه النار، ويورث لابس مهابة ووقاراً، ويسهل قضاء الحوائج ويدّرّ الريق في الفم، ويقطع العطش، ويدفع السمّ، ويقوّي القلب وجميعه ينفع للمصروع تعليقاً، والأبيض منه يسط النفس، ويوجد من الأصفر ما وزنه ثلاثون مثقالاً على ما قيل.

البلخش: هو مقارب للياقوت في القيمة ودونه في الشرف، ومن خواصه أنه يورث قبض النفس، وسوء الخلق والحزن، وهو ألوان: أحمر، وأخضر، وأصفر.

البنفش: أصناف: أحمر مفتوح اللون صاف، وأحمر قويّ الحمرة، وأسود يعلوه حمرة مطوّسة^(٢) بزرقة خفيفة، ثم أصفر مفتوح اللون.

عين الهزّ: حجر يتكوّن من معدن الياقوت، والغالب عليه البياض الناصع بإشراق مفرط ومائته رقيقة شفاقة، وفي مائته سرّ إذا حرّك يميناً تحركت يساراً وبالعكس. ومن خواصه إذا علق على العين أمن عليها من الجدري على ما قيل.

الماس: يوجد بواد بالهند يقال إنه مشحون بالحيات، فيأتي من يريد استخراجها من ذلك الوادي فيضع في الوادي امرأة كبيرة فتأتي الحيات فتنظر إلى خيالها في المرأة فتقرّ من ذلك الجانب فيتزلّ فيأخذ ما له فيه رزق، وقيل إنهم ينحرون الجزر ويلقون لحمها في ذلك الوادي فيلتصق بالماس وغيره باللحم فتأتي الطير فتختطف اللحم وتصعد به إلى الجبال فتأكل اللحم وتترك الحجر فيأخذه صاحب اللحم. وقيل إن الحيات لها مشى ستة أشهر في مكان، ومصيف ستة أشهر في مكان آخر فإذا ذهبت إلى مشاتها ومصيفها أخذ الحجر في غيتها، والله أعلم بصحة ذلك. ومن عجيب أمره أنه إذا أريد كسره جعل في أنبوبة قصب وضرب فإنه ينفت، وكذا إذا جعل في شمع أو قار وإذا جعل عليه دم تيس وقرب من النار ذاب. ومن خواصه أن الملوك يتخذونه عندهم لشرفه، وهو من السموم القاتلة، القطعة الصغيرة منه إذا حصلت في الجوف ولو بقدر السمسة خرقت الأمعاء. ومن خواصه الجليلة أنه يعرق عند وجود السمّ أو الطعام المسموم.

الزمرّد: ويسمى الزبرجد، وهو ألوان: أخضر، وزنجاري^(٣)، وصابوني ويكون الحجر منه خمسة مثاقيل وأقل. ومن خواصه أنه يدفع العين، ويفرح القلب ويقوّي البصر، ويصفي الذهن، وينشط النفس.

(١) الأسمانجوني: الأبيض المائل للإصفرار.

(٢) مطوّسة: مشربة.

(٣) زنجاري: من درجات الأخضر.

الفيروزج: نوعان: إسحاقى، وخلنجى، وأجوده الإسحاقى الأزرق الصافى. خواصه: النظر فيه يجلو البصر، ويقويه وينشط النفس ولا يصيب المتختم به آفة من قتل أو غرق. وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: ما افتقرت يد تختم بفيروزج، وإذا مضى له بعد خروجه من معدنه عشرون سنة نقص لونه ولا يزال كذلك حتى ينطفئ.

العقيق: معدن بأرض صنعاء اليمن، وهو ألوان ويوجد عليه غشاوة، ويحمى عليه بعر الإبل ثم يرد ويكسر. وقيل يوجد بالهند، ولكن اليمنى أجود. خواصه: التختم به وحمله يورث الحلم والأناة وتصويب الرأي ويسر النفس، ويكسب حامله وقاراً وحسن الخلق، ويسكن الحدة عند الخصومة. قال رسول الله ﷺ: «من تختم بالعقيق لم يزل في بركة».

الجزع: هو حجر أيضاً يؤتى به من اليمن، والصين، وألوانه كثيرة، والناس يكرهونه لأنه يورث الهمة، والأحلام الرديئة، وسوء الخلق، وتعسر قضاء الحوائج ويكثر بكاء الصبي وسيلان لعابه، ويثقل اللسان. إذا سحق وشرب ماؤه وإذا وضع بين قوم لا علم لهم به حصلت بينهم العداوة لكنه يسهل الولادة تعليقاً.

البلور: هو صنف من الزجاج. يحكى أن ببلاد كيسان جبلين: أحدهما بلور، وإذا أريد قطع البلور في ذلك الموضع قطع في الليل لأنه في النهار يكون له شعاع عظيم. خواصه: النظر فيه يشرح القلب ويسط النفس، ويسكن وجع الضرس.

المرجان^(١): هو واسطة بين النبات والمعدن لأنه بتشجيريه يشبه النبات، ويتحجره يشبه المعدن ولا يزال ليناً في معدنه، فإذا فارقه تحجر ويس. خواصه: النظر فيه يشرح الصدر، ويسط النفس، ويفرح القلب، ويلهب بالدهاء المحتبس في العين، ويسكن الرمد، وسحاقتة المخلوطة بالخل تجلو قلع الأسنان، وإذا وضع على الجرح منعه من الانتفاخ. وأنواعه كثيرة: أحمر، وأزرق، وأبيض، وأصله من البحر. قيل: إنه شجر ينبت. وقيل: إنه من حيوانه.

حجر الماطليس: هو حجر هندي لا يعمل فيه الحديد. والبيت الذي يكون فيه لا يدخله السحر ولا الجن، ولأجل ذلك كان الاسكندر يجعله في عسكره.

الحجر الماهاني: من تختم به أمن الروح، والهمة، والحزن، والغم، ولونه أبيض وأصفر ويوجد بأرض خراسان.

حجر مراد: يوجد بناحية الجنوب. وخاصيته: أن الجن تتبع حامله وتعمل له ما أراد.

اللنج: خاصيته: أنه إذا سقي إنسان من محكه يفعل فعل السم، وإذا سقي شارب السم منه نفعه، وإذا مسح به موضع اللدغ سكن. وينفع من خفقان القلب، وإذا طلي بحكاكته يبيض البرص أزاله، وإن علق على إنسان غلب عليه الباء.

السيج: خواصه: أنه يقوي الضعيف من الكبر أو نزول الماء، ولبسه ينفع عسر البول، وإدمان النظر فيه يحد البصر وسحاقتة تجلو البصر وإذا علق على مَنْ به الصداع زال عنه.

المفتايس: يوجد في بحر الهند، وهناك لا يتخذ في السفن حديد، ويوجد ببلاد الأندلس أيضاً، وأجود أنواعه ما كان أسود يضرب حمرة. خواصه: الإكحال بسحاقتة يورث ألفة بين المكتحل وبين من يحبه، ويسهل الولادة تعليقاً، ومن تختم به كانت حاجته مقضية وتعليقه في العنق يزيد في الذهن، وإذا سحق وشرب من سحاقتة من به سمٌ بطل سمه، وإذا أصابته رائحة الثوم بطلت خاصيته، وإذا غسل بالخل عاد إلى حالته، وأجوده ما جذب نصف مثقال من الحديد.

حجر الخطاف: الخطاف يوجد في عشه حجران أحدهما أحمر، والآخر أبيض، فالأحمر إذا علق على مَنْ يفرع في نومه زال فرعه، والأبيض إذا علق على مَنْ به صرع زال عنه.

حجر الزاج: إذا دخن البيت بسحاقتة هرب منه الفأر والذباب.

حجر الزنجفر: أصله من الزئبق واستحال وخاصيته أنه يدخل الجراحات وينبت اللحم.

حجر الملح: هو أنواع وأجوده ما يوجد بأرض سدوم بالقرب من بحر لوط وقد جعله الله قواماً للدنيا. ومن خاصيته أنه يحسن الذهب ويزيد في صفوته وعن النبي ﷺ أنه قال: «يا علي إبدأ بالمح واخلط به، فإنه فيه شفاء من سبعين داء». حجر التطرون: قال أرسطو: ينفع الأرحام التي غلبت عليها الرطوبة ينشفها ويقويها، وإذا ألقى في المعجين طيه، ويبيضه، ونفثه، وهو نوعان أبيض وأحمر.

حجر اللازورد: مشهور، قال أرسطو: من تختم به عظم في أعين الناس، وينفع من السهر والله أعلم. ومن أراد التعمق في ذلك فعليه بالكتب الموضوعة له ولكن قد ذكرنا ما هو معروف والحمد لله على كل حال وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن والستون: في الأصوات والألحان وذكر الغناء واختلاف الناس فيه ومن كرهه ومن استحسنته

وما ذكرت إلا لأني كرهت أن يكون كتابي هذا بعد اشتغاله على فنون الأدب، والتحف، والنوادر، والأمثال عطلاً من هذه الصناعة التي هي مراد السمع، ومرتع النفس، وريح القلب، ومجال الهوى، ومسلاة^(١) الكتيب، ونس الوحيد، وزاد الراكب لعظم موقع الصوت الحسن من القلب وأخذ بمجامع النفس.

فصل: في الصوت الحسن

قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾^(٢) هو الصوت الحسن، وعن النبي ﷺ أنه قال: «أتلدون متى كان الحداء؟»^(٣) قالوا لا بأينا أنت وأمتا يا رسول الله قال: «إن أباكم مضر خرج في طلب مال له فوجد غلاماً له قد تفرقت إبله فضره على يده بالعصا، فعدا الغلام في الوادي، وهو يصيح وايداه فسمعت الإبل صوته فعلقت عليه. فقال مضر: لو اشتق من الكلام مثل هذا، لكان كلاماً تجتمع عليه الإبل، فاشتق الحداء». وقال النبي ﷺ لأبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنه لما أعجبه حسن صوته: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» وقيل: إن داود عليه الصلاة والسلام كان يخرج إلى صحراء بيت المقدس يوماً في الأسبوع، وتجتمع عليه الخلق، فيقرأ الزبور بتلك القراءة الرخيمة، وكان له جارتان موصوفتان بالقوة والشدة فكانتا تضبطان جسده ضبطاً شديداً خيفة أن تتخلع أوصاله مما كان يتحب،^(٤) وكانب الوحوش والطير تجتمع لاستماع قراءته. قال مالك بن دينار رحمه الله تعالى: بلغنا أن الله تعالى يقيم داود عليه الصلاة والسلام يوم القيامة عند ساق القرش فيقول: يا داود مجديني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم. وقال سلام الحادي للمنصور وكان يضرب المثل بحدائه: مَرُّ يا أمير المؤمنين بأن يظمنوا إبلأ، ثم يوردوها الماء فإني آخذ في الحداء، فترتفع رؤوسها وتترك الشرب. وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يجري في الجسم مجرى الدم في العروق فيصفو له الدم، وتنمو له النفس، ويرتاح له القلب، وتهتّر له الجوارح، وتخف له الحركات، ولهذا كرهوا للطفل أن ينام على أثر البكاء حتى يرقص ويضطرب. وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقي من النطق لم يقدر اللسان على استخراجها، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع، لا على القطيع، فلما ظهر عشقه النفس، وحنّت إليه الروح، ألا ترى إلى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملاة والفتور على

(١) مسلاة: سلواه.

(٢) سورة: فاطر، الآية: ١.

(٣) الحداء: غناه تقاد به الإبل.

(٤) يتحب: يكي بصوت.

أبدانهم ترنموا بالألحان، واستراحت إليها أنفسهم، وليس من أحد كائناً من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه، ويعجبه طنين رأسه. ولو لم يكن من فضل الصوت الحسن إلا أنه ليس في الأرض لذة تكتسب من مأكّل ولا مشرب ولا ملبس ولا نكاح ولا صيد إلا وفيها معاياة^(١) على البدن، وتعب على الجوارح ما خلا السماع فإنه لا معاياة فيه على البدن، ولا وتعب على الجوارح، وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خيرى الدنيا والآخرة، فمن ذلك أنها تبث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف، وصلة الأرحام والذّب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب، وقد يكيى الرجل بها على خطيئته، ويتذكر نعيم الملكوت، ويمثله في ضميره. ولأهل الرهبانية نغمات وألحان شجية يمجّدون الله تعالى بها، ويكون على خطاياهم ويتذكرون نعيم الآخرة. وكان أبو يوسف القاضي يحضر مجلس الرشيد وفيه الغناء فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر نعيم الآخرة، وقد تحنّ القلوب إلى حسن الصوت حتى الطير والبهاائم. وكان صاحب الفلاحات يقول إن النحل أطرب الحيوان كله على الغناء. قال الشاعر:

والطير قد يسوقه للموت إصفاؤه إلى حين الصوت

وزعموا أن في البحر دواب، ربما زمزت أصواتاً مطربة، ولحوناً مستلذة يأخذ السامعين الغشي من حلاوتها فاعتنى بها وضعة الألحان، بأن شبهوا أغانيهم فلم يلفوا، وربما يغشى على سامع الصوت الحسن للطاقة وصوله إلى الدماغ، وممازجته للقلب، ألا ترى إلى الأم كيف تناغي ولدها فيقبل بسمعه على مناغاتها، ويتلهى عن البكاء، والإبل تزداد في نشاطها وقوتها بالحداء، فترفع آذانها وتلتفت يمنة ويسرة وتتبختر في مشيتها. وزعموا أن السماكين بنواحي العراق يبنون في جوف الماء حفائر ثم يضربون عندها بأصوات شجية فيجتمع السمك في الحفائر فيصيدونه وقد نهبت على ذلك في باب ذكر البحار. وما فيها من العجائب. والراعي إذا رفع صوته ونفخ في يراعه تلتقه الغنم بأذائها وجذّت في رعيها والدابة تعاف الماء، فإذا سمعت الصفيير بالغت في الشرب وليس شيء مما يستلذّ به أخف مؤنة من السماع. قال أفلاطون: من حزن فليسمع الأصوات الحسنة، فإن النفس إذا حزنت خملت نارها، فإذا سمعت ما يطربها ويسرّها اشتعل منها ما خمدت، وما زالت ملوك فارس تلهي المحزون بالسماع، وتعلل به المريض وتشغله عن التفكير، ومنهم أخذت العرب حتى قال ابن غيلة الشيباني:

وسماع مسمعة يعلّنا حتى ننامَ تاوَمَ المعجم

وحكى أن البعلبكي مؤذن المنصور رجّع^(٢) في أذانه ليلة وجارية تصبّ الماء على يد المنصور فارتعدت حتى وقع الإبريق من يدها، فقال له المنصور: خذ هذه الجارية فهي لك ولا تعد ترجع هذا الترجيع، وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي عمارة في قينة:

ألم ترَها لا أبعد الله دارَها إذا رجّعت في صوتها كيف تصنعُ
تسديرُ نظامَ القولِ ثم تردُّه إلى صلصلٍ من صوتها يترجّعُ

(١) معاياة: تعب.

(٢) رجّع: فنون من التريد.

وبعد، فهل خلق الله شيئاً أوقع بالقلوب وأشد اختلاساً للعقول من الصوت الحسن لا سيما إذا كان من وجه حسن كما قال الشاعر:

رَبِّ سَمَاعٍ حَسَنٍ سَمِعْتُهُ مِنْ حَسَنٍ
مَقَرَّبٍ مِنْ فَرَحٍ مَبْعُدٍ مِنْ حَزَنٍ
لَا فَارِقَانِي أَبَدًا فِي صَحْوَةٍ مِنْ بَدَنٍ

وهل على الأرض من جبان مستطار الفؤاد يغني بقول جرير:

قُلْ لِلجَبَانِ إِذَا تَأَخَّرَ سِرْجُهُ هَلْ أَنْتَ مِنْ شَرِّكَ الْمَنِيَةِ نَاجِي

إلا شاجن^(١) شجعت نفسه وقوي قلبه، أم هل على الأرض من بخيل قد انقبضت أطرافه يوماً يغني بقول حاتم الطائي:

يَرَى الْبَخِيلُ سَيْلَ الْمَاءِ وَاحِدَةً إِنْ الْجَوَادَ يَرَى فِي مَالِهِ سَبِيلًا
إِلَّا انْبَسَطَتْ أَنْامِلُهُ وَرَشَحَتْ^(٢) أَطْرَافَهُ.

واختلف الناس في الغناء، فأجازته عامة أهل الحجاز وكرهه عامة أهل العراق، فمن حجة من أجازته ما روي عن النبي ﷺ قال لحسان: «شن الغطاريف على بني عبد مناف فوالله لشعرك عليهم أشد من وقع السهام في غلس الظلام». واحتجوا في إباحة الغناء واستحسانه بقول النبي ﷺ لعائشة رضي الله تعالى عنها: «أهديتم الفتاة إلى بعلها؟ قالت: نعم. قال: فبعثتم معها مَنْ يغني؟ قالت: لم نفعل. قال: أو ما علمت أن الأنصار قوم يعجبهم القول؟ ألا بعثتم معها مَنْ يقول:»

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَعِثُّونَا نَحْيُكُمْ
وَلَوْلَا الْحَبَّةُ الْمَمْرَاءُ لَمْ نَحْلُلْ بِوَادِيكُمْ

ولا بأس بالغناء إذا لم يكن فيه أمر محرّم، ولا يكره السماع عند العرس، والوليمة، والعقيقة وغيرها فإن فيه تحريكاً لزيادة سرور مباح، أو مندوب ويدل عليه ما روي من إنشاد النساء بالدف والألحان عند قدوم النبي ﷺ حيث قلن:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثِيَابِ الْوُدَاعِ
وَجِبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا اللَّهُ دَاعٍ
أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ

ويدل عليه ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: رأيت النبي ﷺ يسرنني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة^(٣) يلعبون في المسجد الحرام حتى أكون أنا التي أسأله. ويدل عليه أيضاً ما روي في الصحيحين من حديث عقيل من الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريستان في أيام منى يدفنان

(١) شاجن: حزين متأثر.

(٢) رشحت: سال منها ما سال.

(٣) الحبشة: الأولاد الأجانب.

ويضربانه، والنبي ﷺ متغش بشوبه فانتهرهما أبو بكر، فكشف النبي ﷺ عن وجهه وقال: «دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد» وعن قرة بن خالد بن عبد الله بن يحيى قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه للنايفة الجعدي: أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من هناتك. فأسمعه كلمة. فقال له وإنك لقاتلها؟ قال نعم قال طالما غنيت بها خلف جمال الخطاب. وعن عبد الله بن عوف قال أتيت باب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فسمعت يغني بالركابة يقول:

كيف ثوائي بالمدينة بعدما قضى وطراً^(١) منها جميل بن معمر

وكان جميل بن معمر من أخصاء عمر، قال: فلما استأذنت عليه قال لي: أسمعت ما قلت؟ قلت نعم. قال: إنا إذا خلونا قلنا ما يقول الناس في بيوتهم. وقد أجازوا تحسين الصوت في القراءة والأذان، فإن كانت الألحان مكروهة، فالقراءة والأذان أحق بالتنزيه عنها، وإن كانت غير مكروهة فالشعر أخرج إليها لأقامة الوزن. وما جعلت العرب الشعر موزوناً إلا لمد الصوت، والدندنة، ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخيز المشور. ومن حجة من كره الغناء أنه قال: إنه ينفر القلوب، ويستفز العقول، ويحث على اللهو، ويحضر على الطرب، وهذا باطل في أصله وتأولوا في ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾^(٢) وأخطأ من أول هذا التأويل إنما نزلت هذه الآية في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السير، والأحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن، ويقولون إنها أفضل منه، وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزواً. وقال رجل للحسن البصري: ما تقول في الغناء يا أبا سعيد؟ فقال نعم العون على طاعة الله تعالى، يصل الرجل به رحمه، ويواسي به صديقه، قال ليس عن هذا أسألك، قال وعمّ سألتني؟ قال أن يغني الرجل، قال وكيف يغني فجعل الرجل يلوي شذقيه ويفتح منخريه، فقال الحسن والله يا ابن أخي ما ظننت أن عاقلاً يفعل بنفسه هذا أبداً، فلم ينكر الحسن عليه إلا تشويه وجهه وتعويج فمه. وسمع ابن المبارك سكراناً يغني هذا البيت:

أذلني الهوى فأنأ الذليل وليس إلى الذي أهوى سئل

قال: فأخرج دواة وقرطاساً وكتب البيت. فقيل له: أكتب بيت شعر سمعته من رجل سكران؟ فقال: أما سمعتم المثل: رب جوهرة في مزيلة؟ وكان لأبي حنيفة جار من الكياليين مفرم بالشراب وكان يغني على شرايه بقول العرجي:

أضاعوني وأني فتى أضاعوا ليوم كرهته وسداؤ ثغري

قالوا: فأخذ العس ليلة وجبه، ففقد أبو حنيفة صوته، واستوحش له. فقال لأهله: ما فعل جارنا الكيال؟ قالوا: أخذ العس وهو في الحبس، فلما أصبح أبو حنيفة توجه إلى عيسى بن موسى فاستأذن عليه فأسرع إذنه، وكان أبو حنيفة قليلاً ما يأتي أبواب الملوك، فأقبل عليه عيسى بن موسى وسأله عما جاء بسببه. فقال: أصلح الله الأمير: إن لي جاراً من الكياليين أخذه عس الأمير ليلة كذا، فوقع في حبسه. فأمر عيسى بن موسى بإطلاق كل من في الحبس إكراماً لأبي حنيفة. فأقبل الكيال على أبي حنيفة يشكر له، فلما رآه أبو حنيفة قال له: هل أضعتك يا فتى؟

(١) وطراً: غاية.

(٢) سورة: لقمان، الآية: ٦.

يعرض له بشعره الذي ينشده. قال: لا والله ولكنك بررت^(١) وحفظت. وكان عروة بن أدية ثقة في الحديث روى عنه مالك بن أنس، وكان شاعراً مجيداً لبقاً غزلاً وكان يصوغ ألحان الغناء على شعره ويلحنها للمغنين. قيل: إنه وقفت عليه امرأة يوماً وحوله التلامذة فقالت له: أنت الذي يقال فيك الرجل الصالح وأنت تقول:

إذا وجدتُ أواز^(٢) الحبِّ في كبدي عمدتُ نحو سقاء القوم أبتردُ
هَبْنِي بردتُ ببرِدِ الماءِ ظاهره فَمَنْ لِنَارٍ عَلَى الْأَحْشَاءِ تَقْقُدُ

وكان عبد الملك الملقب بالقس عند أهل مكة، بمزلة عطاء بن أبي رباح في العبادة. قيل إنه مر يوماً بسلامة وهي تغني فأقام يسمع غناءها فرآه مولاها فقال له: هل لك أن تدخل وتسمع؟ فأبى، فلم يزل به حتى دخل فغته فأعجبته ولم يزل يسمعها ويلحظها النظر حتى شغف بها، فلما شعرت بلحظه إياها غته:

رَبِّ رَسُولَيْنَا بَلْغَا رِسَالَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَحَا
الطَّرْفُ لِلطَّرْفِ بِمَشَاهِمَا قَفْصِيَا حَاجَا وَمَا صَرَحَا

قال: فأغمي عليه وكاد يهلك فقالت له: إني والله أحبك قال وأنا والله أحبك. قالت وأحب أن أضع فمي على فمك. قال وأنا والله كذلك قالت فما يمنعك من ذلك؟ قال أخشى أن تكون صداقة ما بيني وبينك عداوة يوم القيامة. لما سمعت قوله تعالى: ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾^(٣)، ثم نهض وعاد إلى طريقته التي كان عليها وأنشأ يقول:

قَدْ كُنْتُ أَعْدُوًّا فِي السَّفَاهَةِ أَهْلَهَا فَاعْجَبْ لِمَا تَأْتِي بِهِ الْأَيَّامُ
فَالْيَوْمَ أَعْلَمُهُمْ وَأَعْلَمُ أَنَّمَا سُبُلُ الضَّلَالَةِ وَالْهَدَى أَنْسَامُ

وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام فأنزله في دار عياله، وأظهر من إكرامه ما يستحقه فغاظ ذلك فاختة بنت قرظة زوج معاوية فسمعت ذات ليلة غناء عبد الله بن جعفر فجاءت إلى معاوية فقالت: هلم فاسمع ما في منزل الذي جعلته من لحملك ودمك وأنزلته بين حرمك، فجاء معاوية فسمع شيئاً حركه وأطربه، فقال: والله إني لأسمع شيئاً تكاد الجبال أن تخرّ له. ثم انصرف فلما كان في آخر الليل وسمع معاوية قراءة عبد الله بن جعفر وهو قائم يصلي فنبه فاختة وقال لها: اسمعي مكان ما أسمعني، هؤلاء قومي ملوك بالنهار، ورهبان بالليل، ثم إن معاوية أرق ذاب ليلة قال لخدمه اذهب فانتظر من عند عبد الله بن جعفر وأخبره أنني قادم عليه، فذهب وأخبره فأقام عبد الله كل من كان عنده فلما جاء معاوية لم ير في المجلس غير عبد الله فقال: مجلس من هذا؟ قال عبد الله هذا مجلس فلان يا أمير المؤمنين. فقال معاوية: مره فليرجع إلى مجلسه حتى لم يبق إلا مجلس رجل واحد، قال مجلس من هذا؟ قال مجلس رجل يداوي الآذان يا أمير المؤمنين. قال إن أذنني عليلة فمره أن يرجع إلى مجلسه، وكان مجلس بديع المغني، فأمره عبد الله بن جعفر فرجع إلى موضعه. فقال له معاوية: داو أذنني من علتها، فتناول العود وغنى وقال^(٤):

(١) بررت: كنت بارأً ووفياً.

(٢) أواز: لظي.

(٣) سورة: الزخرف، الآية: ٦٧.

(٤) المحفوظ في رواية بيت الأعشى: فودع هريرة...

ودّع سعداً فلان الركب مرتحلٌ وهل تطيقُ وداعاً أيها الرجلُ

قال: فحرك عبد الله بن جعفر رأسه. فقال له معاوية: لم حركت رأسك يا ابن جعفر؟ قال: أريحية أجدها يا أمير المؤمنين، لو لقيت لأبليت، ولو سئلت لأعطيت، وكان معاوية قد خضب. قال: فقال ابن جعفر لبديح: هات غير هذا، وكان عند معاوية جارية أعز جواريه عليه، وكانت تتولى خضابه فغنى بديح وقال:

اليسَ عندك شكرٌ للتسي جعلتُ ما ايضُ من قادماتِ الرأسِ كالحمم^(١)
وجددتُ منك ما قد كان أخلقهُ صرفُ الزمانِ وطولُ الدهرِ والقدمِ

فطرب معاوية طرباً شديداً، وجعل يحرك رجله، فقال له ابن جعفر: يا أمير المؤمنين إنك سألتني عن تحريك رأسي فأجبتك وأخبرتكَ، وأنا أسألك عن تحريك رجلك فقال: كل كريم طروب. ثم قام وقال: لا يريح أحد منكم حتى يأتي له إذني، ثم ذهب فبعث إلى ابن جعفر بعشرة آلاف دينار، ومائة ثوب من خاصة كسوته، وإلى كل رجل منهم بألف دينار، وعشرة أثواب.

وحدث ابن الكلبي والهيثم بن عدي قالا: بينما عبد الله بن جعفر في بعض أزقة المدينة إذ سمع غناء فأصغى إليه فإذا صوت رقيق لقينة تغني وتقول:

قُلْ للكرام بيا بنا يلجوا ما في التصابي^(٢) على الفتى حرجُ

فتزل عبد الله عن دابته، ودخل على القوم بلا إذن فلما رأوه قاموا إجلالاً له ورفعوا مجلسه فأقبل عليه صاحب المجلس وقال: يا ابن عم رسول الله ﷺ أتدخل مجلسنا بلا إذن، وليس هذا من شأنك؟ فقال: عبد الله: لم أدخل إلا بإذن. فقال: ومن إذن لك؟ قال: قيتك هذه سمعتها تقول: «قل للكرام بيا بنا يلجوا»، فولجنا فإن كنا كراماً فقد أذن لنا، وإن كنا لثاماً خرجنا مذمومين. فقبل صاحب المنزل يده، وقال: جعلت فداك والله ما أنت إلا من أكرم الناس. فبعث عبد الله إلى جارية من جواريه فحضرت، ودعا بشاب وطيب فكسا القوم، وطيبهم، ووهب الجارية لصاحب المنزل وقال هذه أحلى بالغناء من جاريتك. وسمع سليمان بن عبد الملك مغنياً في عسكره فقال اطلبوه فجاءوا به. فقال: أعد علي ما غنيت به. فغنى واحتفل، وكان سليمان أغير الناس، فقال لأصحابه: كأنها والله جرجرة الفحل في الشوك، وما أظن أني تسمع هذا إلا صبت إليه، ثم أمر به فخصي.

أصل الغناء ومعدنه: قال أبو المنذر هشام: الغناء على ثلاثة أوجه: النصب، والسناد، والهزج، فأما النصب فغناء الفتيان والركبان، وأما السناد فالتقيل الترجيع الكثير النغمات، وأما الهزج فالخفيف كله، وهو الذي يستغز القلوب، ويهيج الحليم. وقيل كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى فاشياً ظاهراً، وهي المدينة والطائف وخيبر، وفدك، ووادي القرى، ودومة الجندل، واليمامة وهذه القرى مجامع أسواق العرب. ويقال إن أول من صنع العود، لأمك بن قايين بن آدم ويكي به على ولده. ويقال إن صانعه بطليموس صاحب الموسيقى، وهو كتاب اللحن الثمانية والله سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة ذلك، وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الحمم: أي جعلته أسود.

(٢) التصابي: العبث كالصبيان.

الباب التاسع والستون: في ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم ونوادر الجلساء في مجالس الرؤساء

قيل إن أول من غنى في العرب قيتان للنعمان يقال لهما الجرادتان ومن غنائهما:

ألا يا قين ويحك قم فهينم^(١) لعل الله يسقينا غماما

وإنما غتا هذا حين حبس الله عنهم المطر. وقيل: أول من غنى في الإسلام الغناء الرقيق طويس وهو الذي علم ابن سريج والدلال نوبة الضحى، وكان يكنى أبا عبد النعيم، ومن غنائه وهو أول صوت غنى به في الإسلام هذا البيت:

قد براني الشوق حتى كدت من وجدي أذوب

ثم نجم بعد طويس، ابن طنبور، وأصله من اليمن وكان أخرج الناس وأخفقهم غناء ومن غنائه:

وقيان على شرب جميعاً دلفت لهم ياطية^(٢) هدور
فلا تشرب بلا طرب فلاني رأيت الخيل تشرب بالصفير

ومنهم حكم الوادي ومن غنائه:

إمدح الكأس ومن أعملها وأهج قوماً قتلونا بالعطش
إنما الراح^(٣) ريع باكر فإذا ما أفت المرة انتكش

وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين، منهم إبراهيم الموصلي، وابن جامع السهمي وغيرهما، وكان له زامر يقال له برصوماً، وكان إبراهيم أشدهم تصرفاً في الغناء، وابن جامع أحلامهم نغمة، فقال الرشيد يوماً لبرصوما: ما تقول في ابن جامع؟ قال: يا أمير المؤمنين، وما أقول في العسل الذي من جيشا ذقته فهو طيب. قال: فأبراهيم الموصلي؟ قال: بستان فيه جميع الأزهار والرياحين. وكان ابن محرز يغني كل إنسان بما يشتهي كأنه خلق من قلب كل إنسان. وغنى رجل بحضرة الرشيد بهذه الأبيات:

وأذكر أيام الحمى ثم أنشي على كبدي من خشية أن تصدعا^(٤)

(١) فهينم: ترنم.

(٢) ياطية: إناء زجاجي.

(٣) الراح: من أسماء الخمر.

(٤) تصدع: يتطر، وهذه الأبيات من حماسة ابن الصمة القشيري.

فليست عشيائ الحمى برواجع
عليك ولكن خلّ عينيك تدمعاً
بكتّ عيني اليسرى فلما نهيتها
عن الجهل بعد الحلم أسبكتها

قال: فاستخف الرشيد الطرب فأمر له بمائة ألف درهم. وحدث ابن الكلبي عن أبيه قال: كان ابن عائشة من أحسن الناس غناءً، وأنبيهم فيه وكان من أضيّق الناس خلقاً، إذا قيل له غَنَّ قال: لمثلي يقال غَنَّ؟ عليّ عتق رقبة إن غنيت يومي هذا! فلما كان في بعض الأيام سال وادي العقيق فلم يبق في المدينة مخبأة ولا مخدّرة، ولا شاب، ولا كهل، إلا خرج يبصره وكان فيمن خرج ابن عائشة المغني وهو معتجراً^(١) بفضل ردائه. فنظر إليه الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم وكان الحسن فيمن خرج إلى العقيق وبين يديه عبدان أسودان كأنهما ساريتان يمشيان أمام دابته فقال لهما: أقسم بالله إن لم تفعلما ما أمركما به لأنكُن بكما. فقالا: يا مولانا قل ما تأمرنا به فلو أمرتنا أن نقتحم النار فعلنا. قال اذهبا إلى ذلك الرجل المعتجّر بفضل ردائه فأسكاه، فإن لم يفعل ما أمره به وإلا فأخذنا به في العقيق. قال فمضيا والحسن يقفوهما^(٢)، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما أخذان بمنكبيه. فقال من هذا؟ فقال له الحسن: أنا هذا يا ابن عائشة. فقال: ليك وسعديك، بأبي أنت وأمي. قال: اسمع مني ما أقول لك، واعلم أنك مأسور في أيديهما، وقد أقسمت إن لم تُفْعَلْ مائة صوتٍ ليطرحاك في العقيق. قال: فصاح ابن عائشة واولاده، وأعظم مصيبتاه. فقال له الحسن: دعنا من صياحك وخذ فيما يفتعنا. قال: اقترح، وأقم من يحصي، ثم أقبل يغني فترك الناس العقيق وأقبلوا عليه فلما تمت أصواته مائة كبر الناس بلسان واحد تكبيرة ارتجت لها أقطار الأرض وقال للحسن صلى الله على جدك حياً وميتاً فما اجتمع لأحد من أهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت. فقال له الحسن: ما فعلت هذا بك يا ابن عائشة إلا لأخلاقك الشرسة. فقال ابن عائشة والله ما مرت بي شدة أعظم من هذه، لقد بلغت أطراف أعضائي، فكان ابن عائشة بعد ذلك إذا قيل له ما أشدّ يوم مرّ عليك يقول يوم العقيق.

وحدث أبو جعفر البغدادي قال: حدثني عبد الله بن محمد كاتب بغداد عن أبي عكرمة قال: خرجت يوماً إلى المسجد الجامع فمررت بباب أبي عيسى بن المتوكل فإذا على باب المشدود، وهو أحلق خلق الله تعالى بالغناء. فقال: أين تريد يا أبا عكرمة؟ قلت: المسجد الجامع لعلني أستفيد حكمة أكتبها. فقال: ادخل بنا إلى أبي عيسى. قلت: أمثل أبي عيسى في قدره وجلاله يدخل عليه بلا إذن؟ فقال للحاجب: اعلم أمير المؤمنين بمكان أبي عكرمة، فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان إليّ، فحملوني حملاً فدخلت إلى دار ما رأيت أحسن منها بناء، ولا أطرف منها هيئة، فلما نظرت إلى أبي عيسى قال لي: ما يعيش من يحتشم، اجلس. فجلست. فأتينا بطعام كثير فلما اتقضى أتينا بشراب. وقامت جارية تسقىنا شراباً كالشعاع في زجاجة كأنها كوكب دري. فقلت: أصلح الله الأمير وأتم عليه نعمه، ولا سلبه ما وهبه. قال: فدعا أبو عيسى بالمغنين. وهم المشدود، ودييس، ورقيق؛ ولم يكن في ذلك الزمان أحلق من هؤلاء الثلاثة بالغناء. فابتدأ المشدود وغنى يقول:

لما استقلّ، بأردافٍ تجاذبُهُ
واخضرَ فوقَ يَاضي الدُرِّ شارِبُهُ
واشرقَ الوردُ من نسرينٍ وجتِهِ
وامتَرَّ أعلاه وارتجَّتْ حقائبُهُ

(١) معتجراً: يلفه على رأسه.

(٢) يقفوهما: يتبعهما.

كَلَّمْتُهُ بِجَفْوَةٍ غَيْرِ نَاطِقَةٍ ثُمَّ سَكَتَ وَغَنَى دَيْبِيسَ:

وَصَاحِبُ الْحُبِّ صَبُّ الْقَلْبِ ذَائِبُهُ الْحُبُّ حَلَوُ أَمْرَتِهِ عَوَاقِبُهُ
يَوْمَ الْفِرَاقِ وَدَمْعُ الْعَيْنِ سَاكِبُهُ أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ مَنْ بِالطَّرْفِ وَدَّعْنِي
رَافِقُ قَلْبِكَ قَدْ عَزَزْتُ مَطَالِبُهُ ثُمَّ انصرفتُ وداعي الشوقِ يَهْتَفُ بِي
ثُمَّ سَكَتَ وَغَنَى رَفِيقِي:

قَدْ لَاحَ عَارِضُهُ وَاخْضَرَّ شَارِبُهُ بَدَرٌ مِنَ الْأَنْسِ حَقَّتْهُ كَوَاكِبُهُ
أَوْ يَنْطِقُ الْقَوْلَ يَوْمًا فَهُوَ كَاذِبُهُ إِنْ يُوْعِدُ الْوَعْدَ يَوْمًا فَهُوَ مُخْلَفُهُ
فَقَامَ يَشْدُو وَقَدْ مَالَتْ جَوَابُهُ عَاطِيَتُهُ كَدَمَ الْأَوْدَاجِ صَافِيَتُهُ
ثُمَّ سَكَتَ وَابْتَدَأَ الْمَشْدُودُ يَقُولُ:

يَا دَيْرَ حَنَّةَ مِنْ ذَاتِ الْأَكْبِرَاحِ^(١) مِنْ يَصْحُ عَنْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِالصَّاحِي
ثُمَّ سَكَتَ وَغَنَى دَيْبِيسَ:

وَأَعْدِلْ هَدَيْتَ إِلَى شَيْخِ الْأَكْبِرَاحِ دَعِ الْبَاتِيْنَ مِنْ أَسْ وَتَفْجَاحِ
مِنْ الْعِبَادَةِ إِلَّا نَفْصُ^(٢) أَشْبَاحِ وَأَعْدِلْ إِلَى فِتْيَةٍ ذَابَتْ لِحْوَمُهُمْ
كَأَنَّهَا دَمْعَةٌ فِي جَفْنِي سَبَاحِ وَخَمْرَةٌ عُمَّتْ فِي دَنِّهَا حَبَابِ
ثُمَّ سَكَتَ وَغَنَى رَفِيقِي:

وَأَشْرَبَ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ مَشْمُولَةِ الرَّاحِ لَا تَحْفَلْنَ بِقَوْلِ اللَّاحِمِ اللَّاحِي^(٣)
أَغْنَاهُ لِلْأَوْهَامِ عَنْ كُلِّ مَصْبَاحِ كَأَسَا إِذَا اتَّحَدَرَتْ فِي حَلْقِي شَارِبَهَا
وَاللَّيْلُ مُلْتَحِفٌ فِي ثَوْبِ أَسْبَاحِ مَا زِلْتُ أَسْقِي نَدِيمِي ثُمَّ أَلْتُمُّهُ
يَا دَيْرَ حَنَّةَ مِنْ ذَاتِ الْأَكْبِرَاحِ فَقَامَ يَشْدُو وَقَدْ مَالَتْ مَوَالِفُهُ

ثُمَّ أَقْبَلَ أَبُو عَيْسَى عَلَى الْمَشْدُودِ وَقَالَ لَهُ: عَنِّي لِي شِعْرِي فَغَنَاهُ:

يَا لَجَّةَ الدَّمْعِ هَلْ لِلْمَغْضِيِّ مَرْجُوعُ أَمْ الْكُرَى مِنْ جَفْوَةِ الْعَيْنِ مَمْنُوعُ
مَا حِيلَتِي وَفَوَادِي هَائِمٌ دَنِفُ بِعَقْرِ الصَّدْعِ مِنْ مَوْلَايَ مَلْسُوعُ
لَا وَالَّذِي تَلَفْتُ نَفْسِي بِفِرْقَتِهِ فَالْقَلْبُ مِنْ فِرْقِ الْأَحْزَانِ مَصْدُوعُ
مَا أَرَقُّ الْعَيْنَ إِلَّا حَبُّ مَبْتَدِعِ ثَوْبُ الْجَمَالِ عَلَى خَلْدِيهِ مَخْلُوعُ

قال أبو عكرمة: فوالله لقد حضرت من المجالس ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، فما حضرت مثل ذلك

(١) الأكبراح: موضع للرعية.

(٢) نفص: ضعيف.

(٣) اللاحي: العاذل.

المجلس، ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا. وحكي عن الرشيد أنه قال يوماً للفضل بن الربيع: مَنْ بالباب من الندماء؟ قال: جماعة فيهم هاشم بن سليمان مولى بني أمية، وأمير المؤمنين يشتهي سماعه. قال: فأذن له وحده فدخل فقال: هات يا هاشم: فغناه من شعر جميل حيث يقول:

إذا ما تراجفنا الذي كان يبتلى
فيا ونح نفسي حَسْبُ نفسي الذي بها
جَرَى الدمع من عيني بئنة بالكحل
ويا ويح أهلي ما أصبتُ به أهلي
خليلي فيما عشتما هل رأيتما
قتيلاً بكى من حبِّ قاتلِهِ قبلي

قال: فطرب الرشيد طرباً شديداً: وقال: أحسنت لله أبوك، ثم قلده عقداً نفيساً، فلما رآه هاشم تفرقت عيناه بالدموع، فقال له الرشيد: ما يبكيك يا هاشم؟ فقال: يا أمير المؤمنين إن لهذا العقد حديثاً عجيباً إن أذن لي أمير المؤمنين حدثته به. قال قد أذنت لك، قال: يا أمير المؤمنين، قدمت يوماً على الوليد وهو على بحيرة طبرية ومعه قيتان لم ير مثلهما جمالاً وحسناً، فلما وقعت عينه عليّ، قال: هذا أعرابي قد ظهر من البوادي، ادعوه به لنسخر به. فدعاني فسرت إليه ولم يعرفني فغنت إحدى الجاريتين بصوت هو لي فأخطأته الجارية، فقلت لها: أخطأت يا جارية، فضحكت ثم قالت: يا أمير المؤمنين ألم تسمع ما يقول هذا الأعرابي؟ يعيب علينا غناءنا. فنظر إليّ كالمنكر. فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أبين لك الخطأ فلنصلح وتر كذا، ووتر كذا ففعلت وغنت شيئاً ما سمع منها إلا في هذا اليوم. فقامت الجارية مكبة عليّ وقالت: أستاذي هاشم ورب الكعبة. فقال الوليد: أهاشم بن سليمان أنت؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. وكشفت عن وجهي وأقمت معه بقية يومنا فأمر لي بثلاثين ألف درهم. فقالت الجارية: يا أمير المؤمنين أتأذن لي في برّ أستاذي؟ فقال الوليد: ذلك إليك، فخلت يا أمير المؤمنين هذا العقد من عنقها ووضعت في عنقي وقالت: هو لك. ثم قربوا إليه السفينة ليرجع إلى موضعه، فركب في السفينة وطلعت معه إحدى الجاريتين واتبعتها صاحبتني فأرادت أن ترفع رجلها وتطلع السفينة فسقطت في الماء ففرقت لوقتها وطلبت فلم يقدر عليها. فاشتدّ جزع الوليد عليها وبكى بكاء شديداً وبكى أنا عليها أيضاً بكاء شديداً. فقال لي: يا هاشم ما نرجع عليك بما وهبناه لك ولكن نحب أن يكون هذا العقد عندنا نذكرها به، فبعتني إياه فعوضني عنه ثلاثين ألف درهم. فلما وهبتي العقد يا أمير المؤمنين تذكرت فضيته وهذا سبب بكائي. فقال الرشيد: لا تعجب، فإن الله كما ورثنا مكانهم ورثنا أموالهم. وقال عليّ بن سليمان النوفلي: غنى دحمان الأشقر عند الرشيد يوماً فأنشده:

إذا نحن أدلجنا وأنت أماننا
ذكرتُك بالديرين يوماً فأشرفْت
كفى لمطايانا برؤياك هاديا
بناتُ الهوى حتى بلغنا التراقيا
إذا ما طواك الدهرُ يا أم مالك
فشأنُ المنايا القاضيات وشانها

قال: فطرب الرشيد طرباً شديداً واستعاده منه مرات، ثم قال له: تمنّ عليّ، قال: أتمني الهنيء والمريء، وهما ضيعتان غلتهما أربعون ألف دينار في كل سنة، فأمر له بهما، فقيل له: يا أمير المؤمنين إن هاتين الضيعتين من جلالتهما يجب أن لا يسمح بمثلهما، فقال الرشيد: لا سبيل إلى استرداد ما أعطيت، ولكن احتالوا في شرائهما منه فسأموه فيهما حتى وقفوا معه على مائة ألف دينار فرضي بذلك. فقال الرشيد: ادفعوها له، فقالوا: يا أمير المؤمنين في إخراج مائة ألف دينار من بيت المال طعن، ولكن نقطعها له. فكان يوصل بخمسة آلاف وثلاثة آلاف حتى استوفاهما.

ومن ذلك ما حكى إسحاق الموصلي قال: كان الواثق بن المعتصم أعلم الناس بالغناء، وكان يضع الألحان العجيبة ويغني بها شعره وشعر غيره، فقال له يوماً يا أبا محمد لقد قتت أهل العصر في كل شيء ففتني شعراً أرتاح إليه، وأطرب عليه يومي هذا. قال إسحاق فغنيته هذه الأبيات:

ما كنتُ أعلمُ ما في اليَينِ من حُرْقٍ حتى تنادوا بأنْ قد جيء بالسفري
قامتْ تودّعني والدمع يغلبها فهممّتْ بعضَ ما قالت ولم تبني
مألت إليّ وضمتني لترشفتني كما يميلُ نسيمُ الريحِ بالفصني
وأعرضتْ ثم قالت وهي باكيةٌ يا ليتَ معرفتي إياك لم تكني

قال: فخلع علي خلعة كانت عليه، وأمر لي بمائة ألف درهم. قال وغنيته يوماً:

قسي ودّعينا يا سعادَ بنظرةٍ فقد حان منا يا سعادَ رجيلُ
فيا جنة الدنيا ويا غاية المنى ويا سؤلَ نفسي هل إليك سبيلُ
وكنْتُ إذا ما جئتُ جئتُ لعلوٍ فأنيئتُ عِلّاتي فكيف أقولُ
فما كلُّ يومٍ لي بأرضك حاجةٌ ولا كلُّ يومٍ لي إليك وصولُ

فقال: والله لا سمعت يومي غيره، وألقى علي خلعة من ثيابه وأمر لي بصلّة ما أمر لي قبلها بمثلها.

ومن حكايات الخلفاء، ومكارم أخلاقهم ما حكى عن إبراهيم بن المهدي قال: قال جعفر بن يحيى يوماً لبعض ندماؤه: إني قد استأذنت أمير المؤمنين في الخلوة غداً فهل من مساعد؟ فقلت: جعلت فداك أنا أسعد بمساعدتك، وأسرّ بمشاهدتك، فقال: بكر بكور الغراب. قال: فأتيته عند الفجر فوجدت الشموع قد أوقدت بين يديه وهو ينتظرني في الميعاد، فما زلنا في أطيب عيش إلى وقت الضحى، فقدمت إلينا موائد الأطعمة عليها من أفخر الطعام وأطيه فأكلنا وغسلنا أيدينا ثم خلعت علينا ثياب المنادمة، وضمخنا بالخلوق وانتقلنا إلى مجلس الطرب ومدّت السائر وغنت القينات فظللنا بأنعم يوم. ثم إنه داخلة الطرب فدعا بالحاجب وقال له: إذا أتى أحد يطلبنا فأذن له، ولو كان عبد الملك بن صالح بنفسه فاتفق الأمر المقدر أن عمّ الرشيد عبد الملك بن صالح قدم علينا في ذلك الوقت، وكان صاحب جلالة وهبة ورفعة وعنده من الورع والزهد والعبادة ما لا مزيد عليه، وكان الرشيد إذا جلس مجلس لهو لا يطلعه على ذلك لشدة ورعه، فلما قدم دخل به الحاجب علينا، فلما رأيناه رمينا ما في أيدينا وقمنا إجلالاً له تقبل يده وقد أرتعنا لذلك وخجلنا، وزاد بنا الحياء، فقال: لا بأس عليكم كونوا على ما أنتم عليه. ثم صاح بغلام: فدفع له ثيابه، ثم أقبل علينا وقال: اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم. قال: فما كان بأسرع من أن طرحت عليه ثياب خزّ معلم وقدمت له موائد الطعام والشراب فطعم وشرب الشراب لساعته، ثم قال: خففوا عني فإنه شيء والله ما فعلت قط.

قال: فتהלل وجه جعفر ثم التفت إلى عبد الملك فقال له: جعلت فداك قد علوت علينا وتفضلت، فهل من حاجة تبلغها مقدرتي وتحيط بها نعمتي فأقضيها لك مكافأة لك على ما صنعت؟ قال: بل إن في قلب أمير المؤمنين بعض تغرير عليّ فنسأله الرضا عني. فقال جعفر قد رضي عنك أمير المؤمنين. قال وعليّ عشرة آلاف دينار، فقال جعفر هي حاضرة لك من مالي، ولك من مال أمير المؤمنين. مثلها. قال: وأريد أن أشدّ ظهر ابن إبراهيم بمصاهرة من أمير المؤمنين. قال: قد زوجه أمير المؤمنين بابته الغالية، قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه، قال: وقد

ولاه أمير المؤمنين مصر. فأنصرف عبد الملك بن صالح، وبقيت متعجباً من إقدام جعفر على ذلك من غير استئذان وقلت: عسى أن يجيبه أمير المؤمنين إلى سألته من الولاية والمال والرضا عنه، إلا المصاهرة. قال: فلما كان من الغد بكرت إلى باب الرشيد لأنظر ما يكون من أمرهم، فدخل جعفر فلم يلبث أن دعي بأبي يوسف القاضي، ثم إبراهيم بن عبد الملك بن صالح، فخرج إبراهيم وقد عقد نكاحه بالغالية بنت الرشيد، وعقد له على مصر، والرايات والألوية تخفق على رأسه، وخرج كل من في القصر معه إلى بيت عبد الملك بن صالح. قال: ثم بعد ذلك خرج إلينا جعفر وقال: أظن أن قلوبكم تعلقت بحديث عبد الملك بن صالح، وأحببتم سماع ذلك. قلنا: هو كما ظننت. قال: لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه قال: كيف كان يومك يا جعفر بالأمس، فقصصت عليه القصة حتى بلغت إلى دخول عبد الملك بن صالح، فكان منكأً فاستوى جالساً وقال: لله أبوك ما سألك؟ قلت: سألتني رضاك عنه يا أمير المؤمنين. قال: بم أجبت؟ قلت: قد رضي عنك أمير المؤمنين. قال: قد رضيت عنه، ثم ماذا، قلت: وذكر أن عليه عشرة آلاف دينار. قال: فبم أجبت؟ قلت: قد قضاها عنك أمير المؤمنين. قال: وقد قضيتها. ثم ماذا؟ قلت: ورغب أن يشد أمير المؤمنين ظهر ولده إبراهيم بمصاهرة منه. قال: فبم أجبت؟ قلت: قد زوجه أمير المؤمنين بابته الغالية. قال: قد أجبت إلى ذلك. ثم ماذا؟ قلت؟ قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه. قال: فبم أجبت؟ قلت: قد ولاه أمير المؤمنين مصر. قال: قد وليته إياها ثم نجز^(١) له جميع ذلك من ساعته. قال إبراهيم بن المهدي فوالله ما أدري أي الثلاثة أكرم، وأعجب فعلاً؟ ما ابتدأه عبد الملك بن صالح من المنادمة ولم يكن فعل ذلك قط، أم إقدام جعفر على الرشيد، أم إمضاء الرشيد جميع ما حكم به جعفر؟ فهكنا تكون مكارم الأخلاق.

وحكى أبو العباس عن عمر الرازي قال: أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير في جمد^(٢) من الأرض فسمعت غناء لم أسمع مثله فقلت: والله لأتوصلن إليه فإذا هو عبد أسود. فقلت له: أعد علي ما سمعت. فقال: والله لو كان عندي قرى أفريكه لفعلت، ولكني أجعله قراك فإني والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فأشبع، وربما غنيت وأنا كسلان فأنشط، أو عطشان فأروى، ثم اندفع يغني ويقول:

وكنْتُ إذا ما جئتُ سمدى أزورها أرى الأرضَ تطوي لي ويدنو بعيدُها

من الخفراتِ البيضِ ودَّ جليئِها إذا ما انقضَّتْ أحدىةٌ لو تعيئِها

قال عمر: فحفظته منه ثم تغنيت به على الحالات التي وصفها لي فإذا هي كما ذكر، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) نجز: قم ونفذ.

(٢) جمد: أرض صلبة.

الباب السبعون: في ذكر القينات والأغاني

حكى علي بن الجهم قال: لما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين المتوكل أهدى إليه عبد الله بن طاهر بن خراسان جارية يقال لها محبوبة كانت قد نشأت بالطائف فبرعت في الجمال والأدب، وأجادت قول الشعر وحذاقة الغناء، فشغف بها أمير المؤمنين المتوكل حتى كانت لا تفارق مجلسه ساعة واحدة. ثم إنه حصل منه عليها بعد ذلك جفاء فهجرتها. قال علي بن الجهم: بينما أنا نائم عنده ذات ليلة إذ أيقظني فقال: يا علي. قلت: ليك يا أمير المؤمنين. قال: قد رأيت الليلة في منامي كأنني رضيت على محبوبة وصالحتها. فقلت: خيراً رأيت يا أمير المؤمنين فقرأ الله عليك، إنما هي جاريتك والرضا والجفاء بيدك، فوالله أنا لفي حديثها إذا جاءت وضيقة فقالت: يا أمير المؤمنين، سمعت صوت عود من حجرة محبوبة، فقال: قم بنا يا علي ننظر ما تصنع، فنهضنا حتى أتينا حجرتها فإذا هي تضرب بالعود وتقول:

أدورُ في القصرِ لا أرى أحداً	أشكُو إليه ولا يكلمُنني
كأنني قد أتيتُ معصيةً	ليس لها توبةٌ تخلصُنني
فهل شفيعٌ لنا إلى ملكٍ	قد زارني في الكرى وصالحني
حتى إذا ما الصباخُ لاح لنا	عادَ إلى هجرِهِ وصارَ مِنِّي

قال: فصاح أمير المؤمنين فلما سمعته تعلقته وأكبت على رجليه تقبلهما فقال: ما هذا؟ قالت: يا مولاي رأيت في منامي هذه الليلة كأنك قد رضيت عني، فأنشدت ماسمعت. قال: وأنا والله رأيت مثل ذلك. ثم قال: يا علي هل رأيت أصعب من هذا الاتفاق، ثم أخذ بيدها ومضى إلى حجرتها وكان من أمرهما ما كان. قيل: وكان أمير المؤمنين لوائق إذا شرب رقد في موضعه الذي شرب فيه، ومن كان معه من ندمائه شرب ورقده، ولم يخرج. فشرب يوماً وخرج من كان عنده إلا مغنياً واحداً أظهر التراقذ فترك وكانت مغنية من حظايا الخليفة نائمة، فلما خلا المجلس كتب المغني رقعة ورمى بها إليها فإذا فيها:

إنني رأيتك في المنام ضجيجتي	مسترشفاً من ريتو فيك البارد
وكأنك كُفك في يدي وكأننا	بتنا جميعاً في لحافٍ واحد
ثم اتبهنَّ ومنكبَّاك كلاهما	في راحتي وتحت خلك ساعدي
فقطعتُ يومي كله متراقداً	لأراك في نومي ولستُ براقداً

فكتبت إليه على ظهرها تقول:

خيراً رأيت وكل ما أملكه	ستأله مني برغم الحاسد
-------------------------	-----------------------

وتيتُّ بين خلاخلي ودمالجي^(١) وتحلَّ بين مراشفي ونواهي
ونكونُ أنعمَ عاشقين تعاطيا ملحَ الحديثِ بلا مخافةٍ راصدٍ^(٢)

فلما مدت يدها لترمي إليه بالرقعة، رفع الوائق رأسه فأخذها من يدها وقال ما هذا فحلها له أنه لم يجز بينهما قبل ذلك كلام، ولا كتاب، ولا رسول. إلا أن العشق قد خامرها قال فأعنتها من وقتها وزوجها به، وقال خذها ولا تقرنا بعد اليوم. وكان لأسماء بنت المهدي جارية يقال لها كاعب وكانت بكرأ ناهداً بنت ثلاث عشرة سنة قال فتلاعب عليها أبو نواس فتمنعت فوقع في قلبه منها ما وقع، وأحبته هي أيضاً، فجعل أبو نواس كلما أسكها تمنعت، فظفر بها ليلة من الليالي في ناحية من القصر فأسكها فبكت. وقالت له يا سيدي الموت دون ذلك. فقال أبو نواس هذا جزع الأبكار فاتفق أنه خرج يوماً من القصر وقد تفرق الدجا فوجدها نائمة في سدة وهي سكرى لا تفيق، فتقرَّب منها وحلَّ سراويلها ووقع عليها فإذا هي خالية من البكارة فارتاع وظن أن يكون أتاها دم فلم يجد فقام عنها وندم على ما كان منه وأنشد يقول:

وناهلُ الشدين من خدمِ القصرِ مفرقةُ الخدين ليبةَ الشعرِ
كلفْتُ بها دهرأ على حُسنِ وجهها طويلاً وما حبُّ الكواعب من أمري
فما زلتُ بالأشعارِ حتى خدَعْتُها ورؤُفْتُها والشعرُ من خِدَعِ السحرِ
أطالُها شيئاً فقالت بعبرةِ أموتُ ولا هذا ودمعُها تجري
فلما تعارفنا توسَّطت لجة غرقْتُ بها يا قومُ في لججِ البحرِ
فصَحْتُ أغشي يا غلامُ فجاءني وقف زلَّتُ رجلي وصرْتُ إلى الصدرِ
ولولا صباحي بالغلامِ وأنه تدارَكُنِي بالجلِ صرْتُ إلى القعرِ
فأَسَمْتُ عمري لا ركبَتُ سفينةً ولا سرْتُ طولَ الدهرِ إلا على ظهرِ^(٣)

ومن ذلك ما حدَّث الشيباني قال: كان عند رجل بالعراق قينة، وكان أبو نواس يختلف إليها وكانت تظهر له أنها لا تحب غيره وكان كلما دخل إليها وجد عندها شاباً يجالسها ويحادثها فقال فيها هذه الأيات:

ومظهرة لخلق الله ودأ وتلقي بالتحية والسلام
أنيتُ لبائها أشكو إليها فلم أخلص إليه من الزحام
فيا من ليس يكفيها خليلُ ولا ألفاً خليل كل عام
أراك بقيةً من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

وقال أبو سويد: حدَّثني أبو زيد الأسدي قال دخلت على سليمان بن عبد الملك وهو جالس في إيوان مبطل بالرخام الأحمر، مفروش بالديباج الأخضر، وفي وسط بستان ملفف قد أثمر وأينع، وعلى رأسه وصائف كل واحدة منهن أحسن من صاحبها. وقد غابت الشمس وغنت الأطيار فتجاوت وصفقت الرياح على الأشجار فتمايلت، فقلت

(١) دمالجي: مفردا دملج: إسوار.

(٢) راصد: مراقب.

(٣) ظهر: يعرض بأنه يفضل اللواط على الجماع المألوف.

السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته وكان مطرقاً نرفع رأسه وقال: أبا زيد في مثل هذا الحين تصاحبنا؟ فقلت أصلح الله الأمير أو قامت القيامة؟ قال: نعم على أهل المحبة، ثم أطرق ملياً ورفع رأسه، وقال: أبا زيد ما يطيب في يومنا هذا؟ قلت: أصلح الله الأمير قهوة حمراء^(١)، في زجاجة بيضاء تناولها غادة هيفاء مضمومة^(٢) لقاء، أشربها من كفها وأمسح فمي بخذها، فأطرق سليمان ملياً لا يرد جواباً وتنحدر من عينيه عبرات بلا شهيق. فلما رأت الوصائف ذلك تنحين عنه، ثم رفع رأسه فقال: أبا زيد حضرت في يوم فيه انقضاء أجلك، ومتتهى مدتك، وتصرم عرك والله لأخبرن عنك أو لتخبرني ما أثار هذه الصفة من قلبك. قلت: نعم أصلح الله الأمير؛ كنت جالساً عند دار أخيك سعيد بن عبد الملك، فإذا أنا بجارية قد خرجت من باب القصر كأنها غزال انفلت من شبكة صياد عليها قميص سكب لسكندراني يبين منه بياض بدننها وتدوير سرتها، ونقش تكتها وفي رجلها نعلان صراران قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعلها، بذؤابتين تضربان إلى حقويها لها صدغان كأنهما نونان، وحاجبان قد قوساً على محاجر عينيها، وعينان مملوءتان سحراً، وأنف كأنه قصبة بلور، وفم كأنه جرح يقطرها دماً، وهي تقول: عباد الله من لي بدواء ما لا يشتكي، وعلاج ما لا يسمي، طال الحجاب، وأبطأ الجواب، والقلب طائر، والعقل عازب، والنفس والهة، والفؤاد مختلس والنوم محتبس رحمة الله على قوم عاشوا تجلداً، وماتوا كمداً لو كان إلى الصبر حيلة، أو إلى ترك الغرام سبيل لكان أمراً جميلاً. ثم أطرقت طويلاً ورفعت رأسها فقلت لها: أيتها الجارية إنسية أنت أم جنية، سماوية أنت أم أرضية: فقد أعجبني ذكاء عقلك وأذهلني حسن منطقك فسترت وجهها بكفها كأنها لم ترتني ثم قالت: أهدر أيها المتكلم فما أوحش الساعد بلا مساعد. والمقاساة لصب معاند. ثم انصرفت، فوالله ما أكلت طعاماً طيباً إلا غصصت به لذكرها، ولا رأيت حسناً إلا سمج^(٣) في عيني لحسناها. فقال سليمان: أبا زيد كان الجهل يستغزني والصبا يعاودني، والحلم يعزب عني لشجوما سمعت، اعلم يا أبا زيد أن تلك التي رأيتها هي الذلفاء التي قيل فيها:

إنما الذلفاء ياقوتةٌ أخرجت من كبر دهقان^(٤)

شراؤها على أخي ألف ألف درهم، وهي عاشقة لمن باعها، والله إن مات ما يموت إلا بحبها، ولا يدخل القبر إلا بغصتها، وفي الصبر سلوة، وفي توقيع الموت نهبة، قم أبا زيد في دعة الله تعالى. ثم قال: يا غلام نفله بيدرة فأخذتها وانصرفت. قال: فلما أفضت الخلافة إليه صارت الذلفاء إليه، فأمر بفسطاط فأخرج على دهناء الغوطة، وضرب في روضة خضراء مونة زهراء ذات حدائق بهجة تحتها أنواع الزهر ما بين أصفر فاقع، وأحمر ساطع، وأبيض ناصع، وكان لسليمان مغنٍ يقال له سنان به يأنس، وإليه يسكن، فأمر أن يضرب فسطاطه بالقرب منه، وكانت الذلفاء قد خرجت مع سليمان إلى ذلك المتزه فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان في أكمل سرور، وأتم حبور إلى أن انصرف من الليل إلى فسطاطه فتزل به جماعة من إخوانه فقالوا له: نريد قرى أصلحك الله، قال: وما قراكم؟ قالوا: أكل، وشرب، وسماع. قال: أما الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتم شدة أمير المؤمنين ونهيه عنه إلا ما كان في مجلسه، قالوا: لا حاجة لنا بطعامك وشربك إن لم تسمعنا. قال، فاختاروا صوتاً، واحداً

(١) قهوة حمراء: الخمر.

(٢) مضمومة: مثنتة، عيلة.

(٣) سمج: قبح وغلظ.

(٤) دهقان: التاجر.

أغنيكموه. قالوا: غننا صوت كذا. فرفع صوته يغني بهذه الآيات:

محبوبة سمعت صوتي فأزفها من آخر الليل لما نبه المحر
في ليلة البدر ما يدري مضاجعها أوجهها عنده أبهى أم القمر
لم يحجب الصوت أحراس ولا غلق فدعها لطروق الصوت منحدر
لو مكنت لمشت نحوي على قدم تكاد من لينها في المشي تنفطر

قال: فسمعت الذلفاء صوت سنان، فخرجت إلى صحن القسطاط تسمع، فجعلت لا تسمع شيئاً من حسن خلق، ولطافة قد، إلا رأت ذلك كله في نفسها وهبتها، فحرك ذلك ساكناً من قلبها فحملت عيناها وعلا نحيها، فأنبه سليمان فلم يجدها معه فخرج إلى صحن القسطاط فرأها على تلك الحالة فقال: ما هذا يا ذلفاء؟ فقالت:

ألا رب صوت رائع من مشو فيح المحيا واضع الأب والجدي
بروعك منه صوته ولعله إلى أمو يعزى معاً وإلى عبد

فقال سليمان: دعيني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر، ثم قال: يا غلام علي بسان. فدعت الذلفاء خادماً لها فقالت له: إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان فحذرتك لك عشرة آلاف درهم وأنت حر لوجه الله تعالى، فخرج الرسولان فسبق رسول أمير المؤمنين سليمان، فلما أتى به قال يا سنان: ألم أنكه عن مثل هذا، قال: يا أمير المؤمنين حملني على ذلك حلمك، وأنا عبد أمير المؤمنين، وغرس نعمته فإن رأى أمير المؤمنين أن يعفو عن عبده فليفعل. قال: قد عفوت عنك ولكن أما علمت أن الفرس إذا سهل، دقت له الحجرة، وأن الفحل إذا هدر ضبعت له الناقة، وأن الرجل إذا تغنى أصغت له المرأة، إياك إياك والعود إلى ما كان منك فيطول غمك.

وحكي أن الرشيد فصد يوماً فأرسلت إليه بعض حظايه قدحاً فيه شراب مع وصيفة لها جميلة الوجه حسنة الطلعة بديمة المحيا، وغطته بمنديل مكتوب عليه هذه الآيات:

فصدت عرقاً تبتغي صحة ألبسك الله به العاقبة
فاثرب بهذا الكأس يا سيدي وانأ بها من كف ذي الجارية
واجعل لمن أنفذه خلوة تحظى بها في الليلة الآتية

قال: فنظر الرشيد إلى الوصيفة التي جاءت بالقدر فاستحسنها فافتضاها، ثم أرسلها فعملت مولاتها بذلك فكتبت إليه رقعة تقول فيها هذا الآيات:

بعثت الرسول فأبطأ قليلاً على الرغم مني فصبراً جميلاً
وكنت الخليل، وكان الرسولوا فصرت الرسول وصار الخيلاً
كذا من يوجّه في حاجو إلى من يحب رسولاً جميلاً؟

قال: فاستحسن الرشيد ذلك منها وأرسل إليها: أنا عندك الليلة. وأهدى داود بن روح المهلي إلى المهدي جارية فحظيت عنده فواعدته المبيت عنده ليلة فمتمها الحيض فكتب إليها يقول:

لأهجرن حياً خان موعده وكان منه لصفو العيش تكدير

فأرسلت إليه تجيبه:

لا تهجرن حبيباً خاف موعده
ما كان حبي إلا من حدوث أذى
ولا تذهبن وعداً فيه تأخير
لا يُستطاع له بالقول تفسير
وقال محمد بن مروان يصف جارية له:

أمنت تباع ولسو تباع بوزنها
دراً بكى أسفاً عليها البائع

وكان للمأمون جويرية من أحسن الناس وأسبغهم إلى كل نادرة فحظيت عنده فحدها الجوازي وقلن لا حسب لها، فنقشت على خاتمها حُبي حبي، فازداد بها المأمون عجباً فسمتها الجوازي فماتت فجزع عليها المأمون جزعاً شديداً وقال:

اختلست ريحانتي من يدي
كانت هي الأنس إذا استوحشت
أبكي عليها آخر الأبد
نفس من الأقرب والأبعد
وروضة كان بها مرتعي
كانت يدي كان بها قوتي
فاختلست الدهر يدي من يدي

وللمتوكل في قينة:

أمازحها فتغضب ثم ترضى
فإن غضبت فأحسن ذي دلال
فكل فعالها حسن جميل
وإن رضيت فليس لها عديل

وحدث أبو عبد الله بن عبد البر قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم، عن الهيثم بن عدي قال: كان في المدينة رجل من بني هاشم، وكان له قيتان يقال لإحدهما رشا، وللأخرى جوزف، وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يفتب عن مجلس المستطرفين. فأرسل الهاشمي إليه ذات يوم ليسخر به، فلما أتاه قال له: أصلحك الله إنك لفي لذلك، ولا للة لي. قال: وما لذلك؟ قال: تحضر لي نبذاً فإنه لا يطيب لي عيش إلا به. فأمر الهاشمي بإحضار نبذ، وأمر أن يطرح فيه سكر العشر. فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه فتناوم الهاشمي وغمز جاريته عليه فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرز، قال في نفسه: ما أظن هاتين المغنيتين إلا يمايتين، وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض، فقال لهما: يا حبيتي أين المرحاض؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت يقول غياني:

رحضت^(١) فؤادي فخلتني
أهيم من الحب في كل وإد

فاندفعنا تغيانه. فقال في نفسه: والله ما أظنها فهما عن، وما أظنها إلا مكيتين وأهل مكة يسمونها المخارج. فقال: يا حبيتي أين المخرج؟ فقالت أحدهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غياني: خرجت لها من بطن مكة بعدما أقام المنادي بالعشي فاعتما^(٢)

فاندفعنا تغيانه. فقال في نفسه: لم يفهما عني وما أظنها إلا شاميتين، وأهل الشام يسمونها المذاهب فقال: يا

(١) رحضت: غلغ.

(٢) فاعتما: فدخلنا في العمة.

حييتي أين المذهب؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول حبيبتنا؟ قالت يقول غنياني:

ذهبتُ من الهجران في كل مذهبٍ ولم يك حقاً كلُّ هذا التجنُّبِ^(١)

فغناه الصوت. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لم يفهما عني وما أظن القحبتين إلا مدنيّتين وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء، فقال: يا حييتي أين بيت الخلاء؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

خلا علي بقاع الأرض إذ ظعنوا من بطني مكّة واسترعاني الحزن

قال: فغناه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أظن الفاسقتين إلا بصريّتين، وأهل البصرة يسمونها الحشوش. فقال: يا حييتي أين الحش؟ فقالت إحداهما لصاحبتها: ما يقول سيدنا؟ قالت: يقول غنياني:

أوحشوني وعزّ صبري فيهم ما احتيالي وما يكونُ فعالي

قال: فاندفعنا تغنيانه. فقال: ما أراهما إلا كوفيتين، وأهل الكوفة يسمونها الكنف. فقال لهما: يا حييتي أين الكنف. فقالت إحداهما لصاحبتها: يعيش سيدنا ما رأيت أكثر اقتراحاً من هذا الرجل. قالت: ما يقول؟ قالت: يسأل أن تغني له:

تَكْتَفِنِي الْهَوَى طِفْلاً فَتُغْنِيَنِي وَمَا اكْتَهَلاً

فقال: وأويلاه وأعظم مصيئته هذا، والهاشمي يتقطع ضحكاً فقال لهما: يا زائتان إن لم تعلماني به، أنا أعلمكم ثم رفع ثيابه وسلم عليهما، وعلى الفراش، فانتبه الهاشمي وقد غشي عليه من شدة الضحك وقال: ويلك ما هذا تسلح على وطائي. فقال الرجل: حياة نفسي أعز علي من وطائك. وقيل إنه لما قيل له ويلك ما هذا قال المضحك هذه الأبيات:

تَكْتَفِنِي الْمَلَاخُ وَأُضَجِّرُونِي عَلَى مَا بِي بَيْتَاتِ الزَّوَانِي
فَلَمَّا قُلْتُ عَنْ ذَاكَ اصْطَبَارِي قَذَفْتُ بِهِ عَلَى وَجْهِ الْغَوَانِي

قال فانبطع الهاشمي ودفع له مالاً، ومضى إلى سبيله. وقال علي بن الجهم قلت لقينة:

هل تعلمين وراء الحب منزلةً تدني إليك فلانُ الحبِّ أقصاني

قالت: تأتي من باب الذهب، وأنشدت:

اجعل شفيحك منقوشاً تقدمه فلم يزل مُدْنِياً من ليس بالداني

وكان أشعب يختلف إلى قينة بالمدينة فجلس عندها يوماً يطارحها الغناء، فلما أراد الخروج قال لها: ناوليني خاتمك أذكرك به. قالت: إنه ذهب وأنا أخاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود فلعلك أن تعود وناولته عوداً من الأرض. وكان بعض القينات من الجمال والحسن بجانبه، ثم أصابته علة فتغير حالها فكانت تنشد:

ولي كبدٍ مقروحة من ييعني بها كبداً ليسَ بذاتِ قروح

أبأها علي الناس لا يشترونها ومن يشتري ذا علو بصحيح

وكان المعتصم يحب قينة من حظاياها فاتفق أنه خرج إلى مصر وتركها فذكرها في بعض الطريق فاشتاق إليها فقلبه الوجد فدعا مغنياً وقال: ويحك قد ذكرت جاريتي فلانة فألفقتي الشوق إليها، فعسى أن تغنيني شيئاً في معنى ما ذكرت لك. فأطرق ملياً ثم غناه:

وددت من الشوق التبرح أني أعار جناحي طائر فأطير
فما لنعيم ليس فيه بشاشة وما لسرور ليس فيه سرور
وإن امرأ في بلدة نصف قلبه ونصف بأخرى غيرها لصبور

والحكايات في معنى ذلك كثيرة، ولو أردت بسطها لاحتجت إلى مجلدات ولكن ما قلّ وجلّ خير من كثير يُملّ. وفيما ذكرته كفاية والله المسؤول أن يمدني منه باللطف والعناية وسأله التوفيق والهداية وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الحادي والسبعون: في ذكر العشق ومن بلي به والافتخار بالعفاف وأخبار من مات بالعشق وما في معنى ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في وصف العشق

قال الجاحظ: العشق اسم لما فضل عن المحبة، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود. وقال أعرابي العشق خفي أن يرى، وجلّي أن يخفى فهو كامن ككُمون النار في الحجر إن قدحته أورى، وإن تركته توارى^(١)، وقيل أول العشق النظر، وأول الحريق الشرر، وكان العشاق فيما مضى يشق الرجل برقع حبيته، والمرأة تشق رداء حبيها ويقولون: إنهما إذا لم يفعلا ذلك عرض البغض بينهما، وقال عبد بني الحساس:

وكم قد شققنا من رداء محبّر ومن برقع عن طفلة غير عانس^(٢)
إذا شق برّد شق بالبرد برقع من الحب حتى كلنا غير لابس

وقيل: لأعرابي ما بلغ حبك لفلاتة؟ قال: إني لأذكرها وييني وبينها عقبة الطائف، فأجد من ذكرها رائحة المسك. وقيل: رأى شبيب أخو بئنة جميلاً عندها فوثب عليه وأذاه ثم إن شبيباً أنى مكة وجميل فيها فقبل لجميل: دونك شبيباً فخذ بآرك منه فقال:

وقالوا يا جميل أتى أخوها فقلت أتى الحبيب أخو الحبيب
وأنشد الأخفش الحداد يقول:

مطارق^(٣) الشوق منها في الحشى أثر يطرقن سندان قلب حشوه الفكر
ونار كور الهوى في الجسم موقدة ومبرد الحب لا يُقي ولا يَنز

وفي «الجليس الأنيس» لأبي العالية الشامي قال: سأل أمير المؤمنين المأمون يحيى بن أكرم عن العشق ما هو؟ فقال: هو سوانح تسنح للمرأة، فيهم بها قلبه وتؤثرها نفسه، وقال ثمامة: العشق جليس ممتع. وأليف مؤنس وصاحب ملك مسالكة ضيقة، ومذاهب غامضة، وأحكامه جائرة، ملك الأبدان وأرواحها والقلوب وخواطرها،

(١) توارى: اختفى.

(٢) عانس: لم تتجاوز مرحلة الصبا.

(٣) مطارق: هي أدوات الحدادة كما نلاحظ.

والعيون ونواظرها، والمقول وآراءها وأعطى عنان طاعتها، وقوة تصرفها، توارى عن الأبصار مدخله، وخفى في القلوب مسلكه. وكان شيخ بخراسان له أدب وحسن معرفة بالأمور قال لسليمان بن عمرو ومن معه: أنتم أدباء وقد سمعتم الحكمة، ولكم حذاء ونغم، فهل فيكم عاشق؟ قالوا لا. قال: عاشقوا فإن العشق يطلق اللسان، ويفتح جلبة البلبد والبخيل، ويبعث على التلطف وتحسين اللباس، وتطيبب المطعم، ويدعو إلى الحركة والذكاء وتشريف الهمة. وقال المجنون:

قالت جئت على ذكرى قللتُ لها الحبُّ أعظمُ مما بالمجانين
الحبُّ ليس يفيقُ الدهرُ صاحبُهُ وإنما يصرِّحُ المجنونُ في الحينِ

قال ذو الرياستين: إن بهرام جور كان له ابن، وكان قد رشحه للأمر من بعده فشأ الفتى ناقص الهمة، ساقط المروءة، خامل النفس، مسيء الأدب فغمه ذلك فوكل به من المؤدبين والمنجمين والحكماء من يلزمه ويعلمه وكان يسألهم عنه فيحكون له ما يغمه من سوء فهمه، وقلة أدبه إلى أن سأل بعض مؤدبيه يوماً فقال له المؤدب قد كنا نخاف سوء أدبه فحدث من أمره ما صيرنا إلى الرجاء في فلاحه قال وما ذلك الذي حدث؟ قال رأى ابنة فلان المرزبان فعشقها فغلبت عليه، فهو لا يهدأ إلا بها، ولا يتشاغل إلا بها، فقال بهرام الآن رجوت فلاحه ثم دعا بأبي الجارية فقال له: يتي مسرّ إليك سرّاً فلا يمدوك، فضمن له ستره، فأعلمه أن ابنه قد عشق ابنته، وأنه يريد أن يتكحها إياه وأمره أن يأمرها بإطعامه في نفسها، ومراسلته من غير أن يراها وتقع عينه عليها، فإذا استحكم طمعه فيها تجتنبه وتهجره، فإن استعملها أعلمته أنها لا تصلح إلا لملك، ثم لتعلمني خبرها ولا تطلعهما على ما أسرّه إليك. فقبل أبوها ذلك منه. ثم قال للمؤدب الموكل بأدبه: حضه وشجعه على مراسلة المرأة. ففعل ذلك وفعلت المرأة كما أمرها أبوها، فلما انتهت إلى التجني عليه، وعلم الفتى السبب الذي كرهته لأجله أخذ في الأدب، وطلب الحكمة، والعلم، والفروسية، والرماية، وضرب الصولجان حتى مهر في ذلك. ثم رفع إلى أبيه أنه محتاج إلى الدواب، والآلات، والمطاعم، والملابس، والندماء وما أشبه ذلك، فسر الملك بذلك وأمر له بما طلب، ثم دعا مؤدبه فقال له: إنّ الموضع الذي وضع به ابني نفسه من خبر هذه المرأة، لا يدري به، فتقدّم إليه ومره أن يرفع إلي ويسألني أن أزوجه إياها، ففعل المؤدب ذلك فرفع الفتى ذلك لأبيه فدعا بأبيها وزوجه إياها وأمر بتعجيلها إليه، وقال له إذا اجتمعت أنت وهي فلا تحدث شيئاً حتى أصير إليك فلما اجتمعا صار إليه فقال: يا بني لا يضمن قدرها عندك مراسلتها إياك، وليست في خباثتك، فإني أمرتها بذلك، وهي أعظم الناس منة عليك بما دعتك إليه من طلب الحكمة والتخلق بأخلاق الملوك حتى بلغت الحد الذي تصلح معه للملك من بعدي فزدها من التشريف والإكرام بقدر ما تستحق منك. ففعل الفتى وعاش مسروراً بالجارية، وعاش أبوه مسروراً به، وأحسن ثواب أبيها ورفع منزلته لصيانة سرّه، وأحسن جائزة المؤدب لامثال أمره به. وكان عبد الله بن عبيدة الريحاني يهوى جارية فزارته يوماً فأقام يحدثها ويشكو إليها ألم الفراق فحان وقت الظهر فناداه إنسان الصلاة يا أبا الحسن. فقال: رويدك حتى تزول الشمس، أي حتى تقوم الجارية. وقالت ليلي العامرية في قيسها:

لم يكنِ المجنونُ في حالو إلا وقد كنتُ كما كانا
لكنه باحَ بسرُّ الهوى وإنني قد فُيت كما أنا

وقال أحمد بن عثمان الكاتب:

وإني ليرضيني الممرّ بياها وأفنعُ منها بالشتيمة والزجر
وقال الفتح بن خاقان صاحب المتوكل:

أيها العاشقُ المعذبُ صبراً فخطايا أخي الهوى مغفورة
زفرةً في الهوى أحطُ لذنبٍ من غزاةٍ وحجةٍ مبرورة

وقال عمر بن أبي ربيعة: كنت بين امرأتين، هذه تساررني، وهذه تعضني فما شعرت بعضة هذه من لذة هذه. وأنشد شيان العذري يقول:

لو حَزَّ بالسيفِ رأسي في مَحَبَّتِها لطار يهوى سريعاً نحوها رأسي
وقال يحيى بن معاذ الرازي: لو أمرني الله أن أقسم العذاب بين الخلق ما قسمت للعاشقين عذاباً.

الفصل الثاني: فيمن عشق وعف والافتخار بالعفاف

روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من عشق فعت فمات فهو شهيد» وقال ﷺ: «عفوا، تعف نساؤكم» وقال بعضهم رأيت امرأةً مستقبلة البيت في غاية الضعف، والنحافة، رافعة يديها تدعو. فقالت لها: هل من حاجة؟ فقالت حاجتي أن تنادي في الموقف بقولي:

تزوّد كل الناس زاداً يقيهم وما لي زادٌ والسلامُ على نفسي

فناديت كما أمرتني، وإذا بفتى نحيل الجسم قد أقبل إلي فقال: أنا الزاد فمضيت به إليها، فما زاد على النظر والبكاء. ثم قالت له: انصرف بسلام، فقلت: ما علمت أن لقاءك يقتصر على هذا، فقالت: أمسك يا هذا أما علمت أن ركوب العار ودخول النار شديد. قال إبراهيم بن محمد المهلب:

كم قد ظفرتُ بمن أهوى فيمنعني منه الحياةُ وخوفُ الله والحذرُ
وكعمّ خلوتُ بمن أهوى فيمنعني منه الفكاهةُ والتأيسُ والنظرُ
أهوى الملاحَ وأهوى أن أجالسهم وليسَ لي في حرامٍ منهم وطرُ
كذلك الحبُّ لا إتيانُ معصيةٍ لا خيرَ في لذّةٍ من بعدها سقرٌ^(١)

وقال بعض بني كلب:

إن أكن طامحَ اللحاظِ فإني والذي يملكُ القوادِ عفيفُ

ونحو ذلك قول القائل:

فقلت بحقِّ الله إلّا أتيتنَا إذا كان لونُ الليلِ شبةَ الطيالسِ
فجئتُ وما في القومِ يقظانٌ غيرها

فَتَيْنَا بَلِيلَ طَيْبٍ نَسْتَلِذُّهُ جَمِيعاً وَلَمْ أَقْلِبْ لَهَا كَفّاً لَامِسِ

ونزل رجل على صديق له مستراً خائفاً من عدو له فأنزله في منزله وتركه فيه وسافر لبعض حوائجه وقال لأمراته: أوصيك بضيفي خيراً، فلما عاد بعد شهر قال لها كيف ضيفنا؟ قالت ما أشغله بالعمى عن كل شيء، وكان الضيف قد أطبق عينيه، فلم ينظر إلى امرأة صاحبه، ولا إلى منزله إلى أن عاد من سفره. وكان عمر بن أبي ربيعة عفيفاً يصف ويعف ويحوم ولا يرد^(١). ودخلت بثينة على عبد الملك بن مروان فقال لها: يا بثينة ما أرى فيك شيئاً مما كان يقول جميل، فقالت: يا أمير المؤمنين إنه كان يرنو إلي بعينين ليستا في رأسك. قال: فكيف رأيته في عشقه؟ قالت: كان كما قال الشاعر:

لَا وَاللَّيِّ تَجِدُ الْجِبَاءَ لَهُ مَا لِي بِمَا تَحْتَ ذَيْلِهَا خَبْرُ
وَلَا بِفِيهَا وَلَا هَمَمْتُ بِهَا مَا كَانَ إِلَّا الْحَدِيثُ وَالنَّظَرُ

وقد قمت هذين البيتين في الجزء الأول فيما جاء في الكتابة على سبيل الرمز. وعن أبي سهل الساعدي قال: دخلت على جميل وبوجه آثار الموت. فقال لي: يا أبا سهل إن رجلاً يلقى الله، ولم يسفك دماً، ولم يشرب خمرأ، ولم يأت فاحشة أفرجوه له الجنة قلت: إي والله فمن هو؟ قال: إني لأرجو أن أكون ذلك. فلذكرت له بثينة فقال: إني بقي آخر يوم من الدنيا، وأول يوم من الآخرة لا نالتني شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدثت نفسي بريبة قط. وعن عبد الله بن عبد المطلب والد النبي ﷺ، أنه دعه بغية إلى نفسها، وبذلت له مالاً، وكانت تتكهن وتسمع باتيان رسول الله ﷺ وكانت جميلة فأرادت أن تخدع عبد الله رجاء أن يكون النبي ﷺ منها للنور الذي رآته بين عينيه فأبى وقال:

أَمَّا الْحَرَامُ فَالْحِمَامُ^(٢) دَوْنَهُ وَالْحِلُّ لَا نَأْبَى وَنَسْتَدِينُهُ
فَكَيْفَ بِالْأَمْرِ الَّذِي تَبْغِيهِ يَحْمِي الْكَرِيمَ عَرَضُهُ وَدِينُهُ

وقال آخر:

وَأَحْوَرُ مَخْضُوبِ الْبَنَانِ مُحَجَّبٍ دَعَانِي فَلَمْ أَعْرِفْ إِلَى مَا دَعَا وَجْهَهَا
بَخَلْتُ بِنَفْسِي عَنْ مَقَامِ يَشِينَهَا وَلَسْتُ مَرِيداً ذَاكَ طَوْعاً وَلَا كَرْهًا

ورأود شاب ليلي الأخيلية عن نفسها فاشمأزت وقالت:

وَذِي حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ لَا تَجُحَّ بِهَا فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيْتَ سَيْلُ
لَنَا صَاحِبٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ نَخُونَهُ وَأَنْتَ لِأَخْرَى صَاحِبٌ وَخَلِيلُ

وقال ابن ميادة:

مَوَانِعَ لَا يُعْطِينَ جَبَّةً خَرْدَلِي وَهَرٌّ دَوَانٍ فِي الْحَدِيثِ أَوَانِسُ
وَيَكْرَهْنَ أَنْ يَسْمَعْنَ فِي اللُّهُؤُورِيَّةِ كَمَا كَرِهَتْ صَوْتَ اللَّجَامِ الشَّوَامِسُ^(٣)

وقال آخر:

(١) لا يرد: لا يأتي ما يحوم حوله.

(٢) الحمام: الموت.

(٣) الشَّوَامِسُ: صعبة القيادة.

حور حرائر ما هممن بريء
يُحسبن من لين الكلام فواسقا
وكان الأصمعي يستحسن بيتي العباس بن الأحنف:

أأذنون لصبي في زيارتكم
لا يظهر الشوق إن طال الجلوس به
فعددكم شهوات السمع والبصر
عف الضمير ولكن فاسق النظر

واختفى إبراهيم بن المهدي في هربه من المأمون عند عمته زينب بنت أبي جعفر فوكلت بخدمته جارية لها اسمها ملك، وكانت واحدة زمانها في الحسن والأدب، طلبت منها بخمسمائة ألف درهم، فوهبها إبراهيم وكره أن يراودها عن نفسها فغنى يوماً وهي قائمة على رأسه:

يا غزلاً لي إليه
أنا ضيف وجزا
شافع من مقلتيه
الضيف إحسان إليه

ففهمت الجارية ما أراد، فحكّت ذلك لمولاتها فقالت: اذهبي إليه فأعلميه أنني قد وهبتك له، فعادت إليه فلما رآها أعاد اليتيم فأكبّت عليه. فقال لها: كفى، فلست بخاتن. فقالت: قد وهبتي لك مولاتي وأنا الرسول، فقال أما الآن فنعم. وأنشد المبرد:

ما إن دعاني الهوى لفاحشة
فلا إلى فاحشٍ مددت يدي
إلا نهاني الحياء والكرم
ولا مسّت بي لزلة قدم

وقال آخر:

يقولون لا تنظر فذاك بلائ
وهل باكتحال العين بالعين رية
بلى كل ذي عينين لا بد ناظر
إذا عف فيما بينهن السرائر

وكان بعض الخلفاء قد نذر على نفسه أن لا يتشد شعراً، ومتى أنشد بيت شعر فعليه عتق رقبة. قال: فينما هو في الطواف يوماً إذ نظر إلى شاب يتحدث مع شابة جميلة الوجه. فقال له: يا هذا اتق الله أفي مثل هذا المكان؟ فقال: يا أمير المؤمنين والله ما ذاك لخي، ولكنها ابنة عمي وأعز الناس عليّ، وإن أباها منعني من تزوجها لفقرتي وفاقتي، وطلب مني مائة ناقة، ومائة أوقية من الذهب ولم أقدر على ذلك. قال: فطلب الخليفة أباهاً ودفع إليه ما اشترطه على ابن أخيه ولم يقم من مقامه حتى عقد له عليها. ثم دخل الخليفة إلى بيته وهو يترنم بيت من الشعر فقالت له جارية من حظاياها: أراك اليوم يا مولاي تشد الشعر، أفنسيّت ما نذرت، أم نراك قد هويت فأنشد هذه الأبيات يقول:

تقول وليدتي لما رأتي
أراك اليوم قد أحدثت عهداً
طربت وكنت قد أسليت حيناً
وأوزعتك الهوى داء دفيناً
فشاقتك أو رأيت لها جينا
كمثل زماننا إذ تعلمينا
قللت شكاً إلى أخ محب

وذو الشجر القديم وإن تمرزى محبٌ حينَ يلقي العاشقينَا

ثم عدّ الآيات، فإذا هي خمسة آيات، فأعشق خمس رقاب. ثم قال: لله ذرّك من خمس، أعتقت خمسة وجمعت بين رأسين في الحلال. وروي عن عثمان الضحاك قال: خرجت أريد الحج فتزلت بخيمة بالأبواء فإذا بجارية جالسة على باب الخيمة فأعجبني حسنّها فتمثلت بقول نصيب:

بزينب ألمِمْ قبلَ أن يرحلَ الركبُ وقل لا تغلبنا فما ملكك القلبُ

فقلت: يا هذا، أتعرف قائل هذا البيت؟ قلت: بلى هو نصيب. فقلت: أتعرف زينه؟ قلت: لا، قالت: أنا زينه؟ قلت: حياك الله وحياك، قالت: أما والله إن اليوم موعده وعدني العام الأول بالإجماع في هذا اليوم فلعلك أن ترح حتى تراه. قال: فينما هي تكلمني إذا أنا براكب. قال: ترى ذلك الراكب. قلت: نعم قالت إنني لأحبه إياه. فقبل فإذا هو نصيب، فتزل قريباً من الخيمة ثم أقبل، فسلم ثم جلس قريباً منها فسأته أن يشدها فأنشدها فقلت في نفسي: محبان قد طال التناهي بينهما فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة. فقممت إلى بعيري لأشد عليه فقال: على رسلك إنّي معك. فجلست حتى نهض معي فسرنا وتسامرنا فقال لي: أقلت في نفسك محبان التقيا بعد طول تده، فلا بد أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة، قلت: نعم قد كان ذلك. قال: وربّ هذا البيت منذ أحببتها ما جلست منها مجلساً هو أقرب من مجلسي هذا، فتمجبت لذلك وقلت: والله هذه هي العفة في المحبة.

وعن محمد بن يحيى المدني قال: سمعت بقض المدنيين يقول: كان الرجل إذا أحب الفتاة يطوف حول دارها حولاً يفرح إن يرى من يراها، فإن ظفر منها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار. واليوم هو يشير إليها وتشير إليه ويعدّها وتعدّه، فإن التقيا لم يتشاكيا حباً، ولم يتناشدا شعراً، بل يقوم إليها ويجلس بين شعبتها كأنه أشهد على نكاحها أبا هريرة. وقال الأصمعي: قلت لأعرابية ما تعدون العشق فيكم. قالت: الضمة، والغزوة، والقبلة. ثم أنشأت تقول:

ما الحبُّ إلا قبلةٌ وغمزُ كَفٍّ وعَفْذُ
ما الحبُّ إلا هكذا إن نكح الحبُّ فَذُ

ثم قالت: كيف تعدون أنتم العشق؟ قلت: نمسك بقرنيها، ونفرق بين رجليها. قالت: لست بعاشق، أنت طالب ولد ثم أنشأت تقول:

قد فسَدَ العشقُ وهانَ الهوى وصارَ مَنْ يعشَقُ مستعجلاً
يريد أن ينكح أحبَّه من قبل أن يُشهِدَ أو ينحِلَ^(١)

وقيل لرجل قد زفت عشيقته على ابن عم لها: أسرك أن تغفر بها الليلة. قال: نعم والذي أمتعني بحبها وأشقاني بطلبها. قيل: فما كنت صانعاً بها، قال: كنت أطبع الحب في لثمتها وأعصي الشيطان في إثمها، ولا أفسد عشق عشرين سنة بما يبقى ذم^(٢) عاره، وينشر قبيح أخباره إنني للثيم، لم يلدني كريم. ومر سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه ليلة في بعض سكك المدينة فسمع امرأة تقول:

(١) ينحلا: قبل مجيء شهود ودفع مهر وهي شروط عقد النكاح.
(٢) ذم: فاسد.

ألا طَالَ هذا الليلُ وأزورُّ جانيئَهُ
فوالله لولا الله تخشى عواقبه
ليس إلى جانبي خليلٌ إلا عبئُهُ
لحرَّكَ من هذا السريرِ جوانبُهُ
مخافةً ربي والحياة يعفُّني
وأكرامُ بعلي أن تنالَ مراتبُهُ

قال: فسأل عمر رضي الله عنه عنها، فقيل له إنها امرأة فلان، وله في الغزاة ثمانية أشهر. فأمر عمر رضي الله تعالى عنه أن لا يغيب الرجل عن امرأته أكثر من أربعة أشهر. ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزي في كتاب «تلقيح فهوم الأثر» عن محمد بن عثمان بن أبي خيثمة السلمي عن أبيه عن جدّه قال: بينما عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يطوف ذات ليلة في سكك المدينة إذ سمع امرأة تقول:

هل من سبيلٍ إلى خميرٍ فأشربها
إلى فتى ماجدٍ الإعرافِ مقبلي
أم من سبيلٍ إلى نصرٍ بن حجاج
سهلٍ المجدى كريمٍ غيرٍ ملجأ
تنبيه أعراقٍ صدقٍ حين تبُّهُ
أخي وفاءٍ عن المكروبِ فراج

فقال عمر رضي الله تعالى عنه: لا أرى معي بالمدينة رجلاً تهتف به العواتق في خدورهنّ، عليّ بنصر بن حجاج، فلما أصبح أتى بنصر بن حجاج فإذا هو من أحسن الناس وجهاً، وأحسنهم شعراً، فقال عمر: عزيمة من أمير المؤمنين لتأخذن من شعرك، فأخذ من شعره فخرج من عنده، وله وجتان كأنهما شقتا قمر فقال له: أعتم فأعتم فافتن الناس بعينه. فقال له عمر: والله لا تساكنتي في بلدة أنا فيها، فقال: يا أمير المؤمنين ما ذنبي؟ قال: هو ما أقول لك ثم سيره إلى البصرة، وخشيت المرأة التي سمع منها عمر ما سمع أن يبدل من عمر إليها شيء، فدمت إليه المرأة أحياناً وهي:

قلّ للأمام الذي تُخشى بوادرُهُ
لا تجفل الظنَّ حقاً أن تينه
ما لي وللخمير أو نصرٍ بن حجاج
إن السيلَ سيلُ الخائفِ الراجي
إن الهوى زَمٌ بالتقوى فتجبه
حتى يقرَّ بالجمام وإسراج

قال: فبكى عمر رضي الله تعالى عنه وقال: الحمد لله الذي زَم الهوى بالتقوى. قال: وطال مكث نصر بن حجاج بالبصرة فخرجت أمه يوماً بين الأذان والإقامة متعرّضة لعمر، فإذا هو قد خرج في إزار ورداء ويده الدرة. فقالت له: يا أمير المؤمنين، والله لأقفنّ أنا وأنت بين يديّ الله تعالى، وليحاسبك الله أبيتنّ عبد الله وعاصم إلى جنبك، وبين يديّ ابني الفياضي والأودية. فقال لها: ابنتي لم تهتف لهما العواتق في خدورهنّ. ثم أرسل عمر إلى البصرة بريداً إلى عتبة بن غزوان فأقام أياماً ثم نادى عتبة، من أراد أن يكتب إلى أمير المؤمنين فليكتب فإن البريد خارج، فكتب نصر بن حجاج: بسم الله الرحمن الرحيم: سلام عليك يا أمير المؤمنين، أما بعد فاسمع مني هذه الأبيات:

لعمري لئن سيّرتني أو حرمتني
فأصبحتُ متفياً على غير ربي
وما نلتُ من عِرضي عليك حرامٌ
وقد كان لي بالمكئين مقامٌ
لئن غَتَّتِ الذلفاء يوماً بمنية
وبعضُ أمانيّ النساءِ غرامٌ
ظننتُ بي الظنَّ الذي ليس بعده
بقاءً وما لي جرمة فلامٌ

فيمتغي مما تقول تكرمي
ويمتغها مما تقول صلاتها
فهاتان حالان فهل أنت راجعي
وأبأء صدق سالفون كرام
وحال لها في قومها وصيام
قد جب مني كاهل وسنام

قال: فلما قرأ عمر رضي الله تعالى عنه هذه الآيات. قال: أما ولي السلطان فلا، وأقطعه داراً بالبصرة في سوقها، فلما مات عمر ركب راحلته وتوجه نحو المدينة. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الفصل الثالث: في ذكر من مات بالحب والعشق

حدث أبو القاسم بن إسماعيل بن عبد الله المأمون قال: حدثني أبي قال كانت بالمدينة قبة من أحسن الناس وجهاً، وأكملهم عقلاً، وأكثرهم أدباً، قد قرأت القرآن، وروت الأشعار وتعلمت العربية، فوقعت عند يزيد بن عبد الملك، فأخذت بمجامع قلبه فقال لها ذات يوم، ويحك أما لك قرابة أو أحد تحبين أن أضيفه وأسدي إليه معروفًا؟ قالت يا أمير المؤمنين: أما قرابة فلا، ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولاي، وأحب أن ينالهم خير مما صرت إليه. فكتب إلى عامله بالمدينة في إحضارهم إليه، وأن يدفع إلى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم. فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم في الدخول عليه. فأذن لهم وأكرمهم غاية الإكرام وسألهم عن حوائجهم، فأما اثنان منهم فذكرا حوائجها ففضاها، وأما الثالث فسأله عن حاجته فقال يا أمير المؤمنين ما لي حاجة. قال: ويحك أو لست أقدر على حوائجك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن حاجتي ما أظنك تضيها. فقال: فاسألني فإنك لا تسألني حاجة أقدر عليها إلا قضيتها. قال: فلي الأمان يا أمير المؤمنين؟ فقال: نعم. قال: إن رأيت يا أمير المؤمنين أن تأمر جاريتك فلانة، التي أكرمتنا بسببها، أن تغني ثلاثة أصوات أشرب عليها ثلاثة أرطال فافعل. قال: فتغير وجه يزيد ثم قام من مجلسه فدخل على الجارية فأعلمها، فقالت: وما عليك يا أمير المؤمنين، فأمر بالفتى فأحضر، وأمر بثلاثة كراسي من ذهب فنصب فقمع يزيد على أحدها، والجارية على الآخر، والفتى على الثالث، ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوضعت، ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت، ثم قال للفتى: سل حاجتك. فقال تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغني بهذا الشعر:

لا أستطيع سلباً عن مودتها
أدعو إلى هجرها قلبي فيمعدني
أو يصنع الحب بي فوق الذي صنعا
حتى إذا قلتُ هذا صادق نزعاً

فأمرها فغنت، وشرب يزيد، وشرب الفتى، وشربت الجارية، ثم أمر بالأرطال فملئت، ثم قال للفتى سل حاجتك، فقال مرها يا أمير المؤمنين أن تغني بهذا الشعر:

تخيرت من نعمان عود أراك
ألا عرجاً بي بارك الله فيكما
لهند ولكن من يلفه هذا
وإن لم تكن هند لأرضكما قصدا

فأمرها فغنت، وشرب يزيد وشرب الفتى، وشربت الجارية، ثم أمر بالأرطال فملئت، ثم قال للفتى: سل حاجتك. قال تأمرها يا أمير المؤمنين أن تغني هذا الشعر:

مني الوصال ومنكم الهجر
حتى يفرق بيتا الدهر

والله لا أسلوكمو أبداً ما لاح بندرٌ أو بدا فجرٌ

فأمرها فغنت، قال: فلم تَمَّ الأبيات حتى خرَّ الفتى مغشياً عليه، فقال يزيد للجارية: قومي انظري ما حاله؟ فقامت إليه فحركته فإذا هو ميت، فقال لها يزيد أبكيه، فقالت لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حي، فقال لها: أبكيه فوالله لو عاش ما انصرف إلا بك. فبكت الجارية، وبكى أمير المؤمنين وأمر بالفتى فجهز ودفن، وأما الجارية فلم تمكث بعده إلا أياماً قلائل وماتت.

وحكي عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قدم على عبد الملك بن مروان فجلس ذات ليلة يسامره فتذاكرا الغناء والجواري المغنيات، والعشق، فقال عبد الملك لعبد الله: حدثني بأمر ما مرَّ لك في هذه الأغاني، وما رأيت من الجواري. قال نعم يا أمير المؤمنين اشترت جارية مولدة بعشرة آلاف درهم، وكانت حاذقة مطبوعة فوصفت ليزيد بن معاوية فكتب إلي في شأنها، فكتبت إليه والله لا تخرج مني ببيع، ولا هبة، فأمسك عني فكانت عندي على تلك الحالة لا أزدد فيها إلا حباً، فبينما أنا ذات ليلة إذ اتنتي عجوز من عجائزنا فذكرت لي أن بعض أعراب المدينة يحبها وتحبه، ويراهما وتراها، وأنه يجيء كل ليلة متنكراً فيقف بالباب فيسمع غناءها ويكي شغفاً وحباً، فراعيت ذلك الوقت الذي قالت عليه العجوز، فإذا به قد أقبل مقتعاً رأسه، وقعد مستخفياً فلم أدع بها في تلك الليلة وجعلت أتأمل موضعها وموضعه فإذا بها تكلمه ويكلمها، ولم أر بينهما إلا عتياً. ولم يزل كذلك حتى ابيض الصبح فدعوت بها وقلت: لقيمة الجواري أصلحي فلانة بما يمكنك فأصلحتها وزيتها، فلما جاءت قبضت على يديها وفتحت الباب وخرجت فجئت إلى الفتى فحركته فانتبه مذعوراً، فقلت: لا بأس عليك ولا خوف هي هبة مني إليك، فدهش الفتى ول يجني فدنوت إلى أذنه وقلت: قد أظفرك الله تعالى ببيعتك فقم وانصرف بها إلى منزلك، فلم يرد جواباً فحركته فإذا هو ميت. فلم أر شيئاً قط كان أعجب من أمره. قال عبد الملك: لقد جتني بعجب، فما صنعت الجارية؟ قلت: ماتت والله بعد بأيام بعد نحول عظيم وتعليل، وماتت كمدأ ووجدأ على الغلام.

وقيل: إن عبد الله بن عجلان الهندي رأى أثر كف عشيقته في ثوب زوجها فمات. وذكر محمد بن واسع الهيثمي أن عبد الملك بن مروان بعث كتاباً إلى الحجاج بن يوسف الثقفي يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من عند عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف، أما بعد إذا ورد عليك كتابي هذا وقرأته فسير لي ثلاث جوار مولدات أباكراً يكون إليهنّ المنتهى في الجمال، وأكتب لي بصفة كل جارية منهنّ، ومبلغ ثمنها من المال. فلما ورد الكتاب على الحجاج دعا بالنخاسين وأمرهم بما أمره به أمير المؤمنين وأمرهم أن يسيروا إلى أقصى البلاد حتى يقعوا بالغرض، وأعطاهم المال وكتب لهم كتباً إلى كلّ الجهات فसारوا يطلبون ما أراد أمير المؤمنين فلا يزالوا من بلد، إلى بلد، ومن إقليم إلى إقليم حتى وقعوا بالغرض ورجعوا إلى الحجاج بثلاث جوار مولدات ليس لهنّ مثل. قال وكان الحجاج فصيحاً فجعل ينظر إلى كل واحدة منهنّ ومبلغ ثمنها فوجدهنّ لا يقام لهنّ بقيمة، وأن ثمنهنّ ثمن واحدة منهنّ. ثم كتب كتاباً إلى عبد الملك بن مروان يقول فيه بعد الثناء الجميل: وصلني كتاب أمير المؤمنين أمتعني الله تعالى ببقائه يذكر فيه أن أشتري له ثلاث جوار مولدات أباكراً، وأن أكتب له صفة كل واحدة منهنّ وثمنها. فأما الجارية الأولى أطال الله تعالى بقاء أمير المؤمنين فإنها جارية عبيطاء السوالف^(١)، عظيمة الروادف، كحلاء العينين،

حمرء الوجتين قد أنهدت نهداها والتفت فحذاها كأنها ذهب شيب بفضة وهي كما قيل:

بيضاء فيها إذا استقبلتها دعج كأنها فضة قد شابها ذهب

وثنمها يا أمير المؤمنين ثلاثون ألف درهم وأما الثانية فإنها جارية فائقة في الجمال معتدلة القد والكمال تشفي السقيم بكلامها الرخيم، وثنمها يا أمير المؤمنين ستون ألف درهم، وأما الثالثة فإنها جارية فاترة الطرف، لطيفة الكف عيمة^(١) الردف شاكرة للقليل، مساعدة للخليل، بديعة الجمال كأنها خشف الغزال، وثنمها يا أمير المؤمنين ثمانون ألف درهم ثم أطلب في الشكر والثناء على أمير المؤمنين وطوى الكتاب وختمه ودعا النخاسين فقال لهم: تجهزوا للسفر بهؤلاء الجواري إلى أمير المؤمنين، فقال أحد النخاسين أيد الله الأمير. إني رجل كبير ضعيف عن السفر، ولي ولد ينوب عني أفأذن لي في ذلك قال نعم فتجهزوا وخرجوا فقي بعض مسيرهم نزلوا يوماً ليستريحوا في بعض الأماكن فنامت الجواري فهبت الريح فانكشفت بطن إحداهن وهي الكوفية فبان نور ساطع وكان اسمها مكتوم، فنظر إليها ابن النخاس وكان شاباً جميلاً ففتن بها لساعته فاتأها على غفلة من أصحابه وجعل يقول:

أمكتوم، عيني لا تمل من البكا وقلبي بأسهام الأسى يترشق

أمكتوم كم من عاشق قتل الهوى وقلبي رهين كيف لا أتعشق

فأجابته تقول:

لو كان حقاً ما تقول لزرتنا ليلاً إذا هجعت عيون الحسد

قال: فلما، جنّ الليل انتضى الفتى ابن النخاس سيفه، وأتى نحو الجارية فوجدها قائمة تنتظر قدومه فأخذها وأراد أن يهرب فظن به أصحابه فأخذوه وكفوه وأوثقوه بالحديد ولم يزل مأسوراً معهم إلى أن قدموا على عبد الملك بن مروان، فلما مثلوا بالجواري بين يديه أخذ الكتاب ففتحه وقرأه فوجد الصفة وافقت اثنتين من الجواري، ولم توافق الثالثة ورأى في وجهها صفرة وهي الجارية الكوفية فقال للنخاسين ما بال هذه الجارية لم توافق حليتها التي ذكرها الحجاج في كتابه، وما هذا الاصفرار الذي بها والانتحال؟ فقالوا يا أمير المؤمنين تقول ولنا الأمان. قال: إن صدقتم أمتم، وإن كذبتهم هلككم، فخرج أحد النخاسين وأتى بالفتى وهو مصفد^(٢) بالحديد، فلما قدموه بين يدي أمير المؤمنين بكى بكاء شديداً وأيقن بالعذاب، ثم أنشأ يقول:

أمير المؤمنين أتيت رغباً وقد شئت إلى عقي يدنيا

مقراً بالقبيح وسوء فعلي ولست بما ربيت به برياً

فإن تقتل ففوق القتل ذنبي وإن تعفو فمن جود عيا

فقال عبد الملك: يا فتى ما حملك على ما صنعت، استخفاف بنا، أم هوى الجارية؟ قال: وحق رأسك يا أمير المؤمنين وعظم قدرك، ما هو إلا هوى الجارية. فقال: هي لك بما أعدتة لها. فأخذها الغلام بكل ما أعدته لها أمير المؤمنين من الحلي والحلل، وسار بها فرحاً مسروراً إلى نحو أهله، حتى إذا كانا ببعض الطريق نزلا بمرحلة ليلاً

(١) عيمة: غليظة.

(٢) مصفد: به الأصفاد وهي القيود.

فتعانقا وناما، فلما أصبح الصباح وأراد الناس السير نهوهم فوجدوهم ميتين. فبكوا عليهما ودفنوهما بالطريق ووصل خبرهما إلى عبد الملك فبكى عليهما وتعجب من ذلك.

ومن ذلك ما روي عن النبي ﷺ، أنه أخرج خالد بن الوليد المخزومي رضي الله تعالى عنه إلى مشركي خزاعة. قال خالد: فأخرجني إليهم رسول الله ﷺ في عشرة آلاف فارس من أهل النجدة والبأس، قال فجذبنا المسير إليهم فسبق إليهم الخبر فخرجوا إلينا فقاتلناهم قتالاً شديداً، حتى تعالى النهار، وطار الشرار، وهاجت الفرسان، وتلاحمت الأفران، فلولا أن الله تعالى أيدنا بنصره لكادت الدائرة أن تكون علينا ولكن تداركنا الله برحمته منه فهزمتهم وقتلناهم قتلاً ذريعاً، ولم ندع لهم فارساً إلا قتلناه، ثم طلبنا البيوت فنهبنا وسيننا، فلما هدا القتال والنهب أمرت أصحابي بجمع السبايا لتقديم بهن على رسول الله ﷺ، فلما خرجنا وأحصيناهم خرج منهم غلام لم يراهق الحلم، ولم يجر عليه القلم وهو ماسك بشابة جميلة، فقلنا له يا غلام انزل عن النساء، فصاح صيحة مزعجة وهجم علينا، فوالله لقد قتل منا في بقية نهارنا مائة رجل، قال خالد: فرأيت أصحابي قد كرهوا قتاله وتأخروا عنه، فملك منهم جواذاً وعلا على ظهره ونادى البراز يا خالد، قال: فبرزت إليه بنفسي بعد أن أنشدت شعراً، فوالله لم يمهلي حتى أتم شعري بل حمل علي فطاعنا حتى تكسرت القنا، وتضاربنا بالسيوف حتى تفللت، فوالله لقد اقتحمت الأهوال، ومارست الأبطال، فما رأيت أشد من حملته، ولا أسرع من هجماته، فبينما نحن نترك إذ كبا به فرسه فصار بين قوائمه، فوثبت عليه وعلوت على صدره وقلت له اقد نفسك بقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنا أردك من حيث جئت. قال: يا خالد ما أنصفتني اتركني حتى أجد من نفسي القوة قال خالد: فتركته وقلت لعله أن يسلم ثم شدته وثاقاً، وصدفته بالحديد وأنا أبكي إشفاقاً على حسن شبابه، ثم أوثقته على بعير لي، فلما علم أن لا خلاص له قال: يا خالد سألتك بحق إلهك إلا ما شددت ابنة عمي على ناقة أخرى إلى جانبي، قال خالد: فأخذتها وشدتها على ناقة أخرى إلى جانبه ووكلت بهما جماعة من أشد القوم بالقواضب والرماح وسرنا، فلما استقامت مطاياهم جعل الغلام والجارية يتناشدان الأشعار، ويكيان إلى آخر الليل فسمعت يذكر قصيدة يسب فيها الإسلام ويذمر أن لا يسلم أبداً. فأخذت السيف وضربت فرميت رأسه فصاحت الجارية وأكبت صارخة فحركتها فوجدتها ميتة. فأبركنا الأباغر وحفرنا ودفناهما. فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أقبلنا نحدّثه بمعجب ما رأينا مع الغلام فقال: لا تحدّثوني شيئاً أنا أحذّثكم به، فقلنا: مَنْ أعلمك به يا رسول الله؟ قال: أخبرني جبريل عليه السلام. وتعجب رسول الله ﷺ من موافقتهما، وموافقة أجلهما.

ومن ذلك ما حكاه الثوري قال: حدثني جبلة بن الأسود وما رأيت شيئاً أصبح ولا أوضح منه قال: خرجت في طلب إيل لي ضلت فما زلت في طلبها إلى أن أظلم الظلام، وخفيت الطريق فصرت أطوف وأطلب الجادة فلا أجدها. فبينما أنا كذلك إذ سمعت صوتاً حسناً بعيداً ويكاه شديداً فشجاني حتى كدت أن أسقط عن فرسي، فقلت: لأطلبين الصوت ولو تلفت نفسي، فما زلت أقرب إليه إلى أن هبطت وادياً، فإذا راع قد ضم غنماً له إلى شجرة وهو يشد ويترنم:

وكنْتُ إذا ما جئتُ سعدى أزورها أرى الأرضَ تطوى لي ويلنو بعيدُها
من الخفراءِ اليضي وُدَّ جليها إذا ما انقضَّتْ أحَدُوَّةٌ لو تعيدُها

قال: فدنوت منه وسلمت عليه، فردّ عليّ السلام وقال: من الرجل؟ فقلت: منقطع به المسالك أتاك يستجير

يك ويستعينك. قال: مرحباً وأهلاً انزل على الرحب والسعة فعندي وطاء وطيء، وطمعاً غير بطيء، فزلت، فترع شملته^(١) وبسطها تحتي. ثم أتاني بتمر وزبد ولبن وخبز، ثم قال: اعذرني في هذا الوقت، فقلت والله إن هذا لخير كبير، فمال إلى فرسي فربطه وسقاه وعلفه. فلما أكلت تروضأت وصليت، واتكأت فإني لبين النائم واليقظان إذ سمعت حرس شيء، وإذا بجارية قد أقبلت من كبد الوادي فضحت الشمس حسناً، فوثب قائماً إليها وما زال يقبل الأرض حتى وصل إليها وجعلاً يتحادثان. فقلت: هذا رجل عربي ولعلها حرمة له، فتناومت وما بي نوم، فما زالاً في أحسن حديث، ولذة مع شكوى وزفرات إلا أنهما لا يهمن أحدهما لصاحبه بقيق. فلما طلع الفجر عانقها وتنفسا الصعداء ويكى ويكت، ثم قال لها: يا ابنة العم سألتك بالله لا تبطلني عني كما أبطلت الليلة، قالت: يا ابن العم أما علمت أنني تحظر الواشين والرقباء حتى يناموا، ثم ودعته وسارت وكل واحد منهما يلصق نحو الآخر ويكي. فبكيت رحمة لهما وقلت في نفسي: والله لا أنصرف حتى استغيضه الليلة وانظر ما يكون من أمرهما، فلما أصبحنا قلت له: جعلني الله فداك، الأعمال بخواتيمها، وقد نالني أمس تعب شديد، فأحب الراحة عندك اليوم فقال: على الرحب والسعة، لو أقمتم عندي بقية عمرك ما وجدته إلا كما تحب، ثم عمد إلى شاة فذبحها وقام إلى نار فأججها وشواها وقدمها إلي، فأكلت وأكل معي، إلا أنه أكل أكل من لا يريد الأكل، فلم أزل معه نهاري ذلك، ولم أر أشفق منه على غنمه، ولا لغير جانباً ولا أحلى كلاماً إلا أنه كالولهان، ولم أعلمه بشيء ما رأيت. فلما أقبل الليل وطأت وطأتي فصليت وأعلمته أنني أريد الهجوع لما مر بي من التعب بالأمس. فقال لي: نم هنيئاً فأظهرت النوم ولم أنم فأقام ينتظرها إلى هنيهة من الليل، فأبطلت عليه فلما حان وقت مجيئها قلق قلقاً شديداً، وزاد عليه الأمر فبكى ثم جاء نحوي فحركني فأوهمت أنني نائم، فقال: يا أخي هل رأيت الجارية التي كانت تمنعني وجاءتني البارحة قلت قد رأيتها قالت فتلك ابنة عمي، وأعز الناس علي، وإني لها محب، ولها عاشق وهي أيضاً محبة لي أكثر من محبتي لها، وقد منعني أبوها من تزويجها لي فقري وفاقتي وتكبره علي فصرت راعياً بسببها، فكانت تزورني في كل ليلة وقد حان وقتها الذي تأتي فيه واشغل قلبي عليها وتحديثي نفسي أن الأسد قد افترسها ثم أنشأ يقول:

ما بال مئة لا تأتي كعادتها أعاقها طرب أم صلتها شغل
نفسى فداؤك قد أحللت بي سقماً^(٢) تكاد من حره الأعضاء تفصل

قال: ثم انطلق فغاب عني ساعة وأتى بشيء فطره بين يدي فإذا هي الجارية قد قتلها الأسد، وأكل أعضائها، وشوه خلقها ثم أخذ السيف وانطلق فأبطل هنيهة وأتى ومعه رأس الأسد فطره ثم أنشأ يقول:

ألا أيها اللبث المدل بفسه هلكت لقد جريت حقاً لك الشرا
وخلفتني فرداً وقد كنت أنساً وقد عادت الأيام من بعدها غبرا

ثم قال: بالله يا أخي إلا ما قبلت ما أقول لك، فإني أعلم أن المنية قد حضرت لا محالة، فإذا أنا مت فخذ عبادتي هذه فكفني فيها وضم هذا الجسد الذي بقي منها معي وادفنا في قبر واحد وخذ شويهاتي هذه. وجعل يشير إليها فسوف تأتيك امرأة عجوز هي والذني فأعطها عصاي هذه، وثيابي وشويهاتي وقل لها: مات ولدك كمداً بالحب فإنها

(١) شملته: العيافة.

(٢) سقماً: مرضاً.

تموت عند ذلك فادفنها إلى جانب قبرنا وعلى الدنيا مني السلام. قال: فوالله ما كان إلا قليل حتى صاح صيحة ووضع يده على صدره ومات لساعته. فقلت: والله لأصنعن له ما أوصاني به. ففسلته وكففته في عباءته وصليت عليه ودفنته ودفنت باقي جسدها إلى جانبه وبت تلك الليلة باكياً حزيناً. فلما كان الصباح أقبلت امرأة عجوز وهي كالولہانة فقالت لي: هل رأيت شاباً يرمي غنماً فقلت لها: نعم. وجعلت أتلطف بها ثم حدثتها بحديثه وما كان من خبره فأخذت تصيح وتبكي وأنا الاطفها إلى أن أقبل الليل، وما زالت تبكي بحرقة إلى أن مضى من الليل برهة فقصدت نحوها فإذا هي منكبة على وجهها وليس لها نفس يصعد، ولا جارحة تتحرك. فحركتها فإذا هي ميتة. ففسلتها وصليت عليها ودفنتها إلى جانب قبر ولدها وبت الليلة الرابعة فلما كان الفجر قمت فشدت فرسي وجمعت الغنم وسقتها فإذا أنا بصوت هاتف يقول:

كنا على ظهرها والدهرُ يجمعنا والشملُ مجتمعٌ والدارُ والوطنُ
فمزق الدهرُ بالضريق ألفتنا وصارَ يجمعنا في بطنها الكفنُ

قال: فأخذت الغنم، ومضيت إلى الحي لبني عمهم فأعطيتهم الغنم، وذكرت لهم القصة فبكى عليهم أهل الحي بكاء شديداً، ثم مضيت إلى أهلي وأنا متعجب مما رأيت في طريقي.

ومن ذلك ما حكى أن زوج عزة أراد أن يحج بها فسمع كثير الخبر فقال والله لأحجن لعملي أفوز من عزة بنظرة. قال فيبينما الناس في الطواف إذ نظر كثير لعزة وقد مضت إلى جملة فحيته ومسحت بين عينيه وقالت حبيت يا جمل فبادر ليلحقها فقاتته فوقف على الجمل وقال:

حَيَّكَ عَزَّةُ بَعْدَ الْحَجِّ وَانصَرَفْتُ فحَيَّ وَيْحَكَ مِنْ حَيَّاكَ يَا جَمْلُ
لَوْ كُنْتُ حَيِّتَهَا مَا كُنْتُ ذَا مَرْفُو عِنْدِي وَلَا مَسَّكَ الْإِدْلَاجُ وَالْعَمَلُ

قال فسمعه الفرزدق فبسّم وقال له: من تكون يرحمك الله قال أنا كثير عزة فمن أنت يرحمك الله قال أنا الفرزدق بن غالب التميمي قال: أنت القاتل:

رَحَلْتُ جَمَالَهُمْ بِكُلِّ أُسَيْلَةٍ تَرَكْتُ فَوَادِي هَائِماً مَجْبُولاً
لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُهُمْ إِذَا لَمْ يَرْحَلُوا حَتَّى أَوْدُعَ قَلْبِي التَّبْـؤُولُ
سَارُوا بِقَلْبِي فِي الْحُدُوجِ وَغَادَرُوا جَسْمِي يَمَاجُجُ زَفَرَةٍ وَعَوِيلَا

فقال الفرزدق: نعم. قال كثير، والله لولا أنني بالبيت الحرام، لأصبحن صيحة أفزع بها هشام بن عبد الملك وهو على سرير ملكه. فقال الفرزدق والله لأعرفن بذلك هشاماً ثم توادعا وافترقا. فلما وصل الفرزدق إلى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك فعرّفه بما اتفق له مع كثير. فقال له: اكتب إليه بالحضور عندنا لنطلق عزة من زوجها ونزوجه إياها. فكتب إليه بذلك فخرج كثير يريد دمشق فلما خرج من حيه وسار قليلاً رأى غراباً على بانه وهو يفلي نفسه وريشه يتساقط فاصفر لونه، وارتاع من ذلك وجدّ في السير، ثم إنه مال ليسقي راحلته من حي بني فهد وهم زجرة الطير فبصر به شيخ من الحي فقال: يا ابن أخي أرايت في طريقك شيئاً فراعك؟ قال نعم يا عم رأيت غراباً على بانه يغلي ويتف ريشه فقال له الشيخ: أما الغراب فإنه اغتراب، والبانة بين، والتغلي فرقة فازداد كثير حزناً على حزنه لما سمع من الشيخ هذا الكلام وجدّ في السير إلى أن وصل إلى دمشق ودخل من أحد أبوابها فرأى الناس يصلون على

جنازة فنزل وصلى معهم فلما قضيت الصلاة صاح صائح لا إله إلا الله ما أغفلك يا كُثَيِّر عن هذا اليوم فقال ما هذا اليوم يا سيدي فقال إن هذه عَزَّةٌ قد ماتت وهذه جنازتها فخر مغشياً عليه فلما أفاق أنشأ يقول:

فما أعرفَ الفهْدِيَّ لا دَرَّ دَرَهُ وأزجره للطير لا عز ناصِرُهُ
رأيت غراباً قد علا فوقَ بَانَةٍ يتفُ أعلَى ريشه ويطايرُهُ
فقال غرابٌ واغتراب من النوى وبانة بين من حبيب تعاشرُهُ
ثم شهِقَ شهقةً فارقت روحه الدنيا، ومات من ساعته، ودفن مع عَزَّةٍ في يوم واحد.

وحكى الأصمعي قال: بينما أنا أسير في البادية إذ مررت بحجر مكتوب عليه هذا البيت:

أيا معشرَ العشاقِ بالله خَبِّروا إذ خلَّ عشقٌ بالفتى كيف يصنُعُ
فكُتبت تحته:

يبداري هواهُ ثم يكتُمُ سرَّهُ ويخشعُ في كلِّ الأمورِ ويخضعُ
ثم عدت في اليوم الثاني فوجدت مكتوباً تحته:

فكيف يبداري والهوى قاتلُ الفتى وفي كلِّ يومٍ قلبه يتقطُّعُ
فكُتبت تحته:

إذا لم يجد صبراً لكتمانِ سرِّهِ فليس له شيء سوى الموتِ أنفعُ
ثم عدت في اليوم الثالث فوجدت شاباً ملقى تحت ذلك الحجر ميتاً، فقلت لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وقد كتب قبل موته:

سمعنا أظعننا ثم متنا فبلغوا سلامي على مَنْ كان للوصلِ يمنحُ
وحكى أيضاً عن الأصمعي رحمه الله تعالى أنه قال: بينما أنا نائم في بعض مقابر البصرة إذا رأيت جارية على قبر تنذب وتقول:

بروحي فتى أوفى البرية كلها وأقواهم في الخبِّ صبراً على الحبِّ
قال: فقلت لها: يا جارية بم كان أوفى البرية، وبم كان أقواها؟ فقالت: يا هذا إنه ابن عمي هويبي فهويت، فكان إن أباح عَفْوَه، وإن كتم لاموه، فأنشد بيتي شعر، وما زال يكرّرها إلى أن مات، والله لأندبته حتى أصير مثله في قبر إلى جانبه، فقلت لها يا جارية فما اليتان؟ قالت:

يقولون لي إن بحثَ قد غرَكَ الهوى وإن لم أبْخُ بالحب قالوا تصبرا
فما لامريء يهوى ويكتُم أمره من الحبِّ إلا أن يموت فيعلزرا
ثم إنها شهقت شهقةً فارقت زوجها الدنيا رحمة الله تعالى عليها.

والحكايات في ذلك كثيرة، وفي الكتب مشهورة، ولولا الإطالة والخوف من الملالة لجمعتا في هذا المعنى أشياء كثيرة، ولكن اقتصرنا على هذه النبذة اليسيرة والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني والسبعون: في ذكر رقائق الشعر والموالي والدوبيت وكان كان والموشحات والزجل والحقاق والقومة والألغاز ومدح الأسماء والصفات وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في الشعر

قد قسم الناس الشعر خمسة أقسام: مرقص كقول أبي جعفر طلحة وزير سلطان الأندلس:

والشمس لا تشربُ خمرَ الندى في الروضِ إلا من كؤوس الشقي^(١)
ومطرب كقول زهير:

تراه إذا ما جثَّ مهلاً كأنك تعطيه الذي أنت سائلة
ومقبول كقول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ومسموع مما يقام به الوزن دون أن يمجه^(٢) الطبع كقول ابن المعتز:

سقى المطيرة ذات الظلِّ والشجر ودير عبدون هطال من المطر
ومتروك وهو ما كان كلاً على السمع والطبع كقول الشاعر:^(٣)

تقلقت بالهم الذي قلقل الحشا قلقل همّ كلهنّ قلقل

وقد قسم الناس فنون الشعر إلى عشرة أبواب حسبما يوب أبو تمام في الحماسة. وقال عبد العزيز بن أبي الأصبع الذي وقع لي أن فنون الشعر ثمانية عشرة فناً وهي: غزل، ووصف، وفخر، ومدح، وهجاء، وعتاب، واعتذار، وأدب، وزهد، وخمرات، وبراء، وشارة، وتهان، ووعيد، وتحليل، وتحريض، وملح، وياب مفرد للسؤال والجواب، ولذا ذكر إن شاء الله تعالى من ذلك ما تيسر على سبيل الاختصار، ولنبدأ من ذلك بذكر الغزل

(١) كؤوس الشقي: شقائق النعمان.

(٢) يمجه: يرفضه.

(٣) هذا البيت لأبي الطيب المتبي وقد عابه أقوام ومدحه آخرون بكثرة جناسه على اختلاف مشاربهم.

ابن نباتة:

وأقمار تَمَّ ما تَقُصُّمُ الغلائلُ
وسمر دقاق أم قدود قوائلُ
لها هدف مني الحشا والمقاتلُ
غدوت وسي شغل من الوجدي شاغلُ
يجور علينا قلُّهُ وهو عادلُ
وناظره الفئان في القلب عاملُ
فوقع يجري فهو في الخد سائلُ
وجد بقلبي جُبه وهو هازلُ
مديد التجني وافر الحسني كاملُ^(١)
فيئدو وللاعراب فيه دلائلُ
وينصب هجري عامداً وهو فاعلُ^(٢)
خيراً بأحكام الخلافو يجادلُ
بوصليك فافعل بي كما أنت فاعلُ
بمخيقك لا أصني وإن قال قائلُ^(٣)

أغصان بان ما أرى أم شمائلُ
ويضن رفاق أم جفون فواترُ
وتلك نبال أم لحاظ رواشقُ
بروحي أفدي شاديناً قد ألفتُ
أمير جمال والملاح جنوده
له حاجب من مقلتي حجب الكرى
رفعت إليه قصّة الدمع شاكياً
شكوت فما ألوى وقلت فما صغى
طويل الثواني دله متواترُ
أطارحه بالنحو يوماً تعللاً
ويرفع وُضلي وهو مفعول في الهوى
تفقهت في عشقي له مثل ما غدا
فيا مألوكي ما ضر لو كنت شافعي
فإنني حنفي الهوى متحنلُ

كمال الدين بن النيه:

كما تحت لمة ذا التركي من عجب
والخد يجمع بين الماء واللهب
وافتر مسئة الشهدي عن حب
بل في جنى فمه أو ريقه الشنب
بدر رمى عن هلال الأفق بالشهب
والهائم الصب منها غير مقترب
فمي ويلمها سهم من الخشب
لا عن رضا معرض عني بلا غصب
وليس لي في قيام العذر من سب
كما تمل رماح الخط بالعذب
بمعصم بشعاع الكأس مختضب
في حجرة الدن أو في قشرة العنب

الله أكبر كل الحسن في العرب
صبغ الجيني بلبل الشعر منعقد
تفشت عن عير الراح ريقه
لا في العذيب ولا في بارق غزلي
كانه حين يرمي عن حنوه
يا جاذب القوس قرياً لوجته
ليس من نكد الأيام يحرثها
من لي بأفيد قاسي القلب مبسم
فكم له في وجود الذنب من سب
تميل أعطافه تها بطرته
أشار نهوي وجنح الليل معتكر
بكر جلاها أبوها قبل ما جليت

(١) كامل: يوري بأسماء بحور الشعر.

(٢) فاعل: يستخدم اصطلاحات النحو.

(٣) البيتان اشتملا على قهواء المذاهب الأربعة الأئمة.

بكرُ جلاها أبوها قبلَ ما جليتُ
البهاء زهير:

يعاهدني لا خاتني ثم ينكث
وذلك دأبي لا يزال دأبه^(١)
أقول له صِلني يقول نعم غداً
وما ضرَّ بعضُ الناسِ لو كان زارني
أمولاي إني في هواك معذبٌ
فخذ مرةً روعي تُرخني ولا أرى
فإنني لهذا الضيم منك لحاملٌ
أعيذك من هذا الجفاء الذي بدا
ترددَ ظنِّ الناسِ في فأكثروا
وقد كرمتُ في الحبِّ مني شمائلُ

النايلسي:

ما كنت أعلمُ والضمائرُ تصدقُ
حتى سمعتُ بذكرِكُم فهو يُتُّكُم
ولقد قنعتُ من اللقاء ساعةً
قد يعمشُ العطشانُ بلةً ريقه
فمسي عيوني أن ترى لك سيدي

أبو الحسن الجزار:

في خدّه من بقايا اللحم تخميشُ
ظبي من الترك اغتته لواحظه
إذا تشبى قلبُ الغصن منكسرُ
يا عاذلي إن تكن عن حسنِ صورتي
كم ليلةً بات يبقيني المدام على
والغيث كالجيش يرتجّ الوجود له
في مجلس ضحكك أرجاؤه طلباً

في حجرة الدنّ أو في قشرة العنب

وأحلفُ لا كلّثته ثم أحنثُ
فيا معشرَ العشاق عنا تحدّثوا
ويكسرُ جفنأ هازناً بي ويعبثُ
وكنا خلّونا ساعةً نتحدّثُ
وحثام أبقى في الغرام وأمكثُ
أموتُ مراراً في النهار وأبعثُ
ومتظّرٌ لطفاً من الله يحدثُ
خلاتُك الحننى أرقُّ وأدمثُ
أحاديثُ فيها ما يطيبُ ويخبثُ
ويقالُ عني من أرادَ ويحدثُ

أن المسامح كالنواظرِ تعشقُ
وكذاك أسبَابُ المحبة تعلقُ
إن لم يكن لي للدوام تطرُقُ
وينصُّ بالماء الكثير ويشرقُ^(٢)
وجهاً يكادُ الحسنُ فيه ينطقُ

وبي تشويشِ ذاك الصدغ تشويشُ^(٣)
عما حوته من النبل التراكيشُ^(٤)
وإن تبلى فطرفُ البدرِ مدموشُ
أعمى فلاني عما قلت أطروشُ
روضي له بياض الغيم ترقيشُ
والبرق رأيتُه والرعدُ جاويشُ^(٥)
لأنه يسديع الزهر مفروشُ

(١) الدأب: العادة والبدن.

(٢) الشرق: الفصل.

(٣) تشويش: تخليط.

(٤) التراكيش: الكائنات.

(٥) جاويش: لفظة تركية ربما اشتقاقها من جيش.

تَرَى مَتَى مِنْ فَتُورِ اللَّحْظِ يَتَشَطُّ
قَدْ رَقَّ لِي خَصْرُهُ الْمَضْنَى فَنَاسَبَنِي
وَقَدْ خَفَى الرَّدْفُ عَنِّي مِنْ تَشَاقُلِهِ
وَصَدْرُهُ الرَّحْبُ قَدْ عَاقَقَتْهُ سَحَرًا
وَفِيهِ تِلْكَ النَّهْودُ الْمُشْتَهَاةُ تَرَى
إِنَّ الصَّوَابَ لَتُعْجِلُ السُّرُورِ قَم

القاضي مجد الدين بن مكناس:

أَهْدَى تَحِيَّهَ وَجَادَ بوعِدِهِ
بَلَدٌ جَرَى مَاءُ الْحَيَاةِ بِغَيْرِهِ
أَسْكَنَهُ قَلْبِي فَأَوْقَدَ خَدَّهُ
مَنْ لِي بِهِ حُلُوُ الشَّمَائِلِ أَهْيَفُ
يَا عَاذِلِي فِي حُبِّهِ لَوْ أَبْصَرْتُ
لَمَذَرْتُ كُلَّ مَيْمٍ فِي حُبِّهِ
فَوَحْتُ مَوْتِي فِي هَوَاهُ صَبَابَةً
مَا جَادَ غَيْثُ الدَّمْعِ إِلَّا عَمَّنْ هَوَى
قُمْ يَا رَسُولُ وَأَبْلِغِ الْعِشَاقَ مَا
وَإِذَا سَأَلْتُكَ أَنْ تُؤَدِّيَ فِي الْهَوَى

عز الدين الموصلي: والصحيح أن هذه الأبيات لابن نباتة لأنها في ديوانه.

نَفَسٌ عَنِ الْحُبِّ مَا أَغْفَتُ وَمَا غَفَلْتُ
دَعَهَا وَمَلْعَمَهَا الْجَارِي لَقَيْتُ
أَفْدِيكَ مِنْ نَاشِطِ الْإِجْفَانِ فِي تَلْقَايَ
وَأَوْضَحَ الْحَسَنُ لَوْ شَاءَتْ ذَوَائِبُهُ
مَعْنَلٌ بِنَعَاسٍ فِي لَوَاحِظِهِ
مَنْ لِي بِالْحَاطِظِ ظَلَمِي يَدْعِي كِلَا
وَحِمْرَةٍ فَوْقَ خَدَّيْهِ وَمَرْشُوفَةٍ
أَمَّا كِفَانِي تَكْحِيلُ الْجَفُونِ أَسَى
أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ أَعْطَافاً شَرِيفَةً كِبْدِي
وَمَهْجَةً لِي كَمْ أَلْقَتْ بِمَعْمَهَا

وغيره للفاضل:

شَرَحَ الشَّبَابَ بِحُكْمِ أَفْيُتُهُ

مَنْ قَلْبِهِ بِجِبَالِ الشَّعْرِ مَرْتَبَطُ
فَقُلْتُ خَيْرُ الْأُمُورِ الْأَنْسَبُ الْوَسْطُ
فَقُلْتُ هَذَا عَلَيَّ ضَعْفِي هُوَ الشُّطُطُ
وَالْقَلْبُ مُتَبَعُ الْآمَالِ مُنْبَسِطُ
رَمَاتُهَا فِيهِ، قَلْبِي أَمْرُهُ فَرَطُ
قَبْلَ الْفَوَاتِ فَأَوْقَاتُ الْهِنَا غَلَطُ

أَفْدِيهِ مِنْ قَمَرٍ بَدَأَ فِي سَعِيدِهِ
وَتَرَدَّدَتْ فَضْلَاتُهُ فِي خَدِّهِ
نِيرَانُ أَحْشَائِي عَلَيْهِ وَوَجْدِهِ
رَوَى الْعَوَالِي عَنْ مَقْفَرِ قَدِّهِ
عَيْنَاكَ فَوْقَ الرَّدْفِ مَسْبَلُ جَمِيدِهِ
وَعَلِمْتُ أَنَّ ضَلَالَتَهُ فِي رَشْدِهِ
وَحَيَاةِ مَبْسَمِهِ الشَّهْيُ وَبَرْدِهِ
خَلَعَ الْقُلُوبَ بِبَرْقِهِ وَبَرَعِيدِهِ
أَلْقَاهُ مِنْ جَوْرِ الْحَيِّبِ وَبُعْدِهِ
خَبْرِي فَصِفْ فَعَلَ الْغَرَامِ وَأَبْدِهِ

بِأَيِّ ذَنْبٍ وَقَاكَ اللَّهُ قَدْ قَتَلْتُ
مَا قَتَمْتُ مِنْ أَسَى قَلْبِي وَمَا عَمَلْتُ
وَالسَّحَرُ يُوهِمُ طَرَفِي أَنَّهَا كَسَلْتُ
فِي الْأَفَقِ وَضَلَّ دَجَا الظُّلُمَاءِ لَا تَصِلْتُ
أَمَا تَرَاهَا إِلَى كُلِّ الْقُلُوبِ حَلَّتْ
وَكَمْ ثِيَابٍ ضَمَى حَاكَتْ وَكَمْ غَزَلْتُ
هَذِي مُحَاسِنُهَا تَزْهَرُ وَذِي ذَبَلْتُ
حَتَّى الْمَرَاشِفُ مِنْهُ بِاللَّمَى كَحَلَّتْ
وَكَلِمَا رَمْتُ تَجْدِيدَ الْوَصَالِ قَلْتُ
إِلَى الْمَلَامِ وَلَا وَاللَّهِ مَا قَبَلْتُ

والعمرُ في كلفِ بكم قضيته

وأنا الذي لو مرّ بي من نحوكم
كيف التعرّض للسلو وجكم
له دلة في الفؤاد أجنته
قالوا حيّك في التجني سُرف
الرؤم من كلفي عليه تخلّصاً
ولو استعفّت بكل اسم في الوري

وللشيخ بدر الدين الدمايني:

سل سيفاً من الجفون صقيلا
صع عن جفني حديث فتور
من أبلى لنا من الخضر رذفاً
ذو قوام كأنه الفصن لكن
كامل الخشن وافر الظل، وجدي
فاتك الجفن ذو جمال كثير
قلت إذ لاح طرفه ولماء
كيف حالي وهل لصب إليه

وقال آخر:

لو أن قلبك لي يرق ويرحم
ومن العجائب أنني لا سهّم لي
يا جامع الضئيلين في وجناتي
عجبي لطرفك وهو ماضي لم يزَلْ
ومن المروءة أن تواصل ملثفاً

وقال آخر:

تصدّق بوعدي إن دمعني سائل
فخلّك موجود به البر دائماً
أيا قمراً من شمس طلعت وجهه
تقلّك من طرفي لقلب مع الهوى
جَعَلْتُكَ للتمييز نصباً لخاطري

وقال ابن صابر:

داع وكنت بحفرتي يئس
حباً بأيام الشباب شريته
يزداد نكماً كلما داويته
قاس على العشاق قلت فديته
لا والذي بطحله مكّة يئس
من لئق الذكرى به سبيته

مد تصلّي جلاء رحى قتيلا
وهو ما زال من قديم عيلا
فأزاتنا مع الخيف قتيلا
بالهوى نحو وضلنا لن يميلا
فيه يا عاذلي مديداً طويلا
ألف الماشقين إلا قتيلا
فاتر اللحظ بكرة وأميلا
من سيل قال لي ملّ سيلا

ما بث من ألم الجوى أتألم
من ناظرنيك وفي فؤادي أسهم
ماء يرق عليه نار تضرّم
فعلام يكر عنلما تتكلم
والدمر سنح والحوادث نُوم

وزوّد فؤادي نظرة فهو راجل
وجنك معنوم لتيه المائل
وظلّ عنانته الدجا والأصائل^(١)
وماتيك للبدن المنير منازل
فهلأ رفعت الهجر والهجر فاعل

(١) عيلا: (صح - عيل) ألفاظ ومصطلحات محدثين. (والشاعر محدث).

(٢) الأصائل: الوقت من العصر إلى المغرب.

قَبْلْتُ وَجَنَّةً فَأَلْفَتَ جِيَدَهُ
فَانْهَلُ مِنْ خَدَيْهِ فَوْقَ عِذَارِهِ
فَكَأَنَّنِي اسْتَطَعْتُ وَرَدَ خِدْوِدِهِ

وقال آخر:

وَعِزَالِي كُلِّ مَنْ شَبَّهَنِي
قَالَ إِذْ قَبْلْتُ وَهَمًّا فَمَنِي

وقال آخر:

بِأَبِي غِلَامٍ لَسْتُ غَيْرَ غُلَامِي
ذُو حَاجِبٍ مَا إِنْ رَأَيْتُ كُنُونِي

وقال جمال الدين بن مطروح:

ذَكَرَ الْجَمَى فَصَبَا وَكَانَ قَدْ اِزْعَوَى
تَجَرِي مَدَامِيْعُهُ وَيَخْفُقُ قَلْبُهُ
وَإِذَا تَأَلَّقَ بَارِقٌ مِنْ بَارِقٍ
فُخِّدُوا أَحَادِيثَ الْهَوَى عَنْ صَادِقٍ
وَيُمْنَحَنِي رِشَاءً أَطَالَتْ عُذْلِي
فَالُوا أَيْفِيهِ سَوَى رِشَاقٍ قَدُهُ
مَا أَبْصَرْتُهُ الشَّمْسُ إِلَّا وَاكْتَحَتْ
يُرْوِي الْأَرَاكُ مُحَاسِنًا عَنْ ثَقَرِهِ

وقال آخر:

عَبَثَ النَّيْمُ بِقَلْبِهِ فَتَأَوَّدَا
رِشَاءً تَفَرَّدَ فِيهِ قَلْبِي بِالْهَوَى
فَاسْوَاهُ بِالْفُصْنِ الرُّطِيبِ جِهَالَةً
حُنْنُ الْفُصُونِ إِذَا اكْتَحَتْ أَوْرَاقَهَا

وقال غيره:

يَا حَنَّاءَ مَا لَكَ لَمْ تَحْنِي
رَقَمْتَ بِالْوَرْدِ وَبِالسُّوسَنِ
وَقَدْ أَبَى خُلْدُكَ أَنْ اجْتَنِي

خَجَلًا وَمَالَ بَعَطْفِهِ الدَّيَّاسِ
عَرَقٌ يُحَاكِي الطَّلَّ فَوْقَ الْآسِ
بِصَاعِدِ الرَّقَرَاتِ مِنْ أَنْفَاسِي

يَهْلَالُ أَوْ يَسْدِرُ ظِلْمَةً
قَدْ تَعَذَّبْتُ وَأَسْرَفْتُ فَمَنِي

مُنْذُ جَدَّ لِي بَلَامِي وَكَلَامِي
أَبْدًا وَصَدَغٌ مَا رَأَيْتُ كَلَامِي^(١)

صَبَّ عَلَى عَرْشِي الْغَرَامُ قَدْ اسْتَوَى
مَهْمَا جَرَى ذِكْرُ الْعَقِيقِ مَعَ اللَّوَى
فَهَنَّاكَ يَنْشُرُ مِنْ هَوَاهُ مَا انْقَطَوَى
مَا ضَلَّ فِي شَرِّ الْغَرَامِ وَمَا غَوَى
فِيهِ الْمَلَامُ وَقَدْ حَوَى مَا قَدْ حَوَى
وَقَتُّورُ عَيْتِهِ وَهَلْ مَوْتِي سَوَى
خَجَلًا وَلَا غَضَنُ النِّقَا إِلَّا التَّوَى
يَا طِيبَ مَا تَقْلَ الْأَرَاكُ وَمَا رَوَى

وَسَرَى الْحَيَاءُ بِخَلْدِهِ فَتَوَرَّدَا
لِمَا غَدَا بِجَمَالِهِ مَقَرَّدَا
تَالَهُ قَدْ ظَلَمَ الْمَثْبُوءُ وَاعْتَدَى
وَتَرَاهُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مَجَرَّدَا

إِلَى قُلُوبٍ فِي الْهَوَى مُتَعَبَةً
صَفْحَةً خُدَّ بِالسَّنَا مَلْعَبَةً
مَنْهُ وَقَدْ أَلْتَنَفِي عَقْرَبَةً^(٢)

(١) كلامه: مثل لاهم.

(٢) عقرّب الصدغ: سالفه.

وَمَا لَذَاكَ اللَّفْظُ مَا أَعَذَبَهُ
وَكُلُّ أَلْفَاظِكَ مُسْتَعَذَّبَهُ
وَمَدَّ رَأْيِي مِتْيَا أَعْجَبَهُ

يَا حَسَنَةً إِذَا قَالَ مَا أَحْسَنِي
قُلْتُ لَهُ كُلُّكَ عِنْدِي سَنَا
فَقَرَّقَ التَّهْمَ^(١) وَلَمْ يَخْطِنِي

وقال:

وَجُئِبَهُ إِيَّايَ قَدْ أَتَعَبَهُ
قَتَلِي لَهُ لَمْ أَنْدِرْ مَا أَوْجَبَهُ

كَمْ مِنْ عَائِشٍ جَنَنِي
يَرْحُمُهُ اللَّهُ عَلَى أَنْتَنِي

وقال آخر:

وَيَخْجَلُ بَدْرُ التَّمِّ عِنْدَ شُرُوقِهِ
وَمَا فِيهِ شَيْءٌ بَارِدٌ غَيْرُ رِيقِهِ

مَلِيحٌ يَفْأَرُ الْفَصْنَ عِنْدَ اهْتِزَازِهِ
فَمَا فِيهِ مَعْنَى نَاقِصٌ غَيْرُ خَصِيرِهِ

وقال يحيى بن أكرم:

فَلَمَّا رَأَى ذُلِّي تَنَى عَطْفَهُ دَلَا^(٢)
وَأَقْبَلَنِي صَبْرًا وَأَغْلَنَنِي عَقْلًا
وَأَعْرَضَ مَزُورًا فَلِلْ حَشَا سَلًا
يُنَادِيهِ فَرَطُ الْعَجَبِ مِنْ عَطْفِهِ كَلًا

دَنَاهَا جَرَى نَحْوِي بِمَقْلَبِهِ الْكَلَاحِ
فَجَمَنِي شَوْقًا وَأَتَخَلَّنِي أَسَى
شَكُوْتُ فَمَا أَلْوَى وَأَلْوَى وَمَا لَوَى
إِذَا مَا دَعَا فَرَطُ شَقِيمِي لَزُورَةٍ

وقال أيضاً:

بَيْنَ الْمُذْنِبِ وَبَيْنَ شَطَطِي بَارِقِ
فَأَجَابَنِي عَنْهَا بِوَعْدِ صَادِقِ
وَمِنْ النُّجُومِ الزُّهْرِ تَحْتَ شَرِيقِ
صَهْبَاءَ كَالْمَسْكِ الذِّكِّي لِنَاشِقِ^(٣)
وَذَوَابِتَاهُ حَمَائِلُ فِي عَائِقِي
زَحَزَخْتُهُ عَنِّي وَكَانَ مُعَاتِقِي
كَيْ لَا يَنَامَ عَلَى فَرَاشِ خَافِقِي
قَدْ شَابَ فِي لَمَمٍ لَهُ وَمَفَارِقِي
صَغَبَ عَلَيَّ بِأَنَّ أَرَاكَ مَقَارِقِي

بِأَبِي غَزَالًا غَارَزْتُهُ مَقَاتِي
وَسَأَلْتُ مِنْهُ زُورَةً تَشْفِي الْجَوَى
يَتَنَا وَنَحْنُ مِنَ اللَّجَا فِي خِيَمَةٍ
عَاطِيَتُهُ وَاللَّيْلُ يَحْبُبُ ذَيْلَهُ
وَضَمَمْتُهُ ضَمًّا الْكَمِيِّ^(٤) لَتَيْفِهِ
حَتَّى إِذَا مَالَتْ بِهِ سِنَّةُ الْكَرَى
أَبْعَدْتُهُ عَنْ أَصْلَحِ تَشْتَاقِهِ
لَمَّا رَأَيْتُ اللَّيْلَ أَخْرَجَ عُمْرِهِ
وَدَفَعْتُ مَنْ أَمْوَى وَقُلْتُ نَاشِقًا

وقال ابن نباتة:

فَمَا أَنْهَى الْغَزَالَ وَالْغَزَالَ

بَدَا وَرَزَنَتْ لَوَاحِظُهُ دَلَالَا

(١) السهم: أعده ويراه.

(٢) دلاً: تدلاً.

(٣) ناشق: مستشق - شام.

(٤) الكمي: الفارس الشجاع.

وَأَسْفَرَ عَنْ مَنَا قَمَرٍ مُبِيرٍ
صَقِيلُ الْخَدِّ أَبْصَرَ مَنْ رَأَى
وَمِنْهُوَ الْوَصَالُ إِذَا تَبَدَّى
عَجِبْتُ لِنَفْسِهِ الْبَسَامِ أَبْدَى
شَهَدْتُ بِشَهِدٍ رِيقَتِهِ لَأَنِّي
فِي عَجَبٍ لِحُسْنٍ قَدْ حَوَاهُ
سَأَشْكُرُ الْحَسَنَ مَا بَقِيََتْ حَيَاتِي

القاضي فخر الدين بن مكاس:

يَا غَضناً فِي الرِّيَاضِ مَالَا
يَا رَائِحاً بَعْدَ أَنْ سَبَانِي

وله أيضاً:

أَجَارَكَ اللَّهُ قَدْ رَزَّكَ لِي
وَعَاذَلِي مُذْ رَأَى ضُلُوعِي

ابن رفاعه:

يَقُولُونَ هَلْ مَنَّ الْحَيْبُ بِزُورٍ
فَقَالُوا لَنَا غُرُوبُوا عَلَى قَدِّهِ وَمَا

الشيخ برهان الدين القيراطي:

وَوَرْدِي خَدُّ نَرْجَسِي لَوَاحِظٍ
وَوَاوَاتُ صَدَغَتِي حَكِيمِنَ عَقَارِيَا
وَوَجْشُهُ الْخَنْزَرَا تَلُوحُ كَجَمْرَةٍ
وَوُدِّي لَهُ بَاقٍ وَلَسْتُ بِسَامِعٍ
وَوَاللهِ مَا أَسْلَسُوا وَلَوْ صِرَتْ رَمَّةٌ

وللشيخ برهان الدين القيراطي أيضاً:

ثَبَّهُ السِّيفُ وَالسِّنَانُ يَشِي
فَأَبَى السِّيفُ وَالسِّنَانُ وَقَالَ

وله أيضاً:

بِأَبِي أَمِيفُ الْمَعَاظِنِ لَذَنْ
ذُو جَفُونٍ مَدَّ رُمْتَ مِنْهَا كَلَاماً

وقال آخر:

تَمْلِكُ رَقِي شَادَنْ قَدْ هَوَيْتُهُ

وَلَكِنْ قَدْ وَجَدْتُ بِهِ الضَّلَالَا
سِبَاذَ الْعَيْنِ فِيهِ فَخَالَ خَالَا
وَجَدْتُ لَهُ مِنَ الْأَلْفَاظِ لَالَا
لَنَا دُرّاً وَقَدْ سَكَنَ الزَّلَالَا
رَأَيْتُ عَلَى سَوَالِفِهِ نَمَالَا
وَقَدْ أَهْدَى إِلَى قَلْبِي الْوَتَالَا
وَأَشْكُرُ مِنْ صَنَائِعِهِ الْجَمَالَا

حَمَلْتَنِي فِي هَوَاكَ مَالَا
حُبُّكَ رَبُّ الثَّمَا تَعَالَى

مِمَّا أَلَا قِي عِدَا وَخُذْ
تَعْلُ سَقَمًا بَكِّي وَعِلْدُ

وَمَنَّا كُمُ الْمَطْلُوبُ قَلْنَا لَهُمْ مَنَا
يُحَاكِي إِذَا مَا اهْتَزَّ، قَلْنَا لَهُمْ غَضْنَا

مَشَايخُ عِلْمِ السَّحْرِ عَنْ لَحْظِهِ زَوَا
مِنْ الْمَسْكِ فَوْقَ الْجَلَنَارِ قَدْ اتَّوَا
عَلَيْهَا قُلُوبُ الْعَاشِقِينَ قَدْ اكْتَوَا
لِقَوْلِهِ حَسُودٍ وَالْعَوَاضِلُ إِذَا عَوَا
فَكَيْفَ وَأَحْشَانِي عَلَى حُبِّهِ انْطَوَا

مَنْ لِقَتَلَنِي يَنْ الْأَنَامِ اسْتَحَلَا
حَلُنَا دُونَ ذَلِكَ حَاشَى وَكَلَا

حَسَدَ الْأَسْمَرُ الْمُخْضَفُ قَلْدُهُ
كَلَمْتَنِي سِيَوْنُهُنَ مَحَلْدُهُ

مِنْ الْهِنْدِ مَعْسُولُ اللَّمَى أَمِيفَ الْقَدِّ

أقول لصّخي حين يَزُنُو بطرفه خُذُوا حذرَكُمْ قد سَلَّ صارِعُهُ الهندي

ومما قيل في الغزل المؤنث للشيخ شمس الدين بن البديري:

خيالٌ سلمى من الأجفان لم يَعبِ وذكرُها أنسُ روعي وهي نائيةٌ
لم أضغ فيها ليلَاحٍ راحَ يَنذُلُنِي عنائها في الهوى عذبٌ ألدُّ بهِ
فإن نأتُ أو دَنَتُ وجدي كما علمتُ دَفَعَهَا فامرُؤُ الهوى المحبوبِ مَنيعٌ

وقال عفا الله عنه:

سقى طلالاً حلتُهُ سلمى معاهد فرَنَجَ به سلمى معيِفٌ ومريعٌ
وحيثُ ثَوَتْ أرضاً فأعذبُ مورد رعى الله دهرًا سالتَنِي صُروفُهُ
وقد غفلَ الواثون عَنِّي ولم أزلُ وأبائنًا بالقربِ يَفُضُّ أزامِرُ
وأرواحنا ممزوجةٌ وقلوبنا وكم قد مَرَجْنَا في مروجِ صبابِ
تجرُّ ذبولُ اللهورِ في فَمِ الهوى ولم يَخطِرِ الضريقُ مِنَّا بخاطرٍ
فهل أنتِ يا سلمى وقد حَكَمَ الهوى وهل وُدُّنا باقٍ وإلا تَنَيَّرَتْ
وهل مُجِيتُ آثارِ رسمِ حَدِيثِنا وهل تذكُرِينَ العهدَ إذ نحنُ بالهوى
وهل أنتِ غَيَّرْتِ الذي أنا حافظُ وهل بُدِلَتْ منكِ المودةُ بالجفا
واني وما بدلت عهدك في الهوى ولا بسُكٍّ سروراً وعيشك ليلةً
فإن كنتِ جبلَ الودِّ صرَفْتِ طَرْفَهُ وحياءُ من دَمَعِي مُذَابٌ وجامدُ
وأرضُ نأتُ عنها قَفَارٌ جلامدُ ولو كدَرَتْ منها عليَّ المَواردُ
وظَلَّتْ لياليه بلمى تصاعدُ ويقظان طرفِ اليَاسِ عَنِّي راقِدُ
وأوقائنا بالوصلِ خضرُ أمالِدُ^(١) ونحن كائنًا في الحقيقَةِ واحدُ
ولم يَطْرُدْ فينا من اليَاسِ طاردُ تلبوخُ علينا للغرامِ شواهدُ
ولم نَحَسِبِ الأيامَ فينا تُعَانِدُ كما كنتِ لي أم حادَ بالقلبِ حائدُ
على عادةِ الأيامِ منك العوائِدُ وأنتِ كَيفَ الودِّ هذا التباعدُ
وقولكِ لا عاشَ الخنُونُ المعاهدُ وهل أنتِ أحلَلْتِ الذي أنا عاقدُ
وفيك يَقيَنِي بالوفا منك شاهدُ ولا اختلفتُ فيما علمتُ العوائِدُ
وكيف سُلُوِي والحيبُ مباعدُ فودِّي طريفُ في هواكِ وتالدُ^(٢)

(١) أمالِد: مَلَس.

(٢) طريف وتالد: حديثٌ وعتيق.

وإن قلت إن الحبَّ غَيْرُهُ النَّوَى
وإن أوردوا يوماً صباية عاشق
فما شئت كوني إنني بك مُدنفٌ
ومنك تساوى عندي الوصلُ والجفا
ولو رمث ألوِي عن هوائك أعتني
نصبت شراك الحبِّ صلت حشائتي
بعدت وقلتُ الينُّ يسلي أخا الهوى
وما غيرُ الضريقِ ما تمهيدُنة
وجلُّ مناي القربُ منك وإنما

وقال عفا الله عنه:

تَهْلُؤُنِي بِبَرِيحٍ وَيَسِي
وتحلفُ لي لتلبسني سقاماً
وتُرميني ببللٍ من جفونٍ
وتحرقني بنارِ الصَّدْحَى
قللتُ لها ودعيتُ في انكسارٍ
ومَن لي أن يقالَ قَتِيلٌ وجِدْ

وقال عفا الله عنه:

سَلَوِي عَنْكَ شَيْءٌ لَيْسَ يُرَوَى
ولم يمررُ سواك على ضَمِيرِي
وما لك عن سوادِ العينِ يوماً
وما انضمرت دواعي الشوقِ إلا

وقال عفا الله عنه:

قَمَّا بَيْتِكَ دَاراً شَطَطاً عَمَّا مَزَاوَرَهَا
وعوجاً بأطلالٍ مَحْتَمَهَا بِدُ النَّوَى
قللنا بها ريماً من الإنس إن رنث
تصيدُ قلوبَ العاشقين أنيسةً
ويهرأ بالأغصانِ لِينُ قَوَائِمَهَا

لَعَمْرِي وَجَلِي بِالْحَشَاشَةِ وَقَدْ^(١)
فبي يُضَرِّبُ الْأَمْشَالَ مَنْ هُوَ وَارِدُ
صَبُورٍ عَلَى الْبَلَوِ شَكُورٌ وَحَامِدُ
وفيك لقد هانت عليَّ الشدائدُ
لقاد زمامي نحو جُوك قائدُ
فكيف خلاصي والهوى منك صائدُ
وهل يسلي ذا الأشجانِ هذا التباعُدُ
وسوقُ سُلُوِي في المحين كاسدُ
إذا عظمَ المطلوبُ قل الماعُدُ

وَتُوعِدُنِي بِتَغْرِيقٍ وَصَدِّ^(٢)
تَهِي^(٣) جَلِي بِهِ وَتُذِيبُ جَلِي
تُغْنِيَنِي وَتُغْنِيَنِي وَتُزِي
تذيبُ حشائتي كمداً وكبلي
يفيضُ دماً على صفحاتِ خدي
واذكرُ من هوائك ولو يصلي

وَجَبِي فِيكَ سَارَ مَعَ الرِّكَابِ
ووجلي فيك أسره فذابي
وما لسوادِ قلبي من حجابِ
مزرتُ إليك أجنحةَ الثَّصَابِي

وأنحلنا بعد البعاد اذكأرهما^(٣)
فاظلم بالنأي المُثِثُ نهارهما
بمقلتها يُمَتِّي القلوبَ احورأرهما
ويحسن منها صلها ونفأرهما
إذا مأل فوق الغصن منها خمارهما

(١) واقد: تحدد في قلبي.

(٢) تهى: تضعف.

(٣) اذكأرها: تذكرها.

وليس لبدر التّم قامة قدّها
منازلُها مني الفؤاد وإن نأى
يمثلُها بالوفهم فكري لناظري
وهيَج دَمعي حرّ نارِ صَبَابتي
وساعدني بالأنيك ليلاً حَمَائِمُ
بكَيْنٍ ولم تَسْفَحْ لهنّ مدامعُ

وما هو إلا جِئَلُها وسواؤها
عن العين مَنواها فقي القلبِ دارُها
وأكثرُ ما يُضني النفوسَ افتكأؤها
وما خمدتُ بالدمع مني نارُها
تهاتِفُ شجواً لا يقرُّ قَرَارُها^(١)
وعيني فاضتُ بالدموعِ بِجَارُها

ولمؤلفه رحمه الله تعالى وهو قول ضعيف على قدر حاله لكنه يسأل الواقف عليه من أفضاله متر ما يراه من عبويه وأن يدعو له بمغفرة ذنوبه.

نسيمُ الصبا بَلَّغَ سُليَمي رسائلي
فقد صارَ بالأسقام صبّاً مُعَذِّباً
صبوراً على حرّ الغرامِ وَيَزِدُّه
يبعثُ على جَنرِ الغفسي متقلباً
إلا يا سُليَمي قد أضربَ بي الهوى
رُبيثُ بهم من لحاظك قاتلُ
كمتُ غرامي في هواك ولم أُبْخِ
سُليَمي سَلّي ما قد جَرَى لي من النوى
لعلّ تجودِي للكيبِ وتَسْجِي
عسى تَطْفِي بالوعدِ نارِي وأشغِي
خفيثُ عن العوادِ لولا تأوّهِي
فَرُقِي قد رَقَّتْ عِيادي لِذُلَّتِي
تَفَفَّتْ زَمَانِي في عَسي ولعلّها
فما آن أن تَرْضِي عليّ وترحمي
توسّلتُ بالمختارِ في جَنحِ شَمَلِنَا

بلطفٍ وقل عن حالِ صَبْك سائلي
قريحَ جفونٍ من دموعِ هَوَائلي
حليفَ القننى لم يُضغِ يوماً لعاذلِ
ينزلُ غراماً فارحِيهِ وواصلِي
وما جئتُ بتريحِ الغرامِ بلابلي
فلم يَحْطُ قلبي والحشا ومقَاتلي
برّ فباحثُ أدمعي برسائلي
فقد عادَ لي حالٌ له رُقٌّ عاذلي
بوعِدٍ وبعدُ الوعدِ إن شئتِ ما طلي
فبالسقمِ أعضائي وَفَتِ ومفاصلي
وعظمُ أُنبي لا يراني مسائلي
وفاضتُ على حالي عيونُ عواذلي
وما فزتُ في الأيام منك بطائلِ
خَنَى جسدي فالوجدُ لا شكّ قاتلي
نبيّ له فضلٌ على كلِّ فاضلِ

وله رحمه الله تعالى:

يا رُبّةَ الحسنِ مَنْ بالصدِّ أَوْصَاكِ
ويا فتاةً بفُتَانِ القوامِ سَبَتِ
لقد جئتُ غراماً مُدْ رَأى نظري
ومدّ رآه جفاً طيبُ المنامِ وقد
علبتني بالتجنّي وهو يغلب لي

حتى قلتِ بغيرِطِ الهَجَرِ مُفَنَّاكِ
مَنْ في الوري يا ثرى بالقتلِ أَفْئَاكِ
في النومِ طيفَ خيالٍ من مجيّاكِ
أضحى عيلاً حزناً لم يزل باكي
فهل ترى تَسْمَحِي يوماً بِزَوْيَاكِ

فإن الله يعلم أن ما نَسَيْتَكَ
أضْحَى فؤادي أسيراً لحظ عينك
ولا عذاب نفوس قبل أهواك
أَمْسى أسيراً سوى في حُسن معنك
ولا تُطيلني بحسنى الله جفواك
ومهجوة تَلَقَّتْ يا هندُ أَمْسَاك
وأنت يا هندُ لا ترثي لمضناك
ولو فنيْتُ غراماً لست أنساك

إن كنت لم تذكرنا بعدَ فرقتنا
ما أن أن تعطيني جوداً عليّ فقد
ما كنت أحبُّ أن العشق فيه ضنى
حتى تولّع قلبي بالغرام فما
رقي لمبدك جوداً واعطيني وذري
يا هندُ رفقاً بقلب ذاب فيك أسي
رق العذول لحالي في الهوى ورثي
والله لو مت ما أسلاك يا أملي

وقال آخر:

يسيرُ أمام العيسر وهو ذليلُ
فؤادي سرى في الركب وهو عجولُ
لتعلم ما هذا إليه يؤولُ
فمن باب أولى أن يجد رجيلُ
وما زال ليلُ العاشقين طويلُ
فقالَتْ وجسمُ العاشقين نجيلُ
ييوم وداع ما إليه سيلُ
لكيلا أرى يوماً عليّ تقبلُ

كأن فؤادي يوم سرث دليلُ
فسرث عقيب الظاعين لكي أرى
وقالَتْ لي كيف حالك بعدنا
فقلتُ لها قد متُّ قبل ترخلي
وقلتُ فلئلي طالَ هماً فأنشدتُ
فقلتُ وجسمي لم يزَل مترجفاً
فقلتُ لها لو كنت أدري فراقنا
فلعلتُ لعيني في هواك بأصبعي

وقال الواواء الدمشقي عفا الله عنه:

ما لي، وما لك قد أطلت سهادي
أبعثتني ولقد سكنت فؤادي
روحني وقلبي والحناء وفؤادي
قلبي أسيراً ما له من فادي
فلكم صرغيت بها من الأساد
والحسن منها عاكف في بادي
ودعي السيوف تقر في الأغصان
فبمسمك شفاء الصادي
ولقد فني صبري وعاش سهادي
يا جذا لأراك من فؤادي
من حلك المتفرق الوقاد
ما لي سواك ولو حرمت مرادي
وبه سألني الله يوم معادي

يا من نكت عني لذيذ فؤادي
فبأي ذنب أم بأي حال
وصددت عني حين قد ملك الهوى
ملكك لحاظك مُهْجتي حتى غدا
لا غرو أن قتلت عيونك مُغرماً
يا من حوت كل المعاسن في الورى
رفقاً بمن أسرت عيونك قلبه
وتعطفتني جوداً عليّ بقبله
ماتت أطال الله عُمرَكَ سلوتي
ومن المنى لو دام لي فيك الضنى
وأجبل منك نواظري في ناضر
وأول ما شئت اصنعي يا منيتي
إلا مديح المصطفى هو عمدتي

وقال البهاء زهير:

إذا جُنَّ ليلي هامَ قلبي بذكركم
وفوقي سحابٌ يطرُ الهَمُّ والأسى
سلوا أم عمرو كيف باتَ أسيرُها
فلا أنا مقتولٌ قسي القتلِ راحةً

وقال مجنون ليلي:

وقد خبروني أن تيماء منزلٌ
فهذي شهورُ الصيفِ عنا قد انقضت
أعدُّ الليالي ليلةً بعدَ ليلةٍ
وأخرجُ من بينَ البيوتِ لعلني
ألا أيتها الركبُ اليمانيونَ عرجوا
يمينا إذا كانت يمينا فإن تكن
أصلِّي فما أدري إذا ما ذكرتها
خليلي لا والله لا أملكُ الهوى
خليلي لا والله لا أملكُ الذي
قضاها لغيري وابتلاتني بحبها
ولو أن واثق باليمامة داره
وددتُ على حبي الحياة لو أنه
على أنني راضي بأن أحمل الهوى
إذا ما شكوتُ الحبَّ قالت كلبتني
فلا حبَّ حتى يلصقَ الجلدُ بالحشا

وقال آخر:

قالت لطيف خيالٍ زارني ومضى
فقال خلفته لو مات من ظمأ
قالت عهدتُ الوفا والمصدقَ ثيمته

كمال الدين بن النبيه:

أما ويصاضُ مبيك النسي
ورماناً من الكافور تغلرو
وقلُّ كالقضيبي إذا تئسى
لقد أسقمتُ بالهجرانِ جسمي

وسمرة مسكة اللبس اللثمي
عليه طوالعُ الندِّ الثلي
خشيتُ عليه من ثقل الحلبي
وأغظتني ومالك بعد ربي

يُوحِ بِمُضْمِرِ السَّرِّ الْخَفِيِّ
فَوَيْلٌ لِلشَّجِيِّ مِنَ الْخَلِيِّ

إِلَى كَمِ أَكْثَمِ الْبُلُوى وَدَمْعِي
وَكَمْ أَشْكُو لَلْأَمِيَّةِ غَرَامِي

صفي الدين الحلبي:

وَأَتَيْتُكَ تَحْتَ مَدَارِعِ الظُّلُمَاءِ
وَكَلِمَةُ الدُّوَاءِ يَكُونُ بَعْدَ الدُّوَاءِ
فَضُتُّ بِهَا قَفْضَتِي عَلَى الْأَحْيَاءِ
دَلَّ بِبَاطِنِ خِيَمَةِ زُرْقَاءِ
عَقَبْتُ غِيثُ بِوٍ عَنِ الصَّهْبَاءِ
مَنْ بَعْدَهَا فِيهِ يَدُ الْبُرْخَاءِ^(١)
جَزَعاً وَمَا نَظَرْتُ جِرَاحَ احْتِثَائِي
مَا أَخْطَأْتَهُ أَسْنَةُ الْأَعْدَاءِ
أَضْعَافَ مَا عَائَيْتُ فِي الْأَعْضَاءِ
نَجْلَاءَ أَوْ مَنْ مَقْلُوهُ نَجْلَاءِ

أَبَتْ الرِّوَالُ مَخَافَةَ الرِّقَابِ
أَصْفَتُكَ مِنْ بَعْدِ الصَّدُودِ مَوْدَةً
أَحْيَتْ بِزُورَتِهَا الضُّوْسَ وَطَالَمَا
أَمَسْتُ بِلِيلِ وَالنَّجْمُومُ كَأَنَّهَا
أَمَسْتُ تُعَاطِيَنِي الْمَدَامَ وَيَتَنَا
أَبَتْ إِلَى جِسْدِي لَتَنْظُرَ مَا انْتَهَتْ
أَلْفَتْ بِوٍ وَقَعَ الصَّفَاحُ فِرَاعَهَا
أَمْصِيَّةً مِنْهَا بَنِيْلٌ لِحَاطِطَهَا
أَعْجَبْتَ مَا قَدْ رَأَيْتُ فِي الْحِشَاءِ
أَمْسِي وَلَسْتُ بِسَالِمٍ مِنْ طَعْنِهِ

وله رحمه الله تعالى:

فَمَا أَنَا مَنِّي بِحَيَا إِلَى حِينٍ نَلْغِي
وَتَشَبَّهْتُ وَمَا حَلَّ الْيَاخُضُ بِمُفَرَّقِي
وَلَمْ تَفَرَّقِي بَيْنَ الْمُنْعَمِ وَالشَّقِي
وَمَزَّقْتُ شَمْلَ الْوَصْلِ كُلَّ مَمَزَّقِي
وَأَحْيَيْتُ قَوْلَ الْهَجْرِ مِنْ غَيْرِ مُشْفِقِي
عَشِيَّةَ زَيْتٍ لِلتَّرْجُلِ أَيُّقِي^(٢)
وَلَا تَلْمِمْ أَعْمَالَهُ وَتَرْقِّقِي

قَفِي وَدُهِنَا قَبْلَ وَشَكِّ الضَّرْفِي
قَضَيْتُ وَمَا أَوْدَى الْجَمَامُ بِمُهْجِنِي
قَنَعْتُ أَنَا بِالذَّلِّ فِي مَلْهَبِ الْهَوَى
قَرَنْتُ الرِّضَا بِالسُّخْطِ وَالْقُرْبَ بِالنَّوَى
قَبْلْتُ وَصَايَا الْهَجْرِ مِنْ غَيْرِ نَاصِحِ
قَطَعْتُ زَمَانِي بِالْعُدُودِ وَزَرْتَنِي
قَضَى الدَّهْرُ بِالتَّضَرُّقِ فَاصْطَبِرِي لَهُ

وقال عفا الله عنه:

فَعَطَرْتُ سَائِرَ الْأَرْجَاءِ بِالْأَرْجِ
فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ أَهْتَا عَنْ السَّرِجِ
بِحَارِمْ فِي نَبَالِ الْفَنَجِ وَالْدَمَجِ^(٣)
فَكَانَ غَفَرَانُهَا يُغْنِي عَنِ الْحَجَجِ
فَمَا عَلَيَّ إِذَا أَذْنِبْتُ مِنْ حَرَجِ

جَامَتُ لَتَنْظُرَ مَا أَبَقْتُ مِنَ الْمَهْجِ
جَلَسْتُ عَلَيْنَا مَحِيًّا لَوْ جَلَسَتْ لَنَا
جَوْرِيَّةُ الْخَدِّ تَحْمِي وَرَدَّ وَجَّهَهَا
جَزَتْ إِسَاءَةَ أَعْمَالِي بِمَغْفِرَةٍ
جَادَتْ لِعَرَفَانِهَا أَنِّي الْمَرِيضُ بِهَا

(١) البرحاء: الضنى.

(٢) أَيُّقِي: تهيأت النوق للرحيل.

(٣) الفنج: الذَّل. والدمج: وساعة في العين.

جَسَّتْ يَدِي لَتَرَى مَا بِي قَلْتُ لَهَا
جَسَّوْتَنِي فَرَأَيْتُ الْعَبِيرَ أَجْمَلَ بِي

وقال ابن نباتة:

رَقْتُ لَنَا حِينَ هَمَّ الشَّفَرُ بِالشَّفَرِ
رَاضٍ الْهَوَى قَلْبَهَا الْقَاسِي فَجَادَ لَنَا
رَأَتْ غِدَاءَ النَّوَى نَارَ الْكَلِيمِ وَقَدْ شَبَّتْ
رَشِيقَةً لَوْ تَرَاهَا عِنْدَمَا سَفَرَتْ
رَأَيْتُ بَدْرَيْنِ مِنْ وَجْهِ وَمِنْ قَمَرٍ
رَشَفْتُ دُرَّ الْحَمِيَا مِنْ مُقْبَلِهَا
رَنْتُ نَجُومَ الدَّجَى نَحْوِي فَمَا نَظَرْتُ
رَاقَ الْعَنَابُ وَأَبَدْتُ لِي سَرَائِرَهَا

وقال ابن الساعاتي:

قُبِّلَتْهَا وَرَشَفْتُ خَمْرَةَ رِقِّهَا
وَدَخَلْتُ جَنَّةَ وَجْهِهَا فَأَبَاحَنِي

وقال آخر:

بَكَتُ لِلْفِرَاقِ وَقَدْ رَاعَهَا
كَأَنَّ الدَّمْعَ عَلَى خَدِّهَا

وقال الواواء الدمشقي (تضمن):

قَالَتْ مَتَى الظَّمْنُ يَا هَذَا قَلْتُ لَهَا
فَأَمْطَرَتْ لَوْلَا مِنْ نَرْجِسٍ وَسَقَتْ

ولابن نباتة:

عَذُولِي لَسْتُ أَسْمَعُ مِنْهُ قَوْلًا
لَهُ طَرَفٌ ضَرِيرٌ عَنْ سَنَاهَا

وقال آخر:

وَرَبَّ لِنَالٍ فِي مَوَاهَا سَهْرُهَا
حَدِيثِي عَالٍ فِي السَّهَادِ لِأَنِّي

السراج الوراق:

يَا لَأَيْمِي فِي مَوَاهَا
مَا يَعْلَمُ الشُّوقُ إِلَّا

كَفِّي فَذَاكَ جَوَى لَوْلَاكَ لَمْ يَهْجِ
وَلَذَّةُ الْحَبِّ حَوْرُ النَّاطِرِ الْغَنَجِ

وَأَقْبَلْتُ فِي اللَّجَى تَسْعَى عَلَى خَذَرٍ
وَكَانَ أَبْخَلَ مِنْ تَمُوزَ بِالْمَطَرِ
فَلَمْ تَبْقَ مِنْ قَلْبِي وَلَمْ تَلْزِ
وَالْبَدْرُ سَاهٍ إِلَيْهَا سَهْوٌ مَعْتَلِرٍ
فِي ظِلِّ جَنَحَيْنِ مِنْ لَيْلٍ وَمِنْ شَعْرِ
إِذَا نَهَيْتَنِي إِلَيْهَا نَسْمَةُ الشَّحْرِ
مَنْ يَرْشِفُ الرَّاحَ قَلْبِي مِنْ فَمِ الْقَمَرِ
فِي لَيْلَةِ الْوَصْلِ بَلْ فِي غَرَّةِ الْقَمَرِ

فَوَجَدْتُ نَارَ صَبَابَةٍ فِي كَوْنِي
رَضَوَانَهَا الْمَرْجُو شَرِبَ الْمَكْرِي

بَكَاءُ الْمَحَبِّ لُبْعِدِ الدِّيَارِ
بَقِيَّةُ طُلٍّ عَلَى جُلْنَارِ

إِمَّا غَدَا زَعَمُوا أَوْ لَا قَبْعَدَ غَدٍ
وَرَدًّا وَعَقَّتْ عَلَى الْعَنَابِ بِالْبَرْدِ

عَلَى غِدَاءٍ مِثْلَ الْبَدْرِ تَمَّا
وَلِي أُنْذَنُ عَنِ الْفَحْشَاءِ صَمًّا

أُرَاعِي نَجُومَ اللَّيْلِ فِيهَا إِلَى الْفَجْرِ
رَوَيْتُ أَحَادِيثَ السَّهَادِ عَنِ الزَّهْرِي

أَسْرَفْتُ فِي اللَّزْمِ جَهْلًا
وَلَا الْمَصَابِيحُ إِلَّا

وقال آخر:

وَأَنْتَ فِي النَّهَارِ تَسْحَبُ ذَيْلَا
كَيْفَ صَدَقْتَ أَنْ تَرَى الشَّمْسَ لَيْلَا

وَعَدْتُ أَنْ تَزُورَ لَيْلَا فَالْوَرْدُ
قُلْتُ هَلَا صَدَقْتَ فِي الْوَعْدِ قَالَتْ

لمز الدين الموصلي:

ذَاتِ وَجْهِ بِهَا الْجَمَالُ تَفْتَنُ
وَدَفْعَتَاهُ بِالنَّصِي هِيَ أَحْسَنُ

قَدْ سَلَوْنَا عَنِ الْغَزَالِ بِخُودِ
وَرَجَعْنَا عَنِ التَّهْلُكِ فِيهِ

وقال آخر:

سَادَ يَقِيهَا عَلَى الْأَرَاكِ
قُلْتُ لَهَا ذَاقَهُ سَوَاكِي

قَالَتْ وَنَاوَلْتُهَا سَوَاكِ
سَوَايَ مَا ذَاقَ طَعْمَ رَيْقِي

وقال آخر:

قَالَتْ مُحِبٌّ دَعَاهُ يَعْنُرُ
وَأَحْسَنُ الْكُفْرِ الْمَكْرُرُ

سَأَلْتُهَا أَنْ تَعِدَ لَفْظًا
حَدِيثُهَا سَكْرٌ شَهِيٌّ

ابن نباتة:

أَثَرَ الْقَامِ بِجِسْمِي الْمَنَاضِي
أَنَا بِالْقَامِ وَأَنْتِ بِالْأَعْرَاضِي

وَمَلُولَةٍ فِي الْحُبِّ لَمَّا أَنْ رَأَتْ
قَالَتْ تَغْيِرُنَا قُلْتَ لَهَا نَعَمْ

وقال أبو الطيب المتنبي:

الْبَاسَاتُ مِنَ الْحَرِيرِ جَلَابِيَا
وَجَنَاحَتَهُنَّ النَّاهِبَاتُ النَّاهِبَا
تُ الْمَبْدِيَّاتُ مِنَ الدَّلَالِ غَرَابَا
فَوَضَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ فَوْقَ تَرَابَا
مِنْ حَرٍّ أَنْفَاسِي فَكُنْتُ الدَّاهِبَا
وَإِذْ لَكُنْتُ بِهِ الْغَزَالَةَ كَاعِبَا
مَنْ بَعْدِي أَنْ أَتُبْنَ فِي مَخَالِبَا

بِأَبِي الشَّمْسِ الْجَانِحَاتُ غَوَارِيَا
النَّاهِبَاتُ عَيْنُونَا وَقُلُوبُنَا
النَّاعِمَاتُ الْقَاتِلَاتُ الْمَحْيَا
حَاوَلْنَ تَفْدِيَتِي وَخَفْنَ مَرَاقِبَا
وَسَمْنَ عَنْ بَرْدِ خَشِيَّتْ أَذْيَبَا
يَا حُبًّا الْمَتَحَمِّلُونَ وَحُبًّا
كَيْفَ الرِّجَاءُ مِنَ الْخُطُوبِ تَخْلُصَا

وله أيضاً من جملة قصيدة:

غُفُولَانِ عَنَّا ظَلَمْتَ أَبْكِي وَتَبِيمُ
لَمْ تَرَ قَبْلِي مِتًّا يَتَكَلَّمُ

وَلَمَّا التَّقِينَا وَالنَّسْوَى وَرَقِينَا
فَلَمْ أَرِ بَدْرًا ضَاحِكًا قَبْلَ وَجْهِهَا

الشرif الرضي:

وَمَعْنِي وَمَعْنِيكَ وَمَعْنِي دَلِي
قَالَتْ رَوَدِفُهَا أَقْعَدِي وَتَمَهَّلِي

وَتَمِيسُ يَمِينِ مَزْعَفَرٍ وَمَعْصَفَرٍ
هَيْفَاءُ إِنْ قَالَ الشَّبَابُ لَهَا ائْتَهْضِي

وإذا سألت الوصل قال جمالها جودي وقال دلالها لا تفعلني

ابن إسرائيل:

وَعَدْتُ بِوَصْلٍ وَالزَّمَانُ مَسُوفٌ
نَشْوَانَةٌ خَصْبَاءُ مِنْهُلُ قَفْرِهَا
وَتَخَالُ بَيْنَ الْبَلَدِ مِنْهَا وَالنَّجَا
لَا تَحْبِرُ الْخَلْفَ شِمَةً مِثْلَهَا
يَا بَانَةً قَدْ أَطْلَقْتَ أَغْصَانَهَا
وَعِزَالَةً يَحْكِي الْغِزَالَةَ وَجْهَهَا
مَا تَأْمُرِينَ لِمُغْرَمٍ تَسْطُو بِهِ
قَسْماً بِوَجْهِكَ وَهُوَ صَبِيحٌ مُشْرِقٌ
وَيَهْرٌ غَضَنُ الْبَانِ مِنْكَ عَلَى النِّجَا

حوراء ناظرها حمام مرهف
دُرٌّ وريقتها سلاف قرقف^(١)
غصناً يمسُّ به النسيم مهفهف
وعدت ولكن الزمان يسوف
ورداً جيتاً باللوايحظ يقطف
ويعيرُ ناظرها الحمام الأوطف^(٢)
أجفائك البرضى ولا تستعطف
وسواد شعرك وهو ليل مسدف^(٣)
ما لي إلى أحد سواك تشوف

ولنذكر إن شاء الله في هذا الباب نبذة من ملح النظم ورفائق الشعر من غير تبويب ولا ترتيب للشيخ شمس

الدين بن البديري:

ولما نأت سلمى وشطاً بها النوى
علقت بأخرى غيرها متلاهما
وكان هيامي والهوى مصابتي

وأيقنت أني بالفرام أدوب
لئلفي فراماً في الحشا ولهب
لمن هو في الأولى إلي حيب

وله في المعنى:

تلاقيت عنها في الفرام بغيرها
وقلت فاقاً مبرداً لمصابتي
فكنت كمن أهرى ريقاً بلجؤ

وقلت لقلبي هذه هي زينب
فاضرمت ناراً في الحشا تلهب
تمسك بالموج الذي يتقلب

وقال أيضاً:

سألت القلب هل ميلٌ ليلي
فقال الآن لا لكن تنأني
فإن الحب يهجم بعد بأس
فلا تظهر لها يوماً سلواً
وترمي بالعدود وبالتجني

وهل عند الفؤاد لها الضات
قللت الحب فيه قلبات
ويعناد المحب تغيرت
فضضحك التصابي الواردات
وتحللك الوعود الكاذبات

(١) قرقف: بقية خمر.

(٢) الأوطف: كيف شعر الحاجين.

(٣) مسدف: مظلم.

فَكُنْ جَلْدًا وَلَا تَكُ ذَا لَجَاجٍ

وقال البيطار:

يقولون هذي أُم عمرو قريئة
ألا إنما قرب الحبيب وبعدة

وقال غيره:

وقالوا بَغ حبيكَ وإبغ عنه
إذا كان القديم هو المصافي

وقال آخر:

لم أنسَ إذا قلتُ من رَجدي لها غلطاً
سلوتُ عنكِ فقالت وهي ضاحكة

وقال آخر:

أَمِنَ المروءة أن آيتَ مهدياً
وتيتُ رِيانَ الجفونِ مِنَ الكرى

وقال آخر:

إلى الله أشكو جَوْرَ أهيفَ شادينِ
جرحتُ بعيني خُدَّهُ وهو جارحٌ

وقال أيضاً:

قد كنتُ استعُ بالهوى فأكذبُ
حتى رميتُ بخلوه ويمرُّه

فقال آخر:

سألْتُها التَّيْلَ من خُدَّها
فمذُ تَلَاقَتَا وقَبَلْتُها

وقال آخر:

يا مَنْ سُقامي من سُقامِ جفونِهِ
قد كنتُ لا أرضى الوصالَ وفوقه

وقال آخر:

صَبَّخْتُه عندَ المساءِ فقالَ لي
فأجَبْتُه إشراقَ وجهِكَ عَرَّني

أبو عبد الله الغَوَاص:

فما يُغنيكَ إن فاتَ الفواتُ

دَنَّتْ بِكَ أرضٌ نحوَهَا وسماءُ
إذا هو لم يوصلِ إليه سواءُ

حييأَ آخرَ نحيباً سعيداً
وخانَ فكيفَ آمَنُ الجديداً

ورجَّهَها مشرقُ في حنَمِ الظَّلمِ
لنقرَعَنَّ عليَّ السنَّ مِن نَدَمِ

قلقأَ أبِلُ ملابسي بِدُموعي
وأيتُ منكِ بليلةُ الملُوعِ

وقعتُ فما لي من يدَيهِ خلاصُ
بعيَّتي قلبي والجروحُ قصاصُ

وأرى المحبَّ وما يقولُ فأعجبُ
مَنْ كان يَتَّهمُ الهوى فيجرَّبُ

عشراً وما زادَ يكونُ احتسابُ
غلطتُ في العَدِّ وضاعَ الحسابُ

سوادُ حطِّي من سوادِ عيونيهِ
واليومُ أفتعُ بالخَيالِ ودونِهِ

تَهزِي بِقَدري أو تَريدُ مُزاحاً
حتى توهَمَتُ المساءَ صباحاً

قامر القلب هواه فقمير
وهواه غير مقلوب قمر^(١)

من عذيري من عذولي في رشا
قمر لم يبق مني حسنه

وقال آخر:

من فوق خذ مثل قلب العقرب
وتسخرت عني بقلب العقرب^(٢)

جاذبتها والريح تجذب برقعا
وظفقت ألسنم فخرها فتحجبت

وقال آخر:

مدامعي بدم من كثرة الشهر
عيني لغير محبا وجهك القمر

لو مث من كثرة الأشواق وانبدلت
ما اخترت عنك سلوا لا ولا نظرت

إبراهيم بن العباس:

وسرع قلبي إذ يهب هبوبها
هوى كل نفس أين حل حبيبها

تمر الصبا صفحا بساكن ذي الغضا
قريئة عهد بالحبيب وإنما

وقال النوفلي:

فدام لعيني ما حيث اختلجها
فأشترته إلا ودمني مزاجها

إذا اختلجت عيني رأيت من تجبه
وما ذقت كاسا مذ علفت بحبها

وقال آخر رحمه الله تعالى:

كأنه مقتبس نارا
ما ضره لو دخل الدار

يا ذا البني زار وما زارا
قام يباب الدار من تيهه

وقال آخر:

وأبحث مني ظاهري لجليبي
وحبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي
فالكل مني للجليس مؤانس

وقال ابن نباتة:

فيقسم هذا لا يكون إلى الحشر
فوالعصر إن العاشقين لقي خسر

أناسه الرحمين في جمع شملنا
إذا ما عدا مثل الحديد فؤاده

وقال أمين الدين بن أبي الوفاء:

ومين العجائب نازلا في زاحل
وسكتة والنار مشوى القاتل

يا نازلا مني فؤادا راحلا
أضرمت قلب ميثم أهلكته

وقال آخر:

(١) مقلوب قمر: لم يبق منه غير «قمر».

(٢) قلب العقرب: بالبرقع.

إِذَا بَدَا كَيْفَ أُنْشِرُوا
وَكُلُّمَا مَرٌّ يَحُلُّو

يَا عَاذِلِي فِي هَوَاهُ
يَمُرُّ بِي كُلُّ وَقْتٍ

وقال الحاجبي:

أَمِيلُ إِلَيْهِ وَهُوَ كَالظَّبْيِ رَاتِحٌ^(١)
سَوَاهُ فَقَالَ الْقَلْبُ مَا أَنَا فَارِحٌ

مَلَأْتُ فُؤَادِي مِنْ مَحَبَّةِ فَاتِنٍ
وَقُلْتُ لِقَلْبِي قُمْ لَتَعشَقَ شَاوِنَا

وقال ديك الجن:

بَكْفٍ عَدُوٌّ مَا يَرِيدُ سَرَاحَهَا
عَلَى ظَمْرٍ وَرَدَا فَهَزَّتْ جَنَاحَهَا

وَلِي كَبْدٌ حَرَّى وَنَفْسٌ كَانَهَا
كَأَنَّ عَلَى قَلْبِي قِطَاعَةً تَذْكَرَتْ

وقال عبد الله بن طاهر:

كَلَامًا بَعْدَ صَاحِبِهِ غَرِيبُ
مَحَبٍّ قَدْ نَأَى عَنْهُ الْحَيْبُ

أَقَامَ بِلَدَةٍ وَرَحَلْتُ عَنْهُ
أَقْلُ النَّاسِ فِي الدُّنْيَا مُرُورًا

وقال آخر:

وَاللَّهِ لَا مَلْجَأَ وَلَا لِنَجْوٍ
فَيَقَالُ أَنْتَ قَتَلْتَهُ فَقَادَ بِي

مَا اخْتَرْتُ تَرْكَ وَدَاعَكُمْ يَوْمَ النَّوَى
لَكِنْ خَشِيتُ بَأْنَ أَمُوتَ صَبَابَةً

وقال ابن المعتز:

وَأَنْفِرْ عَنْهَا سَهَادَةً^(٢)
كُنْتُ فِيهَا مَوَادَّةً
كُنْتُ دَهْرًا فَسَادَةً

هَبْ لِعَيْنِي رِقَادَةً
وَارْحَبِمِ الْمَقْلَةَ التَّيِي
كُنْ صَاحِبًا لَهَا كَمَا

وقال آخر:

وَنَمَ فَاَللَّيْلُ مُسَوِّدُ الْجَنَاحِ
أَفِرَّقَ يَنْ لَيْلِي وَالصَّبَاحِ

وَقَالُوا دَغْ مِرَاقِبَةَ الثُّرَيَّا
فَقُلْتُ وَهَلْ أَفَاقَ الْقَلْبُ حَتَّى

وقال آخر:

طَارَ اسْتِيقَاً إِلَى لَقِيَا مَعْلَبِهِ
أَهْرُ مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ فَدَاكَ بِهِ

وَلِي الْفُؤَادُ إِذَا طَالَ النِّزَاعُ بِهِ
يَفْدِيكَ بِالنَّفْسِ صَبٌّ لَوْ يَكُونُ لَهُ

وقال آخر:

قَلَّتْكَ وَلَا أَنْ قَلَّ مِنْكَ نَصِيْهَا
بِقَوْلِي إِذَا مَا جِئْتُ هَذَا حَيِّهَا

وَمَا هَجَرْتُكَ النَّفْسُ يَا مَيَّ إِنَّهَا
وَلَكِنَّهُمْ يَا أَحْسَنَ النَّاسِ أَوْلَعُوا

(١) راتح: مائل عنى، متبعد.

(٢) سهادها: قلة النوم.

وقال المحاربي:

إذا أنت لم توقن بما صَنَعَ الهوى
تَرَى حرقَاتِي يلدغ القلبَ حرَّها

وقال الأقرع بن معاذ:

أقول لِمَقَسَتْ ذَاتَ يَوْمٍ لِقَيْتِهِ
بِحَقِّكَ أَخْبَرْنِي أَمَا تَأْتُمُّ الَّتِي
فَقَالَ بَلَى وَاللهِ أَوْ سَمِعِيْهَا
فَقُلْتُ وَلِمَ أَمْلِكُ سَوَابِقَ عِبْرَةٍ
عَفَا اللهُ عَنْهَا كُلَّ ذَنْبٍ وَلَقِيتُ

وقال آخر:

بِاللهِ رَيْكُمَا عَوْجًا عَلَى سَكَنِي
وَعَرَضًا بِي وَقُولَا فِي حَدِيثِكُمَا
فَإِنْ تَبَيَّنَ قَوْلَا عَنْ مَلَاظِفَةٍ
وَأِنْ بَدَأَ لَكُمَا مِنْ سِلْبِي غَضَبٌ

وقال عبد الله بن أبي الشيص:

وَمُعْرَضَةٌ تَظُنُّ الْهَجَرَ فَرَضًا
كَأَنِّي قَدْ قَتَلْتُ لَهَا قِتْلًا

وقال الحسين بن الضحاك:

بَغَضِي بِنَارِ الْهَجْرِ مَاتَ حَرِيقًا
لَمْ يَشْكُ عَشَقًا عَاشِقٌ فَسَمِعْتُهُ

وقال آخر:

وَأَجِيلُ فِكْرِي فِي هَوَا
أَدْعُو عَلَيْكَ بِحَرْقِي

وقال آخر:

يَا وَنَحْ مَنْ خَبَلَ الْأَجْبَةَ قَلْبَهُ
عَزُّوا وَمَالَ بِهِ الْهَوَى فَاذَلَّهُ
انْظُرْ إِلَى جَدِّ أَضْرَ بِهِ الْجَوَى
مَنْ كَانَ خَلْوًا مِنْ تَبَارِيحِ الْهَوَى

وقال أحمد بن طاهر:

بَاهِلِ الْهَوَى فَاقْضُ حَيًّا وَجَرِّبِ
بِأَنْضَجِ مَنْ كَيِّ الْفَقْصَى الْمُتَلَهِّبِ

بِمَكَّةَ وَالْأَنْضَاءُ مَلْقَى رِحَالِهَا
أَضْرَ بِجَسْمِي مِنْذُ مَرَّ خِيَالِهَا
مَنْ اللهُ بِلَوَى فِي التَّزْمَانِ تَالِهَا
سَرِيحَ عَلَى جَنِبِ الْقَمِيصِ انْهَمَالِهَا
شَاهَا وَإِنْ كَانَتْ قَلِيلًا نَوَالِهَا

وَعَائِيَاهُ لَعَلَّ الْعَثَبَ يَعْطِفُهُ
مَا ضَرَّ لَوْ بُوْصَالِي مِنْكَ تَعَفُّهُ
مَا بَالَ عَبْدُكَ بِالْهَجْرَانِ تُثْلِفُهُ
فَفَالِطَاهُ وَقُولَا لَيْسَ نَعْرِفُهُ

تَخَالُ لِحَاظَهَا لِلضَّعِيفِ مَرْغَبِي
فَمَا يَنْبِي بَغِيرِ الْهَجْرِ تَرْغَبِي

وَالْبَعْضُ أَضْحَى بِالْمَمُوعِ غَرِيقًا
إِلَّا ظَنُّكَ ذَلِكَ الْمَعْشُوقَا

لِكَ بِلَا لِسَانٍ نَاطِقِي
مِنْ غَيْرِ قَلْبٍ صَادِقِي

حَسَى إِذَا ظَفَرُوا بِهِ قَتْلُوهُ
إِنَّ الْعَزِيزَ عَلَى اللَّيْلِ يَتَبَّعُهُ
لَوْلَا تَقَلُّبُ طَرْفِهِ دَفْنُوهُ
فَأَنَا الْهَوَى وَحَلِيفَتُهُ وَأُخُوهُ

تقول العاذلات تملّ عنها
فكيف ونظرة منها اختلاسا

وقال إسحاق بن مولى المهلب:

هيني يا مُعَذِّبِي أَسَأْتُ
فأين الفضل منك فذتك نفسي

وقال أبو العتاهية:

يقول أناس لو نكت لنا الهوى
سقام على جمعي كثير موسع
إذا اشتد ما بي كان أفضل حيتي

وقال بشار:

يا قرة العين إني لا أطميك
أخشى عليك من الجارات حاسدة
لولا الرقيان إذا ودعت غادية
يا أطيّب الناس ريقاً غير مخبر
قد زرتنا مرة في الدهر واحدة

وقال آخر:

ألم تعلمي يا أحسن الناس أنني
أجلك ما لو كان بين قبائل

وقال آخر:

أقول لشادن في الحزن أضحي
ملكك الحزن أجمع في نصاب
وذاك بأن تجرد لمتهم
فقال أبو حنيفة لي إمام

وقال آخر:

سقى الله ريعاً كنت أخلو بوجهكم
أفقتنا زماناً والعيون قريرة

وقال آخر:

ألم تعلمي يا عذبة الماء أنني
وما زلت بي يا بين حتى لو إني

وداؤي عليك صبرك بالشلو
ألد من الشماتة بالعذو

وبالهجران قبلكم بدأت
علي إذا أسأت كما أسأت

والله ما أدري لهم كيف أنعت
ونوم على عيني قليل مفوت
له وضع كفي فوق عذتي وأسكت

أكني بأخرى أسميها وأعنيك
أو سنبم غيران يرميني ويرميك
قُلتُ فاك وقلت النفس تفديك
إلا شهادة أطراف الماويك
بالله لا تجعلها بيضة الديك

أجلك جبا متكننا وبأدينا
من الناس أعداء لجرّ التصافيا

يصيد بطرفه قلب الكمي
فأد زكاة منظرِكَ البهي
برشفي من مقبلك الشهي
يرى أن لا زكاة على الضبي

ونغرُ الهنا في روضة الحن ضاحك
وأصبخت يوماً والجفون سوافك

أظلل إذا لم أُنق ريقك صايد
من الوجد استبكي الحمام بكى لب

وقال أبو العباس الشهير بالنفيس:

يا راحلاً وجميل الصبر يتبعه
ما أنصفتك جفوني وهي دامية

وقال الوزير ظهير الدين الملقب بأبي شجاع:

لأَعْلَبُ العَيْنَ غَيْرَ مَفْكَرٍ
ولأَهْجَرَنَ مِنَ الرِّقَادِ لَذِيذُهُ
هي أَوْقَعَتْنِي فِي حَبَائِلِ فِتْنَةٍ
سَفَكْتُ دَمِي فَلَا سَفْحَنُ دَمَوْعَهَا

وقال العتيبي:

أَضَحَّتْ بِخَدِّي لِلنَّمُوعِ رَسُومٌ
والصبرُ يحمي في المواطنِ كُلِّهَا

وقال الرِّفَاءُ الأندلسي:

ومفهِمٌ كَالْمُضَيِّعِ إِلَّا أَنَّهُ
أَضْحَى بِنَامٍ وَقَدْ تَكَلَّلَ خَلُّهُ

وقال آخر:

اخْضَرَّ وَاصْفَرَّ لَاعْتِلَالٍ
كَأَنَّ نَرِيْنًا وَجَيْتِيهِ
يُرَشِّعُ مِنْهُ الْجَيْنُ مَاءً

وقال آخر:

مَازَالَ يَنْهَلُ مِنْ صَرْفِ الطَّلَا^(١) قَمَرِي
وَقَامَ يَخْطُرُ وَالْأَرْدَاثُ تُقْعِدُهُ
فَعَائِلٌ فَعَلْتُ فِعْلَ الشُّمُولِ بِهِ
جَادِبُهُ لِعِنَاقِي فَاتَّسَى خَجَلًا
وَقَالَ لِي بِفَنُورٍ مِنْ لَوَاحِظِهِ

وقال آخر:

بَارِكَا فِي هَذَا الْبَيْتِ إِنِّي لَطَائِفُ
رَعَى اللَّهَ أَيَّامًا وَنَاسًا عَهْدُهُمْ
وَبِي ذَهَبِي اللَّوْنُ صَبِغَ لِمَحْتِي

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى لُقْيَاكَ يَنْقُ
وَلَا وَفَى لَكَ قَلْبِي وَهُوَ يَحْتَرِقُ

فِيهَا بَكَتْ بِالدَّمْعِ أَوْ فَاضَتْ دَمًا
حَتَّى يَعُودَ عَلَى الْجَفُونِ مُحَرَّمًا
لَوْ لَمْ تَكُنْ نَظَرْتُ لَكُنْتُ مُسْلِمًا
وَهِيَ الَّتِي بِذَلِكَ فَكَانَتْ أَظْلَمًا

أَسْفَأَ عَلَيْكَ وَفِي الْفُؤَادِ كُلُّوْمُ
إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومُ

تَحَجَّرُ الْأَبَابُ عِنْدَ لِقَائِهِ
عَرَقًا قَلْتُ الْوَرْدُ رَشٌّ بِمَائِهِ

فَصَارَ كَالنَّجَسِ الْمَضْمُونِ
بَشْفَرِ أَصْدَاغِهِ مَغْلُوفِ
كَأَنَّهُ لَوْلَا مَنْصُفٌ

حَتَّى غَلَّتْ وَجَّتَاهُ الْيَفْزُ كَالثَّقَفِ
طُورًا وَحَاوَلَ أَنْ يَنْعَى فَلَمْ يَطِقْ
فَعَلَ النَّسِيمُ بِغَضَنِ الْبَاسَةِ الْوَرَقِ
وَكَلَّلْتُ وَجَّتَاهُ الْخُمْرُ بِالْعَرَقِ
إِنَّ الْعِنَاقَ حَرَامٌ قَلْتُ فِي عُنُقِي

وَفِي الْكُونِ أَسْرَارٌ وَفِيهِ لَطَائِفُ
جِيَادًا وَلَكِنَّ اللَّيَالِيَ صَارَفُ
يَرِيدُ امْتِحَانَاتِي وَمَا أَنَا زَائِفُ

يُذِيبِ فؤاداً وهو لا غشَّ عندهُ

وقال آخر:

أَشْنَى لِبَالِي الدُّغْرِ عَنِّي لَيْلَةٌ
فَرَّقَتْ فِيهَا بَيْنَ جَفْنِي وَالْكَرَى

ومما قيل في الرقباء:

لَوْ أَنَّ لِي فِي الْحَبِّ أَمْرًا نَافِذًا
لَقَطَعْتُ أَلْسِنَةَ الْعَوَازِلِ كُلِّهَا

وقال أعرابي:

بِئْسَ الْحَبِّ كَلِمٌ فِي فُؤَادِي
تَمَكَّنَ نَافِظُهُ بِي وَأَضْحَى
وَمَنْ حَلَزَ الرَّقِيبَ إِذَا التَّيْنَا
وَلَوْلَاهُ تَشَاكَيْتُنَا جَمِيعًا

وقال آخر:

مَنْ عَاشَ فِي الدُّنْيَا بِغَيْرِ حَيِّبٍ
عَيْنُ الرَّقِيبِ غَرَّقَتْ فِي بَحْرِ الْعَمَى
وَأَنَا الْغَرِيبُ فَلَا أَلَامَ عَلَى الْبُكَاءِ

وقال أحمد بن أبي سلمة:

يَعْلَنِي فِيهِ جَمِيعُ الْوَرَى
تَطْلُنُ نَفْسِي لَوْ تَعَفَّتْهَا

وقال آخر:

وَمَا فَارَقْتُ سَعْدِي عَنْ قِلَافِي
بَكَيْتُ نَعَمَ بَكَيْتُ وَكُلُّ الْفِي

وقال آخر:

وَقَاتِلُوا مَا بَالُ دَمْعِكَ أَيْضُ
أَلَمْ تَعْلَمْ لِي طَالَ عَمْرُؤُ
وَعَمَّا قَلِيلٍ لَا دَمْسُوعَ وَلَا دَمَاءَ

وقال آخر:

فِيَا ذَهَبِي اللَّيْلُ إِنَّكَ حَائِفٌ^(١)

لَمْ أَخْلُ فِيهَا الْكَاسَ مِنْ أَعْمَالِي
وَجَمَعْتُ بَيْنَ الْقَرِطِ وَالْخُلْخَالِ^(٢)

وَمَلَكَتُ بَسْطَ الْأَمْرِ فِي التَّعْذِيبِ
وَلَكِنْتُ أَقْلَعُ عَيْنَ كُلِّ رَقِيبٍ

وَلَا كَالْكَلَمِ مِنْ عَيْنِ الرَّقِيبِ
مَكَانَ الْكَاتِبِينَ مِنَ الذُّنُوبِ
نُسَلِّمُ كَالْغَرِيبِ عَلَى الْغَرِيبِ
كَمَا يَشْكُو الْمَحَبُّ إِلَى الْحَيِّبِ

فَحِائِثُهُ فِيهَا حَيَاةُ غَرِيبٍ
لَا أَنْتَ لَا بَلْ عَيْنُ كُلِّ رَقِيبٍ
إِنَّ الْبُكَاءَ حَسَنٌ بِكُلِّ غَرِيبٍ

كَأَنْتَنِي جِئْتُ بِأَمْرِ عَجِيبٍ
بَلَيْتُ فِيهَا بِمَلَامِ الرَّقِيبِ

وَلَكِنْ شَفْوَةٌ بَلَغَتْ مَدَامَا
إِذَا بَانَتْ حَيِّثُكَ بِكَامَا

فَقُلْتُ لَهَا يَا عَلُو هَذَا الَّذِي بَقِيَ
فَشَابَتْ دُمُوعِي عِنْدَمَا شَابَ مَفْرُقِي
وَلَمْ يَتَّقْ إِلَّا لَوْعَتِي وَتَحَرُّقِي

(١) حائف: ظالم جائر.

(٢) القرط: ما يوضع بالأذن. الخلخال: يلبس بالقدم.

ولم أر مثلي غارَ من طولِ ليلِهِ
وما زلتُ أبكي في دُجَى الليلِ صَبْوَةً
عليه لأنَّ الليلَ يمشقُّهُ مَوِي
من الوجدِ حتى ابيضَّ من فَيْضِ أَدْمَعِي

وقال آخر:

رجوتُ طيفَ خيالٍ
والذارياتُ جفوني
وكيفَ لي بهجوعٍ
والمرسلاتُ مُموهي

وقال آخر:

يا نازحَ الطيفِ من نومي يُعاودني
أوجبتُ غلًا على عيني بأدْمُوعِها
فقد بكيتُ لفرطِ النازحينَ دَمًا
كيفَ وهي التي لم تبلغِ الحُلَمَا

وقال آخر:

ارتحمتُ رُجْنَتَ اللَّوْعِني
ودموعُ عيني لا تَكُلُ
وابعثْ خيالَكَ في الكرى
عن خالها يا ما جرى

وقال آخر:

أُملتُ إن تَمَطَّعُوا بِوَصَالِكُمْ
وعلمتُ أنَّ فراقكم لا بدُّ أن
فرايتُ من هجرانكم ما لا أرى
يجري به دَمْعِي دَمًا وكذا جَرَى

وقال آخر:

إن عيني مُذْ غابَ شخصُك عنها
بدموعٍ كأنهنَّ الفَوادي
بأمرُ الشَّهْدِ في كرامها وينهى
لا تَكُلْ ما جرى على الخدِّ منها

وقال آخر:

يقولون لي والدمعُ قَرَّحَ مقلتي
أدْمُوعُكَ جمرٌ قلتُ لا تَعَجُّبُوا
بنارِ أسَى من حَبْوِ القلبِ تَقْدُحُ
فكلُّ وعاءٍ بالذي فيه يَنْضَعُ

وقال البدر اللامي:

قالوا تباكى بالدموع وما بكى
فأَجَبْتُهُمْ هَوًى مِنْ دَمِي لَكْنَةُ
بدمٍ على عيشٍ تَقَرَّرَ وانْقَضَى
لما تصاعدَ صارَ يَقْطُرُ أيضًا

قال ابن مطروح في الغيرة:

ولو أَسِيبِي على تَلْفِي مَصْرًا
ولا تَسْمَخُ بِوَصْلِكَ لي فإِنِّي
لقلتُ مُعْذِبي بِاللهِ زِدْنِي
أغارُ عليكَ منك فكيفَ مِنِّي

وقال آخر:

أغارُ عليكَ مِنْ نَظَرِي وَمِنِّي
ولو أَنِّي خَبَأْتُكَ في جُفُونِي
ومنكَ وَمِنْ مَكَائِكَ وَالزَّمَانِ
إلى يومِ القِيَامَةِ ما كَفَّانِي

وقال المظفر بن عمر الأمدى:

قولي لَمَنْ قد جَفَوْنِي إِذَا لَهَجْتُ بِهِمْ
أُحِبُّكُمْ وَمَلَائِكِي فِي مَحَبَّتِكُمْ

وقال غيره:

لَمْ أَنْسَ أَيَّامَ الصَّبَا وَالْهَوَى
ذَاكَ زَمَانًا مُرًّا خُلُوَ الْجَنَى

الشریف الرضی:

عَلَّانِي بِذِكْرِكُمْ وَاسْتَيْبَانِي
وَعُذًا النَوْمُ مِنْ جُفُونِي فَإِنِّي

وقال آخر:

فَالْوَا أَتَزَقُّدُ مَذْ غِبْنَا قُلْتُ لَهُمْ
مَا حَقُّ طَرْفِهِ مَدَانِي نَحْوِ خُنُوكُمْ

وقال عز الدين الموصلي:

فَسَلْتُ لَطُولَ بَعَادِكُمْ أَحْلَامًا^(١)
وَالطِيفُ قَدْ وَعَدَ الْجَفُونَ بِزُورَةٍ

ومما قيل في السهر وطول الليل ونحو ذلك: قال الشاعر:

وَرَبَّ لَيْلٍ سَهْرَنَاءُ وَقَدْ طَلَعَتْ
كَأَنَّمَا أَدْهَمُ الظُّلُمَاءُ حِينَ نَجَا

وقال آخر:

لَيْلُ الْمُحِيزِينَ مَطْوِيَّ جَوَائِثُهُ
مَا ذَاكَ إِلَّا لِأَنَّ الصَّبْحَ نَمَّ بَنَا

وقال غيره:

فَلَمْ أَرْ مِثْلَ لَيْلِ ذَوِي الْقَصَابِي
فِي شُكْرِ طَوَلِهِ أَهْلُ التَّجَافِي

وقال آخر:

لَيْسِي وَلَيْسِي سَوَاءٌ فِي اخْتِلَافِهِمَا

دُونَ الْأَنَامِ وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ
كَمَا بَدِ النَّارِ يَهْوَاهَا وَتَحْرِقُهُ

لَلَّهِ أَيَّامُ النَّجَا وَالنَّجَاحِ
ظَفَرْتُ فِيهِ بِحَيِّبٍ وَرَاحِ

وَأَمْرُجَا لِي دَفْعِي بِكَاسِ دُهَاقِ
قَدْ خَلَعْتُ الْكَرَى عَلَى الْعِشَاقِ

نَعَمْ وَأَشْفَقُ مِنْ دَفْعِي عَلَى بَعْرِي
أَنِّي أَعْلَبُهُ بِاللُّنْعِ وَالشَّهْرِ

وَعُقُولُنَا وَجَفَا الْجَفُونَ مَنَامًا^(٢)
بِأَجَلِنَا إِنْ صَحَّتِ الْأَحْلَامُ

بَقِيَّةُ الْبَدْرِ فِي أُولَى تَسَائِيرِهِ^(٣)
مِنْ أَشْهَبِ الصَّبْحِ أَلْقَى نَعْلَ حَافِرِهِ

مَشْمَرُ الذَّيْلِ مَنْسُوبٌ إِلَى الْقَصْرِ
فَاطْلَعَ الشَّمْسَ مِنْ غَيْظٍ عَلَى الْقَمَرِ

وَكُلُّ يَشْتَكِيهِ بِكُلِّ حَالٍ
وَيَشْكُو قِصْرَهُ أَهْلُ الْوِصَالِ

قَدْ صَيَّرَانِي جَمِيعًا فِي الْهَوَى مَثَلَا

(١) أحلامنا: المعنى: طاشت عقولنا.

(٢) منام: المعنى: أرقنا.

(٣) تسائيره: سائرته.

يجودُ بالطول لَيْلى كلما بَخَلْتُ وقال آخر:

إن اللَّيالي لَلأَمانِ مَناهِلُ تُطوى وتُشَرِّبُ بَينَها الأَعمارُ
فَقَصَّارُهُنَّ مَعَ الهَمومِ طَوِيلَةُ وطوالهُنَّ مَعَ السَّروِرِ قَصارُ

وقال غيره:

رُبَّ لَيلٍ لَم أَذُقْ فِيهِ الكَوى حَطَّ عَيتي فِيهِ دَمْعٌ وَسَهَرُ
كَلِمَا هِيجَ لَيلي حَرَقِي صِغْتُ يا لَيلُ أَمّا فِيكِ سَحَرُ

وقال بشار بن برد:

خَليلِي ما بِالْأَلجَى لا يَزحزح وما بِالضوءِ الصَبحِ لا يَتَوَضَّحُ
أَضَلُّ إِلَيها المَتيَرُ طَريقَةُ أَمِ الدَهرُ لَيلٌ كُلُّهُ لَيسَ يَبرُحُ

وقال ابن منقذ:

كَأَنَّ الشَّرَّاءَ راحَةً تُشَبِّرُ الأَجى لَما رَأيْتُ النُّجُمَ ساءَ طَرفُهُ
فَلِيلي تَراةٌ بَينَ شَرقٍ ومَغربٍ وِناثُ نَعرٍ في الحَدادِ سَوافِرُ

وقال آخر في ليلة مطرة:

أَقولُ وَاللَّيلُ في ائْتِدادٍ وأدْمُغُ القَيتِ في ائْتِفافِ
أَظنُّ لَيلي بِقَيرِ شَكِّ قَدِ باتَ يَكي عَلى الصَّباحِ

ومما جاء في الأشعار الخمرية، قول صفى الدين الحلبي:

بَدَتْ لَنا الرَاحُ في نَاجٍ مِنَ الحَبِّ فخرَقتُ حَلَةَ الظَّلَماءِ بِاللَهِبِ
يَكُرُّ إذا زَوَّجَتْ بِالماءِ أَوَّلَها أَطفالُ دُرٍّ عَلى مَهْدٍ مِنَ الذَّهَبِ
بَقيَّةٌ مِنَ بَقايا قَومِ نوحٍ إِذ لَاحَتْ جَلَّتْ ظَلَمَ الأَحْزانِ وَالكَرَبِ
بَعيدَةُ العَهدِ بِالمَصارِ لو نَطَقَتْ لَحَدَّثَنا بِما في سَالفِ الحَقَبِ
بَاكَرَها بِرَفاقٍ قَد ذَعلَتْ بِهِم قَبْلَ السَلافِ سَلافَ العَلمِ والأَدبِ
بَكلٍ مَنيحٍ بِالْفَضْلِ مُؤَتَرِ كَأَنَّ في لَفظِهِ ضَرباً مِنَ الضَّرَبِ

بل ربّ ليلى غداً في أمةٍ وعَدَتْ
بذلْتُ عَقْلِي صداقاً حينَ بَثُّ به
بِتْنا بكاساتِها صَزَعِي ومطرُنا
بَثُّتْ أَلَمَ فَلَمْ نَعْلَمْ لَفَرَحَتِنا
بروضةٍ طُلَّ فيها الطُّلُّ أدمَعَةٌ

وقال أيضاً:

تابَ الزمانُ من الذنوبِ فواتٍ^(١)
تَمَّ السرورُ قُفْمُ بنا يا صاحبي
تَوَجَّجَ بكاساتِ الطُّلا هامَ الرُّبَا
تَفَدُّو سِلافَ القطرِ دائرةً بها
تَلَفُ النِّصارِ على العُقارِ غِيَمَتِي
تَرَكَمِي لأكياسِ النصارِ جِمالَةً
تَبَثُّ يَدًا من تابٍ عِن رَفْثِ الطُّلا
تايَغُ إلى أوقاتِها دَاعِي الصِّبَا
تَمَّ بها قَصَصَ السرورِ فإِنَّها

وقال أيضاً:

حَيَّ الرِّفاقَ وَطَفَ بكاسِ الرِّراحِ
حُكَّ الكؤوسِ على جُسُومِ أَصْبَحَتْ
حاشِ الأنامِ وَعَاطِنِي مَشْمُولَةً
حمرًا لو تَرَكَ الثُّقَاةُ مِزاجَها
حَبَّبَ تَظَلُّ بِه الكؤوسُ كَأَنَّها
حَجَبَ الحِبابِ شِعاها فكَأَنَّهُ
حَكَمَ الزمانُ وَغَضُّ عَنَّا طَرَفَهُ

وقال آخر:

قد قَلْتُ إِذْ أَضْحَى يَعْيسُ كُلُّما
نَالَهُ ما أَنْصَفَتْها يا سَيِّدِي

عز الدين الموصلي:

تَقَضُّ فيه كؤوسُ الرِّاحِ كالشُّهْبِ^(١)
أزُوجُ ابنِ سحابٍ بابنةِ العِنَبِ^(٢)
يَعِيدُ أرواحنا من شِدَّةِ الطَّرِبِ
مِن نَفْحَةِ الصُّورِ أم مِن نَفْحَةِ القَصَبِ
والزهرُ مَبْتَسِمٌ عَن قَفَرِهِ الشَّيْبِ

وَاعْتَمَ لذيذَ العَيْشِ قَبْلَ فَوَاتٍ
نَسْتَدِيرُكَ المَاضِي بِنَهْجِ الآتِي
في روضةٍ مَطلُولَةِ الزَّهَرَاتِ
والكاسُ دائِرَةٌ بِكَفِّ سُقَاةٍ
وفراغُ راحَتِي على الرِّاحاتِ
مَنْ ذا أَحَقُّ بِها من الكاساتِ
والكاسُ مَتَّيِّدٌ كَحَدِّ قَتَاةٍ
وَاعْجَبْ لَمَّا فيها مِن الآياتِ
عندَ الكِرامِ تَمَيُّزُ اللَّذاتِ

واطرزُ بكاسيكِ جِلَّةَ الأفراحِ
فيها المِدامُ شَرِيكَةَ الأرواحِ
ظَنَنْتُ قَتَايَ وَمَيَّ عَيْنَ صَلاحِي
أَغْنَى نِلالُها عَنِ المِصباحِ
خَصَرُ الفَتاةِ مَنطَلَقُ بوشاحِ
ثَفَقَ تَلَهَّبَ تحتَ ذيلِ صَباحِ
يا صاحِ لا تَقْنَعُ بِأَنَّكَ صاحِي

دارَتْ عليه بالمِدامِ الأكْؤُسُ
تَأْتِيكَ بِاسْمَةٍ وَأَنْتَ تَعِيسُ

(١) الشهاب: ما يسقط من السماء من أجرام.

(٢) العنب: هي الخمر.

(٣) فوات: ف: استثنائية: وانت: فعل أمر: اقدم.

فقد مَالَ بالتشييه عن صِبْغَةِ الأدبِ
فمَيَّزَ ما قد حَلَّتِ الكَأْسُ بالذهبِ

لَيْسَ شَبَّةَ السَّاقِي المدامَ بَعَثَ بِدِ
ولَكِنْ رَأَى جَوْهَرًا بَيَّيْتُ طِلَا

يزيد بن معاوية:

وطلعتُهَا السَّاقِي ومغربُهَا فَمَي
وساقٍ كبدٍ مع ندامي كأنْجُمِ

وشمِسُ كرمِ برْجُهَا قَعْرُ دَنُهَا
مدامَ كَيِّرٍ في إناءٍ كَفَضُوهُ

وقال آخر:

وكاسَاتِنَا في الروضِ تعلَى وتشرُبُ
ونورٌ ونورٌ وشرقٌ ومغربُ

كَأَنَّ النَّدَامَى والسَّقَاةَ ودُنَا
شموسٍ وأقمارٍ وفلكٍ وأنجمِ

وقال آخر:

إذ قامَ يجلُوها على النَّدَمَاءِ
بَلَرُ اللَّجَى بكواكبِ الجوزاءِ

فكَانَها وكأنَّ حَامِلَ كَأْسِهَا
شمسُ الشُّبْحَى رَفَعَتْ نَقْطَ وَجْهَهَا

وقال كشاجم:

خمرةٌ تتركُ الحليمَ سَفِيهَا
هي في الكأسِ أم هو الكأسُ فيها

صدخَ الديكُ في اللُّجَى فاستقِنِيهَا
لستُ أدري مِن رَقْوٍ وَصَفَاءِ

كمال الدين بن النيه:

فَالدِيكَ قد صَدَعَ الدَجَى لما صَدَخَ
ما ضَلَّ في الظلماءِ من قَدَحِ القَدَخِ
لمَقْطَلِ إِلَّا تَهَلَّلَ وأنشَرَخَ
لَكِنَّهُ مَزَجَ المِسْرَةَ بالقَرْخِ
سَرَّالَهَا في باخِلٍ إِلَّا سَمَخَ
عَلَى لَمَنَ خَلَعَ العِذارُ أوِ افْتَضَخَ

فَمَ يا غلامَ ودَّعْ مَقَالَةَ مَنْ نَفَخَ
خَفِيَّتْ تَبَاشِيرُ الصَّبَاحِ فَأَسْقِنِي
صُهْبَاءَ ما لَمَعَتْ بِكَفِّ مُدِيرِهَا
تَاللهِ ما مَزَجَ المِدامَ بِمَائِهَا
هي صَفْوَةُ الكَرَمِ الكَرِيمِ فَمَا سَرَتْ
من كَفِّ فَتَانِ اللِّعَاطِ بِوَجْهِهِ

وقال غيره:

حَسَنًا وَلِهَوَا وَأَنَا
بِهَا وَأَشْهَدُ شَمَا

وَلِيْلُوهُ أَوْسَعْنِي
ما زِلْتُ أَلْتُمُ بَدْرًا

عبد الله بن العطار. وقيل يزيد بن معاوية:

فَأَوَّلُهَا شَمْسٌ وَأَخْرَجَهَا بَلَرُ
فإن جَاءَهَا جَاءَ التَّبَسُّمُ والبُشْرُ
من العَشْقِ حَتَّى المَاءِ بِعَشْقِهِ الخَمْرُ

وكأسُ يُرِينَا آيَةَ الصَّبَحِ في اللُّجَى
مَقْطَبَةٌ ما لَمْ يَزُزْهَا مَزَاجُهَا
فيا عَجَبًا لِلدَّهْرِ لَمْ يُخْلِ مَهْجَةً

وقال ابن نعيم:

راحاً تسلُّ شبابي من يدِ الهرمِ
غزاةُ المبحِ ترعى نرجسَ الظلمِ

وليلو بكُ أسقى من غياهِها
ما زلتُ أشربها حتى نظرتُ إلى

ابن مكانس:

وتوالى تجلُّداً
فأجلُ كأسِي على الندى

نزلَ الطلُّ بكرةً
والندامى تجمُّعوا

الشيخ شهاب الدين الحجازي:

جليت بين الندامى
فقتننا بالندامى

كأنا ياصاخ صرفاً
لم نجد ماءً لمزج

صفي الدين الحلبي:

وهي سلطان سائر المسكراتِ
بين ماء الحيا وماء المماتِ

كيف لا تخضعُ العقولُ لذئبها
ألقوا في الكؤوسِ إذا مرَّجوها

غيره:

غلبت ضوء السراجِ
فطغما بالمزاجِ

صَبَّها في الكأسِ مِرْزاً
ظنَّها في الكأسِ ناراً

مجد الدين بن تميم:

سوى الصرفِ فهو الهني
ولا تسقني مع ذنبي

نديمي لا تسقني
ودعْ كأنها أطلأ

تقي الدين بن حجة:

مشرقة باسمه كالنَّفَرِ
قلتُ انقِيها يا إمامَ العصرِ

حيا بها عاصرها في كأسها
وقال هذي تحفة في حضرتنا

أبو الطيب المتني:

كما يضيء لنا من أفقها الفسقُ
أخشى عليه من اللألاءِ يحترقُ
في فيه كَلْبُهُ في وجهِ الشفقِ

يا صاحبي امزجاً كأسَ المدام لنا
خمرأ إذا ما نديمي همَّ يشربها
لو راح يحلفُ أن الشمسَ ما عُرِيتُ

وقال آخر:

وأمائوها بتؤسٍ بالقدمِ
ونلَّهم من جورِ مظلومِ حَكَمِ

بنتُ كرمِ يئسوها أئها
ثم دأروا حكسوها فيهم

وقال آخر:

حكى منظومها عندَ اللالي

عنايفد على قُصْبِ نَدَلْتِ

إذا عَصِرْتَ بَدَا فِي الْكَاسِ مِنْهَا

برهان الدين بن المعمار:

بَاكِزٌ لِكَرَمِ الْعَنْبِ الْمُجْتَنِي
وَاعْصُرُهُ وَاسْتَخْرِجْ لَنَا مَاءَهُ

جولان العاذلي:

إِذَا مَا الْخَمْرُ فِي الْكَاسَاتِ صُبَّتْ
وَإِنْ جَلِيَتْ عَلَى النَّدْمَانِ يَوْمًا

وقال في الشراب المطبوخ:

يَا مَنْ يَعْذُبُ مَاءَ الْكَرْمِ بِحَرْقِهِ
إِنْ التَّيَّ طَبَخَتْهَا الشَّمْسُ أَنْفَعُ لِي

وقال أيضاً:

وَعَتِيقَةُ رَقَّتْ وَرَاقَ مَزَاجُهَا
لَمْ يَبْقَ مِنْهَا غَيْرُ نُورٍ سَاطِعٍ
تَرْنُو إِلَيْكَ مِنَ الْحَبَابِ^(١) بِأَعْيُنٍ

وقال غيره:

لَا تَعْصِرَنَّ زَيْبًا وَاعْصِمِزْ عَنَّا
هَذَا مِنَ الْحَيِّ لِلْأَحْيَاءِ مَعْصِرٌ

وقال غيره:

عَابُيُوا عَلَيَّ مَدَامًا
وَاسْتَكَرُوهُمَا وَقَالُوا

وقال آخر في الشراب على الرعد والبرق:

أَمَا تَرَى الرِّعْدَ بِكَيْ فَاشْتَكَى
فَاشْرَبْ عَلَى غَيْمٍ كَصَبْغِ اللَّجَى
وَانْظُرْ لِمَاءِ النَّيْلِ فِي مَدَنِهِ

وقال آخر:

يَا لَيْلَةً جَمَعَتْ لَنَا الْأَجَابَا

دَوَالِي قَدْ تَرَكْتُ فِي دَوَالِي

وَاسْتَخْنِيهِ مِنْ عِنْدِ عَنَابِهِ
لِكَيْ تَزِيلَ الْهَمَّ عَنَّا بِهِ

رَأَيْتَ لَهَا شَمُوسًا فِي بَرْوَجٍ
تَزَاخَمَتِ الْهَمُومُ عَلَى الْخُرُوجِ

بِالنَّارِ فِي أَيِّ شَيْءٍ تَظْلُمُ الْعَبَا
وَلَسْتُ أَخْصِرُ لَا قَدْرًا وَلَا حُطْبَا

لُطْفًا وَأَنْخَلَهَا الزَّمَانُ الْغَابِرُ
لَا يَسْتَطِيعُ بِجَوْلٍ فِيهِ النَّاطِرُ
خَلَقْتُ وَلَمْ تَخْلُقْ لَهُنَّ مُحَاجِرُ

فِيَنَ هَذَيْنِ فَرَقْنَا بِصَرْيَحٍ
وَذَاكَ يَعْصِرُ مِنْ جِسْمٍ بِلَا رُوحٍ

أَخْرَزَتْهَا لِصَبُوحِي
تَحَلَّلْتُ^(٢)، قَلْتُ رُوحِي

وَالْبَرْقُ قَدْ أَوْمَضَ فَاسْتَضَحَا
أَضْحَكَ وَجْهَ الرُّوحِ لَمَّا بَكَى
كَأَنَّهُ صَنَدَلٌ أَوْ مَصْطَكَا^(٣)

لَوْ شِئْتُ دَامَ لَنَا النِّعِيمُ وَطَابَا

(١) الحباب: ما يعلو الخمر من رغوة.

(٢) تحللت: فُتِلت.

(٣) مصطكا: علكة

يَلْزُ الصَّحِيحَ بِعَقْلِهِ مَرْتَابَا
مَنْ فَضَّةٌ قَدْ قَمَعَتْ عَنَابَا

بَتَا بِهَا نُسْقَى سُلافاً قَرَقَا
مِنْ كَفِّ غَايَةِ كَأَنَّ بَنَانَهَا

وقال غيره:

وَالْأَرْضَ تَضْحَكُ وَالْأَزْهَارُ فِي فَرْحٍ
مَنْ الزَّمَانِ وَمَا نَلَقَى إِلَى الْقَدَحِ

أَمَا تَرَى الْغَيْثَ كَالْبَاكِ بِأَدْمَعِهِ
قُمْ فَدَيْتَكَ نَشْكُو مَا نَكَايِدُهُ

ابن نباتة:

وَعَارِضُ الْفَجْرِ بِالْإِشْرَاقِ قَدْ طَلَعَا
وَكَاثُهَا خُلْدٌ رِيْمٌ رِيْمٌ فَامْتَعَا^(١)

أَمَا تَرَى اللَّيْلَ قَدْ وَلَّتْ غِيَابُهُ
فَأَشْرَبَ عَلَى وَرْدَةٍ وَرْدِيَّةٍ قَدَمَتْ

ومن شعر عضد الدولة:

وَشَرِبَ الرِّاحَ وَالْفَرَجَ الْمَلَّاحِ
وَنَارِي يَنْ نَارَنْجِي وَرَاحِي
وَتَلْجِي وَالصَّبَاخَ مَعَ الصَّبَاخِ
صَبَاخٌ فِي صَبَاخٍ فِي صَبَاخِ

طَرِبْتُ إِلَى الصُّبُوحِ مَعَ الصَّبَاخِ
وَكَانَ التَّلْجُ كَالْكَافُورِ ثَرَا
فَمَشُومِي وَمَشْرُومِي وَنَارِي
لَهَيْبٍ فِي لَهَيْبٍ فِي لَهَيْبِ

ابن وكيع:

فِرَاقٌ عَدُوٌّ أَوْ لِقَاءُ صَدِيقٍ
كَوَاكِبُ دُرٍّ فِي سَمَاءٍ عَقِيقٍ
قَمِصَ بِهَارٍ مِنْ قَمِصِي شَقِيقٍ

وَصَفْرَاءُ مِنْ مَاءِ الْكَرُومِ كَأَنَّهَا
كَانَ الْحَبَابُ الْمُسْتَدِيرَ بِطَوَقِهَا
صَبِثُ عَلَيْهَا الْمَاءَ حَتَّى تَعْوَضَتْ

وقال آخر:

أَتَتْ بَيْنَ ثَوْبِي نَرْجِسٍ وَشَقَائِقٍ
عَلَيْهَا مَزَاجٌ فَاكَّتْ لَوْنَ عَاشِقٍ

وَحَمْرَاءُ قَبْلَ الْمَرْجِ صَفْرَاءُ بَعْدَهُ
حَكَّتْ وَجْهَ الْمَعشُوقِ صِرْفاً فَلَطَّوَا

وقال آخر:

وَحُلَّ الْبَدْرُ فِي بَرَجِ الْكَمَالِ
تَمَرُّ بِهِ الْجَنُوبُ مَعَ الشَّمَالِ
قَدُودُ سُقَاتِنَا فِي كُلِّ حَالٍ
أَبَادُ لَذَّتِي قَبْلَ ارْتِحَالِي
يَفْرُقُ بَيْنَهُمْ صَرْفُ اللَّيَالِي^(٢)

إِذَا الْكَرَوَانُ صَاخَ عَلَى الرَّمَالِ
وَجَعَدَ وَجْهَ بَرْكِتِنَا هَبُوبِ
وَحَرَّكَتِ الْغُصُونُ فُشَايَهُنَّهَا
فَهَاتِ الْكَأْسَ مَرَعَةً وَدَغْنِي
فَكُلْ جَمَاعَةً لَا شَكَّ يَوْمًا

وقال آخر في الشراب على الغيم:

(١) امتعا: أي رُوِدَ عن نفسه.

(٢) الليالي: نوازلها.

أرى غيماً تُولِّقُهُ جنوبُ
فوجهُ الرائي أن تَدْعُو برطلِ
ويوشِكُ أن يوافقنا بهطلِ
فتشرِّبُهُ وتدْعُو لي برطلِ

وقال آخر:

فيا بكرُ بِاِكْزِ بكرةٍ بِكْرَ كَرَمَةٍ
ودارِ خَمَارِ الخَمِيرِ بالخَمِيرِ إنما
تَمُرُّ بِكُورِ بِاِكْرَتِكَ بها بِكْرُ^(١)
دولةِ خَمَارِ الخَمِيرِ من دَائِهَا الخَمَرُ^(٢)

وقال الصنوبري:

لا تَبْكِيَنَّ عَلَى الأطلالِ والدُّمَنِ
وَقُمْ بنا نَصْطَلِخْ صِهَاءَ صافيةٍ
بِكْرًا مَعْتَقَةً علراءِ واضحةٍ
حمرًا مُرَوَّقَةً صفراءَ فاتحةٍ
يَسْعَى بها غنْجٌ في خِلَّةِ ضَرْجٍ
في ريقٍ عَسَلٍ قلبي به خَبَلٍ
كَأَنَّهُ قَمَرٌ ما مثله بشرٌ
سبحانَ خالِقِهِ يا وَنَحْ عاشِقِهِ
في رَوْضَةٍ زَهْرَتٍ بالنبْتِ قد حنَّتْ
يا طيِّبَ مَجْلِسِنَا والطيْرُ يُطِيرُنَا

كما الدين بن النيه:

طابَ الصَّبوحُ لنا فهَاكَ وهاتِ
كم ذا التَّوَانِي والزَّمانُ ماعِذُ
قُمْ واغْتَبِقْ مِنْ شَمْسِ كاسِكَ واضْطَلِخْ
حمرًا صافيةً تُوقِدُ نورُها
يَسْلُ في قارِ الظُّرُوفِ حُبَّابُها
علراءِ واقْعَمَها المِزاجُ أما ترى
يَسْعَى بها جِلُّ الروادِفِ أَمِيفُ
يَهْوِي لَتَسْبِقُهُ ذوائِبُ شَغِيرِهِ
لو قَسِمْتَ أرْزاقنا يَمِينُهُ

وقال أيضاً:

(١) تجنيس كثير: بكر: شخص باكر: اغلر. بكر: علراء، بكور: خمرة صباحية.

(٢) الخمار البرقع، الخمر: الخلاء.

(٣) منزل أقوى: خلا وأصفر.

قد ترنم فوق الأيك طائره
 كالروض تطفو على نهر أزهرة
 محلق تملأ الدنيا بشائره
 تنوب عن ثغر من تهوى جواهره
 فهل جناها من العقود عاصره
 فايض خداه واسودت غدائره
 نفس نواظره خرس أساوره
 مؤنث الجفن فعل اللحظ شاطره
 مخضر الخصر عبل الردف وافره
 وزودت سحر عيني جاذره
 وزجبت فوق صغفه محاجرته
 كبرى لآمن بعد الكفر ساحره
 وأنت ناه هذا الدهر أميره
 لكنه زئما مرث أواخره
 عظيم ذنبك إن الله غافره

باكر صبحك أهني العيش باكره
 والليل تجري الداري في مجريه
 وكوكب الصبح نجاب على يديه
 فانهض إلى ذوب ياقوت لها جيب
 حمراء من وجنة الساقى لها شبة
 ساق تكون من صبح ومن غسق
 يفيض سوائفه نفس مرثفه
 مفلج الثغر معسول اللى غنج
 مهفف القد يلدى جسده ترفاً
 تعلت بانة الوادي شمائله
 كأنه بسواد اللحظ مكحل
 فلو رأت مقلنا هاروت آيته الـ
 خذ من زمانك ما أعطاك مغتماً
 فالعمر كالكاس تستغلى أوائله
 واجسر على فرص اللذات محترماً

وقال آخر:

نعلل بالكؤوس وبالقناني
 لساقيها أوزها بالدنان

شربنا بالبواطي ثم رُخنا
 ولولا ضيقه الأجرام قلنا

برهان الدين القيراطي:

عزت وبالإفلاس حالي عجب
 احمل إلينا جرّة كي نطيب
 خمراً فإن الكل مني قريب
 في جرّة عشرين قلنا الزيب

أرى جراز الخمر تغلّو وقد
 جئنا لخمّار وقلنا له
 قال زيباً تريدون أم
 قلنا له خمراً فتأدى زئوا

وقال أيضاً:

نعل على نقيبه طيبي
 أن أخلط الهَمّ بالزيب

صرف الزيب لصرف هَمّي
 أهأ على سكرة لعلّي

وقال:

لا تملأ الحرام حذا
 وطالب القوت ما تملى

قالوا اترك الخمر واجتنبها
 قلت أراها للسروح قوتاً

ومما قيل في شرب الفقهاء:

علماً بتصريف أحوال وتحقيق
تحت الظلام بأفواه الأباريق

في مجلس الشرب كاسات بطاسات
حكاية عرضها عرض السموات

بدا في بئلي مالى فيه ضناً
ويأكل كفه في الصخر حزناً

أعازته الشجاعة باللسان
إذا اشتد اللقاء يوم الطعان

وقد شرب الصبابة هل من مبارز
أناقل فيها كل لبث مناهز
لعمري إني لست فيها بعاجز
وفي الصحرى لقاء كعص العجائز

وعيشهم ما فيه تكدير
يسقي وذا بالشرب مسرور

به وله صفو الزمان مساعد
وخامهم هم على الكل زائد

أو سبعة وعلى الكثير ثمانية
وتكثرت بين الرجال الآتية
ولئن أتيت به فأئك زاتية

جعلت حضورنا فيه وداعاً
ووفيت الذي يفت اللداعاً

يحمون بالقفه عرض الدين من سفه
وبعضهم يكرغ الصبابة مغتماً

ومما قيل فيمن يطيل الحديث والكأس في يده:
وشادين نطقه جار إذا شققث
يظل يحكي وكأس الراح في يده

ومما قيل في كريم السكر لثيم الصحرى:
إذا هز اللثيم السكر يوماً
يجود بماله في الشرب سكرأ

ومما قيل في شجاع السكر:
إذا شرب الجبان الخمر يوماً
وعند الصحرى لقاء جزوعاً
وفيه أيضاً:

يقول جبان القوم في حال سكره
وأين الخيول والأعوجيات في الوغى
ومن لي بحرب ليس تخمد نازها
ففي السكر قيس وابن معدى وعامر

وقال في شرب الثلاثة:

ثلاثة في مجلس طيب
هذا يغني ذا وهذا الذي

وقيل في شرب الأربعة:

ألا إنما خير المجالس مجلس
فتاة وساق والمغني وصاحب

وقيل في شرب الستة:

خير المجالس خمسة أو ستة
فإذا تملأ صار شغلاً شاعلاً
فاهرب إذا ما كنت تاسع مجلس

ومما قيل في الشرب مع التجار:

شربت مع التجار وكان يوماً
فذاك يقول كم أطلقت بيعاً

وهذا قالَ عندي كلُّ شيءٍ
فلا تَجْعَلُهُمْ أبداً نَدَامَى
ومما قيل فيمن أكل على الشراب:

وندمان إذا ما الكأسُ دارَتْ
نديمٌ دأبه في السكرِ أكلٌ
وقيل في قلدح:

غرامي ووجدني بالذي كان في الثرى
قضى ما عليه من ورودِ جهنَّم

محمد بن جعفر الأنصاري يستدعي بعض أصدقائه إلى الشراب:

بساطُ الأرضِ مسلٌّ أو عيرٌ
وقد صفَّى الدنانِ الخمرَ حتى
ومن يُريدُ السرورَ يعيشُ هنيئاً
وعندي اليومَ فتیانٌ كرامٌ
وقطبُ الأمرِ أنتَ وهل لأمرٍ
فرائك في الحضورِ فحقُّ يومي

وقال آخر:

باكرٌ صبوحك واشربها مشبعة
حمراء من بعد ما احمرتْ مُوردة
كأن في كأسها والماء يقرعها
لا صاحبتني يدٌ لم تمن ألف يدٍ
بايز بجودك بايز قبل عاقبه

سيف الدولة بن حمدان في ساق:

وساق صبيح للصُّبح دَعْوَةٌ
يطوف بكاساتِ العقارِ كأنجمٍ
وقد نشرتْ أيدي النجومِ مطارفاً
يطرِّزها قوسُ السماء بأصفرٍ
كأذيالِ خودٍ أقبلت في غلائلٍ

ابن نباتة:

مَقَى وواعَدني وصلاً ألدُّ بهِ
قيلُهُ الله من ساقِ مواعدهُ

ولكن لا أبيعُ ولا أباعا
فكسب من مجالسهم صداعا

بغيرِ الأكلِ ارتَعَدَتْ يَدَاهُ
فلا يُقي على شيءٍ يَرَاهُ

مَهَاناً فأضحى في المجالسِ حاكماً
قصارَ لجناتِ النعيمِ ملازماً

وزهرُ الروضِ وشيءٌ أو حريزٌ
لقد عادت لدينا وهي نورٌ
إذا العيشُ الهنيءُ هو السرورُ
وَجُودُهُمْ شُموسٌ أو بدورُ
بغيرِ القطبِ فيه رَحَى تدورُ
عليك وقد دَعَاكَ له الحضورُ

واهنأ بعيشٍ حميدٍ غيرِ مضمومٍ
طافَتْ علينا فرثٌ كلُّ مهمومٍ
أكارعُ النملِ أو نقشُ الخواتيمِ
ولم تَرِدِ القنا حُمَرَ الخياشيمِ
فإنَّ خُلُقَ الفَتَى عندي من اللومِ

فقام وفي أجزائه سِنَّةُ الغمضي
فما بين مَقَصٍّ علينا ومَقَصٍّ
على الخودِ كنا والحواشي على الأرضِ
على أحمرٍ في أخضرٍ تحت مِيضٍ
مصبغةٍ والبعضُ أقصرُ من بعضٍ

عند المنام ولا والله ما وَصَلَا
كانت مواعيدُ عرقوبٍ لها مثلاً

وقال آخر في ساق:

وساق كالهلل سقى بكأس
قلقت تأملوا بلداً منيراً
لرئة نرجس فسقى وحياً
سقى شمساً وحياً بالشرياً

وفيه لابن النيه:

ساق صفيحة خده ما سوّدت
جمد الذي يمينه في خده
عشاً بلام عذاره ونسونه
وجرى الذي في خده يمينه

في جارية ساقية:

نديمتي جارية ساقية
جارية أعينها جنة
ونزعتني ساقية جارية^(١)
وجنة أعينها جارية^(٢)

فمن حبس الكأس في يده:

قالوا الذي تهواه يحبس كأسه
فاجبتهم كموا الملام فأنه
في كفّه من غير ذنب موجب
قمر ينزّه طرفه في كوكب

وقال آخر في مجلس أنس:

ومجلس راق من واش يكلّوه
ما فيه ساع سوى الساقبي وليس له
ومن رقيب له باللوم لإلام
على الندامي سوى الريحان نمام^(٣)

صفي الدين الحلبي في هود:

وعود به عاد السرور لأنّه
يفرب في تفريده فكانه
حوى اللهو قديماً وهو ريان ناعم
يعيد لنا ما لقتّه الحمائم

وقال آخر في زامة:

وناطق بالنفخ عن روح رها
سكتنا وقالت للقلوب فاطرت
تعبّر عما دوننا وترجم
فنحن سكوت والهوى يتكلم

ومما قيل في فانوس لابن نعيم:

انتظر إلى الفانوس تلقّ منيماً
يدو تلثب جسمه لتحوّله
فزقت على قلب الحبيب دموعه
وتعدّ من تحت القميص ضلوعه

وفيه لابن قزل:

(١) ساقية جارية: غدير جاري.

(٢) أعينها جارية: يتابعها.

(٣) نمام: واش.

ذَنِفَ بِرَاهِ شَوْقُهُ وَسَهَادُهُ
وَجَرَتْ مَدَامَعُهُ وَذَابَ فَوْادُهُ

وَكأنَمَا الفَانُوسُ فِي غَسَقِ الدُّجَى
أَضْلَاعُهُ خَفِيَتْ وَرَقٌّ أَدِيمُهُ

ولبعضهم في شمعته:

وإن كنتُ صَبَّاً دونَهَا متوجِّعاً
وصبراً وصمتاً واحترافاً وأدمعاً

حَكَّنِي وَقَدْ أودَى بِي السَّقَمُ، شَمْعَةً
ضَنَى وَسَهَاداً وَاصْفِراراً وَرَقَةً

ومما قيل في الربيع والرياض والبساتين والمياه والنواحير ونحو ذلك، قال الشاعر:

مَتَجَاوَبٌ فِي أَيَّامِهِ أَطْيَارُهُ
وَالْوَرْدُ يَضْحَكُ بَيْنَهَا وَيَهَارُهُ
هَذَا هَوَاكَ وَهَذِهِ آثَارُهُ

هَذَا الرِّيعُ وَهَلِيزِ أَزْهَارُهُ
وَبَدَا الْبُضْجُ وَالشَّقَائِقُ مَوْنَقُ
فَاشْرَبْ عَلَى وَجْهِ الْحَبِيبِ وَغْنُ لِي

قال غيره:

سَحِيرَا وَأوداجُ الأَبَارِيقِ تَسْفِكُ
مِنَ النُّورِ يَجْرِي دَمْعُهُ وَهُوَ يَضْحَكُ

غَدُونَا عَلَى الرُّوضِ الَّذِي طَلَهُ النَّدَى
فَلَمْ نَرَ شَيْئاً كَانَ أَحْسَنَ مَنظَرَا

وقال آخر:

بِخَضِرَةٍ وَاكْتَسَى بِالنُّورِ عَارِيهَا
وَالرِّيعُ ابْتَسَامٌ فِي نَوَاجِيهَا

أَمَا تَرَى الْأَرْضَ قَدْ أَعْطَتْكَ زَهْرَتَهَا
فَلِلْمَاءِ بِكَاءٌ فِي جَوَانِيهَا

وقال غيره:

لَمْ تَضْحَكِ الْأَرْضُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الزَّهْرِ
إِلَّا إِذَا زَكَّدَتْ مِنْ شَلَقِ الْمَطَرِ

إِنَّ السَّمَاءَ إِذَا لَمْ تَبْكِ مُقَلَّتْهَا
وَالْأَرْضُ لَا تَنْجَلِي أَنْوَارَهَا أَبَدَا

وقال ابن فرناص:

جَنُونِي فَنُوناً بِأَفْئَانِهَا
لِتَقِيلَ أَقْدَامُ أَغْصَانِهَا

أَيَا حُسْنَهَا مِنْ رِيَاضٍ غَدَا
مَشَى الْمَاءُ فِيهَا عَلَى رَأْسِهِ

وقال آخر:

وَتَفَارَقَتْ بَعْدَ التَّعَانُقِ رَجْعَا
فَرَأَى الْمِرَاقِبَ فَانْتَشَى مَتَوَجِّعَا

انْظُرْ إِلَى الْأَغْصَانِ كَيْفَ تَعَانَقَتْ
كَالْمَصْبِّ حَاوِلَ قُبْلَةٍ مِنَ الْوَقْعِ

وقال ابن تميم:

طَرَفِي بِرَوْنِقِ حُسْنِهَا مَدْمُوشُ
فَكأنَمَا هُوَ مَعْصَمٌ مَقْشُوشُ

وَحَدِيقَةُ يَنْسَابُ فِيهَا جَدُولُ
يَبْدُو خِيَالُ غُصُونِهَا فِي مَائِهِ

وقال أيضاً عفا الله عنه:

وَاطْلُ مِنْهَا تَعَتَّ ظِلُّ ضَافِي

لِمَنْ لَا أَهِيْمُ إِلَى الرِّيَاضِ وَحُسْنِهَا

والماء وأفاني بقلب صافي

والزهرة حياني بشعر باسم

وقال آخر:

قد حَبَانَا بِاللَّطْفِ وَالْإِكْرَامِ
أَخْرَجَتْهَا لَنَا مِنَ الْأَكْمَامِ

قَدْ سَعَيْنَا نِغْيَ زِيَارَةِ دَوْحِ
نَاوَلْتَنَا أَيْدِي الْغَصُونِ ثَمَاراً

ومما قيل في الأزهار والثمار. قال بعضهم في الورد:

فِي رَوْضَةِ الْقَصْفِ وَالْأَطْيَازِ تَتَحَبُّ
فَهَاتِهَا قَهْوَةً فِي الْكَاسِ تَلْتَهَبُ
يَجُودُ بِالْوَصْلِ شَهْراً ثُمَّ يَحْتَجِبُ

يَا رَاقِداً وَنَسِيمُ الصَّبْحِ مَتَبَةٌ
الْوَرْدُ ضَيْفٌ فَلَا تَجْهَلْ كِرَامَتَهُ
سَقِيّاً لَهُ زَائِراً تَحِيَا النُّفُوسُ بِهِ

وقال آخر فيه:

مَا دَامَ لِلْوَرْدِ أَنْوَارُ وَأَزْهَارُ
لَا طَوَّلْتُ لِلنَّاسِ أَعْمَارُ

طَابَ الزَّمَانُ وَجَاءَ الْوَرْدُ فَاضْطَحَّ
وَاسْتَبْلَا عَيْنَنَا بِالْكَاسِ مَرَّةً

وقال آخر:

شَهْراً وَعَشْراً وَخَمْساً بَعْدَهَا عَدَا
فَلَسْتُ تَأْمَنُ صَرْفَ الْحَادِثَاتِ عَدَا^(١)

أَشْرَبْتُ عَلَى الْوَرْدِ مِنْ حَمْرَاءِ صَافِيَةٍ
وَاسْتَوْفَى بِالْكَاسِ مِنْ لَهْوٍ وَمِنْ طَرِبٍ

وقال آخر:

أَيَّامُ وَرْدٍ وَالصَّبُوحُ يَطِيبُ
حَمْرَاءَ جَادَ بِهَا عَلَيْكَ حَيْبُ

أَشْرَبْتُ عَلَى وَرْدِ الْخُدُودِ فَلِإِنَّهَا
مَا الْوَرْدُ أَحْسَنَ مَنْظَرٍ مِنْ وَجْنَةٍ

وقال بعضهم:

وَيَقُولُ وَهُوَ عَلَى الْبَنْسَجِ يَحْنَقُ
مِنْ يَنْكُمُ فَهُوَ الْعَدُوُّ الْأَزْرَقُ

وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْوَرْدَ يَلْعَلُ خَلْدُهُ
لَا تَقْرَأُوهُ وَإِنْ تَضَوَّعَ نَشْرُهُ

ومما قيل في البنسج. قال ابن المعتز:

يِنَّ الرِّيَاضِ عَلَى زَرْقِ الْيَوَاقِيتِ
أَوَائِلُ النَّارِ فِي أَطْرَافِ كَبْرِيتِ

وَلَا زَوْرِدِيَّةً وَأَفْتُ بَزَوْرَدِيَّةَا
كَأَنَّهَا فَوْقَ طَاقَاتِ صَفْفِنَ بِهَا

وقال آخر:

تَهْدِي السَّرُورَ لِكُلِّ صَبٍّ مَكْمَدٍ
أَوْ أَعْيَنَ زَرْقٍ كَحَلَنَ بِأَنْمَدٍ^(٢)

أَشْرَبْتُ عَلَى زَهْرِ الْبَنْسَجِ قَهْوَةً
فَكَأَنَّهُ قَرْمَضٌ بِخَدِّ مَهْفُوفٍ

(١) غدا: نوازل الأيام.

(٢) بأنمد: حجر يكحل به.

ولبعضهم في الورد:

للورد فضلٌ على زهرِ الربيع سوى
كأنَّهُ وعيونُ الناسِ ترمقُهُ

وقال آخر:

يا مهدياً لي بنفسجاً أرجأ
بشُرني عاجلاً مصحِّفهُ

وقال غيره في النرجس:

وقضبِ زمردٍ تعلُّو عليها
تَوَهَّمَتِ الغمامَ لها رقيقاً

وقال آخر فيه:

أنتَ يا نرجسُ روضُ
ودليلُ القولِ فيكَ

وقال آخر:

أقولُ وطرفُ النرجسِ الغضُّ شاخصُ
أيا ربِّ حتى في الحدائقِ أهينُ

وقال أيضاً فيه:

لما تَكَادَى الوردُ في زهرِهِ
تَلَوْنَ المَثُورُ ممَّا بِهِ

ومما قيل في اللينوفر لابن المعز المصري:

وبركوةٌ تزهُو بليِنوفرٍ
مفتَّحُ الأجفانِ في نومِهِ
أطبَّقَ جفَّتَيْهِ على خُلْدِهِ

وقال تميم بن المعز المصري:

رأيتُ في البركوةِ لينوفرأ
قَالَ لي غرقتُ في أدموعي
قللتُ ما بالُ اصفرارِ بَدَا
قَالَ لي ألوانُ أهلِ الهوى

ومما قيل في البان:

قد أَقبلَ الصيفُ وولَّى الشتاء

أَنَّ البنفسجَ أَزكى منه في المهجِ
أثَّارُ قرصِ يدٍ في خَدِّ ذي غَنَجِ

يرتاجُ صدري له ويتشرخُ
بأنَّ ضيقَ الأمورِ يفسحُ

عيونٌ لم تَلَقُ طعامَ الرِّمَاضِ
فنكستِ الرؤوسَ إلى الرِّمَاضِ

لزمورِ الأرضِ سَتُ
أَنَّ أوراقَكَ سَتُ

إليَّ وللتَّمامِ حولي إمامُ
علينا وحتى في الرياحينِ نقامُ

وراحٌ من إعجابِهِ برأسِ
واصفراً من غيظِهِ به النرجسُ

نسيمُهُ يشبهُ نشرَ الحبيبِ
حتى إذا الشمسُ ذَنَّتْ للمغيبِ
وغاصَ في البركوةِ خوفَ الرقيبِ

قللتُ ما شأْنُكَ وسطَ البركِ
وصادني ظبيُّ الفلا بالشركِ
فيكَ وما هذا الذي غيَّرَكَ
صفرٌ ولو ذقتُ الهوى صَفَرَكَ

وعن قليلٍ تَأْمُ الحرا

أما تَرَى البانَ بأغصانِهِ قد قلبَ القروِ إليَّ بَرًا
وقال آخر فيه:

أما ترى البان الذي يزهُو على كلَّ الغصونِ بقلِّه المياسِ
واني يثُـرُ بالريـعِ وقُـرْبِهِ يختالُ في السجَابِ والبرطاسِ
وقال في الشقيق:

حَيَّيْتُه بشقائقي في مجلسٍ ورأى الرقيبَ فشقَّ ذاك عليه
فاحمرَّ من خجلٍ فأبَّتْ خُدُّهُ أضعافَ ما حملتْ يداي إليه
وقال آخر:

لو لم أعاينكَ مَنْ أُحِبُّ بروضةٍ أحداقُ نرجسِها إلينا تنظرُ
ما انشَقَّ جبُّ شقيقِها حدًّا ولا باتَ النسيمُ بذيـلِهِ يتعُـرُ
وقيل إن ابن الرومي الشاعر زار قبر أخيه يوماً فوجد الشقائق قد نبئت على قبره فأشدد يقول:
فأَلتْ شقائقُ قبرِهِ وَلَرُبَّ أحرَسَ ناطقُ
فأَزَقَّتْهُ وَلَزَمَتْهُ فأنا الشقيقُ الصادقُ

ومما قيل في المشور:

تخال مشورَها في الدُّوحِ مشيراً كأنما صيغَ مِنْ دُرٍّ وعيَّانِ
والطيرُ ينشُدُ في أغصانِهِ سحراً هذا هو العيشُ إلا أنه فاني
وقال آخر:

قد أَقبلَ المشورُ يا سيلي كالدرِّ والياقوتِ في نظْمِهِ
تَنَّاكَ لا زال كأنفاسَهُ ومخَّ مَنْ يشناك مثل اسمِهِ
ولبعضهم فيه:

ولقد خلوت مع الأحبة مرةً في روضةٍ للزهر فيها معركُ
ما بينُ مشورٍ أقامَ ونرجسٍ مع أقحوانٍ وصفهُ لا يُنْزَكُ
هذا يثيرُ بأصبعٍ وعيونُ ذا ترنو إليه وثغرُ هذا يضحكُ
ومما قيل في الياسمين:

والأرضُ تبسمُ عن ثغورِ رياضِها والأفقُ يفسرُ تارةً ويقطبُ
وكأنَّ مخضِرَّ الرياضِ ملاءةً والياسمينُ لها طرازُ ملهَبُ
وقال آخر:

رأيتُ الفألَ بثرني بخيرٍ وقد أهلى إليَّ الياسمينِ
فلا تحزنْ فإنَّ الحزنَ شينٌ ولا تياسْ فإنَّ اليأسَ مِينِ

ومما قيل في السوسن: للأخطل الأهوازي:

سقياً لأرضي إذا منا نمتُ نكهي
كأن سوسنها في كل شارقة

ومما قيل في الأقحوان لعبد القادر بن مهنا المغربي:

أفندي الذي زارني سررت فأتحنني
فبث من فرحي أفني مقبله

ول بعضهم فيه:

إن فاة ثغر الأقاحي في تشبه
فقل له عند ما يحكيه مبتما

ومما قيل في الجلتار:

وجلتار مشرق
كأن في غصنه
قراصة^(٢) من ذهب
على أعالي شجرة
أحمرة وأصفرة
في خرقه معصرة

ومما قيل في الآس:

أهديث مثبه قللك المياس
فكأنما يحكيك في حركاته

ومما قيل في الريحان:

وغصني من الريحان أخضر ناضر
يريك إذا كف الصبا عبث به

وفيه أيضاً:

وريحان يميني بخنن قلد
كسودان لين ثياب خز

وقال آخر:

فضيب من الريحان شاكل لونه
فشبهته لما بدا متجعداً

ومما قيل في الفواكه والثمار على اختلافهما. قال ابن الرومي في الأترج:

(١) شيم: بارد.

(٢) قراصة: كله حريري وأعله أسود.

تَشَابَهَتْ مِنْكُمْ الْأَخْلَاقُ وَالْخَلْقُ
حَمَلًا وَنَشْرًا وَطَابَ الْعَوْدُ وَالْوَرَقُ

كُلُّ الْخِلَالِ الَّتِي فِيكُمْ مُحَاسِنُكُمْ
كَأَنْكُمْ شَجَرُ الْأَنْجَرِ طَابَ مَعَا

ولبعضهم فيه:

نَاعِمَةٌ مَقْدُودَةٌ غَضَّةٌ
وَجَسْمُهَا النَّاعِمُ مِنْ فَضَّةٍ

حَيَّاكَ مِنْ تَهْوَى بِأَنْجَرٍ
فَجَلَدُهَا مِنْ ذَهَبٍ أَصْفَرٍ

وقال آخر:

تَحَدَّثَ لِلنَّفْسِ الطَّرَبُ
لَهَا غِشَاءٌ مِنْ ذَقَبٍ

بِأَجْبَلَا أَنْجَرٍ
كَأَنَّهَا كَافُورَةٌ

في الليمون قال أبي الحسن: رئيس الرؤساء:

حَلَوُ الْمَقْبَلِ الْمَيِّ بَارِدُ الشَّنَبِ
وَاسْتَوْدَعُوهَا غِلَافًا صَيِّغٌ مِنْ ذَهَبٍ

بِأَحْسَنَ لَيْمُونَةٍ حَيَّا بِهَا قَمَرٌ
كَأَنَّهَا أَكْرَةٌ^(١) مِنْ فَضَّةٍ خَرَطَتْ

وفيه أيضاً:

وَالطَّيْرُ لَمْ يَفْرُدِ
تَرْضَى بِعَيْشٍ نَكِيدِ
مَنْ كَفَّ سَاقِ أَغْيَدِ
مَنْ خَلَعَ الْمَوْرِدِ
لَلَّحَّةٌ يَوْمَ لَفْدِ
غُصْنٍ مِنَ الزَّرْجَدِ
مَمْلُوءَةٌ مِنْ عَجْدِ

وَصَاحِبِ نَادِيَتِهِ
أَتَهَفَّنَ إِلَى الرَّاحِ وَلَا
وَأَشْرَبَ سَلَفًا قَرَفًا
قَدْ أَكْثَرَتْ تَلَهُّبًا
وَلَا تَلَدَّ مَجْتَهِدًا
أَمَّا تَرَى اللَّيْمُونَ فِي
كَأَكْرَةٍ مِنْ فَضَّةٍ

في التارنج لعبد الله بن المعتز:

كَجَمْرَةٍ نَارٍ وَهِيَ بَارِدَةُ اللَّمَسِ
فَقَبَّهَتْهَا الْمَرِيخُ فِي دَارَةِ الشَّمْسِ

نَظَرْتُ إِلَى نَارِ نَجْوَةٍ فِي يَمِينِهِ
قَضَرْتُهَا مِنْ خَلْعِهِ فَتَأَلَّقْتُ

وقال آخر:

عَلَى غُصْنٍ رَطْبٍ كَقَامَةِ أَغْيَدِ
بَدَلَتْ ذَهَبًا فِي صَوْلَجَانِ زَرْجَدِ

وَنَارَ نَجْوَةٍ يَنْ الرِّيَاضِ نَظَرْتُهَا
إِذَا مَيَّلَتْهَا الرِّيحُ مَالَتْ كَأَكْرَةٍ

وقال آخر:

وَمِنْهُ مَا نَرَى كَالصَوْلَجَانِ

وَنَارَ نَجْوَةٍ يَلُوحُ عَلَى غُصُونِ

أشبهها قديماً ناهداً^(١)

وقال آخر:

وأشجار نارنج كأن ثمارها
فطالمتها بين النصارى كأنها
أتت كل مشتاق برئاً حبيب

في الضاح لبعضهم:

ولما بدأ الضاح أحمر مشرقاً
وقلت لائقها أذكرها فعندنا

وقال آخر في تفاع:

وتفاع من سندس صبغ نصفها
كان الهوى قد ضم من بعد فرقة

ولبعضهم فيه:

تفاع كبيت لوتين خلتهما
تعاقبا فبدأ واش فراعتهما

وقال آخر:

وتفاع وردب ذو ذمير
كان سلاف الخمر زوى أديمها
تذكرني شكل الحبيب وحسنه

وقال آخر:

حمره الضاح في خضرته
فعلى الضاح فاشرب قهوة

وفيه أيضاً:

أهدى لنا الضاح من كفه
وخط بالملك على بعضها

ومما قيل في السفرجل:

حاز السفرجل لذات الوري فقدا
كالراح طعماً وشم المسك رائحة

غلائلها صيفن بزعران

حقاق عقيق قد ملئن من الدر
قدود عذارى في ملاجئها الخضر
فهاجت له الأشجان من حيث لا يدري

دعوت بكاسي وهي ملأى من الشفق
خدود الأغاني قد جُمعن على طبق

ومن جنار نصفها وشقائق
بها خد معشوق إلى خد عاشق

خلني محب ومحبوب قد التصقا
فاحمر ذا خجلاً واصفر ذا قرقا

تجلى عن المهموم ليل هموم
بخمر فجاءت باحمرار أديمه
وتوريد خلته وطيب نسيمه

أشبه الألوان من قوس قزح
واسقنيتها بنشاط وفرح

من لم يزل يجنيه من خله
قد عطف المولى على عبده

على الفواكه بالتفضيل مشهوراً
والتبر لوناً وشكل البدر تدويراً

وقال آخر:

سفرجلة صفراء تحكي بلونها
إذا شمَّها المشتاق شُبَّه ريحها
وطيِّبَةً عِنْدَ المذاقِ فطعمُها
محبُّاً شجاءً للحبيبِ فراقُ
بريحٍ حبيبٍ لَدُ منه عناقُ
كريقٍ حبيبٍ طابَ منه مذاقُ

وقال آخر:

سفرجلة جمعتُ أربعاً
صفارَ النصارِ وطعمَ العقارِ
فكانَ لها كلُّ معنى عجيبٍ
ولونَ المحبِّ وريحَ الحبيبِ

وقيل في الكثرى:

وكثرى لذيذُ الطعمِ حلْوٌ
مناقيرُ الطيورِ إذا اقتلنا
شهيقُ جاءَ من دَوَّحِ الجنانِ
مغبرةٌ بلونِ الزعفرانِ

ابن برغش متغزلاً:

وكثيري سباني منه طعمٌ
لذيذٌ خلقه لما أتانا
كطعمِ الشهدِ شيبَ بماءِ وردٍ
نهودُ المرِّ في معنى وقد

ما قيل في المشمش:

بدا ممشُ الأشجارِ يذكو شهابُهُ
حكى وحكَّتْ أشجارُهُ في اخضرارِهِ
على غفرٍ أخصانِ من الروضِ مُجِدٍ
جلاجلَ تبرٍ في قبابِ زرجدٍ

ما قيل من الإحاص:

انظُرْ إلى شجرِ الإحاصِ قد حملتْ
تراءُ في أخضرِ الأوراقِ مستتراً
أغصانُهُ ثمرأ ناهيك من ثمرِ
كما اختبى الزنجُ في خضرٍ من الأزيرِ

ما قيل في الخوخ:

أهدى إلى الصديقِ خوخاً
من كلِّ مخصوصٍ بحسنِ
حمراءَ صفراءَ مستعبراً
كوجنةٍ مئها خلوقُ
منظرةً منظراً أنيقاً
معناه في مثلها دقيقُ
بهجتُها التبرُّ والعقيقُ
فزالَ عن بعضها الخلوقُ

ما قيل في الفتق:

تفكرتُ في معنى الثمارِ فلم أجِدْ
سوى الفتقِ الرطبِ الجَنِيِّ فأنه
غلالةٌ مرجانٍ على جسمِ فضوٍ
وأحشاءُ ياقوتٍ وقلبُ زرجدٍ
لها ثمرأ يئدو بحسنِ مجردٍ
زفاً بمعانٍ زُبَّتْ بتجردٍ

ما قيل في البنلق:

ولقد شربتُ مع الحبيبِ مدامةً
ففضَّلَ الطَّيِّبُ البهيُّ يندلقُ
فكرته فوجدتُ ثوباً أحمرًا

ومما قيل في النبق:

وسدرة كلُّ يوم
كأنما النبقُ فيها
جلاجلٌ من نضارٍ

ومما قيل في اللوز:

ومهد إلينا لوزةً قد تَمَنَّنَتْ
كأنهما جبانٌ فاذا بخلوةٍ

في العنب لبعضهم:

هدية شرفتنا من أخٍ ثَقِيٍّ
نوعان من عنبٍ جاءا على طَبَقٍ
فأبيضُ العَيْنِ يحكي لونَ أبيهِ

في فصب السكر:

ورمَّاحٍ لغيرِ طعني وضربٍ
كملتُ في استوائها واستقامتُ

ومما قيل في البطيخ الأصفر:

أنا غلامٌ فاقَ حسناً على الورى
فشبهتهُ بدرأٍ يقدُّ أهلاً

وقال آخر:

وبطيخٍ وافرٍ بها فوقَ كفِّه
فخيل لي شمسُ الأصيلِ أهلاً

ومما قيل في البطيخ الأخضر:

وطبِّي أتى في الكفِّ منه بمديٍّ
فمالَ إلى بطيخٍ ثم شَقَّها
فشبهتها لَمَّا بدت في أَكْثَرِهِم
صفائحُ بلورٍ بَلَّتْ في زرجلِ

وقال آخر:

حمرًا صافيةً بغيرِ مزاجٍ
شبهتهُ يندلقُ من عاجٍ
قد لَفَّ فيه بندقٌ من عاجٍ

من حُسْنِها في فنونٍ
وقد حَلَا في العيونِ
قد علقتُ في الغصونِ

لمبصرها قلبي فيها تلاصقا
على رقبته في مجلسٍ فماتقا

نغمَ الهديةِ إذ راقَكَ من يديه
كأنَّ طيَّهما من طيبٍ محتدٍ
وأبودُ العينِ يحكي لونَ أسودِهِ

بل لأكلٍ ومصرٍّ لُبٍّ ورَفَفٍ
باعتدالي وحسنٍ قد ولطفٍ

ببطيخٍ صفراءٍ في لونٍ عاشقٍ
من الشمسِ ما بينَ النجومِ يبارقُ

إلينا غلامٌ فاقَ كلَّ غلامٍ
يقطعُها بالبرقِ بلدٌ تمامٍ

وقد لاح في خديهِ شبهُ شقيقٍ
وفرَّقَها ما بينَ كلِّ صديقٍ
وقد عملتُ فيهم كدوسٍ رحيقٍ
مرصعٍ فيه قصورُ عقيقٍ

وطيخية خضراء في كف أغيد
وأقبل يفريها بمدية وقد

ومما قيل في الغناء:

انظُرْ إليها أنبياء منقّدة
إذا قلبت اسمها بانث ملاحتها

ومما قيل في الباذنجان:

وكانما الأبلنج سود حمائم
نقرت مناقره الزمرد سمام

ومما قيل في الأنهار والبرك والنواير:

أما ترى البركة الغراء قد كبّت
والنهر من فوقه يلهيك منظره
كانه السيف مصقولاً بقلبه

وقال البحرني في البركة:

يا مَنْ يرى البركة الحناء رؤيتها
فلو تمر بها بلقى عن عرضي
كانها الفضة البيضاء سائلة
إذا علتها العبا أبثت لها حيكاً
فعاجب الشمس أحياناً يضاحكها
إذا النجوم تراءت في جوانبها

وقال آخر:

وبركة للعيون تبتدو
كانها إذ صفت وراقت

وقال محمد بن سارة المغربي:

النهر قد زكت غلالة منيجه
تترقب الأمواج فيه كأنها

وقال آخر:

يوم لقا بالنيل مختصراً
فكانما أمواجه عكن

وقال آخر في نهر يسبح فيه الغلمان:

أنا بها فارتاح ذو الهمم وابتهج
فرى طرفه الساجي القلوب مع المهج

من الزمرد خضراً ما لها ورق
وصار في عكسه أني بكم أنق

أو كاره خمل الريح المبكر
فاستودعته حواصل من عنبر

نوراً من الشمس في حافاتها طلعا
شهد بسماءه فارتجج والتمعا
كف الكمي إلى ضرب الكما سعى

والآناس إذا لاحت معانيها
قالت هي الصرغ تمثلاً وتشيها
من السباك تجري في مجاريها
مثل الجواشن مصقولا حواشيها
ورئق الغيث أحياناً يياكيها
ليلاً حبت سماء رُجبت فيها

في غايه الحسن والصفاء
في الأرض جزء من السماء

وعليه من صبغ الأصيل طراز
عكن الخصور تهزها الأعجاز

ولكل وفنت مروة قصر
وكانما دارائه سرور

ولكن فيه للرائي مسرة
كانهم نجوم في المجرة

خليج كالحسام له صفاء
رايت به الملاح تجيد عوما

وقال آخر في النيل:

إذ قال ملء سامعي
عم البلاد منافعي
قلعتها بأصابعي

النيل قال وقوله
في غيظ من طلب العلا
وعيونهم بعد الوفا

وقال آخر:

لما يبدو لعيني الناس منه
ويمضي حين يتفنون عنه

كان النيل ذو فهم ولب
فيأتي عند حاجتهم إليه

وقال آخر فيه:

وطئت وطئت في البلاد
ما ذي أصابع ذي أيادي

وفئت أصابع نيلنا
وأئت بكل مسرة

وقال آخر:

طرا فكل قد غدا مسرورا
عنه البشائر إذ غدا مكورا

سد الخليج بكسره جبر الوري
والماء سلطان فكيف تواترت

وقال آخر:

غدت طوعا له في كل أمر
إليه بها فإخضعها ويجري

ونهر خالف الأهواء حتى
إذا عصفت على الأغصان ألفت

وقال آخر في ناهورة:

فغدت تنوب عن الغمام الهامع^(١)
ومسير مشتاق وأنو جازع

وكرمة سقت الرياض بدورها
بلان محزون وملمع عاشق

وقال آخر:

وأضلها كانت تعد من السقم
وأما دموعي فهي تجري على جسي

وناصورة قالت وقد حال لونها
أدور على قلبي لأنني فقذته

وفيها أيضا:

يفيض لها دمع كمثر العقيد^(٢)
فليس لنا من ذلك الفعل من بد

وحنانة من غير شوق ولا وجيد
أحر إذا حثت وأبكي إذا بكث

(١) الهامع: الهاطل.

(٢) العقد: تتائر النموع لسماح شجوها.

وأبكي بأفراط الصبابة والوجد
ودمعي من عيني يفيض على خلتي

ولكنّها تبكي بغير صبابة
وادمعها من جدول مستعارة

وفيهما أيضاً قال الخطيري:

فأزقته فقد غدت لي تحكي
وعلى إثرها تدور وتبكي

رُبّ ناعورة كأنّ حياءً
أبدأ هكذا تنل بشجو

ابن تميم:

ودفعهما بين الرياض غدير
فأصبح ذا يجري وذاك يدور

تأمل إلى الدولاب والنهر إذ جرى
كأن نيم الجو قد ضاع منهما

فصل: في ذكر أرباب الصنائع والحرف والأسماء وما أشبه ذلك

لابن عفيف في قاض مليح:

يُمرّب عن منطق لذيذ
قلنا له دائم الفؤاد

وربّ قاضي لنا مليح
إذا رنا لي بهم لحظ

وقال في فقيه مليح:

وهو المهذب في الرشاقة والخنوز
لكنّ وجير الخصر منه المختصر

ومهجتي ظبي غدا متفهماً
أمتى بسيط الشعر منه مطولا

وقال في محدث مليح:

شرّد عن جفني الوسن
كلاما عندي حنّ

عَلَّقْهُ مَخْذُلاً
حَدِيثُهُ وَوَجْهُهُ

وقال في إمام:

يخجل البدر في ليالي السمود
حين يومي بوجهه للسجود

جاء يمتسّى إلى الصلاة بوجه
فتميّست أن وجهي أرض

ابن الرومي في عروفي وأجاد:

مؤتتي فيه حياة
فاعلات فاعلات

في عروفي مليح
ماذلاتي في هواه

في مؤذن مليح:

لكنّه بالوصول أُنْجِ شحيح
من بعد ذلك أعيش بالتيسيح

ومؤذن أضحى كريماً وجهه
أبدأ أموت بهجره لكّتي

لابن عربي:

لَمْ يُفْنِنِي شَكْوَى الْغَرَامِ إِلَيْهِ
وَأَضِغُ أَصْبَغِيهِ فِي أَذْنِيهِ

وَبِنَفْسٍ مُؤَدَّدٍ قَدْ سَبَّانِي
كَيْفَ أَصْنِي لِمَا يَقُولُ حَيْبُ

وقال آخر في مرید:

مَجْبَأُ فِي الزَّوَايَا
قَفِي الزَّوَايَا خَبَايَا

مَرَادُ قَلْبِي مَرِيدُ
وَلَيْسَ ذَا بَعْجِي

وفي فقير مليح:

بَنَّا وَجْهَ مَنِيرٍ
فَقَرَّامِي بِالْفَقِيرِ

بِئْسَ فَقِيرٌ يَتَفَنَّى
لَا تَلُنُنِي فِي انْتِصَاحِي

في أمير شكار لابن دانيال:

وَجَدْتُ يُذِيبُ الْجَوَارِحَ
حُتَّتْ إِلَيْهِ الْجَوَارِحُ

بِئْسَ مِنْ أَمِيرٍ شَكَارٍ
لِمَا حَكَّى الظَّبْيُ حَنَا

في مليح مغن:

وَعَدَا يَلِينُ لِحَنِهِ الْجَلْمُودُ
وَإِذَا شَدَا فَكَأَنَّهُ دَاوُدُ

أَضْحَى يَخْرُ لَوَجْهِهِ قَمَرُ الدَّجَى
فَإِذَا بَدَا فَكَأَنَّمَا هُوَ يَوْسُفُ

في مليح عَزَاد:

أَمَسَى بِهِ قَلْبِي الْمَضْنَى عَلَى خَطَرٍ
فَرَاخَتْ الرُّوحُ بَيْنَ السَّهْمِ وَالْوَتَرِ

غَنَى عَلَى الْعُودِ ظَبْيٍ سَهْمٌ نَاطِرِهِ
دَنَا إِلَيَّ وَجِئْتُ كَفُّهُ وَتَرَا

في مليح كاتب:

بَدِيعاً مَا رَأَيْتُ مِنْهُ أَجْمَلَ
بِوَجْهِهِ قَدَا دَمْعِي مَلَلُ

بِرُوحِي كَاتِباً كَالْبَدْرِ حَنَا
عَلَى رِيحَانٍ عَارِضِهِ الْمَفْلَى

وقال غيره:

فِيهِ تَزَايَدَ عُشْقِي
لَكَانَ مَالِكٌ رُقِّي

وَرَأَقْنَا ذَا الْمَفْلَى
فَلَوْ يَجُودُ بِوَصْلِ

وفيه أيضاً:

قَدْ رَاقَ فِي التَّقْيِيلِ عِنْدَ وَرَقِي
مَا أَحْسَنَ الْأَغْصَانِ يَنْ الْوَرَقِي

بِأَحْسَنَ وَرَاقٍ أَرَى خَلْدَهُ
تَمِيلُ فِي الدَّكَانِ اعْطَافُهُ

للسيد الشريف صلاح الدين الأسيوطي فيه أيضاً:

لَمَّا لَكَ بِالْوَصَالِ يَكَادُ يَلَى
مَحَبَّةً يَسْأَلُ الْوَرَّاقَ وَصَلَا

فَدَيْتُكَ أَهْلُهَا الْوَرَّاقُ قَلْبِي
وَقَدْ طَلَبَ الْوَفَاءَ وَغَيْرَ بَدْعِ

وفي مليح صيرفي:

أَمْسَى بَعِيدَ الدَّارِ فَاقْدَ إِلْفِهِ
قَدْ مُتُّ مِنْ جَوْرِ الزَّمَانِ وَصَرَفِهِ

يَا سَائِلًا عَنْ حَالِي مَا حَالُ مَنْ
بِئْسَ صِيرْفِي لَا يَرُقُّ لِحَالَتِي

في مليح بخاتقي:

وَلَا يَرْضَى بِيَدْرِ التَّمَّ نَائِبُ
وَأَصْبَحَ رَاكِبًا تَحْتَ الْعَصَائِبِ

تَسْلُطَنَّ فِي الْمَلَاخِ بَخَاتَقِي
وَقَدْ صَفَّتْ لَهُ الْأَتْرَاكُ جُنْدًا

في مليح فراء:

وَزَادَ صَدًّا وَطَالَ هَجْرًا
فَقَالَ لِمَا عَشَقْتُ فَرَا

قُلْتُ لَفَرَا فَرَى أَدِيمِي
قَدْ فَرَّ نَوْمِي وَفَرَّ صَبْرِي

سيدي أبو الفضل بن أبي الوفاء في مزمن:

بَعْدَ الْبَعَادِ بِشَطْطَةٍ
بِكُلَّاسٍ رَاحٍ وَبَطْطَةٍ

حَبِّي الْمَزِينُ وَافِي
وَمَهْزَنٌ دَمَلُ قَلْبِي

في مليح قصاص:

بِالْهَجْرِ وَالصَّدِّ أَنْوَاعًا مِنَ الْفَقَصِ
أَيْضًا تَقَعُّ عَلَيْنَا أَحْسَنَ الْقَصَصِ

أَشْكُرُ إِلَى اللَّهِ قَصَّاصًا يَجْرُعُنِي
إِنْ تَحَسَّنَ الْقَصُّ بِمَنَاءٍ فَمَقَاتُهُ

في مليح صياد:

يَمْلَأُهَا وَشَرَاكِ
تَصِيدُ قَالَ كِرَاكِي

وَمَوْلُجٌ بِفَخَاخِ
قَالَتْ لَهُ الْعَيْنُ مَاذَا

في مليح رامي بندق:

طَائِرُ قَلْبِي عَلَيْهِ وَاجِبُ
يَرْمِي إِلَى الْبَدْرِ بِالْكَوَاجِبِ

وَأَهْمِيهِ الْقَدِيدِ ذِي دَلَالِ
كَالشَّمْسِ فِي كَفِّهِ هَلَالِ

وقال آخر في راع:

قَوَائِمُهُ فَاقَ الْغُصُونِ الرَّشَاقِ
مَا الْقَصْدُ يَا مَوْلَايَ إِلَّا الْعَنَاقُ^(١)

أَفْذِيهِ مِنْ رَاغٍ كِبْدَرِ الدَّجَى
ضَيْخِنِي بِالْجَدِي نَادِيَتِهِ

القيراطي في مليح طحان:

بِلِحَاطٍ وَيَقَامَةِ
يَجْعَلُ الْغَمَزَ عَلَامَةً

حَسَنُ طَحَانٍ سَبَانِي
خَافَ مِنْ وَاشِرٍ فَأَضْحَى

(١) العناق: تورية عن الغم بالمواشي.

القاضي بدر الدين البلقيني في تَرْاب:

رَبِّ تَرْابٍ مَلِيحٍ
قُلْتُ لِمَا أَنْ بَدَأَ لِي

وقال آخر في مَلِيح عَوَام:

يَا حَسَنَ عَوَامٍ كَفَصْنِ النِّقَا
وَتَقْنَعُ الْعِشَاقُ مِنْهُ بَأَن

ابن نباتة في مَلِيح حَبْشِي:

بِرُوحِي مَشْرُوطاً عَلَى الْخَدِّ أَسْمَا
وَقَالَ عَلَى اللَّثْمِ اشْتَرَطْنَا فَلَا تَزِدْ

وله أيضاً:

وَمَنْ عَجِبَ تَدْعَى لِلطَّفِكَ سَبَلَا
وَسَعْدُكَ إِبْقَالٌ وَحُسْنُكَ مَرَشْدُ

وقال آخر فيمن به صَفْرَة:

قَالُوا بِهِ صَفْرَةٌ شَانَتْ مُحَاسَنَهُ
عَيْنَاهُ مَطْلُوبَةٌ فَنِي ثَارٍ مَنْ قَتَلَتْ

للشيخ شهاب الدين بن حجر في مَلِيح اسمه زَائِر:

وَزَائِرٍ قَالِ قَلْبِي
مَدَحْتُكَ فَتَجَنَّبِي

وقال آخر في مَلِيح أَرَمَد:

شَكَأَ رَمَدًا قُلْتُ الْآنَ كُلُّثُ
وَقَالُوا سَيْفُ مَقَاتِلِهِ تَصْدَى

لمجد الدين بن مَكَانِسٍ فِيهِ:

تَوَرَّمَتْ مَقْلَةً الْمَجُوبِ مِنْ رَمَدٍ
وَيَاكَ يَرْمِي مَجِيئِهِ بِأَسْهَمِهِ

لابن أَبِي حِجَلَةَ فِي أَعُور:

مَا شَانَ مَنْ أَهْوَاهُ عَيْنٌ أَصْبَحَتْ
لَوْلَا اسْتَخَفَّ الْعَالَمِينَ بِأَسْرِهِمْ

أَوْرَثَ الْقَلَسَبَ عَذَابَا
لِيَتَنِي كُنْتُ تُرَابَا^(١)

يَخْلُ بِالْوَضَلِ لِمَنْ هَامَا
يُزِيهِمُ الْأُرْدَاقُ إِنْ عَامَا

دَنَا وَوَفَى بَعْدَ التَّجَنُّبِ وَالسُّخْطِ
فَقَبَّلَتْهُ أَلْفَاءٌ عَلَى ذَلِكَ الشَّرِطِ

وَنَشْرُكَ كَافُورٌ وَذَكَرُكَ غَبَرُ
وَخَلَقُكَ رِيحَانٌ وَلَفْظُكَ جَوْهَرُ

قُلْتُ مَا ذَاكَ مِنْ عَيْبٍ بِهِ نَزَلَا
فَلَسْتَ تَلْقَاهُ إِلَّا خَائِضًا وَجِلَا

لِلطَّرَفِ يَا طَرَفُ شَاهِدُ
تِيهًا عَلَيَّ بِزَائِدُ

لَوَاحِظُهُ مِنَ الْفَتَكَاتِ فِينَا
قُلْتُ نَعَمْ لَقَتَلِ الْعَاشِقِينَا

وَيَاكَ يَشْكُو لَهَيْبِ الْقَلْبِ وَالْأَلْمَا
فِيَا لَهُ مِنْ حَيْبٍ قَدْ شَكَأَ وَرَمَا

مَقْلُوعَةً بِمُحَاسِنِ مُتَزَايِدَةٍ
مَا ظَلُّ يَنْظُرُهُمْ بَعِيْنٍ وَاحِدَةٍ

وقال آخر في مליح راهب:

رَأَيْتُهُ يَضْرِبُ النَاقُوسَ قَلْتُ لَهُ
وَقَلْتُ لِلنَّاسِ أَيُّ الضَّرْبِ يُوْلِمُكَ

القيراطي في مليح اسمه بدر:

سَمَّوْهُ بِدَرًا وَذَاكَ لَمَّا
وَأَجْمَعَ النَّاسُ إِذْ رَأَوْهُ

وآخر في مليح اسمه حمزة:

مَتَى يَبْدُو لِحَمْزَةٍ مَا بَقْلِي
وَأَشْفِي بِالْمَبْرَدِ مَنْ لَمَّا

وقال آخر:

كَلَفْتُ بِهِ وَلَمْ أَبْلُغْ مُرَادِي
فَتَصَحَّفْتُ اسْمَهُ فِي وَجَّتِي

في مليح سروجي:

فَتَنْتُ بِهِ سُرُوجِيَا بِدِيْعًا
إِذَا جَلَدَ الْغَرَامَ لَهُ عَنَانِي

وقال آخر في مليح محمود:

قَالُوا حَيِّكَ مَحْمُودٌ قَلْتُ لَهُمْ
عَاقِبَتُهُ وَلَهِيْبُ النَّارِ فِي كَبْدِي

لأبي النواس في مليح ألثغ:

وَمَهْفُوفٍ دَنَفِ الصَّبَا ذِي لَثْفَةٍ^(١)
قَبْلْتُ فَاءَ قَالِ لِي مَخْوَفًا

وقال في مليح خباز:

إِنْ خَبَّازَنَا الْمَلِيحَ الْمَفْلَى
خِلْتُ دَكَانَهُ الْبَدِيْعَ سَمَاءَ

وقال في مليح حائك:

(١) الكسائي: تورية باستخدام أحلام التحوين.

(٢) فوادي: أي حُمْرة فيه.

(٣) ذي لثفة: نطق الحروف بشكل مفلول.

(٤) كاشح: معاد.

كالبدر في كُفَيْهِ ماسورة
عائت في كُفَيْهِ ماسورة^(١)

وحائك يا صاح أبصرته
فلم أرح إلا وروحي لما

وقال في مليح لاعب شطرنج:

رشاقة الأغصان من قدو
والثم الشامات من خدو

لعبت بالشطرنج مع أهيف
أحل عقد البند من سميدو

وقيه أيضاً قال:

فنادمني حتى سكرت من الوجدي
تدور على الشامات وهي على الخدي

تلاعبت بالشطرنج مع من أجه
وانشدني ما لي أراك مفكراً

في مليح خياط:

بديع حسن فريد شكلي
لما جفاني وكف خللي

خياطنا الفاتن المفدي
فصل للجسم ثوب سقم

وقال غيره:

له طلعة أبهى ضياء من الشمس
فضم حقاً أنه آية الكرسي

فتنت بخياط بديع ملاحه
تراه على الكرسي للثوب خاططه

الصفى الحلي في مليح قلع ضرره:

وجاء لقلع غريمك بالمحال
وسلط كلبين على غزال

لحا الله الطيب لقد تعلئ
أعاق الطبي في كلنا يدئ

وقال في مليح سلم عليه:

به قوم وعههم الضلال
وقالوا إن معجزه محال
إلي وقيل كلمه الغزال

تبأ فيك قلبي فاسترابت
وصلهم الهوى أن يؤمنوا بي
ومد سلمت سلمت البرايا

وقال في مليح يرمي بالسهم:

بقوس رمى في النخ وحشا بأسهم
هلال رمى لي الليل جنا بأنجم

وظبي يشعر فوق طرف مفوق
كبدر بأفق فوق برق بكفه

وقال في مليح يضرب بالعود:

شاد تجمعت المحاسن فيه
وكان ما يميزه في فيه

فن الأنام بمسوده وشذوه
حتى كأن لسانه يميزه

وقال أيضاً فيه:

وأغن^(١) قد أبدى لنا من عوده
يبد إذا سخطت على أوتاره

وقال في مليح مثب^(٢):

يا نافخ الصور بل يا باعك الصور
قرنت حنك بالإحسان فيه لنا
ضمنت للمحب إقبال السرور كما
صوت بسيط به أرواحنا انبسطت

قال في مليح ساق:

وساق من بني الأتراك طفل
أملكه قيادي وهو رقي

وقال أيضاً في رسول مليح أتا من عند من يحبه:

من كنت أنت رسولة
يا طلعة الشمر الذي
لم يبد وجهك قبله
فلذاك إذ واجهتني

في مليح قاريء:

نفسى الفداء لشادن شاهذنه
فتن الأنام بهجة ويلهجة
فتلا ملياً جل سورة يوسف

وقال آخر في مليح مكمل العذار:

وكامل العارضي قبلة
وقال كم أنهاك عن مثل ذا

وقال آخر في مليح حجام:

كلفت بحجام تحكم طرفه
أضحى كثير الأشطاط ولم تكن

نغمأ أصح به القلوب وأمرضا
نال الرفاق بسخطها عين الرضا

من رقد السكر لا من رقد الحضر
فكان فيك مراد السنع والبصر
ضمنت نايك ناي هم والفكر^(٣)
إذ جئت في اللفظ والمعنى على قدر

أية بو على جنع الرفاق
وأفدي بعيني وهو ساق

كان الجواب قبولة
جاء الصباح دليلاً
إلا ارتبكت وصولة
بل الفؤاد غيلة

يوم الزيارة قارئاً في المصحف
تسبي وتضني كل صب مدنف
وجلاً محياً مثل صورة يوسف

فصلني وأزور من قبلي
وأنت ما تفكر في لحي

فقد على سفك الدماء يواطي
منه اللحاظ كليل المشرط

(١) أغن: غزال مصوت.

(٢) يعزف على الشبابة.

(٣) الشطر الثاني مختل الوزن.

فصل: في الألفاظ

في غزال:

ظاهراً في صروفه
زال بباقي حروفه

اسم من قد هويته
فلذا زال ريعه

في كوز فقاع:

له في السجن ثوب من رصاصي
يقبل فاك من فرج الخلاصي

ومحبوس بلا ذنب جناه
إذ أطلقته وتب ارتفاعاً

في زر موزة:

تحمله وهو لها حامل
لا تشرب الدهر ولا تاكل

مطية فارستها واجل
واقفة بالباب مزولة

وقال في طاحون:

تراها مدى الأيام تمشي ولا تعب
وتاكل مع طول المدى وهي لا تشرب
ولا تلت ثمن من ذراع ولا أقرب

ومسرعة في سيرها طول دهرها
وفي سيرها ما تقطع الاكل ساعة
وما قطعت في النير خمسة أذرع

في دواة:

لها لبن ما لذ قط لشارب
وأولادها مدخورة للنوائب

ومرضعة أولادها بعد ذبحهم
وفي بطنها الكين والندي رأسها

في دواة أيضاً:

وليس عليهم تجب الحدود
أفاعي في أماكنها رفود

وما ألم يجامعها بنوها
كانهم إذا ولجوا حشاها

في قلم:

يترجم عن ذي منطوق وهو أبكم
ويضحى بليغاً وهو لا يتكلم

وأهيف مذبح على صدر غيره
تراه قصيراً كلما طأه عمره

وفيه أيضاً:

لسان ولا قلب ولا هو سامع
إليه إذا ما حركت الأصابع

بصير بما يوحي إليه وما له
كان ضمير القلب باخ بسره

وفيه أيضاً:

يشئت شمل الخطب وهو جموع

وأصفر عار أنحل السقم جمه

حمى الجيش مفطوماً كما كان تحتمي
وفيه أيضاً:

وفى نحولاً راكم ساجد
ملازم الخمس لأوقاتها

في مرملة:

معشوقة لذوات العز قد ضمنت
كأنها من صروف الدهر خائفة

في كتاب:

وفى أوجده لکنه غیر بائع
تناسيك بالأسرار أسرار وجهه

في سلطان حسن لابن أبي حجلة:

ما اسم محبوب للقلوب لأنه
تصنيفه أمسى حياً كلما
لو جاد لي يوماً برؤية وجهه

في شبابة:

وما صفراء شاحبة ولكن
مكتبة وليس لها بناء
تصبح لها إذا قبلت فاما
ويحلو المدح والتشبيب فيها

وفيها أيضاً:

ومقروحة الأجفان مثلي شجوة
تزوجتها عشر وذاك محرم
إذا ما وطئها القوم تصرخ صرخة

وفيها أيضاً:

متعبة مهما خلت مع محبوبها
وتصيحفها في كف حاملها قلل

في دملج:

إلى النساء يلتجى
الجسم منه فقة
وعندهن يوجد
والقلب منه جلد

في خلخال:

يَقْنُ بكلام قط في ساعة الضرب
على أنه أضْحَى يدورُ على الكعبِ

أيا عجباً من صابرٍ صامتٍ ولم
أقامَ ولم يبرِّحْ مكاناً ثوى به

وفي شعر اللحية:

جميل على كلِّ الملاح له حنٌّ
وفي قلبِ هارونَ له الهلك والمحقُّ

وفي عديدٍ كالرملِ سامٍ محله
يحاذر من موسى ويهربُ باسمه

في التين:

ناعمُ اللبسِ وإنْ
وهو في التصحيفِ يئنُّ

أي شيءٍ لَدَّ طعماً
كيفَ لا يبدو وضوحاً

في الموز:

تلقاءً عند الناسِ موزوناً
واواً ونوناً صار موزوناً

ما اسمٌ لشيءٍ حسنٌ شكله
تراءُ معدوداً فإن زدته

في حمزة:

أزرى بغصنِ البانِ ليناً قدّمه
ويقلبُ عاشقهُ لشدةِ صدمه

مَنْ لي بمعتدِلِ القوامِ مهفهِفٍ
في فيه تصحيفُ اسمه ويخذه

وفيه أيضاً:

وطولٌ دهمري أخشى من تجنيبه
يئدو وفي ختّه أيضاً وفي فيه

اسم الذي أنا أمواه وأعشفه
تصحيفه في فؤادي دائماً أبداً

في ساقية:

أشاملُها تجري وليس لها رجلُ
وليسَ لها ثديٌّ وليس لها بعلُ

وجاريةٌ لولا الحوافِرُ ما جَرَّتْ
وثرَضِعُ أطفالاً ولا هي أَلْهَمُ

وفيها أيضاً:

بلا ألم فيها ولا ضَرْبٍ ضاربٍ
وما كان ثَنَقُ القومِ إلا بواجبٍ

وجاريةٌ تبكي إذا الليل جَنَّها
عليها رجالٌ شتَقوا بعد حرقهم

في زَرْ وعروة:

وليس عليهما فيه جناحُ
وفي أعناقهم ذاك النكاحُ

وما أختٌ يجامعها أخوها
تري بجوازهِ الحكامُ طرّاً

في راوية^(١):

(١) إناء جلدي يوضع فيه الماء.

وإن شئت تسفيك من فرد يد
وتسياهما واحد في العبد
وفي ساعة يضعان الولد

وسودة تشرب من رأسها
ولون لها مثل لون أختها
وتجبل في الوقت هي وأختها

في الشطرنج:

يحار فيها الدهن والفكر
ثلاثة منها له شطر

يا ذا النهى ما اسم له حالة
له حروف خمسة إنما

في فيل:

وهو ذو أربع تعالى الإله
لم يكن عند جوعه يرعاه
رمت عكساً يكون لي ثلثاه

أما اسم تركيئه من ثلاث
حيوان والقلب منه نبات
فيك تصحيفه ولكن إذا ما

في جمع:

يلوح للناس عجب
والعين منه في الذنب

ما طائر في قلبه
مقارؤه في بطنه

في نار:

له طلعة تغني عن الشمس والقمر
وليس له سنع وليس له بصير
ويهزأ يوم الضرب بالصارم الذكور
ويأكل ما يلقى من البت والشجر
ولا فتم عنها وبكة لها عمر

وما اسم ثلاثي به النفع والضرر
وليس له وجه وليس له قفا
يمد لساناً يختشي الرمح بأسه
يموت إذا ما قمت تسفيه عابدا
فيا قارىء الأيات دونك شرها

وفيها أيضاً:

لها الأشجار والحيوان قوت
وإن أسقيتها ماء تموت

وأكلوه بغير قم ويطن
إذا أطعمتها انتعشت وعاشت

في يد الهاون:

مصعب القامة طول الزمان
مفشل الرأس قوي الجنان
ويظهر الصفق بأعلى مكان

قل لي فما شيء يرى ناعماً
أطول من شبر له حزة
يسمخ في القعر له رنة

وفيه أيضاً:

أوسع ما فيه فمه
يرفقه ويلكمه

خبروني أي شيء
وابنه في بطنه

وقد علا صياحه

ولم يجد مَنْ يرحمه

في خشاش:

وما قبّة مبيّة فوق شامق
وأولادها في بطنها في جماع
ويأخذها الطفل الصغير بجهله

لها علم يحكي الملاحاة بالظرف
يكونون ألفاً أو يزيدون عن ألف
ويقلبها عنفاً على راحة الكف

في كوز زير:

وفي أذن بلا سنج
إذا استولى على صب

له قلب بلا لب
قل ما شئت في الصب

في اسم علي:

اسم الذي أحشقه
إن فاتني أوله

أزله في ناظره
فإن لي في آخره

في موسى للصفاي:

وما شيء له حدٌ وحد
وكل حلقه من تحت رأسي

يلكم من يلامسه بحقه
وهذا الرأس صارت تحت حلقه

في حلب لابن الفارض رحمه الله تعالى:

ما بلدة بالشام قلب اسمها
وثلثه إن زال من قلبه

تصحيّفه أخرى بأرض العجم
وجدته طيرا شجي النغم

وقال في سمرقند:

وما اسم سداسي إذا ما لمحة
له ثلث يأتي به الموت فجأة
وثلث رعاك الله يا صاحبي له
وفي نصفه لما تحرك بعضه
وفي نصفه الثاني إذا ما أخذته
ففسّر لنا ذا اللغز إن كنت ذا حجي

تري فيه أجزاء تلم وتشكر
وثلث مع الكتاب يطوى ونشر
على مد الأيام نشر معطر
حديث شهّي في الليالي يذكر
إلى النار للتخليل والعقد سكر
فليس على ذي العقل لغز معسر

وقال في كمون:

يا أيها العطائر أعرب لنا
نراه بالعين في يظن

عن اسم شيء قل في سومك
كما ترى بالقلب في نومك

وقال في قالب الطوب:

وما أكل في قملد ألف لقمة

ولقمته أضعاف أضعاف وزنه

إذا أنزلَ المأكولَ جَنِيهَ لم يُقْمَ سوى لحظَةٍ أو لحظَتَيْنِ يبطئه
في العين:

وبأسطة بلا عصب جناحا وتسبق ما يطير ولا تطير
إذا ألقتها الحجر اطمأنت وتجزع أن يئاشرها الحرير

ويكفي من ذلك ما أنشئت إليه، وما نبهت من هذا الفنّ عليه، وقد مضى القول من الفنون السبعة على فنّ الشعر القريض، وما فيه من الفنون المتقدّم ذكرها.

ولنذكر إن شاء الله تعالى بقية الفنون السبعة على وجه الاختصار. والفنون السبعة المذكورة عند الناس، هي: الشعر القريض، والموشح، والدوييت، والزجل، والكان وكان، والقوما، ومنهم من جعل الحماق من السبعة، وفي ذلك اختلاف. وعند جميع المحققين أن هذه الفنون السبعة منها ثلاثة معربة أبداً، لا يغتر اللحن فيها، وهي الشعر القريض، والموشح والدوييت، ومنها ثلاثة ملحونة أبداً، وهي الزجل والكان وكان، والقوما. منها واحد وهو البرزخ بينهما يحتل الإعراب واللحن وهي المواليا، وقيل لا يكون البيت منه بعض ألفاظه معربة، وبعضها ملحونة فإن هذا من أقبح العيوب التي لا تجوز وإنما يكون المعرب منه نوعاً بمفرده، ويكون الملحون فيه ملحوناً، لا يدخله إلا الإعراب، وقد أوضح قاعدة الجميع وأصلها صفى الدين أبو المحاسن الحلّي في ديوانه وسماه بالعاطل الحالي، المرخص الغالي، ولو بسطت المقال لا تسع المجال، وكثر القول، ولكن الاختصار يذهب الأوجال والحمد لله رب العالمين على كل حال.

فصل: في بيان الفن الثاني وهو الموشح

لابن مبارك:

قد أنحل الجسم أسمر أكحل وأوحل القلب فيه مذ حلّ

دور:

أميل له فلا يميل يحول وعنه لا أحول
أقول إذا زادني الحول

أما حل عقد الصدود ينحل ويرحل عن نجم المزحل

دور:

كم أبعدوكم آيت مكمد ويعمد بهجره لأفقد
وأجهد لارتصاد من قد تحمل والحاسدون رحل

تمحل والوعد منه ما حل

دور:

متوج بالحنن هذا الأبلج مدبج عذاره البنفسج
مفلح وطرفه ذا الأدهج مكحيل وثفره منحل
مخلخل بعنبر معجل

دور:

برغم من يستحل ظلمي ويرمي بحرته لنلمي
وجمي من التزام سقمي منحل وقد غدا مرحل
فمن حلّ سفك دمي وما حل

دور:

قلاتي واشتط ذا القلائي غزاتي بطرفه اليماني
تراني أنشد لمن يراني قد أنحل الجسم أسمر أكحل
وأوحل القلب فيه مذ حل

لابن سناء الملك:

كللي يا سحبت تيجان الرنا بالحلي واجعلي سوارك منعطف الجدول

دور:

يا سما فيك وفي الأرض نجوم وما كلما أخفيت نجما أظهرت أنجما
وهي ما تهطل إلا بالطللى والدما

فاهطلي على قطوف الكرم كي تمتلي واتقلي للبدن طعم الشهد والقرنفل

دور:

تغد كالكوكب الدرّي للمرتعد يمتد فيها المنجوسي بما يمتد
فائتد يا ساقى الراح بها واعتمده

وأمل لي حتى تراني عنك في معزل قل لي فالراح كالعشق إن يزد يقتل

دور:

لا أليم في شرب صهبا وفي عشق ريم فالتعيم عيش جديد ومدام قديم
لا أهيم إلا بهذين قسم يا نديم

واجل لي من أكوس صبرت من فوفل ألذ لي من نكهة العنبر والمندل

دور:

خذني واعطني كاسي مثل كأسك هني وأشقني على رضاب الفطن الملسن
والهني يعض ما صيغ من الألسن

لو تلى مدح سناه مع رشا أكحل لذ لي على سنا الصبياء والسلسل

دور:

أزهرت ليلتنا بالوصل مذ أسفرت أصدرت بزورة المحبوب إذا بشرت
أخرت قللت للظلماء مذ قصرت

طولى يا ليلة الوصل ولا تبخلي وأسلي سترك فالمحبيب في منزلي

دور:

من ظلم في دولة الحسن إذا ما حكم فالألم يجول في باطنه والندم
والقلم يكتب فيه عن لسان الأمم

من ولي في دولة الحسن ولم يعدل يمزى لألحاظ الرشا الأكحل

وله أيضاً:

ترى هل يشفي منك الغليل ويشفي من صباه العليل

دور:

لقد أسرفت في هجري وصدي بلا سبب سوى كفي ووجدي
وماذا في سلو عنك يجدي

خضاب الوجد ليس له نصول وأسياف الهوى فينا نصول

دور:

لئن شئت عني بالسلام وطيفك قد جفا لجفا المنام
فقد جادت بأربعة سجام

جفون بالكا كادت تحول على خد أسف به النحول

دور:

لقد أرسلت في طي النسيم حديث هوى عن الوجد القديم
فعدت وهي عاطرة الشميم

تخبر أن ظنهم نزول بدار لا يلزم لها نزيل

دور:

تلقته الموالي والموالي بألحاظ وزرق من نصال
وأعطاف وسمر من عوالي

فكم بطل هناك وكم قتيل بسيف من لوحظه قتيل

وله أيضاً:

شمس المحيا أم القمر أم بارق الثغر يا بشر
أم البها حقه الخفر بطرز خديك مطر

سلسلة:

قم تباه بما تباه ولا تلاها

قفلة:

فكل أجابنا حضروا والعود يشجيك والوتر

الدور:

أفديك بالسمع والبصر يا أهيف وصله وطري
بدر بدا في دجى الشعر قد لذ في جبه سهرى

سلسلة:

إذا تجلى وقد تحلى عليك يجلى

قفلة:

تجير في وصفه الفكر والعقل والسمع والنظر

الدور:

فهاك حثت عن الطرب وعن سلاف ابنة العنب
إذا مقامها مع الغرب بدر بأفق الجمال ربي

سلسلة:

في ظل بان على المثاني^(١) من غير ثاني

قفلة:

إلا الندامى إذا سكروا والروض والماء والشجر

(١) المثاني: ثابا الوادي.

وقال رحمه الله تعالى:

واتسبم السحر هبل لك خبر
فارقوني ولم أفض الوطر
قلت يا قلب مبرا ما مبر
ما كمت الهوى إلا ظهر
عن عريب^(١) همو بالمنحنى
من إقامم ولا نلت المنى
والنبي ما الهوى إلا عنا^(٢)
من شهود المدامع والفضى^(٣)

دور:

ليش تمنع وصالك يا حبيب
راقب الله وراجع من قريب
لست ألقى لدائي من طيب
لو رأى حالي العاذل عنر
عن محبك ولا يعشق موك
قبل يلى جسمه في هواك
غير رثفي حيي من لماك
حينما ينظر جمالك والسنا

دور:

يا قمر فوق غصن من تقا
يا رعى الله لويلات اللقا
ليلة السعد ما فيها شقا
صفوها لا يمازجه كدر
أختنا مطالك والصدود
ليتها يا خلّ يوماً لي تعود
كيف تشقى وطالعها سعود
بالمسرات وأوقات الهنا

غيره:

حملت مذ سارت الحمول
وجدا مضى العمر وهو باقي

دور:

ساروا وسار الفؤاد لكن
جمي مقيم على المساكن
وعني الحب صار ظاعن

مالي إلى وصله وصول
لو سرت بالبرق والبراق

دور:

وغادة كالقضيبي قد
والورد والياسمين غدا

كأنها البدر إذا تبلى

وشعرها أسود طويل
كأنه ليلة الفراق

(١) عريب: أحدهم أو هي «عريب».

(٢) عنا: ذل وخضوع.

(٣) الفضى: السقم.

دور:

هوننا أتننا نيميل بيللا سحابه كالسحاب ذيللا

فقلت شمس تزور ليللا

وما دري كاشح عدول فذاك من أعجب اتفاق

دور:

وسدتها ساعدي لعددي ويث أرعى رياض وردي

وخمر ريق كلوب شهد

لو ذاقها مدنف عليل لعاش والروح في التراقي

دور:

لما رأتني أذوب سقمما ومن ورد البرضاب أظما

قالت كلمت الخدود لثما

ما يشغني منك ذا الغليل بغير نومي وثيل ساقبي

فصل: في الفن الثالث وهو الدوبيت

لسيدي شرف الدين بن الفارض رحمه الله تعالى:

من صبح جينه أضواء الشرق

ما بين ثناياه وبين فرق^(١)

أهوى قمر له المعاني رق

أتدري بالله ما يقول البرق

وقال أيضاً:

مدحانيته تصبري ما لبنا

سبحانك ما خلقت هذا عبثا

أهوى رشاً كل الأسى لي عبثا

ناديت وقد فكرت في خلقتي

وقال أيضاً:

وأذكر خبر الغرام واسنده إلي

قل مات ولم يحظ من الوصل بشي

عرج بطولج^(٢) فلي ثم هوى

واقصص قصصي عليهم وابك علي

وقال أيضاً:

(١) فرق: أي لا فرق بين أسنانه والسناء.

(٢) طولج: موضع.

روحي لك يا زائراً في الليل فدا
إن كان فراقنا مع الصبح بدا
وقال آخر:

يا شمس ضحى جينه وضاح
عشاقك لو فعلت ما شئت بهم
وقال آخر:

أهواه مهفهفا ثقيل الردف
ما أحس واو صدغه حين بدت
وقال التلعفري:

قلبي ذهب لبعذكم راحته
بتم فرثي لما به شامته
وقال المنشد:

إحسانك طول الدهر لا أنساه
إن أبعدك الزمان عني حدا
وقال آخر:

إن جئت ربا الحمى ولاحت نجد
وقد كنت أفاصي الصّدّ حتى رحلوا
فاذكر ولهي وما جناه البعد
يا ليتهم عادوا وعاد الصد

فصل: في الفن الرابع وهو الزجل

حمل للقباري:

قل لغزلان وادي مصر والشام يقصر وإذا النصار
لهم اجمل حشائني مرعى وفؤادي قفار

دور:

مصر والشام فيها ملاح أقمار بالمحاسن تسود

ذا أبيض وذا أحمر وذا مليح أسمر لو عيون نجل سود
وذا غزال صار يفوق على الغزلان ويصيد الأسود
وذا غصن بان أهيف قوام قد وقد الأغصان جهار
وذا بدر الكمال قد ظهر في الليل وذا شمس النهار

دور:

تدر بالله أيش قالت مليح الشام بعد ذاك الصدود

قد سمينا بصحة الأبدان واعتدال القدود
وأنتم يا عشاق لكم قلنا والحسود راح بنار
وتخضب تفاحنا الأحمر فوق بياض الخدود
أنتم التفاح وما تقصد منكم إلا الخيار

دور:

وملاح مصر قالت إحنا أصحاب الوجوه الملاح

والحلاوة وطيبة الأخلاق في الخلائق مباح
وفي الألفاظ والظرف والمعنى ليس لنا حد صار
إحنا أقمار وإحنا بدور الليل وشموس الصباح
وورثنا الحسن من يوسف واكتسبنا الفخار

دور:

حسن حبي الفراجي فرحه بدر في السعد لاح

فرخ ناجب خرج من القشرة فاق ملاح الملاح
ومن البيضة قد خرج نافر رد جفني بنار
كلما أعمل على رضاه يفسد بجفاه الصلاح
وجفاني وخد بياض جسمي خلطوا بالصفار

دور:

وقع الطل خط بالأبيض في اخضرار الطروس

قم يا ساتي على بساط زهري تحت ظل الغروس
عروس لها صفو النسيم ولطف اللمي وابتهاج الثمار
هاتها شمس راح شمول قرقف بكر عذار عروس
قد جلوها في كأس زجاج أبيض فاكسي باحمرار

دور:

خمر فيه سرّ لو جعل أشياف ردّ الأعمى بصير

أقطع القطف أسود يحاكي الليل شفق أحمر يصير
وترى النور دا عليه يلمح ذاك من أيش استنار
يا ترى ذا السرّ في كرمه أو يكون في العصير
وكذا الكأس يحاكي يا سمير من كساء جلنار

دور:

فهو عطار عندو شراب هندي ويراني جفاه

كلّ من مصّ م لسانو ريقو يلتقي فيه شفاه
جبل آس عارضوا أسر قلبي والكبار والصغار
ورد خلدو وحبتو سودا شبه خال في صفاه
في المحب غاروا على حسنو وكل من حبّ غار

دور:

دوروني الملاح على كمي ونصوا نصوص

بلا دعوى التّف لفّ اليسير في هواهم خصوص
والبساط انطوى حين ما رأوا حلف له همه ولو اصطبار
وعليا صار نقشهم قاعد مثل نقش الفصوص
قمروني في عشق هذا القمر والمحبة قمار

دور:

لحبيبي نغر من جوهر والشفيفات عقيق

وعوارض ما ضرّهم عارض غير نبات الشقيق
وخدود ورد من غير نمش ووصفنا عن حقيق

يحرس الورد خال عنبر تحت أهذاب غزار
في صفاء وجهه أنزه طرفي عند خلع العذار
دور:

في رياض صفوف من الأزهار قابلتها صفوف
كيف لا ترقص والنسيم بها موصول ورقها دفوف
والغيوم نقطت وحين جا النسيم طار أعلى مطار
واعجب من النهر إذا صفق لو من الموج كفوف
باختلاف الألحان سحر في الروض صاح على عود طار
دور:

أشرف الخلق بين الإسلام والهدى والضلال
والشرائع حق والباطل والحرام والحلال
ولو أن النبات جميعه أقلام والمداد والبحار
نبي من بين أصابعه تحقيق نبع المار الزلال
والخلائق تكتب مديحو تاه كل كاتب وحرار
دور:

أستاذ في الفن ما ينطق ذاق عذاه المنون
ما يعيوا في الفن غير ناقص عقل زايد جنون
باتضعو مع الصغار مرفوع فوق رؤوس الكبار
شيخ مصدر لبيب قيم في جميع الفنون
وأهل الفنون تجري وما تلحق للغباري غبار
* * *

غيره لناصر الغيطي:

كتر روضي طالبوا يسعد يا خليع قم في دجى الأسحار
تلقي در الندى يرهج فوق فصوص غرائب النوار
دور:

كتر روضي نزهة الطالب جوهر وبين الندى يرهج
ولجين الما يتكسر يا خليع هيا تما اتفرج
وامش في عرض الرياض وارتع بين أغصان وما وأطيار
بين عنابر تلقي الخلع كل حد مع إلفو يدرج
فوق بساط زمرد وقضبان كل ورده أحكت لنا دينار
دور:

وترى الياسمين بحال فضه ضربت لأهل التزه صلبان
والشحارير لابسين أسود وقلاتس كتهم رهبان
وانجلت بين القسوس في ألحان وعلينا دارها الخمار
وكذا الكتان وهو أصفر بعمائم زرق للناس بان
والقطيع الراهبي يحكي الشماس لابس الزنار
دور:

الفراق نار والوصال جنة والخلائق بعضهم يعشق
دا حبيب قلبو عليه راضي ودا محبوبو عليه يشفق
والملح عندي وأنا مطمئن وسط روضا زهرها معطار
ولهيب الهجر يتوقد والوصال من الملاح يشتق
في نعيم مع حور ومع ولدان والعذول مسكين صبح في نار
دور:

وعمل في الروض سماع باكر بين الأغصان والزهور أنغام

والنسيم شبب والغدير صفق والخليع من كثر وجدو هام
والعصافير شيخهم زيق لو طريق بين الأزاهر طار
والنخل بأكمائها ترقص وأقبل الريحان بحال أعجام
والبلبل بالغنا يشجي فكأنو ناي أو مزمار

* * *

دور ناصر الفيضي:

يا خلایا صحبت انسان أنكر الصبحة وعاداني

ويغضني حين بقيت مسمى والإله بالفضل أسماني
والشجيع الشاطر المذكور في جميع الأرض لو تذكاري
في بلاد قلبي وأرض الشام يشكروني ساير أقراني
والبلط يوقع لو تعلق ما يحصل شيء مع الشطار

* * *

للغباري:

جار حبيبي فقلت ذا الحجاج جا يجور أو يزيد
لو عدل عشت بو سرور ويكون الرشيد

دور:

أقلع القلب في هوى العشاق والدموع في انحدار

ويحور الهوى إذا هاجت ليس لها من قرار
صحت لما وحلت يا محبوب بحر عشقك يزيد
كنت أحب قلبي معور بس غرتو ذا البحار
خفت فيه الغرق فقال أفرح من غرق مات شهيد

دور:

أنا يوم في الغبوق باتفرج على شط الغدير

إذ رأيت على الشط واحد واقف شب صياد صغير
قلت يا عين إن غرك الصياد بالجمال المصيد
نظرت مقلتي إلى منظر ما لحسنو نظير
يقوعك في فخاخ شبك عشقو وكراكي يصيد

دور:

من نحبو جديد حبيب قلبي يوم صدفتو صدف

قلت لين يا قاسي لمن دمعو سال وحالو وقف
قال علينا يكتب ومن يسمع ذا الكلام يستفيد
دار وقال لي ما الاسم بالانجيل قلت اسمي خلف
في الحقيقة من لا يكون داود ما يلين لو الحديد

دور:

لك عوارض في الخد مرقومه ليس لها من مثال

وجفأك صار حماق وباب وصلك كان وكان يا غزال
ولك ألفاظ صارت مواليا بالزجل والنشيد
وأنت دويت موشح القاما يا عزيز الدلال
وشعرك متوج القاما وأنت بيت القصيد

دور:

عن محمر شرابنا ضمنا ونفطر بالثمار

حين وجدنا سفيرجل البستان يذهب الاصفرار
في ربيع حين رأى الثمر قاعد فيه تعاليق عقيد
وغنا الطير به الجماد يطرب وكذا الجلنار
حسب الروض النص من شعبان صار يقيد فيه وقيد
دور:

من لهيب مدمعي جرى الطوفان للهب ما طفي
وأنا هوى الغباري في العشاق ما جرى لي كفى
حين عليا بالصّد والهجران والبعاد والجفا
جار حبيبي قللت ذا الحجاج جا بجرر أو يزيد
لو عدل عشت بو مسرور ويكون الرشيد
غيره:

حين سكنت القلب يا عيسى أمسى من بعدك الحزين فرحان
وتقلّس بك ولكن ما جرت فيه يا ابن عين سلوان

دور:

عارضو لم عشق خدو غرت من وجدتي بقيت حابر
جيت إلى طرفو وناديت لو أحرسو وكون عليه ناظر
بعد حين نظرت في خدو التقى العارض وهو دابر
وعليه قد دب بالسرفه جيت لطرفو قلت يا كسلان
هكذا في عادة الحراس قال لي اعذرني أنا نعان
دور:

بدر شعبان منيتي لما في بروج السعد لاح نجمو
قللت لو أقضي بغيض دمعي أطلقوا وأجراه على رسمو
قلت لو دام الله إطلاقتك فالحزين قلبو المشوم قسمو
أيش قد أذنب حين قطرتوا دا بمغلظ قول بالبهتان
قالني صوم عن الوصال ناديت ليش أصوم يا بدر في شعبان
دور:

حين تدبح احمرار خدو باخضرار العارض أسباني
ضحك فابيض واتبسم واسوداد شعري وأبكاني
وحين أضحيت باصفار لوني أشعت أغبر في هواه عاني
قال لي لونك قد صبح حایل وقد أبصر مدمعي طوفان
ذقت تبريح الغرام ناديت في هواك ذقت الهوان ألوان
دور:

قلت لو حين عني تخلف لله كن لي يا رشيد مهدي
قد تلون دمعي من بعدك وتجري اليوم على خدي
دار إلى إنسان مقلتي قال لو أنت ما عندك نظر بعدي
ما ترى ما قد جرى منك على الخدود قال يا فتان
جرى الماء تحت من بعدك راقب الله قيا يا إنسان
دور:

ذا الفزال النافر الأنسي للفضالة قد أعار النور
كسر قلبي كسير جفتو فاعجبوا للكاسر المكسور
ويخمر الدن قد عريد وادعى أنني أنا المخمور
وابتسم لي عن نقا نغرو وخطر والبشر قيا بان
صحت يا قلبي صفا وردك أنت ما بين النقا والبان

للمصفي الحلبي.

أنا يا قبله الكرام
الله يعطيك فوق ذا المقام
زينه المال والبنين
ويعيلك على السنين

دور:

أنت يا شاما بين الأنام الله يحرمش شمايلك
ويزيدك بالدوام كي نعيش في فواضلك
ما يتطوي ذكر الكرام لما تتشر فضايلك
ونهنيك لكل عام والخلائق تقول آمين
قد بقينا بك في أمان الله يحبك طول السنين

دور:

ما رأينا تحت ذا الفلك من ندى كفك أعم
كل من جا ليسالك ليس تقول له سوى نعم
أملك أنت أو ملك ضاعف الله لك النعم
أنت في الجود كالنعام وسماك فوق ماردين
در غيثك في انسجام عم كل السائلين

دور:

لا عدنا كل صوم ذا السحور فيك والهنا
الله يحبك من خير قوم بالغ القصد والمنى
كل ليلة وكل يوم ينشر الذكر والثنا
حتى تقضي ذا الصيام ويليه باقي السنين
وتعيش يا ذا الهمام بين ولدان وعين

وغيره:

خال عبد الرحيم نقطة جبر من غير قاف
شال السعد فوق راسو عين ولام وميم
ما أحلاه غلما يلبي قاف ويا يا
ذقت من صدود جبي غين وصاد وصاد
النوم من جفون عيني خا ولام وصاد
قلت يوم لمن كان لي مين ونون ودال
ولا تهجر العشاق با وعين ودال
ولام وميم ثغر معشوقي الفتان نون وعين وعين وميم
دا للي قد هواه قلبي صاد ويا ويا
ما أحلاه غلما يلبي قاف ويا يا
ولما رأيت صبري نون وقاف وصاد
وأصبحت وجود فكري عين ودال وميم
أهدل في النني صبر ونون وفا ودال
ما أفلح قط يا ناس من ظا ولام وميم

جمل في الألفاظ المطلع في العين

وما طير أكلو الحجر يا كرام
ولمس الحرير يؤذيه وريش النعام
وجوهر حبابه يفسد أهل الصلاح
يصول بين جناحين سود كيض الصفاح

دور في السراج:

وما بحر ما هو ما وفي الليل يزيد
وفيه شيء صفات حية بلا وكر استفيد
ويخفى ويظهر كل يوم عن حقيق
بلا شك ينظره القريب والبعيد

تشوفو يضيء بين الوجوه الضبايح
قتيل الهوى بين الربا والبطاح

يغيب في النهار لكن إذا جا الظلام
ويسهر بحال عاشق حليف الغرام

دور في جوزة الكتافة:

وما مثل ذاك فسر لنا يا خير
وتحمل وتوضع كل يوم في السعير
يشيلو أودهما الكبير والصغير
يجادي سراها في المجي والروح
وذا اللغز قلته من غير مزاح

وما هي التي تركب على ستين ألف
مليحة وقصيفة وتلبس ترف
لها عشرة أعوان حالهم مختلف
لها فحل يخدمها عليه السلام
وأكثر تعبها في ليالي الصيام

دور في الغريال:

ولا يعتلم ضوء الظلام والضيأ
وميت وهو يحيي أصول الحيا
ولا حد يعوض موضعه لو عيا
مكابد عجاجه في المسا والصباح
على شان فنونه دول فنون ملاح

وما هو الذي يا سعد كله عيون
وهو بين خشب مصلوب لتلك الفتون
إذا غاب عن أهله فرد يوم ما يهون
وكم من رقيص في صنعه باهتمام
ويحتاج له الناس كل يوم في الدوام

فصل: في الفن الخامس في المواليا

وله وزن واحد وأربع قوافي، فمن تلك الأربعة واحد لصفي الدين الحلبي:

والمخصب الريح والأمواه قد غارت
والشهب مذ شاهدت أضواك قد غارت

يا طاعن الخيل والأبطال قد غارت
هواطل السحب من كفيك قد غارت

وقال أيضاً:

ومرشفيك من رشف منها سلاسلها
كم من أسود ضواري في سلاسلها

سل مقاتيك الكحال عمن سلاسلها
وعارضيك التي ملئت سلاسلها

وقال آخر:

في ظلّ بستان حاقف بالتمر نخلو
ومن كلام الأعادي قط ما نخلو

قد أوعدونا الغضابا أننا نخلو
والطلّ من فوقنا قد بلنا نخلو

وقال آخر:

ومن أمرنا بمسجدها وجامعها
كان افتتن في محاسنها وجامعها

قسماً وبالله مفرّتها وجامعها
لو حل مع بغيتي عايد وجامعها

ومن اثنين واثنين قال آخر:

أما ترى الصبح قد لاحت أباريقو

قوم اسقني ما تبقى في أباريقو

مع شادن كلما دارت شفاريقو
وقال:

البارجة ريت بعيني في الدجاجيين
ناديتهم فين كتم يا خفاجيين
وقال:

قد زدت هجرك فجذ بالعفو عن صبك
يكفيك بهجر تكدر قلب من حبك
غيره خمري عاطل:

كاس الطلا لطلاها طال لما سار
مدام لو طعم كله حلو ما هو مر
غيره حربي:

لك يا إمام الوغى في كل موقع حرب
هذا ولك كلما دارت رحاة الحرب
الصفى الحلي في المدح:

أغنت وأنت كفوفك في الندى والحرب
وفى جودك وسيفك بالعطا والضرب
وقال أيضاً:

من قال جودة كفوفك والحيث مثلين
ما جدت إلا وثغرك مبسم يا زين
وقال في التهته:

رأيت ذا العيد أول يوم في عصرك
وريت ذا الشهر مع ذا العام طوع أمرك
في المعاتبه:

عني تسليت وأساف الجفا سليت
لما تمليت بالأعمال لي مليت
وقال أيضاً:

يا قلب إن غلدروا فاغدر وإن خانوا
فلن وإن قربوا فاقرب وإن بانوا
وقال آخر:

حلف علياً جكاره أن يقاطعني

سقى المداما وإن عزت سقى ريقو

اثنين مثل البدوره في الدجى جيين
قالوا لمن قد وعدنا في الخفاجيين

وارحم خضوعي وخف في قتلي ريك
ما ظن في الناس أقسى قلب من قلبك

وصار لما حوزى حمراء مكلل در
ما حلّ منلوك إلا صار ملك حر

سماع يطرب له السامع ويغني الكرب
سيوف تغنى وكفك لا يملّ الضرب

في القرب والبعد في شرقها والغرب
ذا الكرب فرج وهذا وقد رمى في الكرب

أخطأ القياس وفي قوله جمع ضدين
وذاك ما جاد إلا وهو باكي العين

وريت ذا اليوم مع ذا الشهر في نصرك
والكلّ بالكلّ أول مبتدا عمرك

ومذ توليت عن طرق الوفا وليت
إذا تخليت تعرف قدر من خليت

فخن وإن هم قسوا فاقسا وإن لانوا
وكن لي معاهم كيفما كانوا

وصدّ عني وأقسم ما يطاوعني

كم ذا يصدّ وكم يرجع يصدّ عني
وقال آخر هجواً:
وإن كنت أنا هو المطلق لا يراجعني

قطع قفا ابن أخت خالك وابن آخر عمك
وإن تكلمت تصفع بل يسيل دمك
وقال آخر:

إن ردت تسلّم بطول الدهر ما تبرح
واستعمل الصبر لا تحزن ولا تفرح
وقال آخر:

إن كنت عاقل وريك بالتقى برّك
وإن تعمّد حسودك والحسد ضرّك
وقال آخر:

يا قلب إن خانك المحبوب لا تدبر
واستعمل الصبر دائماً للمدا تهر
عنو وعن قصة السلوان لا تخبر
فإنّ والله ما خاب الذي يصبر

فصل: في الفن السادس كان وكان

وله وزن واحد وقافية. ولكن الشعر الأول من البيت أطول من الثاني فمته هذه الوعظيات:

يا فاسي القلب مالك	تسمع وما عندك خبر	ومن حرارة وعظي	قد لانت الأحجار
أفريت مالك وحالك	في كلّ ما لا يتفكك	لنك علي ذي الحالة	تقلع عن الإصرار
تحضر ولكن قلبك	غائب وذهنك مشتغل	فكيف يا متخلف	تحسب من الحضار
ويحك تنبه فتى	وافهم مقالي واستمع	ففي المجالس محاسن	تجيب عن الأبصار
يحصي دقائق فعلك	وغمز لحظك يعلمه	وكيف تعزب عنه	غوامض الأسرار
تلوت قولتي ونصحي	لمن تدبر واستمع	ما في النصيحة فضيحة	كلا ولا وإنكار

وقال أيضاً:

صرّح بذكر المحبة ما في المعنى فائدة
ودع حديث العواذل ليس الخبر مثل النظر
من أين للبدر حسن يحيكه أو شمس الضحى
إن غبت فهو أنيسي
وإن شريت مدامي
فمنه روحي وراحي
وفيه عزي وذلي
قولوا لمن يلحاني
وقل نعم أنا عاشق صادق بلا تمويه
أنا عاشق لحبيب كلّ المعاني فيه
حاشا لذكّ المحيا من مثبه يحكيه
وإن حضرت نديمي
فالكأس هو ساقيه
إذا سكّرت وراحتي
بمهجتي أندييه
في الحب قصر واعتبر

هذا الذي قد عشقته
الصفى الحلى:

قد حار وصفى فيه
وقمت حتى أنصب شرك
يفرح الصياد
لو ردت مثله ما حصل
وأنا عليه معتاد
لبرج غيري ما عرف
جينا على ميعاد
يجيء ويدخل قصوري
خائف عليه يتصاد

شاهدت في الليل طيري
ما كل صيد يحصل
طيري الذي كان إلفي
وهو عليّ معزود
قد كان شرطي وخلقى
كأننا في الصحبة
من قلبي ما أبصص له
وأنا أرصده في مطاره

وقال آخر:

أمر من طعم الهوى
على الذي يهواه
حال الجلادة والقوى
على اليأس جفاه
لو لسن وطعم وريحة
وما أقل وفاه
وكل ما أحسن لو يسيء
ما كنت قط أراه

ما ذقت عمري جرعة
الله يصبر قلبي
الناس تعلم مني
وما أطيق التجلد
لي حب مثل الخوخة
ما أكثر مغابن حبيبي
أنا عزتو حظي
لو كنت أعشق ظلي

وله في الفراقيات:

وهم نزول بخاطري
في سائر الأوقات
وأنسكم في خاطري
والعين في ظلمات
وما بقي فيا رمق
من بعدكم هيهات
يلوح كالشبح الخفي
وأنا مع الأموات
والقلب يتبع ركبكم
من جملة التبعات
يقول لي من فرحته
وتسكب العبرات

يا سادة هجروني
لا أوحش الله منكم
أوحشتهم العين مني
والقلب في نور منكم
قد انتهى العبر مني
هيهات أني أحياء
لم يبق غير خيالي
أعد بين الأحياء
ودعتموني وسرتم
إيش ضر لو كان جسمي
ما مر ما ريت ضلتي
هنا تشق المراير

لو لم أسلي روعي	وأرض نفسي بالمنى
لكان قلبي تقطع	من بعدكم حرات
وقفت لما رحلتكم	حيران بين أظفانكم
أخض جناح المذلة	وأرفع الأصوات
طول الليل أسامر	كني أريد الكيميا
أقطر الدمع مني	وأحد الزفران
ما أطول ليالي جفاكم	ساعتها مثل السنة
وما أقصر أيام وصلي	كانها ساعات
ما لي أرى حسناتي	باليثات تبدلت
وسيثات الأعادي	اتبذلت حنات
خالفتوني وعمري	ما زلت أتبع أمركم
كذا العيب تدابع	أوامر السادات
أسكت وأصبر عنكمو	يفعل الله ما يشا
والدهر من عاداته	يقلب الحالات

فصل: في الفن السابع في القوما

قيل: أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر، والصحيح أنه مخترع من قبله، لا وكان الناصر يطرب له، وكان لابن نقطة ولد صغير ماهر في نظم القوما، فلما مات أبوه أراد أن يعرف الخليفة بموت أبيه ليحريه على مفروضه فتعذر عليه ذلك فصر إلى دخول شهر رمضان ثم أخذ أتباع والده من المسحرين ووقف أول ليلة من الشهر تحت الطيارة وغنى القوما بصوت رقيق فأصغى الخليفة إليه وطرب له فكان أول ما قاله قوله:

يا سيد السادات	لك بالكرم عادات
أنا بنى ابن نقطة	تعيش أبويما مات

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار فاستحضره وخلع عليه وفرض له ضعف ما كان لأبيه.
ومنها للصفى الحلبي:

من كان يهوى البدور	ووصل يفيض الخدور
بالييض والصفير يخو	وقد جلس في الصدر
من حب يفيض الخدور	ورام لزوم الصدر
بسمح وإلا فبقي	من بينهم مهذور
كم بين سجع الخدور	من عاشق مصدور
يرعى الكواكب تلعو	يرى جمال البدور
بين الحلل والخدور	وجوه مثل البدور

وغروبها في الصدور
بين الظلما والبذور
خيالهمم والحدود
مثل الكواكب تدور
يقضي بضيق الصدور
وانسا عليكم أدور
من بينهم مهذور

إشراقها في المعاجز
قد كنت فوق الصدور
فصرت أحد من أبصر
نوائب المقذور
من بعد طيب الخواطر
غيري يلزم الصدور
وأصطلي الصد وانسا

وقال أيضاً:

يريد جلد صبور
يقى من أهل القبور
يحظى برفع التور
يمحي من التمدور
أموال مثل البحور
ولذاتهم والحدور
وفي المطنا لا تجور
قلوب مثل الصخور
من عاشق مغذور
دموعها وتدور
هو في الهوى معذور
قصده ويوفي النذور
ولا تبيت مغرور
لأجنان عينك دروز
كم بينها معذور
على سواد الشعور
في حب يرض الثغور
مدامعه ما تغور
كالظبي أنس نفور
إيش ما عمل مغفور

حال الهوى مخبور
يصون سره وإلا
من كان هواه مستور
ومن هتك سر جـ
أبذل ليض التحور
إن أردت تملك وتظفر
قم فابذل المدخور
تريد هني المجبة
كم حول تلك الخذور
مثل الدواليب تجري
من يركب المحذور
يظفر بحبه ويلغ
كن بالهوى مسرور
واجعل تراب أعتابهم
طرق المجبة وعور
من فتك يرض السوالف
كم عاشق مدعور
يفار قلبه ولكن
كم بينهم يعفور
من أهل بلر فديته

ومن ذلك ما نظمه بعضهم ليسحر بعض الخلفاء في رمضان:

دائم وجنتك سعيد
بكل صنوم ومعيد

لا زال سعيدك جديد
ولا برحت مهنا

في الدهر أنت الفريد
والخلق شعير متح
يا من جنابه شديد
ومن يلاقني الشدايد
لا زلت في تأييد
ولا برحمت منها
نحن لذكرك نشيد
ونبعث أوصاف مدحك
ظللك علينا مديد
وكم غمرت بفضلك
لا زلت في كل عيد
عمرك طويل وقدرك
لا زال قدرك مجيد
ولا برحمت موقى
ما زال برّك يزيد
وما برح جود كفك
لا زال برّك مزيد
ولا عدنا نوالك

ومما قيل في فنّ الحماق:

أنا ما عبوري الحمام
إلا لدمع جاري
وديك المجاري تجري
تقول الأنعام في الحمام

وقال آخر:

نرى كل من نعشقر
فاسلاه وأترك هواه
وإن زاد عليّ عشقو
تركوا ولو كان يحيى
علينا يقيم أنفسه
وسد الطريق خلفه
وزاد بي الهوى والذل
لأهل القبور الكلّ

وقد انتهى الكلام فيما أشرت إليه من الفنون السبعة، وذكرت منها ما تبتهج به النفوس، وتقرّ به العيون، واختصرت ذلك إلى الغاية، فجاء بتوفيق الله في الحسن نهاية، وأسأل الله التوفيق بعمه وكرمه والمزيد من برّه ونعمه وحسبنا الله ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثالث والسبعون: في ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن وطلاقهن وما بحمد ويذم من عشرتهن وفيه فصول

الفصل الأول: في النكاح وفضله والترغيب فيه

قال الله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرِبَاعًا﴾^(١) الآية وقال تعالى: ﴿وَانكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتُمْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾^(٣) الآية وقال رسول الله ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»^(٤) وقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عواید عندكم». وقال رسول الله ﷺ: «تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة». وقال ﷺ: «سوداء ولود، خير من حسناء عقيم». وقال رسول الله ﷺ: «أحسن النساء بركة أحسنهن وجهاً، وأرخصهن مهراً».

فينبغي للرجل إذا أراد أن يتزوج أن يرغب في ذات الدين، وأن يختار الشرف والحسب. كما حكى أن نوح بن مريم قاضي مرو أراد أن يزوج ابته فاستشار جارا له مجوسياً فقال: سبحان الله الناس يستغنونك وأنت تستغني. قال لا بد أن تشير علي. قال: إن رئيسا كسرى كان يختار المال، ورئيس القوم قيصر كان يختار الجمال، والعرب كانت تختار الحسب والنسب، ورئيسكم محمد كان يختار الدين. فانظر أنت بأيهم تقتدي. وقال رجل للحسن: إن لي ابنة فمن ترى أن أزوجه لها. قال: زوجه ممن يبقى الله عز وجل، فإن أحبها أكرمها، وأن أبغضها لم يظلمها. وقيل لرجل من الحكماء: فلان يخطب فلانة فقال: أموسر من عقل ودين؟ فقالوا: نعم. قال: فزوجوه إياها. ويستحب البكر لقوله ﷺ: «عليكم بالأبكار فانهن أطيب أفواها وأنتق أرحاماً»^(٥) وقالوا: أشهى المطي ما لم يركب، وأحب اللآلئ ما لم يقب، وأنشد بعضهم:

قالوا نكحت صغيرة فأجبتهم
أشهى المطي إلي ما لم يُركب

- (١) سورة: النساء، الآية: ٣.
- (٢) سورة: النور، الآية: ٣٢.
- (٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٥.
- (٤) وجاء: حفظ وحماية.
- (٥) أنتق أرحاماً: أكثر أولاداً.

كَمْ يَبِينُ حَبْوَ لَوْلِي مَضُوبَةً نُظِمْتُ حَبْوَ لَوْلِي لَمْ تُقَبِّ
فَأُجَابَتْ امْرَأَةً:

إِنْ الْمُعْطَاةَ لَا يَلْدُ رَكْوُهَا حَتَّى تَذِلَّ بِالزَّمَامِ وَتُرْجَا
وَالِدُ لَيْسَ بِنَافِعٍ أَرْبَابُهُ حَتَّى يُولَفَ بِالنِّظَامِ وَيُنْقَبَا

قال خالد بن صفوان:

عَلَيْكَ إِذَا مَا كُنْتَ فِي النَّاسِ نَاكِحاً بِذَاتِ الشَّيَا الْغُرِّ وَالْأَعْيُنِ النَّجْلِ

وقيل: استشار رجل داود عليه السلام في التزويج، فقال له: سل سليمان وأخبرني بجوابه. فصادفه ابن سبع سنين وهو يلعب مع الصبيان راكباً قسبة. فسأله. فقال: عليك بالذهب الأحمر، أو الفضة البيضاء، واحذر الفرس لا يضر بك، فلم يفهم الرجل ذلك فقال له داود عليه الصلاة والسلام: الذهب الأحمر البكر، والفضة البيضاء الثيب الشابة ومن وراءهما كالفرس الجموح، وقال رسول الله ﷺ: «تخيروا لنطفكم» وقال ﷺ: «انظر في أي شيء تضع ولدك، فإن العرق دساس» وقال عليه الصلاة والسلام: «إياكم وخضراء الدمن، قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء» وأنشدوا فيه:

إِذَا تَزَوَّجْتَ فَكُنْ حَافِظاً وَأَسْأَلُ عَنِ الْفَصْنِ وَعَنِ مَنَبِهِ
وقال بعضهم:

وَأَوَّلُ خَبَثِ الْمَاءِ خَبَثُ تَرَابِهِ وَأَوَّلُ خَبَثِ الْقَوْمِ خَبَثُ الْمَنَاحِ

وعن علي رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ: قال: «لا تسترضعوا الحمقاء ولا العمشاء فإن اللبن يعمي». وقيل إن جعفر بن سليمان بن علي عاب يوماً على أولاده وأنهم ليسوا كما يجب فقال له ولده أحمد بن جعفر: إنك عمدت إلى فاسقات مكة والمدينة، وإماء الحجاز فأوعيت فيهن نطفك ثم تريد أن يتجنبن، وإنما نحن كصاحبات الحجاز هلا فعلت في ولدك ما فعل أبوك فيك حين اختار لك عقيلة قومها فزوّجها منك، وأنشدوا:

صَفَاتٌ مَنْ يَسْتَحِبُّ الشَّرْعَ خُطْبَتُهَا جَلَوْتُهَا لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَخْصِرَا
صَيِّئَةٌ ذَاتُ دِهْنٍ زَائِلَةٌ أَدَبُ بَكْرٌ وَلَوْ حَكَّتْ فِي نَفْسِهَا الْقَمَرَا
غَرِيَّةٌ لَمْ تَكُنْ مِنْ أَهْلِ خُطَابِهَا تِلْكَ الْصَفَاتُ الَّتِي أَجْلُو لِمَنْ تَنْظُرَا
فِيهَا أَحَادِيثُ جَاءَتْ وَهِيَ ثَابِتَةٌ أَحَاطَ عِلْماً بِهَا مَنْ فِي الْعُلُومِ قَرَا

وقال آخر:

مَطِيئَاتُ السَّرُورِ فَوَيْقُ عَشِيرٍ إِلَى الْعَشْرِينَ ثُمَّ قَفِ الْمَطَايَا
فَإِنْ جَزَتْ الْمَسِيرَ فَمِزْ قَلِيلاً وَبِنْتُ الْأَرْبَعِينَ مِنَ الرِّزَايَا^(١)

وقال آخر:

فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ الْعَجُوزَ وَوُطْأَهَا فَمَا هُوَ إِلَّا مِثْلُ سَمِ الْأَرَاقِمِ^(٢)

(١) الرزايا: المصائب.

(٢) الأرقام: سم الأفاعي.

واعلم أن العيش كله مقصور على الحليلة الصالحة، والبلاء كله موكل بالقرينة السوء التي لا تسكن النفس إلى عشرتها، ولا تتر العيون برؤيتها. وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: المرأة العاقلة تعمر بيت زوجها، والمرأة السفهاء تهدمه. وروي أنه لما حضر أبو طالب نكاح رسول الله ﷺ على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ومعه بنو هاشم ورؤساء مضر خطب فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل وعنصر مضر، وجعلنا حصنة بيتي، وسؤاس حرمة، وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوزن به رجل من قريش إلا رجح به برأ وفضلاً وكرماً ومجداً ونبلاً، فإن كان في المال قلّ فالمال ظل زائل ورزق حائل، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها من الصداق ما عاجله وأجله من مالي كذا وكذا، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل.

ولما خطب عمر بن حجر الكندي إلى عوف بن محلم الشيباني ابنة أم إلياس وأجابه إلى ذلك أقبلت عليها أمها ليلة دخوله بها توصيها، فكان مما أوصتها به أن قالت: أي بنية إنك مفارقة بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي منه درجت إلى رجل لم تعرفه، وقرين لم تألفه، فكوني له أمة ليكون لك عبداً، واخفظي لي خصلاً عسراً يكر لك ذخراً، فأما الأولى والثانية فالرضا والقناعة، وحسن السمع له والطاعة، وأما الثالثة والرابع فالتفقد لمواقع عينيه وأنفه وأنه فلا تقع عينه منك على قبيح ولا يشم أنفه منك إلا أطيب الريح، وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت طعامه ومنامه فإن شدة الجوع ملهبة وتنغيض النوم مغضبة، وأما السابعة والثامنة فالإحراز لما له والارعاء على حشمة وعياله، وأما التاسعة والعاشرة فلا تمصي له أمراً ولا تنشي له سرّاً، فإنك إن خالفت أمره أوغرت صدره، وإن أنشيت سرّه لم تأمني غدره، وإياك ثم إياك والفرح بين يديه إذ كان مهتماً، والكآبة لديه إذا كان فرحاً. قبلت وصية أمها فأنجبت له الحارث بن عمرو جد امرئ القيس الملك الشاعر.

وعن الهيثم بن عدي الطائي عن الشعبي قال: لقيني شريح فقال لي: يا شعبي عليك بنساء بني تميم فإني رأيت لهن عقولاً، فقلت وما رأيت من عقولهن؟ قال: أقبلت من جنازة ظهراً فمررت بدورهن وإذا أنا بمعجوز على باب دار وإلى جانبها جارية كأحسن ما رأيت من الجواري فعدلت إليها واستسقيت وما بي عطش. فقال لي: أي الشراب أحب إليك؟ قلت ما تيسر. قالت: ويحك يا جارية اتّيه بلين فإني أظنّ الرجل غريباً، فقلت للمعجوز ومن تكون هذه الجارية منك؟ قالت هي زينب بنت جرير إحدى نساء بني حنظلة، قلت هي فارغة أم مشغولة، قالت: بل فارغة قلت أترجئنيها؟ قالت إن كنت كفاه ولم تقل كفوا، وهي لغة بني تميم فتركها ومضيت إلى منزل لأقيل^(١) فيها فامتنعت مني القائلة، فلما صليت الظهر أخذت بيد إخواني من العرب الأشراف علقمة، والأسود، والمسيب، ومضيت أريد عمها فاستقبلنا وقال ما شأنك أبا أمية قلت زينب ابنة أخيك. قال ما بها عنك رغبة فزوجنيها، فلما صارت في حالي ندمت وقلت أي شيء صنعت بنساء بني تميم، وذكرت غلط قلوبهن، فقلت أطلقها. ثم قلت ولكن أدخل بها فإن رأيت ما أحب وإلا كان ذلك. فلو شهدتني يا شعبي وقد أقبلت نساؤها يهدينها حتى أدخلت عليّ فقلت: إن من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم ويصلي ركعتين، ويسأل الله تعالى من خيرها، ويتعوذ من شرّها، فتوضأت فإذا هي تتوضأ بوضوئي وصليت فإذا هي تصلي بصلاتي. فلما قضيت صلاتي أتتني جواريتها فأخذن ثيابي والبستي ملحفة

قد صيغت بالزعران. فلما خلا البيت دنوت منها فمددت يدي إلى ناصيتها. فقالت: على رسلك أبا أمية، ثم قالت الحمد لله أحمدته وأستعينه وأصلي على محمد وآله، أما بعد فإني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فيكن لي ما تحب فأتيه، وما تكره فأجتنبه فإنه قد كان لك منكح^(١) في قومك، ولي في قومي مثل ذلك. ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله تعالى به، إما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولك ولجميع المسلمين. قال فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت الحمد لله أحمدته وأستعينه وأصلي على محمد وآله. أما بعد فإنك قلت كلاماً إن ثبت عليه يكن ذلك خطأً لي، وإن تدعيه يكن حجة عليك أحب كذا وأكره كذا وما رأيت من حسنة فابتيها وما رأيت من سيئة فاستريها. فقالت كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت ما أحب أن يملني أصهاري. قالت فمن تحب من جيرائك يدخل دارك أذن له، ومن تكرهه أكرهه. قلت: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء. قال؛ فبت معها يا شعبي بأنعم ليلة ومكثت معي حولاً لا أرى منها إلا ما أحب. فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء وإذا أنا بعجوز في الدار تأمر وتنهاي قلت: من هذه؟ قالوا: فلانة أم حليلتك. قلت: مرحباً وأهلاً وسهلاً. فلما جلست أقبلت العجوز فقالت: السلام عليك يا أبا أمية، فقلت: وعليك السلام ومرحباً بك وأهلاً. قالت: كيف رأيت زوجك؟ قلت: خير زوجة، وأوفق قرينة، لقد أدبت فأحسنت الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة فجزاك الله خيراً. فقالت: يا أبا أمية إن المرأة لا يرى أسوأ حالاً منها في حالتين. قلت: وما هما؟ قالت: إذا ولدت غلاماً، أو خطيت عند زوجها، فإن رابك مرب فليكن بالسوط، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم أشراً من الروعاء المدللة. فقلت: والله لقد أدبت فأحسنت الأدب، وريضت فأحسنت الرياضة. قالت: كيف تحب أن يزورك أصهارك؟ قلت: ما شاموا، فكانت تأتيني في رأس كل حول فتوصيني بتلك الوصية، فمكثت معي يا شعبي عشرين سنة لم أعب عليها شيء. وكان لي جار من كندة يفرغ امرأة ويضربها فقلت في ذلك:

رأيت رجالاً يضربون نساءهم	فشلت يميني يوم تُضربُ زينبُ
أضربها من غير ذنب أثت به	فما العدلُ مني ضربُ مَنْ ليس يُذنبُ
فزنبُ شمسَ والنساء كواكبُ	إذا طلعتْ لم يَدُ منهنَّ كوكبُ

وخطب الحجاج بن يوسف إلى عبد الله بن جعفر ابنة أم كلثوم على ألفي ألف في السر، وخمسمائة ألف في العلانية فأجابه إلى ذلك وحملها إلى العراق فأقامت عنده ثمانية أشهر، فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان وافداً نزل بدمشق فأتاه الوليد بن عبد الملك على بغلة ومعه الناس فاستقبله ابن جعفر بالترحيب. فقال له الوليد: لكنت أنت لا مرحباً بك، ولا أهلاً. قال: مهلاً يا ابن أخي فلست أهلاً لهذه المقالة منك. قال: بلى والله وبشر منها، قال: وفيه ذلك؟ قال: لأنك عملت إلى عقيلة نساء العرب، وسيدة نساء بني عبد مناف فعرضتها لعبد ثقيف يتخذها. قال: وفي هذا عبت علي يا ابن أخي؟ قال: نعم.. فقال عبد الله: والله ما أحق الناس أن لا يلومني في هذا إلا أنت وأبوك، لأن من كان قبلكم من الولاة يصلون رحمي ويعرفون حقي، وإنك وأباك منعتاني ردكمما حتى ركبني الدين. أما والله لو أن عبداً حبشياً مجدعاً أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها منه، إنما فديت بها رقبتي، فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه ومضى حتى دخل على عبد الملك. فقال: ما لك يا أبا العباس؟ قال: إنك

سلطت عبد قتيب وملكته حتى تمخض نساء بني عبد مناف، فأدركت عبد الملك غيره فكتب إلى الحجاج يقسم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها ففعل. قال: ولم يكن يقطع الحجاج عنها رزقاً ولا كرامة، يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا، وما زال واصلاً لعبد الله بن جعفر حتى مات. وما كان يأتي عليه حول إلا وعنده غير مقبلة من عند الحجاج عليها أموال وكسوة وتحف.

وحكي أن المغيرة بن شعبة لما ولي الكوفة سار إلى دير هند بنت النعمان وهي فيه عياء مترهبة فاستأذن عليها، فقالت: من أنت؟ قال: المغيرة بن شعبة الثقفي. قالت: وما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً. قالت: إنك لم تكن جئتني لجمال ولا مال، ولكنك أردت أن تشرف في محافل العرب فتقول تزوجت بنت النعمان بن المنذر، وإلا فأني خير في اجتماع عياء وأحور.

وكان عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قد تزوج عاتكة بنت عمرو بن نفيل وكانت من أجمل نساء قریش، وكان عبد الرحمن من أحسن الناس وجهاً، وأبرهم بوالديه فلما دخل بها غلبت على عقله وأحبها حباً شديداً، فنقل ذلك على أبيه فمر به أبو بكر يوماً وهو في غرفة له فقال يا بني: إني أرى هذه المرأة قد أذهلت رأيك، وغلبت على عقلك فطلقها، قال: لست أقدر على ذلك. فقال: أتسمت عليك إلا ما طلقها! فلم يقدر على مخالفة أبيه فطلقها فجزع عليها جزعاً شديداً وامتنع عن الطعام والشراب، فقيل لأبي بكر: أهلك عبد الرحمن؟ فمرج به يوماً وعبد الرحمن لا يراه وهو مضطجع في الشمس ويقول هذه الآيات:

فوالله لا أنساك ما ذر شارق وما نأخ قمرئ الحمام المطوق
فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها ولا مثلها في غير شيء يطلق
لها خلق عف ودين ومحتد وخلق سوي في الحياء ومنطق

فسمعه أبوه فرق له وقال له: راجعها، وأقامت عنده حتى قتل عنها يوم الطائف مع رسول الله ﷺ، وأصابه سهم فقتله فجزعت عليه جزعاً شديداً وقالت ترثيه:

فأليت لا تنفك نفسي حزينه عليك ولا ينفك جلدي أغبرا
فتى طول عمري ما أرى مثله فتى أكر وأحمى في الهياج وأصبرا
إذا شرعت فيه الأسنة خاضها إلى القرن^(١) حتى يترك الرمح أحمر^(٢)

ثم تزوجها بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته ودعا الناس إلى وليته فأتوه، فلما فرغ من الطعام وخرج الناس قال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين أئذن لي في كلام عاتكة حتى أهنئها وأدعو لها بالبركة، فذكر عمر ذلك لعاتكة فقالت: إن أبا الحسن فيه مزاح فائذن له يا أمير المؤمنين. فأذن له فرفع جانب الخدر فنظر إليها فإذا ما بدا من جسدها مضمخ بالخلوق فقال لها: يا عاتكة ألت القائلة:

فأليت لا تنفك نفسي حزينه عليك ولا ينفك جلدي أغبرا

(١) القرن: النيد.

(٢) الرمح أحمر: يضرجه بالدم.

وقيل: إنَّ عمر لما قتل عنها جزعت عليه جزعاً شديداً، وتزوجت بعده الزبير بن العوام وكان رجلاً غيوراً. وكانت تخرج إلى المسجد كعادتها مع أزواجها فشق ذلك عليه، وكان يكره أن ينهها عن الخروج إلى الصلاة، لحديث رسول الله ﷺ: «ولا تمنعوا إماء الله مساجد الله» فعرض لها ليلة في ظهر المسجد وهي لا تعرفه فضرب يده عجيزتها ثم انصرف. ففعلت بعد ذلك عن الخروج إلى المسجد. وكان يقول لها: ألا تخرجين يا عاتكة؟ فتقول: كنا نخرج إذا الناس ناس، وما بهم من بأس وأما الآن فلا. ثم قتل عنها الزبير، قتله عمرو بن جرموز بوادي السباع وهو نائم. ثم تزوجها بعده محمد بن أبي بكر فقتل عنها بمصر. فقالت: لا أتزوج بعده أبداً، إني لأحسبني أني لو تزوجت جميع أهل الأرض لقتلوا عن آخرهم.

وحكي عن الحارث بن عوف بن أبي حارثة أنه قال لخارجة بن سنان: أترى أني أخطب إلى أحد فيردني؟ قال: نعم. قال: ومن هو؟ قال: أوس بن حارثة بن لام الطائي. قال: اركب بنا إليه، فركبنا إليه حتى أتينا أوس بن حارثة في بلاده فوجدناه في فناء منزله، فلما رأى الحارث بن عوف قال: مرحباً بك يا حارث، ثم قال: ما جاء بك؟ قال: جئت خاطباً. قال: لست هناك فانصرف ولم يكلمه، فدخل أوس على امرأته مغضباً. فقالت له: من الرجل الذي سلم عليك فلم تطل معه الوقوف ولم تكلمه؟ فقال ذلك سيد العرب الحارث بن عوف. فقالت: فما لك لا تستتره. قال: إنه استهجنني^(١) قالت: وكيف؟ قال لأنه جاءني خاطباً. قالت: ألست ترعهم أنه سيد العرب؟ قال: نعم، قالت: إذا لم تزوج سيد العرب في زمانه فمن تزوج؟ قال: قد كان ذلك. قالت: فتدرك ما كان منك، قال: فماذا؟ قالت: بأن تلحقه فترده. قال: وكيف وقد فرط مني إليه ما فرط؟ قالت: تقول له إنك لقيتني وأنا مغضب لأمر فلك المعفرة فيما فرط مني فارجع ولك عندي كل ما طلبت. قال: فركب في أثرهما.

قال خارجة بن سنان: فوالله إنا لنسير إذ حانت مني الضمّة فرأيت. فقلت للحارث وهو ما يكلمني هذا أوس في أثرنا فقال: ما أصنع به؟ فلما رأنا لا تقف قال: يا حارث أربع علي فوقتنا له وكلمه بذلك الكلام فرجع مسروراً. قال خارجة بن سنان فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته ادعي لي فلاتة أكبر بناته فأتته. فقال لها: أي بنية هذا الحارث بن عوف سيد من سادات العرب جاءني خاطباً وقد أردت أن أزوجه منه فما تقولين؟ قالت: لا تفعل. قال: ولم؟ قالت لأن في خلقي رداءة وفي لساني حدة، ولست بابه عمه فيراعي رحمي، ولا هو بجار لك في البلد فيستحي منك، ولا آمن أن يرى مني ما يكره فيطلقني فيكون عليّ بذلك مسبة. قال لها: قومي بارك الله فيك. ثم دعا بته الأخرى فقال لها مثل قوله لأختها. فأجابته بمثل جوابها. فقال لها: قومي بارك الله فيك، ثم دعا بالثالثة وكانت أصغرهن سناً. فقال لها مثل ما قال لأختها فقالت له أنت وذلك. فقال لها إني عرضت ذلك على أختك فأبته ولم يذكر لها مقالتهما. فقالت له: والله إني الجميلة وجهاً، الرفيعة خلقاً، الحسنة رأياً، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه، فقال لها: بارك الله فيك. ثم خرج إليه، فقال لزوجتك يا حارث ابتي هنية. قال: قد قبلت نكاحها. وأمر أمها أن تهبها له وتصلح شأنها ثم أمر ببيت فضرب له وأنزله إياه، ثم بعثها إليه فلما دخلت عليه لبث هنية ثم خرج إليّ فقلت له: أفرغت من شأنك قال: لا والله. قلت: وكيف ذلك؟ قال: لما مددت يدي إليها قالت: مه، أعند أبي وإخوتي هذا؟ والله لا يكون. ثم أمر بالرحلة فارتحلنا بها معنا وسرنا ما شاء الله. ثم قال لي تقدّم فتقدّمت فعدلت عن الطريق فما

لبث أن لحقني فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال لا والله. قلت ولم؟ قال: قالت تفعل بي كما يفعل بالأمه السبية الأخيلة لا والله حتى تنحر الجزر والغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يعمل مثلك لمثلي. فقلت: والله إني لأرى همة وعقلا، فقال صدقت. قال وأرجو الله أن تكون المرأة النجبية فوردا إلى بلادنا فأحضر الإبل والغنم ونحر وأولم ثم دخل عليها وخرج إلي، فقلت: أفرغت من شأنك؟ قال: لا والله. قلت ولم ذلك؟ قال: دخلت عليها أريدها فقلت لها قد أحضرت من المال ما تريدن. قالت والله لقد ذكرت من الشرف بما ليس فيك. قلت: ولم ذاك؟ قالت: أتستفرغ لنكاح النساء، والعرب يقتل بعضها بعضاً. وكان ذلك في أيام حرب قيس وذيان. قلت: فماذا تقولين؟ قالت: أخرج إلى القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلى أهلك فلن يفوتك ما تريد. فقلت: والله إني لأرى عقلاً ورأياً سديداً. قال: فأخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا بينهم بالصلح فاصطلحوا على أن يحسبوا القتلى، ثم تؤخذ الدية فحملنا عنهم الديات فكانت ثلاثة آلاف بعير فأنصرفنا بأجمل ذكر، ثم دخل عليها فقالت له: أما الآن فنعم. فأقامت عنده في الدَّ عيش وأطيه وولدت له بنين وبنات. وكان من أمرهما ما كان والله أعلم بالصواب.

وحكى الفضل أبو محمد الطيبي قال: حدثنا بعض أصحابنا أنَّ رجلاً من بني سعد مرت به جارية لامية بن خالد بن عبد الله بن أسد ذات ظرف وجمال وكان شجاعاً فارساً، فلما رآها قال: طوبى لمن كان له امرأة مثلك. ثم اتبعها رسولاً يسألها، ألها زوج ويذكره لها، وكان جميلاً فقالت للرسول: وما حرفته. فأبلغه الرسول ذلك فقال ارجع إليها وقل لها:

مقارعة الأبطال في كل شارق ^(١)	ومائلو ما حرفتي قلتُ حرفتي
أمام رجيل الخيل أحمي حقاقي ^(٢)	إذا عرضتُ خيلٌ لخيلٍ رأيتني
على ألم الليضي الرقاق البوارق ^(٣)	أصبر نفسي حينَ لم أر صابراً

فلحقها الرسول فأنشدها ما قال. فقالت له: ارجع إليه وقل له: أنت أسد، فاطلب لك لبوة فليست من نساك وأنشدته تقول:

ألا إنما أبغني جواداً بماله	كريماً محياه كثير الصدائق
فتى همة مذ كان خودٌ خريده	يعانقها في الليل فوق النمارق

وحدث يحيى بن عبد العزيز عن محمد بن الحكم عن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه قال: تزوج رجل امرأة جديدة على امرأة قديمة، فكانت الجارية الجديدة تمر على بيت القديمة فتقول:

وما يستوي الرجلان: رجلٌ صحيحة	وأخرى زمت في الزمان فسلت
-------------------------------	--------------------------

ثم تعود وتقول:

(١) في كل مكان والشارق: الشمس.

(٢) حقاقي: راياتي.

(٣) البوارق: السيوف.

وما يستوي الثويان: ثوبٌ به البلى وثوبٌ بأيدي البائعين جديداً
فمرت الجارية القديمة على باب الجديدة يوماً وقالت: (١)
نَقْلُ فَوادِكَ ما اسْتَطَعْتَ مِنَ الهوى ما الحَبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الْأَوَّلِ
كَمْ مَنْزِلٌ فِي الْأَرْضِ بِأَلْفَةِ الْفَتَى وَحِينَئِذِهِ أَبْدَأُ لِأَوَّلِ مَنْزِلِ
وقال عمرو بن العلاء وكان أعلم الناس بالنساء: (٢)

فإن تسألوني بالنساء فلأنني بصيرة بأدواء النساء طيب
إذا شاب رأس المرأة أو قل ماله فليس له في دهر نصيب

وسئل المغيرة بن شعبة عن صفة النساء فقال: بنات العم أحسن مواساة، والغرائب أنجب، وما ضرب رؤوس
الأقران مثل ابن السوداء. وقال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتخذ جارية للمتعلة فليخذها بريرة. ومن أراد أن
يتخذها للولد فليخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليخذها رومية. قال الشاعر:

لا تشتمن امرأة ممن يكون له أُمٌّ مِنَ الرُّومِ أو سوداء عجماء
فإنما أمهات القوم أوعياء مستودعات ولأنساب آباء

وقال الأصمعي: أتاني رجل من قريش يستشيرني في امرأة يتزوجها فقلت: يا ابن أخي أقصيرة النسب أم
طويلة؟ فلم يفهم عني، فقلت: يا ابن أخي أما القصيرة النسب فالتى إذا ذكرت أباه اكتفت به، والطويلة النسب فهي
التى لا تعرف حتى تطيل في نسبها. فلما كان أن تقع مع قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم فتضيع نسبك فيهم.
وخرج رجل من أهل الكوفة في غزوة فكسب جارية وفساً وكان مملوكاً على ابنة عمه فكتب إليها يعيرها ويقول:

ألا بلُّقُوا أُمَّ الْبَيْنِ بَأَنَّا غَنِينَا وَأَغْنَيْنَا الْغَطَارِفَةَ النَّجْدُ
يعيد مناظ المنكيين إذا جرى ويضياء كالتمثال زينها العقد
فهذا لأيام العدو وهذه لحاجة نفسي حين ينصرف الجنّد

فما ورد عليها كتابه وقرأته قالت: يا غلام هات الدواة. وكتبت جوابه تقول:

ألا فاقِرِهِ مِنِّي السَّلامَ وَقُلْ لَهْ غَنِينَا وَأَغْنَيْنَا غَطَارِفَةَ الْمَرْدِ
إذا شئت أغناني غلام مرجلٌ ونازعته في ماء معتصر الورد
وإن شاء منهم ناشئ مدّ كفه إلى عكني (٣) ملساء أو كفلٍ نهدي (٤)
فما كنتم تقضون حاجة أهلكم شهوداً فتقضوها على النأي والبعيد
فعجل إلينا بالأسراع فإنه ثمانا ولا ندعوك لك الله بالرد
فلا قَلَّ الجنْدُ الَّذِي أَنْتَ فِيهِمْ وزادك ربُّ الناس بُعْداً على بُعْدِ

(١) البيتان لأبي تمام.

(٢) وهذه الأبيات معروفة لعلمة الفحل وهو شاعر جاهلي.

(٣) عكن: ثنايا من البداة.

(٤) نهدي: عجز سمين.

فلما ورد عليه كتابها لم يزد على أن ركب الفرس وأردف الجارية خلفه ولحق بابنة عمه . فكان أول شيء بدأها به بعد السلام أن قال لها : بالله عليك هل كنت فاعلة ذلك؟ فقالت له : الله في قلبي أعظم وأجل ، وأنت في عيني أذل وأحق من أن أعصي الله فيك ، فكيف ذقت طعم الغيرة ، فوهب لها الجارية وانصرف إلى الغزاة ، والله تعالى أعلم بالصواب .

الفصل الثاني: في صفات النساء المحموده

كتب الحجاج إلى الحكم بن أيوب أن أخطب لعبد الملك بن مروان امرأة جميلة من بعيد ، مليحة من قريب ، شريفة في قومها ، ذليلة في نفسها ، مؤاتية لبعولها . فكتب إليه : قد أصبتها لولا عظم ثدييها ، فكتب إليه : لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها فتدفعه الضجيع وتروي الرضيع ، وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان . صف لي أحسن النساء . قال : خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين ، ردماء الكعمين ، ناعمة الساقين ، ضخماء الزكبتين ، لقاء الفخذين ، ضخمة الذارعين رخصة الكفين ، ناهدة الثديين ، حمراء الخدين ، كحلأ العينين ، زجاء الحاجبين ، لمياء الشفتين ، بلجاء الجبين ، شماء العينين ، شماء الثغرين ، شماء الثغرين ، محلولة الشعر ، غيداء العنق ، مكسرة البطن . فقال : ويحك وأين توجد هذه؟ قال تجدها في خالص العرب ، وفي خالص فارس . وقال حكيم : عليكم من تربت في النعيم ثم أصابتها فاقة فأثر فيها الغنى وأدبها الفقر . وقال رجل لخطيب : ابغ لي امرأة لا تؤنس جاراً ، ولا توطن داراً ، يعني لا تدخل على الجيران ، ولا تدخل الجيران عليها . وفي مثل هذه قال الشاعر :

هيفاء فيها إذا استقبلتها صلف عيطاء غامضة الكعمين معطار^(١)
خود من الخفراء البيض لم يرها ساحرة الدار لا بعلى ولا جاز

وقال الأعشى :

لم تمش ميلاً ولم تركب على جمل ولم تر الشمس إلا دونها الكلل^(٢)

وكانت امرأة عمران بن حطان من أجمل الناس وجهاً ، وكان هو من أقبح الناس وجهاً فقال لها يوماً : أنا وإياك في الجنة إن شاء الله تعالى ، فقالت له : وكيف ذلك؟ فقال : لأنني أعطيتُ مثلك فشكرتُ ، وأعطيتُ مثلي فصبرتُ ، والصابر والشاكر في الجنة . وقال بعضهم : رأيت في طريق مكة أعرابية ما رأيت أحسن منها وجهاً ، ففقدت أنظر إليها وأتعجب من جمالها ، فجاء شيخ قصير فأخذ بردائها وسار بها ومضى ، فلقيتها مرة أخرى فقلت لها : من هذا الشيخ؟ قالت زوجي ، قلت : كيف يرضى مثلك بمثله ، فأنشدت :

أيا عجباً للخود يجري وشاؤها تُزفُ إلى شيخ بأقبح تمثال
دعائي إليه أنه ذو قرابو يعزُّ علينا من بني العم والخال

وسمع بعضهم قاتلاً يقول شعراً :

(١) معطار : علة يفوح منها العطر .

(٢) الكلل : السائر .

ومن لا يُرد مدحي فإنَّ مدائحي توافقُ عند الأكرمين توافي^(١)
توافق عند المشتري الحمد بالندی نفاق بنات الحرث بن هشام

فقال: يا ابن أخي ما بلغ من نفاق بنات الحرث بن هشام. قال: كنَّ من أجمل الناس وجوهاً، وكان أبوهنَّ إذا زواجهنَّ يسوقهنَّ ومهورهنَّ إلى بعولتهنَّ، فقال: يا ابن أخي لو فعل هذا إليّ بيناته لتناست فيهنَّ الملائكة المقرَّبون. وقال عبد الملك لابن أبي الرقاع: كيف علمك بالنساء؟ قال: أنا والله أعلم الناس بهنَّ وجعل يقول:

قضاعيةُ الكعيبين كندبةُ الحشا خزاعيةُ الأطراف طاجيةُ الفم
لها جكمُ لقمان، وصورةُ يوسف ومنطق داود وعفةُ مريم

وقالوا: الوجه الحسن أحمر وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث في الكن، والتضخم بالطيب. وقالوا: إن الوجه الرقيق البشرة الصافي الأديم إذا خجل يحمر، وإذا فرق يصفر. ومنه قولهم: دياج الوجه يريدون تلونه من رفته. قال علي بن زيد في وصفه:

حمرة خلط صفرة في يفاض مثل ما حاك حائك دياجا
وقال علي بن عبد ربه:

بيضاء يحمرُّ خدَّها إذا خجلت كما جرى ذهبٌ في صفحتي ورق
وقالوا: إن الجارية الحناء تتلون بتلون الشمس، فهي بالضحى بيضاء، وبالعشي صفراء فقال ذو الرمة:

بيضاء صفراء قد تازَّعها لونان من فضة ومن ذهب

قالوا: ليس المرأة الجميلة التي تأخذها ببصرك جملة على بعد، فإذا دنت منك لم تكن كذلك، بل الجميلة التي كلما كررت ببصرك فيها زادتك حسنا. وقالوا: إن أردت أن ينجب ولدك فأغضبها ثم قف عليها. قال الشاعر:

ممن حملن به وهُنَّ عواقدُ حبك النطاق معاش غير مهبل
حملت به في ليلة مزورة كرهاً وعقد نطاقها لم يحلل

الفصل الثالث: في صفة المرأة السوء نعوذ بالله تعالى منها

في حكمة داود عليه السلام: إن المرأة السوء مثل شرك الصياد لا ينجو منها إلا من رضي الله تعالى عنه، وقيل: المرأة السوء غلّ يلقى الله تعالى في عتق مَنْ يشاء من عباده. وقيل لأعرابي كان ذا تجربة للنساء: صف لنا شر النساء، فقال: شرهن النحيقة الجسم، القليلة اللحم، المحياض المراض، المصفرة الميشومة، العسرة الميشومة السلطة البطرة، الضرة، السريعة الوثبة، كأن لسانها حرية، تضحك من غير عجب، وتبكي من غير سبب، وتدعو على زوجها بالحرب، أنف في السماء، وأست في الماء، عرقوبها حديد، متفخة الوريد، كلامها وعيد، وصوتها شديد، تدفن الحسنات وتغشي السيئات، تعين الزمان على بعلها، ولا تعين بعلها على الزمان، ليس في قلبها عليه رافة، ولا عليها منه مخافة، إن دخل خرجت، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وإن بكى ضحكت، كثيرة الدعاء، قليلة

الإرعاء، تأكل لثماً، وتوسع ذكاً، ضيقة الباع، مهتوكة القناع، صليها مهزول، وبيتها مزبول، إذا حدثت تشير بالأصابع وتبكي في المجمع، بادية من حجابها، نباحة عند بابها، تبكي وهي ظالمة، وتشهد وهي غائبة، قد دلى لسانها بالزور، وسال دمعها بالفجور، ابتلاها الله بالويل والثبور وعظائم الأمور. ويقال: إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها فإن علامة ذلك أن تكون عند قربها منه مرتدة الطرف عنه كأنها تنظر إلى إنسان غيره من ورثته، وإن كانت محبة له لا تطلع عن النظر إليه. قال بعضهم:

لقد كنتُ محتاجاً إلى موت زوجتي ولكن قرينَ السوء باقٍ معمرُ
فيا ليتها صارت إلى القبر عاجلاً وعذبتهَا فيه نكيرٌ ومنكرُ

وقال زيد بن عمير:

أعاتبها حتى إذا قلت أقفعت^(١) أبى الله إلا خزيها فتعودُ
فإن طمشت قادت وإن طهرت زنت فهاتيك تزني دائماً وتعودُ

وقال داود عليه الصلاة والسلام: المرأة السوء على بعليها كالحمل الثقيل على الشيخ الكبير، والمرأة الصالحة كالنخلة المرصع بالنهب كلما رآها قرّت عينه برؤيتها، والله أعلم.

الفصل الرابع: في مكر النساء وغدرهن وذمهن ومخالفتهن

في حكمة داود عليه الصلاة والسلام: وجدت في الرجال واحداً في ألف، ولم أجد واحدة في جميع النساء. وقيل إن عيسى عليه الصلاة والسلام لقي إبليس وهو يسوق أربعة أحمره عليها أحمال فسأله فقال: أحمل تجارة وأطلب مشترين، فقال: ما أحدها؟ قال الجور. قال: من يشتريه؟ قال السلاطين. قال: فما الثاني؟ قال الحسد، قال: فمن يشتريه؟ قال العلماء. قال: فما الثالث؟ قال الخيانة. قال: فمن يشتريها؟ قال التجار. قال: فما الرابع؟ قال الكيد. قال: فمن يشتريه؟ قال النساء. وقال حكيم: النساء شرّ كلهنّ، وشرّ ما فيهنّ قلة الاستغناء عنهنّ. وقالت الحكماء: لا تتق بامرأة ولا تغترّ بمال وإن كثر. وقيل النساء حبايل الشيطان. قال الشاعر:

تمنّع بها ما ساعفتك^(٢) ولا تكن جزوعاً إذا بانّت سوف تيينُ
وخنتها وإن كانت بقي لك إنها على قدم الأيام سوف تخونُ
وإن هي أعطتك اللبان فإنها لغيرك من طلابها ستلينُ
وإن خلقت أن ليس تنقض عهداً فليس لمخضوب البنان يمين^(٣)
وإن سكبت يوم الفراق دموعها فليس لعمير الله ذاك يقيسُ

وقال ابن بشار:

رأيت مواعيد النساء كأنها سرابٌ لمرتاد المناهل حافلُ

(١) أفلت: أفلت.

(٢) ساعفتك: آتاك.

(٣) البنان يمين: ليس للنساء يمين!

ومتظرُ الموعودِ منهنَّ كالنبي يؤملُ يوماً أن تليَن الجنادلُ

وقال بعض الحكماء: لم ته المرأة عن شيء قط إلا فعلته. وقال الغنوي:

إنَّ النساءَ متى ينهينَ عن خلق فإنَّه واقعٌ لا بدَّ مفعولُ

وقال النخعي: من اقتراب الساعة طاعة النساء. ويقال: من أطاع عِرسه فقد اضاع نفسه. وقال علي رضي الله تعالى عنه: إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى آفن، وعزمهن إلى وَهْن، اكفف أبصارهن بالحجاب فإن شدة الحجاب خيرٌ لهنَّ من الارتياب، وليس خروجهنَّ بأضرَّ من دخول مَنْ لا يوثق به عليهن، فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل. قال السمعاني:

لا تأمننَّ على النساء ولو أخاً ما في الرجالِ على النساءِ أمينُ

إنَّ الأميينَ وإن تحفظ جهده لا بدَّ أن ينظرة سيخونُ

وقال غيره:

لا تركننَّ إلى النساء ولا تثق بهودهنَّ

فرضاوهنَّ جميعهن معلَّقٌ بفروجهنَّ

وقال علي رضي الله تعالى عنه: لا تطلعوا النساء على حال ولا تأمنوهن على مال، ولا تدرهن إلا لتدبير العيال، إن تركنَّ وما يُردنَّ أوردنَّ المهالك وأفسدنَّ الممالك، ينسين الخير، ويحفظن الشر، يتهاقن في البهتان، ويتماذنن في الطغيان. وقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: ذلٌّ من أسند أمره إلى المرأة. وقيل إن صياداً أتى أبرويز بسمكة فأعجبه حسننها وسمنها فأمر له بأربعة آلاف درهم، فخطأته شيرين زوجته فقال لها: ماذا أفعل؟ فقالت له: إذا جاءك فقل له أذكراً كانت أم أنثى؟ فإن قال لك ذلك فاطلب منه الأنثى، وإن قال لك أنثى، فاطلب منه الذكر، فلما أتاه سأله فقال: كانت أنثى. فقال: انتني بذكرها. فقال عمر الله الملك كانت بكرة لم تزوج، فقال: زه، وأمر له بثمانية آلاف درهم. وقال اكتبوا في الحكمة: الفدر ومطوعة النساء يؤديان إلى الغرم الثقيل. وقال حكيم: اعص النساء وهواك وافعل ما شئت. وقال عمر رضي الله تعالى عنه: أكثروا لهنَّ من قول لا، فإن نعم تغريهنَّ على المسألة. وقال: استعينوا بالله من شرار النساء، وكونوا من خيارهنَّ على حذر.

ومما قيل في الباءة: ذكر الجماع عن الإمام مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه قال: هو نور وجهك، ومنع ساقك، فأقلل منه أو أكثر. وقال معاوية رضي الله تعالى عنه: ما رأيت نهما في النساء إلا عرفت ذلك في وجهه. وخلا تمام بجارية له فعجز عنها فقال: ما أوسع حرك. فأنشأت تقول:

أنتَ الفداء لمن قد كان يملؤه ويشتكى الضيق منه حين يلقاه

وقال آخر:

شفاء الحبِّ قليلٌ ولمنَّ وسخِبَ بالبطون على البطون

ورَهَزَ تَلَفُ العِنان منه وأخذَ بالمناكِبِ والقرون

وقالت امرأة من أهل الكوفة: دخلت على عائشة بنت طلحة فسألت عنها فقبل هي مع زوجها في القيطون

فسمعت شهيقاً وشخيراً لم أسمع مثله. ثم خرجت إليّ وجيئها يتصبب عرقاً، فقلت لها: ما ظننت حرّة تفعل هذا بنفسها! فقالت: إن الخيل تشرب بالصفير. وعاتبت امرأة زوجها قلة إتيانها فأجابها يقول:

أنا شيخٌ ولي امرأةٌ عجوزُ تراودني على ما لا يجوزُ
وقالَتْ رَقًى (...) (١) مذ كبرنا فقلت: بلى قد اتسع القفيز (٢)

وكان لرجل امرأةٌ تخصمه، وكلما خاصمته قام إليها فواقعها، فقالت: ويحك كلما تخصمني تأتيني بشفيح لا أقدر على ردّه. وأتى رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وقال: إن لي امرأةً كلما غشيتها تقول قتلتي، فقال: اقتلها بهذه القتلة وعليّ إثمها. وقالوا: من قلّ جماعه فهو أصحّ بدنأً وأنقى جلدأً وأطول عمراً، ويعتبر ذلك بذكور الحيوان وذلك أنه ليس في الحيوان أطول أعماراً من البغال، ولا أقصر أعماراً من العصافير وهي أكثرها سفاداً، والله تعالى أعلم بالصواب.

الفصل الخامس: في الطلاق وما جاء فيه

عن عبد الرحمن بن محمد ابن أخي الأصمعي قال: قال عمي للرشيّد في بعض حديثه: يا أمير المؤمنين بلغني أن رجلاً من العرب طلق في يوم واحد خمس نساء، قال: وكيف ذلك؟ وإنما لا يجوز للرجل غير أربعة. قال: يا أمير المؤمنين كان متزوجاً بأربعة فدخل عليهنّ يوماً فوجدهنّ متنازعات وكان شريراً، فقال: إلى متى هذا النزاع ما أظن هذا إلا من قبلك يا فلانة ادعني فأنّت طالق. فقالت له صاحبتها: عجلت عليها بالطلاق، ولو أدبته بغير ذلك لكان أصح، فقال لها: وأنت أيضاً طالق. فقالت له الثالثة: قبحك الله فوالله لقد كانت إليك محستين. فقال لها: وأنت أيضاً أيتها المعتدة أيديهما (٣) طالق. فقالت الرابعة وكانت هلالية: ضاق صدرك إلا أن تؤدّب نساءك بالطلاق فقال لها: وأنت طالق أيضاً. فسمعت جارة له فأشرفت عليه وقالت له: والله ما شهدت العرب عليك ولا على قومك بالضعف إلا لما بلوه منك، ووجدوه فيكم أبيت إلا طلاق نساك في ساعة واحدة. فقال لها وأنت أيها المتكلمة فيما لا يعنيك طالق، إن أجازني بعلك. فأجابه زوجها: قد أجزت لك ذلك فعجب الرشيّد من ذلك.

وطلق رجل امرأته فلما أرادت الارتحال قال لها: اسمعي وليسمع من حضر إنّي والله اعتمدتك برغبة، وعاشرتك بمحبة، ولم أجد منك زلة، ولم يخلني عنك ملة، ولكن القضاء كان غالباً. فقالت المرأة: جزيت من صاحب ومصحوب خيراً، فما استقلت خيراً، ولا شكوت ضيماً، ولا تمنيت غيرك، ولا أجد لك في الرجال شبيهاً، وليس لقضاء الله مدفع، ولا من حكمه علينا منع. وقال رجل لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما تقول في رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء؟ فقال يكفيه من ذلك عدد نجوم الجوزاء.

ذكر من طلق امرأته فتبعها نفسه، قال الهيثم بن عدي: كانت تحت ابن الغريان بن الأسود بنت عمّ فطلقها فتبعها نفسه، فكتب إليها يعرض لها بالرجوع فكتبت إليه تقول:

(١) ذكر الرجل.

(٢) القفيز: فرج الأثى.

(٣) أيديهما: نعمهما.

إن كنتَ ذا حاجةٍ فاطْلُبْ لها بدلا إن الغزال الذي ضيعت مشغولُ

فكتب إليها يقول:

إن كانَ ذا شغلٍ فالله يكلِّوه فقد لهَوْنَا به والجبلُ موصولُ
وقد قضَيْنا من استظرافه وطراً وفي الليالي وفي أيامها طولُ

وطلق الوليد بن يزيد زوجته سعدى فلما تزوجت اشتد ذلك عليه وندم على ما كان منه، فدخل عليه أشعب فقال له: هل لك أن تبلغ سعدى عني رسالة ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: أفبضيها. فأمر له بها، فلما قبضها قال له: هات رسالتك قال: انتهت فأنشدتها:

أسعدى هل إليك لنا سبيلُ ولا حتى القيامة من تلاقٍ
بلى ولعل دهرأ أن يواطىي بموتٍ من خليلك أو فراقٍ

قال: فأتاها أشعب فاستأذن عليها فأذنت له فدخل. فقالت له: ما بدا لك في زيارتنا يا أشعب؟ فقال: يا سيدتي أرسلني إليك الوليد برسالة، ثم أنشدها الشعر، فقالت لجواربها: عليكن بهذا الخبيث فقال: يا سيدتي إنه دفع لي عشرة آلاف درهم فهي لك وأعتقني لوجه الله، فقالت: والله لا أعتقتك أو تبلغ إليه ما أقول لك. قال: يا سيدتي فاجعلي لي جملاً. قالت: لك بساطي هذا. قال: قومي عنه. فقامت فأخذته وألقاه على ظهره وقال: هات رسالتك فقالت:

أتبكي على سعدى وأنت تركتها فقد ذهبَت سعدى فما أنت صانعُ

فلما بلغه الرسالة ضاقت عليه الأرض بما رحبت، وأخذته كظمة، فقال لأشعب: اختر مني إحدى ثلاث، إما أن أتلك، وإما أن أطرحك من هذا القصر، وإما أن ألقيك إلى هذه السباع فتضرسك. فتحير أشعب وأطرق ملياً، ثم قال: يا سيدي ما كنت لتعذب عينا نظرت إلى سعدى، فتبسم وخلقى سبيله... ومن طلق فتبعته نفسه الفرزدق الشاعر طلق النوار ثم ندم على طلاقها وقال:

ندمتُ ندامةَ الكسبيِّ لما غدت مني مطلقاً نواؤُ
فأصبحتُ الغداةَ ألومُ نفسي بأمرٍ ليس لي فيه اختيارُ
وكأنتَ جتي فخرجتُ منها كآدمَ حينَ أخرجهُ الضراؤُ
ولو أني ملكتُ بها يميني لكان عليَّ للقدَرِ الخيارُ

ومن طلق امرأته فتبعته نفسه فندم قيس بن ذريح وكان أبوه أمره بطلاقها فطلقها وندم على ذلك فأنشد يقول:

فني صبري وعادوني رداعي وكان فراقُ لبني كالخداعِ
تكفني الوشاةُ فأزعجونني فيا للناسِ لِلنواشي المطاعِ
فأصبحتُ الغداةَ ألومُ نفسي على أمرٍ وليس بمستطاعِ
كمغبونٍ يعضُّ على يديهِ تيئنُ غبنه عند الياعِ

وحدث العتيبي قال: جاء رجل بامرأة كأنها برج من فضة إلى عبد الرحمن بن الحكم وهو على الكوفة فقال إن امرأتي هذه شجتي. فسألها عبد الرحمن فقالت: نعم يا مولاي غير متعملة لذلك، كنت أعالج طيباً فوقع الفهر من

يدي على رأسه وليس عندي علم، ولا يقوى بلني على القصاص. فقال للرجل: علام تمسكها وقد فعلت بك ما أرى. فقال: يا مولاي إن صداقها علي أربعة آلاف درهم ولا تطيب نفسي بفراقها. قال: فإن أعطيتك الأربعة آلاف درهم تفارقها؟ قال: نعم. قال: هي لك. قال: فهي إذن طالق. فقال لها عبد الرحمن: احبسي علينا نفسك وأنشأ يقول:

يا شيخ يا شيخ من دلاك بالفرل قد كنت يا شيخ عن هذا بمعتزل
رضيت الصعاب فلم تحسن رياضتها فاعمد لنفسك نحو القرع النمل

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الرابع والسبعون: في تحريم الخمر وذمها والنهي عنها

قد أنزل الله تعالى في الخمر ثلاث آيات: الأولى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾^(١) الآية فكان من المسلمين من شارب ومن تارك إلى أن شرب فدخل في الصلاة فهجر فتزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(٢) فشربها من شربها من المسلمين وتركها من تركها حتى شربها عمر رضي الله تعالى عنه فأخذ بلحي بعير وشجَّ به رأس عبد الرحمن بن عوف، ثم قعد ينوح على قتلى بدر بشعر الأسود بن يعفر يقول:

وكائن بالقلبي ^(٣) قلب بدرٍ	من الفتيان والعرب الكرام
أيوعدني ابن كبشة إن سخيًا	وكيف حياة أصداء وهام
أيعجز أن يرد الموت عني	وينشروني إذ بلئت عظامي
ألا من مبلغ الرحمن عني	بأنني تارك شهر الصيام
فقل لله بمنعني شرابي	وقل لله بمنعني طعامي

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فخرج مغضباً يجر رداءه فرفع شيئاً كان في يده فضربه به. فقال: أعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله: فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^(٤) فقال عمر رضي الله تعالى عنه: انتهينا انتهينا.

ومن الأخبار المتفق عليها في تحريمها قول سيدنا رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة مدمن خمر» وقوله ﷺ: «أول ما نهاني ربي بعد عبادة الأوثان عن شرب الخمر وملاحاة الرجال». ومن تركها في الجاهلية عبد الله بن جدعان وكان جواداً من سادات قريش، وذلك أنه شرب مع أمية بن أبي الصلت الثقفي فضربه على عينه فأصبحت عين أمية مخضرة يخاف عليها الذهاب. فقال له عبد الله: ما بال عينك؟ فسكت. فآلح عليه فقال: ألت ضاريها بالأمس؟ فقال: أو بلغ مني الشراب ما أبلغ معه إلى هذا؟ لا أشربها بعد اليوم. ثم دفع له عشرة آلاف درهم. وقال: الخمر علي حرام، لا أذوقها بعد اليوم أبداً.

ومن حرمها في الجاهلية أيضاً قيس بن عاصم. وذلك أنه سكر. ذات ليلة فقام لابته أو لأخته فهرت منه، فلما أصبح سأل عنها فقيل له: أو ما علمت ما صنعت البارحة؟ فأخبر بالقصة فحرم الخمر على نفسه. ومن حرمها في الجاهلية أيضاً العباس بن مرداس، وقيس بن عاصم وذلك أن قيساً شرب ذات ليلة فجعل يتناول القمر ويقول والله لا

(١) سورة: البقرة، الآية: ٢١٩.

(٢) سورة: النساء، الآية: ٤٣.

(٣) البئر: مدفن قتلى المشركين.

(٤) سورة: المائدة، الآية: ٩١.

أبرح حتى أنزله ثم يشب الوثبة بعد الوثبة، ويقع على وجهه فلما أصبح وأفاق قال: ما لي هكذا؟ فأخبروه بالقصة فقال: والله لا أشربها أبداً. وقيل للعباس بن مرداس: لم تركت الشراب وهو يزيد في سماحتك؟ فقال: أكره أن أصبح سيد قومي وأسي سفيهم.

ودخل نصيب على عبد الملك بن مروان فأنشده فأعجبه إنشاده وشعره ووصله ثم دعا بالطعام فطعم منه فقال له عبد الملك: يا نصيب هل لك فيما ينادم عليه؟ قال يا أمير المؤمنين جلدي أسود، وخلقي مشوه، ووجهي قبيح وتكفيني مجالستك ومواكلتك ولم يوصلني إلى ذلك إلا عقلي وأنا أكره أن يدخل عليه ما يتقصه. فأعجبه كلامه ووصله. وقال الوليد بن عبد الملك للحجاج في وفدة وقدها عليه: هل لك في الشراب؟ فقال: يا أمير المؤمنين لا خلاف لما أمرت، ولكن أنا أمتنع أهل عملي منه، وأكره أن أمتنعهم عن شيء ولا أمتنع منه وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾^(٢) وقيل لأعرابي لم لا تشرب النبيذ؟ فقال: لا أشرب ما يشرب عقلي. وقال الضحاک بن مزاحم لرجل: ما تصنع بشرب النبيذ؟ قال: يهضم طعامي. قال: أما أنه يهضم من دينك وعقلك أكثر. وقال ابن أبي أوفى لقومه حين نهوا عن الخمر:

ألا يا لقومي ليس في الخمر رفعةً فلا تقربوا منها فليست بفاعل
فلاني رأيت الخمر شيئاً ولم يزل أخو الخمر دخالاً لشر المنازل

وقال الحسن: لو كان العقل يشتري لتغالي الناس في ثمنه، فالعجب ممن يشتري بماله ما يفسده. وقال عليه الصلاة والسلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنساء حبايل الشيطان، والخمر داعية إلى كل شر» وقال بعضهم: بلوت^(٣) نبيذ الخمر في كل بلدة إذا دارت الأبطال أرضوك بالمنى وإن قدوها فالوجوه غلاظ

وقال حكيم: إياك وإخوان النبيذ، فينما أنت متوج عندهم مخدوم مكرم معظم، إذ زلت بك القدم فجزوك على شوك السلم فاحفظ قول القاتل فيه:

وكل أناس يحفظون حريمهم وليس لأصحاب النبيذ حريم
فإن قلت هذا لم أقل عن جهالة ولكتني بالفاسقين عليهم
وللأعرج الطائي:

تركت الشعر واستبدلت منه إذا داعي صلاة الصبح قاما
كتاب الله ليس له شريك وودعت المدامة والندامى

وقال الصفدي:

دع الخمر فالراحات في ترك راحها وفي كأسها للمرء كوة عار

(١) سورة: هود، الآية: ٨٨.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٤٤.

(٣) بلوت: اختبرت.

(٤) حفاظ: كرامة وأثقة.

وكم ألبست نفس الفتى بعد نورها مدارعَ قازٍ في مدارٍ عقارٍ

نكتة: اجتمع نصراني ومحدث في سفينة فصب النصراني خمرأ من زق كان معه في شربة وشرب، ثم صب فيها وعرض على المحدث، فتناولها من غير فكر ولا مبالاة، فقال النصراني: جعلت فداك إنما هي خمر. قال: من أين علمت أنها خمر؟ قال: اشتراها غلامي من يهودي وحلف أنها خمر. فشربها المحدث على عجل وقال للنصراني: يا أحمق نحن أصحاب الحديث نضعف مثل سفيان بن عيينة، وي زيد بن هارون، أفنصتق نصرانياً عن غلامه، عن يهودي والله ما شربتها إلا لضعف الإسناد. ومن المجون في ذلك ما حكى أن سكراناً استلقى على طريق فجاء كلب فلحس شفتيه فقال: خدحك بتوك ولا عديموك. فبال على وجهه فقال: وماء حار أيضاً بارك الله فيك. وقيل: حالة السكرى ثلاثة: فرد حرك رأسه فرقص، وكلب هارش فنبج، وحية زويت فنامت. ومرّ عقاب الناسك بمرداس بن خدام الأسدي فاستسقاء لبناً فصب له خمرأ وعلاه بلبن فشربه وسكر ولم يتحرك ثلاثة أيام، فقال:

سقيت عقالا بالعشيّة شربة فمالت بعقل الكاهلي عقالي

قرعتُ بأم الخلِّ جةً قلبه فلم يتعش منها ثلاث ليالٍ

ويقال: الخمر مصباح السرور ولكنها مفتاح الشرور. اللهم تب علينا وعلى العصاة والمنينين برحمتك يا أرحم

الراحمين آمين.

الباب الخامس والسبعون: في المزاح والنهي عنه وما جاء في الترخيص فيه، والبسط والتنعم وفيه فصول

الفصل الأول: في النهي عن المزاح

قال رسول الله ﷺ: «المزاح استدراج من الشيطان واختلاع من الهوى». وعن عليّ: ما مزح أحد إلا مَجَّ^(١) من عقله مجة. وعنه: إياك أن تذكر من الكلام ما يكون مضحكاً، وإن حكيت ذلك عن غيرك. وكتب عمر رضي الله تعالى عنه إلى عماله: امنعوا الناس من المزاح فإن يذهب المروءة ويوغر الصدور. وقال بعض الحكماء: تجنب سوء المزاح، ونكد الهزل، فإنهما بابان إذا فتحا لم يفلقا إلا بعد غم. وقال آخر: لكل شيء بذر، وبذر العداوة المزاح. وعن محمد بن المنكدر قال: قالت لي أمي لا تمازح الصبيان تهن عندهم. وخرج أعرابي بالليل فإذا بجارية جميلة، فراودها، فقالت أما لك زاجر من عقلك إذا لم يكن لك واعظ من دينك؟ فقال والله ما يرانا إلا الكواكب، فقالت له يا هذا وأين مكوكبها، فأخجله كلامها فقال لها: إنما كنت مازحاً، فقالت:

فإِيَّاكَ إِيَّاكَ الْمَزَاحَ فَلِئِنَّهُ يُجْرِي^(٢) عَلَيْكَ الطُّفْلَ وَالرَّجُلَ النَّدْلَا
وَيُذْهِبُ مَاءَ الْوَجْهِ بَعْدَ بَهَائِهِ وَيُورِثُ بَعْدَ الْعِزِّ صَاحِبَهُ ذِلًّا

وقال الأحنف: كثرة الضحك تذهب الهيبة، وكثرة المزاح تذهب المروءة، ومن لزم شيئاً عرف به. ومما روي عن الصحابة رضوان الله عليهم: أنهم كانوا يتحادثون ويتشادون الأشعار، فإذا جاء ذكر الله انقلبت حماليقهم^(٣) كأنهم لم يعرفوا أحداً.

الفصل الثاني: في الترخيص في المزاح والبسط والتنعم

لا بأس بالمزاح ما لم يكن سفهاً والله تعالى وعد في اللطم بالتجاوز والعفو فقال: «الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللطم»^(٤) وقيل أن يحيى بن زكريا لقي عيسى عليهما الصلاة والسلام فقال: ما لي أراك لاهياً كأنك آمن، فقال له عيسى: ما لي أراك عابساً كأنك آيس، فقالا: لا نبرحُ حتى ينزل علينا الوحي. فأوحى الله إليهما أن

(١) مج: اغترف.

(٢) يُجْرِي: يُجْرِيء.

(٣) الحِمَالِقُ: باطن الجفن.

(٤) سورة: الشورى، الآية: ٣٧.

أحبكما إليّ أحسنكما ظناً بي... ويروى أن أحبكما إليّ أطلق البسام. وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لجارية: خلقتني خالق الخير وخلقت خالق الشر فبكت الجارية. فقال عمر: لا بأس عليك فإن الله خالق الخير والشر. قال الشاعر:

إن الصديقَ يريدُ بسطك مازحاً فإذا رأى منك الملالةَ يقصرُ
وترى العدو إذا تيقن أنه يؤذيك بالمزح العنيفِ يكثرُ

وكان رسول الله ﷺ يمزح، ولا يقول إلا حقاً. فمن مزحه ﷺ أنه جاءه رجل فقال يا رسول الله: احملني على جمل، فقال عليه الصلاة والسلام: لا أحملك إلا على ولد الناقة، فقال: يا رسول الله، إنه لا يطيقني، فقال له الناس: ويحك هل الجمل إلا ولد الناقة. وقال رسول الله ﷺ لامرأة من الأنصار: الحقي زوجك ففي عينيه يياض. فسعت إلى زوجها مرعوبة فقال لها: ما دهاك؟ قالت: إن النبي ﷺ قال لي إن في عينيك يياضاً. فقال نعم والله وسواداً. وأتته أيضاً عجوز أنصارية فقالت: يا رسول الله، ادع الله لي أن يدخلني الجنة. فقال لها: يا أم فلان إن الجنة لا يدخلها عجوز. فولت المرأة تبكي، فبسم ﷺ وقال لها: «أما قرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً﴾ فبجملناهن أبكاراً * حرباً أتراباً»^(١). وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: سأبت رسول الله ﷺ فسبقتة فلما كثر لحمي سبقتة فسبقتني فضرب بكفي وقال: هذه بتلك. وعنها أيضاً قالت: كان رسول الله ﷺ يدخل وأنا ألعب مع صويحاتي ولا يعيب عليّ.

وسئل النخعي: هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي. وكان نعيمان الصحابي من أولع الناس بالمزاح والضحك. قيل: إنه يدخل الجنة وهو يضحك. فمن مزحه أنه مر يوماً بمخرمة بن نوفل الزهري وهو ضرير فقال له: قذني حتى أبول فأخذ بيده حتى أتى به إلى المسجد فأجلسه في مؤخره، فصاح به الناس: إنك في المسجد. فقال: من قاذني؟ قالوا: نعيمان. قال لله عليّ نذر أن أضربه بعصاي هذه إن وجدته. فبلغ ذلك نعيمان فجاء إليه وقال له: يا أبا المنور هل لك في نعيمان؟ قال: نعم. قال: ها هو قائم يصلي، وأخذ بيده وجاء به إلى عثمان بن عفان وهو يصلي: وقال هذا نعيمان فعلاه بعصاه فصاح الناس: أمير المؤمنين. فقال: من قاذني؟ قالوا: نعيمان، فقال: والله لا تعرضت له بسوء بعدها.

وقال عطاء بن السائب: كان سعيد بن جبير يقصّ علينا حتى ييكتنا، وربما لم يقم حتى يضحكنا وكان رجل يسمى تاج الوعظ، يعظ الناس، ويقصّ عليهم حتى ييكتهم، ثم لم يقم حتى يضحكهم ويسطّ آمالهم. فمن لطافته أنه حكى يوماً بعد ما فرغ من ميعاده قال: سمعت الناس يتكلمون في التصحيف وكنت لا أعرفه، فوقع في قلبي أن أتعلّمه فدخلت في سوق الكتيبة واشترت كتاباً في التصحيف فأزل ما تصفحته وجدت في سكباغ تصحيفه شك تاج، فرميت الكتاب من يدي، وحلفت أنني لا أشتغل به أبداً فضحك الناس حتى غشي عليهم.

ودخل عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان فوجده يتأوه، فقال: يا أمير المؤمنين لو أدخلت عليك من يؤنسك بأحاديث العرب، ويبسطك استرحت، فقال: لست بصاحب لهو. فقال: ما الذي تشكوه يا أمير المؤمنين؟ قال: حاج بي عرق النسا في ليلتي هذه فبلغ مني ما ترى، فقال: إن بديحا مولاي أرقى الخلق منه، فأمر بإحضاره. فلما مثل بين يديه قال عبد الملك: يا بديح ارق رجلي، فقال: يا مولاي أنا أرقى الناس لها، ثم وضع يده عليها

وجعل يقول ما لا يسمع، فقال عبد الملك: قد وجدت راحة بهذه الرقية أين فلانة اتوني بها نكتبها لئلا يهيج بي الوجد بالليل فقال بديح: الطلاق يلزمه ما أكتبها إلا بتمجيل جازتي، فأمر له بأربعة آلاف درهم، فقال يا أمير المؤمنين: الطلاق يلزمه ما أكتبها حتى تحمل جازتي إلى بيتي قال: رقيت تحمل فحملت. فقال يا أمير المؤمنين: الطلاق يلزمه ما رقيت رجلك إلا مباسطة بقول نصيب حيث قال:

ألا إن ليلي العامرية أصبحت على البعد مني ذنب غير تنقم

فقال: ويلك ما تقول، فقال: الطلاق يلزمه ما رقيتك إلا بها، فقال: اكتمها علي، فقال: كيف وقد سارت بها الركبان إلى أخيك بمصر، فضحك حتى فحص برجليه، وأعجبه هذا البسط.

وروي أن ابن سيرين كان ينشد قول الشاعر:

أنبت أن فتاة كنت أخطبها عرقوبها مثل شهر الصوم في الطول

ثم يضحك حتى يسيل لعابه.

ومما جاء في الشطرنج واللعب به والنهي عنه والترخيص فيه: أما النهي عنه فقد قيل إن علياً كرم الله وجهه مرّ يقوم يلعبون الشطرنج. فقال لهم: ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون. وكان أبو القاسم الكسروي يقول: لا ترى شطرنجياً غنياً إلا بخيلاً، ولا فقيراً إلا طفلياً، ولا تسمع نادرة باردة إلا على الشطرنج. واحتضر شطرنجي فصار يقول شاه مات، شاه مات، مكان الشاهدين حتى مات. وأما الترخيص فيه فقد سئل الشعبي عن اللعب بالشطرنج، فقال لا بأس به إذا لم يكن هناك تقامر وتبادل وقال بعضهم: كنا في السجن مع ابن سيرين فكان يرانا ونحن نلعب بالشطرنج فيقوم فيأتي ويقول أرفع الفرس: أرفع كذا، أفل كذا، ولا يعيب علينا. وعن سعيد بن المسيب قال: كنت ألعب بالشطرنج مع صديقي في بيته حين خفت الحجاج. وما قيل لعلي بن الجهم في الشطرنج، وقيل للمأمون:

أرض مربعة حمراء من آدم	ما بين حرين معروفين بالكرم
تذكر الحرب فاحتالا لها فطنا	من غير أن يأثما فيها بسفك دم
هذا يغير على هذا وذاك على	هذا يغير وعين الحزم لم تتم
فانظر إلى همم جاشت بمعركة	في عكرين بلا طبل ولا علم

قالوا: إن سبب وضع الشطرنج أن ملوك الهند ما كانوا يرون قتال، فإذا تنازع ملكان في كورة أو مملكة تلاعبا بالشطرنج، فيأخذها الغالب من غير قتال، وقيل إنه كان لبعض ملوك الفرس شطرنج من ياقوت أحمر وأصفر، القطعة منه ثلاثة آلاف دينار.

ومما جاء في لعب الغلمان ما حكى أن غلاماً من أهل البحرين خرجوا يلعبون بالصوالجة وأسقف البحرين قاعد فوقعت الكرة على صدره فأخذها فجعلوا يطلبونها منه فأبى. فقال غلام منهم سألتك بحق محمد ﷺ إلا رددتها علينا فأبى لعنه الله وسب رسول الله ﷺ، فأقبلوا عليه بصوالجهم فما زالوا يخطونه حتى مات لعنة الله عليه، فرفع ذلك إلى عمر رضي الله تعالى عنه. فوالله ما فرح بفتح ولا غنمة كفرحته بقتل الغلمان لذلك الأسقف وقال: الآن عز الإسلام، إن أطفالاً صغاراً شتم نبيهم، فغضبوا له وانتصروا، وأهدر دم الأسقف.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السادس والسبعون: في النوادر وفيه فصول

الفصل الأول: في نوادر العرب

خرج المهدي يتصيد فغار به فرسه حتى وقع في خباء أعرابي، فقال: يا أعرابي هل من قرى؟ فأخرج له قرص شعير فأكله، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه، ثم أناه بنيل في ركوة فسقاه، فلما شرب قال: أتدري من أنا؟ قال: لا! قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة. قال: بارك الله في موضعك، ثم سقاه مرة أخرى فشرب فقال: يا أعرابي أتدري من أنا؟ فقال: زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة. قال: لا أنا من قواد أمير المؤمنين. قال: رحبت بلاك وطال مرادك، ثم سقاه الثالثة فلما فرغ قال: يا أعرابي أتدري من أنا؟ قال: زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين. قال: لا ولكنني أمير المؤمنين قال: فأخذ الأعرابي الركوة فوكأها^(١) وقال: إليك عني فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله. فضحك المهدي حتى غشي عليه. ثم أحاطت به الخيل ونزلت إليه الملوك والأشراف. فطار قلب الأعرابي فقال له: لا بأس عليك ولا خوف، ثم أمر له بكسوة ومال جزيل.

ووجد أعرابي يأكل ويتفوط ويغلي ثوبه، فقيل له في ذلك فقال: أخرج عتيقاً وأدخل جديداً وأقتل عدواً. وقيل لبعض الأعراب إن شهر رمضان قدم فقال: والله لأبدن شمله بالأسفار. وسمع أعرابي قارئاً يقرأ القرآن حتى أتى على قوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾^(٢) فقال: لقد هجانا، ثم بعد ذلك سمعه يقرأ: ﴿ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر﴾^(٣). فقال: لا بأس هجا ومدح هذا كما قال شاعرنا:

هجوت زهيراً ثم إنني ملحت وما زالت الأشراف تهجي وتُمدح

وحضر أعرابي على مائدة يزيد بن مزيد فقال لأصحابه: أفرجوا لأخيكم. فقال الأعرابي: لا حاجة لي بأفراجكم إن أطنابي طوال - يعني سواعده - فلما مد يده ضرط، فضحك يزيد فقال: يا أبا العرب أظن أن طنبا من أطنابك قد انقطع.

ورؤي أعرابي يغطس في البحر ومعه خيط، وكلما غطس غططة عقد عقدة، فقيل له ما هذا؟ قال: جنابات الشتاء أقضيها في الصيف.

(١) فوكأها: أغلقها.

(٢) سورة: التوبة، الآية: ٧٧.

(٣) سورة: التوبة، الآية: ٩٩.

وسرق أعرابي غاشية^(١) من على سرج ثم دخل المسجد يصلي، فقرأ الإمام: ﴿هل أتاك حديث الغاشية﴾^(٢) فقال: يا فقيه لا تدخل في الفضول. فلما قرأ ﴿وجوه يومئذ خاشعة﴾^(٣) قال: خذوا غاشيتكم ولا يخشع وجهي لا بارك الله لكم فيها، ثم رماها من يده وخرج.

وحضر أعرابي مجلس قوم فتذكروا قيام الليل فقل له: يا أبا أمانة أقوم الليل؟ فقال: نعم. قالوا: ما تصنع؟ قال: أبول وأرجع أنا.

وسرق أعرابي صرة فيها دراهم ثم دخل المسجد يصلي وكان اسمه موسى فقرأ الإمام: ﴿وما تلك بيمينك يا موسى﴾^(٤) فقال الأعرابي: والله إنك لساحر، ثم رمى الصرة وخرج.

وحكى الأصمعي قال: ضلت لي إبل فخرجت في طلبها وكان البرد شديداً، فالتجأت إلى حي من أحياء العرب وإذا بجماعة يصلون ويقربهم شيخ ملتف بكساء وهو يرتعد من البرد ويشد:

أيا ربَّ إنَّ البردَ أصبحَ كالحمأً وأنت بحالي يا إلهي أعلمُ
فإن كنتَ يوماً في جهنم مدخلي ففي مثل هذا اليوم طابَتْ جهنمُ

قال الأصمعي: فتعجبت من فصاحته وقلت له: يا شيخ ما تستحي. تقطع الصلاة وأنت شيخ كبير فأشد يقول:

أبطلع ربي أن أصلي عارياً ويكسو غيري كسوة البرد والحر
فوالله لا صليت ما عشت عارياً عشاء ولا وقت المغيب ولا الوتر
ولا الصبح إلا يومَ شمسٍ دفينٍ وإن غيمت فالويل للظهر والمصر
وإن يكسني ربي قميصاً وجبةً أصلي له مهما أعيشت من العمر

قال: فأعجبني شعره وفصاحته فترعت قميصاً وجبةً كانا عليّ ودفعتهما إليه وقلت له: البهما وقم فصل. فاستقبل القبله وصلى جالساً وجعل يقول:

إليك اعتذارِي من صلاتي جالاً على غير طهرٍ موباً نحر قبلي
فما لي يبرد الماء يا ربَّ طاقة ورجلاي لا تقوى على ثني ركبتي
ولكنني أستغفرُ الله شاتياً وأفضيكنها يا ربَّ فني وَجْهٍ صيفي
وإن أنا لم أفعلْ فأنتَ محكم بما شئت من صفعي ومن تفتٍ لجنتي

قال: فعجبت من فصاحته وضحكت عليه وانصرفت.

وصلى أعرابي مع قوم فقرأ الإمام: ﴿قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمتنا﴾^(٥) فقال الأعرابي: أهلكك الله وحلك إيش كان ذنب الدين معك، قطع القوم الصلاة من شدة الضحك.

(١) غاشية: غطاء السرج.

(٢) سورة: الغاشية، الآية: ١.

(٣) سورة: الغاشية، الآية: ٢.

(٤) سورة: طه، الآية: ١٧.

(٥) سورة: الملك، الآية: ٢٨.

وقيل: دخلت أعرابية على قوم يصلون فقرأ الإمام: ﴿فَانكحُوا ما طاب لكم من النساء﴾^(١) وجعل يرددها، فجعلت الأعرابية تعدو وهي هاربة حتى جاءت لأختها فقالت: يا أختاه ما زال الإمام يأمرهم أن ينكحونا حتى خشيت أن يقعوا عليّ.

وصلى أعرابي خلف إمام فقرأ الإمام: ﴿ألم نهلك الأولين﴾ وكان في الصف الأول فتأخر إلى الصف الآخر، فقرأ: ﴿ثم تنبهم الآخرين﴾ فتأخر. فقرأ ﴿كذلك تفعل بالمجرمين﴾^(٢) وكان اسم البدوي مجرماً، فترك الصلاة وخرج هارباً وهو يقول: والله ما المطلوب غيري، فوجده بعض الأعراب، فقال له: ما لك يا مجرم؟ فقال: إن الإمام أهلك الأولين، والآخرين، وأراد أن يهلكني في الجملة والله لا رأيته بعد اليوم.

وجلس بعض الأعراب يشرب مع ندمائه فاحتاج إلى بيت الخلاء فدلوه عليه، فلما دخل جعل يضرب ضراطاً شنيعاً فضحوا عليه فأنشد يقول:

إذا ما خلا الإنسان في بيت غائب
فمن كان ذا عقل فيعذر ضارطاً
تراخت بلا شك مصارع فقحته^(٣)
ومن كان ذا جهل قبي وسط لحيته

وكان لسابور ملك فارس نديم مضحك يسمى مرزوان، فظهر له من الملك جفوة، فلما زاد ذلك عليه تعلم نبيح الكلاب، وعوي الذئب، ونهيق الحمير، وصهيل الخيل، وصوت البغال. ثم احتال حتى دخل موضعاً بقرب خلوة الملك وأخفى أمره، فلما خلا الملك بنفسه نبح نبيح الكلاب، فلم يشك الملك في أنه كلب، فقال: انظروا ما هذا؟ فعوى عواء الذئب، فتزل الملك عن سريره، فنهق نهيق الحمير، فمضى الملك هارباً ومضت الغلمان يتبعون الصوت، فلما دنوا منه صهل صهيل الخيل فاقتحموا عليه وأخرجوه عرياناً. فما وصلوا به إلى الملك ورآه مرزبان ضحك الملك ضحكاً شديداً وقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إن الله عز وجل مسخني كلباً، وذئباً، وحماراً وفرساً، لما غضب عليّ الملك: قال: فأمر الملك أن يخلع عليه، وأن يرد إلى مرتبته الأولى. ومن الملح قول بعض الشعراء:

أيا من فاق حسناً واعتدالاً
وولج في عطية البابا
أما في مالٍ ردفك من زكاؤ
فتدخل فيه لي هذا النصابا

وحكى الأصمعي أن عجوزاً من الأعراب جلست في طريق مكة إلى فتيان يشربون نبيذاً فسقوها قلدحاً فطابت نفسها فتبسمت فسقوها قلدحاً آخر، فاحمر وجهها وضحكت، فسقوها ثالثاً فقالت: خبروني عن نساكنكم بالعراق أيشربون النبيذ؟ قالوا: نعم. قالت: زين ورب الكعبة، والله إن صدقتم ما فيكم من يعرف أباه.

وصلى أعرابي خلف إمام فقرأ: ﴿إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾^(٤) ثم وقف وجعل يرددها فقال الأعرابي: أرسل

- (١) سورة: النساء، الآية: ٣.
- (٢) سورة: المرسلات، الآيات: ١٦ - ١٧.
- (٣) فقحته: دبره.
- (٤) سورة: نوح، الآية: ١.

غيره يرحمك الله وأرحنا وأرح نفسك. وصلى آخر خلف إمام فقراً: «فَلَنْ أَتَبَرَّحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي»^(١) ووقف وجعل يردد ما فقال الأعرابي: يا فقيه إذا لم يأذن لك أبوك في هذا الليل نظل وقوفاً إلى الصباح ثم تركه وانصرف.

ولزم أعرابي سفيان بن عيينة مدة يسمع منه الحديث فلما أن جاء ليسافر قال له سفيان: يا أعرابي ما أعجبك من حديثنا؟ قال: ثلاثة أحاديث حديث عائشة رضي الله تعالى عنها عن النبي ﷺ أنه كان يحب الحلوى والعسل، وحديثه عليه الصلاة والسلام إذا وضع العشاء وحضرت الصلاة فابدأوا بالعشاء. وحديث عائشة أيضاً ليس من البر الصوم في السفر.

وقيل لأعرابية ما صفة الأيد عندكم، قالت: عصبه ينغخ فيها الشيطان فلا يردُّ أمرها. وانفرد الرشيد وعيسى بن جعفر ومعه الفضل بن يحيى فإذا هو بشيخ الأعراب على حمار، وهو رطب العينين فقال له الفضل: هل أدلك على دواء لعينيك؟ قال: ما أحوجني إلى ذلك. قال: خذ عيدان الهواء وغبار الماء فصيره في قشر بيض اللز واكلحل به ينفعك فانحنى الشيخ وضرب ضرباً قوياً، وقال: خذ هذه في لحيتك أجرة وصفتك، وإن زدت زدناك، فضحك الرشيد حتى استلقى على ظهر دابته.

وخرج معن بن زائدة في جماعة من خواصه للصيد فاعترضهم قطع طباء ففرقوا في طلبه وانفرد معن خلف ظمي حتى انقطع عن أصحابه. فلما ظفر به نزل فلبحه فرأى شيخاً مقبلاً من البرية على حمار فركب فرسه واستقبله فسلم عليه فقال: من أين وإلى أين؟ قال: أتيت من أرض لها عشرون سنة مجنبة، وقد أخصبت في هذه السنة فزرعتها مقشاة^(٢) فطرح في غير وقتها فجمعت منها ما استحسنت وقصدت به معن بن زائدة لكرمه المشكور وفضله المشهور ومعروفه المأثور وإحسانه الموفور. قال: وكم أملت منه؟ قال: ألف دينار. قال: فإن قال لك كثير؟ قال: خمسمائة. قال: فإن قال لك كثير؟ قال: ثلثمائة. قال: فإن قال لك كثير؟ قال: مائة. قال: فإن قال لك كثير؟ قال: خمسين. قال: فإن قال لك كثير. قال: فلا أقل من الثلاثين. قال: فإن قال لك كثير؟ قال أدخل قوائم حماري في حر أمه وأرجع إلى أهلي خائباً، فضحك معن منه وشاق جواده حتى لحق بأصحابه ونزل في منزله وقال لحاجبه إذا أتاك شيخ على حمار بقتاء فادخل به علي. فأتى بعد ساعة فلما دخل عليه لم يعرفه لهيته، وجلالته وكثرة حشمة وخدمه، وهو متصدر في دسمة والخدم والحفلة قيام عن يمينه وشماله وبين يديه، فلما سلم عليه قال: ما الذي أتى بك يا أبا العرب؟ قال: أملت الأمير وأتيته بقتاء في غير أوان فقال: كم أملت فينا؟ قال: ألف دينار. قال: كثير فقال: والله لقد كان ذلك الرجل مিশوماً علي، قال: خمسمائة دينار. قال: كثير. فما زال إلى أن قال: خمسين ديناراً. فقال له: كثير. فقال: لا أقل من الثلاثين. فضحك معن فعلم الأعرابي أنه صاحبه فقال: يا سيدي إن لم تجب إلى الثلاثين فالحمار مربوط بالباب، وها معن جالس. فضحك معن حتى استلقى على فراشه ثم دعا بوكيله فقال: أعطه ألف دينار، وخمسمائة دينار، وثلثمائة دينار، ومائة دينار، وخمسين ديناراً، وثلثين ديناراً، ودع الحمار مكانه فسلم الأعرابي المال وانصرف.

(١) سورة: يوسف، الآية: ٨٠.

(٢) مقشاة: أي قُتاه الحمار (قُتِه).

الفصل الثاني: في نوادر القراء والفقهاء

عن محمد بن عبد الله قال: كنا في دهليز عثمان بن شيبة فخرج إلينا فقال: ن والقلم في أي سورة؟ ومر بعضهم بقارئ يقرأ: ألم غلبت الترك في أدنى الأرض، فقال له: الروم، فقال له كلهم أعداؤنا قاتلهم الله. وكان جماعة يجلسون إلى أبي العبيدات وفيهم رجل لا يتكلم فقبل له يوماً: كيف علمك بكتاب الله قال: أنا عالم به فقبل له هذه الآية في أي سورة الحمد لله لا شريك له فقال له: في سورة الحمد فضحكوا عليه. وجاء رجل إلى فقيه فقال: أفطرت يوماً في رمضان فقال: اقض يوماً مكانه، قال: قضيت. وأتيت أهلي وقد عملوا مأمونية فسبقتني يدي إليها فأكلت منها. فقال: اقض يوماً آخر مكانه. قال: قضيت. وأتيت أهلي وقد عملوا هريسة فسبقتني يدي إليها. فقال: أرى أن تصوم إلا ويدك مغلولة إلى عنقك. وجاء رجل إلى بعض الفقهاء فقال له: أنا أعبد الله على مذهب ابن حنبل، واني توضأت وصليت فيبينما أنا في الصلاة إذا أحسست بببل في سراويلي يتلذق فشممته فإذا رائحته خبيثة قال الفقيه: عافاك الله: خريت باجماع المذاهب. وجاء رجل إلى فقيه قال: أنا رجل أفسو في ثيابي حتى تفوح روائحي فهل يجوز أن أصلي في ثيابي؟ قال: نعم، لكن لا كثر الله في المسلمين مثلك. ووقع بين الأعمش وبين امرأته وحشة فسأل بعض أصحابه من الفقهاء أن يرضيها ويصلح بينهما فدخل إليها وقال: إن أبا محمد شيخ كبير فلا يزهلك في عمش عينيه، وقدة ساقيه، وضعف ركبتيه، وتنن إبطيه، ويخر فيه، وجمود كفيه. فقال له الأعمش: قم فبحك الله فقد أريتها من عيوي ما لم تكن تعرفه. وسكن بعض الفقهاء في بيت سقفه يقرقع في كل وقت فجاءه صاحب البيت يطلب الأجرة فقال له: أصلح السقف فإنه يقرقع. قال: لا تخف فإنه يسبح الله تعالى. قال: أخشى أن تتركه رقة فيسجد.

الفصل الثالث: في نوادر القضاة

كان لبعض القضاة بغلة فقرأ يوماً في المصحف «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها»^(١) فقال لغلامه أطلق البغلة ورزقها على الله فصارت البغلة تدور الأسواق والأزقة وتأكُل من قشور الباذنجان، وقشور الرمان، وقشور البطيخ، وقمامات الطريق فماتت. فأمر الغلام باحضار المشاعلية ليحملوها لظاهر المدينة فأحضرهم فطلبوا من القاضي عشرة دراهم أجرة حملها، وقالوا: ليس لنا شيء نرتزق منه إلا من مثل هذا وسيدنا رجل غني وله أشياء كثيرة العدالة والتزويج والعقود والوراقة والسجن والإطلاق وحاكمية الحكم وأجرة اليمين والتدريس والأوقاف. فقال لهم القاضي: ألمثلي يقال هذا؟ وأنتم لكم اثنا عشر باباً من أبواب المنافع: منها الوسخ، والزفر، والهلع والولع، وبيت النبذة، وشركة النفوس، وجباية الأسواق، وحرق النار، وسلب الشطار، ولكم الصياح وثمان الإصلاح وما تروّحوا من هذه البغلة بلا شيء، جلدها للذباغين، وذنبها للغرابلية، ومعرفتها للشعار وتطبيقها للبطار. قال: فتقدم أحدهم إليه وقال: بحق مَنْ تاب عليك ورد عاقبتك إلى خير وأراحك من هذا المعاش تصدق علينا بشيء ولا تدعنا نروح بلاش. تفسير هذه الألفاظ، الزفر النساء والزنايات، والوسخ المراحض، والهلع جباية الأسواق. والولع القمار، وبيت النبذة محل المزرة، وشركة النفوس كل من حمل ميتاً، ولحقوه قبل أن يخرج من باب البلد كانوا شركاءه، وسلب الشطار كل من شتقوه لهم سلبه.

وولّي يحيى بن أكثم قاضياً على أهل جبلة فبلغه أن الرشيد انحدر إلى البصرة فقال لأهل جبلة إذا اجتاز الرشيد فاذكروني عنده بخير فوعده بذلك فلما جاء الرشيد تقاعدوا^(١) عنه فسرّح القاضي لحيته، وكبر عمته وخرج فرأى الرشيد في الحراقة ومعه أبو يوسف القاضي فقال: يا أمير المؤمنين نَعَمْ القاضي قاضي جبلة عدل فينا وفعل كذا وكذا وجعل يثني على نفسه. فلما رآه أبو يوسف عرفه فضحك فقال له الرشيد: ممّ تضحك؟ فقال: يا أمير المؤمنين المثني على القاضي هو القاضي. فضحك الرشيد حتى فحص برجله الأرض ثم أمر بعزله فعزل. وأحضر رجل ولده إلى القاضي فقال: يا مولانا إن ولدي هذا يشرب الخمر ولا يصلي. فأنكر ولده ذلك فقال أبوه: يا سيدي أفتكون صلاة بغير قراءة، فقال الولد: إني أقرأ القرآن. فقال له القاضي: اقرأ حتى أسمع فقال:

علق القلب الربابا بعد ما شابت وشابا
إن دين الله حق لا أرى فيه ارتبابا

فقال أبوه: إنه لم يتعلم هذا إلا البارحة، سرق مصحف الجيران وحفظ هذا منه. فقال القاضي: وأنا الآخر أحفظ آية منها وهي:

فأرحمني مضمي كيبا قد رأى الهجر عذابا

ثم قال القاضي: قاتلك الله يعلم أحدكم القرآن ولا يعمل به.

وتقدم اثنان إلى أبي صمصامة القاضي فادعى أحدهما على الآخر طنبوراً، فأنكر فقال للمدعي: ألك بيّنة؟ فقال: لي شاهدان فأحضر رجلين شهدا له. فقال المدعي عليه: سلهما يا سيدي عن صناعتهما. فأخبر أحدهما أنه نباذ، وقال الآخر إنه قوّاد. فالتفت القاضي إلى المدعى عليه وقال: أتريد على طنبور أعدل من هذين إدفع إليه طنبوره.

وتحاكم الرشيد وزيدة إلى أبي يوسف القاضي في الفالودج واللوزينج أيهما أطيب، فقال أبو يوسف: أنا لا أحكم على غائب، فأمر الرشيد باحضارهما وقدما بين يدي أبي يوسف فجعل يأكل من هذا مرة ومن هذا مرة حتى نصف الجامين، ثم قال: يا أمير المؤمنين ما رأيت أعدل منهما كلما أردت أن أحكم لأحدهما أتى الآخر بحجته.

وأتى بعض المجان لبعض القضاة فقال: يا سيدي، إن أمراتي قحباناً، فقال له القاضي: طلقناها. فقال عشقانا فقال: قودناها. وادعى رجل عند قاض على امرأة حسناء بدّين فجعل القاضي يعيل إليها بالحكم فقال الرجل: أصلح الله القاضي، حجتي أوضح من هذا النهار. فقال له القاضي: اسكت يا عدو الله فإن الشمس أوضح من النهار قم لا حق لك عليها. فقالت المرأة: جزاك الله عن ضعفي خيراً فقد قويته. فقال الرجل: لا جزاك الله عن قوتي خيراً فقد أوهيتها.

ورفعت امرأة زوجها إلى القاضي تبغي الفرقة، وزعمت أنه يبول في الفراش كل ليلة فقال الرجل للقاضي: يا سيدي لا تعجل عليّ حتى أقص عليك قصتي إني أرى في منامي كأنني في جزيرة في البحر، وفيها قصر عال، وفوق القصر قبة عالية، وفوق القبة جمل، وأنا على ظهر الجمل، وأن الجمل يطأطأ برأسه ليشرب من البحر، فإذا رأيت

ذلك بلى من شدة الخوف. فلما سمع القاضي ذلك بال في فراشه وثيابه وقال: يا هذه أنا قد أخذني البول من هول حديثه فكيف بمن يرى الأمر عياناً؟

وحكي أن تاجراً عبر إلى حمص فسمع مؤذناً يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن أهل حمص يشهدون أن محمداً رسول الله فقال: والله لأمضين إلى الإمام وأسأله. فجاء إليه فراه قد أقام الصلاة وهو يصلي على رجل، ورجله الأخرى ملوثة بالعدرة فمضى إلى المحتسب ليخبره بهذا الخبر فسأل عنه فقيل إنه في الجامع الفلاني يبيع الخمرة فمضى إليه فوجده جالساً وفي حجره مصحف وبين يديه باطية مملوءة خمراً وهو يحلف للناس بحق المصحف إن الخمر صرف ليس فيها ماء وقد ازدحمت الناس عليه وهو يبيع فقال: والله لأمضين إلى القاضي وأخبره فجاء إلى القاضي فدفع الباب فانفتح فوجد القاضي نائماً على بطنه وعلى ظهره غلام يفعل فيه الفاحشة فقال التاجر: قلب الله حمص. فقال القاضي: لم تقول هذا؟ فأخبره بجميع ما رأى فقال: يا جاهل أما المؤذن فإن مؤذناً مرض فاستأجرنا يهودياً صيتاً يؤذن مكانه فهو يقول ما سمعت، وأما الإمام فإنهم لما أقاموا الصلاة خرج مسرعاً فتلوث رجله بالعدرة، وضاق الوقت فأخرجها من الصلاة واعتمد على رجله الأخرى ولما فرغ غسلها، وأما المحتسب فإن ذلك الجامع ليس له وقف إلا كرم، وعنه ما يؤكل فهو يعصره خمراً ويبيعه ويصرف ثمنه في مصالح الجامع، وأما الغلام الذي رأيته فإن أباه مات وخلف ماله كثيراً وهو تحت الحجر وقد كبر وجاءه جماعة شهدوا عندي أنه بلغ فأنا أمتحنه. فخرج التاجر من البلد وحلف أنه لا يعود إليها أبداً.

الفصل الرابع: في نوادر النحاة

وقف نحوي على يباع يبيع أرزا بمسل، ويقلا بخل، فقال بكم الأرز بالأسل. والأخلل وبالأقبل؟ فقال: بالأصنع في الأروس والأضرط في الأذن. ووقع نحوي في كنيف فجاء كناس ليخرجه فصاح به الكناس ليعلم أهو حي أم لا، فقال له النحوي: أطلب لي حبلاً دقيقاً، وشدني شداً وثيقاً، واجذبني جذباً رقيقاً. فقال له الكناس: امرأتي طالق إن أخرجتك منه ثم تركه وانصرف.

وكان لبعضهم ولد نحوي يتعمر في كلامه فاعتل أبوه علة شديدة أشرف منها على الموت فاجتمع عليه أولاده وقالوا له: ندعو لك فلاناً أخانا؟ قال: لا، إن جاءني قتلني. فقالوا: نحن نوصيه أن لا يتكلم. فدعوه فلما دخل عليه قال له: يا أبت قل لا إله إلا الله تدخل الجنة وتفوز من النار، يا أبت والله ما أشغلني عنك إلا فلان فإنه دعاني بالأمس فأهرس، وأعلمس، واستبذج، وسكيج وطهيج وأفرج، ودجج، وأبصل، وأمضر ولوزج، وافلوزج، فصاح أبوه: غمضوني فقد سبق ابن الزانية ملك الموت إلى قبض روحي.

وجاء نحوي يعود مريضاً فطرق بابه فخرج إليه ولده، فقال: كيف وجدت أباك؟ قال: يا عم ورمت رجله. قال: لا تلحن، قل رجلاه ثم ماذا؟ قال: ثم وصل السورم إلى ركبته. قال: لا تلحن قل إلى ركبته، ثم ماذا؟ قال: مات وأدخله الله في بظر عيالك وعيال سيويه ونقطويه وجحشويه. وعاد بعضهم نحويّاً فقال: ما الذي تشكوه قال: حمى جاسية، نارها حامية منها الأعضاء واهية، والعظام بالية. فقال له: لا شفاك الله بعافية يا ليتها كانت القاضية.

الفصل الخامس: في نواذر المعلمين

قال الجاحظ مرتت بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة، وعصا قصيرة، وصولجان، وكرة، وطبل، وبوق، فقلت: ما هذه؟ فقال: عندي صغار أرباش فأقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصفر لي بضربة فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخر، فأضربه بالعصا الطويلة، فيفر من يدي فأضع الكرة في الصولجان وأضربه فأشجه فتقوم إلي الصغار كلهم بالألواح فاجعل الطبل في عتقي، والبوق في فمي، وأضرب الطبل وأنفخ في البوق، فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إلي ويخلصوني منهم.

وحكى الجاحظ أيضاً قال: مرتت على خربة فإذا بها معلم وهو ينيح نبيح الكلاب. فوقفت أنظر إليه وإذا بصبي قد خرج من دار قبض عليه المعلم وجعل يلطمه ويسبه. فقلت: عرفتني خيره. فقالت: هذا صبي لقيم يكره التعليم ويهرب ويدخل الدار ولا يخرج، وله كلب يلعب به، فإذا سمع صوتي ظن أنه صوت الكلب فيخرج فأمسكه.

وجاءت امرأة إلى المعلم بولدها تشكوه. فقال له: إما أن تنتهي وإلا فعلت بأمك. فقالت: يا معلم هذا صبي ما ينفع فيه الكلام فافعل ما شئت لعله ينظر بعيني ويتوب. فقام وفعل بها أمام ولدها.

وقال الجاحظ رأيت معلماً في الكتاب وحده فسألته فقال: الصغار داخل الدرب يتصارعون. فقلت: أحب أن أراهم. فقال: ما أشير عليك بذلك. فقلت: لا بد. قال: فإذا جئت إلى رأس الدرب اكشف رأسك لتلا يعتقدوك المعلم فيصفعونك حتى تغمى.

وقال بعضهم: رأيت معلماً وقد جاء صغيران يتماسكان فقال أحدهما: هذا عضّ أذني. فقال الآخر: لا والله يا سيدنا هو الذي عضّ أذن نفسه. فقال المعلم: يا ابن الزانية هو كان جمل بعض أذن نفسه.

وقال بعضهم: رأيت معلماً وهو يصلي العصر فلما ركع أدخل رأسه بين رجليه ونظر إلى الصغار وهم يلعبون وقال: يا ابن البقال قد رأيت الذي عملت، وسوف أكافئك إذا فرغت من الصلاة.

حكى عن الجاحظ أنه قال: ألفت كتاباً في نواذر المعلمين وما هم عليه من التغفل ثم رجعت عن ذلك، وعزمت على تقطيع ذلك الكتاب. فدخلت يوماً مدينة فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة فسلمت عليه فرد عليّ أحسن ردّ، ورحب بي فجلست عنده، وباحته في القرآن فإذا هو ماهر فيه، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المتقول وأشعار العرب فإذا هو كامل الآداب. فقلت هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب. قال: فكنت أختلف إليه وأزوره. فجئت يوماً لزيارته فإذا بالكتاب مغلق ولم أجده. فسألت عنه فقيل مات له ميت فحزن عليه وجلس في بيته للعزاء. فذهبت إلى بيته وطرقت الباب فخرجت إليّ جارية. وقالت: ما تريد؟ قلت: سيدك. فدخلت وخرجت وقالت: باسم الله. فدخلت إليه وإذا به جالس قلت: عظم الله أجرك لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة كل نفس ذائقة الموت فعليك بالصبر. ثم قلت له: هذا الذي توفي ولدك؟ قال: لا، قلت: فوالدك؟ قال: لا، قلت: فأخوك؟ قال: لا، قلت: فزوجتك؟ قال: لا، فقلت: وما هو منك؟ قال: حبيتي. فقلت في نفسي: هذه أول المناحس. فقلت: سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها. فقال: أنظرن أني رأيتهما؟ قالت: وهذه منحة ثانية، ثم قلت: وكيف عشقت

من لم تر؟ فقال: اعلم أنني كنت جالساً في هذا المكان وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلاً عليه برد وهو يقول: (١)

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردّي عليّ فؤادي أينما كانا
لا تأخذين فؤادي تلعين به فكيف يلعب بالإنسان إنسانا

فقلت في نفسي لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت، وأغلقت المكتب، وجلست في الدار. فقلت: يا هذا إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين، وكنت حين صاحبك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمي على إيقائه وأول ما أبداً بك إن شاء الله تعالى.

الفصل السادس: في نوادر المتنبئين

ادعى رجل النبوة في أيام الرشيد فلما مثل بين يديه قال له: ما الذي يقال عنك؟ قال: إني نبي كريم. قال: فأني شيء يدل على صدق دعواك؟ قال: سل عما شئت. قال: أريد أن تجعل هذه الممالك المرد القيام الساعة يلحى، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وقال: كيف يحل أن أجعل هؤلاء المرد يلحى، وأغير هذه الصورة الحسنة؟ وإنما أجعل أصحاب هذه اللحية مرداً في لحظة واحدة. فضحك منه الرشيد وعفا عنه وأمر له بصلة.

وتنبأ إنسان فطالبوه بحضرة المأمون بمعجزة. فقال: أطرح لكم حصاة في الماء فتذوب قالوا: رضينا. فأخرج حصاة معه وطرحها في الماء فذابت. فقالوا: هذه حيلة ولكن نعطيك حصاة من عندنا ودعها تذوب. فقال: لستم أجبل من فرعون، ولا أنا أعظم حكمة من موسى، ولم يقل فرعون لموسى لم أرض بما تفعله بعصاك حتى أعطيك عصا من عندي تجعلها ثعباناً فضحك المأمون وأجازه.

وتنبأ رجل في أيام المعتصم فلما حضر بين يديه قال: أنت نبي؟ قال: نعم. قال: وإلى من بعثت؟ قال إليك. قال: أشهد أنك لسفيه أحمق. قال: إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم، فضحك المعتصم وأمر له بشيء.

وتنبأ رجل في أيام المأمون وادعى أنه إبراهيم الخليل. فقال له المأمون: إن إبراهيم كانت له معجزات وإبراهيم. قال: وما براهيمه؟ قال: أضرمت له نار وألقي فيها فصارت برداً وسلاماً، ونحن نوقد لك ناراً ونطرحك فيها فإن كانت عليك كما كانت عليه آمناً بك. قال: أريد واحدة أخف من هذه قال: فبراهيم موسى. قال: وما براهيمه؟ قال: ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى، وضرب بها البحر فانفلق وأدخل يده في جيبه فأخرجها بيضاء. قال: وهذه عليّ أصعب من الأولى. قال: فبراهيم عيسى: قال: وما هي؟ قال إحياء الموتى. قال مكانك قد وصلت. أنا أضرب رقبة القاضي يحيى بن أكرم وأحييه لكم الساعة. فقال يحيى: أنا أول من آمن بك وصنق.

وتنبأ آخر في زمن المأمون، فقال المأمون: أريد منك بطيخاً في هذه الساعة، قال: أمهلني ثلاثة أيام، قال: ما أريده إلا الساعة، قال: ما أنصفتني يا أمير المؤمنين، إذا كان الله تعالى الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ما يخرجني إلا في ثلاثة أشهر، فما تصبر أنت علي ثلاثة أيام فضحك منه ووصله.

وتنبأ آخر في زمن المأمون فلما مثل بين يديه قال له: من أنت؟ قال أنا أحمد النبي، قال: لقد ادعيت زوراً. فلما رأى الأعوان قد أحاطت به، وهو ذاهب معهم، قال: يا أمير المؤمنين أنا أحمد النبي فهل تلمه أنت؟ فضحك المأمون منه وخلقى سبيله.

وتنبأ آخر في زمن المتوكل فلما حضر بين يديه قال له: أنت نبي؟ قال: نعم. قال: فيما الدليل على صحة نبوتك؟ قال: القرآن العزيز يشهد بنبوتي في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^(١) وأنا أسمي نصر الله. قال: فما معجزتك؟ قال: اتوني بامرأة عاقر أنكحها تحمل بولد يتكلم في الساعة ويؤمن بي. فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى: أعطه زوجتك حتى تبصر كرامته. فقال الوزير: أما أنا فأشهد أنه نبي الله وإنما يعطي زوجته من لا يؤمن به فضحك المتوكل وأطلقه.

وادعى رجل النبوة في زمن خالد بن عبد الله القسري وعارض القرآن فأتى به إلى خالد، فقال له: ما تقول؟ قال: عارضت القرآن. قال: بماذا؟ قال: قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ الآية، وقلت: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْجَاهِرَ، فصل لربك وجاهر، ولا تطع كل ساحر. فأمر به خالد فضرب عنقه وصلب. فتمر به خلف بن خليفة الشاعر فضرب بيده على الخشبة وقال: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْعُودَ، فصل لربك من قومود، وأنا ضامن لك أن لا تعود.

وأتى المأمون برجل ادعى النبوة فقال له: ألك علامة؟ قال: علامتي إني أعلم ما في نفسك. قال: وما في نفسي. قال: في نفسك أنني كاذب. قال: صدقت. ثم أمر به إلى السجن. فأقام فيه أياماً ثم أخرجه، فقال له: أوحى إليك بشيء؟ قال: لا، قال: ولم؟ قال: لأن الملائكة لا تدخل الجبوس. فضحك منه وخلقى سبيله.

وأتى بامرأة تنبأت في أيام المتوكل فقال لها: أنت نبيه. قالت: نعم. قال: أتؤمنين بمحمد؟ قالت: نعم. قال: فإنه ﷺ قال لا نبي بعدي. قالت: فهل قال لا نبيه بعدي؟ فضحك المتوكل وأطلقها.

وتنبأ رجل يسمى نوحاً وكان له صديق نهاء فلم يقبل، فأمر السلطان بقتله، فصلب، فمر به صديقه فقال له: يا نوح ما حصلت من السفينة إلا على الصاري^(٢).

الفصل السابع: في نواذر السؤال

وقف أعرابي بباب يسأل فقال له صغير: من بيب الدار بورك فيك؟ فقال: قبح الله هذا الفم لقد تعلمت الشر صغيراً. ووقف سائل على باب فقال: يا أصحاب المنزل. فبادر صاحب الدار قبل أن يتم كلامه وقال: فتح الله عليك، فقال السائل: يا قرنان كنت تصبر لعلي جئت أعودك إلى وليمة.

(١) سورة: النصر، الآية: ١.

(٢) الصاري: عمود السفينة.

وقال أبو عثمان الجاحظ: وقف سائل بقوم فقال: إني جائع. فقالوا له: كذبت. فقال: جربوني برطلين من الخبز ورطلين من اللحم.

ووقف سائل على باب فقالوا: يفتح الله لك. فقال: كسرة، فقالوا: ما نقدر عليها، قال: فقليل من بر، أو فول، أو شعير. قالوا: لا نقدر عليه. قال: فقطعة دهن، أو قليل زيت، أو لبن، قالوا: لا نجده، قال: فشرية ماء. قالوا: وليس عندنا ماء. قال: فما جلوسكم ههنا، قوموا فاسألوا فأنتم أحق مني بالسؤال.

الفصل الثامن: في نواذر المؤذنين

قبل لمؤذن: ما نسمع أذانك فلو رفعت صوتك. فقال: أني أسمع صوتي من مسيرة ميل. وقال بعضهم: رأيت مؤذناً أذن ثم غدا يهرول. فقلت له: إلى أين؟ فقال: أحب أن أسمع أذاني أين يبلغ.

واختصم رجلان في جارية فأودعاها عند مؤذن فلما أصبح وفرغ من الأذان قال: لا إله إلا الله ذهب الأمانة من الناس. فقالوا له: كيف ذهب الأمانة من الناس؟ قال: هذه الجارية التي وضعت عندي قيل إنها بكر، فلما أتيتها وجدتها ثيباً.

وسمع مؤذن حمص في سحور رمضان: تسحروا فقد أمرتكم، وعجلوا في أكلكم قبل أن أؤذن فيسخم الله وجوهكم. وشوهد مؤذن يؤذن من رقعة، فقليل له: ما تحفظ الأذان؟ فقال: سلوا القاضي. فأتوه فقالوا: السلام عليكم. فأخرج دفترأ وتصفحه وقال: عليكم السلام فعلموا المؤذن.

وسمعت امرأة مؤذناً يؤذن بعد طلوع الشمس ويقول: الصلاة خير من النوم. فقالت: النوم خير من هذه الصلاة. ومر سكران بمؤذن رديء الصوت فجلد به الأرض، وجعل يدوس بطنه، فاجتمع إليه الناس فقال: والله ما بي رداءة صوته ولكنه شماتة اليهود والنصارى بالمسلمين.

الفصل التاسع: في نواذر النواتية

حكى أن بعض النواتية تولى أحد الكراسي السلطانية لما ساعده الزمان، فبينما هو جالس في داره إذ سمع صوتاً وراء الباب فقال لزوجه: إن أسمع غاغة في البرّ حليّ قلوعي واعلمي أسفيري على جاموري، وقدمي إليّ اسقالة الرجل، وقيميني بمدة^(١). فامتثلت كلامه فتزل وجلس على مصطبه، وقد علت مرتبته، واصطفت المقدمون بين يديه، ووقفت الحبرية حواله وإذا بشيخ قد أقبل وثيابه مقطعة، وعمامته في حلقة، والدم نازل من أنفه، وهو يصيح بصوت عال: أنا بالله وبإلوهي. فقال له: تعالى يا شيخ ما لي أرى أرطموك في حلقك، وشورتك مكسورة، وأنت بتزلع ماء متغير، وتقيم الهلילה في الساحل دخل عليك شرد غربي، ولا دخلت على بواجي. فقال الشيخ: والله يا سيدي بعض نواتية البحر عمل بي هذا. فقال: يا أولاد، جيبوا غريمه ويخنسوا عدته، وقشطوا ظهره، وجروه على

(١) مدة: يغرب في ألفاظ حرفته (البحارة).

مقدمه. فامتلوا كلام الأمير، وجاءوا بالغريم فلما مثل بين يديه قال له: ويلك هو أنت بختوس بسفر البحر، أنت الذي قطعت القلس وخرجت في الشعث حتى لقيت هذا الرجل نطحت مخطمته، وكسرت اسقائه لو انصلح كنت عملتك في بدرأوة، وعقلك في الصاري. فلما سمع الرجل كلام الوالي علم أنه من أولاد المعيشة. فقال له بهمتره النواتية: والله يا خوند هو كارزني في معاشي اجصطن على الوحسة، وأنا عايم في الليل إلا وشرد جاني من الشرق كابس هز أطرافي، وكسر شابورتني، وقطع لباني وها هو بحمد الله على وير السلامة، وإن كان انصلح فيه شيء فانا بمرسوم الأمير أجيب له القلقاط أسد فتحه، وأعيد له وسقه، وأخليه يروح في طريقه. فقال له الوالي: أنت بتتدف في وجهي، وتطرح مقاديفك حتى نعبر على الحجر، يا رجالة الصاري سلسلوا أطرافه، وعروا مقاديفه، ويلوا شينة اللبان، وانزلوا عليه وأوسقوه الجنين والظهر حتى تلعب الميه على بطونسته، هيا قوامك خلوا جنب برا وجنب جوا قدام الخن وراء الصاري. فأكل علقه من كعبه إلى أذنه. فقالت النواتية: يا خوندا هو خفست عليه الطمية البحرية. قال: مدارتين وقيموه. فلما أقاموه باس يد الأمير وقال: يا خوند سألتك بهبوب الرياح، وطيب النسيم، الرب لا يليك بجر اللبان في الحلافي وأنت حافي في الصيافي ويكفيك شر الأربعينات. قال: فرق عليه قلب الأمير وقال له: وحق من ضرب القلع باللبان الحلفا عند بخسة الريح وفروغ الزاد بعيد من البلاد، وعياط الركاب عند قيام الموجة، وبعد البر في أيام النيل، لولا شفاعة الركاب لكنت أهد أسقالتك، وأقعد في زوايدك، حتى أخلي ظهرك جيفة. فقال له: والله يا خوند ما بقي جنبي يحمل هذا الوثق العظيم، ولكن إن عدت أعبر لهذا الوجه أخسف من أضلاعي، لوح وغرقني بالقاييم. فقال له الأمير: أحمد الله على السلامة، وأخرج في دي الطيابة وكتاب له مرسوم وعلم عليه علامة الرياس البحرية النواتية الله لك الله لي يا عملات على أبوس^(١).

الفصل العاشر: في نوادر جامعة

سمعت امرأة في الحديث أن صوم يوم عاشوراء كفارة سنة فصامت إلى الظهر، ثم أفطرت. وقالت: يكفيني كفارة ستة أشهر منها شهر رمضان. وأسلم مجوسي في شهر رمضان فقتل عليه الصيام فقتل إلى سرداب وقعد يأكل فسمع ابنه حسه، فقال: من هذا؟ فقال: أبوك الشقي يأكل خبز نفسه ويفزع من الناس. وسئل بعض القصاص عن نصراني قال لا إله إلا الله لا غير إذا مات أين يدفن؟ قال: يدفن بين مقابر المسلمين والنصارى ليكون مذبذباً لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء. وأهدي إلى سالم القصاص خاتم بلا فص فقال: إن صاحب هذا الخاتم يعطي في الجنة غرفة بلا سقف. وبنى بعض المخفلين نصف دار، وبنى رجل آخر النصف الآخر فقال المخفل يوماً: قد عولت على بيع النصف الذي لي، واشتري به النصف الآخر لتكمل لي الدار كلها. وسئل جامع الصيدلاني عن عمر ابنته فقال: لا أدري إن أمها ذكرت أنها ولدت في أيام البراغيث. وقيل لطيفلي: أي سورة تعجبك في القرآن؟ قال: المائدة. قيل: فأي آية؟ قال: ﴿فرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾. قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿آتنا خدائنا﴾، قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿ادخلوها بسلام آمنين﴾. قيل: ثم ماذا؟ قال: ﴿وما هم منها بمخرجين﴾. وقيل لعثمان بن دراج الطيفلي يوماً: كيف تصنع بدار العرس إذا لم يدخلك أصحابها؟ قال أنوح على بابهم فيتطيرون من ذلك فيدخلوني. وقيل له: أتعرف بستان فلان؟

(١) أبوس: لم نستطع متابته بالشرح لغزارة الحوشي من الكلام حيث تعتمد تبعة والإغراب فيه.

قال: إي والله إنه الجنة الحاضرة في الدنيا، قيل: لم لا تدخله وتأكل من ثماره، وتستظل بأشجاره، وتسبح في أنهاره؟ قال: لأن فيه كلباً لا يتمضمض إلا بدماء عراقيب الرجال. وقيل له يوماً: ما هذه الصفرة التي في لونك؟ قال: من الفترة بين الصحنين. وقال: مرت بنا جنازة يوماً ومعى ابني، ومع الجنازة امرأة تبكي وتقول: الآن يذهبون بك إلى بيت لا فراش فيه، ولا غطاء ولا وطاء، ولا خبز ولا ماء فقال ابني: يا أبت إلى بيتنا والله يذهبون.

وحكي عن هارون الرشيد أنه أرق ذات ليلة أرقاً شديداً فقال لوزيره جعفر بن يحيى البرمكي: إني أرق في هذه الليلة، وضاق صدري، ولم أعرف ما أصنع. وكان خادمه مسرور واقفاً أمامه فضحك فقال له: ما يضحكك استهزاء بي، أم استخفافاً؟ فقال: وقرابتك من سيد المرسلين ﷺ ما فعلت ذلك عمداً، ولكن خرجت بالأمس أتمشى بظاهر القصر إلى جانب الدجلة فوجدت الناس مجتمعين، فوقفت فرأيت رجلاً واقفاً يضحك الناس يقال له ابن المغازلي فتكرت الآن في شيء من حديثه وكلامه فضحكك والعفو يا أمير المؤمنين. فقال له الرشيد: انتهي الساعة به. فخرج مسروراً إلى أن جاء إلى ابن المغازلي فقال له: أجب أمير المؤمنين. فقال: سمعاً وطاعة. فقال له: بشرط أنه إذا أنعم عليك بشيء يكون لك منه الربع والبقية لي. فقال له: بل اجعل لي النصف، ولك النصف. فأبى، فقال: الثلث، ولك الثلثان. فأجابه إلى ذلك بعد جهد عظيم. فلما دخل على الرشيد سلم فأبغ، وترجم فأحسن، ووقف بين يديه فقال له أمير المؤمنين: إن أنت أضحككتني أعطيتك خمسمائة دينار، وإن لم تضحككتني أضربك بهذه الجراب ثلاث ضربات. فقال ابن المغازلي في نفسه وما عسى أن تكون ثلاث ضربات بهذا الجراب وظن في نفسه أن الجراب فارغ. فوقف يتكلم ويتمسخر وفعل أفعالاً عجبية تضحك الجلمود فلم يضحك الرشيد ولم يتيسم. فتمعجب ابن المغازلي وضجر وخاف فقال له الرشيد: الآن استحققت الضرب ثم إنه أخذ الجراب ولفه وكان فيه أربع زلطات كل واحدة وزنها وطلان فضربه، فلما وقعت الضربة في رقبته صرخ صرخة عظيمة وافتكر الشرط الذي شرطه عليه مسرور. فقال: العفو يا أمير المؤمنين اسمع مني كلمتين. قال: قل ما بدا لك. قال: إن مسروراً شرط عليّ شرطاً، واتفقت أنا وإياه على مصلحة، وهو أن ما حصل لي من الصدقات يكون له فيه الثلثان، ولي فيه الثلث وما أجباني إلى ذلك إلا بعد جهد عظيم، وقد شرط عليّ أمير المؤمنين ثلاث ضربات فنصبي منها واحدة، ونصبي اثنتان وقد أخذت نصبي، وبقي نصبي. قال: فضحك الرشيد ودعا مسروراً فضربه، وقال: يا أمير المؤمنين قد وهبت له ما بقي فضحك الرشيد وأمر لهما بألف دينار فأخذ كل واحد منهما خمسمائة، ورجع ابن المغازلي شاكراً.

والله سبحانه وتعالى أعلم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب السابع والسبعون: في الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصول

الفصل الأول: في الدعاء وآدابه

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ﴾^(١) اختلف في سبب نزولها فقال مقاتل: إن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه واقع امرأته بعد ما صلى العشاء في رمضان فندم على ذلك وبكى وجاء إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ورجع مغتماً وكان ذلك قبل الرخصة فتزل هذه الآية ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: قالت اليهود: كيف يسمع ربنا دعاءنا وأنت تزعم أن بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وغلظ كل سماء مثل ذلك فتزلت هذه الآية. وقال الحسن: إن قوماً قالوا للنبي ﷺ: اقرب ربنا فتناجيه، أم بعيد فتأديه، فتزلت هذه الآية قوله تعالى: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي أقبل عبادة من عبدني فالدعاء بمعنى العبادة والإجابة بمعنى القبول. وقال قوم إن الله تعالى يجيب كل الدعاء فإما أن يجعل الإجابة في الدنيا، وإما أن يكفر عن الداعي، وإما أن يدخر له في الآخرة، لما رواه أبو سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها ثلاثاً: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له ثوابها، وإما أن يكف عنه من السوء بمثلها».

وروي أنه إذا كان يوم القيامة واستقر أهل الجنة في الجنة، فبينما العبد المؤمن في قصره، وإذا ملائكة من عند ربه يأتونه بتحف من عند الله فيقول ما هذا، أليس الله قد أنعم عليّ وأكرمني. فيقولون ألسنت كنت تدعو الله في الدنيا، هذا دعاؤك الذي كنت تدعوه قد أدخره^(٢) لك. واعلم أن إجابة الدعاء لا بد لها من شروط، فشرط الداعي أن يكون عالماً بأن لا قادر إلا الله، وأن الوسائط في قبضته ومسخرة بتسخيره، وأن يدعو بنية صادقة وحضور قلب. فإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب لاه، وأن يكون متجنباً لكل الحرام، ولا يمل من الدعاء. ومن شروط المدعو فيه أن يكون من الأمور الجائزة الطلب والفعل شرعاً كما قال عليه الصلاة والسلام: ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم فيدخل في الإثم كل ما يأتى به من الذنوب، ويدخل في الرحم جميع حقوق المسلمين ومظالمهم. قال ابن عطاء الله: وإن للدعاء أركاناً، وأجنحة، وأسباباً وأوقاناً، فإن وافق أركانه قوي، وإن وافق أجنحته طار إلى السماء، وإن وافق أسبابه نجح، فأركانه حضور القلب والخشوع، وأجنحته الصدق، ومواقفه الأسحار، وأسبابه الصلاة على النبي ﷺ، ومن شروط الدعاء أن يكون سليماً من اللحن كما قال بعضهم:

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٨٦.

(٢) أدخره: أحفظه.

ينادي ربه باللحن ليث كذاك إذا دعاه لا يجاب

وقيل: إن الله تعالى لا يستجيب دعاء عريف، ولا شرطي.، ولا جاب، ولا عشار، ولا صاحب عربة وهي الطنبور، ولا صاحب كوبة وهي الطبل الكبير الضيق الوسط. ومن آداب الدعاء أن يدعو الداعي مستقبلاً القبلة، ويرفع يديه لما روي عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ريكم حي كريم ليستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً^(١)» وأن يسمح بهما وجهه بعد الدعاء. لما روي عن عمر قال كان رسول الله ﷺ: إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يسمح بهما وجهه، وأن لا يرفع بصره إلى السماء لقوله ﷺ ليتبين أقوام عن رفع أبصارهم إلى السماء عند الدعاء، أو ليخطفن الله أبصارهم، وأن يخفض الداعي صوته بالدعاء لقوله تعالى: ﴿أدعوا ريكم تضرعاً وخفية^(٢)﴾ وعن أبي عبد الرحمن الهمداني قال صليت مع أبي إسحاق الغداة فسمع رجلاً يجهر في الدعاء فقال: كن كزكريا ﴿إذا نادى ربه نداء خفياً^(٣)﴾ وينبغي للداعي أن لا يتكلف، وأن يأتي بالكلام المطبوع غير المسجوع لقوله ﷺ: إياكم والسجع في الدعاء بحسب أحدكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة، وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار، وما قرب إليها من قول وعمل. وقيل ادعوا بلسان الذلة والاحتقار ولا تدعوا بلسان الفصاحة والانطلاق وكانوا لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فما دونها كما في آخر سورة البقرة.

وعن سفیان بن عيينة: لا يمنعن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فقد أجاب الله دعاء شر الخلق إبليس إذ قال: ﴿أنظرني إلى يوم يبعثون^(٤)﴾ وعن النبي ﷺ: «إذا سأل أحدكم مسألة فتعرف الإجابة، فليقل الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، ومن أبطأ عليه من ذلك شيء فليقل الحمد لله على كل حال». وعن سلمة بن الأكوع قال: ما سمعت رسول الله ﷺ يستفتح الدعاء إلا قال: «سبحان ربي الأعلى الوهاب». وعن أبي سليمان الداراني: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على رسول الله ﷺ، وينبغي للمؤمن أن يجتهد في الدعاء، وأن يكون على رجاء من الإجابة، ولا يقتطع من رحمة الله لأنه يدعو كريماً. وللدعاء أوقات وأحوال يكون الغالب فيها الإجابة وذلك وقت السحر، ووقت الفطر وما بين الأذان والإقامة، وعند جلسة الخطيب بين الخطبتين إلى أن يسلم من الصلاة، وعند نزول الغيث، وعند التقاء الجيش في الجهاد في سبيل الله تعالى، وفي الثلث الأخير من الليل، لما جاء في الحديث: «إن في الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه» وفي حالة السجود لقوله عليه الصلاة والسلام: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»، وما بين الظهر والعصر في يوم الأربعاء، وأوقات الاضطراب، وحالة السفر والمرض هذا كله جاءت به الآثار.

قال جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه: دعا رسول الله ﷺ في مسجد الفتح ثلاثة أيام يوم الاثنين ويوم الثلاثاء واستجيب له يوم الأربعاء بين الصلاتين ففرغت السرور في وجهه. قال جابر: ما نزل بي أمر مهم غليظ إلا توخيت تلك الساعة فادعوا فيها فأعرف الإجابة. وفي بعض الكتب المنزلة يا عبيدي إذا سألت فاسألني فإني غني، وإذا طلبت النصرة فاطلبها مني فإني قوي، وإذا أفشيت شرك فافشه إلي، فإني وفي، وإذا أقرضاً فأقرضني فإني ملي، وإذا دعوت

(١) صفراً: خلواً.

(٢) سورة: الأعراف، الآية: ٥٥.

(٣) سورة: مريم، الآية: ٣.

(٤) سورة: الأعراف، الآية: ١٤.

فادعني فإنني حفي. وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفر فأغفر له».

وقال وهب بن منبه: بلغني أن موسى مر برجل قائم يبكي ويتضرع طويلاً. فقال موسى: يا رب أما تستجيب لعبدك؟ فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى لو أنه بكى حتى تلفت نفسه ورفع يديه حتى بلغ عنان السماء ما استجبت له. قال: يا رب لم ذلك؟ قال: لأن في بطنه الحرام. ومريم إبراهيم بن آدم يسوق البصرة فاجتمع الناس إليه وقالوا يا أبا إسحاق ما لها ندعو فلا يستجاب لنا، قال لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء، الأول: أنكم عرفتم الله فلم تؤدوا حقه. الثاني: زعمتم أنكم تحبون رسول الله ﷺ ثم تركتم سته. الثالث: قرأتم القرآن ولم تعملوا به. الرابع: أكلتم نعمة الله ولم تؤدوا شكرها. الخامس: قلمتم إن الشيطان عدوكم ووافقتموه. السادس: قلمتم إن الجنة حق فلم تعملوا لها. السابع: قلمتم إن النار حق ولم تهربوا منها. الثامن: قلمتم إن الموت حق فلم تستعدوا له. التاسع: انتبهتم من النوم واشتغلتم بعيوب الناس، وتركتم عيوبكم. العاشر: دفتم موتاكم ولم تعتبروا بهم. وكان يحيى ابن معاذ يقول: من أقر الله بأسائه جاد الله عليه بمغفرته، ومن لم يمت على الله بطاعته أوصله إلى جته ومن أخلص لله في دعوته من الله عليه بإجابته. وقال علي رضي الله تعالى عنه: ارفعوا أفواج البلاء بالدعاء. وعن أنس رضي الله تعالى عنه يرفعه: «ألا تعجزوا عن الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد».

الفصل الثاني: في الأدعية وما جاء فيها

كان من دعاء شريح رحمة الله تعالى: اللهم إني أسألك الجنة، بلا عمل عملك، وأعوذ بك من النار بلا ذنب تركته. ودعت أعرابية عند البيت فقالت: إلهي لك أذلّ عليك أدل. وكان من دعاء بعض الصالحين: اللهم إن كنا عصيانك فقد تركنا من معاصيك أبغضها إليك وهو الإشراك، وإن كنا قصرنا عن بعض طاعتك فقد تمسكنا بأحبها إليك وهو شهادة أن لا إله إلا أنت وأن رسلك جاءت بالحق من عندك. ومن دعاء سلام بن مطيع: اللهم إن كنت بلغت أحداً من عبادك الصالحين درجة يبلاء فبلغنيها بالعافية. وقيل لفتح الموصلي ادع الله لنا. فقال: اللهم هبنا عطاءك، ولا تكشف عنا غطاءك. وكان من دعاء بعض السلف: اللهم لا تحرمني خير ما عندك لشر ما عندي فإن لم تقبل تعبي ونصيبي فلا تحرمني أجر المصاب على مصيئته. اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى الناس فنضيع. وقال الحسن من دخل المقابر فقال: اللهم رب الأرواح الفانية، والأجساد البالية، والعظام النخرة التي خرجت من الدنيا وهي بك مؤمنة أدخل عليها روحاً من عندك وسلاماً منك، كتب الله له بعدد من مات من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة حسنات. وحكي عن معروف القاضي أن الحجيج كانوا يجتهدون في الدعاء وفيهم رجل من التركمان ساكت لا يحسن أن يدعو فخشع قلبه وبكى فقال بلغته: اللهم إنك تعلم أنني لا أحسن شيئاً من الدعاء فأسألك ما يطلبون منك بما دعوا فأرأى بعض الصالحين في منامه أن الله قيل حج الناس بدعوة ذلك التركماني لما نظر إلى نفسه بالفقر والفاقة. وقال الأصمعي: حسدت عبد الملك على كلمة تكلم بها عند الموت وهي: اللهم إن ذنوبي وإن كثرت وجلت عن الصفة فإنها صغيرة في جنب عفوك فاعف عني. وركب إبراهيم بن آدم في سفينة فهاجت الرياح وبكى الناس وأيقنوا بالهلاك وكان إبراهيم نائماً في كساء فاستوى جالساً وقال: أريتنا قدرتك، فأرنا عفوك، فذهب الريح وسكن البحر.

وقال الثوري: كان من دعاء السلف: اللهم زهدنا في الدنيا، ووسع علينا فيها ولا تزوها عنا ولا ترغبنا فيها. وكان بعض الأعراب إذا أوى إلى فراشه قال: قال اللهم إني أكفر بكل ما كفر به محمد، وأؤمن بكل ما آمن به ثم يضع رأسه. وسمعت بدوية تقول في دعائها: يا صباح يا مناح يا مطعم يا عرض الجفنة يا أبا المكارم. فزجرها رجل فقالت: دعني أصف ربي، وأمجّد إلهي بما تستحسنه العرب. وقال الزمخشري في كتابه «ربيع الأبرار»: سمعت أنا من يدعو من العرب عند الركن اليماني: يا أبا المكارم، يا أبيض الوجه وهذا ونحوه منهم إنما يقصدون به الثناء على الله تعالى بالكرم والتزاهة على القبيح على طريق الاستعارة، لأنه لا فرق عندهم بين الكريم، وأبي المكارم ولا بين الجواد، والعريض الجفنة، ولا بين المتزه والأبيض الوجه. وقيل لأعرابي: أتحنن أن تدعو ربك؟ قال: نعم، ثم قال: اللهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك، فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك.

وذكر لعبد السلام بن مطيع أن الرجل تصيبه البلوى فيدعو فتبطل عنه الإجابة، فقال: بلغني أن الله تعالى يقول: «كيف أرحمه من شيء به أرحمه» وقال طاوس: بينما أنا في الحجر ذات ليلة إذ دخل عليّ علي بن الحسين فقلت رجل صالح من أهل بيت الخير لاسمعن دعاءه فسمعت يقول: عَيْتُكَ بفنائك مسكينك بفنائك، فقيرك بفنائك، فما دعوت بهما في كرب إلا فرج عني. ودعا أعرابي فقال: اللهم إنا نبات نعمتك. وقال ابن المسيب: سمعت من يدعو بين القبر والمنبر: اللهم إني أسألك عملاً باراً ورزقاً داراً، وعيشاً قاراً، فدعوت به فما وجدت إلا خيراً. ودعت أعرابية بالموقف فقالت: أسألك سترك الذي لا تزيله الرياح، ولا تخرقه الرماح. وقيل: اتقوا مجانيق الضعفاء، أي دعواتهم. ودعا أعرابي فقال: اللهم اصح ما في قلبي من كذب وخيانة، واجعل مكانه صدقاً وأمانة. وصلى رجل إلى جنب عبد الله بن المبارك ويادر القيام فجذب ثوبه وقال: أما لك إلى ربك حاجة؟ وقال سفيان الثوري: سمعت أعرابياً يقول: اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزله، وإن كان في الأرض فأخرجه، وإن كان بعيداً فقربه وإن كان قريباً فيسره، وإن كان قليلاً فكثره، وإن كان كثيراً فبارك لي فيه، وقال أبو نواس:

أحييتُ من شعيرٍ بشارٍ وكلَّمْتُهُ يتأ لهجتُ به في شعيرٍ بشارٍ
يا رحمة الله حلّني في منازلنا وجاورينا فدتك النفس من جارٍ

وكان بشار يعني بذلك جارية بصرية كان يحبها ويتنزل فيها، ونعني بها هنا رحمة الله التي وسعت كل شيء. وسمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه رجلاً يقول وهو متعلق بأستار الكعبة: يا من لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلظه المسائل، ولا ييرمه إلحاح الملحين أذقني برد عفوك، وحلاوة مغفرتك. فقال علي: والذي نفسي بيده لو قلتها عليك ملء السموات والأرض من الذنوب لغفر لك. ومن دعائه رضي الله عنه: اللهم صن وجهي باليسار، ولا تبدل جامي بالأقار فاسترزق طامعاً رزقك من غيرك، وأستعطف شرار خلقك، وأبتلي بحمد من أعطاني وأقتن بدم من منعني، وأنت من وراء ذلك كله وليّ الإجابة والمنع. وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ما انتهيت إلى الركن اليماني قط إلا وجدت جبريل قد سبقني إليه يقول: قل يا محمد اللهم أني أعوذ بك من الكفر، والفقر، والفاقة. وهي من مواقف الخزي.

وهبط جبريل على يعقوب فقال: يا يعقوب إن الله تعالى يقول لك: قل يا كثير الخير يا دائم المعروف رد عليّ ابني. فقالها فأوحى الله تعالى إليه: وعزتي لو كانا ميتين لنشرتهما لك. وكان أبو مسلم الخرساني إذا نابه أمر، قال: يا

مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين. وقال جعفر بن محمد: ما المبتلي الذي اشتد بلاؤه بأحق الدعاء من المعافي الذي لا يأمن وقوع البلاء. وكان الزهري يدعو بعد الحديث بدعاء جامع فيقول: اللهم إني أسألك من خير ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة وأعوذ بك من شر ما أحاط به علمك في الدنيا والآخرة. وعن عقبة بن عبد الغافر: دعوة في السر أفضل من سبعين دعوة في العلانية. واعلم أن التوحيد والدعاء عند نوازل الملمات هو سفينة النجاة من الحوادث المهلكات. وعن أبي الدرداء قال: صلى بنا رسول الله ﷺ العصر فمر بنا كلب فما بلغت يده رجله حتى وقع ميتاً. فلما انصرف رسول الله ﷺ من صلاته قال: من الداعي على الكلب أنفأ؟ قال رجل من القوم: أنا يا رسول الله. قال: لقد دعوت الله باسمه إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، قال: كيف دعوت الله؟ قال: قلت اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت، المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام.

وقيل: إنه دخلت أذن رجل من أهل البصرة حصاة فمالجها الأطباء فلم يقدروا عليها حتى وصلت إلى صمائه فأنى إلى رجل من أصحاب الحسن فشكا له ما أصابه من الحصاة فدعا له بدعاء العلاء بن الحضرمي وهو: يا علي يا عظيم يا حليم يا عليم. قال الراوي: فما برحنا حتى خرجت الحصاة من أذنه ولها طنين حتى ضربت الحائط. وعن أنس: إذا قال العبد يا رب يا رب يا رب يقول الله عز وجل لييك عبدي. وعنه قال: مر رسول الله ﷺ برجل وهو يقول يا أرحم الراحمين فقال له رسول الله ﷺ: «سل حاجتك فقد نظر الله إليك». وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا فتح الله على عبد الدعاء فليكثر، فإن الله يستجيب له». وروي عن علي بن زفر عن أخ له وكان فاضلاً صالحاً فقال: دعوت الله أن يريني الاسم الأعظم الذي إذا دعي به أجاب فقممت ليلة أصلي فسمعت قعقة في سقف البيت ثم هبط نور حتى صار تلقاء وجهي وإذا مكتوب بالتور فقرأته: يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام. ومن دعاء الكرب ما روي عن وهب أن ابن عباس رضي الله عنهما قال له: هل تجد فيما تقرأ من الكتب دعاء تدعو به عند الكرب؟ قال: نعم. اللهم إني أسألك يا من يملك حوائج السائلين، ويعلم ضمير الصامتين فإن لكل مسألة منك سمعاً حاضراً، وجواباً عتيداً، ولكل صامت منك علماً ناطقاً محيطاً، أسألك بمواعيدك الصادقة، وأياديك الفاضلة، ورحمتك الواسعة أن تفعل بي كذا وكذا. فقال ابن عباس هذا دعاء علمته في النوم ما كنت أرى أن أحداً يحسنه. وعن وهب أيضاً قال: لما أهبط الله تعالى آدم من الجنة إلى الأرض استوحش لفقد أصوات الملائكة فهبط إليه جبريل وقال: يا آدم هل أعلمك شيئاً تنفع به في الدنيا والآخرة؟ قال: بلى. قال: اللهم أتمم النعمة حتى تهنيي المعيشة. اللهم اختم لي بخير حتى لا تضرنني دنوبي، اللهم اكفني مؤنة الدنيا، وكل هول في القيامة حتى تدخلني الجنة معافي.

وعن معروف الكرخي قال: اجتمعت اليهود أخزاهم الله على قتل عيسى عليه الصلاة والسلام يزعمهم وأهبط الله تعالى عليه جبريل، وفي باطن جناحيه مكتوب: اللهم إني أدعوك باسمك العظيم الوتر، وأدعوك اللهم باسمك... الأجل الأعز وأدعوك اللهم باسمك الأحد الصمد وأدعوك اللهم باسمك الكبير المتعالي الذي ملأ الأركان كلها أن تكشف عني ضر ما أصبحت وأمسيت فيه. فأوحى الله عز وجل إلى جبريل أن أرفع عبدي إلي. فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: عليكم بهذا الدعاء ولا تستبطئوا الإجابة، فإن ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. اسناد هذا متصل إلى معروف الكرخي ثم هو منقطع ولو لم يكن فيه من البركة إلا رواية معروف لكان كافياً في قوله والعمل به.

حدث عبد الله بن أبان الثقفي رضي الله عنه قال: وجهني الحجاج بن يوسف في طلب أنس بن مالك فظننت أنه يتوارى عني فاتيته بخيلي ورجلي فإذا هو جالس على باب داره ماداً رجله، فقلت له: أجب الأمير. فقال: أي

الأمراء؟ فقلت: أبو محمد الحجاج. فقال غير مكترث به: قد أذله الله، ما أراني أعزه لأن العزيز من عز بطاعة الله، والذليل من ذل بمعصية الله وصاحبك قد بنى وطنى واعتدى وخالف كتاب الله والسنة والله ليقيم الله منه. فقلت له: أقصر عن الكلام وأجب الأمير. فقام معنا حتى حضر بين يدي الحجاج فقال له: أنت أنس بن مالك؟ قال: نعم. قال: أنت الذي تدعو علينا وتسبنا؟ قال: نعم. قال: ومم ذاك؟ قال: لأنك عاص لربك، مخالف لسنة نبيك تمز أعداء الله، وتذل أولياء الله. فقال له: أتدري ما أريد أن أفعل بك؟ قال: لا. قال أريد أن أقتلك شر قتلة. قال أنس: لو علمت أن ذلك بيدك لعبدتك من دون الله. قال الحجاج: ولم ذاك؟ قال: لأن رسول الله ﷺ علمني دعاء وقال من دعا به في كل صباح لم يكن لأحد عليه سبيل وقد دعوت به في صباحي هذا، فقال الحجاج: علمنيه. فقال: معاذ الله أن أعلمه لأحد ما دمت أنت في الحياة. فقال الحجاج: خلوا سبيله. فقال الحجاج: أيها الأمير لنا في طلبه كذا وكذا يوماً حتى أخذناه فكيف نخلي سبيله؟ قال: رأيت على عاتقه أسدين عظيمين فاتحين أفواههما. ثم إن أنساً رضي الله عنه لما حضرته الوفاة علم الدعاء لإخوانه وهو: بسم الله الرحمن الرحيم باسم الله خير الأسماء، باسم الله الذي لا يضر مع اسمه أذى، باسم الله الكافي، باسم الله المعافي، باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، باسم الله على نفسي ودينى، وباسم الله على أهلي ومالي، باسم الله على كل شيء أعطانيه ربي الله أكبر، الله أكبر، أعوذ بالله مما أخاف وأحذر، الله ربي لا أشرك به شيئاً عز جارك وجل ثناؤك، وتقدست أسماؤك، ولا إله غيرك اللهم إني أعوذ بك من شر كل جبار عنيد وشیطان مريد ومن شر قضاء السوء ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم.

وهذا دعاء مشهور الإجابة وله شرح طويل تركناه لطوله وهو: اللهم كما لطفت في عظمتك دون اللطفاء، وعلوت بعظمتك على العظماء، وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك وكانت وسواس الصدور كالعلانية عندك، وعلانية القول كالسر في علمك، وانقياد كل شيء لعظمتك، وخضوع كل ذي سلطان لسلطانك، وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك لا بيد غيرك، اجعل لي من كل هم وغم أصيحت أو أمسيت فيه فرجاً ومخرجاً إنك على كل شيء قدير اللهم إن عفوك عن ذنوبي وتجاوزك عن خطيئتي وسترك عن قبيح عملي أطمعني أن أسألك ما لا أستجبه منك مما قضيت لي أدعوك أمناً وأسألك مستأنساً لا خائفاً، ولا وجلاً لأنك أنت المحسن إليّ، وأنا المسيء إلى نفسي فيما بيني وبينك، تتودد إليّ بالنعم مع غناك عني، وأتبغض إليك بالمعاصي مع افتقاري إليك فلم أر مولى كريماً أعطف منك على عبد لثيم مثلي، لكن الثقة بك حملتني على الجراءة على الذنوب. فأسألك بجودك وكرمك وإحسانك وطولك أن تصلي على محمد وآله وأن تفتح لي باب الفرج بطولك، وتحبس عني باب الهم بقدرتك، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين فأعجز، ولا إلى الناس فأضيع برحمتك يا أرحم الراحمين.

وروى الحافظ بإسناده عن الزهري عن أبي مسلمة عن أبي هريرة قال: مر رسول الله ﷺ برجل ساجد وهو يقول في سجوده: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك من مظالم كثيرة لعبادك قبلي فأياها عبد من عبادك، أو أمة من أمائك كانت له قبلي مظلمة ظلمتها إياه من مال أو بدن أو عرض، علمتها أو لم أعلمها ولم أستطع أن أتخللها فأسألك أن ترضيه عني بما شئت وكيف شئت ثم تهب لي من لذلك إنك واسع المغفرة ولديك الخير كله. يا رب ما تصنع بعذابي ورحمتك وسعت كل شيء فلتسمني رحمتك فإني لا شيء. وأسألك يا رب أن تكرمني برحمتك ولا تهني ببنوحي وما عليك أن تعطيني الذي سألتك يا رب يا الله. فقال رسول الله ﷺ: ارفع رأسك فقد غفر الله لك، إن هذا دعاء أخي

شعيب عليه السلام. وقال صالح المزني: قال لي قاتل في منامي: إذا أحببت أن يستجاب لك قفل: اللهم إني أسألك باسمك المخزون المكنون المبارك الطيب الطاهر المطهر المقدس. فما دعوت بها في شيء إلا تعرفت الإجابة. وقيل إن هذا الدعاء فيه اسم الله الأعظم وهو: بسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك بالعزة التي لا ترام، والملك الذي لا يضام، والعين التي لا تنام، والنور الذي لا يطفأ، وبالوجه الذي لا ييلى، وبالديمومة التي لا تنفى، وبالحياة التي لا تموت وبالصمدية التي لا تقهر، وبالربوبية التي لا تستذل أن تجعل لنا في أمورنا فرجاً ومخرجاً حتى لا نرجو غيرك يا أرحم الراحمين.

وقال سعيد بن المسيب: دخلت المسجد في ليلة مقمرة وأظن أنني قد أصبحت وإذا الليل على حاله فقمعت أصلي وجلست أدعو، وإذا بهاتف يهتف من خلفي: يا عبد الله قل. قلت: ما أقول؟ قال اللهم إني أسألك بأنك ملك، وأنت على كل شيء قدير، وما تشاء من أمر يكون. قال سعيد: فما دعوت به قط في شيء إلا رأيت نجحه. وعن الشيخ كمال الدين الدميري قال: روي عن قاضي القضاة عز الدين بن جماعة قال: أنبأنا الشيخ شرف الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مناع الفزاري خطيب دمشق قال: أنبأنا الشيخ زين الدين أبو البقاء خالد بن يوسف النابلسي بقراءتي عليه قال: أنبأنا الحافظ بهاء الدين ناصر السنة محمد بن الإمام أبي محمد بن الحافظ أبي القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عساكر قراءة عليه وأنا أسمع قال: رويت بالإسناد وذكر إسناده إلى الإمام الحجة التابعي الجليل محمد بن سيرين قال: نزلنا بنهر تيرا فأنا أهل ذلك المنزل فقالوا لنا ارحلوا فإنه لم يتزل هذا المنزل أحد إلا أخذ متاعه، فرحل أصحابي وتخلفت فلما أمسينا قرأت آيات فما تمت حتى رأيت أقواماً قد أقبلوا وجاءوا إلى جهتي أكثر من ثلاثين نفرأ وقد جردوا سيوفهم فلم يصلوا إلي، فما أصبحت رحلت فلقبني شيخ على فرس ومعه قوس عربية فقال لي: يا هذا إنسي أنت أم جني؟ فقلت: بل أنا من بني آدم. قال: فما بالك لقد أتيناك في هذه الليلة أكثر من سبعين مرة وفي كل ذلك يحال بيتنا وبينك بسور من حديد. قلت: حدثني ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: من قرأ في ليلة ثلاثاً وثلاثين آية لم يضره في تلك الليلة لص طار، ولا سبع ضار وعوفي في نفسه وأهله وماله حتى يصبح. فترى عن فرسه وكسر قوسه وأعطى الله تعالى عهداً أن لا يعود لهذا الأمر. وهذه الآيات وهي أن تقرأ بعد الفاتحة ألم ذلك الكتاب، إلى قوله المفلحون وآية الكرسي إلى قوله وهم فيها خالدون، وآمن الرسول إلى آخر السورة وإن ربكم الله الذي إلى قوله المحسنين، وقل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن إلى آخر السورة، والصفات صفأ إلى قوله لا زب، ويا معشر الجن والانس إن استطعتم إلى قوله فلا تتصرون. لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً. إلى آخرها، وأنه تعالى جذ ربنا إلى قوله شططا. زاد البوني إلى قوله شهاباً رصداً، والله من ورائهم محيط إلى قوله محفوظ. قال محمد بن سيرين: فذكرت هذا الحديث لشعيب بن حرب فقال: كنا نسميها آيات الحرز. ويقال إن فيها شفاء من مئة داء وعدوا منها الجذام وغير ذلك. قال محمد بن علي قرأها على شيخ لنا قد أفلج فأذهب الله تعالى عنه ذلك الفالج. قال البوني هذه الآيات شرفها مشهور وفضلها مذكور، لا ينكرها إلا غبي أو غيور وقد جربها المشايخ وعرف سرها من له في العلم قدم راسخ، وقدر شامخ، وهي على ما رويناها ما رأيناها أولها الفاتحة ثم أول البقرة إلى آخر الآيات.

وقال أبو العباس أحمد القسطلاني: سمعت الشيخ أبا عبد الله القرشي يقول: سمع أبا زيد القرطبي يقول في بعض الآثار: إن من قال لا إله إلا الله سبعين ألف مرة كانت فداءه من النار. فعملت ذلك رجاء بركة الوعد ففعلت منها

لأهلي، وعملت أعمالاً ادخرتها لنفسي، وكان إذ ذاك بيت معنا شاب يكشف بالجنة والنار، وكانت الجماعة ترى له فضلاً على صغر سنه وكان في قلبي منه شيء فاتفق أن استدعانا بعض الأخوان إلى منزله فنحن نتناول الطعام والشاب معنا إذ صاح صيحة منكرة واجتمع في نفسه وهو يقول يا عم هذه أمي في النار ويصبح بصباح عظيم لا يشك من سمعه أنه عن أمر، فلما رأيت ما به من الإزعاج قلت اليوم أجرب صدقه فألهمني الله تعالى السبعين ألفاً ولم يطلع على ذلك إلا الله تعالى. فقلت في نفسي الأثر حق والذين روه لنا صادقون، اللهم إن هذه السبعين ألفاً فداء أم هذا الشاب من النار فما استتممت هذا الخاطر في نفسي أن قال يا عم هذه أمي أخرجت من النار والحمد لله، فحصل عندي فائدتان امتحاني لصلق الأثر، وسلامي من الشاب وعلمي بصدقه.

ومن خاف إنساناً فليصل ركعتين بعد صلاة المغرب ثم يضع جبهته على التراب ويقول: يا شديد المحال يا عزيز أذللت بعزتك جميع من خلفت صل على محمد وآله، واكفني فلاناً بما شئت كفاه الله تعالى شره. وروى الثقيفي رحمه الله تعالى بإسناده إلى محمد بن علي بن الحسين تعالى عنه أنه كان يقول لولده: يا بني من أصابته مصيبة في الدنيا أو نزلت به نازلة فليتوضأ وليحسن الوضوء وليصل أربع ركعات أو ركعتين، فإذا انصرف من صلاته يقول يا موضع كل شكوى، يا سامع كل نجوى، يا شاهد كل بلوى، يا منجي موسى والمصطفى محمد، والخليل إبراهيم عليهم السلام أدعوك دعاء من اشتدت فاقته، وضعفت حركته، وقلت حيلته دعاء الغريب الغريق الفقير الذي لا يجد لكشف ما هو فيه إلا أنت يا أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. قال علي بن الحسين رضي الله عنهما: لا يدعو به مبتلى إلا فرج الله عنه.

وقيل: الاسم الأعظم هو باسم الله الرحمن الرحيم اللهم إني أسألك يا مؤنس كل وحيد، يا قريباً غير بعيد يا شاهداً غير غائب يا غالباً غير مغلوب، يا حي يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام أسألك باسمك باسم الله الرحمن الرحيم الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم أسألك باسمك باسم الله الرحمن الرحيم الذي عنت له الوجوه، وخشعت له الأصوات، ووجلّت له القلوب أن تصلي على محمد وعلى آله وأن تعطيني كذا وكذا إنك على كل شيء قدير. وهذه آيات الفرج لأحمد بن حمزة البوني، قيل إن فيها اسم الله الأعظم وهي هذه:

أقولُ إن قيل متى ذلك متى
جواداً وإن يطر ما كان خوى
وربما قنر ما كان لوى
والشيء يُرجى كشفه إذا انتهى
كلمحة الطرف إذا الطرف رمى
وكم سرور قد أتى بعد الأسى
ومن كل ما يخشى ونال ما رجا
ولم يزل مهما هفا العبد عفا
جلاله من العطا لنبي الخطا

إنسي لأرجو عطفة الله ولا
لا بد أن ينشر ما كان طوى
وربما ينشر ما كان زوى
وكل شيء إلى مدى
لطائف الله وإن طال المدى
كم فرج بعد إياس قد أتى
من لا بالله نجا فيمن نجا
سبحان من نهفو ويعفو دائماً
يعطي الذي يخطي ولا يمنعه

ومن المنظوم أيضاً:

يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضمير ويسمع
يَا مَنْ يُرْجَى للشدائد كلها
يَا مَنْ خَزَائِنُ رِزْقِهِ فِي قَوْلِ كُنْ
مَا لِي سِوَى فَقْرِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ
مَا لِي سِوَى قُرْعِي لِبَابِكَ حِيلَةٌ
وَمَنْ ذَا الَّذِي أَدْعُو وَأَهْتَف بِاسْمِهِ
حَائِثاً لِحُجُودِكَ أَنْ تَقْنَطَ عَاصِيّاً
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ

وقال آخر:

يَا خَالِقَ الْخَلْقِ يَا رَبَّ الْعِبَادِ وَمَنْ
إِنِّي دَعْوَتُكَ مُضْطَرّاً فَخُذْ بِيَدِي
نَجِّتْ أَيُوبَ مَنْ بَلَّوَاهُ حِينَ دَعَا
وَاطْلُقْ سِرَاحِي وَامْنِنْ بِالْخَلَاصِ كَمَا

أَنْتَ الْمَعْدُ لِكُلِّ مَا يَتَوَقَّعُ
يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمُشْتَكَى وَالْمَفْزَعُ
أَمْنُنْ فَإِنَّ الْخَيْرَ عِنْدَكَ أَجْمَعُ
فَبِالْإِفْتِقَارِ إِلَيْكَ فَقْرِي أَدْفَعُ
فَلْتَسُنْ رَدَدْتُ فَأَيُّ بَابٍ أَقْرَعُ
وَإِنْ كَانَ فَضْلُكَ عَنِ فَقِيرِكَ يَمْنَعُ
الْفَضْلُ أَجْزَلُ وَالْمَوَاهِبُ أَوْسَعُ
خَيْرِ الْأَنْامِ وَمَنْ بِهِ يَتَشَفَّعُ

قد قال في محكم التنزيل ادعوني
يَا جَاعِلَ الْأَمْرِ بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ^(١)
بصبرِ أَيُوبَ يَا ذَا اللَّطْفِ نَجِّينِي
نَجِيتَ مَنْ ظَلَمَاتِ الْبَحْرِ ذَا النُّونِ

ثم يقرأ ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذُهِبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(٢) قال بعضهم:

يَا رَبِّ مَا زَالَ لَطْفُكَ مِنْكَ يَسْمُنِي
فَاصْرِفْهُ عَنِّي كَمَا عَوَّدْتَنِي كَرَمًا

وقال آخر:

يَا مَنْ تُحْلِلُ بِذِكْرِهِ
يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمُشْتَكَى
يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ يَا
أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَى الْعِبَا
أَنْتَ الْمَعِزُّ لِمَنْ أَطَا
إِنِّي دَعْوَتُكَ وَالْهَمُّ
فَافْرَجْ بِحَوْلِكَ كَرِيتِي
فَخَفِّضِي لَطْفَكَ يَسْتَعَا
أَنْتَ الْمَيْسُورُ وَالْمُسَبِّ
يُسِّرْ لَنَا فَرَجاً قَر

عَقَدَ النَّوَائِبِ وَالشَّدَائِدِ
وَإِلَيْهِ أَمْرُ الْخَلْقِ عَائِدِ
صَمَدٌ تَنْزَهُ عَنْ مَضَادِّ
وَأَنْتَ فِي الْمَلَكُوتِ وَاحِدِ
عَكَ وَالْمِثْلُ لِكُلِّ جَا حِدِ
وَمَجِيشُهَا نَحْوِي تَطَارِدِ
يَا مَنْ لَهُ حُسْنُ الْعَوَائِدِ
نُ بِهِ عَلَى الزَّمَنِ الْمَعَانِدِ
بِ الْمُسْهِّلِ وَالْمُسَاعِدِ
يَا إِلَهِي لَا تَبَاعِدِ

(١) الكاف والنون: أي من أمره (كن).

(٢) سورة: الأنبياء، الآية: ٨٧.

كن راحمي فلقد ينسئ من الأقارب والأباعد
ثم الصلاة على النبي وآله القُرُ الأماجد
وعلى الصحابة كلهم ما خسر للرحمن ساجد

دعاء عظيم مأثور

اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني، إلى بغيض يتهمني، أو إلى قويّ ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن يحل بي غضبك، أو يزل سخطك، فلك العتي حتى ترضى ولا حول ولا قوة لنا إلا بك يا رب العالمين.

ومما جاء في أذية الناس بعضهم لبعض

دعا رجل لآخر فقال: سرك بما ساءك، ولا ساءك فيما سرك. ودعا رجل لآخر فقال: لا أخلاك الله تعالى من ثناء صادق باق ودعاء صالح واق. ودعا أعرابي لآخر فقال: رحب واديك، وعز ناديك، ولا آلم بك ألم، ولا طاف بك عدم، وسلمك الله ولا أسلمك. وسمعت بعض العرب يدعو لرجل ويقول: سلمك الله تعالى من الرهق والوهق^(١) وعافاك الله تعالى من الوحل والزحل^(٢)، وسلمك الله تعالى من الشاردات والواردات^(٣)، وسلمك الله بين الأعتة والأسته^(٤). ودعا أعرابي لعبد الله بن جعفر رضي الله عنه فقال: لا ابتلاك الله تعالى ببلاء يعجز عنه صبرك، وأنعم عليك نعمة يعجز عنها شكرك، وأبقاك ما تعاقب الليل والنهار وتناسخت الظلم والأنوار. ودعا بعضهم لآخر فقال: زدك الله تعالى الأمن في مسيرك، والسعد في مصيرك، ولا أخلاك من شر تستجده، وخير من الله تستمده. وعزى شبيب بن شبة يهودياً فقال أعطاك الله على مصيبتك أفضل ما أعطى أحداً من أهل ملتك.

ومما جاء في الدعاء على الأعداء والظلمة ونحوهم، دعا أعرابي على ظالم فقال: لا ترك الله لك شفراً ولا ظفراً أي عيناً ولا يداً. ومن دعاء العرب: فثَّه الله فثاً، وحثَّه حثاً، وجعل أمره شتى. وخرج أعرابي إلى سفر وكانت له امرأة تكرمه فأتبعته نواة، وقالت: شط نواك، ونأى سفرك ثم أتبعته روثة وقالت رثك أهلك، وورث خيرك، ثم أتبعته حصاة وقالت حاص رزقك وحص أثرك. ودعا أعرابي على آخر فقال: أطفأ الله ناره وخلع نعليه. أي جعله أعمى مقعداً. ودعا أعرابي على آخر فقال: سقاء الله دم جوفه أي قتل ابنه، وأخذ دينه، فشرب لبنها. ودعا أعرابي على آخر فقال: بعث الله عليه سنة فاشورة تحلقه كما يحلق الشعر بالنورة. ودعا رجل على أمير فقال:

أزال الله دولته سريعاً فقد ثقلت على عنق الليالي

وقالت امرأة من بني ضبة في زوجها:

(١) الوهق: التعب والوهق الحبل.

(٢) الزحل: التعثر والإزاحة.

(٣) الواردات: المصائب.

(٤) الأسته: في الحرب.

وما دعوتُ عليه حين ألغنه إلا وآخرُ يتلوهُ بآمين
فلينه كان أرضُ الروم منزله وليتي قبله قد صرت للصين

وقال رسول الله ﷺ في خطبته يوم الأحزاب: اللهم كلّ سلاحهم، واضرب وجوههم، وفزقهم في البلاد تمزيق الريح للجراد. ودعا رجل فقال: اللهم أكفنا أعدائنا ومن أرادنا بسوء فلتحط به ذلك السوء إحاطة القلائد بترائب الولايد، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على هام أصحاب القيل وحسبنا الله ونعم الوكيل. ولنختم هذا الباب بهذا الدعاء المبارك وهو: اللهم إنك عرفتنا بربوبيتك، وغرقتنا في بحار نعمتك، ودعوتنا إلى دار قدسك، ونعمتنا بذكرك وأنسك إلهي إن ظلمة ظلمنا لنفوسنا قد عمت، وبحار الغفلة على قلوبنا قد طمت، والعجز شامل، والحصر حاصل، والتسليم أسلم وأنت بالخال أعلم إلهي ما عصيتك جهلاً بعقابك، ولا تعرضاً لعذابك ولكن سؤلتها نفوسنا وأعاتتنا شقوتنا وغرنا سترك علينا، وأطمعنا في عفوك برك بنا. فالآن من عذابك من يقدنا، ويحيل من نعتصم إن قطعت حبلك عنا، وأحجلتاه غداً من الوقوف بين يديك، وأفضيحتاه إن عرضت فعالنا القبيحة عليك اللهم اغفر ما علمت، ولا تهتك ما سترت. إلهي إن كنا عصيتك بجهل فقد دعوناك بعقل، حيث علمنا أن لنا رباً يغفر لنا ولا ييالي. إلهي لا تحرق بالنار وجهاً كان لك مصلياً، ولساناً كان لك ذاكراً وداعياً، لا بالذي دلنا عليك وأمرنا بالخشوع بين يديك وهو محمد ﷺ خاتم أنبيائك وسيد أصفيائك فإن حقه علينا أعظم الحقوق بعد حقك، كما أن منزلة لديك أشرف المنازل، سيد خلقتك، ومعدن أسرارك، صل يا رب على محمد وآله وأصحابه وارحم عباداً غرهم طول إسهالك، وأطمعهم كثرة إفضالك فقد ذلوا لعزك وجلالك، ومدوا أكفهم لطلب نوالك ولولا ذلك لم يصلوا إلى ذلك. اللهم اغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين أجمعين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثامن والسبعون: في القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل

اعلم أن كل ما يجري في العالم من حركة وسكون، خير وشر، ونفع وضر، وإيمان وكفر، وطاعة ومعصية، فكل بقضاء الله وقدره وكذلك فلا طائر يطير بجناحيه، ولا حيوان يدب على بطنه ورجليه، ولا تنطن بعوضة، ولا تسقط ورقة إلا بقضائه وقدره وإرادته ومشيته، كما لا يجري شيء من ذلك إلا وقد سبق علمه به. واعلم أن كل ما قضاه الله تعالى وقدره فهو كائن لا محالة، كما أن ما في علم الله تعالى يكون فهو كائن قريب، وما قدر الله وصوله إليك بعد الطلب فهو لا يصل إليك إلا بالطلب، والطلب أيضاً من القدر، فإن تعسر شيء فبتقديره وإن اتفق شيء فبتيسيره. فمن رام أمراً^(١) من الأمور ليس الطريق في تحصيله أنه يغلّق بابه عليه، ويفوض أمره لربه، ويتنظر حصول ذلك الأمر، بل الطريق أن يشرع في طلبه على الوجه الذي شرعه الله له فيه وقد ظاهر النبي ﷺ بين درعين، واتخذ خندقاً حول المدينة حين تحزبت عليه الأحزاب يحترس به من العدو، وأقام الرماة يوم أحد ليحفظوه من خالد بن الوليد وكان يلبس لامة الحرب ويهيم الجيوش ويأمرهم وينهاهم لما فيه من مصالحهم واسترقي وأمر بالرقية، وتداوي وأمر بالمداواة، وقال: الذي أنزل الداء أنزل الدواء. فإن قيل قد روي إن النبي ﷺ قال: من استرقى أو اكتوى فهو بريء من التوكل. قلنا أليس قد قال: إعقلها وتوكل. فإن قيل فما الجمع بين ذلك، قلنا معناه من استرقى أو اكتوى متكللاً على الرقية أو الكي وأن البرء من قبلهما خاصة فهذا يخرج عن التوكل، وإنما يفعله كافر يضيف الحوادث إلى غير الله، وقد أمرنا بالكسب والتسبب ألا ترى أن الله قال لمريم عليها السلام ﴿وهزي إليك بالجنع النخلة﴾^(٢) فهلا أمرها بالسكون وحمل الرطب إلى فمها وأنشدوا في ذلك:

ألم تر أن الله قال لمريم وهزي إليك الجنع يساقط الرطب
ولو شاء أن تجنيه من غير هزها جثته ولكن كل شيء له سبب

وقد تقدّم هذا الشعر في باب الكسب والتسبب ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» فلم يحمل أرزاقها إليها في أوكارها بل ألهمها. طلبها بالغدو والرواح وقد جمعوا بين الطلب والقدر فقالوا إنهما كالعديلين على ظهر الدابة إن حمل في واحد منهما أرجح مما في الآخر سقط حمله، وتعب ظهره، وثقل عليه سفره، وإن عادل بينهما سلم ظهره، ونجح سفره، وتمت بغيته. وضربوا به مثالاً عجيباً فقالوا: إن أعمى ومقعداً كانا في قرية بفقر وضر، لا قائد للأعمى، ولا حامل للمقعّد وكان في القرية رجل يطعمهما قوتهما في كل يوم احتساباً بالله تعالى، فلم يزالا بنعمة إلى أن هلك ذلك الرجل فلبثا بعده أياماً، واشتد

(١) رام أمراً: طلب.

(٢) سورة: مريم، الآية: ٢٥.

جوعهما، وبلغ الضر منهما جهده، فأجمع رأيهما على أن الأعمى يحمل المقعد، فيدله المقعد على الطريق يبصره. فاشتغل الأعمى بحمل المقعد ويدور به ويرشده إلى الطريق، وأهل القرية يتصدقون عليهما فتنجح أمرهما، ولولا ذلك لهلكا. فكَذَلِكَ القدر سببه الطلب، والطلب سببه القدر وكل واحد منهما معين لصاحبه، ألا ترى أن من طلب الرزق والولد ثم قعد في بيته لم يظأ زوجته ولم ييذر أرضه معتمداً في ذلك على الله واثقاً به أن تلد امرأته من غير موافقة، وأن ينبت الزرع من غير بذر كان عن المعقول خارجاً ولأمر الله كارهاً، قال الغزالي: أما المعطل فلا يخرج عن حل التوكل بادخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم، وتسكيناً لقلوبهم وقد ادخر رسول الله ﷺ قوت سنة ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً. وقال: أنفق يا بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا. وقال عبد الله بن الفرج: أطلعت على إبراهيم بن أدهم وهو في بستان بالشام فوجدته مستلقياً على قفاه وإذا بحية في فمها باقة نرجس فما زالت تدب عنه حتى انتبه. فحسبك توكلٌ يؤدي إلى هذا. وعن عبد الله الهروي قال: كنا مع الفضيل بن عياض على جبل أبي قيس، فقال: لو أن رجلاً صدق في توكله على الله، ثم قال لهذا الجبل اهتر لاهتر، فوالله لقد رأيت الجبل اهتر وتحرك. فقال له الفضيل رحمه الله تعالى: لم أعنك رحمك الله فسكن.

وفي الإسرائيليات أن رجلاً احتاج إلى أن يقتض ألف دينار فجاء إلى رجل من المتمولين فسأله في ذلك، وقال له: تمهل عليّ بدينك إلى أن أسافر إلى البلد الفلاني فإن لي مالا أتيتك به وأوفيك منه، وتكون مدة الأجل بيني وبينك كذا وكذا فقال له هذا غرر. فأنا ما أعطيك مالي إلا أن تجعل لي كفيلاً، إن لم تحضر طلبته منه. فقال الرجل: الله كفيل بمالك وشاهد عليّ، أن لا أغفل عن وفائك فإن رضيت فافعل. فدخل الرجل خشية الله تعالى وحمله التوكل على أن دفع المال للرجل فأخذه ومضى إلى البلد الذي ذكره. فلما قرب الأجل الذي بينه وبين صاحبه جهز المال وقصد السفر في البحر فمسر عليه وجود مركب. ومضت المدة وبعدها أيام وهو لا يجد مركباً فاغتم لذلك وأخذ الألف دينار وجعلها في خشبة وسمر عليها ثم قال: اللهم إني جعلتك كفيلاً بإيصال هذه إلى صاحبها وقد تعذر عليّ وجود مركب وعزمت على طرحها في البحر وتوكلت عليك في إيصالها إليه. ثم نقش على الخشبة رسالة إلى صاحبها بصورة الحال طرحها في البحر بيده، وأقام في البلد مدة بعد ذلك إلى أن جاءت مركب فسافر فيها إلى صاحب المال فابتدأه، وقال: أنت سیرت الألف دينار في خشبة صفتها كيت وكيت، وعليها منقوش كذا وكذا؟ قال: نعم. قال: قد أوصلها الله تعالى إليّ، والله نعم الكفيل. فقال: فكيف وصلت إليك؟ قال: لما مضى الأجل المقدّر بيني وبينك بقيت أتردد إلى البحر لأجدك أو أجد من يخبرني عنك فوقت ذات يوم إلى الشط وإذا بالخشبة قد استندت إليّ، ولم أر لها طالباً، فأخذها الغلام ليجعلها حطاً، فلما كسرهما وجد ما فيها، فأخبرني بذلك فقرأت ما عليها، فعلمت أن الله تعالى حقق أملك لما توكلت عليه حق التوكل.

وقيل إن سبب بداية ذي النون المصري رحمه الله تعالى أنه طيراً أعمى بعيداً عن الماء والمرعى فينما هو يضكر في أمر ذلك الطائر فإذا هو بسكرجتي برزتا من الأرض إحداهما ذهب، والأخرى فضة، هذه فيها ماء، والأخرى فيها قمح فلقط القمح وشرب الماء، ثم غاب بعد ذلك فذهل ذو النون وانقطع إلى الله تعالى من ذلك الوقت.

وحكي أن رجلاً من أبناء الناس كانت له يد في صناعة الصياغة، وكان أوحده أهل زمانه فساء حاله وافتر بعد غناه، ففكرة الإقامة في بلده فانتقل إلى بلد آخر فسأل عن سوق الصاغة فوجد دكاناً لمعلم السلطنة وتحت يده صناع

كثيرون يعملون الأشغال للسلطنة وله سعادة ظاهرة ما بين ممالك وخدم وقماش وغير ذلك فتوصل الصائغ الغريب إلى أن بقي من أحد الصنائع الذين في دكان هذا المعلم، وأقام يعمل عنده مدة وكلما فرغ النهار دفع له درهمين من فضة وتكون أجرة عمله تساوي عشرة دراهم فيكسب عليه ثمانية دراهم في كل يوم. فاتفق أن الملك طلب المعلم وناولوه فردة سوار من ذهب مرصعة بفصوص في غاية من الحسن قد عملت في غير بلاده، كانت في يد إحدى محاطيه^(١) فانكسرت فقال له الحمها فأخذها المعلم وقد اضطرب عليه في عملها فلم أخذها وأراها للصنائع الذين عنده، وعند غيره فما قال له أحد إنه يقتدر على عملها فازداد المعلم لذلك غماً ومضت مدة وهي عنده لا يعلم ما يصنع. فاشتد الملك على إحضارها وقال هذا المعلم نال من جهتنا هذه النعمة العظيمة، ولا يحسن أن يلحم سواراً، فلما رأى الصانع الغريب شدة ما نال المعلم قال في نفسه: هذا وقت المروءة أعملها ولا أؤاخذها بخلة علي، وعدم إنصافه، ولعله يحسن إليّ بعد ذلك فحط يده في درج المعلم وأخذها وفك جواهرها وسبكها ثم صاغها كما كانت ونظم عليها جواهرها فعادت أحسن ما كانت فلما رآها المعلم فرح فرحاً شديداً ثم مضى بها إلى الملك، فلما رآها استحسناها وادعى المعلم أنها صنعتها فأحسن إليه، وخلع عليه خلعة سنية فجاء وجلس مكانه فبقي الصائغ يرجو مكافأته عما عامله به، فما التفت إليه المعلم ولما كان النهار ما زاده على الدرهمين شيئاً. فما مضت إلا أيام قلائل وإذا الملك اختار أن يعمل زوجين أساور على تلك الصورة فطلب المعلم ورسم له بكل ما يحتاج إليه، وأكد عليه في تحسين الصنعة وسرعة العمل فجاء إلى الصانع وأخبره بما قال الملك فامثل مرسومه، ولم يزل متصباً إلى أن عمل الزوجين وهو لا يزيد شيئاً على الدرهمين في كل يوم ولا يشكره ولا يعده بخير، ولا يتجمل معه فرأى المصلحة أن ينقش على زوج منهما أبياتاً يشرح فيها حاله ليقف عليها الملك فنقش في باطن إحداها هذه الأبيات نقشاً خفيفاً يقول:

مصائبُ الدهرِ كُفِّي	إن لم تكفُني ففُفِّي
خرجتُ أطلبُ رزقي	وجدتُ رزقي توفِّي
فلا برزقي أحظى	ولا بصنعتي كفِّي
كم جاهل في الثريا	وعالم متخفي

قال: وعزم الصانع على أنه إن ظهرت الأبيات للمعلم فشرح له ما عنده وإن غم عليه ولم يرها كان سبب توصله إلى الملك ثم لقيهما في قطن وتاولهما للمعلم فرأى ظاهرهما ولم ير باطنهما لجهله بالصنعة ولما سبق له في القضاء فأخذها المعلم ومضى بهما فرحاً إلى الملك وقدمهما إليه فلم يشك الملك في أنهما صنعتا، فخلع عليه وشكره ثم جاء فجلس مكانه ولم يلتفت إلى الصانع وما زاده في آخر النهار شيئاً على الدرهمين، فلما كان اليوم الثاني خلا خاطر الملك فاستحضر الحظية التي عمل لها السوارين الذهب فحضرت وهما في يدها فأخذهما ليعيد نظره فيهما، وفي حسن صنعتهما فقرأ الأبيات فتعجب وقال هذا شرح حال صانعهما والمعلم يكذب ففضب عند ذلك وأمر بإحضار المعلم فلما حضر قال له من عمل هذين السوارين قال: أنا أيها الملك قال فما سبب نقش هذه الأبيات قال لم يكن عليهما أبيات قال كذبت ثم أراه النقش وقال إن لم تصدقني الحق لأضربن عنقك فأصدق الحق فأمر الملك بإحضار الصانع فلما حضر سأله عن حاله فحكى له قصته وما جرى له مع المعلم فرسم الملك بعزل المعلم وأن تسلب نعمته

وتعطى للصانع وأن يكون عوضاً عنه في الخدمة، ثم خلع عليه خلعة سنية وصار مقدماً سعيداً فلما نال هذه الدرجة وتمكن عند الملك تلتف به حتى رضي عن المعلم الأول وصارا شريكين ومكثا على ذلك إلى آخر العمر ورحم الله من قال:

إذ كان سعدُ المرء في الدهر مقبلاً تدانَتْ له الأشياءُ من كل جانبٍ
وقال آخر:

ما سلمَ الله هو السالم ليس كما يزعم الزاعمُ
تجري المقاديرُ التي قدرت وأنفُ من لا يرتضي راغمُ
وقال كعب بن زهير:

لو كنت أعجبُ من شيءٍ لأعجني سعيُ الفتى وهو مخبوءٌ له القدرُ
يسعى الفتى لأمورٍ ليس يدركُها والنفسُ واحدةٌ والهمُّ متشرُّ
والمرءُ ما عاشَ ممدودٌ له أملٌ لا ينتهي ذاك حتى ينتهي العمرُ

وروي في الإسرائيليات أن نبياً من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مر بفخ منصوب، وإذا بطائر قريب منه فقال له الطائر: يا نبي الله هل رأيت أقل عقلاً ممن نصب هذا الفخ ليصيدني به، وأنا أنظر إليه. قال: فذهب عنه ذلك النبي عليه السلام ثم رجع وإذا بالطائر في الفخ، فقال له: عجباً لك ألت القاتل كذا وكذا أنفاً. فقال: يا نبي الله إذا جاء الحين لم يبق أذن ولا عين. ويروي أن رجلاً قال لبرزجمهر: تعالى نتأظر في القدر. قال: وما تصنع بالمناظرة؟ قال: رأيت شيئاً ظاهراً استدلت به على الباطن، رأيت جاهلاً مبروراً، وعالماً محروماً، فعلمت أن التدبير ليس للعباد. ولما قدم موسى بن نصير بعد فتح الأندلس على سليمان بن عبد الملك قال له يزيد بن المهلب: أنت أدهى الناس وأعلمهم فكيف طرحت نفسك في يد سليمان؟ فقال: إن الهدهد ينظر إلى الماء في الأرض على ألف قامة ويصر القريب منه والبعيد على بعد في التخوم،^(١) ثم ينصب له أهل الصبي الفخ بالدودة، أو الحبة فلا يبصره حتى يقع فيه وأنشدوا في ذلك:

وإذا خشيَتْ من الأمور مقدرًا وفررتْ منه فتحوه توجّه
وقال آخر:

أقامَ على المسيرِ وقد أنيخت مطاياهُ وغرّد حادياها
وقال أخافُ عاديةً الليالي على نفسي وأن ألقى رداها
مشياها خطأ كُيِّت علينا ومن كُبت عليه خطأ مشاها
ومن كانت ميثُه بأرضي فليس يموت في أرض سواها

ولما قتل كسرى بزرجمهر وجد في منطقته كتاب فيه: إذا كان القضاء حقاً، فالحرص باطل. وإذا كان الغدر في الناس طباعاً فالثقة بكل أحد عجز وإذا كان الموت بكل أحد نازلاً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق. وقال ابن عباس

(١) التخوم: الحد الفاصل بين أرضين وهي أيضاً المعالم التي يُهتدى بها في الطريق.

وجعفر بن محمد رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾^(١) إنما كان الكنز لوحاً من ذهب مكتوب فيه بسم الله الرحمن الرحيم عجبت لمن يوقن بالقدر كيف يحزن، وعجبت لمن يوقن بالرزق كيف ينصب، وعجبت لمن يوقن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يوقن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وحكى الطروشى رحمه الله تعالى في كتابه سراج الملوك قال: من عجب ما اتفق بالاسكندرية أن رجلاً من خدم نائب الإسكندرية غاب عن خدمته أياماً، ففي بعض الأيام قبض عليه صاحب الشرطة وحمله إلى دار النائب فانفلت في بعض الطرق وترامى في بئر، والمدينة إذ ذاك مسربة بسرداب يمشي الماشي فيه قائماً. فما زال الرجل يمشي إلى أن لاحت له بئر مضيئة فطلع منه فإذا البئر في دار النائب فلما طلع أسكه النائب وأدبه فكان فيه المثل السائر: الفار من القضاء الغالب، كالمقلب في يد الطالب، وأنشدوا فيه:

فَالْوَا تَقِيْمُ وَقَدْ أَحَا	ط بِكَ الْعَبْدُ وَلَا تَفْرُ
لَا نَلَسْتُ خَيْراً إِنْ بَقِيَ	ثُ وَلَا عِدَاتِي التَّهْمَرُ شُرُ
إِنْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنْ غَيَ	رَ اللَّهُ يَنْفَعُ أَوْ يَضُرُّ

الباب التاسع والسبعون: في التوبة والاستغفار

قد تظاهرت دلائل الكتاب والسنة وإجماع الأمة على وجوب التوبة وأمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾^(١) ووعد بالقبول فقال تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾^(٢) وفتح باب الرجاء فقال: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾^(٣) وروي في الصحيح عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى الله تعالى فإني أتوب إلى الله تعالى في اليوم مائة مرة».

روى أحمد بن عبد الرحمن السلماني قال اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ فقال أحدهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى يقبل التوبة من عبده قبل أن يموت يوم»، فقال الثاني: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: «إن الله تعالى يقبل توبته قبل أن يموت بنصف يوم». فقال الثالث: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال وأنا سمعته يقول: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد قبل موته بضحية، أو قال بضجعة. فقال الرابع: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: وأنا سمعته يقول: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر»^(٤).

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «الله أفرح بتوبة عبده، من رجل نزل بأرض دوية مهلكة معه راحلته فنام واستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا أدركه الموت قال أرجع إلى المكان الذي ضللتها فيه وأموت، فأتى مكانه فغلبته عينه فاستيقظ، وإذا راحلته عند رأسه فيها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه. فإله أشد فرحاً بتوبة عبده المؤمن من هذا براحلته وزاده». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» رواه البخاري. وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يسطر يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويسطر يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٥) رواه مسلم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه» رواه مسلم. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً فسأل عن أعبد أهل الأرض فدل على راهب فأناؤه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ قال: لا فقتله وكمل به المائة، ثم سأل عن أعلم

- (١) سورة: النور، الآية: ٣١.
- (٢) سورة: الشورى، الآية: ٢٥.
- (٣) سورة: الزمر، الآية: ٥٣.
- (٤) الغرغرة: تردد الروح في الحلق.
- (٥) هي علامة يوم القيامة.

أهل الأرض فدل على رجل عالم فأتاه وقال له: إنه قد قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ قال نعم ومن يحل بينك وبين التوبة انطلق كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله تعالى معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء. فانطلق حتى كان نصف الطريق أدركه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة جاءنا تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى. فقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط. فأتاهم ملك في صورة آدمي فحكموه بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو أقرب لها فقاموه فوجدوه أدنى إلى الأرض. التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة. متفق عليه. وفي الصحيحين: فكان أدنى إلى أرض التوبة الصالحة بشير فجعل من أهلها.

وعن أبي نجيذ بضم النون وفتح الجيم عمران بن الحصين الخزاعي رضي الله عنه. أن امرأة من جبهة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا فقالت: يا رسول الله أصبْتُ حداثاً فأقمه عليّ فدعا نبي الله ﷺ فشلت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت. ثم صلى عليها. فقال عمر يا رسول الله تصلي عليها وقد زنت قال: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم. وهل وجدت أفضل ممن حادت بنفسها لله عز وجل^(١). رواه مسلم. وعن أبي نضرة قال: لقيت مولى لأبي بكر رضي الله عنه فقلت له: سمعت من أبي بكر شيئاً قال نعم سمعته يقول: قال رسول الله ﷺ: «ما أصر من استغفر ولو عاد إلى الذنب في اليوم سبعين مرة».

وحكي أن نهبان التمار وكنيته أبو مقبل أته امرأة حسناء تشتري تمرأ فقال لها: هذا التمر ليس بجيد وفي البيت أجود منه فذهب بها إلى بيته وضمها إلى نفسه وقبلها فقالت له: اتق الله فتركها وندم على ذلك فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً^(٢)﴾ إلى آخر الآية. وعن أسماء بن الحكم الفزاري قال: سمعت علياً يقول: إني كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله حديثاً ينفني الله منه بما شاء ينفني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلته، فإذا حلف لي صدقته وإنه حدثني أبو بكر وصلى أبو بكر أنه سمع رسول الله يقول: «ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ويصلي ثم يستغفر الله إلا غفر له» وروي في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا أذنب العبد ذنباً فقال يا رب أذنبت ذنباً فاغفره لي قال الله عز وجل: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به فغفر له، ثم إذا مكث ما شاء الله وأصاب ذنباً آخر فقال يا رب أذنبت ذنباً فاغفره لي، قال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ به قد غفرت لعبدي فليفعل ما شاء». وكان قتادة رضي الله تعالى عنه يقول: القرآن يدلكم على دلائكم ودوائكم فالاستغفار، وأما دواؤكم فالذنوب. وكان علي رضي الله تعالى عنه يقول: العجب لمن هلك ومعه كلمة النجاة قيل: وما هي؟ قال: الاستغفار. وقال رسول الله ﷺ: «من قال عشرين حين يصبح، وحين يمسي استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه وأسأله التوبة والمغفرة من جميع الذنوب غفرت ذنوبه ولو كانت مثل رمل عالج. ومن قال: سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه ولو كانت مثل ديب النمل». وقال أبو عبد الله الوراق: لو كان عليك من الذنوب مثل عدد القطر، وزيد البحر محيت عنك إذا استغفرت بهذا الاستغفار وهو هذا: اللهم إني أسألك وأستغفرك من كل ذنب تبت إليك منه ثم عدت فيه، واستغفرك من كل ما وعدتك من نفسي، ثم لم أوف لك به، وأستغفرك من كل

(١) الحديث رواه مسلم بغير هذا اللفظ وزيادة في الرواية حيث تباعدت الرواية هاهنا.

(٢) سورة: آل عمران، الآية: ١٣٥.

عمل أردت به وجهك فخالطه غيرك، وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها عليّ فاستعنت بها على معصيتك. يقول الله عز وجل لملائكته: ويح ابن آدم يذنب الذنب ثم يستغفرني فأغفر له، ثم يذنب الذنب فيستغفرني فأغفر له، لا هو يترك الذنب من مخافتي ولا يئس من مغفرتي أشهدكم يا ملائكتي أشهدكم يا ملائكتي أنني عد غفرت له. وقال بشر الحافي: بلغني أن العبد إذا عمل الخطيئة أوحى الله تعالى إلى الملائكة الموكلين: ترققوا عليه سبع ساعات فإن استغفرني فلا تكتبوها وإن لم يستغفرني فاكتبوها.

نكتة: قيل: انقطع الغيث عن بني إسرائيل في زمن موسى عليه الصلاة والسلام حتى احترق النبات، وهلك الحيوان فخرج موسى عليه الصلاة والسلام في بني إسرائيل وكانوا سبعين رجلاً من نسل الأنبياء مستغيثين إلى الله قد بسطوا أيدي صدقهم وخضوعهم وقربوا قربان تذلّهم وخشوعهم ودموعهم تجري على خدودهم ثلاثة أيام فلم تمطر لهم فقال موسى: اللهم أنت القاتل ادعوني أستجب لكم وقد دعوتك وعبادك على ما ترى من الفاقة والحاجة والذل فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى إن فيهم من غذاؤه حرام، وفيهم من ييسط لسانه بالغيبة والنميمة وهؤلاء استحقوا أن أنزل عليهم غضبي، وأنت تطلب لهم الرحمة كيف يجتمع موضع الرحمة وموضع العذاب؟ فقال موسى: ومن هم يا رب حتى نخرجهم من بيننا فقال الله تعالى: يا موسى لست بهتاك ولا نعم، ولكن موسى، توبوا كلكم بقلوب خالصة فمساهم يتوبوا معكم فأجود بأنعامي عليكم. فنادى منادي موسى في بني إسرائيل أن اجتمعوا فاجتمعوا فأعلمهم موسى عليه الصلاة والسلام بما أوحى إليه، والعصاة يلزفون فذرفت أعينهم ورفعوا مع بني إسرائيل أيديهم إلى الله عز وجل وقالوا: إلهنا جنتك من أوزارنا هارين، ورجعنا إلى بابك طالبين، فارحمنا يا أرحم الراحمين فما زالوا كذلك حتى سقوا بتوبتهم إلى الله تعالى، اللهم تب علينا وعلى سائر العصاة والمذنبين يا رب العالمين. أوحى الله إلى داود عليه الصلاة والسلام يا داود لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ، وتقطعت أوصالهم من محبتي. يا داود هذه إرادتي في المدبرين عني فكيف إرادتي بالمقبلين عليّ. ولقد أحسن من قال:

أسىء فيجزى بالإساءة إفضالاً	وأعصي فيوليني براً وإمهالاً
فحتى متى أجفوه وهو يرني	وأبعد عنه وهو يبدل إيصالاً
وكم مرة زغت عن نهج طاعة	ولا حال عن ستر القبيح ولا زالا

وهذا آخر ما يسره الله تعالى في هذا الباب والله أعلم بالصواب.

الباب الثمانون: في ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء وما جاء في السنة من العيادة وما أشبه ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في الأمراض والعلل وما جاء في ذلك من الأجر والثواب

روي عن عبد الله بن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أيكم يحب أن يصح جسمه فلا يسقم، فقالوا كلنا يا رسول الله. قال أتحبون أن تكونوا كالحمير الصواله، ألا تحبون أن تكونوا أصحاب بلايا وأصحاب كفارات، والذي بعثني بالحق نبياً، إن الرجل لتكون له الدرجة في الجنة فلا يبلغها بشيء من عمله، فيبتليه الله تعالى ليلج درجة لا يبلغها بعمله». وقال ﷺ: «ما من مسلم يمرض مرضاً إلا حط الله من خطاياهم كما تحط الشجرة ورقها». وكان يقول: لا تزال الأوصاب^(١) والمصائب بالمعد حتى تتركه كالفضة البيضاء النقية المصفاة. قيل إن الناس قد حُتموا في فتح خير، فشكوا إلى رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس إن الحمى رائد الموت وسجن الله في الأرض وقطعة من النار، فإذا وجدتم ذلك فبردوا لها الماء في الشنان^(٢) ثم صبوا عليكم بين المغرب والعشاء، ففعلوا ذلك فزالت عنهم». وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: دخل رسول الله ﷺ على شاب وهو في الموت فقال له: كيف تجدك فقال أرجو الله، وأخاف ذنوبي، فقال عليه الصلاة والسلام: «هما لا يجتمعان في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف». وعن غيرة بنت الوليد البصرية العابدة الزاهدة رحمها الله تعالى أنها سمعت رجلاً يقول ما أشد العمى على من كان بصيراً. فقالت له يا عبد الله عمى القلب عن الله أشد من عمى العين عن الدنيا، والله لوددت أن الله وهب لي كنه معرفته ولم يبق مني جراحة إلا أخذها. وكتب مبارك لأخيه سفيان الثوري يشكو إليه ذهاب بصره فكتب إليه: أما بعد فقد فهمت كتابك فيه شكاية ربك، فاذكر الموت يهن عليك ذهاب بصرك والسلام. وقيل لعطاء في مرضه: ما تشتهي؟ قال: ما ترك خوف جهنم في قلبي موضعاً للشهوة. وأصاب ابن أدهم بطن فترضاً في ليلة سبعين مرة. وقيل لأعرابي في مرضه: ما تشتهي؟ قال: الجنة. فقيل: أفلا ندعو طبيباً؟ قال: طيبني هو الذي أمرضني.

الفصل الثاني: في ذكر العلل كالبخر والعرج والعمى والصمم والرمد والفالج وغير ذلك نسأل الله العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدنيا والآخرة

قيل: تسارر أبخر وأصم فقال له الأصم: قد فهمت ثم فارقه. فسأله رجل فقال والله لا أدري غير أنه فسا في

(١) الأوصاب: الأسقام.

(٢) الشنان: القرية.

أذني. وقيل إن عبد الملك بن مروان كان أبخر فعرض يوماً على نقاعة ورمى بها إلى زوجته، فدعت بسكين فقال ما تصنعين بها؟ قالت أميط الأذى عنها، فشق عليه ذلك منها فطلقها. وسارر أبو الأسود الدؤلي سليمان بن عبد الملك وكان أبو الأسود أبخر، فستر سليمان أنه بكه فمير أبو الأسود وهو يقول: لا يصلح للخلافة من لا يقدر على مناجاة الشيوخ البحر. وقيل طول انطباق الفم يورث البحر، وكل رطب سائل لللعاب سالم منه. وقيل إن الزنج أطيب الناس أفواهاً. والسباع موصوفة بالبحر، والمثل مضروب بالأسد والصقر في البحر، والكلب من بينهما طيب النفس وليس في البهائم أطيب أفواهاً من الطباء:

وحكي أن أبخر تزوج بامرأة فلما ضاجعها عافته وتولت عنه بوجهها ثم أنشدت تقول:

يا حب والرحمن إن فاكأ أهلكني فولئسي قفاكا
إذا غدت فاتخذ مسواكاً من عرفط إن لم تجد أراكأ
لا تقرني بالذي سواكا إنني أراك ماضغاً خراكا

وفي ديوان المتنبي: كم من ذي عرج في درج المعالي عرج، وكم من صحيح قدم ليس له في الخير قدم. وقيل إن من الصمم من يسمع السر، فإذا رفعت إليه الصوت لم يسمعه. ورأيت من العشى من لا ينظر صورة الإنسان من قريب. ولكن يقرأ الخط الرقيق الحواشي. وقيل إن طريفاً الشاعر مدح عمرو بن هذاب وكان أبرص فلما انتهى إلى قوله: «أبرص فياض الديدن مهذب» صاح به الناس وقالوا: قطع الله لسانك. فقال عمرو: مه إن البرص مما تتفاخر به العرب. أما سمعتم قول سهل حيث قال:

أيشتمني زيد بأن كنت أبرصاً وكل كريم لا أبالك أبرص
وقال:

كفى حزناً أني أعاشر معشراً يخوضون في بعض الحديث وأمسك
وما ذاك من عي ولا من جهالة ولكنه ما في للصوت مسلك
فلن سد مني السمع فالله قادرٌ على فتحه الله للعبد أملك

ومما جاء في العمى ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: من علم إحدى كريمتيه ضمنت له على الله الجنة. وكان أبو عبد الرحمن بن الحارث بن هشام يطعم الطعام وكان أعور، فجعل أعرابي يطيل النظر إليه حاسباً نفسه عن طعامه، فكلمه المغيرة في ذلك فقال له: والله إنني ليعجبني طعامك وتريني عينك. قال: فما يريك من عيني؟ قال: أعور وأراك تطعم الطعام وهذه صفة الدجال فقيل له: إن عينه أصيبت في فتح الروم فقال: إن الدجال لا تصاب عينه في سبيل الله. وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: من قاد أعمى أربعين خطوة لم تمسه النار. وقال علي كرم الله وجهه: ربما أخطأ البصير قصده وأصاب الأعمى رشده. وقال أبو علس البصير:

لئن كان يهديني الغلام لوجهتي ويقتادني في السير إذ أنا راكبُ
لقد يستضيء القوم بي في وجوههم ويخبر ضياء العين والقلب ثاقبُ

وقال:

إذا علمت طلبة العلم ما لها من العلم إلا ما تسطر في الكتبُ

غدوتُ بشميرٍ وجدَّ عليهمُ ومجبرتي سَمْعِي وها دفترِي قلبي
وقال:

إن يأخذ من عيني نورهما ففي لساني وسَمْعِي منهما نورُ
فهمي ذكي وقلبي غير ذي غفل
وقال:

عزاءك إِيها العين السكوب وكنت كريمةتي وسراج وجهي
على الدنيا السلام فما لشيخ يموت المرء وهو يعدُّ حيا
إذا ما مات بعضك فإبك بعضا
وحكي أن ربيعا رمدت عينه فأرسل إلى امرأة كان يحبها ثم أنشد يقول:

عينا ربيعة رمدواون فاحتسبي بنظرة منك تشفيه من الرمد
إن تكتحل بك عينا فلا رمد على ربيعة يخشى آخر الأمد

وعن عبد الرحمن بن قيس عن النبي ﷺ أنه قال: «داء الأنبياء الفالج والقوة». قال الجاحظ: ومن المفاليج سيدنا إدريس عليه الصلاة والسلام وأكثر ما يعتري المتوسطين من الناس، لأن الشباب كثير الحرارة والشيخ كثير اليس. وقيل إن أبان بن عثمان كان أفالج حتى صار مثلاً، فكانت الناس تقول لا رماك الله بفالج ابن عثمان. وكان معاوية ألوق، وعبد الملك بن مروان أبخر، وحسان أعمى، وابن سيرين أصم. ومن فالج ابن أبي دؤاد قاضي قضاء المعتصم كان من الشرف والكرم بمنزلة عظيمة قد ضرب المثل بفالجه. قال الشاعر في رجل ضرب غلامه:

أنضرب مثله بالسوط عشراً ضُربت بفالج ابن أبي دؤاد

وشجّه عبد الحميد كانت مثلاً في الحسن وهو عبد الحميد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهم، وكان بارعاً في الحسن والجمال فزادته حسناً إلى حسنه، حتى أن النساء كن يخططن في وجوههن شجة عبد الحميد. وكان يقال لعمر بن عبد العزيز أشج بني أمية. وكان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يقول: إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر في جبهته. قال أصبغ: الله أكبر هذا أشج بني أمية يملأ الأرض عدلاً. وقال أعرور لأبي الأسود: ما الشيء ونصف الشيء ولا شيء. فقال: أما الشيء فالبصير كأننا، وأما لا شيء فالأعمى، وأما نصف الشيء فأنت يا أعرور. اللهم أكفنا شر العاهات برحمتك ومَنك وكرمك آمين.

الفصل الثالث: في التدوي من الأمراض والطب

قال رسول الله ﷺ: «تداووا فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء». وقال ﷺ: «ما أنزل الله داء إلا وله دواء عرفة من عرفة، وجهله من جهله». وستل رسول الله ﷺ عن الدواء والرقي هل يردان شيئاً من قضاء الله تعالى قال هما من قدر الله تعالى. وقال عبد الله بن عكرمة عجب لمن يحتمي من الطعام خوف الداء، ولا يحتمي من الذنوب خوف النار. وقيل

إن الربيع بن خيثم لما مرض قالوا له: ألا ندعو لك طبيباً. فقال لهم إن مرضي من الطبيب وأنه متى أراد عافاني ولا حاجة لي بطبيكم وأنشد:

فأصبحت لا أدعو طبيباً لطبه ولكنني أدعوك يا منزل القطر
وعاد الفرزدق مريضاً فقال:

يا طالب الطب من داء تخوفه إن الطبيب الذي أبلاك بالبداء
فهو الطبيب الذي يرجى لمافية لا من يذيب لك الترياق بالماء

قال ولما مرض بشر الحافي رحمه الله تعالى قالوا ندعو لك طبيباً فقال إني بعين الطبيب يفعل بي ما يريد. فألح عليه أهله وقالوا لا بد أن ندفع ماءك إلى الطبيب. فقال لأخته: إدفعي إليهم الماء في قارورة. وكان بالقرب منهم رجل ذمي وكان حاذقاً في الطب فأتوه بمائه في القارورة. فلما رآه قال: حركوه، فحركوه ثم قال ضعوه، ثم قال ارفعوه، فقالوا له: ما بهذا وصفت لنا. قال: ويم وصفت لكم؟ قالوا بالحنق والمعرفة، قال: هو كما تقولون. غير أن هذا الماء إن كان ماء نصراني فهو راهب قد فتت كبده العبادة، وإن كان مسلماً فهو ماء بشر الحافي فإنه أرحم أهل زمانه في السلوك مع الله تعالى. قالوا: هو ماء بشر الحافي فأسلم النصراني وقطع زناره. فلما رجعوا إلى بشر قال لهم: أسلم الطبيب. فقالوا: ومن أعلمك؟ قال: لما خرجتم من عندي هتب بي هاتف، وقال: يا بشر بركة مائك أسلم الطبيب وصار من أهل الجنة. وقلج الربيع بن خيثم قليل له: هلا تدلوت؟ فقال: قد عرفت أن الدواء حق ولكن عاد وثمود وقرون بين ذلك كثيراً كانت فيهم الأوجاع كثيرة، والأطباء أكثر فلم يبق المداوي ولا المداوي وقد أبادهم الموت ثم قال هذا المفرد:

هلك المداوي والمداوي والذي جلب الدواء وباعه والمشتري

وقيل لجالينوس حين نهكته العلة: أما تتعالج؟ فقال: إذا كان الداء من السماء، بطل الدواء من الأرض وإذا نزل قضاء الرب بطل حذر المريبوب. ومَرَّ قوم بماء من مياه العرب فوصف لهم ثلاث بنات متطيبات وهم من أجمل الناس فأحبوا أن يروهن فحكوا ساق أحدهم حتى أدموها ثم قصدوهن فقالوا هذا جريح مريض فهل من طبيب فخرجت صفراهن وهي كأنها الشمس الطالعة فلما رأت جرحه قالت ليس هو بمريض بل خدشه عود بالت عليه حية، فإذا طلعت الشمس مات فكان الأمر كما قالت. وقيل: دواء كل مريض بمقاير أرضه فإن الطبيعة تتطلع لهواتها. وقالوا: من قدم إلى أرض غير أرضه وأخذ من ترابها وجعله في مائها وشربه لم يمرض فيها وعوفي من وياتها. واحتسب أحمد بن المعدل لعله أصابته فبرء فقال: الحمية طالع الصحة لأهل الدنيا تبرئهم من المرض ولأهل الآخرة تبرئهم من النار. وقيل إن الأبدان المعتادة بالحمية آفتها التخليط، والمعتادة بالتخليط آفتها الحمية لأن الحكماء يقولون عودوا كل جسد بما اعتاد. وكان كسرى أنو شروان يمسك عما تميل إليه شهوته ولا ينهك عليه. ويقول تركنا ما نجه لنستغني عن العلاج بما نكرهه. وقال لقمان لا تطيلوا الجلوس على الخلاه فإنه يورث الباسور. وكانت هذه الحكمة مكتوبة على أبواب الحشوش: أي الكنف. وقيل كفى بالمرء عاراً أن يكون صريعاً^(١) مأكله وقتل أنامله.

فكم أكلة أكلت نفس حر وكم أكلة جلبت كل ضر

وقيل: من غرس الطعام أثمره الأسقام. وعن بعض أهل البيت النبوي عليهم السلام أنه كان إذا أصابته علة جمع بين ماء زمزم والعسل واستوهب من مهر أهله شيئاً وكان يقول: قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَبَارَكاً﴾^(١) وقال تعالى: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾^(٢). وقال عليه الصلاة والسلام: «ماء زمزم لما شرب له» وقال تعالى: ﴿فَإِنْ طَبِخَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾^(٣) فمن جمع بين ما بورك فيه وبين ما فيه شفاء وبين الهنيء والمريء يوشك أن يلقى العافية وقيل خمسة من المهلكات: دخول الحمام على الشيع، والمجاعة على الشيع، وأكل القديد وشرب الماء البارد على الريق، ومجاعة المرأة العجوز. وقال لا تنكح العجوز ولا تخرج الدم وأنت مستغن عن إخراجها. وقال الإمام علي رضي الله عنه:

توقّ مدى الأيام إدخال مطعم	على مطعم من قبل هضم المطاعم
وكلّ طعام يعجز السن مضغّه	فلا تقرينه فهو شرّ لطاعم
ورفّر على الجسم الدماء فإنها	لقوة جسم المرء خير الدعائم
ولئلاّ أن تنكح طواعن سنهم	فلن لها سمّاً كمّ الأراقم
وفي كلّ أسبوع عليك بقيّة	تكن آمناً من شر كل البلاغم

ومما يورث الهزال، النوم على غير وطاء، وكثرة الكلام يرفع الصوت. وقال النظم رحمه الله تعالى: ثلاثة تخرب العقل: طول النظر في المرأة، وكثرة الضحك، والنظر إلى النجوم. وفي الحديث: احتجم رسول الله ﷺ في أم مفيث، وهي وسط الرأس، وكان النبي ﷺ يحتجم في الأخبعين، ونهى عن الحجامة في نقر القفا فإنها تورث النسيان، وأمر بالإستنجاء بالماء البارد فإنه أمان من الباسور. وخطب المأمون بمسجد مروان فوجد غالب أهل المسجد يشكون السعال فقال في آخر خطبته: من كان يشكو سعالاً فليبدأ بالخل ففعلوا فعاهاهم الله. وقال بعض الحكماء: إياك أن تطيل النظر في عين أرمد، وإياك أن تسجد على حصير جديدة قبل أن تمسها بيدك فرب شظية حقيرة قلعت عيناً خطيرة. وقيل كانت: الأدوية تنبت في محراب سليمان عليه الصلاة والسلام ويقول كل دواء يا نبي الله أنا دواء لكذا وكذا. وقال جالينوس: البطنة تقتل الرجل وتورث الفالج، والإسهال النزيع، وصفاً من الجذام، يقال له الفهد لا يسمع صاحبه ولا يبصر. نسأل الله العفو والعافية. وقيل البطنة تورث الصداع، والكمة في العينين، والضربان في الأذنين والقولنج في البطن. فعليك أيها الإنسان بالطريقة الوسطى، واتق الليل وطعامه جهلك.

وقال جالينوس: الغم المفرط يمت القلب ويجمد الدم في العروق فيهلك صاحبه، والسرور المفرط يلهب حرارة الجسم حتى يغلب الحرارة الغريزية فيهلك صاحبه. وقيل إنه وضع على مائدة المأمون في يوم عيد أكثر من ثلاثين لوناً فكان يصف وهو على المائدة منفعة كل لون ومضرته فقال يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب فأنت جالينوس في معرفته، أو في النجوم فأنت هرمس في صناعته، أو في الفقه فأنت علي بن أبي طالب رضي

(١) سورة: ق، الآية: ٩.

(٢) سورة: النحل، الآية: ٦٢.

(٣) سورة: النساء، الآية: ٤.

الله تعالى عنه في علمه، أو في السخاء، فأنت حاتم في كرمه، أو في الحديث فأنت أبو ذر في صدق لهجته، أو في الوفاء فأنت السموأل بن عادياء في وفاته. فسر بكلامه وقال: يا أبا محمد إنما فضل الإنسان على غيره بالعقل، ولولا ذلك لكانت الناس والبهائم سواء. وقال طبيب الهند: إن منفعة الحقنة للجسد كمنفعة الماء للشجر. وقال سفيان بن عيينة: أجمع أطباء فارس على أن الداء إدخال الطعام على الطعام. وقالوا: إدخال اللحم على اللحم يقتل السباع في البر. وقيل الشرب في آنية الرصاص أمان من القولنج، وعرض رجل على طبيب قارورته فقال له: ما هي قارورتك لأنه ماء ميت، وأنت حي تكلمني، فما فرغ من كلامه حتى خر الرجل ميتاً. وقيل: إن ملكاً من الملوك حصل عنده صداع في رأسه فأحضر الطبيب فأمر أن يضع قدميه في الماء الحار وكان عنده خصي فقال: أين القدماء من الرأس؟ فقال له الطبيب: وأين وجهك من خصيتك نزعنا فذهبت لحيتك.

وقيل: إن المأمون حصل له صداع بطرسوس فأحضر طبيباً كان عنده فلم ينفعه علاجه فبلغ قيصر فأرسل إليه قلنسوة وكتب له: بلغني صداعك فضعها على رأسك يزل ما بك فخاف أن تكون مسمومة فوضعها على رأس القاصد فلم يصبه شيء، ثم إنه أحضر رجلاً به صداع فوضعها على رأسه فزال ما به، فتعجب المأمون، ثم إنه فتحها فوجد فيها رقعة مكتوب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم كم من نعمة الله تعالى في عرق ساكن، وغير ساكن حمص لا يصدعون عنها ولا يتزفون من كلام الرحمن. خمدت النيران ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وقال علي رضي الله عنه: ادهنوا بالبنفسج فإنه حار في الشتاء بارد في الصيف. وقال أيضاً رضي الله عنه: عليكم بالزيت فإنه يذهب البلغم ويشد العصب، ويحسن الخلق ويطيب النفس ويذهب الغم. وعنه رضي الله عنه: إن لم يكن في شيء شفاء ففي شرطة حاجم أو شربة من عسل. وقال الحجاج لطيبه: أخبرنا بجوامع الطب فقال: لا تتكح إلا فتاة. ولا تأكل من اللحم إلا فتياً، وإذا تغذيت فتم، وإذا تعشيت فامش ولو على الشوك، ولا تدخل بطنك طعاماً حتى تستمري ما فيه، ولا تأو إلى فراشك حتى تدخل الخلاء وكل الفاكهة في إقبالها، وذرها في إدبارها. وأوصى حكيم خليفته وصية ووعدته إذا لازمها لا يمرض إلا مرض الموت فقال: إياك أن تدخل طعاماً على طعام، ولا تمش حتى تعيا، ولا تجماع عجوزاً ولا تدخل حماماً على شبع. وإذا جامعت فكن على حال وسط من الغذاء، وعليك في أسبوع بقية ولا تأكل الفاكهة إلا في أوان نضجها ولا تأكل القديد من اللحم، وإذا تغذيت فتم وإذا تعشيت فامش أربعين خطوة. ونم على يسارك لتقع الكبد على المعدة فينضم ما فيها وتستريح الكبد من حرارة المعدة ولا تنم على يمينك فيطء الهضم ولا تأكل بشهوة عينيك بعد الشبع، ولا تنم ليلاً حتى تعرض نفسك على الخلاء إن احتجت إلى ذلك أو لم تحتاج واقعد على الطعام وأنت تشتبهه وقم عنه وأنت تشتبهه. قال بعضهم:

فتموّدوا من كل نفس تشره
نال الغنى إلا رأى ما يكره

شره النصوص على الجسوم بليّة
ما من فتى شرهت له نفس وإن

وقال أبو الفيض القضاعي يمدح الفضل وقد فسد:

لأصبح وجه الأرض أخضر زاهياً
لكان من الأسقام للناس شافياً

أرقت دماً لو تسكب المزن مثله
دماً طيباً لو يطلق الشرع شره

الفصل الرابع: في العيادة وفضلها

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة في ظل العرش: عائد المريض، ومشيح الموتى، وطائع والديه». وفي رواية: ومعزي الثكلى. ومن السنة تخفيف الجلوس في العيادة، مرض بكر بن عبد الله المزني فعاده أصحابه فأطالوا الجلوس عنه فقال: المريض يعاد، والصحيح يزار. قال الشاعر:

يعدن مريضاً هن هيجن داءه ألا إنما بعض العوائد دائياً

وقيل: إذا دخل العواد على الملك فحقهم أن لا يسلموا عليه فيحجوه إلى رد السلام، ويتعبوه، فإذا علموا أنه لاحظهم دعوا له وانصرفوا. قيل: مرض إنسان فكتب إليه بعض أصدقائه: كشف الله عنك ما بك من السقم، وطهرك بالعملة من الخطايا، وتمتلك بأنس العافية وأعقبك دوام الصحة. ومرض إنسان فكتب إليه صديقه:

بإخوانك الأدينين^(١) لا بك كلُّ ما شكوت إلى القيام من ألم الورد
فكلُّ امرئٍ منهم بقدر احتماله وإن عجزوا عنه تحمَّلتُهُ وحدي
وقال آخر:

بي سوءٍ والمكروه لا بك كلما أراك كانا بي وكان لك الأجرُ
وقال عبد الله بن مصعب:

ما لي مرضتُ فلم يعدني عائِدٌ منكم ويمرضُ كلُّكم فأعودُ
فسمي بعد ذلك عائِد الكلاب. وعاد مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه بعض المرضى فقال:
عادني مالِكُ فلست أبالي بُغِدَ مَنْ عادني وَمَنْ لم يعدني
وقال علي بن الجهم:

أراقِدَ الليلَ سروراً عدمت إذا عيشي، وأحمد يرمى لي له وصبا^(٢)
الله يعلمُ أنني قد نلرتُ له صيام شهرٍ إذا ما أحمدُ ركبا
وقال آخر:

إذا مرضتُم أتيانكم نعوذكمو وتلذَّبون فتأتيكم وتعتذرُ
وقال آخر:

أعاذك الله من أشياء أربعة الموت والعشق والإفلاس والجرب

وقيل: إن حق العيادة يوم بعد يوم أو يوم بعد يومين وعلى الأول قول الشاعر:

(١) الأدينين: الأقربون.

(٢) وصبا: مرضاً.

قَالَتْ مَرَضْتُ فَعَدَّتْهَا فَتَبَرَّئْتُ فَهِيَ الصَّحِيحَةُ وَالْعَلِيلُ الْمَائِدُ
وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ الْقُلُوبَ كَقُلُوبِهَا مَا رَقَى لِلْوَلَدِ الصَّغِيرِ الْوَالِدُ

وعلى الثاني قول بعضهم:

جِئْتُ الْعِيَادَةَ يَوْمَ بَعْدَ يَوْمَيْنِ وَجِلْسَةً مِثْلُ خَلْسِ اللَّحْظِ بِالْمَيْنِ
لَا تَبْرَمَنْ عَلِيلاً فِي مَسْأَلَةٍ يَكْفِيكَ مِنْ ذَلِكَ تَسَالُّ بِحَرْفَيْنِ

وفضل العيادة مشهور وشرفها مذكور وبها تعظم الأمور. وهذا ما انتهى إلينا من هذا الباب والله الموفق

للصواب.

الباب الحادي والثمانون: في ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله

روي ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مات لأحدكم ميت فاحسنوا كفته، وعجلوا إنجاز وصيته، وأعمقوا له في قبره وجنبوه جار السوء». قيل يا رسول الله وهل ينفع الجار الصالح في الآخرة؟ قال وهل ينفع في الدنيا؟ قالوا نعم. قال: وكذلك في الآخرة. ومن وصية علي رضي الله عنه لأبي ذر: زر القبور تذكر بها الآخرة، ولا تررها في الليل، وغسل الموتى يتحرك قلبك، وصل على الجنائز لعل ذلك يحزنك فإن الحزين في ظل الله تعالى. ويقال جزعك في مصيبة صديقك أحسن من صبرك، وصبرك في مصيبتك أحسن من جزعك. ونظر فيلسوف إلى ميت يحمل إلى قبره فقال: حبيب تحمله أهله إلى حبس الأبد. ودخل عمرو بن العاص رضي الله عنه على معاوية في مرضه مرضها. فقال له: أعائد أنت أم شامت فقال له عمرو لم تقول هذا؟ والله ما كلفتني^(١) رهقاً، ولا أصدعتني زلقاً ولا جرعتي^(٢) علقاً، فلم أسطل حياتك ولم أسبغني وفاتك فأنشد معاوية يقول:

فهل من خالدين إذا هلكننا وهل في الموت بين الناس عار

لما مرض معاوية رضي الله عنه مرضه الذي مات فيه وفد إليه الناس يعودونه فقال لأهله مهدوا لي فراشاً، وأسدنوني، وأوسعوا رأسي دهاناً ثم اكحلوا عيني بالأنثد ثم ألقنوا للناس يدخلوا ويسلموا عليّ قياماً، ولا تجلسوا عندي أحداً ففعلوا ذلك فلما خرجوا من عنده أنشد يقول^(٣):

وتجلدي للشامتين أريهم أني لرئب الدهر لا أتضعفُ
وإذا الميتة أنشبت أظفارها ألقيت كل تيمم لا تنفعُ

وقيل لما دنا منه الموت تمثل بهذا البيت:

هو الموت لا منجي من الموت والني نحاذرُ بعد الموت أدهى وأفظعُ

قال: ثم رفع يديه وقال: اللهم أقل العثرة، واعف عن الزلة، وعد بحلمك علي من لم يرج غيرك ولا يثق إلا بك فإنك واسع المغفرة وليس لذي خطيئة منك مهرب ومات رحمة الله تعالى. وذكر أبو العباس الشيباني قال: وفد على أبي دلف عشرة من أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه في العلة التي مات فيها فأقاموا بياحه شهراً لا يؤذن لهم لشدة العلة التي أصيب بها، ثم أفاق فقال لخادمه: بشر إن قلبي يحدثني أن بالباب قوماً لهم إلينا حوائج فافتح الباب

(١) كلفتني: تمياً.

(٢) جرعتي: شرب الدم الغليظ اليابس.

(٣) يمثل بأبيات أبي ذؤيب الهذلي.

ولا تمنعن أحداً. قال فكان أول من دخل، آل علي رضي الله عنه فسلموا عليه، ثم ابتدأ الكلام رجل منهم من ولد جعفر الطيار فقال: أصلحك الله أنا من أهل بيت رسول الله ﷺ وفيما من ولده وقد حطمتا المصائب، وأجحفت بنا النوائب، فإن رأيت أن تجبر كسيراً، وتغني فقيراً لا يملك قطميراً فافعل فقال لخادمه: خذ بيدي وأجلسني ثم أقبل معتذراً إليهم ودعا بدواة وقرطاس وقال: ليكتب كل منكم بيده أنه قبض مني ألف دينار قالوا: فبقينا والله متحيرين فلما أن كتبنا الرقاع ووضعناها بين يديه قال لخادمه: عليّ بالمال فوزن لكل واحد منا ألف دينار ثم قال لخادمه: يا بشر إذا أنا مت فادرج هذه الرقاع في كفني فإذا لقيت محمداً ﷺ في القيامة كانت حجة لي أنني قد أغنييت عشرة من ولده، ثم قال يا غلام ادفع لكل واحد منهم ألف درهم يتفقها في طريقه حتى لا يتفق من الألف دينار شيئاً حتى يصل موضعه قال: فأخذناها ودعونا له وانصرفنا ثم مات رحمه الله. لما دفن عمر بن عبد العزيز نزل عند دفنه مطر من السماء فوجدوا بردة مكتوب فيها بالنور (بسم الله الرحمن الرحيم أمان لعمر بن عبد العزيز من النار) وقيل لأعرابي: إنك تموت قال: وإلى أين أذهب؟ قالوا: إلى الله تعالى، فقال: لا أكره أن أذهب إلى من لا أرى الخير إلا منه.

ويكى الخولاني عند موته فقيل له: ما ييكك؟ قال: ابكي لطول السفر وقلة الزاد وقد سلكت عقبة، ولا أدري إلى أين أهبط، وإلى أي مكان أسقط. ودخل ملك الموت على داود عليه السلام فقال له: من أنت؟ قال: أنا الذي لا يهاب الملوك، ولا تمنع منه القصور، ولا يقبل الرشا. فقال: إذن أنت ملك الموت وإني لم أستمع بعد، فقال له: يا داود أين فلان جارك؟ أين فلان قريك؟ قال: ماتا قال: أما كان لك في موت هؤلاء عبرة لتستعد بها ثم قبضه عليه السلام. وفي الخبر من حديث حميد الطويل عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: إن الملائكة تكتف العبد وتحبسه ولولا ذلك لكان يعدو في الصحراء والبراري من شدة سكرات الموت. وقد أجمعت الأمة على أن الموت ليس له زمن معلوم، فليكن المرء على أهبة من ذلك. وقيل: بينما حسان جالس وفي حجره صبي يطعمه الزبد بالصل إذ شرق الصبي فمات فقال:

إِعْمَلْ وَأَنْتَ صَحِيحٌ مُطْلَقٌ فَرَحٌ مَا دُمْتَ وَبِحَكِّ يَا مَغْرُورٌ فِي مَهْلٍ
يَرْجُو الْحَيَاةَ صَحِيحٌ رِمَا كَمَنْتَ لَهُ الْمَيِّتَةُ يَبْنَوُ الزَّبْدُ وَالْمَسْلُ

وقيل: إن المأمون لما قريت وفاته دخل عليه بعض أصدقائه فوجده قد فرش له جلد دابة وسط عليه الرماد وهو يتمرغ فيه ويقول: يا من لا يزول ملكه أرحم من زال ملكه. ولما احتضر عمرو بن العاص دعا بطلً وقِيْدً، وقال: ألبسوني إياهما فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن التوبة مقبولة ما لم يفرغر ابن آدم بغضه ثم استقبل القبلة وقال: اللهم إنك أمرتنا بفصينا، ونهيتنا فارتكبنا وهذا مقام العائذ بك فإن تعف فأتت أهل العفو، وإن تعاقب فيما قدمت يداي، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. ثم مات وهو مغلول مقيد فبلغ ذلك الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما فقال: استسلم الشيخ ولعلها تنفعه. لما احتضر المعتصم جعلوا يهونون عليه فقال: هان على النظارة ما يمرّ بظهر المجلود^(١). سمع أبو الدرداء رجلاً في الجنائز يقول: من هذا؟ فقال: أنت فإن كرهت فأتنا. وقيل: مات عكرمة مولى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وكثير عزة في يوم واحد فقال رجل: اللهم كما جمعتهم في زيارة القبور فلا تفرق بينهما يوم الشور، فما بقي في المدينة أحد إلا استحسّن كلامه. ولما احتضر إبراهيم الخليل

(١) مجلود: مثل يقابل (من يأكل العصي ليس كمن يمدّها).

عليه الصلاة والسلام قال: هل رأيت خليلاً يقبض روح خليفه، فأوحى الله إليه هل رأيت خليلاً يكره لقاء خليفه قال: فاقبض روحي الساعة. وقيل: إذا قضى الله لرجل أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة فيسيره إليها. وقال بعضهم:

إذا ما حمام المرء كان ببلدة دعتة إليها حاجة فيطير

حكى أن شاباً تقياً من بني إسرائيل كان يجتمع مع سليمان عليه السلام ويحضر مجالسه فينما هو عند سليمان في مجلسه إذ دخل ملك الموت عليه، فلما رآه الشاب أصفر لونه وارتعدت فرائضه وقال: يا نبي الله إني خفت من هذا الرجل فَمَرَّ الرِّيح أن تذهب بي إلى الهند. فأمر سليمان الرِّيح فذهبت به فما كان إلا قليل حتى دخل ملك الموت على سليمان وهو متعجب، فقال له سليمان: مما تعجب؟ قال: أعجب أنني أمرت بقبض روح الشاب الذي كان عندك بأرض الهند ودخلت عليك فوجدته عندك فصرت متعجباً، ثم توجهت إلى الهند فرأيت هناك وقبضت روحه فهذا عجبى، فقال له سليمان: إنه لما رآك خاف وانزعج وطلب مني أن تحمله الرِّيح إلى الهند فأمرتها فحملته وفي ذلك المعنى قال محمد بن الحسن:

ومتعب الروح مرتاح إلى بلد والموت يطلبه في ذلك البلد

وقيل: إن الإنسان يحصل له عند الموت قوة حركة نحو ما يحصل للسراج عند انطفائه من حركة سريعة، وضياء ساطع، وتسميها الأطباء النعشة الأخيرة والله أعلم. وقيل إن الرشيد ماتت له جارية وكانت من خواص محاضيه فنجع عليها جزءاً شديداً فقال لبعض أصدقائه: أما ترى ما بليت به ما أحببت أحداً إلا مات، فقال: يا أمير المؤمنين أحببني فقال: ويحك إن الحب ليس هو الشيء يصنع، إنما هو شيء يقع في القلب تسوقه الأسباب فقال: قل أنا أحبك. قال: نعم أنا أحبك قال: فحُمِّ من وقته ومات. وفي الحديث المرفوع: كسر عظم الميت ككسره في حياته. وقال يزيد بن أسلم: لقد كان يمضي في الزمن الأول أربعمائة سنة ما يسمع فيها بجنائز. وعن ميمون بن مهران قال: شهدت جنازة ابن عباس رضي الله عنه بالطائف، فلما وضع ليصلي عليه جاء طائر أبيض حتى وقف على أكتافه ثم دخل فيها فالتمسناه فلم نجده، ولما سويتا عليه التراب سمعنا من يسمع صوته ولا نرى شخصه يقول: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة * إرجعي إلى ربك﴾^(١) الآية. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قبر آدم عليه السلام بمسجد الخيف بنى. وقال عطاء: بلغني أن قبره تحت المنارة التي وسط الخيف. وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى ما لا ييكىه عند ذكر الجنة والنار. فقيل له في ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «القبر أول منازل الآخرة فإن نجا العبد منه فما بعده أيسر منه». وعن معاذ بن رفاعة الزرقى قال: أخبرني رجل من رجال قومي أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ في جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق فقال: يا محمد مَنْ هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء واهتز له العرش فقام رسول الله ﷺ يجر ثوبه مبادراً إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه فوجده قد قبض. وقال الحسن رضي الله عنه: ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح وجوه الناس خمس مرات فمن رآه على لهو، ولعب، أو معصية أو ضاحكاً حرك رأسه وقال له: مسكين هذا العبد غافل عما يراى به ثم يقول له: اعمل ما شئت فإن لي فيك غمرة أقطع بها وتينك.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لرجاء بن حيوة: يا رجاء إذا وضعت في لحدي فاكشف الثوب عن

وجهي فإن رأيت خيراً فاحمد الله، وإن رأيت غير ذلك فاعلم أن عمر قد هلك، قال رجاء: فلما دفناه كشفت عن وجهه فرأيت نوراً ساطعاً فحمدت الله تعالى أن قد صار إلى خير. وقال أيضاً: دخلت على عمر بن عبد العزيز وهو محتضر فقال: يا رجاء إني أرى وجوهاً كراماً ليست بوجوه إنس ولا جان وهو يقلب طرفه يميناً وشمالاً ثم رفع يده فقال: اللهم أنت أمرتني فقصرت. ونهيتني فعصيت فإن غفرت فقد متت وإن عاقبت فما ظلمت. ألا إني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمد عبدك ورسولك المصطفى، ونيك المرتضى ببلغ الرسالة وأدى الأمانة، ونصح الأمة فعليه السلام والرحمة ثم قضى نحبه رحمه الله. وعن أسماء بنت عيسى قالت: كنت عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد ما ضربه ابن ملجم إذ شقق شهقة بعد أن أغمي عليه ثم أفاق وقال: مرحباً الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرض تنبؤاً من الجنة حيث نشاء، فقيل له: ما ترى؟ قال: هذا رسول الله ﷺ، وهذا أخي جعفر، وعمي حمزة وأبواب السماء مفتحة والملائكة يتزلون عليّ ييشرونني بالجنة، وهذه فاطمة قد أحاط بها وصفائها من الحور العين وهذه منازل لي لمثل هذا فليعمل العاملون.

ولما احتضر عبد الملك بن مروان قال لابنه الوليد: إذا أنا مت إياك أن تجلس وتعصر عينيك كالمرأة الوكعاء، لكن اترز وشمر والبس جلد النمر وضعني في حفرتي، وخلني وشأني، وعليك شأنك، وادع الناس إلى بيعتك فمن قال برأسه هكذا، فقل له بسيفك هكذا. ثم بعث إلى محمد وخالد ابني يزيد بن معاوية فقال: هل عندكما ندامة في بيعة الوليد فقالوا لا نعرف أحداً أحق منه بالخلافة، فقال: أما أنكما لو قتلما غير هذا لضربت الذي فيه أعينكما، ثم رفع كنار فراشه فإذا تحته سيف مسلول تحت يمينه. كل هذا وروحه تردد في حنجرته وهو يقول: الحمد لله الذي لا ياليه، أصغيراً أخذ، أم كبيراً لا إله إلا الله محمد رسول الله بعد ساعة نقلت روحه فدخل عليه الوليد ومعه بناته يكون قتمل بقول الشاعر:

ومستخبر عنا يريد بنا الردى ومستخبرات والعيون سواكب
وقال محمد بن هارون:

كأنني بإخواني على جنب حفرتي يهيلون فوقني والعيون دما تجري
فيا أيها الملدي عليّ دموعه ستعرض في يومين عني وعن ذكرري
عفا الله عني أنزل القبر ثاوباً أزار فلا أدري وأجفى فلا أدري

وكان يزيد الرقاشي يقول: من كان الموت موعده، والقبر بيته، والثرى مسكنه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر كيف تكون حالته، ثم ييكي حتى يفسى عليه. فيجب على العاقل أن يحاسب نفسه بنفسه على ما فرط من عمره ويستعد لعاقبة أمره بصالح العمل، ولا يفتن بالأمل فإن من عاش مات، ومن مات فات وكل ما هو آت. نسأل الله أن يلهمنا رشدنا ويوفقنا لاتباع أوامره، واجتتاب نواهيه، وأن يجعل الموت خيراً غائب ننتظره، وأن يختم لنا بالخير وأن يتغمدنا برحمته. إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثاني والثمانون: في الصبر والتأسي والتعازي والمراثي ونحو ذلك وفيه فصول

الفصل الأول: في الصبر

قال الله تعالى: ﴿ويشتر الصابرين﴾ الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون^(١) وقال ﷺ: ما من مسلم يصاب بمصيبة وإن قل عهداً فأحدث استرجاعاً؛ إلا أحدث الله له مثله وأعطاه مثل أجره ذلك يوم أصيب بها. وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبح حزناً، أصبح سخطاً على ربه، ومن أصبح يشكو مصيبة فكأنما يشكو الله، ومن تواضع لغني سأله ما في يده أحبط الله ثلثي عمله، ومن أعطى القرآن ولم يعمل به وتهاون به حتى دخل النار أبعد الله عن رحمته، لأنه هو الذي فعل ذاك بنفسه حيث لم يعرف حرمة القرآن». وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات له ثلاثة من الولد لم يلج النار إلا تحلة القسم». يعني قوله تعالى: ﴿وإن منكم إلا وارفعا﴾^(٢) وعن أبي سلمة رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبي، وأعقبني خيراً منها إلا فعل الله به ذلك».

وروى أنه لما مات إبراهيم ابن رسول الله ﷺ خرفت عيناه فقال له عبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ألم ته عن البكاء؟ قال: إنما نهيت عن الغناء والصوتين الأحمقين والندب، ولكن هذه الرحمة جعلها الله تعالى في قلوبنا، ومن لا يرحم لا يرحم فإن القلب يخشع، والعين تدمع وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. ولا تقول إلا ما يرضي الله ربنا إنا لله وإنا إليه راجعون. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أول شيء كتبه الله في اللوح الحفوظ: إني أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدي ورسولي، مَنْ استسلم لقضائي، وصبر على بلائي وشكر نعمائي، كتبه صديقاً وبعثته مع الصديقين. وَمَنْ لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي فليتحلر بأسوائي. وقال ابن المبارك إن المصيبة واحدة فإذا جزع صاحبها فهما اثنتان، لأن إحداها المصيبة بعينها، والثانية ذهاب أجره، وهو أعظم من المصيبة.

وعن العلاء بن عبد الرحمن أن النبي ﷺ لما حضرته الوفاة بكى فاطمة. فقال: لا تبكي يا بنتاه قولني إذا مت إنا لله وإنا إليه راجعون فإن لكل إنسان مصيبة معوضة. قالت: ومنك يا رسول الله قال ومني. وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال النبي ﷺ: «من أصابته مصيبة، فليذكر مصيبتيه بي فإنها أعظم المصائب». وعن أبي هريرة رضي الله تعالى

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٥٥ - ١٥٦.

(٢) سورة: مريم، الآية: ٧١.

عنه أنه قال: «من أخذت حبيبته يعني عينه، فصبر واحتسب أدخله الله الجنة». وقيل إن امرأة أيوب عليه الصلاة والسلام قالت له: لو دعوت الله تعالى أن يشفيك. فقال لها ويحك كنا في النعماء سبعين عاماً، أفلا نصبر على الضراء مثلها. فلم يلبث إلا يسيراً أن عوفي. وقيل الصبر مفتاح الفطر، والتوكل على الله تعالى رسول النجاح. وقيل عنه، من لم يلتق نوابث الدهر بالصبر طال عبه عليه. وقيل إن معاوية رضي الله تعالى عنه، خرج يوماً ومعه عبد العزيز بن زرارة الكلبي وكان ذا منصب وشرف وعقل وأدب فقال له معاوية: يا عبد العزيز أتاني نعي سيد شباب العرب. فقال له ابني أبو ابنك. قال بل ابنك. قال للموت تلد الوالدة. ومما قيل: اصبر لحكم من لا تجد معولاً إلا عليه ولا مفزحاً إلا إليه. وقال سويد السدوسي:

فأوصيكما يا ابني سدوس كلاكما بتقوى الذي أعطاكمما وبراكمما
بشكر إذا ما أحدث الله نعمَةً وصبرٍ لأمر الله فيما ابتلاكما

وقال:

أيا صاحبي إن رمت أن تكسب العلا وترقى إلى العلياء فخير مزاحم
عليك بحسن الصبر في كل حالٍ فما صابرٌ فيما يروم بنادم

وقال آخر:

هو الدهر قد جريته ويلوته فصبراً على مكروهه وتجلدا

وحدث الزبير قال: قامت عائشة بعدما دفن أبوها أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فقالت: نضر الله وجهك، وشكر صالح سمعك، فقد كنت للعنينة مدلاً بإدبارك عنها، وللآخرة مزمراً بإقبالك عليها، ولئن كان رزوك أعظم المصائب بعد رسول الله ﷺ، وأكبر الأحداث بعده فإن كتاب الله تعالى قد وعدنا بالثواب على الصبر في المصيبة، وأنا تابعة له في الصبر فأقول إنا لله وإنا إليه راجعون ومستعيزة بأكثر الاستغفار لك فسلام الله عليك توديع غير قالية لحياتك، ولا رازمة على القضاء فيك. ولما مات ذو الهمداني جاء أبوه فوجده ميتاً وكان موته فجأة وحياله يكون عليه فقال: ما لكم والله ما ظلمناه ولا قهرناه ولا ذهب لنا بحق، ولا أصبنا فيه ما أخطأ من كان قبلنا في مثله. ولما وضعه في حفرة قال: رحمك الله يا بني وجعل أجري فيك لك، والله ما بكيت عليك، وإنما بكيت لك، فوالله لقد كنت بي باراً ولي نافعاً وكنت لك محبباً وما بي إليك من وحشة، وما بي إلى أحد غير الله من فاقة وما ذهبت لنا بعزة، وما أبقيت لنا من ذل، ولقد شغلنا الحزن لك، عن الحزن عليك، يا ذر لولا هول المطلع لتميت ما صرت إليه. فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك. ثم رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إنك وعدت الصابرين على المصيبة ثوابك ورحمتك. اللهم وقد وهبت ما جعلت لي من الأجر إلى ذر صلة مني فلا تعرمني ولا تعرفه قبيحاً وتجاوز عنه فإنك رحيم بي وبه. اللهم قد وهبت لك أسأته لي فهب لي إساءته إليك فإنك أجود مني وأكرم. اللهم إنك قد جعلت لك عليه حقاً، وجعلت لي عليه حقاً قرنته بحقك فقلت ﴿اشْكُرْ لِي وَلَوْلَا ذَلِكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾^(١) اللهم إني قد غفرت له ما قصر فيه من حقّي فاغفر له ما قصر فيه من حقك فإنك أولى بالجدود والكرم فلما أراد الإنصراف قال: يا ذر قد انصرفنا وتركتناك، ولو أقمنا عندك ما نفعناك.

وفي الحديث: إذا مات ولد العبد يقول الله تعالى للملائكة ماذا قال عبيدي عند قبض روح ولده، وثمرة فؤاده؟ فيقولون إلينا حمدك واسترجع. فيقول الله تعالى: أشهدكم يا ملائكتي أنني بنيت له بيتاً في الجنة وسميته بيت الحمد. وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه دفن إبناً له وضحك عند قبره، فقيل له أتضحك عند القبر؟ قال: أردت أن أرغم أنف الشيطان. فينبغي للعبد أن يتفكر في ثواب المصيبة فتسهل عليه، فإذا أحسن الصبر استقبله يوم القيامة ثوابها حتى يود لو أن أولاده وأهله وأقاربه ماتوا قبله لينال ثواب المصيبة. وقد وعد الله تعالى في المصيبة ثواباً عظيماً إذا صبر صاحبها واحتسب وقال تعالى: ﴿وَلْيَبْلُوكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَلْيَبْلُوكُمْ بَشِيرًا مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٢) الآية. اللهم رضينا بقضائك وصبرنا على بلائك واغفر لنا ولوالدينا ولكل المسلمين يا رب العالمين.

الفصل الثاني: في التعازي والتأسي

روى الترمذي في كتاب السنن للبيهقي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: «قال من عزى مصاباً فله مثل أجره» وروينا في كتاب الترمذي أيضاً بسند متصل إلى رسول الله ﷺ: «من عزى ثكلى كُسي برداء في الجنة». وروينا في سنن ابن ماجه والبيهقي بإسناد حسن عن عمرو بن حزم عن النبي ﷺ قال: «ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبته إلا كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة». واعلم أن التعزية هي التصبر، وذكر ما يسلي صاحب الميت، ويخفف حزنه، ويهون مصيبته وهي مستحبة. فإنها مشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهي أيضاً داخلة في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾^(٣) وهي من أحسن ما يستدل به في التعزية. وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه». واعلم أن التعزية مستحبة قبل الدفن وبعده. وتكره بعد ثلاثة أيام لأن التعزية لتسكين قلب المصاب، والغالب سكونه بعد ثلاثة أيام فلا يجدد الحزن. هكذا قال الجماهير من أصحاب الشافعي رضي الله تعالى عنه، وقيل إنها لا تفعل بعد ثلاثة أيام إلا في صورتين، وهما إذا كان المعزي أو صاحب المصيبة غائباً حال الدفن، فاتفق رجوعه بعد الثلاثة. وأما لفظ التعزية فلا حجر فيه، فبأي لفظ عزاه حصلت. واستحب أصحاب الشافعي أن يقول في تعزية المسلم بالمسلم عظم الله أجرك وأحسن عزاءك وغفر لميتك. وفي المسلم بالكافر: أعظم الله أجرك وأحسن عزاءك، وفي الكافر بالكافر: أخلف الله عليك، ولا تقص لك عدداً. روي أن النبي ﷺ قدّم بعض أصحابه فسأل عنه، فقالوا يا رسول الله بئس الذي رأيته هلك. فلقبه النبي ﷺ فسأل عن بئس فقال يا رسول الله هلك فمزاه فيه. ثم قال يا فلان أيما كان أحب إليك إن تمتع به عمرك أولاً تأتي غداً باباً من أبواب الجنة إلا وجدته وقد سبقك إليه فيفتح لك. فقال: يا رسول الله سَبَقَهُ إِلَىٰ بَابِ الْجَنَّةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ التَّمَتُّعِ بِهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا قَالَ: ذَلِكَ لَكَ.

وروى البيهقي بإسناده في مناقب الشافعي رحمهما الله أن الشافعي قد بلغه أن عبد الرحمن بن مهدي مات له ابن

(١) سورة: محمد، الآية: ٣١.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٥٥.

(٣) سورة: المائدة، الآية: ٢.

فجزع عليه جزعاً شديداً فبعث إليه الشافعي رحمه الله يقول: يا أخي عزّ نفسك بما تعزي به غيرك، واستقيح من نفسك ما تستقيحه من غيرك، واعلم أن أقصى المصائب فقد سرور وحرمان أجر فكيف إذا اجتماعاً مع اكتساب وزرِ ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأجزل لنا ولك بالصبر أجراً. وروي عن ابن المبارك قال: مات لي ابن فمر بي مجوسي، وقال: ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام، فقال اكتبوا منه. وعن معاذ بن جبل أنه قال: مات لي ابن فكتب إلي رسول الله ﷺ: من محمد رسول الله ﷺ إلى معاذ بن جبل سلام عليكم فإني أحمد الله الملك، الذي لا إله إلا هو، أما بعد فعظم الله لك الأجر، وألهمك الصبر، ورزقنا وإياك الشكر، ثم اعلم أن أنفسنا وأموالنا وأهلنا وأولادنا من مواهب الله تعالى الهنية، وعواريه المستودعة، يمتعنا بها إلى أجل معدود ويقبضها لوقت معلوم. ثم فرض الله تعالى علينا الشكر إذا أعطى والصبر إذا ابتلى، وكان ابتك من مواهب الله الهنية وعواريه المستودعة، متعك الله به في غبطة وسرور، وقبضه بأجر كبير إن صبرت واحتسبت فاصبر واحتسب واعلم أن الجزع لا يرد ميتاً ولا يطرد حزناً. وروي أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه كان إذا عزى مرزاً قال: ليس مع العزاء مصيبة، ولا مع الجزع فائدة، والموت أشد مما قبله، وأهون مما بعده، فاذا ذكر مصيبتك برسول الله ﷺ تهن عليك مصيبتك. وعزى الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه صديقاً له فقال:

إِنَّا نُعْزِيكَ لَا إِنَّا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ الْحَيَاةِ وَلَكِنْ سُنَّةُ الدِّينِ
فَمَا الْمَعْزَى يَبَاقُ بَعْدَ مَيْتِهِ وَلَا الْمَعْزَى وَلَوْ عَاشَ إِلَى حِينِ

وكتب بعضهم إلى أخ له يعزيه: أنت يا أخي أعزك الله، عالم بالدنيا وما خلقت له من الفناء، وأنها لم تعط إلا أخذت، ولم تسر إلا أحزنت، وأن الموت سبيل محتوم على الأولين والآخرين لا دافع عنه ولا مؤخر لما قضى الله عز وجل منه وإنا لله وإنا إليه راجعون. وعزى رجل بعض الخلفاء بابن له فكتب إليه يقول:

تَعَزَّيْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ لَمَّا قَدْ تَرَى يَغْدُو الصَّغِيرَ وَيُولَدُ
هَلْ الْإِبْنُ إِلَّا مِنْ سَلَالَةِ آدَمَ لِكُلِّ عَلَى حَوْضِ الْمَنِيَةِ مَوْرَدُ
وكتب بعضهم إلى صديق له وقد ماتت ابنته فقال:

الْمَوْتُ أَخْفَى سَوَاءً لِلْبَنَاتِ وَدَفْنُهَا يَرْوِي مِنَ الْمَكْرَمَاتِ
أَمَّا رَأَيْتَ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَقَدْ وَضَعَ النَّمَشَ بَجَنْبِ الْبَنَاتِ

وكتب بعضهم إلى صديق له يعزيه بأخيه ويسليه: ما تصنع يا أخي والقضاء نازل، والموت حكم شامل وإن لم تُلد بالصبر فقد اعترضت على مالك الأمر، وأنت تعلم أن نواب الدهر لا تدفع إلا بعزائم الصبر، فاجعل بين هذه اللوعة الغالبة، والدمنة الساكبة، حاجباً من فضلك، وحاجزاً من عقلك ودافعاً من دينك ومانعاً من يقينك. فإن المحن إذا لم تعالج بالصبر كانت كالمنح إذا لم تقابل بالشكر فصبراً فصبراً ففحول الرجال لا تستغزها الأيام بخطوبها، كما أن متون الجبال لا تهزها العواصف بهبوبها، فعزّز عليّ أن أخاطب مولاي معزياً، وأكاتبه مسلماً عن كبير أو صغير مما يتعلق بخدمته أو يتمي إلى جملة، فكيف بالصنو الأكرم والذخر الأعظم، والركن الأشد، والسهم الأسد، والشهاب الأسطع، والحسام الأقطع. لكن التعزية سيرة سائرة وستة ماضية غابرة، وقدر الله هو المقدر، وأجل الله إذا جاء لا يؤخر، ولولا أن الذكرى تنفع، والتعزية يستوي فيها الأشرف والأوضع، لأجلت مولاي أن أفاتحه معزياً، وأخاطبه

مسلياً، ولكن بحمد الله العالم لا يعلم، والسابق لا يتقدم، فبمولاي يقتدى في الصبر على النوائب، وينوره يهتدى في مشكلات المذاهب، وكل ما كان من الردى أرجع كان الأجر عليه أوسع، جعل الله مولاي من الصابرين على المصيبة وعظم أجره وجعل الجنة نصيبه. وعزى رجل فنى عن أبيه فلم يجده كما أحب فقال: يا بني سوء الخلف أضر علينا من فقد السلف.

ومات لبعض ملوك كتلة ابنة فوضع بين يديه بكرة من المال وقال: من بالغ في تعزيتي فهي له. فدخل عليه إعرابي وقال عظم الله أجر الملك كثفت المؤنة، وسترت العورة ونعم الصهر القبر. فقال قد أبلغت وأرجزت ثم دفعها له. وعزت أعرابية قوماً فقالت: جافى الله عن ميتكم الثرى وأعانه على طول البلى وأجركم ورحمه. وكان لعلي بن الحسين جليس مات له ابن فجزع عليه جزعاً شديداً فعزاه علي بن الحسين رحمه الله ووعظه فقال: يا ابن رسول الله، إن ابني كان مسرفاً على نفسه فقال لا تجزع. فإن من ورائه ثلاث خلال أولهن شهادة أن لا إله إلا الله، وأن سيدنا محمداً رسول الله. والثانية شفاعة جدي ﷺ، والثالثة رحمة الله التي وسعت كل شيء فأين يخرج ابنك عن واحدة من هذه الخلال؟

وقال سليمان بن عبد الملك عند موت ابنه لعمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة: إن في كبدي جمرة لا يطفئها إلا عبرة. فقال عمر اذكر الله يا أمير المؤمنين عليك بالصبر فنظر إلى رجاء كالمستريح بمشورته. فقال رجاء أفضها يا أمير المؤمنين فما بذلك من بأس لقد دمت عينا رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم. وقال إن العين لتدمع، وإن القلب ليخشع، ولا نقول ما يسطر الرب، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون. فأرسل سليمان عنيه حتى قضى أربه ثم أقبل عليهم وقال لولا أن نزلت هذه العبرة لانسد كبدي ثم إنه لم يك بعدما. وكتب الإسكندر إلى أمه قبل وفاته بقليل: إذا وصل إليك كتابي هذا فاجمعي أهل بلدك وأعدي لهم طعاماً، ووكلي بالأبواب من يمنع من أصابته مصيبة، في أم أو أب أو أخ أو أخت أو ولد فعلت. فلم يدخل إليها أحد فعملت لأن الإسكندر عزاءها في نفسه. ولما قتل الفضل بن سهل دخل المأمون على أمه يعزيها فيه فقال لها: أماء، لا تحزني على الفضل فانا خلف منه. فقالت كيف لا أحزن على ولد عوضني عنه خليفة مثلك، فعجب المأمون من جوابها وكان يقول: ما سمعت قط أحسن منه، ولا أجلب للقلوب. فقال لها عليك بالصبر فإن فيه مزيد الأجر. وممن جزع على ولده جعفر بن علي لما قتله الحرث قام نساء الحي ليكون عليه، وقام أبوه إلى ولد كل شاة وناقاة فذبحه وألقاها بين أيديهن وقال لهن ابكين معي على جعفر فما زالت النوق ترغو، والشياه تيعر والنساء يصرخن ويبكين، وهو يبكي معهن فلم ير مأتم كان أوجع منه. وقال يحيى بن خالد: التعزية بعد ثلاثة أيام تجدد الحزن، والتهنئة بعد سنة تجدد الفرح. ومما قيل في التأسي والتسلي بالخلف عن السلف: قيل عزى بعض الشعراء يزيد بن معاوية في والده فقال:

اصبر يزيدُ فقد فارقت ذاقتَه واشكُرْ إلهك مَنْ بالملك حاباكَا
لا رزء أصبح في الأيام نعرفه كما رزئت ولا عبقى كعقباكَا

وقال آخر:

لا بدَّ من قَدٍ ومن فاقِدٍ هيهات ما في الناس من خالِدٍ

وقال آخر:

تبصّر فلو أن البكا رة هالكا على أحد فأكثِر بكاك على عمر
وكتب بعضهم إلى أولاد صديقه يعزيهم ويسليهم في والدهم فقال:

فلو كان فيضُ الدمع ينفع باكيا لعلمت غرب الدمع كيف يسيلُ
فإن غاب بدرٌ فالنجوم طوالعُ ثوابت لا يقضى لهن أفلوُ
يفث بها في ظلمة الليل حائرُ ويسري عليها بالسرفاق دليلُ

ودخل عبد الملك بن صالح على الرشيد وقد مات له ولد، وولد له في تلك الليلة ولد، فقال: سرّك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرّك، وجمع لك بين أجر الصابر وثواب الشاكر. وقال بعضهم:

أليس لهذا صار آخر أمرنا فلا كانت الدنيا القليل سرورها
فلا تعجبي يا نفس مما ترينه فكل أمور الناس هذا مصيرها

وسئل الأصمعي عن قول الخنساء في نعيها صخرأ حين مات ونعتة فقالت:

يذكرني طلوع الشمس صخرأ وأندبه لكل غروب شمس

فقالوا له: لماذا أنها خصت الشمس دون القمر والكواكب؟ فقال: لكونه كان يركب عند طلوع الشمس يشن الغارات وعند غروبها يجلس مع الضيفان. فذكرته بهذا مدحاً لأنه كان يثير على أعدائه ويتحيد بضيقه. وقد رثته بعد البيت الأول بأبيات منها:

ألا يا نفس لا تنبه حتى أفارق عيشتي وأزور رمسي^(١)
ولولا كثرة الباكين حولي على أمواتهم لقتلت نفسي
وما يكون مثل أخِي ولكن أسلي النفس عنه بالتأسي

وقال آخر:

ولولا الأسى ما عشتُ في الناس ساعةً ولكن إذا ناديت جاوني مثلي

وقال آخر:

وهوّن جلدي عن خليلي أنسي إذا شئت لاقيتُ النبي أنا صاحبه

وقال آخر:

ومما يؤديني إلى الصبر والمزا تردد فكري في عموم المصائب

الفصل الثالث: في المراثي

لما توفي رسول الله ﷺ رثاه جماعة من أصحابه، وآله بمرث كثيرة. منها ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه فإنه كان أقرب الناس إليه وهو أول من رثاه فقال:

(١) رمسي: قبري والمعنى أنه قد مات.

لما رأيتُ نينا متجنّداً^(١)
فارتاع عند ذاك لموته
أعيتني ويحك إن خلّك قد ثوى
يا ليتني من قبلك مُهلكٍ صاحبي
فلتحدثن بدائع من بعده

وقال آخر:

قلدتُ أرضنا هناك نيناً
خلقاً عالياً وديناً كريماً
وسراجاً يجلو الظلام منيراً
حازماً عازماً حليماً كريماً
إن يوماً أتى عليك ليوم
فعليك السلام منا جميعاً

ورثاه رحمته أبو سفيان بن الحرث فقال:

أرقتُ فباتَ ليلي لا يزول
وأسمدني البكاء وذاك فيما
لقد عظمت مصيبتنا وجلت
وأضحت أرضنا مما عراها
فقلّنا الوحي والتزّيل فينا
وذاك أحقُّ ما سالت عليه
نبيٍّ كان يجلو الشك عنا
ويهدينا فلا نخشى ملاماً
أفاطم إن جزعتِ فذاك عنزُ
قبرٍ أيك سيّد كل قبر

ضاقَتْ عليّ بعرضهن الدورُ
والعظمُ مني ما حييت كبيرُ
والصبرُ عندك ما بقيت يسيرُ
غيث في لحدٍ عليه صخورُ
نعيا بهنّ جوانحٌ وصدورُ

كان يغدو به النبات زكياً
وصراطاً يهدي الأنعام سويّاً
ونيباً مؤيداً عريّاً
عائداً بالنوال برّاً تقياً
كورت^(٢) شمسهُ وككن خليّاً
دائم الدهر بكرة وعشياً

وليل أخى المصيبة فيه طولُ
أصيب المسلمون به قليلُ
عشية قيل قد قبض الرسولُ
تكاد بنا جوانبها تميلُ
يروح به ويغدو جبرئيلُ
نفوس الناس أو كادت تبيلُ
بما يوحي إليه وما يقولُ
علينا والرسولُ لنا دليلُ
وإن لم تجزعي فهو السيلُ
وفيه سيّد الناس الرسولُ

ولما مات أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه رثاه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بهذه الأبيات حين رجع من دفنه فقال:

فعليك يا دنيا السلامُ
فالميش بعدهم حرامُ
والطفلُ يؤلمه القطامُ

ذهب الذين أُحييهم
لا تذكرين العيش لي
إنسي رضيع ومالهم

(١) فوقه الجنادل: الصخور.

(٢) كورت: حُورّت.

ورثي بعضهم محمد بن يحيى بعد موته فقال:

سألت الندى والجود ما لي أراكما
وما بال ركن المجد أمسى مهتما
قللتُ فهلاً مئماً بعد موته
قال أقننا كي نعزي بفقدته

وقال آخر:

ولا أرتجي في الموت بعدك طائلاً

وفي المعنى لبعضهم:

لقد أمنت نفسي المصائب بعده
فما أتقي للدهر بعدك نكبة

ورثي أشجع السلمي عبد الله بن سعيد فقال:

مضى ابنُ سعيدٍ حيث لم يبقَ مشرقٌ
وما كنتُ أدري ما فواضلُ كُفٍّ
وأصبحُ في لحيدٍ من الأرض مينا
سابكيكَ ما فاضتْ دموعي فإنَّ يَفُضْ
وما أنا من رزه، وإنَّ جلَّ جازعُ
لئن حسنتُ فيك المراثي بذكرها

وقال آخر:

إلى الله أشكو لا إلى الناس إنني
أخلاي لو غير الحمام أصابكم

وقال العباس بن الأحنف:

إذا ما دعوت الصبر بعدك والبكا
فإن ينقطع منك الرجاء فإنه

وقال آخر يرثي صديقه:

خيلني ما أزداد إلا صباباً
خيلني لو نفس فلت نفس ميتٍ
وقد كنت أرجو أن تعيش وإن أمت

تبدلتما عزاً بلذ مؤيدٍ
قئلاً أصبنا بابن يحيى محمدٍ
وقد كتما حبيده في كل مشهدٍ
مسافةً يوم ثم تملوه في غدٍ

ولا أتقي للدهر بعدك من خطبٍ

فأصبحت منها أماناً أن أروعا
ولا أرتجي للعيش بعدك مرتعاً

ولا مغربٌ إلا له فيه مادحُ
على الناس حتى غيشتُ الصفائحُ
وكان به حياً تفيقُ الصحاصحُ^(١)
فحسبك مني ما تكلُّ الجوانحُ
ولا بسرورٍ بعد قفدك فارحُ
قد حنت من قبلُ فيك المدائحُ

أرى الأرض تبقى والأخلاء^(٢) تذهبُ
عنت ولكن ما على الدهر معتبُ

أجاب البكا طوعاً ولم يجب الصبر
سيبقى عليك الحزن ما بقي الدهر

إليك وما تزداد إلا تنائياً
فديتك سروراً بنفسي وماليا
فحال قضاء الله دون رجائياً

(١) الصحاصح: الأراضي المستوية.

(٢) الأخلاء: الأصحاب.

ألا فليمت من شاء بعدك إنما عليك من الأقدار كان حذاريا
أخذها بعضهم فقال:

كنت السوداء لمقلنسي
من شاء بعدك فليُمتْ
يكبي عليك الناظرُ
فعلبك كنت أحاذرُ

وقال آخر يرثي بعض أولاده:

وقاسمني دهمي بني مشاطرا
ألا لبت أمي لم تلنني وليتي
فلما تقفسي شطره عاد في شطري
وقد كنت ذا ناب وظفر على العدا

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه للخنساء: أخبريني بأفضل بيت قلت في أخيك فقالت:
وكننت أمير الدمع قبلك من بكى
فأنت على من مات بعدك شاغله

ولأبي المحاسن الشواء في صديق له مات وسقط الثلج عقيب موته:

لم أنسه ونور الملوك أمامه
والثلج قد غطى الربا فكأنها
يديمون للأسف الأكف عضاضاً
من حزنها لبت عليه يياضا

وقال آخر:

وليس صريرُ النعش ما تسمعونه
وليس نسيمُ المسك ربا حنوطه
وقال مقاتل بن عطيّة يرثي الوزير نظام الملك:
كان الوزير نظامُ الملك لؤلؤةً
عزت ولم تعرف الأيام قيمتها

وقال آخر:

وقبرت وجهك وانصرفت مودعا
وأرى ديارك بعد وجهك قفرة^(١)
فالناس كلهم لفقّيك واجدٌ
عجبا لأربع أذرع في خمسة

وكان رجل توفي ولده يوم عيد فقال:

لبس الرجال جديدهم في عيدهم
أيسرّني عيدٌ ولم أر وجهه
ولبتُ حزن أبي الحسين جديدا
فيه ألا بُغداً لذلك عيدا

(١) قصفوا: تكسروا.

(٢) قفرة: خلوة.

فَارَقْتَهُ وَبَقِيتُ أَخْلَدُ بَعْدَهُ
 مِنْ لَمْ يَمِتْ جِزْعاً لَفَقْدِ حَيِّهِ
 مِتْ مَعَ حَيِّكَ إِنْ قُدِرْتَ وَلَا تَعِشْ
 مَا أَمْ خُشِفَ قَدْ مَلَأَ أَحْشَاءَهَا
 إِنْ نَامَ لَمْ تَهَجَعْ وَطَافَتْ حَوْلَهُ
 مِنْي بِأَوْجَعِ إِذَا رَأَيْتُ نَوَاحِيَا
 وَلَقَدْ عَدِمْتَ أَبَا الْحُسَيْنِ جَلَدَتِي
 كُنْتُ الْجَلِيدُ^(١) عَلَى الرِّزَايَا كُلِّهَا
 وَلَكِنْ بَقِيتُ وَمَا هَلَكْتُ فَإِنْ لِي
 لَا مَوْتَ لِي إِلَّا إِذَا الْأَجَلَ انْقَضَى
 حَزَنِي عَلَيْكَ بِقَدْرِ حُبِّكَ لَا أَرَى
 مَا هَذَا رَكْنِي بِالسَّنِينَ وَإِنَّمَا
 يَا لَيْتَ إِنِّي لَمْ أَكُنْ لَكَ وَالِدَا
 فَلَقَدْ شَقِيتُ وَرَبَّمَا شَقِيَّ الْفَتَى
 مِنْ ذَمٍّ جَفْنًا بِأَخْلًا بِلَمُوعِهِ
 فَلَا نَظْمَ مِنْ مَرَاثِيَا مَشْهُورَةٍ
 وَجَمِيعِ مَنْ نَظَّمَ الْقَرِيفُضَ مُفَارِقُ

وقال الفقيه منصور بن إسماعيل المصري:

سَأَلْتُ رَسُومَ الْقَبْرِ عَمَّنْ ثَوَى بِهِ
 أَسْأَلُ عَمَّنْ عَاشَ بَعْدَ وَفَاتِهِ

وقال الإمام السبكي رحمه الله تعالى يرثي فضل الله العالم:

مَصَابٌ لَيْسَ يَشْبَهُهُ مَصَابُ
 إِمَامٍ قَدْ حَوَى مِنْ كُلِّ عِلْمٍ
 لِيَكُنِّي كُلَّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ
 وَكَمْ كَلِمَ مَوَانِعَ قَدْ أَتَتْهُ
 فَلَطْفَانِ الْبَلَاغِ بَغِيرَ شَكِّ
 سَقَى اللَّهُ الْكَرِيمَ ثَرَاهُ صَوْبَا

وقال الصديقي:

يَا غَائِباً فِي الثَّرَى تَبْلَى مُحَاسِنُهُ

لَا كَانَ ذَاكَ بَقَاً وَلَا تَخْلِيدَا
 فَهُوَ الْخَوُورُ مَوْدَةً وَعَهْدَا
 مِنْ بَعْدِهِ ذَا لَوْعَةٍ مَكْمُودَا
 حَنَرَا عَلَيْهِ وَجَفْنَهَا تَسْهِدَا
 فَيَبِيتُ مَكْلُوماً بِهَا مَرْصُودَا
 لِأَبِي الْحُسَيْنِ وَقَدْ لَطَمَنَ خَدُودَا
 لَمَّا رَأَيْتُ جَمَالَكَ الْمَفْقُودَا
 وَعَلَى فِرَاقِكَ لَمْ أَجِدْ تَجْلِيدَا
 أَجَلَا وَإِنْ لَمْ أَحْصِهِ مَعْدُودَا
 فَهَنَّاكَ لَا أَتَجَاوِزُ الْمَحْدُودَا
 يَوْمًا عَلَى هَذَا وَذَاكَ مَزِيدَا
 أَصْبَحْتُ بِعَدْلِكَ بِالْأَسَى مَهْدُودَا
 وَكَذَاكَ أَنْكَ لَمْ تَكُنْ مَوْلُودَا
 بِفِرَاقٍ مِنْ يَهُوَى وَكَانَ سَعِيدَا
 فَعَلَيْكَ جَفْنِي لَمْ يَزَلْ مَحْمُودَا
 تَتَسَّى الْأَنَامَ كَيِّسَراً وَلِيِيدَا
 وَلِدَا لَهُ أَوْ صَاحِبَا مَفْقُودَا

لَأَعْلَمَ مَا لَا تَقِي فَقَالَتْ جَوَانِبُهُ
 بِإِحْسَانِهِ إِخْوَانُهُ وَأَقَارِبُهُ

لِذِي الْأَبْجَابِ إِذَا قَدَّ الشَّهَابُ
 كَنُوزَا نَحْوَهَا يَسْعَى الرِّكَابُ
 فَكَمْ عِلْمٌ لَهُ ضَمَّ التَّرَابُ
 ثَنَاهَا وَهِيَ عَاصِيَةٌ صَعَابُ
 شَهَابُ الدِّينِ مَا فِيهِ ارْتِيَابُ
 لَهُ مِنْ كُلِّ رِضْوَانٍ رِضَابُ

الله يُولِيكَ غَفَرَاناً وَإِحْسَانَا

إن كنت جرعت كأس الموت واحدة
وقال محمد بن عبد الله العتيبي يرثي ابناً له:

أضحت بخدي للدموع رسوم
والصبر يحمد في المواطن كلها

وكتب أحمد بن يوسف إلى عمر بن سعيد يرثي بتاً له فقال:

عجياً للمنون كيف أتها
شملتاً مصيبتان جميعاً

وله يرثي الأمير يلبغا:

ألا إنما الدنيا غرور وباطل
وما عجبي إلا لمن بات واقفاً

وقال آخر:

إلى الله أشكو أن كل قبلة

وقال رجل يرثي صديقاً له توفي وكان من الكرماء:

ما درى نعشه ولا حاملوه

ولبعض الكتاب في ابن مقلة:

استشعر الكتاب قتلك سالفاً

فلذاك سؤدت الدواة كآبة

وقال الحسن بن مطيع الأسدي يرثي معن بن زائدة رحمه الله تعالى:

هلمنا إلى معن وقولا لقبره

فيا قبر معن كنت أول حفرة

ويا قبر معن كيف وارت جوده

بلى قد وسعت الجود والجود ميت

فتى عاش في معرفه بعد موته

ولما مضى معن مضى الجود كله

وقال آخر:

عجبت لصبري بعله وهو ميت

وقال آخر:

فديتك لم أصبر ولي فيك حيلة

وقالت ربيعة بنت عاصم:

ولكن دعاني اليأس منك إلى الصبر

وقفت فأبكتني ديار عثيرتي على رزتهن الباقيات الحواسر
غدوا كسيوف الهند وراة حومة من الموت أعياء ودهن المصادر
فوارس حاموا عن حريمي وحافظوا بدار المنشايا والقنا متشاجر
ولو أن سلمى نالها مثل رزتنا لهدت ولكن محمل الرزة عامر

ولما قتل إبراهيم بن عبد الله بن عبد الله بن الحسين وحمل رأسه إلى المنصور أنفذها المنصور مع الربيع إلى عمه إدريس ومحمد وكانا في حبسه، وكان أبوه قائماً يصلي. فقال له محمد أوجز فأوجز وسلم، فلما أتاه وضع الرأس في حجره، فقال أهلاً وسهلاً يا أبا القاسم تالله لقد كنت من الناس الذين قال الله تعالى في حقهم: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾^(١) ثم قبله بين عينيه وأنشأ يقول:

ففى كان يحميه من العار سيفه ويكفيه سوأت الأمور اجتنابها

ثم قال للربيع: قل لصاحبك المنصور قد مضى من بؤسنا أيام، ومن نعمتك أيام، والملتقى غداً بين يدي الله تعالى. فكان ذلك فألا على المنصور ولم ير بعد ذلك اليوم راحة. وقيل لحسان: ما يالك لم ترث رسول الله ﷺ؟ قال: لم أر شيئاً إلا رأيت يقصر عنه.

والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباب الثالث والثمانون: في ذكر الدنيا وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها

قال الله تعالى: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى﴾^(١) فوصف سبحانه وتعالى جميع الدنيا بأنها متاع قليل وأنت أيها الإنسان تعلم أنك ما أوتيت من القليل إلا قليلاً. ثم إن القليل إن تمتعت به فهو لعب ولهو لقوله تعالى: ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة﴾^(٢) وقال تعالى: ﴿وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾^(٣) فلا تبغ أيها العاقل حياة قليلة تغني بحياة كثيرة كما قال ابن عياض: لو كانت الدنيا ذهباً يفتنى والآخرة خزناً يبقى، لوجب علينا أن نختار ما يبقى على ما يفتنى. ثم تأمل بعقلك هل آتاك الله من الدنيا مثل ما أوتي سليمان عليه الصلاة والسلام، حيث ملكه الله تعالى جميع الدنيا من إنس وجن، وسخر له الريح، والطير، والوحوش ثم زاده الله تعالى أحسن منها حيث قال: ﴿هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب﴾^(٤) فوالله ما عدنا نعمة مثل ما عدتموها ولا حسبها رفعة مثل ما حسبتموها، بل خاف أن يكون استدراجاً من حيث لا يعلم فقال: ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر﴾^(٥). وهذا فصل الخطاب لمن تدبر هذا وقد قال لك ولجميع أهل الدنيا: ﴿فوريك لنسألتهم أجمعين * عما كانوا يعملون﴾^(٦) وقال تعالى: ﴿وإن كان مقال حبة من خردل أثينا بها وكفى بنا حاسبين﴾^(٧) وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو كانت الدنيا ترن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء». وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ألا أريك الدنيا بما فيها. قلت بلى يا رسول الله فأخذ بيدي وأتى إلى واد من أدوية المدينة، فإذا مزيلة فيها رؤوس الناس، وعذرات، وخرق بالية وعظام البهائم فقال: يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص حرصكم وتأمل آمالكم وهي اليوم صارت عظاماً بلا جلد ثم هي صائرة عظماً رميمًا، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبتموها في الدنيا فأصبحت والناس يتحامونها، وهذه الخرق البالية رياشهم أصبحت والرياح تصفقها^(٨)، وهذه العظام عظام دوابهم التي كانوا يتجمعون عليها أطراف البلاد فمن كان باكياً على الدنيا فليكن. قال: فما برحنا حتى اشتد بكأؤنا.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل على النبي ﷺ وهو على سرير من الليف. وقد أثر الشريط في جنبه فبكى عمر رضي الله تعالى عنه فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: تذكرت كسرى وقيصر وما كانا فيه

(١) سورة: النساء، الآية: ٧٧.

(٢) سورة: الحديد، الآية: ٢٠.

(٣) سورة: العنكبوت، الآية: ٦٤.

(٤) سورة: ص، الآية: ٣٩.

(٥) سورة: النمل، الآية: ٤٠.

(٦) سورة: الحجر، الآيتان: ٩٢ - ٩٣.

(٧) سورة: الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٨) تصفقها: تلاعب بها.

من سعة الدنيا، وأنت رسول الله وقد أثر الشريط بجنبك. فقال ﷺ: هؤلاء قوم عجلت لهم طياتهم في حياتهم الدنيا، ونحن قوم أخرت لنا طياتنا في الآخرة. وروي عن الضحاك قال: لما أهبط الله آدم وحواء إلى الأرض ووجدنا ريح الدنيا وفقدنا ريح الجنة غشي عليهما أربعين يوماً من تنن الدنيا. وعن ابن معاذ قال: الحكمة تهوي من السماء إلى القلوب فلا تسكن في قلب فيه أربع خصال: ركون إلى الدنيا، وهم عدو، وحسد أخ، وحجب شرف. وعن النبي ﷺ أنه قال لعلي: «يا علي أربع خصال من الشقاء جمود العين، وقسوة القلب، وبعد الأمل، وحجب الدنيا». وروى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال يؤتى بالدنيا يوم القيامة على صورة عجوز شمطاء زرقاء العينين، أنيابها بادية، مشوهة الخلق، لا يراها أحد إلا هرب منها فتشرف على الخلائق أجمعين فيقال لهم أتعرفون هذه؟ فيقولون لا نعوذ بالله من معرفة هذه. فيقال هذه الدنيا التي تفاخرتم بها وتقاتلتم عليها. وعن الفضيل بن عياض أنه قال: جعل الخير كله في بيت واحد، وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا، وجعل الشر كله في بيت واحد، وجعل مفتاحه حب الدنيا. وقيل إن الدنيا مثل ظل الإنسان إن طلبته فر وإن تركته تبعك وفيه قال بعضهم:

يشبهُ الظلُّ الذي يمشي معَكَ
وهو وإن وُلِّيتَ عنه تَبَعَكَ

إنما الرزقُ الذي تطلبه
أنت لا تدركُـه متبعاً

وقد شبهها بعضهم بخيال الظل فقال:

لمن كان في علم الحقائق راقياً
لبعض وأشكالاً بغير وفاق
وتفنى جميعاً والمحرك باقي

رأيتُ خيالَ الظلِ أعظمَ عبرةً
شخصاً وأمواتاً يخالف بعضها
تجيء وتمضي بآلة بعد بآلة

وما أحسن ما قال سليمان بن الضحاك:

بنعمة أوفى من العاقبة
فإنه في عيشة راضية
على الفتى لكنه عارية
مع حسناتها غدارة فآية

ما أنعم الله على عبده
وكل من عوفي في جسمه
والمال حلو حين جيد
ما أحسن الدنيا ولكنه

وتوفي رجل من كندة فكتب على قبره هذه الأبيات:

أن الجحام بكم علينا قادم
أن المفرط في التزود نادم
تبنون والموت المفرق هادم
حيث المخلّم واحد والخادم

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا
لو تنزلون بشعبنا لمعرفتمو
لا تستمزوا بالحياة فإنكم
ساوي الردى ما بيننا في حفرة

وقال آخر:

وتقول الرفاق هذا فلان
وجفاه الأصحاب والخلان

عن قليل أصير كـوم تراب
صار تحت التراب عظماً رميماً

وما أحسن ما قال عبد الله بن طاهر:

أليس إلى ذا صار آخر أمرنا
فلا تعجبي يا نفس مما ترينه
وقال شرف الدين بن أسد:

يا من تملك ملكاً لا بقاء له
هل الحياة بني الدنيا وإن عذبت
وقال بعضهم:

وغاية هذي الدار لنة ساعة
وهاتيك دار الأمن والعز والتقوى
وقال غيره:

حسنت ظنك بالأيام إذا حسنت
وسالمتك الليالي فاغتررت بها
وقال آخر:

فإن كنت لا تدري متى الموت فاعلمن
بأنك لا تبقى إلى آخر الدهر

أين آدم أين الأولون والآخرون. أين نوح شيخ المرسلين. أين إدريس رفيع رب العالمين. أين إبراهيم خليل الرحمن. أين موسى الكليم من بين سائر النبيين. أين عيسى روح الله الزاهدين وإمام الساتحين. أين محمد خاتم النبيين. أين أصحابه الأبرار، أين الأمم الماضية. أين الملوك السالفة. أين القرون الخالية. أين الذين نصبت على مفارقهم التيجان. أين الذين قهروا الأبطال والشجعان. أين الذين دانت لهم المشارق والمغارب، أين الذين تمتعوا باللذات والمشارب. أين الذين تاهوا على الخلاق كبراً وعتياً. أين الذين راحوا في الحلل بكرة وعشيا. أين الذين اغتروا بالأجناد. أين أصحاب الوزراء والقواد. أين أصحاب السطوة والأعوان. أين أصحاب الإمرة والسلطان. أين أصحاب الأعمال والولايات. أين الذين خفقت على رؤوسهم الألوية والرايات. أين الذين قادوا الجيوش والمساكر. أين الذين عمروا القصور والديساكر. أين الذين أعطوا النصر في مواطن الحروب والمواقف. أين الذين آمنوا بسطوتهم كل خائف. أين الذين ملؤوا ما بين الخافقين فخراً وعزاً. أين الذين فرشوا القصور حريراً وقزاً. أين الذين تضعضعت لهم الأرض هيبة وعزاً. هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً. أفناهم الله مفني الأمم، وأبادهم مييد الرمم، وأخرجهم من سمة القصور إلى ضيق القبور تحت الجنادل والصخور. فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم لم يفهمهم ما جمعوا ولا أغنى ما اكتسبوا، أسلمهم الأحياء والأولياء وهجوهم الإخوان والأصفياء، ونسيهم الأقرباء والبعداء لو نطقوا لأشدوا:

مقيم بالحجوم رهين رمس
كأنني لم أكن لهمو حياً
فأوجوا بالسلام فإن أيتهم
وأهلي راحلون بكل واد
ولا كانوا الأجنة في السواد
فأوموا بالسلام على البعاد

وقالوا لا فخر فيما يزول، ولا غنى فيما لا يبقى وهل الدنيا إلا كما قال بعض الحكماء المتقدمين: قدر يغلي، وكنيف يملئ وفي هذا المعنى قال الشاعر:

ولقد سألت الدار عن أخبارهم فتبسمت عجباً ولم تبد
حتى مررت على الكنيف فقال لي أموالهم ونوالهم عندي

ولقد أصاب ابن السماك حيث قال الرشيد لما قال له عظمي وكان بيده شربة ماء فقال له: يا أمير المؤمنين لو حبت عنك هذه الشربة أكنت تغديها بملكك؟ قال: نعم. قال: يا أمير المؤمنين لو شربتها وحبت عن الخروج أكنت تغديها بملكك؟ قال: نعم. فقال له: لا خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة. وقال ابن شبرمة: إذا كان البدن سقيماً لم ينفعه الطعام، وإذا كان القلب مغرمًا لم تنفعه الموعظة. وروي أن أبا العاتية مر بدكان وراق وإذا بكتاب فيه:

لا ترجع الأنفس عن غيرها ما لم يكن منها لها زاجر

فقال: لمن هذا البيت. فقيل: لأبي نواس قاله للخليفة هارون الرشيد حين نهاه عن حب الجمال، وعشق الملاح، فقال: وددت أنه لي بنصف شعري. ومن استبصر من أبناء الملوك فرأى عيب الدنيا وتقضيها وزوالها إبراهيم بن أدهم بن منصور كان من أبناء ملوك خراسان من كورة بلخ لما زهد الدنيا، زهد في ثمانين سرياً. قال ابن بشار سألت إبراهيم بن أدهم كيف كان بدء أمرك حتى صرت إلى هذا؟ فقال كان أبي من ملوك خراسان، وكان قد حجب إلي الصيد فبينما أنا راكب فرسي، وكلي معي إذ رأيت ثعلباً أو أرنباً فحركت فرسي نحوه فسمعت نداء من ورائي يا إبراهيم ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت. فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر أحداً فقلت لعن الله الشيطان، ثم حركت فرسي فسمعت نداء أعلى من الأول يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، فوقفت أنظر يمنة ويسرة فلم أر شيئاً فقلت لعن الله الشيطان ثم حركت فرسي فسمعت النداء من قريوس سرجي يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت. فوقفت وقلت هيهات جامني النذير من رب العالمين والله لا عصيت ربي ما عصمني بعد يومي هذا. فتوجهت إلى أهلي، وخلفت فرسي، وجئت إلى بعض رعاة أبي فأخذت جبهته وكساءه، وألقيت إليه ثيابي، فلم أزل أرض تقلني، وأرض تضعني حتى صرت إلى العراق فعملت بها أياماً، فلم يصف لي شيء من الحلال، فسألت بعض المشايخ عن الحلال. فقال: عليك بالشام قال فانصرفت إلى بلد يقال لها المنصورية، فعملت بها أياماً فلم يصف لي شيء من الحلال، فسألت بعض المشايخ. فقال: إن أردت الحلال فعليك بطرسوس، فإن المباحات بها والعمل فيها كثير فانصرفت إليها. قال فبينما أنا قاعد على باب البحر، إذ جامني رجل فاكراني أنظر له بستاناً، فتوجهت معه فأقمت في البستان أياماً كثيرة، فإذا خادم له قد أقبل ومعه أصحاب له، ولو علمت أن البستان بخادم ما نظرت له فقعده في مجلسه ثم قال يا ناطورنا فأجبته. قال اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيه، فأتيته برمان فكسر الخادم واحدة فوجدها حامضة فقال يا ناطورنا أنت منذ كذا وكذا في بستاننا تأكل من فاكهتنا ورماتنا ولا تعرف الحلو من الحامض، فقلت والله ما أكلت من فاكهتكم شيئاً، ولا أعرف الحلو من الحامض. قال فغمز الخادم أصحابه وقال ألا تعجبون من هذا، ثم قال لي لو كنت إبراهيم بن أدهم ما كنت بهذه الصفة. قال: ثم تحدث الناس بذلك وجاؤوا إلى البستان. فلما رأيت كثرة الناس اختفيت والناس داخلون وأنا هارب منهم. وكان يأكل من كسب يده، وكان يحصد ويحفظ البساتين، ويعمل في

الطين فينما هو يوماً يحرس كرمًا إذ مر به جندي فقال: اعطنا من هذا العنب فقال له: إن صاحبه لم يأذن لي فضربه بالسوط فطأ رأسه وقال اضرب رأساً طالما عصى الله يا سيدي الجندي. فاستحى الرجل وتركه ومضى.

وروي أن داود عليه الصلاة والسلام بينما هو يسبح في الجبال إذ مر على غار فيه رجل عظيم الخلقة من بني آدم ملقى على ظهره وعند رأسه حجر محفور مكتوب فيه: أنا دوسم الملك تملكك ألف عام وفتحت ألف مدينة، وهزمت ألف جيش وفضضت ألف بكر من بنات الملوك ثم صرت إلى ما ترى التراب فراشي، والحجر وسادي فمن رأيي فلا تغره الدنيا كما غرتني. وقال وهب بن منبه خرج عيسى عليه الصلاة والسلام ذات يوم مع أصحابه فلما ارتفع النهار مروا بزرع قد أفرك. فقالوا يا نبي الله إنا جياع. فأوحى الله تعالى إليه أن أئذن لهم في قوتهم فأذن لهم فثقروا في الزرع يفركون ويأكلون فينما هم كذلك إذ جاء صاحب الزرع يقول زرعي، وأرضي ورثتها من أبي وجدي فيأذن من تأكلون يا هؤلاء؟ قال فدعا عيسى ربه أن يعث جميع من ملكها من لدن آدم إلى تلك الساعة فإذا عند كل سنبلة ما شاء الله من رجل وامرأة يقولون أرضنا ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، ففر الرجل منهم وكان قد بلغه أمر عيسى ولكن لا يعرفه. فلما عرفه قال معلنة إليك يا نبي الله إني لم أفرك، زرعي ومالي حلال لك، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام وقال: ويحك هؤلاء كلهم ورثوها وعمروها ثم ارتحلوا عنها، وأنت مرتحل عنها ولاحق بهم ليس لك أرض ولا مال. ولما مات اسكندر قال أرسطاطاليس أيها الملك: لقد حركتنا بسكونك. وقال بعض الحكماء من أصحابه: لقد كان الملك أمس أنطق منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس. أخذه أبو العتاهية فقال:

كفى حزنًا بدفئك ثم إنني نقضت تراب قبرك من يديا
وكانت في حياتك لي عظمات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

وقال عبد الله بن المعتز:

نسير إلى الآجال في كل ساعة فأيماننا تطوى ومن مراحل
ولم أر مثل الموت حتى كأنه إذا ما تخطته الأمانتي باطل
وما أفتح الضريط في زمن العبا فكيف به والشيب في الرأس شاعل
ترحل من الدنيا بزاد من التقى فعمرك أيام تعد قلائل

وقال عبد الله بن المعلم: خرجنا من المدينة حجاجاً فإذا أنا برجل من بني هاشم من بني العباس بن عبد المطلب قد رفض الدنيا وأقبل على الآخرة فجمعتني وإياه الطريق فأنست به وقلت له: هل لك أن تعادلني^(١)، فإن معي فضلاً من راحلتي فجزاني خيراً وقال لو أردت هذا لكان سهلاً، ثم أنس إليّ فجعل يحدثني. فقال أنا رجل من ولد العباس كنت أسكن البصرة، وكنت ذا كبر شديد ونعمة طائلة، ومال كثير وولد زائد، فأمرت خادماً لي أن يحشوا لي فراشاً من حرير ومخدة بورد نثير ففعل. فإني لثائم إذا بقمع وردة قد نسيه الخادم قممت إليه فأوجعته ضرباً ثم عدت إلى مضجعي بعد إخراج القمع من المخدة، فأتاني آت في منامي في صورة فظيعة فهزني وقال أفق من غشيتك واتبه من رقدتك ثم أنشأ يقول:

(١) تعادلني: تساوني.

يا خل إنك أن توسد لنا وسدت بعد اليوم صم الجندل^(١)
فامهد لنفسك صالحاً تسعد به فتسلمن غداً إذا لم تفعل

فانتبهت مرعوباً وخرجت من ساعتى هارباً إلى ربي كما تراني ثم أنشأ يقول:

من كان يعلم أن الموت يدركه والقبر مسكنه والبعث يخرجـه
وأنه بين جنات مزخرفة يوم القيامة أو نار ستضجـه
فكل شيء سوى التقوى به سمج ومن أقام عليه منه اسمجـه
ترى النبي اتخذ الدنيا له وطناً لم يدرك أن المنايا سوف تزعجـه

قال وهب بن منبه: أصبت على قصر غمدان وهو قصر سيف بن ذي يزن بأرض صنعاء اليمن وكان من الملوك الأجلة مكتوباً بالقلم المستندي^(٢) فترجم بالعربي فإذا هي آيات جلية وموعظة عظيمة جميلة وهي هذه الآيات:

باتوا على قلل الأجيال تحرسهم غلب الرجال فلم تفهمهم القلل
واستزلوا من أعالي عز معقلهم فأسكنوا حفرة يا بش ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعدها دفنوا أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت محجة وكان من دونها الأستار والكلل
فأنفصح القبر عنهم حين ساءلهم تلك الوجوه عليها الدود يقتل
قد طالما أكلوا دهرًا وما شربوا فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أكلوا

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام كان معه صاحب في بعض سياحاته فأصابهما الجوع وقد انتهيا إلى قرية فقال عيسى عليه الصلاة والسلام لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعاماً من هذه القرية وأعطاه ما يشتري به فذهب الرجل وقام عيسى عليه الصلاة والسلام يصلي فجاء الرجل بثلاثة أرغفة فقعده ينتظر انصراف عيسى من الصلاة فأبطأ عليه فأكل رغيفاً، وكان عيسى عليه الصلاة والسلام رآه حين جاء ورأى الأرغفة ثلاثة، فلما انصرف من صلاته لم يجد إلا رغيفين. فقال له أين الرغيف الثالث؟ فقال الرجل ما كانا إلا رغيفين فأكلاهما ثم مرا على وجوههم حتى أتيا على ظباء ترعى فدعا عيسى عليه الصلاة والسلام واحداً منها فجاءه فذكاه وأكل منه، فقال له عيسى: بالذي أراك هذه الآية من أكل الرغيف الثالث؟ فقال ما كانا إلا اثنين. ثم مرا على وجوههما حتى جاءه قرية فدعا عيسى ربه أن ينطق له من يخبره عن حال هذه القرية فأنطق الله له لبنة فسألها عيسى فأخبرته بكل ما أراد وصاحبه يتعجب مما رأى فقال له عيسى بحق من أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال ما كانا إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى انتهيا إلى نهر عجاج فأخذ عيسى صلوات الله عليه بيد الرجل ومشى به على الماء حتى جاوزا النهر فقال الرجل سبحان الله فقال عيسى عليه الصلاة والسلام بالذي أراك هذه الآية من صاحب الرغيف الثالث؟ فقال ما كان إلا اثنين. فمرا على وجوههما حتى أتيا قرية عظيمة خربة وإذا قريب منها ثلاث لبنات عظام وقيل ثلاثة أكوام من الرمل، فقال لها كوني ذعباً يأذن الله فكانت فلما رآها الرجل قال هذا مال فقال عيسى: نعم واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث. فقال

(١) الجندل: الحبر في القبر.

(٢) القلم المستندي: خط عربي قديم عرف في نواحي اليمن.

الرجل أنا صاحب الرغيف الثالث. فقال عيسى عليه الصلاة والسلام هي لك كلها ثم فارقه عيسى. وأقام الرجل ليس معه ما يحملها عليه فمر به ثلاثة نفر فقتلوه فقال اثنان منهما للثالث انطلق إلى القرية فأتنا بطعام فانطلق، فلما غاب قال أحدهما للآخر إذا جاء قتلناه، واقتسمنا المال بيننا فقال الآخر نعم، وأما الذي ذهب ليشتري الطعام، فإنه أضمر لصاحبه سوء. وقال أجعل لهما في الطعام سماً فإذا أكلاه ماتا وأخذ المال لنفسه، فوضع السم في الطعام وجاء فقاما إليه فقتلاه، وأكلا الطعام فماتا. فمر بهم عيسى عليه الصلاة والسلام وهم مصروعون حولها. فقال هكذا الدنيا تفعل بأهلها.

وقال الهيثم بن عدي: وجد غار في جبل لبنان زمن الوليد بن عبد الملك وفيه رجل مسجى على سرير من ذهب، وعند رأسه لوح من الذهب أيضاً مكتوب فيه بالرومية: أنا سبأ بن نواس خدمت عيص بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرب الأكبر وعشت بعده دهرأ طويلاً ورأيت عجباً كثيراً، ولم أر فيما رأيت أعجب من غافل عن الموت وهو يرى مصارع آبائه ويقف على قبور أحبائه، ويعلم أنه صائر إليهم ثم لا يتوب وقد علمت أن الأجلاف الجفافة يستترلونني عن سريري، ويتولونه وذلك حين يتغير الزمان ويكثر الهذيان، ويترأس الصبيان. فمن أدرك هذا الزمان عاش قليلاً ومات ذليلاً. وعن عمرو بن ميمون أنه قال افتحنا مدينة بفارس فدللنا على مغارة فيها بيت فيه سرير من الذهب عليه رجل عند رأسه لوح مكتوب فيه: أنا بهرام ملك فارس كنت أعتاهم بطشاً، وأقساهم قلباً، وأطولهم أملاً، وأحرصهم على الدنيا، قد ملكت البلاد، وقتلت الملوك، وهزمت الجيوش، وأذلت الجبابرة، وجمعت من الأموال ما لم يجمعه أحد قبلي، ولم أستطع أن أفتدي به من الموت إذ نزل بي. ويروى في الإسرائيليات أن عيسى عليه الصلاة والسلام بينما هو في سياحته إذ مر بجمجمة نخرة فسأل الله في أن تتكلم فأنطقها الله له فقالت: يا نبي الله أنا بلوان بن حفص ملك اليمن عشت ألف سنة ورزقت ألف ولد، وافتضضت ألف بكر، وهزمت ألف جيش وفتحت ألف مدينة، فما كان كل ذلك إلا كحلم النائم. فمن سمع قصتي فلا يفتخر بالدنيا، فبكى عيسى عليه الصلاة والسلام بكاء شديداً حتى غشي عليه. ووجد مكتوب على قصر قد خربت أركانه، وباد أهله، وأظلمت نوحه هذه الآيات:

هذه منازل أقوام عهدتم
تبكي عليهم ديار كان يطربها
يوفون بالعهد مذ كانوا وبالضم
ترنم المجد بين الجود والكرم

وقيل في المعنى:

بالله ربك كم قصر مررت به
نادى غراب المنايا في جوانبه
قد كان أعمر باللذات والطرب
وصاح من بعده بالويل والخرب

وفيه:

أيها الرافع البناء رويداً لا يرد المنون عنك البناء

وحكي أن رجلين تنازعا في أرض، فأنطق الله تعالى لبنة من جدار تلك الأرض فقالت: إني كنت ملكاً من الملوك، ملكت الدنيا ألف سنة ثم صرت رميماً ألف سنة، ثم أخذني خزاف وعملي إناء، فاستعملت ألف سنة، حتى تكسرت وصرت تراباً، فأخذني وعملي لبناً وأنا في هذا الجدار كذا وكذا سنة، فلم تتنازعا في هذه الأرض، وأنتم عنها زائلون وإلى غيرها متقلبون. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وروي أن ملكاً بنى قصراً، وقال: انظروا إن كان فيه عيب فأصلحوه فقال رجل أرى فيه عيبين: فقالوا له وما هما. قال يموت الملك، ويخرب القصر. قال صدقت ثم أقبل على الله وترك القصر والدنيا.

وقيل: سئل الخضر عليه السلام عن أعجب شيء رآه في الدنيا مع طول سياحته، وقطعه للفقار والفلوات^(١)، فقال: أعجب شيء رأيته أنني مررت بمدينة لم أر على وجه الأرض أحسن منها. فسألت بعض أهلها متى بنيت هذه المدينة؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آبائنا ولا أجدادنا متى بنيت، وما زالت كذلك من عهد الطوفان، ثم غبت عنها خمسمائة سنة ومررت بها فإذا هي خاوية على عروشها ولم أر أحداً أسأله. وإذا رعاة غنم فدنوت منهم فقلت أين المدينة التي هاهنا؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آبائنا ولا أجدادنا أنه كان هاهنا مدينة. ثم غبت خمسمائة سنة ومررت بها وإذا موضع تلك المدينة بحر، وإذا غواصون يخرجون منه شبه الحلية. فقلت للغواصين منذ كم هذا البحر ههنا؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آبائنا ولا أجدادنا، إلا أن هذا البحر من عهد الطوفان، فغبت خمسمائة سنة وجئت فإذا البحر قد غاض^(٢) ماؤه، وإذا مكانه غيضة وصيادون يصيدون فيها السمك في زوارق صغار. فقلت لبعضهم أين البحر الذي كان ههنا؟ فقالوا سبحان الله لم يذكر آبائنا ولا أجدادنا أنه كان ههنا بحر فغبت خمسمائة عام ثم جئت إلى ذلك فإذا هو بالمدينة على الحالة الأولى، والحصون، والقصور والأسواق قائمة فقلت لبعضهم أين الغيضة التي كانت ههنا؟ ومتى بنيت هذه المدينة فقالوا سبحان الله لم يذكر آبائنا ولا أجدادنا إلا أن هذه المدينة على حالها من عهد الطوفان فغبت عنها نحو خمسمائة سنة ثم أتيت فإذا عاليها سافلها، وهي تدخن بدخان شديد، فلم أر أحداً أسأله ثم أتيت راعياً فسأله أين المدينة قال: سبحان الله لم يذكر آبائنا ولا أجدادنا إلا أن هذا المكان هكذا منذ كان. فهذا أعجب شيء رأيته في سياحتي فسبحان مبد العباد ومفني البلاد، ووارث الأرض ومن عليها ويأبى من خلق منها بعد رده إليه. ولبعضهم:

ف بالديار فهذه آثارهم	تبكي الأجنة حسرة وتشوقاً
كم قد وقفت بها أسائل أهلها	عن حالها مترحماً أو مشفقاً
فأجابني داعي الهوى في رسمها	فأرقت من تهوى وعزّ الملتقى

ولبعضهم:

أيها الريح الذي قد دثرا	كان عيناً ثم أضحى أثرا
أين سكانك ماذا فعلوا	خبرن عنهم سقيت المطر
فلقد نادى منادي دارهم	رحلوا واستودعوني عبداً

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: أوحى الله إلى الدنيا من خدمني فاخدميه ومن خدمني فاستخدميه يا دنيا، مرى على أوليائي ولا تحلي لهم فتنتهم. وقال بعض الحكماء: الدنيا كالماء المالح، كلما ازداد صاحبها شرباً ازداد عطشاً، أو كالكأس من عسل وفي أسفله سم فللذائق منه حلاوة عاجلة، وفي أسفله الموت، أو كحلم النائم يفرح في منامه فإذا استيقظ زال فرحه، أو كالبرق يضيء قليلاً ثم يذهب. ولما بنى المأمون قصره الذي ضرب به المثل نام فيه فسمع قائلاً يقول:

(١) الفلوات: مفرداً فلاة: المفازة.

(٢) غاض: نشف.

أتبني بناء الخالدين وإنما
لقد كان في ظل الأراك كفاية
قال: فلم يلبث بعدها إلا قليلاً ومات وقال:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض
على الماء خائته فروج الأصابع
ووجد مكتوب على قصر باد أهله:

هني منازل أقوام عهدتم
صاحت بهم نائبات الدهر فانتقلبوا
في خفض عيش نفيس ما له خطر
إلى القبور فلا عين ولا أثر

ولو قيل للدنيا صفي نفسك ما عدت ما وصفها به أبو نواس بقوله:

وما الناس إلا هالك وابن هالك
إذا امتحن الدنيا ليب تكشف
وذو نسب في الهالكين عريق
له عن عدو في ثياب صديق

وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه لما رجع من صفين ودخل أوائل الكوفة رأى قبراً. فقال قبر من هذا؟ فقالوا قبر خباب بن الأرت فوقف عليه وقال: رحم الله خباباً أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهداً، وابتل في جسمه آخراً ألا وإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ثم مشى فإذا هو بقبور فجاء حتى وقف عليها وقال: السلام عليكم أهل الديار الموحشة، والمحال المقفرة، أنتم لنا سلف ونحن لكم تبع، ويكم عما قليل لآحقون. اللهم اغفر لنا ولهم وتجاوز عنا وعنهم، طوبى لمن ذكر المعاد وعمل ليوم الحساب، وقنع بالكفاف ورضي عن الله تعالى، ثم قال يا أهل القبور أما الأزواج فقد نكحت، وأما الديار فقد سكنت، وأما الأموال فقد قسمت وهذا ما عندنا فما عندكم، ثم التفت إلى أصحابه وقال: أما أنهم لو تكلموا لقالوا: وجدنا خير الزاد التقوى. والله سبحانه وتعالى أعلم.

الباب الرابع والثمانون: في فضل الصلاة على رسول الله ﷺ وهو آخر الأبواب وبه يختم الكتاب

ولنذكر أربعين حديثاً في فضل الصلاة على النبي ﷺ.

الحديث الأول: عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ صلت عليه الملائكة، ومن صلت عليه الملائكة صلى الله عليه، ومن صلى الله عليه لم يبق شيء في السموات ولا في الأرض إلا صلى عليه».

الحديث الثاني: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ صلاة واحدة أمر الله حافظيه أن لا يكتب عليه ذنباً ثلاثة أيام».

الحديث الثالث: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ مرة خلق الله من قوله ملكاً له جناحان، جناح بالشرق، وجناح بالمغرب، رأسه وعنقه تحت العرش وهو يقول اللهم صل على عبدك ما دام يصلي على نبيك».

الحديث الرابع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ ألفاً لم يعذبه الله بالنار».

الحديث الخامس: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ مرة صلى الله عليه بها عشراً، ومن صلى عليّ عشراً صلى الله عليه مائة، ومن صلى عليّ مائة صلى الله عليه بها ألفاً، ومن صلى عليّ ألفاً لم يعذبه الله بالنار».

قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ مرة كتب الله له عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات».

الحديث السادس: قال رسول الله ﷺ: «أنا نبي جبريل يوماً قال يا محمد جئت بك بشارة لم آت بها أحداً قبلك، وهي أن الله تعالى يقول لك: «من صلى عليك من أمك ثلاث مرات غفر الله له إن كان قائماً قبل أن يقعد، وإن كان قاعداً غفر له قبل أن يقوم»، فعند ذلك خر ساجداً لله شاكراً».

الحديث السابع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ في الصباح عشراً محيت عنه ذنوب أربعين سنة».

الحديث الثامن: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة غفر الله له خطيئة ثمانين سنة».

الحديث التاسع: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ ليلة الجمعة أو يوم الجمعة مائة مرة قضى الله له مائة حاجة، ووكل الله به ملكاً حين يدفن في قبره يشره كما يدخل أحدكم على أخيه بالهدية».

الحديث العاشر: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ في يوم مائة مرة قضيت له في ذلك اليوم مائة حاجة».

الحديث الحادي عشر: قال رسول الله ﷺ: «أقربكم مني مجلساً أكثركم عليّ صلاة».

الحديث الثاني عشر: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ ألف مرة بشر بالجنة قبل موته».

الحديث الثالث عشر: قال رسول الله ﷺ: «جاءني جبريل عليه السلام وقال لي يا رسول الله لا يصلي عليك أحد إلا يصلي عليه سبعون ألفاً من الملائكة».

الحديث الرابع عشر: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء بعد الصلاة عليّ لا يرد».

الحديث الخامس عشر: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة عليّ نور على الصراط». وقال عليه الصلاة والسلام «لا يلج النار من يصلي عليّ».

الحديث السادس عشر: قال رسول الله ﷺ: «من جعل عبادته الصلاة عليّ قضى الله له حاجة الدنيا والآخرة».

الحديث السابع عشر: قال رسول الله ﷺ: «من نسي الصلاة عليّ أخطأ طريق الجنة».

الحديث الثامن عشر: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله ملائكة في الهواء، بأيديهم قراطيس من نور، لا يكتبون إلا الصلاة عليّ وعلى أهل بيتي».

الحديث التاسع عشر: قال رسول الله ﷺ: «لو أن عبداً جاء يوم القيامة بحسنات أهل الدنيا، ولم تكن فيها الصلاة عليّ ردت عليه ولم تقبل منه».

الحديث العشرون: قال رسول الله ﷺ: «أولى الناس بي أكثرهم عليّ صلاة».

الحديث الحادي والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ في كتاب لم تزل الملائكة تصلي عليه، ما لم يندرس اسمي من ذلك الكتاب».

الحديث الثاني والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله ملائكة سياحين في الأرض يلغونني الصلاة عليّ من أمتي فأستغفر لهم».

الحديث الثالث والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «من صلى عليّ كنت شفيعه يوم القيامة، ومن لم يصل عليّ فأنا بريء منه».

الحديث الرابع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «يؤمر بقوم إلى الجنة فيخطئون الطريق. قالوا يا رسول الله ولم ذاك؟ قال: سمعوا اسمي ولم يصلوا عليّ».

الحديث الخامس والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «يؤمر برجل إلى النار فأقول ردوه إلى الميزان فأضع له شيئاً كالأنملة معي في ميزانه وهو الصلاة عليّ فيرجع ميزانه وينادي سَعْدَ فلان».

الحديث السادس والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قوم في مجلس ولم يصل عليّ فيه إلا تفرقوا كقوم تفرقوا عن ميت ولم يغسلوه».

الحديث السابع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى وكل بقبري ملكاً أعطاه أسماء الخلائق كلها فلا يصلي عليّ أحد إلى يوم القيامة إلا بلغني اسمه وقال يا رسول الله: «إن فلان ابن فلانة صلى عليك».

الحديث الثامن والعشرون: عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قال: الصلاة على النبي ﷺ أمحي للذنوب من الماء لسواد اللوح.

الحديث التاسع والعشرون: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام إن أردت أن أكون إليك أقرب من كلامك إلى لسانك، ومن روحك لجسدك، فأكثر من الصلاة على النبي الأمي ﷺ».

الحديث الثلاثون: قال رسول الله ﷺ: «إن ملكاً أمره الله تعالى باقتلاع مدينة غضب عليها فرحمها ذلك الملك، ولم يبادر إلى اقتلاعها فغضب الله عليه، وكسر أجنحته فمر به جبريل عليه السلام فشكا له حاله، فسأل الله فيه، فأمره أن يصلي على النبي ﷺ فصلى عليه فغفر الله له، وردَّ عليه أجنحته ببركة الصلاة على النبي ﷺ».

الحديث الحادي والثلاثون: عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: من صلى على رسول الله ﷺ عشر مرات وصلى ركعتين، ودعا الله تعالى، تقبل صلاته، وتقضى حاجته، ودعاؤه مقبول غير مردود.

الحديث الثاني والثلاثون: عن زيد بن حارثة قال: سألت رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه فقال ﷺ: «صلوا علي واجتهدوا في الدعاء وقولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد».

الحديث الثالث والثلاثون: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال تعالى: قال رسول الله ﷺ: «صلوا علي فإن صلاتكم عليّ زكاة لكم واسألوا الله الوسيلة».

الحديث الرابع والثلاثون: عن سهل بن سعد الساعدي أن النبي ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يصل على نبي ﷺ».

الحديث الخامس والثلاثون: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصل عليّ».

الحديث السادس والثلاثون: عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال قال رسول الله ﷺ: «من قال جزى الله عنا محمداً خيراً وجزى الله نبينا محمداً بما هو أهله فقد أتعب كاتبيه».

الحديث السابع والثلاثون: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم».

الحديث الثامن والثلاثون: عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحد يصلي عليّ إلا رد الله روحي حتى أردَّ عليه».

الحديث التاسع والثلاثون: قال رسول الله ﷺ: «أقربكم مني منزلة يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة».

الحديث الأربعون: نقل الشيخ كمال الدين الدميري رحمه الله تعالى عن شفاء الصدور لابن سبع أن النبي ﷺ قال: «من سره أن يلقى الله وهو عليه راضي فليكثر من الصلاة عليّ فإنه من صلى عليّ في كل يوم خمسمائة مرة لم يفتر أبداً، وهدمت ذنوبه، ومحيت خطايا، ودام سروره، واستجيب دعاؤه، وأعطى أمه، وأعني على عدوه وعلى أسباب الخير، وكان ممن يرافق نبيه في الجنان» اللهم صل على سيد المرسلين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين الذي أنزل عليه في محكم الكتاب العزيز تعظيماً له، وتوقيراً. «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً

إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً * ويشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً^(١) فهذا خطاب خاص الخاص، ولم يخاطب الله أحداً من المرسلين ولا من الأنبياء ولا رسولاً بالرسالة، إلا سيد خلقه محمداً ﷺ فإن الله تعالى نادى أبا البشر: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(٢)، ﴿وَيَا نُوحٍ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا﴾^(٣)، ﴿وَيَا إِبْرَاهِيمَ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾^(٤)، ﴿وَيَا دَاوُدَ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾^(٥)، ﴿وَيَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾^(٦) وقال لمحمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٧)، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنْكَ﴾^(٨)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ * يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِي الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾^(٩)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾^(١٠)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾^(١١)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾^(١٢)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾^(١٣)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾^(١٤)، وما ناداه باسمه يا محمد كغيره إلا في أربعة مواضع اقتضت الحكمة أن يذكر هناك باسمه محمد ﷺ، الأول قوله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾^(١٥) لأن سبب إنزالها أن الشيطان صاح يوم أحد قد قتل محمد، وكان ما كان فأنزل الله تعالى هذه الآية ولو قال وما رسولي لقال الأعداء ليس هو محمد فذكره باسمه لأنهم ما كانوا ينكرون أن اسمه محمد. الثاني قوله عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(١٦)، الثالث قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَسْهَالَهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾^(١٧) فلو قال وآمنوا بما نزل على رسولي لقال الأعداء ليس هو فعرفه باسم محمد ﷺ. الرابع قوله عز وجل: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾^(١٨) والحكمة في ذكره هنا باسمه أنه سبحانه وتعالى قال قبلها ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾^(١٩) فكان من

(١) سورة: الأحزاب، الآيات: ٤٥ - ٤٧.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٣٥.

(٣) سورة: هود، الآية: ٤٨.

(٤) سورة: هود، الآية: ٧٦.

(٥) سورة: ص، الآية: ٢٦.

(٦) سورة: المائدة، الآية: ١١٠.

(٧) سورة: المائدة، الآية: ٦٧.

(٨) سورة: المائدة، الآية: ٤١.

(٩) سورة: الأنفال، الآيات: ٦٤ - ٦٥.

(١٠) سورة: التوبة، الآية: ٧٣.

(١١) سورة: الطلاق، الآية: ١.

(١٢) سورة: التحريم، الآية: ١.

(١٣) سورة: الأحزاب، الآية: ١.

(١٤) سورة: الأحزاب، الآيات: ٤٥ - ٤٦.

(١٥) سورة: آل عمران، الآية: ١٤٤.

(١٦) سورة: الأحزاب، الآية: ٤٠.

(١٧) سورة: محمد، الآيات: ١ - ٢.

(١٨) سورة: الفتح، الآية: ٢٩.

(١٩) سورة: الفتح، الآية: ٢٨.

الأعداء من يقول: من هو رسوله الذي أرسله فعرّفه باسمه فقال: محمد رسول الله وسماه تعالى باسمه أحمد في موضع واحد وله حكمة، وهي أن الله تعالى لما أرسل عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قال لقومه من بني إسرائيل ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾^(١) لأنهم كانوا يعرفونه في التوراة أحمد فما ناداه سبحانه وتعالى باسمه محمد وإنما ذكر ذلك إعلاماً به، وتعريفاً له، وما ناده إلا بالنبوة والرسالة فقال: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً﴾^(٢) أي شاهداً بالإيمان للمؤمنين، ومبشراً لأهل التمجيد، ونذيراً لأهل التجحيد، وقيل شاهداً لأهل القرآن، ومبشراً لهم بالغفران، ونذيراً لأهل الكفر والمعصيان، وقيل شاهداً لأمتك، ومبشراً بشفاعتك، ونذيراً لمن ارتكب مخالفتك وقيل شاهداً بالمنة، ومبشراً بالجنة. وقوله ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾ أي يدعو الناس بأمر الله تعالى إلى لا إله إلا الله قال تعالى: وأنه لما قام عبد الله يدعوه وسمى رسول الله ﷺ نفسه داعياً فقال أنا الداعي إلى الله وقوله تعالى ﴿وسراجاً منيراً﴾ أي يهتدى به كما يهتدى بالسراج في ظلمة الليل.

فإن قلت: ما الحكمة في قوله تعالى ﴿وسراجاً منيراً﴾ ولم يقل قمراً منيراً.

فالجواب عن ذلك أن السراج أعم من القمر، لأن المراد بالسراج هنا الشمس. قال تعالى: ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾^(٣) والشمس أعم نقعاً ونوراً من القمر وقيل المراد بقوله تعالى ﴿وسراجاً منيراً﴾ السراج الذي يقتبس منه، لأن القمر لا تصل إليه الأيدي حتى يقتبس منه، والسراج إذا كان في بلد يملأ ذلك البلد نوراً، لأن كل ما جاء يقتبس منه. والقمر ليس كذلك، ولهذا كانت الدنيا قبل ولادته ﷺ ظلاماً، فلما ولد ظهر سراج دينه بمكة فكان أول من اقتبس من الرجال أبو بكر، ومن النساء خديجة، ومن الشباب علي، ومن الموالى زيد، ومن العبيد بلال رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وجاء سلمان من أرض فارس فاقبس، وصهيب من الروم، وبلال من الحبشة، ووفد الوفود واقتبسوا وأبو لهب إلى جانب البيت ولم يقتبس، واقتبس الناس من مشارق الأرض ومغاربها حتى امتلأت الأرض من نور سراجهم، فهو ﷺ أعظم الأنبياء، وأكرم المرسلين، وسيد الخلق أجمعين لم يخلق الله أحسن ولا أجمل ولا أكمل ولا أفضل ولا أفصح ولا أرجح ولا أسمح ولا أصبح ولا أجل ولا أعظم ولا أسخى ولا أكرم ولا أبهى ولا أنصف ولا أعدل منه ﷺ. فلو أن البحار مداد، والنبات أقلام، وجميع الخلق تكتب معجزاته ﷺ لعجزوا عن وصف نوره التز من معجزاته ﷺ.

اللهم اجعلنا من خالص أمته واحشرنا في زمرة، وأثبتنا على محبته، ولا تخالف بنا عن ملته ولا عن جاء به برحمتك يا أرحم الراحمين آمين.

وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي عدد ما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

(١) سورة: الصف، الآية: ٦.

(٢) سورة: الأحزاب، الآية: ٤٥ - ٤٦.

(٣) سورة: نوح، الآية: ١٦.

المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - أحكام النساء لابن الجوزي، تحقيق عبد المجيد طعمة حلي، دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ٣ - أخبار النحويين البصريين، للسيرافي الحسن بن عبد الله، أبي الحسن، المطبعة الكاثوليكية تحقيق د. فريش كرنكو ١٩٣٦ م.
- ٤ - أخبار النساء لابن قيم الجوزية، تحقيق عبد المجيد طعمة حلي، دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ٥ - الأدب النبوي، للخولي، تحقيق عبد المجيد طعمة حلي، دار الحياة ومكتبة أسامة بن زيد، حلب الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ٦ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر تحقيق محمد علي البجاري القاهرة.
- ٧ - أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري، تحقيق محمد إبراهيم البنا ومحمد أحمد عاشور ومحمود عبد الوهاب فايد، دار الشعب، القاهرة.
- ٨ - الإصابات في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٩ - الأصمعيات، تحقيق أحمد شاکر وعبد السلام هارون، دار المعارف مصر ١٩٥٥ م.
- ١٠ - الأعلام، للزركلي الطبعة السادسة عام ١٩٨٤ م.
- ١١ - الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني، بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم، المؤسسة المصرية العامة للكتاب.
- ١٢ - الأمالي لأبي علي القالي، تقديم عبد الجواد الأصمعي، دار الكتاب العربي بيروت، مصوره عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ م.
- ١٣ - إنباء الرواة على أنباء النحاة، للقفطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٥٠ م.
- ١٤ - الأنساب للسمعاني، تقديم وتعليق عمر البارودي، دار الجنان بيروت ١٩٨٨ م.
- ١٥ - البخلاء، للجاحظ تحقيق طه الحاجري دار المعارف، مصر.
- ١٦ - البداية والنهاية لابن كثير الدمشقي، دار المعرفة بيروت.
- ١٧ - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة المصرية، بيروت.
- ١٨ - البيان والتبيين للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٤٨ م.
- ١٩ - تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج الكويت عام ١٩٦٥ م.
- ٢٠ - تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، محمد سعيد العرفي، مكتبة الخانجي، مصر.
- ٢١ - تاريخ الخلفاء للسيوطي، تحقيق محمد رياض الحلي، دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ٢٢ - تاريخ الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف القاهرة الطبعة الرابعة.

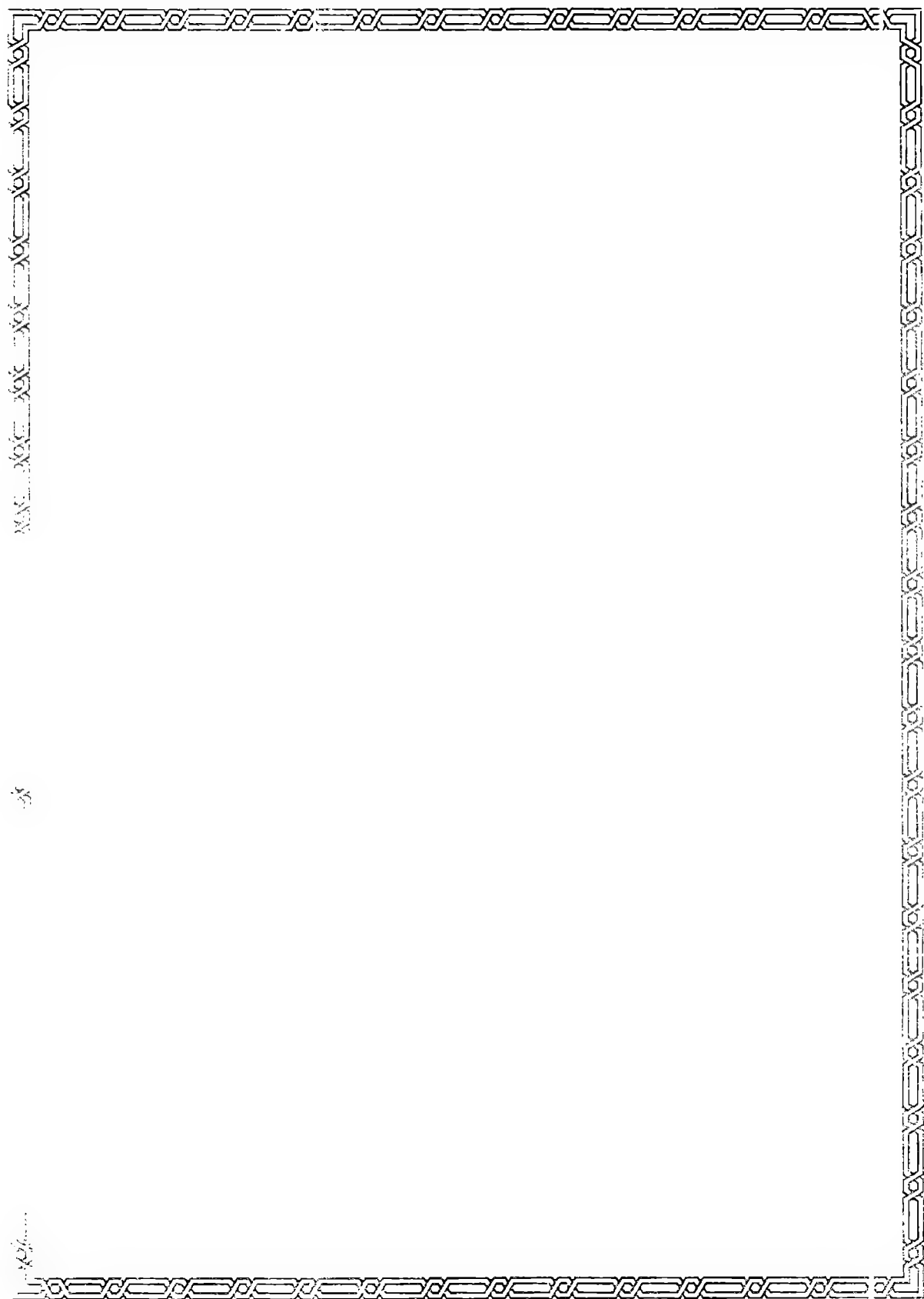
- ٢٣ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي، تحقيق عبد المجيد طعمة حليبي، دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٦ م.
- ٢٤ - تهذيب التهذيب لابن حجر المسقلاني، دار إحياء التراث.
- ٢٥ - تهذيب اللغة للأزهري تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي القاهرة.
- ٢٦ - الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، نشر وتصوير دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٢٧ - جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد القرشي تحقيق محمد علي الهاشمي، دار القلم دمشق ١٩٨٦ م.
- ٢٨ - جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي القاهرة.
- ٢٩ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة للسيوطي تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة الطبعة الأولى ١٩٦٨ م.
- ٣٠ - الحيوان للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت.
- ٣١ - خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادى، تحقيق عبد السلام هارون مكتبة الخانجي.
- ٣٢ - الدارس في أخبار المدارس للنعمي تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقى دمشق ١٩٥٠ م.
- ٣٣ - الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر المسقلاني تصوير دار إحياء التراث العربي.
- ٣٤ - رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، تحقيق د. عائشة عبد الرحمن دار المعارف مصر ١٩٦٩ م.
- ٣٥ - زهر الآداب وثمر الألباء للحصري تحقيق محمد علي البجاي مصر ١٩٥٣ م.
- ٣٦ - سنن ابن ماجة، تحقيق خليل مأمون شيحا، الطبعة الأولى ١٩٩٦ م دار المعرفة بيروت.
- ٣٧ - سنن النسائي، تحقيق خليل مأمون شيحا، الطبعة الثالثة ١٩٩٤ دار المعرفة بيروت.
- ٣٨ - سير أعلام النبلاء، للنهجي إشراف شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٢ م.
- ٣٩ - السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة بيروت.
- ٤٠ - السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شليبي، دار المعرفة بيروت.
- ٤١ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٤٢ - شرح أدب الكاتب لجواليقي، دار الكتاب العربي بيروت د.ت.
- ٤٣ - الشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق أحمد شاكر، القاهرة ١٩٦٠ م.
- ٤٤ - صبح الأعشر في صناعة الإنشاء، للقلقشندي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ١٩١٩ م.
- ٤٥ - صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق خليل مأمون شيحا الطبعة الأولى ١٩٩٤ م دار المعرفة بيروت.
- ٤٦ - صفة الصفوة، لابن الجوزي، تحقيق عبد الرحمن اللادقي وحياة شيحا اللادقي، دار المعرفة بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٥ م.
- ٤٧ - طبقات الشعراء، لابن سلام الجمحي، دراسة طه أحمد إبراهيم، دار الكتب العلمية بيروت.
- ٤٨ - طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، شرح محمود شاكر، دار المعارف مصر ١٩٥٢ م.

- ٤٩ - الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار صادر بيروت ١٩٦٠ م.
- ٥٠ - العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، تحقيق د. عرم تدمري، دار الكتاب العربي بيروت.
- ٥١ - العملة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني تحقيق د. محمد قرقران، الطبعة الأولى، دار المعرفة بيروت ١٩٨٨ م.
- ٥٢ - عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير، لابن سيد الناس، مكتبة القدسي القادسي.
- ٥٣ - عيون الأخبار، لابن قتيبة، دار الكتب المصرية ١٩٦٣ م.
- ٥٤ - الفهرس لابن النديم، دار المعرفة بيروت.
- ٥٥ - فوات الوفيات للكتبي، تحقيق د. حسان عباس دار صادر بيروت.
- ٥٦ - القاموس المحيط للفيروز آبادي الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٥٧ - الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار صادر بيروت ١٩٦٥ م.
- ٥٨ - الكامل في اللغة والأدب للمرمر، تحقيق د. محمد أحمد العرابي مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٩٣.
- ٥٩ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٦٠ - لباب الآداب لابن منقذ، تحقيق أحمد محمد شاكر، مصر ١٩٣٥ م.
- ٦١ - لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٦٢ - المحاسن والأضداد، المنسوب للجاحظ، الجمالية ١٣٣٠ هـ.
- ٦٣ - مراتب النحويين، لأبي الطيب النبوي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة نهضة مصر ومطبعها، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٥٥ م.
- ٦٤ - المستدرک على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، دار المعرفة بيروت.
- ٦٥ - المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشي، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- ٦٦ - معجم الأدباء، لياقوت الحموي، مصر نشر وتصوير، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ٦٧ - معجم البلدان، لياقوت الحموي تصحيح محمد أمين الخانجي الطبعة الأولى.
- ٦٨ - معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة، مطبعة الترقى بدمشق ١٩٦١ م.
- ٦٩ - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد الأندلسي، تحقيق د. شوقي ضيف دار المعارف القاهرة ١٩٥٣ م.
- ٧٠ - الملل والنحل للشهرستاني، تحقيق أ. مهنا وعلي حسن فاعور، دار المعرفة بيروت الطبعة الثالثة ١٩٩٣ م.
- ٧١ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي، تحقيق محمد علي البجاوي دار المعرفة بيروت.
- ٧٢ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، لابن تغري بردي، دار الكتب المصرية ١٩٦٣ م.
- ٧٣ - نزهة الألباء في طبقات الأدباء، لابن الأنباري تحقيق د. إبراهيم السامرائي مطبعة المعارف بغداد ١٩٥٩ م.
- ٧٤ - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، للمقري التلمساني تحقيق د. حسان عباس بيروت ١٩٦٨ م.
- ٧٥ - النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، تحقيق محمود محمد الطناحي القاهرة.
- ٧٦ - الوافي بالوفيات، للصفدي، اعتناء هلموت روتر وآخرون، نشر المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت.

فهرس موضوعات

كتاب المستطرف في كل فن مستظرف

الجزءين الأول والثاني



فهرس الموضوعات

الجزء الأول

٥	مقدمة الناشر
٧	مقدمة الإبيهي لكتاب «المستطرف»
١٣	الباب الأول: في مباني الإسلام وفيه خمسة فصول
١٣	الفصل الأول: في الإخلاص لله تعالى والثناء عليه
١٤	الفصل الثاني: في الصلاة وفضلها
١٧	الفصل الثالث: في الزكاة وفضلها
٢٠	الفصل الرابع: في الصوم وفضله
٢١	الفصل الخامس: في الحج وفضله
٢٤	الباب الثاني: في العقل والذكاء والحمق وذمه وغير ذلك
٢٩	الباب الثالث: في القرآن وفضله وحرمة
٣٣	الباب الرابع: في العلم والأدب وفضل العالم والمتعلم
٤٠	الباب الخامس: في الآداب والحكم وما أشبه ذلك
٤٤	الباب السادس: في الأمثال السائرة وفيه فصول
٤٤	الفصل الأول: فيما جاء من ذلك في القرآن العظيم وأحاديث النبي الكريم
٤٦	الفصل الثاني: في أمثال العرب
٤٨	الفصل الثالث: في أمثال العامة والمولكنين
٤٨	الفصل الرابع: في الأمثال من الشعر المنظوم مرتبة على حروف المعجم
٥٦	الفصل الخامس: في الأمثال السائرة بين الرجال والنساء مرتبة على حروف المعجم
٦٦	الباب السابع: في البيان والبلاغة والفصاحة وغيرها، وفيه ثلاثة فصول
٦٦	الفصل الأول: في البيان والبلاغة
٦٧	الفصل الثاني: في الفصاحة
٧٤	الفصل الثالث: في ذكر الفصحاء من الرجال
٨٣	ذكر فصحاء النساء وحكاياتهن
٩٠	الباب الثامن: في الأجوبة المسكنة والمستحسنة ورشقات اللسان

٩٤	الباب التاسع: في ذكر الخطب والخطباء والشعر والشعراء
٩٥	فصل في ذكر الشعر والشعراء وسرقاتهم
١٠٢	الباب العاشر: في التوكل على الله تعالى إلخ، وفيه ثلاثة فصول
١٠٢	الفصل الأول: في التوكل على الله تعالى
١٠٦	الفصل الثاني: في القناعة والرضا بما قسم الله تعالى
١١٠	الفصل الثالث: في ذم الحرص والطمع وطول الأمل
١١٣	الباب الحادي عشر: في المشورة والنصيحة والتجارب والنظر في العواقب
١١٩	الباب الثاني عشر: في الرصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك
١٢٥	الباب الثالث عشر: في الصمت وصون اللسان إلخ، وفيه ثلاثة فصول
١٢٥	الفصل الأول: في الصمت
١٢٦	الفصل الثاني: في تحريم الغيبة
١٢٨	الفصل الثالث: في تحريم السعاية بالنميمة
١٣٣	الباب الرابع عشر: في الملك والسلطان وطاعة ولاة أمور الإسلام إلخ
١٣٦	الباب الخامس عشر: فيما يجب على من صحب السلطان إلخ
١٣٩	الباب السادس عشر: في ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم وما أشبه ذلك
١٤١	الباب السابع عشر: في ذكر الحجاب والولاية وما فيها من الغرور والخطر
١٤٧	الباب الثامن عشر: فيما جاء في القضاء، إلخ وفيه ثلاثة فصول
١٤٧	الفصل الأول: فيما جاء في القضاء وذكر القضاة وأحوالهم وما يجب عليهم
١٥٠	الفصل الثاني: في الرشوة والهدية على الحكم وما جاء في الدينون
١٥١	الفصل الثالث: في ذكر القصاص والمتصوفة، وما جاء في الرياء ونحو ذلك
١٥٣	الباب التاسع عشر: في العدل والإحسان والإنصاف وغير ذلك
١٥٧	الباب العشرون: في الظلم وشؤمه وسوء عواقبه، وذكر الظلمة وأحوالهم وغير ذلك
١٦٣	الباب الحادي والعشرون: في بيان الشروط التي تؤخذ على العمال وفيه فصلان
١٦٣	الفصل الأول: في سيرة السلطان في استجباء الخراج، وسيرة العمال
١٦٦	الفصل الثاني: في أحكام أهل النمة
١٦٩	الباب الثاني والعشرون: في اصطناع المعروف وإغاة الملهوف إلخ
١٧٢	الباب الثالث والعشرون: في محاسن الأخلاق ومساوئها
١٧٧	الباب الرابع والعشرون: في حسن المعاشرة والمودة والأخوة والزيارة
١٨٧	الباب الخامس والعشرون: في الشفقة على خلق الله تعالى إلخ، وفيه فصلان
١٨٧	الفصل الأول: في الشفقة على خلق الله تعالى والرحمة بهم

١٨٨	الفصل الثاني: في الشفاعة وإصلاح ذات البين
١٩٠	الباب السادس والعشرون: في الحياء والتواضع ولين الجانب، إلخ، وفيه فصلان
١٩٠	الفصل الأول: في الحياء
١٩٠	الفصل الثاني: في التواضع ولين الجانب وخفض الجناح
١٩٢	الباب السابع والعشرون: في العجب والكبر والخيلاء وما أشبه ذلك
١٩٤	الباب الثامن والعشرون: في الفخر والمفاخرة والتفاضل والتفاوت
٢٠٢	الباب التاسع والعشرون: في الشرف والسؤدد وعلو الهمة
٢٠٥	الباب الثلاثون: في الخير والصلاح وذكر الصحابة والأولياء والصالحين
٢١٧	الباب الحادي والثلاثون: في مناقب الصالحين وكرامات الأولياء
٢٢٨	الباب الثاني والثلاثون: في ذكر الأشرار والفجار إلخ
٢٣١	الباب الثالث والثلاثون: في الجود والسخاء والكرم ومكارم الأخلاق إلخ
٢٤٩	الباب الرابع والثلاثون: في البخل والشح، والبخلاء، وأخبارهم
٢٥٧	الباب الخامس والثلاثون: في الطعام وآدابه والضيافة وآداب المضيف والضيف إلخ
٢٧٠	الباب السادس والثلاثون: في العفو والحلم والصفح وكظم الغيظ والاعتذار إلخ
٢٨٤	الباب السابع والثلاثون: في الوفاء بالوعد وحفظ العهد ورعاية النعم
٢٩٥	الباب الثامن والثلاثون: في كتمان السر وتحصينه وذم إفشائه
٢٩٨	الباب التاسع والثلاثون: في الغدر والخيانة إلخ، وفيه أربعة فصول
٢٩٨	الفصل الأول: في الغدر والخيانة
٣٠١	الفصل الثاني: في السرقة والتراق
٣٠٢	الفصل الثالث: في العداوة والبغضاء
٣٠٤	الفصل الرابع: في الحسد
٣٠٧	الباب الأربعون: في الشجاعة وثمرتها والحروب وتبليغها، إلخ وفيه فصلان
٣٠٧	الفصل الأول: في فضل الجهاد في سبيل الله وشلة البأس
٣٠٨	الفصل الثاني: في الشجاعة وثمرتها والحروب وتبليغها
٣١٤	الباب الحادي والأربعون: في ذكر أسماء الشجعان وذكر الأبطال، وذكر الجبناء وأخبارهم
٣٢٥	الباب الثاني والأربعون: في المدح والثناء وشكر النعمة والمكافأة، وفيه ثلاثة فصول
٣٢٥	الفصل الأول: في المدح والثناء
٣٣٤	الفصل الثاني: في شكر النعمة
٣٣٨	الفصل الثالث: في المكافأة

الجزء الثاني

٣٤٥	الباب الثالث والأربعون: في الهجاء ومقدماته
٣٥٣	الباب الرابع والأربعون: في الصديق والكذب وفيه فصلان
٣٥٣	الفصل الأول: في الصديق
٣٥٤	الفصل الثاني: في الكذب وما جاء فيه
	الباب الخامس والأربعون: في بر الوالدين وذم العقوق، والأولاد، وصلة الرحم، والقرايات
٣٥٦	وفيه ثلاثة فصول
٣٥٦	الفصل الأول: في بر الوالدين وذم العقوق
٣٥٧	الفصل الثاني: في الأولاد وحقوقهم وذكر النجباء وغيرهم
٣٦٠	الفصل الثالث: في ذكر الأنساب والأقارب والعشيرة
٣٦٢	الباب السادس والأربعون: في الخلق وصفاتهم وأحوالهم، والحسن والقيح، وفيه فصول
٣٦٢	الفصل الأول: في الحسن ومحاسن الأخلاق
٣٨٨	الباب السابع والأربعون: في التخنم والحلي والمصوغ والطيب والتطيب وما أشبه ذلك
٣٩١	الباب الثامن والأربعون: في الشباب والشيب والصحة وأخبار المعمرين وفيه فصول
٣٩١	الفصل الأول: في الشباب وفضله
٣٩١	الفصل الثاني: في الشيب وفضله
٣٩٥	الفصل الثالث: في العافية والصحة
٣٩٦	الفصل الرابع: في أخبار المعمرين في الجاهلية والإسلام
٣٩٧	الباب التاسع والأربعون: في الأسماء والكنى والألقاب وما استحسنت منها
٤٠٣	الباب الخمسون: في الأسفار والاعتراب وما قيل في الوداع والفراق وغيرها
٤١١	الباب الحادي والخمسون: في ذكر الغنى وحب المال والافتخار بجمعه
٤١٩	الباب الثاني والخمسون: في ذكر الفقر ومدحه
٤٢١	الباب الثالث والخمسون: في ذكر التلطف في السؤال وذكر ما سئل فجاد
٤٢٨	الباب الرابع والخمسون: في ذكر الهدايا والتحف وما أشبه ذلك
٤٣١	الباب الخامس والخمسون: في العمل والكسب والصناعات والحرف وما أشبه ذلك
٤٣٦	الباب السادس والخمسون: في شكوى الزمان وانتقابه، وفيه ثلاثة فصول
٤٣٦	الفصل الأول: في شكوى الزمان وانتقابه بأمله
٤٤٠	الفصل الثاني: في الصبر على المكاره ومدح الثبت وذم الجزع
٤٤٨	الفصل الثالث: في التأسي في الشدة والتسلي عن نوائب الدهر
٤٥١	الباب السابع والخمسون: في اليسر بعد العسر، الفرج بعد الشدة

- ٤٥٩ الباب الثامن والخمسون: في ذكر العبيد والإماء والخدم وفيه فصلان
- ٤٥٩ الفصل الأول: في مدح العبيد والإماء والاستيلاء بهم خيراً
- ٤٦٠ الفصل الثاني: في ذم العبيد والخدم
- ٤٦٢ الباب التاسع والخمسون: في أخبار العرب الجاهلية وأوابدهم، وذكر غرائب من عوائلهم
- ٤٦٧ الباب الستون: في الكهانة والقيافة والزجر والعراقة والفأل وغيرها
- ٤٧٨ الباب الحادي والستون: في الحيل والخدائع المتوصل بها إلى بلوغ المقاصد واليقظ والتبصر
- ٤٨٦ الباب الثاني والستون: في ذكر الدواب والوحوش والطير والهوام والحشرات وغيرها
- ٥٢٥ فصل: في خواص الطير والحيوان على الإجمال
- ٥٢٦ الباب الثالث والستون: في ذكر نبذة من عجائب المخلوقات وصفاتهم
- ٥٣١ الباب الرابع والستون: في خلق الجان وصفاتهم
- ٥٣٢ فصل: في مكايده لعنه الله
- ٥٣٢ فصل: في المتشيطنة وهم أنواع كثيرة
- ٥٣٥ الباب الخامس والستون: في ذكر البحار وما فيها من العجائب إلخ، وفيه فصول
- ٥٣٥ الفصل الأول: في ذكر البحار
- ٥٣٩ الفصل الثاني: في ذكر الأنهار والآبار والعيون
- ٥٤٠ الفصل الثالث: في ذكر الآبار
- ٥٤٢ الباب السادس والستون: في ذكر عجائب الأرض، وما فيها من الجبال والبلدان إلخ، وفيه فصول
- ٥٤٢ الفصل الأول: في ذكر الأرض وما فيها من العمران والخراب
- ٥٤٢ الفصل الثاني: في ذكر الجبال
- ٥٤٣ الفصل الثالث: في ذكر المباني العظيمة وغرائبها وعجائبها
- ٥٤٧ الباب السابع والستون: في ذكر المعادن والأحجار وخواصها
- ٥٥١ الباب الثامن والستون: في الأصوات والألحان وذكر الغناء وغيرها
- ٥٥١ فصل: في الصوت الحسن
- ٥٥٧ الباب التاسع والستون: في ذكر المغنين والمطربين وأخبارهم وغيرها
- ٥٦٣ الباب السبعون: في ذكر القينات والأغاني
- ٥٧٠ الباب الحادي والسبعون: في ذكر العشق ومن يلي به، وفيه فصول
- ٥٧٠ الفصل الأول: في وصف العشق
- ٥٧٢ الفصل الثاني: فيمن عشق وعف والافتخار بالعفاف
- ٥٧٧ الفصل الثالث: في ذكر من مات بالحب والعشق
- ٥٨٤ الباب الثاني والسبعون: في ذكر رقات الشعر والمواليا والدوييت وكان وكان، وفيه فصول

٥٨٤	الفصل الأول: في الشعر
٦٣٢	فصل في ذكر أرباب الصنائع والحرف والأسماء وما أشبه ذلك
٦٣٩	فصل في الألفاظ
٦٤٤	فصل في بيان الفن الثاني وهو الموشح
٦٤٩	فصل في الفن الثالث وهو الدوييت
٦٥٠	فصل في الفن الرابع وهو الزجل
٦٥٦	الفن الخامس: في المواليا
٦٥٨	الفن السادس: كان وكان
٦٦٠	الفن السابع: في القوما
٦٦٣	الباب الثالث والسبعون: في ذكر النساء وصفاتهن ونكاحهن، وفيه فصول
٦٦٣	الفصل الأول: في النكاح وفضله والترغيب فيه
٦٧١	الفصل الثاني: في صفات النساء المحموده
٦٧٢	الفصل الثالث: في صفة المرأة السوء نعوذ بالله تعالى منها
٦٧٣	الفصل الرابع: في مكر النساء وغدرهن وذمهن ومخالفتهن
٦٧٥	الفصل الخامس: في الطلاق وما جاء فيه
٦٧٨	الباب الرابع والسبعون: في تحريم الخمر وذمها والنهي عنها
٦٨١	الباب الخامس والسبعون: في المزاح والنهي عنه، وفيه فصول
٦٨١	الفصل الأول: في النهي عن المزاح
٦٨١	الفصل الثاني: في الترخيص في المزاح والبسط والتعم
٦٨٤	الباب السادس والسبعون: في النوادر والحكايات، وفيه عشرة فصول
٦٨٤	الفصل الأول: في نوادر القراء العرب
٦٨٨	الفصل الثاني: في نوادر القراء والفقهاء
٦٨٨	الفصل الثالث: في نوادر القضاة
٦٩٠	الفصل الرابع: في نوادر النحاة
٦٩١	الفصل الخامس: في نوادر المعلمين
٦٩٢	الفصل السادس: في نوادر المتنبئين
٦٩٣	الفصل السابع: في نوادر السؤال
٦٩٤	الفصل الثامن: في نوادر المؤذنين
٦٩٤	الفصل التاسع: في نوادر النواتية
٦٩٥	الفصل العاشر: في نوادر جامعة

٦٩٧	الباب السابع والسبعون: في الدعاء وآدابه وشروطه وفيه فصلان
٦٩٧	الفصل الأول: في الدعاء وآدابه
٦٩٩	الفصل الثاني: في الأدعية وما جاء فيها
٧٠٨	الباب الثامن والسبعون: في القضاء والقدر وأحكامه والتوكل على الله عز وجل
٧١٣	الباب التاسع والسبعون: في التوبة والاستغفار
٧١٦	الباب الثمانون: في ذكر الأمراض والعلل والطب والدواء وغيرها، وفيه فصول
٧١٦	الفصل الأول: في الأمراض والعلل، وما جاء في ذلك من الأجر والثواب
٧١٦	الفصل الثاني: في ذكر العلل كالبخار والعرج وغيرها
٧١٨	الفصل الثالث: في التداوي من الأمراض والطب
٧٢٢	الفصل الرابع: في العيادة وفضلها
٧٢٤	الباب الحادي والثمانون: في ذكر الموت وما يتصل به من القبر وأحواله
٧٢٨	الباب الثاني والثمانون: في الصبر والتأسي والتعازي والمراثي وغيرها. وفيه فصول
٧٢٨	الفصل الأول: في الصبر
٧٣٠	الفصل الثاني: في التعازي والتأسي
٧٣٣	الفصل الثالث: في المراثي
٧٤٠	الباب الثالث والثمانون: في ذكر الدنيا، وأحوالها وتقلبها بأهلها والزهد فيها
٧٤٩	الباب الرابع والثمانون: فيما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ
٧٥٤	المصادر والمراجع
٧٥٧	فهرس الموضوعات

ISBN 9953-446-74-1



9 789953 446745 90000



دار المعرفة
للطباعة والنشر

هاتف : 834301 - 834332 - 858830

فاكس : 835614 ض.ب. 11/78/6 بيروت - لبنان

البريد الإلكتروني : e-mail: info@marefah.com

www.marefah.com